الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ وعلم الآثار
شعبة الثقافة الشعبية تخصص أدب شعبي

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه
في الأدب الشعبي بعنوان:

كعبة الطائفين و بهجة العاكفين
في الكلام على قصيدة حزب العارفين (ج1)
لمحمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجازولي (ق 17 م)
- تقديم وتحقيق-

إعداد الطالب:
قيداري قويدر

إشراف الأستاذ الدكتور:
- شايف عكاشة

لجنة المناقشة:

- أ.د/ أوشاطر مصطفى .... أستاذ التعليم العالي/جامعة تلمسان .... رئيسا
- أ.د/ شايف عكاشة .... أستاذ التعليم العالي/جامعة تلمسان .... مشرفا ومقررا
- أ.د/ مقنونيف شعيب .... أستاذ التعليم العالي/جامعة تلمسان .... مناقشا
- أ.د/ الغماري مصطفى............. أستاذ التعليم العالي/جامعة غرداية .... مناقشا
- د/ العبيدي عبد الله .... أستاذ محاضر -أ- /جامعة البليدة........... مناقشا
- د/ جعفري أحمد .... أستاذ محاضر -أ- /جامعة أدرار .... مناقشا

السنة الجامعية 2013/2012

شكـــــــر

و إن كانت من كلمة أخيرة أسوقها بين دفتي هذا البحث فهي الإقرار بالشكر والعرفان:

- إلى أستاذي المشرف الدكتور شايف عكاشة الذي تجشم عناء الإشراف على هذا العمل، عرفانا له وتقديرا لرحابة صدره، وجميل حلمه، وبما أسداه لنا من نصائح وتوجيهات قيمة طوال مدة البحث.

- إلى الأستاذ الفاضل أحمد بن صفية – رحمه الله –الذي أهداني نسخة من المخطوط، موضوع هذه الدراسة، عرفانا له على ما قدمه من جهد خالص في إحياء تراثنا الجزائري.

إهــــــــــداء

إلى والدي الكريمين حبا واعترافا وتقديرا

إلى زوجتي وابني مرتضى

إلى أخواتي

مقدمة

مقدمـــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه وسلم،

وبعد:

تحتل مدينة تلمسان مكانا متميزا في قلب كل جزائري، فهي دار علم وفقه وتصوف وسياسة، وهي لذلك إحدى الحواضر الإسلامية الشهيرة، وقد أسهم أبناؤها بقسط وافر في نشر الثقافة العربية الإسلامية في مناطق مختلفة من المعمورة، منهم من تبوأ أعلى المراتب العلمية.

وقد أهّلها موقعها الاستراتيجي -باعتبارها ملتقى الصحراء بالتل- وواجهتها البحرية، لتكون دوما مرسى السفن الأندلسية، وممر التجار والملوك والأمراء، ومحط الرحال والترحال ومقصد العلماء والرجال، فكانت منذ القديم غاية العلماء وقبلة الصالحين، يكاد العلم ينبع من أضرحة علمائها ومقامات أوليائها ومزارات صلحائها الذين تستضيء مدينة تلمسان بأنوارهم ومآثرهم وعبق عرفانهم وعبير حكمهم.

ومن معدن هؤلاء الصالحين الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بـ " الجزولي" مؤلف كتاب «كعبة الطائفين» الذي نتشرف كثيرا بتقديمه ودراسته وتحقيقه، وإحياء نصه التراثي ووضعه بين يدي القراء والباحثين من خلال هذا العمل الأكاديمي.

وجدير بالذكر أن منطلق كتاب «كعبة الطائفين» قصيدة شعرية شعبية صوفية، نظمها شيخ المؤلف موسى بن علي اللالتي، أحد صوفية تلمسان وشعرائها في القرن (11هـ/17م)، سماها ناظمها قصيدة " حزب العارفين"، عهد بها إلى تلميذه محمد بن سليمان وأكد عليه بكتابتها وحفظها وتدبيجها بشرح يقرب معانيها ويكشف غوامضها ويبرز جواهرها.

يمثل **كتاب «كعبة الطائفين»** اهتمام أهل تلمسان بكتابة تاريخهم ومآثر أعلامهم وتدوين ثقافتهم الصوفية وأدبهم الشعبي في فترة من فترات تاريخ الجزائر العثمانية، وتحديدا في بحر القرن (11هـ/17م) الذي اتّسم عموما بالاضطراب السياسي والاجتماعي والركود العلمي وقلة الإنتاج والكتابة، والكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء ضخام، سنعكف من خلال هذا الجهد على تقديم الجزء الأول منه وتحقيقه، وهو يقع في ستمائة وثلاث عشرة صفحة (613ص)، خصصه مؤلفه للحديث عن أهل الصلاح، والجزء الثاني أفرده لذكر أهل الطلاح، أما الجزء

الثالث فانبرى فيه لذكر أهل الصلاح المتحققين أو كما سماهم " حزب العارفين"، ويشار هاهنا أنه أمضى في تصنيف كتابه قرابة عشرين سنة.

– أما من **حيث مضمون الكتاب**، فقد تعرض المؤلف محمد بن سليمان في سياق شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي " حزب العارفين " إلى موضوعات مختلفة، فبالإضافة إلى المقصد الأول للكتاب وهو التصوف والمناقب والتراجم ، يمثل خزانة علمية في مجالات عديدة، منها: الأدب الشعبي، التاريخ، الفقه، التفسير، العقيدة، علم الكلام، الأنثروبولوجيا، السياسة، العمران..

– أما من حيث **القيمة العلمية للكتاب**، فيمكننا تقسيمها إلى قسمين: قسم نستطيع القول أنه لم يأت فيه المؤلف بجديد، فهو عبارة عن نقول واقتباسات عمن سبقه – خاصة من المصادر الصوفية والدينية –، وقسم سجل فيه مادة تاريخية وأدبية – الأدب الشعبي، الأحداث، التراجم المحلية – ورصد فيه بعض مشاهداته وآرائه فيما يخص الأحداث والقضايا التي عاصرها وتفاعل معها، ومن هنا تأتي قيمة كتاب «كعبة الطائفين» في نظرنا، وهذا القسم هو الذي يضفي على الكتاب أهمية خاصة.

من حيث المادة التاريخية، يتناول الكتاب فترة طويلة من تاريخ الجزائر في ظل الحكم العثماني (ق17م) لاسيما في تلمسان والنواحي الغربية لبلادنا بعامة، هذه الفترة التي تتميز في نظر كثير من المؤرخين بنقص الكتابات حولها وحول أعلامها، في هذا الصدد أشار الكتاب إلى ثورتي أهالي تلمسان ضد السلطة التركية (1035هـ و1037هـ)، وذكر الكوارث (الوباء) التي فتكت بكثير من أعلام تلمسان وساكنتها، كما يقدم الكتاب صورة واضحة عن أعلام تلمسان (صوفية وفقهاء) في (ق17م).

فإذا تجاوزنا المادة التاريخية التي يتضمنها الكتاب إلى النظر فيما يتصل بالأدب الشعبي الجزائري، فهو يمثل سجلا حيا وضخما لتراثنا الشفوي في هذا القرن (الشعر الشعبي ذو النزعة الصوفية، الأمثال الشعبية، الحكايات الشعبية الصوفية "الكرامات، المرائي" ...)

أما من حيث المادة الصوفية، فكتاب «كعبة الطائفين» معدود أصلا في طليعة كتب التصوف والمناقب، فهو معرض للمصادر الصوفية المحلية منها والإسلامية بعضها لا يزال مفقودا أو غير محقق، وللممارسات الصوفية (حلقات الحضرة "مجالس السماع الصوفي"، الأوراد والأحزاب والمناجاة الصوفية، والأسانيد العلمية والصوفية...)

ومن حيث المادة الثقافية، يقدم الكتاب مادة مهمة للباحثين في مجال الحركة الثقافية والعلمية في (ق17م)، إذ يشير إلى طبيعة النشاط العلمي والديني بتلمسان، وإلى دور المؤسسات الدينية والتعليمية، والمصنفات الصوفية والدينية المتداولة بين أهل العلم، والكتب المقررة التي كان يتداولها طلبة العلم.

أما على المستويين الاجتماعي والأنثروبولوجي، يتضمن الكتاب معلومات عن تركيبة المجتمع التلمساني بإيجابياتها وسلبياتها، وبعض عوائدهم وأسلوب حياتهم، وشيئا من لهجتهم ولباسهم وأطعمتهم وحرفهم وقبائلهم، ويسجل لنا أيضا مدى ارتباط المجتمع التلمساني بأوليائه وعلمائه، كما يطلعنا بدور هؤلاء الشيوخ في مجال التكافل الاجتماعي.

كما يقدم الكتاب وصفا واضحا للجوانب العمرانية في تلمسان: زقاق المدينة ودروبها، مساجدها وزواياها، وأضرحة أوليائها ومقاماتهم، منها ما اندرس اليوم وأصبح أثرا بعد عين (مقبرة باب الجياد مثلا). ويعطي تحديدا لمواقع بعض المرافق التعليمية والصوفية والسياسية والاقتصادية...

وكان من ضمن أهم **الأسباب الذاتية** التي دفعتني إلى تبني هذا الموضوع ما يلي:

إن صلتي بموضوع التصوف طويلة ومتينة، فقد كانت لعائلتي وأقاربي صلات روحية بالتصوف وأهله، فنشأت في حداثتي وأنا أشاهد حرص أسرتي على كل ما له صلة بالتصوف ورجاله، بل كثيرا ما كان منزلنا نفسه مجلسا لحلقات الحضرة وفقراء الصوفية ومقاديمهم.

وفي أثناء إعدادي لمذكرتي الليسانس والماجستير،–اللتين تناولتا موضوع التصوف ومناقب رجاله بتلمسان – كنت كثير التردد على كتاب أ/ أبو القاسم سعد الله الموسوم بـ «تاريخ الجزائر الثقافي (ج1)» وشدّني إليه كثرة استشهاده واسترشاده بنصوص كتاب «كعبة الطائفين»، فسعيت للحصول على نسخة منه، وقد زاد اهتمامي بهذا الكتاب إيراده لسيرة بعض أجدادي وإسهاماتهم في الحركة الثقافية بتلمسان في ق17م[1]، ومن هنا كانت مطالعتي الأولى للكتاب من باب معرفة الجذور، اقتداءً بسيرهم، ومعرفة لمنزلتهم ومقدارهم، وأداء حقّ أُبُوَّة على بُنُوَّة.

أما **الأسباب الموضوعية** التي دفعتني إلى إحياء هذا النص التراثي فتتمثل فيما يلي:

[1] لاسيما سيدي عبد الرحمن وأخيه سيدي الجيلالي ابني سيدي يحي بن صفية جد قبيلة أولاد نهار بتلمسان، و قد كان الثاني واحدا من الشيوخ الذين أخذ عنهم وانتفع بهم المؤلف محمد بن سليمان صاحب كتاب «كعبة الطائفين».

- جمع مخطوطاتنا وتراثنا الوطني المبعثر في مكتبات العالم صيانة لهويتنا وحفظا لذاكرتنا، فالبحث من هذه الجهة يندرج في سياق المساهمة ولو بقدر يسير في رفع الحجب عن تاريخنا وتراثنا.
- كثرة ما تردد فيه من الأعلام بتلمسان في (ق17م) وضياع تاريخ معظم من عرف منهم بالعلم والصلاح وإهمال الترجمة لهم، واندراس زواياهم ومقاماتهم وأضرحتهم وآثارهم الأدبية والفكرية.
- رغم الدراسة التي قدمها أ/ أبو القاسم سعد الله حول هذا الكتاب، بقي النص الأصلي مغمورا غير متداول بين الباحثين، ولم يقع النقل منه على حدّ علمنا، فهو من المؤلفات التي كان يُسمع بها ولا يرى لها أثر في مكتباتنا، أو كانت مجهولة العين والأثر بالمرة، فدعاني ذلك إلى إخراج نص الكتاب وتحقيقه تحقيقا علميا لأهمية المادة التي يحتويها الكتاب (تاريخيا وصوفيا وأدبيا...) وإثراء لتراثنا الثقافي وإضافة جديدة في سلسلة مصادرنا الجزائرية.

يمكننا أن نضع كتاب «كعبة الطائفين» في المرتبة الثانية من حيث الأهمية ضمن المصادر الجزائرية التلمسانية التي ترصد الحركة الصوفية وأعلامها (كتب التصوف والتراجم والمناقب) في القرن (11هـ/17م)، فهذا النوع من التأليف يكمل ما ورد في كتاب «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لابن مريم المليتي المديوني التلمساني الذي وقف من حيث رصد الحركة الصوفية بتراجمها ومناقبها عند عتبة القرن (10هـ/16م).

عندما عزمت على تحقيق الكتاب كان أول عمل قمت به هو **البحث عن نسخه** في فهارس المكتبات العربية والأجنبية، فتحصلت على أول نسخة مصورة، وهي نسخة المكتبة الوطنية بباريس، عن طريق الأستاذ الجليل أحمد بن صفية –رحمه الله– قبل وفاته، وشجعني على تحقيقه وحضني على ذلك –جزاه الله عنا وعن العلم خيرا–، ومن محاسن الصدف أن نسخة باريس هذه كانت هي النسخة الكاملة (النسخة الأم).

وقد تمكنت لاحقا من الحصول على ثلاثة نسخ أخرى، حيث سافرت في المرة الأولى إلى المغرب فتحصلت على نسخة مصورة (توجد ضمن مجموع) من المكتبة الوطنية بالرباط (الخزانة العامة سابقا)، ثم دخلت مصر فعثرت على نسخة للمخطوط بدار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة (نسخة مصورة ضمن مجموع)، والنسختان الأخيرتان متشابهتان ومتطابقتان إلى حدّ بعيد، وكأنهما نقلا عن مصدر واحد، أما النسخة الرابعة والأخيرة، فتحصلت عليها عبر الإنترنيت من مكتبة جامعة الملك سعود (قسم المخطوطات)، وهي نسخة رديئة ومهترئة، خطها دقيق وغير واضح، وتصعب قراءته بالمرة، ولم نعتمد عليها إلا في حدود ضيقة جدّا.

وقد انتهجنا في التحقيق بعد حصولنا على النسخ المذكورة على مقابلة بعضها ببعض، فاتضح لنا أن نسخة باريس أوفى النسخ وأكملها وأفضلها، وأقلها تصحيفا وتحريفا وسقطا[1]، كما أن تاريخ نسخها متقدم على نسختي الرباط (ب) والرياض (د)، وليست بعيدة زمنيا عن نسخة القاهرة(ج)، لأنهما نسخا في قرن واحد (ق19م).

لاحظنا سقوط كثير من العبارات والنصوص والروايات في النسخ الثلاثة الأخرى، كما يتم التصرف فيها بصياغة كثير من العبارات والكلمات، بعبارات أخرى أو كلمات مرادفة لتلك الموجودة في نسخة (أ)، وأحيانا لا تكون ذات فائدة تذكر، إذ لا تزيد المعنى شيئا.

وعليه اتخذنا نسخة باريس (أ) أصلا لتحقيق الكتاب، فنقلنا منها المتن، واستعنا بالنسختين الأخريين نسختي (ب) و(ج) لتجلية النص، وتقويم ما اعترى الأصل من أخطاء مختلفة، وإكمال بعض السقط فيه على قلّته، وقمنا بضبط ما وجدناه من اختلاف بين النسخ وبين الأصل في الهوامش، وكنا نشير إلى السقط في الهوامش أيضا، أما نسخة الرياض فكنا لا نعود إليها إلاّ نادرا، كمحاولتنا إقامة بعض السقط، أو استبيان بعض الكلمات أو العبارات غير الواضحة أو المطموسة في النسخ الأخرى، نتيجة خروم أو مداد...

قمنا بعد ذلك بتقسيم المخطوط إلى فصول وعناوين للإيضاح وزيادة الفائدة، وأبرزنا الفقرات حسب المعنى، وقد كان قبل ذلك نصا واحدا متصلا في الغالب الأعم، ووضعنا علامات الترقيم المناسبة في مكانها لتسهيل القراءة، وميزنا أبيات القصائد (الفصيحة منها والشعبية) حيث كان كثيرا ما يكتبها الناسخ على شكل نص منثور، دون تمييز الشطر الأول من الثاني، ثم قمنا بضبطها تيسيرا للقراءة، وقد تصرفنا في الرسم الإملائي طبقا للقواعد المتبعة في الكتابة العصرية في حدود لا تمس مضمون الكتاب، دون أن نشير لذلك في الهامش.

حذفنا بعض الكلمات أو العبارات المكررة التي تسرّبت إلى الكتاب سهوا من المؤلف أو الناسخ، وكنا نجتهد في إتمام البياض في الصفحات، ولم نكن نفعل ذلك إلاّ بعد تدقيق وتوثيق، مع الإشارة إلى ذلك في الهامش، من أمثلة ذلك: « روي أن أبا [بياض] الشبلي قال:.. »، الكلمة الساقطة هنا هي: [بكر].

في الكتاب جملة من الألفاظ العامية الجزائرية، قد يستغلق فهمها على البعض، قمنا بشرحها في الهوامش شرحا مقتضبا، وشرحنا أيضا بعض الكلمات المستعصية من الفصيح، بالاعتماد على بعض معاجمنا العربية.

[1] النسخ الثلاثة الأخرى كلها مبتورة الآخِر، وفيها كثير من السقط، وهي أشبه ما تكون بالتلخيص لنسخة باريس (أ).

كما وردت في الكتاب طائفة لا بأس بها من المصطلحات الصوفية، فشرحنا في الهوامش ما كان يتطلب الشرح توضيحا للمعنى الصوفي، واعتمدنا في شرحها على المعاجم المتخصصة حينا، وعلى كتب القوم (التصوف) حينا آخر.

فيما يخص التراجم، يمكننا أن نميز بين نوعين، أعلام مشهورة كنا أحيانا نشير إلى المصادر والمراجع التي ترجمت لها بشكل مختصر وسريع، وهناك زمرة من الأعلام (خاصة المحليين منهم، الذين عاشوا زمن القرن 11هـ/17م)، اجتهدنا في التعريف بهم في حدود ما وجدناه متاحا من كتب ومراجع، وإن كان كتاب " كعبة الطائفين" نفسه مصدرا مهما سيعوّل عليه الباحثون مستقبلا لتجلية هذا الجانب من تاريخنا، وتراجم مشايخنا وعلمائنا في تلك الفترة.

وعرّفنا ببعض الأماكن الجغرافية، وقد ذكر المؤلف طائفة من أسماء الأماكن (الطوبونيمات) المتعلقة بأحياء مدينة تلمسان، وقد وجدنا أن معظم تلك الأماكن مازالت تحمل الأسماء نفسها التي ذكرت بها في الكتاب (باب الجياد، المشور، سيدي السنوسي، العبّاد، أوزيدان، أجادير، بوهناق).

ثم قمنا بتخريج النصوص، فبدأنا بالنصوص الدينية (الآيات والأحاديث)[1] حيث بيّنا مواضع آي الذكر الحكيم من السور في المتن وذلك لكثرة ورودها أولا، ولربح الحيز في الهامش ثانيا لضخامة المخطوط، وأتممنا ما لم يكن تاما منها، وخرّجنا الأحاديث الشريفة، إلّا ما لم نعثر عليه في كتب السنن المعروفة، رغم كثرتها وتنوعها بين الصحيح والموضوع والضعيف، فربما كانت تلك الأحاديث موضوعة أو هي من كلام السلف المأثور؛ خاصة أن الصوفية عرف عنهم التساهل في الاستشهاد بالضعيف من الأحاديث في فضائل الأعمال، ثم وثّقنا ما استطعنا الوصول إليه من النصوص (الشعرية[2] والنثرية) برجوعنا إلى مظانها (الدواوين والمصادر الصوفية) تحديدا، كما عدنا إلى كتب التراجم الجزائرية والإسلامية، فالكتاب كما أشرنا متعدد الموضوعات والنقول، لذلك حاولنا جهدنا أن نعود إلى عدد من تلك المصادر للتأكد من سلامة النص وأمانة المؤلف ولتصويب ما كان خاطئا منها [3].

من بين مصادر المؤلف التي عدنا إليها نورد منها على سبيل الذكر:

---

[1] هذه النصوص كثيرة لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات الكتاب، ولا غرابة في ذلك فالمؤلف محمد بن سليمان كان إماما في باب الجياد بتلمسان، حافظا لكتاب الله بروايتي ورش وقالون — ختمه ثماني مرات رسما وأداء – وكان أيضا متمكنا من متون الحديث النبوي الشريف.

[2] عدنا في هذا الصدد إلى كثير من المصادر لتوثيق النصوص الشعرية، خاصة الصوفية منها، فنسبنا ما وجدناه متاحا إلى أصحابها إذا وردت بغير نسبة، وصوّبنا ما كان خاطئا منها، نقلا من الدواوين، وقد استشهد المؤلف في هذا المقام بكثير من شعر ابن الفارض.

[3] حينما كنا نستشعر أن الكلام غير مسلّم به، كنا نستعين بمصادر المؤلف المتاحة لتصويب المسألة في الهامش، وكنا نبقي على عبارة المؤلف على حالها في المتن، وجدير بالذكر أن كتاب "كعبة الطائفين" ذو طابع تجميعي بحت، معظم جزئياته ومسائله مأخوذة من مصادر أخرى، والرجوع إلى كل تلك المصادر عمل شاق، فالكتاب لا يشذ عن روح العصر (ق11هـ/17م)، الذي اتسم شيوخه بكثرة الشروح لتراث القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

- "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي
- "قواعد التصوف" لأحمد زرّوق
- " قطب العارفين في العقائد والتصوف" اللجائي أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف
- " ديوان ابن الفارض"
- "الحكم العطائية"، لابن عطاء الله السكندري، (شرح ابن عباد النفزي الرُّندي)..

وقمنا بوضع مجموعة من الرموز لتسهيل الاطلاع على الكتاب وتيسير عملنا، مثل:

- (أ) نسخة باريس.
- (ب) نسخة الرباط.
- (ج) نسخة القاهرة.
- (د) نسخة الرياض.
- القوسين المزهرين [] للدلالة على الآيات القرآنية
- المزدوجتين «» للدلالة على الأحاديث الشريفة، وأسماء الكتب الواردة في المتن
- المعكوفتين [ ] للدلالة على ما زيد في الأصل، ولتحديد الخروم والبياض في الأصل أيضا.
- القوسين ( ) للدلالة على السقط في النسخ الأخرى، وتحديد مواضعه في الأصل.

وعليه، قسمنا عملنا إلى ثلاثة أقسام:

- قسم الدراسة: تعرضنا فيه للحديث عن المؤلف وكتابه -من حيث الشكل والمضمون-، ولعلنا نكون قد أسهبنا في هذا الجانب، وذلك لإعطاء لمحة واسعة ومعمقة عن المؤلف ومصنّفه؛ خصوصا أنه لم ينشر شيء -تقريبا- عن حياته إذا استثنينا العمل الذي قدمه أ/ أبو القاسم سعد الله حول هذه الشخصية - كما أشرنا- وختمناه بعرض نماذج للنسخ المعتمدة.
- قسم التحقيق: خصصناه لإخراج نص الكتاب مضبوطا محققا، وذيّلناه بخاتمة وثبت للمصادر والمراجع التي كانت معتمدنا في هذا العمل.
- قسم الفهارس: حيث قمنا بإثراء الكتاب بمجموعة من الفهارس التي تضبط الكتاب، وتيسر الاستفادة منه، ليسهل إيصال المعلومة المبتغاة إلى القارئ، وفي هذا الصدد قمنا بترتيب المواد المفهرسة ترتيبا ألفبائيا ثم رتبناها بحسب ورودها في المتن، وعليه صنفنا الفهارس إلى ما يلي:
  - فهرس الأعلام والقبائل والأمم؛
  - فهرس الأماكن والمواضع والبلدان؛
  - فهرس أسماء الكتب الواردة في الكتاب؛
  - فهرس الأمثال العربية (الفصيح منها والشعبي)؛
  - ثم ختمت ذلك بفهرس عام للموضوعات.

ولعل **الصعوبة التي واجهتني في تحقيق هذا الكتاب** في جزئه الأول تعود إلى:

- ضخامة الكتاب، فقد بلغت عدد صفحات الجزء الأول موضوع هذه الدراسة أكثر من ستمائة صفحة، معدل عدد السطور في كل صفحة خمسة وعشرون سطرا، وكان هذا مصدر تعب شديد وإهدار لوقت مديد، لا يحس به إلّا من كابده.
- تعدد موضوعات الكتاب وتشعبها، تصوف، فقه، حديث، عقائد، تراجم، علم الجداول وأسرار الحروف..
- كثرة الاستطرادات الطويلة والثقيلة.
- صعوبة رسم وضبط النصوص الشعرية الشعبية لورودها بلهجة محلية، ذلك أن المحقق مطالب بالمحافظة على أداء النطق الصحيح لها، وهذا أمر محفوف بالمزالق.

وأخيرا، لقد بذلنا جهدا مضنيا لاستخراج نص أقرب ما يكون إلى النص الأصلي، متمثلين بخُلّتين أساسيتين أفادنيها شيوخ علم التحقيق، هما الصبر والأمانة، ومقصدنا من وراء ذلك مرضاة الله عز وجل ومنشدنا الإسهام في دعم البحث في تاريخ الجزائر وتراثها.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.   تلمسان في2013/05/12

قسم الدراسة

قســـــــم الـدراســــــــة

المؤلـــــف وكتـــــــابــــه

الفصل الأول:المـؤلـف وعصـره، والأصول الخطية لكتابه

- **المبحث الأول: المـؤلـف**
- **المبحث الثاني: عصـــره**
- **المبحث الثالث: الأصول الخطية للكتاب**

الفصل الثاني: الكتـــاب: الجوانب الفنية والموضوعية:

- **المبحث الأول: لغة الكتاب ومنهجه**
- **المبحث الثاني: مضمون الكتاب وقيمته ومصادره**

الفصل الأول: المـؤلـــف وعـصــــره، والأصول الخطية لكتابه

المبحث الأوّل: المؤلف "محمد بن سليمان الصائم التلمساني" الملقب ب"الجزولي"

لم نعثر على ترجمة محمد بن سليمان الصائم التلمساني، صاحب كتاب "كعبة الطائفين"، في كتب التراجم الكثيرة التي عُدنا إليها ونقّبنا فيها [1]، غير أنه ورد اسمه مقرونا بكتابه السالف دون ترجمة في كتاب "إيضاح المكنون"[2]، ولا نكاد نعرف أحدا ترجم لمحمد بن سليمان أو حاول أن يترجم له، إذا استثنينا العمل الذي قدّمه د/ أبوالقاسم سعد الله حول مخطوط "كعبة الطائفين" ومؤلِّفِه[3].

وعليه سوف نترجم له اعتمادا على ما أورده المؤلف محمد بن سليمان نفسه من معلومات متناثرة في صفحات كتابه بأجزائه الثلاثة، فقد ذكر اسمه ونسبه ولقبه وتاريخ ولادته ومساره العلمي وشيوخه...

1- مولده ووفاته:

يفيدنا المؤلف محمد بن سليمان في آخر الجزء الثالث من كتابه "كعبة الطائفين" أنه من مواليد سنة 1014هـ/1605م، حيث يقول متحدثا عن نفسه: «..ثم حين وُلِدتُ عنده أتى بي – أي والده – إلى شيخه سيدي عاشور..، وأحسبه قال: مسح بيده على رأسك وبصق في فيك*، وفي تلك السنة توفي الشيخ المذكور، وهي سنة أربعة عشر وألف»[4].

ويبدو أن والد المؤلف كان يرغب في الولد، فالتمس وهو في الصحراء من الولي سيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ)[5] الدعاء وتحقيق المراد، فكان له ما أراد، وفي هذا يقول المؤلف على لسان والده:

---

[1] نورد من ذلك عل سبيل المثال:

-أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1 ،ج2 ، موفم للنشر ، الجزائر ،دط ، 1991.

-عادل نويهض، أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط3، 1989.

[2] ينظر: إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار احياء التراث، بيروت، دط، دت، ص: 270.

[3] قدم أبو القاسم سعد الله دراسة أولى عن المخطوط موسومة ب "كعبة الطائفين، مخطوط جزائري من القرن السابع عشر"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد7-8، جانفي 1977، ص: 61 – 68. ونفس الدراسة – تقريبا- قدمها عن المخطوط أيضا في كتابه: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص:159-175. ثم قدم ثالث دراسة عن الكتاب بعد حصوله على نسخة باريس(نسخة كاملة)، كانت بعنوان: الجديد عن كتاب "كعبة الطائفين"، في كتابه" أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990، ص: 209-230، وفي كل الحالات فقد حاول أبو القاسم سعد الله أن يضفي أضواء على حياة محمد بن سليمان انطلاقا من مخطوطه.

* بصق، أي تفل في فمه، عبارة تعني أن الشيخ دعا له و منحه بركته.

[4] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ،ج3، ص: 264.

[5] هو سيدي عبد القادر بن محمد بن سيدي سليمان بن أبي سماحة، المدعو سيدي الشيخ، جد أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي لبلادنا، وصاحب المنظومة المشهورة في التصوف المسماة «الياقوتة»، ومؤسس الطريقة الشيخية، ولد حوالي 1533م وتوفي سنة 1616م.

ينظر: – عبد القادر بن محمد (سيدي الشيخ)، الياقوتة في التصوف، المطبعة المركزية، وجدة، المغرب، دط، دتا، ص: 6-7-8

-Louis Rinn- Marabouts et khouan- Etude sur l'islam en Algérie, Adolf Jourdan, Librairie éditeurs-Algérie-1884,pp. 349-351.

«زرت الشيخ السماحي سيدي عبد القادر بن محمد أنا وسيدي أحمد بن عبد الغفار وهو في الصحراء، فسألته عِمَارَة الدار، فقال لي: يُعطيك الله ولدين يقرآن القرآن العظيم، فكان كذلك والحمد لله».

لا ندري متى توفي المؤلف على وجه التحقيق، ولكن من خلال ما ورد في كتاب «كعبة الطائفين» من إشارات وتواريخ، نستنتج أن المؤلف محمد بن سليمان كان حيا إلى سنة 1066هـ/1656م فهذه السنة هي آخر تاريخ يذكره المؤلف في كتابه[1].

وربما يكون المؤلف قد عاش إلى أواخر القرن 11هـ/17م ، فهو يذكر ذلك صراحة في النص الآتي :«..بل لن تجد في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلّا العقارب واللّفاع »[2]، ربما يقصد المؤلف بالشطر الأخير، الربع الأخير، أو النصف الأخير من القرن 11هـ/17م، أي ما بعد عام 1050هـ/1640م.

2-لقبــــــه:

عُرف المؤلف بـ "الجزولي" تيمنا وتبرّكا بالشيخ الصوفي المعروف صاحب كتاب «دلائل الخيرات» أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، يقول المؤلف متحدثا على لسان والده: «..ثم يوم سابعك – عقيقة المؤلف– قال لي الشيخ الصالح سيدي محمد اليَدّون، وَلَدُ الشيخ البركة سيدي محمد بن رحمة: سَمِّه محمد بن سليمان الجزولي، موافقة لاسم صاحب "دلائل الخيرات"»[3].

وصرح المؤلف كذا من مرة في كتابه بهذه النسبة، من ذلك قوله :«..أنشد الشيخ الكامل سيدي محمد بن سليمان الجزولي رحمه الله ، ونفعنا بتسميتنا عليه.. »[4].

يقول المؤلف محمد المهدي الفاسي متحدثا عن هذه الشخصية الصوفية التي نسب إليها مؤلفنا: كان من العلماء العاملين، والأئمة المهتدين، وممن جمع بين شرف الطين والدين، انتفع به خلق كثيرون وتخرج على يده مشايخ مشهورون، جدّد الطريقة بالمغرب بعد دروس آثارها وخَبْوِ أنوارها، ذكر بعضهم أنه اجتمع من المريدين بين يديه اثنا عشر ألفا وستمائة وخمسة وستون، ويعرف بالجزولي لكونه في عِداد "جزولة"، وهي قبيلة البربر بسوس الأقصى، توفي ساجدا في صلاة الصبح يوم الأربعاء من القعدة الحرام من عام تسعة وستين وثمان مائة للهجرة[5].

- Millad Aissa – Alyaquouta, Poème mystique de sidi Chikh- Essai d'édition critique et étude du texte selon la tradition Soufi entreprise nationale du livre- Alger, 1986, pp. 6-8.

[1] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)ج3، ص: 272

[2] المصدر نفسه، ج1، ص:364

[3] المصدر نفسه، ج3، ص:264

[4] ينظر: المصدر نفسه:(ن أ)ج1، ص: 12، 24، 25 / (ن ب)، ص: 16.

[5] ينظر:

- محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، تحقيق وتعليق: عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، (د دار النشر) المغرب، فاس ط1، 1994، ص:17،16.
- حسن جلاد، سبعة رجال مراكش وأدوارهم السياسية والتربوية والاجتماعية، ردمك، مراكش، ط5، 2007، ص: 35-40
- عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف، ج2، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001، ص: 84-87

3- نسبـــــــه:

ذكر المؤلف أن نسبه عربي حجازي أنصاري، وذكر أيضا أن أحد شيوخه (علي بن سيدي العبدلي) أخبره أن نسبهم من الخزرج، فيما يقول شقيقه محمد القاضي أنهم من قريش، وقد سمع وهو صغير من أمه وأعمامه أن نسبهم ينتهي إلى عامر بن صعصعة، ثم يقطع المؤلف في الأخير بأنه من عرب الحجاز، وفي هذا السياق يقول :«..ذِكرُ ما تفضل به علينا الجواد الكريم من آلائه الجمّة التي لا نحصي لها شكرا ولا نقدر لها قدرا، فأول ذلك أن جعل الله نسبنا عربيا حجازيا أنصاريا، على ما ذكره ولد عمنا سيدي محمد بن محمد بن عيسى المسعودي الحجازي الأنصاري، ناسخ "الخلاصة" و"المرائي"[1]، وكان فقيها نساخا لم أدركه، وهكذا يعرّف بنسبه في كتبه، وزادني السيد علي بن سيدي العبدلي أن نسبنا من الخزرج، وذكر شقيقي وكان مطالعا أننا من قريش، وهم بنو النضير بن كنانة، وسمعت في صغري من أمي ثم من أعمامي يرفعون في نسبهم إلى عامر بن صعصعة ..لكن صح عندي بالثقة والرؤية أنّا من عرب الحجاز..»[2].

ويثبت المؤلف عمود نسبه كالآتي: «فكاتب هذا اسمه محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن مؤمن بن سعيد بن عثمان بن سلطان... الأنصاري»[3].

4-أسرة المؤلـف:

أما عن أسرته، فهناك أخبارا كثيرة متناثرة في صفحات كتابه، تتعلق بوالده، وله فيها حظ وافر، وأمه، وإخوته، ولشقيقه محمد القاضي منهم النصيب الأكبر، وأبناء عمومته...

عاشت أسرة المؤلف بحاضرة تلمسان في القرن11هـ/17م، ويبدو أن والده كان يسكن البادية، واستقر بتلمسان، وكان ميسورا، بل كان من الأغنياء الذين يتخذون لهم الخدم والحشم، وكان ممن ينتسبون لأهل العلم والتصوف.

تزوج والده من ابنة عمه (أم المؤلف)، التي كان يحبها، بعد أن طلقت من رجل آخر، ويخبرنا المؤلف أن والديه قد تابا معا على يد شيخين جليلين :«ثم تزوج أبي لابنة عمّه أمي، على سنة الله ورسوله، وعلى يد شيخه سيدي محمد بن عاشور بن سيدي علي بن يحي السلكوني الراشدي، وعلى يد شيخها سيدي عبد الوهاب بن حميدة السويدي، نفعنا الله بهما، وذلك بعد توبتهما ورجوعهما إلى الله على يدي الشيخين المذكورين...فجمع الله بينهما في الحاضرة، ورفضا البادية»[4].

---

[1] – بالنسبة لكتاب "المرائي"، عنوانه هو" تحفة الناصر ونزهة المناظر" لـ محمد بن عبد الله الفراوسني الزواوي البجائي، من علماء القرن 9هـ/15م، عاش في قسنطينة وتلمسان.. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981، ص: 94./

- أما كتاب "الخلاصة" فأظنه يريد به: "الخلاصة المرضية في الطريقة الصوفية" للمريني، وقد كان من بين مصادر المؤلف في كتابه : "كعبة الطائفين".

[2] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 263-264.

[3] المصدر نفسه،ج3، ص: 264، نسجل في الصفحة الأولى من (ج1) من الكتاب اختلافا بسيطا في بعض الأسماء.

[4] المصدر نفسه ، (ن أ)، ج3، ص: 264

يخبرنا المؤلف أن والده سليمان يلقب بـ (الصائم)،[1] وقد زهد في ثروته وجاهه بعد توبته، وخالط أهل العلم والتصوف، وكرس حياته للقرآن والعلوم الدينية[2]، وحج وجاهد وسهر على تربية ابنه (المؤلف)، تربية دينية صوفية.

في هذه البيئة العائلية الصالحة التي تحترم أهل الولاية والصلاح والعلم، نشأ المؤلف محمد بن سليمان، فكانت نظرته للحياة والرجال تتجه في المقام الأول إلى الجانب الروحي.

كان والد المؤلف ممن يتلقون العلم والتربية الصوفية عن كثير من رموز هذا التيار الصوفي ورجالاته، هذا التيار الذي طبع الحياة الثقافية بطابعه، واكتسح النسيج المجتمعي التلمساني إبان القرن 17م، يقول المؤلف: «سألت أبي رحمه الله عن أشياخه، فقال: أما شيخي في العلوم، فهو الشيخ الإمام الخطيب سيدي محمد بن عاشور بن الولي الصالح سيدي علي بن يحي السلكوني –كان إماما في الجامع العتيق بأجادير، تلقى عنه العلم لنحو العشرين سنة– وعلى يده تاب الله عليّ، وأما شيخي في الطريقة، فهو الشيخ الكامل الرباني سيدي عيسى بن محمد الدنيدني »[3].

عاش والده حتى أدرك وصاحب سبعين شيخا من أهل التصوف، يقول المؤلف: «حدثني والدي رحمه الله، قال: أدركت نحوا من سبعين شيخا من الذين عرفتهم، كلهم صاروا إلى رحمة الله»[4].

كان والد المؤلف منتسبا إلى الطريقة الشاذلية، من طريق سيدي أحمد بن يوسف الملياني، ملتزما بأوراد الطريقة وطقوسها، وكان المؤلف أيضا ينتسب إلى هذا المشرب الروحي أيضا، يقول المؤلف متحدثا على لسان والده: «..إن هذه الأسماء التي قلتها لك، هي التي أعطاها لي الشيخ البركة، أعجوبة دهره، أبو مهدي سيدي عيسى بن محمد الدنيدني، نفعنا الله به، وهو أخذ عن الشيخ سيدي عبد العزيز الحاج، وهو أخذ عن الشيخ الكامل القطب الواصل سيدي أحمد بن يوسف الراشدي نسبا الملياني، نفعنا الله ببركته آمين»[5].

يشير المؤلف إلى والده باعتباره شيخا صالحا، نقل عنه كثيرا من الفوائد والحكم والأذكار والتوجيهات، وله قصائد شعبية، ذكر بعضها في كتابه، وكان المؤلف يتبرك بها، ويتلوها في الشدائد لأجل كشف الهموم ورفع الغموم ودفع البلايا والعوارض،[6]وقد ذكر المؤلف متحدثا عن بركة والده قائلا: «وما من مسألة عَظُمت وهمَّني أمرها، إلاّ كشفها الله على يده، τ وأرضاه عنا »[7].

---

[1] المصدر السابق، (ن أ)، ج1، ص: 300

[2] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص:96-98

[3] المصدر نفسه، (ن أ)، ج2، ص: 10

[4] المصدر نفسه، (ن أ)، ج2، ص: 222

[5] المصدر نفسه، (ن أ)، ج1، ص:301

[6] ينظر: المصدر نفسه ، (ن أ)، ج3، ص: 10

[7] المصدر نفسه، (ن ب)، ص: 62

وقد دعا الوالد للمؤلف ولصنوه محمد القاضي دعاء مطولا، ملخصه: أن يجعلهما الله من أهل العرفان والصلاح، وأن يختم لهما بخاتمة أهل الصفاء والفلاح[1].

يذكر المؤلف أن والده سكن أجادير، وكان حيا وهو في نحو الأربعين من عمره[2]، فإذا عرفنا أن مولد المؤلف كان بتاريخ:1014هـ/1605م، فمعنى ذلك أن والده عاش إلى ما بعد سنة: 1054هـ/1644م، لكننا لا نعرف على وجه التحقيق متى توفي، لكن ضريحه معلوم، وهو مجاور لجامع أجادير، يشير المؤلف في هذا الصدد: «زرت معه-أي مع شقيقه محمد القاضي- ذات يوم ضريح والدنا رحمه الله، وهو مجاور لجامع أجادير، فدعونا له بما حضرنا»[3].

وأما بالنسبة لأمه فالظاهر أنه فقدها مبكرا، حيث يذكر أنها مدفونة في روضة الشيخ سيدي محمد بن رحمة[4].

ويذكر المؤلف أن له إخوة وأخوات وأبناء عمومة، إحدى أخواته كانت متزوجة من الشيخ سيدي العبدلي[5]، أحد شيوخ المؤلف البارزين، وواحد ممّن ساهموا بفاعلية في الحراك الاجتماعي والثقافي(الصوفي) والسياسي في تلمسان أثناء القرن 11هـ/17م، وسنذكر ذلك لاحقا.

يذكر المؤلف أيضا أنه كان صهرا للشيخ سيدي بلقاسم بن موسى بن صابر، إلا أننا لا ندري ما طبيعة هذه المصاهرة ؟

ومن إخوة المؤلف يتردد إسمان في الكتاب، هما: أحمد ومحمد القاضي، وقد استأثر الأخير بالنصيب الأوفر من الأخبار، وقد جعله المؤلف من أهل الأحوال والتصوف[6]، ونقل عنه كثيرا من الرقائق والوصايا الروحية، كان يتلقى معظمها في شكل مرائي، أو في شكل هواتف(خطاب) عن الحق تعالى- على حدّ قوله-، كما أورد بعض أشعاره، كانت في الغالب بلهجة عامية.

ومن أبناء عمومته يذكر المؤلف عبد المؤمن بن بلعيد، ويبدو أنه كان من أهل التصوف أيضا، فهو يقول عنه أنه كان رجلا صالحا تقيا، وأنه كان كثير الرؤية للنبي ρ، ويشاوره في أمور كثيرة، ويسأله الرشاد والسداد،[7] وكان يقيم في البادية، وكانت خيمته ملتقى السالكين والفقراء، وفضاء لإقامة حلقات الحضرة (الذكر و الانشاد)،[8] ومن

[1] المصدر السابق، (ن أ) ، ج3، ص :57
[2] المصدر نفسه، (ن أ) ، ج2، ص: 182
[3] المصدر نفسه ، (ن أ)، ج3، ص:57
[4] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص: 02
[5] المصدر نفسه، (ن أ)، ج2، ص:108
[6] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص: 54، 55، 56
[7] المصدر نفسه ، (ن أ)، ج1، ص: 442، 443
[8] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص: 27

أبناء عمومته أيضا محمد بن محمد بن عيسى المسعودي، لم يدركه المؤلف، ولكنه أفادنا أنه كان فقيها ونسّاخا، تقدّم ذكره في الصفحة الرابعة من هذه الدراسة.

في هذا الجو الأسري العام إذا تفتحت شخصية المؤلف وشب ونشأ، وربما نكون قد أسهبنا في الحديث عن أسرة المؤلف، لكن لعلها ستساهم بقدر ما في تسليط الضوء على حياة مترجمنا في بيئته الأولى (النشأة العائلية)، وأهم المؤثرات التي ساهمت في رسم شخصية محمد بن سليمان، إن على المستوى النفسي، أو الاجتماعي، أو الديني، أو الثقافي.

5- شيـــوخـــه:

يمدنا كتاب "كعبة الطائفين" بقائمة طويلة من أسماء الشيوخ والعلماء والصلحاء الذين أخذ عنهم المؤلف كثيرا أو قليلا، أو لازمهم زمنا طال أم قصر، أو التقاهم عرضا، أو أخذ عنهم بواسطة، وسنذكر بعضهم، مع ما هو متاح لدينا من معلومات عن كل واحد منهم، وسنركز على أشياخه الثلاثة الذين كان المؤلف يلازمهم ويصحبهم، وهم: سيدي موسى اللاّلتي، صاحب قصيدة (حزب العارفين) موضوع الكتاب، وسيدي العبدلي، وسيدي بن صابر.

1.5- والـــــــده:

لاشك أن والد المؤلف قد أسهم في تعليم ولده، ونحن نعتبره المعلم الأول له، فقد رزق الولد، وكان يرغب في ذلك منذ أمد -كما أسلفنا-، فأحاطه بعنايته ورعاه بما أفاض الله عليه من علم وتصوف، وبما حباه به من معرفة وتواصل بمشايخ وصلحاء تلمسان في زمنه.

ومن هنا، فوالده أوّل من أخذ عنه وتأدب بصحبته، وقد نال حظا من علوم الشريعة على يده، يقول المؤلف: «..بعدَ أن كُنّا تعلمنا من علوم الشريعة على والدنا وأشياخنا..»،[1] ويقول في موضع آخر: «فأول من أخذت عنه الأسماء الكرام وصحبته وتأدبت معه سيدي ووالدي أبو الربيع سليمان المدعو الصائم، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته»[2].

2.5-الشيخ موسى بن علي اللاّلتي:

هو شيخ المؤلف، وصاحب القصيدة المسمات "حزب العارفين "، موضوع كتاب «كعبة الطائفين»، أحد أجداده دفين حمام الراشدية[3]، وروضته وزاويته مشهورتان هناك، وله أحباس.[4]

[1] المصدر السابق، (ن أ)، ج1، ص: 300

[2] المصدر نفسه، (ن أ)، ج1: 301

[3] ربما يقصد به ما يسمّى الآن بلدية حمام بو حنيفية، تقع على بعد حوالي 18 كلم من مدينة معسكر (منطقة بني راشد).

[4] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 299

أ–اسمه ونسبه الشريف: اسمه بالكامل هو: موسى بن علي بن موسى بن علي بن موسى اللاّلتي، يرفع المؤلف نسبه الشريف إلى الحسن بن علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ρ[1]، يقول الشيخ موسى اللاّلتي في إحدى قصائده:

اسمَعُوا لُغزا لابن عَين ولاَم   هَـاشْـمِي الأصْـلْ

والـصَّـلاة والسَّـلاَم   علَى تَـاج الـرُّسْـلْ

وقد نظم المؤلف قصيدة بالفصيح في مناقب أشياخه الثلاثة، موسى اللالتي، والعبدلي، وبن صابر، نجتزئ منها ما يتعلق بشيخه موسى اللالتي:

ثَنَّيْتُ إلى ثاني الشُّيوخ شَريفُهُم   سَمِـيُّ الكليمِ بالمدائـحِ مُـولَـعُ

ب– لقاء المؤلف بالشيخ موسى اللالتي: يذكر المؤلف أن شيخه موسى اللالتي جاء من (ولهاصة)[2] قاصدا حرم أبي مدين لينزل بالعبّاد، كما أمره بذلك الرسول ρ في رؤية رآها، يقول المؤلف: «وسبب اجتماعي بالناظم–موسى اللالتي– في جامع الزاوية المذكورة–زاوية سيدي أحمد العبدون بـ أوزيدان– أنه رحل من ساحل ولهاصة قاصدا حرم أبي مدين لينزل بالعباد، كما أمره بذلك المصطفى سيّد العباد...وأولاده هنالك»[3].

ويذكر المؤلف في موضع آخر أن الشيخ موسى اللالتي قصده في داره ب أجادير: «فقدّمت له تمرا وماء، فقال: إني صائم، فقلت: ارفعه لفطورك، ثم شيّعتُه»،[4] ومن هنا بدأت الصلة بينهما.

ويذكر المؤلف أيضا أن قصّة (الدينار) هي سبب مخالطتي له، حيث أن المؤلف كان قد أقرض شيخه هذا دينارا، وحين حان أجل دفعه لم يدفعه له، فألح عليه التلميذ، فاستمهله الشيخ، إلى أن قرر التلميذ (المؤلف) رفع الأمر إلى القضاء، ولكن الشيخ أجابه: «يا أحمق ظننت أني نرد لك دينارك، كيف تطمع فيه، وأنا محتاج إليه، وأنت غني عنه، عندك ما يكفيك من لباس وعولة*.. فقلت–أي المؤلف-: يا سيدي، أنت في حلٍّ»[5].

ويبدو أن المؤلف بعد ذلك قد التمس العذر لشيخه، حيث يرى أن هذا الأخير أراد فقط أن يختبره من خلال هذه الحادثة لمعرفة تابعه، ان كان سيصلح للتجربة الصوفية أم لا، لأن المال هو المحك والمعيار حسب اعتقاده، فلا صحبة إلاّ بعد تجربة.

---

[1] ينظر: المصدر السابق، ص: 299

[2] تقع الآن بمدينة عين تموشنت.

[3] ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج3، ص: 02

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص: 02

[5] المصدر نفسه، ن أ، ج3، ص: 02.

* هي ما يتم ادّخاره في المنازل من مواد غذائية (أطعمة وأشربة) لمدة زمنية طويلة، تحسبا واحتياطا.

ج- حياته الصوفية: يشير المؤلف إلى أن شيخه موسى اللاّلتي بلغ درجة "القطبانية"** في التصوف،[1] والمؤلف يسبل عليه كثيرا من عبارات التبجيل التي توحي بسمو منزلته وعلو كعبه في التصوف كقوله: «أنشدنا شيخنا وبركتنا وقدوتنا سيدي موسى بن علي أفاض الله علينا من أنواره»،[2] ويشير أيضا إلى أن: «علامات المعرفة ظهرت على صاحب القصيدة-موسى اللالتي- في غالب أحواله وأقواله»[3]،ويشير المؤلف مبينا طبيعة هذه المعرفة الروحية التي اتصف بها شيخه قائلا: «حكى لنا بعض تلامذة الناظم رحمه الله، أنه أقسم لهم بعزة الله على أنّ الله عرّفني أزقة عرشه العظيم زنقة زنقة كما عرفكم أنتم أزقة بلدتكم هذه زنقة زنقة»[4].

كان الشيخ موسى اللالتي يبيت ليلة الاثنين وليلة الجمعة بحرم الشيخ أبي مدين، وسيدي أبي العلا، وتارة يبيت بحضرة سيدي وهب بن منبّه، وسيدي يعقوب التفريسي، يجتمع عليه المحبون، يتلون كتاب الله ويقرؤون كتب القوم، ويتناشدون الرقائق الصوفية، وكان المؤلف يبيت معهم أحيانا[5].

ويبدو أن الشيخ موسى اللالتي كان له صوت مؤثر في حلقات السماع الصوفي (الحضرة)، حيث يذكر المؤلف أنه كان إذا أسمع وأنشد يكاد السامع أن ينفطر أو ينهدّ، وكان دائما يقول : "ورثنا هذا المقام عن داوود υ"، يقول المؤلف في هذا السياق: سمع أخي محمد القاضي بعض كلامه فتواجد، ثم قال لي: سمعت بأذن قلبي خطاب الحق يقول: كلام موسى بن علي بَرْقُ المحبوبين، وبرقه جالب لأحوال المجذوبين، وكلام المحبوب سلب للقلوب، فناهيك عن هذا شرف[6].

يخبرنا المؤلف أن شيخه كان من أهل الخفاء والخمول*، وقد أشار إلى ذلك في معرض حديثه عن مكان قبره:«..هذا حال صاحب القصيدة، فإنه كان يحب الخفاء، فكمّل الله مراده حتى في قبره، وهو بالعمارة السنوسية بين قبرين متلاصقين متباينين، شاهده منقوش فيه اسمه بخط خفي لا يكاد يرى »[7].

من أقوال الشيخ موسى اللالتي:

**كلمة القطب أو(القطبانية) لها معنى خاص عند الصوفية، فهو: الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى، من العلم في كل زمان، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح والجسد، فهو يفيض روح الحياة على الكون. ينظر: - القاشاني، اصطلاحات الصوفية، دار الحكمة، دمشق، سورية، ط1، 1995، ص: 80- 81.

- علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1985، ص:185- .186

[1] ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 17 / (ن أ)، ج1، ص: 133

[2] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص: 243

[3] المصدر نفسه، ص: 04

[4] المصدر نفسه، ص: 119

[5] المصدر نفسه، (ن أ)، ج1، ص: 78

[6] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص: 52

*الخمول هنا بالمعنى الصوفي، وهو كل ما يحيل على معاني التواضع ونكران الذات، وعدم حب الظهور، وإخفاء الحسنات كما يخفي البعض السيئات. كما يخبرنا المؤلف أيضا أن شيخه هذا كان يلقب بـ (موسى الأحمق)، ربما لكونه كان ينتسب إلى صنف خاص من الصوفية، يطلق عليهم اسم: المجاذيب أو الدراويش الذين تملّكهم الوجد والأحوال الصوفية. ينظر: المصدر نفسه، ص:03.

[7] المصدر نفسه، (ن أ)، ج1، ص: 132

كان إذا سئل عن معارفه، يقول: من علاّم الغيوب إلى أفواه القلوب، لأن الرب غيب، والقلب غيب، ولا يعلم الغيب إلا بالغيب، -وكان يقول أيضا-: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة قتلهم، ومن نظر إليهم بعين الطريقة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم[1].

د-كرامــاتــه: نقل المؤلف لشيخه كثيرا من الكرامات والمرائي في صفحات عديدة من كتابه، وكان يعتبرها من المنح التي خصه الله بها، ودليلا على صدق توجهه وصلاحه وتقواه.

من كراماته، ما تنبأ به من أحداث دامية وقعت بتلمسان، وتعرف بثورة السّوسي، وكانت حوالي 1037هـ/1626م، حيث يخبرنا المؤلف أنه اشترى دارا واجتمع فيها بشيخه موسى اللالتي، لكن الشيخ أنذر تلميذه محمد بن سليمان قائلا: قم وارحل منها رحيل العافية، قبل أن تزعج منها فلا تجد مخرجا.. فإذا لم تخرج منها بغرضك حتى تخرج منها بالسيف، وإن أحياك الله ترى الدم في هذه المدينة يجري للعقبة* من كثرة القتل والهرج، لكن بن سليمان تردد في الخروج، إلى أن وقعت الواقعة، يقول في هذا الصدد: فطلبت الرحيل، فلم أجد مخلصا، واعتذرت للعامة، فقالوا: أنت إمامنا وبركتنا لا تفارقنا، فاحتَلْتُ على إخراج الكتب وما عزّ وخفّ، وتركت الباقي في دار الغرور، وفررت بديني إلى البادية حتى قضى الله ما قضى، ومات القائم – أي محمد بن أحمد السوسي زعيم الثورة- ومات من الخلائق ما لا يحصى[2].

ومن كراماته أيضا ما ذكره المؤلف حينما كان في احدى سفرياته بالصحراء، حيث اعترضه (أولاد طلحة) فنهبوا سلعته، ولم يتركوا له غير فرسه، فقرأ قصيدة شيخه اللالتي ونام، وفي الصبيحة وجد أن الغاصبين قد ردّوا عليه سلعته ببركة الشيخ وكلامه[3].

ومن ذلك أيضا أنه مرض مرضا شديدا، لكنه بقي يتعهد قصيدة شيخه، فوقف عليه في المنام وقد غمره بالحنان والعطف، وتَعانقا تعانُقَ الشائق للمشوق، يقول المؤلف: «..وأنا أمرّغ وجهي على صدره ونحره، وأقول: حبيبي، سَلَبتني وسلَبتَ روحي، وسلبت عقلي، يا سيدي موسى.. حتى انتبهت بذلك مسرورا مرعوبا، ووجدت الدموع على خدي، فسهرت ما بقي من ليلي، وشفاني الله ببركة ذلك »[4].

كما أخبرنا المؤلف أن شيخه كان كثيرا ما يرى الرسول ρ، وقد تقدم بنا أنه هو من أمره بالذهاب من (ولهاصة) إلى حرم أبي مدين بتلمسان، كما أخبر المؤلف عن فراسة شيخه التي لا تخطئ، فقد أتاه المؤلف مرة رفقة خديم والده، فأعرض عنه اللاّلتي وصيّره وراء ظهره: «كالشيء الذي لا يعبأ به.. ثم أنّ ذلك الرجل سافر معي-أي مع المؤلف- في ربيع تلك السنة التي توفي الناظم فيها، فظهرت عليه الخيانة في الأمانة »[5].

---

[1] المصدر السابق، (ن أ)، ج3، ص: 1- 3

** بمعنى: إلى العَقِب.

[2] المصدر تفسه، ص: 12.

[3] المصدر نفسه، ص: 10

[4] المصدر نفسه، ص: 11

[5] المصدر نفسه، ص: 02

و-وفـاتـــــــه:

ذكر المؤلف تاريخ وفاة شيخه موسى اللاّلتي، وكان ذلك يوم آخر شهر ذي القعدة سنة 1045هـ/1635م، وأشار المؤلف إلى مكان ضريحه بالمقبرة السنوسية، وسط مدينة تلمسان، قائلا: «وقبره مستور في خفاء شعب عن يسار الطريق الإسلامية المستقبلة، التي عن يسار قبر السنوسي الإحساني الحسني τ »[1]، وحدّده بقوله: «ومحلّه في مقدّم الجبانة التي عن يسار الطريق المستقبلة المارة، عن يسار قبر الشيخ السنوسي المستقبل الصاعد لجبل العبّاد، فهناك قبره بين ممر عن يمينه وبنيان عن يساره »[2].

3.5-الشيخ سيدي العبدلي:

هو :«سيدي محمد بن علي بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي اليوحيدي، المدعو العبدلي الوطاسي»[3]، دفين البلدية التي تحمل اسمه الآن (بلدية سيدي العبدلي) بتلمسان، وليس في كتاب (كعبة الطائفين) ذكر لتاريخ ميلاده، ربما يكون قد ولد بعد منتصف القرن 16م.

يخبرنا المؤلف أن الشيخ العبدلي كان صهرا له، متزوجا من أخته، وكان يجمع بين العلم والتصوف، وأنه بلغ أيضا القطبانية في التصوف، وكان يتصدّر الإمامة بجامع الوزان، الواقع بباب الجياد حاليا.

يفيدنا المؤلف أنه :«شبّك أصابعه[4] بأصابع سيدي العبدلي الوطاسي»،[5] وانتسب بذلك في سلسلة مشايخه، وأقرّه شيخا ملقنا ومرشدا، ويضيف المؤلف أنه كان من أصحاب والده وشيخيه موسى اللالتي ومحمد بن رحمة، وكان له ولد اسمه محمد، له حظ في الفقه والتصوف كوالده، وأشار المؤلف أنه توفي في حياة والده.

يذكر المؤلف أن الشيخ العبدلي كان عربي الأصل، وبدوي المعيشة، وكان أسمر اللون ذا أَدَمة شديدة: «رأيت الشيخ الكامل العالم العارف الفاضل سيدي محمد بن علي الوطّاسي، المدعو العبدلي رحمه الله، وهو يتوضأ، وكان أسمر اللون ذا أدمة شديدة، فقلت ممازحا له: يا سيدي لونك شديد السُّمُورة! فما السبب في ذلك؟ فأجابني.. إني عربي حر، وأنتم معاشر البيض براهيش، خرجتم عن أصلكم، فالسؤال عليكم لا عَليَّ»[6].

مما أفادنا به المؤلف عن الحياة الروحية والشخصية للشيخ العبدلي، أنه كان يقوم الليل ويصوم النهار، دائم الفكر، مشتغلا بالأوراد والأذكار في كل وقت وحين، مترنّم بالرقائق والمدائح النبوية والأشعار الصوفية، أما على المستوى الجمعي، فقد كان يضطلع بأدوار إصلاحية واجتماعية وجهادية في تلمسان، وكان يسعى دائما -كما يفيدنا المؤلف- لجمع الناس على كلمة سواء، وهذه الصفات والأدوار تجعل شخصية العبدلي تشذّ عن كثير من

---

[1] المصدر السابق، ص: 271

[2] المصدر نفسه، ج1، ص: 132

[3] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3.

[4] المشابكة أو المصافحة، من الطقوس الصوفية، وتعني أخذ العهد، أي الانتساب الرسمي إلى سند صوفي ما، واتخاذ المشَبَّكِ معه شيخا مرشدا وملقنا، ويعبر عن ذلك أيضا بلبس الخرقة، أو التلقين، فأبو إسحاق ابراهيم الشاطبي الشهير شبّك بأصابع أبي بكر بن عمر القرشي الذي شبّك بأصابع أبي محمد عبد الله بن عبد الله بن سلمون، يقول الشاعر:
شابكتهم متبركا بأكفهم   إذ شـابكـوا على كريمـــة. - ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي "مقاربة وظيفية" مكتبة الرشاد، المغرب، ط1، 1997، ص: 153- 155.

[5] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 18

[6] المصدر نفسه ، ص: 142

الشخصيات الصوفية التي عاشت في القرن 17م[1] والتي كانت منغلقة على الذات، عاجزة على إحداث التغيير، فاقدة لأي قدرة على التعاطي الإيجابي مع محيطها، والمساهمة الفاعلة في الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي، في قرن طغى عليه التصوف الخرافي[2].

يخبرنا المؤلف أيضا أنه شارك الشيخ العبدلي رفقة والده في الغزو مرارا[3]، حيث يقول مشيرا إلى خصاله وأهم أدواره :«هذا شيخنا.. العبدلي كان يصوم ويقوم ويغزو ويغيث الملهوف ويصلح بين المتباغضين، وكان من العلماء العارفين، صاهره والدي رحمه الله، وأعطاه مما أعطاه الله محبة في الله، غزوت معه مرارا، فرأيت الشيخ سيدي العبدلي يهدأ أوّل الليل بقدر ما يتعشّى المجاهدون وينامون، ويقوم هو ويسبغ الوضوء ويستقبل القبلة، فلا يزال يصلّي حتى آخر الليل ..ثم يبقى ذاكرا مفكرا مستقبلا إلى أن يصلي بالمرابطين صلاة الصبح، وصلاته صلاة الخاشعين في السفر والحضر والقرّ والحرّ، حتى مات رحمه الله في إيابه من [كذا] الجزائر للإصلاح بين أهل تلمسان مع الأتراك »[4].

ومن بين تلك الأدوار الإصلاحية التي دأب عليها الشيخ العبدلي، ما سجّله لنا المؤلف في هذا النص:« لقد رأيت الولي العارف سيدي العبدلي قبل الفتنة الأولى-1035هـ/1626م- أيضا اجتمع عليه العامة والغوغاء والجند محصورون في المشور، والنساء يزغرتن على تجنّد أولئك العامة، فقام يبكي وينوح نياح الثكلى بصوت عال، والناس يزدحمون عليه في مسجد الوزّان، فوعظ كبار القوم..»[5].

ومن أدواره الاجتماعية التي كرّس الشيخ العبدلي حياته لها، أن جعل سكناه بباب الجياد بالقرب من مسجد الوزّان الذي كان يؤمّ الناس فيه، بمثابة زاوية يلجأ إليها المضطهدون، مسلمون وذمّيون، خاصة من جور الأتراك وظلمهم، يقول المؤلف: «حضرت يوما مع الشيخ العبدلي في داره من حارة باب الجياد، وقد اجتمع عنده خلق كثير، مسلمون وذميون، هاربون من جور الولاّة، يطعمهم ويسقيهم، ويشفع كل سبت فيهم، حتى يقضي الله حوائجهم على يديه.. وقال له رجل من أولئك الخائفين: يا سيدي، لم يبقى في هذا الزمان حرم للمساكين إلاّ في دارك، وفي مقام الشيخ أبي مدين، فقال له: نعم يا ولدي، لكن الشيخ أبا مدين حرم فقط، ونحن إن شاء الله الحرم عندنا والطعام والإصلاح بين الناس، وصدق τ ، فإن الحي فائدة ومائدة وأخلاق زائدة »[6].

---

[1] من هذه الشخصيات، شيخ المؤلف نفسه موسى اللاّلتي، صاحب القصيدة موضوع هذه الدراسة، الذي لم يسجل له المؤلف أي دور فاعل في محيطه الاجتماعي أو السياسي.

[2] اعتبر أبو القاسم سعد الله الشيخ العبدلي من المرابطين الذين لم يؤيدوا العثمانيين كل التأييد، ولم ينقموا عليهم كل النقمة، فقد كان يعظ الحكام العثمانيين، عند ما يرى منهم ما لا يليق، وكان يذهب إلى القائد محمد بن سوري في مقره يعظه، ويطلب منه مطالب في صالح أهل البلاد.

ملاحظة: استقى أبو القاسم سعد الله هذه المعلومات من كتاب "كعبة الطائفين" موضوع هذه الدراسة.ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 473

[3] يقصد فيما يبدو التصدّي للحملات الاسبانية المتكررة على السواحل الجزائرية، لا سيما وهران التي كانت تحت هذا الاحتلال خلال تأليف محمد بن سليمان لكتابه "كعبة الطائفين" في القرن 17م.

[4] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج2، ص: 194- 195

[5] المصدر نفسه، ج3، ص: 12

[6] المصدر نفسه ، ج1، ص: 271

وحول وفاته يقول المؤلف محمد بن سليمان: «..ومات عندنا قطب عصرنا العبدلي في طريق الجزائر لتسكينه الفتنة المذكورة–بين أهالي تلمسان والأتراك–..وبعد موته بنحو سنتين، قامت فتنة أعظم من الأولى..» [1].

فإذا عرفنا أن الفتنة (أو الثورة) الأولى التي انبرى الشيخ العبدلي للقيام بالوساطة والإصلاح بين أهالي تلمسان والحكام الأتراك لحقن الدماء، وقعت سنة 1035هـ/1625م كما أخبرنا بها محمد بن سليمان، استطعنا أن نحدد تاريخ وفاة الشيخ العبدلي، وهو تاريخ الفتنة الأولى نفسه، أي سنة 1035هـ/1625م، أو بعدها بفترة قصيرة على أقصى تقدير، قد لا تتجاوز بضعة شهور.

ومما قاله المؤلف في مناقب شيخه العبدلي من الشعر الفصيح:

بدأتُ بِعبـدٍ للإلـه أضَـافَــه   إليـه وفيـه للشـدَائـدِ مَـدْفَــعُ

بَـرور تـودّد ورأي مُسَـــدَّد   ونَقلٌ وعَقـلٌ في المعَـارِف يَرتَـعُ

بإخلاصِه فَاق المعَاصِرَ قُطبُهـم   إمَـام الهَـوى يُحيي الحِمَى مُتَـوَرِّعُ [2]

4.5–الشيخ بلقاسم بن موسى بن صابر:

ذكر المؤلف عنه معلومات في عدة مواضع من كتابه، ووصفه بالعالم العامل والخطيب المدرس الكامل، وبأنه "عروس الصالحين"، وقال عنه أنه كان ملتزما بالكتاب والسنة في جميع حركاته وسكناته، مولعا بمطالعة كتب التصوف والحديث وعلوم القرآن، متصدرا لتدريس علم التوحيد، وقد سخر ماله للعلماء والمريدين والفقراء، وكان منزله لا يخلوا من الزائرين والضيوف، وأنه تميز بالكرم الحاتمي، على حد قوله.

يشير المؤلف أنه كانت بينه وبين الشيخ بن صابر مصاهرة أيضا، وقد كان شيخا لوالده.

يخبرنا المؤلف أن الشيخ بن صابر صافحه مصافحة الصوفية، ولقنه الأسماء، وانتسب إلى سلسلة مشايخه: « صافحني الشيخ... بن صابر، ولقنني الأسماء، كما صافحه ولقنه شيخه الذاكر البحر الزاخر سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان.. وناولني السبحة وشابكني، وأكد عليّ في المحبة والتقوى، كما ناوله وشابكه الشيخ الكامل القطب الواصل سيدي محمد بن علي بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي اليوحيدي المدعو العبدلي الوطاسي» [3].

ويطلعنا المؤلف إلى بداية التلمذة والصحبة لهذا الشيخ بشيء من التفصيل والإعجاب الممزوج بالنظرة الكاريزمية، قائلا:« إني لا أطلبه بنفسي، وإنما أطلب صحبته بربي طلبا للتوفيق والإعانة، فإن عَلِمَ الله نَفْعَنَا على يديه دعانا هو إليه.. ففزعت إلى استخارة من بيده مقاليد الأمور، ولم يعلم ما في ضميري إلا العليم بذات الصدور، فو الله ما استَتْممت استخارتي على نيتي، وأنا في غرفة منعزل فوق سجادتي، إلاّ والنداء عليّ من قبل الشيخ.. فأتيته ودخلت عليه، وسلمت وجلست بين يديه.. فقال: نحن إخوة في الله، ونريد أن يدخلك الله في

---

[1] المصدر السابق ، ج2، ص: 16

[2] المصدر نفسه ، ج1، ص: 294

[3] المصدر نفسه ، ج3، ص: 186

سلسلة أشياخنا الكرام، لعل الله أن يلحقك بهم، فقلت: حبا وكرامة»، وأورد المؤلف سلسلتهم الشاذلية، نسبة لأبي الحسن الشاذلي.

يشير المؤلف أن بداية الصحبة الحقيقية والمعاشرة لشيخه بن صابر بدأت مع سنة 1057هـ، قائلا: في« سنة سبع وخمسين عاشرته بل جاورته عدة أشهر، فتحقَّقَّت تزكيةُ الشاهدَين*، وتصديق الرؤيا برؤية العين، وليس الخبر كالعيان ولا اليقظة كالمنام، قال الإمام علي: من أثنى عليه رفقاؤه في السفر، ومجاوروه في الحضر، ومعاملوه في الأسواق، فلا تَشُكُّوا في صلاحه »[1].

نظم المؤلف قصيدة من الفصيح في حق شيخه بن صابر يذكر فيها صحبته له وأخذه للعهد على يديه، ويلخص فيها بعض مناقبه وخصاله، نجتزأ منها الأبيات التالية:

نَظَرْتُ رجالَ الوقتِ للصُّحبة التي	تَواصَى بها [كذا] ومن لَهُ يُرجَـــعُ
تُوالي وليًّا لا يضيــعُ عـهــــــدُه	ويجلُبُ لي الخيراتِ والشـرَّ يَدفَـــعُ
نِـعِـمَّا عـروسٌ رامَ قــلـــبي ولاءَه	بعـد استخـارة والقصـدُ مُهَيَّـــعُ
صبَرتُ إلى أن تأدَّى من غير مُخبِر	يُتَرجِمُ عن سِـرّي لهُ وهوَ يَرْكَـــعُ
صَرفتُ إلى الشيخ الذي بان فضلُه	وعَنبرُ سـرّه من المِسـك أطـــوعُ
صِلاتي تواصلت بسلسلة الهـدى	على يـد مُقْتَدًى إمـامٌ سُمَيْـــدَعُ

إلى أن يقـــول :

ضِياءُ لُبِّـه يَكسُـوه ثـوبُ جَمَـالِـه	تـرَى وجهَـهُ يزهُـو ونـورُه يلـمَـــعُ
عَنيْتُ بما قُلْنَا أبا القاسـم المكـنَّى	بِطَيرٍ إذا غـنَّى لـه الروحُ تَسمَـــعُ

5.5-سيدي محمد بن محمد بن رحمة:

يذكر المؤلف أنه كان يحضر له في مجلس إقرائه لابن الحاجب الفرعي بالجامع العتيق من أجادير بتلمسان[2].

6.5-سيدي الجيلاني بن سيدي يحي بن صفية:

وصفه المؤلف بـ الأديب الفقيه الأجل الفاضل النحرير الكامل ابن الشيخ البركة سيدي يحي بن صفية، وذكر المؤلف أن الشيخ الحسن بن عبد العزيز بن رحال الكوش المغربي راسله والشيخ سيدي الجيلاني مرات عديدة

[1] المصدر السابق، ص: 301
[2] المصدر نفسه ، ج3، ص: 17

من المدينة النورة، يوصيهما بملازمة القرآن والذكر، والاجتهاد في العبادات والمجاهدات الروحية، كما أفاد سيدي الجيلاني ببعض الأذكار والأوراد والفوائد، أورد المؤلف بعضها في كتابه[1].

7.5– عاشور القسنطيني:

وصفه بالفقيه والحبر والبحر، يخبرنا المؤلف أنه كان عالما بالفلك والنجوم والكواكب، ونقل عنه بعض الفوائد المتعلقة بحساب الكواكب والنجوم، كما سجل رأيه في مسألة الأسماء والصفات[2].

8.5–محمد بن سعيد المقرّي:

قال عنه المؤلف: الفقيه والمحدّث الوجيه سيدي محمد المدعو (الفقيه)، صافحني وشابكني وناولني السبحة ولقّنني الذكر، كما صافحه وشابكه وناوله والده الشيخ المعهود للذكرى، أبو الفرج سيدي سعيد بن أحمد المقري. ووصف المؤلف والده هذا بأنه شيخ الشيوخ وحجة الإسلام ومفتي الأنام، ونقل أيضا من خط يده.[3]

وهو ابن عم أحمد المقرّي صاحب «نفح الطيب»، ووالده سعيد المقرّي هو من أسهم في تكوين ابن أخيه تكوينا موسوعيا وأدبيا، بعد أن قرأ عليه سنوات طويلة، و قد كان سعيد المقرّي غزير العلم مبرزا في فنونه لاسيما الفقه والحديث، استمر مفتيا أزيد من ستين سنة.[4]

9.5–محمد بن محمد بن مريم المديوني:

محمد بن محمد بن مريم المديوني، ابن صاحب كتاب «البستان»، كان المؤلف من أصحابه، وذكر أنه توفي سنة 1053هـ، واللاّفت أن والده صاحب «البستان»، لم يكن يُعرَف عن حياته إلاّ الشيء القليل، لولا ابنه محمد صاحب المؤلف محمد بن سليمان، يقول عبد القادر بوباية في هذا السياق: تمكنّا من الحصول على ترجمة مفصلة لمؤلف «البستان» من خلال تلميذه الفقيه العالم عيسى بن محمد بن يحي الراسي البطوئي السعيدي المتوفى سنة 1040هـ/1630م، أوردها في كتابه «مطلب الفوز والفلاح...»، وقد اعتمد في ذلك على الترجمة التي أرسلها ابن المؤلف محمد الصغير، ويؤكد ذلك قوله:" وممّن سلك سبيله، فكان في الفضل عديله، الولي الصالح الولد، ووالد وما ولد.. ابنه الفقيه سيدي محمد ابن مريم الصغير... كتبت له مرة أسترشده في مناقب الشيخ والده..."[5]

---

[1] المصدر السابق، ص: 189

هو سيدي الجيلاني بن سيدي يحي بن صفية، والده جد قبيلة أولاد نهار الواقعة بالجنوب الغربي لتلمسان، كان من الأولياء العارفين، له كرامات عديدة، كان في ابتداء أمره يخالطه الجذب فيسيح في الأرض، ويعبد الله على رؤوس الجبال، وكان كثير التردد على زوايا تلمسان ومدارسها ومساجدها، طلبا للعلم والمعرفة الصوفية، واحتكاكا بالمشايخ و الصالحين، كان قادري المشرب، وقد خلف والده سيدي يحي بعد وفاته في تسيير شؤون الزاوية، ضريحه ببلدية سيدي الجيلالي التي تحمل اسمه، بجنوب تلسان.

ينظر:– الجيلاني بن عبد الحكم، المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، دط،1364هـ،ص: 48- 49

– قويدر قيداري، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار، دراسة تاريخية وأنثروبولوجية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، دط، 2009، ص:111

[2] ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج1، ص: 111/ج3، ص:93.وعاشور القسنطيني من تلاميذ عبد الكريم الفكون القسنطيني، كان يتنقل بين قسنطينة وتلمسان وتونس والحجاز، وغيرها، وانتصب للتدريس، واهتم بالرحلة والتاريخ. ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الاسلام عبد الكريم الفكون، داعية الإسلام، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص: 34.

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3 ، ص: 186

[4] ينظر: أحمد المقرّي، روضة الآس العاطرة الأنفاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983، ص: ط، ي.

[5] ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد، الجزائر،ط1، 2011، ص: 07

ذكر المؤلف أعلاما كثر، أخذ عنهم أو التقاهم، أو عرفهم بالمرافقة، وحسبنا ماذكرنا، لأننا لا نستطيع ذكر جميع من أورده في كتابه في هذا المقام، وقد نشير إليهم أثناء تعاملنا مع المتن في قسم التحقيق.

6-ثقافتـــــــه:

أورد المؤلف في كتابه "كعبة الطائفين" معلومات مفصلة عن تكوينه العلمي والثقافي، ومن ثمة يمكننا أن نؤشر مساره الثقافي في هذه النقاط[1]:

- حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثامنة بقراءتي ورش وقالون، رسما ورواية، وختمه ثمان مرات رسما وأداء.
- انتقل المؤلف بعد ذلك،كما قال لـ "دار العلم والتقوى" بقرية مجاجة[2] فزاد هناك ختمة أخرى للقرآن الكريم، وقرأ عقائد السنوسي الثلاث، والأجرومية، والقرطبية، على الشيخ سيدي عمر أترار، وسنّه يومئذ أحد عشر سنة.
- ثم قفل المؤلف راجعا إلى تلمسان، وصار يقرأ القرآن بروايتي ورش وقالون على الأستاذ سيدي عمر بن يوسف، وعلى شيخه سيدي الحسن الدراوي المغربي، ويذكر المؤلف أنه حفظ الربع الأول من رسالة ابن أبي زيد بشرح الفاكهاني، على الشيخ سيدي الحاج محمد بن قاسم الموبل، كما كان يحضر في مجلس إقراء سيدي محمد الغشوي على(الرسالة)، وصحيح البخاري، وتفسير القرآن للثعالبي والسيوطي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي.
- لقَّبَه الشيخ بلقاسم الدرّاجي في تلمسان بـ " مالك الصغير" لشدّة نبوغه في الفقه المالكي.

- قرأ مختصر ابن الحاجب على شيخه سيدي محمد بن رحمة، وقرأ إحكام القرآن في الجامع العتيق بأجادير، ومختصر خليل، والألفية، والتلمسانية، والرسالة والسلم في المنطق، والسراج للشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري[3].

---

[1] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 264، 265، 266

[2] تقع مجاجة بنواحي مدينة غليزان، أسس بها الشيخ سيدي محمد بن علي المجاجي(ولد سنة 945هـ/1538م) زاوية "مجاجة" لنشر العلم، وكان يقصدها طلاب العلم من كل جهات الوطن، تخرج منها عل سبيل الذكر سعيد قدورة الذي تولى الافتاء المالكي بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، اشتهر مؤسسها المعروف بـ (أبهلول) بالعلم والتصوف والكرم ومحاربة الغزاة الإسبان، وكانت زاويته عبارة عن رباط ضد الأعداء، يذكر أنه أطعم ثلاثمئة مجاهد كانوا على ثغر تنس، قتل سيدي محمد بن علي العالم الزاهد سنة (1002 هـ/1594م) بتحريض من الأتراك. ترجم له الشيخ العربي المشرفي في كتابه الموسوم: «ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة». وذكره محمد بن سليمان أيضا في الجزء الثاني من كتابه هذا، ونقل من خطه بعض الفوائد.

ينظر: -أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص: 279- 289

- محمد مفلاح، أعلام من منطقة غليزان، أعلام التصوف- شعراء الملحون، دار المعرفة، الجزائر، د ط، 2008، ص:144، 145
- أبو القسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 267، 364 510، 510، 511

[3] ولد سنة 920هـ وتوفي عام 953هـ بنواحي بسكرة، كان من تلاميذ محمد بن علي الخروبي له عديد الكتب، وخصوصا المتون التي نظمها وشرحها في المعاني والبيان والفرائض والمنطق والفلك، له قصيدة في التصوف تسمى (القدسية)، ينظر ترجمته:أبو القسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 507- 510

- وقرأ أيضا صحيح البخاري على الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي أنكروف، وحضر عنده في اللاّمية والخزرجية، وكان ملازما لمجلس إقراء شيخه العبدلي في الحديث و التفسير والحكم العطائية ومختصر خليل.
- يطلعنا المؤلف أنه سافر إلى مستغانم، واحتكّ بطلبة العلم فيها، وقرأ هنالك على يد خيرة علمائها، منهم الشيخ بلقاسم بن عثمان الولاّجي، والشيخ محمد الزهري ..، وبزّ أقرانه في كثير من العلوم، حتى صار المؤلف كما قال: « أُدلولا في جميع ما قرأت بمستغانم ».
- زار المؤلف المغرب الأقصى، حيث دخل وجدة وصاحب بعض مشايخها وصلحائها، كما دخل فيجيج، ونزل بزاوية العبيد، وحضر مجلس إقراء الشيخ حدّوش بن موسى البرّيشي، وسيدي محمد الحاج السلاوي، وسيدي محمد الشمّوري، وغيرهم.

بعد هذه الاطلالة على المسار الثقافي للمؤلف وتكوينه العلمي، كما سجله بنفسه في كتابه، آن لنا أن نتحدث عن طبيعة ثقافته من حيث هويتها ومستواها وملامحها:

- من حيث المستوى الثقافي والمعارف العلمية، يبدو لنا المؤلف من خلال تكوينه المعرفي أولا، وما حفل به كتابه من مادة ضخمة ومتنوعة ثانيا، ذو ثروة أدبية واسعة، وثقافة دينية(فقهية وصوفية) وافرة ومتجذرة، فالمؤلف كان إماما في مسجد باب الجياد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان صوفيا متفاعلا مع الحركة الصوفية والثقافية في وقته (ق11هـ/17م)، متأثرا بها ومؤثرا، وعلى اتصال مستمر بعلمائها وأوليائها ودراويشها، وكان له حُظوة لدى أغلبهم.
- كان للمؤلف اطلاعا متميزا على كتب التاريخ والمصادر الفقهية والصوفية وغيرها، هذا ما تؤكده اقتباساته الكثيرة، وللمؤلف أيضا اقتباسات كثيرة ومتكررة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات مخطوطه من هذين المصدرين.
- لكن رغم هذا الثراء والتنوع الذي نلمحه في نشأته العلمية، إلاّ أننا لا نستطيع الجزم بأن المؤلف محمد بن سليمان كان عالما بأتم معنى الكلمة، بل كانت تربيته صوفية، له تكوين متين في هذا الجانب، ومطّلعا على مصادر كثيرة في التصوف والفقه والتاريخ...
- ثقافته هي ثقافة معاصريه، يغلب عليها الطابع الصوفي ويقل فيها الابداع، شأن الجو الثقافي العام السائد في بلادنا بعامة، وتلمسان بخاصة في ق17م، حيث اكتفى العلماء آنذاك بدراسة أعمال السابقين، بنظرة يغلب عليها التقديس المفرط، فكثرت الشروحات والمختصرات في أعمالهم[1]، كما هو حال كتاب «كعبة الطائفين» موضوع بحثنا، الذي انبرى فيه المؤلف لشرح قصيدة شعبية صوفية لشيخه موسى بن علي اللالتي، مصبغا عليها كثيرا من الهالة والقدسية.

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 15

- اتسمت ثقافته بالمحلية (تلقيا وقراءة) إلى حد بعيد، فقد التهم المؤلف كتب الشيخ السنوسي لاسيما "العقائد" حفظا ودراية، وأتقن القراءة بورش رسما ورواية، وتمكن من مختصر خليل والأجرومية والقرطبية ورسالة أبي يزيد، وتفسير الثعالبي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي، ومختصر بن الحاجب، والتلمسانية، وكتب عبد الرحمن الأخضري... لهذا نقول أن ثقافة المؤلف في عمومها يرتبط النصيب الأكبر منها بالثقافة المحلية.
- ينبئنا كتاب «كعبة الطائفين» بغزارة ثقافة صاحبه، حيث تبدو ظاهرة الجمع بين عدة علوم ومعارف بادية للعيان، - وإن كان منطلقه صوفيا كما أسلفنا — ففيه الأخبار والأنساب والتراجم والمناقب، والتفسير والفقه والحديث، وعلم الحروف والجداول، والأمثال والحكم والشعر الفصيح والشعبي، والحكايات والنوادر والطرائف، والكرامات والرؤى، والاستطرادات المتنوعة، وما ضخامة الكتاب بأجزائه الثلاثة إلا دليلا على هذا المسار الذي سلكه[1].
- تتجلى في المؤلف ظاهرة الحفظ، فيبدو أنه كان يمتلك ذاكرة قوية، استوعبت الأعلام بأسمائها وألقابها وكنياتها وتواريخها، واستوعبت كثيرا من معارف عصرها، وهذا ليس غريبا على المؤلف فقد عرفناه كما سلف يحفظ القرآن بروايتين، فظلا عن الاجرومية والقرطبية وعقائد السنوسية، فقد كان رحمه الله حافظا من الطراز الأول.

7- مذهبه الصوفي:

المؤلف كان شيخا متصوفا، محبا للأولياء والصالحين، مشتغلا بالممارسات الصوفية، منكبًّا على تهذيب النفس بالمجاهدة والرياضات الروحية، فقد صافح أو شبّك يده مع كثير من الأولياء والصالحين من شيوخ التصوف وناولوه السبحة والأوراد والأذكار[2]، وأخبرنا أيضا أنه كان يعتكف مع شيخه اللالتي في الكثير من المساجد والمقامات، منها اعتكافه بجامع سيدي يعقوب الحاج بـ (ولهاصة) للمطالعة والعبادة.

المؤلف يشيد كثيرا بالتصوف، ويعتبر أنه ليس في الأرض علم أشرف منه ولا طريق أفضل منه، وهو يأمر الناس بطلبه وحب أهله، لأنهم أولياء الله وخاصته من أهله: « فهؤلاء هم أهل الأحوال الذين درجوا على منهاج المصطفى، وورثوا بعض مقاماته ظاهرا وباطنا.. وهم ساداتنا في الدنيا والآخرة»[3].

انتسب المؤلف إلى الطريقة الشاذلية (نسبة لأبي الحسن الشاذلي) على يد شيخه سيدي بلقاسم بن موسى المدعو بن صابر، وهو أخذ عن الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ)، عن سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي، عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني الشيخ الكامل والقطب الواصل.[4]

---

[1] بلغ عدد صفحات الكتاب بأجزائه الثلاثة في النسخة الأصلية (ن باريس) :1300 صفحة.
[2] يقول المؤلف: «قد منّ الله علينا بمشابكة بعض من شابك أهل الخير، واتصلت سلسلته بالسند الصحيح».ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 185.
[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 135
[4] المصدر نفسه، ص: 76.

يبدو المؤلف في كتابه ممن يَمُجُّون التصوف المنحرف، فهو يدعو صراحة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، في عصر غلب عليه الفكر السطحي والدروشة والدجل، وادّعاء الولاية صدقا أو كذبا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينقل لنا المؤلف كثيرا من المرائي الصوفية والكرامات والحكايات الممزوجة بالأساطير، بكثير من السذاجة أحيانا[1].

مهما يكن فالمؤلف، يخبرنا كما مر بنا أنه نال حظا من علوم الشريعة في طور تكوينه الأول، ونراه يدعو بشكل صريح إلى ضرورة الالتزام بالشريعة والحقيقة: « من أعظم الفسوق نبذ الشريعة وإيذاء أهل الحقيقة»[2]، ويقول أيضا: « كل كتاب لا يوافقه الكتاب والسنة المتوافقين، فهو مردود، وإذا لم يجمع بين الشريعة والحقيقة لا ينتفع به»[3]،كما يحث على اتباع منهج السنوسي وطريقته القائمة على العلم بأحكام الشريعة وجواهر الحقيقة: «فإنها والله، سهلة المأخذ قريبة المقصد »[4]،كما يقول المؤلف.

ولعل مؤلفنا كان في كل ذلك –أقواله وممارساته– متماهيا مع مواقف مشايخه في السلسلة الشاذلية، منهم الشيخ أحمد بن يوسف الملياني خريج مدرسة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني(ق9هـ/15م)، وأحد تلاميذ أحمد زروق صاحب «قواعد التصوف»، فالملياني كان يناول تلاميذه الأذكار، ويسميهم الفقراء، ويمارس حلقات الحضرة(السماع أو الذكر والإنشاد)[5].

وقد تأثر المؤلف بالشاذلي نفسه، مؤسس الطريقة الشاذلية، الذي عرف عنه ثورته على التصوف الفلسفي والنخبوي، لأنه تصوف الخاصة لا يفهمه إلّا القلّة، والدعوة إلى إنشاء تصوف شعبي يسير مع جميع مرافق الحياة، كما يسير معها القرآن والسنة، محاولا في ذلك التوفيق في خطابه بين الشريعة والحقيقة (الظاهر والباطن)، وعرف عنه أيضا أنه كان لا يتحرج من أكل الطيبات، ولبس الحسن من الثياب، وركب الفاره من الدواب[6]، وقد كان هذا دأب محمد بن سليمان الذي عرفناه ينحدر من أسرة ذات غنى وجاه، ويمتهن التجارة، ويأخذ بأسباب الرزق، ويغزو ويجاهد، ويعيش حياته ويمارس تصوفه.

8–موقفه من قضايا عصـره:

في كتاب « كعبة الطائفين» مواقف كثيرة للمؤلف محمد بن سليمان حول بعض القضايا السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية التي طبعت المجتمع التلمساني في القرن 11هـ/17م :

[1] كثرت في كتابه المرائي الخاصة بالنبي ρ، أو المتعلقة بالأولياء، إما أن يكون قد رآها المؤلف بنفسه، أو رآها أخوه محمد القاضي، أو رآها بعض أصحابه أو مشايخه، ويبدو المؤلف في هذه الناحية متأثرا بكتاب (تحفة الناظر ونزهة المناظر) للفراوسني، خاصة أن المؤلف يطلعنا في كتابه أنه كان يحتفظ بنسخة منه، نقل منها بعض النصوص.

[2] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج1، ص: 302

[3] المصدر نفسه، ج3، ص: 272

[4] المصدر نفسه، ص: 121

[5] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 502

[6] ينظر: – عبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حياته ومدرسته في التصوف، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2003، ص: 73، 95-139

– عبد المجيد الصغير، إشكالية اصلاح الفكر الصوفي في القرنين 19/18م، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط2، 1994، : 28-31

- ففي الجانب الديني و الثقافي، مرَّ أمامنا في العنصر السابق- مذهبه- كيف حاول المؤلف أن ينأى بنفسه عن التصوف البدعي المبني على الدجل والخرافات، والدعوة إلى التصوف الحقيقي القائم على العلم والعمل والوعي الاجتماعي.

- في الجانب الاجتماعي رأيناه من خلال كتابه محتكا بأطياف مجتمعه علماء وصلحاء و مع عامة الناس، يسعى بمعية شيوخه لاسيما ابن صابر والعبدلي في رفع الغبن عن الناس، متحسسا لشواغلهم وهمومهم- المادية والاجتماعية والسياسية- متصديا لشرارهم من الجهلة و الانتهازيين وشيوخ الدجل والدروشة، وقد وصف المؤلف عصره بالصعب والعسير، قائلا: «..ولم أجد في زماننا هذا الفاسد إلاّ جَهولا غبيا أو متفقها عَرِيًّا»[1]، ويقول في موضع آخر: « بل لا تجد في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلاّ العقارب واللفاع وأهل الشقاق والنزاع، وابتلينا فيه بتصدير الهمج الرعاع المؤثرين سبل الشر والابتداع، المؤثرين أهل الزيغ والاقتطاع»[2].

- أما في الجانب السياسي، فتتجلى مواقف المؤلف بوضوح في الفتنتين(أو الثورتين) اللتين وقعتا بين أهالي تلمسان والأتراك[3]، وكيف أنه لم يقف موقف المتفرج، بل ساهم رفقة شيخه العبدلي في تهدئة الأوضاع العامة، وطمأنة النفوس المروّعة من جهة، وزجر القائد التركي محمد بن سوري في مقره بالمشور من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول المؤلف متحدثا عن الفتنة الأولى: «.. فدخلت مع الشيخ العبدلي بعد ظهر الجمعة على الأمير — محمد بن سوري- فزجره ووعظه»[4]، ودخول المؤلف مع شيخه على القائد التركي فيه دلالة على أن محمد بن سليمان كان يتمتع بسلطة روحية وعلمية واجتماعية في المجتمع التلمساني، فهو واحد من أعلامهم، وإذا لم يكن كذلك، فمن يكون هو حتى يدخل شخصيا على القائد التركي!؟.

- المؤلف كان يشير إلى العثمانيين باسم (الأتراك) أحيانا، وأحيانا أخرى يطلق عليهم(العجم)، وقد أشار غير ما مرة إلى ظلمهم وتعدّيهم على الرعية بحق أو بغير حق، من ذلك ما نقله في هذا الكلام: «.. ذلك أن ترك تلمسان خرجوا بأميرهم بنِيَّة أخذ النجع[5].. فشتَّتَ الله شمل بقية ياجوج وماجوج بريح عاصف حتى قربوا من الهلاك، ورجعوا مذمومين خائبين بحمد الله رب العالمين»[6].

- كما أن المؤلف كان يُلَقَّب أحيانا بالمجاهد، ذلك أنه شارك والده وبعض المشايخ في عديد المرات الجهاد لدحر الإسبان المحتلين عن وهران بخاصة وعن السواحل الجزائري بعامة، وللمؤلف قصيدة ذات اتجاه سياسي وطني قالها ساخطا على القبائل المتعاونة مع الإسبان الغزاة.

[1] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج2، ص: 03

[2] المصدر نفسه، ج1، ص: 182

[3] وقعت الأولى سنة 1035هـ/1626م، والثانية بعدها بسنتين.

[4] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج2، ص: 16

[5] ما تحمله القافلة من سلع ومتاع.

[6] المصدر نفسه، ج3، ص: 161

9-آثـــــــــــاره:

فيما يخص **الشعر** يطلعنا محمد بن سليمان على أشعار غزيرة، بالفصيح والشعبي، أكثرها في مجال التصوف وما يرتبط به من رقائق وعظ ونصح ومديح ومناقب، وبعضه الآخر فيما يمكن أن نسميه بالشعر السياسي الوطني، يستنهض من خلاله همم الناس لأجل تغيير وضعها السياسي المتأزم في ذلك الوقت، خاصة من أجل تحرير وهران التي كانت تحت الاحتلال الإسباني-كما أسلفنا-.

- فيما يتعلق بشعر المناقب، فقد خص به المؤلف في الغالب الأعم شيوخه المبرزين، كالشيخ موسى بن علي اللالتي صاحب قصيدة "حزب العارفين" موضوع المخطوط الذي نحن بصدده، والشيخ العبدلي، والشيخ بن صابر[1].
- وقصائده الفصيحة تدل عموما على تمكن من العروض واللغة، لكن تبقى معانيها معروفة ومستهلكة، وليس فيها جديدا، فهي كشعره الشعبي تستفتح وتختتم بالصلاة والسلام على النبي العدنان، وتُكثِر من ذكره ρ وذكر الصالحين توسلا أو تبركا، لأجل دفع الهموم ورفع البلاء وقضاء الحوائج وتيسيرها.
- وللمؤلف قصيدة ذات غرض سياسي وطني، قالها مستنكرا على القبائل التي كانت تتملق للنصارى المغتصبين لوهران من الإسبان، بل تمدّهم بالدعم- اللوجستيكي والعسكري- بالتعبير السياسي الحديث، نجتزئ منها هذه الأبيات:

الحمدُ لله العَظِيمِ الشَّــانِ	ثمّ صَلَاتُــه عَلَى العَدْنَـــانِ
تَعَاونُوا مَعَاشِـرَ الاخْـوَانِ	واستَعْمِلوا كَلامًا في البُنيَـانِ
فَكَيفَ يَا قَبَائِـل العُربــانِ	عـَافاكُم الله منَ الشَّيطَــانِ
أَتَخْدُمُوا هَـارونَ في وهـرانِ	يَهُوديًّا مَلعُونـًا في القُــرآنِ
مَعَ دُكَيْـكٍ كَـافِرٍ نَصْـرَانِي	يعْبُد يا وَيْـلاَه عُودٍ فَـــانِ
تُبـايُعـونَهُـم على الإِثْمَــانِ	نَسِيتُم الله لَدَى الاحْسَـانِ[2]

أما فيما يخص **التأليف**، فقد أشار محمد بن سليمان إلى مؤلفات أخرى إضافة إلى كتابه « كعبة الطائفين»، لكننا لم نستطع الحصول عليها في الوقت الحالي:

- التأليف الأول أشار إليه في معرض حديثه عن فوائد الذكر بأسماء الله الحسنى، حيث ذكر أن له تأليف حول اسمي الله تعالى: «الحي القيوم»[3].

[1] ذكرنا في هذا السياق بعض الأبيات في صفحات خلت من هذه الدراسة، فلا داعي لتكرارها، ينظر، ص: 12 ، 13.

[2] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 305

[3] المصدر نفسه ، ص: 157

- وأشار إلى تأليف ثان، وأظنه شرحا لإحدى قصائده الشعرية سمّاه: « مفتاح كنز الأسرار ومصباح زجاجة الأنوار المفاضان من ميزابي كوثر بركة الاعتكاف والأذكار»[1]، وقال أنه مكث في تصنيفه عشرين سنة، ويبدو أن موضوعه في التصوف.
- وذكر له تأليف ثالث، قال أنه بقي في تأليفه عشر سنوات، حيث أتمه سنة 1066هـ، وسمّاه: « حياة القلوب وقوت الأرواح في عمارة الدارين وأوراد المساء والصباح»[2].

المبحث الثاني: عصـــــــره

سندرس هذا العصر بالقدر الذي يفيدنا في تسليط الضوء على مدينة تلمسان وشخصية (محمد بن سليمان) التي ترجمنا لها في الصفحات السابقة، وبالقدر الذي يتيح لنا أيضا رسم ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاش في ظلها المؤلف:

1-سيــاسيـــا:

من المعروف أن المؤلف محمد بن سليمان صاحب «كعبة الطائفين» عاش في القرن 11هـ/17م، وكان قد مضى على الحكم العثماني في تلمسان آنذاك حوالي نصف قرن[3]، ومن المعلوم أن بداية العهد العثماني في الجزائر كان بمبادرة من أهل البلاد الذين استنجدوا بأمراء البحر المسلمين الأتراك، الذين كانت أساطيلهم القوية تجوب البحار، وتملك القوة الكافية لردع الإسبان الكاثوليك من التوغل في البلاد الإسلامية[4].

ابتداء من عام 1503م أصبح الخطر الاسباني على الجزائر حقيقة واقعة، بعد أن اشتدّ صراع وتطاحن أمراء تلمسان- الزيانيين- على العرش وإهمالهم لشؤون الإمارة، وغفلتهم عما يجري حولهم في العُدوة الأندلسية الضائعة، وقد أقدم الإسبان على احتلال المرسى الكبير عام 1505م، ووهران عام 1509م، وبجايةعام1510م، وأكثروا من التدخل في شؤون إمارة تلمسان الداخلية.[5]

وفعلا استطاع الأتراك أن يجلوا القوات الإسبانية في ظرف قياسي، لكن ملوك بني زيان في تلمسان كانوا يريدون أن ينتهي دور العثمانيين عند هذا الحد، ولقد ظل هؤلاء الأمراء والملوك في مقاومة الانتداب العثماني مدة طويلة، رغم التهديدات التي تتربص بهم من جهات عدّة.[6]

---

[1] المصدر السابق، ج3، ص: 233

[2] المصدر نفسه، ج3، ص: 272

[3] ولد المؤلف سنة 1605م، وألحقت تلمسان بصفة نهائية بالحكم التركي حوالي 1556م.

[4] عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، (ج3) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دار الثقافة، بيروت، د ط، 1982، ص:36،38.

[5] يحي بوعزيز، ماضي مدينة تلمسان وأمجادها الحضارية، ضمن كتاب: مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا- نخبة من الأساتذة والمؤرخين- جمع وتعليق: محمد بوزواوي، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2011، ص: 22

[6] تهديدات الإسبان من جهة، وتهديدات الدولة السعدية بالمغرب من جهة أخرى، زد على ذلك مشاكلهم الداخلية(صراعهم على الملك).
ينظر: - يحي بوعزيز، ماضي مدينة تلمسان وأمجادها الحضارية، ص: 17-22

اختفت الدولة الزيانية بصفة نهائية على يد الأتراك عام 1556م، الذين ألحقوا تلمسان وإقليمها بحكومة الجزائر المركزية، وهو العام الذي اكتمل فيه الاستيلاء التركي العام على الوطن الجزائري.[1]

وسوف لن نبرح الناحية السياسية دون الإشارة إلى بعض الأحداث السياسية والعسكرية المهمة التي طبعت الوجود العثماني في الجزائر:

أ–الجهاد العامل المشترك بين الجزائريين والعثمانيين:

إن أهم ميزات العهد العثماني في الجزائر هي استمرارية فكرة الجهاد ضد الكفار، بالمعنى التقليدي للكلمة، والجهاد الذي مارسه العثمانيون والجزائريون نوعان: جهاد بحري عام وجهاد بري خاص، وقد أدّى حماس العثمانيين للجهاد البحري ومطاردة خصومهم في عقر دارهم إلى مساندة الجزائريين، والعمل معهم في سفنهم والتحالف معهم ضد العدو المشترك.[2]

أما النوع الثاني من الجهاد فهو الجهاد البري الخاص، الموجه ضد إسبانيا بالذات، ذلك أن إسبانيا قد أجبرت على الخروج من جميع النقط الساحلية التي احتلّتها في الجزائر، ماعدا وهران ومرساها الكبير، وقد عرفنا كيف كان المؤلف محمد بن سليمان في منتصف ق17م يشارك رفقة العديد من المشايخ والصلحاء، وبمعية إخوانهم الجزائريين في الجهاد لأجل دحر الإسبان المعتدين عن مدينة وهران.[3]

في هذا الصدد يشير أبو القاسم سعد الله إلى أن إقليم الغرب الجزائري نتيجة هذه الأوضاع كان في حالة توتر، بل حالة حرب مستمرة، وقد أثر هذا الوضع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كما أثر على الحياة الثقافية.[4]

ب–الثورات ضد العثمانيين:

رغم ما قيل عن التحام الجزائريين بالعثمانيين والتحالف معهم في ساعة الخطر المشترك، إلاّ أن هناك ثورات عديدة وقعت في العهد العثماني(شهد بعضها محمد بن سليمان في تلمسان، ورصد أخبارها في كتابه «كعبة الطائفين»).

هذه الثورات كان بعضها له طابع ديني، وبعضها له طابع سياسي وطني، وبعضها كان لدوافع اقتصادية، كما أن البعض منها كان نتيجة تمرد شخص حبًّا في المغامرة أو طمعا في الجاه والسمعة، بالإضافة إلى أن الثورة كانت أحيانا ثورة طريقة صوفية أو ثورة طبقة اجتماعية معينة،.[5]

–محمد العربي حرز الله، تلمسان مهد حضارة وواحة ثقافة، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص:231-232.

[1] ينظر: – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، (ج3)، ص: 463

– يرى يحي بوعزيز أن الدولة الزيانية سقطت في يد الأتراك بصفة رسمية عام 1554م، ينظر: يحي بوعزيز، ماضي مدينة تلمسان وأمجادها الحضارية، ص: 21.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1)، ص: 193، 194

[3] يذكر المؤلف أنه شارك رفقة والده والشيخ العبدلي الغزو –الجهاد– مرارا ضد الإسبان، ويخبرنا أيضا عن استشهاد بعض العلماء في مقاتلة الكفار بوهران عام 1053هـ، منهم الفقيه محمد بن ملوك بن عبد القادر العامري، والولي الصالح محمد السائح وولده.ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج2، ص: 222

[4] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1)، ص: 195

[5] ينظر: المرجع نفسه ، ص: 206، 207

وسنكتفي هنا –لضيق المقام- بالإشارة إلى تلمسان بلد المؤلف، وما حدث فيها من تمرد وصدام وثورات، من ذلك القتال الذي نشب بين العرب والترك ،كما أشار إلى ذلك ابن مريم في «البستان»، في معرض ترجمته للشيخ محمد السويدي(ت980هـ)، حيث أراد الأتراك الذين نزلوا بجيوشهم في إحدى الدواوير القريبة من تلمسان نهب العلف من إحدى (المطامير)، فقام العرب يتصدّون للأتراك المعتدين ويتقاتلون معهم.[1]

أشار محمد بن سليمان –كما أسلفنا- إلى ثورتي أهالي تلمسان سنة 1035هـ و1037هـ، وقد بين في كتابه ما كان يرتكبه القائد التركي محمد بن سوري من ظلم وتعسف في حق الأهالي، وكيف أن شيوخ التصوف والعلماء كانوا يتوسطون لديه لحماية الناس، مسلمين وذمّيين من جوره وعربدته، و كانوا أحيانا يعظونه بل ويزجرونه، ومن ضمنهم المؤلف نفسه وشيخه العبدلي.

ومما قاله المؤلف في حق القائد التركي، من الفصيح:

ترقَّب يـومَ موتِكَ يا فُلَان[2]   ورَاهَقَـك الرَّحِيـلُ من الدِّيــارِ

وقد أخبرنا المؤلف أن الشيخ العبدلي توفي أثناء رجوعه من الجزائر، لتسكينه الفتنة(الثورة الأولى)، أي لأجل الإصلاح بين أهالي تلمسان والحكام الأتراك[3]، وأخبرنا أيضا أنه حدثت ثورة أعظم من الأولى، بعد وفاة شيخه بسنتين.

ومن ثم فالوضع الذي كان يعيش فيه المؤلف محمد بن سليمان بتلمسان كان وضعا متأزما سياسيا وغير مستقر على الدوام.

2-اجتماعيـــا:

هناك ثلاثة عوامل خارجية أثّرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال العهد العثماني، الأول هجرة الأندلسيين التي بدأت خلال القرن التاسع وتقوّت خلال العاشر، والثاني الوجود العثماني نفسه، والثالث هو الوجود المسيحي واليهودي[4].

وإذا فحصنا خلايا المجتمع وجدنا العثمانيين يأتون في أعلى السلّم، وكانوا يحتكرون السلطة، فمنهم الباشوات والوزراء والبايات والأغوات،. ولا يكاد يخلو مصدر عن العهد العثماني دون أن يصدمه شيوع الرشوة والفساد والجور والاستغلال الشنيع، الذي كان يمارسه العثمانيون في الجزائر، ومنها تلمسان.[5]

وبعد عدة أجيال من الوجود العثماني في الجزائر ظهرت فئة جديدة من المولّدين العثمانيين (من أمهات جزائريات)، وكان أبناء هذه الفئة يطمحون بالميلاد واللغة والانتماء العائلي إلى الصعود للمرتبة الأولى في المجتمع،

---

[1] ينظر ابن مريم، البستان، ص: 290

[2] يقصد ب (فلان): القائد التركي محمد بن سوري، والمؤلف استعمل هنا التقيَّة درءً للعواقب.

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج2، ص: 15، 16

[4] ينظر: – عمر سعيدان، علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان، في الثلثين الأول والثاني من ق 14م، منشورات ثالة، الجزائر، ط2، 2011، ص:27، 34.

–أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: 142

[5] ينظر: – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: 147.

ولكن العثمانيين -أصلا- منعوهم، واعتبروهم كراغلة غير أصليين، أو أبناء عبيد، حتى يحافظوا هم على مقاليد السلطة في أيديهم، وكانت محاولة الكراغلة الفاشلة في منتصف القرن الحادي عشر- عصر محمد بن سليمان- سببا في إبعادهم نهائيا عن مقاليد الحكم[1].

والفئة الثالثة هي فئة الحضر، وهي تشمل سكان المدن في مقابل سكان البادية، وهي تضم العلماء والتجار وأصحاب الحرف والصنائع والكتّاب والإداريين، وكانت هذه الفئة رغم دورها الاجتماعي والاقتصادي والعسكري أيضا محرومة من التطلع السياسي، لأن احتكار العثمانيين للسلطة قد أوصد الأبواب في وجهها.[2]

أما في الريف الجزائري فقد نجح العثمانيون في تدعيم سلطتين، الأولى سلطة روحية تتمثل في لجوئهم لشيوخ الطرق الصوفية، يتزلّفونهم ويحمونهم ويطلبون بركاتهم، والثانية سلطة دنيوية تتمثل في شيوخ القبائل وقوّاد العشائر الذين

كان العثمانيون يمدّونهم بالسيف والبرنس ويقطعونهم الأراضي، وكان الجميع متعاونا على استغلال عرق الفلاحين وأهل البادية.[3]

أما تلمسان فقد فقدت كثيرا من سمعتها وقيمتها خلال العهد العثماني، فغداة استيلاء العثمانيين على السلطة في الجزائر كان الحسن الوزّان(ليون الإفريقي) يصف تلمسان سنة 923هـ بأنها تحتوي على حوالي ثمانين ألف نسمة، وعددا من المساجد وخمس مدارس، كما تحدّث عن طبقاتها الاجتماعية، فقال إنها تضم الصنّاع والتجار والعلماء والجيش.[4]

وكان المجتمع التلمساني حسب المؤلف مجتمعا حضريا متماسكا إلى حدّ ما، حيث تلعب فيه العائلات الدينية والعلمية دورا فاعلا في تنظيم العلاقات العامة بين الأهالي، وتمثل سلطة معنوية لها ثقلها في المجتمع التلمساني، وكانت المدينة مقسمة إلى أحياء، كباب الجياد والمشور وأجادير...

كما أن معظم العائلات الكبيرة كانت تمتهن التجارة والفلاحة، وتشتغل بالعلم، ومنها عائلة المؤلف التي يبدو أنها كانت تسكن البادية ثم استقرّت بالمدينة، وكانت من العائلات الغنية والميسورة، وكان لها تعاملات تجارية مع مدن الجنوب الغربي لبلادنا، وأخبرنا المؤلف بحالة الاضطراب وكثرة اللصوصية وقطاع الطرق الذين كانوا يغيرون على قوافل التجارة المتوجهة إلى تلمسان، كما حدث له ولقافلته ذات مرّة وهو على مشارف تلمسان.

[1] كان الصراع بين الأتراك والكراغلة محتدما، خصوصا بعد ظهور هؤلاء الكراغلة كقوة مؤهلة لمنافسة الأتراك. ينظر:- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص: 49./ -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: .149

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: 150

[3] المرجع نفسه، ص: 152، 152

[4] المرجع نفسه، ص: 172

3-ثقافيـــــــا:

لا تكاد المؤسسات الثقافية في العهد العثماني تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية، و تذكر المصادر أنه كان بتلمسان في آخر العهد العثماني خمسون مسجدا، منها جامع سيدي بومدين والجامع الكبير وجامع محمد السنوسي وجامع بن زكري وجامع أولاد الإمام وجامع المشور[1]، وفي كتاب «كعبة الطائفين» طائفة أخرى من مساجد تلسان.

واشتهرت تلمسان ونواحيها أيضا بزواياها وأضرحة صلحائها ومقامات أوليائها، أفادنا محمد بن سليمان في كتابه ببعضها، منها: حرم أبي مدين، وسيدي الحلوي، زاوية سيدي العدون بأوزيدان، وتثبت الإحصاءات أن عدد الزوايا والمقامات ونحوها كان يفوق عدد المساجد والمدارس، فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في آخر العهد العثماني.[2]

كان التعليم منتشرا تبعا لذلك في المساجد والزوايا وبعض المدارس، حيث تقام فيها حلق الدروس أو مجالس الإقراء، فكان كل شيخ مشهور سواء في المدرسة أو الجامع أو الزاوية، هو المرجع أو المنبع الذي يلتف حوله طلبة العلم يتغذّون منه روحيا وعقليا.

كما كانت بتلمسان عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس، أو بالزهد والتصوف، أخبرنا المؤلف محمد بن سليمان عن عدد منهم، كعائلة المقرّي، والسنوسي، وابن مريم المديوني، فكانوا أيضا مراجع علمية وثقافية للتلمسانيين، بما حوته بيوتهم من مصنفات نفيسة، وبما وعته صدورهم من معارف وعلوم رواية ودراية.

الملاحظ على علماء القرن 11هـ/17م بتلمسان قلة العناية بالتأليف مقارنة بالقرن التاسع والعاشر، ربما ذلك يعكس بساطة المعرفة والثقافة عند هذا الجيل من المشايخ والعلماء، فأغلب طلبة العلم كانوا يكتفون بقليل من العلم لأجل تولّي بعض المناصب الشرعية.

وكأني بهذا الجيل كان يعيش فقط على تراث القرن التاسع، جيل الشيخ السنوسي وغيره، يتغذّى من معينه، ويتبرّك به و بأعلامه، ومعروف أنه كان لتلمسان رصيد ضخم من الثقافة في مختلف المستويات ورثته عن العهد الزياني، وعرفه القرن التاسع(15م)، وكثير من هذا الإنتاج ظل موضع عناية علماء القرون اللاحقة شرحا وتعليقا ودراسة.

وقد كان للاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية عاقبة وخيمة على الحياة الثقافية، وهي هجرة العلماء من تلمسان، خاصة إلى المغرب، وتحديدا إلى فاس.[3]

أ-هجرة العلماء:

---

[1] المرجع السابق، ص: 266

[2] المرجع نفسه، ص: 266.

[3] لكن رغم ذلك، سجل لنا كتاب"كعبة الطائفين" عددا من العلماء والمشايخ الزائرين لتلمسان في ق17م، سواء من قسنطينة(عاشور القسنطيني، أحد تلامذة عبد الكريم الفكون، صاحب كتاب " منشور الهداية")، أو من مستغانم، وحتى من خارج البلاد (من المغرب).

ما إن تسنّى للأتراك تطويع المدينة بصفة نهائية حتى مارسوا عليها نوعا من الانتقام الذي انعكس عليها بصفة واضحة، ولاسيما في المجال الثقافي الذي كانت تلمسان تمثل رمزه الوطني والدولي، ودخل تاريخ المدينة منذ تتريكها في ركود علمي وثقافي رهيب وغير مسبوق، بسبب هجرة العلماء وتفرقهم على الأمصار.[1]

فهاجر كثير من العلماء لاسيما من تلمسان ونواحيها إلى المغرب(خاصة فاس)، بسبب الاضطرابات التي سادت في البلاد إذ ذاك، ومن يقرأ كتب التراجم كـ «البستان» لابن مريم، و«دوحة الناشر» للشفشاوني[2]، وكتابي: «نزهة الحادي في علماء القرن الحادي» و «صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر» للإفراني، يجد أسماء العديد من العلماء والعائلات التي هاجرت إلى المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر، ومعظم العائلات العلمية التي ذاع صيتها بتلمسان في القرن التاسع، انتقلت إلى هناك في القرن الذي تلاه.

ومن جملة هؤلاء العلماء الذين هجروا تلمسان باتجاه المغرب، ذكر ابن مريم في «البستان»: محمد بن مرزوق الخطيب، أحمد الوعزاني، محمد بن شقرون الوجديجي الذي نزل فاس وتولّى الإفتاء في مراكش، ومحمد بن عبد الرحمن المغراوي، المعروف بابن جلال، الذي تقلّد وظيفة الفتيا والتدريس والخطابة بجامع الأندلس ثم بجامع القرويين بفاس، وأحمد المقري...[3]

وقد زاد من المخاطر التي كان العلماء يتعرضون لها في تلمسان كثرة الأوبئة والنكبات الطبيعية، وتفيدنا كتب التاريخ والتراجم في هذا الصدد بأسماء عديد العلماء والشيوخ الذين أودى بحياتهم الطاعون، فصاحب «البستان» يذكر الطاعون الذي حدث سنة 981هـ، ووفيات العلماء الذين كانوا ضحية له.[4]

وثمّة عدد من شواهد القبور التي اكتشفها (شارل بروسلار) تشير إلى أن أصحابها ماتوا بسبب وباء الطاعون سنة 986هـ/ 1582م[5]، وقد ذكر محمد بن سليمان في كتابه الوباء الذي اجتاح المدينة وأودى بحياة الكثير من العلماء التلمسانيين سنة 1058هـ/1648م، وكان المؤلف قد نظم قصيدة بالفصيح في رثائهم، ذكرنا منها بعض الأبيات في الصفحات السابقة.[6]

فإذا أضفنا ذلك إلى عوامل السجن والنفي والإعدام والإبعاد عن الوظائف السياسية ونحوها أدركنا الجو الذي كان يعيش فيه علماء الجزائر- بعامة وتلمسان بخاصة- في العهد العثماني، وأدركنا بالضرورة أنه لم يكن جوا يساعد على الاستقرار والانتاج.[7]

---

[1] ينظر: - محمد العربي حرز الله، تلمسان مهد حضارة وواحة ثقافة، ص:239، 240

[2] ممن ذكرهم الشفشاوني في كتابه: ابراهيم الوجديجي، محمد بن الزنداري التلمساني، أحمد بن ملّوكة التلمساني الذي ساءه ما فعله عرّوج من بطش في أهالي تلمسان، وقال قولته: «لا رجع إلى تلمسان أبدا"، ومنهم أبو الطيب الميسوري، ابن الولي سيدي يحي بن صفية، جد أولاد نهار بتلمسان،. ينظر: - الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2003، ص: 80- 120، 121 .

[3] لم يكن أحمد المقري صاحب" نفح الطيب" قد اشتهر أمره في تلمسان، عندما هاجر إلى فاس، ذلك أن شهرته العلمية قد بدأت أثناء وجوده بالمغرب، ثم بالمشرق. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: 432، 433

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: 439

[5] جيلالي صاري، تلمسان الزيانية، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ط، 2011، ص: 83

[6] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)(ج1)، ص: 197

[7] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1) ص: 440

ومما قاله في حق تلمسان الرحالة أبو عبد الله محمد العبدري الحيحي في رحلته المسماة «الرحلة المغربية» في أواخر القرن السابع الهجري، ما يلي: «..مبانيها مرتفعة، ولكنها مساكن بلا سكن ومنازل بغير نازل، ومعاهد اقفرّت من متعاهد. وأما العلم فقد دُرِسَ رسمه في أكثر البلاد،.. فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله، ومنهل جفّ شلله»[1].

وزار الرحالة أبو القاسم الزياني تلمسان في العهد التركي، وأقام بها مدة وسجل انطباعاته في رحلته «الترجمانة الكبرى»، قال: ولما دخلت مدينة تلمسان التي لا يعرفني بها انسان، خالي الكيس من النقير والقطمير، ولا معين ولا أنيس ولا مشير، فكنت أقصد المسجد الجامع لعلّي أجتمع برئيس أو أظفر بخل أتخذه لوحشتي أنيس، وأبحث عن الأعيان والأعلام، وأهل المحابر والأقلام،- إلى أن يقول -:

كانت تلمسانُ بالأعلامِ صائلةً وبالجيادِ ولم تُربَط بها الحُمُـــرُ
أَصَــابهَــا المســخُ إِذْ عَــادَت مَنَاصِبُ العِلمِ لِلأَجْلَاف والخَوَرُ
وَكَيفَ لَا وَجُنُودُ التُّرْكِ حَولَكُـم تَسُوقُكُم بعِصِيِّ الخَسْفِ لا تَذَرُ[2]

ب- طبيعة النشاط الثقافي في العصر العثماني:

العصر التركي في الجزائر هو عصر التصوف بامتياز، يقول أبو القاسم سعد الله:« بقدر ما سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني بقدر ما كثر إنتاج العلماء في هذا الميدان-خاصة في ق16هـ-، فنحن نجد الكثير من الكتب والرسائل والتقاييد والمنظومات التي تتناول التصوف من قريب أو بعيد، كالأذكار والأوراد والرّدود والمناقب والمواعظ والحكم والشروح الخاصة بالقصائد الصوفية والمدائح النبوية. »[3]

- وتبعا لذلك كثرت كتب "المناقب"، وموضوع المناقب عموما هو التصوف وحياة المتصوفين، وتعداد جميل صفاتهم و فضائلهم، ومن أوائل كتب المناقب كتاب:«المواهب القدسية في المناقب السنوسية»، الذي ألّفه محمد بن عمر بن ابراهيم الملالي، عن حياة وأعمال محمد بن يوسف السنوسي، وكان من تلاميذه.[4]

ولعل أحمد بن يوسف الملياني –سند المؤلف محمد بن سليمان في الطريقة الشاذلية- هو أكبر شخصية صوفية (جزائرية) خصها المؤلفون بالتقاييد والتأليف والأشعار، فأنت لا تكاد تجد عملا في التصوف لا يشير إلى ترجمة الملياني وحياته الروحية، وقد خص محمد الصبّاغ القلعي الشيخ الملياني بمصنف أصبح مصدر كل الدراسات عن الملياني، ونعني به:«بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار».[5]

---

1 المهدي البوعبدلي، التعريف بمدينة تلمسان وولايتها عبر التاريخ، ضمن كتاب: "مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا" جمع وتعليق: محمد بوزواوي، ص:40

2 المرجع نفسه، ص: 45، 46

3 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج2)، ص: 111

4 المرجع نفسه ، ص:113

5 المرجع نفسه، ص: 114

ومن التلمسانيين الذين تأثروا بالصبّاغ القلعي، ابن مريم صاحب «البستان»، وقد ترجم العلامة ابن مريم لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا في تلمسان أو عاشوا فيها.[1]

ويمكننا إدراج كتابنا «كعبة الطائفين» في سياق كتب المناقب، لما احتوى عليه من ذكرٍ لمناقب الصالحين والعلماء وخصالهم وسيرهم، فقد تحدث المؤلف محمد بن سليمان عن عدد كبير من رجال التصوف والعلماء التلمسانيين والجزائريين والمسلمين عموما في القرن 17م بشكل خاص - وهو قرن يعتبر فقيرا من حيث التراجم الجزائرية-، والكتاب من هذا الجانب يدخل ضمن أعمال المناقب بكل تأكيد.

وهناك ظاهرة ثقافية أخرى شغلت العلماء والمشايخ في العصر التركي، هي "الشروح الصوفية" -على غرار الشروح الفقهية والنحوية-، وفي هذا الصدد شغلت القصيدة السينية المعروفة بـ "سينية ابن باديس" أو"النفحات القدسية" لأبي الحسن علي بن باديس كثيرا من الشرّاح والمعلّقين، وموضوعها هو الإشادة بالشيخ عبد القادر الجيلاني، ومطلعها:

أَلَا صِل إلى بغداد فهي مُنَى النفس وَحَدِّث بها عَمَّن ثَوَى بَاطِنِ الرَّمْـــسِ

وحوالي القرن الحادي عشر الهجري، وهو عصر المؤلف محمد بن سليمان، ألف عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد التجاني رسالة في صلحاء ناحية غريس- قرب معسكر- سمّاها : «عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس»، وقد تناول الرسالة بالشرح عدد من المعاصرين لها والمتأخرين، منهم أبو راس الناصري المعسكري.

وقد اشتهر محمد بن أحمد الشريف الجزائري بشروحه الكثيرة على أعمال غيره، وعلى بعض الأحاديث النبوية، من ذلك شرحه لقصيدة الدمياطي" اللامية في التصوف"، وقد سمّى الجزائري شرحه عليها: «القول المتواطي في شرح قصيدة الدمياطي»[2].

وهنا أيضا يتقاطع عمل محمد بن سليمان مع هذا النوع من الأعمال الصوفية التي اهتمّت بالشروح، لأن منطلق كتابه "كعبة الطائفين" -كما نعلم – قصيدة شعبية صوفية نظمها شيخه موسى اللالتي تسمّى " حزب العارفين"، والتي انبرى لها المؤلف بالشرح والتعليق.

المبحث الثالث: الأصـــــــول الخطّيـــــــة للكتاب

1-النسخ المعتمدة:

عندما عزمنا على تحقيق كتاب «كعبة الطائفين» كان أول عمل قمنا به، هو البحث عن نسخه في فهارس المكتبات العربية والأجنبية، وفي هذا الصدد نشير إلى أن الدراسة التي قدمها د/ أبو القاسم سعد الله عن

[1] ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 03

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج2)، ص: 128-130

الكتاب[1]، كانت منطلقنا، ووفّرت علينا جانبا من الجهد، أولا في رحلة البحث عن نسخ المخطوط، وثانيا في معرفة قيمة بعضها، من حيث كونها كاملة أو ناقصة، انطماس الخط أو وضوحه،.[2]

يقول أبو القاسم سعد الله مبينا بعض نسخ كتاب "كعبة الطائفين":« سبق و أن درسنا كتاب (كعبة الطائفين) من المعلومات التي استقيناها من نسخة القاهرة، وقد ذكرنا هناك أن هذه النسخة ناقصة وبقينا نبحث عن نسخة كاملة إلى أن وجدناها في باريس، والجدير بالذكر أن للكتاب نسخة أخرى بالمغرب الأقصى لم نطّلع عليها، ولعلها أيضا كاملة »[3].

اطّلعنا بدورنا على أربعة نسخ توجد في أربعة أماكن مختلفة، وجدناها جميعا متشابهة إلى حد بعيد في البداية[4]، وفي الأسلوب، وبعضها مختلف الرسم، ومتفاوت في الخط، من حيث رداءته ووضوحه، ومختلفة أيضا من حيث النصوص والروايات تقديما أو تأخيرا، أو حذفا بالمرّة.

النسخ المعتمدة في هذه الدراسة على الترتيب بحسب أهميتها:

1- نسخة باريــس
2- نسخة الربــاط
3- نسخة القاهـرة
4- نسخة الريـاض

بعد قراءتنا تلك النسخ واستيعابنا ما فيها، قمنا بمقابلة بعضها ببعض، فاتضح لنا أن (نسخة باريس) أوفى النسخ وأكملها وأفضلها[5]، وعليه اتخذناها أصلا قابلنا عليها النسختين الأخريين (نسختي الرباط والقاهرة)، أما (نسخة الرياض) فكنا لا نعود إليها إلاّ نادرا، كمحاولتنا إقامة بعض السقط، أو استبيان بعض الكلمات أو العبارات غير الواضحة أو المطموسة في النسخ الأخرى، نتيجة خروم أو مداد،.

أ-نسخة باريــس:

هي نسخة المكتبة الوطنية بباريس، توجد في قسم الشرقيات تحت رقم: (2460) بروكلمان1009/02
تتكون هذه النسخة من ثلاثة أجزاء:

---

[1] أشرنا إلى ذلك في الهامش رقم:2 من الصفحة: 02 من هذه الدراسة.

[2] هذه المعلومات الأولية مهمة للباحث المحقق في بداية الدراسة، إذ من شأنها أن تجعله يمضي في السعي لاعتماد بعض نسخ المخطوط، أو يصرف نظره عنها، خاصة إذا وجد أنها منقولة من نسخة أخرى قد تحصل هو عليها.

[3] فعلا، لقد صدق أبو القاسم سعد الله في الأولى(تحققنا من نسخة باريس فوجدناها كاملة)، لكن حدسه خانه في الثانية(عاينّا نسخة الرباط فاتضح أنها ناقصة).ينظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص: 211

[4] ثلاثة نسخ وجدناها ناقصة ومبتورة الآخِر، كما سنبيّنه لاحقا.

[5] وإن كانت لا تخلو من بعض الأخطاء في الرسم الإملائي، ربما يرجع كثير منه إلى الناسخ.

– الجزء الأول، موضوع هذه الدراسة، وهو أضخم هذه الأجزاء، عدد أوراقه هو: 305 ورقة، ما يعادل:613 صفحة.

– الجزء الثاني، عدد أوراقه :226 ورقة، ما يساوي :452 صفحة.

– الجزء الثالث، يقع في :272 ورقة، ما يماثل :544 صفحة.

لم نعثر على اسم الناسخ رغم اجتهادنا في قراءة النسخة بأجزائها الثلاثة، وإنما يوجد عليها تمليك مفاده أن الجزء الثاني والذي قبله هما في حوزة الشريف مولاي عثمان بن ابراهيم العلامي، المستوطن بجزام برقوق[1].

تبدأ هذه النسخة بالنص الآتي :« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه و سلم، قال العبد الفقير، المضطر إلى رحمة ربه القدير، محمد بن سليمان الصائم بن عبد الرحمن بن رزوق بن عبد المؤمن، الحجازي نسبا، التلمساني منشأ، عُرف بالجزولي، أصلح الله حاله وغفر له ولوالديه ولأشياخه ولأحبته ولجميع المسلمين، آمين: الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وخضرته. »[2].

تدل العبارة المذكورة في آخر الكتاب(ج3) أن الناسخ غير المذكور انتهى من نسخه:« صبيحة يوم السبت سابع وعشرين ربيع الثاني عام خمسة وسبعين ومائتين وألف (1275هـ) »[3].

أما الجزء الأول من الكتاب، وهو موضوع هذه الدراسة، فقد انتهى الناسخ من نسخه في: 14 رجب الفرد الحرام عام 1271هـ.[4]

قياسها مصورة هو(20×30)، عدد سطور كل صفحة (25) سطرا، متوسط عدد الكلمات في كل سطر هو(11) كلمة.

كتبت بخط مغربي واضح وبلون أسود، كان الناسخ يستعمل طريقة التعقيبة[5](تسمى أيضا الوصلة)، لتأمين ترتيب الأوراق، حتى لا تتداخل أو تختلط في حال ما تفكّك المخطوط.

رمزنا لنسخة باريس هذه بـ حرف (أ)

كان الناسخ يشير إلى أهمية بعض النصوص في المتن بعبارات على الهامش كتنبيه على فائدتها، أو تلخيص لفحوى معناها، كما كان يضيف أحيانا بعض الفقرات في الهامش، إما على اليمين أو اليسار أو في الأسفل، لتدعيم فحوى تلك النصوص في المتن.

---

[1] هذه المعلومة ذكرت في الجزء الثاني من كتاب كعبة الطائفين، ص:1. وأظن أن أبا القاسم سعد الله وقع في تصحيف "مكان النسخ"، ولعله (جزاء ابن برقوق) وهو حي من أحياء مدينة فاس المغربية، بهذا الحي مسجد يقال له: مسجد خليل، أطلق عليه هذا اللقب لأن مختصر خليل لما قدم به إلى فاس ابتدئ تدريسه بهذا المسجد، وقد نبه على هذا صاحب "نشر المثاني" في ترجمة أبي عبد الله محمد العربي بن الطيب القادري. ينظر: الكتاني، سلوة الأنفاس، ج1، ص: 379.

[2] المقدمة نفسها نجدها في نسخة الرياض، أما نسختي الرباط والقاهرة فتبدآن بعد البسملة والصلاة على النبي بعبارة: "الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وخضرته."

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ، ن أ، ج3، ص: 272

[4] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ ، ج1، ص: 306

[5] هي نوع من الترقيم استعمله القدماء لترتيب مؤلفاتهم، وتسمى الرقاص و الوصلة، وهي أن يثبت الناسخ في نهاية الصفحة تحت آخر كلمة من الشطر الأخير، أول كلمة في الصفحة الموالية. ينظر: أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، معجم مصطلحات المخطوط العربي(قاموس كوديكولوجي)، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط 3، 2005، ص: 93

كان الناسخ يستعمل بعض الإشارات الكتابية (مثل علامة الإلحاق) من أجل اثبات بعض الأسقاط خارج سطور الكتاب، وهي عبارة عن خط رأسي يرسمه بين كلمتين، يُعطف بخط أفقي يتّجه إلى الهامش يمينا أو يسارا، إلى الجهة التي دوّن فيها السَّقط، هكذا (¬)، ويكتب إلى جواره أحيانا (صح).

اتّخذنا هذه النسخة أصلا لتحقيق الكتاب، على الرغم من أنها ليست أقدم النسخ[1]، للاعتبارات التالية:

- كونها نسخة كاملة وتامة وواضحة، ليس بها سقط ذو اعتبار
- أقلّ النسخ تصحيفا وتحريفا
- نسخة سليمة ليس بها خروم أو طمس أو تآكل[2]

كون النسخ الثلاثة الأولى التي بحوزتنا غير مكتملة، لا يتجاوز أحسنها عدد: 189 ورقة، في حين أن الجزء الأول فقط من نسخة باريس(أ) الذي اتخذناه موضوعا لدراستنا هذه بلغ عدد أوراقه لوحده(305) ورقة كما أسلفنا.

ب- نسخة الربــاط:

هي نسخة الخزانة العامة (المكتبة الوطنية حاليا) بالرباط، توجد ضمن مجموع، تحت رقم: 1921 (د)، عدد أوراقه 303 ورقة، في كل ورق صفحتان، ويضم المخطوطات الآتية:

-كتاب «كعبة الطائفين»: يوجد في جزأين، عدد أوراقه 230 ورقة.

- الجزء الأول: يبدأ من الورقة 01 الى الورقة 164؛
- الجزء الثاني: يبدأ من الورقة 165 الى الورقة 230(وهو ناقص)؛

-كتاب «نظم رجال الحلية» لمحمد بن جابر[3]: يبدأ من الورقة230 وينتهي في الورقة : 246

- شرح قصيدة سيدي علي الوفا[4]؛

-كتاب «التدبيرات الإلهية في اصلاح المملكة الانسانية» لمحي الدين بن عربي: يبدأ من الورقة 253 وينتهي في الورقة 297[5].

- مقطعات الشُّشْتَري[1]، من الورقة 297 الى الورقة 303؛

---

[1] نسخة القاهرة هي الأقدم (نُسخت عام 1205هـ)، ثم تأتي نسخة باريس، ثم نسخة الرياض، ثم نسخة الرباط(هذه الأخيرة مكتوبة بخط أوضح).

[2] سجلنا في نسخة الرياض خرومات وطمس في كثير من الصفحات.

[3] منظومة شعرية (من الرجز) لمحمد بن جابر، تبلغ ثمانمائة وثلاثا وثلاثين بيتا، أحصى فيها ناظمها سبعمائة وستين وليا (منهم خمسا وثلاثين ولية)، ورد ذكرهم في كتاب"حلية الأولياء" لابن النعيم، يبدو أن الناظم كان مغربيا، من سكنة مدينة مكناس، كما يشير لذلك، في آخر هذه المنظومة.

[4] ورد هذا الشرح في الفهرس العام للمخطوط، إلاّ أننا لم نعثر عليه في الكتاب، ووجدنا بدله قصيدتين شعريتين، الأولى تُسمّى(ذخر المعاد على وزن بانت سعاد)، ليس عليها اسم ناظمها، وهذا مطلعها : إلى متى أنت باللذّات مشغول وأنت عن كل ما قدّمت مسؤول

في كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويف محلــول

[5] كتاب " التدبيرات الإلهية" يعتبر من الكتب المهمة للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، ويأتي في الأهمية بعد كتابي: "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكّية"، تكلم فيه عن الحقائق الحقّية والحقائق الخلقية التي ينطوي عليها وجود الانسان.

ينظر: محي الدين بن عربي، التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الانسانية، اعتنى به: عاصم ابراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، ط2، 2003، ص: ب

نسخة الرباط هذه حسنة مكتوبة بخط واضح ورسم حديث، لكنها مبتورة الآخر، وناقصة، قياسها مصورة (20×28)، معدل سطورها 27 سطرا في كل صفحة، متوسط الكلمات في كل سطر 11 كلمة.

اسم الناسخ غير موجود على النسخة، ووردت عبارة في هامش آخر الجزء الأول تفيد أن هذه النسخة منقولة عن نسخة مغربية منقولة بدورها عن نسخة المؤلف[2]. أما تاريخ النسخ فتبينه عبارة الناسخ فيما يلي: « كان الفراغ من نسخ هذا التأليف المبارك نفعني الله والمسلمين به يوم الأحد المبارك لثمان بقيت من شهر الله رجب المبارك الأصم، سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف من هجرة من له الفخر والشرف، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم، آمين »[3].

تبدأ النسخة بعد البسملة بالعبارات التالية: « الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وخضرته»، وهي البداية نفسها في نسخة القاهرة، وتنتهي بنفس العبارة التي تنتهي بها نسخة القاهرة، وهي هذه: «وقال سيدي عبد الرحمن»[4].

الناسخ أحيانا يقدّم أو يؤخر بعض النصوص، وأحيانا أخرى يقوم بتلخيصها، وأحايين كثيرة يتصرف في إعادة صياغة الكلمات والعبارات.

نسخة الرباط فيها كثير من السقط يتجاوز في كثير المرات صفحات عديدة، حيث يحذف الناسخ كثير من الحكايات والاستطرادات[5]، وينحو نحو الإيجاز والتلخيص.

يبدو أن نسختي الرباط والقاهرة متشابهتان إلى حد بعيد، وكأنهما نقلا عن مصدر واحد.

رمزنا لنسخة الرباط بحرف (ب) .

جـ- نسخـة القـاهـرة:

هي نسخة دار الكتب والوثائق المصرية، تقع ضمن مجموع رقمه: 176668، رقم الحفظ: 15 مجاميع عربي، ويتكون من (283) ورقة، وفي كل ورقة صفحتان، وتضم النسخة المخطوطات الآتية:

- كتاب" كعبة الطائفين" يقع في 145ورقة، ينتهي (ج1) منه-موضوع هذة الدراسة- في الورقة:145.
- مجموعة رسائل خطّية، نقلها الناسخ من خط أصحابها[6]، تبدأ من ص: 147 الى ص: 154.

---

[1] ذُكرت في الفهرس العام للكتاب، ولم نعثر عليها داخل الكتاب، بل وجدنا مجموعة من القصائد الصوفية والمدحية، تتخللها بعض الشروحات القصيرة لحكم صوفية، من تلك القصائد، قصيدة هائية في مدح الرسول υ ، وقصيدة منسوبة لسيدي ابراهيم التازي في محبة آل البيت والاستجارة بهم، وقصيدة في شروط الذكر و فوائده في السير والترقي، وبيتين شعريين لسيدي أبي مدين شعيب، وقصيدة لامية في مدح المصطفى ρ.

[2] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (نسخة الرباط)، ص: 230

[3] المصدر نفسه، ص: 296

[4] المصدر نفسه، ص: 145

[5] خاصة الحكايات الشعبية والمرائي التي تتعلق بالمؤلف أو ببعض المشايخ، أو ببعض الأحداث العامة.

[6] نذكر من بينها: رسالة محمد بن عبّان، ورسالة عبد الرحمن الثعالبي.

- كتاب «التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية» لمحي الدين بن عربي، يبدأ من ص: 154 إلى ص: 186[1].
- منظومة رجال "الحلية" لمحمد بن جابر[2]، وتبدأ من ص: 187 وتنتهي في ص: 195 .
- بعض النصوص والشروحات، منها (شرح على الشُّشتَرية)[3]، يبدأ من ص:195 إلى ص:235.
- كتاب «مواهب الرحمن وعطايا المنّان»، يبدأ من ص 236 وينتهي عند ص:246.
- فوائد لخصها الشيخ أحمد زروق البرنسي من كتاب «الدرّة المنتخبة في الأدوية المجرّبة»، يبدأ من ص:246 وينتهي في ص: 255.
- كتاب «مجمع المنافع البدنية»، وهو عبارة عن شرح لكتاب «المفردات» لابن البيطار، وليس عليه اسم المؤلف، يبدأ من ص: 256 وينتهي عند الصفحة الأخيرة من الكتاب(ص: 283).

كتب المخطوط بخط مغربي دقيق، أسود اللون، تتخلله عبارات انتقالية باللون الأحمر مثل: (قال) و(أنشد)، وبعض عناوين الكتب، وبعض الكلمات المفتاحية البارزة في النصوص، وفي هوامش النسخة تعاليق قليلة لإبراز محتوى الكتاب، مثل (قف على كذا،.).

عدد السطور(25)سطرا، وفي كل سطر ما يقرب من (14) كلمة، أو يزيد عنها قليلا.

ورد في آخر النسخة(ص145) ما يفيد اسم الناسخ وتاريخ النسخ، فالناسخ هو محمد بن يوسف المناري (أو المزاري) التلمساني مولدا ومنشئا، بن محمد بن يحي المغراوي نسبا، وكان الفراغ من نسخها :« عشية يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رجب عام 1205هـ» .

وورد في نفس الموضع أيضا ما يفيد أن الناسخ نقل عن نسخة المؤلف مباشرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فيها ما يدل على أن النسخة مبتورة الآخر وغير كاملة، وهذا هو قوله :« كمل بالنسخ من أوله الى هذا المحل، نسخته من خط مؤلفه رحمه الله» .

ويوجد على صدر النسخة تمليك، هذا نصه:« الحمد لله، تملّكه الفقير إليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين العنابي[4] بثمن قدره ست ريالات (كذا) بتاريخ أواخر ذي الحجة سنة أربع وثلاثين واثنى

---

[1] تقدمت الاشارة إلى هذا المصنَّف في هامش الصفحة 30 من هذه الدراسة.

[2] أشرنا إلى هذه المنظومة في هامش ص: 48 من هذه الدراسة أيضا.

[3] الشّشتري متصوف وشاعر(610هـ/668هـ) أحد تلاميذ ابن سبعين، أخذ طريقة أبي مدين شعيب التلمساني، ترك ديوانا يضم قدرا كبيرا من القصائد والموشحات والأزجال، منها ما لا يزال يتغنّى به المنشدون في حلقات الذكر (الحضرة)، خاصة في المغرب، كما يعتبر الششتري أول من استخدم الزجل في التصوف.

ينظر: - يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2009، ص: 65-72

- مجدي كامل، أحلى قصائد الصوفية، دار الكتاب العربي، دمشق، سورية، ط1، 1997، ص: 65-68

[4] اشتهر بالعنابي وابن العنابي(ولد سنة 1189هـ/ 1775م وتوفي عام 1267هـ/ 1850م) من أوائل المجدّدين ودعاة الإصلاح الاجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي، قاض من فقهاء الحنفية، نسبته إلى عنابة ومولده بالجزائر العاصمة، اشتغل كاتبا لدى الداي أحمد باشا، رحل إلى المشرق بعد سنة 1235هـ/ 1820م، ونزل الإسكندرية، وفيها ألف كتابه " السعي المحمود في نظام الجنود" سنة 1242هـ، وحج منها وعاد إلى الجزائر، وبعد احتلال الجزائر بحوالي سنة نفاه الفرنسيون إلى مصر، واستقر بالإسكندرية، فولاّه محمد علي باشا وظيفة الفتوى الحنفية فيها إلى أن توفي، من آثاره أيضا "ثبت الجزائري" و"العزيز في علم التجويد". ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط3، 1983 ، ص: 245

عشر مائة، و أودعت فيه شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه»، وأشار بعد ذلك إلى أن الكتاب من تأليف محمد بن سليمان.

فاتحة هذه النسخة تبدأ بعد البسملة والصلاة على النبي بالعبارة التالية: « الحمد لله الذي نزّه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وخضرته،.» وتنتهي بالعبارة التالية :« وقال سيدي عبد الرحمن» ولهذا يتضح جليا أن النسخة مبتورة الآخر[1].

في أول المخطوط نُقُول، وفيه آثار ترميم وبقع، وبعض أوراقه مفككة، وفيها سقط كثير.

رمزنا لهذه النسخة بحـرف :(**ج**)

د- نسخة الريـــاض:

النسخة موجودة بمكتبة جامعة الملك سعود (قسم المخطوطات) بالرياض، تحت رقم: 189/ك ج، الرقم العام: 5805.

عدد أوراقها: 184 ورقة، مقاسها هو(25.5×24سم)، عدد سطورها 47 سطرا- ، وفي كل سطر ما يقرب من 19 كلمة، كتبت هذه النسخة بخط مغربي لكنه رقيق ودقيق وغير واضح بالمرة، تصعب قراءته بالعين المجردة.

ليس في البيانات المفتاحية الخاصة بالمخطوط، التي وضعها القائمون على قسم المخطوطات بجامعة الملك سعود بالرياض اسم الناسخ، ولكن فيها إشارة إلى تاريخ كتابتها: «كتبت في القرن 13هـ تقديرا»، إلاّ أننا لاحظنا تعاليق وتواريخ[2] في صدر المخطوط مكتوبة بخط دقيق جدا تصعب قراءته، وعندما فحصناه جيدا اكتشفنا اسم مالك هذه النسخة، وهو نفسه ناسخه(وهو العربي بن محمد بن مرزوق النمشي)، كما أفادتنا أيضا بمكان النسخ (فاس بالمغرب).

وعند مقارنتنا لخطه الموجود على صدر المخطوط بذلك المستعمل في المتن لاحظنا تطابقا في الخط.

فاتحة هذه النسخة هي نفسها فاتحة نسخة باريس(أ)، لكنها مبتورة الآخر، وجاء في خاتمة المخطوطة: «فالسلطان جعله الله لسياسة الخلق وإصلاحهم، وردهم بالقهر إلى الانقياد على[كذا] العلماء وفتواهم وحكمهم، لأنهم عُرَا الدين [كذا] ».

نسخة الرياض هذه مَعيبة، ومهترئة و متآكلة، بها كثير من الخروم، كما يلاحظ عليها انطماس كثير من العبارات، ومحو خطها جزئيا في كثير من الصفحات، ربما لعوامل مناخية (الرطوبة والحرارة) لذلك كله صرفنا النظر عنها، ولم نعتمد عليها الاّ بشكل محدود جدا، و رمزنا لها بحرف: (**د**).

2- توثيق عنوان الكتــاب و نسبته:

أ- عنوان الكتاب:

[1] فاتحة هذه النسخة وخاتمتها تتطابقان مع تلك الموجودة في نسخة الرباط ، ويتضح جليا أن النسختين متطابقتين، كما سبق وأشرنا.

[2] عدة تعاليق، أبرزها ثلاثة، قيد فيها الناسخ أسماء وتواريخ ما ولد له من أبناء، وقد أشار في واحدة منها إلى ميلاد أحد أبنائه، وهو نفسه اليوم –كما يقول – الذي مات فيه السلطان محمد بن عبد الرحمن عام 1290هـ.

صرح المؤلف محمد بن سليمان في مقدمة كتابه بالعنوان الذي ارتضاه لمصَنَّفِه، فقال: « سمّيته: "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين"»[1]، وبهذه التسمية نفسها ورد هذا المخطوط في كتاب: «إيضاح المكنون» الذي سلف ذكره، غير أننا نجد المؤلف في آخر الجزء الثالث يذكر عنوانا آخر لعمله، وهو:«الديوان الجامع لشرحي تحليل التعقيد وتكميل التقييد »[2]، والمؤلف يصف عمله في صفحات كثيرة من كتابه بأجزائه بـ (الشرح الرشيد)، أو(الشرح المبارك)، قد تكون هذه العناوين التي أوردها المؤلف في المتن تجوزا في التعبير عن العنوان الصحيح الذي ارتضاه في مقدمته، بالاختصار أو الشرح أو التعبير بالمعنى، وأنه لم يرد بذلك حقيقة العنوان.

- فما معنى عبارة "كعبة الطائفين" ؟

لكلمة (كعبة) عدة معان، منها أن الكعبة المحور الذي تدور عليه الأشياء، ويبدو أن المؤلف أراد هذا المعنى عندما تخيّر لكتابه هذه التسمية، فكأني به أراد القول: أن كتابي هذا هو ديوان الصالحين وكعبة الطائفين، حوله يطوف الصالحون من الصوفية طلبا للحقائق الصوفية والرقائق السرمدية، ومن خمرته يرتشفون كؤوسا فيهيمون ويتمايلون وجْدا في الذات الالهية.

وهناك إشارة وردت في المخطوط تفيد أن المؤلف استمد هذه التسمية من قصيدة شيخه المسمّاة (حزب العارفين)، والقصيدة هي موضوع هذا الكتاب الذي سخّره لأجل شرح معانيها وكشف غوامضها، يقول المؤلف: « لكنه- أي شيخه- اختار لي أم القرى قصيدة حزب العارفين لأنها كعبة الطائفين وبهجة للعاكفين، وليس الخبر كالعيان واليقين »[3].

وقد أورد المؤلف نصا، يوضح فيه المعنى الذي كان يريده من خلال هذا العنوان الذي ارتضاه لكتابه، :« ولو لم يكن في شرحنا لهذه القصيدة إلاّ هذه المعالم الموصلة لكعبة الأسرار، لكان جديرا لمطابقة الاسم للمسمى، وابتهاج العاكفين في ذلك الحِمَى، فكيف وأوله كآخره وباطنه كظاهره »[4].

ويبدو في العنوان تناص مع الآية القرآنية التالية: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ] [البقرة/125]

أ- نسبة الكتاب:

تتفق كل النسخ التي جمعناها من مكتبات مختلفة على صحة نسبة كتاب «كعبة الطائفين» إلى مؤلفه محمد بن سليمان الصائم التلمساني، الملقب بـ (الجزولي).[5]

---

[1] وهي التسمية نفسها التي تحملها النسخ الخطية التي اعتمدناها في تحقيق هذا الكتاب، ينظر مقدمات: (نسخة باريس، ونسخة الرباط ونسخة القاهرة ونسخة الرياض).

[2] ينظر: كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 266

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ، ن أ، ج3، ص: 257

[4] المصدر السابق، ج1، ص: 183

[5] تمكنا من جمع أربعة نسخ، أشارت صراحة أنه من تأليفه، هي على الترتيب بحسب أهميتها:

1- نسخة باريس، 3- نسخة القاهرة (عليها تمليك، يفيد أنه كان بحوزة ابن العنابي المفتي الجزائري الحنبلي المعروف الذي أكّد أيضا صحة هذه النسبة)

أشار كتاب« إيضاح المكنون» إلى صحة هذه النسبة[1]، كما تحقق من ذلك أيضا د/ أبو القاسم سعد الله في دراسته التي قدمها عن المخطوط[2].

3- تاريخ تأليف الكتاب:

صرح المؤلف نفسه في أواخر الجزء الثالث من كتابه بتاريخ فراغه من تأليفه -وهو سنة: 1054هـ-، بهذه العبارة :« ووافق الفراغ من جمع هذا الشرح الثالث الرشيد- أي الجزء الثالث – الجامع لما في تحليل التعقيد وتكميل التقييد، صبيحة يوم الخميس عيد الفطر، يوم الجوائز وتوفية الأجر، سنة أربع وخمسين بعد الألف، على يد مؤلفه »[3].

وصرح المؤلف أيضا أنه لبث في التأليف عشرين سنة: «..كمّل الله بإتمام هذا الشرح المبارك في نحو العشرين سنة..»[4].

وأشار المؤلف إلى ذلك بعبارة أخرى قائلا :«..إلقاء عصا السير والتعب في جمع هذا التأليف بختمه وإكماله بعد عشرين سنة »[5].

ومعنى ذلك أن المؤلف محمد بن سليمان شرع في التأليف حوالي سنة 1034هـ/1624م، وإذا عرفنا أنه من مواليد سنة 1014هـ/1605م، أدركنا أنه شرع في عمله هذا وعمره عشرون سنة.

وجدير بالذكر أن المؤلف يذكر أيضا تاريخين متأخرين عن ذلك الذي صرح به في كتابه، الأول عند حديثه عن الوباء والجراد الذي حلّ بهم، وهو سنة 1058هـ: « وأما سنة الوباء عام ثمانية وخمسين بالجراد، وبعده ما بقي لنا لَقْط وراء الحصاد »[6]، وأما التاريخ الثاني فقد ذكره في معرض حديثه عن تأليف آخر له سنة 1066هـ، كما سبق الإشارة إليه عند حديثنا عن آثاره[7].

2- نسخة الرباط،   4- نسخة الرياض،

[1] إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، ص: 270

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج3، ص: 230

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ، ن أ، ج3، ص: 267

[4] المصدر نفسه، ج3، ص: 272

[5] المصدر نفسه، ج3، ص: 271

[6] المصدر نفسه ، ج2، ص: 222

[7] المصدر نفسه، ج3، ص: 272

الفصــل الثانــي: الجوانب الفنية والموضوعية للكتاب

المبحث الأول: لغـة الكتـــاب ومنهجه:

1- لغة الكتاب:

إذا نظرنا فيما يتصل باللغة والأسلوب، فالمخطوط يتميز بشكل خاص بطريقة السرد التقليدية التي يغلب عليها الاستطرادات الكثيرة، أما لغته فتبدو واضحة؛ لكنها بسيطة لا تخلو في بعض الأحيان من ضعف وركاكة في التعبير ومخالفة قواعد اللغة العربية، فضلا عن استعماله للكلمات العامية، وليس الأمر غريبا، فمنطلق المخطوط وموضوعه قصيدة شعبية، كما أسلفنا.

وصاحب المخطوط يعكس لغة عصره وثقافة بيئته، من استعمال مفرط للمحسنات البديعية، ولو كان في ذلك تكلف، حيث تكثر ظاهرة السجع كأداة تعبير (ينظر مثلا عنوان المخطوط)، ولو أدى ذلك إلى الافراط في المترادفات دون غاية بلاغية واضحة[1]، وأحيانا حشو مبالغ في السياقات التعبيرية بألفاظ قد لا يطلبها المعنى المنشود.

*أمثلة عن الرسم الإملائي في «كعبة الطائفين»:

- اليـل ← الليــل
- لاكن ← لكن
- كذالك ← كذلك
- هاؤلاء ← هؤلاء

والناسخ هنا(في رسمه لكلمة الليل) يبدو تأثره واضحا بالرسم العثماني.

أمثلة عن الكلمات العامية في «كعبة الطائفين»:

- أُخَمِّـلْ ← بمعنى: أنظف وأهيئ
- يُتَوِّغْنَ ← بمعنى: يصرخن
- أَخَذَني بالحُرْب ← بمعنى: تناولني أو شدّني من أحد جانبيّ
- النَّجْعْ ← القافلة وما تحمله من سلع ومتاع
- هنَّاني ← بمعنى أراحني

[1] كقول المؤلف: « ..في الحسن والجمال والكمال و الشرف والتعال والرفعة والجلال »، ينظر: كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 54

وهناك كلمات كثيرة بالعامية الجزائرية، سواء ما تعلق منها بالملبس، أو المسكن، أو المطعم والمشرب[1]... وأشار أيضا إلى لغة زناتة، كقوله مثلا: بويراد : لغة زناتية معناها : صاحب السبع[2].

كما تطغى المصطلحات الصوفية على المخطوط بشكل واضح، وهذا شيء طبيعي، فالمخطوط يصنف ضمن كتب التصوف والمناقب.

- أما فيما يخص لغة تلك القصائد الشعرية التي نظمها شيخ المؤلف موسى اللالتي فإننا نجد تفاوتا في مستواها اللغوي بين قصيدة وأخرى، لكن يبقى المعجم الصوفي هو الأساس الذي اتكأ الشاعر عليه في سياق عرض أفكاره، ونقل تجربته الشعرية.

وفي هذا الإطار يمكننا تسجيل ملاحظتين:

- تظهر لغة الشاعر في بعض مستوياتها على شكل لغة تقريرية مباشرة، تنسجم مع ثقافة العصر ومستوى أهله.
- وأحيانا أخرى تتصاعد لغة الشاعر لتتعانق مع الرمزية الصوفية البعيدة الغور، بل تصبح في أحايين كثيرة عبارة عن طلاسم تحتاج من يفك رموزها، وإن كان عدد نصوص هذا النوع قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

ومن ثم لاحظنا أن المعجم الصوفي الذي تردد عند الشاعر مثلته ألفاظ مثل: الحقيقة، الطريقة، الخلوة، المصافحة، العهد، التزكية، الغيبة، الشهود، المقامات والأحوال، المجذوب، القطب، الغوث، البدل، الحضرة، الجمع والفرق، الحب...

2-منهج المؤلف في كتابه:

افتتح المؤلف كتابه بمقدمة نقلها حرفيا عن أبي حامد الغزالي، وردت في أحد أبواب كتابه «الإحياء»(باب المحبة والشوق والأنس والرضا)[3]، وما فعل ذلك إلاّ تبركا وتيمنا بكلام الغزالي، كما زعم[4]، ثم صرح بالتسمية التي ارتضاها لكتابه، وأشار بعد ذلك إلى الغرض من هذا التأليف.

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء (أسفار) استمدادا من نص الحديث النبوي الشريف كما قال: « والباعث على تثليثه قوله υ: «خير أمّتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر، ومع هذا فقد قال: "سابقنا سابق، ومقتصدنا لاحق، وظالمنا مغفور له"، ولذلك: " أرجو أمتي أن تكون ثلثي أهل الجنة"»[5].

وعليه جاءت أجزاء الكتاب على هذا النحو:

---

[1] من ذلك : البرنوس، الخيمة، السَّهْوة(مدخل الخيمة)، الشَّاشْ(العمامة)، البلغة(حذاء تقليدي مصنوع من الجلد)، الفَرْدَة(أحد زوجي الحذاء)، بومنتل، الخُف، النخّالة،..

[2] ينظر: كعبة الطائفين، (ن أ)، ج1، ص: 595. علما أن الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي ينتظم في سلسلة المؤلف محمد بن سليمان كان يتكلم في الغالب بالزناتية. ينظر: محمد الحاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ص: 85

[3] ينظر: أبو حامد الغزالي، احياء علوم الدين، ج4، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، دط، د تا، ص: 407

[4] ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 05

[5] المصدر نفسه ، ج2، ص: 226

1-الجزء الأول: في ذكر أهل الصلاح؛
2-الجزء الثاني: في ذكر أهل الطلاح؛
3-الجزء الثالث: في ذكر أهل الصلاح المتحققين، "حزب العارفين"[1].

يقول المؤلف متحدثا عن مضمون هذا التثليث (الأجزاء الثلاثة للكتاب) :« لما أن فرغ الناظم رحمه الله تعالى أولا من ذكر الصحابة والتابعين، ومن التفتيش على الأولياء المتقين، وفرغ أيضا في ثاني حاله من ذكر حزب الجاهلين، كرَّ راجعا في آخره إلى طلب حزب العارفين، لأن ذلك مطلوبه ومقصوده، ولذلك وضع هذه القصيدة»[2].

يذكر المؤلف أن شيخه موسى اللالتي أوصاه بعدم الحديث عن الجزء الثاني في حضرة أبناء الدنيا، سدّا للذريعة :«ولتوبيخ الناظم فيه-الجزء الثاني- حزب الشياطين، أوصاني رحمه الله في حياته أن لا أقرأه بحضرة أبناء الدنيا سدّا للذريعة، أما اليوم فالعلّة مأمونة بعد وفاته»[3]، وربما جاء نهيه هنا لكون الناظم قد عرّض ببعض أهل الطلاح في زمانه من علماء جهلة منافقين متملّقين، اشتروا الدنيا بالآخرة، وصوفية أدعياء مغفّلين، وحكام ظلمة، وولاّة اقطاعيين مستبدّين.

اعتمد المؤلف الاستطراد والاسهاب بشكل واضح في كتابه، فجاء متعدد الموضوع متشعب الكلام، وقد شهد المؤلف نفسه على هذا، مبررا ذلك كله بقوله:« ثم إني أوصي كل من طالع هذا التقييد أن ينظر فيه بعين التوحيد، ويتأمله بنية خالصة لعل الله أن ينفعنا وإياه بما فيه من حكم وأسرار وخواص، ولا يحملنّه تشعّب الكلام وكثرته على السآمة والملل، فإن العلوم النافعة لأربابها كالعسل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس، وعلى كثرة غرس الأشجار تتنوع الثمار، وليس من عرف الله بشيء قليل كمن عرفه بألف دليل »[4].

تظهر شخصية المؤلف العلمية في بعض جوانبها في صورة المحقق والمدقق الذي يتماهى مع أدوات علم التحقيق وإجراءاته وطرائقه، فقد اتّبع المؤلف أعلى طرق التحميل –بِلُغَة المحققين- في تحصيل قصيدة "حزب العارفين" موضوع هذا الكتاب: السماع والنسخ والتصحيح ثم الحفظ، كل ذلك على يد صاحب المادة، شيخه اللالتي شخصيا، يقول المؤلف في هذا الصدد :« ثم بعد اجتماعي بالناظم بنحو الشهر أتاني لداري وذهب بي إلى مسجد الرؤية، وأمرني بغلق بابيه علينا، وكتبت عليه نصف هذه القصيدة، وكنت كتبت عليه نصفها الأول بدار سكناه في العبّاد، يوم الجمعة، وصححت جميعها عليه »[5].

[1] يقول المؤلف:« لما أن فرغ الناظم رحمه الله من ذكر السلف الصالح ، عقّبه بذكر السلف الطالح، تبشيرا وتحذيرا وترغيبا في الاقتداء بالمنعم عليهم من النبيئين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا... وتنفيرا من متابعة المغضوب عليهم ولا الضالين من العلماء غير العاملين والجهلة الظالمين »، ينظر: كعبة الطائفين، ج2، ص: 01

[2] المصدر نفسه، ج3، ص: 62

[3] المصدر نفسه، ج1، ص: 306

[4] المصدر نفسه، ج3، ص: 251

[5] المصدر نفسه ، ج3، ص:3

كان المؤلف يشير دائما إلى أن شيخه موسى اللالتي صاحب القصائد المدائحية كان موافقا لكلام العلماء والأولياء، ومتماهيا مع الذوق العام لأعلام التصوف الإسلامي، لذلك نراه يكثر في كل مرة من الأقوال والنقولات من مصادر مختلفة لتعزيز قول شيخه:« فالإمام ضامن والعهدة على المتبوع، ونحن اقتفينا أثر الناظم، فلا نخرج عن صوب قانون كلامه ولا نخالفه في شيء، بل نوجه كلامه بما أمكن، ونكتب عليه ما يناسبه ويوافقه من نصوص الأئمة الأعلام»[1].

- يبدو المؤلف من خلال شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي في كتابه هذا متأثرا بمن سبقه في هذا اللون من التأليف، ومحاكيا لهم، إن جمعا أو شرحا، وإن اختلفت الميادين نسبيا، والمؤلف عاش في عصر التصوف وعناية العلماء بالشروح والإشادة بالكرامات وسير الأولياء، وقد أشار المؤلف في صدد هذا إلى عملين، نعتقد أنهما كانا الملهمان له للقيام بهذا التأليف، وإن لم يصرح بذلك:

العمل الأول: يتمثل في كتاب «تحفة الناظر ونزهة المناظر» لمحمد الفراوسني، المعروف بالزواوي، وهو نوع من الإنتاج الصوفي يسمونه (المرائي)، يروي فيها الشخص رؤيته للنبي ρ أو للصالحين، حيث تكثر فيها التوجيهات والوصايا، وتجمع بعد ذلك في كتاب أو رسالة.

أشار المؤلف محمد بن سليمان أن كتاب (تحفة الناظر) هذا، جمعه تلميذ الزواوي المذكور سماعا–ولم يسمّه–، ثم نسخ على يديه، امتثالا لرغبة شيخه، واعتبر عمله –كعبة الطائفين– محاكاة لعمل تلميذ الشيخ الزواوي.[2] فقد جمع محمد بن سليمان أيضا قصيدة شيخه، وشرحها في كتابه «كعبة الطائفين» نزولا عند رغبة شيخه وامتثالا لتوجيهات شيخه أيضا.

العمل الثاني: وهو الذي قام به تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» عبد العزيز الحرار المعروف بـ (التَّبَّاع)، حيث أمره شيخه المذكور بشرح كتابه «المقامات السبع» المعروفة بـ (رحبة الأمان)، «لإظهار سر الله لأهله»[3]، وقد ساق المؤلف هذه القصة، وأشار في عدة مناسبات أنه امتثل هو أيضا أمر شيخه موسى اللالتي الذى رشحه للقيام بشرح قصيدته "حزب العارفين"، موضوع هذا الكتاب، ورغّبه في ذلك.

فيما يخص تعامل المؤلف مع النصوص المقتبسة، فقد كان حريصا على إثبات المصدر واسم مؤلفه في الغالب الأعم، وكان يثبت ذلك إما في بداية النص، أو في نهايته، وكان يشير أيضا حين ينقل النص حرفا أو معنى، بقوله:« نقلته بالمعنى أو بالحرف».

عند اعتماده على بعض المعلومات الشخصية (الميدانية)، كان يشير إلى ذلك بقوله:

- أخبرني من أثق به

---

[1] المصدر السابق، ج3، ص: 113

[2] المصدر نفسه، ج3، ص: 259

[3] المصدر نفسه، (ن أ)، ج3، ص: 15

- أفادني الشيخ
- حدثني سيدي
- صح عندي بالثقة والرؤية

عند ذكره للأعلام سواء التي نقل عنها أو ترجم لها، كان يميز بينها من خلال الألقاب التي يصبغها عليها، فإذا ذكر شخصية غلب عليها العلم والفقه، يمنحها مثل هذه الألقاب: الفقيه، النبيه، الأديب، الأستاذ، وإن ذكر شخصية غلب عليها التصوف والاشتغال بأحوال النفس، يمنحها ألقاب مثل: الشيخ، المجذوب، صاحب الأحوال.

كان المؤلف يشير إلى بعض الرسائل الخطية والتقاييد العائلية التي اطلع عليها، وإلى بعض النسخ الخطية التي نقل عنها (إمّا بخط مؤلفها المباشر أو بخطٍّ نقل عن النسخة الأصلية)، وهذا توثيق له أهميته في ميدان "تحقيق النصوص"، حيث يصبح كتاب «كعبة الطائفين» مصدرا مهما في إثبات النصوص القديمة وتحقيقها، وإعادة بعثها من جديد، خاصة إذا كانت هذه النصوص التراثية اليوم من بين مصادرنا الأساسية النادرة، أو التي ضاع أغلبها وانْدَرَسَ[1].

يبدو لنا المؤلف من خلال كتابه بشخصيتين، شخصية الصوفي المعتدل المتحرر، المتصدّي للتصوف الخرافي الساذج، المنتقد لسلوكيات مجتمعه(من جهل وطمع وخصومات واستغلال)، وشخصية أخرى تسهب في الحكايات الأسطورية وتخلطها بالكرامات المعقولة، وتكثر من المرائي(يحتفظ الكتاب بحظ وافر منها)، ولو أن هذه الظواهر لها ما يبررها في عصر كثرت فيه الطرق الصوفية، وعمّ فيه التصوف الحقيقي والمزيف، وكان يشهدترديا على أكثر من صعيد[2].

- حينما كان المؤلف يقدم خلاصة عن موضوع ما، أو كلمة جامعة عن فصل ما، أو فائدة، كان يسجل ذلك تحت عنوان، يسميه: فائدة أو بيان أو استبصار أو تنبيه...
- اتسمت شروحات المؤلف في بعض جوانبها بالبساطة، ولتعزيز شرحه وتدعيمه في سياق إبراز المعنى المراد من كلام الناظم، كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي، والأمثال الفصيحة والشعبية، والحكايات والمرائي.
- كان المؤلف يذكر بيتا أو مقطعا أو عبارة من النص الشعري لقصيدة شيخه، ثم يسترسل في الشرح، مدعما أقواله–كما ذكرنا– بأقوال السابقين من الصوفية والعلماء.

---

[1] في هذه الحالات كان المؤلف يشير بعبارات مثل: (..انتهى، من خط نقل عن خط الونشريسي)،(.. ومما نقل من خط الشيخ السنوسي)، ينظر: محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 187-191

[2] هذه المادة (الأساطير، الكرامات، المرائي،.) مهمّة في دراسة المجتمع التلمساني في ق11هـ/17م من جوانبه النفسية والاجتماعية و الأنثروبولوجية، خاصة وأن المؤلف يخبرنا أن مجتمعه كان يعيش حالة من الوضع المتأزم اجتماعيا وسياسيا، وهنا يحق لنا أن نتساءل عن سر بروز مثل هذه الظواهر بشكل مكثف في زمنه، هل كان ذلك رغبة في التحرر من هذا الواقع المزري، بحثا عن حال أفضل وتحقيقه ولو في عالم الحلم والخيال اشباعا لرغبة جارفة في حياة أفضل! ؟

- المؤلف كان أحيانا لا يكتفي بنقل الأقوال واقتباس النصوص، بل يحاول الترجيح والمفاضلة بينها، وقد أظهر اطلاعا واسعا على أمهات الكتب الصوفية والفقهية...

- يسير المؤلف في شرح قصائد شيخه بيتا بيتا أو مقطعا مقطعا أو كلمة كلمة، ويطيل شرحه، فهو ينهج نهج طريقة شرح المتون، ويمكننا تقسيم شرحه من الناحية الفنية إلى ثلاثة أقسام:

- قسم التفسير اللفظي،
- قسم التفسير الأدبي،
- قسم التأويل الصوفي لتلك النصوص الشعرية الشعبية، وهو قطب الرحى الذي يدور حوله الكتاب.

المبحث الثاني: مـضـمــــون الكتـــــــاب وقيمته ومصادره:

1 – مضمون الكتاب:

«كعبة الطائفين» كتاب تصوف بالدرجة الأولى، لكنه يتصف بالموسوعية والشمولية وتعدد موضوعاته، فالمؤلف يستطرد أثناء كتابته عند ذكر أي فائدة فقهية، أو لغوية، أو تاريخية، أو ماتعلق منها بالأنساب والتراجم والمناقب، أو أسرار الحروف...

ونحب أن نوجه النظر إلى أن منطلق كتاب «كعبة الطائفين» –كما أسلفنا– قصيدة شعرية شعبية صوفية، نظمها الشيخ موسى بن علي اللالّتي، أحد صوفية تلمسان وشعرائها في ق 11هـ/17م، تصدّى لشرحها تلميذه محمد بن سليمان الصائم التلمساني، الملقب بالجزولي.

للشيخ موسى اللالتي قصائد شعبية كثيرة في التصوف، ومناقب رجاله المحليين وغير المحليين، وفي المديح النبوي، أورد المؤلف بعضها في كتابه هذا، وكان الشيخ موسى اللالّتي قد خص المؤلف بقصيدة من بين تلك القصائد، سمّاها (حزب العارفين) وعهد له بشرحها، وأوصاه بالعناية بها، وكشف غوامضها وأسرارها، وما تتضمنه من حكم وفوائد.

يقول المؤلف متحدثا عن قصائد شيخه موسى اللالّتي التي ضمّنها كتابه، وكيف تلقاها وحققها، وما خصّه منها :« ..فهذه أربع قصائد متوالية ومثلها قدّمناها في الشرح متراسلة، واثنتان مصححتان عنه مشافهة، فتلك عشرة كاملة ..والثمانية الأولى رويناها عنه بواسطة ولده أبي الحسن سيدي علي، إلاّ قصيدة (حيرتني) فإنها وقعت بيدي بخطه المبارك، وصححتها منه، وما بقي من قصائده العديدة أكثر ممّا ذكرنا، لكن τ اختار لي أم القرى؛ قصيدة (حزب العارفين) لأنها كعبة للطائفين وبهجة للعاكفين »[1].

---

[1] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج3، ص: 257

أما عن قصيدة (حزب العارفين) موضوع هذا المخطوط، فيذكر المؤلف أن شيخه أكد عليه بكتابتها وحفظها، وشرحها بعد ذلك، لما فيها من فوائد، يقول المؤلف: « أمرني – شيخي- بكتب هذه القصيدة فكتبتها عليه.. فقال: أردتك أن تحفظ هذه القصيدة .. فلما رأيته أكّد عليّ، قلت له: يا سيدي أدع الله أن يسهل علي حفظها، ويُعينني ببركتها عليها .. فحفظتها من غير مشقة .. وإنما أكد عليّ في حفظ هذه القصيدة لأنها العلم النافع في غاية لمن نفّعه الله بها، بل هي سَمَاعُ المريد وذكره، وكذا جميع قصائده τ، فمن جمعها وفهمها فقد أوتي خيرا كثيرا، وليس الخبر كالعيان»[1].

« وطلب الناظم ربه أن يختم ويطبع على هذا المنظوم المكمل المختوم بكل خاتمة خير في القبول والنفع والانتفاع به دنيا و أخرى »[2].

وأثنى المؤلف على قصائد شيخه وأشاد بها قائلا :« ولقد صدق الناظم τ في مدائحه، وبرّ في إبراز ما كان مكنونا تحت جوانحه، وبذل جهده رحمه الله في تطريز المدائح وإظهار نورها اللائح لإيصال النفع للمتقين وإضرام نار محبة الشوق في قلوب العاشقين ..»[3].

الكتاب كله يدور حول قصيدة الشيخ اللالتي الموسومة "حزب العارفين"، إلاّ أن المؤلف محمد بن سليمان في أثناء شرحه تميز بطول النفس والإسهاب، وتواصل مع كثير من العلوم، فبالإضافة إلى موضوع التصوف الأساسي، أورد مسائل عقيدية، ومسائل من علم الكلام، ومسائل من السيرة النبوية، والفقه، والفلك والتنجيم وأسرار الحروف، والنوادر والأساطير...

وأشار إلى كثير من الأحداث التاريخية، المحلية وغير المحلية، كما تعرض إلى الأنساب، سواء ما تعلق منه بالأعلام أو القبائل أو الشعوب، وأورد تراجم كثيرة؛ فقد ترجم لأربعين رجلا من الأخيار العارفين بالله، كما قال.

كما اعتبر المؤلف أن كتابه «كعبة الطائفين» انطوى على ما انطوت عليه كتب القوم – الصوفية – بل هو أنفعها وأوسطها، لأنه يعد شرحا موسعا لها، كما زعم[4].

2- قيمة الكتاب:

من حيث قيمة المخطوط وأهميته، يتضح لنا مما سبق أن هذا المخطوط ينقسم إلى قسمين:

- قسم يبدو أن المؤلف لم يأتي فيه بجديد، فهو عبارة عن حشد هائل لنصوص وأقوال واقتباسات لمن سبقه من العلماء والصوفية والفقهاء، إلى حد الاستطراد الثقيل، أورد كلامهم في سياق شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي الموسومة «حزب العارفين»، وتعزيزا لما تتضمّنه من رقائق وحقائق، وآراء آمن بها ناظمها.

---

[1] المصدر السابق، ص: 10، 12

[2] المصدر نفسه، ص: 251

[3] المصدر نفسه ، ص: 258

[4] كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 552

- وقسم سجل فيه المؤلف مشاهداته واحتكاكه بالأولياء والصلحاء بتلمسان وغيرها من المناطق، ورصد فيه بعض آرائه فيما يخص القضايا التي عاصرها، والأحداث التي عايشها، وهذا القسم في نظرنا هو الذي يعطي للمخطوط أهميته.

وعليه نقول أن لكتاب «كعبة الطائفين» قيمة كبيرة تتجلى أهم مظاهرها فيما يلي:

أ_ الجوانب التاريخية والسياسية:

الكتاب مصدر من المصادر المهمة في تاريخ الجزائر بعامة والمجتمع التلمساني بخاصة، تردد ذكره في كتاب «تاريخ الجزائر الثقافي»(ج1)، و«آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر» لأبي القاسم سعد الله كمصدر أساسي عديد المرات، وجاء «كعبة الطائفين» ليغطي فترة دقيقة من تاريخنا، تعد في نفس الوقت فقيرة من حيث المصادر التاريخية، مما يكسبه أهمية خاصة:

- إشارة الكتاب إلى فتنتين (ثورتين) بين أهالي تلمسان والسلطة التركية، وقعت الأولى سنة 1035هـ، والثانية كانت بعدها بسنتين1037هـ.
- يطلعنا الكتاب عن العلاقات بين المغرب والسلطة التركية في الجزائر بشكل غير مباشر، من خلال حديثه عن أحداث ثورة عام 1037هـ، والتي كان زعيمها محمد بن أحمد السوسي، الذي كان يعمل لصالح المغرب، كما أشار المؤلف[1].
- الإشارة إلى وقوع وهران تحت الاحتلال الاسباني، في كثير من المرات، حيث كان في كل مرة يذكر فيها وهران يدعو بهذه العبارة: "وهران أعادها الله للإيمان".
- الإشارة إلى عديد المعارك (الغزوات كما يسميها) التي شارك فيها المؤلف رفقة والده والشيخ العبدلي وبعض الصلحاء لتحرير وهران من قيد الاسبان.
- أخباره وإشاراته الكثيرة عن صعوبة الأوضاع، وحالة الاضطرابات السياسية في تلمسان أثناء ق 17م.
- من الأحداث التي أشار إليها المؤلف، ذلك الوباء الذي أصاب أهالي تلمسان سنة 1058هـ/1648م والذي تسبب في موت عدد من العلماء، ذكر بعضهم، يقول في هذا السياق:« نذكر من فقدناه من الأخلاَّء العلماء بالوباء سنة ثمان وخمسين»[2].

وقد قال المؤلف فيهم شعرا من الفصيح نجتزئ منه ما يلي:

ذهب الخيارُ وغابَ عنّي خيارُهـم   وبقِيتُ في خلَـق أرَاهُــم يُخلَــفُ

---

[1] أشار إلى ثورة محمد بن أحمد السوسي المغربي أيضا عبد الكريم الفكون في كتابه «منشور الهداية"، ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص: 17.وذكر هذه الثورة أيضا ابن المفتي حسين بن رجب شاوش في كتابه: "تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها"، دراسة وتحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص: 48

[2] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، (ن أ)، ج2، ص:197

فرّق الوبــاءُ عصابـةً فتفـارقُــوا	وتحقّقُوا وتَـلَاحَقُــوا مَـا أَسْلَفُــوا
شَهِدتُ علَيهِم شَهـادةً بِشَهَــادَةٍ	وَمَفَــازةً وَرَزَانَــةً مَـا صَفَّفُـــوا

وأشار أيضا إلى اكتساح الجراد وإفساده للحرث والبذر[1].

- «كعبة الطائفين»كتاب تراجم ومناقب بامتياز، فقد أرّخ لعدد لا يستهان به من علماء تلمسان وصلحائها، ومناطق أخرى من الجزائر و خارجها في ق17م[2]، أدركهم المؤلف نفسه، أو أدرك بعض من صاحبهم، أو تتلمذ عليهم، أو أدرك ذويهم، أو جالسهم المؤلف ولازمهم في الحضر، أو شايعهم الطريق في السفر، حيث وصف أحوالهم ومقامهم في العلم والصلاح.

من محاسن الكتاب في الجانب المتعلق بالتراجم، الدقة والضبط في تحديد تواريخ بعض هؤلاء الأعلام، كلما كان متاحا للمؤلف، عكس ما نجده في كثير من كتب التراجم، حيث تطغى ظاهرة التقريب، معتذرين بقلة اعتناء الناس بضبط التواريخ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكر المؤلف أسانيد علمية وطرقية لكثير من هؤلاء الأعلام، خاصة من ينتسب منهم إلى الطريقة الشاذلية، مما يجعله مصدرا في تحقيق أسانيدهم.

ب- الجوانب الاجتماعية والأنثروبولوجية:

لقد حفظ لنا الكتاب صورة المجتمع التلمساني بإيجابياته وسلبياته، وبعض عوائده، وأسلوب حياة الناس وتقاليدهم، وشيئا من لهجتهم في تلك الحقبة (ق17م)، وسجل لنا مدى ارتباطهم بأوليائهم وعلمائهم:

- أشار المؤلف إلى عاداتهم في المأكل (أكل الكسكسي بالأيادي)، والملبس(البرنوس، البلغة، الشاش، الخف بومنتل) وكثرة زياراتهم لأضرحة الصالحين طلبا للتبرك.
- الكتاب يتضمن معلومات عن أحوال الناس والأوضاع العامة بتلمسان في ق17م:«..لا تجد في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلاّ العقارب واللفاع، وأهل الشقاق والنزاع...وليتهم مع هذا وجدوا زمانا هنيئا أو مساعدا مرضيا، أو خلاًّ زكيا وفيا»[3].
- أطلعنا الكتاب على الدور الذي كان يضطلع به بعض شيوخ التصوف في تلمسان في مجال التكافل الاجتماعي وإطعام الناس والتخفيف من معاناتهم، وجمع الكلمة وإصلاح ذات البين، وأفادنا بأسماء بعض الزوايا والمقامات وبدورها الديني والاجتماعي.

ج- الجوانب الدينية والثقافية:

يقدم كتاب «كعبة الطائفين» مادة مهمة وغنية للباحثين في مجال الحركة الثقافية والصوفية، في هذه المرحلة التي عاش فيها المؤلف محمد بن سليمان (ق17م) :

---

[1] المصدر السابق، ص: 197

[2] فإذا كان ابن مريم صاحب "البستان" قد غطى في ترجمته لأعلام تلمسان فترة طويلة امتدّت إلى عهد المؤلف نفسه (ق16م)، فإن "كعبة الطائفين" يكمل بدوره المسيرة والمسار ليغطّي عصره أيضا، أي (ق17). وأودّ الاشارة في هذا المقام إلى أنني بيّضت صفحات، سأنشرها -إنشاء الله- في شكل كتاب تراجم بعنوان: أعلام تلمسان في(ق17م) من خلال كتاب"كعبة الطائفين".

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 366

- يزوّدنا الكتاب بمعلومات عن طبيعة النشاط العلمي والديني بمدينة تلمسان، ودور المؤسسات الدينية والتعليمية بها، كإشارته الكثيرة إلى بعض المساجد والزوايا كفضاء للعلم والذكر والعبادة[1]، يلتقي فيه الفقهاء والفقراء على حد سواء، في مجالس إقراء يتدارسون المصنفات الفقهية والصوفية، ويترنّمون بالرقائق الصوفية في حلقات الحضرة (السماع الصوفي) التي كانوا يمارسونها بشكل دوري كإحدى أبرز الطقوس الصوفية.
- المؤلف يزودنا بمعلومات عن ألوان من السجال العلمي في حياته، كنقاش العلماء وحوارهم في بعض المسائل العلمية بالجامع الأعظم(الجامع الكبير)، من ذلك حديثهم عن ظاهرة الانتحال والدّس في كتب العلماء.
- إشارته إلى بعض المساجلات العلمية بين الصوفية، كتلك التي كانت بين سيدي عبد القادر بن محمد، المدعو(سيدي الشيخ) مؤسس الطريقة الشيخية وصاحب"الياقوتة في التصوف" وابن أبي مَحَلِّي(أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي، صاحب كتاب «الإصليت»«ومنجنيق الصخور، لهدم بناء شيخ الغرور، ورأس الفجور»،[2] ويبدو أن الكتابين الأخيرين، والياقوتة في التصوف-السالفة الذكر-، هي من مظاهر هذا السجال.
- ذكر المؤلف انتشار ظاهرة الألغاز العلمية والفقهية(المعايات كما يسميها المؤلف) بين الأئمة والمريدين في مساجد تلمسان.
- يطلعنا عن أسماء بعض الكتب المؤلفة في عصره، حيث نسب مثلا إلى شيخه سيدي بلقاسم الدارجي كتابا سمّاه "الحقائق"، نقل منه محمد بن سليمان بعضا من كلام شيخه، ويبدو أنه كان شرحا لعقائد السنوسي.
- احتفظ كتاب «كعبة الطائفين» بأسماء علماء وصوفية تلمسانيين، وجزائريين، ومغاربة (من وجدة وفاس تحديدا) ساهموا بدورهم في الحركة الصوفية والعلمية بالمدينة، ومارسوا مهاما تعليمية ودينية بها، مثل التدريس والخطابة والفتيا، والتربية الصوفية.

وقد يقول قائل أن محمد بن سليمان أفرط في ذكر العلماء والأولياء، وفي الإشادة بمناقبهم وخصالهم، لكن لا يخفى أن في التعريف بهؤلاء الصفوة من الناس، والوقوف على حقائقهم فوائد كثيرة، أشار إليها صاحب «السلوة» -لذلك يمكننا إدراج عمل محمد بن سليمان في سياق هذه الثقافة المناقبية- التي نجملها فيما يلي:

---

[1] من بين المساجد والزوايا التي كانت تشهد مثل هذه المجالس(الإقراء والسماع والتربية والتعليم)، أفادنا المؤلف بما يلي: الجامع الأعظم-المسجد الكبير-، الجامع العتيق بأجادير، جامع الوزان، حرم سيدي أبي مدين بالعباد، حرم سيدي الحلوي، زاوية سيدي أحمد العبدون بأوزيدان.

[2] وصلت هذه السجالات العلمية بين الشيخين إلى حدّ الخصومة، ذكرتها العديد من المصادر، ينظر حول بعض مظاهرها مثلا كتاب: بن علي محمد بوزيان، واحة فجيج تاريخ وأعلام، (د دار النشر) المغرب، ط1، 1987، ص: 66-78-79 .وحول ابن أبي مَحَلِّي، يراجع: محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، تحقيق: عبد الحي العمروي، وعبد الكريم مراد، المغرب, ط1، 1994، هامش ص: 36

- منها، معرفة مناقبهم وأحوالهم؛ فيُتَأدب بآدابهم، ويُقتَبَس من محاسن آثارهم.
- منها، معرفة مراتبهم وأعصارهم.
- منها، أنهم هداتنا وأئمتنا وأسلافنا الذين هم أشدّ شفقة علينا من والدينا لنا، وأهدى لنا في آخرتنا التي هي دار قرارنا، وأنصح لنا بما هو أعود علينا، فيقبح بنا أن نجهلهم، وأن نهمل معرفتهم.
- ومنها، أن يكون العمل والترجيح بعدهم، بقول أعلمهم وأكبرهم وأورعهم وأفضلهم إذا تعارضت أقوالهم واختلفت آراؤهم.
- ومنها، بيان بعض مصنفاتهم، وذكر بعض كلامهم وأشعارهم، ليهتدى إلى الانتفاع بها، فتعم الفائدة، ويحصل الموصول من صلته على العائدة.
- ومنها، اغتنام زيارتهم واستمطار سحائب البركات من ناحيتهم وجهاتهم، إذ ببيان أحوالهم وأضرحتهم تشتاق النفوس لذلك، وتتسارع للتماس الفضل هنالك.
- ومنها، أن بذكرهم تتنزّل الرحمات الإلهية، وتنتشر على القلوب مواهب الفضل الإحسانية.[1]

- كما يطلعنا الكتاب على أسماء كثير من المصادر الفقهية والصوفية والتاريخية المتداولة بين طلبة العلم والمشايخ في تلمسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يفيدنا ببعض الكتب التي يبدو أنها في حكم المفقود، أو النادر.
- يخبرنا الكتاب عن طبيعة التربية الصوفية والتنشئة العلمية، وما يمكن أن نسمّيه (الكتب المقررة) التي كان يتدارسها طلبة العلم ويتبارون حولها في تلمسان وبعض حواضر العلم في بلادنا.

د- الجوانب العمرانية:

يقدم لنا كتاب «كعبة الطائفين» صورة واضحة عن تلمسان من حيث جوانبها العمرانية في(ق17م)، فالمؤلف جاب مختلف زقاق المدينة ودروبها، ومختلف المساجد والمقامات والزوايا والأضرحة والمقابر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يفيدنا بمعلومات ووصف للجهات التي زارها خارج تلمسان: مستغانم، غليزان(قرية مجاجة وزاويتها)، ولهاصة(جامع سيدي يعقوب الحاج)، الصحراء(يقصد بها الجنوب الغربي لبلادنا)،كما أورد المؤلف وصفا ومعلومات عن بعض المدن الجزائرية الأخرى، وإن لم يذكر أنه زارها (قسنطينة، عنابة، أدرار، توات،.)، وزار أيضا جهات من خارج الوطن(فجيج–زاوية العبيد–، وجدة) بالمغرب[2].

- ذكر المؤلف حرم أبي مدين بالعباد، أين كان يتدارس فيه بمعية شيوخه وبعض الفقراء(المريدين) المصنفات الفقهية والصوفية، وحرم سيدي الحلوي، وزاوية سيدي أحمد العبدون بأوزيدان، أين التقى المؤلف شيخه موسى اللالتي.
- أشار المؤلف إلى مساجد كثيرة منها:

---

[1] ينظر: محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ص:06

[2] كان المؤلف يزور تلك المدن إما طلبا للعلم أو سعيا وراء الصلحاء لنيل الحكمة والبركة، أو للجهاد(ثغور وهران)، أو لأغراض تجارية.

– الجامع الأعظم(الكبير)، وأشار إلى الحرفيين(الخرّازين) الذين كانوا قبالته.

– المسجد العتيق بأجادير

– مسجد الرحمة عند ضريح سيدي أبي العلا

– مسجد سيدي الوزان، الذي كان إمامه وخطيبه الشيخ العبدلي

– مسجد سيدي يعقوب التفريسي

– مسجد الرؤية، كتب فيه المؤلف قصيدة "حزب العارفين" موضوع كتاب «كعبة الطائفين»

– جامع سيدي يعقوب الحاج بولهاصة اعتكف فيه المؤلف مرة، وطالع فيه بعض المصنفات.

– أشار المؤلف إلى أضرحة ومقابر ومقامات كثيرة، حيث أشار إلى مقبرة سيدي السنوسي، وعيّن بشكل دقيق قبر شيخه اللالتي الذي لا يبعد كثيرا عن ضريح الشيخ السنوسي نفسه –كما أسلفنا–، وذكر مقبرة أجادير، وأشار أيضا إلى مقبرة بالقرب من باب الجياد، يبدو أنها اندرست الآن، وأصبحت أثرا بعد عين.

– ذكر المؤلف قلعة المشور بوسط تلمسان باعتبارها مركزا للإمارة والحكم.

هـ– الجوانب الأدبيـــة:

يحتفظ لنا المخطوط بسجل حي وضخم لتراثنا الشفوي (الأدب الشعبي) في ق17م، وإن لم يكن من بين مزاياه إلاّ هذه المزية(حفظ ذاكرتنا الشعبية) لكفاه ذلك أهمية وقيمة.

– يمكن للباحث أن يستخرج من الكتاب قصائد، بل دواوين في الشعر الشعبي الصوفي، وفي شعر المناقب:

ـــ شعر الشيخ موسى اللالتي، صاحب قصيدة "حزب العارفين" موضوع الكتاب.

ـــ شعر المؤلف محمد بن سليمان (الفصيح منه والشعبي).

ـــ شعر كثير من العلماء والصلحاء بتلمسان، الذين احتك بهم المؤلف مباشرة أو عن واسطة.

يشير المؤلف محمد بن سليمان إلى الشعر الكثير الذي أنتجه الشيخ اللاّلتي، وهو في أغلبه شعر شعبي، وقد أخبر المؤلف أن شيخه آثر الشعر على النثر لسهولة حفظه واستيعابه، وقد أمره بالحفظ وحضه عليه، متمثّلا بهذين البيتين:

عَلَيكَ بالحفظِ بعد الجمـعِ في كُتُـب   فـإنَّ للكتـب آفَــاتٌ تُفـرِّقُـــــهَا

المـــاءُ يُغرقُــها والنَّــار تُحـرقُـــــهـــا   والفــأرُ يُخرقُــها واللــصُّ يَسرقُـــــها[1]

يقول المؤلف مبينا شرف قصائد شيخه موسى اللاّلتي: « فإنها من أعظم الذكر و السماع، وقصائده τ كلٌّ في بابها ترياق لصاحبها، إلاّ من عدم الذوق والشم، فلا يكشف عن نقابها»[2].

[1] المصدر السابق، (ن أ)، ج3، ص: 10

[2] المصدر نفسه، ص: 184

بالإضافة إلى قصيدة "حزب العارفين"، موضوع الكتاب الذي نحن بصدده، والتي سمّاها الشيخ موسى اللالتي "أم القرى" و"كعبة الطائفين"، أورد له المؤلف قصائد كثيرة موزعة على أجزاء الكتاب الثلاثة :« وما بقي من قصائده العديدة أكثر ممّا ذكرنا» على حدّ قول المؤلف[1].

وفيما يخص الشعر الشعبي الجزائري، وهو الباب الذي تنضوي تحته قصيدة "حزب العارفين " موضوع الكتاب، فقد كثر في هذا العصر الشعر الديني بشكل خاص، ولا سيما منه مدح النبيρ، والتشوق إلى زيارة قبره وإحياء مولده، ويشمل قطاع واسع منه الشعر الشعبي ذي النزعة الصوفية، ومدح ورثاء الأولياء الصالحين(شعر المناقب).

وكانت غلبة الشعر الشعبي بشكل عام واضحة في هذا العصر، يقول أحمد سحنون في هذا السياق:« اعلم يا أخي أن الألسنة غلبت عليها العُجمة، وارتفع منها سرّ الحكمة، فصار الناس إنما يتغنّون بالملحون–الشعبي–وبه يهجون ويمدحون، ولهم في ذلك فنون رقيقة ومعاني رشيقة»[2].

وقد اضطرّ عبد الرحمن الجامعي المغربي في شرحه على رجز الحلفاوي في فتح وهران إلى الاستشهاد بالشعر الملحون، وبرّر ذلك بأنّ المعنى يتوقف عليه، وأن الشعراء قد قالوا شعرا كثيرا ملحونا في هذه المناسبة:« ثم إنه ما في ذلك من بأس، فإنه في هذا القطر– الجزائر– أساس الكثير من الناس»[3].

وقد اتّبعه الفقيه والمؤرخ أبو راس الناصري في ذلك، فقال بأنه لا بأس من إيراد الشعر الملحون، لأنه قد أصبح لسان الكثير من الناس، ولا ننسى أن أبا راس الناصري له شرح على قصيدة شعبية هي (العقيقة) للشاعر المنداسي.يقول أبو القاسم سعد الله:« حقا أن الشعر الشعبي قد سجل كثيرا من الحوادث السياسية والعسكرية، كما كان سجلاً للنبض الاجتماعي والاقتصادي في البلاد، وبذلك يمكن القول من الناحية التاريخية أنه كان أشمل وأقرب إلى الحقيقة من الشعر الفنّي– الفصيح–، فبينما كان الشعر الفنّي شعر بلاط أو شعر نفس مهزومة أو شعر مدائح نبوية ونحوها، كان الشعر الشعبي يدوّن ما يجري في جميع المستويات»[4].

ويمثل كتاب « كعبة الطائفين» في هذا الباب سجلاً حيًّا لمدوّنة كبرى في الشعر الشعبي الجزائري، فرغم أنّ باعثه قصيدة شعبية صوفية، إلاّ أن الباحث يمكن أن يستخرج منه عددا من الأغراض، منها ما يتعلّق بهجومات الأجانب على الجزائر والانتصار عليهم[5]، وحالة السكان الاقتصادية، والنكبات الطبيعية، وأحوال التصوف والمتصوفين.

---

[1] المصدر السابق، ص: 257

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،(2)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1998 ص: 242

[3] المرجع نفسه، ص: 243

[4] المرجع نفسه، ص: 312

[5]حقا إن النزاع بين الجزائر وإسبانيا من جهة، وبينهم وبين الأتراك من جهة أخرى، كان باعثا لعدد من الشعراء للاستنفار والدعوة للجهاد ضد الإسبان، وتمجيد انتصارات الجزائريين، ومن ناحية أخرى التصدّي لجور الأتراك وظلمهم، وهو باعث سياسي وطني.

- في الكتاب جانبا مهما من الأمثال الشعبية، وهذا اللون له أهميته في الأدب الشعبي، فهو يركز بصورة واضحة على السلوك الانساني في مواقفه المختلفة، مما يتيح للباحث فهم طبيعة المجتمع ونفسيته وثقافته ونظرته للأشياء.
- في جنبات الكتاب كثير من الحكايات الشعبية الصوفية(كرامات، مرائي، أساطير،.)، وهي من ميراث الذاكرة الصوفية الجزائرية، وهي أيضا ذات مقاصد تصب كلها في "أدب السلوك" كما رسمه شيوخ التصوف، ومن هنا تبرز لنا أهميتها، يقول عبد الرحمن الملحوني: هذه الحكايات الشعبية الصوفية جزء من ترسيمات المتصوفة لكثير من العادات والتقاليد في أذهان العامة، بل هي ترسيم لمجموعة من المبادئ في سلوكهم ومعتقداتهم، والحكايات حاجة فكرية وثقافية يستوعبها في سهولة ويسر عقل المريد والتابع،.[1]

هذه الحكايات الشعبية مادة دسمة للباحثين الجزائريين المهتمين بالنواحي الأدبية[2]، أو بالجوانب الميتولوجية والأنثروبولوجية، إحياء لتراثنا أولا وتحقيقا له ثانيا.

3- مصادر الكتاب:

اعتمد المؤلف في تدوين مادة كتابه (في جزئه الأول) على قائمة متنوعة من المصادر، بعضها كان معاصرا لها أو قريبا منها زمنيا، ناهيك عن مصادره الشفوية[3].

أورد كذلك مادة لا بأس بها من الأوراد الشاذلية بصفة خاصة[4]، والأذكار والأحزاب الصوفية بصفة عامة، وقد نالت كتب التصوف عموما حصة الأسد في مصادر المؤلف، ولعل أهم مصادره، نصنّفها فيما يلي:

- كتب التصوف؛
- كتب الفقه والحديث والتفسير، علم الكلام؛
- كتب تهتم بتاريخ الدول والسلالات؛
- كتب التراجم والمناقب؛
- كتب تهتم بالتنجيم وأسرار الحروف والجداول؛
- وثائق اطلع عليها المؤلف (رسائل وتقاييد).

أفصح المؤلف في كتابه عن استحسانه، بل افتتانه بكثير من هذه المصنفات، حيث كان يثني عليها صراحة، وينصح بقراءتها، كما كان يعتبرها مصادر أساسية في كتابه، وفي هذا الصدد أشاد كثيرا بكتاب

---

[1] ينظر: عبد الرحمن الملحوني، الحكايات الشعبية الصوفية، ج2، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2000، ص: 03

[2] على غرار ما قام به بعض الباحثين المغاربة، حين درسوا مجموعة من النصوص الشعبية الكراماتية التي تضمّنها كتاب(التشوف إلى رجال التصوف) لابن الزيات، عن طريق استثمار الأدوات الإجرائية التي تتيحها السيميائية السردية.ينظر: حسن مسكين، الكرامات الصوفية المغربية، جذور للنشر، الرباط، ط1، 2006.

[3] ساق المؤلف كثيرا من الروايات الشفوية، خاصة حول الفترة التي عاصرها(ق17م)، وهذه الروايات لا تتعلق فقط بأحوال تلمسان وصلحائهابل بمناطق أخرى من الجزائر، خصوصا غربها وجنوبها الغربي.

[4] ربما لكون المؤلف من أتباع الطريق الشاذلية.

«الإحياء»[1] للغزالي، وكتاب «الشِّعب» للقصدي، وكتب القوم (الصوفية) بشكل عام، منها : «قوعد التصوف» لأحمد زروق، «قوت القلوب» لأبي طالب المكي،«قطب العارفين» للجائي، كتب ابن عربي، والمحاسبي، القشيري، ابن عطاء الله السكندري، واجمالا يعتبر المؤلف أن كتابه حوى جل ما في كتب القوم من فوائد وحكم[2].

يقول المؤلف: «..وغالب ما أنقله عن «الإحياء»..كما أن جميع ما أنقله في الأصل عن صاحب« الشِّعب» إنما هو من النصف الثاني لوجود الكتابين بيدي»[3]، ويقول أيضا: «..وأنا والحمد لله هو كتابي–أي «الإحياء»– مارسته، وختمته، واعتمادي عليه»[4].

كما أشاد المؤلف بكثير من الكتب المحلية، ووظفها كمصادر في كتابه، واعتبر بعضها أساسا في السلوك وتزكية النفس، من ذلك:

- «كتاب السلوك» لأبي عبد الله الساحلي،
- «مختصر كتاب السلوك» للخروبي،
- «وجيز كتاب السلوك» للسنوسي،
- «روض المحاسن» للسنوسي.

4- شعر موسى اللالتي:الأغراض (الخصائص الموضوعية) والإيقاع:

- إذا تأملنا قصائد الشيخ موسى اللالتي التي كانت منطلق كتاب "كعبة الطائفين" وفحصناها نجدها تدور حول الموضوعات الآتية:

- نصوص مدحية تدور حول الرسولρ تتحدث عن مولده ومعجزاته، حيث يمضي الشاعر بنا ليتحدث عن نسبه موغلا في ذلك إلى أبعد أجداده، مخبرا عن جملة من أسمائه في الإسلام وفي الإنجيل والتوراة، كما تعرض لصفاته الخُلقية والخَلقية، فأشار إلى الجبين والوجه والقامة والكراديس، ودعاجة العينين، وقنب الأنف، ورحابة الصدر،.. ونوه بجميل صفاته وحميد خصاله، وكان كثير التوسل بجاهه.

وتطرق الشاعر أيضا من خلال بعض المقاطع الشعرية إلى فكرة أسبقيته ρ في الكون (النور المحمدي)، يطلق على هذه الفكرة في الخطاب الصوفي " نظرية الحقيقة المحمدية" : وتقوم على الاعتقاد بأن النبي محمد هو في حقيقته ليس بشرا، وإنما هو نور أزلي أبدي، ظهر في آدم، وصار ينتقل في الأنبياء من بعده، حتى ظهر بصورة النبي محمد، ويذكر نيكلسون أن الجوهر الروحي لمحمد هو أول شيئ خلقه

---

[1] يشير المؤلف إلى كثير من الكرامات التي حدثت له، أو وقعت أمامه، وكان موضوعها كتاب "الإحياء"، ينظر: كعبة الطائفين، ن أ، ج2، ص: 10

[2] اعتبر د/ محمد مفتاح في سياق حديثه عن منازل بعض المؤلفات الصوفية في الغرب الاسلامي، أن من أهم تلك المؤلفات التي كان لها تأثير كبير في كل العصور، وصارت مضرب الأمثال، وأصبح مضمونها مقتدى به ومهتدى، هي: الرسالة القشيرية، قوت القلوب، التحبير في التذكير للمحاسبي، الإحياء للغزالي، ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية، مكتبة الرشاد، ط1، 1997، ص:97،98.

[3] محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 301

[4] المصدر نفسه، ص: 277

الله، وهو يدرك بوصفه نورا سماويا تجسد في آدم، ثم في الأنبياء من بعده حتى محمد الذي ختم ظهورهم.[1]

ثم يمضي في سياق ذلك للحديث عن صحابته ρ وبالأخص المقربين منه، ومنهم العشرة المبشرين بالجنة، كما أشار إلى أهل بيته الأطهار وزوجاته أمهات المؤمنين الأخيار، لينتهي به المقام إلى ذكر ورثته ρ أولياء الله المحمديين مشرقا ومغربا ومحليا، وأشار إلى فضائل الأماكن المقدّسة، مكة والمدينة والشام، التي يتّقد قلبه ويتحرق شوقا لزيارتها، فبُعد المزار قد غزا قلبه بأقباس الحنين والشوق لتلك الأماكن.

يتضح لنا من خلال مضامين هذا النوع من القصائد أن موضوع الشاعر الأساس هو المديح النبوي كما أسلفنا، وكان فيما يبدو يحاول مجارات البوصيري في النسج على منوال "بردته"، بل كثيرا ما كان يستشهد بنماذج حية من منظومته.

يبدو لنا أن الموضوع في جوهره وأغراضه ليس جديدا، فهو ليس غريبا على ثقافتنا الإسلامية، وقد شهدت الفترة التركية انتشارا كبيرا للمدائح النبوية، سواء تلك التي نظمت بالعامية أو الفصحى: " والواقع أن عهد الأتراك ساعد على انتشار المدائح النبوية والتقرب بها إلى الله... وانتشرت المدائح بالفصحى والعامية، ووجد من الشعراء من يكتب قصة الرسول كاملة من مولده حتى وفاته، أو يتحدث عن معجزاته أو يصف جماله الظاهر والباطن ويشيد بنبوته وأخلاقه، بل من القصائد ما أرّخ لغزواته وتحدث عن صحابته وأهل بيته وآثاره وفضائله، وكل ما يتصل به من قريب أو بعيد"[2]

هذه هي موضوعات النموذج الأول من قصائد الشيخ موسى اللالتي التي اشتمل عليها كتاب " كعبة الطائفين"، والنموذج الثاني تمثله قصائد "الحب الإلهي" التي كان الشاعر يطمح من خلالها إلى الارتشاف من هذا النبع السرمدي، فالحب عنده سكر لا صحو معه إلّا بمشاهدة المحبوب، ولا يتأتى له ذلك إلّا بالتجرد من الكونية.

ونعني بهذا النموذج قصائد موسى اللالتي التي تتحدّث عن "الله" في ذاته أوصفاته أو أسمائه أو في عظمة آثاره ودقة خلقه وعجائب قدرته ووفرة نعمائه على خلقه ورحمته بهم وإحسانه إليهم، ويبدو شاعرنا من خلال نصوصه الشعرية منتشيا بالحب الإلهي حتى الثمالة، هائما مجذوبا، لا يشهد إلّا الحق، ويعتبر الحب الإلهي حجر الزاوية في قصائده تلك، وعليه تتأسس نظرته للخلق وللكون وللأشياء.

وجدير بالذكر أن موسى اللالتي كان ينأى بنفسه عن موضوعات التصوف الفلسفي التي حفل بها شعر أمثال: ابن عربي، وابن سبعين، وعفيف الدين التلمساني،..فلم يظهر لنا بوضوح مذهب "وحدة الوجود" أو " الاتحاد والحلول" في جملة النصوص الشعرية التي بين أيدينا، فالمغزى الذي تنشده تلك النصوص قائم على أساس الإقرار بعالمين متباعدين، عالم الحق وعالم الخلق (اللاهوت والناسوت)، وربما كان للمدرسة التي ينتمي إليها

[1] وفيق سليطين، الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1995، ص: 113.

[2] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص: 49، 50

الشاعر تأثير في ذلك، ونعني بها مدرسة الشاذلي وتلميذه ابن عطاء الله السكندري، التي تستند إلى الشريعة الإسلامية نظرا وسلوكا.

وهناك نوع من قصائد شاعرنا موسى اللالتي تمثل ما نسمّيه "الإتجاه الرمزي" لأنه لم يقصد من معانيها دلالتها المباشرة، وإنما كان يصبو إلى دلالات أكثر خفاء، فهو يقوم على الإيحاء بدلا من التصريح، ويحتاج الكشف عن شفرة معانيه إلى شيئ من التبصر بالخطاب الصوفي وطرائقه، وقد تصدّى لهذه المهمة المؤلف محمد بن سليمان في تعليقاته وشروحاته في مستواها الثالث (الكشف عن المعنى الصوفي).

- لقد طغت الصناعة الإيقاعية على نصوص الشيخ اللالتي حتى لكأنك تسمع أنغاما وموسيقى تستثير القلوب، فالشعر الصوفي عامة إيقاعي في جوهره، خاصة إذا علمنا أن عددا من تلك النصوص الشعرية كان يتغنى بها في حلقات الحضرة "مجالس السماع والإنشاد" التي دأب عليها الشيخ اللالتي بمعية تلميذه محمد بن سليمان والمريدين، في حرم سيدي أبي مدين وفي بعض الفضاءات الأخرى.

وحول موسيقية النص الصوفي يقول مختار حبار: " إن النص الصوفي في بنيته الكلّية، هو بالأساس نصّ سماعي يعتمد في تشكيله على الطاقات الإيقاعية، والموازنات الصوتية منها والمعنوية، بوصفها عناصر إثارة، تستدعي استجابة وجدانية وانفعالات، أكثر ممّا هو نص معنى ودلالات"[1]

ويؤكد عبد الله الركيبي نفس الخصوصية الموسيقية في هذا النوع من القصائد قائلا: "كثير من قصائد هذا الشعر، وخاصة الزجل إنما ألّفت بقصد الغناء والتلحين، وبوجه خاص الشعر الديني مدحا أوتصوفا خالصا، لأن الهدف هو الوجد الصوفي الذي يقتضي تمايلا، واهتزازا خاصا يصاحب الإنشاد أو يدعو إلى ترديد تعابير معيّنة بهدف التأثير والاندماج والتجاوب مع الشاعر أو المنشد الذي يردد الالفاظ والمعاني الدينية".[2]

[1] مختار حبار، الشعر الصوفي القديم في الجزائر، إيقاعه الداخلي ووظيفته، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، دط، 1997، ص: 3.

[2] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص: 491.

النـــمــــــــــــــاذج*

* على الصفحات التالية نماذج للأصول الخطية التي اعتمدناها في التحقيق، وقد أردفناها برموزها المستخدمة في الهوامش.

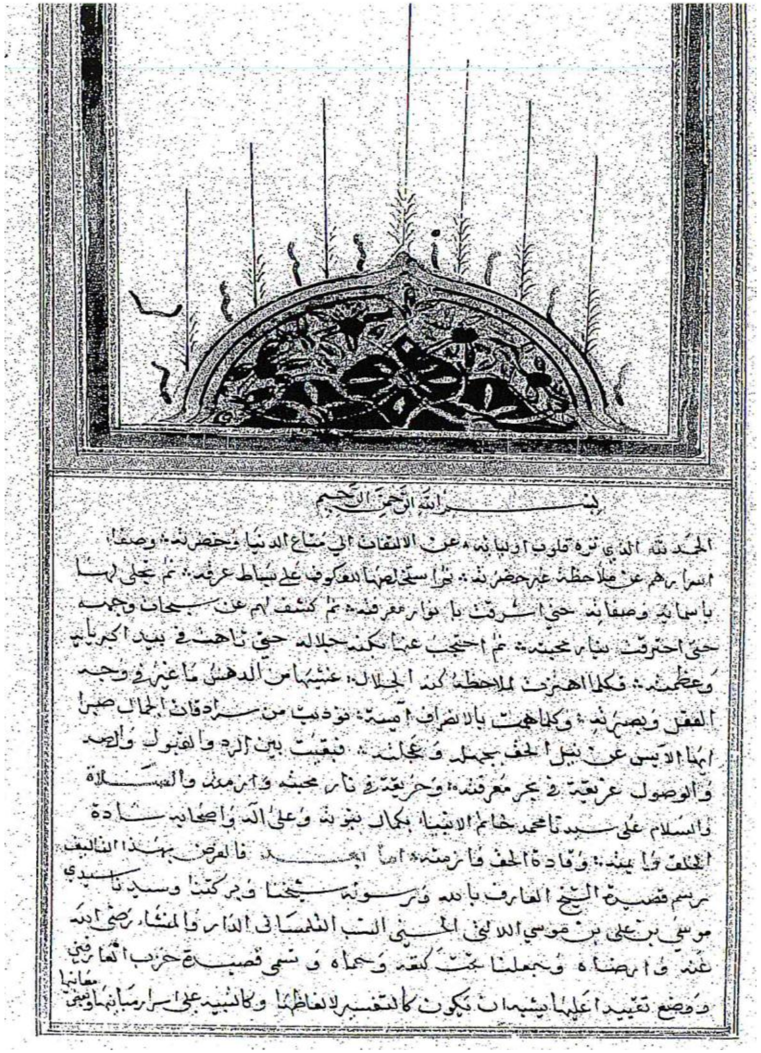
الصفحة الأولى من نسخة باريس (أ) الجزء الأول



الصفحة الأخيرة من نسخة باريس (أ) الجزء الأول



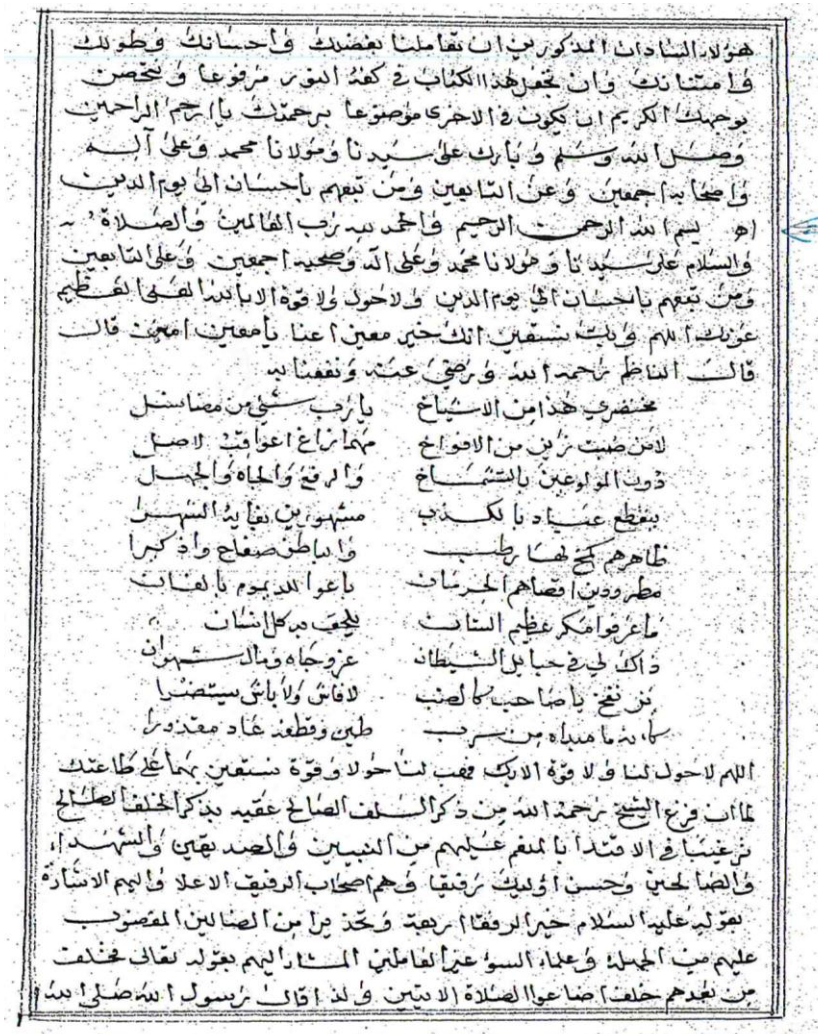
الصفحة الأولى من نسخة الرباط (ب)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وحضرته، وصفا
أسرارهم عن ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عرفته، ثم تجلى لها
بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه
حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه
وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما غيبها في وجه
العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة، نوديت من سرادقات الجمال صبرا
أيها الآيس عن نيل الحق بجماله وجلاله، فبقيت بين الرد والقبول والصد
والوصول غريقة في بحر معرفته، وحريقة في نار محبته وإرادته، والصلاة
والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته وعلى آله وأصحابه سادة
الخلق وأئمته، وقادة الحق وأزمته، أما بعد فالغرض بهذا التأليف
رسم قصيدة الشيخ العارف بالله ورسوله شيخنا وبركتنا وسيدنا سيدي
موسى بن علي بن موسى اللالي الحسني النسب التلمساني الدار والمنشأ رضي الله
عنه وأرضاه وجعلنا تحت كنفه وحماه وتسمى قصيدة حزب العارفين
ووضع تقييد عليها يشبه أن يكون كالتفسير لألفاظها وكالتنبيه على أسرارها ومعانيها

الصفحة الأخيرة من نسخة الرباط (ب)



هؤلاء السادات المذكورين أن تعاملنا بفضلك وإحسانك وطولك
وامتنانك وأن تجعل هذا الكتاب في كفة النور مرفوعا وتخص
بوجهك الكريم أن يكون في الأخرى موضوعا برحمتك يا أرحم الراحمين
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله
وأصحابه أجمعين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
اهـ بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى التابعين
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
عونك اللهم وبك نستعين إنك خير معين أعنا يا معين آمين قال
قال الناظم رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به

مختصري هذا من الأشياخ ... يا رب شيء من مصاسل
لأمن صحبت زين من الأفراخ ... مهما زاغ أعواقب لا صل
ذوي المولعين بالشماخ ... والرفع والجاه والجهل
بقطع عباد بالكذب ... مشهورين بغاية الشهل
ظاهرهم كمخ لها رطب ... وباطن صفاح وأذكبرا
مطرودين أقصاهم الحرمان ... باعوا الدين يوم بالعاني
ما عرفوا أكبر عظيم الشان ... يحجب به كل إنسان
ذاك لي في حبائل الشيطان ... عز وجاه ومال وشهوان
من نفخ يا صاحب كالضب ... لا فاش ولا باش سيتضرا
كأنه ما مبداه من ترب ... طين ونطفة عاد معذورا

اللهم لا حول لنا ولا قوة إلا بك فهب لنا حولا وقوة نستعين بهما على طاعتك
لما أن فرغ الشيخ رحمه الله من ذكر السلف الصالح عقبه بذكر الخلف الطالح
ترغيبا في الاقتداء بالمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقا وهم أصحاب الرفيق الأعلى وإليهم الإشارة
بقوله عليه السلام خير الرفقاء أربعة وتحذيرا من الضالين المغضوب
عليهم من الجهلة وعلماء السوء غير العاملين المشار إليهم بقوله تعالى فخلف
من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة الآية ولذا قال رسول الله صلى الله

الصفحة الأولى من نسخة القاهرة (ج)


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الصفحة الأخيرة من نسخة القاهرة (ج)



قســـــــــم التحقيق

كعبـــــةالطائفيـــن

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(قال العبدُ الفقيرُ المضطر إلى رحمة ربّه القدير، محمد بن سليمان الصائم[1] بن عبد الرحمن بن رزوق بن عبد المؤمن الحجازي نسبا التلمساني منشئا، عرف بالجزولي[2]، أصلح الله حاله وغفر له ولوالديه ولأشياخه ولأحبته ولجميع المسلمين، آمين[3])

(الحمد لله الذي نَزَّه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا وخضرته، وصفّى أسرارهم عن ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته[4]، ثم تجليّ لها بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلّما اهتزّت لملاحظة كنه الجلال غَشِيها من الدهش ما غبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما اهتمّت[5] بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال: صبرًا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فَبقيت بين الردّ والقَبول والصرف[6] والوصول، غريقة في بحر معرفته وحريقة بنار [7]محبته، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزِمَّتِهِ وسلم كثيرا)[8]، أما بعد :

فالغرض من هذا التأليف رسم قصيدة الشيخ العارف بالله ورسوله شيخنا وبركتنا وسندنا سيدي موسى بن علي بن (موسى بن علي)[9] بن موسى اللاّلتي الحسني التلمساني τ وأرضاه، وجعلنا تحت كنفه وحماه، ووضع تقييد عليها يشبه أن يكون كالتفسيرلألفاظها وكالتنبيه على مبانيها وبعض أسرار معانيها، وأعني بذلك منظومته الرّائية الموسومة بحزب العارفين، وسمّيته:« كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب الله العارفين».

فائدة لغوية: اعلم أن العرب تسمي البيت الواحد من الشعر يتيما، فإذا بلغ الشعر البيتين والثلاثة قيل فيه نُتفة، فإذا بلغ عشرة أبيات قيل قطعة، فإذا بلغ العشرين قيل فيه قصيدة، ذكرها الحسني بن يوسف بن مهدي الزياني في شرحه لقصيدة أبي عبد الله محمد بن الجراد[8].

وسبب وضعي لهذا التفسير والبيان وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان (بعد تقدم مشيئةالله وقدره)[10] إلحاح بعض الإخوان (ممن له محبّة وصحبة مع الناظم ومعنا)[11]،فأسعَفْته لما طلبه مني بعد الاستخارة (والاستشارة)[1]، فيسّرَ الله علينا كل عسير، وتيقنتُ أن الله على كل شيء قدير:

---

[1] يذكر المؤلف أن والده هو: أبو الربيع سليمان، المدعو (الصائم)، ينظر: كعبة الطائفين، ن أ، ج1، ص: 301

[2] تقدم الحديث عن لقبه في ص 03 من هذه الدراسة.

[3] عبارة: (قال العبد... إلى: آمين) ساقطة من (ن ب) و(ن ج).

[4] كذا في كتاب «الإحياء»، وفي(ج)، وفي (ب) : عرقه

[5] في كتاب «الإحياء»: همّت، وكذا في (ب) و(ج)

[6] وفي "الإحياء" وردت: الصدّ.

[7] في كتاب «الإحياء»: في نار، وكذا في (ب) و(ج)

[8] هذه المقدمة نقلها المؤلف حرفيا من« الإحياء» لأبي حامد الغزالي، تقدّمت الإشارة لذلك عند حديثنا عن "منهج المؤلف في كتابه "في ص: 37 من قسم الدراسة.

[9] ساقط في (ب) و(ج).

[10] العبارة ساقطة في (ب) و (ج).

[11] العبارة ساقطة في (ب) و (ج).

إذا كانَ عونُ الله للمرءِ ناصرًا   تَهَيَّأَ له من كُـلِّ صعب مُـرَادُه
وإن لم يَكُن عونُ اللهِ من للفتى فأكثرُ ما يجني عليه إجهـادُه [2]

وللسيوطي :

حَمِـدْتُ الله رَبِّـي إذْ هَـدَانِي   لِمَا أبدَيتُ مَعْ عَجْزِي وضُعْفِي
فَمَـن لـي بالخَـطَا فـأردَّ عنه   ومن لـي بالقَبـول ولو بحــــرفِ [3]

فضائل كُتْبِ العلم[4]:

قال بعض العلماء :« حدثنا أبو البركات وكان قائمًا، قال حدثنا أبو بكر الشاشي، حدثنا أبو سلامة البخاري، حدثنا أبو منصور الغزنوي، وكل واحد من هؤلاء يُحدّثُ وهو قائم، حدثنا أبو بكر الهروي الواعظ وكان قائمًا، وحلف ألاَّ يقعد حتى يملي هذا الحديث، حدثنا أبو عاصم المدركي، حدثنا أبو عبد الله الدامغاني، حدثنا الحسن بن علوية، حدثنا أبو علي التميمي، حدثنا أبو ياسر، حدثنا داود بن عفان، حدثنا أنس بن مالك، فقال، قال رسول اللهρ: "من كتب حرفًا من العلم لرجل فكأنما تصدق بدينار،وله أجْرُ عتق رقبة، وكتب الله له بكل حرف ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة ورفع له ألف درجة " » [5]

وروى جمال الدين محمد القاضي الحسني في كتاب«البركة»:أن رسول الله ρ قال لهلال بن يسار:« لا تفارق المحبرة فإن الخير فيها وفي أهلها إلى يوم القيامة». [6] وفي وصية النبي ρ التي كتبها الحسن البصري للخراساني، قال ρ: "يا أبا هريرة، حبْرُ العلماء أحب إلى الله من دم الشهداء، فرب عالم يَهْدِي الله على يديه خلقا والشهيد نجا بنفسه "، ثم تلا [إنَّ الله اصْطَفَاه عَلَيْكُم وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ][البقرة/247]،[فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا][الأنبياء/89]، يا أبا هريرة إن المرء يكتب العلم لغَيرِ الله ويأبى الله أن يَجْعَلَهُ إلاَّ لَهُ ولو في آخر عمره، فَاسْتَكْثروا منه فإن العلم ذِكر ولاَ يحمله إلاَّ ذُكُور الرجال، يا أبا هريرة ولولا العلم من بعدي لرجع الناس إلى الجاهلية الأولى، ولولا أن الصغير يكتب على الكبير والآخر على الأول لفَنَىَ العلم ودُرِسَ، ولكن الله تبارك وتعالى اصطفى لأمتِهِ رجالاً فسلطهم على جمع العلم". [7]

وروى أنس بن مالك عن رسول الله ρ أنّه قال:« ما من رجل يموت ويترك ورقة من العلم، إلاّ تقوم لهُ تلك الورقة سترًا بينه وبين النار، وإلاَّ بنى الله له بكل حرف في تلك الورقة مكتوب مدينة في الجنة أوسع من الدنيا سبع مرّات»[8]، نُقل هذا الحديث من خط سيدي سعيد المقرّي، وناهيكَ بها فضيلة تبعث على إسعاد سائله وتحث على

---

[1] الكلمة ساقطة في (ب) و (ج).
[2] البيتان ساقطان في (ب) و (ج)
[3] البيتان ساقطان في (ب) و(ج)
[4] ساقط في (ب) و (ج)
[5]الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري،، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ص: 722.
[6] لم أعثر عليه في كتب الصحاح، و كتب السنن الأخرى.
[7] لم أعثر عليه في كتب الصحاح، و كتب السنن الأخرى.
[8] أورده أبو شجاع شيرويه بن شهرزاد الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج4، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986، ص:22.

التقرب إلى الله بِكَتْبِ مسائله، وقد ذكر الشيخ العارف سيدي محمد السنوسي بن يوسف الحَسَني في «مجرّباته» :أنّ الله عز وجلّ يعطي أَجرَهُ على مقدار نية العبد، لما ورد عنه ρ أنه قال: «من بلغه فضل عَنِ الله فَعمِل به رَجَاءَ ذلك الفضل أعطاه الله ثواب ذلك الفضل وإن لم يكن كذلك، والسر كله في اليقين وحسن النية»،[1] ومن البواعث أيضا ما رواه أنس بن مالك τ عن النبيρ أنه قال:« قيِّدُوا العلم بالكتابة»،[2]وقالρ:«استعن على حفْظِك بيمينك»[3]،وقال بعضُ الحكماء: « ما كُتِبَ قرَّ وما حُفظ فرَّ»، وأنشد سحنون بن سعيد في هذا المعنى:

العلم صيدٌ والكتابَةُ قيدُهُ ... قيّد صُيُودَكَ بالحِبَال الموثَقَة

ومن الجَهَالَة أن تَصِيد حمامةً ... فتتركُها بين الأناسي مُطْلَقَة

قال ρ:« الحكمة ضالّة المؤمن»،[4] وقال عليه الصلاة والسلام: «العلم خليل المؤمن»[5]وقد قال تعالى ممتنًّا على نبيه: [اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ] [العلق/03]، ولشرف الكتاب والكاتب أقسم الله بهما في قوله : [ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ] [القلم/01].

حَكَى ابن قتيبة، أن أول من كتب إدريس υ، فسبحان ربنا الأكرم الذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، وروي عن مجاهد في قوله تعالى:[يُؤْتِي الحِكْمَةَ] [البقرة/229]،قال:الخط، وقال ابن المقفع: "اللسان مقصور على القَريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب" وهو للغابر، وقال بعضهم:

جمعت علوما قلت للنفس إذا أنت أطعت ... وإذا أنت لم تحيي بهن فموتي [كـــــــذا.......][6]

[إخلاص النية في نشر العلم:]

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: "لا تنشر علمك ليصدّقك الناس وانشر علمك ليصدقك الله عز وجل . ثمّ قال بعْدُ: وَكَفَى بالله صادقًا ومصدّقًا، وكفى بالله عالما ومعلّمًا ،وكفى بالله هاديًا ونصيرًا له، هادياً يهديك ويهدي إليك ويهدي بك، ونصيرًا ينصُركَ وينْصُر بك ولا ينصر عليك، ووليًّا يواليك ويوالي بك ولا يوالي عليك"، وقال τ ونفعنا به: "الولي من بدَايته هو الحريص على إخبار الأولياء وأحوالهم، يسمع الحق فلا ينكره ولا يتعرّض عليه، يشتاق إلى الأحوال ويتمنّى المقامات ووصولها ليفيد ويستفيد، ويجد في أحواله وعلومه وأعْمَالِه البركة".

[في صعوبة الإحاطة بأسرار الأولياء وحكمهم:]

ثمّ إنّي أقول قول سيدي محمد بن عبّاد في مقدّمة شرحه لـ «حكم» تاج الدّين سيدي أحمد بن عطاء الله رضي الله عنهما[1] :«لا قدرة لنا على استِيفاء جميع ما تضمّنه الكتاب وما اشتمل عليه من لباب اللُّبَاب، لأن كلام

---

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح، و كتب السنن الأخرى.

[2] الحديث ذكره علي بن أبي بكر الهيثمي في "مجمع الزوائد " ج1، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، بيروت، القاهرة، دط، 1407هـ، ص: 152، وذكره أيضا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني في " التحبير في المعجم الكبير"(ج1) تحقيق: منيرة ناجي سالم، ص: 246.

[3] الحديث بلفظه ذكره أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان، في " ناسخ الحديث ومنسوخه" ج1، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة المنار، الزرقاء، ط1، 1988، ص: 469.

[4] أخرجه الترمذي في (باب العلم) و ابن ماجة في(باب الزهد)، ينظر: د/ أ.ى.ونسنك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي،(ج1) مكتبة بريل، لندن، دط،1936، ص:491.

[5] الحديث أخرجه محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، في "مسند الشهاب"ج1، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1986، ص:122.

[6] البيت الثاني غير واضح في (ن أ)، وهو ساقط من (ب) و(ج)، ومطموس فـ(د) نتيجة خروم في النسخة.

الأولياء والعلماء مُنْطوٍ على أسرارٍ مَصُونةٍ، وجواهر حِكم مكنونة، لا يكشفها إلاّ هُم ولاَ تَتَبَيَّنُ حقائِقُهَا إلاَّ بالتلقي عنهم».

ونحن في هذه الكلمات التي نوردها والمناحي التي نعتمِدها غير مدعين لشرح كلام المؤلف، ولا أنّ ما نذكره فيه هو حقيقة مذاهبهم حسبما يفعله كل مُصَنّف، فإنّا إن ادّعَيْنَا ذلك كان منّا إساءَة أدب يؤول بنا والعياذ بالله إلى العطب، وإنَّا نُوردُ ذلك حسب مَا فهِمناه من كلامهم وما انتهى إلينا علمه من مذاهبهم، فإن وافقنَا حقيقة الأمر وعثَرْنا على مكنون السر كان ذلك من النعم التي لا نحصي لها شكرًا ولاّ نُقدّر لها قدرًا، وإن خالفنا ذلك ولم نهتد إلى تلك المسالك أحَلْنَاه على نُقْصِنَا وجهلنا، وانتفى عنّا التقرير بقولنَا وفعلنا واقتصر الأمر في ذلك علينا، وكانوا هم مبرؤون ممَّا قلنا ونوينا.

[دواعي تأليف الكتاب :]

والذي حملني على وضعه وتكلّف تصنيفه وجمعه بعد تَقدّم إرادة الله تعالى التي لا تُغلب، وتقديرُهُ الذي ليس للعبد منه ملجأ ولا مهرب، ثم الرأي الذي رأيناه من المقاصد المعظّمَة، ونبّهنا عليه في صدر هذه المقدمة ،إلحاح بعض الأصحاب في ذلك عَليّ وترِدادهم بالمسألةِ إليَّ، لكونهم على اعتقاد صحيح في هذه الطريقة ومحبة خالصةٍ لأهل الحقيقة، فأسعفتُهم بما طلبوه، وحقّقت لهم الأمل فيما رغبوه، كما شاء الله تعالى وحَكَم وقضى به علينا وختم، نفعنا الله وإياهم بما يجري منه على يدينا ولأجعله حجة عليهم ولا علينا، ونحن نستغفر الله ممَّا تعاطِيناه من الأمر العظيم، واقتحمناه من الخطر الجسيم، ونستعيز به من الوقوف في حبائل الشيطان الرجيم، ونسألهُ توفيقا يوافقنا على جادة الاستقامة ويصرفنا عن العمل بما يعقب ملامة وندامة، ونرجوه مع هذا إذا منّ علينا بالانتماء إلى مذاهبهم والانتساب إلى كريم مناسبهم، والتعلّق بأذيالهم، ومحاولة النّسج على منوالهم، ورزقنا شيئًا من تعظيمهم وحبهم، وقسطًا من تكريمهم وبرّهم وألّا يحرمنا من شفاعتهم، وألّا يخرجنا من كنف ولايتهم، وألّا يطردنا عن بابهم الكريم، وألّا يصرفنا عن منهجهم القويم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم :

لي سـادةٌ من عِـزِّهِـم أقدامُـــهم فوقَ الجِبَـــاه
إن لـم أكُـن منهُم فَـلي في ذكــرِهِم عِزٌّ وجَـــاه[2]

اللهمَّ إنَّا نتوسّل إليك بحبّهم فإنّهم أحبوك، ولم يحبّوك حتى أحببتهم، فبحبّكَ إيّاهم وصلوا إلى حبّك، ونحن لم نصل إلى حبهم فيك إلاّ بحظّنَا منك، فَتَمّم لنا ذلك حتى نلقاك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم كثيرًا.

---

[1] هو ابن عبّاد النفزي الرندي الصوفي الأندلسي، كان ممثلا للمدرسة الشاذلية الصوفية في اسبانيا في ق 8هـ، ولد سنة 733هـ/1332م بمدينة رندة جنوب الأندلس، أقام بتلمسان وفاس ليأخذ من علمائها، شرح بن عبّاد حكم بن عطاء الله السكندري في كتابه:" غيث المواهب العليّة بشرح الحكم العطائية"، وكان أول من قام بشرحها، وعليه اعتمد غالبية الشرّاح المتأخّرين في شروجهم. ينظر: محمد عبد المقصود هيكل، الحكم العطائية، شرح بن عبّاد النفزي الرُّندي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1988، ص: 27، 33، 34

[2] البيتان من مجزوء الرجز، ينظر: – محمد بن جعفر الحسني الكتّاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني، دار المغرب، ص: 12.

وإنَّما استفتحْتُ كتابي هذا بكلام الإمامين أبي حامد محمد بن محمد الغزالي في الخطبة وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي في المقدمة، (لمناسبة الكلام للمقام)[1] لما أرجوه إن شاء الله من أن تدركني بركتهما وتشملني عنايتهما وهمتهما لأنا في هذا الشأن متَطفلون، ولكن على من استخرناه متوكلون، وقد قال رسول الله ρ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ومن شقاوته تركه»، (أخرجه الحاكم)[2]،وقال ρ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار»[3].

تبشير : قال سيدي محمد الزواوي في بعض مرائيه: « رأيت النبي ρ في المنام فقلت له: أنا المتطفّل في هذا العلم يا رسول الله وعنى به علم التصوف، قال: اقرأ كلام القوم فإن المتطفل على هذا العلم هو الولي، وأمَّا العالم به فهو النّجم الذي لا يدرك»، من « تحفة الناظر » له[4].

(وقال الجنيد τ: "التصديق بعلمنا هذا ولاية، وإذا فاتتك المنّة في نفسك فلاَ تفتك أن تصدّق بها في غيرك،" ﴿فَإِنْ لَم يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة/265]، وقال ابن شريح: « طريقنَا أقرب إليّ الحق من طريقكم، فطَالبهُ بالبرهان، فقال الجنيد لرجل: ارم حجرًا في حلقة الفقراء فصاحوا كلهم: الله، ثم قال: ألقه في حلقة الفقهاء، فألقاه، فقالوا: حرام عليك أزعجتنا فقبّل رأسه واعتذر».«من الكواكب الدُرّية»، وقال أبو يزيد: « إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذا الطريق، فقل له يدعو لك فإنّه مجاب الدعوة»، وقال سيدي محمد الزواوي: « رأيت رسول اللهρ في المنام فقال لي : الحق فيما يقولهُ الصوفية، لأنه قول بعمل، وما يقوله علماء الظاهر فإنه قول دون عمل)،[5] حسبي الله لا إله إلاَّ هُو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم، ولاَ حول ولا قوة إلاَ بالله العلي العظيم.

[المؤلف يعتذر عن كل سهو أو خطأ أو تحريف وقع في الكتاب:]

ثم إني أعتذر لمن طالع هذا المصنّف (الخطير)[6] من التحريف الواقع فيه والتقصير، وأسألهُ بلسان التضرّع والابتهال أن ينظر فيه بعين الرضى والإقبال، فما وجده موافقا للصواب فالحمد لله على ذلك، وما لا يوافق فليتأمله وليصلح ما هنالك، لأن كل كلام فيه مقبول ومردود إلاّ كلام صاحب الحوض المورود، لكن هذا الإذن في الصلاح[7]بشرط؛ لمن كان لذلك أهلاً فمرحبا بتصحيحه وسهلاً، ومن لم يهتد لصوب تلك المسالك فلا يقتحم الضرر والمهالك، وفي مثل هذا قيل:

---

[1] العبارة ساقطة من (ج)

[2] الحديث ذكره أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزار في "مسنده" ج4، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، ط1، 1409هـ،ص: 19./ وذكره الحاكم في "المستدرك" حديث رقم: 1903 /وأخرجه الترمذي، والبيهقي في "شعب الإيمان، وأحمد وابن عساكر.

[3] الحديث ذكره ابن حجر العسقلاني في " فتح الباري" ج11، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، دط، 1379، ص: 184/ والطبراني في "الأوسط" و"الصغير" عن أنس مرفوعا...

[4] عنوانه:« تحفة الناظر ونزهة المناظر» تأليف: محمد بن عبد الله الفراوسني الزواوي البجائي، خلال ق9هـ/15م، ضمّنه مائة وتسع رؤية، عاش المؤلف في قسنطينة وبها درس، كما عاش أيضا في تلمسان. يذكر مؤلفه أن رؤياه للنبي عليه الصلاة والسلام كثرت، فكان يسجّل كل رؤيا على بطاقة الى أن كثرت بطاقاته فأخرجها في شكل كتاب، ويذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام هو من أمر بتسميته: «تحفة الناظر في..». ينظر: – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1)، ص: 93 –97.

[5] الكلام من (وقال الجنيد –الى– قول دون عمل) ساقط من (ج).

[6] ساقط في (ج)

[7] يقصد إصلاح الكتاب وتقويمه.

فَكَم من عَائبٍ قولاً صحيحاً وآفتُـه من الفَهْـم السّـقيـــــــمِ[1]

وقالوا أيضا: وكم عائبٍ ليلى ولم يَرَ وجهَها فقال له الحرمانُ حَسْبُكَ ما فَاتَ[2]

ومع هذا فلم يخل جواد من كبوة، ولاَ صَارم من نبوة ولاَ حليم من هفوة، ثم إنيّ أقول لأولي التحقيق العارفين بهذا الطريق: اقبلوا أعذار من اعتَذر بتعذّر أسباب التصنيف(وتفتيش التّأليف)[3] في هذا الزمان الصعب من كل وجه، ولول ما منّ الله علينَا ما فهمنا(ما رأينا)[4]،والله لولا الله ما اهتدينا ولاَ تصدّقنا ولا صلينا، فانظروه نفعني الله وإيّاكم بما فيه بعين التذكّر والاعتبار لاَ بعين الاعتراض والاستخبار، فِنية المؤمن خير من علمه.

(وقد حكى الغزالي)[5] أن داود بن المحبر لما صنّف كتاب «العقل»، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحًا، ثم ردّه، فقال: مالَكَ؟ فقال: فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود :أنا لم أخرجه على الأسانيد، فانظُر فيه بعين الخبر، إنّما نظرتُ فيه بعين العمل فانتفعت به، قال أحمد فردّه عليّ حتىّ أنظر فيه بالعين التي نظرت، فأخذه ومكثَ عنده طويلاً، ثمَّ قال: جزاك الله خيرًا قد انتفعت به»، من« إحياء علوم الدين».

(ولله درُّ الإمام عبد الله بن محمد الصنهاجي المعروف بابن اَجطا حيث يقول:« فكم من كلمة رائعة وحكمة ناعمة وموعظة جامعة وقصة واقعة وحجَّة قاطعة، قد خزّنها الأوّل للآخر ونقشها في الحجارة والدفاتر صنوا من هذا البشر الذي يرحم بعضه بعضا ويدلّه على ما يختاره لنفسه ويرضى، ولم يزل الفضاء من كل جيل، والنبال من كل قبيل، والناطقون بكل جميل، على اختلاف القول منهم والقيل يدونُون ما ضاع من الكلمات النافعة والحكم الجامعة ويسارعون إلى حفظها بالكتابة، خوفًا من ذهابها بالنسيان، أشدَّ المسَارعَةِ نظمًا ونثرًا، حتى انتشرت في العالم نشرًا، فكم من كلمة نفع الله بها بَعُدَ قائلها، وحكمة ظهرت على متناولها، وفائدة قد بُيِّنَّت بالكتابة لسائلها». من «عُمْدة التّبيان في شرح مورد الظّمآن» له، وأنا أرجو المولى الكريم البرّ الرحيم أن يجعل كتابنا هذا مباركا كقطر الماء النازل من السماء في أوان الظّمأ أينما وقع نفع)[6].

[أصناف الكتابة والتأليف:]

(تبشير في ذلك: ألاَ فاعلموا أن التواليف سَبْعَـة لكل لبيب في النصيحةِ خالِصِ

فشرح أغلاَق وتصحيح أخطاء وإبدَاعُ حبرٍ مُقدَّمٍ غير ناكِـصِ

وترتيبُ منثورٍ وقصرِ مُطـــوَّل وجمعُ مفرَّقٍ وتكميلُ ناقِـــصِ

وقد قال بعض الأئمة الأعلام: «الأقسام السبعة التي لاَ يؤلِّف عالم عاقل إلا فيها، هي إمَّا شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يُتِمّه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره، دون أن يُخِلّ بشيء من

[1] البيت من بحر الطويل

[2] البيت من بحر الطويل

[3] العبارة ساقطة في(ج)

[4] في(ج) : ما كتبت أيدينا

[5] في (ج) : يحكى أن داود

[6] الكلام من(لله درّ الإمام –الى– وقع نفع) ساقط في (ج)

معانيه، أو شيء مفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنّفه فيصلحه» نقله [بياض][1] الغنيمي في شرحه لقصيدة السنوسي.

وذكر الماوردي في كتاب « الدنيا والدين »[2] عن بعض حُكماء المتقدمين أنه قال: "من ألف فقد أُستُهدِف، فإن أحسن فقد أستعطف، وإن أساء فقد استُقْذِفَ"، ومعنى استهدف نصَّب نفسه هدفًا للنبال، يرْمي كل ذي غرض في عرَض عرضه بحدّ النبال فالاعتدال والتسليم أوْلى بكل حكيم عليم، ومن أبى إلاّ الشَّمَاتة والعناد وَرَاعَ بِبَغْيِهِ الردّ والانتقاد، فنعُوذ بِرب الفلق من شر ما لديه)[3] ونُلقي الخمسة من آية الفلق في عينيه[4]، ونقول مقالة السابق:

وقايةُ الله خير من توَقِّينَـــا وعادَةُ الله في الأعادِي تَحْمينَـا
كذا العُداةُ فلا والله ما تركوا قولا وزُورًا وتوبيخا وتهجيـنَــا
ولَمْ ترد نحنُ في سرٍّ وفي عَلنٍ على مَقَالَتِنا اللّهُ يَكفِينـــــــا
فكان ذاك وردَّ الله حاسدَنـا بغيظِـه لم ينـلْ ما سَرَّه فينـَـا

[المؤلف يدعو إلى قراءة الكتاب بغض النظر عن الكاتب:][5]

فعليك يَا أخي بالإنصاف(مهما)[6] رأيت الحق والصواب، (في أثناء مطالعتك لهذا الكتاب ولاَ تَستبعد من بروز مثله من مثلى، فإني ما تأسّيت إلا بمن سلك هذا المنهج قبلي، فإن استغربت هذه المسألة "فكل البقل ولا تسأل عن المبقلة"، وذلك كما قيل:

لَعَمْرُكَ مَا كُلُّ فَرْعٍ يَـــدُلُّ جَنَاهُ(اللذيذ)[7] علَى أصلِـــه

وللحسين بن أحمد رحمه الله: فَخُذ مَا حَلا حِينَ تُؤتَى بِـهِ ولاَ تَسْأَلِ الشَّـهْدَ عَنْ نَحْـلِــــهِ

خُذِ العُلُومَ ولاَ تَعْبَأ بِنَاقِلِهَـــــا واقْصِد بِذَاكَ وَجْـهَ الوَاحِدِ البَـارِي
إِنَّ العُلُومَ كَمَالأَشْجَارُ مُثْمِـــــرَةٌ اجْنِ الثمـارَ وخلِّ العُودَ للنّــــارِ
واعْمَلْ بِعِلْمِهِ وَلَا تَنْظُرْ إِلى عَمَلِهِ يَنْفَعُكَ عِلْمِي وَلَا يَضُرُّكَ تِقْصَــارِ

وللأزهري:

تَرَى الفَتَى يُنْكِرُ فِعْلَ الفَتَى لَوْمًــا وَخُبْثًا فَإِذَا مَا ذَهَــبْ
لَجَّ بِهِ الحِرْصُ عَلَى نُكْتَــةٍ يَكْتُبُهَـا عَنْـهُ بمَاءِ الذَّهَــــبْ

[1] بياض في (أ) بمقدار كلمة واحدة، و هي ساقطة في (ب) و(ج).
[2] في (ب): « آداب الدنيا والدين».
[3] الكلام: (من : تبشير –الى– من شر ما لديه) ساقط في (ج).
[4] عبارة في الثقافة الشعبية الجزائرية تقال للتعوّذ من عين الحسود. وأحيانا ترسم اليد وفي وسطها عين لنفس الغرض.
[5] المؤلف يدعو القارئ لقراءة كتابه بعين الانصاف والخبر، لا بعين الأسانيد والعمل، ويبدو أن المؤلف كان يخشى استهجان العلماء لكتابه هذا، لذلك كان يشير دائما الى أن ركوب مطيّة التأليف والكتابة ليس أمرا هيّنا، وذكر المؤلف مرة أنه كان يقرأ كتابه في مجالس العلماء بتلمسان، وحين يُسأل عن صاحب الكتاب، كان يخفي اسمه، ويستعمل التورية. ينظر: "كعبة الطائفين"، ن أ، (ج1)، ص: 272
[6] في (ب) و(ج): إن
[7] في (ب) : العزيز

وإيّاك أَن يصدَّك الرجيم فتأنف من مطالعة تآليف معاصريك، فيها من مواهب العليم فتُحرم، كما قيل: المعاصرة حِرْمَان)[1]، فإن النظر في الكتب نعيم وفَهْمُها فتح عظيم.

حكي أن المأمون دخل على بعض أولاده وهو ينظر في كتاب أدب، فقال:« يا بنيّ ما بكتابك ؟ فقال: بعض ما [كذا][2] اللفظ، ويؤنس الوحشة، ويلذ العين، ويُعرَف به قيمة الإنسان، فقال له المأمون: الحمد لله الذي رزقني ذرية ترى بعين قلبها أكثر مما ترى بعين جسمها»، ولله درّ القائل:

نِعْمَ المُؤَانِسُ وَالجَلِيسُ كِتَابٌ   تَخْلُوا بِهِ إِنْ خَانَكَ الأَصْحَابُ
لَا مُفْشِيًا سِرًّا إِذَا اسْتَوْدَعتَـهُ   وَتُفَادُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وصَـــوَابُ

ولأبي بكر الطرطوشي في «سراج الملوك »له[3]:

لَنَا جُلَسَاءُ مَا يُمَلُّ حَدِيثُهُـــــمُ   (أُلَفَاءُ)[4] مأمُونُونَ غَيبًا وَمَشْهَدَا
يُفِيدُونَ مِن عِلْمِهِم عِلْمَ مَنْ مَضَى   وَرَأْيًا وَتَأْدِيبًا وَعَقْـلاً(مُسَـــدَّدَا)[5]
فَلَا فِتْنَةً تَخْشَى وَلَا سُوءَ عِشْـــرَةٍ   وَلا تَتَّقِي مِنْهُم لِسَـانًا وَلَا يَــدَا
فَإِن قُلتَ أمواتٌ فَمَـا أَنْتَ كَاذِبٌ   وَإِنْ قُـلْتَ أَحْيَاءٌ فَلَسْتَ مُفَنَّـدَا

وهذا النظر إنما يَحِلُّ إذا في كتب ملكها، أو استأذن مالكها، أو علم أنه يرضى بنظرة، وإلاّ فلا، لقولهρ: «من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في حجر جهنم »[6]، فظاهر الحديث يهمُّ الرسائل وغيرها، والله أعلم .

وهذا أول الشروع في المقصود من قصد القصيدة، وعلى الله قصدُ السبيل، اللهمّ أرنَا الحق حقًّا ووفقنا لاتباعه، وأرِنا الباطل باطلاً وأعِنَّا على اجتنابه، وثبت في قلوبنا الإيمان في آخر دقيقة، تقبضُنا فيها إليك، إنّك على كل شيء قدير، اللهمّ أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم وأكرمنا بنور العقل والفهم، افتح لنا أبوابَ فضلك ويسر علينا خزائن رحمتك يا أرحم الراحمين .

[في السفر الحسّي و السفر المعنوي(القلبي):][7]

قال الناظم رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به، آمين:

آمَـــاذَا حوَّسْـــتْ يَـــا رَبْ   كَمْ (منَ رَحْلَة)[8] رِيتْـهَا وَقْـرَا
نْفَتَّشْ مَنْ هُو خَـالَصْ الحُــبْ   واْدْرايَـه تَغْـرِيـهْ لِيـكْ اغْـــرَا

---

[1] الكلام :(من: في أثناء مطالعتك –الى– فتحرم حرمان) ساقط في (ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج)
[3] في (ب): أنشد الطرطوشي في« سراج الملوك» شعرا عجيبا، والكلام ساقط في (ج).
[4] في (ب): طلبا
[5] في (ب): سرمدا
[6] الحديث أخرجه محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي في "مسند الشهاب"ج1، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ص: 284 . وأخرجه أيضا أبو دوود في "سننه" ج2، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، دط، دتا، ص: 78.
[7] هذه الفكرة الصوفية عبارة عن تناص مع قضية " المعراج النبوي"، –تناص الولي مع النبي–، ينظر: محي الدين بن عربي، الإسرا الى المقام الأسرى، تحقيق: سعاد الحكيم (مع دراسة عن المعراج النبوي والمعراج الصوفي)، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988، ص:19- 34
[8] في (ج): من حلاًّ، وفي (ب): من رحال، وأظن الناسخ قد وضع النقطة تحت الحاء سهوا.

لَيسْ وْجدْتْ سِوَى الذِي يَهَـبْ   قـوايَ بـاجْـفَـاهْ (واقـفـُـورَا)[1]

أقول مستعينا بالله ومتوكلاً عليه، ومصليا على سيدنا ومولانا محمد ومسلما عليه، أشار الناظم بتحواسه هذا وتفتيشه إلى معنى السفرين في الحالتين، قال الشيخ أبو القاسم القشيري τ ونفعنا به وبأمثاله بجاه محمد وآله: السفر على قسمين، السفر بالأجساد من بقعة إلى بقعة، وسفر بالقلوب من صفة إلى صفة، الأوّل عام والثاني خاص، كم من مسافر بجسمه وقلَّ من يسافر بقلبه .

ومنهم إمام الأولياء المحمديين علي بن أبي طالبτ وكرّم وجهه فإنه قال :«سلوني عن طرق السموات فأنا أعلم بها من طرق الأرض»، قال فيه سيدي محمد بن أحمد الدقَّاق: أشار الإمام بهذا إلى المقامات والأحوال، فطُرُق السماوات الزهد والتوبة وغير ذلك من المقامات، فإنّ السالك لهذه الطريقة يصير قلبه سماويا، وهي طرق السماء مستنزل البركات، ولا يتحقق بهذه الأحوال إلا ذو قلب سماوي.

وقيل لبعضهم: هل سافرت قط؟، قال: أمَّا في الأرض فلا وأمَّا في السما فبلى، وقال الحضرمي τ : جلسة مع الحق خير من ألف حجة مبرورة مع الخلق، قال القشيري: لَعَمْرِي أنَها أتم وأحَسن، وقال أبو يزيد : رأيت الحق عز وجل في المنام فقلت: يا رب كيف أجدك؟، فقال: فارق نفسك وتعال، وجاء رجل إلى أبي علي الدقَّاق فقال: قَدْ قطعتُ إليك مسافة، فقال ليس هذا الأمر بقطع المسافات فَارق نفسك بخطوة وقد حصل مقصودك[2].

قال زروق: وقد قيل في إشارة قولهυ: «الدنيا خُطوة مؤمن»[3]،إنه يريد تَخَطِّيها بالزهد فافهم معنى الطي الحقيقي، وقال: يحي بن معاذ:« مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ومجاوز الآخرة بالقلوب، وقال إبراهيم بن أحمد بن المولد: نفسك سائرة بك، وقلبك طائر بك، فكن مع السر معنى، فالسياحة بالنفس لأَرْبَاب الظواهر علمًا وشرعًا وخلقًا، والسياحة بالقلب لأرباب البواطن حالاً ووجْدًا وكشفًا، وقال زائرًا لصَالِح: يا سيدي جئتُك من بلاد بعيدة، فقال له: قد كان يكفيك خطوة لو سافرت عن نفسك، وإنّما أنت سافرت بنفسك فَبَعُدَتْ عليك الشقَّة، ويعني بسفره عن نفسه؛ مفارقته لصفاتها المهلكة وتركه لشهوة بطنه وفرجه.

(وقد عَرَّف الناظم بنفسه وأنّه من المخصوصين بهذه السفرة المعنوية في أول "القصيدة النونية"، حيث قال:

طُفْــت الوُجُـــودْ حَيثْ كَــانْ   بالعَقْل قد حْوِيتْ لاَ مَن يَخْفَانِي
وَسْــأَلْتهُــم بكُـــلْ لْسَـــانْ   مَن السَّبَاب فِيكُم قَالُوا سُلطَانِي
سُلطَـــان كُـــل ذِي سُلطَـــانْ   لُولاَه لَم نْكُونوا قُرَّة الأَعْيَـــانْ
شَــــغَف فُـؤَادَكْ احَيــــــرَان   بحُب مُجتَبَاك مُحِب[كذا]يا غـــان)[4]

ثمّ لما انتهى في سفره إلَى حضرة نفسه ومعرفته، تاقت نفسه إلى معرفة بارئها ومحاضرته في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فرغب وطلب وقال:

كُنت طْفَل نْرْجــى وارْجيْتُ اشَبَــابْ   غَــايَــةْ رْجَـــال حِيـنْ اكْهُـــــــلاَتْ

---

[1] كذا في (ج)، وفي (ب): واقفولي.

[2] اقتباس المؤلف هنا كان بالمعنى، يراجع: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، (باب أحكام السفر)، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، د تا، ص: 130

[3] لم نعثر عليه في الصحاح وكتب السنن.

[4] الكلام (من : وقد عرّف –الى– يا غان) ساقط في (ب) و(ج).

بَعدْ ذَاكْ نَرْجَى ثُــمَّ رَاسِي شَـــابْ   شُفْــتْ فِيــكْ شَرْعَــا مْطــوَّر وَجْــوَابْ

لأش يَا ربِّ منْ صَابْ لي مْعَاك خَلْوَه   واحْضُور يَاتي منَّكْ لي مْدَاوَمْ مادَامْ احْيَـاتي

ولما أن حقّق الله له رجاءه، واستجاب له دعاءه فنى عن نفسه وعن سواها، واضمَحَلّ فيمن عرفها، فقال :حيَّرتَني في أمري وقد غبت فيك حتى ناديتني في سري من أنت؟ قلت: أنتَ ،الخ ،كما ستقِف إن شاء الله على ما يقرّ العين ويَصِلُ البَين.

وأمّا السفر الحسّي بالأجسام فهو الذي قال الله تبارك وتعالى فيه: [وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً] [النساء/100]، ومن قَعَدَ في أرض الفتن فقد كفر نعمة الله في سعة أرضه إن وجد غيرها، وهو الذي قال فيه رسول اللهρ: «سافروا تصحُّوا وتربحوا وتغنموا، والذي بعثني بالحق إنّه ليُفْسَحُ للغريب في قبره كبعده من أهله»[1]،ومن ذلك قوله ρ: «موت الغريب شهادة »[2].

والغربةُ حسية بالأبدان ومعنوية بالأديان[3]،(ومن هذا الثانين قول رسول ρ : «إن هذا الدين بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»[4]، ويجمع معنى السفرين قول الله عز وجل: «عبدي أحدث لي سفرًا أُحدث لك رزقًا تحركوا ترزقوا »[5]،[كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيا] [آل عمران/37]، ومنه سفر القوم)[6]،كما قيل:

قَومُ إلى الله سَـــارُوا بالعُلُومِ عَلَى   نَجَائِبِ الفِكْرِ رُكْبَانًا وَوِحْـــدَانَـا

وفَارقُوا الأهْلَ واللَّذاتِ واغْتَرَبُـوا   وَقَد جَفَوْا في طِلَابِ العِلمِ أَوْطَانَـا

حَتَّى انْتَهَـوا مُنْتَهَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ   وذكرهُمُ[عَطَّر][7]الأكوانِ إعـــلانا

هـم الأئمةُ لا زالــت علومُــهم   تُبْدي لعاشقها روحًا وريحــــانَـا[8]

(ومن الحِسِّي لهؤلاء القـوم:

ولله قَـوْمٌ كُلَّمَـا جِئْـتُ زَائِـــرًا   وَجَدْتُ شُخُوصًا كُلُّهَا مُلِئَت عِلْمَـا

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ فَضِيلَـةٍ   فَيَزْدَادُ بَعْضُ القَوْمِ مِن بَعْضِهِم عِلْمَا

أُولَئِكَ مِثْـلُ الطَّيْرِ كُـلٌّ لَـهُ شَـذَا   ومَجْمُوعُه أَقْوَى رِياحًا إلى السَّمَـــا[9]

ومن المعنوي قول الآخر في سفر أهل الحقيقة وصفة سيرهم على الطريقة:

الطُرُقُ شتَّى، طَرِيقُ الحَقِّ مُفْـرَدَةٌ   وَالسَّالِكُـونَ طَرِيـقَ الحَـقِّ أَفْــرَادُ

لَا يُعْرَفون ولا تُدرَى مَقَاصِدُهُـم   فَهُـم عَلَى مَهلٍ يمشُـونَ قُصَّـادُ

---

[1] الحديث رواه مسلم. ينظر: د/ أ.ى.ونسنك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي،(ج1) مكتبة بريل، لندن، دط،1936، ص: 468.

[2] الحديث رواه ابن عباس مرفوعا، ينظر: عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد أبو أحمد الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، ج7، تحقيق: يحي مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ط3، 1988، ص: 124. وأخرجه أيضا: عبد الرؤوف المناوي في "فيض القدير" ج6، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ، ص: 246.

[3] في (ج): والغربة حسّا ومعنىً.

[4] أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مختلف، ينظر: الإمام مسلم، صحيح مسلم، ج1، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دتا، ص: 130

[5] الحديث ذكره: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، تفسير القرطبي، ج5، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط2، 1372هـ، ص: 151.

[6] الكلام(من: ومن هذا الشأن –الى– سفر القوم) ساقط في (ج).

[7] زائدة في (ب) و (ج).

[8] الأبيات من بحر البسيط.

[9] الأبيات من بحر الطويل.

وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِـم وَكُلُّهُـم عَن طَرِيقِ الحَـقِّ حِيَّـادُ)[1]

[في حب الأولياء وخدمتهم ومجالستهم:]

(وقال أبو كر بن محمد: قلت لداود الطائي τ دُلَّني علي رجل نجلس إليه، فقال تلك ضالة لا توجد، وقال بعض الصالحين :إنَّ لله رجالاً إذا نضروا للعبد نظرة أكْسَوْهُ بها سعادة الأبد، وقليل ما هم، وقال بعض المريدين: نظرت إلى الجنيد نظرة أغنتني إلى الأبد، وأهل هذه النظرة يسمّون رجال الله، تخلقوا بأخلاق الله، لأنّ لله في خلقه كل يوم ستين نظرة، بذلك ورد الخبر، ومن نظر إليه بعين الرحمة لم يعذبه أبدًا، وموقع نظر الله منهم ومرآة تجلية قلوهم لقوله ρ: « إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم »[2].

فاحرص جُهدك على أن تتقرب لأولياء الله بالزيارة، وتتحبّب إليهم بالخدمة، وتتودّد إليهم بالإحسان ما استطعت حتى تسكن محبتك في قلوبهم، فإذا تجلى الله لقلوبهم ونظر إليهم بعين الرحمة وجدك محبوبًا في قلوبهم، فغفر لك ورحمك بسببهم، فإن "حَبيبَ الحبيبِ حَبيبٌ"، ويؤيد هذا قوله ρ: «هم قوم لا يشقى بهم جليسهم»[3]، وقوله: «من أحبَّ قومًا حُشِرَ معهم »[4]، وقد قال أبو الحسن الشاذلي τ :« حُب الأولياء ولاية »، وحينئذٍ يتعطفون عليك وينظرون إليك بالعين التي نظر بها إليك، وما تشاءون (إلاّ أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) [المدثر/56].

ومن سفر الأجسام زيارة الصالحين والإخوان والأرحام، كتب عمر إلى موسى الأشعري رضي الله عنهما:« مر ذوي القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، لأنّ بُعْدَ الدّيار يوجب المحاب وقربُها يوجب التحاسد، وما أضيف شيءٌ إلى شيء أحسن من علم إلى حلم أو عفو إلى مقدرة »، وقالρ: «كان رجل فيمن قبلكم أخذ الطريق يريد زيارة أخيه في الله، فلقيه مَلَكٌ في صفة رجل، فقال له : أين تريد؟، فقال: إلى زيارة أخ لي في الله فقال: هل داينته بدين ؟ قال: لا، فقال: أهو من قرابتك ؟ فقال :لا، فقال له: أبشر إن الله بعثني إليك لأبشرك بالجنة»)[5]،وعنه ρ فيما يرويه عن ربه: « وجبت محبّتي للمتحابين فيّ المتزاورين من أجلي زوارًا في الله ،قال: من زار في الله شيّعه سبعون ألف ملك ويقولون: اللهم صِلْهُ كما وصل فيك ،ونادى منادٍ: أن طِبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة مقعدًا»[6]، فانظر إلى الصلة فإنها تكون نسبية كأولي الأرحام، وسببية كأخوّة الإسلام، وهذه الأخيرة هي الأصل، ولا تبطل ببطلان الفرع بخلاف العكس، وشاهد ذلك قوله ρ: «لا ميراث بين مِلَّتَيْنِ »[7]، ويدُلّ قولهρ: « الأقربون أولى بالمعروف»[8]، يعني إلى الله ،فإن انضافَ النسب الطيني للنسب الديني كان للحقوق مؤكدا، [لَا تَجِد قَومًا يُؤْمِنُونَ،..][9][المجادلة/22].

---

[1] النص الشعري من بحر البسيط، وهو ساقط في (ج).

[2] الحديث أخرجه أبو شجاع شيرويه بن شهرزاد بن شيرويه الديلمي الهمذاني، في "الفردوس بمأثور الخطاب" ج1، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986، ص: 166. وذكره عبد الرؤوف المناوي في "فيض القدير" ج2، (مصدر سابق) ص: 272.

[3] الحديث أخرجه: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص: 83.أ – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص: 213.

[4] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي في "كشف الخفاء" ج2، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1405هـ، ص: 290.

[5] الكلام (من: وقال أبوبكر بن محمد –الى– لأبشرك بالجنة) ساقط في (ج).

[6] الحديث أخرجه كل من: – أبي شجاع شيرويه، في "الفردوس بمأثور الخطاب" ج2، ص: 295. – اسماعيل بن محمد العجلوني، في "كشف الخفاء" ج1،ص: 529.

[7] الحديث أخرجه أحمد بن حنبل في " مسنده" ج2، مؤسسة قرطبة، مصر، دط، دتا، ص: 195.

[8] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني، في "كشف الخفاء" ج1،ص:183.

[9] (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من واد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)[الآية22/المجادلة]

[في زيارة الصالحين أحياءً وأمواتا:]

وأمّا زيارة الصالحين الأحياء والميّتين[1]، فإنها تكسب خير الدارين، وتبلغ إلى مرضات رب العالمين، نفعنا الله بحبهم ومتعنا بقربهم، ومن أجلّ ما قيل في ذلك منظومة ابن سالم سيدي إبراهيم بن محمد اللّنتي التازي τ[2]،التي يقول فيها:

زيارةُ أَرْبَابِ التُّقَى مَرْهَمٌ يُبْـــري ومِفْتَاحُ أَبْوَابِ الهِدَايَةِ والخَيْـــرِ
وتُحْدِثُ في القَلْبِ الخَلِـــيِّ إرَادَةً وتَشْرحُ صَدرًا ضَاقَ من سِعَـةِ الوِزْرِ
وتنصرُ مظلومًا وتَرفع خَامِــــلاً وتُكَسِبُ مَعدومًا وتُجبِـر ذَا كَسْــرِ
وتُبسِطُ مَقبُوضًا وتُضْحكُ باكيــًا وترفِدُ بالبذلِ الجزيلِ وبالأَجْـــر
عليك بها فالقَومُ باحوا بسِرِّهـــا وأوصوْا بها يا صاحِ في السرِّ والجهر
فكم خَلّصَتْ من لُجَّة الإثمِ (فاتِكا)[3] فألقته في (بَرِّ)[4]الإنابة والبِـــرِّ
وكَم من بعيــدٍ قرَّبَتْه بجَذْبَـــةٍ فَفَاجأهُ الفَتْحُ المبيــنُ من البَـــرِّ
وكم من مُريد أظْفَــرتَه بمُرشِــــدٍ حَكيمٍ خبيرٍ بالبَـلاءِ وما يُبْـــرِي
(فألْقى)[5]عليـه حلَّـــةٌ يَمَنِيَّـــــة مُطَرّزةٍ باليُمْـنِ والفَتْـحِ و النَّصْـــرِ
فزُرْ وتأدّبْ بعـد تصحيـح نِيَّـــةٍ تـأدُّبَ مَمْلُـوك مع (المالك)[6] الحُــرِّ
ولا فَرقَ في أَحْكَامِهَا بَينَ سَــالِكٍ مُربٍّ ومجذُوبٍ وحيٍّ وذِي قَبـــرِ
وذي الزُّهدِ والعِبَادَةِ فَالكلُّ مُنْعَـمٌ عَلَيهِم ولَكِن ليست الشَّمسُ كالبَدرِ
وزَوْرَةُ رُسُـلِ الله خيــرُ زيـــــارَةِ وهُم دَرجَاتٌ في الْمَكانَةِ والقَــدْرِ[7]

(المراد منها[8] ومن آداب زيارة الصالح أن تتخيَّر يومه الذي مات فيه[1]، تتطهّر وتمشي إليه عند الزوال، حافيا راجلاً مكشوف الرأس بقدر المكان، وتصلي عنده ركعتين وتقرأ شيئًا من القرآن ثم تقول :« اللهمَّ إني أتوجه إليك

---

[1] اهتم كثير من الصوفية بزيارة الصالحين أحياء وأمواتا، وقدّموا في ذلك كتبا ومنظومات، كتلك التي نظمها أحمد شهاب بن أحمد نور الدين الزوي القادري، الموسومة: " المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة" مطابع الجماهيرية، سبها، ط1، 1997، حيث أشار فيها : النصيحة بزيارة قبور الصالحين، جواز شد الرحال لزيارة قبور الصالحين،. ومما جاء فيها (ص:20):

يا قاصدا للسادة الأبـــرار أبشر منحت نفحة الأسرار
من زار أهل العلم والصلاح حاز المنى بالفتح والفـــلاح
فزر قبور السادة الأخيـــار والصلحا والعلما الأبــــرار

[2] هو سيدي ابراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران، الولي الصالح العارف القطب، صاحب الكرامات والأحوال البديعة، والقصائد الرائقة الأنيقة، إماما في علوم القرآن مقدّما في علم اللسان حافظا للحديث، بصيرا بالفقه وأصوله، أصله من بني لنت، قبيلة من بربر تازة، وشهر بالتازي لولادته بها، عاش في ق 9هـ، تتلمذ للشيخ سيدي الهواري، نزيل وهران، أخذ عنه جماعة من الأئمة كالحافظ التنسّي، الإمام السنوسي، أحمد زروق، القصيدة أثبتها ابن مريم في « البستان». ينظر: - ابن مريم، البستان، ص: 58-63

-أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، (ج1)، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 1991، ص: 249- 255

-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1)، ص: 92- 93

[3] كذا في(ب) وفي (ج)، وفي كتاب:« البستان»: فاتيا.

[4] كذا في (ب) وفي(ج)، وفي كتاب: « البستان»: بحر

[5] كذا في (ب) وفي(ج)، وفي كتاب:« البستان»: فألقت

[6] كذا في (ب) وفي (ج)، وفي كتاب:« البستان»: الملك

[7] الأبيات من الطويل.

[8] الكلام (من : المراد منها -الى- ما ذكروه لي نُقُول) ساقط في (ج)، وهو بمقدار صفحتين.

بجاه نبيك محمد ρ ، وبأبينا آدم وحواء، وبما بينهما من الأنبياء والمرسلين، وبعبده هذا وتسمّيه، اقضي حاجتي، وتذكرها، تقضى إن شاء الله»، ذكره المنافي.

ونقل لي بعضُ أشياخي من بعض الصالحين: « أن الزائر يقرأ الفاتحةعشرا ثم الإخلاص عشرًا ثم التصلية عشرًا، ثم تقول: اللهم إني اسألك بكتبك الذي أنزَلْت وبرسلك الذي أرسلت، وبمقام هذا الولي وبالسرّ الذي بينك وبينه ،افعل لي كذا وكذا، فإن كان صادقًا أجيبَ»، قلت والأكمل أن يقرأ آية الكرسي أيضًا عشرًا ويزيد في التصلية عشرًا أخرى، وينوي ثواب ذلك للمَزُور ومن معه.

وقال بعضهم أهمَّني أمر فشكوت إلى بعض الصالحين، فقال τ: إذا أهمَّك أمرًا وصادك حزن، أو أردت تفريج كربة، أو قضاء حاجة من حوائج الدنيا والآخرة، فخذ سِفْرًا من البخاري، إن كان الأخير فهو أفضل لختمه لأحاديث الرحمة، فاذهب به إلى قبر وليّ مُعْتَبَرٌ بالزيارة ومقصوده في إجابة الدعاء، فافتحه عند قبره فأي حديثٍ وقع بصرك عليه أولاً، فاقرأ سندهُ ثم توسل بكل واحد من أهل ذلك السند إلى رسول الله ρ ثم به عليه السلام، ثم بصاحب ذلك القبر، ولابدّ منه، ثم أذكر حاجتك فإنها تُقضى في الحين[2]، وقال: فإذا أخرجت إلى الزيارة فلا بُدَّ أن ترفع سماط[3]، وأحسن ما يكون فاكهة أو خبزا، إن لم توجد فضعه على ذلك القبر وكُلْهُ مع من وجدت هنالك وهذه سنة الزيارة .

قوله: « آماذا حَوَّسْت يَارب»، التَّحْوَاس: هو الضرب في الأرض، والسير في نواحيها، والسياحة في أقطارها، تنبيه: قال ابن حجر قال ابن صخر: قد استقرّ عمل المصنفين على افتتاح كتب العلم بالتسمية، وكذا معظم كتب الرسائل، واختلف القدماء فيما إذا كان الكتاب شعرا، فجاء عن الشعبي صنع ذلك، وعن الزهري، قال: مضت السنة أن لا يكتب في الشعر بسم الله الرحمن الرحيم، وعن سعيد بن حبيب: جواز ذلك وتبعه الجمهور. من « فتح الباري»، وقال الشيح علي الأجهري: وهذا في غير الشعر المحتوي على علم أو وعظ، فهذا لاشك في دخوله في كتب العلم، وفي غير الشعر المحرم، فإنّ التسمية لا تشرع في الأمر المحرم. ومثله هجو المؤمن ومدح الفاجر، ووجه البراءة بذكر الله، فإن العبد لا يستقل بالوترية حالاً ومثالاً، فيحتاج إلى إقرار وتمكين الله تعالى فلَزَمَهُ أن يتوجه قبل الشروع في فعله ببعض أسمائه إلى جنابه الأقدس الفياض مستمدًا به منه، ثم يشرع فيه ولهذا السر قال رسول اللهρ: « كل أمر ذي بال لم يُبدأ فيه بسم الله فهو أبتر»[4]، لأنه اسم للذات المستجمع بجميع الصفات الكمالية، بل في ذكره ذكرُ جميع أسمائه إجمالاً، فإن قولك اسم فلان مثلا إذا أريد بفلان معناه لا لفظه يدل على جميع أسمائه إجمالا، فلفظ اسم الله المراد به معناه يدل على جميع أسمائه تعالى».

---

[1] جاء في « سلوة الأنفاس»: إذا كانت الرحمة تتنزّل عند ذكر الصالحين، فما ظنّك بمواطن اجتماعهم على ربهم، ويوم قدومهم عليه بالخروج من هذه الدنيا، وهو يوم وفاتهم، فزيارتهم فيه تهنية لهم وتعرض لما يتجدد من نفحات الرحمة عليهم. ينظر:« سلوة الأنفاس»، مرجع سابق، ص: 64

[2] النص ذكر بمعناه في « سلوة الأنفاس»، مرجع سابق، ص: 65

[3] أظنها تعني صدقة توهب باسم الولي، يطلق عليها أحيانا شعبيا: (الزْيارة)، من معاني السماط: سماط الطعام، ما يبسط ليوضع عليه)، ينظر: المعلم بطرس البستاني، قطر المحيط، طبع في بيروت، دط، 1869، ص: 962.

[4] الحديث رواه أبو هريرة، أخرجه أبو شجاع شيرويه بن شهرزاد بن شيرويه الديلمي الهمذاني، في "الفردوس بمأثور الخطاب" ج3، ص: 246.

[في سر افتتاح الناظم قصيدته بحرف الألف:]

تنبيه : لقيت الشاب الأديب العارف اللبيب العالم العامل الأتقى الأورع الفاضل سيدي محمد بن سيدي أفغول حفيد الولي الصالح سيدي بوعبدلي المغوفل، نزيل شلف حفظه الله ورعاه، حيث قدم مع تلامذته لزيارة الشيخ أبي مدين τ سنة خمسين[1]، فأضافنا ولازمته أيَّامًا وتذاكرت معه في شرحنا الأوسط على هذه القصيدة[2]، فتوافقت المهام بحمد الله أو كادت، فقال لي τ: «كلام الأولياء لا يخلو من فائدة، فما السرّ في افتتاح الناظم قصيدته بحرف الألف؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، وعجزت يومئذٍ عن جوابه، ثم طلبته أن يخبرني بسرّ ذلك فوعدني، ثم استعدته فوعدني أن يكتبه ويبعثه لي من مستغانيم، فتشوقت إلى سِرّ ذلك وطلبته حتى فتح الله به علي فوجدت عزّ الدين بن عبد السلام تكلم على بعض أسراره في كتابه المسمّى: «حل أسرار الرموز ومفاتيح الكنوز»، وكذا البوني في كتابه: «شمس المعارف »، ومضمَّن ما ذكروه أن نَقُول:)

إنَّما بدأ الناظم كلامه بحرف الألف لأنّه أول ما خاطب الله به الأرواح يوم أشهدهم، فقال: [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ] [الأعراف/171]، وهو أيضا أول ما خاطب به جبريل عليه السلام محمدًا ρ حين نزل عليه بالوحي من عند الله، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ ثلاثًا ثم قال له: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ] [العلق/01]، فالألف أول القرآن نزولاً و أوّله وضعا في الفاتحة والبقرة ،وهو أول حروف المعجم بل وسائر الأقلام، وهو أول اسم الله العظيم، والمقصود من هذا معرفة الله عز وجل، لأنه لا سبيل لعباده إلى معرفة ذاته، فدَلهم بأسمائه وصفاته، فجعل حرف الألف أوّل اسمه الكريم دليلاً على أوَّلِيتِه وسَبَقِيَتِه، وجعله طويلاً ممتدًا دليلاً على ديموميته وسرمديته، وجعله معتدلاً قائمًا إشارة إلى عدله وقيوميته، وجعله صامتًا لا تجويف له إشارة إلى صمديته، وجعله واحدًا منفردًا تنبيهًا على أُحَدِيَّتِه وفردانيته، وجعله يدخل على الحروف ولا يخلو عنه كلام تنبيها على قدرته، وعلى افتقار جميع الخلائق إليه،(وإن الله لَهُوَ الغني الحميد)[3].

فائـدة: من أسرار حرف الألف ما قاله أبو محمد المرجاني τ: « أن من كتب حرف الألف ألف مرة في رق طاهر في ساعة يوم الأحد، وعلّقه على قلبه يسَّر الله عليه الفهم والأسباب، والإسم منه من حيث باطنه كاف ،لأن عدد حروف هذا الاسم على عدد حروف أَلِفْ، وهو أحد عشر ومائة[4]، والاسم منه من حيث ظاهره

(الله)[5] فمن نظر إلى حروف اسم الجلالة بعد أن يكتبها هكذا: (ا ل ل ه) في كل يوم ست وستين مرة، عدد لفظ حروفه التي تساوي سته وستين يوما، وهو يذكر اسمه تعالى لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، ولا يقع عليه بصر جبارٍ إلا ذُل وخضع، ومَن أكثر من ذكر الكافي لا يطاق النظر إليه إجلالاً، ومن عرف قدره استغنى به لأنه اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى »، من «مفاتيح أسرار الحروف ومصابيح أنوار الظروف » له .

---

[1] يريد المؤلف بـ سنة خمسين : منتصف ق11هـ/17م، أي سنة : 1050هـ.

[2] يريد بـ الأوسط : الجزء الثاني من كتابه هذا، فمعلوم أن كتابه« كعبة الطائفين» جاء في ثلاثة أجزاء(أسفار)، ، وموضوعه كما نعرف قصيدة شعبية.

[3](له ما في السماوات والأرض وإن الله لهو الغني الحميد)[الآية64/ الحج]، وفي (ب) و(ج): وإن الله لغني عن العالمين.

[4] القيمة الرقمية لحرف" ألف" بحساب الجمل الصغير، هو: 111، حيث أن : أ = 01 / ل= 30 / ف = 80 ، و المجموع هو: 111

ينظر: عبد الفتاح السيد الطوخي، هداية العباد في أسرار الحروف والأعداد، المكتبة الثقافية، بيروت، ط1، 1992، ص: 08. وفوزية الكربي، فهرسة المخطوطات العربية، المكتبة الوطنية أنموذجا، ضمن: تحقيق النصوص التراثية– التصور والواقع– تنسيق: نجاة المريني، مطبعة النجاة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص: 148

[5] كذا في (ج)، وهو ساقط في (ب).

تتمّة: ومن أسرار حرف الألف أيضًا أن الله خلق آدم على صورته، وكذلك بَنُوه، فينبغي لمن عرف نفسه أن يعرف ربه، ويكون أول الناس قيامًا لعبادة ربه، لقوله تعالى: [[وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا] فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ [أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]][البقرة/148]،وقوله عز وجل: [وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ] [الواقعة/10-11]، ثم ينبغي له أن تمتد طاعته وتطول عبادته، حتى يكون آخر الناس انصرافا بانقضاء وقتها ،فيكون أول الناس دخولاً وآخرهم خروجًا، كما أن الهمزة أتت آخر الحروف، والألف لا تكون حرفا إلاَّ بالهمزة،لأنها فَتْقُ جيب وظهور غيب، إنمَّا الأعمال بخواتمها، نحن الأولون الآخرون.

[في صفات العارف المتعلق قلبه بربه:]

ولا تنال ثمرات العواقب إلاَّ بإدامة الصبر على توفية جميع المطالب، ولذلك كان اسمه تعالى الصبور، آخر الأسماء في التعبير، لأنَّ العاقبة للمتقين والله مع الصابرين، وبعد قيامة بالحقوق ينبغي أن يكون رافعًا همته إلى مولاه، ولا يلتفت إلى سواه إلّا لأداء حق لمخلوق أمره به (من هو فوق الفوق)[1]،فينخفض له وينحني رحمة وتواضعًا لا ذلاًّ وخوفًا وطمعًا، فالعارف المتعلق بربه، العوالم كلها إليه محتاجة، وليس له هو إليها من حاجة، «يا بن أدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي،(فلا تهتك ما خلقته من أجلي لما خلقته من أجلك»)[2] [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] [الذاريات/56]، وينبغي أن يكون مستقيمًا في قيامة عدلاً في أحكامه: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ [وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ]][هود/112]، [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ] [النحل/90]، [وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ][الحجرات/09]

خير الأمور أوسطها، وينبغي له أن يكون معتزلاً متجردًا عن جميع الشواغل والعلائق التي تشغله وتثبطه عن النهوض إلى استقامته التي أُمر بها وخلق من أجلها، فكل ما شغل العبد عن مولاه من أهل ومال وغيرها فهو مشومٌ عليه، و"البطنة تميت الفطنة"، بل ورد أن الله يبغض الحبر السمين[3]، وأَعدا الأعادي نفُسك التي بين جنبيك، وينبغي له أن يكون صامتا عمَّا لا يعني، كاتما لأسراره حتى لا تظهر عليه علامة تفسد عليه تفرّده وتوحده للواحد الأحد الفرد الصمد، بل ينبغي له أن تمتاز وحدته بالوحدة وحداني، وقد قيل في وصف العارف:

ومن عِلْمِهِ أَنْ لَيسَ يُدعَى بِعَا لم	وَمِن فَقره أَلَّا يُرَى يَشْتَكِي الفَقْـــرَا
وَمَنْ حَالُهُ إِنْ غَابَ شَاهَدَ حَالَهُ	فَلَا يَدَّعِي وَصْلاً وَلَا يَشْتَكِي هَجْرَا

[في ذكر رجـال تخلقوا بأخلاق الحروف :]

قال المرجاني τ: « اعلم أن لله جل جلاله رجالاً هم رجال الحروف، ويقال لهم رجال المنازل، وهم ثمانية وعشرون رجلاً، وهؤلاء من هو أَلِفُ العالم وهو القطب الأعظم، ولابدَّ لمن أراد التصريف بحرف من الحروف أن يتخلق بذلك الحرف، كما في أسماء الله حتى يكون ذلك المتخلق هو عين ذلك الحرف أو الاسم، ينفعل عنه ما ينفعل

---

[1] العبارة ساقطة في (ب)

[2] في(ب): فلا تشتغل بما خلق من أجلك عمّا خلقت من أجله.

[3] ورد في أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي والبحر المحيط لابن حيان، الدرر المنثور.

عن ذلك الإسم أو الحرف، فمن الشروط اللازمة لكل من أراد العمل بالحروف أو الأسماء لزوم الجماعة ودوام الطهارة الحسية والمعنوية، والاعتقاد الصحيح المطابق للكشف الصريح، ثم رياضة الفكر بالتأمل في معاني هذه الحروف اعتبارًا واستقراءً، بحيث يتولد عن ذلك اليقين الكامل بمعرفة رُتَبِها،والجزم التام بتأثيراتها، ثم التخلق بها كما يتخلق بالأسماء، قال عليه الصلاة والسلام: « تخلقوا بأخلاق الله »[1]، وقد تخلّق أبوا العباس السَّبتي باسمه تعالى الجواد حتى أورثه تصريفا كليا في الوجود، وكانτ يقول :« عن الجود ينفعل الوجود، ولولا الجود ما ظهر موجود » .

[في بيان التخلق بالألف:]

بيان التخلق بالألف هو الوقوف عند نقطة الاعتدال بالتزام أحكام السِّوائية ظاهرًا وباطنًا قولاً وفعلاً واعتقادًا بحسب الطاقة في ذلك، وهذا الاعتدال الألفي هو الذي أُمر به ρ في قوله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ] [هود/112]، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، قال υ: « خير الرفقاء أربعة »[2]على عدد هجاء(حروف)[3]همزة، والذكر القائم به: «إلهي اسمك سيد الأسماء، وبيدك ملكوت الأرض والسماء ،الهُوَ والأنا، وأنت الحكيم الخبير، وأنت على كل شيء قدير أسألك باسمك الحق الذي جمعت به متفرّقات الأمر والخلق، وأقمت به غيب كل ظاهر، وأظهرت به كل غائب، أن تهبني صمدانية أُسَكّن بها المتحرك قدرك حتى يتحرّك إليَّ كل ساكن ويسكن متحرك، فاجرني قبلة كل متوجه، وجامع شتات كل متفرق من حيث اسمك الذي توجهت إليه وجهتي واضمحلت عنده كلمتي، فيقتبس كلٌّ منِّي جذوة هُدَى توضح له ما أمّ أمامه الفرد الذي لولاه لم أنا نية(كذا) المقتبس يا من هو (هو)[4] ولا أنا، أسألك بكل اسم استمدّ من ألف الغيب، المحيط بحقيقة كل مشهود،أن تشهدني وحدة كل متكثر في باطن كل حق، وكثرة كل متوحد في ظاهر كل حقيقة، ثم وحدة الظاهر والباطن حتى لا يخفى عليَّ غيبٌ ظاهر ولا يغيب عني خفي باطن، وأن تشهدني الكل في الكل، يا من بيده ملكوت كل شيء أنت أنت أنت (لا إله إلا أنت)[5] [قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ] [الأنعام/91]»، من داوم على هذا الذكر في هذا الوقت حين نسمات الفجر، في موضع خال بجَمع هِمَّة وصفاء القلب، نزلت عليه السكينة وغشيته الرحمة، ولا يسأل الله شيئا فيما يتعلق بإقامة أمر من أمور إلا أعطاه إياه، وهو جليل القدر يصلح للأقطاب والمستخلفين ولكل من قام به أمر من ظاهر حق أو باطن حقيقة، فتأمل ففيه سر من الأسرار المخزونة لا يدركه إلا المتفكرون ولن يكشفه إلا الهالكون، ويناسب ذلك من الآيات القرآنية : [اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] [البقرة/255]، وكل ما اشتمل على توحيده تعالى كسورة الإخلاص.

---

[1] الحديث ورد في بعض التفاسير كتفسير الألوسي/ الرازي / الشعراوي وغيرهم.

[2] الحديث أخرجه كل من:- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج2، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، دط، دتا، ص: 944. - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج9، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، دط، 1994، ص: 157.

[3] الكلمة ساقطة في(ب) و(ج)

[4] ساقط في (ج)

[5] في (ب): أنت الله، وفي (ج): أنت الله لا إله إلاّ أنت.

[في معاني اسمي "الرب و الرباني"ودلالتهما:]

قوله:« يا رب»، الرب لفظٌ مشترك، وهو الخالق السيد والمالك والمنعم والمصلح والمربى خليقته شيئا فشيئا بالتدريج (والتربية، هي نقل الشيء من حالة إلى حالة حتى يصير إلى حالة أرادها المربي وأعلى. إن تربيته تعالى لخلقه لا يحيط بها غيره، فمنها تربية النطفة في الرحم حتى تصير علقة، ثم مضغة ..الخ ،ما ذكره الله ومنها أن الحبة إذا دفنت في الأرض تحصل لها نداوة، وانتفخت لتنشق من أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى الجزء الصاعد وهو الساق ثم يتفرع منه لها أغصان كثيرة، ثم يخرج منها نور، ثم ثمر يشمل على كثيفة كالقشر ولطيفة كاللُّبِّ، وأما الجزء المغلق من أسفل الحبة فيتفرع إلى عروق، ثم تنتهي إلى أطرافها اللطيفة ومع غاية لطافتها تغوص في الأرض الشديدة الصعبة، وأودع بها قوى جاذبة تجذب الأجزاء اللطيفة من الطين إلى نفسها. والحكمة في جميع هذه التدبيرات تحصيل ما يحتاج إليه الآدمي من المصالح كما قال تعالى:[أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ [صَبًّا]] [عبس/25])[1].

والرباني هو الذي يربي المريد بصغار المسائل قبل كبارها، ولهذا لما مات ابن عباس قيل: " مات رباني هذه الأمة"، قال تعالى: [وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ [بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ]] [/آل عمران/79]، فسّره ابن عباس أي فقهاء تعلمون، فينبغي للمربوب أن يعبد سيده ما دام له ربًا، فربوبيته لا تنقضي أبدا وعبادة عبده لا تنقطع سرمدًا، وكذلك ينبغي له أن يحمده على نعمة الإيجاد ويشكره على نعم الامداد أبد الآباد، فنعم الإمداد لا تنقضي ولا تنعدم، فكذلك حمده وشكره لا ينقطع ولا يتم، قالρ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله »[2]، فيقول المربي في كل وقت وحين: الحمد لله والصلاة والسلام على حبيبه المكين، ولهذا السرّ اختار بعض العلماء من صيغ الحمد هذه اللفظة، حتى قال الثعالبي في «تفسيره»[3]:« إنها أجلُّ صيغ الحمد لأنها فاتحة الكتاب وخاتمة دعوى أهل الجنة، فيتعين في برِّ من حلف ليحمدنَّ الله بأجل المحامد ». نقله السيوطي في كتابه: «الإكليل في استنباط التنزيل».

وقيل: « أفضل المحامد حمد آدمυ، وهو قوله: الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده»، (وقيل حمد النبي ρ وهو قوله: « اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[4]، وقيل حمد الأعرابي الذي قال: «الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها و ما لم أعلم، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم»[5]، فمن أراد أن يجمع الفضائل ويبر في يمينه إن حلف فليحمد ربه بالأربعة محامد، ثم ينبغي لمن عرف الرب أن يتعلق بالمسمى ويتخلق بمعنى الاسم، فيربي كل من كان في ولايته بأحسن التربية، ويبدأ بصغار الأمور قبل كبارها، وبأيسرها قبل أعسرها، لقوله عز من قائل: [وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ] [آل عمران/79]فَسَّره؛ بما كنتم

---

[1] الكلام (من : والتربية –الى– أنّا صببنا الماء صبًّا) ساقط في (ج).

[2] الحديث أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس، وقال حسن غريب، ينظر: زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار – ضمن كتاب الإحياء (ج4)– المكتبة التوفيقية، القاهرة، دط، دتا، ص: 408

[3] عبد الرحمن بن محمد بن خلوف الثعالبي أبو زيد، صوفي من كبار المفسرين وأعيان الجزائر وعلمائها، ولد سنة786هـ/1384, وتوفي سنة875هـ/1470م، له أكثر من سبعين كتابا، منها (تفسيره) الموسوم:« الجواهر الحسان في تفسير القرآن».

ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 90، 91

[4] الحديث أخرجه مسلم، ينظر: الإمام مسلم، صحيح مسلم، ج1، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (مصدر سابق)، ص: 130

[5] لم نعثر عليه في كتب الصحاح وكتب السنن.

تعلمون الكتب، وبما كنتم تدرسون ويعطي لكل ذي حق حقه، قال ρ: « يسروا ولا تعسروا ،وبشروا ولا تنفروا، وانزلوا الناس منازلهم، و خاطبوهم علي قدر عقولهم، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله »[1] أو كما ورد، قال بعض الحكماء: «من أنزل الناس سواء، ليس لحمقه دواء»، إنّما ظهرت الباء في خاتمة هذا الاسم المذكور إشارة إلى كمال التربية ومنه ختم زرعه أي سقاه (أول سقيه ينهيه إلى كمال غاية كماله)[2].

[في التخلق بأخلاق البـاء :]

قال المرجاني :« والتخلق بحرف الباء هو التنزل مع أرباب المراتب لِذِي الحاجات عملا كان ρ : « تأخذ الجارية من جواري المدينة بيده، فتنطلق به في حاجته، وعزل الأسباب بمشيئتها اعتقادا، من قال مطرنا بحول الله وقوته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب »[3]، وقال الغزالي: إن الأنبياء قد ينزلون في أقوالهم إلى الدرجات اللائقة بأمتهم، فإنهم ما بعثوا إلا بإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أمتهم بمشاهدته، وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم ، فقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلاَّ ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس، ولكن تسهيلاً للأمر على المريد، ولذلك قالρ :« أما أني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف(شفقة)[4]الأنبياء، كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة »[5]،كما قالρ للحسن : «كخ كخ، لما أخذ ثمرة من الصدقة ووضعها في فيه»[6]، وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول: ارم هذه الثمرة فإنها حرام، ولكنه إذا علم أنه لا يفهم منطقه ترك فصاحته ونزل إلى الكناية، فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين ،من «الإحياء».

[سعي المؤلف في صحبة العارفين وطلبهم في البوادي و الأمصار:]

فناسب تعلق الناظم بهذا الاسم تفتيشه على حزب العارفين، لأن مسبب الأسباب رتب بحكمته الأشياء على ما سبق به تقديره، فسبب لقاء العارفين طلبهم في البوادي والأمصار، والتفتيش عليهم بالحواس والأسرار، فمن جدَّ وجدَ ومن طلب شيئًا ناله(أو نال بعضهُ)[7]،[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا[وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ]] [العنكبوت/69](فإن قرِئ عليك: [أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ][التين/8]، فقل: بلى وإنا على ذلك من الشاهدين، وإن سَمِعْتَ: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ][الملك/30]، فقل: الله رب العالمين، اقتبس أهل الإشارة من الآية أن الماء كُنّي به عن العلم الحقيقي في القلب، فإنَّهُ لا يُدْرَك إلاّ بالله، وسببُه الحفرُ عليه والبحثُ عنه

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، ينظر: الإمام االبخاري ، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 2002، ص: 30

[2] في (ب) و(ج): أول سقيه سقيا ينهيه الى آخر نهاياته.

[3] الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه، ينظر: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان، ج1، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993، ص: 417.

[4] كذا في (ج)، وفي (ب): شفاعة

[5] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[6] أخرجه البخاري، ينظر: محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري، صحيح البخاري، ج2، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987، ص: 542.

[7] ساقط في (ب) و(ج).

على وفقِ حكمته، وشبّهه بالماء للطافته وحياة القلب به واستمداد العقل منه. قال أبو الحسن الشاذلي: « للناس أسباب و[نحن][1] سببنا الله ».

(وإنما كثر تفتيش الناظم على أهل الحب الخالص والمعرفة التامة ليستفيد ويفيد، وذاك مقصده بركة الاجتماع، قال بعض العلماء :« أيامي أربعة لا خامس لها، يوم غنيمتي ويوم تجارتي ويوم إجارتي ويوم حسرتي، فأما يوم غنيمتي فهو يوم ألقى فيه رجلا أعلم مني فأستفيد منه، ويوم تجارتي فهو يوم ألقى فيه رجلا مثلي فيفيدني وأفيده، وأما يوم أجرتي فهو يوم ألقى فيه رجلا أجهل مني فأفيده، وأما يوم حسرتي فهو يوم لا ألقى فيه من يفيدني ولا من نفيده» وأنظر كيف تواضع هذا العالم وقال أجهل منّي، ولم يقل أنا أعلم منه للتبرّي من الدعوى)[2].

[لقاء المؤلف بالشيخ سيدي محمد بن أفغول:]

(لقيتُ الفقيه الأتقى سيدي محمد بن أفغول المذكور[3] بولهاصة[4]، فرصدت أعماله فوجدته يكتم أحواله كثيرًا، يصوم النّهار فإذا نام النّائمون قام فبات يصلي، وفي النهار نتذاكر معه في فنون العلوم، فإذا كثُرَ المجمع غَفَّلَ الناس وانفصل جَلس حيث لا يعلم به إلاّ أصحابه، فنتبعه حتى إذا كَثُرَ الجلساء عنده أيضًا استغفلنا واعتزل، ثم إني لمتُه وقلتُ: يا أخي، المسلمون يريدون مجالستك ليستفيدوا العلم والبركة، وأنت تتهرَّب، هذا لا ينبغي لك، فقال لي سرًا: إني لم أتهرَّب اختيارًا ولا تعزّزًا وإعراضًا عن المسلمين، وإنَّما أنا أتضرّر بمجالسة العامّة وأتأذى بكلامهم، لأن بعض الناس أهل نفوس ولا نستطيع الجلوس معهم، ولأن شرة النفوس لا تتحملها رقة الأرواح، فاعذروني في حالي يا أخي، فسلَّمْت، ثم بعد ذلك بسنين زرته في بلده، فوجدته بنَى زاويةً ببيوت الشَّعْرِ في وادي الخير من شلف، وصار يخالط كل الناس ويخوض في كل لجى، فقلت له: يا سبحان الله ! وأين القبضُ والفرارُ الذي كنت فيه ؟فتبسم، وقال: " إنّي كبرت كبرت، وحدّثني حفظه الله أنه بقي في أوّل أمره مدّة طويلة تائهًا في الغابة مع الوحوش والسباع لا يأوي إلى عِمارة، وبعد أن خالط الناس بقي مدة لا يُفرِّق بين الحلو والمر.

وقال لي (حفظه الله):" حفظت القرآن وأنا شاب بلا مشقة، وإنّما أكتب ربع الحزب أو نصفه في لوحي فأُجودهُ مرّة أو مرتين وأنام، فإذا فقت وجدتني حفظتَهُ"، وكذا فتح الله عليه في علوم كثيرة، ثمّ استشيَخَ في الطريقة أبَا سالم سيدي ابراهيم الغبريني القاطن بشرشال، وشيخ سيدي ابراهيم الكناني، وسيدي الحاج مبارك القلعي، تلميذ سيدي أحمد بن عبد الله السجلماسي)[5].

(وكان سيدي مبارك المذكور أسمر اللون، ويزور الشيخ أبا مدين في غالب السنين وأزوره، وحين أطلب منه الدعاء يقول لي :" أصلحك الله ظاهرًا وباطنًا"، وطلبته الصحبة والمشيخة، فقال لي :" اليوم سلام وغدًا كلام"، ثم عاودته سنة أخرى، فقال :"إن شاء الله"، ودعا لي كما تقدّم، ثمّ إنّ صبيحة يوم بعث لي من حرم الشيخ أبي مدين،

[1] زائدة في (ب) و(ج).

[2] الكلام (من: وإنما كثر تفتيش –الى– الدّعوى) ساقط في (ج).

[3] هو سيدي محمد بن سيدي أفغول حفيذ الولي الصالح سيدي بوعبدلي المغوفل، نزيل الشلف، تقدّم ذكره في ص: 14 من هذه الدراسة.

[4] إحدى بلديات مدينة عين تموشنت، كان المؤلف يتردد عليها كثيرا، وكان له كثير من الأقرباء بها، وربما كان المؤلف ينحدر منها.

[5] الكلام من: (لقيت الفقيه الأتقى –إلى– عبد الله السجلماسي) ساقط في (ج).

فلقيته فيه فأمرني بقضاء حاجة، وأوصاني ألاّ يطّلع أحد إلاّ الله فامتثلت أمره، ثم أوصاني بما قسم الله لنا على يديه، نفعنا الله بمحبّتهم وصحبتهم، آمين.

والمناسبة لهذه الحكايات قول الناظم:" نْفَتَّش– إلى قوله – سوى الذي يهب قواي باجفاه واقفورا"، روي أن أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، قال: «ما جالستُ ثقيلاً الاّ وجدتُ الجانب الذي يليه من بدني كأنّه أثقل من الجانب الآخر »، وحكي عنه أيضا أنه قال: «جلس إلى جنبي ذات يوم رجل ثقيل، فبقيت جنبي الذي تليه أيامًا ثقيلة عليلة »، وقال رجل لسليمان الأعمش :« ممّا عَمَشَت عيناك ؟، فقال : من رؤية الثقّلاء مثلك»)[1].

(**فائدة**: إذا جلس عندك من يُثقِل عليك فاتلُ عليه هذه الآيات سرًا، فإنه يندفع بإذن الله تعالى، وهي :قوله تعالى: [تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا] [الكهف/45]، [رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ] [الدخان/12][يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ] [الزلزلة/06]، [انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا][التوبة/41]، مجرّب صحّ، من السنوسي)[2].

قوله: "كم من حِلَّة "(البيت)، الحِلَّةُ : هي دائرة من دواوير بيوت الشَّعْر تُتَّخَذ لِسَكنَى البوادي للرفق، والقرى : جمع قرية، وهي المداشر والأمصار.

فكان المصنفτ ورحمه أخبر أنه حوَّسَ وساح بقلبه مرّةً وبقالبه أخرى، ليفتش على العارفين المحبين في البوادي والحواضر، فلم يعثر لَهُم على أثر، ولم يقع لهم على خبر، بل لم يجد إلاَّ جاهلاً غبيًا ومتفقها غويًا تبطل مجالسته الحسية بمخالطتهما وتضعُفُ صحبته الفطرية بمحادثتهما لجفاوتهما وخشانتهما.

ومقام الصفا لا يناله أهل الجفا ، وهذا الذي قاله هو في غالب الأمر، وإلاَّ فمن طلب شيئًا ووجهه مصدق في طلبه فيوشك أن ينال مطلوبه ويبلغ مرغوبه، وكان الناظم رحمه الله إذا عثر على من يلائم حاله في البادية، يقول :«ماذا من نْوَاوِير في الدْوَاوِير »، كما قال أبو الحسن للذي رآه في ثياب رثة :« كم من عوالي في الخوالي، وملك الله لاَ يخلى». ومن سلك طريقهم زاحمهم بكتفه على باب الدخول.

[في كون المحبة طريق المعرفة والرؤية:]

قوله:" خَالَصْ الحُب "،أي لله ولرسوله، قال الشيخ العارف بالله أبو محمد سيدي عبد الجليل بن موسى القصري،τ: «المحبَّةُ هي الود الثابت الصافي، والمحبّةُ الخالصة هي التي لا يعترضها إعراض ولا فتور بل تتزايد بتزايد المعرفة، وقد قال تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ] [البقرة/165]»، من « شعب الإيمان» له ،[والإيمان هو حديث النفس التابع للمعرفة][3]، وهذا معنى قوله الناظم:" وادْرَاي تَغْرِيهْ اليك غْرَا "، ويؤيده أيضا ما نَبَّه عليه الإمام أبوا حامد الغزاليτ في قوله:« إنَّ المعرفة بَذْرُ الشوق ولكن مهما صادف قلبا خاليا عن حسيكة الشهوات، فإن لم يكن خاليًا لم يكن البذر منجحا»، ولذلك ينبغي أن يكون الناظرُ في صفات الله خالي القلب عن إرادة غير الله :

(أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى   فَصَادَفَ قَلْبِي فَارِغًا فَتَمَكَّنَا

[1] الكلام من: (وكان سيدي مبارك –إلى– الثقلاء مثلك) ساقط في (ج).
[2] الفائدة ساقطة في (ج).
[3] زيادة في (ج).

« إذا ضرب زناد المواعظ حجر القلب علقت النار بحسب المعرفة»

وقال الخطيب السلماني: المحبة في لسان العرب كناية عن الإرادة المؤكدة، تقول: أردت أن أفعل كذا، وأحببت أن أفعل كذا، والفرق بينهما، أن الإرادة إن تعلقت بصفة أو فعل كما تقول: أريد كرمك أو علمك أو قربك، قيدت بما تعلقت به، وإن تعلقت بالذات خصت في الأكثر بالمحبة، قال تعالى: [يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله] [البقرة/165]، [يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ][المائدة/54][بياض][1] قيل أردت فلانا [بياض][2] والإغراء[كذا] والتحريض، قال ρ: «كل صاحب علم غرثان إلى علم »[3]، أي متجوع إلى استزادة فائدة علم آخر فيطلبه ليسد به جوعته في ظنه، وهيهات، بل هو ممن قال فيهما رسول اللهρ: «منهومان لا يشبعان، طالب العلم وطالب الدنيا»[4]، ولذلك قال الله لنبيه: [وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا][طه/114]، فالعلم خليل المؤمن، والخليل لا يسمح بمفارقة خليله)[5].

قال الشيخ سيدي عبد الجليل :«واعلم أن الحب في مقام الإحسان مولّد عن الرؤية ،كما في الخبر عنه ρ :" أن تعبد الله كأنك تراه"[6]،فأثبت له معنى من الرؤية، فإذا رأته القلوب باليقين والعقول بالبراهين انكشف لهم جمال الأسماء الحسنى و الصفات العلى فأحبوه لأنه أهل لأن يُحَب، والجمال محبوب في جميع الأشياء، في الخبر عنه ρ: « إن الله جميل يحب الجمال»[7]، فهو تعالى يحب نفسه ويحبه كل من رآه لذاته وحسن صفاته شاء أو أبى، وأعلاهم رتبة في ذلك الذين تحررت نفوسهم عن رق الأغيار، فرفعت عن قلوبهم الحجب والأستار فلحظوا جمال سبحات الوجه الجميل، فأحرقهم لهيب الحب المتوقد في صميم العليل، وأطارهم رفرف الشوق المزعج إلى حضرة الجليل شاءوا أم أبوا، وذلوا لله وخضعوا لجماله، وكل من أحب شيئا لجماله ذلّ وخضع، والذل هو التعبد للمحبوب » من « الشّعب».

وفي هذا المقام قال الصدِّيق، τ :« من ذاق شيئا من محبة الله ألهاه ذلك عما سواه»، وقال أبو سعيد الخراز: «حقيقة المحبة تقطع الفؤاد وتشتت المراد، ولولا لطف الله بعبده موسى لأصابه أعظم مما أصاب الجبل حال التجلي،– وقال–: رأيت المصطفى ρ، فقلت: اعذرني فإن محبة الله أشغلتني عن محبتك، فقال: يا مبارك، من أحب الله فقد أحبني».

ومَنْ لم يَمُت والحُبُّ حَشْوَ فُؤَادِهِ   لَم يَدْرِ كَيفَ تُفَتَّت الأَكْبَـــادُ

وقال سحنون: « ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة، الحديث: « المرء مع من أحب »[8]، وسئل عن المحبة، فقال: صفاء الود مع دوام الذكر، وعن المقصود، فقال : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء »، وقال بعض العارفين: « من لم يفتح له باب الذوق والشرب أو الري من أودية المحبة فهو تحت حجاب نفسه مُلقى، ولا تصح المحبة إلا لمن امتحنت أفعاله بأفعال ربه، وأمحقت صفاته بصفات ربه، وفنت ذاته في بقاء ذات ربه» .

---

[1] بياض بمقدار كلمة في الأصل، وهو ساقط في (ب) و(ج).

[2] بياض بمقدر كلمتين في الأصل، وهو ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه: – أبو شجاع شيرويه، الفردوس بمأثور الخطاب، ج3، (مصدر سابق) ص: 262./– محمد بن سلامة بن جعفر، مسند الشهاب، ج1 (مصدر سابق) ص: 150.

[4] الحديث أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، دط، 1407هـ، ص: 135.

[5] الكلام (من: أتاني هواها –الى– بمفرقة خليله) ساقط في (ب) و(ج).

[6] الحديث أخرجه البخاري ومسلم، ينظر: – البخاري، صحيح البخاري، ج1 (مصدر سابق) ص: 27./- مسلم، صحيح مسلم، ج1 (مصدر سابق) ص: 37.

[7] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج1 (مصدر سابق) ص: 93.

[8] الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، ج،4 (المصدر نفسه) ص: 2034.

وفي هذا المعنى أنشد الشيخ الكامل سيدي محمد بن سليمان الجزولي (رحمه الله ونفعنا بتسميتنا عليه):

ذَاكْ اللِّي ذَاقْ ذْكَر واشــــرَبْ وارْوَى   واسْتَغْرَقْ فِيمَن هُوَ مِن بَعْد هـْـــــوَاه

مَا يَشْفَا بالدْوَا مالُوا شَكْــــــوَى   سَخَطْ المحبُوبْ اسْتَوَى عَنْدُه وَارْضَـاهْ

كِيفْ المـَا لُونُو افْنَا فِي لُون انْيَـــــهْ

وكما أن للشرب مراتب، فكذلك للحب العشيق ثم الكلف ثم الهيام ثم الشغف، قال ابن الخطيب: « وقد صرح إمام العاشقين سيدي عمر بن الفارض ببلوغه المعنى في قوله :

فَتَى الحُبِّ ها قد بِنتُ عَنْهُ بُحُكْمِ من   يَـرَاهُ حِجَابًـا والهَـوَى دُونَ رُتْبَتِـــي[1]

وَجَاوَزْتُ حَدَّ العِشْقِ فَالحُبُّ كَالقَلَـى   وَعَنْ شَـأْوِ مِعْرَاجِ اتِّحَادِي رِحْلَتِـــي

(فالهوى مشتق من السقوط،قال تعالى: [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى][النجم/01]، أي سقط وجنح للغروب، ومعناه ميل القلب، وسرعة تقلبه لأجل المحبة،كما يسرع التغير لشدة صفائه ولطافته، وهو درجة ناشئة عن المحبة، وعذابه عذب، والعشق اسم لما فضل عن المقدار المسمَّى حُبًّا، وهو الذي لا يقدر صاحبه على كتمه، ولذلك شرط فيه ρ الكتمان في الحديث المشهور، لاستقصائه على الطبع)[2].

والكلف شدّة الحب الذي لا يقدر صاحبه على التصبر إلا بتكلف يقال: كُلِّفتُ بهذا الأمر، أي وُلِعتُ به وكلفه تكليفا، أمره بما شق وتكلفت الشيء، أي تجشمته، والكلف ما يتكلفه من نائبة أو حق، وحملت الشيء بكلفة، إذا لم تطقه، والهيام والهيوم هو أن يذهب على وجهه لغلبة الحب عليه ،يقال: هام يهيم هيما وهيمانا، ذهب من العشق أو غيره، والهُيام بالضم أشد العطش، قال تعالى:[فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمْ] [الواقعة/55]، والهيام كالجنون من العشق، وهو مأخوذ من داء يصيب الإبل فتهيم في الأرض ولا ترعى، يقال ناقة هيماء.

وأُشْغِف بالغين المعجمة، يقال شغفه الحب، أي بلغ شغافه، وشغاف القلب جلدة دونه، وهو القشف [كذا] الذي يجري على القلب حسبما يظهر في الحيوان، قال تعالى:[قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا] [يوسف/30]، أي بلغ شغاف قلبها،قال ابن عباس:« دخل تحت شغافها وبالمهملة، هو إيراق المحبة مع لذة يجدها المحب»، ومثله اللوعة واللعم والبلبال، والألفة هو أول مقام من مقامات الحب،وقد عُدَّت في أسبابه وهو الممازجة ويستدعيها الإنسان باستقراء محاسن المحبوب،ومعناه إيثار جانب المحبوب على كل مطلوب ومصحوب، والإرادة هي متقدمة على الجميع، وهي ناشئة تتقدم كل عمل قبل الشروع فيه، وفي الاصطلاح نهوض إلى طلب الحق، ولهذا يقال: "لوعة تُهَوِّنُ كلّ روعة" ،وقيل فيها إجابة لداعي الحقيقة طوعا . من « روضة التعريف» لابن الخطيب، فليس من يحب الله لعلو ذاته كمن يحبه لفيض[كذا] صفاته، ولا من يحبه لكماله وجلاله كمن يحبه لإحسانه وجماله، فمحبة الجلال والكمال خاصة بأهل مقام الإحسان، ومحبة الجمال مشتركة بينهما وبين أهل الإيمان، ومحبة العطاء والنوال عامة لعوام أهل الإسلام، وإليها أشارρ بقوله: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه »[3])[4]

---

[1] البيت ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، ج3،تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط2، 1983، ص:46.

[4] الكلام (من: فالهوى مشتق –الى– يغذوكم به من نعمه) ساقط في (ب) و(ج).

قوله: " خالص الحب " (البيت)، فالحب الخالص الصافي الثابت نتيجة المعرفة بكمال المحبوب، واعلم أن معرفة الله ورسله شرط في صحة الإيمان، ومحبتهما شعبة من شعب الإيمان، روى سيدي محمد بن سليمان الجزولي في كتابه، «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في فضائل الصلاة على النبي المختار»: أنه قيل لرسول الله ρ:« متى أكون مؤمنا صادقا؟ قال: إذا أحببت الله، فقيل: ومتى أحب الله؟ قال: إذا أحببت رسوله ،فقيل: ومتى أحب رسوله ؟ فقال: إذا اتبعت طريقته واستعملت لسنته، وأحببت بحبه وأبغضت ببغضه، وواليت بولايته وعاديت بعداوته ويتفاوت الناس في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبتي، ويتفاوتون في الكفر على قدر تفاوتهم في بغضي،ألا لا إيمان لمن لا محبة له»[1].

وروي أيضا عن أنس بن مالك،τ أنه قال، قال رسول الله ρ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالديه والناس أجمعين»[2]، وفي حديث عمر بن الخطاب: «أنت أحب إليَّ يا رسول الله من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي، فقال ρ: يا عمر لا تكون مؤمنا حتى أكون أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك، فقال عمر:والذي أنزل عليك بالكتاب لأنت أحب إليّ أكثر من نفسي التي بين جنبي،فقال له ρ: الآن يا عمر تمّ إيمانك»[3]، وتقدم الإيمان لمن لا محبة له ثلاث مرات، ويؤخذ من فحوى الخطاب أنه لا إيمان له، لأن حقيقة الإيمان هو حديث النفس التابع للمعرفة، فمن لا معرفة له لا إيمان له، إذ يستحيل ثبوت الشيء بدون حقيقته، وإذا كان ذلك في حق النبي الأمي فكيف به في الأعلى العلي، وقد صرح بمقتضى ما ذكرناه في حديث آخر عنهρ يقول فيه: « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »[4]، وذكره في «الإحياء»، ومنه أيضا يقول الله في بعض الكتب: «عبدي أنا وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محبا»[5]، قلت وهو التورية، ومنه قالρ في دعائه: « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعله أحب إليّ من الماء البارد»[6].

وقال يحي بن معاذ الرازيτ:« مثقال خردلة من الحب أحب إلى الله تعالى من عبادة سبعين سنة بلا حب»، وقال أيضا :« عفو الله يستغرق الذنوب فكيف رضوانه، ورضوانه يستغرق (الأمان)[7] فكيف حبه وحبه يدهش العقول، فكيف ودّه وودّه ينسي ما دونه،فكيف لطفه »،ثم ناجى مولاه بكلام عجيب، نقله الغزالي.

(قال الإمام سيدي علي بن ميمون الحسني في معنى قوله : «لا يؤمن أحدكم »، قال عز من قائل:[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ][النساء/65]، فقال:[فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ] [الأعراف/158]، وقال:[وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ] [الحشر/07]،فهذه الآيات أمر بالطاعة ، والآمر بها آمر بالمحبة، فلا يكون طائعا حتى يكون محبا، وإلاّ فليس بطائع، فكل نفس ادّعت محبة الرسول ولم تتبعه في التخلق بأخلاقه فهي كاذبة، وقد ورد أن التحدث بالكذب من أخلاق المنافقين، والدليل على كذبها، قوله تعالى:[قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ [فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]][آل عمران/31] ،مفهومه من لم تتَّبعه فليس بمحب له، وكل من لا يحب الله لا يحبه رسوله، وكل من لا

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[2] الحديث أخرجه البخاري بلفظ قريب منه في صحيح البخاري، (كتاب الإيمان)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 2002، ص: 14.

[3] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج6، ص: 2445.

[4] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[5] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[6] الحديث أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، ج20، ص: 109.

[7] في (ب) و(ج): الآمال.

يحبه رسوله، فالنفس مادامت معتكفة على أهوائها وشهواتها فليست بمحبة لرسول الله بمقتضى قوله: «لا يؤمن أحدكم» الحديث[1]، وهذا خطاب للنفوس على الإطلاق حتى تؤثر محبة الرسول على المحبوبات، وذلك بالاتباع له عليه الصلاة والسلام في الظاهر والباطن، وإلا فهي مخالفة، قال تعالى:[فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ]،[النور/63]، بل وتؤثر محبته على نفس نفسها، وإلاّ لم تكن مؤمنة بدليل حديث عمر: «أنت أحب..» ،الحديث، كما رواه عياض أيضا)[2].

[علاقة المريد بشيخه من خلال حديث عمر "ض"][3]

واعلم أن في حديث عمر فوائد في حق الشيخ و المريد، منها:

- قال عمر: «لأنت أحب إليّ من كل شيء إلاّ من نفسي»، يؤخذ منه جواز عرض حال المريد على الشيخ، وإن كان في حق الشيخ نفسه ،فإنه أخبر بغاية محبته له، ويؤخذ منه وجوب الصدق على المريد في شكوى ما يجده في نفسه في حق شيخه، وإن كان ذلك في الظاهر قصور، بل فيه كمال باعتبار السؤال، فالصدق في الشكوى موجب للكمال، ألا ترى صدق الفاروق أورث له مقاما شهد له فيه بالكمال، فحين قال ρ:« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» تلاشت عنده محبة نفسه بالكلية، وفنيت في محبة رسول اللهρ ، ولم يبق لها أثر، فأجاب فورا بقوله :«لأنت أحب إليّ من نفسي »، فكان الصدق موجبا لفناء النفس، وكذا هو جميع الأمور.

- ويؤخذ عن قوله:« الآن يا عمر»، جواز شهادة الشيخ لمريده بالكمال،إذا وصل مقام الكمال .

- ويؤخذ من قوله ρ:« لن يؤمن أحدكم ..»، الحديث، وجوب ترقي المريد من مقام إلى أعلى منه –وإن كان الأوّل محمودا– ليتلاشى عنها لنفس هذا المقام، ولا يتركه هناك خيفة عليه من ملاحظة ذلك ،فيعجب فيهلك، بل يفعل كما فعل النبي لعمر.

قال عليه الصلاة والسلام:« عليكم بسنتي»[4]الحديث، ثم لا يزال الشيخ يربي المريد من مقام محمود إلى أحمد منه، قال تعالى :[وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى][النجم/42]، وقالυ:« إنه ليغان»[5]،وقال:«توبوا فإني أتوب»[6]،الحديث، وهذا تعليم لقوله υ: «إنما بعثت معلما»[7]، ومن لم يمتثل فهو مخالف ومشاقق، قال تعالى: [وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ [مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا]] [النساء/115]، ويجب على المريد أن يكون شيخه أحب إليه من نفسه كما فعل عمر.

---

[1] سبق تخريج الحديث في الصفحة السابقة.
[2] الكلام ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[3] هذا الفصل ساقط في (ب) و(ج).
[4] الحديث أخرجه ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج10، (مصدر سابق) ص: 339.
[5] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج4، (مصدر سابق) ص: 2075.
[6] الحديث أخرجه الشيخان: - والبخاري، صحيح البخاري، ج5 (مصدر سابق)، ص: 2324. / - مسلم، صحيح مسلم، ج4،(مصدر سابق)، ص: 1075.
[7] الحديث أخرجه أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق الأصبهاني، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، ج4، تحقيق: محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996، ص:164.

[في معاني محبة الله ورسوله:][1]

«عليكم بسنتي»[2]، الحديث، وأخرج البخاري (رحمه الله)، عن أنس τ ، أن النبي ρ ، قال: « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، و أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[3]،قال سيدي علي بن ميمون ، قال تعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ [وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ]][التوبة/24]،[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا [لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ]][الأنفال/24]،[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ [وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ]] [الأنفال/20] ألم يسمعوا، [مَنْ يُطِعِ الرَّسُول فَقَد أَطَاعَ الله] [النساء/80]، فظهر من الآيات أن من آثر محبة أحد ممن ذكر فيها على محبة الله ورسوله ، فهو فاسق بدليل تهديد الله وتفسيقه له في آخر الآية .

ومحبة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله، فكل طائع محب وكل محب طائع، فالطاعة بالإخلاص دليل الجنة، والمحبة محلها القلب، فالطاعة بالجوارح دالة عليها بشرط الإخلاص، ولذا قال تعالى: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ [فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]][آل عمران/31]، فكل من تبع بالقول والفعل مخلصا فهو محبٌّ، وأما من تبع بظاهر الجوارح والقلب ملاحظ غير المحبوب المأمور بطاعته، فهو منافق وفاسق بدليل قوله تعالى:[يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ [وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ]] [التوبة/08]، [يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ [مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ]] [آل عمران/167]، فقوله υ: «وجد حلاوة الإيمان»، أي حقيقة الإيمان، وقوله :«و أن يحب المرء لا يحبه إلا لله»، أي لا يحبه لغرض ولا لعرض.

والمحبة قسمان: نفسانية وقلبية، فمحبة القلب لأجل الرب، ومحبة النفس لأجل الأرب، وهو حظها وغرضها، وهو حرام لأنه حظ نفس نشأ عن عجب ولا وصول إلى المحبة بالقلب، إلا بمعرفة النفس، ولا سبيل إلى معرفتها إلا بمجاهدتها، فمجاهدتها فرض بالكتاب والسنة، ومحبة ما سوى الله لا بحظ نفس هي عين محبة الله، فمحبة الله محبة الذات العالية، ومحبة خلقه محبة الصفات السَّنية، فمحب الصفات محب للذات، وكل ذلك مَحَبَّة لله، والمحب لله محب لرسوله، وقولهρ: «أن يكره أن يعود»[4]، الحديث.

والكفر على قسمين: كفر بالنعمة وكفر بالمنعم، فهذا كفر أكبر وهو الإشراك، وهو موجب للخلود الأبدي في النار، نعوذ بالله، والكفر بالنعمة كفر أصغر، لأنه لا يوجب الخلود، فكل من يدخل النار من الموحدين فسببه كفر النعمة.

---

[1] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج10، (سابق) ص: 339.

[3] الحديث أخرجه الشيخان: – البخاري، صحيح البخاري، ج6 (م سابق) ص: 2546. / – مسلم، صحيح مسلم، ج1،(م سابق) ص: 66.

[4] الحديث أخرجه الشيخان: – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص:14. / – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 66.

والنار على قسمين: نار جهنم، ونار البعد والجفا، ثم إنّ نار جهنم أصلها من نار البعد والجفا، ونار البعد على قسمين: قسم قضى به على من حكم عليه بالإشراك، وقسم منوع بتنويع أفعال العصاة وأقوالهم، ثم إنّ معاصيهم تتنوع وتتفرع إلى مالا نهاية إلا في علم الله، أدنى ذلك اشتغال النفس في المباح بهواها عن عبادة مولاها، وذلك موجب للضلال، والضلال موجب لغضب الرب، وغضب الرب موجب لدخول جهنم، فَبَانَ أن نار جهنم فرع لنار البعد والجفا، وأصل ذلك اتِّبَاع الهوى، قال تعالى: [وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ [بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]] [القصص/50]، وكل من أحب الله أحبه كل شيء ،حتى نار جهنم تكون عليه بردا.

الكلام في المحبة :

أخرج سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي في « تفسيره»، عن عبدالله بن المغفل، أن رجلا قال للنبيρ: « يا رسول الله إني أحبك، قال: أنظر ما تقول، قال: والله لأحبك ثلاثا، قال: إن كنت تحبني فأعد للفقر جلبابا»[1] ،وفي حديث أبي سعيد الخذري: «إن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع من السيل من أعلى الوادي أو الجبل إلى أسفله »[2] ، من « الجواهر».

وكان الناظم يروي لنا أن رجلا أتى إلى النبيρ، فقال: « إني أحب الله، فقال له: استعد للبلاء جلبابا»[3]، وأطال الناظم نفسه في طلب أهل الحب الخالص، والرواية التامة التي تغريهم وتحثهم على خدمة معروفهم وعلى طلب رضاه، فينبغي لنا أن نعتني بشأنهم، وبذكر أوصافهم الكريمة لعل الله أن ينفعنا بهم، فمن أوصافهم المعرفة والمحبة، فالمحبة ثمرة المعرفة، والمعرفة أساس الإيمان، والإيمان هو المطلوب، وكل ما لا يتوصل للمطلوب الواجب إلا به فهو واجب ومطلوب، والماهية المركبة من أشياء مهما اختل جزؤها اختل كلها، فيجب على كل مكلف شرعا أن يعرف ما يجب في حق مولانا جلّ وعزّ وما يستحيل وما يجوز وكذلك عليه أن يعرف مثل ذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيتأكد على كل مؤمن ومؤمنة أن يعرف ربه ونبيه كما هو المطلوب ليتمكن حبهما ويرسخ في سويداء القلوب، ويرتفع عنها حجاب الجهل الموجب للفراق يوم التلاق، ومرتب المسببات على أسبابها جعل ألفاظ الناظم مفاتح لأقفالها وأبوابها.

[في أسباب المحبة الإلهية:][4]

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي ،τ ونفعنا به: اعلم أن المحبة لها أسباب، السبب الأول: إدراك الجمال لأن كل جمال محبوب عند من أدركه بالقلب أو بالحواس، ولا أجمل من الله الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض، القاهر الذي

[1] الحديث أورده أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبوبكر، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، دط، 1403، ص:99.

[2] الحديث أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، (مصدر سابق) ص: 274.

[3] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[4] جل ما سجّله المؤلف في هذا الفصل اقتبسه من «الإحياء»، ينظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (ج4)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د ط، د تا، ص:407-467

لا تخرج عن قدرته أعناق القياصرة ولا تفلت عن سطوته وبطشه رقاب الجبابرة، القيوم الذي يقوم بنفسه، ويقوم كل موجود به، المنفرد بالعزة والجبروت، المتوحد بالملك والملكوت، ذو الفضل والجلال والبهاء والكمال، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول، والذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين: « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] ، فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان، لأن الإحسان يزيد وينقص، وقد أوحى الله إلى داوود υ: «يا داوود إن أودَّ الأود إليّ من عبدني لغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها»،وفي الزبور:« ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار،لو لم أخلق جنة ولا نار ألم أكن أهلا أن أطاع».

الثاني: بلوغ الإحسان و النوال، ولا محسن في الحقيقة إلاّ الله ،وبيانه: أن من أحسن إليك من العباد فَالإحسانِ الله إليك، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله ،وخلق قدرته وإرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه، وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه، إن صلاح دينه ودنياه في أن يسلم إليك ماله، فالمحسن هو الذي اضطره إليك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك كمجرى الماء في جريان الماء فيه ،فإن اعتقدته محسنا وشكرته على ذلك لا من حيث هو واسطة كنتَ جاهلا بحقيقة الأمر، لأنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلاّ إلى نفسه، وأما إلى غيره فمحال لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض، إما عاجلا كالمنة والمدح، أو آجلا كالثواب، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعِوَضٍ هو أحب إليه مما بذله، فكذا الواهب اعتاض الثناء أو غيره، فالإحسان هو الجود، والجود بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل ،وذلك محال من غير الله، فهو الذي أحسن إلى العالمين من وسيلة سابقة ولا مكافأة لاحقة، فإنه متعال عن الإعراض، فلفظ الجود في غيره كذب، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان، فينبغي ألاّ يحب العارف إلاّ الله تعالى، فهو المستحق لهذه المحبة، وقد قال الحسن البصري:" من عرف ربه أحبه".

الثالث: حب المحسن في نفسه وإن لم يصل لك إحسانه، وهو موجود في الطباع، فإذا بلغك خبر ملك عادل عالم عامل رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم، وهو بعيد عنك، وبلغك خبر آخر ظالم متكبر فاسق شرير متهتك، وهو أيضا بعيد عنك، فإنك تجد في قلبك بغض هذا و حب ذاك، مع أنك آيس من خبر الأول وشر الثاني، وهذا مما يقتضي حب الله لاحب غيره، إلاّ من حيث أنه يتعلق منه بسبب فإن الله هو المتفضل على أصناف الخلائق أولا بإيجادهم، وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي من ضرورتهم، وثالثا بتنعيمهم بخلق الأسباب وإن لم تكن من ضرورياتهم، ورابعا بتجميلهم وتزيينهم فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فإنه خالق الحسن و المحسن والأحسن. من « الإحياء»

ولذلك قالρ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[2]، قال زروق: «لا محسن سواه والعالم كله مسيء إليها إذ هو يطلب منها مطلوب الحق منها وهو القلب»، وفي التوراة: «يا بن آدم كل يريدك

[1] الحديث أخرجه أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي المجتبى، ج1، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1986، ص: 103.

[2] الحديث أخرجه محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ج1، (مصدر سابق) ص: 350.

له، وأنا أريدك لك»، ولهذا أيضا قالρ: «رأيت ربي في أحسن صورة »[1]، بمعنى معناه، وأنا حينئذ في أحسن صورة ليتهيأ لقبول ما يَرِد عليه من أنوار الجمال، ويحتمل أن يريد في "أحسن صورة "، بمعنى أنه كالمرآة على حد قولهم: «ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه»، والمرآة بقدر صفائها وعظمها يُرى المرئي فيها، ومع هذا فلم يشغله حسن الصورة عن حسن خالقها المحسن، وأحسن الصور صورته الكريمة الكاملة، فلم يعجب بها وإنما تعجب من مصورها ،لكنها مرآته، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وقال تعالى: [وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ][الأعراف/205]،وقال:[وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ] [الذاريات/21].

ثم قال في «الإحياء»: الرابع: المناسبة والمشاركة إذ شبه الشيء منجذب إليه ، ولذلك ترى الصغير يألف الصغير، والكبير يألف الكبير ،والعالم يأنس بالعالم أكثر من المنحرف، وأهل الحرف كل يأنس بأهل حرفته ،وترى الطير يألف نوعه ويهرب من غيره ،فإذا كانت المناصفة بسبب التّحاب فقد تكون في معنى ظاهر كالصبي مع الصبي في مناسبة الصبا، وقد تكون خفية لا يطلع عليها كما أشار إليها رسول الله ρ، إذ قال:« الأرواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[2] ،والتعارف هو التناسب ،والتناكر هو التباين ، وهذا التناسب أيضا يقتضي حب الله بمناسبة باطلة لا ترجع إلى المشابهة بالصور والأشكال، بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب ،وبعضها لا يجوز أن يسطر، بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يعثر عليها السالكون للطريق إذا استكملوا بشرط السلوك ،فالذي يذكر هو قرب العبد من الله تعالى في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل :تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الألوهية من العلم والبر والإحسان واللطف، وإفاضة الخير والرحمة والنصيحة، وإرشاد الخلق إلى الحق، ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي ،فهو الذي يومئ إليه قوله تعالى: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا]][الإسراء/85]، إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد مقول الخلق ويشير إليه قوله تعالى: [يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ][ص/26]، وقوله تعالى:[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً][البقرة/30]، يعني آدم ،إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة، و إليه يرمز قوله ρ :« إن الله خلق آدم على صورته»[3]، حتى ظن القاصرون إلا صورة الصورة الظاهر المدركة بالحواس ، فشبهوا وجسموا، تعالى رب العالمين ما يقول الجاهلون علوا كبيرا .

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل ،بعد إكمال الفرائض، كما قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به»[4]، وهذا موضع يجب قبض العنان فيه، فقد تحزب الناس إلى قاصرين شبهوا وإلى مسرفين جاوزوا حد المناسبة،

---

[1] الحديث ذكره: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، (مصدر سابق) ص: 237. – عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي، ج2، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ، ص: 170.

[2] الحديث أخرجه الشيخان:– البخاري، صحيح البخاري، ج3 (م سابق) ص: 1213. / – مسلم، صحيح مسلم، ج4 (م سابق) ص: 2031.

[3] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج5، (م سابق) ص: 2299.

[4] حديث (من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب) أخرجه البخاري في (باب التواضع)، ينظر: الأحاديث القدسية، (ج1) دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1999، ص:66.

وقالوا بالاتحاد والحلول، حتى قال بعضهم: « أنا الحق»[1]، وآخرون انكشف لهم استحالة التشبيه والحلول، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون، وعن هذا المقام نظر أبو الحسن النوري إذ غلبه الوجد[2] في قول القائل: « ولازلت أنزل في ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله»، فلم يزل يعدوا في(وَجْدِهِ)[3]، على أجمة قصب قد قطعت رؤوسه وبقيت أصوله مثل السيوف حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك، وهذا هو أعظم أسباب الحب وجملتها متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا، فهذا المستحق إذ الأصل المحبة وكمالها استحقاقا لا يسألهم فيها أصلا.

قلت: فما أَكنَّه هذا الشيخτ تحت غطاء الغيرة من المناسبة الخاصة، أظهره غيره، وسنذكر طرفا منه إن شاء الله في كتابنا هذا، وإنما اختلفت أقوال الرجال لاختلاف الأحوال، وذلك بحسب ما تجلى لهم من أنوار صفات الجمال أو الجلال أوالكمال: [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا][الإسراء/85]، مع اشتراكهم في أصل الهداية، قال صاحب «المواهب الربانية»، وهو الإمام الأعلم أبو عبد الله سيدي محمد الساحي رضي الله عنه: أسرار أذن لها في الظهور، وأسرار أذن لها بالانحجاب و الخمود تحت الستور فما ظهر فيك ظهر في غيرك، وما ظهر في غيرك ظهر فيك. من« النفحات الإلهية».

وإذا عرفت أسباب محبة العبد لربه فالسبب ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم بالنظر لذاته فقط ، وأما إذا اعتبرت ما يعرض له من خارج كتخلف شرط أو وجود مانع، فلا يلزم من وجوده وجود المسبب ولا من عدَمِه عدَمُه، كزوال الشمس لوجوب الظهر، فقد لا تجب لتخلف شرط(التكليف كالبلوغ)[4]، والعقل، أو وجود مانع الصلاة كالحيض، وإذا انتهيا لزم من وجوده وجود المسبب بحكمة رتبها بحكمة بارئ البرايا جل جلاله وإذا كان هذا هكذا فمن حصلت له أسباب المحبة حصلت له المحبة إذ انتفت العوارض القادحة فيها، ولحصولها أمارات وعلامات تظهر على من حصلت له، لابد من ذلك وإلا فهو مفتر كذاب، ومن هذا النمط ما كان عمر بن الخطاب يحذره، فقد روى أنه كان يسأل حذيفة بن اليمان عن حاله ،ويقول له: « ناشدتك الله، لِمَ يَعُدُّني رسول الله ρ من المنافقين ،فيؤمنه ويقول: والله لم يعدك منهم حتى كثر ذلك منه، فقيل له: كيف تخاف النفاق والنبيρ ضمن لك الجنة وبشرك بالشهادة، فيقول :خشيت أن يكون كلامه معلقا على شرط، والشرط لم يوجد فيّ»، فانظر رحمك الله إلى فقه هؤلاء السادات، وشدة خوفهم من الله، إذ خوفهم على قدر معرفتهم، ولذلك ورد: «أنه لا يأمن النفاق إلا منافق ولا يحذره إلاّ مؤمن»، و إذا تحققت هذا، فينبغي لك أن تعرف العلامات الدالة على حب العبد لمولاه ،ثم تعرض نفسك عليها فما وجدته فيك فاشكر الله على عظيم منته عليك أن هداك ووفقك لذلك، وإن أنت لم تف بها فاعرف قدرتك ولا تتعدى طورك، واسأل الله من فضله أن ييسر عليك اللحاق بأهله.

---

[1] عبارة الحلاّج الشهيرة، ينظر: – عبد السلام نور الدين، الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي، قراءة في نصوص الحلاج والغزالي، دار سومر للنشر، نيقوسيا، قبرص، دط، 1992، ص: 15، 30. – عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1978، ص: 09

[2] « الوجد ما يكون عند ذكر مزعج، أو خوف مقلق، أو توبيخ على زلة، أو محادثة بلطيفة، أو اشارة الى فائدة، أو شوق إلى غائب، أو أسف على فائت، أو ندم على ماض، أو استجلاب إلى حال، أو داع الى واجب، أو مناجاة بسرّ،.»، ينظر: – عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص: 12.

– الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف الاسلامي، ضبط وتصحيح: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص:272،263

[3] كذا في (ج)، والكلمة ساقطة من (ب).

[4] في (ب): كعدم البلوغ

[في علامات محبة العبد لربه جل وعلا :][1]

ذكر علامات محبة العبد لسيده ومولاه جل وعلا، وهي أيضا علامات على محبة الله لعبده المحب لقوله تعالى: [فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ] [المائدة/54]، فمحبته لهم سابقة، ومحبتهم له لاحقة، والمزية والفضل للسابق لا للّاحق، قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزاليτ: اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا يعتبر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادّعت حب الله، ما لم يمنحها بالعلامات، وما لم يطالبها بالبراهين، والمحبة شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر على القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار، وهي كثيرة فمنها، حب لقاء الحبيب بطريق الكشف في دار السلام، ولا وصول لذلك إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محبا للموت غير فار منه، فإن الحبيب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول، قال ρ : «من أحب لقاء الله، أحب الله لقائه»[2]، وقال حذيفة τ عند موته :« حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم»[3]، فإن قلت: فمن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله، فأقول: كراهية الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراقها، وهذا ينافي كمال الحب لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، وقد تكون الكراهة لا استئناسا بالأهل وغيرهم، وإنما هي لعجلته قبل استعداده للقاء ربه، فهذه الكراهة لا تنافي كمال الحب، ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه هو في ظاهره وباطنه، فيلزم شاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، بل يترك هواه لهوى محبوبه، قلت وذلك كما قيل:

وأَتْرُكُ مَا أَهْـوَى لِمَـا قَدْ هَوَيْتَـهُ   وَأَرْضَى بمَا تَرْضَى وَإِنْ سَخِطَتْ نَفْسِي[4]

ومن أحب الله لا يعصيه، قال عبد الله بن المبارك τ :

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِـرُ حُبَّهُ   وَهَـذَا مُحَـالٌ فِي الفِعَـالِ بَدِيـعُ
لَوْكَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَــــهُ   إِنَّ المحِـبَّ لِمـن يُحِــبُّ مُطِيـعُ[5]

قلت، وقال الناظم في عين ما ذكر في قصيدة له:

لَوْ كُنتْ عَنْدْ امْرَكْ مَوقُوفْ   أَشَد بِهْ الخُـــــــوفْ   أوَّابْ فِـي حَرْكَ واسْكُــــونْ
وَانَا بْحِيْرَاتِي مَشغُـــــــوفْ   أَشْجَى مَرْجُـــــــوفْ   مجذُوبْ جَذْبْ افْتَنْ مجْنُــونْ
ضَاق حُبّي يَـــــــا رَؤُوف   اذْكُر مَوصُـــــــوفْ   بالصِّدقْ يا مْكَوَّنْ مَا فِي الكُونْ
لَوْ كُنتْ صَادَقْ فِي حُبِّي يَا رَبْ   مَـاكُنْـتْ فِي الخَطَـأْ سَفـَّـاكْ
ما نَلْتَفَــــــت نْنُــظر عَيْــــبي   فِي كُل يوم فِعلي هَات وهَـاك

[1] عنوان الفصل مقتبس حرفيا من أحد أبواب كتاب « الإحياء» ص: 455.
[2] متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة، ينظر: زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار، ضمن «الإحياء» (ج4)، ص:455.
[3] ينظر: الإحياء، (ج4)، ص: 455
[4] ينظر: السابق نفسه، ص:457
[5] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها

مَنْ دْرَا تَغْفَـر ذَنْبــي يَــا رَبْ   يَـوْم انْ يْكُونْ الجَمِيع مْعَـاكْ[1]

ثم قال الغزالي: وفي دعوى المحبة خطر، ولذلك قال الفضيل بن عياض رحمه الله: إذا قيل لك أتحب الله ؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت.[2]

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلوا عنه قلبه، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله، حب ذكره، وحب القرآن لأنه كلامه، وحب النبي ρ لأنه رسوله، وحب كل ما ينتسب إليه، فإن من يحب إنسانا يحب كلب محلته، قلت وذلك كما قال بعض العشاق:

أُحِبُّ لحِبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى   أُحِبَّ لحِبِّهَا سُودَ الكِلَابِ

ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع الخلق لأنهم صنعته، فكيف لا يحب القرآن والرسول والصالحين، قلت ،ومثل هذا قول بعض العارفين: « استحسان الكون على العموم دليل على صحة المحبة ، وعلى الخصوص يؤدي إلى فتن وظلمات»، وقال بن مسعود:« لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإلاّ فلا»، وقال سهل بن عبد الله التستري τ:« علامة حب الله حب القرآن ،وعلامة حب القرآن حب النبيρ، وعلامة حب النبيρ حب سنته، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألاّ تأخذ منها إلاّ زادا وبلغة للآخرة ».

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم صفاء الوقت بانقطاع العوائق، فمن كان النوم أو الحديث ألذّ عنده من مناجاة مولاه، كيف تصح محبته، فعلامة الحب كمال الأنس بمناجاة المحبوب واللذة والإستحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ، وعلامات الأنس أن يصير العقل والهم كله مستغرق بلذة المناجاة، ولقد قطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة ،فلم يشعر بها، قلت هو عروة بن الزبير وسيأتي بيانه إن شاء الله.

وقد أوحى الله إلى داودυ:« يا داود قد كذب من ادعى محبتي إذا جن الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فها أنا ذا موجود لمن طلبني»، قلت، ولذا قال بعض المذكرين:

تدَّعَوا بِالحُبْ وانتُم تَنَامُوا   عَلَى المحِـببين النُّـوم حَـــــرَامُ

قال الجنيد: دفع إلي السري[3]رقعة فيها مكتوب أبيات، وقال لي: احفظ هذه فهي خير من سبعمائة أوقية من فضة، فإذا فيها:

ولـمَّا شَكَوتُ الحبَّ قَالَ كَذَبْتَنِــــي   فَمَــالي أَرَى الأعضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَـا
ومَا الحُبُّ حَتَّى يُلْصَقَ الجِلدُ بِالحَشَا   وتُـذْهَلَ حَتَّى لا تُجِيبَ المنَـادِيَـــا
وتَنْحُلَ حتى لَا يُبَقِّي لَكَ الهَـــوَى   سِوَى مُقلَـةٍ تَبْكِي بِهَا وتُنَـاجِيَـا

---

[1] النص الشعري الشعبي ساقط من(ب) و(ج).

[2] ينظر: "الإحياء" (م السابق)، ص: 458.

[3] أبو الحسن سري بن المغلّس السقطي، يقال إنه خال الجنيد وأستاذه، صحب معروف الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته، توفي سنة 251هـ. ينظر: عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، داركتاب الشعب، القاهرة، ط2, 1998، ص: 19.

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله تعالى، ويعظم تأسّفه على كل ساعة خلت من ذكر الله وطاعته، ومهما لم ير المحب إلاّ المحبوب لم ير شيئا إلا منه، ولم يأسف على ما فات واستقبل الكل بالرضى، وعلم أن المحبوب لم يقدر إلا ما فيه خيرته، وتذكر قوله تعالى:[وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ] [البقرة/216]، قلت، ولذلك قال بعض الزاهدين:

نَفْسِي التي تَملكُ الأشْيَاءَ ذَاهِبَـةٌ ... فَكَيْـفَ آسَى عَلَى شَيءٍ إذَا ذَهَبَا

نَزَّهتُ نَفْسِي عَن الدُّنيا وَلَذَّاتِهَا ... لَا أَبْتَـغِي فِضَّـةً فِيـهَا وَلَا ذَهَبَـا

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تمتعت به عشرين سنة، قلت وهذا لقوله عز من قائل:[وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ] [البقرة/45]، وقد قال بعض الخاشعين:

واللهِ لَوْ جِئتُكُم أَسْعَى عَلَى بَصَــرِي ... لَم أُؤَدِّ حَقًّـا وَأَيَّ الحَــقِّ أَدَّيــتُ

لَمَّا سَمِعتُ مُنَادِيكُم أَلَــمَّ بِنَــــا ... شَدَدْتُ مِئْزَرَ إِحْــرَامِي وَلَبَّيــــتُ

وَقُلتُ للنَّفْسِ جِدِّي الآنَ واجْتَهِدِي ... وَسَـاعِدِيـنِي فَـهَـذَا مَـا تَمَنَّيــــتُ

ومنها أن يكون شفقا على عباد الله رحيما بهم، شديدا على أعداء الله، وبه وصف الله أولياءه، حيث قال: «الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا جرد، فإنه لا يبالي قلّ الناس أو كثروا »، ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم.

[في بيان مخاوف المحبين في مقام الحب:][1]

وللمحبين مخاوف في مقام الحب، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى من هود، هو الذي شيب سيد المحبين، إذ سمع : [أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ][الآية95/هود]، قلت: وعنى الغزالي رحمه الله بكلامه هذا قوله ρ : «شيبتني سورة هود وأخواتها»[2]،قال العلماء: المراد بأخواتها سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير و المرصاد، وإنما سماها أخوات لشبهها بما في سورة هود من الإنذار، ثم اختلف في الآي المشيّبة من هذه السور، فأما هود فقيل ما سمعته من الغزالي، وقيل ما ذكره عبد الجليل القصري أنها قوله تعالى: [فَاسْتَقِم كَمَا أُمِرْتَ] [هود/112]، وبهذا فسّر الخبر صاحب الخبر ρ كما ذكره سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي في قوله تعالى:[فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ] [الشورى/15] ،أي دم على استقامتك على الدعوة على الملة والصبر على تكاليفها، فاشتد وقعها عليه ρ، وأما الواقعة فقوله تعالى: [لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ][الواقعة/2 ،3]، أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة، إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا، أو عكسه، وأما النبأ فقوله تعالى:[إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا] [النبأ/40]، وقيل غير ذلك، وأما التكوير فقوله تعالى: [عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ] [التكوير/14]، من خير وشر للعرض على الله جل جلاله ولذلك لما قرأ عمر قوله تعالى: [وَإِذَا

---

[1] جل ما ينقله المؤلف في هذا الفصل هو من « الإحياء» (ج4)، ص: 462،463

[2] تقدم ذكره في الصفحات السابقة.

الصُّحُفُ نُشِرَتْ][التكوير/10]، في الصلاة غشي عليه، وأما الفجر فقوله تعالى: [إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ] [الفجر/14]،أي أنه تعالى عند لسان كل قائل ومرصد بكل فاعل، والرصد موضع الرصد، وخوفهρ تارة يكون على أمته كما هو الظاهر في الظواهر، وتارة يكون بينه وبين مولاه فقط، ولذلك قال ρ: «أنا أخوفكم لله وأنا أعلمكم بالله»[1]، لأن خوفه على قدر معرفته ρ، وروى الترمذي قال أبوبكر: «يا رسول الله شبت، قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت».

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فإن درجات القرب لانهاية لها ، قالρ : « من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون»[2]، ولذلك قال υ: «إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة سبعين مرة فأستغفر الله»[3]،وإنما كان استغفاره من المقام الأول، فإنه بعدٌ بالإضافة إلى القدم الثاني، ثم خوف فوات مالا يدرك بعد فوته، سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول:

كُلُّ شيء لَكَ مَغْفُـــورُ   سِوَى الإعْـرَاضِ عَـنَّـــا
قَدْ غَفَرْنَا لَكَ مَا فَـاتَ   بَقِـيَ مَـا فَـاتَ مِـــنَّـــا [4]

فغشي عليه فلم يفق يوما وليلة، ثم قال: سمعت النداء من الجليل: يا إبراهيم كن عبدا، فكنت عبدا، فاسترحت، ثم خوف السلو عنه، فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن الظن، وتغلبه الغفلة والهوى، وكلها من جند الشيطان التي تضاد جند الملائكة من الذكر والعلم والعقل، ثم قال: خوف الاستبدال به[بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ،وذلك هو المقت، والسلو عنه مقدّمة هذا المقام، والإعراض والحجاب مقدّمة السلو، وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت فنعوذ بالله من السلب، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لها طاقة البشر ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى هيبة وغيرة على سره، نعم قد تكون للمحب سكرة فيدهش ويظهر من غير اكتساب، فهو معذور][5].

(يا بلال« وجعلت قرة عيني في الصلاة »[6]، ومنها متابعة الحبيب في جميع أعماله وأحواله. قال تعالى: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ] [آل عمران/31]، فزيادة الحب على الحب تظهر الأثر، ولذا ظهرت الباء في الحب الثاني، ولولا سكونها بالجزم لأتلف الحب أهلها، لأن الجزم هو قطع الحركة فشبهوه في التمكين، وهكذا لكل حرف وحركة وسكون عن حروف القرآن علوم وأسرار وفهوم لا تنقضي أبدا)[7].

زيادة بيان في الآيات التي تدل على تقدم محبة الرحيم الرحمن، قال الإمام أبو حامد: لما سبقت محبة الله تعالى لأقوام في قوله عز من قائل:[يُحِبُّهُم] [المائدة/54]، جعل لذلك علامات تدل على محبته لهم، فمن ذلك قوله ρ: «

---

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[2] رواه البيهقي في الزهد، ينظر: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار،" مرجع سابق" ص: 463

[3] متفق عليه من حديث الأغر، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] ينظر: الإحياء، (ج4)، ص:463

[5] بياض في الأصل بمقدار أربعة سطور، أتممنا السقط من المصدر الأصلي، أي كتاب« الإحياء» (ج4)، ص:464، والنص نفسه أثبتته النسختان (ب) و(ج).

[6] أخرجه النسائي من حديث أنس، ينظر: « المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار»" مرجع سابق" ص:411.

[7] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

إذا أحب الله عبدا ابتلاه ،فإن أحبه الحب البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناه؟ ،قال: لم يترك له أهلا ولا مالا»[1]، وقال بعضهم إذا رأيتَك تحبّه وهويبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك وقال ρ: «إذا أحب الله عبدا بصّره بعيوب نفسه»[2]، وقال أيضا: «إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من قلبه وزاجرا من نفسه يأمره وينهاه »[3]،وقالρ : «إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ثم تلى:[إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] [البقرة/222]»[4]، ومعنى الحديث أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت، فلم يضره ذنب، وقال زيد بن أسلم: «إن الله تعالى ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، ومعنى المحبة في قوله تعالى أنه ليس في الوجود إلاّ الله وصفاته وأفعاله»، ولهذا لما قرأ على أبي سعيد الميمي قوله تعالى: [يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ] [المائدة/54]، قال بحق يحبهم، فإنه ما يحب إلاّ نفسه، على معنى أنه الكل وأنه ليس في الوجود غيره، فمن لا يحب إلاّ نفسه أو أفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته، وتوابع ذاته من حيث هو متعلق بذاته، فهو إذا لا يحب إلا نفسه.

(فإذا فهمت ما تقدم علمت أن محبة الله للعبد هي تقريبه من نفسه)[5]، بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه، حتى يشاهد كأنه يراه بقلبه، ومن علاماتها أيضا أن يوحشه من غيره، ويحول بينه وبين غيره، قيل لعيسىυ: «لم لا تشتري حمارا تركبه، قال: أنا أعز على الله من أن يشغلني عن نفسه بحمار» .

وأما الفعل الدال على كونه محبوب، فهو أن يتولى الله أمره باطنه وظاهره، سره وجهره، فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل همومه هما واحدا ،والمبغض للدنيا في قلبه، الموحش له من غيره، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد. من « الإحياء».

وقال صاحب: «المواهب الربانية والنفحات الإلهية»: «متى أَحَبَّكَ وصلك إليه دون طلب، وأدخلك لحضرته بلا سبب، متى أحبك ستر أوصافك بأوصافه، وتولى بشريتك بخفي ألطافه، متى أحبك اضطرك لخدمته وأهّلَكَ لتكون من خواص أهل حضرته، متى أحبك خلصك من الأغيار حتى من نفسك، لم يجعل لك فيك اختيارا». وقال أبو الحسن الشاذليτ: «إذا منعك ما تحب وردك إلى ما يحب فهو علامة على محبته لك»، فهذا ما يسر الله علينا من الكلام على المحبة في هذا المحل.

---

[1] أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني، ينظر: « المغني عن حمل الأسفار، »" مرجع سابق" ص: 454

[2] أخرجه أبو منصورالديلمي في مسند الفردوس، من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف، بلفظ:(إذا أراد الله بعبد خيرا) ينظر: المصدر نفسه، ص:454

[3] أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ (إذا أراد الله بعبد خيرا)، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] حديث أنس، ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده، ينظر: المصدر نفسه، ص: 451.

[5] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[صفات العارفين ومقاماتهم في المحبة:]

قولـه: "وادراي تغريه ليك اغرا: أي نفتش من له محبة خالصة، تعلو همته بك وتهون عليه الأمور الصعاب في مرضاتك ،وله دراية تامة ومعرفة كاملة تصغر عنده كل شيء في جنبك وتغريه على محبتك إغراء ،وتحثه على طلب رضاك حثا، وتحضه على القيام بحقك حضا، فلم نجده الآن، قالρ: «منهومان لا يشبعان، طالب العلم وطالب الدنيا»[1]، ابن مسعود: وهما لا يستويان، أما طالب العلم فيزداد في رضى الرحمن، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان، ثم قرأ: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ [مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ]][فاطر/28]، [كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى][العلق/6]، وقال سيدي أحمد زروق: « سيِّد العارفين الثقة بالله في كل شيء، وبهجة المحبين الحرص على مرضاة الله في كل حال »، وقال الشيخ القاسم بن عثمان الجدعي: «أصل المحبة المعرفة، وأصل الطاعة التصديق وأصل الخوف المراقبة، وأصل المعاصي طول الأمل، وحب الرياسة أصل كل موبقة ،وقليل العمل مع المعرفة خير من كثيره بدونها »، وقال أبو بكر الشبلي: «المحب إن سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك، والعارف لا يكون بكلام غيره لافظا ولا للغير حافظا»، وسئل أحمد بن أبي الخير المعروف بالصياد اليمني :«هل العارف أعلى أو المحب ؟، فقال: العارف، لأن المحب مشغول بالمحبة ،والعارف مشغول بالمحبوب، وقال: العارف متعلق بالحقيقة ،فإن سقط وقع في الشريعة، والعارف لا يلتفت لشيء من الكرامات فإنها نقص في حقه لاشاغالها بمكرم عن الكرامات ولولا الأدب لأخذ من غرائب الغيب فأكل، وقال: العارف كالطفل لا يهتم بشيء، وقال العارف محفوظ الأنفاس محروس الحواس ملقى بين الناس، وقال العارف مع الخلق بأركانه ،ومع الحق بجنانه ،مفارق لمضجعه وهو نائم ،وناطق وهو صامت وحاضر وهو غائب ،وقال: العارف تشهد له الحقائق وهو جامد، وقال: قلب العارف كالبحر تضطرب أمواجه وهو ساكن »، قلت ، وإلى أحوال العارف المذكورة يشير الناظم (رحمه الله) في بائيته، بقوله:

غَايَبْ سَاكَرْتِي وسَكْتَاه نَجْـوَاك   يُرَى سَاكَتْ وهُو فِي حَالْ انجْذَابْ
وامَرْ مَتْحَيَّرْ وْحِيرَة فِي اطْنَـــاب   لَـولَا مَا خْـلاَه صَبـرُه جَـلْبَـــابْ
ومِمَّا نَابُوا كَادْ [بيـــاض][2]

وسنذكرها بعد هذا، قال الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله الحسني الشاذلي :« خصلتان يسهلان الطريق إلى الله عز وجل، المعرفة والمحبة، حبك الشيء يعمي ويصم»، وقال أيضا τ : «كنت مريضا في القيروان مرضا شديدا، فقلت: اللهم توفني على أحب الحالات إليك ،فرأيت النبيρ ، فقال لي: طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله في كل نفس، فقلت: وما ثيابي يا رسول الله، فقال: إن الله عز وجل كساك حلة المعرفة ثم حلة المحبة ثم حلة التوحيد ثم حلة الإيمان ثم حلة الإسلام، فمن عرف الله عز وجل صغر لديه كل لا شيء، ومن أحب الله عز وجل هان عليه كل شيء، ومن وحّد الله لم يشرك به شيئا ومن آمن بالله أمن من كل شيءومن أسلم له عز وجل قل ما يعصيه،وإن

[1] الحديث أورده: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، (م سابق) ص: 135. /– محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج1،(م سابق) ص: 212.
[2] النص الشعري ساقط في (ب) و(ج)، والبياض في الشطر الثالث بمقدار كلمتين. و تمامه: (ممَّانَابوا كاد تَنْشَق انجْنَــابُ) كما أشار المؤلف نفسه في الصفحة الموالية.

عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، ففهمت من ذلك قوله تعالى: [وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ] [المدثر/4]»، وقال τ: «علامة الصادق أن يستأنس بإيمانه إلى كل إيمان، وبعقله إلى كل عقل، وبعلمه إلى كل علم».

وقال τ: « اصحب من الناس خمسا، واحذر منهم خمسا، فاصحب من أهل التقوى العقلاء ،فإن محادثتهم تزيد في عقلك، واصحب من العقلاء العلماء فإن بانتفاعهم يزول جهلك ،واصحب من العلماء الرحماء فإن مخالطتهم تزيد في رحمتك، واصحب من الرحماء الخائفين فإن بمعاشرتهم يثبت يقينك ،واصحب من الخائفين المحبين الذين أطاعوا الله بحق علاه، ولم يريدوا من الله غير الله تعالى، فإن النظر إليهم رحمة، والاستمتاع لكلامهم حياة، والإعراض عنهم غفلة، والصد عنهم عقوق، واحذر صحبة الجاهل فإن له ضراوة بالشر وعلامته رضاه بحاله، واحذر صحبة الأحمق فإن له سفها بالشر وعلامته الاعتلال بمن هو مثله، واحذر صحبة الجبار فإنه مذلة يسلمك أحوج ما تكون إليه، واحذر صحبة البخيل فإنها حسرة يقطع بك أوثق ما تكون ترجوه، ويمن عليك بما لم يفعل ويستعبدك بما فعل».

قولـه: "تغريه"، أي تولعه بمحبتك وتدله على خدمتك وسبب التنوير دوام التطهير، قال الإمام أبو حامد τ ونفعنا به: اعلم أن لحصول المعرفة سبب، وهو تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى تنقية الأرض من الحشيش لوضع البذر فيها، ثم يتولد من هذا البذر شجرة المعرفة والمحبة، وهي التي ضرب الله لها مثلا، حيث قال: [مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ][ابراهيم/24]، وإليها الإشارة بقوله تعالى: [إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ] وهي المعرفة (والعمل الصالح يرفعه) [الآية10/فاطر]،فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم، وإنما العمل الصالح في تطهير القلب أولا من الدنيا، ثم في إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة، وأما العلم بكيفية العمل يراد للعمل، فالعلم هو الأول وهو الآخر، وإنما الأول: علم المعاملة، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته، لتتضح فيه (جلية)[1]الحق، ويتزين بعلم المعرفة، وهو علم المكاشفة، والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء، وتكون أول معرفتهم لله تعالى، ثم به يعرفون غيره وإليهم الإشارة بقوله تعالى: [أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] [فصلت/53]، وإلى الضعفاء فتكون أول معرفتهم بالأفعال، ثم يترقون إلى الفاعل وإليهم الإشارة بقوله عز وجل: [سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ] [فصلت/53]، وبقوله تعالى: [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ] [ص/29] ،وهذا أسهل وأيسر، وقد كان الجنيد τ ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين، وهي:

سَرَتْ بِأُنَاسٍ فِي الغُيُوبِ قُلُوبُـهُم   فَحَلُّوا بِقُرْبِ الماجِدِ المتَفَضِّـــلِ
عِرَاصًا بِقُربِ الله في ظِلِّ(عَرْشِهِ)[2]   تَجُولُ بِـهَا أَرْوَاحُـهُم وتُنْقَــــلُ
مَوارِدُهُم فِيهَا عَلَى العِـزِّ(والبَهَا) [3]   وَمَصْدَرُهُم عَنْهَا لما هُوَ أَكْمَــلُ
تَرُوحُ بِعِزٍّ مُفْرَدٍ مِـن صِفَــاتِــهِ   وَمَـا كَتْمُهُ أَوْلَى لَدَيْـهِ وأَعــــدَلُ

---

[1] في (ب): حلية

[2] كذا في (ج)، و في(ج): قُدسه، وأظنه الصواب، فقد وردت (قدسه) عند: سعاد الحكيم، تاج العارفين، الجنيد البغدادي، الأعمال الكاملة، دراسة وجمع وتحقيق، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2007، ص:326

[3] كذا في (ج)، وفي (ب): النهى، وهي نفسها عند سعاد الحكيم، تاج العارفين الجنيد البغدادي،" مرجع سابق"، ص: 326.

سَأَكْتُمُ مِن عِلْمِي بِهِ مَا يَصُونُهُ   وَأَبْذُلُ(بِهِ)[1] مَا أَرَى الحَقَّ يُبْذَلُ

وَأُعْطِي عِبَادَ الله مِنْهُ حُقُوقَهُم   وَأَمْنَعُ مِنْهُ مَا أَرَى المنْعَ(أَفْضَلُ)[2]

عَلَى أنَّ للرَّحمَنِ سِرًّا يَصُونُـــــهُ   إِلَى أَهْلِهِ فِي السِّرِّ وَالصَّوْنُ أَجْمَلُ

وقد قيل في وصف العارف :

قَرِيبُ الوَجْدِ ذُو مَرْمًى بَعِيـــد   عَلَى الأَحْرَارِ مِنْهُــم وَالعَبِيـــد

غَرِيبُ الوَصْفِ ذُو عِلْمٍ غَرِيب   كَـأَنَّ فُؤَادَهُ زُبَـرُ الحَدِيــــــــد

لَقَد عَـزَّتْ مَعَانِيهِ فَغَابَـــت   عَـنْ الأَبْصَـارِ إِلاّ للشَّهِيـــــــد

تَرَى الأَعْيَادَ فِي الأَوْقَاتِ تُجْرِي   لَـهُ فِي كُلِّ يَــــــوْمٍ أَلْـفَ عِيـــد

وَلِلأَحْبَـابِ أَفْـرَاحٌ بِعِيــــــد   وَلَا تَجِـــدُ السُّرُورَ لَـهُ بِعِيــــد[3]

قلت: وهذه الأوصاف تدل على كمال معرفة صاحب القصيدة، فإن حاله τ شدة الوجد وبعد المرمى وغرابة العلم والوصف، حتى غابت معانيه عمن لا يدانيه، إلاّ أن زفرات الفؤاد أذنت ببوح كتمان الوداد، ولذلك قال في بعض قصائده:

آفُؤَادِي كِيرْ فِي انْفَاسِي تَزْفِيرْ   مَن حُمَّانْ اسْعِيرْ وَصْلُوا واقـْرَابُ

لَولَا ما حْلاَهْ صَبْرُه جَلْبَـابُ   ممَّا(نَابُوا)[4]كـاد تنْشَـق اجْنَـــابُ

وكذلك شيخنا العارف بالله سيدي محمد العبدلي (رحمه الله تعالى)،فإنه في أعلى (مِنَصَّةِ)[5] أعالي هذا المقام العالي، تجَمَّلَ ذات يوم باستعمال الفطرة[6] ولبس حسن الثياب وأجدّها، وكل ذلك قبل العيد بيوم أو يومين، فقلت له: لو تركت ثيابك مطوية حتى ليوم العيد فتلبسها لتستوي مع الناس، ولأنه يوم الزينة، فقال لي: يا ولدي هذا العيد على غيرنا، وأما نحن فأيامنا كلها عيد عندنا والحمد لله، ولا فرق بين اليوم والغد . فتأملت بعد ذلك كلامه، فظهر لي أن كل من يزداد كل يوم، وكل ساعة ،بل وفي كل نفس من العلوم (النافعة)[7] والأعمال الصالحة ،ما تقرّ به العين، فذلك أفضل عنده من العيدين، ثم قال الإمام أبو حامد: فأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة، لا يجوز أن يشترك فيها الناس، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء منها لمن لم ينكشف له، فلو أشرك الناس فيها لخربت الدنيا، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة

---

[1] كذا في (ب) وفي (ج)، وفي كتاب: سعاد الحكيم، تاج العارفين الجنيد البغدادي، ص: 326، وردت: (منه) .

[2] كذا في (ب) وفي (ج)، وفي كتاب: سعاد الحكيم، تاج العارفين، ص: 326، وردت: (يفضل)، وفي المرجع نفسه بيت زائد بعد البيت الثالث، وهو:

تروح بعز مفرد من صفاته   وفي حلل التوحيد تمشي وترفــل

[3] الأبيات ذكرها الغزالي في: « الإحياء» (ج4)، ص: 464

[4] في (ب) و(ج): ناب.

[5] الكلمة ساقطة في(ب) و(ج).

[6] كما في الحديث المروي عن أبي هريرة: خمس من الفطرة: الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر.

[7] في (ب): والمعارف .

الدنيا، ولله فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم، كما أن له في الخير أسرارا وحكما، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته.

وروي في بعض الأخبار أن بعض الصدّيقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله ووَلهَ قلبه، وبقي شاخصا سبعة أيام لا يشفع بشيء ولا يشفع به شيء، فسأل له الصدّيق ربه، فقال: يا رب أنقصه من الذرة بعضها، فأوحى الله إليه إنما أعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة المعرفة، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك، فقال: سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته، فأذهب الله جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره، وهو جزء من ألف جزء من ذرة، فأعدل خوفه ورجاءه وحبه، وسكن وصار كسائر العارفين، فألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب العلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأكمل والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم وأشرفها، وليت شعري هل في الوجود أجل وأعلى من خالق الأشياء ومرتبها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومزينها، وهل يتصور أن يكون من حضرة الملك والجمال والكمال أعظم من الحضرة الربوبية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين، فإن كنت لا تشك في ذلك، فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل السماوات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها، وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ولا يقطعها الموت لأنه لا يهدم محل معرفة الله، إذ محله الروح التي هي أمر رباني سماوي، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها ويخليها من حبسها، فأما أن يعدمها فلا: [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا [بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ]][آل عمران/169]، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف ألف شهيد، وإن الشهداء ليتمنون أن لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول اللهρ حيث قال حاكيا عن الرب تعالى:

« أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ (فَجَمَعْتُ مُذْ رَأَتْ)[2]العَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلَائِي
مَا لِإمَامِي يُحِبُّكَ أَحْبَابِي وَأَعْدَائِي إِلَّا لجَهْلِهِم بِعِظَمِ بَلْوَائِي[3]

من « الإحياء»، وفيه تقديم و تأخير

وأنشد بعض المحبين:

يَا مَنْ تَجَنَّبَ صَبْرِي في تَجَنُّبِهِ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ
حَتَّى متى زَفْرَتِي فِي الصُّعَدَاءِ تُرَى إِلَى المَمَاتِ وَدَمْعِي فِي تَصَوُّبِهِ

[1] ينظر: – أبوعبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري،(كتاب التوحيد)، دار بن كثير، دمشق–بيروت، ط1، 2002، ص:1850 .
–أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم،(كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1998، ص: 1516.

[2] في (ب): فاستجمعت مذ رأتك، والعبارة ذكرت بنفس الصيغة عند الغزالي، ينظر:« الإحياء» (ج4)، ص: 430

[3] البيت ساقط في (ب) و(ج).

وَلِي فُـؤَادٌ إِذَا طَالَ الغَـرَامُ بِـــــهِ   هَـامَ اشْتِيَـاقًا إِلَى لُـقْيَـا مُعَذِّبِــــهِ

شعر يتيم :

الصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَـــا   إِلَّا عَلَيْــكَ فَـإِنَّــهُ لَا يُحْمَــدُ

وقالت عائشة : « الصبر أحمد إلا على أحمد»، جاء رجل إلى الشبلي، فقال: يا أبا بكر أي الصبر أشد ؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي، فكادت روحه تخرج، ثم أنشده: الصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد. قال علي بن هند القرشي الفارسي (رحمه الله): استرح مع الله ولا تسترح عن الله ،فإن من استراح معه نجا، ومن استراح عنه هلك، و الاستراحة معه تروح القلب بذكره، والاستراحة عنه مداومة الغفلة .

[العارفون بالله بين الظهور و الاحتجاب:]

ثم قال الناظم (رحمه الله وτ) ونفعنا به:

آمَالِكِي وَايْنَ هُم حِزْبِي   حِزْبُ العَارِفِيـنْ مَـا يُــرَى

هنا رفع سؤاله ونجواه إلى مالكه ومولاه، رجاه أن يكشف له حزب العارفين ويتولاه، فاستغاث به وقال: يا مالكي ومالكهم ومن بيده ملكوت كل شيء، أين هم حزبي الذين أحبهم وأطلبهم؟ فحزب العارفين لم يُرَ للناظرين، أسألك يا مولاي بحبك لهم، وبخالص حبهم لك، وبالسر الذي تعرفت به إليهم حتى عرفوك بما عرفتهم، أن تعرفني بهم في عالم الأشباح،كما عرفت بيننا في عالم الأرواح، وأرغب إليك اللهم يا جامع الناس ليوم لاريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، أن تجمع بيني وبين أحبائك، إنك على كل شيء قدير، وأسألك يا مالك الملك بحق اسمك الجامع، الذي جمعت به بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات أن تجمع بيني وبين حزبك العارفين الجامعين لأنواع الكمالات وأن تسرّع لي بلقائهم بسرّ اسميك السريع القريب، إنك سميع مجيب.

فائدة: قال الشيخ السنوسي: ومن الفوائد المجربة، من تعلق قلبه بمكان مخصوص أوضاع له شيء، أو أراد أن يجمع الله بينه وبين أحد، فليقل بصدق النية موقنا بأن الله قادر على كل شيء: اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، اجمع بيني وبين كذا وكذا، فإن الله تعالى يجمع بينه وبين من أحب، وهو عجيب جدا وفيه سر لطيف لأرباب الجمع بعد الفرق، ولمن يريد المشاركة في جميع المقامات والأحوال الشريفة، والله ولي التوفيق بفضله. وزاد الزجاج النيسابوري: ويقرأ قبله سورة الضحى ثلاثا، جرّبناه لردّ الضالة، وكذا قال غيره .

قال ابن عطية في قوله تعالى: [وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ [وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ]] [المائدة/56]، الحزب الطاغية، والمنتمون إلى صاحب الحزب والمعاونون فيما يحزب، ومنه قول عائشة في حمنة وكانت تحازب في أمر الإفك: فهلكت فيمن أهلك، وإنما عز وجودهم لعزتهم وشدة غيرته عليهم، فإن الحق أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعزُّونهم، لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام، ويظهرهم بما يحقرهم في أعين الخواص والعوام، ولعظيم غيرته عليهم وعزتهم عليه، قال: « أوليائي تحت فنائي لا يعرفهم أحد غيري ،فإنهم عرائس المملكة والعروس لا يراها المجرمون »، قال سيدي أحمد بن عطاء الله الإسكندري: «سبحان من لم يجعل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، لا دليل عليه سواه، ولا وصول إليه بغيره، فكذلك أولياؤه».

وقال سيدي أبو العباس المرسي τ: « معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى، فإن الله معروف بجلاله وكماله، ومتى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وينكح كما تنكح، وإذا أراد الله أن يعرفك به طوى عنك بشريته وأشهدك خصوصيته »، من « شرح ابن عباد على الحكم»، وقال الشيخ زروق في شرحه: « الحق تعالى لم يظهر إلا بما ظهر من أوصافه المناسبة للوجود ،فكان الدليل على كماله ،فكذلك أولياؤه لا يظهرهم إلا بما ظهر عليهم من صفة جماله، فلما استترها به ظهر من الأكوان سترهم بما به طهر اختصاصهم من الأغيار، ولما ظهر بما به استتر من وجود غيره، أظهرهم بما سترهم به من ألطاف برّه، فسبحانه من كريم رحيم ».

قال سيدي أبو العباس: لو كُشف على نور الولي لعُبِدَ كأن نعوته من نعوته وأوصافه من أوصافه، قلت: أظهرهم كما ظهر لهم وسترهم كما ستر عنه غيرهم، فهم في حجاب العزة حور مقصورات في الخيام، ولا يعرفهم غير أشكالهم، ولا يصل إليهم سوى أمثالهم لأن الإيمان بالفتح لا يكون إلا بالفتح، والفتح على قدر المنازل عند الحق. لذا قال الجنيد: «الإيمان بطريقتنا هذه ولاية»، قلت: ولذلك قال ابن عطاء الله: « ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليهم»، إذ هم شفاء القلوب بالدلالة عليه ودواؤها مما هي متعرضة له من أدران الذنوب، من نظر إليهم استغنى ومن نظروا إليه أغنوه،كما قال υ : «هم القوم لا يشقى جليسهم»[1]، وأيضا فمن تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، وهم قد تحققوا في الفناء في الله وهو رأس العبودية لله، قال أبو علي الجرجاني: «والولي هو الفاني في حاله الباقي في مشاهدة الحق، تولى الله سياسته لم يكن له عن نفسها إخبار ولا مع غير الله قرار».

فالحمد لله الذي عرفنا بهذا الولي العارف حين كان بين الغافلين مجهولا، ورحمنا بصحبته حيث كان عرضه بين المحرومين مبذولا، قال أبو يزيد: « أولياء الله عرائس في الدنيا والآخرة لا يراهم إلا من كان منهم»، وقال ابن العربي: «سمعت شيخنا أبا اسحاق بن طريف بالجزيرة الخضراء سنة تسع وثمانين وخمسمائة يقول: والله ما أرى الناس في حقي إلا أولياء عن آخرهم ممن يعرفني، قلت له: كيف ذلك؟ قال الناس الذين رأوني وسمعوا بي إما أن يقول خيرا أو ضده، فمن قال فيّ خيرا فما وصفني الله إلا بصفته، فلولا ما هو أهل لتلك الصفة ما وصفني بها ،فهذا عندي من الأولياء، ومن قال فيّ شرا فهو عندي ولي أطلعه الله على حالي، فإنه صاحب فراسة وكشف ناظرٌ بنور الله، فهو عندي وليّ»، قال أبو عربي المذكور: «وهذا ذقته في نفسي و أعطانيه ربي، فحمدا لله، ووعدني بالشفاعة فيمن أدركه بصري، ممن أعرف وغيره»، من « الذرر» .

فمن صَفَت مرآة بصيرته كشف الله له خواص حضرته، ودلائل ذلك كثيرة لمن وفقه الله .

حكاية في المعنى: حدثنا الولي الصالح سيدي قدور بن محمد بن عبد الجبار اليعقوبي رحمه الله، قال: كنت أزور سيدي عيسى بن محمد الدنيدني وسيدي محمد منصور الأكحل في حياتهما، وأهدي لهما ما يسر الله علي، فرأيت من سيدي عيسى من الفراسة والمكاشفة ما تحقَّقَت به ولايته، وأما سيدي منصور فقال لي ذات يوم في آخر أمره: أنك تصيبك مصيبة فاصبر لها واكتم أمرها، قال فما غاب عني حتى أصابتني (أَكَلَة)[2] سقط ذراعي منها، فبقيت مسرا محتسبا، فجلست ذات يوم منفردا وعضدي ملفوف بكساء فإذا برجل ورد عليّ، فسلم وأدخل يده تحت

---

[1] تقدّم الحديث في الصفحات السابقة.

[2] ربما تعني: تعفّن أو تفسّخ يصيب العضو من الجسد، فيتآكل ويسقط، فيبتر نتيجة لذلك.

الكساء الملفوفة، فقلت: وما تريد مني يا هذا الرجل ؟ فلما مس موضع القطع ،قال لي:هذه الأمارة التي أمرني بها سيدي موسى بن علي، وهو يسلم عليك، قال سيدي قدور: وأنا لا أعرف سيدي موسى ولا يعرفني ولم يعلم بحالي أحد إلا الله، حتى كشف ما بي هذا الشيخ.

ولكن يا أولادي أخبركم أن هذا الشيخ، يعني صاحب القصيدة مات قطبا، وسبب موته أن الله تبارك وتعالى جعل له الدنيا قدما واحدا، وصارت الأرض تحت رجله مطوية كورية كالجرس، فأراد أن يضع قدمه الأخرى فلم يجد إلا الفراغ والهوى ،فانفجع وتفطرت أحشاؤه، فلحق بالله عز وجل، ووضع قدمه الثانية في دار البرزخ حتى يجمعهما الله في دار القرار.

ثم قال رحمه الله :

مَنْ حَامْ لَغْمَاتْ واحْـوَازْ	وَاوْطَـــن فَـــاسْ بْـلاَمَّـةْ لاَمْ
وتْلَمْسَـــــانْ وثَـــمَّ نْـهَـازْ	وَازْوَاوَه فِي الدِّيـــنْ عُلَـمَـــا
نْقَتَّشْ مَثْـل اوَيْـــــــسْ	وَنْعَـازْ وشبَــه رَابْعَـــة أُمْ
رْحَـلْ الطْرَابُلسِي وْعَنـَّابْ	ولِّي مَنْهَـــا لتُونَـسْ الخَضْـرَا
ولِيِّ صَحْرَاوِي مْعَ الجنـْبْ[1]	حَتَّى لْأَرْضْ اتْوَاتْ وارْضْ ادْرَا
واسطَنْبُولْ ومِصْرَ والعِـراقْ	والكَعْبَة والشَّامْ وارْضَ الصِّينْ
وارضْ الهَنْد وسُودْها الرقَاقْ[2]	واهْلْ العُدْوَا خَارجِين الدِّيـنْ
دُرْتْ بعَقْلِي والعْقَل رَقْــرَاق	من هُو منْهُم عَارَف اثْنِيـــنْ
بالرَّبْ ومَرْبُوب هُو الأوَّاب[3]	مَنْ لَبْـدَا فِي أَوْبـتِ مَسْـــــرَا
مَنْ لُو قُوَّة في لحْجَـا تَسْبِي	عن الـذَّات اسْتَارْها الكُثْــرَا

[سعي الناظم في المدن والبوادي بحثا عن حزب العارفين من أولياء الله المحبين:]

قوله:« من حام لغمات[4]» من: هذا الابتداءللغاية،كقوله عز وجل: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ][الإسراء/01]، يقول ابتدأت تحواسي ودققت تفتاشي على حزب العارفين المحبين من بلد حام، وهي قرى بأقصى المغرب من وطن سوس، وقوله: لغمات، بلد حول مدينة مراكش، وأحوازها: ما قاربها كمراكش، وما دخل تحت عمالتها، (والمغيّا باللاّم كهذا، هو داخل تحت سيره في تحواسه، وإنما عدل عن ذكر المدينة المشهورة للوزن، ولأنها داخلة بالأحروية تحت مراده في نظامه)[5].

1 في (ب): الجنَاب

2 في (ب) و(ج): الرّقراق

3 كذا في (ج)، وفي (ب): الأوّاب.

4 أغمات: مدينة تقع بضواحي مراكش، اشتهرت بكثرة أوليائها وصلحائها، على غرار مدينة مراكش، ألف حولهما العباس بن ابراهيم العباس بن محمد السملالي المراكشي(ت1959م) كتاب: «الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعْلاَم»، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط د ط، 1983، في عشرة أجزاء.

5 ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[في ذكر فاس وعلمائها وصلحائها :]

قوله :« ووطن فاس بلامّة لام»، لامّة الوطن، ما يتوطنه الإنس لسكناه، ولامّة ما لمّ وضمّ من أعماله، ولامّة تأكيد لكونه لم يترك شيئا مما ينسب إليه إلاّ وفتش فيه على من ذكر. وفاس مدينة بالمغرب بناها إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ψ، وذكر سيدي أحمد زروق في كتابه « الكناش في العلم غير الفاش»: أن النبي ρ أخبر بوجودها، وذلك فيما رواه أنس بن مالك أن النبي ρ قال :« ستكون مدينة بالمغرب تسمى بفاس (أتم)[1] أهل المغرب قبلة، وأكثرهم صلاة، أهلها على الكتاب والسنة والجماعة، لا يضرهم من خالفهم، يرفع الله عنهم من يؤذيهم إلى يوم القيامة »[2]،وقال: وفي روايتي للحديث تقديم وتأخير لطول عهدي به.

وأخرج الإمام الدارقطني ومسلم والمهدي في تعاليقه على« موطأ» الإمام مالك، عن سعد بن أبي وقاص، قال، قال رسول الله ρ: « لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[3]،قال بعضهم هو على ظاهره، وقال ابن المدني: الغرب: هو الدلو، والمراد العرب، وفي رواية قيل: « أين هم يا رسول الله ؟ قال: بيت المقدس»، ذكرهما المتيطي، وقال بعض العلماء: أن أهل فاس هم المعنيون بقوله ρ: «لاتزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[4].

وحدثنا الشيخ الأستاذ المحقق سيدي عيسى البوسعيدي الهنتاتي: أن مما خصها الله به أنها دار قرآن وعلم دائما، ولا يزال بها شيخ الجماعة، وهو العالم الجامع المشترك علمه في جميع الفنون، فإذا مات أخلفه الله بمن هو مثله كشيخه سيدي الحاج عبد الواحد عاشير شارح « مورد الظمآن» للخراز ψ أجمعين .

ومن علمائها المشهورين شيخ الجماعة (سيدي محمد بن غازي، وشيخه الأستاذ سيدي[بياض])[5]الصغير وأشباههم، ومن أشياخها المذكورين سيدي أحمد زروق، وسيدي محمد بن عباد، وسيدي علي بن حرازم، وأمثالهم، ولذلك صار الناظم يقصد المدائن الكبار لعله يجد بها أحدا من نسل هؤلاء السادات الأخيار فيأنس به ويأخذ بيده، طمعا في قوله تعالى: [ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ [وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]][آل عمران/34]، في الحظ على توطّن هذه المدينة الصالح أهلها، قال الشيخ العارف بالله سيدي محمد الهواري الوهراني:

يا خَارَجْ فَاس مَارَيْتْ لَكْ يَابْنِي فَرْحَا   اِلاَ كَان لَمْدِينَة النْبِي صَحَّ يَابْنِي صَحًّا

وفي كونها جامعة لأمة قيل في ملائمتها:" يا داخل فاس منك كثير"، إن كنت دنيويا فأبناؤها كثيرون، أو أخرويا فأمثالك فيها موجودون.

---

[1] في (سلوة الأنفاس): أقوم، ينظر: أبو عبد الله محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، سلوة الأنفاس ، تحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني، ص: 76

[2] الحديث– على ما قيل– وُجِد في كتاب دراس بن اسماعيل بخطه، عن أبي هريرة مرفوعا:« ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس، أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة، أهلها قائمون على الحق لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة»، إضافة إلى الشيخ زروق، ذكر الحديث صالح بن عبد الحليم في كتاب "الأنيس" المعروف ب"القرطاس"، والشيخ أبو الحسن الجزنائي في "جنا زهرة الآس"، وبن القاضي في "الجذوة"، وأبو عبد الله التلمساني في "المنهل الأصفى" حاشية على كتاب "الشفا". ينظر:– سلوة الأنفاس" مرجع سابق"، ص: 76

[3] الحديث ذكره: – أبو عوانة يعقوب بن اسحاق الأسفرائيني، مسند أبي عوانة، ج4، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1998، ص: 509. – السيوطي، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، ج4، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، ط1، 1996، ص: 514. – أبو نعيم، حلية الأولياء، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1405هـ، ص: 96.

[4] الحديث أورده محمد بن عيسى الترمذي السلمي، سنن الترمذي، ج4، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار احياء التراث العربي، بيروت، دط، دتا، ص: 485.

[5] في (ب): سيدي محمد بن غازي ونظرائه.

[في ذكر تلمسان وعلمائها وصلحائها:][1]

قوله : « وتلمسان وثم نحاز»، هذه بلد الناظم وأشباهه،كسيدي سعيد البوزيدي وسيدي المقري وسيدي سعيد الراشدي وسيدي سعيد بن سلطان وسيدي سعيد[كذا]، ومن أسعده الله من أمثالهم، وكسيدي محمد العبدلي وسيدي محمد بن محمد بن رحمة، وسيدي محمد بن محمد بن مريم، وسيدي محمد بن العباس وسيدي محمد عاشور، وسيدي محمد بن زكري، وسيدي محمد بن يوسف السنوسي، وسيدي محمد بن محمد بن مرزوق، وسيدي محمد الرصاع، وأشباههم، وكسيدي أحمد المقري وسيدي أحمد أبركان، وسيدي أحمد بن الحسن، وسيدي بن نصر الداودي[2] المقول فيه: "تلمسان كثيرة الأهوال ملطوف بها بضريح الداودي فيها "، قيل وهو الذي أتى إليه الشيخ أبو مدين حافيا من وادي يسّر لحرمة قبره، وقيل توفي في الطريق، وستأتي قصته عند ذكره، وفي سيدي أحمد بن الحسن أنشد، وهو مكتوب عند قبره:

إذا كنــتَ يا صَــاحِ ذا كُربَــةٍ ... وخَطبٍ نَفَى عنك طِيبَ الوَسَـنْ
فَـزُر قَـبـرَ سيّـدِنَا أَحمَـــدٍ ... وَلـيِّ الإلـهِ ونَجْـلِ الحَسَـــنْ
به قَـد أضـاءَت تلمسانُـنـــا ... وأضْحَت به في فِخَـارِ الحَسَـــنْ
تَوسَّــل بِـه ثـُمَّ بالمصطفَـــى ... تَنَـل كُـلَّ مَـا تَشتَهي مِن مِنَـــنْ
عَلَى المصطفـى وعلى آلــــه ... وأصحَابِــه الـوَارثِيــنَ السُّنَـــنْ
صَلَاةً تَفُوقُ الحَصَـا والرِّمَـــالِ ... وَعَـدِّ النَّبَـاتِ بِطُــولِ الزَّمَـــنْ

وهو الذي أخبر به النبي ρ سيدي محمد الزواوي، حين سأله في عالم المنام عن أولياء تلمسان، فذكره منهم، وأما أهل الزوايا والمدارس المشهورين، كالغوث أبي مدين، وسيدي عبد الله ابني الإمام، وسيدي علي الحلوي، وسيدي يعقوب التفريسي مع سيدي وهب بن منبه، فهم أظهر من أن يعرَّف بهم، وفاصل الأمر أنها غابة الصالحين وهم سباعها، لأنها بلد ذل وخمول لا يعبأ بصالحها حتى يموت، فلذلك أووا إليها من كل جانب.

وقد حكي أن بعض أهل الكشف أتى ليزور ضريح سيدي يعقوب، فلما أن دنى من أول المقابر التي حوله كشف الله له عن خمسة وخمسين وخمسمائة وليّ، كلها موجودة بينه وبين ذلك الشيخ الذي قصد زيارته، فاستحيا عنده سيدي سعيد بن سلطان أن يتخطاهم، فأخذ الدعاء من طرف المقبرة ورجع على عقبه.

حكاية: زرت ذات يوم الضرير الغريب سيدي بلقاسم البراهمي، وكان في ولهاصة[3]،قاطنا بمسجد عند سيدي طيفور، فصافحته وقلت له: أنت عمي لا تنساني من دعائك، فشد يده على يدي ودعا لي، ثم قال: ليلة الخميس إنشاء الله ترى رؤيا تنفعك.

---

[1] معظم ما جاء في هذ الفصل في (أ)، هو بمثابة تلخيص جدّ مختصر في (ب) و(ج) .

[2] معظم هؤلاء الأعلام المذكورين وردت ترجماتهم في الكتب التالية:

– ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، " مرجع سابق".

– أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، "مرجع سابق"

– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، " مرجع سابق"

[3] إحدى بلديات مدينة عين تموشنت (الغرب الجزائري).

فرجعت لتلمسان وانتظرت الليلة، فرأيت فيها كأني بالجامع الأعظم، ودخلته من باب الخرّازين القبلي على يسار المقصورة، فلم أر فيه إلا السوار قائمين فإذا بصوت عند صحنه يقول صاحبه: الله الله،كنغمة البوزيدي في حياته، فأقبلت عليه فإذا برجل لم أشك أنه من الأولياء، فسلمت عليه، وقلت له: يا سيدي أخبرني بأولياء تلمسان المخفيين لا المشهورين كأبي مدين وأشباهه، فقال لي: دونك سيدي سعيد البوزيدي، هو من أوليائها، فقلت إذن أزوره، فقال: عليك به و زُره، فاستيقظت فرحا، وهذا الشيخ كان نصف دهره صاح وغالبه يغلب عليه السكر، فتظهر عليه في حال صحوه مِنَّة الاستقامة، من ذكر وفكر وتلاوة وصلاة وصوم وعزلة وصمت، حتى يظن الظان أنه مريض أشرف على الموت، وفي حال جذبه تظهر عليه الخوارق كركوب الأسد وفتح الأبواب المغلقة والإخبار بالغيوب، كما تحققه كل من خالطه.

وأما سيدي سعيد مفتي الأنام، فحدثنا الفقيه الأجل سيدي يعقوب بن علي أنه حضره ذات يوم بمقصورة الجامع بعد الاصفرار[1]،دخلت ذاكرا فرفع رأسه، وقال: المصابيح لم توقد بعد، قال: فخرجت بارقة نور من فيه وصعدت إلى صُبْحِيَة[2] فاشتعلت منها، فدخل المؤذن الوقاد، فسأل من أوقد هذه الصُّبحية، فسكتنا .

وحدثنا أيضا من يوثق به: أن الشيخ سيدي العبدلي جلس يوما بمسجد الوزان، حتى مر به الشيخ سيدي سعيد المقري مجتازا مع الشارع، قال: فقام سيدي العبدلي إجلالا ونهض ليخرج، فلما عرف أنه سيدي سعيد استرجع، فقيل له في ذلك، فقال: حسبت أنه رسول الله ρ، فمن لم ير منكم رسول اللهρ فلينظر إلى سيدي سعيد، فإنه أشبه أهل وقته به.

وحدثني سيدي الحاج محمد العشعاشي (عفا الله عنا وعنه) قال: دخل ذات يوم سيدي اليدّون الضرير، نجل سيدي محمد بن رحمة على السيد سعيد عند محرابه، فقال: يا سيدي اشتهينا أن نرى بعض الأولياء من أهل بلدنا، فإن الله أخفاهم عنا قال: فسكت الشيخ، حتى أدخل الله عليهما سيدي محمد الشريف تلميذ سيدي سعيد، فقال الشيخ: يا اليدّون، فقال: نعم سيدي، فقال: أردت أن يريك الله بعض الصالحين، فقال: أي والله يا سيدي، فقال: أنظر إلى سيدي محمد الشريف فإنه من الصالحين، فنظر إليه رحمه الله، ثم قال له الشيخ: أبشر وأنت من الصالحين أيضا.

ومناقبهم وأحوالهم ψ أكثر من أن تحصى، فلنرجع إلى تتبع كلام الناظم رحمه الله، قال بعض العلماء أن تلمسان هي بلد الجدار، ومازال إلى الآن موضع يسمى جامع الجدار بين الرِّبَط و أجادير، ومنبر جامع أجادير وجدت فيه لوحا منقوشا بخط كوفي، صنع هذا المنبر سنة تسع وتسعين ومائة[3]، ويوشع بن نون هو بساحلها مدفون، وشاهد بعض الناس حوتا منهوسا نصفه ببحر هذا الساحل.

---

[1] أي بعد احتجاب الشمس، ربما قبل صلاة المغرب بلحظات.

[2] القنديل، أو القناديل المثبتة على سرايا المسجد وجدرانه .

[3] تذكر المصادر أن هذا المسجد أسسه إدريس الأكبر، مؤسس الدولة الادريسية، وكان ذلك في شهر صفر عام 174هـ. ينظر: محمد العربي حرز الله، تلمسان مهد حضارة وواحة ثقافة، "مرجع سابق"، ص: 94

ومعنى " تلم "، أي تجمع بين اثنين، أي هذه البلدة جامعة بين التل والصحراء، وبين عذوبة الماء وطيب الهواء، ولذلك يقول شاعرها ابن مرزوق:

بَلدُ الجِـدَارِ مَا أَمَـرَّ نَوَاهَـــــا   يَا عَاذِلِي كُن فِي حُبِّهَا عَاذِرِي ومَادِحَها
شَغُـفَ الفُؤَادُ بِحُبِّهَـا وَهَـوَاهَـــا   فَلَكَم رَأَيتُ وَكَم حَوت مِن نِعمَـــاها
يكفيكَ منهَا ماؤُهَا وهَوَاهَـا

من كتاب اختصار «بغية الوراد في خبر عبد الواد» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر[1].

قال: ذكر عبد الله أنه رأى في كتاب عمر بن علي الأندلسي، أن رجلا من البربر أتى المدينة أيام وفاة رسول الله ρ، فاستأذن على فاطمة رضي الله عنها و[كذا] إلى بربر المغرب [كذا]،فقالت: أتكون فلان ؟ فقال لها: وما يدريك أني فلان ؟ قالت: سمعت رسول الله ρ يقول: «إن لي بالمدينة أنصارا، ولولدي بالمغرب أنصارا إلاّ بربر المغرب الأقصى، فيا شقاوة من قاتلهم، ويا سعادة من أحبهم، يا فاطمة قد جعل الله في قلوب البربر لذريتي رحمة وسيكون قوم البربر في المغرب على اليقين والدين الصحيح إلى يوم الدين»[2]، ودار سكناهم في وسط الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسان، مركبة من " تلم" ومعناه الجمع، و"سن" ومعناه إثنان، أي الصحراء والتل، فيما ذكره الشيخ أبو عبد الله الأبقى وكان حافظا للسان القوم، ويقال " تلمشان " وهي أيضا مركبة من "تل" و"شان"،ومعناه لها شأن عظيم، وتلمسان مؤتلفة من مدينتين بهما الآن سور واحد، إحداهما أولية، يقال أن بها جدار الخضرυ، وأخبر الشيخ أبو الحسن لما يرقى [كذا] عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق فإنه شاهد في ديوان« تواريخ البلدان» أن مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى[3] نزل بها نبي الله سليمان [كذا][4]، وهي تلمسان المذكورة [كذا][5]،أيضا قال: سمعت من خبر أشياخنا أن ممن اجتاز بها من الصحابة [كذا][6] ،الإفريقي المذكور في استيعاب بن عبد البر، وتعرف هذه المدينة بأجادير، أبوابها خمسة، واحد شرقا هو باب العقبة وقبلة باب الخوخة والحمام ووهب وغربا باب [كذا][7]، من عبر الوريط على خمسة أميال ويجاورها وادي الصفصيف وهذه [كذا][8] الغرب ودار مملكة زناتة، ومحل العلماء والمحدثين، نزلها سليمان بن عبد الله بن الحسن[بن الحسن][9] بن علي بن أبي طالب ψ .

فهي ذات أنهار وأشجار وفواكه وثمار، وخصها الله بكثرة العناب وحب الملوك فلذلك صارت مطمعة للملوك، وهي الآن انتهاء (مملكة العجم)[10] من جهة المغرب، والعلم بها يفور ويغور، وفيها مسجد بدرب الأندلس له بابان

---

[1] لم نعثر عليه، ما نعرفه هو كتاب:« بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» في جزأين، حققه وترجمه الى الفرنسية: ألفرد بل، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1911. وقد حقق الجزء الأول منه د/ عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980.

[2] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[3] يقصد بذلك عموم المغرب العربي.

[4] مطموس بالمداد في الأصل، بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

[5] مطموس بالمداد في الأصل، بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[6] مطموس بالمداد في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[7] مطموس بالمداد في الأصل، بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

[8] مطموس بالمداد في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، وساقط في (ب) و(ج).

[9] ساقط في الأصل، عمود نسب سليمان معروف في كتب التاريخ والأنساب، فهو سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ينظر: علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، د ط، 1929، ص:25، 26

[10] يقصد بذلك مجال حدود الحكم التركي من الغرب، كثيرا ما كان المؤلف يطلق على الأتراك في كتابه اسم (العجم).

أحدهما غربي والآخر جوفي، إذا حركت أحدهما يتحرك الآخر، وإذا فرقعته يتفرقع الآخر، حدثني من يوثق به أن رجلا رأى النبي ρ، فسأله فأجابه، فخاف أن يكذبه الناس في رؤيته، فقال: علامة صدقك أن يتحرك أحد البابين بتحرك الآخر، فهُدم وبُني فلم يزل كذلك، وبباب الجياد منها مسجد يعرف بـ (المايورقي)،[1] الذي اكترته الجن، كنت إماما به، فشاهدت القطرة تقطر من سقفه في زمان الحر الشديد، فيتبرك الناس بمائه ذلك، وفي جامع أجادير سارية تبكي دائما، وينحدر منها ماء من سقفه كأنه دموع تسيل من عين باكية، فسألت، فقيل إن أبا العباس الخضر صلى وراءها، ولله درّ ابن الخطيب حيث وصفها بقوله: تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، وضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه ولواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه، عبَّادُها يدها وكهفها كفها، زينها زيانها وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها برود صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الإنتفاع، وبرانسها رقاق رفاع، إلاّ أنها بسبب حب الملوك[2] مطمعة للملوك، ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا مغلوبة الأمرا، أهلها ليس عندهم الراحة إلاّ فيما قبضت عليه الواحة، ولا فَلاَحة إلا فيمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع عقارب إلاّ بين الأقارب، ولا شطارة إلاّ فيمن ارتكب الخطارة، ولا روح أهلها السح [كذا] إلاّ في البخل والشح. (من خط ابن العباس).

"ونهاز"، أي ما قارب البلد المذكور، ويقال ناهزت الحلم، أي قاربته،(وإنما حذف الضمير لتستوي القافية، وحذف ما يعلم جائز ويصح تذكيره وتأنيثه، لأن كل ما ليس له فرج حقيقي يجوز تذكيره وتأنيثه إلا أشياء. وأولياء حوزها وعمالتها لا يحصون كثرة، نفعنا الله بجميعهم)[3].

[في ذكر ازْوَاوه بلد القبائل الجزائرية:]

قوله: « وازْوَاوَه[4] في الدّين عُلَمَا»، هذه الحروف أسماء لقرى كثيرة في جبل شرقي الجزائر (دار الأتراك، وهذا الجبل فيه فواكه ونعائم، وأهله مستقلون برأيهم، إمامهم منهم، ولازالوا ممتثلين للسنة، لأنه لم يتغير (طعمهم)[5]، ولم يستولي عليهم من يغصبهم، فبلدهم أقرب للسلامة في الدين من غيرها، ولذلك كثر بينهم تعاطي العلم والعمل به، حتى وصفهم بذلك الناظم)[6]،وإنما لم يهتم بهم لأن مطلوبه العلماء بالله العارفون، لا العلماء بفروع دينه الراغبون، وهذا الجنس من العلماء موجود بها وبغيرها، فلذا تخطى رقابهم ولو وجد الصديقين العارفين بالله ونبيه حق المعرفة الخاصة الزائدة على القدر الواجب في حق كل أحد لم يتعداهم، لأن الكريم على الله لا تتخطاه الآمال، قال الشيخ سيدي أحمد الأنطاكي τ:« ما أغبط أحدا إلاّ من عرف مولاه واشتهي ألاّ أموت حتى أعرفه معرفة العارفين الذين يستحيونه لا معرفة الصدّيقين».

[1] الكلمة تتصل بالتسمية الإسبانية(مايوركا)، ربما يتعلق الأمر بأحد المسلمين الوافدين من هناك.

[2] حبّ الملوك، اسم لثمرة الكرز الكثيرة في تلمسان.

[3] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] يقصد بهم الأمازيغ الجزائريين، سكان منطقة القبائل الكبرى بالجزائر.

[5] هكذا في الأصل، وهي ساقطة في (ب) و(ج)، ربما كلمة(طبعهم) تبدوا أقرب من حيث السياق.

[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

وقال الواسطي τ: « المعرفة مشاهدته حساً، والعلم مشاهدته خبرا»، ولهذا قيل: « العارف فوق ما يقول والعالم دون ما يقول»، وقال أبو يعقوب الفهرجوري: « العالم يستغيث من البلاء ويسأل كشفه، والعارف يستعذب البلاء ولا يسأل صرفه»، قال ρ « العلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان»[1]، فعلم الأبدان هو علم التشريع الذي قال فيه تعالى: [وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ][الطلاق/01]،وعلم الأديان هو علم التحقيق الذي قال فيه تعالى: [ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ [وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ]][الجمعة/04]، الأول علم السطور والثاني علم الصدور، الأول منقول والثاني معقول، وهذا هو علم التوحيد الخاص بالخواص، فمراد الناظم هنا بعلماء الدين أي بفروعه، المقيدون بظاهر الشرع الذين يدينون [إلى الله][2] بالأعمال[الصالحات، أي يتقربون إليه بأعمال][3]الجوارح الظاهرة فحسب، ولذا لم يقنع بلقياهم ،وأما لو وجد العلماء بأصول الدين وبأسرار الشريعة، الذين دانوا إلى الله بأعمال القلوب (الباطنة)[4] ،وباكتساب أحواله الحميدة، والتخلق (بأخلاقه المجيدة)[5]، لأوشك أن يتولاهم ولا يتخطاهم، لأنه لا ينبغي لأحد أن يتخطى رقاب الصديقين، فظهر لنا أنه لم يجد مطلوبه، ولم يشف مرغوبه، فلهذا أكثر تطوافه، فإن قلت: ما الأفضل العارف أو العالم ؟ قلت: المسألة عن طرفين وواسطة أما العالم المقيد ببعض العلوم، فالعارف بالله أفضل منه لا محالة، لأن العلم يتشرف بشرف المعلوم، وأما العالم المطلق الذي جمع بين المعارف والعلوم فهذا أفضل منهما جميعا، ودليل ما ذكرنا قول محي الدين بن العربي τ، ونصه: « الحكم نتيجة الحكمة، والعلم نتيجة المعرفة، فمن لا حكمة له لا حكم له ، ومن لا معرفة له لا علم له، فالحاكم العالم لله قائم، والحكيم العارف بالله واقف، فالحاكمون العالمون لاميون والحكماء العارفون بابيون، لما شغف الزاهد بترك دنياه، والمتوكل بكلية أمره إلى مولاه، والمريد بالسماع والوجد، والعابد بالعبادة والجهد، والحكيم العارف بالهمة والقصد، غاب العالمون الحاكمون في الغيب فلم يعرفهم عارف ولا مريد ولا عابد، ولا شهدهم متوكل ولا زاهد، افتقر الزاهد للعوض، وتوكل المتوكل لنيل الغرض، وتواجد المريد لتنفيس الكرب، واجتهد العابد رغبة في القرب، وقصد العارف الحكيم بهمته الوصول، وإنما يتجلى العلي لمن انمحا عنه رسمه، وزال عنه اسمه، فالمعرفة حجاب عن المعروف، والحكمة باب عنده الوقوف، وما بقي من الأوصاف فأسباب كالحروف، وهذه كلها علل تعمي الأبصار وتطمس الأنوار، فلولا وجود الكون لظهر العين، ولولا الأسمى لبرز المسمى، ولولا المحبة لاستمر الوصال، ولولا الحظوظ لملكت المراتب، ولولا الهوية لظهرت الأنية، ولولا هو لكان أنت، ولولا لبدا رسم الجهل قائما، ولولا الفهم لثوى سلطان العلم، فإذا تلاشت هذه الظلم، وطارت برهبات الفنى هذه البهم، تجلى لقلبك من لم يزل به قاطنا في غيوب الأزل، وما حجب العين عن دركها سؤالا، ولكن بضرب المثل، تبين القلب أن الذي رآه به دائما لم يزل، وجاء خطاب يعم الكلام ويبدي سناه رسوم المحل ».

---

[1] الحديث أورده: – القرطبي ، تفسير القرطبي، ج7، (مصدر سابق) ص: 192./– اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 89.

[2] زائدة في (ب) و(ج).

[3] زائدة في (ب) و(ج).

[4] ساقطة في (ب) و(ج).

[5] في (ب) و(ج): بأوصافه المجيدة.

[في ذكر أويس القرني ورابعة العدوية:]

قوله:« نفتش مثل أويس وانْعاز ولَّى اشبه رابعة أم »، هذا تصريح بمراده في مراده بالعارفين الذين يطلبهم، أنهم مثل أويس بن عامر القرني في الرجال، وشبه رابعة العدوية في النساء، لأنهن شقائق الرجال في الأحكام لقوله تعالى: [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ[وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا][الأحزاب/35]، فأويس هذا هو الذي شهد له رسول الله ρ بالولاية والجنة وقطع له بهما، وأمثاله من ساداتنا أهل الصُفَّة، وكأهل الزهادة مثل هرم بن حيان، ومن تبعهم بإحسان، من قال فيهم رسول الله ρ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1]، والعلم صفة ينكشف بها المعلوم على ما هو به انكشافا فلا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه، ومن أراد أن يتعرف أحوال العارفين فلينظر في («كتاب[حلية] الأولياء لأبي نعيم» ،و[كذا])[2]، أو«شرح سينية ابن باديس» وأمثالها، حتى يشتاق إلى لقائهم ومعرفتهم والدخول في طريقهم، وهم الذين قال الله في حق مثلهم: [وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا][الكهف/65]، والعلم اللدني معرفة ذات الله وصفاته علما يقينيا عن مشاهدة وعيان ببصائر القلوب، قال عز من قائل لنبيه: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ [وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ]][محمد/18]، فقدم المعرفة على الإستغفار، وكذلك قوله تعالى: (يا موسى) [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي][طه/14].

قال الشيخ أبو القاسم القشيري τ: المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديّة[3] وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله تعالى بجميع إقباله، وصدق لله في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخُلُق أجنبيا ومن آفات نفسه بريًّا، ومن المساكنات والملاحظات نقيا، ودام في السر مع الله مناجاته، وحق[4] في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدَّثُ من قبل الحق بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره، سمي عند ذلك عارف، وتسمى حالته معرفة.

[رابعة العدوية: أحوالها وكراماتها:]

وهذه حالة العيسية المصرية ربيعة العدوية، فقد حكى الغزالي في «الإحياء»: أنها قيل لها: بما نلت هذه المنزلة ؟ فقالت: بترك ما لا يعنيني وأُنسي بمن لم يزل، وقيل لها: ما تقولين في الجنة ؟ فقالت: الجار ثم الدار ففنيت، إنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة. وقد قال لها سفيان الثوري: ما حقيقة إيمانك ؟ قالت: ما عبدته خوفا لنار، ولا رجاء لجنة، فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا وشوقا إليه.

---

[1] الحديث ذكره: – اسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء، ج2 (مصدر سابق) ص: 83./ – علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة الرشد، الرياض، ط4، 1404هـ، ص: 123.

[2] مطموس في الأصل.

[3] في (ب) : الدَنِيّة.

[4] في (ب): حقّق.

وقالت في معنى الحب نظما:

أُحبُّكَ حُبَّينِ حُــبَّ الهَــوَى   وَحُبًّــا لأنَّكَ أَهــلٌ لِـــذَاكَ
فَأَمَّا الذِي هُوَ حُــبُّ الهَـوَى   فَشُغْلِي بِذِكرِكَ عَمَّـن سِـــوَاكَ
وَأَمَّا الـذِي أنتَ أَهْــلٌ لَـــهُ   فَكَشْفُكَ لِي الحُجُبَ حَتَّى أرَاكَ
فَمَا الحَمْـدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِـي   وَلَكِنْ لَكَ الحَمْــدُ فِي ذَا وذَاكَ

قال صاحب « الإحياء»: ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ، وبحبه لما هو أهل له، الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها، وهو أعلى الحبين وأقواهما.[1]

وقال الثوري أيضا يوما بين يديها: اللهم ارض عنّا، فقالت: أما تستحي من أن تسأله الرضى وأنت عنه غير راض، فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون راضيا عن الله، فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة أهم منه.

وسَمِعَت قارئا يقرأ: [إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ][يس/55]،فقالت: مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم، وعاب عليها ابن عربي هذه المقالة، وقال: إنها ما عرفت وإنها المسكينة، فإن شغلهم إنما هو بالله، قال وهذا من مكر الله الخفي بالعارفين في تجريح الغير ببادي الرأي والتعريض في حق نفوسهم أنهم منزهون عن ذلك، لكنه مع ذلك بالغ في مواضع أخر في مدحها، وقال: إنها في رتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأبي السعود بن شبل، وساق الحكاية مسندة صاحب كتاب: «مناقب الأبرار» إلى سعيد بن عثمان، قال: كنت مع ذي النون في تيه بني إسرائيل، فبينما نحن نسير إذا شخص قد أقبل، فقلت: يا أستاذ، شخصٌ، فقال لي: أنظر فإنه لا يضع أحد قدمه في هذا المكان إلاّ صدّيق، فنظرت، فإذا امرأة، فقلت: إنها إمرأة، فقال: صدّيقة ورب الكعبة، فابتدَرَ إليها وسَلَّم عليها، فردت السلام، ثم قالت: ما للرجال ومخالطة النساء ! فقال: إنني أخوك ذو النون، ولست من أهل التّهم، فقالت: مرحبا حياك الله بالسلام، فقال لها: ما حملك على الدخول في هذه المواضع ؟ فقالت: آية في كتاب الله تعالى، وهي قوله سبحانه: [أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا][النساء/97]، فكلما دخلتُ إلى موضع يعصى فيه سيدي لم يهنأني فيه القرار بقلب قد أذهلته شدة محبته، وهام بالشوق إلى رؤيته، فقال لها: صفي المحبة، فقالت: سبحان الله، أنت عارف تتكلم بلسان المعرفة تسألني!، فقال: للسائل حق الجواب، فقالت: نعم المحبة عندي، أولها لهج قلب بذكر المحبوب، والحزن الدائم والشوق اللازم، فإذا صار المحبوب إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من الطاعات، ثم أخذت في الزفير والشهيق، وأنشأت تقول الأبيات.

وذكر عبد الغفور في «طبقاته»، أنها كانت تصلي ألف ركعة في اليوم والليلة، فقيل لها: ما تطلبين بهذا ؟ فقالت: لا أريد ثوابا، وإنما أفعله لكي يسرّ رسول اللهρ يوم القيامة، فيقول للأنبياء: أنظروا إلى إمرأة من أمتي هذا عملها، وقالت للثوري: ما تعدون السخاء فيكم ؟قال: أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه، قالت: أخطأتم، قال لها: فما السخاء عندكن ؟ قالت: أن تعبدوه حبا له لا طلب جزاء ولا مكافآت، وكانت شديدة الخوف جدا، فإذا سمعت ذكر النار أغمي عليها، قال مالك بن دينار: أتيتها فإذا هي تقول: كم من

[1] ينظر: أبو حامد الغزالي«الإحياء»، ج4، ص:429 ، وهو ساقط في (ب) و(ج).

شهوة ذهبت لذّتها وبقيت تبعتها، يا رب أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار، وكأن كفنها لم يزل عندها، ويجرون على سمومها كالماء استنقع من كثرة البكاء.

ومن مناجاتها: إلهي تحرق بالنار قلبا يحبك ؟! فقيل لها: لا تظني بنا ظن السوء، قالت:

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الفُؤَادِ مُحَـدِّثِي   وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

فَالجِسمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُـؤَانِسٌ   وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الفُـؤَادِ أَنِيسِي

من « الكواكب الذرية».

وشبه ربيعة أمة الله المملوكة التي أعتقها الله وصارت من أكابر الصالحات ميمونة السوداء، فقد حكي أنها كانت ترعى بالشام غنما بالإعارة فتصلي والذيب يحرس غنمها، فقيل لها في ذلك، فقالت: أصلحت ما بيني وبين الله، فأصلح ما بين الذئاب والغنم، وشبهها أيضا رابعة بمثناة تحتية بنت اسماعيل العدوية الشامية زوجة بن أبي الحواري، قال: قلت لها وقد مات بليل، قد رأينا أبت سليمان وتعبدنا معه، فما رأينا من يقوم من أول الليل، فقالت: سبحان الله مثلك من يتكلم بهذا! إنما أقوم إذا نوديت، وقالت لي: أي أُخَي أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الله الجبار على مساوئ علمه، فتشاغل به دون خلقه، وكان إذا أراد جماعها نهارا، قالت: أسألك بالله لا تفطرني، وإذا أراد ليلا، قالت: أسألك بالله إلاّ ما وهبتني لله الليلة، ورابعة المتقدمة بالوحدة[كذا]، وكانت تتطيب كل ليلة وتأتي زوجها وتقول : ألك حاجة، فإن كانت له قضى وطره، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح، قلت: ومن الكمال أن نعتقد الكمال في كلتيهما، لأن من عرضت قضت حق ربها وزوجها، ومن أشفقت فلعدم تمكن حالها أو غلبة أحوالها، وقد قيل: أنها لها أحوال شتى، فمرة يغلب عليها الحب، ومرة الأنس، ومرة الخوف، حتى أنه دعاها زوجها يوما فلم تجبه، ثم بعد مرة أجابته، وقالت: إنما منعني أن أجيبك أن قلبي كان امتلأ فرحا بالله فلم أقدر أن أجيبك.

ومن كراماتها، أنها قالت يوما: نحّوا عني هذا الطست فإنما عليه مكتوبا: مات هارون الرشيد، فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم. وكانت ترى الجن عيانا، وقالت: الحور العين، فتستّرت عني بأكمامهن، ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة، ودفنت ببيت المقدس، وهنا انتهى تطواف الناظم في وسط بلاد المغرب .

[في ذكر طرابُلس الغرب وتونس الخضراء:]

ثم دار وطاف في الركن الشمالي من المغرب من إفريقية، فقال: «ارحل لَطْرَابُلس وعنابة»، المراد به الطرابلس المغربي لا الشامي، وهو بضم الباء، مدينة بساحل البحر شرقي تونس وبلاد القيروان، وأما بلد العناب فهي مدينة أيضا بساحل البحر غربي تونس، فقوله: « وَلِّي منها لتونس الخضراء »، تونس بكسر النون، بلدة عظيمة بساحل البحر، وهي مستقر أكابر العلماء والقضاة كابن عبد السلام وابن هارون وابن عرفة وأمثالهم، وإنما وصفها بالخضرة لأنها يدور بها جنات وزيتون ويجلب لها كل خير، وممّا وجدته مقيدا أن جامِعها الأعظم بناه طوالع عثمان بن عفان، والدعاء فيه مستجاب، ذكر المؤرخون أنه لما فار التنّور في زمن نوح وأمره الله بركوب السفينة، وطافت مشرق الأرض ومغربها، أتت إلى موضع هذاالجامع ولم تتحرك، فحاولها نوح فأبت، فأوحى الله إليه: « يا نوح دعها تتملأ من تلك البقعة لأنها يكون لها في آخر الزمان شأن»، وذكر أيضا أن ملكها هو الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا على خمسة

أميال، والجدار الذي أقامه الخضر υ كان بها على الأصح، وعين الحياة في بحر قُربُه منها اثنا عشر ميلا، وتسمى الآن صخرة أبي ربيعة، كما وجدته، ومما قيل في وصفها:

أَجَلُّ لحظاتِ العَينِ مِنكَ لَرَوضَةٌ   لسَاكنِهَا فيها نعيمٌ مخلَّـــدُ

كأنَّ خريرَ الماءِ بين ثمـــــارِهَا   سُيوفٌ بأيـدِي حَجَلٍ تَتَجَرَّدُ

قلت: وهذا الوصف بخرير الماء لم يكن بها اليوم، لأن مياهها سواقي فقط، والرَّجُل في اللغة من بلغ سنّ الرجولية من الذكور وفي اصطلاح هؤلاء القوم: المراد به من علت همته وحسنت سيرته، من ذكر أو أنثى، حر أو عبد صغير أو كبير، وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه فلا يستحق إسم الرجولية ولا الذكورية وإن كان كبيرا، بل يسمى حدثا وصبيا [كذا]، والحدث [السن][1]،والعقل، والدين كل من لا يوافقك على طريقك(المستقيمة)[2]، ولا يرجع إلى أصل ولا قاعدة، وإن كان ابن سبعين سنة فلا خير في صحبته.

(الأحداث: وأما حدث السن فإن كانت تجلبه لرجوليتك فاصحبه، وإن كان يجذبك لصباه فاتركه ولا يكمل عقل عاقل إلاّ بعد أربعين سنة، ولذا يبعث الله الأنبياء إلاّ على رأس الأربعين، غير عيسى بن مريم فإنه بعث على رأس الثلاثين، ورفع بعد ثلاث سنين).[3]

[في ذكر توات وأدرار:]

قوله: « وَلِّي صَحرَاوي مع الجنب حتى لأرضْ تْوَاتْ وأرضْ ادْرَا»، الصحراء قبلة بلد الناظم، وهي مقابلة للتل، (وجرى في كلام أعرابها:[كذا] كِيفْ حَائِر مِن الاجْوَاد // شَتَّى مَا يحدُث وقَبلْ مَا يَصْطَادْ، يعنون به إيتاء كل ذي حق حقه، والصحراء بلد الجريد)[4]، وفيها قرى كثيرة، كفجيج وما والاها، وتَجْرَارَه وماحاذاها، وأرض الجنوب وماساماها، حتى لأرض توات وأرض أدرار،[أرض][5] الجنوب، هما في قصد الناظم هي صحراء المغرب من بلد إفريقية (الفارقة بين المشرق والمغرب)[6]، إلى بلدان توات وتفيلالت وأرض ادرا، ونسبها إلى الجنب لأن من غرّب مع إقليم المغرب تأتي هذه الصحاري على جنبه الشمالي، ومن شرّق معه تبقى على جنبه الأيمن، ويكون المشرق أمامه والمغرب خلفه، وقد روى الإمام جلال الدين أبو الفضل السيوطي عن ابن عباس τ: أن أولاد حام نزلوا بحري الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية الداردم [كذا].

ومن الأمثال الجارية اليوم عندنا، قولهم :" عليك بتْوَات لا تُفات "، (حدثنا الشاب الأتقى سيدي إبراهيم بن الشيخ السماحي[7]، (سامحنا الله وإياه)، قال: طفت البلدان والحجاز، فما رأيت أفضل من بلدان توات للمواتات،

[1] ساقط في (أ)، و مثبت في (ب).

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج)

[3] في (ب): لذا لم يتنبّأ نبي قبلها- أي قبل الأربعين سنة- غير عيسى.

[4] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[5] زائد في (ج)

[6] ساقط في (ب) و(ج)

[7] هو سيددي ابراهيم بن الولي سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة. ينظر: خليفة بن عمارة، سيرة البوبكرية 1، مكتبة جودي مسعود، وهران، دط، 2002، ص85.

لأنها بلد طيبة للتمر والفلاحة والعافية، وأهلها مباركون والأولياء ظاهرون بها على وجه الأرض، وتوفي بها رحمة الله عليه)[1].

وأرض ادرا، غربي تفيلالت وبها يدبغ الجلد الأحمر، خصها الله بإجادته ليُصنع منه السروج والأخفاف[2] وسوى ذلك.

[في ذكر اسطنبول عاصمة الأتراك:]

قوله :" واسطنبول"، هي القسطنطينية العظمى، وهي دار مُلك الترك الأعظم اليوم، وهو الخليفة الأكبر ملك البرين والبحرين ومصر والشام والعراقين، خديم الحرمين الشريفين أصلح الله حاله وحال جيشه ورعيته، وإقليمها هو بر الترك، ومنه تخرج الأمراء والقضاة لجميع عمالاتها المذكورة، ودار ملكها كمصر أو أعظم في الكبر، وتسميتها بالتركية ما ذكر، وتفسيرها (سلام) عريض،أقامها الله دار (سلام)[3] إلى يوم القيامة.

واعلم أن الأقاليم سبعة كما ذكرها الشطيبي وغيره: الأول الهند، والثاني الحجاز، والثالث مصر، والرابع بابل، والخامس الروم، والسادس الترك، والسابع الصين، وما وَالَى ياجوج وماجوج، فالإقليم الأوسط منها هو إقليم العراق وبابل، فهم أوسط الجزء المعمور، وهو أعمر الإقليم وأقومهم طبعا، وأعدلهم ماء وهواء، وأحسن ذلك بغداد.

(وأخرج أبو الشيخ عن عمرة بن أبي لبابة، قال: الدنيا سبعة أقاليم، ياجوج وماجوج ستة أقاليم، وسائر الناس في إقليم واحد، فيكون على هذا الإقليم السابع من العمران هو الذي انقسم إلى سبعة أقاليم أيضا، يقول بعض شراح « الرسالة » للشامي [مداد]ومصر إقليم والحجاز إقليم والأندلس إقليم والمغرب إقليم.)[4]

[في ذكر مصر:]

قوله :" ومصر "، مشهورة معلومة، لوخَلَت المدائن لعمَّرتها مصر بعمالتها، وهي لا يعمرها غيرها، والصيد كله في جوف الفراء، ونيلها من أودية الجنة(الخمسة)[5] وهي: سيحون وجيحون والدجلة والفرات [والنيل][6]، قال كعب الأحبار: وضع الله في الدنيا أربعة أنهار من الجنة، نهر من عسل وهو النيل، ونهر من الخمر وهو الفرات، ونهر من الماء وهو سيحون، ونهر من اللبن وهو جيحون، نقله الشطيبي.

[في ذكر العراق:]

قوله : "والعراق "، هو إقليم مشتمل على مدائن كبغداد والكوفة والبصرة وواسط وسرّ من رأى وغيرها، وهو بلاد فارس من الركن الشرقي الشمالي، وهما عراقان، عراق العرب وعراق العجم، وهو اسم معرّف لكثرة نخله وشجره، كذا ذكره سيدي أحمد الحاج البيدري عند قول الشيخ ابن باديس في «نفحاته القدسية» :

---

[1] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[2] الأخفاف، جمع خُفْ، حذاء مصنوع من الجلد، عندنا يلبسه الفارس عادة عند امتطائه الفرس.

[3] مابين قوسين في (ب) و(ج): إسلام

[4] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[5] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج)

[6] زائدة في (ب) و(ج)

أَلَا مِل إلى بغدادَ فهي مُنَى النفسِ   وَحَدِّث بِهَا عَمَّن ثَوى باطنَ الرَّمسِ

كالجيلاني وأصحابه، والغزالي وأحبابه، وهي التي ورد فيها قوله υ :«ستكون بعدي مدينة بين دجلة ودجيل [كذا] إليها الأرض، ثم يخسف بها »[1] .

ولاعتدال هذا الإقليم سلم أهلها من شقرة الروم، وسواد الحبشة، وغلظة الترك، وذمامة أهل الصين، ولذا سمّت الأوائل ملوكه ملوك الناس، وملوك الترك ملوك الأسود لتشبههم بهم في الجرأة وقساوة القلب، لأكلهم لحوم الخيل. من« الجمان».

[في ذكر الكعبة المشرفة والمدينة المنورة:]

قوله :" والكعبة "، هي التي قال فيها من شرَفِها: [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ][الآية96/آل عمران]، وهي وسط الأرض من إقليم الحجاز الحاجز بين نجد والغور من تهامة،(وإنما اقتصر على ذكرها دون إقليمها لأنها هي خلاصة الخلاصة، ولأنها مظان لقاء الأولياء العارفين، لما روي أنها لا تخلو من طائف بها أبدا، ولأنها تتنزل عليها كل يوم مائة وعشرون رحمة، ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين إليها، وهي أفضل بقاع الأرض ماعدا المدينة المشرفة.

فمذهب مالك أن المدينة أفضل، ومذهب الشافعي عكسه، وقيل أن ظاهر مكة أفضل، وأورد زروق في ذلك حديثين: «إن الصلاة في مسجد مكة أفضل بمائة ألف صلاة في غيرها »[2]،وصححه الحاكم وبن حبان، الثاني قوله υ: «من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بها والذي نفسي بيده لتربتها تعدل الشهادة عند الله»[3]الحديث، قال زروق: وهما صحيحان، إلاّ أن هذا القول ذكره بعض شيوخنا غير معزو، ولم أره منصوصا في المذهب، فلينظر في مظانه، وهذا الخلاف فيما عدا تربة قبر نبينا محمد ρ، فإنها أفضل حتى من الجنة بإجماع العلماء).[4]

[في ذكر الشام:]

قوله: " والشام "، هو إقليم معتدل يضرب به المثل، فيقال: "لايوجد مثل هذا حتى في الشام "، وأهل فاس يقولون : "يا خارج فاس أترى بلاد تأويك إلا كان الشام أوما تدري "[5]، وقد قال رسول اللهρ :« الشام صفوة الله من بلاده»[6]، وقال υ : « أهل الشام سوط الله في أرضه لينتقم بهم ممن يشاء من عباده»[7]، [وقال: «الشام أرض

---

[1] النص ساقط في (ب) و(ج)

[2] الحديث أخرجه: - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، ج7، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد/ عبد المحسن بن ابراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، دط، 1415هـ، ص: 112. – عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، الترغيب والترهيب، ج1، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ، ص: 243.

[3] الحديث أخرجه: - محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج4، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ص: 479. – أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج6، (مصدر سابق) ص: 75.

[4] النص: (انما اقتصر –الى– بإجماع العلماء) ساقط في (ب) و(ج)

[5] العبارة ساقطة في (ب)

[6] الحديث أخرجه: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج4، (مصدر سابق) ص: 555. – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10،(مصدر سابق) ص: 59.

[7] الحديث أورده: - أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج3، (مصدر سابق) ص: 499. - سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، ج4، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط2، 1983، ص: 209.

المحشر والمنشر»][1]وهو الذي سماه الله القرى المباركة، في قوله تعالى: [وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي [بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ]][سبأ/18]، وهو عجيب عند من رآه .

[في ذكر الصين والهند:]

قوله : " ولأرض الصين وأرض الهند "، هما في الركن الشرقي الجنوبي، بعيدان من أرض الحجاز، ولذلك قال υ : «أطلبوا العلم ولو بالصين»[2]، (قال الإمام ابن مرزوق: لا يصل إليه من يريده إلا بقطع سبعة أبحر، كل بحر لايشابه لونه لون الآخر، ولا حيوانه حيوان الآخر. ذكره في شرحه على "الشقراطسية"، وسئل بعض العلماء عن قوله تعالى: [مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ][الآية38/الأنعام]،أين تؤخذ العقاقير الهندية والأفازير[كذا]،فقال: من قوله تعالى: [والفُلْكُ تَجْرِي فِي البَحْرِ بمَا يَنْفَعُ النَّاس][الآية164/البقرة]، ذكره السيوطي في « الاستنباط»)[3].

[في ذكر السودان:]

قوله: " وسودها الرقاق "، أشار به لأرض السوادين من وسط المغرب[4]، وهي أكبر من جميع البلدان المتقدمة وأكثر عمرانا، لما روي أن مساحة الدنيا باسرها مكسورة مسيرة خمسمائة عام، مائتان منها قفار ومائتان بحار، ومائة معمورة، ثمانون لياجوج وماجوج وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وتسعة عشر للسودان الحبش وغيرهم، وعام واحد للبيض من العرب والعجم، وقيل: سبعة عشر سنين للحبش، وثلاث سنين للبيض أجمعين، والضمير المضاف للسود عائد على الأرض أو الهنود.

وقد ذكر الجوزي: الهند والسند والحبشة والنوبة والصقالبة، أولاد حام بن نوح، وروى أبو الفضل السيوطي عن ابن عباس: «أن نوحا υ ولَدَ سام، وفي ولده بياض وأدمة، وولَدَ حام وفي ولده سواد وبياض قليل، وولد يافث وفي ولده الشقرة والحمرة»[5]، وقال بعضهم: دعى لسام بأن تكون الأنبياء والرسل من ولده، ودعى ليافث بأن تكون الملوك من ولده، ودعى على حام بأن يتغير لونه ويكون ولده عبيدا لولد سام ويافث.

وروي عنه ρ أنه قال: « ولد نوح سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافث يأجوج وماجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان»[6]، من « زهر العروش في أخبار الحبوش» لجلال الدين[السيوطي].

وذكر الشطيبي في كتابه «الجمان ومختصر أخبار الزمان»: أن نوحا لما نجاه الله مع أولاده المذكورين، قسم عليهم الأرض بعرض الأقاليم، فأعطى الجنوب كله لحام، فهو أبو السودان أجمع وقبائلهم الزنج والحبشة والنوبة وجناوة،

---

[1] زائدة في (ب). والحديث أورده الطبري، تفسير الطبري، 17، دار الفكر، بيروت، دط، 1405، ص: 46.

[2] الحديث أورده: – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1 (مصدر سابق) ص: 154.

[3] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)، ويبدو في النص كلام مبتور.

[4] يقصد المغرب العربي الكبير

[5] حديث طويل، مروي عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عيّاش، ينظر: ابن سعد، «الطبقات «الكبرى» ج1، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت دط، 1980، ص: 41-43.

[6] ينظر المصدر السابق، الصفحات نفسها.

فالزنج مما يلي المشرق ثم الحبشة ثم النوبة ثم جناوة من ناحية المغرب، وأعطى وسط الأرض لسام فهو أبو الأنبياء والعرب العاربة والعرب المستعربة وبنوا إسرائيل من ذريته، وفي قسمته مكة والمدينة والقدس والشام، ويافث هو بالمثلثة .

وإنما وصف السوادين بالرقاق، لأن من شأنهم أن يسترقوا لدعوة أبيهم المتقدمة، وسبب اختلاف ألوانهم ما رواه أبوالفضل الشطيبي أيضا: أن نوحا υ قام مرة فانكشفت عورته بريح فرمقه حام فلم يستره، وغمض يافث عينيه إلى أبيه سام مغمضا فستره وغطاه، فلما استيقظ أخبره جبريل فدعى لحام أن يسود مع ذريته، ولسام أن يبيضهم الله، وليافث أن يكونوا بين البياض والسواد، فكانوا كذلك لدعائه بما تقدم، ويحتمل أن يكون وصفه لهم بالرقاق من الرقة والحنانة، لا من الرق الذي بمعنى الملكية، وهو أظهر لأن الأول جمعه أرقاق ومفرده رقيق، وهذا جمعه رقاق ومفرده رقيق ،«وأن أبابكر رجل رقيق »[1]، (كتاب الرقاق كما في الصحيح)، ويؤيد هذا ماوراه جلال الدين: أن قوله تعالى: [وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ [مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ]][المائدة/83]، نزلت في النجاشي وأصحابه، وفيهم أيضا نزل قوله تعالى: [الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ [وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ] وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ]][القصص53،52]، وقال ρ : « أن الحبشة أنجداء أسخياء وأن فيهم لينا فاتخذوهم »[2]،وقال υ: « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات الجنة، لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن»[3]،قال الطبراني: يعني بالسودان الحبش.

وقال υ : «من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله ببيته بركة »[4]،وقالρ : «الخلافة والملك في قريش، والحكم والقضاء في الأنصار»[5]،وقال عليه الصلاة والسلام: «الدعوة والأذان في الحبشة»[6]، من «أزهار العروش».

[في ذكر أنواع الشرك وأصناف المشركين:]

قوله :" وأهل العُدْوى خارجين الدين "،أشار به لِبَـرِّ(المشركين)[7]أعاده الله للمسلمين، والعدوا هكذا إما أراد به برًّا غير بر الإسلام يتعدا له في البحر، من قوله تعالى: [إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى]][الأنفال/42]، [وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ]][الآية1/الطلاق]، وقوله تعالى: [لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا]][المائدة/82]، ورخّمه للوزن.

---

[1] الحديث أخرجه: – البخاري، صحيح البخاري، ج1 (م سابق) ص: 240. – مسلم، صحيح مسلم، ج1، (م سابق) ص: 313.

[2] الحديث أورده: – عبد الله بن عدي بن عبد الله أبو أحمد الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، ج2، (م سابق) ص: 413.

[3] الحديث أورده:– اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفدا، تفسير ابن كثير، ج3، دار الفكر، بيروت، دط، 1401هـ، ص: 448. – الطبراني، المعجم الكبير، ج11 (م سابق) ص: 198.

[4] الحديث أورده: اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، (م سابق) ص: 293.

[5] الحديث أورده: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج4، (م سابق) ص: 192.

[6] الحديث أورده: – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج3، (م سابق) ص: 508.

[7] في (ب) و(ج): النصارى

وخروجهم عن الدين المعهود في قوله تعالى: [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ][آل عمران/19]، المفسر في قول رسول الإسلام: «شهادة أن لا إله إلاّ الله»[1](الحديث)، فرأيهم الفاسد في شيئين؛ في أصول الدين وفي فروعه، أما خروجهم عن أصول الدين فكما نبه عليه الشيخ السنوسي في (مقدماته) حيث قال: وأنواع الشرك ستة:

- شرك استغلال، وهو إثبات إلهين مستقلين كشرك المجوس؛
- وشرك تبعيض، وهو تركيب الإله وآلهة كشرك النصارى ؛
- وشرك تقريب، وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلفى ،كشرك متقدمي الجاهلية؛
- وشرك تقليد، وهو عبادة غير الله تبعا للغير كشرك متأخري الجاهلية؛
- وشرك الأسباب، وهو إسناد التأثير للأسباب العادية، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك المراد منه.

(وأما خروجهم عن فروعه، فكتركهم للصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، فافترقوا في فئتين وانتحلوا ملتين مجوسية وكتابية، ثم انقسمت الثانية إلى يهودية ونصرانية، فقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، فصدقهم الله في قوله تعالى: [مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ][آل عمران/67،68]، ثم زادهم وأيسهم بقوله: [وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ][آل عمران/85])[2].

[في جولان القلب والعقل بحثا عن أهل المحبة والعرفان:]

قوله : " درت بعقلي والعقل رقراق "،أي حوّست بقلبي وفتشت بعقلي في هذه الأقاليم السبعة المذكورة، التي زين الله بها الدنيا (بوجود مصابيح الإيمان في عِمارها)[3]، لعلي أعثر على من يعرف الله ورسوله حق معرفتهما، (ويحبهما الحب الخالص، فيشتغل بما يعنيه، ويحب من خلق من أجله، ويتبع من تكوّن بسببه وعز وجوده وخفي عنا شهوده)[4]، وهذا كما قال في أول قصيدته النونية :

طُفْت الوُجُود حَيْثُ كَــــانْ	بالعْقَل قَد حَوَيت لاَ مَنْ يَخْفَــانْ
وسْأَلتْهُم بكُل لسَــــــــانْ	مَنْ السَّبَب فِيكُم قالُوا سُلطَــانْ
سُلـطَان كُلْ ذِي سُلطَــــانْ	لَـولاَه لَمْ تكُونُوا قــرَّة الأعيَــــانْ
شعَفْ فُـــؤَادَك حَيْـــــرَانْ	بْحُبْ مُجْتَبَاك مُحمَّــد يَا عَــــانْ

(وإنما قال هذا لأن القلوب تتقلب، قال أحمد بن حضرويه: « القلوب جوالة، فإما أن تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الجش، أي[كذا]»، وقال سعيد بن يزيد: «من خطرت الدنيا بباله لغير القيام بأمر الله حجب عن

---

[1] الحديث أخرجه: - البخاري، صحيح البخاري، ج1، (م سابق) ص: 12. / - مسلم، صحيح مسلم، ج1، (م سابق) ص: 45.
[2] النص: (وأما خروجهم -إلى- من الخاسرين) ساقط في (ب) و(ج)
[3] العبارة ساقطة في (ب)
[4] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

الله»)[1]، (وقال: «إنما سميت الصلاة صلة لأنها اتصال بالله، وما أحتسب أحد يكون في صلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه الله»، وقال: «من جعل الله المعرفة عنده يتنعم في كل أحواله»، وقال: «لوجعلت لي دعوة مجابة ما سألت الفردوس، وإنما أسأل الرضى، فهو تعجيل الفردوس في الدنيا»، وقال، قال يونس: « يارب أربي أحب خلقك إليك ، فدعي إلى رجل أكلت محاسن وجهه، ولم يبق إلا عيناه، فقال يونس لجبريل: هذا الأحب، قال: نعم، وقد أمرت أن أسلب عينيه فيسلبهما، فقال: الحمد لله الذي متعني ببصري، ثم قبضته وأبقيت في الأمل فيما عندك فلم تسلبنيه».

فينبغي لمن عرف الله ورسوله أن يصرف وجهة قلبه لمعرفتها، ويستعمل جوارحه في مرضاتهما، ولا يخالف رسوله في شيء ما، لقوله: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ [وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]] [آل عمران/31].

والرقراق هو الشيء الخفيف الحركة الصافي من الخبث، ومنه قولهم: "بات المصباح يرقرق)[2]،أي تشتعل ناره، والرقراق أيضا الماء الصافي، إذا كان في موضع صافي كالصف، وهزته الرياح حتى سال أو تحرك، من جانب إلى جانب، فتراه يترقرق ويتبرق، ومنهما قول المتنبي :

وبَيْنَ الرِّضَى والسَّخَطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى   مَجَـالٌ لِـدَمْـعِ المقلَـةِ المُتَـرَقْـرِقِ

وقول آخر :

إِذَا هُجِرَ العِلمُ يَومًا هَجَـــر   وزَالَ فَلَم يَبْقَ مِنْه أَثَـــرْ
كَمَا تَرَقْرَقَ فَوقَ الصَّفَـــا   إِذَا انْقَطَعَ الماءُ جَفَّ الحَجَـرْ

(والمناسبة أن العقل كالنور، والقلب كالقنديل والزجاج أو العقل كالماء الزلال، والقلب كالوعاء والمكان، فإذا صف النور والماء، وتنضف القنديل والوعاء تضاعف النور والبهاء، وبلغ غاية المنتهى، قال تعالى: [أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ [وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ] لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]] [الأنعام/122])[3].

قوله:" مَن هو مَنهُم عارَف باثنين "(مَنْ الأولى موصولة مفعول بها، والثانية حرفية جارة)[4]، كأنه يقول: طفت البادية والحاضرة والمغرب والمشرق والقبلة والجوف والجنوب والشمال، وجلت بعقلي الخفيف الحركة السريع التقلّب الصافي من(الكدر)[5]المخلص من الغير، وأنا أفتش على من يعرف الرب والمربوب، ويحبهما الحب الكامل، فلم أظفر به في هذه الدورة، (ولم أشهده في هذه المرة،إلاّ من عاود التفتيش والدوران حقيق أن يظفر إن شاء الله بأهل المحبة والعرفان)[6].

---

[1] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)
[2] الكلام ساقط في (ب) و(ج)
[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج)
[4] العبارة ساقطة في (ب) و(ج)
[5] في (ب) و(ج): الخَبَث
[6] ساقط في (ب) و(ج)

قوله : " بالرب "، وهو المالك والسيد والمربي والمصلح، وهو الله رب العالمين، قال ابن عباس في قوله تعالى: [وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا][الجاثية/13]، أي الكل منه، وفي كل شيء اسم من أسمائه، و اسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله باطنا بقدرته وظاهرا بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع في الصنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات، هو باطن في غيبه، وظاهر بحكمته وقدرته،[لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ][الشورى/11].

قال سيدي عبد الجليل بن موسى: وقد أظهر بن عباس رضي الله عنهما سر المعرفة وحقيقة العلم في قوله: في كل شيء اسم من أسمائه، وإسم كل شيء مناسمه، ومعنى ذلك أن وجود جميع الأشياء فائض عن وجوده العلي، وإن صفات كل شيء مبتدعة عن صفاته الحسنى، لأن الباري سبحانه ليس هو إلاّ ذات وصفات لا غير، أخذ ذلك من طريق السمع والعقل، وكذلك الأشياء كلها ليست إلاّ ذوات وصفات، وهو الذي عبر عنه بالجواهر الأعراض روحانيات كانت أو جسمانيات لا يوجد غير ذلك، فأكسبها فيضه الكريم وجوده العظيم.

هذا المعنى يظهر فيها أثره لا نهاية ولا غاية، إذ هي فائضة عن معاني أوصافه كما قال: [وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ][النحل/08]، ويبين للعقول مشاهدته، ولما كان الباري سبحانه لاحدّ له ولا نهاية ولا غاية لوصفه وعظمته، اقتضى أن تكون الأشياء لا نهاية لها ولا غاية، فأما طريق العلم به سبحانه من جهة السمع ،فإن صدق بأن الله موجود قديم، أول بنفسه لم يوجده أحد ولم يوجد نفسه ،إذ لو أوجد نفسه لكان قبل الوجود عدما، والعدم ليس بشيء، فكيف يوجد نفسه أو غيره، ولو أوجده غيره لاضطر ذلك الغير إلى غير تسلسل، وأنه باق أبدا وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وأنه ليس في جهة وأنه ليس مستقر على مكان، وأنه سرمد بالقلوب والأبصار، وأنه واحد فرد صمد لا ثاني معه ولا شيء مثله، فهذا العلم بذاته.

قوله : " ومربوب وهو الأوب، إلى آخره "، عنى به نبيه محمد (الصادق الأمين المنزل عليه في تعريف الربوبية والمربوبية : [قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي [إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ] رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ][الأنعام/161-164])[1].

ووصفه بالأواب مدحا له، بما دلت عليه اللفظة، كما مدح الله نبيه سليمان بقوله: [ووهبنا لداوود[سليمان نعم العبد إنه أوّاب]][ص/30]، وكما مدح أيضا نبيه أيوب بقوله: [إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ]][ص/44]،وقال: [وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][الأنبياء/83]، لأنه υ كان صابرا شاكرا لا يدعوا في كشف ما نزل به من الأكلة التي قطعت بدنه حتى روى أن الدودة إذا سقطت منه ردّها، حتى مر به أعداؤه فشمتوا به، ومسه الشيطان باهلاك ماله وولده وتعرضه لزوجته رحمة بنت يوسف الصديق، وطلب منها أن تشرك بالله، فكان عليه أشد من مرضه، فعرض (بدعائه) [2]ولم يصيح، وأتى بما يناسب حاله من الأسماء، قال ρ : «

---

[1] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج)

إن لله ملكا موكلا بمن يقول: يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثا، قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل »[1]، وقال ρ: «ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك في قبضتك، ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضائك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحد من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلاّ أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحا »[2]، «من الجواهر الحسان في تفسير القرآن» للثعالبي τ.

[في ذكر معنى الأَوبَة:]

واختلف في معنى الأواب، فقال سيدي محمد بن اسماعيل البخاريτ: «الأواب هو الراجع إلى الطاعة وإلى مراشد نفسه»، وقال المحاسبي: «هو الراجع بقلبه إلى ربه »، وقال بن عباس وعطاء[والمحاسبي]: هو المسَبِّحُ، وأخرج بن أبي حاتم عن عمرو بن شرحبيل :«الأواب بلسان الحبشة المسبِّح»، ومنه قوله تعالى: [يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ [وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ]][سبأ/10]، وقال في الآية الأخرى: [وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ [وَكُنَّا فَاعِلِينَ]][الأنبياء/79]

(وقال سفيان بن عينية في قوله تعالى: [[هَذَا مَا تُوعَدُونَ] لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ][ق/32]، هو الذي لا يقوم من مجلس حتى يستغفر الله منه خيرا كان أو شرا لما يرى فيه من الخلل والتقصير)[3]، وذكر نحو هذا سهيل بن عبد الله في تفسيره للقرآن، وقال عبيد بن عمير: «كنا نتحدث أنه الذي إذا أقام من مجلسه استغفر الله مما جرى في ذلك المجلس، وكذلك كان النبيρ يفعل ».

وأخرج أبو عيسى الترمذي عن أبي هريرة، قال، قال رسولρ: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك ، غفر له ما كان في مجلسه ذاك»[4].

قوله :" من لَبْدَ فِي أَوْبَت مَسْرَا "، لما أن نعت النبي المربوب بالأوبة والتأوب زاد هنا وبين أنه دائم الأوبة بقلبه إلى ربه مسرع بالتوبة والإنابة، محل قربه لا يصل ولا يقطع بل لا يقنع ولا يشبع، وأشار بذلك لما أخرجه النسائي عن عائشة رضي الله عنهما أنها قالت: «كان رسول الله ρ إذا جلس مجلسا أو صلى تكلم بكلمات، فسألته عن ذلك فقال: إن تكلم بكلام خير كان طابعا عليه إلى يوم القيامة، وإن تكلم بغير ذلك كان كفارة له، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[5]، وقد أخبر ρ عن كثرة توبته وسرعة سرايته في أوبته، بقوله: « إني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة »،–وفي رواية– :«مائة مرة»[6]، ولذلك كان الأواب من أوزان المبالغة كضراب وشراب، أي كثير التسبيح والتقديس، أو كثير الاستغفار من رؤية التقصير والرجوع إلى ربه القدير،

---

[1] الحديث أخرجه محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج1، (م سابق) ص: 728.
[2] الحديث أخرجه محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبّان، ج3، (م سابق) ص: 253.
[3] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)
[4] الحديث أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، سنن الترمذي، ج5، (م سابق) ص: 494.
[5] الحديث أخرجه أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي المجتبى، ج3، (م سابق) ص: 71.
[6] الحديث أخرجه، عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، السنة، ج2، تحقيق: محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم ، الدمام، ط1، 1406، ص: 432.

وقد قال الناظم في خطبة له تبين معنى هذا الخبر: أليس هو الذي يرقى في كل يوم سبعين منزلا، وكل منزل يعدل ما قبله بسبعين منزلا، إلى أن توفي وهو على هذا المنهاج كاملا، وما شبع قط وما قنع من الاستغفار، فهو ρ لا تنقطع مواهبه ولا تنقضي عجائبه.

[في ذكر أنواع سِراية النبي ρ وصفاتها:]

ومبدأ هذه السراية: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا][الإسراء/1]، ومنتهاها: [وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى] [النجم/42] ،[ولا منتهى لربوبيته فكذلك لا منتهى لأوبيته][1].

قال الشطيبي: سئل بعض العلماء عن الإسراء وصفته ووقته، فقال: لا خلاف في وقوعه وإنما وقع الخلاف في وقته وصفته، وذلك أنه ρ لما أسري به حدّث، ثم أسري به فحدّث، ثم كذلك، فكلما أسري به حدث، فنقل الرواة كل واحد ما سمع منه، فأول إسراء أسري به، لما خرج من بطن أمه طاف به جبريل المشارق والمغارب والبحار، وصعد به إلى المنتهى في طرفة عين، ثم رده إلى أمه، ثم كان قلبه ρ ساريا أبدا، فما شاهده الخلق من ذلك تكلموا به، وما لا فلا، ومن ذلك إسراؤه وهو ابن ثلاث سنين، حين كان مع أخيه من الرضاع يرعى بهما خلف بيوت بني سعد، ومن ذلك إسراؤه وهو ابن عشر سنين ينقل الحجارة مع قريش لبناء الكعبة، ومن ذلك إسراؤه قبل الوحي، لما قال زمّلوني، ثم آخر بعد نزول الوحي بسنة ونصف لما قال: دثّروني.[2]

(ومن ذلك إسراء عام ومنه إسراء خاص، فالعام عند نزول كل وحي إسراء، والخاص مثل هذا الذي تكلم عليه العلماء، وكل روايات الإسراء صحيحة لا يشك فيها عاقل، إلاّ أن أوقاتها مجهولة، وأسرار صاحبها غير محدودة، لأنه كان υ روحاني أبدا وإن كان بشريا، فلا يرى بصورة ظل في شمس ولا قمر ولا سراج، ويرى من خلفه كما يرى من أمامه، ولا تحجب بصره الجبال ولا المسافات، فكيف تحجب بصيرته السماوات أو الأجرام اللطيفة، وياعجبا لمن تخاطبه الجمادات وتحادثه الروحانيات وتطيعه العوالم الكليات والجزئيات، كيف ينكر الإسراء بجسمه، أو يبعد ذلك أحد في وهمه . ذكره في « الجمان».[3]

وأصل السراية المشي ليلا، سرى كطرق، نقله بن الحاج، (ومنه قول الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لتأتمُّ السراة[4] بِهِ   كَأَنَّـهُ عَلَـمٌ فِي رَأْسِـهِ نَـارُ

قال الزياتي: أفادت بقولها: في رأسه نار، أشد منه بجبل ليس في رأسه نار، فإن هذا زيادة وإن كان تتميما للبيت، لكنه تتميم بياني لإفادة النكتة المعتبرة المذكورة، زيادة على أصل الكلام المؤدي بما قبلها [كذا] أسرى وسرى مختصان بالسير ليلا، وكل منهما لازم فالباء للتعدية ولا تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل عند الجمهور، وإنما سار فمختص بالنهار)[5].

---

[1] إضافة في (ب)

[2] الكلام ساقط في (ب) و(ج)

[3] الكلام ساقط في (ب) و(ج)

[4] ينظر: كرم البستاني، ديوان الخنساء، تحقيق وشرح، دار صادر، بيروت، دط، 1996، ص: 49.

[5] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

وقال القرطبي: أسرى وسرى لغتان كسقى وأسقى، كما جمعها الشاعر في قوله:

أَسْرَت عليه من الجوزاءِ ساريــةٌ تُزجِي الشّمـال عَلَيه جامـدَ البَـــرَدِ

و أسرى، سير الليل، وهل معناهما واحد؟ أو أسرى سار في أول الليل، وسرى في آخره، خلاف، وما ذكر من استواء ما أوله همزة والمجرد منها في اللزوم، وهو خلاف الغالب، بل قد يتعدى الفعل بالهمزة كأقدم البناء الحائط، وقد يقصر بها قال شيخ الإسلام: واعلم أنه قد ينقل الشيء إلى أفعل فيصير لازما كأكبّ وأعرض وأشنق وأنزف، يقال: كبّه، أي ألقاه على وجهه فأكب، وعرضه أي أصهره فأعرض، وشنقت البعير، أي استوقفته بجذب زمامه فأشنق، ويقصر بتجرده كقام زيد و[بياض][1]، ويتعدى بتجرده منها، ونزفت [كذا] فأنزفت، ونسلت ريش، فانسلّ وقشعت الريح السحاب فاقشع وانقشع وتقشع له كشفته، وهل التعدي بالهمزة وتضعيف [بياض][2]، قاله في «حاشية الجامع».

قوله: " من لو قوة في الحجا تسبي " البيت، (من) هنا وفي الشطر الذي قبله موصولة بمعنى الذي، لما وصف النبي ρ بكونه أوابا، وأوبته على دوام الأبد بيّن سر ذلك بأن الله جعل له في حجاه، أي عقله النوراني قوة من نوره تبارك وتعالى، تسبي أي تكشف وتزيل عن الذات الربوبية أستارها الكثيفة، وترفع عنها حجبها المتعودة لكي تنجلي مرآة قلبه فتتراءى له أنوار ربه ويتجلى له من ليس كمثله شيء، على ما ينبغي لألوهيته، وكما ينبغي لفردانيته، ويقويه أيضا ويثبته حتى يطيق النظر ويثبت في مقابلة سلطان الوحدانية، وهذه خاصية اختصه الله بها دون من سواه، إذ لم يقدم ملك مقرب ولا نبي مرسل يترقى لمقام أحدية الجمع، واعتبر ذلك بالروح الأمين جبريل υ ليلة الإسراء، حيث قال: «لا تقدم يا جبريل، فتأخر واعتذر، وقال: ها أنت وربك، لو دنوت أنملة لاحترقت»[3].

وكذا كليم الله موسى بن عمران لما أن لم يكن له استعداد لإدراك ذلك المقام ولم تكن له طاقة ولا قوة لكمال النظر،قال له ربه: لن تراني، بعد قوله: [رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ][الأعراف/143]، وقد اقتدى موسى بموسى[4] ، فطلب بقوله في قصيدته(الدالية):

أنـــــا يـــــــا رؤُوف بْحُبَّـــك شَغُـــــوف

قَصْدِي فيك انْشُـوف شُوفَـــة شَافيَـــــــا

بمُقْلاَة الجفُـــــوف وسَمعُهم عْطُـــــــوف

كالأراضي والسْقُـوف خَلّـــــي الفَانْيــــــا

بين عْظَامي جُـــوف قد احْوى كُل جُـوف

يْجُـــول لْعَــــــرش معَ اتْحُوفَـك العَالْيَــــا

ضَخْم الذَاتْ وافْهَـــــام حتى كأني نكُون أنا الوجُــود

كي ابْصَاري واقـــــدَام تَثْبت عندَمَا نْريكْ بْلَا حُدُود

---

[1] بياض بمقدار كلمة في (أ)، وهو ساقط في (ب) و (ج)

[2] بياض في (أ) بمقدار كلمة، وهو ساقط في (ب) و(ج)

[3] لم نعثر عليه في كتب الصحاح وكتب السنن.

[4] يقصد بالأول: شيخه موسى اللالني ناظم القصيدة، ويعني بـ موسى الثاني: النبي موسى كليم اللهυ .

بِلَا حَد تَرَاك عَين يتشخَصْ   فيك كُلْ حِين [كذا] ياكْبِيــر
وانتَ كُلْ حِين تَزْدَادْ زِيــن   بين النضرة وبين الأخرى كثير
ذاك الزِّينْ الحْزِين فِيَّ احْنِين   حَن انتَ يا مُعِينْ عَن النَّظِيـر
اجعلي طاقة في ايـَّــــــامِ   عِنْدمَا تَبْرَز تْبَان مَنَّك الشْهُود
تْجَـــلَّى لي في اعْظَـــــــامِ   وفي لْحَم والشْعَر بْنُور الوْجُود
الفَــظ يا أخـي بسْــلَامِ   والصْلاة عْلِيه هَاشمي الجْدُود[1]

[في ذكر الحجب النورانية والظلمانية:]

(قال الشيخ العارف بالله سيدي يوسف الكوراني الشهير بالعجمي)[2]، في رسالته المكية المسماة « مشكاة الأنوار في أوراد الليل والنهار»: اعلم أن الله عز وجل خلق في هذا الطريق سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وجعلها أستار الكعبة الأسرار عزت لها، وأشار لهذا السر قول رسول اللهρ: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ولولا ذلك لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره »[3]، وفيه قيل:

وَلَو أني ظَهرتُ بلا حِجَـاب   ليتّـمتُ الخـلائـقَ أجمعيـــنَ
وَلَكِن للحجَابِ لَطيـفُ معنًى   بـه تحيَـا قلـوبُ العاشقيـنَ

فيرفع الله تعالى الحجب عن سر قلوبهم، فيريهم نور ذاته وصفاته من وراء الحجاب ليعرفوه، ولا يرفع الحجب بالكلية كي لايحترقوا، فالحجب الظلمانية هي الجسمانية، والنورانية الروحانية، فرفع الحجاب الظلماني أسهل على السالك من رفع النوراني، فعشرة آلاف حجاب من هذه السبعين ألف ظلم مستكنة في اللطيفة النفسانية ولونها أزرق، ومنها عشرة آلاف مودعة في اللطيفة القلبية ولونها أحمر مثل النار الصافية، ومنها عشرة آلاف مكنونة في اللطيفة السرية ولونها أبيض، ومنها عشرة آلاف كامنة في اللطيفة النفسانية مودعة في اللطيفة الروحانية ولونها أصفر، (ومنها عشرة آلاف مودعة في اللطيفة الحقية ولونها لون السنبل المصقول)[4]، ومنها عشرة آلاف موجودة في اللطيفة الخفية التي قامت بها هذه اللطائف السبع، فيشاهد في اللطيفة القائمة الجن، وفي النفسانية الجحيم، وفي القلبية الجنة، وفي السرية الملائكة، وفي الروحية الأولياء، وفي الحقية الأنبياء، وفي الخفية يشاهد نبينا ρ .(مختصرا)

قوله :" عن الذات أستارها الكثرا "،الظاهر أن مراده بالذات، ذات محمد υ، ويحتمل أن يريد بها ذات الله عز وجل، وعلى كلا الاحتمالين فالمراد بالأستار في كلامه الحجب المشار إليها الحديث، والمحجوب بها والمستور دونها إنما هو العبد خاصة، ويتعالى رب العزة أن يحصره حاصر أو يستره ساتر، بل هو كونه مع حجابه النور أقرب إلى كل مربوب من حبل وريده، فسبحان البعيد في قربه القريب في بعده، فهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير، وهو بكل شيء عليم.

---

[1] النص الشعري ساقط في (ج)

[2] في (ج): قال البسطامي في (رسالته المكية)

[3] الحديث أخرجه: محمد بن حبان، صحيح بن حبان، ج1، (م سابق) ص: 499. / محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج1 (م سابق) ص: 71.

[4] مابين قوسين ساقط في (ج)

فالكثرة في كلام الناظم تشير لما قاله البسطامي: "ولا يرفع الحجب بالكلية كي لا يحترقوا "، فإن قلت : الناظم تكلم على مقامات النبيρوأنت تعرضت لشرح مقامات الأولياء، ومن شرط القياس المساواة، قلنا: لابد من ذلك، إلاّ أن الأولياء ورثة الأنبياء فصح لنا أن نستدل بالفرع على الأصل، ونقيس الغائب على الحاضر، لكن المعارج متباينة والأوجه مختلفة والطالب الحاذق النبيل يقيس ما لم يقل على ما قد قيل، ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله محمد الساحلي τ في مقام المشاهدة، ونصه: فإن قلت التحلية والتزكية راجعتان إلى حال التصفية، وقد قلت إن المشاهدة لا تكون إلاّ بعد كمال التصفية، فالجواب: أن كمال التصفية قد نالها الروح في أول منزل المشاهدة، لكن لا يزال الروح مترقيا في غايات المعارف إلى ما لا نهاية له كما إن المعارف لا غاية لها، وكل معرفة لا تبلغ إلاّ بما يناسبها من التصفية من « روض المحاسن » للسنوسي.

فإذا كان أكبر الأولياء لا يبلغ أول درجات الأنبياء، فكيف بذلك في الرسل أم كيف ذلك في نبينا ومولانا محمد ρ ، ولذلك قال مترجم مقامه عمر بن الفارض في (تائيته):

ومنِّي أوج السابقيــنَ،بزعمِهــم حَضِيضُ ثَرى آثاره موضِع وطْأَتي
وآخِرُ مَا بَعْدَ الإِشَارَةِ حيثُ لا تَرَقِّي ارتفاعٍ وَضعُ أوَّلُ خَطْوتي [1]

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه :

المُخْتَــار البَـــارقْ لِيـــطْ مِن عِبْرانِـي اسْمُـــه مَـــاذْ
لَهُ مِن تَسْلِيطِي عَنْه تَسْلِيطْ كَالسُّوسَـة لسنَــاه نْفَـــاذْ
نَكْشَـفْ عَن زَخَــارْ مُحِيطْ بِالعَــا لَم مُجمُــوعْ وَافْـــذَاذْ
من هُـو كُل الكُل واعَجْبِي ممَّـنْ فِيــه الخَلْــق مَحْصُـــورَا
عَيْن الرَّحْمَة سَابَـق الغَضَـبْ عَيْن العِلـم وغَايَـة القُـــدْرَا

ثم زاد في وصف النبي الأواب وسماه بما وصفه به ربه في التوراة والإنجيل والكتاب، وما من رسول باسمه ونعته إلّا تمنى أن يكون من أمته، فصلى الله عليه في الملأ الأعلى وصلى الله عليه في الآخرة الأولى.

[في وصف النبيρبالمختار:]

قوله:" المختار "، هذا وصفه في الكتاب الفرقان في غير ما آية فمن ذلك قوله تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ][آل عمران/110]، وقوله: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا][البقرة/143]، أي خيارا عدولا، فتشريف أمته مستلزم لتشريفه، بل إنما اكتسب الشرف منه وبسببه، قال في (البردة): "فأكرم الرسل كذا أكرم الأمم"، ومن ذلك أيضا قوله تعالى : [إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا][آل عمران/33]، وبيان الاستدلال بها أنه إنما اصطفاهم الله لأخذ كل واحد منهم بطرف من محاسنه وأخلاقه، وجمع فيه جميعها، فلذلك سماه الله محمد المختار، لأنه تغلغلت فيه الأوصاف الحميدة، قال سيدي يحي القرطبي في «أرجوزة الولدان» :

محمدٌ جُمِعَ فِيهِ مَا افْتَرَق صَلَّى عَلَيهِ الله مَا لاَحَ الفَلَق

[1] ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان بن الفارض(مصدر سابق)، ص: 55

وقال صاحب الشرف، قال بعض العلماء في معنى الآية: صارت المعرفة بالاصطفاء لمحمدρ، وذلك أن الدّال أخذ من آدم والحاء أخذ من نوح والميم أخذ من ابراهيم والميم الثاني من عمران.

وقال جلال الدين السيوطي: أنه ρ (بيت المعرفة والحكمة)[1] جمع له كل ما أوتي الأنبياء من معجزات وفضائل ولم يجمع ذلك لغيره، بل اختص كلّ بنوع وقد جمع لهρ بين المعرفة والخلة والكلام والرؤية والشريعة والحقيقة والقبلتين والهجرتين، وكلّم(بجميع)[2]، أصناف الوحي بخلاف الرسل، فموسى υ اختص بالشريعة والكلام على الجبل، والخضر بالحقيقة، وابراهيم بالخلة والصلاة للكعبة، وموسى لبيت المقدس إلى غير ذلك.

وأوتي عليه الصلاة والسلام علم كل شيء إلاّ الخمس؛ الساعة فما بعدها وقيل أوتيها وأمر بكتمانها، وكذا الخلاف في الروح، وبيّن له أمر الدجال، حتى قال: «إنه أعور وربكم ليس بأعور»، وحكى عن البارزي τ أنه قال: إن النبي ρ نبي الأنبياء وجامع لخواصهم، وما من نبي له خاصة نبوة في أمته إلاّ وفي الأمة عالم من علمائها يقوم في قومه مقام ذلك النبي في أمته، وينجوا من جاءه في (زمرته)[3]، ولذا ورد :« علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[4]، واختص شرعه بصيام يوم عرفة، يكفر سنة قبله وسنة بعده، وعاشوراء في التوراة يكفر سنة قبله، وبغسل اليدين بعد الطعام بحسنتين وقبله بحسنة، لأنه شرع التوراة

، وبالعذبة في العمامة لأنه سيماء الملائكة الكرام، وبالأشهر الهلالية العربية، واشتق الله (لأمته من اسميه المؤمنين المسلمين)[5].

سمى دينهم الإسلام وأباح لهم الكثرة إذا أدوا زكاته، وإجماعهم حجة واختلافهم رحمة، وتغفر ذنوبهم بالوضوء، وتبقى الصلاة نافلة ويأكلون صدقاتهم في بطونهم ويثابون عليها، وأعظم من ذلك صلاة الله وملائكته على هذه الأمة كنبيها، فقال: [هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ][الأحزاب/43]، ويقبض أرواحهم على فرشهم وهم شهداء عنده، وتوضع المائدة بين أيديهم فما ترفع حتى يغفر لهم، وهم علماء وحكماء كادوا لفقههم أن يكونوا كلهم أنبياء، ولا يخافون في الله لومة لائم، وإن شهدوا اثنين منهم لرجل بخير وجبت له الجنة، والأمم غيرهم إلا بمائة، قد فتح الله عليهم خزائن كل شيء حتى العلم، ولا تخلوا الأرض من مجتهد قائم لله بالحجة فيهم، ويبعث على رأس كل مائة سنة من يجدّد لهم أمر دينهم حتى يكون في آخر مائة عيسىυ .«من أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب» .

وقال البوصيري في « الكواكب الذرية في مدح خير البرية »:

بُشْرَى لَنَا معشرَ الإسلامِ إنَّ ... لنا من العنَايةِ رُكْنًا غيرَ مُنهدمِ

لمَّا دعَا الله داعِيَنَا لِطَاعَتِــه ... بأكرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أكرَمَ الأُمَمِ[6]

---

[1] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج)

[3] في (ب) و(ج): في زمانه

[4] الحديث أورده اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2 (م سابق) ص: 83.

[5] كذا في (ج)، و في (ب): واشتق الله من أمته المؤمنين

[6] البيتان ساقطان في (ب) و(ج)

[في ذكر صفة الرسول ρ في الكتب السماوية:]

قوله:" البارق ليط " كذا ورد بالعجمية في إنجيل عيسى، ومعناه بالعربية روح الحق واليقين، ونعته بالسريانية[1] في "زبور" داوود: حطابا، قال السيوطي: أخرج البيهقي عن وهب بن منبه رضي الله عنهما أن الله أوحى لداوود في الزبور:« يا داوود إنه سيأتي من بعدي نبي اسمه أحمد ومحمد صادقا نبيا لا أغضب عليه أبدا، ولا يعصيني أبدا، وقد غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء، إلى أن قال: يا داوود إني فضلت محمدا وأمته على الأمم كلهم»[2] الحديث.

وأخرج أبو نعيم عن بن مسعود قال، قال رسول اللهρ: «صفتي في الإنجيل أحمد المتوكل، مولده مكة، ومهاجره إلى طيبة، ليس بفظ ولا غليظ، يجزي بالحسنة الحسنة، ولا يكافئ بالسيئة، أمته الحامدون، يأتزرون على أنصافهم ويوضئون أطرافهم، أناجيلهم في صدورهم، يصفون للصلاة كما يصفون للقتال، قربانهم الذي يتقربون به إليّ دماؤهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار»[3].

وأخرج الدارمي عن ابن عباس أنه سأل كعب الأحبار: «كيف تجد نعت رسول الله ρ في التوراة ؟ قال : كعب الأحبار: نجده محمد بن عبد الله، مولده بمكة ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحاش ولا صخاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفوا ويغفر، أمته الحامدون يحمدون الله في كل سرّاء، ويكبرون الله على كل نجد، يوضئون أطرافهم ويأتزرون في أوساطهم، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم، ودويّهم في مساجدهم كدوي النحل، يسمع مناديهم في جو السماء »[4]، من كتاب « الإعلام بحكم عيسى υ».

قوله :" من عبراني اسمه ماذ "، (وفي رواية عن الناظم فالعبراني أسماه ماذ)[5]، أي سماه الله في توراة موسى بالعبرانية ماذْ، ومعناه بالعربية: طيّب طيّب، وسماه الله بأسماء متعددة وبلغات مختلفة ليعرفه من لا يعرفه، لأن الاسم سمة وعلامة على صاحبه ليتميز به عن غيره، قال تعالى:[الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ][الأعراف/157]، وفي أول سطر من التوراة: «محمد رسول الله عبدي المختار، لا فظ ولاغليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، يأتزرون على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضئون على أطرافهم»[6].

---

[1] السُّريانية هي اللغة التي نزل بها الإنجيل، وهي لغة السريان، وقد اعتُبرت السريانية لغة مقدّسة، والسبب في ذلك أنّ السريان هم الذين قاموا بنقل كتب الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية، وكانت بعض الكلمات تستعصي على المترجمين، ولا يجدون لها مرادفا دقيقا في العربية، فكان السريان –أحيانا– يرسمونا الكلمات بلغتهم، ومع مرّ السنين، نظر إلى هذه الكلمات، وإلى اللغة السريانية بإسرها على أنها رموز تحوي أسرار الحكمة. ينظر: يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، القصائد الصوفية، والمقالات الرمزية، دراسة وتحقيق، دار أخبار اليوم، القاهرة، (د ط)، (د تا)، هامش ص: 176.

[2] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[3] الحديث أورده عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، (م سابق) ص: 195.

[4] الحديث ذكره بن سعد بروايات و أسانيد مختلفة في«الطبقات الكبرى» ج1،(مصدر سابق)، ص: 360، 361 .

[5] العبارة ساقطة في (ب)

[6] النص ساقط في (ب) و(ج)

وإنما حذف الناظم ماذ الثاني وضم الأولى، ولم يأت به على ما ورد ليستقيم له الوزن وتتناسق القوافي على حركة واحدة، وذلك بحسب الإمكان لأن النظم ينقاد له صاحبه، بخلاف النثر فإنه هو المنقاد لصاحبه.

وقال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أن أمة محمد تركوا الطعام والحلال رغبة في طعام الجنة وتركوا أسباب الدنيا ثقة بما في خزائن الله، وأن الله تعالى يقول لهم: أقربكم مني وأحبكم إلي أكثركم جوعا وعطشا وأن محمدا وأمته يصومون شهرا أبعدهم بصيام كل يوم منه مسيرة مائة عام من النار، وأعطاهم بكل تسبيحة فيه أجر أداء فريضة في غيره واجعل لهم فيه ليلة القدر، ومن يستغفر الله مرة واحدة فيها يكتب له بها أجر ثلاثين شهرا وأكتب عليهم الحج، فمن حج منهم أكتب له ثواب آدم وابراهيم، وأكتب عليهم الزكاة، فمن أداها منهم باركت له في ماله وولده وعمره، أعطيهم فرضا وأسألهم فرضا، وأجعل منهم المؤذنين يقومون على كل شرف بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمدا رسول الله، فجزاؤهم عندي جزاء الأنبياء لأنهم دعاة إلى الطاعة ملهمون لذكري يجيبون لأمري، رحمتي نازلة عليهم وغضبي مرفوع عنهم ما داموا يشهدون طاعتي ويتحفظون على دين نبيي محمد، وأن منهم من لا أسلط عليه في أطباق الثرى من دود، ولا يروعه منكر ونكير ولا يذوق عذاب القبر، فخر موسى ساجدا لله، وهو يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد، فقيل له : يا موسى إن أردت ذلك فأكثر من الصلاة على محمد ρ، وأبلغ مني بني اسرائيل أنه من لقيني يوم القيامة وهو جاحد لمحمد سلطت عليه غضبي وجعلت بيني وبينه حجابا فلا يراني، لا كتاب ينصره ولا شفاعة تناله، ومن صدّق بمحمد ρ ويؤمن به متعته يوم القيامة بالنظر إلى وجهي وأدخلته جنتي، يا موسى من صدق بمحمد ولم يره لم أوحشه في قبره ولا أناقشه في حسابه، وأثبت قدمه على الصراط، وقد آليت على نفسي قبل أن أخلق الخلق أنه من شهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمدا رسول الله كتب له براءة من النار قبل خروجه من الدنيا بعشرين ساعة، وأوصيت ملك الموت أن يرفق به عند قبض روحه كما يرفق الوالد بولده، وأجعل له بها نورا في قبره ونورا في القيامة ونورا في الميزان ونورا على الصراط، يا موسى من لم يؤمن بمحمد حسناته مردودة عليه، والحكمة حرام على قلبه، والحق بعيد منه، يا موسى ركعتان يصليهما محمد وأمته بعد الفجر أغفر لهم بهما ذنوب يومهما وليلتهما وأحفظهم بهما ويكون في ذمتي إلى ذلك الوقت، يا موسى أربع ركعات يصليها محمد وأمته عند الزوال أثقل بها موازين حسناتهم وأمحي بها سيئاتهم وأفتح لهم بها الجنة وأغلق عنهم بها النار، يا موسى أربع ركعات يصليها محمد وأمته عند العشي يأمنوا بها من العذاب ويستغفر لهم بها الملائكة، يا موسى ثلاث ركعات يصليها محمد وأمته بعد مغيب الشمس أغفر لهم بها ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، يا موسى أربع ركعات يصليها محمد وأمته عند مغيب الشفق تفتح لهم بها أبواب السماء فلا يسألوني ليلتهم شيئا إلاّ أعطيتهم، يا موسى إذا توضأ محمد وأمته عند المكاره أعطيتهم بذلك جنة عرضها السماوات والأرض، قال كعب الأحبار: فآمنت بالله وبرسوله، وكفر بذلك الحبر الذي ناشدته الله أن يصدقني فصدقني، وهو عالم بكل ما قلت. من « الجمان » للشطيبي.

قوله :" اسمه ماذ "، هذا من أسمائه الطيبة التي نعته الله بها واختصت به للتعيين، وليس في الوجود جوهر ولا عرض إلاّ وله اسم قائم به، عرفه من عرفه وجهله من جهله، وكذا كل موضوع ومصنوع من تواليف وغيرها مفتقرة لأسماء تعرف بها أعيانها كما علمها الله لنبيه آدم υ لقوله تعالى: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا][البقرة/31]، حتى القصعة والقصيعة، والشيء إذا عظم شأنه كثرت أسماؤه، فأسماء المولى العظيم أربعة آلاف اسم، واسم نبيه الكريم ألف

اسم، قال الفقيه جلال الدين: واختص بأنه سمّي بأسماء الله بنحو السبعين اسما، ولذلك قال الله تعالى: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ][البقرة/146]، حتى قال عبد الله بن سلام τ: « والله إنا لنعرف محمدا ρ كما نعرف أبنائنا، وأن معرفتنا بمحمد لأشد»، ولهذا المعنى كثرت أسماء الأسد والموت ويوم القيامة ونحوها.

والاسم عند البصريين مشتق من السمو والارتفاع، وعند الكوفيين من السمة والعلامة، وحقيقة كل كلمة أو ما حوته قوة كلمة دلت على معنى في نفسها، ولا تتعرض ببنيتها للزمان، وعند أهل الجمع والاتحاد[1]:" تفنى الذوات وتضمحل الأسماء والصفات"، قال المترجم عمر بن الفارض:

فلا وصفَ لي والوَصفُ رسمٌ كذاك الا	سم وسمٌ فإن تَكني فَكَنّ أو انْعَـتِ
ومن أنـا إيّــاها لبـاطـــن حكمـــة	وظاهِرِ أحكـــام أقيمَت لدعـوَتـــي

إلى أن قال:

فلا تَدعـــني فيها بنعـت مُقـــــرّبٍ	أراه بِحكـــمِ الجَمــع فَـرق جَـريـرَتـي
فَوَصْلِي قَطعِي واقترَابي تَبَاعُـــــــدي	ووُدّي صَدّي وانتهـائِي (بَدَأتـــــي)
وفيمن بـهَا ورَّيت عَنِّـــــــي ولـم أرد	سواي خَلَعتُ(اسمي ونعتي)وكنيـــتي [2]

قوله : "من تسليط عنه تسليط "، من: موصولة، بمعنى الذي، يقول الذي سلطت عليه تسليطا وأولعت به، كما سلطت السوسة على حبّتها لمِحَبَّتِها إياها، لأنها نشأت وفيها قوتها وحياتها، وكذلك الناظم τ توسل بنسبه وحبه حتى نفذ لسناه لباب لبه.

قوله :" كالسُّوسَة لسناه نفاذ "، السُّوْس: هو الكوز الذي ينشأ في وسط حبة الزرع، والسُّوسْ أيضا الدُّود الذي ينشأ في وسط حبة الزرع، والسُّوس أيضا الدود الذي ينشأ في وسط الخشب، "وحُكمْ الدُّودْ حُكم العُود "[3]، (فعلى كون من جارة يتعلق حذف الكاف لمحذوف، وعلى الأول يتعلق بتسليط)[4].

والسنا بالقصر الضياء والنور، ومعناه بالحبشية الحسن، فمِن الأول قوله تعالى: [يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ [يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ]][النور/43]، ومن الثاني قوله υ في الثوب الذي أعجبه: «سناه سناه»[5]، أي حسن حسن، و(يا) لِمَدٌّ عُلُوّ المنزلة ورفعة المكانة، وأسماء سراج الأشياء تصدق مقالة الأصفياء، لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي جميع الحسن والجمال والكمال، ولم يؤت يوسف إلاّ شطر ذلك، (أوتيت الجمال كله ولم يعط يوسف إلاّ شطره)[6]، وهذا من الناظم رحمه الله تعالى تفنن في العبارات وتصرف في اللغات، لأن الله فهمه ذلك.

[في حيازة الناظم قصب السبق في مدح الرسول ρ:]

ولقد وضع قصيدة عجيبة تكلم فيها بكل لغة غريبة ، ونظير هذا قوله في قصيدة :

---

[1] يقصد بهم أهل التصوف.

[2] الأبيات ساقطة في (ب) و(ج)، وفي ديوان بن الفارض، تأتي الأبيات الثلاثة الأخيرة قبل البيتين الأوّلين، وفيه أيضا:

- بُداءتي (البيت الرابع)
- رسمي وكنيتي (البيت الأخير)، ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان بن الفارض(مصدر سابق)، ص: 55

[3] يتطابق هذا مع المثل الشعبي في العامية الجزائرية" دوده من عوده"

[4] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[5] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1117.

[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

ارجَـع تْكَـر يا مُـــوسَى		للمُصْطفى اتْعِيـد اثْنَـــــــاه
كُنْ فِي ثْنَـاه فَاعْـــوصا		اكْشَـف غْطَاه ومَعْنَـــــــاه
وانْبَش عْلِيه كالسُّـوسَـــا		صفَـــه بْكَلْمتِـــــــين إزاه
ذُوك البْعَـاد للكُفْـــرَان		وهُم يشابهوه(الفقها) خيـلان[1]
وهُم مْـعَ ذَوي الغَيبَـان		(كَمِثل مَا تْغِيب فِي الغَيبَان) [2]
شَغَـف فُـؤَادك حَيْــرَان		بْحُب مُجْتَبَاك مُحمَّد يَا عَـــان

ولقد صدق وبرّ τ، وانظر إلى هذه الاستعارة الحسنة والمثل الموافق في تشبيهه بالسوسة، لأن غالب المداحين وفقهاء المصنفين اشتغلوا بوصف ظاهر جسده الكريم وأعماله وأقواله الطيبة الزكية، ولم يمتد بصرهم لذاته الباطنة النورانية ولم تنفذ بصيرتهم لأحواله المصونة الغيبية، وهو ونظراؤه الأفراد جمعوا بين كمال الظاهر وفضيلة الباطن، كلٌّ وما قسم له، ولعل مراده بالكلمتين هنا قوله فيما يأتي: " عين العلم وغاية القدرة "، وقوله :" ذوك البعاد للكفران " هو عين ما قاله البوصيري في «الكواكب الذرية»[3]، حيث قال:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم		واحْكُم بمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ واحْتَكِمِ

قال بعضهم: لم يمدحه أحد بمثل ما مدحه به البوصيري هنا، لأنه أطلق وعمّم ولم يستثني إلاّ نسبة الألوهية للنبي، قلت: هذا مسلم في زمانه وقد يفتح الله على بعض المتأخرين مثل ما فتحه على بعض المتقدمين، فما ضمّنه البوصيري تحت كلامه فاز به هذا الشيخ بأعلامه، وأين دلالة المطابقة من دلالة النفس والالتزام!؟ وقد أخرج مذهبه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، قال الشيخ سيدي أحمد زروق τ (قاعدة): «إذا حقق أصل العلم وعرفت مواده وجرت فروعه ولاحت أصوله كان الفهم فيه مبذولا بين أهله، فليس المتقدم فيه بأولى من المتأخر، وإن كان له فضيلة السبق فالعلم حاكم ونظر المتأخر أتم لأنه زائد على المتقدم، والفتح من الله مأمول لكل أحد،ولله درّ بن مالك حيث يقول: إذا كانت العلوم منحا إلهية ومواهب اختصاصية فغير مستبعد أن يدّخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين، نعوذ بالله من حسد يسدّ باب الإنصاف، ويصدّ عن جميل الأوصاف» من « قواعده».

وإذا كان الأمر هكذا فيجب علينا حمد الله وشكره على ما أولانا من موالاة هذا الولي[4]، الذي منّ الله علينا بمعرفته وخصّه الله بمديحه ومدائح نبيه، وبذلك فضّله على كثير ممن مدح تفضيلا.

قال في قصيدة له :

الحَمْـدُ للإلَـه عَنِّي يَجِـــــــــب		اللي الْهَمْـنِي لنُورَه رَايـْتْ ضْيَـــاه
بذَهْنِي سَاطَع ولَيْسَ يْغِيـــــــب		نَافِي عَنِّي حْلُوكْ جَهْلِي يَا مَبْهَـــاه

[1] الكلمة ما بين قوسين ساقطة في (ب) و(ج)
[2] الشطر ساقط في (ب) و(ج)
[3] في (ب): .. مما قاله البوصيري في (البردة)
[4] يقصد به شيخه الناظم موسى اللالتي صاحب قصيدة "حزب العارفين" موضوع هذا الكتاب.

مِن شْخَص المُصْطَفَى مُحَمَّد ثَاقَب   جْمَع اعْضَاي وكُل عُضْو ايْرَى مَعْنَاه
حَمْـدًا لا يَنقَطَــــــــع دْوَام   حِسِّي ومَعْنَوِي وسَرِّي واعْــــلاَن
نَخْتَــم بيوَاقِيـــــتْ السَّـــلام   على المَبْعُوث من لُـؤَي وعَـدنَـــان
يا سّيــد سيّـد الأنَـــام مَتَــى   عَيْنِـي اتَــرَاك فِي شُــــوري دَان

قوله :" نكشف عن زخار محيط بالعالم مجموع وافذاذ "، أي نبين ونوضح بحره الزاخر الذي ليس له أول ولا آخر ، المحيط بالعالم وهو كل موجود سوى الله مجموعا وفردا فردا من سائر العالمين، وهذا مفرده أعم من جمعه.

قال في قصيدته النونية:

مِيم الجَمِيـع هُو السَّـاسْ   يا مَن نَشْأه زَاخَـر نُـــوره
مالُـوا اعْقَـابْ مَالُـو رَاس   مالُـوا سْوَاحَـل واقْـعُــــور
ثَمَّ حْيِيت منُّـه انْفَـــاس   في الأزَل عَــمّ ذَا المعمُـــور
عَـمّ جَمِيــع ذا العُمْـــرَان   ذَاك الذي نفست ياه الديان
جَـلَّ ثَنَـاك من رَحْمَـــان   بِكُن وليس كَاف ولا تَنـــوَان

وقوله :" بالعالم إلخ.."، يبينه قوله في القصيدة المحمود فيها:

فَسُبْحَان العَظِيم مِن نُـورَه انْشَـاك   واجْمِيع النُّـور نَـار منَّك يَامُخْتَـــار
واجْمَع فِيك الجَمِيـع حَـتّى كَأنَّـــك   أنتَ الوُجُود والوُجُود بْلاَ حُضَّــــار
إذْ لَوْ حَضرُوا مْعَك بِك ابْدَا مُولاَك   وابْدَاهُم مِن بَدْوَك حَتَّى صَــار وصَار
وصَيْـــرَك مِن نُـورَك العْظَــــــام   عَرشْ وكُرسي ولُوح [واقلم][1]واكْـوَان
وامْلاَيَــكْ شَــاين لا يُـــــرام   سَبْـع اسْمَـوَات ثُـمّ سَبْـع ارْضَـــان

قوله :" من هو كل الكل واعجبي ممّن فيه الخلق محصُورا " ثم زاد في وصف هذا النبي العربي الأمي بأنه كل الكل وانحصر الكل في كله، ولذلك قال: واعجبي فرد من أفراد العالم احتوى على جميع العوالم وانحصرت فيه أفرادها، وهو مع هذا عين رحمة الله التي سبقت غضبه، وعين علوم الله المعينة وإنسان معلومات الله الكثيرة، وهو أيضا غاية قدرة الله المتينة، قال عز من قائل: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ][الأنبياء/107]، وقال تعالى: [أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا] [الرعد/17]، قال بن عباس: «الماء : العلم ،والأودية :القلوب» .

قوله :" وغاية القدرة "، يعني باعتبار الوجود والظهور لا في الإمكان والتقدير، لأن الله على كل ما يشاء قدير، ولكن لما كان تأثير القدرة في الإيجاد موقوفا على سبقية المشيئة بكونه، ومقاما الصفتان متوقفتان على تقدم العلم وتقديره بما علم الله أن يوجده إزاء كونه، وخصصه بما شاء، وما علم أنه لا يوجده لا يشاء كونه ولا تطلبه القدرة بالإيجاد التجيز، وليس من شرط الفعال المراد أن يشاء فقط لأن الفاعل في القدرة الأزلية، ويكون معناه أي غاية ما ظهر بالقدرة في الكون الكلي هوسيدنا ومولانا محمدρ لأنه سبق في علم الله أن لا يوجد له ثان في الحسن والجمال والبهاء والكمال والخلق والرحمة والعلم والحكمة، ولما أن سبق علم الله بذلك، كذلك لم تتعلق إرادة الله ولا

[1] زائد في (ج)، والقصيدة ساقطة في (ب)

قدرته بهذا الثاني المقرر، فبقي في طي العدم ولعمري لو تعلق علم الله المحيط بإيجاده لأوجدته القدرة في الشرع من طرفة العين، بل لو أراد أن يوجد ما هو أعظم وتعلق علمه به لانفعل بقدرة كل ما أراد وبلغ المراد، فالله على كل شيء قدير، ما عدا الواجب والمستحيل في التقدير.

ولما أن بلغ الشيخ وقت إملائه على هذا المحل، قال لي: ناشدتك الله، هل كان أحد من المداحين المدّعين مدح بمثل ما مدحته به ؟ فقلت: الله أعلم، والآن ظهر لي صدق بيان حيازته قصب السبق في مدح من استنارت من نوره الأنوار سيدنا ومولانا محمد المنتخب المختار. وقال في قصيدته الدالية[1] :

نُخْبَة مَا سِوَى الإلَه قَد اجتَبَـاه   رَبِّ وحْبَاه بَارَق لِيـطْ مَـــاذ
اقْتَم العَالَمِين جَاه مَن يُستَجَاه   عَنِّي يا مَبْطَاه يا اخِي فاسْتعَاذ
مِمَّا ذا نَلقَاه مِن عَظِيم هْـــوَاه   نَقْسَم بدِيمَاه مَا لْفَظت بْشَاذ
مَاني صَابَرْش ايَّـام طَـاقـت   مَا نَهْوَى خْلاَفْ حَمْر الخـدودْ
زَجْ[2] الحْوَاجَبْ اقيَـام الاَّحـُور   بَاهِي الُّلون عَنْد صَبْرِي مَـذُود
الْفَـظْ يَا أَخِـي بالسَّـــلاَم   والصّلاَة عْلِيه(هَاشْمِي)[3]الجُـدُود
الاحْوَر قَانِي الانْف سيد النَّـــــاس   وَصْفكُم (لفُؤَادِي بِه شْغَف)[4] تَاج الملاَح
مُول الجيد النيف مُبدِع حَرْف حَرْف   مَضْحَك فَاه ابْيَان وَصَف عَن ثَلْج طَاح
ثَيث عَامَل جُرف بين كْتَف و كْتَف   واللَّحْيَا تْغَطِّي عْلَى صَدْرَه المشَاح
ضَخْم اكْرَادَس رجَام اغلْــــظ   زْنَـاد يَشَبْهُوه بَعْـــض الأُسُود
جُـــوف المَـاحِي ضَــــــام   لاجَسْدَا تَشْبَه لجَسْدتُه فِي الجُسُود
تَع ذَاك الجَسَـــد نعَى يا مَحْـوَاه   من لَوْعَات الحُـبْ والغْرَام الكَزِيـز
حتَى كَانُوا يصَاعَــق فِي حْشَـــاه   مَنْهَا يَقـرَا حجَاه تَسَّمعُولُوا أَزِيز
مِن عْظِيـم اهْوَاه وأْلِيـم بْــــلاَه   لَبْدَا فِي غَيبَاه عَنْد رَبْ مْحيـــز
بَـحْـر اغْـــرَام لَـطَّـــــــام   مَا لُو سَاحَل ابْدَا وَ لَا لُو حْـدُود
لَيْــس ايْخُوضُـوا آدَمِـــــي   وَلاَ فِي الملاَيَك كَافَّـــة مَن يْلُـوذ
مَا فِي الملاَيَـك كَافَّــــة أَجْمَعِين   مَن يْحُوط بِمَا احَـاط بِه الشَّفِيــع
من المعْـرِفَة وخَوفْ جَـدّ الحُسِين   قَدْر اغْرَامُه فِيه خَوْفُه يَا سَمِيـع
مُول الوَجْه اللِّي بْهَى جَمَال يْشِيع   ضَوْ الشَّمْس وضَوْ نِيرَاتْ الجَمِيع
نُورُه البَارَقْ سَام لَيْـــس ايْـرَاه   غَيْـر ذِي بْصِيـــرَه جَلُـــــود

---

[1] نلاحظ أن الناظم اختار الدال رويا لقصيدته، غير أنه أورد بعض الكلمات التي تنتهي بحرف الذال لا بحرف الدال (ماذ، استعاذ، يلوذ...)، ولعل ذلك يرجع إلى نطقه اللهجي المحلي الذي يبدل الدال ذالا، ولا تزال هذا الظاهرة اللهجية سارية إلى يومنا هذا في تلمسان، ومع ذلك كتبت الذال من هذه الكلمات في المخطوط معجمة مراعاة لأصلها الفصيح.

[2] أصلها: أَزَجّ، (كان رسول الله ρ أزَجّ الحواجب)، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى،(ج1) –مصدر سابق- ، ص: 422

[3] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج)، كما أن هذا البيت ذكرته النسختان في آخر القصيدة.

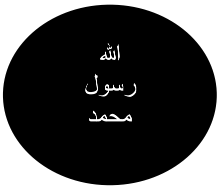
[4] كذا في (ج)، وفي (ب) العبارة بين قوسين ساقطة

فِي الْهَامِ الْهَامِ لَيْسَ ايُـــــــــرى   (فِي الخَلْـق)[1] دُونَه نُـور وقُـــود

[في ذكرصفات النبي ρالخَلقِية:]

فصل في صفة المصطفى الظاهرة كما ذكرها في كتاب «اللُّباب» الترمذي وغيره، وما كانت صفته ρ في منزل رجل أو بين أمتعته أو على عضده، وكان ظاعنا أو قاطنا إلاّ أمن السرق والغرق والحرق والجور ولم يفارق منزله السرور.

كان ρ أزهر اللون، أدعج، أنجل الشكل، أهدب الأشفار، أفلج أزج أقنى أدلج أشنب، عظيم الهامة، معتدل القامة، مدور الوجه، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر، كأن ماء الذهب يجري في صفحة خده، ونور الجلال يطرد في أسرة جبينه، واسع الجبين كث اللحية ممتلأ صدره سهل الخدين ضليع الفم أحسن الناس عنقا كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، نحيل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، طويل الزندين، سائل الأطراف، سبط القصب، أنور المتجرد، في ساقه حموشة، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة، موصول مابين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، ربع القد ليس بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد إلى الطول إلاّ طاله ρ، إذا لقيته ضاحكا أفتر عن مثل سنى البرق [كذا]، الغمام، جل ضحكه التبسم، وربما ضحك حتى بدت نواجده، وإذا تكلم بدا كالنور يخرج من بين ثناياه، جهير الصوت، حسن النغمة، وصوته محلّ كانت قرائته مفصلة حرفا حرفا، وربما رفع فيها، وفي كلامه ترتيل لا فضول فيه ولا تقصير، كان متماسكا ضرب اللحم ليس بمطهم ولا مكلثم، منهوس العقب خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، رجل الشَّعر إن انفرقت عقيصته فرق، وإلاّ فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذ هو وفره، وربما ظفره أربع ظفائر، إذا زال زال تقلعا، ويخطو تكفئا، ويمشي هوينا، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف فنظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره إلى الملاحظة، يسوِّي لأصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام، وخاتم النبوة عند مرفع كتفه اليسرى [كذا] متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، طويل السكوت، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى، إذا فرح عضى طرفه، وإذا غضب أعرض وأشاح، إذا سرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وإذا اهتم أكثر من مس لحيته [مداد] في الأرض بعود أو مخصرة في يده، بين حاجبيه عرق يدره الغضب، وكان يتختم تارة باليمين وتارة بالشمال، خاتمه فضة وفصه منه، ومرة فصه حبشيا كان يجعل فصه مما في كفه، وكان نقش خاتمه: محمد رسول الله، محمد سطر، رسول سطر، الله سطر، هكذا في الأصح:



[1] في (ب) و(ج): الخلود

وقبيعة سيفه من فضة، كان يلبس ما وجد، وكان يصلي في مروط نسائه، وكان يأتزر إلى أنصاف ساقيه، وكان أحب الثياب إليه القميص والحبرة، وكان كمه إلى الرسغ، وكان له ثوب لجمعته خاصة، وإذا اعتم سدلها بين كتفيه، وخطب يوما وعليه عمامة سوداء، وعصب يوما رأسه بخرقة حمراء، ومرة بحاشية، وكان على رأسه في مرضه عصّابه صفراء، وكان يحب التيمّن ما استطاع في كل شأن من شأنه، وكان يجعل يمينه لطعامه وأخذه وعطائه، ويسراه لاستنجائه وما كان من أذى، كان إذا جلس احتبى بيديه واحتبى مرة بشماله، واستلقى في المسجد واضعا إحدى رجليه على الأخرى، وخرج يوما يتوكأ على وسادة على يساره، وكان إذا نزل عليه الوحي صرع فيغلق رأسه، وكان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته، وكان يسرح لحيته كل يوم مرتين، ولا يفارقه المشط ولا المدرى في حضر ولاسفر، وكان يترجل غبا ويكثر[كذا] حتى كان ثوبه ثوب زيات،ولم يكن في رأسه شيب إلاّ شعرات في مفرق رأسه، إذا دهن وأراهن الدهن، وكان شيبه أحمر، و ربما أخذ من طول لحيته وعرضه، وكان يصبغ ثيابه بالصفرة ويكره الخلوف للرجال، ويكره الحمرة من الألوان، وكانت له مكحلة يكتحل منها عند النوم ثلاثا في كل عين.[1]

[في ذكر طعامه ρ ومأكولاته وما كان يعجبه منها:]

وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدُّبَّاء، ومن الشراب الحلو البارد، ومن الأزهار الفاغية، ومن الألوان الخضرة، ومن الصياغ الخل، ومن التمر العجوة، ومن الفاكهة الرطبة البطيخ والقثاء والعنب، وربما أكل العنب حتى يسيل دواله على لحيته كاللؤلؤ، وكان يأخذ عنقود العنب بيده اليسرى ويتناول منه حبه بيده اليمنى، وربما أكله خرطا، وكان يأكل القثاء بالرطب والملح، وأكثر طعامه التمر والماء، وكان يأكل البطيخ بالرطب ويجمع بين الجزر والرطب وينقح له الزبيب أول الليل فيشربه من الغد وبعد الغد إلى مساء الثالثة، ثم يأمر به فيهرق، وأطيب الطعام إليه اللحم، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع، ويعجبه الفال الصالح والكلمة الحسنة، ويعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشديا يا نجيح يا تمام ونحوه.

وكان لا يتطير من شيء الزبر والتمر والتفل، وهو ما بقي من الطعام، والثريد من الخبز ومن اللحم، ويأكل الخبز بالسمن، وأكثر لباسه البياض، ويلبس القلانس تحت العمائم، ويغير عمامته، وربما نزع قلنسوته فجعلها سترة يصلي إليها، وكانت له عنزة يخرج بها يوم العيد، وكان يحب العراجين، وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلي من فضة، ويأكل لحم الدجاج والحبار.

وقال عتبة: « رأيتني وأنا سابع سبعة معه ما لنا طعام إلاّ ورق الشجر»، وقال بن أبي أوفى: «غزونا معه ست غزوات نأكل الجراد ويأكله»، وكان يعقد التسبيح بيمينه، وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط ليتذكر به الشيء، ويشرب الحليب ممزوجا بالماء، ويشرب كل يوم قدح عسل ممزوج بالماء على الريق، ويغتذي بعد ذلك بخبزة الشعير مع الملح ونحوه ، ويحب الطيب ويكره العرق الردي، ويتبع الطيب في رباع النساء، كثير العرق، وعرقه أطيب الطيب، ورائحته أطيب من المسك وإن لم يمسه، ولا يرد طيب، وله سكة يتطيب منها، ويقبّل عائشة وهو صائم، وأحب إليه النساء ثم الخيل، ويحتجم على هامته، وبين كتفيه، ووركه، وظهر قدمه، وكاهله، والأخدعين.

---

[1] جل ما نقله المؤلف في هذا الفصل ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى»، ج1 –مصدر سابق- ص:410 – 424

قال أبو عيسى محمد بن عيسى بن سودة الترمذي، سمعت أبا جعفر محمد بن الحسين، قال سمعت الأصمعي يقول في تفسير صفة رسول الله ρ: الممغط، الذاهب طولا، والمتردد: الداخل بعضه في بعض قصرا، والغطط: شديد الجعودة، والرجل الذي في شعره حجونة، والمطعم: البارد الكثير اللحم، والمكلثم: المدور الوجه، والمشرب: الذي في بياضه حمرة، والأدعج: الشديد سواد العين، والأهدب الطويل الأشفار، وجليل الكتف، هو مجتمع الكتفين، وهو الكاهل، والأجرد ذو المسربة هي الشعر الرقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، والشن الغليظ الأصابع من الكتفين والقدمين، وإذا مشى كأنما ينحط من صبب، التقلع أن يمشي بقوة، والصبب الحدود، وجليل المشاش رؤوس المناكب، وقال سبك بن حرب: ضليع الفم: عظيم الفم، وأشكل العين: طويل شق العين، ومنهوس العقب: قليل لحم العقب، وذَكَرَ بَقِيتَهُ، فاطلبه تجده.

[في ذكر الحقيقة المحمدية:][1]

قوله : " نكشف عن زخار محيط "،(البيتين)، وبيان كشفه لإحاطته في قول سيدي عبد الجليل بن موسى τ: إذ هو الأول في الخلق كالبذرة ، فعنه نشأت شجرة العالم بما فيه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ][الزخرف/81]، أي لم يسبق أحد في الوجود، فلو كان لخالقي ولد كما تزعمون لظهر لي من قبلكم حين كنت أول عابد له، لكنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، ولو كان ما تزعمون لكنت أنا المستحق لذلك دون غيره، لأني أول مخلوق، ولست أزعم أني ولده، بل أنا عبده، فكيف تنسبون إلى غيري النبوة وهو لم يشهد من القرب منزلتي، ولا من المكانة مكاني، ومن الأولية أوليتي، وهو أيضا الآخر في البعث كالثمرة تظهر بعد كمال الشجرة، وهو الظاهر في المنزلة والدين، والباطن في الوسيلة في غيب الغيب، وأيضا فالرسالة انفصلت عنه، وانفصلت النبوة على الرسالة، والولاية انفصلت عن النبوة، والولاية صغرى وكبرى: [اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا] [البقرة/257]، فهو يعسوب الكل وإمامهم، وعليه يجتمعون كاجتماع النحل على يعسوبها. من « الشِّعَب»

وقد أشار الناظم إلى أوليته بقوله فيما يأتي: " واجعل روحي روح للحياة "، وإذا جمعت ما في قصائده، وتأملت ما في فوائده، انكشف لك حقيقة كشفه، واتضح لك سياسة سوسة لطفه، ولا شك أن هذا البحر الزاخر غرقت فيه الأوائل والأواخر وتلاشت فيه واضمحلت وصغرت في جنبه ولو جلَّت، لأن كل الأرواح من روحه الكريم تَرَوحَنت، (وكل الأجساد من طينة جسده تكونت)[2]، وكل العلوم من كتب (قلمه النفساني النفيس)[3]ارتسمت وتبينت، وكل الأنوار من (نوره [الأوّل][4] المودع في صورته الذرية فاضت وتنورت، ثم جل بنور(قلبك)[5] واستمد العون من ربك في جميع ما في الكون من (محدوس ومدسوس)[6]، وبهاء وجمال وحسن وكمال، فإليه يستند ومنه يستمد، فما

[1] تقوم نظرية الحقيقة المحمدية أو "النور المحمدي" على الاعتقاد بأن النبي محمدا هو في حقيقته ليس بشرا، وإنما هو نور أزلي أبدي، ظهر في آدم، وصار ينتقل في الأنبياء من بعده، حتى ظهر بصورة النبي محمد.. فالحقيقة المحمدية هي التي أمر الملائكة أن يسجدوا لها، وعليه فإن جوهر محمد كان قبل آدم مع كونه لاحقا عليه في الظهور. ينظر: وفيق سليطين، الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحّد، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1995, ص: 11

[2] في (ج): وكل الذوات فمن طينة ذاته المباركة فاضت ونمت.

[3] في (ب) و(ج): من قلمه الخفي

[4] إضافة في (ب) و(ج)

[5] في (ب) و(ج): بصيرتك

[6] العبارة ساقطة في (ب) و(ج)

نسبة الفروع من أصلها إلاّ كنسبة السخلان مع عجلها، فيحق على السروري أن يتدرب، ويحق للمتدرب أن يتعجب، وسيظهر لك إن شاء الله من عجائب ما تضمنته هذه القصيدة في أثناء مطالعتك لهذا الشرح الغريب ما تكثر فيه العبر وتقضى منه الوطر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، نسأله سبحانه أن ينفعنا وإيّاكم بالعلم النافع، وسيفصل الناظم ما أجمله هنا في قوله فيما يأتي : "تحي الموجودات في دنياه إلخ ".

قوله : " من هو كل الكل " ،(البيت) ، قال الفقيه العالم جبر بن محمد القرطبي، روى بن عباس عن النبي ρ أنه قال: «نزل عليَّ جبريل υ، فسلم وقال في سلامه: السلام عليك يا أوّل ، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا ظاهر، السلام عليك يا باطن، قال: فأنكرت ذلك عليه، وقلت: يا جبريل كيف تكون هذه الصفة لمخلوق مثلي، وهذه صفة الخالق، ولا تكون إلاّ له عز وجل، قال: يا محمد، اعلم بأن الله تعالى أمرني أن أسلم عليك بهذا السلام لأنّه اختصّك به دون جميع الخلق»، ثم فسّره له بنحو ما تقدم في كلام صاحب «الشعب» حتى قال في آخره: فاشتق لك اسما من اسمه وصفة من صفاته، فربك محمود وأنت محمد، فالله تعالى محمود عند أهل السموات و الأرض، وأنت محمود عندهم، فقال النبيρ: «الحمد لله الذي فضلني على جميع خلقه حتى في اسمي وصفتي» ، من « الملاذ والاعتصام في فضل الصلاة على النبي υ ».

[في ذكر اقتران اسمه ρ باسم الخالق عز وجل:]

قال عبد الله بن عباد ومجاهد: إنما حمله حمده الله على تبليغه الرسالة وأداء الأمان، وقال بعض العلماء في قوله تعالى: [وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ][الشرح/4]، قال: ستذكر حيث أُذكر، فظهر اسمه عند ملائكة السموات والأرض، وفي البحار والأودية، وقد مدحه حسان بن ثابت في قوله :

أَلَم ترَ أَنَّ اللهَ أَرْسَـل عَبَـدَهُ — بِمِلَّتِـــهِ واللهُ أَعْـلَى وَأَمْـجَــدُ
عَزِيزٌ عَلَيْـهِ لِلنُّبُـوَّةِ خَاتَــــمُ — شَهِيدُ السَّنَـا أَنْـوَارُهُ تَتَوَقَّــدُ
وضَمَّ الإلهُ اسمَ النَّبِيّ إلى اسمِهِ — إذا قَالَ في الخَمْسِ المؤَذِّنُ أَشْهَدُ
فَشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ لِيُجِلَّـــهُ — فَذُو العَرْشِ محُمُودٌ وَهَذَا محمَّـدُ[1]

(فمن فوائدها المفيدة ببركة اسمه المبارك أنها تكتب للبركة كما هي مكتوبة، وتُدَوّر بها اسمه تعالى الكافي الغني الفتاح الرزاق، [إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ][ص/54]، تكتب الأسماء الأربعة والآية على كل جهة من جهات الخاتم الأربع، وتكون الكتابة في قُرصة[2] من خمير القمح، وتجعلها في الزرع وغيره، والطهارة شرط، وإن كان في بيت مظلم لا يدخله غيرك فهو أتم وأكمل، والله الموفق)[3] .

ومن خصائص هذا البيت الأخير، أنها تكتب مربعا لفوائد مذكورة في محالها، هكذا فاطلبها.

---

[1] الأبيات الثلاثة الأولى ساقطة في (ب) و(ج)

[2] بمعنى: ما يشبه خبزة تقليدية (دائرية الشكل)

[3] في (ب) و(ج) إشارة إلى هذه الفوائد دون تفصيل

رقيقة: قال إمام العاشقين وكاشف رتبة اليقين عمر بن الفارض :

ومَن أَنَا إِيَّايَ لباطِنِ حِكْمَةِ وظَاهِرُ أَحْكَامٍ أَقَمتُ لِدَعْوَتِي

قال الشارح، يقول: ومن مقامي رتبة أنا فيها ولا غير بموجب، كان الله ولم يكن معه شيء، يعني من حضرة أحدية الجمع المذكور لأجل بيان الحكمة والسر المقصود من اظهار كل شيء وايجاده، ولأجل تقرير الأحكام الشرعية ووضع الشرائع أقمت لدعوتي،يعني لدعوة ذاتي من حيث أنها كل وأصل، وأكمل ذاتي أيضا من حيث أجزاؤها وفروعها وتفصيلها من كل نوع بما يليق به، يعني لما كان حقائق العالم أعلاه وأسفله تفصيل حقيقي التي هو عين حقيقة الحقائق، وكانت نسبة بعض صور هذا التفصيل إلى الباطن، والمعنى أقوى بتقرير باطن الحكم وهو أخص العلوم الحقيقية، والأسرار الحقية على طريق جوامع الكلم، وأكمل أيضا من أجزاء تفصيلي ما كانت نسبته إلى الظاهر والصورة أشد بموضع الأحكام الشرعية والعبادات البدنية والآثار السياسية والخلقية، فأكمل ثانيا من حيث تفصيلي لما كملت أولا من حيث كلي وإجمالي.

فتأمل هذا الكلام فإنه أجمع لكل الكل من الكل، ولكنه دقيق.

[النبيρرحمة للعالمين:][1]

قوله: " عين الرحمة "، لقوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ][الأنبياء/107]، وقال تعالى: [بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ][التوبة/128]، أما رحمته العامة فلأن القحط والجذب لا يبقى على هذه الأمة وحيوانها أكثر من ثلاث سنين بسبب بعثته فيهم، وأما الكفار به فلأن الله رفع عنهم المسخ والخسف ومعاجلة العذاب في هذه الدّار بسبب ظهوره، وأما المؤمنون فرحمته بهم ظاهرة لا تخفى حتى قال أبو الحسن الشاذلي: [كذا] متى أكون عبدا شكورا، فقيل له إذا لم تر في الوجود منعما عليه غيرك، فقال: يا رب الملائكة والأنبياء والعلماء أعظم منّي نعمة، فقال: هم من نعمتي عليك فافهم مراد الله فيهم، فإذا كان هذا في سائر الأصفياء فكيف لنبي الأنبياء وإمام الأتقياء، فهو رحمة الرحمة وعصمة العصمة.

[1] معظم ما كتب في هذا الفصل ساقط في (ب) و(ج)، النسختان الأخيرتان قدّمتا ملخصا مختصرا فقط، لا يتعدّى خمسة أسطر.

قال ρ: «ما من نبي دفن إلاّ رفع بعد ثلاث إلاّ أنا فإني سألت الله عز وجل أن أكون بينكم إلى يوم القيامة»[1]، قال الشطيبي: فلذلك رفع الله عن هذه الأمة عظيم البلاء وجلّ عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت على من قبلهم من الأمم لقوله تعالى: [وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ][الأنفال/33].

وقال أهل العلم في قوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ][الأنبياء/107]، علم الله عجز خلقه عن معرفته فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم في الصورة وألبسه من نعمته الرأفة والرحمة وجعل شمائله وصفاته وحياته ومماته كلها رحمة، ثم جعل طاعته في طاعته ،وقال: [مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ][النساء/80]، وقالρ: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم، وإذا أراد الله بقوم خيرا قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا وذخرا »[2].

ويدخل في العالمين المؤمن والفاجر، فرحمة الطائع بالاستقامة والإنابة ورحمة الفاجر بتأخير العقوبة وإسبال الستر، قد كانت الأمم خطاياهم مكتوبة على أبوابهم فيفتضحوا، وإذا أصاب الثوب نجس قطع، وإذا أذنب العضو قطع، قال υ: «جعلت أمتي خير أمة أخرجت للناس، وأوتيت الشفاعة العظمى، وأحلّت لي الغنائم ولأمتي الصدقات، كانت الأنبياء يعزلون الغنائم والصدقات، فتنزل نار من السماء فتحرقها، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، ولم تكن صلاة إلاّ في المساجد المتخذة للصلاة،وأعطيت الوسيلة والمقام المحمود، وهي أعلى درجة في الجنة»[3]، الحديث ذكره في[كذا].

وقال سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله: الأنبياء عليهم السلام خلقوا من عين الرحمة، ونبينا عليه الصلاة والسلام هو عين الرحمة، وقد قال ρ:« إنما أنا رحمة مهداة »[4]، حكى أبو عبد الله القرطبي: أن امرأة جاءت إلى الحسن البصري، فقالت: إن ابنتي ماتت، وقد أحببت أن أراها في المنام، فعلمني صلاة أصليها، لعلي أراها، فعلمها صلاة، فرأت ابنتها وعليها لباس القطران والغل في عنقها والقيد في رجليها، فارتاعت لذلك وأخبرت الحسن فاغتم عليها، فلم تمض مدة حتى رآها الحسن في المنام وهي في الجنة على سرير وعلى رأسها تاج، فقالت له: يا شيخ، أما تعرفني ؟ قال: لا، قالت له: أنا تلك المرأة التي علّمتَ أمي الصلاة، فرأتني، قال: فما سبب أمرك، قالت: مرَّ بمقبرتنا رجل فصلى على النبي ρ، وكان في المقبرة خمسمائة وستون إنسانا في العذاب، فنودي: ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل على النبي ρ. من « التذكرة»

وكذا قراءة الحي وصدقته على الميت تصله، قال ρ: «ما الميت في قبره إلاّ كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء

---

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[2] الحديث روي بصيغ مختلفة. ينظر: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، (م سابق) ص: 1791./ – محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، (م سابق) ص: 22. / – اسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء، ج1، (م سابق) ص: 442.

[3] الحديث أورده: – البخاري، صحيح البخاري، ج1، (م سابق) ص: 168. / – أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن اسحاق الأصبهاني، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، ج2، (م سابق) ص: 125.

[4] الحديث أخرجه: – محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج1، (م سابق) ص: 91. / – محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ج2، (م سابق) ص: 189.

والاستغفار»[1]، بالله عليك فمن بلغ لنا هذه الأخبار التي تنقذنا من النار وتحلنا دار القرار، أليس هو عين الرحمة الرحيم الغفار.

قال في«الشعب»: فإذا فهمت وصفه الكريم، علمت أن كل حسن في الوجود وكل جمال فمن نوره يستمد، وليست تظهر منزلته عليه التي ظهرت لأهل العلم إلاّ في الآخرة لعموم الخلق وعموم العلماء، فهو أفضل الخليقة وهو رحمة للعالمين، وما زال ρ يتقلب في أطوار الرحمة ويرحم الله به الخلائق أولا وآخرا باطنا وظاهرا، حتى صارت الرحمة الأزلية لا تؤتى إلاّ من بابه ولا تنال إلاّ من كريم جنابه، فأول ما ظهر نبي الرحمة (ودعى سائر العالمين إلى سعة رحمة الله)[2] وبيّن لهم الصراط المستقيم، وأن الله أخذ عليهم الميثاق أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ويؤمنوا برسوله ويتبعوا دينه، فمن وفى بعهده واتبع ما أمر به، فقد سبقت له من ربه السعادة فيقبلها، ومن أعرض وتولى وكفر، ولم تبلغ الرحمة المهداة إليه فقد استحق أن يحلَّ عليه بدلها الغضب، ويجاز النكال والعطب لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وتغيرهم سبق في أزله وعلمه، وأراد وقوعه فيما لا يزال، فدفع كما أراد: [وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ][الرعد/11]، وإن قال قائل: ما حكمة هذا القدْر؟ وما السرّ في اختصاص قوم بالقرب والإكرام، وآخرين بالطرد والهون؟ فيقال له: امسك لسانك ولجّم عِنانك عمّا لا تطيق فَهمهُ[3] من السرّ المصون والعلم المكنون، وقل: [لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ] [الأنبياء/23].

قال بن أبي جمرة في حديث: لما قضى الله الخلق كتب.. الخ، فيؤخذ من أوّله أن الكتاب الذي كتب فيه هو فوق العرش، إنّ حكمته جل جلاله اقتضت أن يكون العرش حاملا أو مستودعا لما شاء من آثار حكمته وقدرته وغامض غيبه ليستأثر هو جلّ جلاله بذلك من طريق العلم والإحاطة على جميع العالم كله، فيكون ذلك من أكبر الأدلّة على انفراده بعلم الغيوب التي لا يعلم مفاتحها إلاّ هو، وقد يكوم هذا الحديث تفسيرا لقوله عز وجل: [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى][طه/5]، أي أن ما شاء من أثر قدرته وكتابه هو الذي استقرّ على العرش لا ذاته الجلية، ولو أراد ذلك لنعته بالمصدر كما فعل في كلامه جلّ وتعالى، حيث قال: [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا] [النساء/164]، لأن العرب تقول: جاء زيد، يعنون خبره أو كتابه، فإذا أرادوه بذاته، قالوا: جاء زيد بنفسه، فأثبتوا بذلك الحقيقة حقا، والحكمة التي أشار إليها في سرّ معنى غلبة الرحمة الغضب أومأ إليها قطب العلماء الغزالي τ في معنى قوله تعالى: [أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ]، وذكرنا كلامه عند قول الناظم : "سابق الغضب"، اعلم ألهمنا الله وإياك لما فيه الرشاد أن صفات المولى قديمة يستحيل غلبة أو سبقية بعضها على بعض، ولكن تظهر الفائدة في الأثر الذي هو المرحوم أو المغضوب عليه، لأنه محل لتصريف الأقدار، إذ هو من الممكنات الجائزات التي يصح فيها الشيء أو ضدّه، ولا يجتمعا نفي شيء واحد لاستحالة اجتماع الضدّين، فوجود العالم قبل وجوده مساو لعدمه وصفات مولانا القديمة بالنسبة لاتصافه بها سواء، فالوجود من (أثر)[4] القدرة رحمة ونعمة والعدم أيضا من أثرها نعمة ورحمة، ففاض بحر الرحمة والنعمة بوجود محمدρ قبل ايجاد كل موجود جعله سببا وأصلا لكل موجود وتخلّف العدم السابق بسبقية الوجود اللاّحق، فصار المسبوق

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.
[2] في (ب) و(ج): ثم دعى إلى الله جميع العالمين
[3] في (ب): خوضه
[4] في (ب): من آثار

سابقا والمقلوب المرجوح راجحا (غالبا)[1] وموافقا، ثم بعد أن ألهم المولى القدير لهذا التقرير الذي قلناه في الرحمة والسبقية، أطلعت على القول بأن العدم أرجح من الموجود لإحالته في كل حادث، نقله الشيخ السنوسي.

ووقعت أيضا على كلام الشيخ العارف بالله سيدي عبد الله بن أبي حمزة في الحديث: لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، وهو عنده فوق العرش: "إنّ رحمتي غلبت غضبي" وسبق ذكره، ثم طالعت حتى اطّلعتُ على قول الإمام زروق، وفي الصحيح، يقول الله تعالى: " رحمتي سبقت غضبي"، بيانه: أن ايجاد الخلق من عين الرحمة توجد ومخاطبتهم بعد ايجادهم، والغضب انما يتوجه على الخطاب ولا تفاوت في الصفات، فتدبّر العبارة وافهم الاشارة. من شرحه على «الحكم».

فحمدت الله على فهم ما أشار إليه قبل رؤيته، وكذلك اطّلعت بعد تقريري لهذا المحل على كلام سيدي محمد بن سيدي يوسف السنوسي الحسني على هذا الحديث الذي أومأ إليه الناظم، وهو قوله ρ: «إن الله كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق، أن رحمتي سبقت غضبي» وتكلم على جملة من الأحاديث المتشابهة، وأولها على ما ينبغي، حتى قال: ووجه المناسبة في ترتيب الكتب بسبق الرحمة الغضب على خلق العوالم أنه جعل على سبيل الاستعارة بالكناية الرحمة والغضب سابقا عند خلق العوالم كفرسي رهان إلى العوالم ليظفر من سبق منهما بالحظ الأوفر من العوالم، ولا يكون المسبوق منهما إلاّ القليل الذي فضل عن السابق، فسبقت الرحمة الغضب فحازت من العوالم أكثرها، وهو أهل السماوات كلها مع كثرتهم وكثير من غيرهم، فلم يبق للغضب المسبوق إلاّ القليل ممن ينفّذ فيه الوعيد والخلود من كفرة الجن والإنس، وكتب رسم هذه السببية حتى لا يطمع الغضب أن يزيد شيئا على ذلك القليل الذي جاء في نصيبه، فانظر هذه الاستعارة [ما ألطفها][2] وأدلّها على عظيم فضل الله تعالى وسعة كرمه وإحسانه، حيث جعل الرحمة سابقة للغضب، ولو شاء لعكس، إذ له أن يفعل ما يشاء ولا حِجر عليه، ولا حق لمخلوق عليه، فتبارك الله رب العالمين.

وقال الشيخ[الكامل][3] أبو القاسم سيدي عبد الرحمن بن يوسف اللجائي في معنى هذا الحديث : الرحمة والغضب صفتان من صفات أحكام الله، اتّصف الجبار بهما جل جلاله، فالرحمة فضل من الله على من أطاعه من أهل العناية والموافقات، والغضب عدل منه على من عصاه من أهل الخذلان والمخالفات، وأمر الرحمة والغضب مستتر تحت قناع المشيئة لقوله تعالى: [يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ [وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ]] [العنكبوت/21]، وإنما علقهما بالمشيئة لئلاّ يقنط (عاص)[4] ولا يأمن مطيع، ومشيئته الخفية وتقديره المبرم لا يفسخ شيء منهما، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: [مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ [وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ]][ق/29]، بعد قوله: [[قَالَ] لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ [وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ]] [ق/28]، وقد قدّمت لكم بالوجيز ». من كتاب «قطب العارفين»[5]

---

[1] ساقط في (ب) و(ج)

[2] زائدة في (ب) و (ج)

[3] زيادة في (ب)

[4] في المصدر: (مذنب) ينظر: أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي، قطب العارفين في العقائد والتصوف، تحقيق: محمد الديباجي، دارصادر، بيروت، ط1، 2001، ص: 54.

[5] المؤلف نقل النص من المصدر بتصرف طفيف، ينظر المصدر نفسه.

قال أبو عطاء الله في «الحكم»: «عَلِم أن العباد يتشوّقون إلى ظهور سرّ العناية، فقال: يختصّ برحمته من يشاء، وعلم أن لو خلاّهم وذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأزل، فقال: [إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ] [الأعراف/56]، إلى المشيئة يستند كل شيء، وليست هي تستند إلى شيء».

وأقرب التفسيرين لكلام الناظم قول صاحب «الشعب» بعد حكايته لقول الإمام علي كرم الله وجهه: إن الله حين شاء تقدير الخليقة، نصب الخلق في صور كالهباء، وهو في انفراد ملكه، فأشاع نورا من نوره، فاجتمع في وسط تلك الصورة الخفية، فوافق صورة محمدρ، فقال: أنت المنتخب، وعندك مستودع نوري، وذكر كلاما طويلا، ثم قال- بعد ذلك كله-: فدعى الناس ρ ظاهرا وباطنا وندبهم سرّا وإعلانا، واستدعىυ التشبّث على العهد الذي قدّمه إلى الذّر[1] قبل النسل، فمن وافقه قبس من منهاج ذلك النور اهتدى إلى سرّه واستبان واتضح أمره، ومن ألبسته الغفلة استحقّه السخط، فقد علّمك τ أنّ النبي ρ عُقدت له النبوءة قبل كل شيء، واستدعى الخليقة عند خلق الأرواح وبدء الأنوار إلى الله كما دعاهم آخرا في خلقه جسده آخر الزمان، ولذا قال: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»[2]، ومن هذا المعنى قوله تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ] [آل عمران/81]، فقد آمن الكلّ به قبل خلق الأجساد، وقد قال فيه: [تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا][الفرقان/1]، والعالمون هم جميع الخليقة، فقد أنذر الخليقة أجمع والنذير يتقدّم المنذر فآمن الكل به في الأوليّة والأخروية، وانتقال النور في جميع العالم ومن صلب إلى صلب، فافهم.

وانظر قوله تعالى: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً][الفرقان/32]، ومع قوله تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ] [القدر/1]، أي جملة واحدة، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة»[3]، فقد أنزل عليه أيضا في ليلة القدر حين قدّرت المقادير والخلق في ظلمة ليلة العدم، ففي تلك الليلة أنزل عليه (القرآن)[4] حين انفصالها بظهور فجر يوم الإيجاد والإنشاء، حين بدا نوره قبل الأشياء، فأفاضت الأضواء بانفجار أنواره υ المقتبسة من نور القرآن، وانظر أحاديث الإسراء والآيات الواردة فيه، فقد ركب البراق، ورقا المعراج، وركب الرفرف، وجاوز مقامات الأملاك والأنبياء إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى، فإنما صعد عليه السلام إلى مقامها الأول الذي هو بدء النور الذي خلق منه (الخلق)[5] من نوره الأوّل الذي ليس بينه وبين الله واسطة، بل هو الواسطة للوجود كلّه، وقد قال تعالى فيه: [[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا [وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ] وَسِرَاجًا مُنِيرًا] [الأحزاب45،46]، فذاته شمس الوجود ومنها يستمدّ جماله ونوره وحُسنه كل موجود،

---

[1] يسمّى عالم الذر أو العهد الأوّل أو النداء الأوّل أو الميثاق، يعني عند الصوفية عالم اللاّهوت، وهو وطن الأرواح الأوّل الذي خلقت منه، يوم ناداهم الله معلنا ألوهيته بقوله تعالى:[ألستُ بربكم] [29/الأعراف]، فهذا النداء الإلهي في الذي سمعته الأرواح من بارئها في عالم اللاّهوت، هو الذي يرمز له الصوفية بعالم الذر. ينظر:عبد القادر الجيلاني، سرّ الأسرار، ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تحقيق: خالد محمد عدنان الزرعي، محمد غسان نصوح عزقول، دار السنابل للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط3، 1994، ص: 44، 45، 46.

[2] الحديث أورده اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، (م سابق) ص: 173. وأورده بصيغة: "كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد" : محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 665.

[3] الحديث أورده: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2044./ – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج2 (م سابق) ص: 438./ – محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج1 (م سابق) ص: 45.

[4] ساقط في (ب) و(ج)

[5] في (ب): العرش

فكما أنّ الأبصار تستمدّ من أشعة الشمس المنبعثة من القدم إلى أقطار العالم فيرُى بنورها ويظهر ويتبيّن كل شيء، فكذلك تستمدّ العقول والبصائر والذّوات من ذات المصطفى النورانية التي هي شمس الوجود وسراجه، فافهم، وقد رحم الله الكلّ به صلوات الله وسلامه عليه، إلاّ من شذّ وأبى أن يقبل الرحمة، وهم الكفّار به، وهم أقل في العالمين من الذرّة في الوجود كله. من«شعب الإيمان» له، فقد بان لك من كلام الراسخين معنى قول الناظم: "عين الرحمة سابق الغضب".

زيادة بيان[1]: ورد عليّ أخي[كذا] سيدي محمد المدعو القاضي، وألقى ما ألقى الله له في سرّه من علوم التوحيد الخالص الخاص بالخواص، فشكرت الله له، ثم قلت له: يا أخي، لا تنسى الدليل واتبع سننه في كل سبيل، فهو إمام الأئمة ورسول الرحمة، فغاب عنّي يوما، ثم قال لي: تأمّلت في كلامك البارحة فوجدته عين الحق، ثمّ أتاني الحبيب محمد ρ ، وقال لي في سرّي يقضة بعناية الحق المبين: ألا أنا عينُ رحمة نزلت بالمسلمين ولا فخر، وأنا راحة الخائفين وماحي أوزار المذنبين ولا فخر، وأنا مصباح الدّارين وقائد الغر المحجّلين ولا فخر، وأنا عروس خير أهل اليقين النبيين والصالحين ولا فخر، أنا الجمع للسابقين واللاّحقين، والباقيين والفانيين كلهم من نوره، وأنا من نور رب العالمين ولا فخر.

وقد حضرت[2] ذات يوم مع ولد عمّنا عبد المؤمن بن بلعيد، فقال لبعض المريدين: هذا سوى النبي ρ عندنا وذاك سوى سيدي عبد القادر الجيلاني عند أخينا، قال: فاستثقلت كلامه فحضر النبي ρ، وقال لي: أتركه على حاله فإن الله يعطي لعباده في طباعهم وأخلاقهم على قدر عقولهم، ثم قال عليه الصلاة والسلام: فأنا الحبيب وأنا الرسول وأنا الشفيع لكل مذلول، وأنا الشفاء لكل معلول، وأنا الشفيق إمام العدول، وأنا السبب لكل مقبول، وأنا الدليل لطريق الوصول.

قوله: "عين العلم وغاية القدرا" هاتين الصفتين التي عناهما بقوله في قصيدته (النونية)[3] صفه بكلمتين ازاه والله أعلم بمراده، حين جرد من نفسه شخصا يخاطبه، وقوله فيها: " ذوك البُعَاد للكُفران" لأن النصارى أضلّهم الله عن الطريق فهلكوا في طلب الحق وغلطوا فيه حتى قالوا: "اتّحد اللاهوت بالناسوت: فعابهم الله في ذلك وقال: [لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍلَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ[وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وما من إله إلاّ إله واحد وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم]] [المائدة/73،72] فاعتقدوا أن الله مركب من أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم، وسبب غلطهم أن عيسىυ لما تجلّى له الحق بكامل أوصافه وخَفِي ألطافة، حتى صار يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، ولصفاء مرآة قلبه وقبلوها[4] لما تجلّى لها رأوا ذلك فظنوا أنه هو وليس هو

---

[1] الكلام ساقط في (ب) و(ج)

[2] ربما يعني المؤلف بـ حضرت، أي كنت حاضرا في إحدى حلقات الحضرة(الذكر والإنشاد)، التي كانت منتشرة في ذلك الوقت كإحدى الطقوس الأكثر ممارسة عند أهل التصوف، خاصة أنه ذكر في عديد المرات أن ابن عمه المذكور كان ممن يمارسها في خيمته بالبادية.

[3] في (ب) و(ج): الأخرى.

[4] في (ب) و(ج): قبوله

وهيهات، فنسبوا إليه ما ليس بحق، فزلّوا وضلّوا وقالوا بالاتحاد والحلول، وكل ذلك غير معقول، قال تعالى: [وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ[اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ]] [المائدة/116]، قال الإمام أبو حامد في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: "مثل هؤلاء النصارى كالصبي إذا رأى صورة شخص منطبعة في مرآة ظنّ أن ذلك الشخص في المرآة، وهيهات بل المرآة شيء لا لون لها ولا صورة، وشأنها قبل صورة الألوان علوجه يخيّل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أنّ ذلك هو صورة المرآة حقا وليس ذلك كذلك".

واعلم أنه من المحال أن يتصف العبد ببعض أوصاف معبوده على وجه الانتقال، أو تكون له أوصاف تماثل أوصاف ذي الجلال والجمال والكمال، حاشا وكلا، هذا لا يقال ولا يخطر ببال بل اللبن الخالص والماء [العذب][1]الزلال أن يتخلق العبد بأمور تناسب في الجملة (والتسمية)[2] أوصاف (الكبير المتعال)[3] لا إنها هي ولا إنها مثلها حقيقة؛ بل هي تؤذن بالتعلق والتخلق لطلب القرب في الوصال، قال ρ: «إن لله ثلاثمائة خُلُق من لقيه بخُلُق منها دخل الجنة، وأحبها إليه السخاء»[4]، ثم قال الإمام[5]: "وعلى هذا يُحمَل جميع ما ورد من ألفاظ الصوفية الموهمة نقصا"[6]، كقول الكركاني: "إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل"، وكقول أبي يزيد[7]: «انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحيّة من جلدها، فنظرت فإذا أنا هو»[8]، معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمّها، فلا يبقى فيه متّسع لغير الله، ولا يكون له همٌّ سوى الله وإذا لم يَحُل في القلب إلا جلال الله وعظمته وجماله حتى صار مستغرقا به، يصير كأنه هو لا هو تحقيقا، وفرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو. قلت: ومن هذا قول الناظم رحمه الله في قصيدته التائية:

انتَ بْـلاَ اسَامِــــــي	أسماؤك الحُسْــــــنى
في كُلْ اسْـم دَمِّــــــي	جَلّ أن تَرَى لُو مَعْنَى
او نْذَكـرَكْ بْفُمِّــــــي	يَخْرَصْ يْصَم لَسْنَـــا
او في الفُـؤَاد ذَكْـرَكْ	كَذَا العْظَامْ سَكْنَـــا
السَّرْ سَرْ سَــــــرِّي	كَدْتْ ان نْكون انْــتَ
قَدْ غِبتْ في حْبِيــبِي	حَتَّى اضْمَحَل رَسْمِــي
وابْطِيتْ في مْغِيـــبِي	أَنْ صِرتْ ذَاتًا بِاسْمِي

---

[1] زائدة في (ب) و(ج)

[2] ساقط في (ج)

[3] في (ج): ذي الجلال والكمال.

[4] في (ج): "إنّ لله تعالى أخلاقا من تخلّق بواحد منها دخل الجنة" . لم نعثر على الحديث في كتب الصحاح وكتب السنن.

[5] يقصد الإمام أبو حامد الغزالي .

[6] اشتهر الصوفية منذ القدم بكلماتهم التي قد تبدو في ظاهرها مخالفة للشرع وهي عندهم أصل الشرع وجوهره، وتعرف أحيانا بـ شطحات الصوفية.

[7] هو أبو يزيد البسطامي من أهل بسطام بنيسبور، توفي سنة 201هـ، وقيل سنة234هـ، أثر عنه كثير من الشطحات، فسّر الجنيد قليلا منها. ينظر: عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، مطبعة كتاب الشعب، القاهرة، ط2، 1998، ص:25.

[8] وجدناها في المصدر بالصيغة التالية: "خرجتُ من بَايَزِيديتي كما تخرج الحيّة من جلدها، ونظرتُ فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد، لأن الكلّ واحد في عالم التوحيد"، ينظر: ،أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق و تقديم: قاسم محمد عباس، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 2004، ص: 83.

لَكَ[1] فِيــهْ عُمْـــــرِي   يَـسْلَك مَعَـه فَـلْتَـا

ثم قال الغزالي أيضا: وقول أبي يزيد إن صح عنه: "سبحاني ما أعظم شأني"[2]، أما أن يكون على الحكاية عن ربه، وإما الموهومات والمحسوسات، وتألّه عن حظه في صفة التقدس في الترقي بالمعرفة، وتأله عن الحظوظ والشهوات، فأخبر من قدس نفسه وقال: "سبحاني" ورأى عظم شأنه بالإضافة إلى عموم الخلق، فقال: "ما أعظم شأني" وهو مع ذلك يعلم أنّ قُدسه وعِظم شأنه بالإضافة إلى الخلق لا يشبّه به قُدس الرب تعالى وعظم شأنه، وإما أن يكون جرى هذا اللفظ في سكر وغلبات حال، ولا يحتمل غير هذا".

فعلى مثل هذه المعاني يحمل إطلاق الناظم، فإذا أحلت ما يستحيل في حق الله عز وجل وأثبت ما يجب في حقه تعالى وحقيقة المستحيل هو الذي لا يتصور في العقل وجوده والواجب هو الذي لا يتصوّر في العقل عدمه، فأجر الجائز في حقه تبارك وتعالى، وهو الذي يصحّ في العقل وجودهوعدمه، أي لا يلزم على تقدير وجوده ولا تقدير عدمه محال، فإذا عرفت الحقائق فتفهم ما أشار إليه الناظم بقوله: "عين العلم وغاية القدرة"، من قوله ρ: ‹‹كنت نبيا وآدم بين الماء والطين››[3] ومن قوله تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][التين/4]، أما الحديث النبوي فقد أشار إليه الشيخ المقرب شرف الدين أبو حفص عمر بن علي بن الأسعد بن مرشد السعدي ثم الحليمي المعروف بابن الفارضτ في قصيدته التائية الشهيرة (بنظم الدر وخطابة الحر)، حيث يقول مترجما عن مقام نبيه:

فَـــذَر لي مـــا قبـــلَ الظُّهـــور عرفتـــه   خُصُوصــا(وبي في الـذَّرِّ لم تــدرِ رُفْقَــتي)[4]

قال شارحها τ ولم أعرف اسمه لفقد أوله من يدي بعد أن ذكر الحديث المشار إليه، يعني بهذا الحديث بين العلم المتعلق بمعلوم واحد المكنّى عنه بالماء في قوله تعالى: [أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء][الرعد/17]، وبين الصورة الطينية الآدمية يعني: كنت مرتفعا بالعلم والخبرة؛ أي مخبرا وهاديا حال كينونة آدم بين العلم المتعلق في المرتبة الأولى بمعلوم واحد، وهو الذات الأقدس بشؤون واحديتها وبين صورة آدم الطينية، فإنه كان أول ما خلقه الله تعالى نوره؛ أي أول ما قدَّره بالتعيين على مفهوم أصل الوصل اللغوي، كان نوري؛ أي التجلّي الأول المتعين الظاهر في مجلى حقيقتي التي هي حقيقة الحقائق و البرزخية الكبرى الجامعة بين الواحدية والأحدية، التي هي القابلية الحقيقة للظهور والمدركية، والحكم بأن ما وراء هذا مما لا يحكم عليه بظهور ولا لا ظهور، فكان ذلك التجلي الأول هو الذي به علمت أنه كان الله ولا شيء معه، وأخبرت به، وبذلك النور والتجلي الأول عرفت وأخبرت أيضا بأنه تعالى بعد أن كان ولا شيء معه، ثم خلق الخلق أي قدّر كل مقدر وصورة كل متعين متميزا بعينه وصورته في العلم الأزلي المتعلق بهذه الصورة المقدَّرة، وقدَّر أيضا وجود هذه الصورة المقدّرة في علمه فأوجدهم مقدّرا على ذلك التقدير الأول العلمي، وأظهرهم بذلك التقدير الإيجاد في عالم الأرواح، فعلمت ذلك وأخبرت به بقوله: أول ما خلق الله القلم، ثم قال له:

---

[1] في (ب) و(ج): لَكَـانْ.

[2] عبارة أبي يزيد المشهورة: "سبحاني ما أعظم شأني، حسبي من نفسي حسبي"، ينظر: قاسم محمد عباس، أبو يزيد البسطامي-المجموعة الصوفية الكاملة- تحقيق وتقديم، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، 2004، ص: 49.

[3] تقدّم إخراج الحديث في الصفحات السابقة.

[4] في المصدر: وبي لم تدر في الذّرّ رُفقتي، ينظر: عمر فاروق الطبّاع، ديوان ابن الفارض، دار القلم، بيروت، د ط، د تا، ص: 54

أكتب عِلمي في خلقي إلى يوم القيامة، أي اللوح، ثم على ذلك التقدير أوجدهم في عالم المثال والحس إلى أن ظهر بعضهم لبعض بحكم التقدير الأول بصورة الأعيان الجمادية والنباتية والحيوانية، وبعضهم بصور الأعراض والأحوال إلى أن ظهر عين الصورة الآدمية، وظهر في ظهورها عين كل ذرة من الذرات الترابية، التي كان كل ذرة منها أصل بَنِيه؛ أي بني آدم في النشأة الذرية فخوطب: بـ[ألستُ بربِّكُم][الأعراف/172]، وأجابت بـ (بلى)، وبذلك النور والتجلي الأول علمت وأخبرت بأعيان المقدّرات علما ووجودا، وأوصافها وأحوالها التي منها أعيان السابقين واللاحقين من الأنبياء والأولياء وأحوالهم ومراتبهم ومشاهدتهم ومباديهم ونهاياتهم، كما أخبرت في خبر آخر بقولي: "فعَلِمَت علمَ الأوَّلِين والآخِرين"[1]، وإلى هذا أشار إمام العاشقين عمر بن الفارض بقوله: "فذر لي ما قبل الظهور عرفته" (البيت)، يقول: أي دع ما يختص علمه ومعرفته بي وهو كل ما كان قبل النشأة الآدمية مما بينته وقدرته من الأمور الجارية في نهر الكون، من عين العلم الوحداني تعلقا ومتعلقا إلى أن ينتهي إلى الطينة الآدمية، عرفت ذلك كله لأجل خصوصيتي بعرفانها، وقوله: "وبي في الذر لم تدري رفقتي"[2] من الأنبياء ولم تعرفني حيث كنا ملتبسين بصورة ذرّية كلِّنا، وأنا عرفتهم كلهم وأخبرت عن حال بعضهم بقولي في حديث طويل منه، فقال الله له؛ أي لآدم ويداه مقبوضتان: اخترت أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي،وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا آدم وذريته، فقال: أي رب ما هؤلاء، قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذ فيهم رجل من أضواهم، قال: يا رب من هاذ؟ قال: ابنك داوود" (الخ الحديث)، فأنا عرفت الجميع في جميع نشأتهم وفي هذه النشأة الذرية أيضا، وأخبرت بها، وهم ما عرفوني في هذه النشأة الذرية، وما أخبروا عني إلا بالوحي المختص بهذه الصورة الطينية الآدمية لا عمَّا قبل هذه النشأة مع اشتراكهم معهم في حكم هذه النشأة، والآدمي كيف يعرف الأعْلى على بون بينهما".

فإذا فهمت ما ذكر الشارح تحققت أن قول الناظم: "عين العلم" في غاية المدح والثناء على هذا النبي الأمي ولرفعة العلم وشرف العالم، قال يوسف[3]υ: [قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ] [يوسف/55]، وقد قال الله لنبيه: قل لهم يا محمد: [هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ][الزمر/9]، ولذلك قالρ: «إن الله عليم يحِب كل عليم»، والعين تطلق ويراد بها عين الماء، وعين الذهب والفضة، وعين الشمس، وعين البصر، وعين البصيرة، وعين الشيء، ذاته وحقيقته وخلاصته (وتصفيته، فهذه ألفاظ مشتركة في اللفظ دون المعنى عكس الترادف)[4] والعلم يطلق على علم الله (القديم)[5] وعلى علمنا الحادث وعلى معلومات الله التي لا نهاية لها، (فالقديم هو من صفات المعاني السبع القديمة الباقية السابقة الواحدة)[6]، فقائمة بذاته تبارك وتعالى لا تفارق ذاته فهذه لم يردها المصنف بقوله: "عين العلم وغاية القدرة"، لاستحالة مفارقة الصفة الموصوف، ولاستحالة انقسام ما لا ينقسم، ولاستحالة حلول القديم في الحادث، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا، وحقيقة العلم الوحداني هي صفة ينكشف بها

---

[1] العبارة ساقطة في (ب)

[2] أي في نشأة الذر، لم تدر..: زيادة في (ب) و(ج)

[3] في (ب) و (ج) : قال الصّدّيق

[4] الكلام مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[5] ساقط في (ب) و(ج).

[6] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

المعلوم على ما هو به انكشافا لا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه، والعلم الحادث صفة خلقها الله في عباده ليدركوا به الأشياء، وتنكشف لهم حقائقها ومعلومات الله هي التي تعلق بها علمه، وانكشفت له على ما هي عليه[1]، من واجب وجائز ومستحيل لعارض الواجب كذاته تعالى وصفاته وأسمائه، علمها الله على ما هي عليه وإنما لا يتصور في عقل عدمها والجائز كذوات العوالم وأوصافه، وأفعال الحيوانات المضافة إليهم مجازا علمها الله أيضا كما خلقها: [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ][الملك/14]، أي الخالق خلقه، وعلم أنه يصح وجودها وعدمها، والمستحيل كالشريك والصاحبة والولد من مخلوقاته، علم الله أنها لا توجد في حيز الألوهية، وأنه لا يتصور ثبوتها فيها، (علم الله ما كان وما يكون وما لم يكن على تقدير أن لو كان كيف يكون)[2]، ولذلك قال تعالى: [وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ][الحجرات/16]، فهذا عام غير مخصوص في كل ما ينشئ شيئا، فقول الناظم: "عين العلم"، أراد به معلومات الله، فيخص بالمعلوم الجائز فقط، ويكون معنى العين هذا أن النبي ρ هو عين المعلومات المقيدة، وحقيقتها، وهو برزخها وخلاصتها، وهو بصرها وبصيرتها، وشمسها وقمرها وخيرها ونورها وعينها وخبرها وهو إبريزها وثمرتها وماؤها المعين وحياتها ρ ، وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى عليه وأنعم، وأراد به العلم الحادث، وهو الظاهر لحمل اللفظ على ظاهره، ولأن الفضيلة تظهر فيما للعبد فيه كسب واختيار فيكون، على هذا قوله: "عين العلم"، أي عين العلم الجاري من بحر العلم الوحداني في أودية القلوب، [أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا][الرعد/17] ، [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ][الزمر/21]، قال عمر بن الفارض:

مَنَحتُكَ علمًا، إن تُرِد كَشْفَهُ، فَرِدْ	سَبِيلِيَ، واشرَع في اتّبَــاع شَريعــتي
فمنبَعُ صَدِّي من شَرَابٍ، نَقِيعُـــهُ	لَدَيَّ، فَدَعْني من سرابٍ(بِقيعــةِ)[3]

ابتدأ المترجم خطابه في (خطابة الحر) بالمنح الإلهية، لأن الوجود من عين الجود، والجود من عين الوجود، ولولا الجود ما وجد موجود، ولولا الموجود ما عرف الجود، يقول: "أعطيت علما ممنوحا إن أردنا كشف حقيقته وأينيته فَرِد موردي العذب وابتدِأ الشروع في إتباع طريق شريعتي التي توصلك إلى معرفة حقيقتي، والدخول إلى حضرتي، لأن منبع ماء صدى الذي تضرب به الأمثال، فيقال: ماء ولا كصدى، وشرك ولا كالسعدا"، أصلاه من ساقية جرت من نقيع عين عندي منبعها تنزَّلت من سماء علوم العليم الرحيم، فهو يصرفها لمن يشاء ويسلكها، فأول ما خلق الله هذا العلم وعبر عنه بالقلم مرة وبالنفس أخرى حتى أقسم به في قوله تعالى: [ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ] ([القلم/1]، وأقسم نبيه بالمصرِّف له والكاتب به، قوله: "والذي نفس محمد بيده" وعبر عن دوام سيلان عينه المعيَّنة بقوله: "اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة"، فنفس نبينا محمدρ الروحانية أصل لجميع الأرواح، وعلمه الوحداني ممدٌّ لجميع العلوم، وقلمه الإلهي مُفتي لجميع الأقلام، وماء عين حياته محي لجميع الحيوانات، فهو شمس العلوم ومنه تنبعث أشعتها في جميع الأقطار، وأشرقت الأرض بنور ربها مثل نور قلب محمد: [كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ][النور/35]، وهو نقرة العلوم،

---

[1] كقوله تعالى:[ولا يُحيطون بشيء من علمه إلاّ بِما شاءَ] [الآية255/البقرة] : إضافة في (ب) و(ج).

[2] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[3] القيعة: الأرض المنبسطة بين جبلين. ينظر: ديوان ابن الفارض(مصدر سابق)، ص: 52، والبيتان ساقطان في (ب)

ومنه تُسبك الدنانير والدراهم لتقويم المقومات وقضاء جميع الحاجات، ويقضي بين (المختلفين فيما اختلفوا فيه)[1]بقضاء حق وحكم وعدل[2]، وهو بحر العلوم وبصيرتها ليقتبس من نظرة فنون العلوم الظاهرة، هو خلاصة العلم (الخالق)[3]حقيقة العلم الحقيقي لأن علومه بالوحي الصريح والكشف الصحيح، وعلوم غيره إما مظنونة أو مقيّدة بما يناسبها فقط،(كتغيير)[4] السمع بالمسموعات خاصة والبصر بالمبصرات، كذلك والحواس بالمحسوسات، والعقل والروح بالمعقولات، والروحانيات والمعاني بالمعنويات، فلا يدرك هذا الغير شيئا من المدركات إلا بما يناسبه.

وإما إدراكه هو عليه الصلاة والسلام وعلمه فغير متقيد بقيد من المذكورات؛ بأن يدرك المحسوسات بالحواس والمعاني، كما أنه يدرك المعنويات بالحواس والمعاني أيضا، فهو ﷺ يدرك كل شيء بكل شيء، ولا يختص شيء بشيء وإنما هو في جريان علومه كماء مُعين، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله رب العالمين، ولقد أصاب من قال في حقه الحقي:

فَإِن مِن جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرّتها   وَمِن عُلُومِكَ عِلمُ اللّوحِ والقَلَمِ

قوله: "وغاية القدرة" اعلم أيَّدك الله وسدَّدك أن الكلام هنا كالكلام في العلم، لأن القدرة من صفات الرب القديم قديمة (بقدمه)[5]، باقية (ببقائه)[6]، لا أوّل لها ولا غاية واحدة قائمة متعلقة بذات موصوفها، لا تفارقه ولا تتجزأ ولا تنقسم و(لا تنتقل)[7] ولا تحل بذات أخرى، وإنما هي صفة يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه، وهي عامة التعلق بجميع الممكنات ولها تعلق صلاحي لإيجاد الممكن المعدوم قبل وجوده، وإعدام الممكن الموجود قبل عدمه، وتعلقها التنجيزي في الممكن وقت إيجاده ووقت إعدامه كالإرادة في تخصيصه ببعض ما يطرأ عليه، والممكن هو الجائز الذي لا يلزم على تقدير وجوده ولا على تقدير عدمه محال بالنظر لذاته، وأما إن نظرنا إلى العوارض التي تعرض له، فقد يصير الجائز واجبا عرضيا أو مستحيلا باعتبار ذلك العارض، كما أخبرنا الله ورسوله بوقوع أحد الممكنات؛ فيصير وقوعه ووجوده واجبا لأن خبر الله على وفق علمه، وعلم الله يستحيل أن يتصرف إليه تحويز، نقيضه لاجتماع الضدّين، فهو محال ولذلك أخبر الله ورسوله بعدم وقوعه، يصير وقوعه مستحيلا، كما تقدم، والله أعلم.

[تجليات القدرة الإلهية في الذات المحمدية:]

فاعلم أن قول الناظم عفا الله عنه: "وغاية القدرة" لا يحمل على ظاهره لأنه يوهم أن النبي عليه الصلاة والسلام بعض من القدرة الأزلية القائمة بالذات العلية، لأن غاية الشيء آخره، وآخره بعض منه، فيلزم على هذا أن يكون أول القدرة قديما وآخرها حادثا، وهذا محال لا يتصور، لأن المعنى الواحد لا يتبعَّض[8]، ولا يجوز أن يختلط القديم

[1] في (ج): الخلائق
[2] في (ب) و(ج): بقضاء عدل وحكم حق
[3] ساقط في (ب) و(ج)
[4] ساقط في (ج)
[5] ساقط في (ب) و(ج)
[6] ساقط في (ب) و(ج)
[7] ساقط في (ب)
[8] أي لا يتجزّأ

بالحادث أبدا، فلم يبق لنا إلا تأويل الموهم وجوبا، وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى بعض محتملاته اللغوية والشرعية أو العرفية، وهو الحق الذي لا اضطراب فيه أصلا، فنقول قوله: "وغاية القدرة" حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه لضرورة الوزن، و هذا سائغ شائع في كلام العرب، وتقديره وهو غاية مقدورات القدرة التي تعلقت بها هذه القدرة تعلقا تنجيزيا، لا في تعلقها الصلاحي، إذ القدرة صالحة لأن توجد ما هو أعظم منه: [أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ][يس/81]، [إن يَشأ يُذْهِبكُم وَ يَأتِ بِخَلقٍ جَدِيد وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ][فاطر/16،17]، لكن لما سبق في علم الله أنه يوجد ما هو أعظم منه ولا أحسن وتقيدت إرادته لذلك وأنه لا يظهر في عالم الوجود ما هو أكمل منه ولا أتم لشرفه عنده وكرامته عليه أوجده بقدرته الأزلية على وفق ما أراد وقدر وعلم.

فالغاية في كلام الناظم ترجع للمقدور بهذه القدرة العجيبة لا لقدرة نفسها إذ هو عليه الصلاة والسلام أشهر مصنوعات الله وغايتها في الحسن والجمال والبهاء والكمال والشرف والتعال والرفعة والجلال، وكل ذلك بمحض اختيار الله ولا حق لأحد ولا له غرض، أي مصلحة في فعل من أفعاله أو حكم من أحكامه، تعالى ربنا عن الأغراض والأعراض، بل كل نعمة منه فضل، ولذلك منّ الله على نبيه بهذه المزية العظمى وعرّفه بها[1]فقال: [وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً][النساء/113]، قال سيدي محمد السنوسي: "أما عود المصلحة إليه تعالى فلما يلزم عليه من احتياجه إلى أن يتكمّل بمخلوقه، وأما عودها إلى خلقه فكذلك أيضا لما يلزم عليه من دفع النقص عنه تعالى بخلق المصلحة لخلقه تعالى عن ذلك ودفع النفس كمال، فلزم احتياجه إلى مخلوق وهو المصلحة التي يوجد لخلقه ليتكمل بها ويتعالى عن ذلك كله من وجب له الغنى المطلق تبارك وتعالى، فقد استبان أن أفعاله وأحكامه تعالى كلها لا علة لها باعثة، وإنما هي بمحض الاختيار وما راعى سبحانه من مصالح الخلق فبمحض فضله ولا حق لأحد عليه.

وقال قبله إذا لو وجب عليه فعل الصلاح والأصلح كما تقوله المعتزلة[2] لما وقعت محنة دنيا ولا أخرى، ولما وقع تكليف بأمر ولا نهي، وذلك باطل بالمشاهدة، وما يقدر من المصالح مع تلك المحن والتكاليف، فالله قادر على إيصال تلك المصالح بدون مشقة محنة أو تكليف، وأيضا فليست تلك المصالح عامة في جميع الممتحنين والمكلفين، للقَطْع بأن المحنة والتكليف في حق من ختم عليه الكفر والعياذ بالله نقمة وتعريض للهلاك الأبدي، نسأل الله العافية في ديننا ودنيانا وحسن الخاتمة بلا محنة. من شرحه «العقيدة للصغرى» للسنوسي، فالفاعل المختار هو الذي يتأتّى منه الفعل والترك (ولا يتوقف فعله على وجود شرط ولا على انتفاع نافع)[3]، [وربك يخلق ما يشاء و يختار[ما كان لهُمُ الخِيرةُ سُبحَان اللهِ وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون]] [القصص/68] ولو اختار تبارك وتعالى أن يوجد عبده على غير تلك الصفة التي خلقه عليها لكان له ذلك (ولا حجر عليه)[4]، أو لو اختار ألا يوجده أصلا لكان له ذلك ولا مكر له ولا يلحقه نقص، كان الله ولا شيء معه، لكنه اختار بمحض فضله لعبده المختار تلك الصفة التي خصه بها وأرادها له

[1] في (ب) و(ج): عرّفه فيه

[2] فرقة كلامية نشأت في البصرة منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري، هناك مبادئ خمسة تدور حولها هذه الفرقة، وهي : التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين منزلتين،الأمر بالمعروف، ينظر:موسى الموسوي، من الكِندي إلى ابن رشد، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1982، 36- 42

[3] العبارة ساقطة في (ب) و(ج)

[4] في (ب): لا مكره له.

على نحو ما سبق في علمه وتقديره فأوجده بقدرته على غاية ما قدر لأنه على ما يشاء قدير فعال لما يريد، فافهم مفهوم قوله تعالى: [وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ][الشورى/29]، فهذا ما انقدح لي في هذه الساعة من تقرير كلام الناظم، والله الموفق.

[موقف العلماء من كتاب"الإحياء"[1]للغزالي ردّا وقبولا:]

وإليك النظر في كلام أبي حامد في «الإحياء» على هذا المعنى، فإنه أتى بكلام (مشكل)[2] قوي، لا تطيق فهمه، ولا تستطيع اعتقاده، وظاهره يطابق ظاهر كلام المصنف بلا تأويل، ونصه τ بجميع ما خلقه الله جل جلاله هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وعلى القدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، إذ لو كان وادخره مع القدرة عليه ولم يفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادرا لكان [عجزا][3]يناقض الإلهية، بل كل نقص في الدنيا كالمرض والفقر فهو زيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص معين فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لو لا النار لم يعرف أهل الجنة النعمة وقدرها، وما لم يُخلق الناقص لم يعرف الكامل، كل ذلك عدل لا جور فيه، وحق لا لعب فيه، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل لا يسأل عما يفعل إن كل شيء خلقناه بقدر وكل صغير وكبير مستطر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصبك". فإذا كان هذا في جميع العالم فيكف بالآدمي الذي كرمه الله وخلق الله العالم من أجله، وهو نسخة العالم وخلاصته بل كيف الأمر فيمن خلق العالم الأكبر والأصغر من أجله ومن نوره وهو أصله: [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][التين/4]، فلا أحسنت مما استحسنه الحكيم ولا عظيم أعظم ممن عظمه العظيم ولا عليم أعلم ممن علمه العليم فتحقق قول الناظم: "عين العلم وغاية القدرة" قال الصفوي في قول عياض الثاني: "في تكميل الله تعالى له في المحاسن خَلْقا وخُلُقا فيه إشارة إلى النوع البشري على الكمال، فإنه أحس تقويما، وصورة الحبيب وسيرته في غاية الكمال، وكون النوع أحسن لا ينافي التفاضل بين أفراده"[4].

ثم إني بعد أن استشكلت كلام أبي حامد هذا، قدم علينا الفقية الأجلّ العلامة الأفضل سيدي عاشور ابن موسى الجباري القسنطيني[5] حفظه الله وأيّده، كان متفقها في كل العلوم، فعرضتُ عليه كلامي على هذا المحل، وعلى قول الناظم فيما يأتي من: "حاشاه أن تبصروا نَظْرا"، وأوردت عليه وجه الإشكال في كلام الغزالي هنا وفي كلام القصري هناك، كما سنقف عليه فَسَلَّمَه واستَحسَنَه ومعنا جماعة من فقهاء بلدتنا، ثم أنه حفظه الله قال لي: "قد سبقك لهذا الاستشكال في كلام أبي حامد هنا كثير من العلماء، بل انتقدوا عليه عدة مسائل حتى ذكر الطرطوشي في جانب الإمام أبي حامد كلاما شنيعا بشيعا، لا أقدر أن أفُوه به"، ثم ناولني الكتاب، فقلت: حيث هربت إِشْ من

---

[1] هو من أهم كتب الغزالي في الأخلاق، ألّفه في أخريات حياته حين جنح إلى اعتزال الناس، ثم قرأه في دمشق وبغداد، أسسه على أربعة أرباع: - ربع العبادات – ربع العادات – ربع المهلكات – ربع المنجيات، ولقد ألّف الناس في بعض هذه المعاني كتبا، ولكن يتميّز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور: - الأول: حل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه – الثاني: ترتيب مابدّدوه، ونظم مافرّقوه – الثالث: إيجاز ماطوّلوه، وضبط ما قرروه – الرابع: حذف ماكرروه، واثبات ماحرروه – الخامس: تحقيق أمور غامضة استعصت على الأفهام. (حمل الكثير من المتقدّمين على كتاب الغزالي"الإحياء"، ومنهم من أنصفه)، ينظر: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1988، ص: 105، 106

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[3] زائدة في (ب) و(ج).

[4] جل ما يذكره المؤلف في هذا السياق اقتبسه من كتاب: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج5(مصدر سابق) ص: 317.

[5] تقدّمت ترجمته في ص: 17 من هذه الدراسة.

قراءته فأنا أبقى منه، فقرأه سيدي محمد بن قردونة فإذا مؤلفه أحمد بن محمد المسيلي تلميذ الإمام أبي عبد الله محمد بن عرفة، ونَصُّه فيه، قال الغزالي في ‹‹الإحياء››: "ما في الإمكان أبدع مما كان"[1] يعني أن خلق هذا العالم لا يمكن أن يكون أحسن من هذه الصفة التي هي مخلوق عليها، وسبقه لذلك عبد العزيز بن مكي في الحَيرة وألزمه الناس على هذا الكفر، ومذهب الطبائعية وأنكره ابن العربي في ‹‹سراج المريدين›› غاية الإنكار، وغَلَّطَه في ذلك وأنكره عليه أيضا أهل الأندلس وكفَّروه، وكان ابن حمدوي يحرق‹‹ الإحياء›› لأجل ذلك.[2]

ومما كتب به ابن عبد الله محمد بن الوليد الطرطوشي إلى عبد الله بن مظفر: "وأما ما ذكرت من أمر الغزالي، فرأيت الرجل وكلّمته وجدته رجلا جليلا من أهل العلم، قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم وممارسته العلوم طول عمره، وكان على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له على طريق العلماء ودخل في غمار العمال، ثم تصوف فنحر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان، ثم شابها بمرامي الفلاسفة ورموز الحلاّج وجعل يقصي على الفقهاء والمتكلمين، فلما عمل كتابه سماه: ‹‹إحياء علوم الدين››، عمد يتكلم في علوم الأحوال ومرامي الصوفية ثم شحن كتابه بالكذب على رسول الله ρ[3]، ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني ‹‹رسائل إخوان الصفا››[4] وهو قوم يرون النبوءة اكتساب، فليس النبي بزعمهم أكثر من شخص فاضل تخلق بمحاسن الأخلاق وجانب سفهائها وساس نفسه حتى ملك قيادها فلا تغلبه شهواته ولا يهزه سوء أخلاقه، ثم ساس الخلق بتلك الأخلاق، وأنكر من أقر منهم بالصانع أن يكون الله تعالى يبعث إلى الخلق رسولا ويؤيده بالمعجزات، وزعموا أن المعجزات حيل ومخاريق، ولقد شرف الله الإسلام وأوضح حجته وأقام دين الإسلام بمذاهب الفلاسفة وآراء المناطقية إلا كمن يغسل الماء بالبول، ثم يسوق الكلام سوقا يرعد فيه ويبرق ويمني ويشوق حتى إذا تشوقت له النفوس قال: "هذا من علم المعاملة وما وراءه من علم المكاشفة ولا يجوز فعل الباطنية وأهل الدغل والدخل في الغيب يستغل الموجود ويعلق النفوس بالمفقود، فهو تشويش لعقائد القلوب وتوهيم لما عليه كلمة الجماعة فلئن كان الرجل يعتقد ما سطره في كتابه لم يبعد تكفيره وإن كان لا تعتقده فما أقرب تضليله".[5]

وأما ما ذكرت من إحراق الكتاب بالنار، فإن إن ترك انتشر بين ظهور الخلق، ومن لا معرفة له بسمومه القاتلة وخيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما سطر فيه مما هو ضلال، فيحرق قياسا على ما أحرقته الصحابة من صحائف المصحف التي كان فيها اختلاف ألفاظ ونقص، ألا ترى أنه لو لم يحرقوا وانتشرت لفظ كل إنسان ما وقع منها إليه، أوشَكَ أن يختلفوا فيتقاتلوا ويتقاطعوا، وإني على عزم أن أتفرّغ له فاستخرج جميع هفواته وأوضح سقطاته وأبينها حرفا حرفا، وفي دونه من الكتب غنية وكفاية لإخواننا المسلمين وطبقات الصالحين، ومعظم من وقع في عشق هذا الكتاب رجال صالحون لا معرفة لهم بما يلزم العقل وأصول الديانات، ولا يفهمون إلا الهيئات ولا يعلمون حقائق

---

[1] استندوا في إنكارهم إلى أن هذا يوهم عجز الجنَاب الإلهي. ينظر: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي(مرجع سابق) ص: 107.

[2] الكلام من (ثم أني بعد أن استشكلت –إلى– لأجل ذلك) ساقط في (ب) و(ج)، ونذكّر هنا أن معظم ما جاء في هذا الفصل ساقط في كلتا النسختين.

[3] تضمّن كتاب" الإحياء" من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ما يقرب من ستمائة حديث، ذكرها السبكي في كتابه " طبقات الشافعية الكبرى" في ثمان وثلاثين صفحة من الجزء الرابع، ينظر: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي(مرجع سابق) ص:114.

[4] تألفت هذه الجماعة في ق4هـ، وكان موطنها البصرة، ينظر: موسى الموسوي، من الكندي إلى ابن رشد(مرجع سابق) ص:108– 125.

[5] الكلام من (ومما كتب به..الطرطوشي – إلى – أقرب تضليله) ساقط في (ب) و(ج)

الصفات ولا يخبرون شياطين الإنس الذين انتدبوا للطعن في الدين وتوهين عمود الإسلام وتعطيل الصانع وإفساد المعجزات، فمن لم يكن عنده تمييز لهذه الأبواب من الذبِّ عن دين الله ونصر شريعته لم ينبغِ أن يَقْفُوا ما ليس له به علم، فيمدح على غير علم ويذم على غير علم والسلام". (منه بلفظه إلا ما تركته استثقالا لذكره).

قال كاتبه عفا الله عنه: "ولصدور مثل هذا الأمر العظيم من أمثال هؤلاء الأكابر، ينبغي للعبد العاجز مثلي القاصر أن لا يغتر بعلمه ولا يستقل برأيه ويحذر المكر والاستدراج في عقائده وغيرها، ويديم اللجوء إلى الله عز وجل، والتضرع إليه بقول المصطفىρ في دعائه: "اللهم أرنا الحق حقا ووفقنا لإتباعه وأرنا الباطل باطل وأعنا على اجتنابه"، وثبت قلوبنا بالإيمان آخر دقيقة تقبضنا فيها إليك، برحمتك إنك على كل شيء قدير، ويرحم الله الإمام يزيد ومالك حيث قال: "كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلام صاحب هذا القبر"، يعني به الذي لا ينطق عن الهوى، والراد أيضا قد يكون في رده مقبول ومردود، وكم من لائم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له، فالطرطوشي أجاد وقصر ولا يفيد مع مثله العذر لمن اعتذر، ولكنه ما جاز على المثال يجوز على مماثله".

[المؤلف ينتصر لأبي حامد الغزالي:][1]

وها نحن إن شاء الله نجيب عن كل ما اعترض به على الإمام الغزالي، ونعوذ بالله أن نكون في ذلك من أهل التقليد الرديء ،الذي هو متابعة الغير لأجل الحمية والتعصب من غير طلب للحق؛ وإنما الإنصاف عند ظهور الحق من تقوى الأمر بالحق [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ][النور/63]، فمن ذلك قوله سامحه الله: "ثم شحن كتابه بالكذب على رسول الله ρ "، فهذا لا يقدح في منصب الإمام أبي حامد ولا يُزهِد في كتابه لأُمُور منها: قوله ρ:«العالم أمين الله في الأرض» أخرجه الحافظ بان عبد البر من حديث معاذ وذكره في «الإحياء» المذكور في كتاب العلم[2]، ومن وصفهρ بالأمانة لا يقدر متجاسر أن ينبزه بالخيانة، وقد شهد له هذا الناجز بغزارة العلم والفهم فيرد عليه بكلامه، ومن أشهر سيف غدر مُثّل به، بل جميع علماء الأمة غير المعاصرين شهدوا بمهارته وديانته.

أخرج الشيخ عبد الرؤوف المناوي في «كواكبه الذرية في مدح السادة الصوفية» عن اليافع عن ابن المعلي عن ياقوت عن المرسي عن الشاذلي: أن الشيخ ابن حازم خرج مع أصحابه ومعه كتاب فقال أتعرفونه؟ قال: هذا «الإحياء»، وكان الشيخ المذكور يطعن في الغزالي، ونهى عن قراءة «الإحياء»، فكشف لهم عن جسمه فإذا هو مضروب بالسياط، وقال: أتاني الغزالي في النوم ودعاني إلى رسول الله ρ فلما وقفنا بين يديه، قال: يا رسول الله، هذا يزعم أني أقول عليك ما لم تقل، فأمر بضربي فضربته".

وقال العارف الشاذلي: "رأيت المصطفىρ في المنام بَاهَى موسى وعيسى بالغزالي، فقال: هل في أممكما مثله، قالا: لا، وشهد له المرسي بالصديقية العظمى" قال، ونقل اليافص عن بعض الأكابر الجامعين بين علم الباطن

---

[1] أثّر الغزالي في المتقدّمين والمتأخرين، فشطر أهل العلم والولاة شطرين: أحدهما ينصره (وكانوا في الأغلب صوفية) و الآخر يخذله(وكانوا في الأكثر من الفقهاء)، وقد رأى الغزالي في حياته من يقدّسه، ويرفعه على جميع العلماء، ورأى في الوقت نفسه كتبه تحرق في بعض الأقطار الإسلامية. ينظر: زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص: 307
(معظم هذا الفصل ساقط في النسختين الأخريين، ب و ج)

[2] أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف، ينظر: زين الدين بن الحسين العراقي، المغـني (مصدر سابق) ص:17

والظاهر أنه قال: لو كان نبي بعد النبي لكان الغزالي"، وقال النووي عن شيخه البلقيني: "أحصيت كتب الغزالي التي صنفها ووزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس، وعمره كله خمس وخمسون سنة"، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وقرأ ببغداد ثم سافر في طلب الطريق، فقطع عليه في الطريق فأخذ القُطَّاع ما معه من المتاع فقال لمقدمهم: "بالذي ترجوا السلامة منه رد عليّ تعليقتي فقط"، فضحك وقال: "كيف تزعم أن عرفت علمها وقد أخذناها، فتجرَّدتُ من مَعرفتها وبَقيتُ بلا عِلم ما قبل على التجرد، وساح في البرية، رآه بعضهم وعليه مرقعة وبيده ركدة وعكاز، بعد أن كان يراه يحضر مجلسه ثلاثمائة مدرس ومائة من أمراء بغداد، فقال يا صاح أو ليس تدريس العلم أولى؟، فنظر إليه شزرا، وقال: "لما نزل بدر السعادة في فلك الإرادة وجنحت شمس العقول إلى مغرب الوصول، تركت هوى ليلى وسلمى بمنزل البيتين ثم حج وقدس[1]، وذهب للشام فبقي بمنارة الجامع عشر سنين، فلما عُرف فارقها وساح [كذا]وجاهد في الله حتى صار قطب الوجود، ثم عاد إلى بغداد وتكلم بالحقيقة، واتخذ مدرسة[بياض][2]وذاته للصوفية حتى لحق بالله، من "ترجمته".

قلت فجميع المتأخرين أقرّوا له بفضيلة العلم والتقوى، وسلّموا لإمامته، حتى قال أبو المواهب: " المعروف إنه قطب العلماء"، وقال الشاطبي: من طلب علما كعلم الغزالي فقد طلب الشيء غير إبانه وقصده في غير أوانه"، وكذا غيرهما، ومن خصائص هذه الأمة، أن من شهد فيه اثنان منهم بخير وجبت له الجنة، ذكره السيوطي في «الأنموذج»، فكيف بمن شهد فيه ألفان، ولم ينبذه إلا واحدا من اثنان، وكيف يظن مسلم بمسلم أنه يتعمد الكذب على رسول اللهρ بعد سماعهما لقولهυ: «من كذب عليا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[3]، وعلى تقدير لو نقل في كتابه هذا بعض الأحاديث الضعيفة الإسناد أو الواهية المتن أو الموضوعة، فالعهدة على متقوّلها وعلى مخرجها الأول لا على ناقلها ومبلغها إن لم يتعمّد تزويرها، كما نقله التتائي في كتابه الثاني من «شرح خليل» عن ابن عبد السلام، وقد نصوا على أنه يجوز في باب الترغيب والترهيب تقوية الأعمال الصالحة بالأحاديث الضعيفة، والآثار المحكية، إن لم يؤد ذلك إلى مصادمة أصل من أصول الدين أو قاعدة من قواعد الشريعة المقررة ليتقوى الباعث على فعل الخيرات وترك المنكرات، كما نص عليه الثعالبي في كتابه «التقاط الذرر»، ويجوز للمالكي مثلا أن يأخذ بالأحوط من مذهب الغير في الفعل والترك، وكذا يتّبع ما صح في ذهب الغير إن لم يجد نصا في مذهبه، والأعمال بالنيات كما نص على ذلك السيوطي في «جزيل المواهب في اختلاف المذاهب»، وغاية ما انتقدوا على الإمام الغزالي صلاة الأيام والليالي وصلاة الأشهر، فإن أبا موسى المريني هو الذي أخرج أحاديثها مسندة مرفوعة، وطعن حفاظ الحديث في روايتها، فالعهدة في ذلك على من وضعها من الرواة لا على الناقلين الثقات، وقد عنى بتحصيل أحاديث «الإحياء» وتخليص الأخبار من الآثار وإسناد كل خبر منها إلى راويه، ونسبته إلى مخرجيه الشيخ الإمام العالم العلامة المحدث المسند الحافظ القاضي العَلَم الشهير زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسن بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن العراقي المصري الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من

[1] بمعنى زار القدس و جاور بيت المقدس.

[2] بياض في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج)

[3] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1 (م سابق) ص: 434.

الأخبار»[1]، ألفه في القرن الثامن، فمن أراد أن يقف على مهارة العلم وحفظه وأمانته في إمامته، فليطالع هذا الكتاب.

أما قول الرجل ثم شبكه على قول الفلاسفة ما قال، فلا يسلم له هذا لما علم من ديانة الإمام وصيانته وحبه في الله وبغضه فيه؛ فكيف يرتضي مذاهبهم أو يرتكب معاطبهم من أحاط المعالي، وأخذ توحيده عن إمام الحرمين الجويني أبي المعالي، وهو إمام أهل السنة بإجماع الموحدين، وهل يلد الضرغام إلا غضنفرا، ويرحم الله المناوي حيث يقول في مدحه: "كان الغزالي ضرغاما إلا أن الأسود تتضاءل بين يديه وتتوارى، وبدرا تماما [كذا] هديه يشرق نهارا،وبشرا من الخلق لكنه الطود العظيم، وبعض الخلق لكن مثل ما بعض الحجر الدرّ النظيم، لم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاء مثاله، ويحي صورته ولا يلطخ بدم المعتقدين حدّ نضاله،حتى أصبح الدين واثقي العُرى، وانكشفت غياهب الشكوك وما كانت إلا حديثا يُعترى، مع ورع طَوَى عليه ضميرُه وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سيرة،ترك الدنيا وراء ظهره، وأقبل على الله في سره وجهره، انتظمت بقدره العظيم عقود الملّة الإسلامية وابتسمت بدُرّه النظييم تقوي الشريعة المحمدية، فغاص من العلوم في بحار عميقة، وأرض نفسه في دفع أهل البدع وسلوك الطريقة، وجرت الأئمة بشاو ولم يقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراءه مطلب لأصحاب البداية والنهاية.

وهو شيخ المناوي ولد على رأس القرن العاشر، وعلى تقدير أن توضع في كتابه ما يوهم أنه من كلامهم فلوقوعه احتمالا؛ وإما أن يكون قولهم في تلك الواقعة موافقا لمذهب أهل السنة وتواطأ العبارات لا يضرنا مع صحة المعنى، وإما أن يكون ذلك الواقع من المسائل التي دسّها الزنادقة والفسقة والحساد على الإمام في كتابه هذا بغيا وعنادا أو تشميتا بأهل السنة الأئمة، كما فعلوا ذلك مع غيره وقد جرت عادة الله أن كل معاصر لا يسلّم لمعاصره؛ بل يطعن فيه إلا من عصمه الله، ولا يَسْلَم من الإذاية، ويُسلِّم له في الرواية إلا إذا قدم على الله فالعالم والطالح كالعافية لا تُعلم إلا بعد فقدها، فكيف يمتعض العاقل من مثل هذا والنبي ρ يقول: «كل ذي نعمة محسود»[2] وهو إمام المحسودين وتأمل قوله تعالى: [أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ [إسْتَكْبَرْتُم فَفَرِيقًا كَذَّبْتُم وفريقًا تَقْتُلُون]] [الآية87/البقرة] وقوله: [وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ][الآية11/الأحقاف].

وقد صرح بوقوع هذه الدسائس الشيخ العالم سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني في كتابه المسمى بـ«اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»، ونصّه فيه: وجميع ما لا يفهمه الناس من كلام محي الدين محمد بن العربي إنما هو لعُلُو مراقيه، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة، وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه، كما أخبرني بذلك الشيخ الصالح سيدي أبو الطاهر المغربي، نزيل المدينة المشرفة. ثم أخرج لي نسخة «الفتوحات» التي قابلها في مدينة قونية على نسخة كتبها محي الدين، فلم أرى فيها شيئا مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت «الفتوحات» وقد دسّ الزنادقة تحت وسادة أحمد بن حنبل في مرض موته عقائد زائفة هو بريء منها، وكذلك فعلوا بصاحب القاموس على أنه خَطَّأَ أبا حنيفة وكفَّره، فلما بلغ ابن الخياط ذلك لاَمَهُ وشدَّدَ عليه، فكتب إليه: إن بلغك

---

[1] هو الإمام الكبير حافظ العصر، ولد بمنشأة المهراني بين مصر والقاهرة في جمادى الأولى سنة 725هـ له مؤلفات عديدة، منها تخريج أحاديث الإحياء، المسمى (المغني)، مات في ثامن شعبان سنة 806هـ، رثاه تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني بقصيدة غرّاء. ينظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1(مصدر سابق) ص:7

[2] الحديث أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج8 (م سابق) ص: 195./- اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، (م سابق) ص: 135.

هذا الكتاب فاصرفه، فإنه افتراء عليّ من الأعداء، فإنّي ذكرتُ في مناقب أبي حنيفة مجلَّدا. وكذلك دسّوا على الغزالي عدة مسائل في كتاب «الإحياء» وظفر القاضي عياض بنسخة من تلك النسخ وأمر بإحراقها، وكذلك دسوا علي في كتابي المسمى «بالبحر المورود» جملة من العقائد الزائفة وأشاعوا ذلك في مصر ومكة، وأنا بريء منها، ثم قال: وقد عدّ محي الدين مؤلفاته حتى بلغ نيفا وأربعمائة مؤلف منها تفسيره الكبير في خمسة وتسعين مجلدا، وصل فيه إلى قوله تعالى: [وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً][الآية65/الكهف] (ملخّصًا)

[موقف علماء تلمسان في القرن 17م من الدّسّ في كتب العلماء:][1]

قلت: وقد وقع مثل هذا في «حكم ابن عطاء الله» اليوم، فإنه لما ورد علينا الفقيه المذكور السيد عاشور في مصيف خمسةأوأربعة وخمسين[2] وجد بعض المعاصرين ممن خاض في علوم التوحيد، يقول: " الله غني عن ذاته وعن صفاته" وتبعه في ذلك جميع من قرأ عليه، وخالفهم في ذلك من حفظ الله عقيدته من الأقران كالفقيه النبيه سيد أحمد الهبري، وسبقه للمخالفة والإنكار السيد محمد الراشدي رحمه الله، فتحاكم السيد الهبري مع بعض تلاميذه المعاصرين إلينا بالجامع الأعظم، فوافَقْتُ الهبري فلم يقبلوا، فآل الأمر إلى أن رفع السيد عاشور المذكور فأنكر هذا القول غاية النكير، فاحتجوا عليه بأن الغنيمي صرّح بذلك في شرحه على «صغرى السنوسي» فقال: "وإن صرح به لا يقبل منه لأن العقائد مقررة في كتب أهل السنة المشهورين فأنفوا من إبطال ما اشتهر عندهم"، ثم إنهم قالوا: "وجدنا ابن عطاء الله أيضا نصّ على ذلك وصرح بما قلناه، فطالبهم سيدي عاشور بإقامة الحجة، فأتوه بنسخة من (الحكم) مملوكة لسيدي سعيد بن زينب، واستشهدوا بقول تاج الدين: أنت العُتْبى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منه، فكيف لا تكون غنيّا عني، فوجد مخرجا بطرتها عن ذاتك، أشار إليه من بين الكاف من بذاتك والعين مرعى، وأدخل واو العطف مقحما بينهما في الأصل، هكذا رأيناه كلنا وتحققناه بخط جديد، غير خط الناسخ الأول، فدس تلك النسخة حتى جمع نحو ستة نسخ أخرى عتيقة، لم يجد تلك الزيادة في شيء منها فأحضر المفتي حينئذ وأصحابه فأطلعهم على تلك النسخ، وقال: "ما لهؤلاء النسخ لم تثبت فيهم هذه الزيادة المضرة في الدين الملتبس بها على المسلمين، فاعتَلُّوا بأنهم كذلك وجدوها، ومع هذا كله فلم يرجعوا إلى الحق ولم يقبلوه إلى الآن، وخطّئوا الفقيه المذكور ومن تبعه، فاحتوشته جنود الغيرة على تبديلهم كلام أهل التوحيد وإدخالهم فيه ما ليس بسديد، فركب مطية العزم ورمى فينحر المعانيدين بكل سهم وأَلَّف كُرَّاسة يردُّ فيها على الغنيمي المصري ا لمعاصر وعلى كل من تبعه واغترّ بكلامه من كل قاص، فشأنك فيه إن وجدته، فإنّه تتبَّع سقطات في شرح الغنيمي قَلَّ من ينتبه لها، والله الموافق لا رب غيره، نسأله سبحانه أن يحفظنا وأحبتنا من جمع الفتن والمحن ما ظهر منها ويرحم الله من قال في المعنى:

[1] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

[2] أي بين سنتي 1054هـ و1055هـ (حوالي منتصف القرن11هـ/ 17م).

أَخَا العلمِ لَا تَعجَب[كذا] مُصَنَّف ولم تَتَّقِيَنَّ زَلَّةً مِنهُ تُعـــــــــرَفُ
فَكَم حَرَّف الرَّاوي كلامًا بعَقْلِـــهِ وَكَم حرَّف المنقُولَ قَومٌ فَصَحَّـفُــوا
وَكَم دَسَّ قَومٌ عَن إمَامٍ مُبـــــرَّزٍ زنادِقَةٌ زَاغُوا فَزادُوا وطَفَّفُــــــــوا

ولما أن لم يتبيّن القاضي عياض المدسوس من الفسقة أفتى بإحراق ‹‹الإحياء››، فلما بلغ مؤلفه خبره دعى زيادة بيان عليه، فمات وقت الدعوة بل أمر المهدي بقتله فيه بعد أن ادّعى عليه أهل بلده أنه يهودي، لأنه كان لا يخرج يوم السبت لكونه كان يصنف كتاب ‹‹الشفاء››. (من الترجمة في طبقته).

ونقول حينئذ ما نقله السلف الصالح: "تحصنت بذي العزة والجبروت، واعتصمت برب الملكوت، وتوكّلتُ على الحيِّ الذي لا يموت، اصرِف عنَّا الأذى إنّك على كل شيء قدير، اصرف عنا الأذى إنك على كل شيء قدير، اصرف عنا الأذى إنك على كل شيء قدير،(تعيده ثلاثا غدوة وعشية)، جعلت نفسي وإيماني وجميع ما لله عليّ من النعم في حمى الله الذي لا يرام، وفي جوار الله الذي لا يخفى، وفي ذمة الله التي لا تدرك، وفي ستر الله الذي لا يهتك، وفي حفظ الله المنيع، وفي ودائع الله التي لا تضيع، وجوار الله محفوظ، ومن اعتصم بالله معصوم، وجل جلال الله ولا يخلو مكان من أمر الله، وذلَّت كل عين نظرتني بإذن الله، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ودفعت البلاء والأعداء بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: [فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] [البقرة/137]، حسبي الله من كل شيء، الله يغلب على كل شيء، ولا يقف لأمر الله شيء، الله القاهر، الله الغالب، مذل كل جبار عنيد، ناصر الحق حيث كان، له الحول والقوة [إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ][الآية29/يس]، قال الشيخ السنوسي: "وهو عجيب مجرب للحفظ من كل مخوف في الحضر والسفر، إذا قرأه الخائف".

وأما قول المعترض على الغزالي: "ثم يسوق الكلام سوقا الخ"، فلا وجه للرد على الإمام بهذا الكلام لأنه أنبأنا في كتابه هذا وأنه وضع في كتابه‹‹ إحياء علوم الدين›› في معاملة العبد مع سيده رب العالمين، وفرق بين علوم المعاملة التي هي أصل ووسيلة وسبب للأعمال ولا تراد إلا الأعمال، وبين علوم المكاشفة التي هي ثمرة ومقصد ومسببات الأعمال؛ بل لا تراد إلا لها فمن ألزمك العمل علم ما لا يصلح إلا به، وهذا العلم يمكن تعليمه وتفهيمه. وأما علم المكاشفة فبالقدر الذي يمكن تعلّمه في حق جميع الموحدين قد نبه عليه في كتاب ‹‹قواعد العقائد والتوحيد›› من ‹‹الإحياء››، وأتى فيه بما يثلج الصدر، وأما علوم المكاشفة الخاصة بالخواص فلا يمكن تعليمها إلا بالدلالة على الأعمال الصالحة الموصلة إليها كقوله ρ في الحديث الإلهي: ‹‹لا يزال عبدي يتقرب إلي بالفرائض والنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وعقله الذي يعقل به، فبي يسمع وبي يبصر وبي يعقل››[1] أو كما ورد. وقوله: ‹‹من عمل بما علم››[2]، الحديث، فإذا بلغت إلى هذا المقام فلا تحتاج إلى معلم، وإن لم تبلغه فليس في قلبك استعداد بالرياضة والمحبة لقبول تعليمه وتفهيمه، كيف وكلام الإمام يدندن حول هذه العلوم.

[1] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص:2384.
[2] الحديث رواه أبو نعيم – عن أنس بن مالك –، حلية الأولياء، ج10 (م سابق) ص: 15.

بيّن في الربع الأول أسرار العبادات وآدابها التي لا تتم ولا تقبل إلا بها، وفي الربع الثاني بيّن أسرار العادات وآدابها كذلك، وفي الثالث كشف عن حقائق المهلكات وحذر من دائها، وفي الرابع أوضح المنجيات وكيفية علاجها ودوائها، وهذا القدر الذي يمكن فيه التعليم، وأما ما وراء ذلك من أسرار المكاشفة التي لم يكلفها الشرع بالتطلع عليها، فذلك موهبة من الله يخص بها من يشاء من الخواص ولا تكتسب بتعلم، وإنما طريقها رياضة النفس بالجوع والسهر، وتزكيتها بالعزلة والصمت والذكر، ومجاهدتها بدوام نوافل الخيرات حتى يفتح الله عليها باب رحمة لا ممسك لها، وقد قال سيدي أحمد مرزوق في شرحه (لحزب البحر): "وبالجملة فعلوم الوَهْبِ كلها محمودة من وجوهها مذموم طلبها، فلا يطلبها إلا جاهل ولا ينكرها إلا جاهل فسلّم تسلم، وتجنَّب ما سوى الذكر تنجو من الشر، فيا الله ما وجدنا الأسرار إلا في الأذكار".

وأما ما لا يجوز تسطيره مما لا يفهمه العامة فلقوله ρ: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم وكلموا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»، وأما الإمساك عن كيفية الروح وعن سر القدر والنجوم واختلاف الصحابة، وإمساك أبي هريرة وابن عباس وعلي وحذيفة والعلماء من بعدهم عن كثير من المسائل فمشهور في الكتب المشهورة غير «الإحياء»، فكيف يعترض على من امتثل قول رسول الله ρ فيماورد فيه الخبر بعينه كالقدر وما معه، أم كيف يلام من اتبع الصحابة والتابعين في إمساكهم عن كثير من العلوم التي عَلِموها حتى قال أبو هريرة رτ: «حفظت من رسول الله ρ وعاءين، أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر لو بثثته قطع منّي هذا البلعوم»، وقال سيدي البخاري: "البلعوم هو مجرى الطعام"، وفي رواية أيضا عن أبي هريرة: «حفظت عن المصطفى ρ خمس جرب أخرجت منها جرابين، ولو أخرجت الثالثة رجمتموني بالحجارة»، وقال ابن عباس قال زين العابدين في غير ما قلنا شعرا حسنا:

وَقَــــدْ تَقَـــــدَّمَ فِي هَـــــذَا أَبُو الحَسَــــــنِ ... إلى الحُسَيـــنِ وَأَوصَـــى قَبْلَـــهُ الحَسَـــــنَ
إِنِّي لَأَكْتُمُ مِن عِلْمِي جَوَاهِـــــــــــــرَهُ ... كَي لَا يَرَى الحَقَّ ذُو جَهْلٍ فَيَفْتَتِنَـــــــــا
يَا رُبَّ جَوهَرِ عِلْمٍ لَو أَبُوحُ بِـــــــــــهِ ... لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّن يَعْبُدُ الوَثَنَـــــــــا
ولَاستَحلَّ رجالٌ مسلمُونَ دَمِـــــــــي ... يَـرَونَ أَقْبَحَ مَا يأتونَه حَسَنَـــــــــا

إلى غير ذلك مما نقل عن الأئمة الأعلام كالإمام ابن عطاء الله في قوله في (حكمه): "من رأيته مجيبا عن كل ما سئل، ومعبّرا لكل ما شهد، وذاكرا لكل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله"، قال سيدي أحمد زروق:" إذ لا يتصور ذلك بحكم سنة الله، ولو تصور لم يتصور أن يكون السامع أهلا له، ووضع الحكمة في غير أهلها جهل عظيم، وأسرار الحق يجب كتمها، ومن أظهر مع إمكان السر أعان على إزالتها، لاسيما إن عرضها للمتكبرين والضالين أو المدّعين الغالبين، وقد قيل:المعرفة في صدور العارفين حور مقصورات في الخيام لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان"، قال أبو علي الروذباريτ: "علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي". من شرحه τرضي الله عنهما.

أم كيف يسمع كلام من عرض بدين من شهد فيه رسول الله ρ بالأمانة، وأمرنا بإتباعه والعمل بما في «إحيائه» على لسان ولد عمنا عبد المؤمن المؤتمن، والنبيρ يقول: «من قال لأخيه المؤمن يا كافر فقد باء به أحدهما»، أم كيف ينبز بمذهب الباطنية من باها به رسول اللهρ وفي مجلسه موسى وعيسى، وهو يقول: ناشدتكما

الله هل في أممكما مثل هذا الحبر، أم كيف ينسب إلى أهل الدغل والدخل من تَسَلسَلَت الأشياخ والأقطاب والأولياء والعلماء من سلسلته المباركة، ومن واسطة عقده سلكوا، ثم أم كيف يذم كتابه الذي قال فيه الشيخ أبو مدين: "طالعت كتب القوم من زمان فلم أرى كتابا مثل«الإحياء» للغزالي"، وكان ملازما له.

وقال العارف بالله ابن عربي: "كنت أقرأ كتاب «الإحياء» في المسجد الحرام اتجاه الكعبة الشريفة"، ومدحه الأشياخ إلى هلم جرا، ومع هذا كله فليس الخبر كالعيان، فطالع تطلع، بل وقوف هذا الإمام عن ما غمض من الكلام، والوقوف من الورع في دين الله على حدود الله، وحفظ أسرار الله، وتعظيم حرمات الله، وقهر النفس عن البوح بما لم يأذن فيه الله، ولكن المؤمن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، ولكن المعاصرة حرمان،"ومن طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق الراحة في الدنيا والسلامة من الخلق" بل قالوا: "لا يكون الصديق صديقا حتى يقول فيه سبعون صديقا إنه زنديق"، وإن لم يكونوا جرت فيه عادة الله في أنبيائه حيث قال تعالى: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً][الفرقان/31]، ومما يبرئ عرض الإمام ودينه مما توهّم فيهو[كذا] أن لفظة "وليس"في الإمكان بلوازمها الفاسدة مما دست عليه.قوله τ في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، في اسمه تعالى العلي:

تنبيه:العبد لا يتصور أن يكون عليا مطلقا، نعم يتصور أن ينال درجة لا يكون في جنس الإنسان من يعرفه فيها، وهي درجة نبينا محمد υ، ولكنه قاصر بالإضافة إلى العلو المطلق من وجهين، أحدهما أنه علو إلى بعض الموجودات والآخر أنه علو بالإضافة إلى الوجود، لا بطريق الوجوب بل يقارنه إمكان وجود إنسان فوقه، فالعلي المطلق هو الذي له الفوقية لا بالإضافة، وبحسب الوجوب لا بحسب الوجود الذي يقارنه إمكان نقيضه، وقال أيضا في اسمه تعالى "القدير" و"القدرة عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء مقدرا بتقدير الإرادة، والعلم واقعا على وفقهما، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك، وليس من شرطه أن يشاء لا محالة فإن الله قادر على إقامة القيمة الآن، لأنه لو شاء لأقامها، وإن كان لا يقيمها فهو لم يشأها ولا يشاؤها، لما سبق في علمه من تقدير أجلها ووقتها، وذلك لا يقدح في القدرة".

المراد من مراده لتبليغ مراده، فأنت ترى رحمك الله كيف صرح هذا في كتابه بضد ما دسه عليه الزنادقة الملحدون في كتابه «الإحياء»، وهل يمكن أن يكون له اعتقادان مختلفان في شيء واحد، وإذا لم يكن ذلك فيبطل الباطل من كتابه: [وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ]([يونس/82]، وما حمل هؤلاء الظلمة إلا الغيرة والحسد أو الانتصار للمذهب الذي فسد من وجوب مراعاة الصلاح والأصلح، حتى ألزموا الحق تعالى بإلزامات باطلة تؤدي إلى بخله أو عجزه [سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً][الإسراء/43] ، ولو كان المولى تعالى يراعي الأصلح كما قالوا لما تركهم في طغيانهم يعمهون، اللهم سلم اللهم سلم، وحاشا الإمام أن يعتقد ذلك ويرتضه، ومنه استمدت العلوم والحقائق، وتلك اللفظة يستثقمؤمن سليم مثلنا قبل اطلاعنا على هذا كله، والله شاهد علينا بما قلناه.

تتمة: قال شيخ عبد الوهاب الشعراني في كتاب «اللوامع»: قد شنع الناس على الإمام أبي حامد في قوله: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، ومعناها في غاية الوضوح، وذلك ما ثم لنا إلا مرتبتان قدم وحدوث، فالحق تعالى له

مرتبة القدم، والمخلوق له مرتبة الحدوث، فلو خلق الله تعالى ما خلق، فلا تخرج من رتبة الحدوث ولا يصح أن يخلق الله تعالى قديما أبدا.

وقد ألمَّ بهاذ المعنى الشيخ أحمد القشاشي أمدّ الله في عمره لشرحه لعقيدة شيخ الإسلام عمر النسفي رحمه الله، فقال: "القيوم، أي القائم بذاته وصفاته وأسمائه، فلا قائم به وبها إلا هو أبدا، قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ] ([فاطر/41] هذه في الأفعال وفي الوصف قال تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ][الحجر/9]، وهذا منتهى الوجود عند إبراز محلّ موجود به ذاتا ووصفا وفعلا به، فالماسك لجميع الأشياء الحي القيوم القادر على ذلك بحوله وقوته جميعا ليس لشيء، ما مع الله شيء ما في شيء ما، العليم الذي أجرى جميع تصاريف مخلوقاته بعلمه القديم الأزلي الأبدي الذي به تتغير الأشياء ولا تغيره، السميع البصير، البصير لِدَاعِيه ومُنَاجيه: [وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ][المجادلة/1]، [إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] [الملك/19]، الباقي: يعني على قدمه وكماله بالدوام السرمدي الأبدي، فلا يزول المريد لكل مراد، فعّال لما يريد، فلا يفعل إلا ما يريد لأنه لا مُكرِه له ولا جابر، وهو العزيز الجبار، وليس بعرض فيكون محمولا ولا جسم، ولا جوهر فيكون مركبا ومقسوما، ولا مصور فيكون مفعولا الخالق البارئ المصور، وقد تم الأمر والحصر، الوجود في المصور الفاعل وهو الله تعالى، والمصور المفعول وهو العبد والكون، ولا نزايد بعد في الوجود على هذا، فليس في الإبداع مما كان، فلو تصور متصور ما، فإما أن يكون قديما، وإما أن يكون حادثا، وما ليس بقديم ولا حادث، فليس بشيء أصلا، ولا يتصور لأنه ما لا يتصور وجوده، بل لا يقال فيما سوى الموجود إنه ممتنع إلا للتفهيم؛ لا لأنه شيء وصِفَته الامتناع بحمد الله.

سألت سيدي عاشور عن الغزالي: أهو مُشَدّد الزاي أم لا؟ فقال حفظه الله: "الشدّ أشهر، وهو خلاف الصواب[كذا] ونصّه الغزالي[كذا] والجمع غزلة وغزلان، والغزالة بالهاء [كذا] تطلع، وغزالة قرية من قرى[كذا] وإليها ينسب الإمام الغزالي، فعلى هذا هو مخفف الزاي، وأخطأ من ثقّله، وهو منسوب إلى قرية بالعراق أو إلى ظبية من الغزلان".[1]

قوله: "وغاية القدرة"، أي باعتبار الوجود لا باعتبار الإمكان والوجوب، كما تقدم في تنبيه الغزالي رحمه الله ونفعنا به وبعلومه، دليله قوله تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][التين/4] ، فأفعل التفضيل دلنا على أن المخلوقات كلها حسنة ولكن الإنسان أحسنها، ويشهد لذلك قوله تعالى: [الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ][السجدة/7]، ومن جملتها السموات، ثم قال الله فيها: [الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ][الملك/3]، ومن جملتها الأرض وما فيها، وما فوقها، قال عز من قائل:[وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ][الأنبياء/16] ، فهوρ أحسن الأحسن، وأجمل الأجمل، وأكمل الأكمل، في غاية التفضيل ونهايته، ولذلك قالρ: «رأيت ربي في أحسن صورة»[2]، يعني أنه كان حين رؤيته لربه في أحسن صورة، وأكمل نشأة، وأتم خَلقه وحسّن الله خُلقه على حسن خِلقته، فجميع ما يستحسن في الكون فمن حسنه نشأ ومن نوره أضاء، وهو

[1] ما بين عارضتين بياض في الأصل.

[2] الحديث أورده:– عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي، ج2، (م سابق) ص: 170./ – أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج1،(م سابق) ص: 368.

أصله ومنبعه وإليه منتهاه ومرجعه، فجماله أصل كل جمال وبهاؤه[1] سبب كل كمال ونقطة كونه أس الاعتدال، فمناسبة العرش فيه، والعرش إلا كقبس من نور، قال ابن الفارض:

ورُوحِــــــي للأرواح روحٌ وكلَّـــــمـــــــا تَرى حســنا في الكـــونِ من فَيـض طِينَـــتي

فهو كل الكل وانحصر الكون في كله، وقد فرغ الله من تقدير هذا العالم بمحمده في سابق علمه، وأراد وقوعه على ذلك التقدير الكامل، وشأنه الآن إظهار تلك المقادير على وفق ما أراد وعلم، ولا تتعدى القدرة ما قدر، قالυ: «فرغ ربك من أربع، من رزق وأجل وخَلق وخُلُق»[2]، فما علم الله أنه كائن خصصته إرادته وأوجدته قدرته والتأثير للذات بالقدرة للصفات وحدها وما علم الله أن لا يكون وإن كان جائز الوجود لا تتعلق به الإرادة ولا القدرة على وجه التخيير في وجوده لكن التعلق الصلاحي حاصل ولا يكون قصورا من جهتهما، بل لعدم تعلق علم الله بكونه وإيجاده"، فافهم وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: [إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ][إبراهيم/19] ، لكنه لم يشأ إذهابنا فلم يذهبنا ولم يأت بخلق بدلنا، وكذا قوله تعالى: [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ][النحل/40]، وأما إذا لم يرده فلا يكون: [فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ][يس/83].

قال سيدي عيسى بن محمد بن عيسى المقدم: "وأما الممكن الذي علم الله أنه لا يوجد فاختُلف هل تتعلق القدرة والإرادة به أولا، والصحيح في النظر تعلقهما به، ووفق الغزالي بأن القول بالتعلق نظرا إلى إمكانه وبنفيه نظر إلى تعلق بقدم وقوعه"، ونقل الشيخ الشعراني عن المتكلمين أنهم قالوا: "القادر هو من كانت قدرته شاملة لكل ما من شأنه أن يقدر عليه من الممكن خاصة بخلاف الممتنع"، قال: "وإنما عبروا بقولهم فبمتعلقاتها بالقوة غير متناهية، وبالفعل متناهية"، ونقل المناوي عن محمد بن التزلي الحاتمي أنها قال: "ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، لكماله في الدلالة عليه، واستيعابه ما نسب الحق إلى نفسه، وإلى العالم فقد انحصر الأمر فيما وجد من العالم من جهة الحقائق"، وهذا معنى قول أهل السنة في المصحح لتأثير القدرة الأزلية، هل هو الإمكان مع الحدوث أو الحدوث فقط، أو الإمكان فقط.

قال الشيخ السنوسي: "ولا يلزم في أثر القدرة أن يكون وجوديا كما صار إليه إمام الحرمين، بل إنما يلزم فيه أن يكون متجددا حادثا كان ذلك المتجدد وجودا أو عده"، وقد ذهب بعض الأئمة إلى أن العدم الممكن السابق عن وجود الحوادث فيما لا يزال مقدورا للبارئ تبارك وتعالى كالعدم والوجود الطارئين، بمعنى أنه في قبض قدرته تعالى عنه جل وعلا إبقاؤ له أولا ويجعل الوجود الحادث في مكانه فملئ الفم بأنه ليس مقدورا للمولى نظرا إلى أن حقيقته ليست بوجودية ولا طارئة سواء أدب بإطلاق ما يوهم عجزا في قدرته جل وعلا، وهذا الذي اختاره هذا المحقق هو اللاتي على أن القدرة الأزلية بالممكن الأمكن فقط، فكل ممكن على هذا وجودا كان أو عدما سابقا أو لاحقا فهو مقدور لمولانا تبارك وتعالى ومقدورية، فكل حقيقة من هذه الحقائق بما يليق بها وهذا القول أولى وأقرب، انتهى قوله.

---

[1] في (ج): بهاؤه نقطة كل نور وكمال

[2] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.

"وغاية القدر" يعني أنه ρ وقعت منزلته في غاية المقدورات الوجودية بالقدرة الأزلية، إذ هو الأول منها فلم يسبقه في الوجود أحد، وهو الآخر في البعث إذ لا نبي بعده وأمته آخر الأمم ودعوته آخرة في اليوم الآخر، وشفاعته آخر ما يكون، وشريعته عليها تنقرض الدنيا، والكرامات التي تحصل في دار النعيم المكرمين لا تكون إلا على يده المتأخرة في كل شيء، فافهم رحمك الله[1]، وهو الظاهر في المنزلة والدين والشهرة والتمكين، وهو الباطن في الوسيلة في غيب الغيب حتى لم يطلع عليه ملك ولا نبي، وكذا ذاته الباطنة لا يقدر أحد أن يدرك أعلى ما هي عليه، ومما يبلج حجة الإمام أبي حامد فيما تقدم له من عموم الاستحسان لهذا العالم، عدا ما عليه قول الإمام الأسنى سيدي عبد الجليل القصري أفاض الله علينا من أنواره، قال الله تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][التين/4] لأنه مقتضى أسمائه الحسنى، فلم يخل عن الحسن شيء لقوله عز وجل: [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ][القمر/49]، واعلم أنه لو أعطى لواحد من الخلق من التدبير الحسن والعقل الكامل مثل ما أعطى لجميع العالمين، ثم أعطى لكل (واحد)[2] من الخلق مثل ما أعطى لذلك الشخص وزادهم أضعافا مضاعفة حتى تنتهي فقولهم إلى مرتبة لا يجدون وراءها مزيدا من العقل، ثم قال لجميعهم: "انظروا هل ترون في تدبير الملك من شين أو نقص من شيء من الزين، أو هل يفسد أهل هذا التقدير فيزال ويعاد غير هذا التدبير لضجت جميع العقول وقد خالطها الذهول وقالت سبحانه أنت كما تقول لا تدبير إلا تدبيرك الأحسن ولا تقديرك إلا تقديرك المتقن.."، وهل هذا إلا مقدور قدرتك وتدبير علمك، ونظرك لا ينفذ ولا يظهر إلا ما علمت قبل الأكوان، ولا يطرأ عليك نظر آخر تستفيد به علما آخر الآن فلا تقضي قضاء إلا في نهاية الحسن والاستحسان نحن لا نجد في صنعك (من)[3] فطور، وقد انقلب البصر من حسن تدبيرك خاسئا وهو حسير[4]، فإذا أظهر موجودا في أي حال ظهر، أجرى عليه قضاء أي شيء كان، ثم بد له وأظهره في صورة أخرى، فكذلك علمه وليس منها وجه ولا صورة إلا في غاية الحسن ونهاية الجمال لا يجوز أن يقال: لو كانت في غير هذه الصورة كانت أحسن، ومن يزعم ذلك فإنما معنى قوله: "لو كان الأمر إلي لصنعت أحسن مما صنع الله"، وقد عاب القرآن على من قال: [لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا][آل عمران/154]، فإذ شهد العبد حسن التقدير في ظاهر العالم وباطنه رضي بقضاء الله عليه وعلى جميع الخلق مقرونا بطيب النفس في المواقف، ونفى السخط والاعتراض في المؤلم غير الموافق، منَّ الله علينا وعليكم بالعافية الدائمة آمين". من «شعبه».

تنبيه[5]: ينبغي لكل موفق أن ينتبه لمقامات الرجال، وينظر في العلماء العاملين بعين الكمال، ولا يسرع بركيك فهمه وضعيف وهمه إلى الطعن فيهم والتعرض عليهم، فإن ذلك سبب الحرمان وسلم للخذلان نعوذ بالله من كل شيطان، فإن لحوم العلماء مسمومة، قال بعض النصحاء:

---

[1] في (ب) و(ج): صياغة مختلفة لنفس المضمون

[2] كذا في (ج)، والكلمة ساقطة في (ب)

[3] كذا في (ج)، وساقط في (ب)

[4] نسجل هنا تناصا مع الآيتين الثانية و الثالثة من سورة الملك. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والثوري في قوله تعالى:[فارجع البَصَر هل تَرى من فُطُور]، أي: شُقُوق، وقال ابن عباس: من وَهْي، وقال قتادة: أي هل ترى خللاً يا بن آدم. ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم،(ج8) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ص: 177.

[5] التنبيه ساقط في (ب) و(ج)

وَلَا تَكُ مِن قَوْمٍ تَلَهَّوْا بدِينِهـــم فَتَطعَنَ فِي أهلِ العلومِ وتَقْــدَحَ

فإن هذين الإمامين أعني: الغزالي والقصري في مقام واحد، حتى ظننت قبل اطلاعي على اسم مؤلف: «الشِّعَب» أنه الغزالي لسعة باعه وقوة عارضته، فإنهما من معرفتهما وحسن ظنهما لم يشاهدا من مولاهما إلا الجميل، ولم يشكَّا في أنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فما من قضاء ولا حكم صدر من حضرة المولى إلا كان فيه الخير والخيرة.

ولهذا قال الشيخ الكامل سيدي محمد السنوسي في اختصاره لكلام الساحلي: "فمن نتائج ثمرة التنزيه في منزل الصدق من مقام الإيمان حسن الظن بالله سبحانه، وهو رأس بضاعة السالكين، وهو يترجم عن صدق الهمَّة إلى الله عز وجل، ولا يكون ذلك إلا برؤية جميع أفعال الله تعالى في الغاية التي لا غاية بعدها من الجمال والكمال، وذلك ينفي عن النفس تردد الأفكار بمراعاة الحظوظ ميلا مع الأوهام". (وسمَّى هذا الاختصار بعض من عنى به من المعاصرين«روض المحاسن» وقال بعض العلماء استحسان الكون، على العموم دليل على صحة المعرفة، وعلى الخصوص يدل على فتن وظلمات)[1].

زيادة بيان وتحقيق برهان: أن ما نسب للغزالي من قولهم: "ما في الإمكان أحسن مما كان"، وما ألزموه به ليس هو من كلامه، ولا هو داخل تحت اعتقاده بوجه، وذلك أنه قال في تنبيهه المتقدم في النبي الأكمل بل يقارنه إمكان وجود إنسان فوقه، ولو لم يغلب في ذلك التنبيه يلزم عليه البخل من كونه لم يعط لنبيه إلا عن هذا العلو الممكن، والفوقية الممكنة، فهذا دليل على أن هذه اللوازم الكاذبة تقوّلوها عليه، وإنما هو في ذلك كما قيل في المثل: "زناه ليمجده"، وأدل من هذا قوله في « إحيائه» إثر اللوازم الكاذبة:" كل ذلك عدل لا جور فيه، وحق لا لفَّ فيه، فكل نعمة منه فضل، و كل نقمة منه عدل، لا يسأل عما يفعل".

فأنت تراه صرح بنقيض ما نسب إليه من نسبته البخل والجور إلى الله جل جلا له، إذ لم يخلق الكمال والأكمل والصلاح والأصلح لم يكن فيه ذلك مع كون خلق هذا الكمال داخلا تحت قدرته مشيرا لها ممكنا إيجاده بها، وتراه أيضا صرح بوجود النقمة في هذا العالم الممكن وجود الرحمة فيه، خاصة وسماها مع ذلك حق وعدل وأنه لا يسأل فيها عما يفعل، ولا يلزم العجز لكونه لم يرد إيجاد هذا الأكمل ولم يتعلق علمه بوجوده بل بعدمه فلا يوجده لأنه لم يشأ، فلا يلزم عليه عجزه.[2]

قوله: "وغاية القدرة"، وغاية ما يقال في هذه الغاية نَكِلُ عِلمَ ذلك إلى الله عز وجل، نؤمن بالله ونتوكل عليه، ونصلي على سيدنا محمد ونسلم عليه، وهناك حديثه الجامع لبدايته وغايته ومنتهى علوّه ومكانته، ولقد طال تعجُّبي في استخراج ما احتوت عليه هذه القصيدة من معادنه، وجلب ما تضمنته من مدائح المصطفى من خزائنه، حتى كمل الشرح الوسط عليها ظفرني الله بهذا الحديث النبوي العمري، وجدته أيام مجاورتي واعتكافي بجامع سيدي يعقوب الحاج بولهاصة، وأتحفني الله بكتاب «الملاذ والاعتصام في فضل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام» ألفه

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[2] الكلام من (زيادة بيان – إلى – يلزم عليه عجزه) ساقط في (ب) و (ج).

جبر بن محمد بن جبر بن هشام القرطبي رضي الله عنه، فطالعته واستخرجت منه فوائد طرّزتها بهامش الشرح الثاني، وأدخلتها في شرحها الثالث[1]، وكذلك جميع ما طرزته في النصف الأول من الثالث، أدخلته في هذا البسيط مع زيادة وتصحيح وتأصيل وتنقيح، فهذا إن شاء الله أكملها وأشملها، فمن قصرت همته و أراد الاختصار فعليه بالأول والثاني، ومن تعدّت همته وعلت طلب الثالث والأول من الرابع.

ونص الحديث المذكور في الكتاب المذكور: خرج أبو مروان الطبيني في (فوائده) التي خطّها بيده وأخذها عن شيوخه بمكة (زادها الله شرفا ورحمهم أجمعين)، قال أخبرني أبو عبد الله بن خميس وأملا علي من كتابه، قال أخبرنا أبو القاسم بقاء بن موسى الأسيوطي، قال حدثنا أبو الفتح المظفر بن علي المعروف بالهمداني، قال حدثنا أبو أحمدبن عبد الكريم بن مروان الجرجاني المفسر قال حدثنا عمار بن رجاء، قال حدثنا عبد الله بن موسى العبسي، قال حدثنا سفيان الثوري عن (أبيه)[2] عن مجاهد عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخذري رضي الله عنهم، قالوا: «صَلَّى بنا رسول اللهρ صلاة الفجر، فلما فرغ من صلاته أقبل بوجهه الكريم على الناس وأسند ظهره إلى المحراب، يتلألأ وجهه نورا شعشعانيا، فقال عمر بن الخطابτ: يا رسول الله صلى الله عليك، ما أحسن وجهك وأحلى منطقك، وأصدق حديثك، وأرأف مودتك، وأعقلك وألين عريكتك، وأحسن بشاشتك وأزين مخالطتك عند الله عز وجل، وعند الناس، فقال النبي ρ: «يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي اشتقّ الله اسمي من اسمه، فالله محمود وأن محمد ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا،أنا الذي خلق الله عز وجل كل شيء من نوري فسجد فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأول شيء يسجد لله نوري ولا غير، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي خلق الله العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح من نوري، والعلم من نوري، والشمس والقمر من نوري، ونور الأبصار من نوري، والعقل الذي في رأس الخلق من نوري، ونور المعرفة الذي في قلوب المؤمنين من نوري ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي خلق الله العرش فلم يسكن اضطرابه حتى كتب الله اسمي مع اسمه على ساق العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله ρ ، فسكن العرش، وذلك قبل أن يخلق الله الخلق بسبعين ألف عام ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي عرّف الله ملائكته فضلي قبل أن يسمعوا بذكر آدم باثنتي عشر ألف عام، ولذلك سمي يوم عرفة بعرفة، ولا فخر يا عمر، أتدري من أنا، أنا الذي خلق الله آدم و ذريته على حروف هجاء اسم محمد ρ ، فالرأس والوجه بمنزلة الميم، والميم واليدان إذا مددتهما بمنزلة الحاء، والبطن بمنزلة الميم والرجلان بمنزلة الدال، وهو محمد ρ ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي قال روح القدس جبريلυ أتدري يا محمد لأي شيء أمرنا الله بالسجود لآدم، سجَدنا إنما أراد ذلك تعظيمك إذ كنت (في)[3] صلبه ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي من أجلي قبل الله توبة آدم وغفر له ورحمه وتاب عليه، لما توسل إليه تعالى بحق محمد ρ وآله، ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي بادرت بالجواب حيث أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم، فقال عز من قائل [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ][الآية172/الأعراف]، فبادرت بالجواب: "بلى أنت ربنا" فاستحسن الله ذلك مني فأمرهم وأمر أرواح البهائم

[1] يقصد المؤلف بالشرح الثاني والشرح الثالث، الجزء الثاني والثالث من كتابه هذا.

[2] ساقط في (ب).

[3] كذا في (ج)، وساقط في (ب).

فسجدوا كلهم إذ رأوني، وكذلك دانت البهائم إذا رأوا نوري في أصلاب آبائي يتشعشع في جباههم يسجدون لنوري ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي من أصْلي أخذ الله ميثاق الأنبياء والرسل والأمم بإقرار نبوءتي وفضلي، وأن يتواصوا به قرنا بعد قرن، فقال عز وجل:[وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ][الآية 81/آل عمران]، قال الله عز وجل "أقررتم بأن خيرتي من خلقي وصَفِيِّ أحمدρ خاتم النبيين وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وحجة الله على الخلائق أجمعي، وآخذتم على ذلكم إصري وعهدي وميثاقي، قالوا أقررنا، قال الله عز وجل فاشهدوا وأنا معكم ن الشاهدين، إن خير خلقي وصفي أحمدρ، فمن تولىّ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي من أجلي نصر الله نوحا على قومه، وأخرجه من السفينة بالسلامة والعافية، لما كتب الله اسمي مع اسمه حول السفينة "لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقالت السفينة: الآن كلّ من دخل في جوفي فهو في ضمان الله حتى يخرج ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أن الذي لما دعا صالح ربَّه أن يُخرج الناقة من الصخرة، وأدخل جبريل ريشة من ريش أجنحته فقال له الماء:ارفع الصخرة قليل من وجه الأرض حتى ترى الخلائق الأثر والصخرة فَرْسَخٌ في فَرْسَخٍ، وقد أخذها الطلق واستصعبت، فنادى: يا صالح إنه قد استصعبت من أجل دعوتك، فقل: بحق محمدρ خاتم النبيين إلا خرجت، فلما قالها خرجت الناقة ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي من أجلي قال الله عز وجل: [قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ][الأنبياء/69]، لما كنت أنا يومئذ في صلبه ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي نعتني الله عز وجل في التوراة لموسى، وفي "الإنجيل" لعيسى، وفي "الزبور" لداوود ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي التوراة "هيديد" ("وهيدميد")[1] و "ماذماذ" وفي الإنجيل "بارقليط"، وفي الزبور "حمّطايا" أو ("حميطا")[2]، وفي صحف إبراهيم "طاب طاب" ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي اسمي في السماء "أحمد" وفي الأرض "محمد" وفي البحار "الماحي"، وفي القيامة "الحاشر"، وفي الجنة "القاسم"، وفي النار "العاقب" لا يكون عقبي نبي ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الأول في الذكر والآخر في البعث، وأنا الحاشر المقفى، والرسول الماحي، ونبي الرحمة ولا فخر، [يا عمر أتدري من أنا أن صاحب الحوض المورود والمقام المحمود والمحضر والمشهود والأزواج الطاهرات والعلو على الدرجات ولا فخر][3]، يا عمر أتدري من أنا، أنا صاحب لواء الحمد، ولوائي يبلغ المشرق والمغرب والأنبياء والرسل والمؤمنون كلهم تحت لوائي ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا الذي بعثني الله بالحق وتعلمت بالحق وقمت بالحق وعَلِمتُ الحق بالحق، وضربت بالحسام المسلول حتى أعلنت قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا النبي العربي القرشي الهاشمي المكي المدني التهامي الأبطحي البشير النذير السراج المنير ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا أحمد وأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عمر بن عبد مناف ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أُدَد بن داوود بن يشجب بن يعرُب بن خانوخ بن الهميسع بن نبت بن حمل ابن قيدار بن إسماعيل ابن إبراهيم بن آزر بن

[1] ساقط في(ب) و(ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] إضافة في (ب) و(ج).

ناحور بن ساحور بن يشروح بن يرغد بن فالج بن غابر بن شالخ[بن أرفخشد][1]بن سام بن نوح بن (لامك)[2] بن متوشلخ بن اخنوخ (وهو إدريس النبي) بن يدد بن سهلا بن هود بن قينار بن أنوش بن شيث بن آدم[3]، وآدم من تراب، والتراب من الأرض، والأرض من الزبد، والزبد من الموج، والموج من الماء، والماء من الدرة، والدرة من الضبابة، والضبابة انتشأت من نور محمد ρ ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا(المحمّدي)[4] حرم الله الجنة على جميع الأنبياء والمرسلين حتى أدخلها أنا وأمتي قبلهم أربعين عاما ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا، أنا محمد الذي صلى الله عليه وملائكته عليَّ، وأمركم بالصلاة عليّ، ρ تسليما كثير إلى يوم الدين، طب نفسا وقر عينا فأنت من رفقائي يوم القيامة. من «الملاذ».

ووجدت مصححا بخط الواد آشي المشهور لأنه أقدم منه، وأخرج هذا الحديث أيضا سيدي محمد بن قاسم الرصاع في كتابه «شرح أسماء المصطفى υ »[5]، وأخرجه أيضا أبو الحسن الشطيبي في تفسيره وفي كتابه «الجمان»، إلا أنه قال في أوله: "خرّج الإمام الطبري عن ابن خميس، ثم ذكر السند والمتن"، فقابلتهما مع هذا فوجدت في سنده حذفا، وفي متنه حذفا واختلافات، والله أعلم بالأصح بصحته، وأخرجه أيضا السملالي في كتابه منظوم[كذا][6] وقال العراقي هذ الحديث موضوع، والله أعلم.[7]

فائدة: من كتب اسم سيدنا وملاذنا محمد ρ ، مع أسماء أجداده القرباء إلى عدنان، وجعلهم في زرع، فإنّ الله ينزل فيه البركة ويحفظه من السُّوس، وتكتب هؤلاء الأسماء لكل مصلحة، فإن الله يُكملها ببركة نبيّه، وكيف لا تكمل ونور الحبيب خرج من أصلابهم، وقد قالρ: «كلّنا نكاح، لم يجتمع أبواي قط على سفاح»[8] "ونوره كان في أصلاب أجداده الكرام"، واتفق العلماء على صحة ما تحت عدنا من الأجداد واختلفوا فيما علا فوقه يحصون ويعرفوا أم لا، فإن ثبت هذا الحديث فلا إشكال وإلاّ، فالله أعلم بهم.

[ذِكر معاني القدرة والقدر والقضاء والمشيئة:]

وهذا الحديث مبين لقول الناظم فيما سبق: "المختار البارقليط"، الخ ما ذكر فيه، وسنتكلم إن شاء الله على معاني القدرة والقدر والقضاء والمشيئة عند قول الناظم: "أمر الباري بين كاف ونون"، ولا ينبغي أن يعتني بالأوائل ويزهد في الأواخر ولا العكس، لأن الله جعل لكل كتاب أجل، ولكل أجل كتاب، ويظهره بعد أن يقدم له أسبابا في الخبر عن سيد البشر: «أمتي مثل المطر لا يدري أوله خيره أم آخره»[9]، وكان عمر بن عبد العزيز τ يصلي بالليل، فإذا

---

[1] إضافة في (ب).

[2] ابن لمك، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى(ج1)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د ط، 1980، ص: 59

[3] يلاحظ اختلاف في عمود نسب النبيρ بين ما جاء في النسخة الأصلية(أ) و النسخة (ب) وبين ما ذكره ابن سعد في"الطبقات الكبرى"(ج1) ص: 54 -59

[4] كذا في (ج)، وساقط في (ب).

[5] العنوان ساقط في (ب) و(ج).

[6] بياض في الأصل.

[7] في (ب)، ص:30 تعليق حول هذا الحديث بخط مالك النسخة القاضي والفقيه الحنبلي محمد بن محمد بن محمود، الشهير بابن العنابي أو العنابي(تقدّمت ترجمته في قسم الدراسة ص:55)، ونصّه: صرّح نقاد الحديث أن النصَّ موضوع مختَلَق.

[8] لم نعثر عليه في كتب الصحاح.

[9] الحديث أخرجه: - الترمذي، سنن الترمذي، ج5 (م سابق) ص: 152./ - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10 (م سابق) ص: 68.

مرت به آية فهم منها شيئا سلَّم من صلاته وكتبه في لوح ليعمل به في غده، وقيل لبعضهم: "إلى كم تكتب، فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد"، ثم قال الناظم رحمه الله ورضي عنه:

واحَد كَان الله كِيــف آن هـــو   في ذِي السَّاعَة مَن سِوَاه افْنِيت

الاسْمَاء والصِّفَات يَنْكـــــــرُه   لمن تبْدو ثَمَّ يا عَنْتِيـــــــــت

لَوَلا احمَد ذا العَالَمَ (آشِي هُو)[1]   في جَنْب هُو كَذَلك انبَـــــت

فَا الله يَــــا ذَوِي الأدَب   مَن حَاشَاه أن (تَبْصرُوا)[2]نظروا

نَظْرَا مْكَون لَو يكُـــون انَب   أم البَاقِي عَادْ فِي آحْــــــــرَا[3]

[توحيد الأفعال والصفات:]

لما أن ذكر بعض أوصاف النبي المربوب، شرع الآن في ذكر توحيد علام الغيوب، ليبين لك طريق معرفتهما مقدمة لمعرفة التوحيد، قال سيدي عبد الجليل: "اعلم أن التوحدي في نفسه ثلاث مراتب: توحيد الأفعال، وتوحيد صفات الفاعل، وتوحيد وجود ذات الفاعل الأولى إضافة للأفعال والمفعولات كلها إلى الله، وأنه خالق الذرة وأفعالها وأفعاله، وأعيان الموجودات كلها، وأفعالها [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ][الصافات/96]، لأن الفعل من فاعلين لا يصح عقلا [قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ][النساء/78] فالأشياء كلها قائمة بالقيوم كما قال تعالى:«كنت سمعه وبصره ويده»[4]الحديث. «بي يسمع وبي يبصر»، أي هذا يحرك سمعه وبصره، وكل شيء مقدّر من العالم، لكن للولي بحكم الولاية، وللعدو بحكم اللّعنة، فالأشياء بيد القدرة كالآلة بيد الصانع، فكل جزء من المخلوقات ظاهرا أو باطنا ينفعل عن كلام الله تعالى، وعن صفاته القائمة بكل شيء الذي هو أقرب إلى كل شيء من كل شيء، ويظن الظان أن الحركة مضافة للأشياء، و«الظن أكذب الحديث»[5].

بيان: اعلم أن الإنسان قد يكلم إنسانا بكلام يرضيه، فيظهر البِشْرُ والرِّضى على بَشْرة المخَاطَب، ويكلمه بكلام يؤذيه، فيتغير بجملته ظاهرا وباطنا، حتى أن الكلمة بين الخلق توقع بينهم العداوة، حتى تؤدي إلى الحروب والقتل، والمتكلم بها إنما يتكلم بكلمة أو كلمات، والله تعالى يقول: [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ][النحل/40] والذات متكلم الذي وسع وجود الذات وكلامه قد ذكر كل شيء، كما قال تعالى: [إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ][ص/87]، فالوجود كله قد ذكره بكلامه، فهو يتكون عن كلامه القائم بنفسه، وقد قال ﷺ لبعض أصحابه: "ضرب الله عنقه" أليس هذا خبرا، فقال الرجل: في سبيل الله يا رسول الله، فقال: في سبيل الله، فضربت عنقه في سبيل الله"، فكيف بكلام رب العالمين فالذي حدّث عن كلامه هو باطن الموجودات الروحانيات، لأن الروح

---

[1] كذا في (ج)، وفي (ب): أي شيء هو.

[2] كذا في (ج)، في (ب): أن تنظْروا

[3] كذا في (ج)، وفي (ب): أُخرا.

[4] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج5، (م سابق) ص: 2384، وقد تقدم في الصفحات السابقة، حديث: "لا يزال عبدي يتقرب إليّ..".

[5] الحديث أخرجه: البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1009./ – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1985.

نفخت في الجسد، والجسد متحرك وساكن بالروح، وليس له حركة بنفسه، إنما هو جماد، ولا للمنفوخ الذي هو الروح حركة بنفسه، إلا بإدامة النفخ من النافخ، فالجسد يتحرك بالنفخة، والنفخة صادرة عن النافخ بالضرورة، والمخلوفات كلها لم تكن من ظواهرها، ولا بواطنها قليلا ولا كثيرا، والنفخ من البارئ على ما يليق به سبحانه، فالبعوضة إذا رفعت رجلها، أو وضعت جناحها، فالله يرفعه ويضعه والله يقبض الوجود كله ويبسط إليه ويرفع الأمر كله، لا إله إلا هو.

الثانية: توحيد الصفات، و هو من توحيد القلوب، ولا تبيّنه العبارات ولا الكتب، فكيف وسيد المرسلين قد أظهر العجز فيه، وقال: «لا أحصي ثناء أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، ولولا أن الله تعالى امتنّ على عباده بأن أوجدهم في الوجود عن كل معنى من أسمائه وصفاته صفات كثيرة خلقهم بها، وأمرهم بالتخلق بها لما فهموا أبدا معاني صفات الخالق، لكن أمر الله أمر عظيم لا تناله الألسن، فأوجد السمع والبصر والعلم والرحمة والقوة والقدس، وبالجملة جميع الصفات أوجد على معناها في الوجود؛ معنى يستدل بها عليه إلا اسم الله تعالى وحده وصفة الألوهية فأوجد العلم المحدث عن علمه؛ وهكذا إلى جميع ما اتصف به، ومع هذا وإن أوجد تلك المعاني ليستدل بها على صفاته، فإنه كلها مرتبطة بأضدادها، فلذلك كانت صفات الله آحاد لا يشبهها شيء، ومثال ذلك أن المخلوق يكون عالما فيسمى بذلك اتصافه بصفات العلم، ولكن قد ارتبط علمه بضده من الجهل، فإنه من حيث أدركه ما أدرك من المعلوم، فقد غاب عن علمه أكثر مما علم. فمن حيث عجز علمه كما غاب عنه فقد عاد جهلا من وجه وكذا بصره وجميع صفات العبد وصفات الباري ليس كذلك؛ لأن صفة العلم من الله مدركة لذات الباري ولجميع المعلومات، فلم يخف عليه من علمه بذاته ولا بمخلوقاته ما أوجده، وما لم يوجده شيء فليس لها ضد ترتبط به، وكذا قدرته لأنه لا يقدر إلا على ما علم، وهو بكل شيء عليم.

وأضرب لك مثلا ليكون أصلا في جميع الصفات، ورد عن النبي ρ ، أنه قال له جبريل حين سأله عن زوال الشمس، فقال: «لا نَعَم،إن الشمس جرت بين لا نَعَم مسيرة خمسمائة عام»[2]، فكم تمشي الشمس من لا نعم من أول النهار إلى الليل، ومن أول الليل؟ الخ، فقدِّر في نفسك عظيم وجود السماء، والتي فوقها أعظم منها، و هكذا إلى الكرسي والأرضون كذلك، فهذه الأرض أصغر الأرضيين، كما أن سماء الدنيا أصغر السماوات والسماوات والأرضون في الكرسي كحلقة تلقات في فلات الأرض، وكذا الجميع في العرش العظيم، وإذا تفهمت حديث الحلقة وجدت الكرسي محيطا بالسماوات والأرض علوا وسفلا والعرش قد أحاط بالكل من جميع الجهات.

والمراد من هذا كله في توحيد الصفات أن ما علم من العظام، وما لم يعلم بالنسبة إلى عظمة وجود الباري تعالى أقل من الجزء الذي لا يتجزء، وكما أن من في أسفل سافلين يُقِر ويقول أن الباري تعالى أقرب من نفسه لنفسه، ويقر أن الباري أقرب على العرش من نفس العرش، وذلك العرش يقول وبعده عن أوصاف العرش على عظمته كبعده عن أوصاف الذرة، على حقارتها، فالرحمة على سعة العظمة، كما أن الحياة وسعت ما وسع العلم، والعلم على سعة البصر، وبالجملة كل صفة قَدْر سعتها وَسِعَت العظمة، وما سعت كل صفة لا يجوز أن يترجم وصف عن أوصاف ا

[1] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج1، (م سابق) ص: 352.

[2] الحديث لم نعثر عليه في كتب الصحاح وكتب السنن.

لذات على وصفه تعالى وصفه عن الزيادة والنقصان، فتفهم هذا، ليس في الوجود من يستحق الوصف بالعظمة، ولا بالعلم ولا بالحياة وبجميع الصفات حقيقة ومعنى إلا الله فهو الواحد الصفات، لا إله إلا هو، الأرضين والسموات والعارفون المؤمنون هم الذين شاهدوا الأمر على ما هو عليه يتجلى تعالى لقلوبهم في الدنيا كما يتجلى لهم في الآخرة بالأبصار، جعلنا الله منهم آمين، من «شعبه».

وقال فيها أيضا: "ونحن بحمد الله نقول بما انعقد عليه إجماع العقول الراجحة، وهم الرسل وأتباعهم، وبما نطق به القرآن والسند، وهو أن الأشياء لم تكن أزلا معه، وهو يدركها في حال عدمها، كما يدركها حين أوجدها، الحالتان عنده سواء، ولا نهرب كما هرب الفلاسفة من أن تكون معروفة ضيقة دخول النقص عليه، فإن النقص إنما يلزم لمن يقول أنه لا يدرك الأشياء إلا إذا كانت موجودة، وهذه صفة المخلوق فلو أفقدناه الإدراك في حال عدمها وأوجدناه الإدراك في حال وجودها لزمنا كذلك؛ وإنما تقول أنه يدرك في الحالة الواحدة ما يدرك في الحالة الأخرى من غير زيادة ولا نقصان، ودليلنا على إدراك إياها وهي معدومة وقل الله عز وجل: [وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً][الأحزاب/40]، [وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً][الفتح/21] ، [إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بصير]،[الملك/19]،[وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً][النساء/126]، ولا يجوز أن يقال في كان هذا ،كان يكون كونا.

وكذلك قال أهل العلم "أول ما خلق الله القلم، قال له أكتب"[1] الحديث، فأثبت للأشياء أولية وأن القلم سابق الأشياء في خلقه، وأن القلم مخلوق، وفي حديث آخر: "و[كذا] ما خلق العقل" الحديث، قولهυ:«كان الله ولا شيء معه»[2]، وقوله تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ[إِنَّ ذلكَ على الله يَسِير]][العنكبوت/19]، فأثبت للخلق بداءة، والإجماع انعقد على ذلك، قال أبو بكر في دعائه: "اللهم إنك بدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم"، وقال الجنيد "التوحيد إفراد العدم من الحدث وعلمك وإقراره بأن الله فرد في أزليته لا ثاني معه"[3]وقال الشبلي: "جل الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف"، قوله: "واحد كان الله" أشار به لقوله ρ: «كان الله ولا شيء معه».

[في ذكر معنى القيومية والأزلية:]

وقوله: "كيف آن هو في ذي الساعة"، أشار به إلى قوله υ في تمام الحديث: «وهو الآن على ما عليه كان»، قال في «الإحياء» في كيفية التخلق بمقتضى هذا الحديث: "وهذا مقام من عرف ألا شيء في الوجود غيره، وأنّ كل شيء هالك إلا وجهه، وأنّ ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا، لأن الغير هالك لا يطيق أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير فلا وجود له، بل هو محال أن يوجد إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره، فهو موجود لغيره، فإذا عرف ذاته، ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة؛ وإنما الموجود هو القائم بنفسه، والقائم لنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجود فإن كان مع قيامه بنفسه

[1] الحديث أورده القرطبي، تفسير القرطبي، ج18 (م سابق) ص: 223.

[2] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2 (م سابق) ص: 171.

[3] وجدنا المعنى بصياغة أخرى، وهي: قال الجنيد: "التوحيد علمُك، وإقرارُك بأنّ الله فردٌ في أزليته، لا ثاني معه، ولا شيء يفعل فعله"، ينظر: سعد الحكيم، الجنيد البغدادي تاج العارفين – الأعمال الكاملة– دراسة وتحقيق، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2007، ص: 212.

يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد، ولا يتصور أن يكون غير ذلك، فإذا ليس في الوجود إلا الحي القيوم وهو الواحد الصمد.

فإن نظرت من هذا المقام علمت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، ومن هنا نظر حبيب بن حبيب حيث قرأ قوله تعالى: [إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ][ص/44]، فقال: وا عجباه أعطى وأثنى، أشار إلى أنه إذا أثنى على عطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني والمثنى عليه، فهذه رتبة عالية لا تنالها إلا بمثال عقلك، وهو أن المصنف إذا أحب تصنيفه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله فهو تصنيف الله وصنيعته، فإن أحبه أو أثنى عليه فما أحب ولا أثنى إلا على نفسه، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق ما أحبّ، وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس[1] أي فنى عن نفسه، وعن غير الله فلم يرى إلا الله.

فمن لا يفهم هذا ينكر عليه فيقول كيف فنى وطول طاله أربعة أذرع، ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم معاني كلامهم، وضرورة العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليهم الإشارة بقوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ][المطففين/29]، ثم بين أن ضحك العارفين عليه أعظم، إذا قال تعالى: [فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ][المطففين/34]،وكذا نوح لما ضحك عليه قومه في عمله السفينة قال: [إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ][هود/38]. ولما أمر رسول الله ρ بطلب (القرب)[2]، فقيل له: [وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ][العلق/19]، قال في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء أنت كما أثنيت على نفسك»[3]، فقوله: أعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله، ثم اقترب فعنى عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات، فقال: "أعوذ برضاك من غضبك"، وهما صفتان، ثم رأى ذلكن نقصانا في التوحيد، فاقترب، ورقى من مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات، فقال: "أعوذ بك منك"، وهذا فرار منه إليه، من غير رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا، واقترب فقال: "أنت كما أثنيت على نفسك لا أحصى ثناء عليك"، فقوله: "لا أحصي": خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدته، وقوله: "أنت كما أثنيت على نفسك"، بيان أن المثني وهو المثنى عليه وأن الكل منه بدأ وإليه يعود، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين، وهو أن لا يرى إلا الله وأفعاله، فيستعيذ بفضله من فعله، وانظر إلا ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق، حتى ارتفع في نظره ومشاهدته سوى ذات الحق.

---

[1] مصطلح صوفي يعني: الفناء عن الأفعال البشرية بالأفعال الإلهية، ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق: موفق فوزي الجبر، دار الحكمة، دمشق، ط1، 1995، ص: 212.

ومعنى الفناء أن يفنى العبد عن الأوصاف الخبيثة، ويبقى في أوصافه الحميدة،، ويتدرّج في الفناء إلى أن يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه، وهذا ما يسمّونه "فناء الفناء"، وإليه أشار الشاعر: فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا // وأبقوا بالبقاء من قرب ربه. فالأول: فناء عن نفسه وصفاته، ببقائه بصفات الحق، والثاني: والثاني فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق، والثالث: فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق، والفناء غاية الطريق الصوفي، ومنتهى مآرب السالكين. ينظر: – أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 37.

– مجدي محمد ابراهيم، التصوف السني، حال الفناء بين الجنيد والغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002، ص: 45، 46.

[2] في (ب) و(ج): القرب

[3] الحديث أخرجه: – مسلم، صحيح مسلم، ج1 ص: 352./ – محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 93.

ولقد كان ρ لا يرقى من مرتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بُعدا، بالإضافة إلى الثانية فيستغفر الله من الأولى، ويرى ذلك في سلوكه وتقصيرا في مقامه، وإليه الإشارة بقولهρ: «إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى استغفر الله سبعين مرة»[1]، فكان ذلك لترقيه سبعين مقاما بعضها بعد البعض، وأوائلها وإن كان تجاوزا أقصى غاية الخلق، ولكن كان نقصا بالإضافة إلى أواخرها، فكان استغفاره لذلك لما قالت له عائشة رضي الله عنها: «قد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر، فما هذا البكاء في السجود، وما هذا الجهر الشديد، فقال: أفلا أكون عبدا شكورا»[2]، معناه: أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات، فإن الشكر سبيل لزيادة، حيث قال الله عز وجل: [لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ][إبراهيم/7].

وقال الشيخ العارف بالله سيدي عز الدين بن عبد السلام: "ومعنى قول النبي ρ: "إنه ليغان" الحديث، ليس ذلك الغين غين حجاب ولا غفلة، من ظن ذلك بنبيه فقد أخطأ وأساء ظنه به، وإنما كان ρ تستغرقه أنوار التجليات فيغيب بذلك الحضور، ثم يسأل الله تعالى أن يستر عليه حاله، فيطلب المغفرة، وهي الستر مأخوذا من (الغفر)[3]، وكأنه يسأل ستر حاله عليه، غيرة منه عليه ورحمة به، انتهى من «حل الرموز»، وإنما جلبت كلام الغزالي والقصري رضي الله عنهما هنا، وإن كان فيه طول لما فيه من أسرار التوحيد ولتفهم منه مراد الناظم، وتنزل الكلام على الكلام ليتبين الحق الصريح للأفهام.

يقول الناظم رحمه الله: "واحد كان الله" يشهد له حديث الصادق المتقدم(وما بعده)[4]، من قوله: "كيف آن هو في ذا الساعة"[5]، يشهد له قوله[6]فيه أيضا: "وهو الآن على ما عليه كان"، وقول الغزالي: "(فإذا)[7] ليس في الوجود إلا الحي القيوم" وقوله: "من سواه أفنيت" يشهد له قول الغزالي أيضا ونفر الصوفية الخ، وقوله:"الأسماء والصفات ينكره"، يشهد له قول القصري: "ليس في الوجود من يستحق الوصف"، الخ على الاحتمال الأول كما يأتي، وعلى الثاني يشهد قول أبي حامد: "ولما أمر υ بطلب القرب الخ..."، وأما قوله: "لو لا أحمد"، البيت يشهد له قول صاحب «الشعب»τ: "فإن العبد إذا نظر إلى الخالق والمخلوق كائنا ما كانت وغلبت[8] عليه ذكورته الروحانية، واستولت عليه معارف العلوم الربانية واستبعدته محاسن المعاني الألوهية، وأدرك فضل ما بين الخالق والمخلوق، والمولى والعبد، والقادر والعاجز، والقوي والضعيف، والغني عن كل شيء والفقير إلى شيء، والكبير الجليل، والنزر الحقير، والحق الذي لا يبطل أبدا، أو الباطل الذي يتطرق إليه الفساد أبدا دائما سرمدا، والأول الآخر، الظاهر الباطن الذي لا يتقبر بالحدود الزمانية والمكانية، والمحبوس المتحيز المقيد بأنواع الحدود الحابسة له في الأمامية والورائية والفوقية

---

[1] تقدم إخراجه في الصفحات السابقة.

[2] الحديث أخرجه: – القرطبي، تفسير القرطبي، (م سابق)ج14، ص: 277./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج5 (م سابق) ص: 190.

[3] في (ب): المغفرة.

[4] ساقة في (ب) و(ج).

[5] في (ب): "كيف هو في ذا الساعة"، وفي (ج): كيف هو في ذي الساعة.

[6] كذا في (ج)، وفي (ب): قول العلماء.

[7] كذا في(ج)، وساقط في (ب).

[8] كذا في (ج)، وفي (ب): غابت.

والتحتية والقبلية والبعدية، والغالب القاهر فوق عباده والمقهور المجبور على مراده وغير مراده بعظم العقل ما اجتمع الكل على تعظيمه، وحقر ما اجتمع الكل على تحقيره، فلم يعول على شيء إلا عليه إذ ما سواه في جنبه كَلاَ شَيء:

فلو كُنتَ من أهلِ الوجُود حقِيقَـــةً   لَغِبْتَ عَن الأكوَان والعَرشِ و الكُرْسِي
وَكَنْـتَ بِلاَ حَال مَعَ الله واقفًـــــا   تُصانُ عن التِّذكار للجِـنِّ والإنـــسِ

وتقدم قوله والمراد من هذا كله، فراجعه واعتبر، وأصل هؤلاء الأبيات لأبي سعيد الخزار[1]τ، قال: "تهت في البادية مرة فكنت أقول:

أتِيهُ فَلاَ أَدرِي مِن التَّيهِ مَن أَنَـــــا   سِوى مَا يَقُول النَّاسُ فِيَّ و في جِنسِي[2]
أيَا مَن يَرى الأسبَاب أعلَى وُجُـــوده   ويَفرَح بالتَّيه الدَّنِي وبِالأُنـــــــــسِ

هكذا ساق الحكاية أبو القاسم القشيري، وقال غيره أن الهاتف الأول والمجيب أبو سعيد.

[في فناء الأفعال و الصفات والذّات:]

قوله: "من سواه أفنيت" اعلم رحمك الله أن الفناء من حيث الجملة معناه: عدم ملاحظة الإنسان لوجوده ذاتا وصفة وأفعالا بسبب تجلي الذات الأزلية بصفاتها وأفعالها في الذات المحدثة، فتفنى الحقائق الثلاث المحدثة بتجلي الحقائق القديمة فيها، وتضمحل وترجع إلى أصلها من العدم وتبقى القديمة كما كانت، ولا شيء معها، ففناء الذات المحدثة، بتجلي الذات القديمة، وكذا الصفات والأفعال، أي أفنت أفعال الذات القديمة أفعال الذات المحدثة، وأفنت صفات الذات القديمة صفات الذات المحدثة، وأفنت نفس الذات القديمة نفس الذات المحدثة، فأفنت الحقائق الأزلية الباقية الحقائق المحدثة الفانية.

والفناء من حيث التفصيل على ثلاث مراتب: أولها فناء في الأفعال، فيرى صاحب هذا المقام ألا فاعل إلا الله، والله خلقكم وما تعلمون، ثم فناء في الصفات، فيرى صاحبه ألا عالم في الحقيقة والمعنى إلا الله، وتقدم ما يشهد له، ثم فناء في الذات، فيرى صاحبه ألا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله، ثم هذا الثالث، ثم ثلاث مراتب أخرى أعلى من الأولى، أولها هذه، وهي أن يرتفع من نظره كل شيء، فلا يرى إلا الله وصفاته وأفعاله وهذا المقام هو نهاية مقامات الموحدين، على ما ذكره أبو حامد آنفا، وهو أول مقامات المصطفى محمد ρ.

ثانيها أن يفنى عن مشاهدة الأفعال وكثرتها، ويترقى إلى مصادرها؛ وهي الصفات لوحدتها وقدمها، ثالثها أن يفنى عن مشاهدة الصفات، فيترقّى إلى مشاهدة الذات وأحديتها، ثم هذا المقام وراءه ثلاث مراتب، الأولى هذه الرتبة (وتسمى الفناء الأكبر، ومعناه تغريد الكل في بحر التوحيد، حتى يصير الوجود عينا واحدا في عين الناظر إليه، قال

[1] هو من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري وسري السقطي وبشر بن الحارث وغيرهم، مات سنة سبع وسبعين ومائتين هجرية، هو من أئمة القوم وجلّتهم، قيل هو أول من تكلمفي علم الفناء والبقاء، ينظر: – أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، د تا، ص:23 . – أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية،(مصدر سابق) ص:73

[2] في (ب) و(ج) بعد البيت الأول، ذكرتا مايلي: أتيهُ على جنِّ البِلاَد وإنسِهاَ // فإن لم أجِد شخصًا أَتِيهُ على نَفْسِي. قال: فسمعت هاتفا يقول: أيا من يرى الأسباب،..

إبراهيم بن شيبان: "علم البقاء والفناء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما عدى ذلك مغاليط وزندقة")[1].

وصاحبها يقول ويصيح (كالناظم)[2]: بحر الذات ممحي للأفعال والأسماء والصفات: فيرتفع في نظره كل حادث وقديم، إلا الذات الأقدس، ثانيها: أن يفنى فيها عن نفسه وعن نظرها، ثالثها: أن يفنى عن كونه فانيا فيها فيفنى بفنائها ويصفى لصفائها فتضمحلّالإثنية وتبقى الأحدية: "كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان"[3]، وإلى هذه الرتب الإشارة بقولهم: فيفنى ثم يفنى ثم يفنى، فكان فناؤه عين البقاء والله أعلم.

بقيّة: قال ابن العريف: "إنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم واندراس الرسم، وما سوى الحق حجاب عنه" وفيه أنشدوا:

بذلك سرٌّ طَالَ عنكَ اكتتَامُه ... ولاَحَ صَبَاحٌ كنتَ أنت ظلَامُهُ

فأنتَ حجَابُ القلبِ عَن سِرِّ غَيْبِهِ ... ولَولاَكَ لم يطبَع عليه خِتَامُـــه

إذا غِبْتَ عنهُ حَلَّ فيهِ وطَنَبْتَ ... على مَرْكَب الكَشْفِ المِصُون خِتَامُه

وجاءَ حديثُ لاَ يُمَلُّ سَمَاعُه ... شَهَيٌّ إلينَـــا نَثْـــرُه ونِظَامُـه

إذا سَمِعتَهُ النَّفْس طَابَ نَعِيمُها ... وزالَ عَن القَلبِ المُعَنَّى غَرَامُـــه

انتهى من[كذا][4]، وقال الشيخ أبو العباس عن الفناء في «المباحث الأصلية» في وصف صاحب هذا المقام المذكور:

ثم فَنَا عن رؤيَةِ العَوالِمِ ... ولم يرَ في الكونِ غَيرَ العَالَمَ

ثم امتَحَى في غايَة الشُّهُود ... وأطلَقَ القَول أنَا مَعْبُودُ

قال صاحب النظم الشهي[5] سيدي أبو الحسن علي المدعو الحاج الشطيبي رحمه الله: "فأول ما يتجلى الحق لعبده يذهله التجلي عن ما سواه حتى لا يرى إلا هو كلاّ بل هو الله، وفي هذا المقام تختلف الأحوال فمنهم من يسمع النداء من كل شيء وفي كل شيء: [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي[وأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكرِي]][طه/14]، ومنهم من يُقَال له: [كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ] [العلق/19] ولا تطع من عصاني، فمن سمعه من خارجه، قال هو الأول والآخر، والظاهر والباطن ومن سمع من داخله قال: أنا الحق سبحاني، وقد سمع بعضهم هاتف الحق يقول: أن ا لحق سبحاني ما أعظم شأني، ظهرت لخفائها صفاتي، وخفيت لظهورها ذاتي فشهدت صفاتي بوحدانية ذاتي، وأحاطت ذاتي بجميع صفاتي واضمحلت الصفات في الذات، وغابت الذات في الصفات ففنى إلي قولي تنزيها وتقديسا عن

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] حكمة عطائية، ينظر: ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، (شرح ابن عباد النفزي الرُّندي) إعداد ودراسة: محمد عبد المقصود، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1988، ص: 52
[4] ساقط في (ب) و(ج).
[5] في (ب): قال شارح الأرجوزة

مثلي لا إله إلا أنا كل شيء هالك إلا وجهي، (ألر، كهيعص، طسم، حم، ق،ن) [لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ][غافر/16]، فانظر لهذا لا تقوله النفوس، ولا يصدر عن محسوس، وإنما الهواتف الغيبية تفوه به في الأطوار القلبية، فتعيها أذن واعية، ولا يدري الغير ما هيته".

وقال الشطيبي أيضا في تفسيره لقوله عز وجل: [وَمَا رَمَيْتَ][الآية17/الأنفال]، سببها أنّ جبريل قال للنبي ρ: "فإن الله يأمرك أن ترمي المشركين بكف من رمل فرمى إلى ناحيتهم، فلم يبق مشرك لم تصب عينه منها، وفيها إشارة للتوحيد المحض ويسمى الفناء عن الخلق، والفناء بالحق، وقد يسموا عن هذا إلى الفناء عن الفناء وبيانه أن من رأى الفعل من الله جار على أيدي الخلق، فهو فان عن الخلق بالحق، ومن رأى الفعل من الله مع وجود الخلق ومع غيبتهم فهو فان عن الفناء".

ثم اعلَم(فَهَّمنا الله وإيَّاك عنه وعلى أوليائه) أن قول الناظم (نفعنا الله به): "من سواه أفنيت"، إنما هو إخبار عن حاله ومقامه، وهو كما قال، لأنهτ بلغ الغاية القصوى من ذلك، وعلامات المحبين والمحبوبين والعارفين والمجذوبين ظاهرة عليه والحمد لله رب العالمين، ومن تعرف كلامه تحقق مقامه[1]، ولا يعبر عن أوصاف المقام إلا من بلغ إليه، وحاشى لله أن يدَّعي مؤمن ما ليس له، فكيف بالأولياء المحفوظين، قال في «الحكم»:"تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث (وصل)[2] التنوير وصل التعبير" إذا ما من كلام يبرز إلا وعليه كسوة القلب، الذي منه برز.

ونقل سيدي محمد بن عباد عن أبي محمد السهروردي رضي الله عنهما، أنه قال: "وللولي الواصل مقامات منها أن يجد الله بطريق الأفعال، وهي رتبة في التجلي، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج من الاختيار والتدبير لنفسه، ويبقى مع اختيار مولاه له، ومنهم من يوقف في مقام إلهيته والأنس بها يكاشفه قلبه من الجلال والكمال، فهذا تجلٍّ بطريق الصفات، ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء ومشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مُغمى في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات الخواص المقربين، وفوق هذا رتبة حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد، حتى يحظى بها روحه وقلبه ونفسه حتى سرّه وهذا من أعلى مراتب اليقين"، من «شرحه للحكم».

قوله: "من سواه افنيت" هذا إخبار عن وصوله إلى مقام الفناء الذي من حل فيه (إن شاء الله) كان الآمنين الواصلين، والخبر أصله في الوضع مما يحتمل الصدق والكذب بذاته، فإن عرض له ما يُرجِّح أحد الاحتمالين إما ظنا أو قطعا تعين ما ترجح، وحقيقة الصدق هو مطابقة الخبر لما في نفس الأمر خالف الاعتقاد أم لا، والكذب بضده بيان مواققه الاعتقاد للخبر ومطابقته لما في نفس الأمر من قوله: "من سواه افنيت"

[في ذكر القصيدة البائية للشيخ موسى اللالتي:]

قال في قصيدته البائية:

---

[1] في (ج): من تعقّل كلامه عرفَ مَقَامَهُ.

[2] في المصدر:(صار)، ينظر: ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي، ص: 75

بأيِّ حَمْد نَحَّمْدُوكْ عَلَى نَعمَاكْ ... لَولاَ حَمْدَك لِيك جَالَكْ مِن بَابُ
بِه احْمَدتْ علَى انْفِكَاكِي مِن الإشْرَاك ... شَرَكَا بِه انْصَدَّت قَومًا لاَ تَابُ
ثم اهْدِيتْ العْقَل بالإسلاَم ابْدَاك ... يَسْتَسْلَم شِي بَعْدْ شِي حَتَّى جَابُ
جَابُ صَنْعَكْ لِيكْ وانْقَادْ بصَنعَاك ... لُولاَ صَنْعَك يَاحْبِيبِي مَا نَابُ
لما نَاب اليك جَا لامْرَك وانْهَاك ... واذَا جَازْ الأَمْر هَذَاك اعْقَابُ
لَمَّا انْ شَافْ لذَ المَقَام مَقَام اعْرَاك ... طَلْبَك يَا قَيُّومْ تَضْحَى جَلاَّبُ
وارفَعتْ لمقَامْ الإيمَان اسْتَوْفَاك ... بِكْ اعْلِيك يْدلْ جُمْهُور اصْحَابُ
عَادْ ايخَافْ ويَرْتْجَا خَايَف يَلْقَاك ... عْلَى غِير حَالْيَطْوَال[2] اعْتَابُ
ثم زَاد لْدَار الإحْسَان استَقْصَاك ... بْصَرْت[3] الغَايَ فِي صْمِيم واكْتَابُ
دُون امْرَاقَبْتَك فِي ذِهنُ مَا يَنْسَاكْ ... علَكُل حَال لُو حَق اعذَابُ
مَقْشَعَّرْ الجَلْد مَشْغَاف بحُبَّاك ... واعْضَاه مِما يْقَايْسُوه[4] ذَابُ
ثمَّ افْنِيت فِيك فْنَى وعَاد يْرَاك ... انْتَ الكُل ومَا بْقَى روق اسْرَابُ
ثمَّ اضْمَحَل فِيك واصْفَا لصَفْوَاك ... صِرت انْتَ هُوَ وهُوَ انْتَ باحْسَابُ
ثُمَّ افْنَى ثَالَث افْنَا وابْقَى لَبْقَاكْ ... بَعْد ابْقَاه غَاب مِن حُسن أدَابُ
لُولاَ[1]أن غَاب امْعَه غَيَّب مَا عْدَاك ... ذَاك الحِين ارْتَاحْ مِمَّا يَنْتَابُ
تَنْتَاب غِير اعْلِيكْ ايخَاف اسْوَاك ... يَدْرَك شِي مِن حُسْن ذَاتَك بالبَابُ
هَذَا العْقَل عْلِيكْ كَزَّاز ومَلْكَاك ... مِن شُحُّه عَنَّك وشَح مَا عَابُ
لَولُه يَا قَيُّوم قْوَى مِن يُمنَاك ... تَدْرَك بِهَا تَيمَات واكتَابُ
فِي يَدَّه سِيفْ اعْظِيمْ مَاضِي للتَّسْفَاك ... يَسْفَك دَمْ الخَلْق طُرًّا لَويَأْبُ
يصبح الموجُودَات عُلْوَاك وسُفْلاَك ... مِثْل العَرْش ودُون حَتَّى لَذْبَابُ
مَا يترُك مَن يَذّكرَك حَتَّى باسْمَاك ... أو العَارَف لِيكْ يُذكُر احْرَابُ
وَلِّي يَزْعَم ايْقُول أنَا نَهْوَاك ... يا غَلَّه عَنُّه ودَعْوَاه اسْبَابُ
ثم دَاعِي القُرب لَيْتَاكْ بقُرْبَاك ... ذَاك الِّي عَرَّضْ اذْيَارُ لخَرَابُ
لَوْ لِي بْعِلْم بْصِفَة مِن وَصْفَاك ... وَيْحْ مَا يَفْقَهْ بْتَدْقِيق اعْرَابُ
أَمْ الغَافَل عَنَّك حَقَّك مَا يُتْرَاك ... واذَا غَاب القَلْب يَدْوُوكْ اعْصَابُ
كُن عْلَى وِفْقِي انْخِيل عْلَى عَظْمَاك ... لَا تحرمَه سْفَكهُم لُو يَغضَابُ
بعدْ السَّفْك يحرقْهُم بَاحْرَاك ... بعْد الدَّقْ والسَّحْقْ حَتَّى يَرْطَابُ

---

[1] في (ب) و (ج): لَمَنْ.

[2] كذا في (ج)، وفي (ب): يْطُولْ.

[3] في (ب) و(ج): صَرْتْ.

[4] في(ب): يْقَاسِيهْ، وفي (ج): يْقَاسْيُوهْ.

لَنْ يَضْحُوا كَالمُهلْ فِي فَسْحَات افْضَاك   أو الجُرحْ الِّي يَكْتْوِه اضْبَابُ
يَطْلَق عَنهُم رِيح صَرْصَار وهَتَّاك   يَرميهِم رَمْي الهبَاَ فِي تَهْبَابُ
ثمّ تْثَمَّن لُو ابْذَلَك الاسْتِهْلاَك   أو تْضَاعَف لُو بتَصْحِيحْ اعْذَابُ
لُو تَبْقَى وَحْدَك اوْحِيدْ كَمَا انَّك   فِي الحَضْرَا والحِين دُون ارتِيَابُ
يَا مَن لاَ يَلهِيكْ عَنَّك ذَاك وذَاك   كُوْن العَالمَ اوحْفَظ واذهَابُ
بْحَر فِين يَبْرَز الأشْيَا سُلطَانَك   حَرْفَان يَنْقصُوا غْلَظ احْجَابُ
بسِيدي لا تَكْشَف اغْطَاك عْلَى مَعْنَاك   لِمَنْ لاَ يَدرِي لْمَعنَاك اصْوَابُ
مَنَّك مَا حَقَّقْ اسوَاكْ ولاَ يَدْرَاك   جَلَّ اجْلاَلَكْ يَا مْهَيمِن رْقَابُ
هَل لِمَا بِين كُنْ اوجَدْتْ عَاد ادْرَاك   آشْ ايرَى مَسْكِين يَحَيْوْ اطْلاَّبُ
[قل] تَاذَن لُو يَقْوَى واستَبرَاك   يعْجَزْ بَانْ فِيه رَدُّ و تجْوَابُ
يَا فَرْدَانِي الذَّات يَا نَاهِي عَظمَاك   نَقْسَم بِك اعْلِيك واحْمَدْ الأَوَّابُ
فِي مُرَادِي لاَ تْجَلَّ اعْلَى مَحْلاَك   مُلْكًا دَار أو مُرْسَل مُجتَابُ
أَم البَاقِي عَاد مِن بَابْ احْرَاك   نَزَّه ذَاتَك بِك بنى الأسْلاَبُ
خَص اجمَالَك بِك واكْذَ لَك بْهَاك   أحَقْ أن تَبَّصْرُوا دُون اقْرَابُ
خَص أوصَافَك بِك و كَذَلك اسْمَاك   خَص اذْكَارَك بْك مَن دُون احبَابُ
خَصْ اسْرَارَك بِك وكذَلك غيَباك   يا مَن غَيَّب غَيْبَه فِي غَيْبْ اغْيَابُ
لاَ فِي يَا خْفَى اعْلِيكْ اخْوَا واهْمَاك   غِل وقِل وشُومْ واغِثْ وانْدَابُ
حَمْقِي مَا حَمْقُو عْلِيك أقْرَا ولا هْفَاك   زِدْت يَا رَب مْعَ الحمْق اشْغَابُ
ضِيق امْرَاحِي حَازْنِي واغْرَام اهْوَاك   حَتَّى كَادْ الجْبل يَرحَل فِي اشْعَابُ
فاعترَاضِي وانهِتَاكِي لحِرْمَانِي   لَمَّا انْ نَازَعْتَك فِي مُلْكَك نَغْتَابُ
كَفْ عْلَى لُومِي فَسَرِّي مَا يَخْفَاك   يَا مَن لَولاَ الشَّرْع صَرَّح باخْطَابُ
لَبَاحْ فُؤَادِي بكَتْمَانَك وافْشَاك   واكشَفْ مَا انْتَ عْلِيه بَصْوَابُ
من رَحْمَاتَك وانعطَافَكْ ثمَّ اعْطَاك   بَعْد احْسَان فِيه يَعْيَوْا كُتَّابُ
أمْ سَخْطَك ذَاك هُو عَين أرْضَاك   ذاك الِّي جَهْلُوه مَنُّه هُرّابُ
لُولاَ مَا فِيَّ احْيَا مَنَّك لجْدَاكْ   انْقُولْ اكْلاَمْ عْلِيهْتَسْيَافْ رْقَابُ
نَسْقُط مَا عَن البُرَاق مِن كُلْفَاك   حتّى ما يْحَمَّل المحمّل لارصابُ
بِاعْتِمَادِي عَن سْوابَقْ حُكْمْ اقْضَـــاك   هَذَا الحُكْم الكُلِ الِيهْ اسْتْجَابُ

يَا مَن لاَ فِي الخَلقْضُرَّا مِن نَفْعَاك   ولاَ اسَاءَة مِن أَسَا لِيه [كذا]
انْتَ انْتَ قَد اكْفَاك اكْفَاك اكْفَاك   يَا مَن لاَ يَكْفِيه غِير فِي دَأْبُ
تَرَكَك مَعرفَه، وعَرفَانَك تَرَكَاك   اللّي زَال اعْلِيه مَستُورْ احْجَابُ
غَايَب سَاكُوتِي وسَكْتَاه نَجْوَاك   يُرَى سَاكَت وهُو فِي حَال اجْذَابُ
وَالَهْ مَتْحيَّر وحِيرَه فِي اطْنَابُ   لُولاَ مَا حْلاَه صَبْرُوا وجَلْبَابُ
ممّا نَابَه كَادْ تَنْشَقْ اجْنَابُ[1]

فأنت ترى كيف حمد الله على نعمه عليه وكيف رتب طريق سلوك، فبدأ بالإسلام، ثم بالإيمان، ثم بالإحسان، وفيه بلغ لمقام الفناء، ثم ترقى لما بعده من المقامات والأحوال والغيرة وغيرها من النتائج، وسنعيد ذكره لمقام الغيرة عند ذكره لها، وقال في قصيدته النونية:

أَمَّا انتَ انتَ بْلاَ انـــتَ   وبْلاَبْشِي مِــــن ذَلَـــكْ
فالبَحْثْ فِيكْ كُل مَقْـــت   اللِّي بْلَغ بْلاَ السَّالَــــكْ
مَا لُوا اصْوَاب غِير السَّكْـــت   والصَّمْت والأدَاب لِيـــــكْ
يَفْنِي فْنَاه لَيْس يْبَـــان   لُو شِي مِن فْنَاه فِي الفْنَى الفَـــانِي
ثُمَّ تْعُود لُوا وَحْـــدَان   تَمْتَازْ وَحْدَة بالوَحْدَة وَحْـــدَانِي
[شَغَفْ فُؤَادَك حَيْـــرَان   بْحُب مُجْتَبَاك مُحَمَّد يَا عَـــان][2]

وإن أردت أن تحقق أحواله، فتتبع أقواله، وزنها في ميزان القسط على سنن العارفين المحققين تجد المطابقة إن شاء الله، قال لسان المتكلمين وإمام الموحدين وزين العارفين سيدي محمد بن يوسف السنوسيτ ونفعنا به وبعلومه حيث تكلم في اختصاره لكتاب السلوك المسمى «روض المحاسن» على نتائج ثمرة المشاهدة من منزل الإحسان ما نصه:" الثالثة: الفناء التام، وهو المعبر عنه بفناء العباد، وهو فناء عن الوجود وعن شهود الفناء، بقاءا مع الحق لعِز الجمع، وذلك يرقى بالروح عن الاستغناء بفناء شهود العيان الحاصل له في منزلة المراقبة".

ثم قال الشيخ السنوسي: "الثامنة الغيرة وهي التي تؤدي بالمعرفة إلى الارتقاء إلى بحبوحة الأدب، وتنشأ عن المحبة الخالصة والغيرة عبارة عن التلبس بالرسوم والكتم من البشر، والإشارة دون تصريح صيانة للأسرار، وإتباعا لمحل الأمانة، وذلك يرقى بالروح عن ضيق الحمل ومطوعة المزح". وقد أشار الناظم إلى هذا أيضا بقوله: "بعد ابْقَاه غَابْ من حُسْن أَدَابُ". وبقوله: "تنتاب غير اعليك ايخاف سواك الخ"، وبقوله: "كَفْعْلَى لُومِي قَصْدِي مَا يَخْفَاكْ".

---

[1] من البيت الواحد والعشرين إلى هذا المحل، ساقط في (ب) و(ج).

[2] إضافة في (ب) و(ج).

ثم قال السنوسي: "التاسعة: الحياة المؤذنة بالبقاء الدائم، وهي التي تنشأ عن الفناء التام، وتعرب عن الجمع الصحيح خروجا عن علق التفرقة إلى الحق، وعُدُولا عمَّا سواه، فليس بعد هذه الحياة انفصال ولأورادها إشارة، وذلك يرقى بالروح عن حياة العلم إلى حياة اليقين بلا حد ولا رسم ولا أثر ولا قبل ولا بعد ولا شبه ولا زمان ولا مكان"، وقد أشار الناظم τ إلى أنه جنا هذه الثمرة، حيث قال في قصيدته التائية:

قَد غِبْت في حْبِيـــــــــبِي ... حَتَّى اضْمَحَلّ رَسْمِـــــــــي
وابْطِيتْ في مْغِيـــــــــبِي ... أنْ صِرْتْ ذَاتًا باسْمِـــــــي
في حَالَة انْجِـــــــــذَابي ... بْلَغْتْ لَمْهَمِّـــــــــــي
بْلَغْت أَقْصَى وَطْـــــــرِي ... لَيتْ انْجِذَابي فِيَّ لَيْـــــــت
لَكَان فِيه عُمْـــــــــرِي ... يَسْلَك مْعَه فَلْتَـــــــــا

ثم قال السنوسي: "العاشرة، التفريد، وهو تخليص الإشارة إلى الحق بالحق، يعطي المحبة أولا والافتخار ثانيا، وهداية الخلق ثالثا، وذلك يرقى بالروح عند توحيد الصفات إلى توحيد الذات من غير مفارقة النعوت"، وقد أشار الناظم رحمه الله إلى نيل هذه الرتبة العليا أيضا في قوله في تائيته:

انْتَ ومَن ذُو غِيـــــــرَك ... حَتَّى يْحِبَّك عَـــــــــنِّي
مَنَّك اليك سُؤْلَـــــــك ... مَنَّك الجَواب يَشْـــــــنِي
الفِعْل كُل فِعْلَـــــــك ... والقَوْل لَسَّه مَـــــــنِّي
انْتَ لاَنْتَ تَـــــــدْرِي ... انْتَ فَانْتَ انْـــــــتَ
إنْ في صْمِيم صَـــــدْرِي ... سِوَاك قُل لِي انْـــــــتَ

ويقول أيضا:

انْتَ بغِير صْفَـــــــا ... تَثْبَت لَك الكَمَـــــال
لاَ النَّقْص عَنَّك يَنْفَـــــا ... بِهَايَا مُتَعَـــــــال
لم يَنْصفُوك نَصْفَـــــــا ... قَوَّال ذَا المقَـــــــال
شَطْرِي يْقُول شَطْـــــرِي ... أَنَا وانْتَ كِلْتَـــــــا
مَنْ قَال هَذَا فَـــــــادْرِي ... بأنَّهْ خَسِيسْ بَتَّـــــــا

ثم قال السنوسي أيضا: "الحادية عشر: الغربة، وهو غربة الهمّة في طلب الحق، حتى ظهرت له الأسرار على أكمل ما تقتضيه عيون الحقائق، فهو غريب الدنيا والآخرة، فطوبى للغرباء، وذلك يرقى بالروح عن التلبيس بالشواهد،

ولو لمحة"، وقد صرح الناظم بأنه على ثمار (رياض)[1] هذه المنازل احتوى، وعلى أفنان ثمرة الغرباء استوى: [وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ][الرحمن/46]، [وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ][الرحمن/54]، [هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ][الرحمن/60] ، فقال:

مَبْهُوتْ فِيـــــــــكْ مُن ذُو ... كْشَفْـت عَن غِطَـــــــــــائِي
وابْقِيتْ فَرِدْ فَـــــذْ وَلَا حَد يَنْبَا ... فيك الوجُود نَفْذُوا يَا هَاء هَاء هَــائي
هُو انْتَ فَــــــــرْد وَتْرِي ... والوَتْر فِيكْ كُل انْتَ بلاَ صِفَات تَجْرِي
في ذَهْنِي ثَابَــــــــت انْتَ

ثم قال السنوسي τ: "ومن علامات حصول هذه النتائج اتصال البروق على الروح مع الثبات على حمل أعيانها وإقامة رسوم الشريعة في أوطانها على (اختلاف أطوارها)[2]، وإن كان ماحيا أوهام العادة فبالمعنى وملابسها عليه، كالثوب المعار وقاية لكتم السر وحفظا للحقائق، ومنها ارتفاع همّة الروح عن تلمع الأكوان غيرة على عين البصيرة والتي أبصرت الحق[3]، أن تلمع سواه بمبالات وصيانة لسرّه الذي تمتح بالحقائق أن يومئ إلى غيرها بإشارات، إلى غير ذلك من العلامات التي برق معناها".

وقد حَصَّل المصنف علامة تحصيل هذه النتائج في قوله فيما سبق: " انت انت قد اكفاك اكفاك اكفاك//" الخ بائيته، وكان سائلا سأله، وقال له: أي شيء ناب، هذا الذي كاد أن تنفطر أضلاعه؟ فأجابه بأول بائيته الثانية بقوله:

نَابْ حَيْرَ اكْبِير حَيْر ايرَادَف حَيْرا ... بَعْد الحيرْ الحيرْ مَن رَفْع احْجَـابُ
لَمَّا ضَالـه نَيَّر نَيْر يَا قَدِيـــــــر ... قْدَر انْسَان ايْسِير مَن ذَا اتَكْـرَابُ
ذْهَبْ قَاع الغِير خَـلاَّهَا لاَ غِيـــــر ... قَلُّـوا وكْثِيـر لاَ مَن يَنْتَــــــابُ
لا تهزا [كذا] قُولِي يا نَحرِيــــــــر ... بَاني ذَات اصْغير واجــزاوا عْيَـابُ
صُغْرِي ذَاك صْغِير عَقْلِي لاَشْ تْغِيرَه ... قِف واصْغِ قَـــــــــولْ الأوَّابُ
كُلَّمَا نْشِير للعَراف نْشِيـــــــــر ... دَبَا جْنِين احْرِير غَزْلِي في اكْبَــابُ
اهْل ادْعَا لاَ صِير لاَ صْحَابُه التَّعتِير ... واقبَال وتَقْرِير وارَث وارْحَـــابُ
هم الِّي يدُوم اغْزِير الغَاز يغِيـــر ... غير ابْنَاي بْغِـير ذُوك الزُّهَـــادُ
سِير مْعَايَ سِير سِيدي ياشَنْتِيـــر ... يَا مَن جَاز امْرِير مَنْهَاج اسْبَابُ
قَص الثَّار وثَير خَلْفِـي غَايـــت ... تَبَرَكِي تَرى تَبهِير مُوسَى المصَابُ
في قَهَّار اقْبِير مَثْــوَاه تَقْهِيـــــر ... هيبَه للاباز حِين سْطَوْا وعذَابُ

---

[1] كذا في (ج)، وساقطة في (ب).

[2] في (ب) و(ج): على اختلاف أوطارها و أطوارها.

[3] في (ب) و(ج): التي بها أبصر الحق.

لِي وَلَّى اكْسِير من نَـــــــار   التَّنْوِير من غِير اعْجَــــــــابُ
لاَ بَاسْ واسْرِير عَرشْ ولاَ باكْثِير   خَلقَه عَاد اكْفِير يَا جَمِيع الحْسَابُ
هُوَ هُو بيرشَاه سَان ابْلِيـــــــر   غِير قاور ويد في غَضَب اغضَابُ
دُون ذَاك الجِير جِير امنـــــــار   الديره دِير الماحِي اليرطه المجتَابُ
هُو بَاب الخِير دُونَك يا بَلخِيــر   وادخل جَاك الخِيرمن بين ابْوابُ
بعد ذاك اتْطِير مَعْنَى لا تْطِيـــــر   طيران كان لطير طَيْرَك تَشْـــوابُ
وانزَل لاَ بأكسِير جنح ولا باضَير   عن عُمَّار اعْمِير مَعْمُور ايجَابُ[1]
منّه افُؤَادِي كِير في انْفَاس تَزْفِير   من حُمَّان [سْعِير][2] وَصْلُه واقرَابُ
لَولاَ مَا جَلدُه صَبْرُوا جَلْبَـــاب   مِمَّا نَاب كَاد تَنْشَق اجْنَـــــابُ

(آخر الأخرى، وسنذكر أول الأولى إن شاء الله عند قول الشيخ: "تنفي عني الدين والريب"، فمن أرادها فليحفظها مرتبة كما ذكرنا، فإني أول ما حفظتها عن الناظم مصححة من فمه، ثم قال لي: أكتب عنّي كلام اللباس ولا تقنع بمده للرعاة الهروجية، فإني وضعتها لأولاد سيدي محمد بن القاضي، وعليك بقصيدة (حزب العارفين) فكتبتها عليه، رحمة الله علينا وعليه)[3].

ثم انظر رحمك الله إلى رجحان ميزان هذا الغريب تغمده الله برحمته، وألقى عليه جلباب ستره وغيرته، ووهب له من علومه اللدنية ما تضيق به الصدور ولا تفي به السطور، فسبحان من خص من شاء بما شاء، فإن قلت ما ذكرت من مراتب الفناء في التوحيد وكونه حالا ومقاما لبعض الأولياء كالناظم هو مخالف لقول الغزالي فيما سبق عنه، فكان أول مقامه υ نهاية مقامات الموحدين، مجاوزا أقصى غاية الخلق فكيف الجمع بينهما؟ فالجواب: "أن الجمع بينهما ممكن لمن جمع الله عليه قلبه، وذلك أن للتوحيد ثلاث درجات، بعضها أعلى من بعض، الأولى: التوحيد ثم الوحدانية ثم الوحدة، ولكل درجة رجال.

وقد بينها البسطامي في رسالته «الأنوار» بقوله: التوحيد هو ما يحصل للمبتدئ عن صدق المقال مع اعتقاد القلب، وهذا مقام العوام، والوحدانية وهو ما يصدر عن الحال بإرادة الحق في مرآة الآفاق، والأنفس للمُتوسِّط ذَلك؛ وذلك بأن يتجلى القلب بحلية التوحيد على ما قال تعالى: [فاعملوا] إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو، أمرهم بعلم التوحيد وذلك مبني على تجريد القلب عن تعليقات الكونين، ليكون قابلا لنور الوحدانية، فيستفيد منه علوم التوحيد، وهذا مقام الإحسان للخواص، والثالث: الوحدة وهو المقام المحمود الذي اختص به محمد ρ في قوله تعالى: [عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً][الإسراء/79]، دون سائر الخلائق بعد أن خاطبه بقوله: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ][محمد/19]، اللهم إلا بعض خواص الأولياء من (أمّته ومتابعيه بتَبَعِيته)[4]". فقوله: اللهم إلا بعض خواص الأولياء مخصص لتعميم الغزالي، والقاعدة: أن الخاص من الكلام يقضي به على العام، والمطلق يرجع

---

[1] من البيت الرابع إلى هذا المحل ساقط في (ب) و(ج).

[2] إضافة في (ب) و (ج).

[3] مابين قوسين ساقط في (ج).

[4] كذا في (ج)، والعبارة ساقطة في (ب).

للمقيد من الكتاب والسنة وكلام العلماء، فإذا ثبت هذا فيفسر كلام المحققين[1] بعضه ببعض ويرد كل إلى وفاق ودليل صحة الاستثناء من كلام البسطامي[2] قد يقتبس من الآية التي استشهد بها وذلك أن الواحد الحق لما أمر الجميع بمعرفة أحديته وخاطبهم بقوله:[فاعلموا] إنما أنزل بعلم الله [وَأَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ][هود/14]، خصص المخصص من بينهم بزيادة تأكيد الأمر بصيغة الوحدة والإفراد، فقال: فاعلم، أي يا محمد أنه لا إله إلا الله ثم لم يقنع منه بالمساواة مع غير في مطلق العلم به والمقام معه في درجة القصور عن غاية معرفة الفرد الشكور، فقال:[واستغفر لذنبك][محمد/19]، أي أطلب المزيد من ربك ولا تفتر عزيمتك أو تسكن همتك فتقنع بالمقال[3] الدوني وقد قال أخوك يعقوب لنبيه: [إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ][يوسف/96]، فامتثل أمر مولاك واجعله إماما، وقل وإن بلغت غايات الكمال (ربي زدني) علما فانهض واستغفر لطلب القرب والمزيد وتحقق[4] مراد الرب من العبيد واثباتا بما قد حصل عليه من درجات المعارف والخبرة، وقال لنا أني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة، ولما أن كان (للكل)[5] إماما وترقى في كل يوم سبعين مقاما وخواص أمته على أثره مهتدون وبه مقتدون، وكان من سجيته التخلق بالرأفة ومكارم الصفات، وقال هل من خصه بأعلى الدرجات: [وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ][محمد/19]، ليتبينوا أمرك، ويقدروا قدرك، ويشترك الجميع من آمن بك وبنا في التنعم في رياض[6] معارفنا، وكل يرتقي إلى درجته، وينتهي إلى غاية معرفته على(قدر عقله وقوته)[7] على ما اقتضته مشيئتنا، وسبق به علمنا فربكم بذلكم أولاكم [وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ][محمد/19] ، فالقرآن المجيد أنزله الكريم شاهدا ومشهودا، وصيره للمشتاقين المتعطشين حوضا وموردا، [وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً] [الإسراء/79]، من الاقتباس بعون رب الناس.

قوله: الأسماء والصفات ينكره يحتمل كلام ا لناظم هنا تحملات الأولى: أنه أراد بالأسماء والصفات أسماء الحوادث وصفاتها، لأنها سوى الحق، فمن فنى عن العوالم ولم يشاهد إلا العالم أنكر الأسماء التي تدل على مسميات متعددة (ذميمة)[8]وأفناها في الأسماء الحسنى القديمة الدالة على ذات واحدة معلومة عظيمة، ومن لازم نكرة الأسماء (نكرة)[9]مدلولاتها وهي المسميات فينفيها كلها في الحق الواحد الموجود، وأنكر أيضا الأوصاف الحادثة القبيحة التي تدل على موصوفات (كشجرة)[10] منبتة وأفناها في الأوصاف القديمة التي دلت على موصوف واحد[حق][11] لا يبطل أبدا.

---

[1] في (ب): الأولياء.

[2] في (ب) و(ج): دليل صحة ما قاله البسطامي.

[3] في (ب) و(ج): بالكمال.

[4] في (ب) و(ج): و اعرف

[5] ساقط في (ب) و(ج).

[6] في (ب): درجات.

[7] ساقط في (ب).

[8] ساقط في (ب).

[9] في (ب) و(ج): نفى.

[10] في (ب) و(ج): كثيرة.

[11] إضافة في (ب) و(ج).

ومن لازم كره[1] الصفات الحادثة أنكر ما قارنها وصدر عنها من الأفعال الحادثة بحدوثها وافناؤها في أفعال الحق، فينادي صاحب هذه المشاهدة[2] ويقول: لا خالق ولا رازق ولا فاعل إلاّ الله ولا مريد، ولا عالم إلا الله ولا حي ولا قيوم، بل ولا موجود إلا واجب الوجود، وهو الله تعالى،[3] ويعضد هذا الاحتمال قوله في البيت الذي بعد هذا: "لولا أحمد" الخ، فيكون أخبر عن حال نفسه، وأنه فنى عن السوى الحقيقي وهي المذكورات المحدثة بأسمائها وصفاتها بل حتى عن ذواتها، فلم ير فى في الوجود إلا الموجود الحق، ويكون ممن قال فيهم أبو العباس بن البنّا: ثم فنا عن رؤية العوالم، ولم ير في الكون غير العالم، ثم امتحى في غاية الشهود، وأطلق القول: أنا معبود"، ولذلك قال الشيخ السنوسي: "وحظ العبد من اسم الجلالة الجامع دوام التعلق به في الظاهر والباطن والفناء به عن كل ما سواه تبارك وتعالى، لأنه لما أن كان اسما جامعا للذات والصفات والأفعال امتحا من القلب عند استحضار هذه الثلاثة القديمة المثال في حقه تعالى كلما عداه تبارك وتعالى من الذوات والصفات والأفعال، ولذلك كان هذا الاسم الأعظم الفرد الجامع ذكرا لأصحاب الفناء والبقاء، نسأله سبحانه أن يمن علينا بما من عليهم بلا محنه".

قال أحمد بن محمد الدينوري: "أدنى الذكر أن تنسى ما دونه، ونهايته أن يغيب الذاكر في الذكر يغرقه في مذكوره، بحيث لا يرجع له مقام الذكر، وهذا حال الفناء"، قال في «الشّعب»: "إذا تذكر العبد مقام ربه وحيطته به وقربه منه، قال سرّه: لا إله إلا الله، الرب على ما هو عليه من جلالة القدر والتعال، تنزل إليّ من جلالة عظمته إلى سهوله رحمته وكريم لطفه وعطفه، فلا يخوض سره بحرا من المعرفة بوصف من أوصاف الله الكرام؛ إلا فاض منه بحر من الغرق في المغيب عن مشاهدة أوصاف النفس اللئام، فيخاطبه كل وصف من أوصاف النفس بلسان الحال والمقام: أنظر ما عَمِلتَ مع ربك، وما عَمِل ربك معك، فلكل وصف لسان يخاطب في داخل الجنان، وفي مقابلة كل وصف منها يتجلى له وصف من أوصاف الرحمان بضروب الإحسان فيزداد حياء وإخباء، فيقول السر: يا ليتني كنت نسيا منسيا ولم أك شيئا مذكورا، فإن مثلي لا يصلح لمشاهدة هذه الحضرة العلية، فلا يزال كذالك حتى تفنى وتغيب أوصاف العبد، حين قوبلت بأوصاف الرب، فلاح له مقام آخر من الحياء، وهو الحياء من مشاهدة الصفات في مواقف الحضور، ويسمى حياء الآدب، وليس بعده مقام إلى الزيادة، والتلوين[4] فيه على ممر تجلي الصفات".

وهذا الكلام أسفر عن أحوال هذا المقام وأوضح رجحان هذا الاحتمال الأول، الاحتمال الثاني وهو أخفى من الأول أن يكون أشار لمقام الاتحاد والجولان فيه كما سنقف عليه إن شاء الله مبيّنا، وهو السير في الذات[5] لا إليها كالسالك ولا منها كالمجذوب المتدارك، [بالسلوك فيكون على هذا الاحتمال قوله: من سواه فنيت مجازا وليس بسوى حقيقة لأن أسماء الله لا يقال فيها هي هو ولا هي غيره وإلى][6] هذا الفناء الخاص أشار الحسين بن منصور الحلاج على إبراهيم الخواص بقوله له وقد رآه يطوف في البوادي لتصحيح مقام توكله: "أفنيت عمرك من ثلاثين سنة في

---

[1] في (ب) و(ج): كثرة

[2] في (ب) و(ج): فيقول صاحب هذا المقام.

[3] في (ب) اختلاف طفيف في هذه العبارات.

[4] كذا في (ج)، وفي (ب): التنوير.

[5] في (ب) و(ج): ذات الله.

[6] إضافة في (ب).

عمارة باطنك فأين الفناء في التوحيد" وتقدم بسطه للغزالي في قوله ‎υ‎: "أعوذ بك منك" ومثاله في الشاهد، ولله المثل الأعلى أن من كان حاضرا معك تراه ويراك لا يغيب عنك طرفة ولا أنت عنه كذلك.

فيحسن بك أن تناديه نداء البعيد أو تصفه وصف الغائب، بل يقبح منك ذلك لأنه لا ينادي بالأسماء إلا من كان نائيا[1] أو نائما، كما أنه لا يوصف وينعت إلا من كان غائبا لمن كان به جاهلا، والفرض أنه أقرب إلى الفاني فيه من نفسه التي بين جنبيه، وتحيط به بعلمه وقيومته ولم يغب عنه لحظة ولا هو طرفة، فمن كان بمَرْئى منك، وسمع كيف تسمه بالاسم أو كيف تعلمه بالوسم أم كيف تنعته بالقدم، أم كيف تصفه بالحق وما ثم ثالث غيركما حتى تصفه له أو تميزه باسمه، لكن أنت عرفته حق معرفته، حين قربك في حضرته، واختصك برؤيته، حتى رأيته بعين اليقين، وغبت في جماله عن الأسماء والأوصاف والتبيين، وهذا المقام، لا تظهر له في حال فنائه وغيبته بشهوده في مشهوده، لا تظهر له أسماء ولا أوصاف، ولا معاني ولا اختلاف.

[في الذِّكــر الظاهر والذكر الباطن:]

قال ابن خفيف الشيرازي: "الذكر قسمان، ذكر الله بأسمائه، وذلك هو الذكر الظاهر، وذكره بأن يراه على الدوام وهو بين يدين، وذلك هو الذكر الباطن، وقال: القرب هي المسافات بسبب المدانات، كان الناظم رحمه الله ينكر على الذاكرين بقلقلة اللسان فقط، فعلى هذين الاحتمالين يكون قول الناظم: "من سواه فنيت" المراد به السوى الحقيقي، وهو كل موجود سوى ذات الله وصفاته وأسمائه، ولا يطلق السوى على القديم إلا مجازا لأن أسماء الله الحسنى وصفاته القديمة، لا يقال فيها هي هو ولا شيء غيره، قوله: ينكره، إما على الاحتمال الأول فظاهره لأن من رأى الله لا يقدر أن يرى أحدا غير، قال ‎υ‎: «ولم أر عند رؤية ربي أحدا من خلقه»[2]، وأما على الاحتمال الثاني فيحتمل أن يكون الكاره وهو الله؛ والمكروه ذكرك لأسمائه وأوصافه في هذا المقام العالي، والكراهة هنا شرعية لا عقلية، وهي التي يستحيل وقوع الفعل معها، لأنه تعالى أن يقع في ملكه ما لا يريد، وقد وقع هذا الذكر اللساني لأكثر العبيد، وسبب هذه الكراهة ا لشرعية أن هذا الذكر اللساني لا يكره في هذا المقام الإحساني إلا عن نسيان المذكور.

والمطلوب منك ألا تنسى مذكورك ولا تغيب حضورك ولا تغفل عمن لا يغفل عنك، فإن نسيان من لا ينساك ظلم، قال عز من قائل: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ][الحشر/19]، (فالكراهة منصبة لموجب الذكر وهو النسيان والغفلة لا للذكر نفسه، فافهم رحمك الله)[3]؛ بل المطلوب منها أيها (المحسن)[4] أنت تنسى ما سواه اقتداء بنبيك الأواه، فإن الله خاطبه بقوله: [واذكُر ربّك إذا نَسيت][الكهف/24]، أي إذا غبت عما سواه فإن نسيانك لغيره هو عين ذكرك له، فلا تحتاج حينئذ إلى الذكر اللساني لما حصل لك من الذكر النفساني، ولذلك أمره بهذا في الآية الأخرى بقوله تعالى: [وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ][الآية205/الأعراف]، أي عن الذكر النفساني(حتى تحتاج إلى تذكير

---

[1] في (ب): غافلا.

[2] لم نعثر عليه في كتب الصحاح وكتب السنن.

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

الذكر اللساني)[1]، وهذا احتمال آخر في قوله تعالى: [واذكر ربك إذا نسيت][الكهف/24]، أي نسيت الذكر اللساني، فاذكر ربك الذكر اللساني، ثم اذكر انحطاطك عن مقامك الأعلى لمطلق العلي، فاذكر ربك بقلبك: [وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً][الكهف/24]، والخطاب له ρ خطاب لأمته، وتعليم لها، وإن كان هو في الزيادة أبدا، ولا يرتقي لمقام إلا لما هو أعلى منه.

وهذا الذكر اللساني كمال عند أهل الإسلام نقصان عند أهل الإحسان[2]، ولذلك قالوا: "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، روى أن أبا بكر الشبلي، قال بين يدي الجنيد: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقال الجنيد: قولك هذا ضيق صدري، وضيق الصدر لترك الرضى بالقضاء، والرضى رفع الاختيار وسأله: ما حسنات الأبرار؟، فقال سيئات المقربين، ثم أنشأ يقول:

طَوارِقُ أنْوَار تَلُوحُ إذا بَــدَت فتُظهر كِتمَانًا وتُخْبِرُ عَن جَمْـــعِ
وتِبْيَانُ إشْكَالٍ وإفصَاحُ مُهْمَــلٍ وإعْلاَنُ وَجْدٍ شَاهِد القُرب والمنـــعِ[3]

وزعق أيضا بين يدي شيخه أبي القاسم الجنيد، وكان حاضرا في الحضرة، فقال في زعقته: "الله" فأعلن بذكره، فأنكر عليه الجنيد، وقال: "مه يا شبلي الغيبة حرام، ومتى غاب حتى تذكره"، فانتبه يا غافل، بمقصد هؤلاء الأفاضل فإنهم لم ينكروا الأسماء الحسنى ولا الصفات العلى ولا ذكرها لسائر الرجال في كل المقامات والأحوال وحاشى لله أن ينكروا ما كان معروفا، أو يلحدون في أسماء من لم يزل بالكمالات موصوفا، ومن ظن بهم ذلك فقد أساء وتعدى وظلم.

ولك في ظاهر الشرع دليل على صحة ما قالوه، وهي أن الصيام والصلوات من أفضل العبادات والتقربات، وقد يحرم فعلهما والإتيان بهما في هذا الوقت بعض الأوقات كيومي العيد في الصيام وطلوع الشمس وغروبها في صلاة (النوافل)[4]، وكذا تقديم الفريضة عن وقتها وتأخرها عنه، وكذلك فعل الفريضتين للحائض والمحدث المنتجس في الصلاة إلى غير ذلك مما يكثر فإن هذه العبادات لم تكره لذاتها وإنما منع منها عارض أمر خفي رتبه العليم الحكيم، وعلى هذه الحالة خاصة لأمور منعت من ذلك رتبها بحكمته العليم الحكيم، فعلى هذا يحمل كلام الناظم في قوله: "ينكره".

ثم بعد كتبي لهذا الاحتمال (وتكلفي في توجيهه)[5] اطَّلَعت على ما يشفي الغليل ويبين السبيل من كلام الإمام أبي حامد الغزالي، نقلته من «الخلاصة المرضية في الطريقة الصوفية» للمريني رضي الله عنهما، ونصّه، قال الغزالي في كتابه المسمى «ثمرات الأعمال»، قال رسول الله ρ: «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»[6]، فمن حافظ على قول لا إله إلا الله ظاهرا ودام على ذكرها [باطنا][7] وجعل لسانه مستغرقا فيها فتح الله تعالى على قلبه نورا يكشف به عن

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): وهذا الذكر كمال في حقهم نقص في حق من سبقهم.

[3] البيتان ساقطان في (ج)، عثرنا فقط على البيت الأول في المصدر، ينظر: سعاد الحكيم، تاج العارفين الجنيد البغدادي، الأعمال الكاملة، ص: 323.

[4] في (ب) و(ج): التطوع.

[5] ساقط في (ب) و(ج).

[6] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1 (م سابق) ص: 417,

[7] إضافة في (ب).

سرها، ويستغرقه في أنوارها، ويشغف قلبه بذكرها وتصطفيه ثمرتها، (فيستمد)[1] من باطنها من عجائب الملكوت ما لا تستطيع العبارة تَحُدّ وصفها ونعتها، وتلك نتائجها وثمراتها.

ثم تنعكس أذكاره الظاهرة باطنة، وكلما دوام على الذكر، غلب ظاهره على باطنه، فيقوى ذكر الباطن ويفتر الذكر في الظاهر، إلى أن يقوى سلطان القلب على حركة اللسان، فتبطل حركة اللسان بالذكر، وينفرد القلب بالذكر، وكلما قوى باطنه ضعف ظاهره؛ حتى لا يستطيع الذاكر أن يتلفظ بالذكر ظاهرا إلا وفي وقت غفلة القلب، أو فترة تَرِد عليه، إذ الذكر ظاهرا وظيفة الغائبين، وذكر القلب وظيفة الحاضرين، فإذا أخذ الذاكر الحاضر في أفعال الغائبين والغافلين استحق قلبه الأدب، ثم ثمرة قلبه دائما إشراق شمس الروح على القلب، فيستغرق القلب في الأنوار الروحانية ويكاشف من اللطائف الربانية، ويرد على باطنه من الواردات الغيبية، ويهجم على محله من الأحوال السَّنِيَّة ما تستغرقه من الصفات البشرية، وترقيه إلى المقامات العلية والمنازل الملكية، ويفوز بالكرامات التابعة للنبوة المحمدية.

ثم يستغرق روحه في بحر التوحيد، ويستخرج بلطيف الفكر في معنى الذكر أسرارا لطيفة ومعاني شريفة، فيبقى ذكر القلب لها أول درجة رقت بها إلى درجة التقوى، وأول باب فتح لها من جنة المأوى، ثم فتح له بذكر القلب بعد إتقان ذكر اللسان بها باب جنة الخلد التي مفتاحها حقيقة لا إله إلا الله تفتح للقلب باب التذكير[2] في آيات التنزيل، وما نزل به الروح الأمين جبريل من الأحكام على خير الأنام محمد ρ ، رسول الله سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

ويحتمل أيضا على هذا الاحتمال الثاني أن ينكون عليك ويكره منك ذلك أهل مقامك، ينكره الذين حضروا معك في حضورك إذا بدت منك غيبة وغفلة بادَروا بالإنكار عليك بقلوبهم أو بألسنتهم إن أمكن ذلك كما وقع للجنيد مع الشبلي، وكما وقع لمحمد بن العبدلي مع المصنف (فإني حبَّبْت البعض إلى البعض، وأردت أن أجمعه مع الشيخ لعل الله ينفعه بمخالطته، فخرجنا يوم جمعة للاجتماع بالناظم في حرم أبي مدين، فلما بلغنا لمقبرة السنوسي، قلت لصاحبي المذكور: تعال نزور الشيخ في داره بالعبّاد، فقال: أستحي أن أشقَّ السوق، ولكن أنت اذهب إليه، وآتِينَا به لجامع أبي مدين، فأخذهم عن يمين العبّاد وأنا قصدت الناظم بغرفته، وقلت: إن فلانا ينتظرنا وحرّضتُه على إفادته من كونه يخالطنا فلم يحفل الشيخ بذلك، ومال به إلى مسجد "الزرادلة"، ولم يعجل بملاقات المذكور، فوقع لي منه في ذلك المسجد، ما سنذكره بعد إن شاء الله)[3].

ثم خرجنا لصلاة الجمعة فلقي الرجل واجتمعنا عليه حلقة بعد الصلاة، فصار يحدثنا على الحضرة، حتى غاب في الحضرة وغبنا بغيبته، وكان هذا الرجل[4] المذكور أثقله نظره إلى نفسه عن الجولان في سماء الغيوب مع الشيخ τ، فصار يذكر بلسانه في (استنانه، وشوّش عل الحاضرين لا الغائبين)[5]، فنظر إليه الشيخ نظر مغضب وأحسسنا بذكره كأنه يرمينا بالحجارة في تلك الساعة، ولهذا قال الناظم: "لمن تبدوا ثمّ يا عَنتيت"، أي لمن تظهر هذه الأسماء

---

[1] في (ب) و (ج): فيشهد.

[2] في (ب) و(ج): التذكر.

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] في (ج): كان بعض جلسائه.

[5] الكلمة ساقطة في (ج).

التي تذكرها والأوصاف التي تصفها تمَّت؛ أي في مقام الحضرة والفناء في بحر الذاتي يا عنتيت (عارف فَحلٌ مقلد أو جاهل)[1] مُعَنّت على رأيه؛ غير مُسَلِّم لأحوال الرجال ولا مقلّد.

قال ذون النون: " صحبني أسود في التيه، فكان إذا ذكر الله تعالى يبيض وتتحول لبسته، فقال ذو النون: "أما أنك لو ذكرت الله تعالى على حقيقته لتغير لونك ولحالت لبستك، ثم أنشأ يقول:

ذَكَرنَا وما كنَّا نَسِينا فَنَذْكُرُ ... ولَكِن نَسيمُ القُربِ يبدُو فَيُبهرُ
فأفنى به عنّي وأبقى به له ... إذ الخلقُ عَنْهُ مُخْبِرُ ومُعَبِّرُ

وكان الشبلي ينشد في مجلسه:

ذَكَرتُكَ لَا أَنِيّ نَسيتُكَ لمحَة ... وأَيْسَرُ مَا في الذِّكر ذِكرُ لِسَاني
وكُنْتُ بِلَا وجْدٍ أموتُ من الهَوَى ... وهَامَ عَليَّ القَلْبِ بالخَفَقَانِ
فَلَمَّا رَآني الوَجْدُ أنَّكَ حاضِر ... وأنَّك موجودٌ بكلِّ مَكَانِ
فَخَاطَبتُ مَوجُودًا بغَيرِ تكَلُّمِ ... ولَاحَظتُ مَعْلومًا بغَيرِ عِيَانِ[2]

ويحتمل وهو أظهر أن يكون صاحب هذا المقام الفاني في مشاهدة حضرة الذات عن مشاهدة الأسماء والصفات إذا التفت نفسه إلى ملاحظة ما ذكره كره منها ذلك، لأنه رجوع إلى مقام قد فرغ من قضاء حقوقه، ورحل عنه فإن في ذلك تضييع وقت، وقد نهوا عن ذلك، وقالوا: "لا تكن كحمار الرحى يرحل، ويدور"، والذي ارتحل عنه هو الذي ارتحل إليه، بل امض على حالك في الطريق القويم ولا تلتفت وراءك، فالذي تطلب أمامك، وأيضا الفاني الغائص في بحر الذات لا يقدر أن يلتفت إلى ساحل الأسماء والصفات، لأن ماء هذا البحر محي عن لوح قلب مباشرة جميع ما كان مكتوبا مثبتا قبل دخوله فيه، ولم يبق في نظره بعد تَصَفِّيه إلا مُصَفِّيه، قال الغزالي: "وقد تتعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية"، ولذلك قال بعضهم: إني لأقول: يا رب، يا الله، فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال، لأن النداء من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه".

قلت وهذا حال صاحب هذه القصيدة τ ، فإنه كان كثيرا ما (يجهر)[3] ويقول: "بحر الذات ممحي للأسماء والصفات"، ومعنى هذا المحو عن عين صاحب هذا المقام، وإليه يتوجه المحو والتغير لتقلبه في المقامات وتحوله في الحالات، وأما ما في نفس الأمر، فإن الله تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولا يزال بها (أبدا)[4] تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة، (وإنما صفاته قديمة بصفة ذاته باقية)[5] ببقائها لأن الصفة لا تفارق الموصوف، فافهم لعلك

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] سجّلنا اختلافا في البيت الثالث كالآتي: فلمّا أراني الوجد أنك حاضري // شهدتُك موجودا بكلّ مكان. ينظر: عبد الحليم محمود، تاج الصوفية أبوبكر الشبلي، حياته و آثاره، دارالقاهرة، ط2، د تا، ص: 58

[3] الكلمة ساقطة في (ب) و (ج).

[4] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[5] في (ب): و إنما صفاته قديمة باقية بقدمه.

تسلم، فإن هذه (أمور)[1] ذوقية لا يحقها إلا من كان في مقامها، وأما نحن وأمثالنا، فالواجب علينا التسليم لأهلها، وحمل كلامهم على أحسن المخارج لما تَكَلُّفنا، أو اعْتِراضنَا، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن شر كل ذي شر[2].

قال الشيخ سيدي أحمد زروق رحمه الله:(قاعدة)، "مبنى العلم على البحث والتحقيق، ومبنى الحال على التسليم والتصديق"، فإذا تكلم العارف من حيث العلم نظر في قوله بأصله من الكتاب والسنة وآثار السلف؛ لأن العلم معتبر بأهله وإذا تكلم من حيث الحال سلم له ذوقه، إذا لا يوصل إليه إلا بمثله، فهو معتبر بوجدانه فالعلم به مستند لأمانة صاحبه، ثم لا يُقتدى به لعدم عموم حكمه إلا في حق مثله.[3]

قال أستاذ لمريده: "يا بُنَي بَرِّد الماء فإنك إن شربت ماءا باردا حمدت الله بكلّية قلبك، وإن شربته سخنا حمدت الله عن كزازة نفس، قال: يا سيدي فالرجل الذي وجد قُلَّتَـهُ قد انبسطت عليها الشمس، فقال: أستحي من الله أن أتعَلَّها لحَظِّي، قال: يا بني ذلك صاحب الحال لا يقتدى به"[4]، وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويصير العبد محوا في وجود العيان.

قال نجم الدين كبرى قدس الله سره العزيز: "قد ينتهي السالك بعد مدة مديدة من الذكر باللسان إلى حد يسأم القلب عن ذكر اللسان، ويكون تشويشا له فيمنع اللسان عن الذكر بدوام حضور القلب، فلا يجري الذكر على لسانه ولو سنين وهو مؤمن موقن متقن إلا في الصلوات المفروضة عملا بفتوى القلب، فإنه لا يفتي بترك المفروضات ولا بما فيه شك أصلا، ولهذا ورد في الخبر: «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك»[5]، وحينئذ يتبدل الذكر النفسي بالذكر (القدسي)[6] ويشغله الذكر الحقيقي بالمذكور، ويلهيه عن صورة الذكر، فيعرف حينئذ قول السادات: "أن ذكر اللسان لقلقة، وذكر القلب وسوسة"، وأنشدوا:

مَا إن ذَكَرتُكَ إلاَّ هَمٌّ يَلْعَنُنِي ... سِرِّي وقلبي ورَوحي عِنْدَ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيبًا منْكَ يهتفُ بي ... إيَّاكَ ويحَكَ والتِّذكارُ إيَّاكَ
أمَا ترَى الحقّ قَد لاحَت شَواهدُهُ ... وَوَاصَــلَ الكــلُّ من معنَــاه معنـَاكَ[7]

قال في «الرسالة المكية»: "حتى إذا استغرق الذاكر في الذكر القلبي أمره شيخه بترك ذكر اللسان، وشغله بالتوجه إلى مولاه الذي هو ليس في مكان كي لا يقف موقف المنقطعين، فإنه وقوف في الصفات وانقطاع عن الذات". وللمصنف τ قصيدة في هذا الشأن تدل على علو مقامه وبلوغ غرامه لمرامه، حتى تمنى اتصال جذبته بحمامة، يقول فيها:

---

[1] في (ب) و(ج): إقامات.

[2] في (ج): فنعود بالله من ذلك.

[3] النص ساقط في (ب) و(ج).

[4] النص ساقط في (ب) و(ج).

[5] الحديث أورده بلفظ مختلف اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1ن ص: 136.

[6] كذا في (ج)، وفي (ب): القلبي

[7] أوردها ابن عباد النفزي عند شرحه للحكمة السابعة والأربعين من حكم ابن عطاء الله السكندري، ولم يعزوها إلى قائلها. ينظر: ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية (شرح ابن عباد النفزي الرندي)، ص: 200

أنت بغير صفـــــا	تثبت لك الكمال
لا النقص عنك ينفى	بها يا المتعـــــال
لم ينصفوك نصفـــا	قوال ذا المقـــال
شطري يقول لشطري	أنا وانـت كلتـــا
من قال هذا فادري	بأنُّو خسيس بتّا
أنت بلا أســـــامي	اسماؤك الحسـنى
في كل اسم دمـــي	أن نرى لو معنى
أو نذكرك بفمـــي	يخرص بفمي لسنا
أو في الفؤاد ذكري	كذا العظام سكتا
والسَّر سِـــر سرِّي	كَدت أنكون أنتا

قال البيهقيτ: "سئل [سلطان العارفين][1] أبو يزيد البسطامي τ عن حقيقة المعرفة فقال: "الحياء بذكر الله تعالى"، ونقل الشيخ السنوسي في اختصاره «روض المحاسن»، إثر كلامه السابق عن الساحليτ ما نصه: "وهذا القدر أبلغ ما تسمح به العبارة في هذا المنزل لأهل هذا الشأن، ولا يعدم له نكير من غيرهم، لكن إنما يُتَحَدَّثُ بكل علم مع أربابه، وأقل ما يكفي لمن سمع شيئا من أسرار هذا الطريق الإيمان المحض به، وحسن الظن بأهله، جعلنا الله منهم آمين، وليعلم أن هذا الطريق غريب الوجود عزيز المثال شريف الأحوال وكله راجع إلى الأذواق، فمن لمن يكن عنده ذوق، فليكن عنده إيمان به، مع أنه لم ير منه إلا رسوم دائرة وأطلال عافية وأثار متغيرة، فيا ليت شعري مع من يتحدث بهذه الأسرار، وعلى من تتلى سور هذه الأخبار، ولمن تُجَلَّى عرائسُ هذه الحقائق.

حدثني أبي قال: "كان أبو القاسم المريدτ إذا جرى ذكر من أحوال من طريقه، يقول: هذا الشراب لكن (لا)[2] يوجد مع من يشرب، ولم يزل أهله محافظين على ستره بالكتم غيرة على أسرار الأذواق وظِنّة بالحكمة على غير أهلها، فلما كسدت سوق سلوكه عرضت نفائس أعلاقه لعل الفِطَرُ السلمية تتنافس في اقتنائها، وتزاحم على مواردها لتنال منها ولو حسن الظن والحب في أهلها، "ومن أحب قوما فهو منهم".

ومن كساد سوق هذه السلعة أن عُرِضت علينا حتى كان المصنف τ يعرضها علينا المرة بعد المرة، ثم أنه إذا كان ليلة الخميس والجمعة وليلة الاثنين يأمرني بالمبيت معه في حرم أبي مدين، أو في مسجد الرحمة عند ضريح سيدي أبي العلا" أو في مسجد سيدي يعقوب التفريسي عند ضريحه وضريح سيدي وهب بن منبه التابعي رضي الله عنهم وعن جميعهم لنقرأ كتب القوم، ثم يُسمِعُنا من نغمات بنيات صدره حتى يصبح ويقول لي: يا ولدي إنما حرصتُ[3]على صحبتك لأن قلبك فارغ يقبل ما يلقى إليه لصغر سنك، حتى أضرَّ بي السهر، فطلبت منه أن يقيلني من المبيت معه، فأقالني، ويا ليتني تمتّعت بمبيته (طول عمره)[4]، ولكن: "من عُرِض عليه فلم يقبل طَلَب ولم يجد" فإن لله وإنا إليه

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] في (ب) و(ج): أردتُ.
[4] ساقط في (ب) و(ج).

راجعون على ما فاتنا منه، لكن نرجو المولى الكريم الذي عرَّفَنا به في حياته، حتى أسمعنا كلامه وأمرنا بحفظه أن ينفعنا به وبمحبته بعد مماته، إنه سميع الدعاء.

وقد أنبأ بمقاله واعتذر عن حاله في قوله في آخر تائيته" إثر قوله:

(كَدْت أن نْكُـون المتقَـدَّم — قَـــدْ غَبَــتْ فِي حْبِبِـــبِي
حَــتَّى اضْمَـحَـل رَسْمِــي — وابْـقِيـــتْ فِي مْـغِيــــــبِي
أَن صِــرتْ ذَاتا باسْمِــــي — فِي حَــالة انْجِــــــــذَابِي
بـْلَغـــتْ لَمْـهَـمِّـي — بـْلَغتْ اقْصَـــا وَطْــــرِي
لَيـــــتَ انْجِـــذَابِي لَيْتَـــا)[1] — لَـكَـان فْيـــه عُمـْـــري
يَسْلَكْ مْعَـــه فَلْتَـــــا — حَقَّقْــت فِيـــه سَلَّـــــم
يـَا مُـدَّعِـــي بْفِـقْــــــه — سَلَّــم عَسَـاك تَسْـلَـــم
لِمـَا جْهَلْـــت عَنُّـــــه — وإن فْهَـمـتْ فَاعْـلَـــــم
مَا ذا نَجــدُه مَنُّــــــــه — أعْـذَر (بـكُل)[2] عُـــذره
مَن ذَاق مَـالاَ ذُقـْــــت[3] — يَعظَــم لَدَيــكْ أَجْـــرِي
إذا لموسَى دَعَــــــــت

قوله: "لولا أحمد ذاك العالم"، أي شيء هو في جنب كان τ يقول: "ما في الوجود إلا الله"، وإن كان ولا بد من الفرق بالسوى فهو محمد، ويسمى أحمد، لأنه أحمد من جميع العالمين الحامدين، وأُعطي من المحامد ما لم يعطه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولذا ألهم للمحامد في وقت الشفاعة وبيده لواء الحمد، أي لولا أحمد المتخلق بأخلاق الربوبية، أي شيء هذا العالم في جنب عظمة الله، حتى يستحق أن يوصف بالوجود معه، أو يلحظ بعين الإثبات.

قال في الحكم: "الأكوان ثابتة بإثباته، (إذ وجودها منه وبه)[4] وممحوة بأحدية ذاته، إذا لا وجود لشيء معه[5]"، قال رجل بين يدي الجنيد: "الحمد لله، فقال الجنيد أَتِمَّها كما قال الله، فقال الرجل: ومن العالمين حتى يذكروا مع الحق، فقال: قل يا أخي فإن الحادث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر"، وقال أبو القاسم النصراباذي[6]: "(الحق غيور)، فإذا بدا لك شيء من موارد الحق فلا تلتفت (معه) لجنة ولا لنار، فإذا رجعت من تلك الحالة فعظم ما عظمه"، إذا من آداب العارف أن يعظم ما عظمه الله من أمور الكون[7].

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] كذا في (ج)، وفي (ب): بك.

[3] كذا في (ج)، وفي (ب): ما ذقت

[4] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[5] الجملة ساقطة في (ج).

[6] شيخ خراسان في وقته صحب الشبلي وأبا علي الروذباري، جاور مكة سنة 366هـ وتوفي بها سنة 369هـ، وكان عالما بالحديث كثير الرواية. وفي الأصل: لا تلتفت معها ينظر: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 30 .

[7] في المصدر:(الحق غيور): ساقط ، لا تلتفت (معها). ينظر: المصدر نفس، والصفحة نفسها.

قلت أشار بهذا القول عليه الصلاة والسلام: «اذكروا العظيمتين الجنة والنار»[1]، لكن لما عظم الله أمر محمد وخَلَّقَه بأخلاقه، وكان من خلاصة أفعاله حق أن يلحظ هذا العالم من أجله، ويقال تعظيما لحقه: "اللهم صل على سيدنا محمد في الأولين وصل على سيدنا محمد في الآخرين، وصل على سيدنا محمد في الملأ الأعلى إلى يوم الدين وصل على سيدنا محمد في النبيئين وصل على سيدنا محمد في المرسلين، اللهم أعط لسيدنا محمد الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة، اللهم إني آمنت بمحمد ولم أره، فلا تحرمني في الجنان رؤيته، وارزقني صحبته، وتوفني على ملته واسقني من حوضه مشربا رويا [سائغا][2] هنيئا لا نظمأ بعد أبدا، إنك على كل شيء قدير، اللهم أبلغ روح سيدنا [ومولانا][3] محمد مني تحية وسلاما، اللهم وكما آمنت بسيدنا محمد ولم أره فلا تحرمني في الجنان رؤيته يا أرحم الراحمين يا رب العالمين".

وقد تقدم قول صاحب «الشعب» فعظم العقل ما اجتمع الكل على تعظيمه ومحقر ما اجتمع الكل على تحقيره، فلم يعول على شيء إلا عليه إذ ما سواه في (جنبه)[4] كَلاَ شيء. وقال ρ: "أصدق بيت قالته العرب كلمة[5] لبيد:

أَلا كُلّ شَيء مَا خَلاَ اللهِ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

ومن تمامه: وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُم ... دُوَيهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ[6]

وقال في حديث الإسراء:«ولم أر عند رؤية ربي أحدا من خلقه»[7]، وقال في الحكم: "يا عجبا كيف يظهر الموجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وعد القدم، [وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ[إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً]] [الإسراء/81]، [بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ][الأنبياء/18]، وقال صاحب «المواهب الربانية والنفحات الإلهية»: "معرفتك له أن تشهده في كل شيء، وقربك منه أن لا تشهد معه شيئا، كيف يشهد المفقود، أم كيف يشهد في الوجود من أحاط العدم بطرفيه مع واجب الوجود، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان". وبهذا ختم هذا الحكم وهي جليلة شرحها مؤلفها ولم أطلع على اسمه إلا أنه متأخر عن ابن عباد، لاعتماده فين نقله عليه، وأنشد ابن عباد في شرحه[8]:

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] إضافة في (ب) و(ج).

[3] إضافة في (ب) و(ج).

[4] في (ب) و(ج): في عينه.

[5] في (ب) و(ج): بيت. الحديث أخرجه مسلم بلفظ (أفضل بيت قالته الشعراء)، صحيح مسلم، ج4، ص: 1768.

[6] الشطر الثاني من البيت الأول والبيت الثاني ساقطان في (ب) و(ج).

[7] لم نعثر عليه، وقد تقدّم الحديث في الصفحات السابقة.

[8] ابن عبّاد الرندي النفزي(1333هـ/1389هـ) كان أول من شرح "الحكم العطائية" في كتابه «غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائية»، وعليه اعتمد غالبية الشراح المتأخرين. ينظر: ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية (شرح ابن عباد النفزي الرندي)، ص: 33، 36

رَبٌّ وعبْدٌ ونَفْيُ ضِـــدٍّ	قُلتُ لهُ لَيسَ ذَاكَ عِنْـــدِي
فَقَالَ مَا عِندَكُم؟، فَقُلنَـــا	وُجُودُ فَقْدٍ، وفَقْدُ وَجْــــدٍ
تَوحِيدُ حَقٍّ بِتَركِ حَـــقّ	وليسَ حَقٌّ سِوايَ وَحْــــدِي

وقال الشاذليτ: "إنَّا لننظرُ إلى الله ببصر الإيمان والإتقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق، فهل في الوجود شيء سوى [الله][1] الواحد الحق، فلا نراه، وإن كان لا بد فنراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئا".

وقال ابن عطاء الله في كتابه «التنوير في إسقاط التدبير»: "فما سوى الحق عند أهل المعرفة لا يوصف بفقد ولا بوجد إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته، ولا فقد الأعيان ولا تشرق نور الإيمان فغطى وجود الأكوان، وقال شاعرهم:

مُذ عَرَفتُ الإلَهَ لم أرَ غَيــرًا	وكَذَا الغَيرُ عندنَا مَمْنُـــوعُ
مُذ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقـــا	وأنَا اليَومَ وَاصِلٌ مَجْمُـــوعُ [2]

فالعقلاء بنور العقل يشهدوا ربهم قريب ربهم، والعلماء بنور العلم شهدوا أنفسهم عدما في وجود ربهم، والمحققون بنور الحق شهدوا الحق ولم يشاهدوا أحدا سواه".

قوله: "وهو كذاك انيت"، لما أن قدم أنه لولا أحمد المحمود في العالم أي شيء نسبته مع وجود فاطره، كما لا نسبة للمصنوع مع صانعه: [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ][الصافات/96]، فليس إلا الله [وصفاته][3] وأفعاله، وما نسبته من لا يملك شيئا مع من بيده ملكوت كل شيء (وهو يجير ولا يجار عليه)[4]، استدراك هنا ما أخرجه هناك، من باب لا فارق محمد بشر لا كالبشر فيما ذكر، لأنه قيل له:«ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[5]، أي أنه لا ينجوا من ا لله بعلمه هو ولا غيره، وقال:[مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ][الأحقاف/9]، وقال الشاذلي حين قرأ:[وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ][الجاثية/18]، [إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً][الجاثية/19]، "يا أبا الحسن أنا من الذي يعلمون ولا أغني عنك من الله شيئا".

فالحدوث والعجز علم الجميع، وأما باعتبار روحانيته وخصيصيته، فليس هو كالبشر لأن العظيمَ عَظَّمَه، كما أعطاه وأكرمه، فروحانيته من أمر الله، (ولله الخلق و الأمر)[6] " لكن من فنا واصطلم وغاب عن بشريته فيما علم، ردّ كل شيء إلى أصله ونسب الحق لأهله، ولم يظهر له إلا معلوما واحدا لا شيء عليه زائدا، "كان الله ولا شيء معه،

---

[1] إضافة في (ب) و (ج).

[2] البيت الثاني ساقط في (ج).

[3] إضافة في (ب).

[4] ساقط في (ب) و(ج).

[5] الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج2، (م سابق) ص: 60.

[6] في (ب) و(ج): لله الأمر جميعا.

وهو الآن على ما عليه كان"، وتقدم قول صاحب «الشعب»: "والمراد من هذا كله في توحيد الصفات، أن ما علم من العظام، وما لم يعلم بالنسبة إلى عظمه وجود الباري تعالى أقل من الجزء الذي لا يتجزأ".

[بعض ما يتعلق بالسير في الباطن بالفكرة:]

قال في «المواهب»**تتمة**: "لو صححت النظر ورددت إلى البصيرة البصر، لما وجدت للغير أثر، قوله: "فالله الله يا ذوي الأدب" هذا إغراء منه وتحريض على معرفة المولى وتوحيده، وعلى الفناء في ذاته وتفريده وطريق ذلك بالذكر والفكر، قال الغزالي: "الفكر والذكر أعلى مقامات الصالحين، واعلم أن الناظرين بأنوار البصيرة علموا أن لا نجاة إلا في لقاء الله عز وجل ،وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبا لله تعالى، وعارفا به، وأن المحبة والأنس لا يحصلان إلا بدوام ذكر المحبوب، وأن المعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكر، ولن يتيسر دوام الذكر [والفكر][1] إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتراء منها بقدر البلغة والضرورة"، ثم قال: "والقرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء بهما كان يتدبر". من «الإحياء».

فعليك يا أخي برفض ما سوى الله، والإقبال على الله والتعلق (باسمه الأعظم)[2]، ففي الخبر الإلهي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسه، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب مني تقربت إليه ذراعا...الخ»[3] الحديث، ذكره ابن عباد عن أبي هريرة عن النبي υ ، وهو متفق عليه، قال يحي بن معاذ: «يا غفول يا جهول لو سمعت صرير القلم حين يجري بذكرك في اللوح المحفوظ متطربا: من تقرب مني شبرا تقربت منه شبرا، ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، وهذا التقرب كناية عن سرعة القبول والرضى من التقرب".

قال في «الحكم»: "ما أرادت همة سائلك أن تقف عندما كشف لها إلا نادته هواتف الحقيقة الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها: [إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ][البقرة/102] وقال في «المواهب [الربانية في النفحات الإلهية][4]»: "الربانيون ليست هممهم إلى الحضرة الربانية، فسرى بهم الجلال إلى حيث الآجال فسمعوا النداء من الكبير المتعال: [أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ] [الأحقاف/31]، فتلقلقت ضمائرهم وصفت سرائرهم وطاروا بأجنحة الوفا إلى حضرة الصفا، فأخذتهم يد العناية وساعدتهم (رياح)[5]الهداية، وسارت بهم فلك التقريب بسلوك الترتيب، فما تلقاهم في سيرهم مكون إلا طحنته هممهم فجعلته كالرميم، إلىأن بلغوا إلى حضرة التوحيد فَأُجلسوا على منابر التفريد وأزيل عنهم الحجاب، فراموا الاقتراب: [فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ [بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ]][الحديد/13].

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): به

[3] الحديث أخرجه: - البخاري، صحيح البخاري، ج6، ص: 2694./- مسلم، صحيح مسلم، ج4، 2067./ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص:513.

[4] إضافة في (ب) و(ج).

[5] كذا في (ج)، وفي (ب): روائح.

ثم قال في وصف العارف: "إن نطق فبالله، وإن سمع فمن الله، وإن ذهب فإلى الله، وإن جلس فمع الله، (العلم مقاله)[1]، والحقيقية مقامُه، والشرع لجامُه، تولاَّه الحق في أقواله وأفعاله، وقيده الشرع بسلاسله وأغلاله، أدَّبَه الشّرع فأحسن تأديبه، وورّثه من العلم اللدني، والميراث الأحمدي قسطه ونصيبه". هذا بعض ما يتعلق بالسير في الباطن من الفكرة، لقوله υ: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»[2]أي بلا تفكر ومثالها كالسير في البحر، فإن يوم يعدل فيه مسيرة شهر في البر، وكذلك العبادات بظاهر البدن كالمشي في البر.

[في ذكر ما يتعلق بالسير إلى الله بالظاهر:]

وأما سير بالظاهر، فقد قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً][الأحزاب/41] ، وقال ρ: «من لم يكثر ذكر الله برئ من الإيمان»[3]، والإكثار قيل على ظاهره، أي بالليل والنهار، وفي البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، كما قال تعالى: [فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ][النساء/103]، قال ابن عباس وقال مجاهد: "الذكر الكثير لا تنساه أبدا والذكر القوي الجهري كالحفر على الماء في الحجر الصماء، فإنه لا يفيد إلا إذا كان بالمعاودة والتعاون والقوة في موضع واحد المرة بعد المرة، حتى يفتح الله عينا معينة" وهذا مثال القلب القاسي كما قال عز من قائل: [ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم][البقرة/74].

وقيل الذكر الكثير بالمعنى وهو الذي يكون بالأدب والإخلاص والحضور والتأثير وهذا أنفع وأنجح، كما قالυ: «ركعتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا تفكر[4]»، ومضى في المثل المعلوم: "ضربة بالفأس خير من عشر بالقادوم"، وقد قال ρ: «الذكر سيف الله، ولا بد للسيف من ضارب قوي يعلم كيفية إمساكه والضرب به»[5]، فالمراد من الذكر الأنس بالله والوحش من الخلق ومن الأنس تتولد المحبة والشوق، وله آداب لا يتم إلا بها، ولذا قرن الشيخ بينهما، أولها: التوبة، وهي ترك ما لا يعني حتى في الإرادة، بعد الندم على ما فرط، ثم الطهارة الكاملة ثم توجه القلب بكليته، وحضوره في الحضرة، حتى يتحقق قوله تعالى: [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ][البقرة/115].

ثم تشخيص شيخه، قال الشيخ[العارف][6] جبريل الخرمبادي قدس الله سره العزيز: "إذا ابتدأ المريد بالذكر يستحضر صورة شيخه في قلبه ويستمد منه، إذ قلب شيخه يحاذي قلب شيخ الشيخ إلى الحضرة النبوية، وقلب النبي ρ دائم التوجه إلى الحضرة الإلهية، فالذاكر إذا تصور شيخه واستمدّ من ولايته، يفيض الإمداد من الحضرة الإلهية على قلب سيد المرسلين، ومن قلبه على قلوب المشايخ على الترتيب، حتى تنتهي إلى شيخه ومنه إليه، فيقوى على استعمال السيف، فيما يحصل الغرض، والمريد في بدايته كالطفل ليس له قوة، فإذا استمد من شيخه جاءه المدد لقوله

---

[1] العبارة ساقطة في (ب).

[2] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 370.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الحديث أورده ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج1 (م سابق) ص: 439.

[5] لم نعثر عليه.

[6] إضافة في (ج).

عز وجل: [وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ][الآية72/الأنفال]، ولو نادى شيخه [بلسانه][1] في الاستغاثة جاز، ويرى[2] أن استمداده من شيخه هو من النبيρ لأنه نائبه.

[صفة الذكر وهيئته:]

وأما آدابه في حالة الذكر، فجلوسه على مكان طاهر متربعا، أو كالتشهد مستقبلا، في بيت مظلم، أو يغمض عينيه ليسُدَّ طرق الحواس (الظاهرة)[3]، فبسدِّها تنفتح حواس القلب، ويتخيل خيال شيخه، ويضع راحتيه على فخذيه، ويُطَيِّب مجلسه ولباسه،ثم يلزم الصدق في السر والعلن والإخلاص، ويُظهر جميع ما خطر له لشيخه، وإلا فهو خائن، والله لا يحب الخائنين، ويجهر إن كان في جماعة أو مبتدئ، وإلا فمن يناجينه يسمعه، قال تعالى لنبيه: [وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ][الأعراف/205]، لأنه ρ قد عرف نفسه، فعرف بها ربه، وأما غيرهυ ممن لا يعرف نفسه فقلبه كالحجارة، والقوة و(المعرفة)[4]شرط فيها.

قال الغزالي τ: "[عمل][5] السر يزيد على عمر الجهر ضعفه، وعمل الجهر يزيد على عمل السر ضعفيه إن قصد به الاقتداء، ثم يستحضر معاني الذكر، فإن كان بالتهليل في ابتداء أمره وقد غلبت عليه البشرية والوساويس، فيقول بلسانه: لا إله إلا الله، وبقلبه لا معبود إلا الله، فإن خمدت هذه الأشياء، وصفى القلب وابتغى المعارف يقول بقلبه: لا مطلوب إلا الله، وإن فنيت الخواطر كلها، يقول بقلبه: لا موجود إلا الله.

ثم ينتقل لاسم الجلالة المفرد، وقد قيل ينبغي للذاكر[6] إذا قال: "الله" أن يهتزّ(من قرنه إلى قدمه)[7]، ثم بعد فراغه يسكت ويسكن ويخشع، مترقبا لوارد الذكر؛ فلعله يَرِدُ عليه فيعمر وجوده في لحظة ما لا تعمره المجاهدة في ثلاثين سنة، ثم يلزم[8] نفسه مرارا رجاء كشف الحجاب[9]، وقطع الخواطر الردية إذا زمَّها صار كالميت، والشيطان لا يقصده، ثم لا يشرب الماء لأنه [لا][10] يطفئ شوقه، ويورث الاستسقاء.

قال سيدي يوسف العجمي τ: "هذه الآداب في الاختيار، وأما إن سَلَبَه الذكر فكيف ما نطق به فهو أولا لا أواء بالمد، واءًبالقصر أو آه آه أو هاها أو هـ هـ، أو عياط بغير حروف، أو صَرع وتخبّط، فأدابه أن (يُسَيِّر)[11] نفسه لوارده يتصرف [فيه][12]كيف شاء، وكذا بعد سكوته، وقد تتّفق للصادق في مجلس واحد، فإذا ترقى إلذكر القلب فلا يحتاج لما ذكرنا؛ بل يكون مع ما هو فيه من غير التفات إلى شيء أصلا"، من «خلاصة المريني».

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).
[2] كذا في (ج)، وفي (ب): يُروى.
[3] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).
[4] ساقطة في (ب) و(ج).
[5] إضافة في (ب) و(ج).
[6] كذا في (ج)، وفي (ب): للرَّجُل.
[7] في (ب) و(ج): من فوق رأسه إلى أصبع قدمه.
[8] كذا في (ب)، وفي (ج): يزُمُّ.
[9] في (ب) و(ج): الحُجُب.
[10] إضافة في (ب).
[11] في (ب) و(ج): يُسلم.
[12] إضافة في (ب) و(ج).

وأما معرفة الله فبمعرفة أسمائه وصفاته عرفه من عرفه، وأما أن تدرك ذاته العلية بالبصر والحواس، فيتعالى الملك الحق عن ذلك، ولذا قال المصنف بعد اغرائك على معرفته القلبية:"حاشاه أن تبصروا نظرا"، وإذا كان ذلك كذلك، فأعظم أسمائه هذا الاسم الجامع الذي سماه به المصنف (وحرّضك)[1]على معرفته وذكره، لأنه أخص أسمائه تعالى، ومعرفة الأخص تستلزم معرفة الأعم، لأن الأخص فيه ما في الأعم وزيادة، فينبغي أن تعتني بمعرفة هذا الاسم العظيم الأعظم.

وفائدة ذكره بعد قوله: "من سواه افنيت"، أنه ليس بداخل في الأسماء المفنى هو عنها، لأنه لما أخبر عن فنائه عن الأسماء الحسنى والصفات العلى استثنى هذا الاسم العظيم واستدركه هنا، لأنه عَلَمٌ على الذات العلية المفنى فيها، ولاحظٌّ فيه لعبد إلا التأله والتحير والتعبد بخلاف سائر الأسماء، فإنه ربما يطمع ذاكرها وملاحظها في نيل فيضها.

ثم بعد هذا ترقّى أيضا عن ذكر الحروف وافنائه في بحر ذات المعروف، فقال:"الله الله دونك وذا الاسم" إلى آخره، قال الشيخ أبو حامد الغزالي في «المقصد الأسنى»: "فأ ما قوله: الله، فهو اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، فإن كل موجود سواه غير مستحق للوجود بذاته وإنما استفاد الوجود منه، فهو من حيث ذاته هالك، ومن الجهة ا لتي تليه موجود فكل موجود هالك إلاّ وجهه، والأشبه أنه جار في الدلالة على هذا المعنى مجرى الأسماء والأعلام، وكلما ذكر في اشتقاقه وتصريفه تعسف وتكلف".

قلت، ووجه التكلف ما قاله الدلحي، حيث ذكر الاشتقاق في أسماء الله تعالى بالمراد منه أن المعنى المذكور ملحوظ في ذلك الاسم ،وإلا فشرط المشتق أن يكون مسبوقا بالمشتق منه، وأسماء الله تعالى قديمة لأنها من كلامه حتى أنكر قوم إطلاق الاشتقاق للإيهام؛ وقالوا إنما يقال في مثل اسمه السلام فيه معنى السلامة، وفي الرحمن معنى الرحمة، قالوا والأسماء مشتقة من الأسماء، لحديث: «هو الرحيم وأنا الرحمن اشتققت لها اسما من اسمي»[2]، وقال حسان: فشق له من اسمه ليجعله لخ، وفيه نظر.

ثم قال الغزالي (فائدة): "اعلم أن هذا أعظم الأسماء التسعة والتسعين[3]؛ لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها حتى لا يشذ منها شيء، وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلاّ على آحاد المعاني من علم وقدرة أو فعل أو غيره، لأنه أخص الأسماء لا يطلقه أحد على غيره حقيقة ولا مجازا، وسائر الأسماء قد يسمى به غيره كالقادر والعالم والرحيم، فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم الأسماء دقيقة معاني سائر الأسماء يتصور أن يتّصف العبد بشيء منها حتى يطلق عليه الاسم كالعليم والصبور، وإن كان إطلاق الاسم عليه على وجه آخر بيائن إطلاقه على الله تعالى.

وأما معنى هذا الاسم فخاص خصوصا لا تتصور فيه المشاركة لا بالمجاز ولا بالحقيقة، ولأجل هذا الخصوص يوصف سائر الأسماء بأنه اسم الله ويعرف بالإضافة إليه، فيقال الصبور والشكور مثلا من أسماء الله تعالى، ولا يقال

---

[1] في (ب) و (ج): أغراك.

[2] لم نعثر عليه.

[3] يعني اسم الجلالة المفرد (الله).

الله من أسماء الصبور والشكور، لأن ذلك من حيث هو أدل على كنه المعاني الإلهية، وأخص بها، وكان أشهر وأضمن،فاستغنى عن التعريف بغيره، وعرف بغيره بالإضافة إليه. قلت (ولأجل هذا)[1] قال إمام النحويين سيبويه: "إن اسم الجلالة هو أعرف المعارف حتى أنه ريئ بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟، فقال: غفر لي [وأدخلني الجنة][2]، فقال: بم ذلك؟، قال:بقولي أن اسم الجلالة هو أعرف المعارف"، ثم قال أبو حامد تنبيه: "ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التأله، وأعني أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقي الحق، وكل ما سواه فان وهالك وباطل، فيرى أولا نفسه أنه أول هالك وباطل كما رآه رسول الله ρ، حيث تمثل بقول الشاعر:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا الله بَاطِــــــلُ وَكَلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَـــةَ زَائِــــــــــلُ

وكل نعيم في الحقيقة زائل.

[في ذكر بعض ما يتعلق باسم الجلالة المفرد" الله":]

ونريد إن شاء الله أن نتكلم على بعض ما يتعلق بالاسم الأعظم، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: والحق تعالى قد جمع معاني آياته وصفاته وجواهر حكمه وكلماته في صَدَفَة كلمة الإخلاص، ثم اطلع الخواص على ما فيها من الخواص، وهي كلمة أولها نفي وآخرها [إثبات][3] دخل أولها في القلب فخلا، ثم تمكن آخرها من القلب فجلا، فنسخت ثم رسخت وسلبت ثم أوجبت ومحت، ثم أثبتت ونقضت ثم عقدت وأفنت ثم أبقت، أوّلها يشير إلى الفناء، فإذا قلت: لا إله، فقد فنى كل شيء سوى الله، وإذا قلت: إلا الله، فلم يبقى شيء سوى الله، قال الله تعالى: [لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ[لَهُ الْحُكْمُ وإليهِ تُرْجَعُون]] [القصص/88].

ثم اعلم أن جوهره هذه الصَّدَفة وكعبةُ حَرَمِها وحجر كعبتها ومُصَلَّى قبلتها، وروضته خضرتها، وزهرة روضتها، وثمرة زهرتها وبيت قصيدتها، ومعنى صورتها التي تشير سويداء القلوب إليه، وتعكف السرائر بصفاتها عليه، هو اسم الجلالة من قولك: الله، لأنه هو الاسم الأعظم الجناب المعظم المقصود في كلمة الإخلاص، وإنما جاءت لفظة: لا إله، دالة عليه ومشيرة إليه، كالحاجب بين يديه، ألا ترى أنه أتى بهذا الاسم في آخر الكلمة مشيرا أن لا شيء بعده، ولفظة: أن لا إله، تنادي أن لا شيء قبله، فللّه الأمر من قبل ومن بعد.

ثم ابتدأ هذا الاسم الشريف بحرف الألف لما فيه من الدلالة عليه والإشارة إليه، فإن معاني الربوبية مندمجة مندرجة في هذا الاسم مودعة فيه، فلذلك ابتدأ بظهوره لعباده ليستدلون به عليه، ويطلبون به إليه، إذ لا سبيل إلى ذاته، فدلهم بأسمائه وصفاته فجعل حرف الألف أو اسم الله، وذكر ما تقدم فيه، ثم قال: فالطائف حول كعبة هذا الاسم [أول ما يكشف له في طوافه من سر هذا الحرف ليشهدوا منافع لهم، ويذكر اسم الله][4]، ثم يسعى بين صفا

[1] في (ب) و(ج): ولأجل هذه الخصوصية التي ذكرها الإمام الغزالي قال فيه إمام النحويين.
[2] إضافة في (ب) و(ج).
[3] إضافة في (ب) و(ج).
[4] إضافة في (ب) و(ج).

اللام الأول ومروة اللاّم الثانية، فإذا تمّ سعيه، وقطع مدرجة الألف واللام، وقف على عرفات عرفان (الألوهية)[1]، فكان قائلا يقول عند الوصول إلى الهاء: ها هو المطلوب الذي تعرفه القلوب وتحجبه العيون، وإلى ذلك أشرت:

يَا سَاقِي القَوم مِن شَــــذَاه الكُلّ لما سَقَيت تَــــــاهُ
مَا شَرِبَ الكَاس واحْتَسَـــاه إلاّ مُحِبٌّ قَد اصْطَفَــــاه
غَابُوا وبالسُّكْر فِيكَ طَابُــوا وصَرَّحُوا بالهَوَى وفَــــــاهُ
يَا عَاذِلِي خَلِّنِي وشُــــرْبِي فَلَسْتَ تَدْرِي الشَّرَابَ مَـــــاهُ
قُم فَاجْتَلِي صَفْوَة المعَـــانِي في صَفْوة الكَاسِ إذ جَــــلاَهُ
واسْمَع إذا غَنَّت المثَــــانِي يَقُول يَا هُوَ لَبَّيكَ يَـــــاهُ
مَا قُلتُ للقَلب أينَ حُـــــبِّي إلاَّ وقَالَ الضَّمِيرُ هَـــــاهُ

ثم اعلم أن "هو" هي خاتمة هذا الاسم الشريف، وفيه معنى لطيف، وهو أن قولك: هو حرفان هاء وواو، فالهاء حرف يخرج من آخر مخارج الحروف، لأنه يخرج من داخل الحلق، فهو آخر الحروف مخرجا، والواو حرف يخرج من الشفتين، وهو أول مخارج الحروف، فهو أول الحروف مخرجا، فأشار إلى ذاته بهذين الحرفين، وقال هو الله مشيرا إلى أنه الأول وهو الآخر لا أول قبله، ولا آخر بعده. من «حل أسرار الرموز ومفاتيح الكنوز» له τ ".

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن علي أبي يوسف القرشي ثم البوني رضي الله عنه: "ولاسم الجلالة شرف زائد على الأسماء، وهو أنك إذا أزلت منه الألف بقي لله، وإذا أزلت منه اللاَّم الأول بقي له، وإذا أزلت منه اللاَّم الآخر بقي هُ، فكل حرف منه اسم قائم بذاته، وليس ذلك في غيره من سائر الأسماء، لأنك إذا أزلت منه حرف بطل معناه، وهذا هو الاسم الأعظم ثابت بحروف لا يختل معناه، فله شرف على سائر الأسماء ودليل على أنه اسم الذات المكرمة الثابتة، وله شرف آخر يدل على الذات الأحادية الوترية، ويدل على توحيد الإلهية فإن أوله ألف، وهو أول الحروف وأول الأعداد في الآحاد، فهو فرد في صفته، أحد في عدده، يشير إلى أحدية مولاه الذي خلقه، وآخره حرف الهاء الذي يشير إلى توحيد إلهية ربه، وهذا لا يوجد في غيره من الأسماء، فهو يقول بلسان حاله: (أناَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)، فهو أخص الأسماء وأعظمها اتفاقا.

وهو اسم سرياني، وتفسيره: مُخرِج الأشياء من العدم إلى الوجود، وله معان يجب على الناظر فيه[2] كتمها عن السفهاء لئلا يتوصلوا بها إلى فعل المنكرات، فيسقط من عين الله كما سقط "بلعام بن باعوراء" لما أن أراد به معصية الله نعوذ بالله من غضبه، ولا جعلنا ممن يستعين باسمه العظيم على معصيته، ثم ذكر كلاما في خواصه، من أراده فليطالعه في «شمس المعارف».

[1] في (ب) (ج): الهوية.

[2] في (ب) و(ج): فيها.

ثم قال: فأما الله، فهو الاسم الأعظم الجامع لسائر الأسماء، ولذلك بدأ به في كتابه وتعبّد به عبادة وأشار إليه وعرف به بقوله: [هو الله]، وقد أشار بعض الأئمة إلى أن من أخلص المجاهدة والرياضة وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة، وجلس في مكان خال، وغلق طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبته عالم الملكوت، وقال: الله الله الله، دائما بالقلب دون اللسان إلى أن يصير لا خبر له من نفسه ومن العالم، وبقي لا يرى شيئا إلا الله سبحانه، انفتحت له طاقة ينظر منها، وأبصر في اليقظة الذي يبصر في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السموات والأرض ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ρ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارق الأرض ومغاربها»[1]، قال الله العظيم لنبيه: [وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً][المزّمّل/8]، معناه الانقطاع عن كل شيء وتطهر القلب من كل شيء والابتهال إليه بالكلية، وهي طريق الصوفية في هذا الزمان .

واعلم أن من خواص الربوبية علم أسمائه الحسنى وصفاته العلوية العظمى، وخصوصا بينها اسم الله العظيم[2]، فهو الذي اختص بهذا الاسم وحمده لجلاله ومجده، وهو الإله الذي له الألوهية من نفسه لنفسه، وهو الله الذي لا إله إلا هو، ولا ولد له ولا والد، إنما الله إله واحد، ولذلك قال بعض الأولياء لبعضهم: "تريد أن نعلمك فائدة أن قدرت عليها، قال: نعم، فقال له: تدوم على قولك الله الله الله ثلاثا، لا تذكر سواه، وتصوم نهارك وتقوم ليلك ما استطعت، وتدوم على هذا الذكر لا تفارقه ليلا ولا نهارا، ولا تكلم أحدا، وأخل بنفسك سبعة أيام تظهر لك عجائب الأرض، ثم دم على ذلك سبعة أيام أخرى يظهر لك عجائب السموات، ثم ذلك سبعة أخرى يظهر لك عجائب الملكوت الأعلى، فإن بلغت أربعين يوما أظهر لك الله[3] الكرامات وأعطاك التصريف في الوجود"، وقد روي عنه ρ أنه قال: «إذا قال العبد المؤمن يا الله، يقول الله تعالى لبيك عبدي، فما حاجتك، الله أعلم بالله»[4]، لا يعلم عنه الله تعالى، هل هو معلوم للبشر أم لا فمن ارتضى أنه غير معلوم قال لأن البشر يعلم بالعيان إذا حضر وبالمثال إذا غاب، والله تعالى لا مثل له كما قال تعالى: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ][الشورى/11]، ولا يرى بالعيان لقوله تعالى: [لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ][الأنعام/103]، وقال بعض الشيوخ من أهل التحقيق، لما ثبت (قدمه)[5] تعالى بلا ابتداء وبقاؤه (بلا انتهاء)[6] ولا انقضاء، ووحدانيته لا عن عدد، وصفاته خارجة عن صفات الخلق، وجب ألا يبلغ كُنه صفته الواصفون، إذ لو كان كذلك لظهر له حد ومثال، والحد والمثال يؤدي إلى الذهاب والفناء، وذلك في حق الله محال،قاله الحارث المحاسبي.

---

[1] الحديث أورده محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج2 (م سابق) ص: 1304./ القرطبي، تفسير القرطبي، ج11،(م سابق) ص: 144.

[2] في (ب): الأعظم.

[3] اسم الجلالة ساقط في (ب) و(ج).

[4] لم نعثر عليه.

[5] كذا في (ج)، وفي (ب): قوله.

[6] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

وروي أن جبريل υ نزل على النبي ρ بالاسم الأعظم مكتوب في ورقة من ورق الجنة، مطبوعا بخاتم مسك فيها مكتوب: «اللهم إني أسألك باسمك المكنون الطاهر المطهر القدوس الحي القيوم الرحمن الرحيم ذو الجلال والإكرام، قال أنس: فقالت امرأة: علمناه يا رسول الله، فقال: نهيت أن أعلمه النساء والصبيان»[1].

ثم قال البوني بعد كلام له: فالاسم الأعظم والظاهر والباطن، الاسم الذي أومأت إليه المشايخ والعلماء من أهل الشريعة والحقيقة، أن الاسم الأعظم "الله" في الأسماء الظاهرة، وكاد أن ينعقد عليه الإجماع، وقد نقله بعضهم، فالألف منه إشارة إلى الذات الكريمة، والهاء حرف إحاطي لقبول السر، وهو سر الصدر، إذ السر صدر العلم[2] جملة وتفصيلا، وبه المنّة على رسول الله ρ بقول الحق: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ][الشرح/1]، فالهاء سر شرح الصدر، ولَمَّا كانت الألف جلّت أن توصف بالحركة والسكون لانفصالها في الأوليات، والحركة انتهاء الغايات [إليه][3]، فهي الحركة في الآخرة منوطة بالجهات الأربع، الرفع والنصب والخفض لضرب من التعريف، وليست مفتقرة للتعريف.

وأبرزت اللام الأولى ساكنة من نسبتها، فتحركت بنسبة ما اتصل بها من اللام الثانية، بسر الحركة إذ هي حقيقتها اللام الثالثة، وتلقته اللام الثانية بسر إعلانها، فتلقاه الهاء بسر إحاطتها فيجتمع فيها سر الحركة وسر السكون، ولهذا كانت باطنا لباطن، كما قال تعالى: [هو الله] [هو الحي]، فالهاء سر الشرح الصدري، والألف إشارة للذات، واللام الأولى للعهد الميثاقي الإيماني في يوم الدنيا للقبول التكليفي الشرعي لما فيه من سر واسطة الألف، ثم الهاء لتمام الأمر في يوم النشأة الأخرى لجميع الأولين والآخرين، فدارت بهذه الحكمة الربانية دائرة من أربعة عشر حرفا، فصرفها تجد في أولها وآخرها الألف، سر ذلك أن الألف واللامات أربعة تضربها في ثلاثة تكون اثني عشر، وهاء باثنين يصير المجتمع أربعة عشر، إلا أن أولها كآخرها، وآخرها كأولها، هكذا مبسوطا: أ ل ف ل ا م ل ا م ل ا م ه ا، كما قال عيسى υ: «هو الظاهر ليس فوقه أحد، وهو الباطن ليس دونه أحد» فلما كانت مجموعة من أربعة عشر كانت السموات السبع والأرضون السبع، وما فيهما وما بينهما من ملك وملكوت قائما بسر من أسرار اسمه ا لله جل ذكره.

ففي كل ذرة من ذرات العالم وما دونها سر من أسرار اسمه الله، فبذلك السر فهم عنه وشهد له بالتوحيد: [قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ][الأنعام/91]، فهذا الاسم الكريم لا يُثَنَّى ولا يُجمع بخلاف غير، وهذا الاسم علم عن الإيمان، ولا يتم إلا بالله لقوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس..»[4]، الحديث ولا يجزى سواها، و كل فضائل كلمة الإخلاص فمن أجله وجدت، وهو فاتحة الصلاة ومفتاح الأذان وختامه، ولا يجزي غيره عنه، وكل ما جاء من الأذكار والرُّقا والأدعية فإنها مبنية على الاسم الأعظم، واللَّهُمَّ، منه[5] زيدت فيه ميم، لأنه جمع الأسماء كلها بإحاطته بها.

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] في (ب) و(ج): إذ الصدر سر العلم.

[3] إضافة في (ب) و(ج).

[4] الحديث أخرجه أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق بن الأصبهاني، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، ج1 (م سابق) ص:115.

[5] أي أصلها من اسم الجلالة" الله".

و هذا الاسم يقتضي اسما ومسمى ومثاله أن الإنسان قد يعلم اسم الدواء ويدرك معناه، ودرجة قواه ومنافعه، وبعد هذا الإدراك يستعمله فلا جرم أن هذا يحصل الثمرة، وهذا الاسم مما استأثر الله بعلمه، وإدراكه إما أن يكون نقلا بأن يعلم به، أو يقال له هذا هو الاسم الأعظم على وجه التقليد من نبي أو ملك أو ولي أو منام[1]، أو غير ذلك، وإما أن تكون معرفته باستعمال العبادة والاجتهاد في طلب الاسم حتى يخبر به أو يفيض عليه نور من أنوار الله يكون هو الاسم الأعظم، وقد يكون تحصيله بالعقل والبحث والنظر إن وفق الله.

وإنما سُمِّي أعظم لأنه دل على هويته الخصوصية، أو لكثرة معانيه وعموم إحاطته، أو لأن إدراكه يتوقف على عرفانه الحقيقي، فعلى هذا القول لا يمكن إدراكه إلا لنبي أو ولي، فقد توقف إدراكه على شرط عظيم، والوقف على العظيم أعظم منه، وسمي أعظم لحصول المنفعة العظيمة للداعي به، وهي الإجابة. وقال الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد الجزري الدمشقي في كتابه «حصن الحصين»: «فضل بسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» أخرجه الحاكم في المستدرك[2]، وأخرج أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان في صحاحهم: «أنه اللهم إني أسألك فإني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد»[3].

(وسئل سهل[4] عن الاسم الأعظم فقال: "أروني الأصْغر أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمة، أُصْدُق وخُذ أيَّ اسم شئتَ يفعل معك ما شئت"، وقال رجل لأبي يزيد علمني الاسم الأعظم قال: "ليس له حَدٌّ محدود وإنما هو فراغ قلبك لوحدانيته، فإذا كنت كذلك فارجع إلى أيِّ اسم شئت تسير به من المشرق إلى المغرب"، وأخرج الخمسة[5] أيضا: "أن اسم الله الأعظم: "اللهم إني أسألك الحمد لا إله إلا أنت المنّان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم".)[6]

وقال المرجانيτ في «مفاتيح أسرار الحروف»: "متى وضع اسم الجلالة في مربع حرفي في شرق الشمس ارتفع نوره وعظمت في قلوب الناس هيبته، وهذه صورته[7]:

---

[1] أي يعلمه من خلال الرؤية.

[2] الحديث أورده ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، (م سابق) ص: 194.

[3] الحديث أخرجه: - محمد ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج3 (م سابق) ص: 134./ - الترمذي، سنن الترمذي، ج5 (م سابق) ص: 515./ - النسائيأ سنن النسائي المجتبى، ج3 (م سابق) ص: 52./ - محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج2 (م سابق) ص: 1267./ - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، ج2 تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، دط، دتا، ص: 79.

[4] هو أبو محمد سهل التستري، أحد أئمة القوم وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال، توفي سنة ثلاث وثمانين- وقيل سنة ثلاث وتسعين- ومائتين. ينظر: -عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق، أحمد الشرباصي، ص: 66. – أبو القاسم القشيري، أ الرسالة القشيرية، ص: 14، 15 .

[5] يقصد بهم رواة الحديث، النسائي، وابن ماجة، الترمذي، الحاكم، أبوداوود.

[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[7] سجلنا اختلافا طفيفا بين هذا المربع في الأصل وبين (ب) و(ج).

ومن جمع بين الحرفي والعددي في مربع واذحد كان أبلغ وأسرع للإجابة من ذكره في موضع خال بعيد من الأصوات، بجمع همة وصفاء باطن، إلى أن يغلب عليه منه حال، ثم دعا على ظالم أُخذ لوقته، وبه أحيا أبو يزيد النملة وأحيا ذو النون المصري ابن المرآة الذي بلعه التمساح، ويَصْلُح ذكره لمن كان اسمه محمد.

4	3	3	1
ه	ل	ل	ا
ل	ا	ه	ل
ا	ل	ل	ه
ل	ه	ا	ل

[القيمة الرقمية لاسم الجلالة بحساب الجمل:]

وذكر بعض العارفين في صفة الدعاء والقسم بهذا الاسم وجهين، أن يقول:" يا الله بياء النداء ستا وستين مرة، وبأن يسقط حرف النداء، ويقول الله وينوي ما أراد فإنها كسر رتبة المدعو عليه".

وإنما خصوه بهذا العدد لأن عدد حروف اسم الجلالة ستة وستون، قال أبو العباس البوني في «شمس المعارف»: وأخذ من قوله تعالى: [قل هو الله][الإخلاص/1] أنه لما كانت الهوية الإلهية مما لا يمكن أن يعبر عنها لجلالتها وعظمتها إلا بأنه "هو" فقال: (قل هو)، ثم شرح تلك الهوية إنما تكون بلوازمها، واللوازم منها إضافية ومنها سلبية، والإضافية أشد تعريفا من السلبية، والأكمل في التعريف هو اللازم الجامع لنوعي الإضافة والسلب، وذلك كون تلك الهوية إلاهًا فلا جرم عقب قوله (هو) يذكر الله ليكون الله الكاشف لما دل عليه لفظ هووكالشارح لذلك، فاسم الذات هو الله الذي لا إله إلا هو، فأوله هو ومعناه كشف الأسرار بهويته وكاشف القلوب بما عداه من أسمائه، وقيل كاشف خاصة الخاصة بهويته، وهو حقيقة الإله، والله تعالى جميع ذلك، وكاشف الموحدين بوحدانيته، وهو حقيقة الواحد الفرد، وكاشف العلماء بأُحديته وهو حقيقة أحد وتر، وكاشف العقلاء بصمديته، وهو حقيقة صمد، وكاشف العوالم بربوبيته الحاملة للأكوان بالقدرة، وهو حقيقة الرب، ومن هنا ينفصل لكل قوم ما يصلح لهم من الأسرار.

[ما يتعلق بفضل الذكر بـ "لا إله إلا الله"، وبعض خواص أسماء الله الحسنى:]

وقد بين لنا رسول الله ρ بقوله: الحق «أفضل ما قلت أنا والنبيؤون من قبلي: "لا إله إلا الله"»[1]، فلذلك(كان)[2] أول ذكر يأمرون به المشايخ أصحابهم من أهل التوبة والتوجه، حتى يظهر لهم ما هم مختصون به من الأسماء، فتعرف المشايخ حقائق أصحابهم من أي باب هم فيه، فيأمرونهم بذكر الاسم اللائق بهم، حتى ينفتح عليهم من باب الرحمة.

ومثال الأذكار الدالة على مطلوب كل أحد، كالتواب للتائبين، والشاكر للشاكرين والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للمتوكلين، وأمثال ذلك، فاسمه الله ذكر للأكابر والسالكين المتعلقين بأسرار التوحيد، والصمد ذكر يصلح للمرتاضين بالجوع[3]، خصوصا ذاكره لا يحس بألم الجوع ما لم يُدخِل عليه ذكر غيره، فافهم فإن أردت كشف سر

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] في (ب) و(ج): هي

[3] الذين جعلوا من رياضة الجوع طريقا لجهاد النفس وقمع شهواتها.

من أسرار الله من العلوم الكشفية وأجناسها يسَّر الله عليك ذلك بملازمة الذكر لما يناسب ذلك كالعليم والعلاَّم وعلاّم الغيوب، والخبير والحافظ والهادي (والمبين)[1]، وتعلمها وتحملها على وجه يليق بها من نقش وكتابة، وتلازم ذكرها بالحضور والمراقبة والتكرار، حتى تَذْكُرُه معك عوالم تلك الأذكار، وليس يظهر ذلك في المرة والمرتين بل بالملازمة".

وقد ذكر سيد أحمد زروق في «خواص الأسماء الإدريسية»[2]: "أن اسمه تعالى يا صمد من غير شبه ولا شيء كمثله، من ذكره كل يوم ثلاثمائة وخمسين لم يحس بألم الجوع" من «الكناش في العلم غير الفاش». وهو مجرب الفائدة، وإنما أطلنا الكلام هنا على هذا الاسم العظيم وفيما يليه موافقة لإغراء المصنف على معرفته، وبقي العمل، الله يفتح علينا وعليكم آمين.

[في ذكر ما يتعلق بالأدب والحياء واقتران العلم بالعمل وأثر ذلك في السير إلى الله:]

قوله: "يا ذوي الأدب"، أي يا أصحاب الأدب الزموا الأدب في توجهكم إلى الله دائما، قال بعض المشايخ: "بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل، وبالعمل يدرك الحال، وبالحال يعد المرء من الرجال، والرجال بقلوبها لا بأجسادها"، وقال يوسف بن الحسين الرازي "بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يفهم الزهد ويوفق له، وبالزهد تترك الدنيا، وبتركها يرغب في الآخرة، وبالرغبة فيها ينال رضى الله"، وقال مظفر القرمسيني: "من تأدب بآداب الشريعة تأدب به أتباعه، ومن تهاون بآدابها هلك ويهلك، ومن لم يأخذ الأدب عن حكيم لا يتأدب به مريد"[3]، وقال أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله: "الجاهل بالعالم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل بعلمه، فالجاهل خير منه، فالله الله يا أولادي نعوذ بالله من عمل يصير حجة علينا، وأنشد له:

عَلَّمتُكَ مَا حلَّلَ المولَى وحَرَّمَـــــــــــه   فاعْمَل بِعِلمِكَ إنَّ العِلْمَ للعَمَـــــــــــلِ

وقال أبو علي الدقاق: "ترك الأدب يوجب العطب، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، و من أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب"، وقال الشطبيبي في «شرح المباحث الأصلية» في قوله تعالى:[يُرِيدُونَ وَجْهَهُ][الأنعام/52]، الإرادة طريق الله ولها بداية ووسط ونهاية، والكل له آداب يجب تعلمها والعمل بها، الأول من قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً][التحريم/6]، وأما كنهه ووسطه فمأخوذ من قوله تعالى: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ][الحشر/7]، وغايته، [مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى][النجم/17]، وهذا الأخير من علم الغيب لا يكفيه لفظ ولا يحده لحظ.

وقال بعضهم من أخذ الله لسانه وردَّ عليه قلبه فاز، و من أخذ قلبه وردَّ عليه لسانه هلك، لقوله عز وجل: [كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ][الصف/3]، ولا يصلح الأدب إلا مع صحة القلب لقوله ρ للذي رآه

---

[1] كذا في (ج)، و ساقط في (ب).

[2] في (ب) و(ج): "خواص الأربعين الإدريسية"

[3] هو من كبار مشايخ الجبل وجلتهم، ومن الفقراء الصادقين، صحب عبد الله الخراز وغيره. ونصه الذي بين أيدينا أورده عبد الرحمن السلمي في "الطبقات الصوفية"،ص:، 137، ينظر ترجمته في المصدر نفسه والصفحة نفسها، وفي "الرسالة القشيرية" (صدر سابق) ص: 27.

يعبث بلحيته في الصلاة:« إنه لم يخشع، فقيل له: كيف ذلك؟ فقال: إذ لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[1]، وقد قيل: "من صح طبعه صح نفعه".

وقال صاحب «الشّعب»: "كان عثمان بن عفانτ لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله سبحانه، وذلك ثمرة مراقبة القلب التي هي ثمرة المعرفة ورسوخ اليقين، حتى كأنه معاينه، وكان أيضا τ لا يغتسل في الليلة الظلماء إلا مُنْضَمًّا منزويا مستورا حياء من الله وملائكته، قلت: ومن أجل حيائه استحي منه النبي ρ أكثر من الشيخين حين غطا فخذه بدخوله، في قصة البئر، حتى قال: «وكيف لا أستحي ممن تستحي منه ملائكة الرحمن»[2].

ثم قال: وحكى عن بعضهم بأنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله تعالى، وهذا لما تأدب قلبه بالأدب التام غاص في بحر التعظيم، فصارت الجوارح تطلب قلبها في الأماكن العالية، كما تطلب النحل عيسوبها، فيظن الجاهل أنها تطلب الله وإنما هي تطلب رئيسها، فافهم المقصود ونزّه المعبود، وعلى الله قصد السبيل.

واعلم أنه لا يتمكن في الحال والمقام إلا من تأدب مع الملك العلاّم، والفرق بين الحال والمقام، أن الحال يتبدل ويحول، فمن كان في تقلب واضطراب بتبدل الحالات فهو صاحب حال، ومن كان في مقام ومحاسبة أو مراقبة أو فناء أو بقاء فهو صاحب مقام، وقد يكون في حال من وجه، وفي مقام من وجه، فالأحوال مواجيد والمقامات طرقها في النهاية، وينعكس الأمر في البداية مع أن العبد لم يكن في مقام قط إلا وله حالة مخصوصة به، ولم يكن في حالة قط إلا وله مقام مخصوص به، والأدب مطلوب منه فيهما أبدا، والكل راجع لمورد الشريعة، وبقدر المخالفة يكون قلة الأدب، والمخالفة (تكون)[3] إما بزيادة أو نقصان لقوله تعالى: [وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ][الرحمن/9]، فالطغيان في الزيادة على المعروف والخسران في النقصان منه، وقالυ: «ما من عمل يعمله ابن آدم إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما نزغة غلو، وإما نزغة تقصير، فبأيهما ظفر قنع وخير الأمور أوسطها»[4]. ولا يتحرز من الوقوع في ذلك إلا بعلم ومعرفة، ولذلك قيل: "من لا أدب له لا دين له"، من «الشعب».

وقال الشطيبي: "الظاهر عنوان والباطن لقوله تعالى: [أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ][هود/17]، فأدب الظاهر شاهد آداب الباطن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من آداب المسافر ألا يجاوز همته قدمه»، فإن موسى υ لما جاوزت همته قدمه، قال: [قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ][الأعراف/143]، فأوحى الله، أما في الدنيا فلا، فإنه لا يراني حي إلا مات، وذلك في الجنة، وفي الخبر: «لأن يؤدب الرجل ولده بكلمة خير له من صدقة، وما نحل الوالد ولده أفضل من أدب حسن». من «شرح المباحث».

وقال في «الرسالة المكية»: "قال أبو عبد الله بن حقيق قال لي: "رويدا يا بني اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا، وقيل: من حرم الأدب فقد حرم جميع الخيرات، وقيل: التصوف كله أدب لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجى القبول، وهؤلاء أهل التصوف طريقهم على المخاطرة، فلا يميلون إلى الخلق ولا إلى الدنيا ولا إلى أنفسهم ولا إلى أهلهم، وإن

---

[1] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج5 (م سابق) ص: 319.

[2] الحديث أخرجه: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9 (م سابق) ص: 82./ – أبوبكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج2 (م سابق) ص: 231.

[3] في (ب) و(ج): تقع.

[4] الحديث أورده اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1 (م سابق) ص: 469.

نظروا أو مالوا فمنعوا و عجزوا"، قال ذو النون: إذا خرج المريد عن حد الأدب، فإنه يرجع من حيث جاء، وقيل إنما حرموا الوصول لتضيعيهم الأصول.

وقال زروق: "والأصول ثلاثة: إتباع الأوامر واجتناب النواهي ولزوم الأدب، واعلم أن طريق القوم تهذيب ثم تأديب ثم تدريب، فمن لم يتهذب لم يتأدب، ومن لم يتأدب لم يتدرب، والتهذيب ترك الأخلاق المذمومة، وأصلها التدبير مع الله، ومنازعته في أحكامه القهرية بالتبرم وفق أحكامه الشرعية بالعصيان، والتأديب حمل النفس على الأخلاق المحمودة طبعا وشرعا، والتدريب مداومته على ذلك حتى يصير عادة".

من شرحه لقول ابن عطاء الله: "من جَهْل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه، فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد، وأوجَبَ الإبعاد، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد تقام مقام البعد من حيث لا تدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد، قال والعقوبة قسمان: حجابية لأهل الطغيان، وعذابية لأهل العصيان، والطغيان في الباطن والعصيان في الظاهر، قال بعضهم: من أساء باطنا عوقب باطنا، ومن أساء ظاهرا عوقب ظاهرا، وإنما أوجب له هذا [كذا][1] رضاه عن نفسه وانقياده لهواه، ولو كانت له بصيرة لمنعته عن الطمع في نيل المراتب وتردُّه إلى تحقيق الحق على نفسه، ومنع المزيد يعني من حقائق التوحيد الموجبة لخوف الله والأدب معه، ومقام البعد المذكور امهال أو إهمال".

إذا لم يكُن عَونٌ من الله للفَــــتَى فأَكْثَر ما يَجْنِي عَلَيه اجْتِهـــادُه

قال أبو العباس الدينوري: "إن لله عبادا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته، ولله عبادا لم يستصلحهم لخدمته، فأهملهم، نعوذ بالله من مكره. وفي "الخبر": «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[2]، «ومن حبسه النسب أطلقه الأدب» قال النووي: " من لم يتأدب في كل وقت وقع في المقت"، وقال بعضهم: "والله إن الناس لأحوج لقليل من الأدب أكثر منهم لكثير من العلم"، وقال أبو علي الدقاقτ "العبد يصل بالطاعة إلى الجنة، وبالأدب فيها يصل إلى الله ، وشتان ما بينهما ومن طلب الأدب وجد المؤدب"، قال عبد الله بن المبارك τ: "رأس الأدب معرفة النفس"، وقد قيل: "إن أول الأدب الخوف ووسطه القبض وآخره الهيبة"، وقال أبو نصر الطوسي τ: "الناس ثلاث في الأدب: أما أهل الدنيا فأدبهم في الفصاحة والبلاغة، وأما أهل الدين فأدبهم في رياضة النفس وحفظ الحدود، وأما أهل الخصوص فأدبهم في طهارة القلب ومراعاة السر والوفاء بالعهد وحفظ الوقت"، وسئل ابن عطاء الله عن معنى الأدب، فأنشد:

إذا نطَقَت جَاءَت بِكُلِّ مَلاَحَـــةٍ وإِن سَكَتَت جَاءَت بِكُلِّ مَلِيــــحٍ

وقال الأستاذ أبو علي: "إنما قال أيوب: «ربي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ولم يقل ارحمني أدبا مع الله، وكذا قول عيسى υ: [إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ][المائدة/118]، ولم يقل

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج1(م سابق)، ص: 284./– الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1(م سابق)، ص: 165./– الترمذي، سنن الترمذي، (م سابق)ج5، ص: 195./– أبو داود، سنن أبي داود، (م سابق)ج3، ص: 317./– محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، (م سابق)ج1، ص: 82.

أنت الغفور الرحيم لئلا يكون بذلك لهم شافعا، وهذا غاية الأدب، وحُصِر الأدب كله في حفظ الحدود المشروعة، وخير الأمور أوسطها"، وفي هذا قيل بلغة زماننا[1] : "لا تكن أولا تنصفع، ولا آخرا تنقطع، ولا (جنبا)[2] تلتكع، وكن وسطا تنتفع [وتنجمع][3]"، فالذئب لا يأكل إلا الشاة القاصية، فالمقصر مفرّط[4] والموغل أفرط، ولو صدقوا مع الله لكان خيرا لهم.

قال الشطيبي: «كان ρ يوما يعظ أصحابه فصُعِق رجل في جانب المسجد، فقال ρ: من هذا الذي يلبس علينا ديننا، إن كان صادقا فقد أشهر نفسه، وإن كان كاذبا محقه الله»[5]، ومن حِفْظ الحدود في الأدب ما روي أن الأعرابي الذي سأل النبيρ: "أن يريه بعض معجزاته (فدعا شجرة فانقلعت بعروقها، وأتت مجيبة تمشي إليه على ساق بلا قدم فآمن بذلك الأعرابي)[6]، وقال: أتأذن لي أن أسجد لك يا رسول الله، فقالρ: لا تفعل ولو جاز السجود لغير الله، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها"[7]، ولذلك قال بعض المفسرين في قوله تعالى: [وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً][الجن/18]، إنها السبعة أرب التي يسجد عليها، وإن ذلك لا يجوز إلا في عبادة الله".

[في ذكر ما يتعلق برؤية النبيρلربه بالبصر أو البصيرة:]

قوله: "من حاشاه أن تبصرُوا نَظْرَة" الخ من نعت لاسم الجلالة (المؤكد موصولة)[8]، أي يتحاشى ويتعاظم (الكبير المتعال)[9] عن أن تبصره (نظرة)[10] ناظر، ويتقدس من له الكمال المطلق عن أن يدركه بصر باصر، قالρ: « عليكم بالإثمد عند النوم، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر»[11]، وفي رواية: «خير أعمالكم»، الحديث رواه الترمذي، وقال: «كانυيكتحل عند النوم ثلاثا في كل عين»[12]، وقال υ: «النظر إلى الخضرة يزيد في البصر والنظر إلى المرأة الحسناء يزيد في البصر، وكذا الوالدين، والإفطار على التمر يقوي البصر ويرق القلب»[13].

توجيه:لما بَلَغتُ في كَتْبِي لهذه القصيدة إلى هذا المحل وناظمها يمليها عليّ، نظرت إليه وأردت أن أستفهمه على تعميمه في الأنبياء، فَهِمَ عليّ وقال لي: أنا على مذهب عائشة،(فسَلَّمتُ)[14]، وذلك أنه ثبت في البخاري وغيره عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب»[15] واستندت[1]لقوله

---

[1] في (ب) و(ج): قالت العرب في مثلها.
[2] في (ب) و(ج): مُجانبا
[3] إضافة في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): فرّط.
[5] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج6، ص: 104.
[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[7] الحديث أخرجه: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج9، ص: 470./ – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص:206.
[8] ساقط في (ب) و(ج).
[9] ساقط في (ب) و(ج).
[10] في (ب) و(ج): عين
[11] الحديث أخرجه: الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص:205./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص: 234./ –وأورده ابن كثير، تفسير ابن كثير،ج4، ص:234.
[12] الحديث أخرجه أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج5، تحقيق:كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409، ص:38.
[13] الحديث أورده: – محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج1 (م سابق) ص: 193./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج6 (م سابق) ص: 300.
[14] في (ب) و(ج): فَسَكَتُّ.
[15] لم نعثر عليه.

تعالى: [لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ[وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ]][الأنعام/103]، وتأوَّلَت ما ورد في سورة النجم من ذكر الرواية[2]، أنه رأى جبريل في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح.

ولهذا قال الغزالي في «الإحياء»: "الصحيح أن محمد υ لم يرى الله ليلة المعراج، ومما يعضد مذهب عائشة ما أخرجه أبو الفضل عياض عن السمرقندي عن محمد بن كعب القرضي وربيع بن أنس أن النبيρ سئل:« هل رأيت ربك؟، قال: رأيته بفؤادي ولم أره بعيني»[3]، وفي حديث آخر: «لم أره ولكن رأيته بقلبي مرتين ثم تلى قوله تعالى: [ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى][النجم/8]»[4]. من «الشفاء» له.

وأخرج الترمذي وأبو نعيم وابن عباس، قال:« تلى رسول الله ρ هذه الآية: [قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ][الأعراف/143]، قال يا موسى إنه لا يرني حي إلاَّ مَاَت، ولا يابس إلا تَدَهْدَهَ، ولا رطب إلا تفرق، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم، وفي وارد آخر، فقال: موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إلي من ألا أراك ثم أحيا، فقال الله: [قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ][الأعراف/143]»[5]، وقالρ: «يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله»[6]، وقال: «لا ترون ربكم حتى تموتوا»[7]، ووجه ما أسندت إليه أم المؤمنين في استدلالها بآية الأنعام، ما بينه سيدي عبد الجليل بن موسى في «شِعَبِه»، ونصهτ: "وإنما امتُنِعَت رؤيَة الله بالأبصار في الدنيا لضعفها عن إدراكه، ولذلك قال الله تعالى: [لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ][الأنعام/103]، إذ الإدراك هو الإحاطة واللحوق، والضعيف لا يطيق القوي العظيم، ولا يلحق الفائت النزيه، وبصيرة الباطن بخلاف ذلك؛ لأنها تتغلغل إلى باطن الشيء، وتدركه بحقائقه، إذا استقام النظر وترى بالاستدلال ما غاب بما حضر.

فإذا فهمت ما تقدم علمت أن البصر النافذ لا يرى[8] في جهة دون جهة، بل يرى لا في جهة ويرى من كل جهة، وقد كان υ، لما دخل الجنة ليلة الإسراء ورأى الآية الكبرى بما كشف له من عالم الملكوت والآخرة، وحصل له نور تلك الدار في بصره يرى من خلفه كما يرى من أمامه، ألا ترى إلى قوله: «أترون ها هنا قبلتي فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم، وإني لأراكم من وراء ظهري، والبصر القاصر لا يرى إلا في جهة»[9]، بل كما نعلمه الآن لا في جهة ولا حد كذلك إذا تجلى في الآخرة، فإن البصر هناكتابع للعلم ما أدركه العلم وحققه أدركه البصر كذلك كشفا، فالبّار في الدنيا يرى بالعلم، وفي الآخرة بالعلم والبصر جميعا،[قال في «الإحياء»: "الصحيح أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم ير الله ليلة المعراج"][10] وقال القاسم بن محمد في معنى اسمه اللطيف: هو الذي لم يدع أحد يقف

---

[1] في (ب) و(ج): واستدلّت.

[2] في (ب) و(ج): الرؤية.

[3] الحديث أورده: – الطبري، تفسير الطبري، ج27، (م سابق) ص: 47./ – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج4، (م سابق) ص: 251.

[4] لم أعثر عليه.

[5] الحديث أورده: الطبري، تفسير الطبري، ج9، ص: 51./ – (و أخرجه عن ابن عباس) أبي شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج2، (م سابق) ص: 267./ – أبو نعيم، حلية الأولياء، ج7، (م سابق) ص: 76.

[6] الحديث أورده: – أبي شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج5، ص: 530.

[7] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص: 580./ –

[8] كذا في (ج)، وفي (ب): لا يدرك.

[9] الحديث أخرجه: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص:319./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 161.

[10] إضافة في (ب) و(ج).

على ماهية اسمه، فكيف الوقوف على وصفه، وقال السلمي فإن أوقع تجليا فالبصر والفؤاد واحد، فهذه حجج المصنِّف ومن تبعهم.

وروى القاضي عياض أيضا في «شفائه»: "أن الأشهر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيρ رأى ربه بعينيه، قال: روي عن ذلك من طرق، وقال إن الله اختص موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة، ومحمد ρ بالرؤية، وحجته قوله تعالى: [مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُنَه عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى][النجم11– 13]، قال الماوردي: إن الله قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليهما السلام، فرآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين، وحكى الرازي والسمرقندي الحكاية عن كعب، وروى عبد الله بن الحارث أن ابن عباس اجتمع مع كعب رضي الله عنهما، فقال عبد لله: أما نحن بنو هاشم فنقول: أن محمدا قد رأى ربه مرتين، فَكَبَّرَ كعب حتى جاوبته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته بين محمد وموسى، فكلمه موسى ورآه محمد بقلبه.

وسأل ابن عمر ابن عباس رضي الله عنهما: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم، وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس بعينيه رآه رآه، حتى انقطع نفسه، يعني نفس أحمد، وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري τ وجماعة من أصحابه أنه رأى الله ببصره وعيني رأسه، وقال كل آية أوتيها قبس من الأنبياء فقد أوتي مثلها نبينا وخص من بينهم بتفضيل الرؤية".

فإن قلت ما الأرجح في النظم: هل هو مذهب عائشة الذي عرج عليه الناظم ومن سبقه؟ أو مذهب ابن عباس وقد تبعه؟، قلت الظاهر في نظر القاص أن الأرجح مذهب ترجمان القرآن عبد الله ابن عباس بن عم المصطفى من ولد عدنان، وذلك أتم من وجوه:

- الوجه الأول: أن قوله اعتمده أكثر محققي أهل السنة، كالأشعري وابن حنبل ومن تبعهما.
- الثاني: أنه أعلم أهل زمانه وأفقههم في علوم القرآن، وأمر الرؤيا وغيرها مبين في القرآن لمن فهَّمَه الله التأويل ومقامه في الرسوخ في العلم والغوص في الفهم أوضح من نار على علم، لأنه أول من فسر القرآن؛ واستخرج درره؛ وبين معالمه؛ حتى بلغ من ثاقب فهمه وقوة غوصه أن قال: "لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله"، وقال ذلك [ببركة دعاء][1] النبي ρ حين ضمه إلى صدره ودعا له بقوله: "اللهم علّمه الحكمة وفقهه في الدين".
- الثالث: ما تقرر أن حمل الكلام على ظاهره، وعدم التقدير أولى، ما لم يؤد ذلك الظاهر إلى ممنوع، فيؤول اللفظ ويحمل على غير ظاهره، ولا مانع هنا.
- الرابع: أن ما ارتضاه ابن عباس أدل على إكرام النبي ρوإتمام النعمة عليه وإعطائه ما يرضى.
- الخامس: أن أم المؤمنين رضي الله عنها كانت صغيرة وقت الإسراء المشهور، لأنها كانت وقت الهجرة ابنة ثمانية أعوام، والإسراء المفروض فيه الصلاة اختلاف فيه، فصح عن عياض أنه عُرج به في رجب بعد البعثة بخمس سنين، وقيل بسنة ونصف، قاله الزهري ومن تبعه، وقيل بتسع سنين، ذكرها في «الشفاء»، وقال الشطيبي: "أسري به وهو ابن أحد وخمسين سنة، فإن قلت إنما يتم لك هذا الترجيح النظري إذا لم يرد نص وحي، فكيف

[1] ساقط في (ب).

وقد قدمت الاحتجاج بالآية والحديثين لمذهب الطاهرة بالقياس والنظر لا يعدل عليهما مع ورود الخبر، وأيضا فابن عباس أصغر سنا من عائشة، لأنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهي بثمان كما صححه ابن حجر وغيره، نعم الأمر كذلك، ولم يرد إلا ما هنالك.

أما الحديثان فكنت لم أطلع عليهما قبل هذا التوجيه، وحين رأيتهما تحيّر أمري وتردد فكري، وقلت في شرحنا الثالث[1]: كيف المخرج يا صاحب الفرج؟ ففرج الله عني وقتها باطلاعي في أثناء اطلاعي على حديث آخر متأخرا أخرجه أبو الحسن الشطيبي في كتاب «الجمان»: "أن النبي ρ بعد أن أجاب السائل الأول بنهي الرؤية عن البصر، سأله بعد ذلك رجل آخر، فقال له: رأيته بعيني، فقابلت النص بالنص واسترحت، مع أن المتأخر يقضي على السابق، ولا يقال زدتنا تحيرا بتفريج حيرتك لما يقضي من ذلك إلى مصادقة النصوص وتعارض بعضها ببضع، لأنا نقول المخرج من تعارض الروايات والسلامة من الطعن في روايتها الثقاة هو ما وفق به الموفقون بين اجتهاد الفحول ونصوص أهل الأصول[2].

فمن ذلك قول الشطيبي τ: الإسراء واقع بلا خلاف، وإنما اختلفوا في صفته ووقته، وثبت أن النبي ρ أسري به نحو بيت المقدس، فكلما أسري به حدث فنقل الرواة كل واحد وما سمع منه υ ، فكذلك اختلفت الصفة والأوقات، أولها أسري به لما خرج من بطن أمه، ثم أسري به وهو ابن ثلاثين سنين، ثم أسري به وهو ابن عشر، ثم أسري به قبل نزول الوحي، ثم بعده بسنة ونصف، وله إسراء عام وآخر خاص، فالعام عند نزول لكل وحي إسراء، والخاص مثل هذا الذي تكلم عليه العلماء ولم يقره بصفة متفق عليها فرواياتهم كلها صحيحة إلا أنها غير محيطة بمجامع الأمر فمن تبين له ما ذكرنا لم يبق له إشكال، ومن ظن أنه لم يسر به إلا مرة واحدة، فإنما عمل على الإسراء المشهور الذي وقع له وهو ابن إحدى وخمسين سنة، وفيه فرضت الصلاة وردت من الخمسين إلى الخمس، ومما يدلك على أن الإسراء غير واحدة قوله υ: وأنا نائم في الحطيم وقال مرة أخرى: وأنا نائم في الحجر، ومرة أخرى وأنا مضطجع بين رجلين، وأخرى قال: وأنا جالس، وقال فيه فاستيقظ فإذا أنا بمكة، ففهم بعض العلماء أنه من النوم الحقيقي، فقال: أسري بروحه فقط وفهم آخرون أنه كان مستغرقا في عوالم الملكوت والغيب، ثم استيقظ بروحه إلى هذا العالم بصفته البشرية، ففهم كل أحد على قدر إدراكه وغوصه، ثم إن قوما فهموا من قول الله تعالى: [مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى][النجم/11]، أنه أسري بروحه فقط، وقوم فهموا من قوله تعالى: [مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى][النجم/17] ، أنه أسري بروحه وجسمه، وقال قوم أسري بجسمه إلى بيت المقدس، وبروحه إلى سدرة المنتهى، وكل ذلك صحيح لا يشك فيه من فهم بالفهم الخاص والمعنى الخاص". من «الجمان في أخبار الزمان».

وقال الغزالي المتقدم لم ينفها رأسا فيحتمل أنه رآه قبل المعراج أو بعده، وصح الخلاف عنده بينهما إلا أنه ترجح عنده أنه لم ير ربه في تلك الليلة ،وإذا تحمّل الكلام الاحتمال سقط به الاستدلال"، فابن عباس أحفظ للحديث وأفهم بالتأويل إذا، وانتفت الرؤية مطلقا انتفاء قطعيا لما تصور خلاف ذلك، والقاعدة أن من أثبت أمرا

[1] يقصد بذلك الجزء الثالث من كتابه "كعبة الطائفين" الذي نحن بصدده.

[2] في (ب): بين قول الفحول واجتهاد أهل العقول.

أولى ممن نفاه لأن الأول مقدم، فكيف (ومعظم العلماء الجلة أطبقوا)[1] على وقوعه للنبي ρ ، وهو يقول: «لا يجتمع الجم الغفير من أمتي على ضلالة»[2] ويقول: «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»[3]، وقال أحمد بن محمد القشاني في قوله تعالى: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ][الإسراء/1] يجب عليه الإيمان بالمعراج ومن جحده كفر، وتكرار إسراءاته ρ ستة وثلاثون، منها ما هو بروحه في المنام، ومنها يقظة بشخصه إلى السماوات إلى الحضرة، فناجاه مولاه وأوصاه وأمره ونهاه، وفرض عليه خمسين صلاة ولم يزل يسأله التخفيف إلى أن بقيت خمسة، ثوابها خمسون كرامة له، الخمسة بعشر أمثالها، فضلا من الله الرفيق الرحيم بنا.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: "أول ما نزل جبريل على محمد عليهما السلام، قال جبريل: بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله، والله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، والرحمان: الفعلان من الرحمة والرحيم: الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يضاعف عليه العذاب، ففي هذا الوارد بيان تفسير الوارد، ومعناه الموضوع له عند المكلفين به، ولم يعرج على إعراب الكلمات ليدل الطالبين على وجوه الحق من الخطاب به، وفيه تسمية الله بالرقيق الرفيق وعدم حصر أسمائه في التسعة والتسعين، فتنبه لهذا وأمثاله، وأحاديث المعراج كثيرة وإذ أنه هو السميع البصير لأقرب مذكور وهو النبي لأنه هو المراد لسمعه وبصره لآيات الله لأمثاله في ذلك، لانفراد في صفاته كذاته بما لا يصل إلى غيره، فحصر ذلك فيه أيضا لانفراده بما يصل إليه فيهما.

ويرحم الإمام الإسماعيلي حيث بين وجه المخرج في مثل هذا التعارض بين قوله تعالى: [إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى][النمل/80]، وقوله υ في موتى بدر: «ما أنت بأسمع منهم إلا أنهم لا يجيبون»[4]، أنكرت عائشة ظاهر الخبر، وقالت: "إن ثبت، فالسمع بمعنى العلم"، وصممت على ظاهر الآية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله، يدل على نسخه وتخصيصه أو استحالته، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، لأن قوله تعالى: [إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى][النمل/80]، لا ينافي قوله υ فإنهم لا يسمعون، لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من المستمع في أذن السامع، فالله تعالى هو ا لذي أسمعهم، بأن أبلغهم صوت نبيه بذلك، وأما جوابها فإنه إنما قال لهم ليعلمون، فإن كانت سمعت ذلك فلا ينافي آية "يسمعون" بل يؤيدها"، وأما إن حملنا الآية على موتى القلوب بدليل أن تسمع الأمر يؤمر، فلا إشكال والله الموفق.

وأما الآية التي استدلت بها أم المؤمنين ووجهها الشيخ عبد الجليل فتحتاج إلى نظر سديد وبحث مديد، قال ابن عباس فيما روى عنه عياض: "معنى لا تدركه الأبصار، أي لا تحيط به". وقال بعضهم: "لا تدركه الأبصار، ولكن يدركه المبصرون"، قال سيدي أحمد زروق: "وقيل معناه أيضا أن الله عز وجل لطيف يطلع على الأبصر بالتجلي لها، ولا تسموا الأبصار إليه، والإدراك غير الرؤية، ولذلك تقول أدركت رائحة الطيب، ولا تقول رأيتها، ويكون الإدراك أيضا بمعنى الوصول، يقال أدرك الغلام إذا وصل حد البلوغ، وأدركت الثمرة إذا وصلت حد النضج،

---

[1] في (ب): معظم الأمة اجتمعوا.

[2] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (عن أنس مرفوعا)، كشف الخفاء، ج1 (م سابق) ص: 67.

[3] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج6، (م سابق) ص: 297.

[4] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1، (م سابق) ص: 462.

والإبصار جمع بصر وهو الجوهر اللطيف الذي ركبّه الله في حاسة النظر، فتدرك المبصرات به وترى إن كانت قابلة لذلك. من «شرح الحزب الكبير».

وقال فيه أيضا: "اتفق أهل السنة أن الله سبحانه لا يرى باتصال الأشعة، بل يراه من استوت بصيرته وبصره. كما قال أحمد بن حنبل حين قيل له: كيف رأيت ربك في النوم؟ فقال: انعكس بصري في بصيرتي فعدت كليّ بصرا فرأيته على صفة ليس كمثله شيء وهو السميع البصير". وقال سيدي عبد الله بن خليل البسطامي: "اجمعوا على جواز رؤية الله تعالى بالأبصار في الجنة، وإنما نفى الله الإدراك بالأبصار لأنه يوجب كيفية وإحاطة، وليس كذلك الرؤية، والنبي ρ إنما شبه في قوله: «سترون ربكم كالقمر ولا تضاهون في رؤيته»[1]، فإنما شبه النظر بالنظر لا المنظور إليه". من «الرسالة المكية» له.

فإذا عرفت هذا فاعتقد مضمن قول الإمام المهدي في تعاليقه على "موطأ" الإمام مالك: وما ورد من الشرع في الرؤية يجب التصديق به من غير تشبيه ولا تكييف [لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارْ]، بمعنى النهاية والإحاطة والاتصال والانفصال، لاستحالة اتصافه بحدوث المحدثات". وأما كلام صاحب «الشعب» السابق في قوله: "وإنما امتنعت رؤية الله بالأبصار"الخ. فمشكل في نفسه متراوح لأنه (منع)[2]رؤية الله في الدنيا وعلّلَها بضعف الأبصار عن الإدراك واستدل بالآية، فسر الإدراك بالإحاطة واللحوق (الخ) ما قال فالرؤية عنده هي الإدراك، فنقول (في البحث)[3] لا نسلم أنه أنما امتنعت رؤية الله بالبصر في الدنيا لضعفه وقصوره عن إدراكه كما علله به هذا الشيخ لما يلزم عليه أن البصر النافذ القوي الذي صار كالبصيرة يدركه في الدنيا كما يدركه في الآخرة، لأن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما، وقد ثبت عند هذا الشيخ أن بصر النبي ρ كان نافذا قويا، فإن سلم رؤية صاحب هذا البصر النافذ لربه بعينه فذاك مطلوبنا ومقصودنا ويكون جوابه من كلامه، وإن لم يسلم ذلك، نلقي تعليله عدم الإدراك بالضعف والقصور، ونقول علة نفي الإدراك مخالفته تعالى للمدرك والمدركات، ونفي الجرمية عنه تعالى والعرضيات واستحالة التحديد في صفته تعالى مع الكيفيات، وهب أن هذا البصر يرجع بصيرة ويتغلغل إلى غاية النفوذ، ونهاية قوته أن يصير كالعلم،فهل يحيط به جل جلاله علم (أويكيّفه وهم)[4]، أو يدركه عز وجل فهم، ألم يقل تبارك وتعالى: [وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً][طه/110]،[فالصّدّيق يقول:][5]فالعجز عن درك لإدراك إدراك، فإذا استَتْبَتَّ هذا تحققنا أن قول الله عز وجل: [لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ][الأنعام/103]، هو على ظاهره أزلا وأبدا في الدنيا والآخرة للنبي وغيره، وما ثبت من (تجليه)[6] تعالى لمن أكرمه[7] برؤيته بالبصر أو البصيرة في الدنيا والآخرة، وإنما يسمى ذلك رؤية ونظرا لا إدراكا وتصورا، والله الموفق لا رب غيره.

---

[1] الحديث أخرجه البخاري (بلفظ مختلف)، صحيح البخاري، ج1، ص: 209. / - مسلم (بلفظ مختلف)، صحيح مسلم، ج 1، ص: 439.

[2] في (ب): أثبت.

[3] الكلمة ساقطة في (ب).

[4] ساقط في (ب).

[5] إضافة في (ب).

[6] في (ب): من رؤيته.

[7] في (ب): خصّه.

(فإن قلت يحثك مع هذا العارف الخبير، وعدم اعتقادك لقول الغزالي، لم يبق في الإمكان كما تقدم ومخالفتك للناظم المتمسك بمذهب عائشة، أليس هو من سوء الأدب مع الأئمة، لأنك لست من فرسانهم، وما مستندك بذلك؟ قلت: أما استشكال ما في «الإحياء»، فقد فرّج الله ما نزل بنا فيه؟)[1] أما مذهب الناظم ومن سبقه فمذهب ابن عباس ومن تبعه.

وأما كلام صاحب «الشعب»، في القواعد قال الشيخ المحقق سيدي أحمد زروق أيده الله وسدده:

قاعدة: "العلماء مُصَدَّقُون فيما ينقلون، لأنه موكل[2] لأمانتهم مبحوث معهم فيما يقولون، لأنه نتيجة عقولهم، العصمة غير ثابتة لهم فلزم التبصر[والنظر][3] طلبا للحق والتحقيق لا اعتراضا على القائل والناقل ثم إن أتى المتأخر بما لم يسبق إليه فهو على رتبته ولا يلزمه القدح في المتقدم ولا إساءة الأدب معه لأن ما ثبت من عدالة المتقدم قاض برجوعه للحق عند بيانه أو سمعه فهو ملزوم به إن أدى لنقص قوله مع حقيقته لا أرجحيته إذ الاحتمال مثبتله، ومن خالفه متأخري الأئمة أولها ، ولم يكن قدحا في واحد منهما فافهم".

وقد أخرج السيوطي في كتابه «الدر المنثور»: "عن إبراهيم النخعي قال: قال عيسى بن مريم υ: "خذ الحق من أهل الباطل ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا منتقدين الكلام كي لا يجوز عليكم الزيوف"، وأخرج أيضا في «الجامع الصغير»، عن ابن مسعود τ قال، قال رسول اللهρ: «أعبد الله ولا تشرك به شيئا وزل مع القرآن أينما زال واقبل الحق ممن جاد به من صغير أو كبير، وإن كان بغيضا بعيدا، واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير، وإن كان حبيبا قريبا»[4].

وروى القشاشي بعد هذه، قال، قال رسول الله ρ: «اعرضوا حديثي على كتاب الله فإذا وافقه فإنه مني، وأنا قلته»[5]، فإذا أمر رسول الله ρ يعرض كتاب الله وما أمرنا إلا بإتباعه، فكيف يؤخذ كلام الغير من غير عرض على كتاب الله، فخذ بكتاب الله بما قدمه الكتاب فلا مرد له، وما لا فهو موقوف كما قال علي: أنظر ما قال ولا تنظر من قال معتصما بحبل الله عن الزيغ والضلال" من (شرحه) فنحن قوم نعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال".

[رؤية الله في الجنة:][6]

زيادة بيان بإيراد ما ورد في الرؤية من آيات القرآن بمعانيها كموج البحر، [قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ][البقرة/60]،اعلم متعنا الله وإياك بالنظر إلى وجهه الكريم، أن رؤية المولى تبارك وتعالى في الجنة قطعية ورد بها صريح الكتاب في قوله تعالى: [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ][القيامة/22-23]، فالأولى مسقوطة بمعنى الحسن الذي

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و (ج).

[2] في المصدر: موكول، ينظر: أحمد زرّوق البرنسي المغربي، قواعد التصوف (القاعدة 39)، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، دار البيروتي، دمشق، ط1، 2004، ص: 54.

[3] إضافة في المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] الحديث ذكر جانبا منه: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10 (م سابق) ص: 235./ - عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج1 (م سابق) ص: 108.

[5] لم نعثر عليه.

[6] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

هو البياض والصفا، والثانية هي مسألة بمعنى النظر الحقيقي البصري، تنظر كل يوم في وجه الله كذا فسره رسول الله ρ، ووردت بها السنة أيضا في قوله ρ: «سترون ربكم لا تضاهون في رؤيته»[1]، أخرجه الشيخان.

وأجمع أهل الحق على وقوعها، لكن لما عرف الله في الدنيا، قال أبو الحسن أحمد بن النودي: "ممن لم يعرف الله تعالى في الدنيا لم يعرفه في الآخرة"، وقال في «الإحياء»: "ورؤية الله تعالى في الآخرة على قدر معرفته في الدنيا، وذلك كالبذر للشجرة فبقدر خلط البذر وقوته وطيبه تنبت شجرته، وبقدر ضعفه تضعف الشجرة، فمن لم يعرفه في الدنيا لا يراه في الآخرة، قال تعالى في الكفرة الجاهلين: [كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ] [المطففين/15]، وما تضاعف لهم العذاب إلا من وقوع الحجاب، فمن لم يبذر وقت الحرث لا يحصد وقت الجواد، ومن قَلَّت معرفته قَلَّت رؤيته، ومن زكت معرفته تضاعفت رؤيته، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

فمن كانت عبادته في الدنيا قلبية وهمته في المعرفة، كان جزاؤه في العقبى رفع الحجاب والتمتع بالنظر لمعروفه: [جَزَاء وِفَاقاً][النبأ/26][جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً][النبأ/36]، ولا فرق بين معرفته الدنيوية ورؤيته الأخروية إلا زيادة الاتضاح والانكشاف، كمن رأيته بغسق ثم رأيته بعد أن أسفر النهار، فهو هو، لكن زيادة الوضوح، وشدة الاتضاح، وإلى هذا الإشارة، يقول أهل الجنة: [يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][التحريم/8]، وأيضا ليس من يعرف مولاه في دار الهموم والأكدار مع شغل البال، من كثرة العوائق والقطاع الدنيوية كالنفس والشيطان وغيرهما، وذلك كمن دخلت معه عقرب تحت اهابه فتراه يتوسوس ويتشوش، لا يستوي مع من يرى مولاه في مقعد صدق بدار السلام [فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ][الغاشية/10]، [لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً][الغاشية/10].

[رؤية الله في الدنيا:]

وأما رؤية الله في الدنيا فجائزة على مذهب أهل الحق، وهل وقعت أم لا؟، فهذا حرف النزاع، والأشهر أنها وقعت ولو لم تكن جائزة لم يسألها كليم الله موسى υ في قوله تعالى: [رَبَّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيكَ][الأعراف/143]، إذ من المحال أن يطلب رسول محالا أو ممنوعا، يلزم عليه من الجهل الفادح، بل كما يجور أن يعلم من غير تكييف ولا تمثيل، كذلك يصحُّ أن يُرَى من غير تشبيه ولا تعطيل، وكما ثبت رؤيته في الآخرة بالنص القاطع، كذلك تصح رؤيته في الأولى بنوره الساطع، ولله الآخرة والأولى.

واعلم أن الله جلّ ذكره، ذكر ما يدل على وقوع هذه الرؤية في سورة النجم، فينبغي لنا أن نتتبع كلماتها الغرّ، فنقول: "لما أن أقسم الله بما أقسم على ما أقسم، قال: [عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ[فَاسْتَوَى]][النجم/5–6]، قال ابن عباس: علمه جبريل القرآن، وقال شارح «نظم الدر» لابن الفارض عمر: الصحيح أن معلمه مولاه القوي الشديد لا جبريل، وبيانه في قوله: [وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ][النساء/113]، ففي إضافة تعليم υ إلى جنابه الأقدس بلفظ الإفراد لا بصيغة الجمع إشارة إلى عدم واسطة أخرى من جبريل أو غيره في تعليمه العلم، الاختصاصي من مقام الولاية لا العلم التشريعي من مقام الرسالة فكان علم جبريل حاصلا له في ضمن الوساطة من مقام نبوته لا بالأصالة".

[1] تقدّم إخراج الحديث في الصفحة ما قبل السابقة.

وقوله سبحانه: [ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى][النجم/6-7]، قال الزجاج: فاستوى جبريل في الجو وهو إذا ذاك بالأفق الأعلى له ستمائة جناح، ومحمد بغار حراء"، وقال سهل عبد الله في قوله تعالى: [وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ][التكوير/23]، رأى ربه قبل كل شيء، لأن الأفق المبين ما قبل كل شيء ووراء الدنيا والآخرة، (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى][النجم/13]، بعد ظهور في صورته الطينية، فكما رآه أولا رآه آخرا.

وقوله تعالى: [ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى][النجم/8- 9]، قال سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبيτ: "[قال][1] الجمهور على أن جبريل دنا إلى محمد بحراء، والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات من الأوصاف مع جبريل، وتدلَّى أخص من دنى لأنه بين صفة الدنو وقاب قدر، قال قتادة: من طرف العود إلى طرفه، وقال مجاهد:من الوتر إلى العود وسط القوس، من المقبض وأدنى من قوسين، وقيل قوسين، أي قدر الذراعين، وقال ابن عباس: القوس ذراع بفأس به" من «الجواهر الحسان» له.

وقال أبو الفضل عياض في تأويل الآية: "قال ابن عباس: هو محمد دنا فتدلَّى زاد في القرب، وقال أيضا هو الرب دنا من محمد فتدلَّى إليه أمره وحكمه، وقال أيضا هو مقدم ومؤخر تدلى إلى فوق لمحمد ليلة المعراج فجلس عليه،ثم رفع فدنى من ربه، وقال: فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات، وسمعت كلام ربي وهو يقول: «ليهدأ روعك يا محمد أدن أدن»[2]، لابن عباس.

ثم قال القاضي أبو الفضل: "اعلم أن ما وقع في إضافة الدنو والقرب هنا من الله وإلى الله، فليس بدنو مكان ولا قرب مَدَا، وإنما دنو النبي من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته، إشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومنّ الله تعالى (له)[3] ميزة وتأنيس وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»[4]، وفي قوله: «من تقرب من شبرا»[5] الحديث، قربُ إجابة وقبول إثبات لإحسان وتعجيل المأمول". من «الشفاء».

ونقل عن الواسطي: "من توهم أنه بنفسه دنى فقد جعل ثم مسافة، بل كلما دنى بنفسه من الحق تدلى بُعدا عن درك حقيقته، إذ لا دنو للحق ولا بعد، وقال جعفر: الدنو من الله لا حد له، ومن العباد بالحدود انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب الله جبريل عن دنوه، ودنا محمد إلى (ما دعا)[6] قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه وزال عن قلبه الشك والارتياب".

وقال في «الرسالة المكية»: "قال بعض الكبار: دنى قرب فتدلَّى، أي تكشَّف الحجاب حتى وصل إلى غيره من الحجاب، فما زالت الحُجُب تُدلَّى من محمد حتى وصل إلى ما أشار إليه من قوله، فكان قاب قوسين أو أدنى أي كان بدنوه قريب كقرب قاب قوسين، يعني مقدار قوسين، وقاب قوسين موضع الإشكال ليتبين العارف ويهلك

[1] إضافة في (ب).

[2] الحديث أورده: – الطبري، تفسير الطبري، ج27 (م سابق) ص: 47./ – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (م سابق)،(ج6، ص: 316) (ج13، ص: 485).

[3] كذا فب (ج)، وساقط في (ب).

[4] الحديث أخرجه: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 521./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 384.

[5] الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج4، (م سابق) ص: 485. وقد تقدّم الحديث في الصفحات السابقة.

[6] في (ج): ما أودعَ.

الجاحد، والتدلي التكشف، ثم رفع ما بقي من الحجب، فصار أدنى وأقرب، وهو القرب الذي يظن حلولا وما هو إلا رفع الحجاب عن محمد فحسب".[1]

وقال صاحب «الشعب»: قال الله عز وجل في صفة المكين الممكن، ثم دنى بالدنو والقرب تمكَّنَ واستمسك بالحق وبالتدلي كان أبدا في إعطاء الحقوق ومشاهده الخلق، والمتدلي مستمسك بالعلو وإن كان في أسفله، وفي هذه الحالة قال المحب المحبوب: تراك تدني للذي قلبه معلق في مخلب طائر، وقوله سبحانه وتعالى: [فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ]، أو هنا بمعنى الواو، وكما هي عند العرب، ومنه قوله تعالى: [وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ][/الصافات/147]، أي يزيدون لأن الله سبحانه لا يشك في شيء".

قلت وذكر غيره أنَّ(أَوْ) هُنَا بمعنى بل، فعلى تأويل صاحب «الشعب» يكون قوله تعالى: [فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ]، في دنوه في تكميل نفسه بالمعارف والأخلاق، وقوله تعالى: [أَوْ أَدْنَىَ] راجع إلى تدليله لإعطاء الحقوق إلى أهلها، وتكميلهم بعد أن كمل في نفسه، فكان قاب قوسين طريق أو أدنى، كما أن الدنو طريق التدلي والمقصد أبلغ من الوسيلة، وطريق المعاني لا تقاس (بقوس)[2] المحسوسات، ألا ترى بلاغة مَن مَدَحَهُ[3] بقوله:

تَخَيَّـــرَكَ اللهُ مِـــن آدَم فمَا زِلْــتَ منحَدِرٍا تَرتَــقِي

وهذا بين لأن مولاه قال له: [وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى][الضحى/4]، أي في الحالة الثانية خير لك من الأولى كما قال ابن عطية وغيره، وذلك لأنه أبدا يزيد في المعارف، ويترقى في درجات القرب حتى أنه ليقطع كل يوم سبعين منزلا، وكل منزل يعدل ما قبله سبعين مرة، وزيادة قربه إنما هي عبارة عن كثرة تخلقه بأخلاق ربه، كما نبه على ذلك في القرآن الكريم.

ومن جملة أوصاف القائم بنفسه الصفة التي دلّ عليها اسمه القيوم، فأمره أن يتخلق بمعانيها كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ][المزّمّل/1]، ثم قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ][المدثّر/1]،[وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ][الشعراء/215]، [جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ][التوبة/73]، ثم خاطب ا لجميع بالعدل في القيومية بقوله تعالى: [وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ][الحجرات/9]، فبقدر الزيادة في التخلق بأخلاق القرآن، والتوسط في إعطاء كل ذي حق حقه، يكون القرب وتتضاعف المحبة، وتتمكن الخلافة، ويظهر منشور الولاية الكبرى والصغرى، قال تعالى: [إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ][المائدة/55]، ثم خص المخصوص بقوله تعالى: [النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ] [الأحزاب/6]،[والله وَلِيُّ المتَّقِين][الجاثية/19].

فإذا تدبرت ما قلنا علمت أن مقام قاب قوسين المسمى عند علمائه أنه مقام "جمع الجمع"[4]، والمعبر عنه أيضا "بسكر الجمع"، هو غاية للكمّل من الرسل أولي العزم ومن الملائكة [المقربين][5]، وفيه تأخر جبريل عن مرافقته

---

[1] اختلاف بين الأصل وبين (ب) و(ج) في صياغة بعض العبارات في هذا النص.

[2] في (ب) و(ج): بخلاف، وكلمة (قوس): القاف والواو والسين أصل واحد يدل على تقدير شيء بشيء، ثم يصرّف فتقلب واؤه ياءً، فالقوس: الذّراع، وسميت بذلك لأنه يقدّر بها المذروع، وبها سمّيت القوس التي يُرمى عنها، قال تعالى:[فَكَانَ قَابَ قَوسَيَن أَو أَدْنَىَ]، قال أهل التفسير: أراد: ذِراعين. ينظر: أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة،(ج2)، وضع حواشيه: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، ص: 377.

[3] في (ب) و(ج): كما قال مادحه.

[4] جمع الجمع: شهود الخلق قائما بالحق، ويسمى الفرق بعد الجمع، ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية،(مصدر سابق) ص: 24.

[5] ساقط في (ب) و(ج).

ρ ليلة المعراج، وقال له: "ها أنت وربك" ثم اعتذر عن تخلفه عنه[وعدم مرافقته له][1]"، بقوله: [وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ][الصافات/164]، لو دنوت أنملة لاحترقت"، وكذا نجى الله موسى عليه السلام لما أن استشرف إلى مقام الحبيب محمد ρ ، وسأل رؤية الله فيه، قيل له: لن تدركني اليوم ولكن أنظر أنت إلى الجبل لتراني، وإنما رؤيتي في هذا المقام ادخرتها ليتيم يأتي أمنحها له بلا سؤال، ولا يسأل عما أفعل، ويسمي هذا المقام "أحدية الجمع وصحو الجمع"، وهو المشار إليه بقوله تعالى:[أو أدنى]، وهو رتبة قوله υ: «كان الله ولا شيء معه»[2]، ولهذه المزية التي لم يشارك فيها، خصه الله بالسيـّد دون سائر الرسل، وببقاء معجزته،وهو القرآن المعجز لرد الشُّرَّاك من العباد إلى الله شاءوا أو أبوا، [وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً][الرعد/15]، [فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى][النجم/10]، قال ابن عباس: "فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى"، وقال في «مشكاة الأنوار»: "أي ألقى (الله)[3]الأسرار بلا واسطة، فلا يعلم بها أحد غيره، وغير الإله، وذكر عياض عن ابن عباس أيضا، وعن علي وابن مسعود وجعفر الصادق والأشعري والواسطي نحو هذا، وقوله تعالى: [مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى][النجم/11]، قال الثعالبي: "أي لم يكذب قلب محمد υ الشيء الذي رأى، بل صدقه.

قال ابن عباس: "رأى محمد ربه بفؤاده"، وقال النبي ρ: « جعل الله نور بصري في فؤادي، فنظرت إليه بفؤادي»[4]، وقال بعض المتأولين: "ما رأى بعينه لم يكذّب ذلك قلبه، بل صدّقه وتحققه"، وقال ابن عباس فيما روي عنه أن محمدا رأى ربه بعيني رأسه، وأنكرت ذلك عائشة، وقالت: أنا سألت رسول الله ρ عن هذه الآيات، فقال لي هو جبريل فيها كلها، قال إمام المفسرين سيدي محمد بن عطية: وهذا قول الجمهور وحديث عائشة عن النبي ρ قاطع بكل تأويل في اللفظ لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن". من «الجواهر».

وقال في «الرسالة ا لمكية»: "أي ما كذب الفؤاد ولا ارتاب في القلب فيما رأى العين بالعين عيانا، وشاهد بالبصر كفاحا، وقوله تعالى: [أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى][النجم/12]، قال سيدي عبد الله بن خليل البسطامي في «الرسالة المكية» التي سمّاها «مشكاة الأنوار في أوراد الليل والنهار»، يعني أفَتَشُكُّون على ما يرى محمد من ذات ربه وصفاته، فلا تشكّوا فيه، هذه رؤية النبي ρ بعين الرأس كفاحا ومعاينة، وقد رآه تعالى مرة أخرى [عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى][النجم/14]، أي كان محمد عند سدرة المنتهى حين رآه رؤية أخرى، وقوله تعالى: [وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى][النجم/13]، قال جلال الدين السيوطي: اختص عليه الصلاة والسلام برؤية الباري مرتين، وأخرج عياض عن شريك عن أبي ذر، قال رأى النبي ρ ربه، وحكى أبو عمران الطلمنكي عن عكرمة نحوه، وسأل مروان أبا هريرة τ: هل رأى محمد ربه؟ فقال نعم، وقال ابن عطاء قوله تعالى: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ][الشرح/1]، الرؤية، وشرح صدر موسى للكلام"، من «الشفاء».

وقال الحسن البصري: "والله لقد رأى ربه وقوله تعالى: [عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى][النجم/14]، وقال في «الجواهر الحسان»: أي رأى جبريل مرتين على صورته التي خلق عليها: مرة بحراء، ومرة عند السدرة، وعلى التأويل الآخر كان

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] الحديث أورده: – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 171./ – علي بن سلطان الهروي القاري، المصنوع، ج1 (م سابق) ص:132.

[3] في (ب) و(ج): إليه.

[4] الحديث أورده ابن كثير وقال: اسناده ضعيف، ينظر: تفسير ابن كثير، ج4، (م سابق) ص: 252.

محمد حين رأى ربه عند سدرة المنتهى؛ وإلا فيتعالى الرحمن عن المكان، والسدرة شجرة نبق في السماء السابعة، وسميت المنتهى لأنها ينتهي إليها كل عالم، ولا يعلم ما وراءها صَعدا إلا الله.

و قوله تعالى: [إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى][النجم/16]، قال ρ:«فغشيها ألوان لا أدري ما هي»[1]، وقوله تعالى: [مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى][النجم/17]، قال ابن عباس: ما زاغ، أي ما هكذا ولا هكذا، وقال غيره: ما طغى، ما تجاوز المرئي، وهذا تحقيق للأمر، وقوله سبحانه: [لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى][النجم/18]، قال عياض: "انحصرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى، وقد اشتملت الآيات على تزكية جملته عليه الصلاة والسلام وعصمتها من الآفات في هذا المسرى، فزكى ا لله فؤاده بقوله تعالى: [مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى][النجم/11]، ولسانه بقوله تعالى: [وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى][النجم/3]، وبصره بقوله تعالى:[مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى][النجم/17]، من «الشفاء» له τ. وأما جواز رؤيته من ليس كمثله شيء في العقليات، فتقول: الله موجود، وكل موجود يصح أن يُرى، النتيجة الله يصح أن يُرى، فهذا دليل اقتراني من الشكل الأول من الأربعة ما صحه المقدمة الصغرى حدوث العالم، وما صحة الكبرى، إذ لا مانع من الرؤية ومن العلم إلاّ عدم الشيء في ذاته لذاته، ولذا قال تعالى: [قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ][سبأ/27]، فينتج لنا من موضوع الصغرى ومحمول الكبرى ما ذكرنا، ويسمى الخارج برهانا، وحقيقة ما تركب من مقدمتين يقينيتين لإنتاج يقيني لا يحتمل النقيض لوجه من الوجوه وهذا الشكل يعبر المناطقة عنه بقولهم: كل: ج ب وكل: ب أ، فيسقطون المكرر ويحذفون الوسائط فينتج كل: ج أ، وليس هذا محله.

زيادة إيضاح تؤدي بثمرة الانشراح من فروع بعض الشراح ، اعلم شرح الله صدري وصدرك أن ثلج الصدور وترجيح النظر المذكور وذوقعسيلة القول المشهور في خطابة الحر وشرح نظم الدر، قال إمام العاشقين وزين العارفين المترجم عن مقام الرسول الأمين سيدي عمر بن الفارض:

ودونَك بحرًا خُضتُهُ وَقَــفَ الأُولَى[2]	بسَاحِلِه صَونًا لموضِعِ حُرمَـــتِي
ولا تقربُوا مالَ اليتيمِ إشـــارةٌ	لِكَفِّ يَدٍ صُدَّت لهُ إذا تَصَـــدَّتِ

قال شارحها τ: أشار بمعنى هذا البيت الثاني إلى ما ورد في بعض الأخبار أن موسى υ لما تعرض لرؤية حقيقة الذات من حيث نفسُ تعينُها الذي هو مُسَمّى جميع الضمائر، نحو أنا وأنت ونحن، وكَافُ لخطاب وتائه والياء في مِنِّي ومدلولها إذا لم تكن قرينة تقيدها بحضرة اسم أو مرتبة حقيقة فكأنه قال: أرني أنظر إليك من حيث تعينك الأول من ذاتك، ولما لم يكن له استعداد ذلك كان رتبة حقيقة ووجوده دون تلك المرتبة المختصة بالحضرة المحمدية، قيل لن تراني، وبعد إفاقته من الصعقة خوطب بأن ليس ذلك لك ليتيم بعدك، فلما فهم الخطاب أقدم على الندم والتوبة عما تعرض له، وقال بلسان الحال والمقال: "سبحانك" يعني من أن يصل إليك ويحضى برؤيتك من حيث

[1] الحديث أخرجه: – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1217./ – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 148.

[2] في المصدر: الأُلَى، ينظر: ديوان ابن الفارض (مصدر سابق)، ص: 52.

أعلى مراتبك إلا من ارتضيته وخصصته، لذلك تبت إليك عما تصديت لما ليس لي، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد ρ بهذا المقام الأعلى والمطلب الأولى.

ولما اختص ρ بوصف كونه يتيما حيث خوطب بقوله تعالى: [أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى][الضحى/6]، أي متوحد بكمال القابلية، منفردا بانقطاع نسبتك عما سواه، فآوى معناه آواك إلى حضرة أحدية الجمع[1]، التي هي المقام المختص بك وبحقيقتك أولا وآخر، لا جرم في قوله تعالى: [وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ][الإسراء/34]، إشارة إلى قطع تعلق غيره عن هذا المقام ا لمختص به ρ ، باعتبار أن المال إنما سمي مالاً لميل النفوس إليه بحكم الجبلّة، وهذا المقام من جهة أنه أ صل جميع الكمالات ومنبعها ومرجعها تميل النفوس والأسرار إليه، فكنَّى عنه بهذا الاعتبار بالمال، ثم قال المترجم عنه:

وكلُّ الوَرَى أبنَاءُ آدَمَ غَيرَ أنَّـنِي ... حُزتُ صَحْو الجَمْعِ[2] مْن بينِ إخْـوَتِي
فسَمْعِي كَلِيمِي وقَلْــبِي مُنَبَّـأ ... بأحْمَدَ رُؤْيَا مُقْلَــةٍ أحْمَدِيَّـةِ

قال الشارح نوَّر الله ضريحه وأسكنه من الجنان فسيحه: "إنما أراد بصحو الجمع[3] أن يرى ببصره، ويدرك به ما يدرك بقلبه أو سمعه أو شمه أو لمسه أو ذوقه، فإن مقام الجمع وجمع الجميع يكون كل شيء من المحسوس والمعقول والروحاني والمعنوي الحقيقي والخلقي مجموع، لكن لا يدرك صاحب جمع الجمع كل شيء إلا بما يناسبه فيدرك المحسوسات بحسه الحاضر من تلك الحضرة، والمبصرات بالبصر، والمسموعات بالسمع، والمشمومات بالشم، والملموسات باللمس، والمذوقات بالذوق، وكذا المعقولات لا يدركها إلا بالعقل الحاضر في تلك الحضرة والروحانيات إلا بروحه، والمعنويات إلا بمعناه وسره، وكل ما يُنسب إلى الحق لا يدركه إلا بعلمه وحقيقته الظاهرة فيه،والخلقيات إلا بخلقه بموجب:[قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً][الإسراء/84] ، أي في التميز الحقي بين الخصوصيات، إنما أضيف حكم هذا التميز وعمل كل على شاكلته وحكم خصوصيته بعلم الرب المضاف إليهم، أعني إلى غير تلك الحضرة المحمدية لا إلى الرب المضاف إليه، الذي هو منتهى كل شيء من الرب والمربوب، وهذا الحكم أعني اختصاص كل مدرك بما يناسبه من المدركات، وتقيده بذلك يعبر عنه بسكر مقام الجمع، وإنما بقي هذا القيد في مقام جمع الجمع بسبب بقاء أثر التميز والغيرية فيه بحكم اقتضاء هذه المرتبة هذا الحكم.

وأما الصحو من هذا السكر فمختص بمرتبة أحدية الجمع وحضرة السوائية الحقيقية التي لا تميز فيها تميزا حقيقيا ولا غير ولا غيرية فيها بوجه من الوجوه أصلا، فلا جرم صاحب هذا المقام مختص باتحاد بصره الظاهري وبصيرته الباطنية، واتحاد قلبه بقالبه وقالبه بقلبه وبصره بسمعه، وسمعه ببصره، فيدرك بكل شيء كل شيء، ولا يختص إدراك شيء بشيء بالنسبة إليه، فيدرك المعاني المجردة والروحانيات بحاسة بصره وسمعه وشمه وذوقه ولمسه إذا أراد، والمبصرات والمسموعات بعقله وروحه وسره، وهذا هو (محو)[4]الجمع المختص بالمقام المحمّدي الذي يترجم عنها الناظم

[1] أحدية الجمع: اعتبارها من حيث هي بلا إسقاطها وبلا إثباتها بحيث يندرج فيها نسب الحضرة الواحدية، ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية(مرجع سابق)، ص: 13.

[2] كذا في المصدر(ديوان ابن الفارض)، وفي (ج)، أما في (ب): جمع الجمع.

[3] الصحو: صفو الشهود عن البقية، وهو نقيض السكر، قال ابن عربي: الصحو: رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 207.

[4] في (ب) و(ج): محو.

قوله: "فسمعي كليمي"(البيت) الرؤيا مختصة بالنوم، والرؤية باليقظة، وقال معللا بحرف الفاء لما ادعاه من إحرازه وحيازته صحو الجمع:أن سمعي كليمي، يعني من جهة أنه إدراك التجلي بسمعه وخَرَّ صعقا.

وأن قلبي منبئا، أي مخبر بأحمد، رؤيا مقلته مضافة إلى الحضرة الأحمدية ففي قوله: منبئا (البيت)، أدرج فيه أربع إشارات إحداها: معنى الترجمانية دون التحقق بحقيقة ذوقه ومقامه ρ وذلك في قوله: "وقلبي منبأ" أي بطريق الفهم من كلامه وإشارة الحق في كتابه العزيز إلى مقامه ρ، وبطريق إلهام رباني متضمن مرمى مرامه υ ، ثانيها: أن الرؤية الأحمدية كانت محفوظة عن الخطأ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فما يراه في نومه كما يراه في يقظته، ثالثها: التنبيه بأحمد رؤيا، على أن ثمة رؤيا محمودة سوى هذه الرؤيا، وهي اختصاص رؤيا المقلة الأحمدية بكمال الصحة والمطابقة لما هو الواقع لما هو محتاج إلى التغيير بالتعبير، رابعا: إضافة المقلة المحسوسة إلى الحضرة الأحمدية وذلك (كأن)[1] مقلته المحسوسة مضافة إلى مزاجه الذي هو صورته المحمدية وقلبه ρ صورة حقيقته الأحمدية، فأشار بإضافة المقلة إلى الحضرة الأحمدية إلى مقلته الحسية ظاهرة بصورة قلبه، وقلبه منطبع بحكم جميع حواسه الظاهرة، أعني أن قلبه وباطن باطنه ρ يدرك من المحسوسات المختص إدراكها بالمقلة المحسوسة، وتدرك مقلته من كونها مضافة إلى الحضرة الأحمدية ما يدرك بقلبه وباطنه ρ، والإشارة إلى ذلك قوله تعالى: [مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى][النجم/17]،[لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى][النجم/18]، وبقوله:[مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى][النجم/11]، وذلك كله بسبب صحو الجمع المذكور، ولذا كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه.

فإذا لم يبقى غبار على وجه (إنسان)[2]العين التي رأى بها محمد ربه حيث صار بصره بصيرة وقالبه قلبا، كما صار الكليم حين سمع كلام الله سمعا كله وأذنا، ولم يختص سمعه بجارحته المخصوصة به، ولم يحتج إلىمقابلة، قال عز من قائل: [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ][البقرة/115]، وظهر لك أيضا رجحان مذهب[3] ابن عباس رضي الله عنهما، وبهذه النقول التي جلبناها يجاب على استشكال وقوع الرؤية البصرية اعتمادا على ظواهر الآي، وأما من اعتمد[4] على الأخبار[النبوية][5] ففيها اضطراب، مرة قال لم أره بعيني، ومرة قال رأيته بها،كما رواه الشطيبي فيجب تأخر الخبر المثبت عن الخبر المنفي، فيكون بعد أن أخبر بعدم الرؤية البصرية أكرمه الله وأتحفه بها، فأخبر ثانيا بما وقع مرة ثانية وحينئذ نسلم من الطعن في الرواة، ومن مصادمة الأخبار النبويات، والله أعلم.

ووجه العذر في اختلاف الأئمة المجتهدين والعلماء المتأخرين، أن من تقيد بقيود مقام سكر الجمع منع الرؤية البصرية الدنيوية، ومن تخلّى عن تلك القيود وترقى لمقام صحو الجمع أجازها، والكل له قدم راسخ وعقل شامخ، [كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً][الإسراء/20]، اللهم أعطنا كما أعطيتهم، وأمدنا كما أمددتهم، فإنه لا إله غيرك، ولا خير إلا خيرك.

[1] في (ب) و(ج): أنَّ.

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[3] في (ب): قول.

[4] في (ب) و(ج): استدلَّ.

[5] إضافة في (ب) و(ج).

فإذا توافقت الفحول وتطابقت النقول على جواز الرؤية القلبية ووقوعها، فما لنا والإدبار عن هذا الرب الكريم بعد أن قال لنا تعالى: [وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ][البقرة/115]، فكيف يرضى ذو عقل أن يعرض عن مولاه أو يدبر عنه، ويوليه قفاه، وهو تعالى دائما مقبل عليه ومهدي كل نعمة إليه، وهو مع هذا لا حاجة له إليه، فإذا كان القلب حيثما توجّه (واجهه وجه الله)[1]، كيف يصير وجهه قفا، ويترك من لا غنا له عنه في كل نفس وطرفة وراء ظهره كالشيء الذي لا يعبأ به، فالإدبار أعظم من كل عظيم عند من يعرف حق السميع العليم[2]، قال بعض العارفين: "الإعراض عن الله طرفة أشد على العبد من دخول النار، لأن ما فاته من الخير في تلك اللحظة أعظم ما حصل له قبلها، وعلى قدر الإقبال يكون رفع الحجب، وعلى قدر الإعراض تنسدل الحجب والحجاب بسبب العذاب، قال سهل التستري: "ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي عبدي ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، وأدعوك إليّ وتذهب إلى غيري، وأُذهب عنك البلايا، وأنت معتكف على الخطايا، يا هذا ما تقول إذا جئتني غدا، ولذلك قال τ ما رأيت معصية أقبح من نسيان هذا الرب".

[رؤية الأولياء المحمّدين لله تعالى:]

قوله: "أم الباقي عاد في اجرى"، هذا على مذهبه رτ في التمسك بقول عائشة رضي الله عنها فتتجه الأخروية في غيرالأنبياء، وإلا فقد ذكر سيدي الحاج الشطيبي في كتابه: «التفسير»، عند تعرضه لسورة النجم المذكور فيها أمر الرؤية: أن رجلا ادَّعَى في حياة الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني τ، أنه رأى الله تبارك وتعالى بعين رأسه،فقبض عليه ليُحَدَّ[3]، ثم أنه أوتي للشيخ محي الدين الجيلي فسأله وقال له: أحق ما تقول؟ قال: نعم، فوعظه وزجره ونهاه عن ذلك القول وأكد عليه في التحذير من ا لزيغ والكفر، ثم أخذ عليه عهد الله إن عاد لهذا القول ليأمرنّ بقتله، ثم أمر بإطلاقه، وكان ذلك بمحضر كبير من الصوفية، فسألوا الشيخ عن حال الرجل: أمحق هو أم مبطل؟ قال: هو والله محق، ملبس عليه الأمر، قيل له: وكيف يكون التلبيس مع التحقيق؟ فقال: قوى النور في بصيرته إلى أن نفذ لبصره في حال المشاهدة، ففاضت أنوار الشهود عليه، فغرق في لوامع الأنوار، فظن أن بصره شاهد ما شاهدته بصيرة قلبه في حال انقطاع ظلمة الطينية الطبيعية.

دل على ذلك حالة الوله التي كسته حتى غاب حسه في معناه، ولولا البرزخ الذي جعل الله بين روحه وجسمه لهلك الرجل، وإن الله ليبعث بمشيئته على يدي ألطافه من أنوار جلاله وجماله لمن شاء من خلقه إدراكا قويا تتطور به الصور في الهياكل النورانية، فتأخذ منها القلوب كأخذ الصور من المصور وليس ذلك إلا تطابق الأنوار، ووراء هذا رداء الكبرياء الذي لا سبيل إلى انخراقه لشيء.

ثم انطلق لسان الشيخ في أحوال التجلي للخلق في الدنيا والآخرة إلى أن تواجد كل من في مجلسه، فمنهم من خرّ ميتا، ومنهم من صعق ثم أفاق، ومنهم من مزق ثيابه، ومنهم من خرج هائما على وجهه، فلم يوجد له أثر

---

[1] في (ب): وجد الله

[2] في (ب): الرقيب العليم.

[3] أي إقامة الحدود عليه.

بعدها، ومنهم من خلع ما كان عليه، ولبس ثياب العبّاد، واشتغل بالعبادة حتى مات رضي الله عن جميعهم ونفعنا بحبهم وبركاتهم. فانظر هذا المقام الخاص وهو من مشموم رائحة النبوة، فأحرى بالرسل عليهم الصلاة والسلام وأحوالهم التي لا تدرك، ولا يمكن التعبير عنها لاسيما عند العامة". منه بلفظه.[1]كتاب «التفسير» للشطيبي.

قلت حدثني الشاب الأديب التائب الحبيب سيدي إبراهيم الحاج بن الولي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد السماحي[2]سامح الله الجميع، أنه صحب بالديار المصرية من حدّثه أن بعض الفضلاء من (أهل الوقت)[3] قال له: "حدَّثَني فلان وسمَّاه له، أنه رأى رب العزة جل جلاله يقظة لا نوما، وأوصاه بكتمان ذلك مدة حياته، وأخذ عليه العهد بذلك، فلما توفي تنسّم الخبر لأهله وأوصوا بكتمان ذلك عن غير أهله، قالρ: «حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[4]، ثم قال سيدي إبراهيم المذكور: "وأنا منّ الله عليّ بلقاء الخضر υ عند بئر زمزم، وبشرني ببشارة عظيمة، فقلت للسيد إبراهيم، وما هي: استحيا وكتمها عنّي، ثم بعد مدة سألت ولد عمّه الأبر الناسك سيدي الحاج أحمد التومي[5]، وكان معه في أرض الحجاز، فقصصت عليه، فصدقه، وسألته عن البشارة، فقال: هي رؤيته للمولى تبارك وتعالى في الدنيا، فقلت:وهل أنجز الله وعده، فقال:نعم والحمد لله.

ثم قال لي سيدي أحمد المذكور، وأنا وعدني شيخنا سيدي الحسن المريني بها أيضا فوفى الله لنا ذلك والحمد لله على ذلك، ثم لقيت الفقيه الفاضل النحرير الكامل سيدي الجيلاني[6] بن سيدي يحي بن صفية وكان أخاهما من شيخهم المذكور فسأله عن البشارة، فقال: مثل ما قال سيدي أحمد وصدقهما لتحققه بذلك، منّ الله علينا بما من به على أوليائه المتقين آمين، وأصل الحكاية أني لقيت هذا الفتى أعني سيدي إبراهيم أول قدومه من الصحراء ، فتحدثت معه فأتَلَفَت الأرواح، ثم بعد حجه لقيته بالصحراء إثر قدومه من الحج، (فسألته عما لقي في سيره)[7]، ومن لقي من عباد الله، فقال: حضرت في بناء البيت الكعبة حيث هدمها السيل، ونقلت (الحجر)[8] والتراب على ظهري،و كان معي الحاج أبي حفص أخي، وجاورت بها المدينة (سنة أخرى)[9]، وتزوجت مدينية، ولقيت بالمدينة الشيخ الكامل سيدي الحسن بن رحال الكوشي المغربي، (فلقّنني الأسماء، وأوصاني باتخاذ الخلوة بعد إيابي)[10]، وأهديت له مثقالا شريفيا في خفية[لم يعلم به إلا الله][11]، ثم وعدني بلقاء الخضرυ، وقال: أنه سيبشرك ببشارة عظيمة.

---

[1] أي من كتاب "التفسير" للشطيبي.

[2] تقدّمت ترجمة سيدي عبد القادر بن محمد السماحي المدعو (سيدي الشيخ) في قسم الدراسة.

[3] في (ب) و(ج): معاصريه.

[4] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 59.

[5] هو سيدي الحاج أحمد التومي بن سيدي أحمد المجذوب بن سيدي سليمان بن أبي سماحة، تنحدر من عقبه وعقب أخيه سليمان ذرية سيدي أحمد المجذوب(المجَاذْبَة) بنواحي عسلة ولاية النعامة. وهو ابن عم سيدي ابراهيم الحاج بن سيدي عبد القادر الدعو (سيدي الشيخ)، عاش بين القرنين16م/ 17م. ينظر:

-H.boubakeur .un soufi algerien.Sidi Cheikh. Maion neuvre et la rose. Paris. P.09

- خليفة بن عمارة، سيرة البوبكري(1) أجداد أولاد سيدي الشيخ، ترجمة: محمد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، دط، 2002، ص:82

[6] تقدّمت ترجمته في قسم الدراسة.

[7] في (ب) و(ج): فسألني عن بعض مهمّاته، ففتح الله في جوابه، ثم سألته عمّا لقي في تشريقه.

[8] في (ب) و(ج): اللَّبِـن.

[9] ساقط في (ب) و(ج).

[10] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[11] إضافة في (ب) و(ج).

فلما أن استهلّ شهر رمضان، وأنا في حرم مكة أتيت ذات يوم لبئر زمزم لأتوضأ، فلقيت رجلا هناك فسألني واستفهمني بقوله، أمغربي[1] أنت؟، فقلت: نعم، مالكي المذهب؟، قلت نعم، (وحسبت أنه تعرف نسبه أيضا قال)[2]، ثم قال لي: الأمارة حين أعطيت شيخك المثقال، ولم يحضركما أحد (إلا الله)[3]، فتذكرت مقالة شيخي المذكور، (وعلمت أن أبو العباس أحمد الخضر)[4]، فتعلّقت به، ودعا لي وبشرني كما وعدني بذلك سيدي الحسن بن رحال، ثم شرعنا في الوضوء، فخفف الرجل وضوءه كثيرا فاستعجلت أنا في وضوئي لأدركه، فسبقني وانصرف قبلي، ودخل في صفوف المسلمين (فطلبته)[5] فلم أجده.

ثم أن السيد إبراهيم استشارني في أمر أهمه، وهو أن قال لي: أن شيخي شرط علي الخلوة والعزلة، والانقطاع لمجاهدة النفس، وهذه المرأة المدينية تركت أهلها وبلدها وقدمت معي لوطني، وهي غريبة لا تعرف إلا وجهي، فلا أدري ما أصنع إن انقطعت عنها، وتخليت للعبادة، فخفت ألا تسمح بحقها وينكسر خاطرها وربما تقول: أخرجني من وطني وغرَّبني، وإن أنا بقيتُ في صُحبتها وجَبَرتُ قلبها انقطعتُ عن المجاهدة، وعن ما أمرني به شيخي من الخلوة والأوراد، فتحيرت، ولم أبث هذا الأمر إلا لك، ففتح الله في جوابه، وقال لي: قال الله العظيم: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ][الأحزاب/24]، وقد خيّرρ نساءه حين حصل على أمر عظيم، وأمره الله بذلك في قوله تعالى:[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً][الأحزاب/28]، فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة، فكذلك أنت قل لها بلطف: إن أردت أردك إلى بلدك وأعطيك ما يرضيك فنعما ذلك، وإن أردت وجه ا لله وأعانتنا على الدين، فاصبري حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، والكفاية بالله، فنرجو من الله إن صدقت مع الله أن تسمح لك ويطيب خاطرها، كما فعلت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين، فاشتغل τ بالمكابدة، ثم بعد ذلك لقيته فسألته، فقال: أنا بعد في مجاهدة النفس، ثم لقيته مرة أخرى، فقال: إنا الله هنّاني من نفسي، فأنا اليوم في السلوك، وكان مغشيا بـ "مفتاح الفلاح" لابن عطاء الله حتى فتح الله عليه ومات شهيدا.[6]

[أحكام الرؤية:]

فلنرجع لأحكام الرؤية، ونقول ما حكاه هذا الشباب الصادق لا يحمل إلا على الصدق، ثم ننظر بنظري العقل والنقل، فإن العقل جوز رؤية الموجود الحق، ووقعت لنبينا على ما مرّ، ثم ننقل الكلام للأولياء، المحمدين فمن وقع له شيء من التجلي الإلهي المحيط بكل جهة صار من وقع له شيء من ذلك كله بصرا وانخرقت بصيرته لبصره، واتحد باطنه بظاهره، وأدركه شيء لا يكيف ولا يحد ولا يوصف، وصارت جباله دكا، وفاضت بحاره عرقا حتى إن كل شعرة بل كل ذرة يخلق الله لها إدراكا، حتى كأنها تسمع بأذنها وتبصر بعينها وتعقل بقلبها، ولكن من ذاق وعرف

---

[1] يقصد المغرب العربي الكبير.

[2] ساقط في (ب)، وفي (ج): فلم أعرفه حتى قال لي: الأمارة..

[3] ساقط في (ب) و(ج).

[4] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[5] في (ب) و(ج): فقاولته.

[6] الكلام من (ثم أن السيد ابراهيم –الى– مات شهيدا) ساقط في (ب) و(ج).

وتحقق ما وصف، فالبصر إذا عرفت هذا والبصيرة سواء، ويرحم ا لله عز الدين كيف أبدى بعض ما خفي عن الجاهلين، وقطع حجة الجاحدين بقوله في وصف حاله:

ولمَّا تجلَّى مَن أُحِبُّ تَكَرُّمـــــا	وأشْهَدَني ذَاكَ الخَبَابَ المعَظَّمَـــــا
تَعَرّفَ لي حَتَّى تَيقَّنتُ أنّـــني	أرَاهُ بِعَيني جَهْرَةً لا تَوَهُّمـــا
وفي كلِّ حَالٍ أجتَلِيه ولم يَـــزَل	عَلَى طُورِ قَلبِي حيثُ كنتُ مُكلَّمـــا
ومَا هُو في وَصْلِي بمُتَّصِـــل ولاَ	بمُنْفَصِل عَنِّي وحَاشَاه مِنهُمَـــا
ومَا قَدَرُ مِثْلِي أن يُحِيطَ بمِثْلِـــهِ	وأينَ الثَّرَى مْن رِفْعَة البَدْرِ إنَّمـــا
أُشَاهِدُه في صَفْوِ سِرِّي فاجْتَلِـــي	جَمَالا تعلَّى عِزَّةً أَن يُقَسَّمَـــا
كَمَا أنَّ بَدْرَ التَّمّ بنظرٍ وجهــــهِ	بصَفْوِ غَدِير وهُو في أفُقِ السَّمَـــا[1]

وقضية الشاب الذي كان يرى ربه ويبشر شيخه، فيقول له: لو رأيت أبا يزيد حتى رآه خرّ ميتا تفصح بلسان الحق عمن نوزع في رؤية الحق، وأما رؤيته تعالى في عالم المنام فلا ينكرها عاقل، روى الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن يوسف السنوسي الحسني في (مجرّباته)، عن الترمذي الحكيم: "أنه رأى رب العزة جل جلاله في النوم نحو ألف مرة، كل ذلك يقول له: "أسألك بخاتمة خير، فقال له: قل أربعين مرة، وفي رواية إحدى وأربعين مرة، بعد طلوع الفجر، وقيل صلاة الصبح: يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا الله يا الله، يا الله، لا إله إلا أنت، أسألك أن تحي قلبي بنور معرفتك، أبدا سرمدا، يا الله، يا الله، يا الله".

وحدثني الشيخ الصالح سيدي أحمد بن عبد الغفار بن سيدي محمد القاضي عند روضة سيدي أحمد بن الحسن، وكان فقيرا صابرا، بعد أن كان غنيا، قال لي: ختم الله لك ولنا بخاتمة خير، إني رأيت الله تبارك وتعالى في المنام، فقلت: وكيف ذلك فقصَّ عليّ الرؤية، فلم ننكر من كلامه شيئا لموافقته، فشكرت الله له، فوجب على كل مؤمن يبتغي السلامة أن يسلم الأمر لأهله، ويسأل الله من فضله، فإن هذا مسلك وعر لا ينفذ منه إلا القليل.[2]

ثم قال الناظم رحمه الله:

[1] القصيدة ساقطة في (ب) و(ج).

[2] الكلام من (وحدثني الشيخ -إلى- إلاّ القليل) ساقط في (ب) و(ج).

فالله اللهُ دُونَكْ وذَا الاسْـــــمْ   لاَ يَضْحَى لَكْ حَظْ يَا مَتْبُـــولْ
او الذَّاتْ تْكُون حَدْ العِلْـــــمْ   مْعَ الوَصْفْ وفِعْلْ يَا مَجْهُـــولْ
أو المعْنَى ثمَّ حَدْ الرَّسْــــمْ   كِيفْ زْوَاوْ سَادَتْنَا ذَا القَـــولْ
لَكِن مُوسَى زَاد للغَيْـــبْ   أم الغِير الكُلْ هُوَ خَسْـــرَا
كِيفْمَا ذكْرَه قَابَلْ التَّـــوبْ   في مَبْدَاهَا سُورَة البَقـــرَا

أشار τ بكلامه هذا إلى منازلة مقامات الاتحاد وإلى العروج فيها من بعد الوصول إليها والاتصال، وقوله: يا متبول بتقديم الثاء المثنات الفوقية على الموحدة التحتية، هذه روايتي على الناظم، فمن الأولى قول كعب بن زهير في أول قصيدته التي أنشأها بين يدي رسول الله ρ وقال:

بَانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ متْبُولُ   متيَّـمٌ إثرَهَـا لم يفْـد مكبُـولُ

قال شارحها: التبل الرغم في القلب، يقال تبلت فلانة فلانا إذا هيَّمَته كأنها أصابت قلبه، ويقال: تَبَلَهُم الدَّهرُ، أي أفناهم[1]. ومنه أيضا قوله υ: «تابل آدم على حواء عند مقتل ولدها هابيل»[2]، قال الشطيبي: "ومعنى تابل، توحش، أي لم يلتفت إليها، ولم يباشرها مائة سنة، ومن الثاني قوله تعالى: [وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً][المزّمِّل/8]، ويكون بمعنى الانقطاع، والمعنيان صحيحان هنا، لكن الأول أولى، وقال ابن الخطيب: والتبل هو أن يُسقِم الرجل الحب، يقال رجل متبول، وتبّله الحب، أي أسقمه وأفسده وقطعه، والتبل القطع، والتيم هو التعهد، تيّمه الحب، أي استعبده، ومنه تيَّم اللاّت، أي عبدها" من «روضة التعريف» له.

[السير في منازل ا لاتحاد:]

فمن السير في منازل الاتحاد قول إمام العاشقين، ونخبة الصديقين سيدي محمد بن الفارض في "نظم الذر":

وجُل في فُنُون الاتِّحادِ ولاَ تَحِد   إلى فِئَـةٍ في غَيـرِه العُـمْـرِ أَفْنَـتِ

وقال شارحه: أي إذا انتهى سيرك إلى حضرة محبوبك بقي عليك السير فيها، فلا تسكن صورة طلبك وحرارة توجهك: بمجرد الوصول إلى مبدأ مراتب الوصل وحقيقة الوحدة التي هي مقتضاه، والتحقق بمقام الاتحاد، بل تُشَمّر للسير فيها بالجولان في فنون الاتحاد، وهي أربعة:

–أولها: التحقق بظاهر الوجود العيني، وهو مقام: "كنت سمعه وبصره"، وذلك بالسير من النفس وفناء ظاهرها وكثرتها إلى عين وحدة الوجود الظاهري.

– ثانيها: التحقق بباطن الوجود العلي، وهو مقام إن الله قال على لسان عبده (سمع الله لمن حمده)، وذلك بالسير من الروح للروحانية، وقيامها بوحدتها وبساطتها إلى كثرة الشؤن النسبية.

---

[1] التَّبْلُ: غلبة الحب على القلب، ويقال تَبَلَهُم الدهر أفناهم، وقالوا في قول الأعشى(البسيط):
أنْ رَأَتْ رَجُلاً أَعْشَى أضَرَّ به   ريبُ المَنُون ودَهرٌ خائنٌ تَبِلُ.   ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (ج1)، ص: 187.

[2] لم نعثر عليه.

– ثالثها: السير من التقيد والتجلي الظاهري والباطني،[وفناء هذا التقيد، وهو مقام جمع هو الأول والآخر والظاهر والباطن][1]وهو المعبر عنه بالفناء في الفناء.

– رابعها: المختص بالحضرة المحمدية، وهو السير من بقية التميزات والغيرية، وحكم الضدية فيما جمعته هذه الحضرة، والمقام الثالث، وفناء هذه البقية إلى الحضرة الجمعية الأحدية السوائية النافية كل أثر تمييز، وحكم ضدية وغيرية بالكلية، وهو مقام: [إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ][الفتح/10]، ومقام: [وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى][الأنفال/17].

[في خصائص وفضائل اسم الجلالة "الله":]

قوله "فالله الله"، هذا هو الاسم العلم على ذات واجب الوجود، وهو اسم الله العظيم الأعظم على الصحيح، سئل مالكτ: "هل الاسم هو المسمى أم لا؟ فقال: ليس هو به ولا هو غيره، لقوله تعالى: [إ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ][الكهف/24]،[وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً][المزّمّل/8]، أي انقطع إليه عما سواه وقوله تعالى: [تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ][الرحمن/78]، وقال في الآية الأخرى: [فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ][المؤمنون/14]، من «شرح المباحث» للشطيبي.

وقال فيه أيضا: قال أبو العيش: "اسم الجلالة جامع لمعاني كل الأسماء لأنها أسماء الصفات، وهو اسم الذات الذي لا يعرف ما هو إلا هو، فلذلك اختص بالتعلق، وغيره من الأسماء يصلح للتعلق والتخلق، والتعلق لا يكون إلا بإلقاء العصا وطي الوجود الفاني في الوجود الباقي، إذ هو الغني عن كل شيء، ولم يستغن عن شيء ، وهذا معنى الألوهية قال بعضهم: خض حيث شئت تجد الله، وقل ما شئت فالعا لم الله، وكن حيث شئت، فأنت في قبضة الله، وغاية المعرفة الدهش والحيرة في عظمة الله وكبريائه".

قوله: "فالله فالله"، منصوب على التعظيم والإغراء، ولذلك أعاد الاسم الكريم تأكيدا، أمرك بملازمته والتعلق به حتى يعمل فيك عمله، قال الشيخ الفاضل سيدي محمد بن علي بن محمد بن حسن بن حيون الصقلي الأندلسي البرجي شهر بالحاج الشطيبي في كتابهالتفسير المسمى «اللباب المختصر لأهل البدايات والنظر»، المؤلف سنة تسعمائة وأربعين: "قيل أن اسم الجلالة هو سلطان الأسماء، وله صولة في ميادين القلوب، فمن لازمه بدت له أسرار الملك والملكوت في بساط القرب، وهو اسم الله الأعظم على المشهور، وهو جامع لمعاني الأسماء كلها، وأسماء اله شارحة له لأنه اسم الذات وما عداه اسم الصفات، وهو للتعلق فقط؛ ومعنى التعلق الاطلاع على أذيال العظمة، ولم يكن قبل نزول القرآن يذكر إلا على بساط التعظيم بالإشارة، فكانوا يكتبون (باسمك اللهم)، ثم كان هذا الاسم من معجزات رسول الله ρ، أنزله عليه جبريل υ، في بطاقة مكتوب فيها: اللهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم المصون المكنون الطاهر المطهر الحي القيوم الرحمن الرحيم ذي الجلال والإكرام، قال أنس: فقالت امرأة: علمنيه يا رسول الله، قال: نهيت أن أعلمه النساء والصبيان"، وقال أيضا في شرحه «للمباحث الأصلية» عند قول الشيخ أبي العباس بن البناء

[1] إضافة في (ب) و(ج).

رحمهما الله تعالى: فلم يزل مستعملا للذكر فيصمت اللسان وهو يجري، وقدر ما تجوهر اللسان بالاسم ستُثَبِّتُه الجنان، ثم جرى معناه في الفؤاد إذ جرى الغذاء في جملة الأجساد، يعني بالذكر اسم الجلالة.

الذي اجتمعت عليه أرباب المعرفة، إنه اسم الله العظيم الأعظم، وإنه منبعُ التصرف به للخلق مع وجوده في كل لسان الطبوع البشرية، والحظوظ النفسية، ولو اتبعوا الاسم لوجدوا المسمّى».

ولمثل هذا قال الشيخ السنوسي: «واعلم أن الاسم الأعظم هو الذكر المفرد، وهو قولك: الله، وليس هذا الاسم بحيث يخفى على قوم دون قوم، لكنه يقتضي سرّا عظيما حصل عليه أفراد الرجال بالتصفية وطهارة النفس، حيث أُخرجت عن جميع الحجب التي تحجبها عن حقيقة هذا الاسم العظيم، فالسِّرُّ في السكان لا في المنزل، ولما استعمل الكافة هذا الاسم على غير شرطه ظنَّ بعضهم أن الاسم الأعظم غيره، وذلك جهل بوجه الحكمة"، من اختصاره لكتاب «السلوك» للساحلي، وذكر فيه طريق التصفية، فَدُونَكَهُ.

[في الذِّكر بأسماء الله الحسنى:]

قوله: "دُونَكَ، وذَا الاسْمْ"، أَمَرَك أن تتحصن بالله من أعدائه، وتجدَّ في ذكره حتى تَجني ثمرات أسمائه، قال عزّ من قائل:[ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها][الأعراف/180]، وقالρ:«إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة»[1].

(**فائدة عامة**: قال أبو العباس البوني، قال أبو زيد عمارة بن زيد: حدثني سفيان الثوري عن ابن عينة، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، τ، أن رسول الله ρ قال، وذكر الحديث)[2]، قال عمارة: دعوت بهذه الأسماء غير ما مرة، فرأيت الإجابة، وكتبها عني جماعة كلهم أخبروني أنهم قرأوها عند ملمَّات ومَهَمَّات، فخلَّصهم الله تعالى بمنّه، قال عمارة، قال لي سيدي الشريف الذي أفادنيها: إذا أنت عَلِمْتَ هذه الأسماء، فقد علمت اسم الله العظيم الأعظم، فإذا أهمَمْتَ بالدعاء بها، فليكن بعد صيام، وأحب إليَّ أن تصوم يوم الخميس، وتدعوا بها في الثلث الأخير من ليلة الجمعة في وجه السَّحَر، والله الذي لا إله إلا هو لا يدعو بهذه الأسماء عبد مؤمن إلاَّ أجاب الله تعالى دعاءه، حتى لو سأله أن يمشي على الماء أو على متن الهواء لأُجيب، وهي هذه الأسماء ملخصة مستخرجة من كتاب الله على الترتيب الذي في السور: يا الله يا رب يا رحمن يا رحيم يا مالك يا محيط يا قدير يا عليم يا حكيم يا تواب يا بصير يا واسع يا بديع يا سميع يا كافي يا رؤوف (يا شاكر يا واحد)[3] يا حليم يا قابض يا باسط يا حي يا قيوم يا علي يا عظيم يا ولي يا غني يا حميد يا وهاب يا قائم يا سريع يا رقيب يا حسيب يا شهيد يا عفو يا مغيث يا وكيل يا فاطر ياقاهر يا لطيف يا قادر يا خبير يا محيي يا مميت يا نعم المولى يا نعم النصير يا حفيظ يا قريب يا مجيب يا قوي يا مجيد يا ودود يا فعّال لما يريد يا كبير يا متعال يا منّان يا خالق يا صادق يا وارث يا باعث يا كريم يا حق يا مبين يا نور يا هادي يا فتاح يا شكور يا غافر يا قابل يا شديد يا ذا الطول يا رزاق يا ذا القوة يا متين يا برّ يا مليك يا مقتدر يا باقي يا ذا الجلال والإكرام يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا

---

[1] الحديث أخرجه: - البخاري، صحيح البخاري، ج2، ص:981./- مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2063./ - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج2، ص:267.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج)

[3] في (ب) و(ج): يا شاكر يا إله.

عزيز يا جبّار يا متكبّر يا خالق يا بارئ يا مصور ما مبدئ يا معيد يا أحد يا صمد. كملت، قال عمارة، قال لي الشيخ: " هي أمانة الله عندك لا تُعَلِّمها إلا لمن ترضى دينه.(مختصرا)[1] من «شمس المعارف» للبوني.[2]

[في أسماء الذات والصفات والأفعال، وفوائد الذكر بها في سلوك الطريق:]

وذكر إمام الطريقة وصاحب الحقيقة الأستاذ أبو اسحاق الاسفرينيτ: أن اسم الله على ثلاث مراتب، أسماء الذات وهي ثمانية وعشرون اسما، وهي: (يا الله يارب يا واحد يا قيوم يا علي يا عظيم يا غني يا حميد يا مجيد يا كبير يا متعال يا حق يا نور يا ذا الجلال والإكرام، يا أوّل يا آخر يا ظاهر يا باطن يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا أحد يا صمد).

وأسماء الصفات ثمانية وعشرون أيضا، وهي: (يا رحمن يارحيم يا عليم ياحكيم يا بصير يا سميع يا رؤوف يا شاكر يا غفور يا حليم يا حي يا قريب يا شهيد يا عفو يا خبير ياحفيظ يا رقيب (يا ودود)[3] يا وارث يا كريم يا كافي يا مقتدر يا باقي يا قائم يا قدير يا منان).

وأسماء الأفعال ثلاثة وأربعون، وهي: (يا مالك يا محيط يا تواب يا واسع يا بديع (يا قابض)[4] يا باسط يا ولي يا وهّاب يا سريع يا حسيب يا وكيل يا مغيث يا فاطر يا كاشف يا قادر يا لطيف يا محي يا مميت يا نعم المولى يا نعم النصير يا مجيب يا فعّال يا خلاق يا باعث يا مبين يا هادي يا فتاح يا شكور يا غافر يا قابل يا شديد يا ذا الطول يا رازق يا ذا القوة يا متين يا برّ يا خالق يا بارئ يا مصوّر يا مبدئ يا معيد، يا من هو الفعال لما يريد افعل لي كذا بحق أسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم، إنك على كل شيء قدير).

وقال أبو العباس البوني رحمه الله تعالى وτ: أسماء الله الحسنى تنقسم إلى خمسة أقسام: أسماء الذات، ثم أسماء الصفات ثم أسماء الأوصاف، ثم أسماء الأفعال، ثم أسماء الأخلاق، فيجب على الداعي[بالأسماء أن يبدأ][5] بأسماء الذات في أول الذكر والتكرار، ثم على الترتيب، كما أخبر الله به في كتابه العزيز، فقال: [هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة][الحشر/22]وقال:[هو الله لا إله إلا هو الملك القدوس][الحشر/23] وقال:[هو الله الخالق البارئ المصور][الحشر/24]، فأسماء الذات: هو الله الذي لا إله إلا هو، وأسماء الصفات، (سبعة)[6]: الحي العليم القدير السميع البصير المتكلم المريد.

وأسماء الأوصاف واحد وأربعون: الصمد، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الملك، القدوس، السلام،(المؤمن، القيوم)[7]، القدير، الرب الحق، المجيد، النور، الشهيد، الرشيد، العلي، العظيم، الكبير، المتعال، الجليل، ذو الجلال،

---

[1] ساقط في (ب).

[2] ذكر البوني في كتاب آخر له شيئا من خواص أسماء الله الحسنى وأسرارها التي لا تستقصى، وما يرتبط بها من الحقائق العرفانية. ينظر: أبو العباس أحمد بن علي البوني، منبع أصول الحكمة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، دط، دتا، ص: 199– 217.

[3] في (ب) و(ج): يا قوي.

[4] في (ب): يا حافظ

[5] إضافة في (ب) و(ج).

[6] ساقط في (ب)

[7] ساقط في (ب) و(ج).

العزيز، الجبار، المتكبر، الرفيع، الجميل، الغني، المولى، الدائم، الباقي، المهيمن، المحيط، السريع، القوي، ذو القوة، المتين، الشديد القاهر، القهار.

وأسماء الأخلاق خمسة وعشرون: الرحمن، الرحيم، اللطيف، الحليم، الرؤوف، الشاكر، الشكور، المجيد، العفو، الغفور، الغافر، التواب، القريب، المجيب، المغيث، النصير، البديع، الولي، الحافظ، الحفيظ، الجواد، ذو الطول، الوهاب، الكريم، الغفار.

وأسماء الأفعال أربعون: الفعّال، الفالق، المبتدع، الخالق، الخلاّق، البارئ، المصور، الفاطر، المبدئ، المعيد، الباسط، القابض، المعطي، المانع، الضّار، النّافع، الشافي، المعافي، المذلّ، المعزّ، المقدّم، المؤخر، الهادي، المبين، المنّان، الوكيل، الكافي، الفتاح، الرزاق، المغني، المحي، المميت، الجامع، الوارث، الباعث، المحصي، الحسيب، المقسط المنتقم، الرزاق.

قوله:"فالله الله دُونَكْ وذَا الاسْم"، هذا هو اسم الذات المتقدم ذكره في كل شيء، فإن قلت: ما فائدة سردك للأسماء ولتقسيمها هنا ؟ و المصنِّف لم يتعرض إلا لذكر اسم الجلالة، قلت: في تعدادها فوائد متعددة لمن أراد سلوك الطريق بذكر أسمائه:

- الفائدة الأولى العامة وتقدم ذكرها،

-الثانية ما أخرجه الإمام أحمد والطبراني وغيرهما عن يعلى بن شداد، قال حدثني أبي شداد بن أويس وعبّادة بن الصامت حاضر يُصَدِّقه، قال:«كنّا عند النبي ρ، فقال: هل فيكم غريب؟، يعني أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا وقلنا لا إله إلا الله، ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: ألا أبشّركم، فإن الله قد غفر لكم»[1].

-الثالثة، الخاصة بأهل التلقين من الشيوخ المربين وفيها أوجه وطرق، والأصل في ذلك ما أخرجه الشيخ يوسف بن عبد الله الكوراني، الشهير بالعجمي في «رسالته المكية»، ونقله أيضا الفقير إلى الله سيد محمد بن أحمد المدني في «خلاصته المرضية»، عن على بن أبي طالب τ أنه سأل النبيρ عن أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباد الله وأفضلها عند الله تعالى، فقال ρ: «يا علي عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوات، فقال علي: هكذا فضيلة الذكر، وكل الناس ذاكرون، فقال: يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله الله، فقال علي: كيف أذكر يا رسول الله، فقال رسول اللهρ: اغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع، فقال ρ: لا إله إلا الله، ثلاث مرات مغمضا عينيه، رافعا صوته وعلي يسمع، ثم قال علي τ: لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته والنبي ρ يسمع»[2]، زاد المريني: ثم لقن علي الحسن البصري، ثم تدلى مع سلسلته إلى أن قال: والشيخ أبو شعيب مدين بن أحمد لقّن [كذا][3] الفقيه محمد بن أحمد، وأوصاه بتقوى الله

[1] الحديث أورده علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، (م سابق) ص:81.

[2] لم نعثر عليه.

[3] ساقط في (ب) و(ج).

وطاعة الله والاستقامة في نفسه بأوامر الله ونواهيه، ومتابعة محمدρ، والدعاء للإخوان والمسلمين في مظان الإجابة، فإن من استقام في نفسه يستقيم به غيره، و أَذِن له أن يلبس الخِرقة المباركة ويتوب ويلقّن الذّكر لمن طلب منه ذلك على سبيل التشبّه بالقوم، ومزيد محبتهم من غير شرط تعميم الشرائط، وأما من طلب منه ذلك على سبيل الإرادة والسلوك، فبعد أن يعرفه بآداب كل منها وشرائطه المعتبرة عند القوم، والله أعلم.

الوجه الأول: ما ذكره أبو العباس البوني عن فخر الدين الخوارزمي رضي الله عنهما، أنه قال: من عرف الله باسمه المؤثر في حاله ومقامه، فقد عرف الاسم الأعظم المخصّص به، كما كان (أرحم الراحمين) لأيوب حين قال: [[وأيُّوب إذ نادى ربّه أني]مسني الضر وأنت أرحم الراحمين][الأنبياء/83]، وكما كان (الوهاب) لسليمان حين قال:[[قال رب اغفر لي]وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب] [ص/35]، وكما كان (خير الوارثين لزكريا) حين قال:[رب لا تذرني فردا وأنت خيرُ الوارثين][الأنبياء/89] فأعطاه الله يحي، وأعطى لسليمان الملك العظيم، وعافى أيوب من بلائه، فمن عرف الاسم المطابق للحاجة وسأل الله به أجابه وبلَّغَه مراده، وقد كان بعض المشايخ إذا دخل عليه تلميذ يريد السلوك[1] أجلسه بين يديه، وتلى عليه التسعة والتسعين إسما، وهو ينظر إلى وجهه عند ذكر الأسماء، فيتبيّن للشيخ الاسم اللائق بالتلميذ فيأمره بذكره وملازمته، لأنه الاسم المؤثر فيه، وبه يقع له التأثير حتى ينفتح له باب رحمة منه، ولا يقع له التأثير في آخر غيره. من «شمس المعارف».

الوجه الثاني: ما ذكره الشيخ أحمد زروق في شرحه "لأسماء الله الحسنى"τ، ونصّه: "اعلم أن موارد الفهم من الفتح في هذا الباب أتم من موارد التعليم، لأن التعليم ناقص بخلاف الفتح والإلهام، فافهم، والعلوم إن لم يكن منك ومنها كنت بعيدا عنها، فمنك بلا منها ضلال وإهمال، ومنها بلا منك مجازفة وتقليد، ومنك ومنها تحقيق واستعمال، قلت: وأصل هذا قوله ρ: «من يريد الله به خيرا يفقهه في الدّين ويلهمه رشده»[2]، لأن التحقيق لا يكون إلا بالفقه، والاستعمال ولا يكون إلا بالإلهام، فاعرف ذلك.

ثم قال الشيخ: فإذا أردت السلوك باسم على طريق فحقق طبعك وحالك، ثم انظر من الأسماء ما يناسبه معنى، فإذا كان الغالب عليك الجلال والقبض، فخذ من الأسماء الجلالية[3] واذكرها بالتحزين على حالة زهديه بخلوة وانجماع، وإن كان الغالب عليك الجمال، فخذ من الأسماء الجمالية[4] واذكرها بالتطريب في موضع تناسبه، وإن كان الغالب عليك الكمال، فخذ من الأسماء الكمالية ما يناسبه واذكره باعتدال في الصوت، وعلى هيئته في اعتدال دون [كذا] ولا ترقب ولا تطريب ولا تحزين، والجمع في ذلك كله شرط، وعدم الاستعجال أصل، والبعد عن الأسباب بعد الفراغ من العدد مفتاح التمكن من النفس.

وهذا طريق السير بالطبع، فإن من سار إلى الله بطبعه كان الوصول أقرب إليه من طبعه، ومن سار إليه بمفارقة طبعه، كان وصوله على قدر بعده من طبعه، وذلك بعيد، فمن ثَمَّ لم ينفذ كثير من المريدين بالاستعجال وإهمال الجمع وتحقيق المادة لم تتحصل الفائدة، نعم ولا نفع إلا بعد هداية لأن المراد من صاحب الملة بالتقوى

---

[1] أي سلوك طريق التصوف.

[2] الحديث أورده سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، ج19، (م سابق) ص: 340.

[3] مثل: الجبار، القهار، الشديد،..

[4] مثل: اللطيف، الحليم، الرحيم، الودود،..

والاستقامة شرط،ولابدّ من مشاركة شيخ ناصح أو أخ صالح، وإلاّ وقع الغلط، فإن لم يكن فلا تقدم على شيء إلا بالاستخارة مرارا.

الوجه الثالث: ما ذكره (الشيخ الرباني)[1] سيد أحمد بن يوسف الراشدي في «روضته»[2]، ونصّه τ: "لا بد من تركيب الذات على الصفات لأنها إذا تركبت صار فعلها قويا، ولا بد منه (ولا يصح)[3] الجد والذكر ببعضها، لأن الصفات إذا انفردت تصلح للأمور الدنيوية، وإذا انفردت الذّات تصلح دنيا وأخرى، لكن لأهل الحق الذين (قمعوا الباطل بالحق)[4]، العارفين الموحّدين الذين جلسوا على بساط القرب والمشاهدة، فإذا اجتمع الأمران في صدر المريد ذاتا وصفة صار الأمر كاملا وثابتا، ولا فيه كدر ولا غَيْر، مثل الطعام بملح وابزار ودُهن فإذا أتاك مريد من منهاجنا وأراد أن يذوق من مذاقنا، فانظر إلى حروف اسمه ولا تعطيه من الأسماء الحسنى إلا ما كان فيها حروف السائل بعينه، ولا تعطي الأسماء إلا بالفرد، والابتداء باسم الذات، فإذا أعطيته الأسماء فَادعه إلى الخلوة، وامُره ألاّ يأكل روحا ولا ما يخرج من الروح، ويقلل الأكل ويجدّ ويجتهد ولا تعطه إلا ثلاثة أسماء، ويذكر بحضور وطهارة، واستقبال وأدب، ومُعاينة الموت حتى يُتِم أسبوعا، فزده ثلاثة أسماء أخرى حتى الأسبوع الثاني، فزده ثلاثة، تصير تسعة أسماء.

ففي الأسبوع الأول يظهر له نور مثل الدينار، وفي الثاني مثل القمر إذا كمل، ويكون نظره وسمعه أربعين ميلا، وفي الثالث يكبر النور حتى يرى مافي البر والبحر والقلوب، ويسكن قلبه وتظهر له عجائب لا تحصى، فإذا فتح الله عليه وأكمل الأربعين يشاهد عجائب الملك الوهابي، ويقيم ديوانه في الملك والملكوت ذو العزة والجبروت، فو الله ثم والله لقد سمعنا من الشيخ أنه لو أقسم على الحديد لذاب، ولو أراد أن يركب على الأرياح لرفعته، ولو طلب خير الدنيا والآخرة لأعطاه الله إياه، أو كفاية همِّهما لكفاه، فعليك بالبخل بهذه الروضة، ولو على ولدك والسلام".

المراد منها، قلت شاركت في هذا الأمر بعض الشيوخ الصالحين، فوصلَنا ما قسم الله لنا على يديه من طريق التلقين بعد الاستخارة والإذن المبين، ثم بعد مدة تأملته وسألته: طريقتك معنا إلهاميه أم علمية ؟، فقال τ: ما ظننتك تسألني عن هذا الأمر، ثم دخل لداره فأخرج ليه هذه (الروضة) وقال هذه طريقة شيخنا عن شيخه عن مؤلفها، ثم قال والله لم أُطْلِع عليها أحدا غيرك حتى من أولادي، فاستأذنته في تجريدها، فأذن، ونسختها نفعنا الله ببركاتهم.

ومن أسرار ما اشترطه شيخ شيوخنا من تركيب الذات على الصفات، ومن البداءة باسم الذات ما قاله البوني في «شمس المعارف»، ونصه: "واسم الذات الأعظم الأول أعظمها وأولاها، ومن عظمه الذي يتفسر به من أنواع شرفه وكرمه أن تُتْبعه تلك الصفات المنيعة والنعوت الشريفة، وتقترن به أذكار حميدة وأمداح مجيدة، وإن اختلفت أنواعهافففي التقديس والتنزيه اجتماعها، وحسبك من خير سماعها، وهذا الاسم مما استأثر الله بعلمه، وها أنا أضرب لك مثالا تدرك به ما قسم لك، وذلك أن الإنسان قد يعلم اسم الدواء ويدرك معناه ودرجة قواه ومنافعه، وبعد الإدراك يستعمله، فهذه رتبة إدراك اللفظ وتحقيق المعنى في استعماله في مقتضاه، فإذا أدراك الإنسان اللفظ وتحقق

[1] في (ب): الشيخ الرباني، شيخ الشيوخ.
[2] في (ب) و(ج): في صفة التلقين.
[3] في (ب): وإلاّ لم يصح.
[4] في (ب): نظروا الحق بالحق.

كلامه فهذه الحقيقة، ويبقى الاستعمال؛ فيعلم وجه استعماله ويستعمله، فلا جرم أن هذا يحصل الثمرة ويكمل منفعة".

[أهمية الشيخ الواصل في تعيين الأسماء وتلقينها:]

فإن قلت: "هذه أوجه الطريقة ذكرت ما تيسر منها، فهل من ضفير خبير أو طبيب لبيب قلنا: أضرع إلى مولاك تجده أو يتولاك، قال تعالى: [إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ][الرعد/7]ولا بد من شيخ يريك شخوصها لأن هذا الأمر موروث "فتربية الشيوخ تحدي وتربية كتبهم تهدي"، والقدر الممكن من ذلك أن تعلم أن كل اسم من أسماء الله تعالى خاصيتُه في معناه، وسره في عدده، وسرعته في وقته، وإجابته بحسب التكملات في الطهارات والاضطرارات والتراجي والتوجهات، فيكون ذلك الاسم العابد به في قصده بحاله إذا عرفه وسأل به في وقت يناسب ذلك الاسم، فيجتمع من معرفة الوقت والاسم اللائق بالوقت والحاجة المطابقة للاسم والوقت، مع توجه القلب لذلك النوع المطلوب خصوصا، فإنه من دعا بهذا القانون أستجيب له للوقت يصادق قولهρ: «إن لله في أوقات دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها تصبكم»[1]، وتقريب ما أومئوا إليه في كلامهم، والعلم عند الله أن قول الشيوخ خاصيته ومعناه أن ننظر لمعاني أسماء الله وننظر إلى أحوال المريد، فإن كان مثلا يريد تصحيح مقام التوبة بالإقلاع والندم، فتأمره بذكر اسمه تعالى التواب الغفور، وتلاوة قوله تعالى: [حم غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ] [غافر/3] فإن حصلت له وأراد الاستقامة والمداومة عليها فتأمره بذكر اسمه تعالى الهادي الرشيد الصبور وبقراءة الفاتحة، فإن ترقّى إلى مقام الإحسان فَمُره بذكر اسم الله تعالى القريب الرقيب الشهيد،وبتلاوة قوله: [مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَ ثَلاَثَةٍ][المجادلة/7][وَمَا تَكُون فِي شَأْنٍ][يونس/61]، وقس على هذا، ويؤيد ما قلناه قول الشيخ السنوسي: "من آداب الدعاء أن تكون ألفاظ الدعاء الدالة على المعنى الذي يقتضيه حاله، فليس من الحسن أن يقول يا شديد العقاب أعفُ عَنِّي، ولا يا مانع أرزقني". من«روض المحاسن».

وقولهم: "سره في عدده"، إما عدد كلماته فيحسب أو عدد حروفه فقط، أو عدد نقطها بالجزم الصغير أو الكبير أو عدد هجاء كل حرف من الاسم كذلك أيضا، أو بسط عدد حروف الاسم كذلك أيضا، ثم بعد هذا هل يذكره بقدر عدده فقط أو يضربه؟ وإذا قلنا يضربه، هل بضربه في نفسه فقط؟ أم يضرب الخارج كله في السبعة؟ ومع هذا قل يضيف لجميع ذلك عدد حروف اسمه واسم أمه، أو يذكر أسماء الكرام بعد حروف الذاكر وأمه فقط، في جميع ذلك أوجه مختلفة ذكرها أربابها، وتقدمت الإشارة إلى بعض ذلك في كلام المرجاني فائدتان عدديتان:

قال في كتاب «الحدائق في شرف سيد الخلائق»: "إذا أردت التقرب إلى الله باسم من أسمائه فخذ عدد حروف أي اسم شئت واضربها في نفسها، فالخارج منها اضربه في السبعة الأيام ولازم الذكر تبلغ المراد، وهذه قاعدة كل اسم".[2]

---

[1] الحديث أورده بلفظ (أيام دهركم): – الطبراني، المعجم الكبير، ج19، ص: 233./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج2، ص: 463.

[2] علماء التصوف والروحانيات أعطوا للحروف الأبجدية مقابلا رقميا، فالألف يقابله واحد، والباء يقابله إثنان،..ومع حرف العشر ندخل في النظام العشري، فالياء يقابلها عشرة(10)، والكاف يقابلها عشرون(20)،.. ومع الحرف العشرين ندخل في النظام المئوي، وعليه فالقاف يقابلها مائة(100)، والراء مئتان(200)،.. لنصل في الحرف الأخير في الحروف الأبجدية، وهو: الغين، الذي يقابله ألْفِا (1000) وطبق الصوفية بعد ذلك هذا الحساب على أسماء الله الحسنى. و أشار إلى ذلك أكثر من واحد. ينظر:

الثانية: استفدتها من والدي رحمه الله في عالم النوم[1] بعد وفاته: وذلك أن تذكر[2] الأسماء التي توافقك في الحال[3] والطبيعة أو الحروف على ما تقدم وتكررها، على عدد نقط اسمك واسم أمّك الأوليين الذي سمتكما به أمكما، وتعتبر حروف الاسمين المعتبرين من بعد إسقاط همزة الوصل وأل المعرفة الزائدتين، وبعد اسقاط هاء التأنيث من (كحلة) وشبهها وبعد إسقاط المدغم وهمزة الوصل الزائدة في أول (محمد) عند من سكن الميم تصحيف فاسم محمد من اثنين وتسعين[4] مثلا، والكحلة من ثمانية وخمسين، وهو موافق لقول المرجاني، واعلم أن أول لحروف الكلمة هو رأس الكلمة وعليه الاعتماد في كل كلمة، وأن الألف واللاّم لا يحسبان إلا إن كانت لا يتم وجودها في عالم التركيب إلا بهما، وقولهم: "وسرعته في وقته" كالثلث الأخير من الليل، فلكل ثلث دعاء يليق به وذكر يوافقه، بل ولكل ساعة كما ذكره البوني وأشباهه، وقولهم: وإجابته بحسب التكملات".

أما في الطهارات فلقوله υ: «من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له»[5] الحديث وفي الاضطرار [أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ [وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ]][النمل/62]، والترجي: «أنا عند ظن عبدي بي لا يدعوا أحدكم إلاّ وهو موقن بالإجابة» والتوجهات في الهمم والمقامات، حتى أن كل مقام له ذكر ودعاء يخصه كما نص عليه السنوسي في «روض المحاسن».

فإن قلت: إن لم يجد المريد شيخ التربية؛ وأراد أن يأخذ حظه من هذه الطريقة السنية، فعلى من يعتمد؟ قلنا: الاعتماد على الله بالتفويض إليه، بعد استخارته، وعلى رسوله بتعلم ما جاء به واتباع سنته، ثم يعتقد شيخا من هؤلاء الأشياخ الواصلين وأمثالهم يقتدي بطريقته: [ولا تَحْسبنَّ الذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ[عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ]][آل عمران/169].

والذي ارتضيته لنفسي ولكل أخ في الله من جنسي طريقة الشيخ السنوسي التي اختصرها من كتاب الساحلي المسمات «روض المحاسن»، فإنها والله سهلة المأخذ قريبة المقصد، فينوي المريد الاقتداء بهذا الشيخ الكامل، ويشرع في الجد بطريقته في خلوة وانجماع، فيعطي لكل مقام من مقاماته التسع أسبوعا كاملا على قدم الصدق والاقتداء حتى يكمل الله مراده متى شاء، فعليك بتحصيله والعمل به تفز إن شاء الله مع الفائزين.

قوله: "لكن مواس زاد للغيب" عنى نفسه، لأن الله سماه كذلك قبل تسمية أمه[وأبيه][6] له بذلك قال υ: « إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا تكلموا به أنكره أهل الغرّة بالله»[7] قال الشيخ زروق (قاعدة): "تنوع الفرع بتنوع أصله، وقد علمت أن أصل التصوف مقام الإحسان، وهو متنوع إلى نوعين أحدهما بدل

- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، ط1، 1984، ص: 466.
- عبد الفتوح الطوخي، هداية العباد في أسرار الحروف والأعداد، المكتبة الوطنية، بيروت، ط1، 1992، ص: 8، 9.
- محمد الشافعي الخلوتي الحنفي، السر المظروف في علم بسط الحروف، دار الفكر، بيروت، دط، 2000، ص: 325 .

[1] أي من خلال الرؤية، والمؤلف ينقل لنا في كتابه هذا فوائد كثيرة استفادها من خلال الرؤية، ويبدو هنا متأثرا بكتاب محمد الزواوي البجائي الموسوم "تحفة الناظر".

[2] في (ب) و(ج): أن تنظر.

[3] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[4] محمد= 92، أي: م= 40 ، ح= 8، م= 40، د= 4، والمجموع هو : 92 وهو المقابل العددي لاسم محمد.

[5] الحديث أخرجه: – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 270./ – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 307.

[6] اضافة في (ب) و(ج).

[7] الحديث أورده عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، الترغيب والترهيب، ج1،(م سابق) ص: 58./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، (م سابق) ص: 326.

الآخر، هما "أن تعبد الله كأنك تراه، وإلا فإنه يراك"[1]، فالأولى[2] رتبة العارف، الثانية رتبة من دونه وعلى الأولى يحرم الشاذلية ومن نحى نحوهم، وعلى الثانية يحوم الغزالي ومن نحى نحوه والأولى أقرب لأن غرس شجرتها مسير لقصد ثمرتها، ومبناها على الأصول التي قد تحصل لكل مؤمن بوجودها فالطباع مساعدة عليها والشريعة قائمة فيها إذ مطلوبها تقوية اليقين وتحقيقه بأعمال المتقين.

قاعدة: اتباع الإحسان أبدا محبوب طبعا مطلوب شرعا: [الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ [فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ]][الزمر/18]، "إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسائها" ، "إن الله جميل يحب الجمال"[3]، ولذا بُني التصوف على إتباع (الإحسان)[4]، قال ابن العريف: "السر الأعظم في طريق الإرادة الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والاستحسان يختلف بنظر المستحسن".

وقال سهل: "العلوم ثلاثة، علم ظاهر يبذل لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يظهر إلاّ لأهله، خوف الفتنة، وعلم بين العبد وربه يستحيل إظهاره للخلق، وقال: "من أحب أن يكاشف بآية الصديقين، فلا يأكل إلا حلالا ولا يعمل إلى في سنّة أولضرورة، وقال: "إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة، فحجب العلماء عنه بالعلم والزهاد بالعمل والحكماء بلطائف الحكمة، أما العارفون سكرت قلوبهم من نور معرفته، فلم يحجبهم شيء، وقال لي: "أربعون سنة أكلم الله والناس يظنون أني أكلمهم، قال القصري: "هذه الكلمة شأنها عظيم، قلّ من يعلم حقيقتها فإن فهمت فاحمد الله، وإلا فسلم، كل صنعة لأهلها ولا تنكر ما لا يفهم تخسر أول اهبة المؤمنين وهو التصديق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قالυ: «علم الباطن سر من أسرار الله وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده»[5] وقال بعضهم: العارف تضيء له أنوار المعرفة فيبصر بها عجائب الغيب، فالناظم رحمه الله لما أن أزعجك عن مقام الكمال إلى مقام أكمل منه، وحذرك من أن تجعل حظك من مولاك مجرد الاسم فقط وتتخذه ديدنا ولا تطلع إلى ما وراءه، وهو المسمى، وتقنع بذلك فتصير متبولا هائما مستوحشا أو مقطوعا عن ذروة الكمال متشوشا لأن ذكر اللسان لقلقة، وذكر القلب وسوسة.

ونهاك أيضا عن أن تقف في سيرك في أول الطريق أو في وسطه وتنقطع عن منتهى مقصود سيرك، فإذا عرضت لك عقبة الأفعال في ابتداء طريقك فجاوزها بمطية عزمك، وارتفع عنها بطائر علمك حتى تشاهد الفاعل، ثم أن توسطت وحجبتك حجب الأوصاف فاجهد في الخلاص من حجبها لتنظر إلى الموصوف، ثم إذا بلغت لمنتهى سيرك، وأشرفت على أول منزل من منازل الإحسان، فلا تقف في الدرجة الأولى أو تقبع بباب النظر أو بأسطوانة أو بساحة الدار أو بدخول البيت، ولكن حتى تقعد على السرير في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ومهما بقي لك

---

[1] حديث أخرجه البخاري ومسلم، وذكره أيضا أبو نعيم أحمد، بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني في " المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم (ج1)، تحقيق:محمد حسن بن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996، ص:100.

[2] في الأصل: الأوّل، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، دار البيروتي، دمشق، ط1، 2004، ص: 82.

[3] أخرجه مسلم، ينظر: الإمام مسلم، صحيح مسلم(ج1)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دا إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دتا، ص: 93.

[4] في الأصل: الأَحْسَن، ينظر: المصدر نفسه، ص: 84.

[5] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 326.

شيء مما ذكرنا فأنت موصوف بالجهل باعتبار ما لم تعلمه مما بقي، والجهل نقص عند العلماء بعيد من أوصاف إله السماء، ولذا قال الله لنبيه:[وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا][طه/114]، ولا تقنع من اسمه بشيء، فإن الله واسع عليم.

ولامتثال هذا الأمر قال عليه الصلاة والسلام: «يوم لا أزداد فيه علما، لا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[1]، وزجرك أيضا أن يكون هو سيد علمك لمعرفة حدود الرسوم البطينة أو المعاني المعنوية، فتقف مع (معنى الألوهية أو مع رسم حقيقة الإله)[2]، وذلك كما رووه ساداتنا المعنيون بتفاصيل الحدود والحقائق، المشتغلون بنقل الأقوال الشارحة والرقائق، فتتحجب[3]بعلم اليقين أو تقف عند اليقين، فتكون مقلدا (غيرك)[4] بل ينبغي لك أن (تستمر)[5]حتى تحقق عين اليقين، واطلب أعالي الأمور وخض لجة بحرها، حتى تنال من دُرّها، ولذلك قال الناظم:" لكن موسى زاد للغيب"، أي ترقى عن مشاهدة الأفعال والأوصاف وعن الاشتغال بالمعاني والرسوم والاختلاف إلى أن وصل إلى مقام الجمع والائتلاف، بعد بينونته[6]عن مقام الفرض[7](والانحراف)[8] رأى ذلك كله سِوًا وغيرًا وتجارة مشتريه خسرا وبورا

فاحتَوَشَتْهُ جنود الغيرة منه له فسمت عنه أثواب الإثنينية(وصيغتها)[9] في بحر[10] الأحدية، (فصارت حلة بيانية)[11] وانقلبت دراهمه يزيدية فصاح: ما في الجبة إلاَّ أبو يزيد، (محو الاتينية وثبوت الأحدية)[12]،كأن الناظم رحم الله يصيح ويقول: الغيبة ظاهرة من كلام أهلها، قال السهروردي ح: "فإذ استولت كلمة الإخلاص على اللسان يتنثر بها القلب، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب، ثم تتجوهر في القلب وبتجوهرها يسكن نور اليقين في القلب، حتى إذا هبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزول نورها لتجوهرها، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة، وهو المقصد الأسنى؛ حتى أن الذاكر الصادق يغيب عن المحسوس حتى لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبه في الذكر من الكلام أنسه وحلاوة ذكره، حتى يلتحق في غيبته بالنائم من «الخلاصة».

وثم أحوال أعلى من هذه وأعظم قد اتصف الناظم بمعظمها، منها قوله في قصيدته الثانية:

حَيَّـرْتَنِي فِي أَمْـــرِي مُـذْ غِبْـتُ فِيـكَ حَتَّى
حَتَّى نَادَيْتَنِي فِي سِرِّي مَن أَنْــتَ قُلْتُ أَنْـتَ

إلى آخرها، ومنها قوله: تَاب حَيْرا كْبِير حَيرَ ايرَآدَفْحَيْرَ بعد الحَيْرَ الحَيْرَ من رَفعْ احْجَاب...الخ، أيضا فإن قلت: هذا تنويه كبير وإطراء كثير، قلنا: إن كان ذلك منا أو منه، فيحق القول، وإن كان من أهله لأهله، فلا تزال

[1] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج1، ص: 240.
[2] في (ب): معنى الألوهية والإله أو مع رسم الإله وحده.
[3] في (ب): فتقنع.
[4] في (ب): لأقوال العلماء.
[5] في (ب) و(ج): تتحقق.
[6] في (ب) و(ج): رحلته.
[7] في (ب) و(ج): الفرق.
[8] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).
[9] في (ب) و(ج): غرقها.
[10] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).
[11] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).
[12] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

الفريضة في القول، قال عز من قائل: [مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][البقرة/106]فالأولياء من آيات الله كما صرح به أبو العباس المرسيτ ، فمن استبعد شيئا مما ذكر فقد استبعد قدرة الله النافذة، ولقد سمع قلب أخي محمد القاضي من مكالمة الحق: "كلام موسى بن علي برق المحبوبين وبرقه جالب لأحوال المجذوبين، وكلام المحبوب سيف للقلوب"، وقد ألم بهذا المعنى المسموع في قوله:

هَلُمُّوا سَاعْدُو عَاشِقْ كَفِيفْ وَصُفُّـوا حَوْلَهْ يا خَيْـرَ أُمَّـــــه

وضَجْرًا بالصَّلاَةْ عَلى الحَبِيبْ صَلاَةً تَزْدَرِي سِواكُــم [كذا]

وهُزُّوا جَمْعُكُم واسْلُوا وَطِيبُوا إِذَا هَبَّت رِيَاحْ الشَّوقْ عمَـــــا

تْعَالُوا كَي تَعُوا جَوهَرْ نِشَاك فِي مَدْحِي ازِينْ تَتْوِيج العْمَامَه

نْظِير زَبْحَر مَـدَى اجْتِهَـادِي لَعَلِّي ازِيدْكُم فِيـه غَـرامًـــا

يا أَهْلِ المصْطَفَى غَايَة مُرَادِي افِيضُوا بالصَّلاَة عَلَيه سَـلاَمِي

هذا مع ما في كلامه من الحلاوة والطلاوة، وإنه والله لسماعي وسبب رفع قناعي وتَطْوِيل اذرَاعِي، ولَكِن عليك بأرباب الصدور، فمن غدا مضافا لأرباب الصدور تَصَدَّرَا، [كـذا]يبين قولي مغربا ومحذرا.[1]

حدثني أخي القاضي وفقه الله أنه سمع كلام الحق يقول: "أنت عندنا من الأفراد، وخُرِقت لروحك ستمائة حجاب، قال: فقلت وهل بقي غيرها يا رب؟ فقال: المعارف لا تتناهى أو تُحد"، هذه مقامات سيدي موسى يتقلب فيها هذا الأخ والحمد لله.

وسيقول الناظم:

سِوَى بَحْر الـذَّات لرَمْسِي كَأَنِّي فِي مَـاهْ نَعْـتْ ابْـرَا

ابْرَ مَلْحْ سْرِيعَـة الـذَّوْبْ مَن أَنَا يا عَاقَل [كذا] تْرَا

رَئِيسِي الأَسْنَى ابنْ الذَّبِيح طَـهَ نَسْـل أَرْحَـامْ آمْـنَـا[2]

ومراده هذا والله أعلم بالزيادة الغيب في الغيب حالا وذوقا فيستقيم الأمر غربا وشرقاوكان يقول: "القلب غيب والرب مجيب ولا يعرف الغيب إلا بالغيب"[3]، وكنا إذا سألناه: "من أين لك هذه العوالم؟ فيقول من علاّم الغيوب إلى أفواه القلوب" قال الشيخ زروق: "فإن قلت قول الشاذلي في غير موضع، قيل لي كذا، على أي وجه هو؟ قلنا: هو بمعنى الإلهام، بأن يقع في نفسه وقوعا لا يمكن تكذيبه ولا يصح رده، ولا يصبحه هوى يثلج الصدور ويشرح في القلب ويسري في عوالمه سريانا. يفهم به حقيقته، ولا يستند إلى دليل خارج عنه، مع موافقته لأصل الشرع في الإباحة والطلب، وهو معنى المكالمة في اصطلاح القوم[4]، قال أبو محمد المرجاني: من ظن أن الله يكلم أحدا بعد

---

[1] من بداية القصيدة إلى هذا الموضع ساقط في (ب) و(ج).

[2] النص ساقط في (ب) و(ج).

[3] في (ب): الرب غيب والقلب غيب ولا يعرف...

[4] (المكالمة) في لغة الصوفية تعبير عما يلقى في قلوبهم من الحقائق في لحظات الصفاء الكامل، فبدلا من أن يقول الواحد منهم أُلقِيَت في قلبي هذه الحقيقة أو انقدح في ذهني هذا الخاطر، يقول (قال لي ربي) إيمانا منه بأن نبع الحقيقة وملهمها هو الله وحده. ينظر: مصطفى محمود، رأيت الله، دار المعارف، القاهرة، ط3، دتا، ص: 18.

الأنبياء كما كلم موسى υ فقد ضل، وإنما المكالمة التي عند القوم مخاطبة عوالمهم اللطيفة التي لا يتطرق إليها الغلط ولا يدخلها الشك والتردد لشاهد الحال ودوام التجربة مع موافقة الشرع.

وذكر جلال الدين السيوطي: "إن الإمام الشافعي روى عن بعض العلماء رضي الله عنهم أنه قال: "لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق، فالاسم والرسم للعوام والعلم علم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواص الأولياء، وحق اليقين للأنبياء، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد ρ " وقال ابن عطاء الله: "الأنبياء يطالعون[1] بحقائق الأمور والأولياء [يطالعون] بمثالها"، وفرّق عبد القادر الكيلاني: "بين ما يسمعه الأنبياء فهو وحي ويسمى كلاما ويلزم تصديقه، ومن رَدَّه كَفَر، وبين ما يسمعه الأولياء يسمى حديثا، ومن رده لم يكفر".

وقال أبو عمر الدمشقي:" فرض الله على الأنبياء إظهار المعجزات ليؤمنوا بها، وفرض الله على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يُفتَنوا بها"، من «الأنموذج » له، وهذا يعينك على فهم كلام الناظم.فإن قلت: زد لنا لهذه الزيادة بيانا لنزداد بزيارتك إيمانا وإيقانا، قلت: مراده بالزيادة هنا (الوهبية العقلية على الكسبية النقلية)[2]، ومواهبه ظاهرة من كلامه لمن تأمل وأنصف، وعالم الغيب لا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول أو (وارثه).[3]

قال الشيخ أبو العباس بن البنّا رحمه الله في «مباحثه الأصلية»: فعندما حاد أمير القلب لوح الغيوب، وهو غير مخبّ فأدرك المعلوم والمجهولا حيث اقتنى لدركها قبولا، قال شارحه أبو الحسن: "اعلم أن الحق غيب والقلب غيب ولا يدرك الغيب إلا بالغيب" وأراد بأمير القلب الفكر الذي هو أعظم الحواس الباطنية، وهو من خواص الإنسان لا من نعوت الرحمن لأن الله يصح منه الذكر لا الفكر الذي هو انبعاث القوة الإدراكية في عالم الغيب والشهادة، ليدرك حقيقة الأشياء على ما هي عليه".

قال ابن عطاء الله: "الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له، والفكرة فكرتان، فكرة تصديق وإيمان وهي لأرباب الاعتبار، وفكرة شهود وعيان وهي لأرباب الاستبصار"، وقال أبو الحسن الشاذلي: "الفكرة إن كانت في بساط الشكر أثمرت المزيد، وإن كانت في بساط العمل أثمرت النور"، وقال القشيري: "التفكر نعمة الصديقين، وثمرته إذا كان في بساط العلم الوصول إلى الله، ومن صحت له الفكرة كان له في شيء عبرة، فبالفكرة يحاذي القلب لوح الغيوب الذي هو جريان الحكم بين الكاف والنون في كلمة كن، إذ ليس في الزمان والمكان، ولا في عالم الإيجاد والإمكان شيء خارج عن هذا الميدان، فسبحان من هو كل يوم في شأن.

ومن غاص قلبه في لجة هذا البحر أخرج نفائس الحكم بانفعالات الهمم، ولذا قال: فادرك المعلوم والمجهول، المعلوم: العلم المكسوب، والمجهول: أي العلم الموهوب، وقوله: "حتى إذا جاز بطور القلب خوطب إذ ذاك بكل خطب، فقال: لو عرفتني بكوني، وقيل إذا فاخلع نعال لكون، لما غاص فكره في الكائنات. ووجدها كلها أدلة على بديع الأرض والسموات، رجع ينظر بعين البصيرة في حقيقة نفسه طالبا لحضرة قدسه عملا على قوله تعالى: [وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ] [الذاريات/21]، وقوله ρ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[4] لأن الوقوف على حقيقة

---

[1] في (ب): يطلعون.

[2] في (ب) و(ج): علم المعقول الموهوب على علم المنقول المكسوب.

[3] في (ب) و(ج): وَلِيٌّ.

[4] الحديث أورده: – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج1، ص: 225./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 343.

أوصاف العبودية يدل على أوصاف الألوهية، لأن السالك أولا يستدل بالمصنوعات على الصانع، فلما وجد الصانع بالعيان صار يستدل به عليها، ويقول: "ألا كُلُّ شيء ما خَلا الله باطل" لأن الكائنات تتلاشى لعظمة بارئها، فما بقي من بقي إلا به، وما فني من فنى إلا (به)[1]، [وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ][الرعد/15]"طوعا" أي في الترقي لأنه من شأن النفوس، و"كرها" في التدلي لأنه رجوع إلى محسوس، و"ظللهم"، أي ظلال الأرواح في لذيذ الإمناح في البكور والرواح، حيث لا مساء ولا صباح، كما في الخبر: «ليس عند ربكم مساء ولا صباح»[2].

وإنما قيل لصاحب هذا المقام الموسوي: [فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ][طه/12]، لأن كل من هو في مقام الأخذ عن الله فهو مستغرق في لذيذ الخطاب، ولا تظن أن موسى υ أمر بخلع نعليه التي كانت من جلد حمار، بل إنما هو مثل لذوي الاعتبار، ودلالة أن ما لعاقل مع غير مولاه قرار، وأن الدنيا بحذافيرها رأس الأقدار وقنطرة الاعتبار، فهي صراط العبور [وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ[آل عمران/185].

ورد في الخبر أن الله يحمي خاصته من الدنيا كما يحمي الراعي الجيّد إبله من موارد المهلكة، والخلع له بداية للعامة بالتخلي عن المعاصي، ووسط للخاصة بالتحلي بالطاعات، ونهاية لخاصة الخاصة بالتجلي ونفي السوى كله، وقد قال المتجلي سبحانه:[واذكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسيت][الكهف/24]أي نسيت ما سواه، وإلاّ اذكر فإنك غير ذاكر، وأول المسمى نفسك وإلا فأنت في بساط التنويه، ولا يصح هذا إلا في مقام الجمع على الله وغوص القلب في عظمته والتبري مما سواه.

[في أسرار الحروف المقطّعة في فواتح بعض سور القرآن الكريم:]

قوله: "كيف اذكره قابل التوب في مبداها سورة البقرة"، أشار بهذه الكيفية إلى قول رب البرية:[الم ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ[وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ]][الآيات1،2،3/البقرة] اعلم رحمك الله أن فواتح السور غير المكررة أربعة عشر حرفا، يجمعها على التربيب قولك: (المصر كهي عطس حقن)[3] وهل يتعرض لتأويلها أو يقال والله أعلم بمراده[4]،[وقيل من فتح الله عليه يجوز له أن يتكلم فيها][5]، فيها قال الإمام البوني: "قال رسول الله ρ: «إنما قام الوجود كله بأسماء الله الباطنة والظاهرة

---

[1] في (ب) و(ج): فيه.

[2] لم نعثر عليه.

[3] فواتح السور بعد حذف المكرّرات أربعة عشر حرفا، تسمّى الأحرف النورانية، قال الغزالي:" قد وردت هذه الحروف التي في أوائل السور، مجموعها 14حرفا، أولها (ألم) وآخرها (نون)"، وقال القاضي الباقلاني: هذه الحروف هي النصف من الثمانية والعشرين حرفا من حروف المعجم تكررت في أوائل السور، وجعلت القصص والأحكام بعدد ذكرها، و قال سهل التستري: الحروف الأربعة عشر النورانية هي التي أقسم الله تعالى بها، ولما كانت منازل القمر 14 منزلة باطنة كانت الحروف أيضا كذلك، فمنها غيب وهي التي في أوائل السور، ومنها ظاهرة وهي باقي الحروف، وإذا تألّفت جاء منها 29 سورة على عدد أيام بعض الأشهر، ألا ترى كمال القمر في الأربعة عشر منها ، وكما أن منازل القمر في قبول النور أربعة عشر منزلة حتى يكمل،..ينظر: أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمني اليافعي الشافعي، الدرّ النظيم في خواص القرآن العظيم، طبعة حجرية، القاهرة، د تا، ص: 17.
تُرتَّب الحروف النورانية بطريقة يسهل حفظها ونطقها: (نص حكيم له سرّ قاطع) ذكرتها قصيدة "الجلجلوتية" من خلال هذا البيت: أَلاَ واكفني يا ذا الجلال بكاف كن // بنص حكيم قاطع السرّ أسبلت. ينظر: أبو العباس أحمد بن على البوني، منبع أصول الحكمة (رسالة شرح الجلجلوتية الكبرى)، ص: 193.

[4] في (ب) و(ج): اختلف فيها.

[5] إضافة في (ب) و(ج).

المقدسة»[1]، وقال ابن عباس:" فواتح السور هي اسم الله العظيم الأعظم"، وقال أيضا:"أوائل السور مأخوذة من أسماء الله تعالى،(وفق لما في معنى "الم" أن الله أعلم فالألف تودي عن أنا واللام عن اسم الجلالة والميم عن أعلم")[2].

وقال أبو العالية: "ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله تعالى، فالألف من الله، واللام من لطيف، والميم من ملك، والصاد من صادق، والراء من رب، والكاف من كافي، والهاء من هادي، والياء من علي، والعين من عالم، والطاء من طيب، والسين من سميع، والحاء من حميد، والقاف من قدير، والنون من نور، قال الحسن: "في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام الألف، وعلم لام الألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة وعلم المشيئة في غيب الهوى، وعلم غيب الهوى في ليس كمثله شيء" من «شمس المعارف».

فيصح حمل كلام الناظم على هذا، قال ρ لأصحابه: «إذا لقيتم العدو غدا فشعاركم [حم لا ينصرون]»[3]، قال أبو عبد الرحمن السلمي في تفسيره للقرآن على مذهب التصوف: " (الم) أي سر الحق إلى حبيبه ρ ولا يعلم سر الحبيب غيره، وقيل حيّر الخلق في ابتداء خطابه، وهو محل الفهم ليعلموا ألَّا سبيل لأحد إلى معرفة حقائق خطابه إلا بعلمهم بالعجز عن معرفة خطابه، وقيل معنى الألف أَفْرِد سرّك لي، و اللام لَيِّن جوارحكَ لعبادتي، والميم أقم معي بمحورسومك[4] وصفاتك أزينك بصفات الأنس بي والمشاهدة إياي والقرب مني".

وقال سهل بن عبد الله: "الألف الله، واللام جبريل، والميم محمد ρ ، وقيل في هذا غير ذلك" وقوله تعالى:[هُدًى لِلْمُتَّقِينَ][البقرة/2] وصلة للمنقطعين عن الأغيار، وقيل بيان لمن تبرأ من حوله وقوته، وقوله تعالى [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ][البقرة/3] الذين يصدقون ما أظهره على أوليائه من الآيات والكرامات، وقيل غير ذلك، وقوله: [وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ][البقرة/3]، قيل مما خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون بركتها ونورها على متعهم".

قال المؤلف سامحه الله (ووفقه)[5]، وها أنا أذكر بعض ما أظهره الله لنا من أسرار هذه الآيات، منها أن يقال إنما خص الله هذه الأحرف الثلاثة هنا بالذكر [دون سائر حروف المعجم][6]لفوائد:

–الأولى: أن تعرف أن مخارج الحروف ثلاثة: حلق ولسان وشفتان، فبدأ بالألف[الأول][7] لأنه مخرج من آخر الحلق، لينبهك[8] على أن حروف الحلق كلها في ضمنه تابعة له، وثنّى باللام الثاني في المنزلة ومخرجه من اللسان، لذلك[9] أيضا أن حروف اللسان داخلة في ضمنه، وختم بحرف الميم لأنها من الشفتين، وهو آخر المخارج على الترتيب ليكمل به ما شاركه في مخرجه والله أعلم.

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه: – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 217،218./ – البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج6، ص:361.

[4] الرسم: هو الخلق وصفاته، لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله، وإياه عني من قال: "إن الرسم نعت يجري في الأبد بما يجري في الأزل". ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 37.

[5] ساقط في (ب) و(ج).

[6] إضافة في (ب) و(ج).

[7] إضافة في (ب) و(ج).

[8] في (ب) و(ج): ليدل.

[9] في (ب) و(ج): ليدلك.

ولهذه النكتة اختار أهل التصريف وغيرهم كلمة فعَّل وجعلوها ميزانا للكلام (لأن الفاء من حروف الشفتين، والعين من حروف الحلق واللام من حروف اللسان)[1]، فكذلك هنا هذه الأحرف الثلاثة وما دلت عليه مما شاركها في مخارجها، فمجموع ذلك هو الكتاب الذي بدأ بأصولها لأنه مجموع من جملتها.

الثانية: أنه هذه الأحرف[الثلاثة][2] دلت على ثلاث: "الألف" دل على الله الواحد الأحد الفرد الصمد[الذي لم يسبقه أحد][3] الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، الثاني "اللام" دل على جبريل المنزَّل بالتنزيل المشار بعده إلى استمداده وامداده بشاهد قوله:[وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ][الشعراء/192،193]، لأنه أقرب ملائكة الله الكرام، وهم أولياؤه ولاية خاصة، لأنهم مقربون في كل شيء[بالمكانة][4]، ولذلك أضافهم إليه ونسبهم لحضرته، فقولك جبريائيل وأشباهه، أيل: معناه الله، وجبر: معناه عبد، فإذا أضفته تقول عبد الله [وقال فيهم عباد مقرّبون][5]، وكذا في أسماء العجمية المركبة كمكيائيل، فأول الكلمة عبد وآخرها الله، ولأنهم أيضا لا شهوة لهم تقصيهم عن حضرة الظاهر[6] القدوس، الثالثة: الميم دلت على محمد وفي ضمنه سائر الرسل والأنبياء والأولياء، ففيها إشارة إلى أن ذلك الكتاب الذي أنزل من عند الله على لسان ملائكة الله إلى محمد خير رسل الله لا ريب فيه، إنه من عند الله، وفي تكرارها إشارة إلى تكريرها في المشار بها إليه لفوائد، وفي اتصالها بآخر حروف جبريل المدغم فيها ذكره المفرغ فيها سره بإشارة:[فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ][القيامة/18]دليل على أنه لا واسطة بينه وبينه.

ولما أن كان صهريجا وحوضا تفرغ فيه السواقي والجداول، بل بحرا تتفرغ فيه الأودية والأنهار، كما سمع أخي: الخضر نهر ومحمد بحر، جمعت دائرة ميم عظيم رأسه العناصر فضمت وجرت سواقي حال حواسه النافذة ليجري ميم الحقيقة الله[كذا][7] في الشريعة فعمت واستسكنت فيها استكانة سويداء الفؤاد في مجمع البحرين من محيط عرش الصدر وكرسي القلب، قلت، فلما أن جمع مما افترق وتحقق وتخلق شد وزم وختم وانقطعت به النبوءة والوحي فيه استتمّ، فلما أن كمل هذا العبد المتعبد، وانجمعت فيه معاني عوالم العرش المخلد، احتاج إلى دعائم وقوائم يقوم بها ويدلي بها ويُرَبَّ عليها، فجعلت له أربع، المجلب والدفع والانتفاع والنفع، فاستوى في أحسن تقويم وأكرمه الكريم.

الفائدة الثالثة: أن في هجاء كل حرف من الثلاثة ثلاثة [أحرف][8]أيضا فقولك ألف يدل على أنه يجب [المقتدي][9]المهتدي بهذا الكتاب الذي لا ريب فيه، أنه من عند الله أن يؤمن بالواجب في حق الله ويعتقده، وينفي

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] إضافة في (ب) و(ج).

[3] إضافة في (ب) و(ج).

[4] إضافة في (ب) و(ج).

[5] إضافة في (ب) و(ج).

[6] في (ب) و(ج): الطاهر.

[7] مداد بمقدار كلمة، وهو ساقط في (ب) و(ج).

[8] إضافة في (ب) و(ج).

[9] إضافة في (ب) و(ج).

المستحيل وينتقده، ويُجَوز[1] الجائز في حق الله ويشهده، وكذا(يجب على التقي أن يفعل)[2] في حق ملائكة الله الكرام، وكذا في حق أنبيائه عليهم السلام، وفي انفصال الألف عن اللام والميم إشارة إلى أن مدلوله ليس هو من جنس الحوادث (التي وجدت بعده)[3] فهو بعيد في قربه قريب في بعده، بخلاف الحرفين بعده لما أن دلاّ على متماثلين مشتركين في [كذا] العرضية وخواصهما توافقا وتعانقا[4]، واتصال أحدهما بصاحبه.

الرابعة: هذه الأحرف الثلاثة المجموع القرآن من جنسها، دلت على أن هذا الفرقان محتو على أم القرآن التي احتوت على ثلاث: ثناء وسؤال ومناجات، وعلى معاني البسملة المحتوية على أنواع المخفوضات، المخفوض بالحرف وبالإضافة والتبعية الدالة على الاسم والمسمى، والتسمية المشتملة على أسماء الله المنزلية العامة والخاص والأخص، واستعجمت بثلاثة أحرف لمعان ثلاث، بارئ البرايا بصير بها،(سميع لخلقه، سلام مسلم لهم، مالك الملك مجيد مؤمن مهيمن منان على العباد)[5]، واحتوى أيضا على ثلاثة معان، توحيد وإحكام وقصص، كما ورد أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن.

واحتوى أيضا على مقامات ثلاث، إسلام وإيمان وإحسان، وأشار إليها في قوله تعالى: [والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا][العنكبوت/69]، فالمجاهدة مقام الإسلام،(والهداية مقام الإيمان، والمعيّة مقام الإحسان)[6]، ودل أيضا على أن المراتب ثلاث أعلى وأدنى ووسط، فندبك إلى الوسط بقوله: [وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ][الإسراء/29][وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ[ولاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً]][الإسراء/110] وصرح بذلك نبيه في قولهρ: «خير الأمور أوسطها»[7]، فالموغل مفرط والمقصر مفرط، والمقتصد موسط.

ودل أيضا على أن العوالم ثلاثة: الملك والملكوت والجبروت، وأشار إليها بقوله تعالى: [قُلْ لِمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَنْ فِيَها[إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ]][المؤمنون/84]، ودل أيضا على (أن الآدمي المستخلف مركب من ثلاث)[8] جسد ونفس وروح، وعلى أن الجسد له ثلاث حالات، أوله ضعيف، ووسطه قوي، وآخره ضعيف، [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ [ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ]][الروم/54]، ودل أيضا على أن الديار ثلاث: الدنيا والبرزخ والآخرة، أشار لها بقوله : [مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ][طه/55]، واحتوى أيضا هذا الكتاب على نبأ من مضى ومن يأتي، ومن هو في الحال، لقوله ρ: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»[9]، إلى غير ذلك من الثلاثيات التي يطول تتبعها، فالكلام المجموع من هذه الأحرف الدالة على هذه المعاني في ذلك هو الكتاب الذي لا شك فيه، إنه كلام الله من القديم، وقوله تعالى: [لاَ رَيْبَ فِيهِهُدًى

---

[1] في (ب) و(ج): يعرف.

[2] ساقط في (ب) و(ج).

[3] ساقط في (ب) و(ج).

[4] في (ب) و(ج): في الحدوث توافقا و تعالقا.

[5] ساقط في (ب) و(ج).

[6] ساقط في (ب) و(ج).

[7] الحديث أورده: القرطبي، تفسير القرطبي، ج6، ص: 276./ - اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 469.

[8] في (ب) و(ج): دل أيضا على النشأة الثلاث.

[9] الحديث أخرجه: - القرطبي، تفسير القرطبي، (م سابق) ج1، ص: 5. / - عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي، ج2 (م سابق) ص: 526.

لِلْمُتَّقِينَ][البقرة/2]، أي ذلك الكتاب الذي يقرأه محمد ρ المكتوب بهذه الحروف، المجموع من جملتها لا ريب فيه[ففيه خبر، أي متعلق به][1].

الإعراب: قال أبو البقا: هذه الحروف المقطعة كل واحد منها اسم يدل على معنى في نفسه، وهي مبنية على الحكاية لألفاظ حروفها، وهي في موضع جر على حذف حرف القسم، أو نصب على حذفه أيضا، أو على المفعولية باتل[كذا] أو رفع على الابتداء، ذلك في موضع رفع إما على الخبرية بألم، والكتاب: عطف بيان، ولا ريب: في موضع نصب على الحال، وإما على الابتداء وجملة النفي خبره، وهدى: خبر ثان فيه، إما في موضع خبر لذلك تقديره لا ريب كائن فيه، فتقف عليه، أو خبر لهدى بعده، وحذف خبر لا ريب للعلم به هدى، إما فاعل مرفوع بفيه، وإما خبر مبتدأ محذوف أي هو هدى أوخبر بعد خبر كما قدمنا أو مبتدأ كذلك، أو يكون في موضع نصب على الحال من الهاء في فيه، أي هاديا، والعامل في الحال معنى الجملة أي حقيقة للمتقين، تتعلق اللام بمحذوف أي هدى كائن أو كائنا على الوجهين في الرفع والنصب الذين في موضع جر صفة أو نصب على الموضع، أو باضمار أعنى أو في موضع رفع على اضمارهم، ومبتدأ خبره أولئك، والغيب مصدر بمعنى الفاعل أي الغائب، أو بمعنى المفعول أي المغيب عنهم.

ثم انظر كيف نعت المتقين بثلاث خصال: الإيمان بالغيب وإقام الصلاة، والإنفاق من الرزق، إشارة إلى أن العبادة على ثلاثة: عبادة قلبية وبدنية ومالية، فالإيمان دل عليه حرف الألف لأنه أول الكلمة، كما كان أولا، والصلاة دل عليها اللام الوسط كما كانت وسطا، والإنفاق مما رزقناهم دلت عليه الميم الأخيرة، كما كانت هي آخر الجميع، والجمع فافهم.

ثم قسم الخصلة الأولى، وهي عبادة القلب إلى ثلاث أيضا في قوله تعالى: [وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ[وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخْرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ]][البقرة/4](للعلم إن الغيب فيه حالي وماضي ومستقبل، فتؤمن بالجميع وتتيقنه)[2]، ولينبهك على أن رتب اليقين ثلاثة: علم اليقين وعينه وحقّه، ولتعلم أيضا أنها كما انقسمت العبادة القلبية إلى ثلاث، كذلك تنقسم البدنية والمالية، لأن قسمة الأصل تدل على قسمة الفرع، أما الصلاة ففيها فرض وسنة ونافلة أو عينية وكفاية وسنية أو ذات الركوع والدعاء[3] والقراءة،وأما الإنفاق[من الأرزاق][4] بالمال والعلم والخُلُق أو فرض كالزكاة والمواسات ، وسنة كصدقة الفطر والصلاة، وندبا كالضيافة والصدقات أو ينفق الفضل أو النصف أو الجميع.

الخامسة: في معاني هجاء أسماء هذه الحروف، الألف من الألفة واللام من اللوم والميم من المدامة والصاد من صاده صد وصرف، والراء الرّمية والرجم، فإن أردت ترقيع المقطع وجمع الموزع فتقول: إنسان ألف لام وذم من لا يألف ومن لا يُؤلف، وبقي صاد إلى أن صُرف مرائيا إلى أن رجم وطرد، فالإنسان هو أول العابدين محم و أحلى الزاهدين، وما سمي الإنسان إلا لأنسه البيت، وأشار بذلك لقول إمام المؤمنين: "ألف مألوف ولاخير فيمن لا يألف، ولا يُألف كإبليس ومن تبعه"، ولذا منَّ الله على صفيه ومن تبعه بقوله: [واذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً][آل

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] ساقط في (ب).

[3] في (ب) و(ج): و ذات الركوع وصلاة العمر، الذين هم في صلاتهم دائمون.

[4] إضافة في (ب) و(ج).

عمران/103]، وقال υ: «أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله»[1]، وقال تعالى: [لَوْ أَنْفَقْتَ][الأنفال/103]، وقال تعالى:«يا ابن آدم أنا وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محبا»[2]، قالυ: «تخلقوا بأخلاق الله إن لله ثلاثمائة خلق»[3] الحديث، والملوم من شاقق الله ورسوله وصد عن سبيله، ورايا بعمله حتى نزل في لومه وذمه [مَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُول][النساء/115]، [يُرَاؤُونَ النَّاسَ][النساء/142]، [صَرَفَ الله قُلُوبَهُمْ][التوبة/127][وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْذِكْرِي][طه/124]، [وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله]، وبمثل هذا نظر العارفون في حروف اسم الجلالة، فاشتقوا لها معاني، منها ما أنشده الغزالي في الحصر:

ألفُ التَّأَلُّف بالخلائقِ كُلِّهم والـلاَّمُ لاَمُ المـلُـومِ للمَطْـــرُودِ
والهـاءُ هـــاءٌ هَائمٌ في حبِّـــه مُسْتَهتِـــرٌ بالوَاحِــــدِ المعْبُــودِ

وإنما قرنت أسماء هذه الحروف بذكر الكتاب المشار بها إليه بعدها غالبا لأن سرك كان في أسمائه، وسر الأسماء في الحروف عددا ورسما وعلما، وسر الجميع في التقوى [إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُم فُرقَانا][الأنفال/29]وإنما بنيت على السكون ليبقى للعاقل فيها مجال "ولا خير فيمن لا جال فكرة من الرجال".

السادسة: في سر عدد نقط حروف (ألم)[4]، الألف نَقْطُه واحد دل على الإله الواحد، واللام نقطه ثلاثون دل على أيام الشهور، والشهور دلت على السنين، والسنون على الزمان، والزمان على الدهر، والدهر على خالقه في الحديث: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[5]، أي خالقه، ومصرف ما فيه من غير واسطة ولا علة، الميم نقطها أربعون دلت على ما أوجده[6] الله وأحدثه في الدهر، وهو محمد ρوإخوانه بنو آدم، ففي الخبر: «نطفه أربعون ثم علقة أربعون ثم مضغة أربعون»[7]، ومجموع نقط الثلاثة الأحرف واحد وسبعون، فدل على مجموع شعب الإيمان ففي الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[8]، فأشار إلى أعلاها في أعالي السور وهو قوله تعالى هنا: [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ] [البقرة/3]، وأشار إلى أدناها أي أقربها في أقرب السور، من شر الوسواس ومن شر ما خلق وحمالة الحطب، لأن الطريق أهم من طريق الأقدام والمعارف والأذكار، فافهم، فالدال على هذه الشعب والمعاني ذلك الكتاب والخصلتان المكتنفتان لأعلى الشعب وأدناها بهما يكمل البِضْعُ، وأيضا فنقط حروف (الم) دل على أن الكتاب المفتتح بها احتوى على عددها من العلوم، ومنه اقتبس كل عليم، قال أبو العباس المرسي: "جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقا بساق العرش، فقلت له: وما علومك وما مقامك؟ فقال: علومي من إحدى وسبعون علما"، المراد واحدها معرفة شعب الإيمان المنتهية إلى بضع وسبعين، وكل شعبة لا تتم إلا بمعرفة مقاماتها الثلاث: مقام الإسلام، والإيمان والإحسان، وكل مقام من مقامات

---

[1] الحديث أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، ج3، ص: 46.

[2] لم نعثر عليه.

[3] لم نعثر عليه.

[4] القيمة الرقمية لـ (أ ل م) بحساب الجمل: أ= 1، ل= 30، م= 40 ، المجموع هو: 71.

[5] الحديث أخرجه: - البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 2286. / - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1763.

[6] كذا في (ج)، وفي (ب): أودعه.

[7] أشار إلى معنى الحديث عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج2، ص: 413.

[8] الحديث أخرجه: - البخاري، صحيح البخاري، ج2، ص: 871./ - مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 63./ - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج1، (م سابق) ص:388.

الدين لا ينتظم إلا بثلاثة أمور: علم وحال، وعمل، و كل هذه الأمور مذكورة في الكتاب المذكور، ولما أن أحكم أبو مدين ما علم قال لأبي حامد حيث سأله في عالم المنام بقوله: يا أبا مدين ما الذي تخلقت به من آيات القرآن، فقال: نفيسُه جعلته في سري، وعَقَدتُه بخيط الحكمة، ولويت عليه لواء المعرفة، وغربلته بغربال الفكر، فأمطرت عليه أمطار الحياء، فاستحييت من ربي جل جلاله وهو يرى ولا يُرى.

وإن عددت نقط هجائها مفككة تجد عدد حروف (لام) دالة على شعب الإيمان بالملك العلام[1]، وإن عددت نقط هجاء الحرفين المكتنفتين تجدها مشيرة إلى معرفة أعداد معاني أسماء سيد الثقلين، لأن الإيمان مركب من جزأين وهو حديث النفس التابع للمعرفة بالله وبرسوله الذي له مائة اسم وواحد، ومن أسرار الأحرف الثلاثة أيضا أن هجاء حروف ألفٌ ثلاثة وعدد نقطها أحد عشر ومائة[2]، على وفق نقط حروف اسمه تعالى (كافي)[3]، فهو اسم الألف الباطن كما أن اسمه الظاهر (الله) فمن تخلّق بمقتضى معنى ألف الاستقامة كما في قوله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْت وَمَنْ تَابَ مَعَكَ][هود/112] ومن تاب معك كفاه الله الكافي كل ما أهمه وصوّب فهمه جل ربنا أن يعامله العبد نقدا ويجاز يه بسيئة، فمن أضاف عدد حروف ألف إلى عدد نقطها انكشف له عدد سور القرآن المفتتح بألف الامتنان، ومن أضاف حروفه أيضا مع حروف لام إلى عدد نقط هجاء لام انكشف له عدد شعب الإيمان المفصلة في سور القرآن، ومن أضاف أيضا هجاء الحرفين مع هجاء ميم إلى عدد نقط حروفها انكشف له عدد أسماء الرحمان المستخرجة من سور القرآن، ولأجل سر نقط حروف الاستفتاح استحبت أعلم العلماء للمستفتح أن يستفتح نهاره بذكر اسمه الرزاق الفتاح على عدد نقط الحروف، ويجعل يده على صدره قبل فرضه وبعد فجره، لعله أن يوضع من وزره عند ظهره، ويرفع في ذكره.

السابعة: أن هجاء هذه الحروف تسعة أحرف من ضرب ثلاثة في ثلاثة [ا ل ف ل ا م م ي م] كذلك مقامات الدين أصولها تسعة، وأصول أصولها ثلاثة، وفروعها تسعة وتسعون على عدد أسماء الله الحسنى الواردة في كتابه، وعلى عدد مقامات الدين، خمسون منها اكتسابيه والباقي منها وهبية، وعلى عدد درج الجنة، و بيانه[4]: أن الدين أصوله ثلاثة: إسلام وإيمان وإحسان، دليله قوله υ: «هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أصول دينكم»[5] وكل واحد من الأصول الثلاثة له بداية ووسط ونهاية، وكل من الثلاثة له منازل وكل منزل له ثمرات، وكل ثمرة لها نتائج، حتى تنتهي إلى المائة درجة، وقد ذكرها كلها الإمام سيدي محمد السنوسي في (اختصاره لكتاب الساحلي)[6]، وبسطها الخروبي[7] بأبسط منه، فالنتائج التي دلت عليها هذه الحروف هي معاني ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، قال عزّ من قائل: [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانَا لِكُلِّ شَيْءٍ[وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمِسْلِمِينَ]][النحل/89]وقال أصدق القائلين:

---

1 (اللاَّمُ) بحساب الجمل تساوي: 71، وهو عدد شِعب الإيمان المذكورة في الحديث السالف، حيث أن: ل= 30، ا= 1، م= 40

2 (ألفٌ) عدد نقطها بحساب الجمل هو: 111، حيث أن: أ= 1، ل= 30، ف= 80.

3 عدد نقط حروف اسمه تعالى (كافي) هو: 111، حيث أن: ك= 20، أ= 1، ف= 80، ي=10.

4 كذا في (ج)، وفي (ب): واعلم.

5 الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج1، ص: 398.

6 في (ب) و(ج): في تأليف له يسمى "روض المحاسن".

7 من أهل الفقه والحديث والتصوف، توفي سنة 963هـ بالجزائر، هو من تلاميذ عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي، ركز الخروبي في تآليفه على الأوراد والأذكار وعلوم التصوف، ونسب إليه بعضهم تفسيرا للقرآن الكريم، له شرح على "الحكم العطائية" وعلى " الصلاة المشيشية"..كما بسط مبادئ الطريقة الشاذلية. ينظر: -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(1)، ص: 504 – 506.– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 132. – أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف (2)، 337، 338.

[مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ] [الأنعام/38][وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاء إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم] [البقرة/213] فهذا القدر المذكور أقل من نقرة عصفور من بحر مسجور: [قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي][الكهف/109] ورد في تفسيره أي لمعاني كلمات ربي حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، والله أعلم (وهو بغيبه أحكم)[1]، جعلنا الله وإياكم من أهل الفهم عنه آمين.

[في التّوبة و الإنابة:]

قوله: (قابل التوب) أي ممن تاب وأناب وهو الحليم الأواه الأواب، فالتوبة على ثلاثة: توبة العامة من المعاصي، وتوبة الخاصة من الملاهي، وتوبة خاصة الخاصة من رؤية الغير:

إذ قُلتُ ما أذنبَتُ، قالَت مُجِيبة   وجودُك ذَنْبٌ لا يُقَاسُ بِه ذَنْبُ

ولكن صاحب هذا المقام لا يزال في حكم الإمام سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام، فهو قدوة التائبين وإمام المتقين، قال الشيخ السنوسي: "ومن علامات صدق معرفة العارف ألا يَرِدَ على روحه من أسرار الغيب إلا ما يشهد لحصة الشرع ولا ينقض أصلا من أصوله، حتى أن ليثبّت الأسرار مدرجة في عبارات الأحكام من غير تنافر ولا تناف، فلا يظهر عليه ما يخالف الرسوم الشرعية والأحكام الدينية، وهذا إذا فصحت عن حقيقة تجدها بادية من أحوال النبي ρ في اتساع عباراته، لما يأخذ كل إنسان منه منفعته، وينفق منه بحسب حاله، وعلى درج الخلفاء وسائر السلف رضي الله عنهم" من «روض المحاسن»، فقولهρ: «إني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»[2]. فهل قال ذلك إلا لتزايد المعارف وترقي الدرجات التطلع إلى الغيب في تخطي المقامات، فهو رأس المتوجهين ودليل المتحيرين، ولذا قال بعد هذا:"رئيسي الأسنى ابن الذبيح طه".

قوله: " في مبداه سورة البقرة" فإن أراد قوله تعالى: [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ][البقرة/3]، فيحتمل أن يكون التشبيه بقوله: "كيف أنه أراد به أن تؤمن بالغيب أي بما غاب عنك من أحوال الصدّيقين آمن به وسلمه لأهله إن لم تكن من أهله، ومن جملته قوله" "زاد للغيب" فإنهم لا ينطقون إلا عن أحوال صادقة.

ويحتمل أن يكون شبّه زيادته للغيب بقوله تعالى: [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ]، فيكون هذا الغيب على ثلاث: رحموتي وملكوتي وجبروتي، أو الغيب ذاتي وأسمائي وصفاتي، وأراد بكل احتمال غيبه في منتهى الآمال زيادة في الإيمان وتقوية للإيقان حتى يبصر الحق بالحق في العيان، ولذلك نقل جلال الدين السيوطي عن الإمام ابن جنّي: "أن المجرور من قوله تعالى: [يُؤمنُونَ بِالغَيْبِ] يتعلق بحال محذوفة تقديرها أي موقنين بالغيب" من كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي.

وروى الشطيبي[3] في «جمانه» عن بعض العلماء: "أن الله أثنى على نبيه محمد وعلى آله وأصحابه في بضع عشرة آية من القرآن، الأولى في قوله تعالى: [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ] أراد بالغيب أبا بكر، ويقيمون الصلاة عمر، ومما رزقناهم ينفقون عثمان [والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ[بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ]][البقرة/4] أراد عليا

[1] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).
[2] الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج3، ص: 205.
[3] في (ب) و(ج): قال أبو الحسن علي المدعو الحاج الشطيبي،..

رضي الله عنهم جميعهم"، ثم عدد باقيها، ولولا الإطالة لتتبعناها، ومن أعلى ما يؤمن به مقام إمام المؤمنين ورأس الموقنين سيدنا ومولنا محمد ρ الذي ترجم عنه إمام العاشقين سيدي عمر بن الفارض حيث يقول:

فَطَوْرُكَ قَد بُلِّغْتُهُ وبَلَغْـتَ فَـوْقَ ... طَورِكَ حَيْثُ النَّفسُ لَم تَكُ ظَنَّتِ
وَحدُّك هَذَا عندَهُ قِـف فَعَنْهُ ... لَوْتَقَدَّمْـتَ شَيْئًا لاحْتَـرَقْتَ بِجَـذْوَةِ
فَسِرْتُ إلى مَا دُونَه وقَـفَ الأُولَى[1] ... وضَلَّتْ عُقُولٌ بِالفَوَائِـدِ ضَلَّــــتِ
ومِــنِّي أَوْجُ السَّابِقِيــنَ بِزَعْمِــهِـم ... حَضِيضُ ثَرَى آثَار مَوْضِعِ وَطْــأَتِي
وآخِرُ مَا بَعْدَ الإِشَارَةِ حَيْـــــثُ ... لاَتَرَقِّى ارتِفَـاعٍ وَضْـعُ أَوَّلِ خَطْـوَتِي

قال شارحه رضي الله عنهما: "قوله: طورك يعني غايتك، كنّى بالطور لمناسبة العلو والارتفاع عن غاية مراتب الترقي والعروج إلى مراتب الاتحاد اعتبارا بحال موسىυ، ومعراجه بالطور، والطور الحد وقوله: " وحدك"، هذا البيت الجذوة بالحركات الثلاث الجمرة المتلهبة يقول مخاطبا للمسترشد: أن حدَّ اقتضاء استعدادك وقابليتك للسير إلى الله وفي الله بالجولان في فنون مقامات الاتحاد ومنازلته هذا الذي وصلت إليه، وبالنسبة إليك ما وراء عباد أن قربه، فقف فيما وصلت إليه من مقام، ولا تقدم متطلعا إلى بلوغ شيء من مقامي عليّ، فإنك لو تقدمت من مقامك شيئا لاحترقت بشعلة من سبحات جلال تجليات هذا المقام الأعلى المحمدي، بحيث لا يمكنك بعد ذلك الرجوع إلى شيء من مقامات الوجود أصلا فإياك والتقدم، وكأن هذا المعنى ذكره على سبيل التلميح، والاقتباس من حديث جبريلυ في قوله: «لو تقدمت أنملة لاحترقت».

وقوله: "فسرت إلى ما دونه" (البيت) يقول: لما خلعت في الحب جميع النعوت والأسماء والصفات سرت عقيب ذلك حال السير لا إليه ولا منه إلى مقام لا أعلى منه، وهو مقام أو أدنى واحدية الجمع وصحوه، وقد وقف السابقون كلهم دونه وتحته، وهو مقام: قاب قوسين[2] وجمع الجمع وسكره الذي ما كان لهم سير وترق إلى ما فوقه.

وقوله: "أوج السابقين"، أشار إلى المعراج، بالجسم المختص بصاحب مقام أحدية الجمع لانصباغ أدنى مراتب خلقيته، وهو الجسم بأعلى مراتب الحقّية بارتفاع حكم الغيرية والضدية بين صور خلقيته وصور حقّيته، في وقت ما مختص به، بحكم هذا المقام، أعني أحدية الجمع واقتضائه، وأشار بحضيض ثرى إلى أنه لم يؤمن بخلع نعليه في معراجه كما أمر موسى بخلعهما في ميقاته، فيقول: " لم عُرج بي روحا وجسما وسرا وحقيقة لابسا نعلي، بحيث كنت بالأفق الأعلى من عالم الأرواح الذي هو، أعني الأفق نقطة اعتدال كون القلم الأعلى، ثم دنوت فتدلى التجلي بطريق الاستقبال، فكنت قاب قوسين يعني كان قاب قوسين طريقي إلى أن بلغت مقامي الذي هو أدنى، فصار مقام جمع الجمع الذي سلكته بعد ما تعديت[عنه][3] بمنزلة التراب الموطأ من الأرض لنعلي، والثرى الذي تعلق بوجه الأرض

---

[1] في المصدر: الأُلَى، ينظر: عمر فاروق الطبّاع، ديوان ابن الفارض، ص: 53، 55، وفي الأبيات ترتيب مختلف عن ذلك الموجود في المصدر.

[2] إشارة إلى القرب من الله، كما في قوله تعالى:[فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ][9/النجم] يقول القاشاني: قاب قوسين: هو مقام القرب الأسمائي في الأمر الإلهي المسمى دائرة الوجود كالإبداء والإعادة والنزول والعروج والفاعلية والقابلية، وهو الاتحاد بالحق مع بقاء التميز والإثنينية المعبر عنه بالاتصال، ولا مقام أعلى من هذا المقام "أو أدنى" وهو أحدية عين الجمع الذاتية. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 79.

[3] إضافة في (ب) وساقط في (ج) .

حضيض بالنسبة إلى ما تعلق بالنعل، مع أنه أوج بالنسبة إلى ثرى تحت وجه الأرض الذي هو بمثابة سائر المقامات من الجمع الباطني والظاهري ومنازل جزئياتها وتفاصيلها.

فهؤلاء الخلفاء السبعة غير الكمّل الذين غلبك على كل واحد منهم حكم صفة من الصفات السبع، أعني الحياة والعلم والقدرة والإرادة والقول والجود والإقساط مع اشتمالهم على الباقي، وهم خلفاء الخليفة الكامل الواصل إلى مقام (قاب قوسين) من حضرة جمع الجمع المشتمل على جميع أسماء وصفات الذات، فالخلفاء بواسطة هو السابقون على أصحاب المقامات المقيدة من المكاشفين والمحجوبين، وعلى الأفراد الخارجين عن دائرة الأقطاب الكاملين [وغير الكاملين][1] في زعم هؤلاء الخلفاء حال هؤلاء الأفراد ومبلغ أذواقهم على الخلفاء بواسطة، فيظنون أنهم سابقون عليهم في المرتبة وهم تحت دائرتهم، وليس الأمر كما زعموا، فالسابقون بزعمهم على أهل زمانهم لسماء علو منزلتهم وأوجها الذي هو الحضرة العمائية، هو بمنزلة ثرى متعلق بأرض موطئ مباين عن تعلم هو حضيض مرتبة قاب قوسين من حضرة جمع الجمع، هو مقام وحدة جمعية الهوية بين الظاهر والباطن والأول والآخر واتحادها فيه، واندراجها في عين تلك الوحدة، لكن مع توهم مغاير وضدية بينهما، ومقام: (أو أدنى) مقام اندراجها في[عين][2] تلك الوحدة الجمعية مع شهود اشتمال كل منها على الجميع وانتفاء المغايرة والضدية والتمييز بينهما بالكلية، فاعلم ذلك.

وقوله: "وآخر ما بعد الإشارة" (البيت) يعني: منتهى شيء تكون رتبته بعد رتبة ما يشار إليه من الأسماء والصفات وتمييزاتها واختصاصاتها إنما هو مقام (قاب قوسين)، ومقام الكمال هو مقام لا ترقى ارتفاع (مرتبة)[3] من مرتبة ومقام أعلى منه بالنسبة إلى غيره من أهل الكمال وأرباب النهايات، وهذا المقام هو أول خطوتي في سفرتي الرابعة المختصة بي المعبّر عنها بقوله: [فإذا فرغت فانصب] عروجا، وكذا هو موضع وضع خطوتي في نزول حقيقي، وتجلّي الأول عند مبدأ الأمر لتحقيق "فأحببت أن أعرف" فإنّي أولما تخطيت مقام: (أو أدنى) والمرتبة الأولى لم يكن موضع وضع أو خطوتي في ذلك المنزل إلى مبدأ المرتبة الثانية، وهو مقام (قاب قوسين) بعينه وهو الحضرة الجمعية الإجمالية، ثم انتهيت متطورا إلى انتهاء هذه الحضرة، العمائية التفصيلية، ثم إلى جنبتي هذه الحضرة العمائية وهما حضرتا الإمكان الجامعة جميع الخلائق الممكنة المتساوية اقتضاء موجديتها واقتضاء عدميتها وحضرة الوجوب اشتملت على جميع الأسماء الإلهية الداخلة في حيطة اسم الرحمان الذي هو عين الوجود، ثم تخطيت منها إلى أعلى وسيطة عالم الملكوت ومرتبة الأرواح المعبر عن ذلك الوسيطة الأعلى بالأفق الأعلى، إلى تفصيل ذلك وعرفته فيها من حيث جمعي وتفصيلي الظاهرين بوصف الغيرية مسمى بالقلم واللوح، ثم تخطيت منها إلى خلق وسط عالم المثال ثم إلى صورة ذلك مجملا عرشا ومفصلا كرسيا، وعُرفت فيه بهذين الاسمين، بوصف الغيرية أيضا، ثم نزلت إلى عالم الحس، وعرفت فيه بالغيرية بالتسمّي باسم العنصر مجملا وباسم السموات والأركان والمولدات جميعها مفصلا، ثم نزلت إلى المرتبة الإنسانية، وعرفت من حيث صورها وجمعها وتفصيلها الظاهرة بوصف الغيرية بالنسبة إلى مفهوم

---

[1] إضافة في (ب) وساقط في (ج).

[2] إضافة في (ب) وساقط في (ج).

[3] ساقط في (ب).

عمومها، وبالعينية بالنسبة إلى فهم أهل الخصوص، إلى أن نزلت مرتقيا، وعرفت وتعرفت وعرفت الأمر على ما هو عليه من حيث هذه الصورة المحمدية، فكمل بها نزولي الذي هو عين العروج.

كما أخبر بعض التراجمة عن حالي على نحو ما جرى بقوله: "تخيرك الله من آدم // فما زلت منحدرا ترتقي، فكان مقام (قاب قوسين) مقام رتبته فوق رتبة ما يشار إليه بفهم الروح من الأسماء والصفات وتميزاتها واختصاصاتها الثابتة في مقام (قاب قوسين) وهو الحضرة العمائية، وحضرة الوجوب منها ولا ترقى لأحد غيري فوق هذا المقام الذي هو: قاب قوسين وهو موضع أول خطوتي صعودا ونزولا كما بينا.

قوله: "في مبداها سورة البقرة" هذا ضمير عائد على متأخر لفظا لا رتبة، ولا بأس من ذلك، وسميت السورة بذلك لقول موسىυ: [إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً][البقرة/67]، (وقضيتها مشهورة عند المفسرين، و وتسمى السورة بالبكر والعوان، وهو أخص من الأولى، وإنما خصها الناظم بذكر البقرة لمقارنتها بالأمر بالذبح، وفيه إشارة أن من ذبح نفسه وأفناها بالمجاهدة أحياها الله بالمشاهدة، وأنطقها بالغيب والصواب، وأرجعها إليه بلطيف التدرج والعتاب، ولذلك قال أبو العباس المرسي في الآية: "بقرة كل إنسان نفسه وذبحها بسيوف المخالفة")[1].

فائدة: قال جلال الدين السيوطي في «أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب»، قال الحلمي: " من عظيم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوة وحجة، فهو دعوة بمعانيه حجة بألفاظه جمعهما الله لرسوله، وكفى الدعوة شرفا أن تكون حجتها معها، وكفى الحجة شرفا أن تنفصل الدعوة عنها"، ثم ذكر السيوطي أن معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيام وفيه ستون ألف معجزة تقريبا" منه[2].

فضيلة: أخرج أبو الفرج الجوزي عن علي بن أبي طالب τ أنه قال: قال جبريل للنبي ρ: «لكل شيء سيد وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الشجر السدر، وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربية، وسيد العربية القرآن، وسيد القرآن البقرة، وأعظم آية فيها آية الكرسي، وفي أخرى: لكل شيء سناما وسنام القرآن البقرة، ولكل شيء لبابا ولباب القرآن المفصل».[3] من «سلوة الأحزان» له.

ثم قال τ:

مَـــــا يَعْلَـــم اللهَ غَيْـــرْ الله	تَعَالَى عَمّا تشَـا يَدْرِيـــــــــه
مَنْشَـــاه مَـا صَافَـشِي مَنْـشَـــاه	كِيـفْ يَصِف حَقِيقَـة النَّاشِئَـــه
كِيـــفْ تَـــرَاه بَصِيـــــرَة لِي رَاه	هَـلْ هِي جَـــــهْ وهُوَ جَـــــهْ
فِي الِجهَــة والفَـرْقْ يـَاشَـغَـــبْ	والجَمْعْ المجمُوعْ هُـوَ الخَيْـــــــرَا
يَـا كَيَّـــتْ مَنْ لاَ مَـعَ سَلْـــب	يَسْلَـبْ جَمْـعْ الخَيـر لاَ غَيْـــرَا

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] أي من كتاب (الأنموذج) للسيوطي.

[3] رواه الدارمي في مسنده عن ابن مسعود، ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (ج1) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط2، 1999، ص: 150.

قال الصديق الأكبرτ: "لا يعرف الله إلا الله"، وقال أيضا: "سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، فإن العجز عن درك الإدراك إدراك"، وأنشدوا:

لاَ يَـعْلَـم اللهَ إلا اللهُ فـاتيـروا ... والدِّينُ دِينَـان إيمـان وإشْـرَاك
انْفِ النَّقَائِص عَنْهُ فَالكَـمَـال لَـهُ ... كَمَا يَلِيقُ وَغَيـرَ النُّـورِ أحْـلاَك
وللعُقُـولِ حُـدُودٌ لاَ تُجَـاوَزهـا ... [لَمْ يَعْدُونَهَا][1] نَـبِي لاَ وَأمْـلاَك
قُـلْ لامـرئ رَامَ إدراكًـا بخَـالِقِـهِ ... العَـجْـزُ عَـن دَرْكِ الإدْرَاكِ إدْرَاكُ
وأيّ شَخْـصٍ أبَى ألاَّ يُحَقِّقَـهُ ... فَـإنّ غَايَتَـهُ لَحْـدٌ وَإشْـرَاكُ
مَنْ دَانَ بِالحَيْـرَةِ الغَـرَّاء فَهُـوَ ... فَـتَى لِغَـايَـة العِلْـمِ بالرَّحْمَـن دَرَّاك
فَالعَجْز عَنْ دَرْكِ التَّحْقِيقِ شَمْسُ حُجَّى ... جَرَتْ بِهَا فَوْقَ جَوِّ النِّسْـكِ أفْـلاَكُ

وللمصنف τ قصيدته البائية:

انْتَ انْتَ قَدْ اكْفَاكْ اكْفَاكْ اكْفَاكْ ... يَـا مَـنْ لاَ يَكْفِيـه غَيْـرُ فِي دَابُ
ترَكَكْ مَعْرِفَـة وَعَرْفَانَـكْ تَرْكَـاكْ ... لِّلي زَالْ عْلِيـه مَسْتُـورْ احْجَـابُ
غَايَبْ سْكُوتِي وسَكْتَـاهْ نَجْـوَاكْ ... يُرَى سَاكَتْ وهُوَ فِي حَالْ اجْذَابُ
وَالَـهْ مَتْحَيَّرْ وحَيْرُوا فِي اطْنَـابُ ... لَـوْلاَ مَا حْـلاَه صَبْـرُوا جَلْبَـابُ
مِمَّنْ نَابْ كَادْ تَنْشَقْ اجْنَابُ

قال المحاسبي: "أكمل العارفين منأقرّ بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته، وقال: مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لساني إلا من سري، ثم ثلاثين لا يسمع سرى إلا من ربي، وقال: عملت كتائل في المعرفة وأعجبت به فبينما أن أنظره مستحسنا إذ دخل شاب وسلم، وقال: يا أبا عبد الله هل المعرفة حق للحق على الخلق أو عكسه؟،قلت: حق للحق على الخلق، قال: هو أولى أن يكشفها لمستحقها، قلت: بل حق للخلق على الحق، قال: هو أعدل من أن يظلمهم، ثم سلم وخرج فغسلته وقلت: لاأتكلم في المعرفة بعد هذا أبدا، قلت: ولذا كثرت تآليفه حتى بلغت المائتين"، ذكره المناوي عن بعضهم.

وقال الجنيد: "ما عرف الله إلا الله، وأعطى لخلقه الأسماء فحجبهم بها، فقال: [فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ العَظِيمِ][الواقعة/96]والله ما عرف الله إلا الله في النشأتين والدارين واليومين"، وفي كلامه إشارة لطيفة، وهي أنه قبض بسط العقول والأرواح والقلوب في ميدان هذا الاسم كما بسطهم في ميدان غيره من الأسماء، ولذلك لم يقع[كذا][2]الأفكار إطلاق التسمية به مع وجود الجاحدين والفراعنة الطاغين.

فإن قلت: " لم عبَّر الناظم بالعلم؟، وهل لا تبح عبارة أبي بكر المتقدمة؟، قلت: "عرض لي إيثار الاقتداء بالصِّدِّيق، فنطقتُ بعبارته، وأبدلتُ كلامَالناظم حتى تأملت في المستثنى فوجدته يكون من جنس المستثنى منه، ومن غير جنسه، والمناسب هنا، الثاني فناسبَ التعبير بالعلم، فتقول لا يعلم الله على ما هو عليه إلا الله، فهو العالم بنفسه

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] طمس في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

كقول عيسىυ: [تَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِي[وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ]][المائدة/116]، فالعلم يطلق على القديم والحادث، والمعرفة لا تطلق إلى على الحادث، لأن المعرفة ما جهل وما نكر بخلاف العلم، فإن الله عالم، ولا يقال فيه [كذا][1] فتحققت حينئذ أسرار أقوال العارفين ووجه عبارة الصِّدِّيق ومن تبعه أن المعرفة متعلقها مفرد، فيقال: عرفت زيدا وعرفت الله، ولا يقال علمت الله وعلمت زيدا في ذاته، فالصِّدِّيق راعى المستثنى منه الحادث، والناظم ومن تبعه راعى المستثنى القديم، وقد يطلق العلم الدال على المركبات على المعرفة الدالة على المفردات وبالعكس مسامحة وتوسعا في العبارات.

فإذا كان الأمر هكذا فلا يجوز لبادئ مثلي أن يعتمد على بادِئ رأيه، ويغير حرفا أو لفظة من كلام هؤلاء السادات، وأن يستند إلى أصل آخر، لأنهم أعرف بالقواعد وأقعد بكلام بعضهم بعضا، و"لكل مقام مقال، ولكل قرن رجال"، فلكل شيء وجه، قال سيدي عبد الرحمن اللجائي: "فكلما جانس العقول والأوهام في الحدوث اتصلت بصفاته، وكل حادثة في الوجود مقيدة بالزمان والمكان والجنس، لا انفكاك (لها)[2] عن ذلك، وكل ما تضمنته هذه التقييدات الثلاث هو حدُّ العقول التي تقف عنده لا تتعداه وهو العجز عن التكييف، ليس للعقول وراء ذلك مجال تجول فيه إلا غموض الوحدانية، وصفات الربوبية، لايطَّلع على ذلك إلا الجبار الأعظم وحده لا شريك له، تعالى الله أن تحيط طليعية[3] بذاته، لكن بالقياسات[4] العقليات الفاسدات ظنَّ الجُهال أن يدركوا الصفات الأزليات، (وهيهات)[5] هيهات! إنَّ من وراءِ حجاب[6] العقل ذاتاً مقدسة ليس البصر والبصيرة لها بلاحظاتٍ، ولا الأوهام لها بلاحقات، ولا العقول لها بمكيفات، ولا النفوس لها بممثلات، ولا الأفكار لها بمخيلات، ولا الأذهان لها بمدركات، ولا الألسن لها بواصفات، ولا الآذان لها بسامعات، ولا الفوقيات لها برافعات، ولا التحتيات لها بواضعات،[و لا السماواتُ لها بكانفات، ولا فَوقيات العرش لها بمجاورات، ولا تحتيَّاتُ الثَّرى لها بمقابلات، ولا جوانب الحوادث لها بمحاديات][7] ولا الأَعرَاضُ لها بمحركات[8]، ولا الجواهر لها بمجانسات، بل هو رفيع الدرجات عن جميع المحدَثَاتِ حي قيوم، إله من في الأرض والسموات".من« قطب العارفين».

قوله: "تعالى عمَّا يشا يدريه"أي تعالى الله الملك القدوس عن أن تدريه العقول أو تعرفه النفوس[مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ][الحج/74]، فالمخلوق لا يدرك خالقه والمنشئ (لا يصف)[9] ناشئه، فالحادث لا يلحق القديم والمماثل لا يحقق[10]الخالق العليم، (لأن من أسمائه اللطيف)[11]، قال القاسم بن محمد: "اللطيف الذي لم يدع

[1] طمس في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[2] في المصدر: لحادثةٍ. ينظر: أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي، قطب العارفين في العقائد والتصوف، تحقيق وتقديم: محمد الدبياجي، دار صادر، بيروت، ط1، 2001، ص:53.

[3] كذا في (ب) و(ج)، و في المصدر: تَطْلِيعَةٌ، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] في المصدر: بالمقايسات، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] ساقط في المصدر، ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[6] في المصدر: حُجُبٍ، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[7] إضافة في المصدر، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[8] في المصدر: بمُغَيِّرَاتٍ، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[9] في (ب) و(ج): لا يتحَقَّقُ.

[10] في (ب) و(ج): لا يشبهُ.

[11] ساقط في (ب) و(ج).

أحدا يقف على ماهية اسمه فكيف الوقوف على وصفه" فأحرى أن يقف على ذاته أحد، ويتعالى عن ذلك الواحد الأحد، قال ريحانة العارفين أبو بكر الشبلي: "كل إشارة أشار بها الخلق إلى الخالق فهي مردودة عليَّ حتى تصير إلى الحق بالحق وليس إلى إدراكه سبيل، تعالى ربنا أن تدركه عبارة، أو تدل عليه إشارة، لأن العبارة تدرك المحدثات والإشارة تدل على الحدود والجهات، والله تعالى محمود وليس بمحدود، ومعبود وليس بمعدود، فهو تعالى واحد في عز ثنائه من غير كثرة ولا عدد، صمد في جلال بهائه من غير صورة ولا جسد، فرد في جبروته وكبريائه من غير نسل ولا ولد، وِترٌ في سلطان علائه من غير والدَينِ ولا جدّ، عظيم في ملكه واقتداره من غير شريك ولا نِدّ، وعلى هذا دل قوله تعالى: [قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ][الإخلاص/1] ينفي الكثرة والعدد، [اللهُ الصَّمَدُ][الإخلاص/2]، نفي للصورة والجسد، [لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ][الإخلاص/3]، نفي للنسل والولد، [وَلَمْ يُولَدْ][الإخلاص/3] نفي للوالدين والجدّ، [وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ][الإخلاص/4]، نفي للشريك والنّد، وهذه نسبة الله تعالى لقول النبيρ: «يا رب ما ثواب من قرأ قل هو الله أحد، وفهم معناه، فقال له: يا محمد هي نسبتي، وهي أربع آيات فمن قرأها بفهم معناها مرة واحدة أعطيته الأنهار في كتابي، وهي [أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ][محمد/15][1]، وهذا ما وعد الله للمتقين من عباده في الجنة، قال الله تعالى: [مَثَلُ الجَنَّةُ التِي وَعَدَ المتَّقُونَ][محمد/15]، وكان سبب وصول المتقين إلى هذه النعائم معرفة هذه السورة وفهم معانيها على التحقيق وفضلها كثير، وإلى هذا الفضل العظيم قصدنا إلى بيان بعض معاني ألفاظها، نسأل الله تعالى أن يفتح لنا في فهم معانيها، وأن يرزقنا فضها وأن لا يحرمنا من النفع بها في الدنيا والآخرة، بجاه من أفادنا بها سيدنا محمد ρ[2].

[في كون معرفة النفس طريق إلى معرفة الله:]

قوله: "منشاه ما صا فشي منشاه" [كيف][3] يصف حقيقة الناشئة، قال ρ: «من عرف نفسه عرف ربه»[4]، قال بعض العلماء: "هذا تعليق ممتنع على ممتنع، لأنه لا يمكن لبشر الوقوف على أصل خلقته ولا وصف حقيقة نفسه ونشأته"، (كما قال سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري: "حقيقة النفس ثم الروح لجهلها، كذلك العقل فينا غير منعقل، فمن لا يعرف نفسه كيف يتصور أن يعرف ربه، ومن لم يقدر على وصف نشأته كما نشأت، فكيف يطمع أن يصف منشأه على ما هو عليه إلاّ كما قال عز من قائل: [وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ][الذاريات/21]، فنظر أهل البصائر في أنفسهم بعين الاعتبار فوجدوها تدل على عظمة الواحد القهار")[5].

فمن ذلك ما ذكره أبو حامد في «إحياء علوم الدين» فنذكر بعضه وإن كان لا يمكننا استيفاء جميعه لضيق المحل، قال τ في كتاب «التفكر من ربع المنجيات»: " فمن آياته الإنسان مخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] الكلام من (قال القاسم بن محمد –إلى– بجاه من أفادنا بها سيدنا محمدρ ساقط في (ب) و(ج).

[3] إضافة في (ب) و(ج).

[4] تقدم الحديث في الصفحات السابقة.

[5] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عُشر عشيره وأنت غافل عنه، فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف يطمع في معرفة غيره، وقد أمرك الله بالتدبر في نفسك، وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال تعالى: [قُتِلَالإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ][عبس/17]، وقال تعالى: [أَوَلَمْيَرَى الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ[فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ]]، [يس/77]، فتكرير النطفة في الكتاب ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير في معناه، فانظر إلى النطفة وهي قطرة من الماء ولو تركت للهواء لفسدت ،كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الشهوة والمحبة في قلوبهما حتى اجتمعا، وكيف أخرج النطفة بحركة الوقاع، وكيف خلق الوالد من النطفة، واستجلب له دم الحيض من أعماق العروق ليسقيه به، وكيف صيّر النطفة البيضاء علقة حمراء، ثم مضغة، ثم قسم أجزاء النطفة المتشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم دوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدَّ اليد والرِّجل وقسم رؤوسها بالأصابع، وقسّم الأصابع فالأنامل، ثم ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال وغيرها، كل على شكل مخصوص لو فقد لتعطل.

ثم ذكر كلاما، إلى أن قال: "وكل هذا صنع الله في قطرة ماء قذرة فكيف به في ملكوت السموات والأرض، فلا تظنن أن ذرة من الملكوت تنفك عن حكمة وحكم، قال تعالى: [أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ][النازعات/27]فلَوْ اجْتَمَعَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا للنطفة سمعا أو عقلا أو بصرا أو قدرة أو علما أو روحا، أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا، لم يقدروا على شيء من ذلك، بل لو أرادوا أن يعرفوا عنه حقيقته وكيفية خلقه بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه، ثم قال ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا وجها آخر بدقيق الفكر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربعة، وتفاوت الأربعة في الطول وترتيبها في وصف واحد لم يقدروا عليه، ثم خلق هذا كله في النطفة وهي في جوف الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشا وامتدّ البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليه شيئا فشيئا، ولا يرى المصور ولا آلته، فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس الآلة ولا تلاقيه، وهو يتصرف فيها، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه".

[فصل في تركيب جسد الإنسان:]

وقال الشيخ عبد الجليل τ: "اعلم أن كل ما في هذا العالم من الأجساد الجزئية التي هي الحيوان والنبات والمعادن إنما تركبت من أربعة أشياء من الأرض والماء والهواء والنار، فالمعادن خلقها الله للمنافع والزينة ودفع المار حتى لو حجز الملح لفسد العالم بعدمه، لفساد الأمزجة، فكيف بسائر المعادن من الحديد وغيره كالجواهر للزينة والزينة سبب المحبة، المحبة سبب العمارة، وأما النبات فإنه لغذاء الجسد ومنافعه حتى لو عجزت آلة الحرث لفسد العالم، وكذا الحيوان سخره الله بعضه لبعض وسلطه عليه، وجعل بعضه طمعا لبعض، كل ذلك لقوام العالم وكماله، وأما كيفية ترتيب هذه الأشياء كلها ووجه الحكمة في خلقها على هيأتها التي هي عليه فهو بحر واسع الأطراف لا يتم أبدا، وسنذكر من ذلك طرفا في كيفية خلق الإنسان ليكون تنبيها على غيره، وذلك أن تعلم أن كل جزء من جميع المخلوقات بمنزلة عضو من أعضاء جسدك، لو نقص من أعضائك أو كان غلى غير هيئته التي ركب عليها مثل الفرج أو اليد أو القلب انفسد نظام الجسد من ذلك لو أن الحديد كان على غير هيئته لبطل الحرث الذي هو سبب العيش

وانبطلت الغراسة والحفر والقتال وفسد العالم وكذا سائر المعادن والنبات والحيوان، ويكفيك النظر في تركيب جسدك لتستدل بأنك على ترتيب الحكمة في جميع المخلوقات.

اعلم أن جسد الإنسان مركب من الأصول الأربعة المتقدمة، وتفصلت هذه الأربعة إلى العظم والمخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد والظفر والشعر، هذه جملة الجسد ووضع كل نوع منها لحكمة لولاها لم يكن الجسد، فالعظام منها تركبت هيئة الجسد على ما هو عليه، فضم بعضها إلى بعض، ولم يجعل عظما واحدا لأنه كان يكون مثل الحجر لا يتحرك، بل هي عدد معلوم لكل جزء من الجسد عدد من العظام ولو نقص منها واحدا وزاد فيها واحدا تعطلت بنية الجسد وكانت وبالا عليه.

فانظر الذي جعلها عظاما متعددة ولم يجعلها واحدا، وخصها بهذا العدد ما أحكمه وأعلمه، ثم لما كانت عظاما كثيرة لأجل الحركة لم يكن لينظم بعضها إلى بعض، حيث صور منها الجسد إلا بإلصاق بعضها إلى بعض، فلم يكن من رابط لها يخلق العضلات والعصب وربط بها العظام بعضها إلى بعض، فلم يكن من رابط لها يخلق العضلات والعصب وربط بها العظام بعضها إلى بعض، ولو كان العصب أقوى مما هو وألين لم تصح الحركة للجسم، ولا تصرفت الأعضاء في منافعها، ثم خلق المخ في العظام في غاية الرطوبة ليربط بها يبس العظام وشدتها وليقوي العظام برطوبته، ولولا ذلك لضعفت قوتها، وانخرم نظام الجسد لضعفها، ثم خلق اللحم وعبأه على هيئة العظام وسدَّ به خلل الجسد كله، فصار مستويا لُحمة واحدة ولو كان أيبس مما هو لم تلتئم، أوسيَّالا لم يلتصق، ثم خلق العروق في جميع الجسد جداول لجريان الغذاء فيها إلى أركان الجسد كله، لكل ركن عدد معلوم من العروق صغارا وكبارا، ليأخذ الصغير من الغذاء حاجته، وكذا الكبير، ولو كانت على غير ما هي عليه ما صح من الجسد شيء، ثم أجرى الدم في العروق سيالا خاثرا، ولو كان يابسا لم يجر فيها أو ألطف لم تتغذَّ به الأعضاء، ثم كسا اللحم بالجلد ليستره كله، كالوعاء عليه، ولولا الجلد لكان قشرا أحمر، وفي ذلك هلاكه، ثم كساه الشعر وقاية للجلد، وما لم يكن فيه شعر جعل له اللباس عوضا منه، وجعل أصوله مغروزة في اللحم ولينها، ولو كانت يابسة مثل الإبر لم يهن بذلك عيش، إلى غير ذلك، فسبحان الله ما أكثر الآيات الدالة عليه ولكننا لا نبصر إلا بتوفيق الله.

وقال اللجائي في «قطب العارفين» أيضا: "فلو اجتمع الحيوان العاقل على أن يعرفوا كيف يجدُ الإنسان ببصره الألوان المختلفة، أو كيف يجدُ بسمعه اختلافَ الأصوات، أو كيف يجدُ بعقله الأرضَ والسمواتِ[1]،[أو ردّوا إلى الجسد بعد تصويره أصبعا واحدا بعد زواله،...][2]، لم يقدروا على ذلك. فإذا عجز الخلائق على الشيء المخلوق أن يكيفوه[أو يردُّوا ما زال منه][3]فهم على نشأة التصوير (من أوله)[4] أعجز".

وقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: " اعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إيَّاك كما إيَّاك فكيف لك سبيل إلى معرفة إياه كما إيّاه، وكأنه في قوله ے: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[5]، عَلَّق مستحيلا على مستحيل،

---

[1] في المصدر: السماء، ينظر: عبد الرحمن اللجائي، قطب العارفين، ص: 44.

[2] ساقط في (ب) و(ج) وفي الأصل، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[3] ساقط في (ب) و(ج) وفي الأصل، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[4] ساقط في المصدر، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[5] تقدم الحديث في الصفحات السابقة.

لأنه يستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها وكنهها، فإذا كنت لا تطيق أن تصف نفسك التي هي بين جنبيك، فكيف تطيق العبودية وصف الربوبية وهو متقدس عن الكيف والأين"من «حل الرموز ومفاتيح الكنوز».

قال أبو عبد الله محمد بن أبي زيد في «رسالته»: يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته أي لا ماهية له حتى يتفكر فيها، أي لا يقال قوله :"كيف يصف حقيقة الناشئة سر هو ولا كيف هو"، فالماهية والكيفية على الله تعالى محالة وللخلق واجبة، وليس كمثله شيء قال ρ: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور، وهو فوق ذلك »[1] وقال: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فتهلكوا»[2]، وقال: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره»[3] وقال: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله»[4] وكذا لا يقال ما هو، كما قال فرعون: "وما رب العالمين" فلذا أجابه موسى بما يليق: والله من ورائهم محيط، والمحاط لا يبلغ كنه المحيط، وإن بلغ آلاءه فامش فيكوانظر إليك تنعتك بك إلى منشئك بإذنه وإليه المصير، واجعل همك هما واحدا تكف ما أهمك.

[1] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج3، (م سابق) ص: 262.

[2] الحديث أورده ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج4، (م سابق) ص: 386.

[3] الحديث أورده: - القرطبي، تفسير القرطبي، ج4، (م سابق) ص: 314./ - ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج4 (م سابق) ص: 260.

[4] الحديث أخرجه هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، اعتقاد أهل السنة، ج3، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، دط، 1402، ص: 525.

[في رؤية الذات الإلهية:]

قوله: "كيف اتراه بصيرة الّي راه" تعجبت[1] من بصيرة رأته كيف رأته، وكيف تدعي الكيفية، أو تثبت نفسها في عالم الأحدية[2]، فما هذا إلا ضد وتندّية[3]، وللشيخ الكامل الرباني سيدي عبد القادر بن موسى الجيلاني τ ونفعنا به آمين:[4]

رأيــتُ رَبِّي بعينِ قَلْـــبِي … (فَقُلْتُ لاَ شَكَّ أَنْتَ أنتَ)[5]
أَنْتَ الذي حُزتَ كُلَّ أَيْنٍ … (فَحَيْثُ لاَ أَيْنَ ثَمَّ أَنْـــتَ)[6]
وجُزْتُ حَـدَّ الدُّنُوّ حَـتَّى … لاَ[7] يَعلَم الأَيْنُ أَيْنَ أَنْــتَ
أَحَطتُ عِلْمًا بكلِّ شَيء … (وَكُـلُّ شَيء تَـرَاه أَنْـــتَ)[8]
ولَيْسَ للأَيْن مِنْـكَ أيـنٌ … فَيَعْلَم الأينُ أيْنَ أنْـــــتَ[9]
ولَيْسَ للفَهْمِ فِيكَ وَهْـمٌ … فَيَعْلَم الوَهْمُ كَيْفَ أَنْـــتَ[10]
أَشَارَ سِرِّي إِلَيْكَ حَـــتَّى … فَنَيْتَ أَيْنِي[11] وَدُمْتَ أَنْـتَ
وغَابَ عَنِّي حُضُورُ نَفْسِي … عَرَفْكَ أَيْنِي يَـا أَنْتَ أنْـتَ[12]
وعَنْ فَنَائي فَنَا فَنَـــــائِي[13] … وفي فَنَائِي وَجَـدتُ أَنْـــتَ

[1] في (ب) و(ج): تعجَّب

[2] في (ب) و(ج): في عالم الوجود.

[3] في (ب) و(ج): و ندّ.

[4] بحثنا عن القصيدة في " ديوان عبد القادر الجيلاني" دراسة وتحقيق: يوسف زيدان، إلاّ أننا لم نعثر عليها، ووجدناها بعد ذلك منسوبة للحلاّج، مع تقديم وتأخير لبعض الأبيات، واختلاف في صياغة بعض الكلمات بين الأصل والمصدر. ينظر: منشورات الجمل، ديوان الحلاج، يليه كتاب الطواسين، تحقيق: كامل مصطفى الشيبي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، د ط، 1997، ص:32.

تذكر نسختي (ب) و(ج) قصيدة قبل هذه القصيدة المنسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني، تعزوها إلى العارف بالله عز الدين، جاء فيها:

ولما تَجَلَّى من أحـب تكـرّمـا … وأشهَـدَنِي ذاكَ الجنَــابُ المعظّمـــا
تعـرّفَ لِي حتّى تَيقّنـتُ أَنّــني … أَراهُ بِعَيــنِي جَهــرَةً لاَ تَـوَهّمــــا
وفي كُـلِّ حـالٍ أَجْتَليه ولم يـزَل … على طُور قَلْبِي حيثُ كنتُ مُكَلّما
وما هـو في وَصْلِي بِمُتّصل ولا … بمُنْفَصل عَنِّي وحـاشـاهُ منهُمَـــا
وما قـدر مِثْلي أن يحيـطَ بمثلـهِ … وأينَ الثَّـرا من رفعـةِ البَـدرِ إنَّمَـــا
أُشَاهدُه في صَفْوِ سرِّي فاجْتَلِي … جمـالا تعـالى عــزّه أن يقسمـــا
كما أن بدرا التمّ ينظر وجهه … بصَفوِ غَدِير وهـو في أُفُقِ السَّمَـا

[5] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر: فقلتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قالَ: أَنْتَ. ينظر: "ديوان الحلاّج" تحقيق: كامل مصطفى الشيبي، ص: 32.

[6] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: بِنَحْوِ لاَ أَينٍ فَأَينَ أَنتَ

[7] البيت ساقط في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: لَمْ.

[8] البيت ساقط في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: فَكُلُّ شيءٍ أَرَاهُ أَنتَ.

[9] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: فليسَ للأينِ منكَ أَينٌ // وليسَ أَينٌ بِحيثُ أَنتَ.

[10] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: وليسَ للوَهْمِ منكَ وهمٌ // فيَعلَمِ الوَهمُ أَينَ أَنتَ

[11] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: عَنِّي.

[12] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: وغَابَ عَنِّي حَفِيظُ قَلْــبِي // عَرَفتُ سِرِّي فأَينَ أَنْــتَ.

[13] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: ففي بقائي ولا بَقائي.

مَحَوتُ رَسْمِي وَرَسم جِسْمِي   سَأَلْتُ أَيْنِي فَقُلــتُ أنتَ[1]
فأنتَ سُؤْلِي خَيَالُ عَيْـــنِي   فَحَيثُ مَا كُنتُ كُنْتَ أنتَ[2]
فَمُنَّ بالعَفْوِ يَا إِلَهِـــــــي   فَلَيْسَ أَرْجُو سِـــوَاكَ أَنْتَ

وحين قلت هذه الأبيات في حضرة الناظم τ رق لها وتواجد كثيرا، حتى ختمتها بالبيت الثاني عشر برد عشقه وزال تواجده، وقال: ما أحسنها لولا ما ختمت بسبب الطلب، لأنه نزول من سماء الحقوق إلى أرض الظوظ، قال: وأظن أن هذا البيت ليس هو من كلام محي الدين والله أعلم[3]، مع أن الشيخ السنوسي شرح الأبيات وعزاها للجيلي.وللمصنف رحمه الله ونفعنا به:

انْتَ لاَنْتَ شَاهَــــــدْ   بِأَنْ لاَ سِــــــــــوَاكْ
فِي مُهْجَتِي يَا وَاحَــــــدْ   وَكُل أنْـــــــــتَ ذَاكْ
امُوجَد المَوَاجِيــــــــدْ   فِي كُلّ شَــــــيء أَرَاكْ
فِي الكَائِنَات طُــــــرّا   وَكُلْ مَا خْلَقْــــــــتَ
إن خَاض فِيهَا فِكْــرِي   ليسَ أن نَرَى فِيهَا أنـــتَ
أنتَ الذِي أرَاكَ بكُل كُلِّي   فِي كُل مَن سِــــــوَاكْ
ألسْتَ بمُجَلِّــــــــــي   وَكُل أنْـــــــــتَ ذَاكْ
بَخ لمِا ظْهَــــــــرْ لِي   اسِيدِي لعُمْــــــــرِي
لُولاَ الشَّرع قَدْفُـــــت   لَفَاض بِكْ بَحْــــــرِي
وقُلْت هَذَا أنْـــــــتَ   مَوجُود أنت موجُـــــودْ
عَنْدِي بِلَا بَرَاهِيـــــــنْ   كَمَا الدَّلِيلْ مَفْقُـــــودْ
فِي ذِهْنِي لَا مْعَايَـــــنْ   اشَاهَدْ وَمَشْهُـــــــودْ
إِنِّي نَرَاك بأَيْـــــــنْ   بِالاتِّبَاعْ أَثْــــــــرِي
تَنْتَجْ وتَـــــــــأْتِي[4]   بَلْ أنْتَ عَيْن جُزْئِـــــي[5]
مَبْهُوتْ فِيكْ بَهْتَـــا

ولهذا قال الناظم: "هل هي جه وهو جه"، أي هل ثم راء ومرئي، لا بل هو الناظر والمنظور، وتسميتك أنت رائيا مجاز، كقوله تعالى: [وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنِ اللَّهَ رَمَى][الأنفال/17]، قال الشيخ عز الدين:

ومَخْطُوبَةُ الحُسْنِ مَحجُوبــــة   ولَا تَأْلَفَــنَّ سِــوَى أُلْفَـــهَا

[1] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: في محوِ إسْمِي وَرَسْمِ جِسمِي// سَأَلتُ عَنِّي فَقُلتُ: أَنتَ.

[2] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر نفسه: أنتَ حياتي وسرُّ قَلبِي // فَحَيثُمَا كُنتُ كُنْتَ أنتَ

[3] محي الدين من ألقاب الشيخ عبد القادر الجيلاني المشهورة، حيث قال في ذلك نظما، نجتزء منه هذا البيت: أنا قادِريُّ الوقت عبدٌ لقادر // أُكَنّى بمُحيِ الدِّينِ والأَصلُ جيلانِي.

- ينظر: يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، ص: 177.

[4] في (ب) و(ج): تَتْأَتّى

[5] في (ج): خَبْرِي.

إذَا مَا تَجَلَّت عَلَى عَاشِــــق وأَهْدَت إلَيـهِ شَـذَا عَرْفِـــهَا
تَغِيبُ الصَّفَاتُ وتَفْنَى الذَّوَاتُ بمَا أَبْرَز الحُسْنُ مِن لُطْفِـــهَا
فَإنْ رَامَ عَاشِقُـهَا نَظْـــــرَةً ولَمْ يَسْتَطِع لِعُـلَى وَصْفِــــهَا
أَعَــارَتْهُ طَرْفًـا رآهَــا بِــــــهِ فَلَم يَرَهَـا بِسِـوَى طَرفِـــهَـا

فصاحب هذا المقام متكلم لا بلسانه، ناظر لا بعيانه، سامع لا بآذانه، بل هو متكلم بلسان الحق، سامع بسمعه، ناظر ببصره، بإشارة بي يسمَعُ وبي يبصُرُ، وما مثال ذلك إلا مثال رجل بيده سراج في ليلة مظلمة، فهو يهتدي بنور ذلك السراج ليصل به إلى منزله، إلا أنه بين خوف هبوب الرياح تطفيه أو تنقص مادة دهنه، أو تفرغ فتيلته، فيبقى في ظلمات طريقه، قبل أن يصل إلى تحقيقه، فبينما هو بين خوف القطيعة ورجاء الوصل إذ طلعت عليه الشمس، فإذا هو في المنزل، فأمن هنالك طرفه أن يضل وقدمه أن تزلّ، ونوره أن يقل، فكذلك طلوع شمس العارف على ظلمة ليل العارف، يذهب بظلمة الأشباح، ويغلب ضياؤه سراج الأرواح، إذا الأرواح قد استولى عليها الاستغراق في أشعة ذلك الإشراق، فالعارف بنور العرفان يسير وبحكمه يشير، وفي فضاء أشعته يطير، "فبي يسمع وبي يبصر"، ثم اعلم أنه ظهر من سر هذا المعنى سر قوله: «ما وسعتني سمواتي ولا أرضي، ووسعي قلب عبدي المؤمن»[1]، فذلك الوسع في الحقيقة لمن تدبر إنما هو وسع نفسه، وما وسعه غيره، لأنه وسع كل شيء وما وسعه شيء، وذلك أنه ثبت أن العبد لما انخلع عن صفاته الفانية، وهو قوله: «كنت له سمعا وبصرا وفؤادا»[2]، فذلك الفؤاد الذي خلع عليه هو الذي وسعه، لأن الفؤاد والقلب اسم لشيء واحد، فثَبَتَ أنَّ ما وسعه في الحقيقة إلا هو، ليس هو القلب الصنوبري الشكل لأن ذلك مضغة من لحم محدث الوجود، وواجب الوجود منزه عن الحلول في الحادث الممدود من (الكتاب المذكور).

فإذا كان الأمر هكذا فالواجب على العبد أن يطهر قلبه من كل صفة مهلكة ويحليه بكل صفة منجية، لأنه محل نظر الله [وموقعه بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم»[3]][4]، فإذا فرّغه لمولاه قرّبه وأدناه لحديث: «من تقرّب منّي شبرا، تقربت منه ذراعا»[5]، قال الشيخ عبد الجليل القصري: "ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل حتى يحصل في مقام أهل العلم بالله، فلا يتعلم من خلق الله، بتعليم الله وتجليه لقلبه، فحينئذ يسمع ما لم يسمع قبل ذلك، ويفهم ما لم يفهم، ويحس بقرب الله منه لأنه أقرب إلى الروح من حياته، وإلى البصر من بصره، وإلى كل شيء من نفس ذلك الشيء، بقرب لا يليق إلا به، ولا يشبه قرب المخلوقين، فحينئذ لا يقدر العبد أن يشير إلى الله بخاطر ولا فكر ولا أن ينظر إليه بحركة سرّ إلى جهة من الجهات لأنه ليس في جهة ولا مكان، وإنما هو متجل يراه اليقين بغير حلول ولأنالإشارة هو يشير سبحانه، وهو أقرب من الإشارة إلى الإشارة،

---

[1] الحديث أخرجه: – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج2 (م سابق) ص: 496./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2 (م سابق) ص: 255.

[2] الحديث القدسي المعروف: " ..فإذا أحببتُهُ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره.." أخرجه البخاري عن أبي هريرة، صحيح البخاري، ج5 (م سابق) ص: 2384.

[3] الحديث أورده عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج5، ص: 50/ ج2، ص: 277.

[4] إضافة في (ب) و(ج).

[5] الحديث أخرجه البخاري ومسلم (تقدم الحديث في الصفحات السابقة)، ينظر: – صحيح مسلم، ج4، ص: 2067. – صحيح البخاري، ج6، ص: 2741.

فيكتفي السرّ بنظرة إليه، ويتبرأ هو من نظره وتأمله، ويرجع بصر السر من العبد نفسه في نفسه حتى ينسى نفسه بشغله بنظر الله إليه، فهو الناظر سبحانه وحده.

ومن ها هنا دخل العارفون إلى مقامات من القرب وأسرار من المعرفة لا يحتمل العموم ذكرها لبلادتهم وقلة فهمهم، وقد تكلم فيها فأنكرت على المتكلمين فيها، غير أن الحاصل في هذا المقام بالعلم يعلم أن الأشياء كلها أقرب إليه منها كقرب العالم من معلومه، فالمعلوم مبصر في مرآة العلم بغير حلول، ولا هو ظرف لها فيخبت سرُّه للعالم القائم بمعلومه المحيط به، فإن تحرك اللسان مثلا بالذكر أو خطر خاطر بالقلب علم أن الله هو الذاكر وهو المذكور بالحقيقة، لأنه مجري الذكر بقدرته وكلامه، وهو أقرب من المذكور إلى الذكر، وقد كان أبو يزيد وغيره من العلماء يقول في مناجاته كلاما مع ربه تَكِلُّ عنه أفهام الجماهير، وتتحير فيه عقول الحذّاق والأكابر من غير أهل هذه العلوم، ولقلة شغلهم واشتغالهم بطريق آخر غيرها، مَنَّ الله علينا وعليكم بالفهم عنه والعصمة من الجهل والإنكار وجعلنا من المحبين والعارفين الأخيار أهل الإشراق والأسرار آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا". من «شعب الإيمان».

[مقام الفرق والانفصال:][1]

قوله: " في الجهة والفرق يا شغب " أي في شهود الجهة والبعد والانفصال مع الإثنينية[2]، يا شغفي من هذا المقام الذي هو على أهل الفنا في التوحيد حرام، وهو مقام الفرق المشغب صاحبه، قال أبو عثمان المغربي لبعض أصحابه يوما: "لو قال لك قائل: أين معبودك؟ أي شيء تقول له؟ قال، أقول: حيث لم يزل، قال فإن قال كل: أين كان في الأزل؟ أي شيء تقول، قال: أقول: حيث هو الآن، قال زروق: يعني حيث كان ولا مكان، فهو الآن كما كان، قال ρ: «كان الله ولاشيء معه و هو الآن على ما عليه كان»[3]، وقال جعفر بن محمد: من زعم أن الله في شيء أو من شيء أو على شيء، فقد أشرك، لو كان على شيء لكان محمولا، ولو كان في شيء لكان محصورا، ولو كان من شيء لكان محدثا".

[1] الفَرْق أنواع، منه: الفرق الأول: وهو الاحتجاب بالخلق عن الحق، وبقاء الرسوم الخلقية بحالها. الفرق الثاني: هو شهود قيام الخلق بالحق، ورؤية الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة من غير احتجاب صاحبه بأحدهما عن الآخر. فرق الجمع: هو تكثر الواحد بظهوره في المراتب التي هي ظهور شؤون الذات الأحدية وتلك الشؤون في الحقيقة اعتبارات محضة، لا تحقق لها إلاّ عند بروز الواحد الحق بصورها. فرق الوصف: وهو ظهور الذات الأحدية بأوصافها في الحضرة الواحدية،.. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 77.

الانفصال: نقيض الاتصال، وهو ههنا الانفصال عن الكونين الذي هو شرط، وعن رؤية الانفصال بكونهما في شهود لا "شيء" محضا. وصورته في البدايات: الانفصال عن المرادفات النفسانية، والعادات، وفي الولايات: الانفصال عن الأسماء والصفات،.. ينظر: المصدر نفسه، ص:210.

[2] مسالك جوامع الاثنينية: هي ذكر الذات بالأسماء الذاتية دون الوصفية والفعلية مع المعرفة بها وشهودها، فإن الذاكر إذا أثنى عليه بعلمه أو وجوده أو قدرته فقد قيد تعظيمه بذلك الوصف، أما إذا أثنى عليه بأسمائه الذاتية كالقدّوس والسبوح والسلام والعلي والحق وأمثالها التي هي أبنية جميع الأسماء فقد عمّم التعظيم بجميع كمالاته. ينظر: المصدر نفسه، ص: 93.

[3] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.

[مقام الجمع والاتصال:][1]

قوله: "والجمع المجموع هو الحيرا" أي في شهود الجمع في القرب والاتصال في القرب والاتصال في الحب مع الإثنينية أيضا، وهو مقام الجمع المحيّر من حلّ به[2]، ففي هذا الجمع المجموع حيرتي، وفيه تتردّد همتي، ولذلك قال في قصيدته:

حَيَّرْتَنِي فِي أَمْرِي مُذْعِبْتُ فِيكَ   حَتَّى نَادَيْتَنِي فِي سِرِّي مَنْ أَنْتَ فَقُلْتُ أَنْتَ

وذلك لأنه رحل عن مقام ظلام الفرق المشغب[3]، ونزل في مقام الجميع المحير ثم ترقى إلى مقام عين[4] الجمع حتى وصل لمقام أحقية الجمع، وهو مقام الاتحاد[5]الذي أشار إليه بقوله: "يَا كَيَّتْ مَنْ لَا مْعَه سَلْبِي يَسْلَب جَمْع الغَير لَا غَيْرَا". وفي نحو هذا قيل:

عَجِبتُ مِنْكَ ومِنِّي   أَفْنَيْتَنِي بِـــكَ عَـنِّي
أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَــتَّى   ظَنَنْـــتُ أَنَّــكَ أَنِّي

[في المشاهدة[6] وشروطها:]

قال الشيخ السنوسي (منّ الله علينا بما مَنَّ عليه): " فالمشاهدة عبارة عن وجود الحق من غير ريبة ولا تهمة لا بغية، وذلك أن الروح إذا تطهّرت وتصفَّت من جميع أثر الأوهام حتى لا يبقى فيها إلا السر الإلهي المصون القدسي، انجلت مرآته عن غُبَاش أنفاس الأوهام، وأصحت سماؤه عن غيوم كُدُرات الرسوم، وانقشع غبار مألوفات الجسوم، فعند ذلك تُشرق شمس المعرفة ساطعة الأنوار، وتلوح دلالات المشاهدة باهرة الأسرار، فتجلى الحق سبحانه لمرآة الروح من غير تحديد ولا تكييف ولا تشبيه ولا إحاطة ولا مقابلة، إنما هي بروق أنوار العظمة تتتابع وتتوالى وتتوارد على مرآة الروح تفيده بغير العيان،وللمشاهدة شروطه:

- أولها: اطلاع الروح على الموجودات خطيرها وحقيرها، ظاهرها وباطنها، أوائلها وأواخرها، لنظرة واحدة فيراها مع العرش وما احتوى عليه، كالجزء الذي لا يقبل القسمة ولا الحركة، ثم يغيب عنها في الموجد لها مع بقائها على عظمها وكثرتها، ولا يمكن الوصول إلى حقيقة المشاهدة، قبل هذا لما فيه من تقوية جأش الروح للورود على عظيم أمر المشاهدة، ولذلك ينظر حديث (الإسراء).

---

[1] الجمع: شهود الحق بلا خَلْق، وهو يقابل في الاصطلاح الصوفي (الفرق) الذي هو رؤية الخلق بلا حق. ينظر: المصدر نفسه، ص: 24.
ونقل القشيري في رسالته طائفة من أقوال المتصوفة في موضوع (الجمع والفرق)، منها قول أبي علي الدقاق: الفرق ما نُسِب إليك والجمع ما سلب عنك، ومعناه أن ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من ابداء معان واسداء لطف وإحسان فهو جمع. ينظر: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيري (مصدر سابق)، ص: 35.
الاتصال: نقيض الانقطاع، وهو اتصال الشهود بالخلاص بالخلاص من الاعتدال رسما والغنى عن الاستدلال علما، والترقي عن شتات الصفات جمعا. وصورته في البدايات: الحضور مع الله بسلامة الفطرة، والاعتصام بالله بتصحيح القصد. ودرجته في النهايات: الاستغراق في الأحدية بانتفاء الرسم في الأزلية. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 208، 209.

[2] في (ب) و(ج): من أقام به.

[3] شغب: الشين والغين والباء أصل صحيح يدل على تهييج الشر، لا يكون في خير، قال الخليل: الشَّغْب: تهييج الشرّ. ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (ج1) –مرجع سابق– ص: 617.

[4] في (ب) و(ج): جَمْع.

[5] في (ب) و(ج): أحدية الجمع.

[6] المشاهدة: شهود الذات بارتفاع الحجاب مطلقا. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص:202.

- ثانيها: الاتصاف بصفة الاستتار بسر التوحيد لقوله υ: «سبق المفردون»[1]، الحديث.
- ثالثها: حفظ الرسوم الشرعية.
- رابعها: رفع أوصاف العادة ونحوها من جميع ما يقدح في المواصلات، وليس لصاحب هذا المنزل في هذا المحو تسبّب ولا إرادة بخلاف ما يكون من المحو في غيره من المنازل، لأن المشاهد مسلوب عن نفسه بربه [يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ [وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ]][الرعد/39]، ولذلك يسمون هذا النوع من المحو (محقا) لبلوغه الغاية في المحو المحمود، وهو التمكن من الجمع وخروج بالكلية عن أودية التفرقة لعدوله عن الشواهد وخروجه عن العوائد.

وقد أشار الناظم إلى منازلته لهذه المقامات وتحليه بأنواع المشاهدات في جملة قصائده، فمن تأملها وجدها.

قوله: " ياكيَّتْ من لامْعَه سَلْبي"(البيت)، هذا منه تشويق لمن لم يذق لذة ثمرة[2]هذا المقام الطيب، (وتحريض على السعي إليه، والجد في طلبه لعل الله يفتح باب رحمة لا ممسك لها، فإن من جدّ وجد، ومن طلب شيئا ناله)[3]، وقد أومأ الناظم إلى هذا المقام الذي أتحفه الله به، بقوله:

عْقِيـــبْ[4] حَيْرَتَـــهْ انْتَ ومَنْ ذُو غَيْرَكْ
حَتَّى يجبـــك عَـــنِّي مَنَّـك اليـكْ سُؤْلَكْ
مَنَّـكْ الجَوابْ يَثْـنِي الفَعْلْ كُلُّـه فَعْـلَكْ
والقَـوْلْ لَسَّـه مَنـِّي انْتَ لاَنْتَ تَـــدْرِي
انْتَ فانْــتَ انْــتَ إنْ في صَمْيمْ صَدْرِي
سِوَاكْ قُل لِي أنْتَ

قال في «الحكم»: شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة تشهدك عدمك[لوجوده][5]، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك. فمن مقتضى الأحدية محو الأكوان وبطلانها، إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان في ذلك تعدد وإثنينية"، قال ابن عباد: "لأن الأحدية أبلغ من الواحد، وأنشدوا:

فَلَم يبْقَ إلاَّ الحَقّ لم يبقَ كائنٌ فَمَـا ثَمَّ مَوْصُـولٌ ومَـا ثمَّ بَــائِنُ
بِذَا جَاءَ بُرهَانُ العِيَان فَمَـا أَرَى لِعَيْـنِي إلاَّ عَينَـــه إذ أُعَـايَـــن

ونظير كلامه هنا قوله في قصيدته الأخرى:

جُـدّ الطَّلَــب وقُـــــل الله عَـلَّ يْكُـونُ لَــكْ في العَـــوْنْ
اذَا شَـــاهَـدْتَــه تَعْيَــــانْ احْذَرْ تَـرَاه بأَنْـتَ تَضْحُـو شَيْئَـانْ
مُـتْ يـا حْلِيفْ ذِي الأَحْـزَان وآيَسْ عْلَى حْيَاتَك في ذِي المِوْتَانْ

[1] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج4 ص: 2062.
[2] في (ب) و(ج): لذّة.
[3] مابين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): إثْر.
[5] إضافة في المصدر، ينظر: ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح: ابن عباد النفزي الرندي، اعداد: محمد عبد المقصود هيكل –مصدر سابق– ص: 52.

لأن قوله هنا يسلب جميع الغير، فالمسلوب الأول من الغَيْرِ نفسه (لأنها أظلم حجاب على السالك)[1]، وكل ما سوى الحق حجاب عنه، ثم [اعتذر عن حاله ومقامه لمن يدرك معنى غرامه][2] قال τ:

لَسْتُ مُعَطِّلْ مُلْحِد جَاحَدْ	ولاَ صَاحَبْ زِيْغ الاعْتِـدالْ
وَلَا فِيَّ ضَـرْب مِن وَاحَـدْ	نَيْفْ وسَبْعِيـنْ مِن رِجَـالْ
كُلّ رَجُل لُو مَذْهَبْ فَاسَدْ	يْقَدَّمْ طَائِفة قُدُوم اضْلَالْ
سِوَى بَحْر الذَّات لُو مُسْبِي	كَان في مَـاه نَعْتْ إِبْـرَا
إِبْرَا مَلْحْ سْرِيعَـةْ الـذَّوْبْ	مَنْ أنَا يَا عَاقَـل؟ مُتْ تَـرَا

يقول τ: لست معطلا للذات عن صفاتها وأسمائها، كما يقوله: ولا ملحدا، أي مائل عن الحق بزيادة أو نقصان، قال القشيري: "الإلحاد: الزيغ والذهاب والميل عن الطريق القويم، ومنه اللّحد في القبر، وقد قال تعالى: [وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ[سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]] [الأعراف/180]، والإلحاد فيها على وجهين: بالزيادة على ما أذن فيه ويسمى تشبيه، أو بالنقصان عما أمر به ويسمى تعطيل، وطريق الحق بين طريقين".

قوله: "جاحد"، أي ولا جاحد ما وجب لكمالها، قوله: "ولا صاحب زيغ ولاعتدال"، أقولبرأي الخارج عن جماعة أهل السنة واعتمدوا على عقلي القاصر الناقص، كالفلاسفة والمعتزلة وأشباههم حتى أوتوا من عقولهم، ولم يستنيروا بأنوار الكتاب والسنة، فصارت نعمة العقل عليهم نقمة من كونهم لم يتبعوا أقوال السلف الصالح، ولم يلجؤوا إلى الله بصدق واضطرار في قولهم: [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ][الفاتحة/5،6] فضلّوا وأضلّوا، وغضب عليهم، فصاروا يقولون يوم القيامة يا ليتنا كنا مجانينا أو صبيانا لا عقل لنا، وصار أهل السنة يشكرون الله الذي سلّم عقولهم من الزيغ والضلال، الذي أردى هؤلاء المعتمدين على عقولهم "مصائب قوم عند قوم فوائد"، فلولا أهل النار لم يعرف أهل الجنة قدر نعيمها عافانا الله وإياكم من بلائه، وأوزعنا شكر نعمائه، وقد هلكت أمم بالعقل قبل آدم تجرد العقل يجرد وصاحبه من الإيمان، ويَعْقِله عن درجات الإيمان.

[في افتراق هذه الأمّة على ثلاثة وسبعين فرقة:]

قوله: "ولا في ضرب من واحد نيف وسبعين من رجال"، أشار بهذا لقولهρ:« افترقت بنوا اسرائيل على اثنين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي»[3]، قال فيه صاحب «الشعب»: "ويجمعهم أربعة أصناف: أولهم الخوارج ورأسهم الأعرابي الذي قال لرسول الله ρ:« أعدل، فقال: يخرج من ضئضئي هذا قوم»[4]، وذكر الحديث، والحرورية منهم ويبلغون إلى ثمانية عشر فرقة، الصنف الثاني: المعتزلة قال فيه رسول الله ρ«القدرية مجوس هذه الأمة»[5]، ويبلغون إلى ثمانية عشر أيضا، الصنف الثالث: المرجئة،

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] إضافة في (ب) و(ج).

[3] الحديث أورده: – القرطبي، تفسير القرطبي، ج2، ص: 9./– الدارمي، سنن الدارمي، ج2، ص: 314./– الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 218.

[4] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج2 ص: 742.

[5] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 159.

فقال فيهم رسول اللهρ: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب، القدرية والمرجئة»[1]، وهم أيضا ينقسمون إلى ثمانية عشر، الصنف الرابع: الروافض وينتهون إلى ثمان عشر، كلهم استوجبوا النار.[2]

وقال الشيخ الزناتي: "وإنما هم ستة أصناف وسنذكرهم، فكأنه τ يقول: "ليس في ضرب من ضروب آحاد الفرق أهل النار المحصور عددهم في نيف وسبعين رجلا، كل رجل له مذهب فاسد ذهب إليه، واتَّبَعته طائفة من الفرق المتقدمة الضالة، لأن تقدمها تقدم ضلال، بل أن رجل واحد من آحاد فرقة أهل السنة الواحدة الموحدة الناجية التابعة لنبيها في قوله: «إلَّا ما أنا عليه وأصحابي»[3]صلى الله عليه وآله وأصحابه.

(قال الإمام الصباغ: "فإن قال المعترض على الفقراء، وكيف تصنع بالحديث الذي أخرجه ابن سبع عن رسول اللهρ، أنه قال: «افترقت أمة موسى υ على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى υ على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة في الجنة، وستعلوا أمتي على الفريقين بملة واحدة إثنان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، قالوا من هم يا رسول الله؟، قال: "الجماعة"»[4] وفي حديث عمر، قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[5]، وفي لفظ: «كلها في النار إلا السواد الأعظم»[6]، قلت: الجواب عنه ما ذكره الزناتي صاحب «الحلل» في تعيين هذه الفرق، من أمة محمد ρ، ونصه: "وأصول هذه الفرق ستة: الزنادقة والرافضية والقدرية والحرورية والجهمية والمرجئة، فالزنادقة خمس فرق والرافضة خمس عشرة، والقدرية سبع، والحرورية خمسة وعشرون، والجهمية ثمان فرق،والمرجئة اثنا عشر فرقة، فذلك اثنان وسبعون فرقة، أما الزنادقة فأصلهم أن الدنيا خلقت لآدم ينتفع بما عمها ويتصرف فيها كيف شاء، فلما مات جعلها الله ميراثا لولده من بعد بالسوية، فليس لواحد منهم فضلا على غيره، فلا يسأل على شيء إذا أخذه من غيره، فافترقت آراؤهم الفاسدة في هذا المعنى على خمسة أوجه، وأما الرافضية فأصلهم الغلو في على بن أبي طالب، وذم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وسموهما الحية والطاغوت حين قبلا الإمارة وانتزعاها من علي، فبعضهم يقول: غلط الوحي في محمد، وإنما كان لعلي وبعضهم يقول: كان علي يعلم الغيب، وبعضهم يقول: لا يمت وسيعود ويتملّك، وبعضهم يقول: كان شريكا لمحمد فظلمه محمد فاستبد بالأمر دونه، فافترقت آراؤهم الفاسدة في هذا المعنى على سبعة أوجه.

وأما القدرية المعتزلة سقط من المنتسخ منه وأصلهم أن العبد يخلق أفعاله، وأن الكفر والمعاصي لا بمشيئة الله ولا بتقديره، وقد نفوا الصفات مخافة تعدد القدماء، فانظر معاطب التنزيهات الوهمية إلى أين تصير، وقد قال الله تعالى: [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ][الصافات/96]، [اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ][الرعد/16]، [وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِرًا][الكهف/45]، وقال υ: «اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية»[7]، وقام علي τ يوما خطيبا فقال له رجل ممن

[1] الحديث أخرجه:- الترمذي، سنن الترمذي، 4، ص:454./- علي بن سلطان محمد الهروي القاري، ج1، ص: 107./- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص:206.

[2] حول هذه الفرق، ينظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنِّحل، تصحيح وتعلق :أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992، ص: 38 – 137.

[3] الحديث تقدم في الصفحة السابقة.

[4] الحديث أورده علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص: 258 .

[5] الحديث تقدم في الصفحة السابقة.

[6] لم نعثر عليه.

[7] الحديث أخرجه: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص: 202./ - الطبراني، المعجم الكبير، ج11، ص: 262.

كان شهد معه الجمل[1]: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن القدر؟ فقال، له: بحر عميق ولا تلجه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر، قال: سر الله فلا تتكلفه قال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر، قال: أما إذا أبيت، فالأمر بين أمرين لا ضير ولا تفويض، فقال: يا أمير المؤمنين، إن فلانا يقول بالاستطاعة، وهو حاضرك فقال عَلَيَّ به، فأقاموه، فلما رآه سلّ سيفه عن قدر أصابع، فقال: الاستطاعة تملكها يا أمير المؤمنين؟ قال: قل أملكها بالله الذي إن شاء الله ملّكنيها".

وقال ρ: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد»[2]، وقال: «من لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فأنا بريء منه»[3]. وقال: «كل امرئ مهيأ لما خلق له»[4]، وقال: «من خلقه الله لواحدة من المنزلتين وُفّق لعملها»[5]، وقال: « إذا أراد الله أن يزيغ عمى عليه الحيل»[6]، قال القشاشي بعد نقله ما ذكر: "أما الحديث الشريف: «أن الحيل من القدر، وأن القدر يدافع بالقدر، ومنه الحيلة والدعاء والعمل الصالح وصلة الرحم والصدقة الرافعة للبلاء»[7]، وغيرها، ثم قال الزناتي: "وسميت طائفة منهم بالمعتزلة لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري، وزعموا أنه غير مصيب فيما يقول وكان على طريق أهل السنة والجماعة[8].

وأما الحرورية، فأصلهم نفي الحكم على العباد والمنفرد بالحكم هو الله تعالى، ثم رسول الله ولا حكم لأحد بعده على أحد، ولا يقيم الحدود في خمر وغيره ويكتفي في النكاح بشهادة الكرام الكاتبين ولا حاجة فيه بالآدميين، وإذا صح النكاح فلا ينحل بالطلاق، فافترقت آراؤهم في هذا المعنى على خمسة وعشرين وجها، وسميت طائفة منهم بالخوارج لأنهم خرجوا عن مولانا علي τ، وقد كان وصفهم رسول الله بصفته، فصدقت فيهم.

وأما الجهمية فأصلهم في الله تعالى، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا: إنه ليس بشيء ولا تقع عليه صفة شيء ولا معرفة شيء، وكل صفة وصف بها نفسه من شديد وعليم وقدير وغير ذلك مجازا لا حقيقة، إنما هو تهويل وتطميع للخلق [كذا][9] ذلك يكون، وإن من دخل النار لا يخرج منها أبدا، فافترقت آراؤهم في هذا المعنى على ثمانية أوجه.

وأما المرجئة فأصلهم أن الإخلاص بالشهادتين لا تضر معه الذنوب وإن عظمت، فكما لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر عندهم، فكذلك لا تضر المعاصي مع الإيمان، وأن الإخلاص بالقلب يغني عن النطق باللسان

---

[1] معركة الجمل و معركة صفين بين الإمام علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه، عرفت هذه الأحداث في االتاريخ الإسلامي بـ الفتنة الكبرى.

[2] الحديث أخرجه: - أبي شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج1، ص: 114./ - عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج، ص: 187.3

[3] الحديث أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص: 206.

[4] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 502.

[5] الحديث أخرجه:- ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج14، ص: 61./- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج4، ص: 438./- الطبراني، المعجم الكبير، ج18، ص:223.

[6] الحديث أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، ج4، ص: 180./ - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص: 267.

[7] لم نعثر عليه.

[8] يسمون أصحاب العدل والإحسان، ويلقبون بالقدرية، والمعتزلة هم أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن أو كافر، وقال بالمنزلة بين المنزلتين، طرده الحسن البصري، فاعتزله، وتبعه جماعة سمّوا بالمعتزلة. ينظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992، ص: 38.

[9] طمس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

والعمل بالجوارح، فافترقت آراؤهم الفاسدة في هذا المعنى على اثني عشر وجها، وهذه الجملة قد فَصَّلَتها أئمة السُنّة حذرا من الوقوع في فرع من فروعها.)[1]

والنيف ما زاد على عقود العدد من الواحد إلى التسعة، والبضع ما بين الثلاثة إلى التسعة على المشهور، ورد في الحديث: «أن الله لا ينزع هذا العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال بعد أن يؤتيهم إياه وإنما يقبضه بموت العلماء، فإذا لم يبقى على وجه الأرض عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[2]، فنعودوا بربنا العلي من العالم الغوي والجاهل القوي، فإن قال قائل، من لنا بأن الهوى معنا وكل من الطوائف يقول نحن المهتدون، بل لهم في كفرنا قولان، كما لنا نحن في كفرهم قولان، فهذان خصمان، فالجواب: أنه ما هلك من هالك إلا في طلب الحق، ولكن الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، فلا تكاد تجد سنيا محققا يعارضه معتزلي، إلا انقطعت معارضته ودحضت حجته، وانفضحت سريرته، لأن الصدق كما قال ذو النون: "سيف الله ما وُضع على شيء إلا قطعه"، وظهور الكرامات على أيدي أهل الاستقامات وإجابة الدعوات كما صح عن الثقات: شاهدان عدلان لهذه الطائفة الناجية لأنها تصديقا لهم وتبشيرا، فالكرامة للولي كالمعجزة للنبي، إلا أن المعجزة تقترب بالتحدي، أي يقول صاحبها آية صدق أن يخرق الله العادة الفلانية[3] ، ويجب إظهارها والإيمان بها، بخلاف الكرامة فإنها خارقة للعادة أيضا ولا تعارض ببطل، إلا أنها لا يهتدى بها، ولا تظهر إلا لضرورة، ومن لم يؤمن بها لا يكفر، قال في المواهب: "خوارق العادات ليست هي بمقصوده بالذات، وإنما هي علامة على صحة العبادات".

شاهدان أيضا بالمكاشفات على الأخيار بالمغيبات وتفرس الفراسات من أوضح العلامات، قال تعالى: [عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ [فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا]][الجن/26،27]، وقال ρ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»[4]، قال υ: «الأشعريون في الناس كصرة فيها مسك»[5]، فشبه اعتقادهم الباطني وفوحان طيبة بالمسك المصرُور يظهر ريحه، وإن لم ير، فكذلك اعتقاد أهل السنة، وأما أهل الزيغ المعتزلين عن قانون الصواب، فلم تظهر على أيديهم كرامة تؤذن بالكرامة، وإن ظهر عليه خارق في الظاهر، فإمّا سحر أو شعوذة أو إهانة أو كهانة أو استدراج، فإن عارضته بالكتاب والسنة أو بالذكاء والفطنة بطل واضمحل، قالتعالى: [فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ[كذلك يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ]][الرعد/17].

وأيضا مذهب أهل السنة المحققين شاع والحمد لله، وظهر على كل المذاهب الفاسدة بكثرة أتباعه في كل ناحية وحين، وأيده الله بالأئمة الهادين المهتدين إلى يوم الدين، ومع هذا فالعاقبة للمتقين، وشيوخ أهل السنة والحمد

---

[1] الكلام من (قال الامام الصباغ – إلى– فرع من فروعها) ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2058./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 50./ وأورده أيضا: ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، ص: 114.

[3] في (ب) و(ج): أن يفعل الله كذا وكذا.

[4] الحديث أخرجه: الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 298./ – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، ص: 268./ – الطبراني، المعجم الأوسط، ج3، ص:312.

[5] الحديث أورده عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج3، ص: 180.

لله نوّرهم الله ونوّر بهم، ويسّرهم لليسرى، وشرح صدروهم للذكر، وظهرت الهداية على أيديهم، فهم علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، فخيار الخلق هداتهم، وسواهم من همج الهمج، وأيضا أدل دليل على أنهم تمسكوا بما كان عليه وأصحابه كثرة روايتهم للنبي ρ وأصحابه، وأخذهم عنه في اليقظة والنوم، وما ذاك إلى ربط حبل سننهم بمعاقد سنته، ووصل رابطة محبتهم بلطائف محبته، ولو خالفوه في شيء من طريقته لانفصل الوصل وانفصم الحبل بشاهد قوله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1]، فكيف بهذا ومرائيهم تتوارد واستفادتهم منه تتزايد إلى هلم جرّا، الحمد لله على ذلك.

قوله: "كل رجل "البيت"، قال تعالى في أمثال هؤلاء المتقدمين: [وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَومَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ويَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ][القصص/40،41]، وقال ρ: «أيما داع يدعوا إلى ضلالة فاتّبع، فإن عليه مثل أوزار من اتّبعه ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[2]، وإمام الجميع في ذلك رأس الغاوين الطريد اللعين، لأن الله مبيّن أمره في كتابه المبين بقوله: [رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ][الحجر/39]، قال سيدي أحمد زروق: "ما كان معقولا فبرهانه في نفسه، فلذلك لا يحتاج لمعرفة قائلة إلا من حيث أن ذلك كمال فيه، والمنقول موكول لأمانة ناقله، فيلزم البحث والتعريف لوجهه، وما تركب منها احتيط له بالتعرّف والتعريف، وقد قال ابن سيرين: " إن هذا الحديث دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم"، وهذا التفصيل في حق المشرف على العلم الذي قد استشعر مقاصده، فأما العاميُّ ومن كان في الطلب فلا بدّ له من معرفة الوجه الذي تأخذ [منه][3]معقوله كمنقوله، ليكون على اقتداء لا على تقليد، والله بحاله أعلم.

قاعدة: "التقليد: أخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل، ولأوجه في المقول، فهو مذموم مطلقا لاستهزاء صاحبه بدينه. والاقتداء: الاستناد في أخذ القول لديانة صاحبه وعلمه، وهذه رتبة أصحاب المذاهب مع أئمتها، فا طلاق التقليد عليها مجازا. والتبصر: أخذ القول بدليله الخاص به من غير استبداد بالنظر، ولا إهمال للقول،وهي رتبة مشايخ المذاهب وأجاويد طلبة العلم. والاجتهاد: اقتراح الأحكام من أدلتها دون مبالات بقائل. ثم إن لم يعتبر أصل متقدم فمطلق، وإلا فمقيد. والمذهب: ما قوي في النفس، حتى اعتمده صاحبه.

قاعدة: "تشعّب الأصل قاض بالشعب[4] في الفرع، فلزم ضبط النفس[5] بأصل يرجع إليه فقها وأصولا وتصوفا، فلايصح قول من قال: "الصوفي لا مذهب له"، إلا من جهة اختياره في المذهب الواحد، أحسنه دليلا أو قصدا أواحتياطا، أو غير ذلك مما يوصله لحاله، وإلاّ فقد كان الجنيد ثوريا[6]، والشبلي مالكيا، والجريري حنفيا، والمحاسبي شافعيا وهم أئمة الطريق وعمدتها".

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص: 1020./ – البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 1949.

[2] الحديث أورده: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص: 331./ – النسائي، سنن النساء المجتبى، ج5، ص: 76.

[3] إضافة في المصدر، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، ص:56.

[4] في المصدر: بالتشعبِ، : 64.

[5] في المصدر: الفرع، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[6] أي على مذهب سفيان الثوري.

قاعدة: "فتح كل واحد ونوره على حسب فتح متبوعه ونوره، فمن أخذ علم حاله عن أقوال العلماء مجردة كان فتحه ونوره منهم، فإن أخذ عن نصوص الكتاب[السُّنة][1] ففتحه ونوره تام، وإن تأهلّ لأخذها منهما، ولكن فاته نور الاقتداء وفتحه، ولذلك تحفظ الأئمة عليه، حتى قال ابن المديني رحمه الله: "كان أبو مهدي يذهب لقول مالك، ومالك يذهب لقول سليمان بن يسار، وسليمان يسار يذهب لقول عمر بن الخطاب، فمذهب مالك إذا مذهب عمر بن الخطاب τ "، وقال الجنيد رحمه الله: "من لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه من المتأدبين،أفسد من اتَّبعه. قال الله تعالى: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ][يوسف/108]، [وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ[فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]][الأنعام/153].

قاعدة: "ما أنكره مذهب فلا يجوز الأخذ به من غيره، وإن أبيح أو ندب لمن كان عليه[2]،إلاّ من ضرورة تبيحه بنص من أئمة، وما لم ينكره المذهب يجوز الأخذ به من غيره سيما إن اقتضى احتياطا أو تحصيل عبادة على مذهب ذلك الغير، كاتقاء القمرين في الأحداث[3]، ومسح الرقبة في الوضوء، وإطالة الغرّة[4]، وترك مسح الأعضاء بالمنديل، وكصلاة التسبيح، والحاجة، والتوبة ونحوها، وكاتقاء صوم النصف الآخر من شعبان من لم يصم أوله، واعتكاف جزء من النهار إذ غايته نفي كونه اعتكافا وإلاّ فهو عبادة، وكذا إحداث نية نفل بعد الفجر، إذ غايته أنه لا يُعَدُّ صوما عند المالكية، وقد عدّه الشافعية صوما، قال[5] بعض الصوفية: وعلى ذلك ينبغي أن يكون مذهب المتجرد، فإنه ضيف الله لئلا يضيع جوعه ".من «القواعد الزروقية».

قلت: ومن هذا ينبغي للمالكي أن يبيت على الصيام وينويه كل ليلة من رمضان وغيره، ولا يكتفي بنيّة واحدة في أول ما يجب تتابعه لأنها عبادات متفرقة يتخلله فطر كل ليلة، كصلوات اليوم والليلة، فلا بد من تجديد نية وإخلاص في كل عبادة مستقلة منفردة، وهكذا نص كل ما ذكرنا أبو محمد في انتقاده على المذاهب، والله الموفق.

[في وصف منازل الناظم موسى اللالتي ومنازلاته في مقام الحب:]

قوله: "سوى بحر الذات لُو مْسَبّي (البيتين)، هكذا رويناه عن الناظم بضمير الغائب، في (لُو) يحتمل أن يعود على موسى المتقدم ذكره، ويكون فيه التفات من الحضور إلى الغيبة وما بعده من قوله: "كأني" الخ، التفات من[6] الحضرة الملتفت عنها، فيكون (في كلامه)[7] التفات بعد التفات، ويدل في خطابه أنه في مقام التلوين[8]، ويكون على هذا (مسب) اسم فاعل من سباه والظاهر، ويحتمل أن يعود الضمير من قوله تعالى: البحر الذاتي المذكور قبله فيكون

---

[1] إضافة في المصدر، ينظر: المصدر نفسه، ص: 66.

[2] أي: لمن كان على المذهب الآخر.

[3] أي: عدم استقبال الشمس والقمر أو استدبارهما أثناء قضاء الحاجة.

[4] إطالة الغرّة: غسل ما زاد على الفرض في الوجه، والتحجيل: غسل مازاد على الفرض في اليدين والقدمين. ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[5] في المصدر: على، ويبدو غير ملائم للسياق.

[6] في (ب) و(ج): إلى.

[7] ساقط في (ب) و(ج).

[8] التلوين: هو الاحتجاب عن أحكام حال، أو مقام سنيّ بآثار حال أو مقام دني وعدمه على التعاقب، قال ابن عربي: التلوين تنقل العبد فب أحواله. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق: موفق فوزي الجبر، ص: 22.

مسبى اسم مفعول من سبيت والتقدير: سوى بحر الذات أنا له مُسَبى،(والمجرور على كل احتمال يتعلق باسم الفاعل أو اسم المفعول لأن فيهما رائحة الفعل، وحروفه ويتحملان الضمير، فهما مثل الفعل، كما قال صاحب المجراد:

وكل حروف الجر بالفعل علقت // أواسم كمثل الفعل حيث تنزلا، لكن على الأول فالمجرور في محل نصب، وعلى الثاني في محل رفع، والله أعلم.)[1]

ثم وصف حال سَبْيِه له يقول: "كأني في ماه" الخ، يقول ليس في شيء مما تقدم ذكره من الاعتقادات الفاسدة حتى يظن بي الظانون، لكن بحر الذات الزاخر الذي ليس له أول ولا آخر سبا عقلي وروحي، وسمى بجليل جلاله وجميل جماله (وكمال)[2] كماله حتى صرت في وسط لجة كإبرة من ملح سريع الذوبان، فما نسبة الفاني الذليل الفقير للباقي العزيز القدير، والعاجز الضعيف الحقير للقوي الغني الكبير إلا كنسبة ما ذكر فيما ذكر.

(كان الناظم يقول في مناجاته في مرضه: "سِيدِي ما فيَّ عَيْب إلا أني نْحَبَّك")[3] وسئل الصديق τ عن الحب، فقال: "هو السكر شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد، من عرف الله حق معرفته، وَلَهَ في عظمته وتحيَّر في قدرته، وشرب من كأس حبه، فغرق في بحر أنسه، وتلذذ بمناجاته، ثم أنشأ يقول:

ذِكْرُ المحبَّة يا مَولَايَ أسْكَرَنِي وهَلْ رأيـتَ مُحِبًّا غَيْـرَ سَكْـرَان

وهذا نحول قول الناظم فيما يأتي:"أحلم و سنَاه وارحَم" الخ، ووجدت بخطه بيتين لا أدري أهو قالهما أم نقلهما، وهما:

سَلُوا هَل لِلَيلَى مِثْلُنَا في زمَانِنـا مُحِبٌّ لهَا صِرْفًا بغَيرِ حُظُـوظِ

ولا سِيَمَا في حِين حَيْن انجِذَابِنَا نَذُوبُ في بَحْرِ ذَاتِهَا بِغُظُـوظِ

ولقد كان τ هذا حاله، حتى كان يقول في ابتهاله: "اللهم اجعل حظي منك ترك الحظ منك"، وحين حضرته الوفاة لقَّنَه بعض الطلبة من تلامذته الحاضرين كلمة الإخلاص فعَكَّى عليهم وأنشدهم بلسان حاله:

مُذَكِّـرِي ذِكْـرَ الحَبِيـبِ لَسْـتُ كَمَـا أنتَ تَغِيـبُ

ارْجَـع تَكرّ مِن رَقِيـبِ بِـهِ أذن وَقْـــتِي يَطِيــبُ

(لأنه ما أفناه إلا حب مولاه، ولذلك قيل: "الحب أفناني وكنت حي مذ نظرت عيني جهرا"، إلى أخ القصيدة الششترية[4]، وقال الآخر: إذا لعب الرجال بكل شيء// رأيت الحب يلعب بالرجال. وعاده بعض الفقهاء في مرضه، فقالوا: أين ندفنوك؟ فقال: في الجير الرماح ، ومن توصي على أولادك؟ ومن يصلّي عليك؟ فأكثروا عليه حتى قال: والله لا صلّى علي رجل منكم، فلم يحضر لجنازته أحد منهم بقدر الله. وهكذا ذكر الشطيبي عن بعض الشيوخ

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] ساقط في (ب) و(ج).

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] يقصد الششترية، نسبة إلى المتصوف والشاعر أبي الحسن الششتري(610هـ/668هـ)، كان من الأمراء و أبناء الأمراء، فصار من الفقراء وأبناء الفقراء، لقب بالششتري نسبة إلى مسقط رأسه قرية" ششتر" بالأندلس. ينظر ترجمته: -يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، (مرجع سابق) ص: 65 – 72.

-مجدي كامل، أحلى القصائد الصوفية، (مرجع سابق)، ص:65 – 68.

أنه حضرته الوفاة، فلقنه تلامذته، فأعرض عنهم وتغيروا حين لم يجبهم، فلا زالوا معه حتى قال لهم: كيف تذكروني من قتلني حبّه، منذ ثلاثين سنة وأنا أعالج محبته ففرحوا لموته عليها.)[1]

قوله: "مَنْ أنَا يا عَاقَل مُتَرَا"، (هكذا رويناه عن الناظم بتاء واحدة ليحتمل أن يكون نعتا لعاقل، وحذف الفاء من مترف ترخيما للوزن والقافية، ويكون معناه: يا عاقل رئيسي في العلوم والفهوم، إنما رئيسي وإمامي الأسنى ابن الذبيح، ويجوز أن يكتب بتائين، الأولى مدغمة في الثانية المشددة، ويسكّن لام عاقل ليستقيم الوزن، فيكون فعل أمر أي يا عاقل مُتْ مثل أهل الفنا تَرَى مثل ما رأوا من التوحيد الخالص، وهذا نحو قول القرنفل:

كَسَا الحُبُّ جِسْمِي ثَوْبَ الظَّنَى، -إلى أن قال-:

ومُتْ مِثلَ مَا مَـاتَ أَهلُ الهَـوَى وذابُـوا اشْتِيَاقًـــا فَنَالُـــوا المُــــنَى

وسيأتي إن شاء الله)[2]، فهذا مقام المحبوب وهو فوق المحب دون الحبيب، قال في "شرح الفارضية": وحاله حال الحوت في الماء إن خرج منه كاد يُتلف فهو مصطلم عن غيره وعن نفسه، بل لم يشاهد إلا البحر وأمواجه ولم يمتد بصره للساحل والبر كما امتد بصر الأقوياء من الأنبياء، فإنهم جامعون بين بحر الحقيقة وبر الشريعة، فهم واقفون في الساحل يستخرجون الدّر من البحر ومنافع العقاقير من البر، وهذا معنى قول سلطان العارفين أبي يزيد τ حيث قال: "خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله"[3]، ولا تظنن غير هذا والسلام.

فائدة: وجدت مفيدا أن أبا يزيد هذا اسمه طيفور بن عيسى بن حامد بن شروال[4]، من عرف اسمه لم تتعد عليه نار جهنم، فعليك يا أخي بمعرفة أولياء الله أحياءا وأمواتا، فإن معرفة الرجال كنز لا ينفذ، وقد كان الناظم رحمه الله تعالى إذا لاحظ هذا المقام ترد عليه أحوالا ويقول:" بحر الذات ممحي للأسماء والصفات" وهو شاخص مبهوت كأنه سَفْسُوس[5]، ومعنى هذا المحو أن ماء بحر الذات محى عن لوح قلوب أهل الفناء في التوحيد رؤية الأسماء والصفات فالمحو راجع لما يكتب في قلوبهم في هذا المقام لا غير، ولا يفهم غير هذا فإن الله لم يزل بأسمائه وصفاته القديمة، تعالى أن تفارق ذاته صفاته وتقدّس أن تُعرّى عنهما أسماؤه، ولما أن سبق في قول الناظم الأسماء والصفات ينكره، أشفق أن لا يفهم عليه أهل العقول الجامدة، وينكرون عليه، وينسبونه لأهل التعطيل والزيغ، فنفى ذلك الاعتقاد الفاسد بقوله:" لستُ معطِّلا" الخ، ثم بين وجه عُذره في اطلاقه اللفظ الموهم بقوله: "سوى بحر الذات" الخ،(ثم خرج عن عهدة جميع ذلك بقوله: "رئيسي الأسنى" الخ، لأنه الإمام في الأقوال والأفعال والأحوال، فَسَلِّم تَسْلم ولا تعترض فتندم)[6].

وقد أنبأ عن عظيم حاله في فصيح مقاله حيث يقول:

قَدْ غِبْتْ فِي حْبِيــــبِي حَتَّى اضْمَحَــلّ رَسْمِــي

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] شطحة من شطحات أبي يزيد، ينظر: أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق وتقديم: قاسم محمد عباس، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 2004، ص:49.

[4] أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان (وكان سروشان مجوسيا فأسلم)، هو من أهل بسطام بنيسابور، مات سنة 261هـ وقيل سنة234هـ . ينظر: عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، ص: 25.

[5] في (ب) و(ج): مجنون.

[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

وابْطَـأْت فِي مْغِيــــبِي الَنْ صِرْتْ ذَاَتا باسْمِـي
فِي حَالَـــة انْجِـــذَابِي بْـــلَغْـــتْ لَمْهَـمِّــــي
بْلَغْتْ اقْصَى وَطْـــرِي لَيْتْ انْجِـــذَابِي لَيْـــت
لَكَـــانْ فِيه عُمْـــرِي يَسْلَـــكْ مَعَـــه فَلْتَـــا
حَقَّقْت فِيــه سَلَّـــم يَـــا مُـــدَّعِي بْفِقْـــه
سَلَّمْ عَسَاك تَسْلَـــمْ لِمَـــا جْهَلْـــت عَنُّـــه
وإنْ فْهَمْـت فَاعْلَـــمْ مَـــاذا نَجْـــدُه مَنُّـــه
اعْـذَرْ بكُلْ عُــــذْر مَنْ ذَاقْ مَـا لَا ذُقْـت
يَعْظَم لَدَيْك أَجْـــرِي إذْ المُوسَى دَعَــــت

وهذا نحو قول القائل: وَلَو يَدْرِي عَاذِلِي لِصَبَابَــتِي صَبًّا مَعِي لكِنَّه مَاذَاقَهـا

واعلم أن (الرتب)[1] ثلاث: تخلِّي وتحلِّي وتَجَلِّي، ثم هذا الأخير إما يبلغ إليه بالسلوك أو بالجذب[2]، قال الشطيبي: "فطريقة أهل الجذب لا مجال للعقل فيها، وهي أعظم سلوك القلب، واتفق العلماء أن لا سبيل إلى القرب إلى الله إلا بإقامة الشرائع على الظواهر، وجرى الحقائق على البواطن لقوله تعالى: [إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤْمِنِينَ][التوبة/111]من« المباحث».

ثم انظر رحمك الله إلى مقام هذا الولي وكيف أخفاه الله على أهل مصره، بل على أهل عصره، لكن هذه سنة الله في كثير من أولياءه ولن تجد لسنة الله تبديلا، وتأمل في طلاوة عبارته وحلاوة إشارته، يظهر لك ما انطوى عليه سره، وما امتلأ به وعاؤه وفكره، فكل إناء بالذي فيه يرشح.

إشارة: (تواردت أربع كلمات من الأربعة كتب على المعنى المذكور)[3] في التوراة: "كل امرئ يشبهه فعله" وفي "الإنجيل": "فعل المرء دليل على أصله" وفي الزبور: "كل إناء يرشح بما فيه" وفي "الفرقان": [كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ][الإسراء/84]، ومع هذا فقد طعن فيه بمنصبه بعض من طهر الله بصيرته من متفقه عصرنا ونسبوه إلى أمور لا تليق بمثله[4]، فقيل في مثلهم:

وكَمْ عَائِبٍ لَيْلَى ولم يَرَ وجْهَهَا فَقَال لَهُ الحِرْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَـــاتَ

[في وجوب احترام آل بيت الرسولp:]

وقد درأ في نحر من تعرّض له من أهل البغي والعناد من حشوية تلمسان وجبل العباد بخطبة يقول فيها: "ولكن وعناية الرب المعين ما دمتُ مُهَوَّلا يكونون مُهَوَّلِين، وإن تحوَّلتُ يوما يكونُوا مُحَوَّلين، لتحوّل حالي على وجه

[1] في (ب) و(ج): المقامات
[2] السلوك: هنا بمعنى المجاهدات والرياضات.
الجذب أو المجذوب: من اصطنعه الحق تعالى لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب.
ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية (مصدر سابق)، ص: 88.
[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): بمنصبه.

البلاد إلى أن قال: بربي عليكم فما عُذركُم، إذ هو نادى لأجمعكم، أما تستحيوا عاشقي بينكم مريد مراد عليكم عذاذ، إذ الخير فينا عليكم حرام، لما حل بي من فضول الكلام، نعم إن جدِّي مظل الغمام، لوجهه عيدو قريح الكباد،بميم وسين دعا ربه، يديم على قلبه حبه، ويثبت في الموت إيمانه، إذا هو مات على ذا المعاد، الله فقط وما سواه كفر وسخط. فنعود برب الفلق من شر ما خلق، ونتحصن برب الناس من أشرار الناس، فو الله لا عذر مقبول لمن انتقص العاشقين، وخصوصا إذا كانوا من آل الرسول.

قال الشيخ سيد أحمد زروق (قاعدة): "أحكام الصفات الربانية لا تتبدل وآثارها لا تنتقل"، فمن ثم قال الحاتمي τ: "يعتقد في أهل البيت[1] أن الله تجاوز عن جميع سيئاتهم لا بعمل عملوه ولا بصالح قدّموه، بل بسابق عناية من الله لهم إذا قال الله تعالى: [إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا][الأحزاب/33] فعلق الحكم بالإرادة التي لا تتبدل أحكامها، فلا يحل لمسلم أن ينتقص ولا أن يشينا من شهد الله بتطهيره، وذهاب الرجس عنه، والعقوق لا يخرج من النسب، ما لم يذهب أصل التسمية وهو الإيمان، وما تعين عليهم من الحقوق فأيدينا فيهم نائبة عن الشريعة، وما نحن في ذلك إلا كالعبد يؤدب ابن سيده بإذنه، فيقوم بأمر السيد ولا يهمل فضل الولد، وقد قال تعالى: [قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى][الشورى/23]، قال ابن عباس: "أي لا تؤذوا قرابتي"، وما نزل بنَا من قِبَلِهِم من الظلم ننزله منزلة القضاء الذي لا سبب له إذ قالυ: «فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها»[2].

وللجزء من الحرمة ما للكل، وقد قال تعالى: [وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا][الكهف/82] فأتى[3] بصلاح الأب، فما ظنك بنبوته. إذا كان هذا في أولاد الصالحين، فما ظنك بأولاد الأولياء؟!،وإذا كان هذا في أولاد الأولياء فما ظنك بأولاد الأنبياء!؟ و إذا كان هذا في أولاد الأنبياء، فما ظنك بأولاد المرسلين؟(أم ما ذا يكون في أولاد سيد المرسلين؟)[4]، بل قل لي بما يعبر عن أولاد سيد المرسلين؟.فبان أن لهم من الفضل ما لا يقدر قدره غير من خصهم[5] به فافهم.

ولما ذكرت أول هذه الجملة لشيخنا أبي عبد الله القوري رحمه الله، قال: "هذا في حقنا، وأما في حقهم، فليس الذنب في القربى كالذنب في البعدى، وتلى: [يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ][الأحزاب/30]، ويظهر[6]التغليظ بتعجيل النوائب المكفرة في هذه الدار كما ذكره ابن أبي جمرة في شأن أهل بدر عند كلامه على مسطح في حديث (الإفك) ومن هذا المعنى قولهρ: «يا عباس، عمَّ رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا،يا فاطمة،بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا، اشتروا أنفسكم من الله»[7]، قلت وهذا كنهي البارّ عن العقوق والبريء عن التّهم ليكون أثبت في الحجة على الغير، والله أعلم" من «القواعد».

[1] في معرفة هوية أهل البيت وفضائلهم، ينظر: عبد القادر منصور، خصائص أهل البيت، دار القلم، حلب، سورية، ط1، 2002، ص: 18 – 74.

[2] أخرجه النسائي في الكبرى، وأخرجه البخاري و مسلم بلفظ:" فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما آذاها"، ينظر:– مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1903./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1361.

[3] في المصدر: فأثنى، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] ساقط في المصدر، ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] في المصدر: خصّصهم ، ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[6] في المصدر: مظهر، ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[7] أخرجه البخاري ومسلم بنحوه، ينظر: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 192./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1012.

[الصوفي والفقيه:]

سئل الجنيد: "ما الفرق بين المريد والمراد؟[1] فقال:المريد تتولاه سياسة العلم، والمراد تتولاه رعاية الحق، لأن المريد الصادق غني عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء"[2] وقال أحمد بن محمد الطوسي أخو الغزالي: "الفقهاء أعداء أرباب المعاني" ويرحم الله الفضيل بن عياض حيث يقول: "تباعد من القراء فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك، وإن غضبوا شهروا عليك وقيل منهم" وقال أيضا: "إنما هما عالمان، عالم دنيا وعالم أخرى، فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاتّبعوا عالم الآخرة واحذروا عالم الدنيا، لا يصدكم بسكره ثم تلى: [إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ][التوبة/34]، فالأحبار العلماء، والرهبان والزهاد"، من كتاب «مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار».

وقال الغزالي: "أوحى الله إلى داوود: يا داوود لا تجعل بيني وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتي، أولائك قطاع الطريق على عبادي المريدين"، وقد قال سيدي محمد بن عبّاد لأصحابه: "أوصيكم بوصية لا يعقلها إلا من عقل وجرّب، ولا يهملها إلا من غفل فَحُجِب، وهي ألّا تأخذوا في هذا العلم مع متكبر ولا صاحب بدعة ولا مقلد. فأما الكِبْر:فطابع يمنع من فهم الآيات والعبر. والبدعة: توقع في البلايا الكُبَر. والتقليد: يمنع من بلوغ الوطر ونيل الظفر.[قال:][3] ولا تجعلوا لأحد من أهل الظاهر حجة على أهل الباطن"، قال سيدي أحمد زروق: بعد نقله لهذا، قلت: بل يحثوا على أن يجعلوا أهل الظاهر حجة لهم لا عليهم إذ كل باطن مجرد عن الظواهر باطل والحقيقة ما عضد بالشريعة فافهم" من «القواعد».

لهذا قال سيدي محمد بن عبّاد في بعض أجوبته: "فلذلك لا تكاد تجد أحدا له عناية بالعلوم الظاهرة، وتمرن فيها وممارسة لها حظي بشيءفي علوم القوم إلا من سلك به طريق الجذب، بل يعز فيهم الإيمان بطريقتهم حتى توهم كثير منهم المباينة بين الظاهر والباطن، ومخالفته الشريعة للحقيقة، وحملهم هذا التوهم على أن أنكروا على الصوفية أمورا خارجة عن أساليب علومهم ،فمن مهمات السالك أن يفرّ منهم فراره من الأسد، ولا يشتغل من علومهم إلا بما يخصه في نفسه في عبادته ومعاملاته، ويدع ما سوى ذلك".

وقد شدد الشيخ العالم العارف سيدي محمد بن يوسف السنوسي بالنكير على من تعرض لهذه الطائفة، وسوّى بين الصغير والكبير في جعالة سمّاها: «نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير»[4]، قال فيها: "وأما اعتراضكم على المنتسبين للفقر والطريق، فمن حُمقكم وقلة عقولكم، إذ لو عقلتم عن الله ما أمر به لاشتغلتم بالإنكار على أنفسكم وأهليكم، ومن لاذبكم، وبعد ذلك تنهون عن الفحشاء من الكبائر الظاهرة كشرب الخمر والزنى وهو عين السحت واللواط وعقوق الولدين وأكل أموال اليتامى ظلما، والكذب والخيانة وأكل الرّبى وما اتخذه

---

[1] في كتاب "الغنية": المريد طالب، والمراد مطلوب، عبادة المريد مجاهدة، وعبادة المراد موهبة، المريد موجود، والمراد فان،.. ينظر: عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، (ج2) وضع حواشيه: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص: 271

[2] في كتاب "الغنية": ..لأن المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر؟. ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] إضافة في المصدر، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف –المصدر السابق–، ص: 44.

[4] تسمّى أيضا "تبصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير"، وضمّنه ردًّا على آراء سيدي علي بن محمد الزرويلي، المسمّى أبي الحسن الصغير. ينظر: أبو العباس أحمد بابا التنبكتي، اللآلي السنوسية في الفضائل السنوسية، تحقيق: محمود براهم، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2011، ص: 11.

أصحابكم من الرشى، وهو عين السحت، إذ لو سلمت بواطنكم لرأيتم أن الخلق عيال الله،لاسيما أهل الانتساب إلى الله صدقوا أو كذبوا، تكفيهم النسبة، أولم تسمع قوله υ: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[1] بأي وجه استحلت أعراض المؤمنين الذاكرين يا أخرق، ألم تسمع قوله تعالى: [وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا][النازعات/2]، قال υ: «كلاب في جهنم تنزع اللحم عن العظم»[2]، وأي لحم يقوى على هذا يا مغرور، ألم تسمع قولهυ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3]، وما مثل العلم في صدوركم إلا كما قال رب العالمين في كتابه المبين:[كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا][الجمعة/5]، إيّاك والنكر على الفقراء، إن كانوا جهالا والحديث فهم موصوفون بالنفاق من حيث النكر، وإرادتك تقطع طريق الذكر، الذكر يشهد لهم بالإيمان والنكر يشهد لكم بالنفاق، قال υ: «أكثر منافقي أمتي قراؤها»[4]، إياك ولحوم هذه الطائفة لأنها مسمومة، وآكلها يخشى عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله، اللهم إليك مما قال أبو الحسن الصغير في أوراقه، قال الشيخ أبو مدين: "اعتقد ولا تنتقد، ولا تنظر لأحد"، وقال أبو عبد الله: "الاعتقاد ولاية والانتقاد جناية، فإن عرفت فاتبع وإن جهلت فسلم"، وقال أبو العباس المرسي: "مثل الولي مع الله كمثل أولاد اللبؤة مع أمهم أتراها تاركتهم لمن يريد أن يقتلهم"، قال الله تعالى: [وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ][المائدة/56]، اللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ونسألك العافية الدائم آمين".

وأبو الحسن هذا المتأخر شارح (الرسالة) المعاصر للسنوسي، فأعرفه، وقد قال سيدي محمد القاضي (الكبير)[5] في شيخه سيدي أحمد بن يوسف (الفقير)[6]:

يَا سِيــــــدِي يَا مُنَــــوَّرْ المـْجَالَـــسْ	يَا الفَـــانِ فَـــارَغْ عَنْ كُـلْ مَا سِـــــوَاه
كَفْرُونَا أَهْل لْسَانْ رْطَب وقَلْـبْ يَابَــسْ	لَوْ فْضَحْـت بسِـرَّكْ نَذْكــرَك[7] نْقُـولْ يـاهُ

وهكذا جرت عادة الله مع أوليائه في كل عصر أن يقيض لهم شياطين [من الإنس][8] يؤذونهم كما كان (ذلك)[9] للأنبياء قبلهم، قال تعالى: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المجْرِمِينَ][الفرقان/31] الغزالي. وكذا لكلوليّ،ولهذا قالυ: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»[10]، وأنواع البلايا والمحن لا تحصى ولا تنقطع في كل زمان، فإذا كان الأمر هكذا ووقع لك مثل ما وقع لغيرك فاصبر لحكم ربك، فإنك بعين الذي يراك وسلم لأمره، وارض بقضائه، وتنعم بمنِّ بلائه، إذ لا تجد لسنة الله تبديلا، وقل الحمد الله الذي عافاني مما ابتلاهم وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا:

---

[1] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1986.

[2] لم نعثر عليه في كتب السنن.

[3] الحديث أخرجه: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج4 (م سابق) ص: 466./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4 (م سابق) ص: 558.

[4] الحديث أخرجه: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، (م سابق) ص: 229./ – أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج7، (م سابق) ص: 79./ – أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج2،(م سابق) ص: 175.

[5] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[6] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[7] في (ب) و(ج): نَذْكُر، والنص الشعري ورد بترتيب مختلف:

يَا سِيــــــدِي يَا مُنَــــوَّرْ المـْجَالَـــسْ	كَفْرُونَا أَهْل لْسَانْ رْطَب وقَلْـبْ يَابَــسْ
يَا الفَـــانِ فَـــارَغْ عَنْ كُـلْ مَا سِـــــوَاه	لَوْ فْضَحْـت بسِـرَّكْ نَذْكــرَك نْقُـولْ يـاهُ

[8] إضافة في (ب) و(ج).

[9] ساقط في (ب) و(ج).

[10] الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج7، ص: 160، 161.

وأَتْرُكُ مَا أَهْوَى لِمَا قَد هَوِيتُـهُ   وأَرْضَى بمَا تَرْضَى وإنْ سَخَطَت نَفْسِي

ويرحم ا لله أحمد زروق حيث قال في «قواعده»: "ما ظهرتحقيقة قط في الوجود إلا قوبلت بدعوى مثلها، وإدخال ما ليس منها عليها، ووجود تكذيبها. كل ذلك ليظهر فضل الامتنان[1] بها وتبين[2] حقيقتها بانتفاء معارضيها [فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ][الحج/52]، وللوارث نسبة من الموروث «وأشد الناس بلاء، الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل، إنما يبتلى الرجل على قدر دينيه»[3]، فمن ثم كان هذا الطريق مبتلى بتسليط الخلق أولا[4] وبإكرامهم وسطا، وبهما آخرًا. قيل: لئلا يفوتهم الشكر على المدح، ولا الصبر على الذم، فمن أراده فليوطن على الشدة [إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا][الحج/38][وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُه][الطلاق/3]".

[المؤلف يدافع بشعره عن حرمة شيخه موسى اللالتي:]

ورأيت أن نذكر هنا قصيدة كنت قلتها في الدرء عن حريم حرم الناظم وأشباهه، والردعلى من طعن[5] في مثله غيرة على أهل الحق، وهي:

حَمَدْتُ إلَهِي ثُمَّ صَلَّيتُ بَعْدَهُ   عَلَى المصْطَفَى شَمْسِ الضُّحَى في بُدُورِ
تَرَضَّيتُ عَن آلِ الحَبِيبِ وَصَحْبِهِ   وَأَنْصَارِهِ وتَابِعِ فِي بُرُورِ
وبَعْدُ فَقَولُ الحَقِّ يُصْغَى لنَيلِهِ   لَبِيبٌ مُوَفَّقٌ بِقَلْبٍ صَبُورِ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِمَّن دَعَا لِحَبِيبِهِ   خَلِيقَتَهُ لِيَعرِفُوا بِقُصُورِ
فَيَتَّبِعُوا حُسْنَ النِّظَامِ وَنَثْرِهِ   وَيَزْدَجِرُوا عَن بَاطِلٍ وَغُرُورِ
وَلَا خَيْرَ فِي العَيْشِ الدَّنِيءِ سِوَى لِعَا   لِمٍ نَاطِقٍ أَوْ مَنْ يَعِي بِحُضُورِ
فَلَا تَصْحَبْ إلَّا ذَيْنِ واهْرُب من السِّوَى   فَصُحْبَتُهُ جَلْبٌ لِكُلِّ شُرُورِ
وَثُلْثَاهُ شَرٌّ جَانِبٌ اسمَا بِشَرِّهِ   يُنَادِي بَشَر لَا تَرْتَكِن لِكَفُورِ
خُصُوصًا أُنَاسٌ دَاءُ عِضَال وَوَسْمُهُم   فِي الاسْمِ كَمِثْلِ الدَّاءِ مَشُومٌ غَدُورِ[6]
فَدَعْ[7] عَنْكَ قَولَ عَاذِلٍ وُمَذَبْذَبٍ   يُرِيكَ تَفَقُّهَ العَقِيمِ الحَصُورِ
وَهَاكَ فَصِيلاً لِلْخِطَابِ وَجَامِعًا   لِحِكْمَة أَرْبَابِ الوَصَايَا الهُصُورِ[8]
وَقَاعِدَة فَكُلُّ مَا دَلَّ كُلُّنَا   عَلَى اللهِ خُذْهُ لَازِمًا بِشُعُورِ
وَمَاشَغَلَ القَلْبَ المنِيبَ لِرَبِّهِ   فَتَرْكُهُ عَنْكَ وَاجِبٌ لِفُتُورِ
وَفِي الأَخْذِ والتَّرْكِ إنْ هُمَا شَغَلَا   فَخُذْ بِضِدِّهِما تَنَلْ مَنَالَ شَكُورِ

[1] في المصدر: الاستئثار. ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، –مصدر سابق–(م سابق) ص:38.
[2] في المصدر: تَتَبَيَّن. ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
[3] أخرجه النسائي في الكبرى، وأحمد في المسند، بلفظ: إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم،.. ينظر: المصدر، هامش الصفحة نفسها.
[4] في المصدر: فمن ثم كان أهل الطريق مبتلين. ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
[5] في (ب) و(ج): والطّعن فيمن طعن.
[6] في (ب) و(ج): غُرُورِ.
[7] في (ب) و(ج): ودَع.
[8] الهصور: الأسود، ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (ج2)، –مصدر سابق– ص:609.

وَلَا تَلُم اللَّائِمَ فِي يَومِ لَوْمِـــــهِ لِمَنْ لَا يُلَامُ عَالِيًا فِي قُصُـــــــورِ
وقُل هَاتِ بَيْتًا مِن نَظِيرِ خِطَابِـهِ يرقُّ بِرَوْقٍ سَامِعًا بِحُبُـــــــــورِ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ شَائِقٍ وَمُنَـــــــوَّرٍ يُتَرْجِمُ عَنْهُم مُعْرِبٌ بِظُهُـــــورِ
وَإِن لَمْ، فَلَا تَحْسِدْ وَسَلِّمْ وَصَدِّقَن وَأَجِبْ رِجَالًا فِي ظِلَالِ غَيُـــورِ
فَمَا فِيكَ يُظْهِرُ الكَرِيمُ مَصُونَـــهُ[1] عَلَى فِيكَ مِن إذنِ الحَكِيمِ الغَفُورِ
وَمَا المرْءِ إِلَّا مَخْبُوءٌ تَحْتَ فَكِّـــــهِ[2] فَإِنْ فَاهَ بَانَ مُضْمَرٌ فِي سُتُــــورِ
جَزَى اللهُ عَنَّا شَيْخنَا خَيْرَ مَا جَزَى بِهِ هَادِيًا مِن مِنَّةٍ وَأُجُـــــــورِ
وَوَالِدُنَا بِمِثْلِ مَا مَرَّ خَيْــــــــرًا[3] وإِخْوَانُنَا صِدْقًا بِغَيْرِ نُفُـــــورِ
وَمَنْ حَرَّكَ العَزْمَ المُقِيمَ عَلَى الهوَى فَأَنْطَقَهُ رِيحُ الصَّبَا وَالدّبُـــــورِ
وَصَلِّ إِلَهِي ثُمَّ صَلِّ وَسَلِّمَـــــــن عَلَى سِرِّكَ المِكْنُونِ صَدْرِ الصُّــدُورِ
وآلِهِ والأصْحَابِ طُرًّا وعِتْــــرَةً[4] وتَابِعِهِم رُشْدًا[5] لِيَوْمِ النُّشُــــورِ

ثم استحسنت أن نُتبع هؤلاء الأبيات بكلام مفتور يبين ما أردناه ويوضح ما قصدناه، لعل الله ينفع بذلك من قصد وجه مولاه، قوله: "شمس الضحى في بدور"، وهو نبينا محمد ρ في جميع إخوانه المرسلين، أو في جماعة أصحابه المكرمين قال في «الكواكب الدّرّيّة»: فَإِنَّهُ فَضْلُ شَمْسٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرَن أَنوارهَا للنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

فضوء البدر والنجم[6] إنما هو مستفاد من نور الشمس، فكذلك أنوار الأنبياء والصحابة والأولياء مستفادة كلها من نور محمد ρ، وكذلك الشيخ مع تلامذته إذ نورهم مستفاد من نوره، وهو من شيخه، ثم كذلك إلى النبي ρ ، وهو عن جبريل، وجبريل عن إسرافيل، وإسرافيل عن اللوح (المحفوظ)[7]، عن القلم (المنير)[8]، والقلم عن رب العزة جل جلاله، وهذا من حسن الاستفتاح، وكذا ذكر الأنصار بعد الأصحاب، يفهم الانتصار للشيوخ المحققين ففيه من براعة الاستهلال، وفي ذكر النيل بكسر النون أو فتحها إشارة إلى عذوبة قول الحق من أهله، أو تنبيه على أن قول الحق كعرق الذهب أو الفضة في المعدن، فمن تتبّعه في رفق وحسن صبر ناله، قال ρ: «العلم خزائن ومفاتحه السؤال فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والعالم والمستمع والمحب لهم»[9]، وقال عيسى υ: "يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت، وعلم الناس ما علمت".

[1] في (ب) و(ج): مطوفه.
[2] في (ب) و(ج): لَسْنِهِ.
[3] في (ب) و(ج): سابقا.
[4] في (ب) و(ج): لجَمعِهِم
[5] في (ب) و(ج): دينًا.
[6] في (ب) و(ج): فضوء البدر.
[7] ساقط في (ب) و(ج).
[8] ساقط في (ب) و(ج).
[9] الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا: – الدارمي، سنن الدارمي، ج1، ص: 147./ – أبي شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج3، ص: 68.

وقوله: "ومن أحسن.." (البيت)، أشار به لقوله تعالى: [وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ [وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ]][فصلت/33]، ومن عرف ربه علم[1] أنه قاصر عن معرفته حق معرفته، واعترف أنه مقصر في عبادته، قاصر عن ذكره وشكره، فمن عرف الله كَلَّ لسانه، وهذه المعرفة هي عين معرفته وعبادته، وهي ذكر جلاله وعظمته ونعمته.

وقوله: "فيتبعوا حسن النظام" (البيت)، أشار به لقوله تعالى: [الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ[فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ][الزمر/18]، ومن لازم إتباع الحق وأحسن الأمور، والازدجار عن الباطل والغرور.

وقوله: ولا خير في العيش، البيت أشار به لقوله υ: «كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا، ولا تكن خامسا فتهلك»[2]، ولقوله أيضا: «لا خير في العيش إلا لعالم أو متعلم أو مستمع، ولا يعي القول ويتعلمه إلا من ألقى السمع وهو شهيد»[3]، أي حاضر، قال تعالى: [وَ تَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ][الحاقة/12]، (وهذا من سياق الحديث بالمعنى، وفي نقل الحديث بالمعنى اختلاف، وثالث الأقوال في ذلك جائز للعالم لا لغيره بشترط التحفظ على مواضع الكلام ومعانيه، وقال بعضهم: "من نقل الحديث بالمعنى، فإنما نقل إلينا فهمه لا نفس الحديث فليتقي ذلك"، ذكره زروق.)[4]

وقوله: "فلا تصاحب إلا ذين" (البيت)، إشارة إلى المستمع، قال بعض العلماء: لا تصحب إلا من تتعلم منه أو يتعلم منك، والثالث فاهرب منه لأن فائدة الصحبة النفع والانتفاع، ومن لا ينفعك ولا تنفعه فصحبته بِطَالَة، ولم تخلق لها، قال التازي:

وَكُلّ جَبَّار قَلَّ أَن يَبْلُغَ المنَى   وَمَا عَامِلِ فِي فَوزِهِ مِثْلُ بَطَّالِ[5]

وكذا من يضرك أو تضره فصحبته سم قاتل، قال ρ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[6]،

وقال الشاعر: اخْتَــر لِصُحْبَتِــكَ مَنْ أَطَـــاعَ   إِنَّ الطِّبَـــاعَ تَسْــرِقُ الطِّبَـــاع

وقال الآخر: عَنْ المَرْءِ لَا تَسَل وَسَلْ عَن قَرِينِهِ   فَكُـلُّ قَرِيــنٍ بِالمُقَــارَنِ يَقْتَـــدِي

"وثلثاه شرّ"، الضمير يعود على السوى من جنس العالِمِ والمتَعَلِّم، وهو البشر، ففيه ثلاثة أحرف، أَزِل الباء يبقى: شر، فكذلك إن لم تخالط الثلث الأول وهم أهل الانتفاع من البشر وقعت على الثلثين الأخيرين، إما على البطالين أو على المدْبِرين المعرضين، وكلاهما يَسري إليك منهما شر بَشَرِيَتِهِما، قال تعالى: [وَلَا تَرْكَنُوا [إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ]][هود/113]، ومن لم يستعمل جوارحه في طاعة

[1] في (ب) و(ج): عرف.

[2] لم نعثر عليه.

[3] لم نعثر عليه.

[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[5] البيت ساقط في (ب) و(ج).

[6] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4 (م سابق) ص: 188، 189.

خالقها، فقد كفر نعمة الله فيها، ومن جملة نعم الله القلب والرجلان، فشكرهما أن تطلب بهما مَن يَدُلّك على الله، وتُعرِض بهما عَمَّن يُبعدك منه، كما قال الشاعر:

تَجَنَّب قَرِينَ السُّوءِ واصْرِم حِبَالَهُ	وإن لَم تَجِد عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وأَحْبِبْ حَبِيبَ الصَّدْقِ واترُك مِرَاءَه	تَنَل منهُ صَفْوَ الودِّ مَا لم تُمَارِهِ
وفي الشَّيْبِ مَا يُنْهِي الحَكِيم عن الصِّبَا	إذَا اشْتَعَلَت نِيرَانُه في عِذَارِهِ
ومَن يَطْلُبِ المعرُوفَ مِن غَيرِ أَهْلِه	يَجِدهُ وَرَاءَ البَحْرِ أَو في قَرَارِهِ
ولله في عَرْضِ السَّمَوَاتِ جَنَّة	وَلَكِنَّهَا مَحْفُوفَة بالمكَارِه

وقوله: "خصوصا أناس داء عضال"، أشار به لقول بعض العارفين:

النَّاسُ دَاءٌ عُضَالٌ لَا دَوَاءَ لَهُم ... تَحَيَّرَ العَقْلُ فِيهِم وَهُوَ مُنْذَهِلٌ

-وسنذكره إن شاء الله بعد-، وقوله: "وَسَمَهُم في الاسْمِ"، البيت أشار به لقول عمر τ: "إذا بعثتم رجلا[1] فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم"، وكذا ورد فيمن أراد أن يُعَمِّرَ أَرضًا، فإنه ينظر إلى اسمها، وكذا يعتبر في تعبير الرؤيا اسم الرائي والمرئي، فكذلك في باب الصحبة وغيرها، لأن النبي ρ كان يعجبه الفال الحسن ويكره السيئ، ومفهوم قول عمر أن قبيح الوجه قبيح الاسم مما ينبغي أن يجتنب.

وقوله: "كمثل الدّاء" قضية عينية أشار به إلى علم شخص معين موصوف بما ذكر.

وقوله: "ودع عنك" (البيت)، أي أترك عنك كلام مَنْ يَعزلك في صحبة أمثال هذا الشيخ، أو يعذلك في عدم مخالطة أمثال أهل هذا الداء المدفون في ظاهر وِدِّهم فاحذرهم قاتلهم الله، وكذلك أنبذ كلام من يعذل مثل هذا الشيخ في مقاله ولا يعذره في غلابة أحواله من المتفقّهه المذبذبين الذي لا هُم من العلماء العاملين (المعلمين)[2] ولا هُم من الجهلة (المتعلمين)[3] المسلمين، بل يُلبِسون على العوام بألفاظ العلم غير النافع، حتى يظن الجاهل أنهم (على شيء)[4] وهم إن فَتَّشتهم (واختبرت)[5] أحوالهم تجدهم [كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [يَحْسَبُهُ الظَّمْآَنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ]][النور/39]، أي لا نتيجة في أقوالهم ولا ثمرة لأحوالهم، بل هم يخدعون الله ورسوله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، ويرحم الله الإمام ابن الفارض حيث يقول في علوم هؤلاء الفريقين:

مَنَحْتُكَ عِلمًا إنْ تُرِد كَشْفَهُ فَرِد	سَبِيلِيَ واشْرَع في اتِّبَاعِ شَرِيعَتِي
فَمَنبَع صَدِّي من شَرَاب نَقِيعُهُ	لَدَيَّ فَدَعْنِي مِن سَرَابِ بِقِيعةِ[6]

[1] في (ب) و(ج): رسولا.
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] ساقط في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): علماء.
[5] ساقط في (ب) و(ج).
[6] القيعه: الأرض المنبسطة بين جبلين، ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان ابن الفارض،(مصدر سابق)، هامش: ص: 52.

وقوله: "وهَاكْ" أي أعطيك قولا فصلا يفصل بينك وبين مُخَاطبك المنازع لك، فخذه قاعدة مطَّردة تجمع لك وصايا فحول العلماء أرباب الحكمة لتكون منهم إنشاء الله، إن عملت بعلمهم، والحكمة مركَّبة من علم صحيح متقن وعمل منضود محكم، ومن أحكم الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وقد مَنَّ الله بذلك على نبيه داوود في قوله تعالى:[وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ][ص/20]، قيل فيه، هو قوله (للخصم)[1] شاهداك أو يمينه، والشاهد على صحة دعوى أهل السعادة والشهادة، شهادتهم لله بأنه لا إله إلا هو، كما شهدت له ملائكته وشهدت لنفسه وعرفوه حق معرفته،ثم عملوا بمقتضى شهادتهم ومعرفتهم، فلم يلجئوا إلا إليه ولم يعرجوا إلا عليه فاخلصوا في أعمالهم، وصدقوا في أقوالهم وأحوالهم، ورفضوا التخيلات والأوهام، وأقاموا بخدمة الملك العلاّم، بهذه الحكمة المركبة من العلم الصحيح والذوق الصريح والنطق الفصيح والعمل الرجيح.

فلما أن أتموا حكمة الله في أنفسهم أتم الله بهم حكمته في غيرهم، والحكمة هي إتمام الشيء وإنهاؤه إلى غايته التي أريدت منه، قال تعالى:[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ][الذاريات/56]، وقد وعد الله أهل الحكمة بخير كثير في قوله:[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ][فصلت/30،31،32] ثم مدحهم بإتمامهمبخير حكمة الله في غيرهم بقوله: [وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ][33/فصلت]، وهؤلاء السادات داعون إلى الله بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، ومُحَبِّبون العباد في مولاهم، وحريصون على هداية الخلق إلى الحق، وأما غيرهم فاعوجاجه أكثر من تقويمه، وليس الخبر كالعيان، قال الشيخ السنوسي في وصف الحكمة وأهلها: "ومن ثمرة نتائج التنزيه[2] في منزلة الصدق من مقام الإيمان الحكمة، وهي صادرة عن اعتدال عِمد[3] لفهم بفتح أبواب المعاني، ومَحَل مُقفلات أسرار الخطاب الحسية والمعنوية،وذلك ينفي عن النفس الجمود على الظاهرية المحضة العَرِيَّة عن أوصاف الربانين، وهو ضرب من الجهل. ذكره في «روض المحاسن».

وقوله: "فكل ما دل كلنا على الله خذه"،هذه الحكمة وهذا هو الفضل والقاعدة والمراد وهو أن كل شيء دلّنا بكليتنا على الإقبال على الله، فأخذه لازم لنا وواجب علينا مع استشعار دلالته لنا على الله والمراد، فالكل الأول العموم في كل دال على الله من شيخ أو أخ في الله أو عمل صالح أو علم واضح أو رزق حلال أوحال من الأحوال من حركة أو سكون أو كلام أو تفكر أو غيرهما، والمراد بالكل الثاني كلية العبد من قلب وعقل وسر وفكر وبدن وقول وسمع وبصر وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة، فهذا الكل الذي دل كلّك على الله أخذه واجب عليك.

(والقاعدة في اللغة هي عماد الشيء وأساسه، وفي الإصطلاح: "هي الكلي المنطبق على جزئياته لتتعرف أحكامها منه"، فالقاعدة والضابط والقانون ألفاظ مترادفة بمعنى واحد صح من [كذا]، فإذا عرفت هذا فشدّ يدك على قواعد سيدي أحمد رزوق الذي يقول في مقدمتها: "وبعد حمد الله والصلاة على رسول الله، فالقصد بهذا

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): ومن نتائج ثمرة التنزيه.

[3] في (ب) و(ج): عمود.

المختصر وفصوله تمهيد قواعد التصوف وأصوله على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول بالفقه[1] والطريقة.(فإنها والله دعائم سماء على علوم هذا الكتاب، وأجساد أرواح لطائف ما فيه من اللباب)[2]" قالτ (قاعدة): "من كمال التقى وجود الاستقامة، وهي: حمل النفس على أخلاق القرآن والسنة كقوله تعالى: [خُذِ الْعَفْوَ [وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ]][الأعراف/199]، [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا [وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا]][الفرقان/63]، [[وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ] ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ]][فصلت/34]، إلى غير ذلك، ولا يتم أمرها إلا بشيخ ناصح أو أخ صالح يدل العبد على ما هو اللائق به في صلاح حاله، إذ ربّ شخص ضره ما انتفع به غيره. ويدل على ذلك اختلاف أحوال الصحابة في أعمالهم ووصايا رسول اللهρ لهم، ومعاملته معهم. فنهى عبد الله بن عمر عن سرد الصوم،[3] وأقر عليه حمزة بن عمروالأسلمي، وقال في ابن عمر: "نعم الرجل لو كان يقوم من الليل"[4] وأوصى أبا هريرة بأن لا ينام إلا عن وتر[5]، وأمر أبا بكر برفع صوته في صلاته وعمر بالإخفاء[6] وتفقد عليا وفاطمة لصلاتهما من الليل[7]، وعائشة تعرض بين يديه اعتراض الجنازة فلم يوقظها[8]، واعلم معادا أن من قال "لا إله إلا الله" وجبت له الجنة، وأمره بإخفاء ذلك عن كل الناس[9]، وخص أبو حذيفة بالسر[10]، وأسر لبعض الصحابة أذكارا مع ترغيبه في الغير عموما، وهذه كلها تربية منهρفي مقام الاستقامة، والله أعلم" وهي عين هذه الكلية.)[11]

وقوله: "وما شغل القلب" (البيت)، هذا ضد الكل الأول، أي كل ما شغل أمير كليتك وهو القلب المقبل على ربه، إذ باشتغال القلب تشتغل الجوارح، بل والبدن، ولو أقبلت فلا ينفع إقبالها دون أميرها، لأن الله لا ينظر إلى صوركم (وأقوالكم)[12]، ولكن ينظر إلى قلوبكم (وأعمالكم)[13]، وقال υ:« إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذ فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب»[14]، ولما أن رأى υ رجلا يعبث بلحيته، قال: «إن هذا

[1] في المصدر: والفقه. ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق، محمود بيروتي، ص: 11.

[2] ما بين قوسين ساقط في المصدر، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[3] أخرجه البخاري، عن عبد الله بن عمرو τقال أخبر النبي ρ أني أقول: والله لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت، فقال رسول الله ρ: "أنت الذي تقول ذلك؟" فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال: "فإنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها.." ينظر: البخاري، صحيح البخاري، ج2، ص:697.

[4] أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق، محمود بيروتي، هامش ص: 92.

[5] أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:" أوصاني خليليρ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، و أن أوتر قبل أن أنام": - مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 499./ - البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 395.

[6] أخرجه أبو داوود والترمذي عن أبي قتادة، ينظر: ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق، محمود بيروتي، هامش ص: 92.

[7] أخرجه البخاري عن علي τ أن النبي ρ طرقه وفاطمة ليلا، فقال: " ألا تصليان". ينظر: البخاري، صحيح البخاري، 12، ص:379.

[8] أخرجه البخاري ومسلم، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق، محمود بيروتي، هامش ص: 92.

[9] أخرجه البخاري ومسلم، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[10] أخرجه البخاري ومسلم، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[11] الكلام من: (والقاعدة في اللغة هي عماد الشيء -إلى- وهي عين هذه الكلية) ساقط في (ب) و(ج).

[12] ساقط في (ب) و(ج).

[13] ساقط في (ب) و(ج).

[14] الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج1، ص: 532.

لم يخشع، فقيل لم؟ فقل لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[1]، فترك هذا الذي شغل قلبك عن مراقبة مولاه والتوجه إليه واجب عليك، لأنه يغويك ويضلك ويفتر عزيمتك ويثبط جوارحك عن النهوض إلى قضاء حقوق الله في سائر أوقاتك، إذ ما من وقت يرد عليك إلا ولربك فيه أمر أكيد، وحق جديد[2] بشكر نعمته أو الصبر على بليته أو رؤية المنة في طاعته أو التوبة عن معصيته، ولا تخل قط أبدا عن إحدى هذه الأربع فجميع ما شغلك عن أداء حقوقها من صاحب أو زوجة أو ولد أو مال أو طعام أو لباس أو مسكن أو غيرها، فهو مشوم عليك، يجب عليك تركه واجتنابه.

وقوله: "ففي الأخذ والترك" (البيت)، أي إن شغلك أخذ الشيء عن الله، فتركك له واجب عليك، وكذا إن شغلك ترك الشيء عن الله وصدك عن طريق رضاه، فأخذك له واجب عليك، قال بعض العارفين: "كل ما شغلك أخذُه عن الله فتركه واجب، وكل ما شغلك تركه عن الله فأخذه واجب عليك".

وهذا هو فصل الخطاب والحكمة المصيبة عين الصواب، فقولنا: "إن هما شغالا فخذ بضدهما" نعني بذلك الأخذ عن البدلية لا على الجمعية، لاستحالة اجتماع الضدين وعدم إمكان ارتفاع النقيضين، لأن المكلف لا يخلو، إما أن يكون أخذا في صحبة شخص مثلا أو تاركا لها، فالترك والأخذ لا يجتمعان في شخص واحد ولا يرتفعان فلم سبق إلا أن شغلك الأخذ فقط فاتركه أو شغلك الترك فخذه، وذهن السامع مع النحرير يفرق بين الحقائق، لأن هذا العلم موكول إلى أرباب البصائر والألباب لا إلى الجامد من على ظاهر اللفظ والخطاب، فإذا فعلت ما ذكرنا تنل إن شاء الله منال أهل الشكر، وهو صرف القلب والجوارح وسائر نعم الله عليك إلى مراد خالقها فيها، وهذا أعلى مراتب الشكر، ولذلك عبر بصيغة المبالغة، لأن الشكر أبلغ من الشاكر كما أن الغفور أبلغ من الغافر، ولما كانت هذه رتبة عالية لا ينالها إلا الأفراد وهم الملوك في الدنيا والآخرة، قال عزّ من قائل: [وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ] [سبأ/13].

وقوله: "ولا تلم اللئيم في لوم لومه" (البيت)، يقول: "لا تكثر لومك اللئيم الرذيل البخيل في حال لومته وغفلته، لما أن صار يلوم من لا يستحق اللوم، لأنه من شدة سكرته ورقدته[3] صار يخرف ويهذوا هذيان من زال عقله، وإنما اللوم يتوجه ويؤثر من عاقل لعاقل، وأين هم اليوم رجال اللوم الذين يستحيون حق الحياء وينجع فيهم اللوم، ولعزتهم أقسم الله بنفوسهم اللوامة، وأما نفوس هؤلاء النائمين من لا يلام من كون مقامه عال عن مقام من يلومه، وهو ساكن في قصر مشيد فنفوسهم أمارة بالسوء، فهي مسؤولة بحماقتها، إنها تأمر بالخير وإنما هي أمارة بالشر، وتحسب بجهلها أنها لائمة وإنما هي ملومة كما قيل: "كم من لائم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له"[4]، ولكن العاقل ينبغي أن يقول كما قيل:

سَأُلـزِمُ نَفْسِي الصَّفحَ عَن كُلِّ مُذْنِبٍ ... وإن كَثُـرَت منه عَلَـيَّ الجَرَائِـمُ

[1] الحديث أخرجه: محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، ج3، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص: 210.

[2] في (ب) و(ج): أمر جديد وحق أكيد.

[3] في (ب) و(ج): نومته وغفلته.

[4] القول ساقط في (ب) و(ج).

ومَـا النَّـاسُ إلَّا وَاحِـدٌ مِـن ثَلَاثَــــةٍ	شَرِيــفٌ ومَشْـرُوف ومثـلُ مُقَـاوِم
فَأَمَّـا الـذِي فَوقِـي فَأَعْـرِفُ حَقَّــهُ	وأَتْبَـعُ فيـهِ الحَـقّ، والحَــــقُّ لاَزِمُ
وأَمَّـا الذِي مِثْـلِي فَإِنْ زَلَّ أَو هَفَــا	تَفَضَّلْتُ إنَّ الفَضْلَ بالخيـرِ حَاكِـمُ
وأَمَّا الذِي دُونِي فَإِن قَالَ صُنْتُ عَنْ	مَقَـاليـه عِرضِــي وإِن لَام لَائِــــمُ

وقوله: "وقل هات بيت" (البيت)، أي قل لهذا اللائم في غير حق إن كان ما تقوله حقا فأتنا (ببيت من شعر)[1]من نظير خطاب هذا (الشيخ)[2] الذي تزعم أنك لائمه، في حال كون هذا البيت يرق قلب من يسمعه ويروق بحسن تحبيره (وبليغ)[3] فصاحته (وقوة)[4] رشاقته وتأثير إشارته في (عقول أولي الألباب)[5]. ولهذا السر قال تعالى للكفرة المدّعين أن القرآن تقُوُّل وافتراء: [قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ]][13/هود]، [فَأْتُوا بِسُورَةٍ [مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ]وقل فاتوا بسورة][23/البقرة]، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين، ولما أن بهتتهم فصاحته وقطعتهم حجته سمِّي النظم المعجز.

وقوله: "بقلب سليم" أي يخرج هذا البيت (من قلب متقلب لله)[6]، سليم من القواطع عن الله شائق إلى حضرة الله منور بأنوار الله، ويترجم عما في هذا القلب الزكي اللسان المبين المعرّب، المظهر ما استتر في الضمائر وما وَسَمته وعمله.

وقال في «المواهب الربانية»«شمس المعارف وبدور العوارف»" لا يطلعان في واقف سراج الأنوار لا تضيء في مشكاة الأكدار، ولا توقد في بيت الأغيار شأبيب وسحائب الخيرات، من انتشر على الأرض إلا وأظهرا ما فيها من النبات، والبلد الطيب يخرج بناته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكد، اللسان ترجمان يترجم عما في الجنان، اللسان قلم يرسم في الباطن ومعرفته تبرز ما استتر في الخزائن، الروح ويسري وتجول في الملكوت الأعلى والسر والفكرة يجول وتستجلب ما كشف السر، وما الروح عليه استولى، والقلب خزانة ذلك والجنان يحوي ما هنالك والعقل يدبر واللسان يعبر" بالله عليك يا منصف هل بعد هذا التبيان بيان أو بعد هذا الدليل الواضح برهان [فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ][125/الأنعام]، كمل بحمد الله وسميتها: «إلقاء العصى والموسى لصغار من أذى موسى».

قوله: "من أنا يا عاقل سترى"، قال الإمام الشافعي: "العاقل من معقله عن كل مذموم، فلو أوصى لأعقل الناس للزهاد والكيس العاقل هو الفطن المتعقل، ولا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع، بالديانة والأمانة والصيانة والرزانة" وقال يحي بن معاذ: "العقلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه وبنا قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه"، وقال جعفر بن محمد الخلدي: "العقل ما يبعدك عن مواطن الهلكات"، وقال محمد بن أحمد بن حمدون:

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] ساقط في (ب) و(ج).

[3] ساقط في (ب) و(ج).

[4] ساقط في (ب) و(ج).

[5] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[6] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

"من شرط العاقل أن يكتم حسناته أكثر مما يكتم سيئاته"، وقوله: "ترا" يحتمل أن يكون وصفا أوامر مدغما في ماض فعلي الوصف، أما من قوله تعالى: [أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا [فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا]][16/الإسراء]أي منعميها ورؤسائها، أو من قوله تعالى:[[ثُمَّ أَرْسَلْنَا] رُسُلَنَا تَتْرَى [كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ]][المؤمنون/44] تترامن التواتر والتتابع، والأول أولى، وحذف الفاء للوزن والترخيم، ولا مرية أن العاقل في النعيم وعلى أنه أمر مت عن أوصافك البشرية يحييك الله بأوصافه الربانية، وترى ما لم تعهده قبل ذلك" قال الله تعالى: [أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]][122/الأنعام]، قال بعض العارفين: "الناس يقولون افتح عينيك تبصروأنا أقول غمّضها تبصر" فلذلك هنا من أراد الحياة والنظر فليمت وليمت (الخبر)، قال ابن الفارض:

مَوْتِي بِهَا، وَجْدًا، حَيَاةٌ هَنِيئَةٌ   وإنْ لم أَمُتْ في الحُبِّ عِشْتُ بِغصَّتي[1]

وقال الشيخ أبو مدين: " الحق لا يراه أحد إلا مات من لم يمت لم ير الحق". وقد لمحّ بمثل هذا عز الدين في قوله υ: «فإن لم تكن تراه...»[2]الحديث، أي إن لم تكن أنت في البين ولا لك أثر في العين، فإنك تراه، فهو كلام تام وشرط تام، ثم قوله: "تراه" جزاء هذا الشرط، قال أبو العباس اليساري: "ما التذّ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة الحق فناء وليس فيها لذة"، ولمثل هذا قال الناظم في قصيدته النونية:

إذَا رَايْتَـــهْ باعْيَـــانْ احْـــذَرْ   تَـــرَاه فَأَنْـــتَ تَضْـحُوا شَيْئَـــانْ
مُـــتْ يَا حْلِيــفْ ذِي الاحْـزَانْ   وَايَسْ عْلَى حْيَاتَكْ فِي ذِي المؤْتَـانْ
اكَـــانْ يَـا مُـــتْ يَا مجْهُـــولْ   مُـــتْ مْـعَـــكْ لْبَـــارِيــــكْ
يَرْجَـــعْ يْكُـــونْ لَـــكْ مَأْمُـــولْ   بـــالطْـــمَـــعْ فِيـــهْ ليُحْيِيـــكْ
وَاكَانْ مَــاتْ مَــاتَتْ القَـــوْلْ   ثَمَّ تَـــــرَاه دُونْ شْــــرِيــــكْ
تْـصَــفِّى عِبَـــادَةَ الأَوْثَـــــانْ   بـالله لَاشْ تَـلْعَــنْ ذُو الأَوْثَـــانْ
واللَّعَـــنْ فِيـــكْ لَقَـــدْ حَــــانْ   مِمَّا دَامْ فِيهْ حَظَّكْ مَنُّه يَا شَهْـوَانْ
مَنْ رَا الَّا لَـــــذَّة بِالشَّـهْـــوَانْ   قَـــدْ صَــــارْ عَبْـدْهَــــا لَادُونْ
ضْيَـــــاهْ صَـــادَتْ دَعْـــــوَا   وَالخْمَــاجْ فِي العَقْــلْ وَاسْكُـــونْ
شُـوفُـوا القِيَامَـة يَسـوَى لُـو   خَالـقُـوا لِـــــذَا الغْبُــــونْ

وإن تفهم هذا الكلام، وتعرف هذا الموت، وتذوق هذا الغرام، وتعذر من ذاقه حتى تموت، وتحي حتى تموت وتحي، وانشدوا:[3]

ضَحَّى الحَبِيبُ بِنَفْسِي يَومَ عِيدِهِم   والنَّاسُ ضَحَّوا بمثلِ الشَّاةِ والغَنَـــــمِ[1]

[1] كذا في (ب) و(ج)، وفي المصدر: بغصة، ينظر: عمر فاروق الطبّاع، ديوان ابن الفارض، ص: 55.

[2] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 37./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 27.

[3] جاءت هذه الأبيات في ديوان الحلاج ضمن القسم المخصص للأشعار التي نسبت إليه، ينظر: منشورات الجمل، ديوان الحلاج، يليه كتاب الطواسين، تحقيق: كامل مصطفى الشيبي، (مصدر سابق) ص: 104.

لِلنَّاسِ حَجٌّ، ولِي حَجٌّ إلى سَكَـــنِي   تُهْدَى الأَضَاحِي وأَهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِي
يَا لَائِمِي، لَا تَلُمْنِي فِي هَوَاه؛ فَلَـوْ   عَايَنْتَ مِنْهُ الذِي عَايَنْتُ لَم تَلُـــــــمِ
يَطُوفُ بالبَيْتِ قَومٌ لَا بِجَارِحَــــةٍ   لِلْحَيِّ طَافُوا لَأَغْنَاهُمْ عَنِ الحَــــــــرَمِ[2]
ولله لَوْ عَلِمَتْ رُوحِي بِمَنْ عَلِقَــتْ   قَامَت عَلَى رَأْسِهَا فَضْلًا عَنِ القِــــدَمِ

[شرح قصيدة "رئيسي الأسنى":]

رَئِيسِي الأَسْنَى ابنْ الذَّبِيـــــحِ   طَهَ نَسْل ارْحَام آمِـــــــــــنَة
مِنْهَا حس ولَيْسَ مَعْنَى لصريح   بلْ مَعْنَاه كَان فِي حِيــــــــــن
حين كان الله فرْدًا صْرِيــــــح   أَوَّل صْنَع رُوح نَبِيِّنَــــــــــــــا
بَيْنْ كَاف وَنُون مُنْتَخَـــــــب   أَو أَسْرَعُ مِمَّا ذكرا طُـــــــــرًّا
لابطُول كْلَام مَعَ غْضَـــــب   عَمَّرَ عِمْرَان السِّوَى طُـــــرًّا

يقول τ: "إن إمامي الذي تأسيت بأفعاله[3] واقتديت بأحواله هو سيدي وجدّي محمد الأسني ابن الذبيح[4]. ومنه رأيت هذا المقام، فقد كانυ يقول: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[5]، ويقول:« لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا»[6]، وقال: "أصدق بيت قالته العرب: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[7]، فما صدر هذا ا لقول إلا عن مستغرق في حب الكريم ومشاهدة العظيم، وقد قال ρ: «يكون في هذه الأمة أربعون على خُلُق إبراهيم، وسبعة على خُلُق موسى، وأربعة على خلق عيسى، وواحد على خلُقي، فبهم تمطر أمتي، وبهم يرفع الله عنهم البلايا، وبهم يرزقون»[8]، قال الشطيبي في تفسيره للقرآن: "قال أبو عثمان المغربي: الأربعون هم البدلاء، والسبعة هو الأمناء، وهم النقباء، والأربعة هم الأوتاد، [والاثنان هم الخلفاء والواحد هو القطب، وهو يعرف جميعهم، وهو إمام الأولياء ولا يعرفه إلا الخلفاء، والخلفاء يعرفون جميعهم ولا يعرفهم إلا الأوتاد][9]، والأوتاد يعرفون جميعهم ولا يعرفهم إلا الأمناء، والأمناء يعرفون جميعهم ولا يعرفهم إلا البدلاء، والبدلاء يعرفون بعضهم بعضا ويعرفهم الأولياء".

وقال في شرحه: «المباحث الأصلية» قال أبو عثمان: " الأربعون هم البدلاء، والسبعة هم الأمناء وهم النقباء، وهم يعرفون بعضهم بعضا ولا يعرفون البدلاء، والبدلاء لا يعرف بعضهم، ولا يعرفهم الأولياء، والأولياء هو الذين أقامهم الحق في منافع الخلق، وهم الذين اختارهم الله من هذه الأمة كما اختار النقباء في الأمم السابقة"، ثم

---

[1] في المصدر: والناس ضحوا بمثل الشاء والنعم، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[2] في المصدر: بالله طافوا فأغناهم عن الحرمِ ، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[3] في (ب) و(ج): به.
[4] في (ب) و(ج): الذبيحين.
[5] الحديث أورده برواية مختلفة: " لي مع الله وقت لا يسعني مَلَك،..": –عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 06./ – علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1(م سابق) ص: 151./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 226.
[6] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1854، 1855./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص:177،178. والحديث ساقط في (ب) و(ج).
[7] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1768./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 1395.
[8] لم أعثر عليه في كتب السنن.
[9] إضافة في (ب) و(ج).

انظر وفقنا الله وإياك إلى اختلاف نقل رجل واحد عن رجل واحد، فإن لله من مصيبة ما أكرمها[1] فلا يدري المحقق[2] المسترشد ماذا يعتمد[3]،أيصحح إحدى النسختين ويرفض الأخرى، ويحمل ناسخها على التصحيف، فلا يدري ما هي، أم يظن بالناقل، أم يذهل القائل، أم يترك النقل من أصله لأن هذا أمر لا ينبغي أن يختلف فيه، فعلى قوله في التفسير أن صاحب الدرجة العليا من يليه فقط، و يعرف هو جميع من أسفل عن درجته، وعلى قوله في الشرح أنه لا يعرف ذو درجة إلا من ساواه فيها وأسفل عنها، ولا يعرف من يليه في الفوقية، كما ورد في تزاور أهل الجنة، لأنه لا علم به هنا حتى يعرف ولا عمل له هناك حتى يحصل درجة من فوقه، وإن كانت تليه، فافهم.

فإذا كان الأمر هكذا فلا ينبغي لمؤمن موفق أن ينكر على من لا يعرف مقامه ولا يتحقق حاله، فمن ترقى فوقه ولو بدرجة فكيف يجوز لمن لم يدخل بعد في دائرة الولاية الكريمة أن يتوقَّح ويرسل لسانه على من لم يشم له رائحة [بساحته][4]، وإنما هو في علو رتبة في قصور مقصورة عليه، ولهذا ذكر في «الإحياء»: أن أكثر الصوفية ينكر بعضهم على بعض، وقال: وإنما ذلك لعدم حيطة المنكر بجميع المقامات، وعدم تقلبه في الأحوال، فلا تجده يخبر إلاّ على حال نفسه ومقامه الذي أقيم فيه، فإذا سمع مقاما لم يبلغه وأخبر بحال صاحبه استبعد ذلك واستغربه، فهو معذور من وجه غير معذور من وجه، فلذلك قالوا:"لا يكون ا لصديق صديقا حتى يقول فيه ألف صديق أنه زنديق"، وأما السالك الواصل العالم الكامل لا ينكر على ذوي الأحلام أحوالهم، ولا يرد على ذوي الأقوال أقوالهم، بل يعذرهم وينزلهم منازلهم لأنه على درجاتهم فليلتمس لكل واحد مخرجا ويحمله على أحسن ما لديه ويلحظ الجميع بعين الكمال الحالي، ويعامل كل واحد بما يليق به"، (بمعناه)، قال بعضهم: "كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارف كيف شئت".

[في احتجاب الأولياء وخفائهم:]

ثم قال الشطيبي: "واعلم أن الأولياء عرائس الوجود، والعرائس لا يراهم المجرمون، لأنهم أبدا على بساط القرب والأنس محجوبون في حضرة القدس"، قال بعضهم: "مات رجل من الصالحين الذين كانوا يخفون أنفسهم، فنقشت اسمه في شاهده فسرق، فعملت آخر ونقشته فسرق، ثم آخر كذلك، فأعلمت بعض المشايخ، فقال لي إنه كان يحب الخفاء في الدنيا فأخفاه الله فيها وفي الآخرة".

قلت وهذه حال صاحب القصيدة فإنه كان يحب الخفاء، فكمّل الله مراده حتى في قبره، وهو بالعمارة السنوسية بين قبرين متلاصقين متباينين، شاهده منقوش فيه اسمه بخط خفي لا يكاد يعرف، ومحله في مقدم الجبانة التي على يسار الطريق المستقبلة المارة عن يسار قبر الشيخ السنوسي المستقبل الصاعد لجبل العباد، فهناك قبره بين قبر عن يمينه وبنيان عن يساره.

---

[1] في (ب) و(ج): ما أعظمها.

[2] في (ب) و(ج): المحقق.

[3] في (ب) و(ج): ما يصنع.

[4] إضافة في (ب).

[في مقامات الأولياء ومنازلهم:]

قوله: "رئيسي الأسنى" هذا مما لا شك فيه ولا خصوصية لأحد فيه، لأنه إمام الأئمة ورسول الرحمة، إلا أن الأولياء مختلفون فمنهم من ورث من هذا الإمام بواسطة ولي أو نبي، ومنهم من باشر ذلك وهو الأكمل". قال أبو حامد: "اعلم أن الأولياء لهم أربع مقامات: الأول: مقام خلافة النبوّة وهي للعلماء، الثاني: مقام خلافة الرسالة وهو للإبدال، الثالث: مقام خلافة أولي العزيمة وهو للأوتاد، الرابع: مقام خلافة أولى الاصطفاء وهو للأقطاب، فمن العلماء من يقوم في العلم مقام الأنبياء، ومنهم من يقوم مقام الرسل، ومنهم من يقوم مقام أولي العزيمة، ومنهم من يقوم مقام الاصطفاء، ومعنى الولي على وجهين: الأول: من ثبت له تصرف وولاية على مصلحة دينية، الثاني ليس له ولاية التصريف بالقوة، وهو المجذوب المأخوذ عن نفسه، وكما لا يتصرف في أمور نفسه كذلك لا يصلح أن يربي غيره لأنه لم يعرف الطريق كما هو في ظاهر الشرع في الصبي الذي لا ولاية له في نفسه ولا غيره، فالحقيقة على وزن الشريعة والتفرقة بينهما كفر وزندقة، فالمجذوب كمن سلك به طريق الحج مشدود العينين مكبل، فلا يدل على الطريق لأنه لم يختبرها، بخلاف السالك[1] لما أن عرف الطريق واختبرها يدل غيره" من «حصن الأمان».

قلت: ويعني الغزالي بهذا السالك من وصل إلى الجذبة، وأما من لم يبلغها فلا يصلح للدلالة والتربية ويعني أيضا بالمجذوب من لم يتدارك بالسلوك، وأما من تولى وسلك فإنه يصلح لما ذكر بل هو أولى من السالك المتدارك بالجذبة، لأن هذا مقام رئيس المجذوبين وإمام السالكين المعني بقول رب العالمين: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ] [1/الشرح]وهو الجذب [وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ] [2/الشرح] هو السلوك، [وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ] [4/الشرح]، في مقام الجمع بينهما، والله أعلم.

وبعد أن استدركت هذا على كلام حجة الإسلام المتقدم نوزعت فيه وطولبت بالنص ففتح الله به، قال في «الخلاصة المرضية»: قال الشيخ جبريل الخرمبادي قدس الله سره العزيز: "اعلم أن الشيخ يجب أن يكون كاملا واصلا، قد تجلى الله له في ذاته وصفاته التسعة والتسعين، فما بقيت عليه صفة يكون ناقصا، وينبغي أن يكون سالكا مجذوبا أومجذوبا سالكا، فالسالك الأبتر وهو الذي اجتهد وسلك طريق المعاملة والرياضة لكنه لم يصل إلى روح الحال، ولم يصل بحسبه بالموهبة ولم يتدارك سلوكه بالجذبة لا يصلح للإقتداء، لأنه بعد في الطريق غير واصل، إذا الواصل لا يكون إلا بالجذبة فكيف يوصل غيره، والمجذوب الأبتر هو الذي هبت عليه نسمات الموهبة، لكنه لم يسلك طريق الرياضة والمعاملة لا يصلح أيضا الاقتداء، إذ المقصود التشبث بذيل إرادة الشيخ والاحتياج إلى تربيته، إنه يلقح باطن المريد ويصب في رحم إرادته نطفة الذكر، والسالك الأبتر والمجذوب الأبتر الذين ليسا بواصلين طفلان لم يبلغا مبلغ الرجال، لكنه جاهل بكيفية التلقيح والإحبال، وأما السالك المجذوبوالمجذوب السالك فيصلحان للمشيخة والاقتداء بهما في الطريق إلى مثلهما، كمن قطع طريق البرية يقدم الصدق مرارا، بعد أن وصل إلى الكعبة وتكرر مجيئه وذهابه إليها، ووقف على العلامات واحدة بواحدة، فهذا يصلح أن يكون دليلا لغيره، ومن تبعه لا يضل ولا يشقى.

[1] السالك: هو السائر إلى الله، المتوسط بين المريد والمنتهي ما دام في السير. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية،(مصدر سابق) ص: 40.

ومشايخ هذه الطريقة قطعوا بادية النفس، وعرفوا كيدها، وعبروا عقبات الهوى، وحاربوا الشيطان، ووقفوا على كيد هذين الحيالين الخداعين، فمن أراد أن يصل إلى الكعبة الحقيقية فأمثال هؤلاء أمراء ألحاج، فلا يظن أحد أن هذا الطريق يمكن قطعها من غير دليل فينقطع عليه الطريق، والذي يقضي عليه بالعجب إن طلب سلمى لا يصل إليها مع وجود الجنسية والقرب إلا بواسطة تهديه، فكيف بالحضرة العليّة، ما أهون عليك أمر ربك يا غافل.

قوله: "رئيسي الأسنى الذبيح"، أي قدوتي في مقام الجذب[1] الذي لامني فيه من لا يفهم، إنما هو ذو النور الأسنى[2] والمحل الأعلى، فيفهم من قوة كلامه أن قلبه على قلب إمامه وأنه ورث مقام الاصطفاء منه υ وما ذلك على الله بعزيز وقد شهد له عدلان من أهل الدائرة الكريمة أنه لم يفارق الدنيا حتى بلغ مبلغ القطبانية[3]، وقد لِيمَ من هو مثله فقال:

مَا لَامَنِي فِيكَ أَحْبَابِي وأَعْدَائِي	إلَّا لجَهلِهم بِعَظِيــمِ بَلْوَائِــي
تَرَكتُ للنَّاسِ دُنيَاهُم وَدِينَهُــم	شُغْلًا بِحُبِّكَ يَا دِينِي وَدُنيَــائِي

ولو أقيم مقام السلوك فقط لم يلمه لائم لأنه ظاهر بنصوص الأئمة[4]، وقوله:"ابن الذبيح"، يحتمل أن يريد به اسماعيل، وهو الأظهر أو أباه عبد الله لقوله υ: "أنا ابن الذبيحين"، وقضيته كل منهما مذكورة في الكتب فلا نطيل فيها، وإن كان الذبيح اسحاق، فالعم أب، وإنما انتقى، أي اختار الكنية هنا بالذبيح تلويحا منه إلى مقامه الموروث، لأن من أسلم نفسه للذبح في ذات الله سلّمه الله وبلّغه مناه، قال υ: «موتوا قبل أن تموتوا»[5]، فمن يمت عن أوصافه البشرية أحياه الله بأوصافه الإلهية، ومن ذبح نفسه بسيف المخالفة أحيا الله قلبه بنور الملاطفة.

[حديث في شرف اسمه ρ "طه"وأصوله:]

قوله: "طه"، هو من أسماء محمد ρ ، وهو بدل مما قبله، واختلف في معناه، فروى السيوطي عن ابن عباس: "أن معناه بالحبشية (يا محمد)، وقال عكرمة معناه (يارجل كيس)"، وروى محمد بن إسماعيل البخاري عن ابن جبير: "طه بالقبطية (يا رجل)"، وقال الثعالبي في «جواهره»: قيل معنى طه رجل بالسريانية وقيل بغيرها من لغات العجم"، وقال عياض: "معناه من الوطء، والهاء كناية عن الأرض، أمره أن يعتمد على الأرض بقدميه فهو حروف مقطعة لمعان، وروي أنه υ كان إذا صلى قام على رِجْل ورفع الأُخرى، فنزلت طه أي طأ الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك وتشقى: من «الشفاء».

وقال الواسطي: "أراد يا طاهر يا هادي" وإنما خص الناظم هذا الاسم أيضا إشارة إلى مقامه الأعلى الذي يطلبه هو ونظراؤه، قال سيدي محمد بن عيسى: "معنى طه، أي طوى عن سره كل الأكوان بما فيها، وهداه إلى الاشتغال بمكنونها". وقال في شرح تائية ابن الفارض: "طه، من أشرف أسمائه υ، وتحقيق ذلك أن حرف الطاء مبني

---

[1] الجذب: هو تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعي منه. . ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية،(مصدر سابق) ص: 23.

[2] في (ب) و(ج): إمام الأئمة الأسنى.

[3] في (ب) و(ج): وقد ذُكِر أنه تقطَّب قبل وفاته بثلاثة أيام.

[4] في (ب) و(ج): لأنه واضح من ظاهر الشريعة.

[5] الحديث أورده: – علي بن سلطان محمد الهروي، المصنوع، ج1، ص: 198./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 384.

على التخلص عن جميع الغواشي والاعتلاقات الحاصلة بالظهور لكمال الصور في تنزل السر العلي، وعن تقدس كامل عن التعلق بالأوهام من موقع ظهور الحياة الذي من ذلك التخلص والتقدس اسمي الطاهر والطيب، وحرف الهاء مبنية على الإحاطة القيمة بغيب كل ظاهر، منها اسم "هو" الذي هو باطن جميع الأسماء الظاهرة ومحيط بها جميعا، ولما كان ρ مخلصا عن جميع العلائق الحاجبة بينه وبين ربه ومقدسا عما تتعلق به الأوهام من جهة ظهورها بالصورة والصفة البشرية القائمة بالحياة الظاهرة، وإن كل ما يقوم من الأوصاف المستقذرة بالصورة البشرية كالحدث ونجاسة الدم والبول، وبالنفس من الآمال والأماني والميل للشهوات الطبيعية (من جهة الطبيعة)[1] ونحو ذلك، كان قائما بصورته المطهرة ونفسه المقدسة طاهرا بوصف الطهارة والطيب وخلوص الميل إلى محبوبه الحقيقي ومطلوبه الأصلي، فكان حرف الطاء من هذا الاسم العلي مخبرة عن هذا التخلص والتقدس المذكور، وأما حرف الهاء فمنبئة عن مقامه العلي الذي هو أو أدنى وحضرة أحدية الجمع وباطن الحضرة الهوية وإحاطته بغيب كل ظاهر متعين في المراتب الإلهية والكونية بالنظر عن مقامه ومرتبته ρ ، وللحظ هذا المعنى الذي ذكرنا كان الطيب والطاهر والمطهر هو من أسمائه ρ.

قوله: "رئيسي الأسنى ابن الذبيح طه"، يعني أن طه الأسنى ابن الذبيح هو رئيسي، وأنا تابع له في الاستغراق في بحر الذات، إذ بنوره نهتدي وبسنته نقتدي لأنه المقدم في كل شيء [على كل شيء][2]، قال تعالى: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ]][108/يوسف]، فعلى هذا من لم يتبعه في كل شيء وعمي في البصيرة لا يصلح للدعوة، ويؤخذ استغراقه في بحر الذات من قوله تعالى: [[كَلَّا لَا تُطِعْهُ]وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ][19/العلق]،فما زال يقترب إلى أن استغرقفي مشاهدة الذات وقال: أعوذ بك منك، كما نبه عليه الغزالي.

وقد وفَّى بهذا المعنى المترجم الواصل سيدي عمر بن الفارض في "نظم الدر وخطاب الحر" في قوله:

ودُونَكَ بحرًا خُضْتُهُ وَقَفَ الأُولى بِسَاحِلِـه صَونًـا لموضِـعِ حُرمَـتِي

فهو المتبع في سيرته الداعي إلى الله ببصيرته (الوارث في طريقته)[3] قال شارحها: "أشار بالبحر إلى حضرة أحدية الجمع المختصة بالحقيقة الأحمدية والمحمدية، وأشار بالساحل إلى حضرة جمع الجمع ومقام قاب قوسين وظاهرا لحضرة الأولوهية التي هي غاية جميع الكُمَّل والخلفاء وأولي العزم من الرسل، وهذه الحضرة على غاية جمعها وبعد غورها وكونها أصلا للأبحر السبعة من أصول الأسماء الكلية الإلهية التي لا ينفذ مداد كلماتها، هي بالنسبة إلى بحر أحدية الجمع التي ترجع وتنتهي إليها جميع الأبحر، ساحل باعتبار تميز الأشياء والأمور فيها وشهودها مفصلا بعضها بعضا محكوم عليه بالغيرية وبعضها بالعينية على نحوما تشهد في الساحل هذه التفاصيل، وبحكم المغايرة فيها بعضها بعضا دون البحر الذي لا يشهد فيه إلا البحر وأمواجه بلا مغايرة أمرا وحدانيا بلا غاية ولا نهاية، فتكون حضرة أحدية الجمع من جهة شهود الذات الواحد فيها لا غيرها نسبتها إلى كونها بحرا أحق، وحضرة جمع الجمع نسبتها إلى ساحلية هذا البحر أولى بالاعتبار الذي ذكرنا.

---

[1] كذا في (ج) وساقط في (ب) .

[2] إضافة في (ب) و(ج).

[3] ساقط في (ب) و(ج).

قلت ومن أين نأخذ أن الأولياء المحمديين خاضوا هذا البحر [المحمدي][1] مع نبيهم كما عزاه الناظم لنفسه، قلنا: صرح به غير واحد، كالإمام ابن أبي جمرة والبسطامي، كما سنقف على كلامهم إن شاء الله في هذا الكتاب، ومن أصرحهم بيانا وأجلهم شأنا، هذا المترجم الوارث سيدي عمر فإنه عقَّبَ ذكر البحر الذي ثبت روية المتبحر فيه، بقوله:

وَمَا نَالَ شَيئًا منهُ غَيْرِي سِوَى فَتًّى　　عَلَى قَدَمِي فِي القَبْضِ والبَسْطِ مَا فَتِي
فَلَا تَعْشُ عَن آثَارِ سَيْرِيَ واخْشَ غَينَ　　إيثَارِ غَيرِي واغشَ عَيْنَ طَرِيقَتِي
فُؤَادِي وَلاهَا صَاحَ صَاحِي الفُؤَادِ فِي　　وِلَايَةِ أَمْرِي دَاخِلٌ تَحْتَ إِمْرَتِي
ومُلْكُ مَعَالِي العِشقِ مُلْكِي وجُنْدِيَ　　المِعَانِي وَكُلُّ العَاشِقِينَ رَعِيَّتِي
فَتَى الحُبِّ هَا قَد بِنْتُ عَنْهُ بحُكْمِ مَن　　يَرَاهُ حِجَابًا والهَوَى[2] دُونَ رُتْبَتِي[3]

فائدة رسمية: ذكر حُذَّاق الكُتَّاب أن "ابن" إذا وقع بين علمين يكتب بغير ألف، كمحمد بن عبد الله، إلا أن يكون ابن في أول السطر فإنه يرسم بالألف، وأما إذا لم يتقدمه علم كابن الذبيح هنا فإنه يرسم بألف، وأما إذا فصلت بين العلمين بنعت وشبهه أو جملة وشبهها في إثبات الألف خلاف،(نقل العيشي عن فوائد شيخه التتائي إثباتها وزاد، وكذلك إذا أضيف العلم إلى مضمر كهذا ابنك أو نسب إلى جده ابن شهاب الزهري التابعي، فشهاب جده أو إلى أمه كعيسى ابن مريم أو إلى غير أبيه كالمقداد بن الأسود وأبو الحقيقي عمر، وتبناه الأسود وفي الجاهلية أو عدل به عن الصفة إلى الخبر كقولك: "أظن محمد ابن عبد الله، أو عدل به إلى نحو الاستفهام كقولك: هل تميم ابن مرة، أو مثنى كزيد وعمر ابنا محمد أولم يتقدم عليه اسم ظاهر كجاءنا ابن عبد الله، أو لم يتصل الابن بموصوف كزيد الفاضل ابن عمرو، الأجهم، والظاهر أن المراد بالعلمين مطلق المعرفة إذ الضمير لا يطلق عليه اسم إلا أن يكون أراد بالاسم ما قابل الفعل والحرف لا ما قابل الكنية واللقب، وتحصيل الفرق بين كونه خبرا وصفة بالتنوين وعدمه، فإذا جعل صفة ترك التنوين وخبرا نون الموصوف، وانظر إذا جعلت بدلا أو بيانا ومنادى أو مفعول الظاهر أن حكمه حكم ما عدل إلى الخبر. مختصرا من حله لـ «مختصر خليل».)[4]

وهذه الألف في الابن والاسم وشبهه همزة وصل لا تهمز لقالون وأهل التحقيق ما أوتي بها إلا ليتوصل إلى النطق بالساكن لأن الابتداء بالساكن متعذر.

[النبيρ تنسل من أصلاب زكية إلى أرحام طاهرة:]

قوله: "نسل أرحام آمنة"(نعت لطه المنعوت)[5] يعني أن سيدنا ومولانا محمدا تنسل من أرحام أمه آمنة[6] بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن قصي بن كلاب، واسم أمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] في المصدر: فالهوَى، ينظر: دار القلم، ديوان ابن الفارض، شرح وضبط: عمر فاروق الطبّاع، ص: 52.

[3] البيتان الأخيران ساقطان في (ب) و(ج).

[4] الكلام من (نقل العيشي -إلى- «مختصر خليل».) ساقط في (ب) و(ج).

[5] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[6] في (ب) و(ج): تنسل من أصلاب زكية إلى أرحام طاهرة.

قصي، فأمه ابنة عم أبيه وأمها كذلك، روى جلال الدين السيوطي: "أن من كرم الله عليه أن أحيا له أباه وأمه بعد موتهما حتى آمنا به، وروى البيهقي أن النبي ρ قال: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، وما ولدني إلا نكاح الإسلام»[1]، وروى أبو الفضل عياض بسنده عن على كرم الله وجهه: أن النبي ρ قال في قوله تعالى:[لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ]][128/التوبة] قال: «نسبا وصهرا وحسبا ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح»[2]" .

فلم يزل نوره الكريم الذي كان في وجه آدم ينتقل من أصلاب زكية إلى أرحام طاهرة إلى صلب أبيه عبد الله، ثم رحم أمه آمنه، قال الكلبي: "كتبت لرسول الله ρ نحو الخمسمائة أُم لو يقع لواحدة منهن سفاح، كما كان في الجاهلية" وقال الشطيبي في «الجمان»: قال أهل العلم: وقع محمد ρ في بطن أمه ليلة الجمعة، أول ليلة من رجب فأمر الله رضوان خازن الجنان أن يفتح أبواب الفردوس، وأمر مناديا ينادي من تحت العرش: ألا أن النور المخزون قد استقر في بطن أمه في هذه الليلة وسيتم الله خلقه ويخرجه بشير ونذيرا، واستبشرت بذلك السموات وأملاكها والأرض وسكانها، وأصبحت تلك الليلة جميع أصنام الدنيا كلها منكوسة على وجوهها مضغوطة[3] فيها شياطينها، ونكس عرش إبليس عدوّ الله أربعين يوما فرقا اللعين إلى جبل أبي قبيس، وصرخ بجميع الشياطين فاجتمعت عليه، وقالوا: مالك؟، فقال: أما أراكم إلا هلكتم، هذا محمد بن عبد الله المبعوث بالسيف لتعطيل اللاّت والعزّى وجميع الأصنام، قد سقط الليلة في بطن أمه، ولم يبق لكم في الأرض موضع إلا وحّد الله فيه، فقال له بعض عفاريتهم، لا بأس عليك ولا علينا، هذه ذرية آدم قد مضى ستة أسباعها، وكانوا أشد من هؤلاء قوة وأكثر أموالا وأولادا، وقد استوفينا من أكثرهم بالضلال، ولا بد لنا من هذا الجزء السابع، فقال إبليس: كيف تقدرون على ذلك وفيهم قوة الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!؟ فقالوا: نأتوا العالم من علمه بالرياء والسمعة، والجاهل من جهله بضعف اليقين والبدعة، حتى نهلكهم، فقال لهم: يعتصمون بالله، فأنى لكم بذلك، فقالوا: نبث فيهم الأهواء المضلة ونزيّن لهم البخل والظلم، ولَتَرى ما نفعل بهم، ففرح إبليس اللعين لمقالتهم وانصرفوا" صرف الله عنا كيدهم الضعيف بجاه ملاذنا الشريف .

[في فضائل صلة الرحم:]

قوله:"نسل أرحام"، النسل ما يتناسل من الأوراد بين الزوجين، قال الله تعالى: [فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ][الطارق/5،6،7]، هي ما بين الترقوة إلى الثدي من المرأة، والصلب ظهر الأب، فإذ خرج ماء الرجل(وهو فرز علق واختلط بماء المرأة، وهو صالح استقر في رحم الأم وتكوّن الولد، وإنما جمع الرحم باعتبار الظلمات الثلاث، البطن والرحم والمشيمة، وهي التي يكون فيها الولد وتخرج بعده، وبهذا أجيب عن ابن أبي زيد في جمعه لها)[4]، فالرحم هي مستقر الولد، قال عزّ من قائل: [وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ

---

[1] الحديث أخرجه: – البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج7، (م سابق) ص: 190./ – الطبراني، المعجم الكبير، ج10، (م سابق) ص: 329.

[2] أورده علي بن أبي بكر الهيثمي برواية مختلفة قليلا "لم أخرج من سفاح من لدن آدم.."، مجمع الزوائد، ج8، ص: 214.

[3] كذا في (ج)، وفي (ب) : مصفّدة.

[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا]][1/النساء] وقال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ [وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]][90/النحل]، وقال تعالى:[يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ [فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ]][215/البقرة].

وروي أن الرحم تعلقت بعرش الرحمن، وقالت: يا رب هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال: نعم، أما ترضين أني اشتققت لك اسما من اسمي: أنا الرحمان وأنت الرّحم، ومن وصلك وصلته ومن قطعك قطعته، قالت بلى، أي نعم يا رب، قالρ: «ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل إذا انقطعت رحمه وصلها»[1]، وقال ρ: «من مكارم الأخلاق أن تعفوا عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك»[2]، وقالρ: «صلة الرحم تزيد في العمر»[3] والزيادة إما حسّا؛ وتكون في علم الملائكة لقوله تعالى:[يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ [وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ]][39/الرعد]، وإما معنى؛ بأن الله ينزّل البركة في عمره حتى يقضي في أقله مالا يحمل للقاطع في أكثره فاعرف هذا، ولهذا الفضل العظيم، قال ρ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، وتعلّموا من النجم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، وتعلّموا من العربية ما تقرءون به القرآن، ثم انتهوا»[4].

قال في كتاب «البركة»: "الأرحام: هم القرابة كالآباء والأمهات والبنين والبنات والأخوة والأخوات والأعمام والعمّات والأخوال والخالات وأولاد العم والعمّات، وأولاد الخال والخالات، ونحوهم من سائر القرابات والأرحام المشبكات، والصّلة بالمال والإعانة والزيارة والكتاب إن غاب وبجميع ما يسرّه"، قال أبو الليث: "في صلة الرحم خصال محمودة، رضى الله تعالى، لقوله تعالى: [وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ [إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا]][1/النساء]، ثم ادخال السرور على المؤمن، ثم فرح الملائكة وحسن ثناء المسلمين وزيادة العمر وبركة الرزق وسرور الأموات من الآباء، وزيادة المروءة ودعاؤهم له بعد موته"، وفي التوراة: "ابن آدم اتق ربك وبرّ والديك، وصل رحمك أمدّ في عمرك وأيسّر لك يسرك واصرف عنك عسرك".

وعن عائشة رضي الله عنها: "إنّ حسن الخلق وحسن الجوار وصلة الرحم تعمّر الديار وتزيد في الأعمار"، ونقلتُ من خط الشيخ البركة سيدي العبدلي ما نصه: "الحمد لله، قال القرطبي: الرحم التي تُوصَلُ عامة وخاصة، فالعامة رحم الدّين، تجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وأما الرحم الخاصة فتزيد بالنفقة على القريب وتفقّد أحوالهم والتقابل عن زلاّتهم، وتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك، كما في الحديث الأول من كتاب (الأدب): الأقرب فالأقرب"، وقال ابن أبي حمزة: "صلة الرحم بالأموال وبالعون على الحاجة وبرفع الضرر، وبطلاقة الوجه وبالدعاء، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، وأما إذا كانوا كفارا وفجّارا، فمقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم ثم إعلامهم إذا أصرّوا أن ذلك بسبب تخلّفهم عن الحق، ولا تسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريقة المثلى"، صحّ من ابن حجر على البخاري رحمهما الله،(وهذا

[1] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 2233./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4، (م سابق) ص: 316.

[2] الحديث أورده: – الطبري، تفسير الطبري، ج9، ص: 155./ – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج8، ص: 189.

[3] الحديث أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج3، ص: 115.

[4] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا: – ابن كثير، تفسير اب كثير، ج4، ص: 218./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص: 351.

ما وجدته بخط الشيخ المذكور ويؤيد هذا ما نقلوه في كتاب «محاسن الأخيار»[1] عن يحي بن معاذ الرازي أنه قال: "من هجر الأقرب في الله عزّ وجل عوّضه الله صحبة الأولياء، وجلوسك مع الأولياء يلهيك عن الأهل والمال ويشغلك عن جميع الأشغال".

ونقل أيضا عن أبي عثمان سعيد النيسابوري أنه قال: "قطيعة الفاجر غنم"، وفي الحديث: «صحبة يوم محبة وصحبة شهر قربة وصحبة سنة رحم، من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله»[2]، وقال الإمام علي: "القريب من قرّبته المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من بعدته العداوة وإن قرب نسبه، ولا شيء أقرب من يد إلى حسد، وإذ فسدت قطعت وحسمت".

وقال العارف أبو الحسن الحسني سيدي على بن ميمون: "ويجب على المؤمن أن يحسن الظن بكل مؤمن إلا من يكون فاجرا فاسقا، فسقه ظاهر كالمشتغلين بأعراض المؤمنين المنتهكين لحرمات الله، فمثل هؤلاء مواصلتهم بالقول أو الفعل والاعتقاد حرام، كالميتة لأنهم ضالون مضلّون، ومقاطعتهم فرض بالكتاب والسنة، قال تعالى:[لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ [مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ]][22/الحشر] الآية، [إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ [وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ]][5/المجادلة]، وقال υ: «جليس القوم منهم»[3] وقال:«من أحب قوما حشر معهم»[4]،إلى غير ذلك .وإذا كان تعلم الأنساب مطلوب.

[في محبة آل البيت وفضائلهم:]

وإذا كان تعلم الأنساب مطلوب، فالبحث عن آله υ أولى، لأن رحمه رحم لنا، قال تعالى: [النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ][الأحزاب/6]، وقرأ ابن عباس وأُبي بن كعب وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم،[وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ [فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]][الأنفال/75] في كتاب الله الآية، ولهذا أمره الله أن يقول لأمته:«لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى»[5]، قال ابن عباس: «قالوا يا رسول الله من قرابتك الذين وجب علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وولداهما»[6]. أخرجه الطبري، وقال جلال الدين السيوطي رحمه الله: أخرج الطبراني أيضا والحاكم عن ابن عباس، قال، قال رسول اللهρ: «يا بني عبد المطلب إني سألت الله لكم ثلاث، سألته أن يثبت قائلكم، وإن يعلّم جاهلكم، ويهدي ضالكم، وسألته أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء، فلو أن رجلا صفى بين الركن و المقام، فصلّى وصام ثم مات وهو مبغض لأهل البيت – بيت محمد ρ دخل النّار»[7]، وأخرج الطبراني عن

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[2] لم نعثر عليه في كتب السنن.
[3] لم نعثر عليه في كتب السنن.
[4] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 19.
[5] الحديث أخرجه: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج14، (م سابق) ص: 157./ – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص:482.
[6] لم نعثر عليه في كتب السنن.
[7] الحديث أخرجه: – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، (م سابق) ص: 161./ – الطبراني، المعجم الكبير، ج11 (م سابق) ص: 176.

ابن عباس، أن رسول الله ρ قال: «بغض بني هاشم والأنصار كفر، وبغض العرب نفاق»[1]، وأخرج ابن النجار عن الحسن بن علي، قال، قال رسول الله ρ: «لكل شيء أساس، وأساس الإسلام حبّ أصحاب رسول الله ρ وحب أهل بيته»[2]، وأخرج الطبراني عن ابن عباس، قال، قال رسول الله ρ: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»[3]، وأخرج أيضا عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه قال: "خطبنا رسول الله ρ بالجحفة فقال: «ألست أولى بكم من أنفسكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإني سائلكم عن اثنين، عن القرآن وعن عترتي»[4].

وأخرج الديلمي عن علي قال، قال رسول الله ρ: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة، المكرم لذريتي والقاضي لهم حوائجهم والساعي لهم في أمورهم عند ما اضطروا إليه والمحب لهم بقلبه ولسانه»[5]، وأخرج أبو نعيم في «الحلية»، عن عثمان بن عفان، قال، قال رسول الله ρ: «من أولى رجلا من بني عبد المطلب معروفا في الدنيا فلم يقدر المطلبي على مكافأته فأنا كافيه يوم القيامة»[6]، وأخرج الماوردي عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ρ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب اللهنصيب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»[7]، وأخرج الديلمي عن علي قال، قال رسول الله ρ: «خير الناس العرب وخير العرب قريش وخير قريش بنو هاشم»[8]. من تأليفه: «إحياء الميت بفضائل أهل البيت»، تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّته، اللهم إنا نتوسل إلى بمحمد وعترته أن تجعلنا من خيار أمته تابعين لسنته وتميتنا على ملته ولا تحرمنا من شفاعته يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، فالحمد لله الذي منّ علينا بمحبة نسبه الكريم وانتسابنا بالخدمة والمودة إلى من انتهى إليه بقدر الامكان، والله ينفعنا بنيتنا فيهم ومخالطتنا لهم، إذ هم تعلقوا بسيدهم ونحن نتعلق بهم.

فائدة: ذكر لي بعض المحبّين أن من كتبآمنة بن وهب الصادقة المصدقة، في ثلاثة أحجار غاسول وحلّ كل يوم حجرا في الماء حتى يذوب وسقاه للمرأة المعتلّة من دم الاستحاضة، يفعل ذلك ثلاثة أيام، فإنه نافع إن شاء الله، قال، أنه جرّبها فأنجحت، ومما جرب أيضا للاستحاضة، يكتب في ثوبها بنت تُقَوِّد على أمها، وأم تُقَوّد على بنتها، انقطع أيها الدم كما انقطعت الرحمة من قلب ناكح البنت وأمها، وإن أتتك امرأة تشكو بنفث الدم من فرجها وهي لا ينتفع من وطئها أحد فاكتب لها بدمها: بطد واح، فإن جميع الدم ينطرد.[9]

قوله: "ابنها حسّ"، يعني أن طه الطاهر تنسل عن آمنه، وهو ابنها فيما يظهر للحس والشاهد من الجسد الترابي الذي يحس ويجس ويمس، أخرج جبر القرطبي: "أن آمنة قالت لما حملت محمد ρ: رأيت كأنه خرج مني نورا

---

[1] الحديث أخرجه: الطبراني، المعجم الكبير، ج11 (م سابق) ص:145./ - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9، ص: 172.

[2] الحديث أورده اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 191.

[3] الحديث أخرجه: - الطبراني، المعجم الأوسط، ج6، (م سابق) ص: 357./ - البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج7، (م سابق) ص: 63،64.

[4] الحديث أورده: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج5، ص: 195./ - أبو نعيم، حلية الأولياء، ج9، (م سابق) ص: 64.

[5] لم نعثر عليه.

[6] الحديث أخرجه: - أبو نعيم، الحلية، ج10 (م سابق) ص: 366./ - محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج1 (م سابق) ص: 296.

[7] الحديث أخرجه: - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج1، ص: 329./ - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص:169، 170. وقد ورد حديث " التمسك بالكتاب والعترة" بعدّة ألفاظ، وبأسانيد مختلفة، ينظر: سامي أنور جاهين، فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من خلال حديثي العترة وباب المدينة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006، ص: 20– 40.

[8] الحديث أخرجه أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج2 (م سابق) ص: 178.

[9] نص الفائدة ساقطة في (ب) و(ج).

أضاء لي قصور بصري من أرض الشام، ووقع حين ولدته وأنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه للسماء"، وروي أن إحدى عمّاته قالت: لما وقع رسول الله ρ من بطن أمه وقع ساجدا لله تعالى، ثم قام على قدميه ورفع رأسه إلى السماء وقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، قالت: فذهبت لأنظر سرّته أذكر هو أم أنثى فحجب عني سرّته بيده، فلم نستطيع أن نكشف عنه ولا أن تصل يدي إليه ρ "، (وروي أن حليمة السعدية بنت أبي ذويب التي أرضعت النبيρ، قالت: "لما فَطَمته ρ سمعته يتكلم ويقول: "الله أكبر، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا")[1]، وقالت: "كنت أعطيته ثديي الأيمن فشرب فحوّلته إلى الأيسر فأبى ρ "، قال ابن عباس: " ألهمه الله العدل في رضاعه وعلم أن له شريكا فناصفه"، قالت حليمة: "فكان الثدي الأيمن لمحمد ρ "، وقال ابن عباس: "ولد رسول اللهρ عام الفيل، وتوفي أبوه وأمه حامل به، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين، وكفله جدّه عبد المطلب من بعدها إلى أن توفي والنبي ابن ثمان سنين، وأم عبد المطلب من بني النّجار، وهي سلمى بنت عمرو النجارية، فهم أخواله عليه السلام منها"، من «الملاذ والاعتصام» له.

وزاد ابن إسحاق أنه ρ ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وزاد غيره أنه ولد عند طلوع الفجر من هذا اليوم الموافق للتاسع عشر من مارس من عام اثنين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين بالسنين الشمسية التامة. قلت: ومن بركة سريان هذا النور المحمّدي في هذه الأمة المرحومة، ما كتب به إلينا الشيخ الكامل سيدي الحسن بن عبد العزيز بن رحال من المدينة المشرّفة، وبشّر به المحبّين من إخوانه بالمغرب ونصّه: "ومن فضل الله علينا وعلى ولدنا الذي سميناه سيدي محمد صالح أنه يوم سابعه نطق بسم الله ويوم كمال الأربعين يوما من يوم ولادته أحضرناه بالحضرة النبوية قبالة الكوكب الدرّي، فلما استقبل الضريح والكوكب أنطقه الله بالتهليل فقال لا إله إلا الله محمد رسول الله، واليوم منذ ثلاث سنين وشهرين وهي جارية على لسانه منذ قالها لم يفتر عنها إلى الآن".

ولهذه الإمامة التامة التي شملت الصغير والكبير والغني والفقير والسالك والمجذوب والطالب والمطلوب صرّح الناظم في خطابه الفصيح بقوله: "رئيسي الأسنى ابن الذبيح"، وليس معنى (اصريح)، يريد أن ما ذكره من أن سيدنا ومولانا محمد ρ ولد لآمنة، وكذا في كنيته له بابن الذبيح ليس تلك النبوءة في حقه معناها ظاهر صريح ولا إطلاقها عليه من كل وجه بصحيح؛ بل هو ابن لهما ووجه أبوهما من وجه إقرانهما في النشأة الجسدية الترابية، أبوهما في النشأة الروحية النورانية، وكذلك الكلام فيما بينه وبين آدم من الأجداد والجدّات، حتى يصحّ لك أن تقول أن آدم أبو الأجساد ومحمد أبو الأرواح[2]، وآدم آدم الأشباح، ولما كانت سنّة مرتّب المسببات على أسبابها أن وجود الأب يتقدم على وجود الولد المنفصل، آخّر جسد نبينا وقدّم جسد أبي البشر آدم، وصوّره من أديم الأرض ليظهر فيه نور محمد المخلوق من نور آدم وروحه، لأن جميع الأرواح نشأت من نور سيد المرسلين، وهو من نور رب العالمين كما أن الأجساد الترابية نشأت من جسد آدم (فهما أبوان في اعتبار ابنان)[3]، ولما جرت عادة الله أيضا أن الوالد يكون أكبر خلقه أكثر حيطة من ولده، وله شفوف عليه وزيادة، كان جسد آدم أكبر وروح محمد أنور.

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] أي أن محمدا ρ هو آدم الأرواح، بمعنى أن روحه أصل لجميع الأرواح البشرية.

[3] ساقط في (ب) و(ج).

ذكر السيوطي: "أن آدم υ لما أهبط من الجنة إلى الأرض، كان رأسه يمس السّحاب لطوله ثم نقص منه ستون ذراعا بذراع نفسه وعاش ألف سنة، ولم يمت حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين طفلا" وزاد يوسف بن عمر: ترك مائة ألف ولد، وروى أن قامة كل ولده في الجنة على قدر قامته التي توفي عليها، وهي ستون ذراعا طولا في سبعة عرضا، فكذلك روح سيدنا محمد التي هي أبو الأرواح، أزكى وأطهر وأكرم وأنور بل أعظم وأكبر[1] من جميع الأرواح، آدم فمن دونه، وبهذا التقرير الذي ذكرناه يجب أن يقيّد به كلام الغزالي في «الإحياء» حيث أطلق القول في آدم أنه أب البشر والأب له شفوف من كونه أحاط بما لم تحط به ذريته، فهو أوسع وأكمل فظاهره يعم كل الأنبياء وليس بظاهر فتأمله، وإذا حملناه على ما ظهر لنا اندفع الإشكال والله أعلم.

فإذا تبين لك ما ذكرنا فاستعمل المسألة في (المعايات)[2] وألغز بها فإن هذا الأمر خرج عن القياس، فتقول: أخبرني عن أمرين متضادين صدقا على شيء واحد، وهو رجلان، كل واحد منهما أبٌ للآخر ابنٌ له، فيقال في كل منهما والد لصاحبه مولود له، وقد ألحقناها بالأبيات الملغوز بها قبل زماننا في شأن آدم وعيسى والقمر، ولم تزل (المعايات) شائعة بين الناس لإشحاذ العقول واختبار القرائح، وهي:

أَلَا رُبَّ مَولُـودٍ ولَيـسَ لَـهُ أَبٌ ... وَذِي وَلَــدٍ لَم يَلِــدهُ أَبَــوَانِ

وَذِي وَالِـدٍ قَد كَانَ وَالِـدُهُ لَـهُ ... وَلِيــدًا ولَمْ يَـكُـن لَـهُ إِخْـوَان

وذِي شَامَةٍ سَوْدَاء فِي حَرِّ وَجْهِهِ ... مُحَلَّلَـــةً لَا يَنْـقَـضِي لِـزَمَــانِ

فَيُكمَلُ فِي تِسْعٍ[3] وخَمْسٍ شَبَابَهُ ... وَيَـهْـرَمُ لِسَبْـعٍ خَلَـت وَثَمَــان

ومن خروج أمر هذا النبي الأسنى عن العوائد كثرة معجزاته الخارقة للعادة التي لا حصر لها ولا قياس، وقد روى ابن رشد في «الجامع من البيان والتحصيل»: و"ابن سبع أيضا أن النبي ρ، لم يخرج من بطن أمه من الفرج، بل من تحت السرة قال وكذلك وسائر الأنبياء، (فولادته ليست كولادتنا من سائر الوجوه، ولهذا قال υ: "نحن الأوّلون والآخرون، فلو كان آخر بكليته من جميع الوجوه لم يبق لأوليته نصيب، لكنه أول في الخلقة آخر في البعث، أول في الأرواح آخر في الأجساد، وإن لم تنفك الجهة يلزم على قوله υ اجتماع الضدّين، وهو حال لا يتصور وجوده".)[4]

قوله: "بل معناه" (البيت)، هذا تفسير لقوله: "وليس معنى اصريح" لأن كل كلام مشكل لا بد من حله[5] ، وكل حل لا بد من دليله، ومعنى هذا المعنى الذي عنى أن روح هذا الجسد الكريم الذي نسب له النبوّة، هو أول المصنوعات خلقا وأحقهم سبقا، (فهو أبو الكل وحامل الكل صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله)[6]، أخرج القصري في «شعبه»: أن النبي ρ قال: «أنا أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا»[7]، وفي الخبر أيضا: «أن أول ما خلق الله نور

---

[1] في (ب) و(ج): وأكرم.

[2] المعايات: هي ألغاز شعبية ذات أهداف علمية تثقيفية.

[3] في (ب) و(ج): لتسع.

[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[5] في (ب) و(ج): دعوى لا تثبت إلاّ بدليل.

[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[7] لم نعثر عليه.

محمد υ »[1]، يعني ذاته النورانية الباطنة، وورد في الأخبار أيضا: "أن نور السماوات من نور محمد، ونور اللّوح والعقل ونور المعرفة والأبصار ونور النّهار والشمس والقمر من نوره أيضا، وورد أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألف عام".

وأخرج الشطيبي في «الجمّان» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "سألت رسول الله ρ ، فقلت: فداك أبي وأمي يا رسول الله: أين كنت وآدم في الجنّة؟، فتبسم ρ حتى بدت نواجده، فقال: "كنت نورا[2] بين يدي الله تعالى من قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة، فلما خلق الله آدم جعل ذلك النور في صلبه، ولم يزل ينقلني من صلب إلى صلب حتى استقررت في صلب عبد المطلب، وأنّ قريشا كانت نورا بين يدي الله عزّ وجل قبل أن يخلق الله آدم بألفي عام، فكلما سبّح ذلك النور سبحت الملائكة بتسبحية، فلما خلق الله آم ألقى ذلك النور في صلبه، ثم أهبطني الله في صلب آدم إلى الأرض وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذف في النار صلب إبراهيم، ولم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوين[3]. ولم تلتقي على سفاح قط، بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه لما خلق الله الخلق جعلني من خير بيوتهم، ثم اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم، لما خلق الله الخلق اختار منهم بني آدم واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب بني هاشم، فلم أزل خيار من خيارهم.

وقال υ: إني عبد الله، إني مكتوب خاتم النبيين وآدم مجندل في طينته، أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي، ولقد كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد، أنا أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث، وأنَّ الله خلقني وعليّ نورا بين يدي العرش، فلما خلق الله آدم أسكننا صلبه، ونقلنا من صلب طيب وبطن ظاهر لا تحيك فينا عاهة حتى أسكننا صلب إبراهيم إلى صلب عبد المطلب ثم افترق النور من صلب عبد المطلب فخرجت أنا من عبد الله، وخرج علي من أبي طالب ثم اجتمعنا في فاطمة، واجتمع نورنا في الحسن والحسين، فهو نوران من رب العالمين".(من الكتاب المذكور).[4]

---

[1] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، (م سابق) ص:311.

[2] نور محمد: إحدى الأفكار القائلة بقدم الوجود المحمدي، وهي فكرة ظهرت في الفكر الإسلامي منذ وقت مبكر، إستنادا للحديث الشريف (كنتُ نبيا و آدم بين الطين والماء) وعرفت هذه الفكرة عند الصوفية بالحقيقة المحمدية. ينظر: يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، ص: 89.

[3] حول هذه المعاني تُدَندن كثير من التائيات الصوفية لكبار مشايخ التصوف، من ذلك تائية الشيخ الجيلاني، التي نجتزء منها ما يلي:

أَنَا كنتُ في العُليَــــا بِنُور محمّــدٍ // وفِي قابَ قَوسَين اجتِمَاعُ الأحبّــةِ
أنا كنتُ مع نوحٍ أُشاهِدُ في الورى // بحارا وطوفانا على كَــفِّ قُــدرتِي
وكنتُ وإبراهيمَ مُلــقًّى بِنــارِهِ // ومــا برّدَ النِّيــرانَ إلاَّ بِدَعــــوتِي

- ينظر: يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، دراسة وتحقيق، ص: 92.

ومنها أيضا تائية ابراهيم الدسوقي:

نَعَم نَشأتِي في الحُبّ من قبلِ آدَمَ // وسرٍّ في الأكوان من قبلِ نَشــأتِي
أنَا كُنتُ في العَلياءِ معَ نورِ أحمَد // على الدرّة البيضــاءَ في خَلــوتِي
أنَا كنتُ في رؤيا الذبيــح فداؤُهُ // بلطفِ عنايات وعين حقيقــتِي
أنَا كنتُ مع نوح بما شهد الورى // بحـارًا وطُوفاناً على كفِّ قــدرة

- ينظر: عاصم ابراهيم الكيالي، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص: 86.

[4] لم نعثر عليه، والحديث ساقط في (ب) و(ج).

قوله: "أول صنع روح نبينا بين كاف ونون منتخب"، قال عزّ من قائل: [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ][النحل/40]، روى صاحب «الشعب» وغيره عن علي كرم الله وجهه أنه قال: "إن الله حين شاء تقدير الخلق (وبدء البرية وإبداع المبتدعات)[1] نصب الخلق في صور كالهباء،(قبل دحو الأرض ورفع السماء)[2] وهو في انفراد ملكه (وتوحد جبروته)[3]، فأشاع نورا من نوره (فلمع قبس من ضيائه فسطع)[4]، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية، فوافق ذلك صورة نبينا محمد ρ ، فقال (الله)[5]: أنت (المختار)[6] المنتخب، وعندك مستودع نوري، وذكر كلاما طويلا، فأول ما خلق الله نوره، فهو بذرة الوجود وأقرب موجود إلى الحبيب، ثم نشأ عنها الوجود كله كما تنشأ الشجرة عن البذرة، فبعد أن كمل الوجود ظهرت الثمرة التي هي الأصل، فهو الأول والآخر وإليه يشير قوله تعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ][الزخرف/81]، أي لم يكن قبلي أحد ولا واسطة، بيننا رب ومربوب، عبد ومعبود"،(فهذا نص صريح في عين ما صرّح به الناظم)[7]، ويؤيد أيضا قوله تعالى: [وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ] [التكوير/23]،[ورد في تفسيره أنه رأى ربه في عبادته قبل بدء الخلق بألف عام][8] [ورد في تفسيره أيضا عن سهل التستري أن الأفق المبين][9] ما قبل كل شيء ووراء الدنيا والآخرة، وكما قدمه الله في الخلق يوم قوله للأرواح: [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ][الأعراف/172]، فأول من أجاب ببلى روح نبينا محمد υ، وتقدم حديث عمر بما فيه مقنع وإلى هذا المنزع أشار قوله تعالى:[وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ [وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا]][الأحزاب/7]، فما قدمه الله تعالى إلاّ لكونه مقدما في كل شيء، فالروح والنور سيّان، والنبي مأخوذ من النبأ وهو الإخبار بالمغيبات، أو من النبوّة وهو ما ارتفع من الأرض، وكلا المعنيين موجودا في هذا النبي القرشي الأمي.

قوله: "أو اسرع مما ذكر طرا" قال تعالى:[وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ][النحل/77]، قوله: "لا بطول اكلام مع غصب"، قال سيدي عبد الرحمان اللجائي: "فالله عزّ وجلّ إذا أراد شيئا كوّنه بقدرته، فيصوّر الشيء من الشيء، ويصور الشيء من اللاشيء، بلا أن يقول بكلام "كن"، وهو[10] الغاية في مبالغة اسم القدير لأن قوله: "كن"، تعلقت به جميع الكائنات، وهو قديم سبق الحوادث بسَبْقِ الإرادة، لا يتكرر مع كل حادثة حدثت، ومن زعمَ أن كل كائنة كوّنها[11] الله عزّ وجلّ بقدرته لا تكون حتى يقول لها بكلامه كن فقد عظم جهله" من «قطب العارفين».

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[5] اسم الجلالة ساقط في (ب) و(ج).
[6] ساقط في (ب) و(ج).
[7] ساقط في (ب) و(ج).
[8] إضافة في (ج).
[9] إضافة في (ب) و(ج).
[10] في المصدر: هي. ينظر: أبو القاسم عبد الرحمن اللجائي، قطب العارفين (مصدر سابق)، ص:51.
[11] في المصدر: كل كائن كوَّنه، ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

وقال جلّ جلاله: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ][ق/38]، اللغوب: الإعياء والنصّب، ردّ بالآية الكريمة على اليهود القائلين: أن الله خلق الأشياء كلها، ثم استرح يوم السبت، قوله: "عمّر عمران السوى طم"، (العمران ضد الخلا)[1] والسّوى كل موجود غير الله وهو العالم كلّه، قال الإمام المترجم عمر بن الفارض:

ورُوحِـــي للأرواح روحٌ وكُـلَّــمَا تَرَى حُسنًا فِي الكَونِ من فَيضِ طِينَتِي

وهذا نحو قول الناظم في قصيدته النونية:

مِيمْ الجَمعْ هُوَ السَّـــاسْ يَا مَنْ نْشَاهْ زَاخَرْ نُـــــور
مَا لُو اعْقَابْ مَا لُـــو رَاسْ مَا لُوا سْوَاحَـــلْ وَقْعُـــور
ثَمَّحْيِيتْ مَنُّه انْفَــــــاسْ فِي الأَزَلْ عَمْ ذَا المِعْمُـــــور
عَمَّرْ جَمِيع ذَا العُمْـــــرَان ذَاكْ الذِي نْفَسْتْ يَاه الدَّيَّان
جَلَّ اثْنَاكْ مِن رَحْمَـــــانْ بِكُن ولَيْسَ كَافْ ولَا تَنْـــوَان
شَغَفْ فُؤَادَكْ حَيْـــــرَانْ بحُبْ مُجْتَبَاكْ مُحَمَّد يَا عَـــان

(**تكميل:** قال الشيخ عبد الجليل: "وقد أخرج الله علم العدد والحساب وجعله أعظم آية، فالعدد كلّه ينشأ من الواحد، وليس الواحد عددا في نفسه فإذا أردت أن تعدّ عددا في نفسه، فإذا أردت أن تعدّ عددا ما قلت: واحد، فيبتدئ بالواحد، فإذ ذكرت الواحد لم يكن للاثنين مع الواحد وجود ولا ذكر، وكان الواحد موجودا فقط، ولا يجوز أن يقال الحادي عشر مثله الواحد من العشرة لأنه هو، وهكذا واحد وعشرون، وواحد وثلاثون إلى واحد وتسعين، إنما هو تكرير العشرات، فليس يشارك الواحد شيء من العدد لا في الاسم ولا في المعنى، فهو في نفسه ليس بعدد، فإذ قلت واحد وسكتّ لم يكن معه شيء من العدد، فهو بمنزلة قول النبي ρ: «كان الله ولا شيء معه»[2]، فرد في أزله قبل وجود الأشياء، كما هو الواحد فردًا إذا ذكرته قبل ذكر الأعداد، فإذا أردت ذكر عدد قلت اثنين وثلاثة إلى عشرة إلى مائة إلى ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف إلى ألف ألف إلى ما لا نهاية له، لأن العدد لا آخر له ،كذلك أمر الباري تعالى كان واحدا قبل وجود الأشياء، ثم خلق القلم واللوح والمخلوقات وأخرج الأشياء شيئا بعد شيء بالإيجاد إلى ما نهاية له أبد الآباد، فإن مقدروات الباري لا نهاية لها لأن كل موجود أوجد يطرأ عليه من الإعراض ما لا نهاية له كما لا نهاية للعدد، وكما أن الواحد أول العشرة فتزيد واحدا بعد واحد إلى تسعة فيكمل العدد في التسعة لأنه وتر من ثلاثة الثلاثة، وكل واحد من الثلاثة وترا وتر صاحبه من حيث هو كل وتر واحد به نفسه، فافهم كذلك البري جلّ جلاله يوجد الشفع وهو الوتر يؤثرها بنفسه، فإذا عدد ثلاثة وزدت العدد إلى تسعة صارت ثلاثة وثلاثة وثلاثة، كل ثلاثة وتر في نفسها للاثنين فأوتر كل واحد من عدد الثلاثة العددين كما أوتر كل واحد من الثلاثة لغيره من الاثنين، فإذا زدت عشرا على التسعة أيضا رجع العدد كله واحدا فقلت عشرة، وصارت العشرة بالإضافة إلى العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين إلى التسعين بمنزلة الواحد من العشرة، فالعشرة واحد في نفسها

---
[1] ساقط في (ب) و(ج).
[2] لم نعثر عليه.

والعشرون بمنزلة الاثنين من العشرة، فإذا وصلت إلى التسعين صارت بمنزلة التسعة ثلاثون ثلاثون ثلاثون، فأوتر كل واحد من الثلاثين ثلاثين ثلاثين، فإذا زادت عشرة صارت المائة شيئا واحدا بمنزلة العشرة للعشرات، وبمنزلة الواحد للعشرة الواحدة، فقلت مائة عدد واحد، فإن زدت مائة أخرى كانت بمنزلة الاثنين للواحد من العشرة ومنزلة العشرين للعشرات، وبمنزلة الواحد للعشرة الواحدة، فقلت مائة عدد واحد فإن زدت مائة أخرى كانت بمنزلة الاثنين للواحد من العشرة وبمنزلة العشرين للعشرات حتى تنتهي إلى التسعمائة، فيكون كل ثلاثمائة وترا كما يكون كل واحد من ثلاثة ثلاثة وترا في عدد في التسعة، وكل واحد من الثلاثين وترا للاثنين من الثلاثين ثلاثين، فإن زدت مائة صارت ألفا شيئا واحدا بمنزلة الواحد من العشرة والمائة من الألف، فتمشي هكذا إلى عشرات أو الألوف إلى مآت الآلاف إلى آلاف الآلاف، إلى ما آخر له، والواحد أبدا مع الجملة منه ينشأ العدد وإليه يرجع حقيقة ومعنى، كذلك الباري عزّ وجلّ منه ابتدأت الأشياء وبه تنشأ وهو معها وإليه ترجع، فكما أن لولا الواحد الذي يُزاد أبدا فينشأ منه العدد شيئا بعد شيء لم يوجد عدد فكذلك لولا الله عزّ وجلّ ا لذي هو أول الأشياء وهو ينشئ الأشياء شيئا بعد شيء وإليه يرجع كل شيء، لم يوجد شيء من الأشياء، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، كما هو الواحد أوّل العدد وآخره وأوسطه الذي هو ظاهره).[1]

ثم قال رحمه الله:

هَـذَا مُحمَّـــد عْلِيــــه الله	صَلَّى ذَاكْ الحِينْ ذَا الصَّلَاةْ
وَاقْبَـــل عَنُّـه ثُمَّ اجْتبَـــاه	واجْعَل رُوحُه رُوحِي للحَيَاةْ
تُحيِي الموجُودَات فِي دُنْيَاه	وَفِي الأُخْرَى بَاعَثْ الأَمْوَاتْ
عَمَّــتْ الأَرْضِـين بالتُّـرَب	وانْبَتَــاتْ وريــحْ وَابْحُـــورَا
واسْمَوَات اجْوَانَبْهَا سْحَابْ	والعَرْشْ وكُرْسِي ومَـا يَسْـــرَا

الهاء للتنبيه، والذال للإشارة، يقصد بها هذا محمد إلى أقرب مذكور، أي تنبيه يا ذاهل، لعظم قدر هذا الشخص الكريم الفاضل، الذي هو أوّل مخلوق، وخُلِقَت منه جميع الخلق، وأقبل عليه خالقه وقتئذ، واختاره بقوله: أنت المنتخب، وسمّاه حينئذ محمد ورسول الله وصلّى عليه هو وملائكته، وأمر العباد بالصلاة عليه كما أخبر بجميع ذلك في كتابه العزيز، بالله عليك هل بعد هذا الاجتباه اجتباه، وهل وراء هذا الاجتباه اجتباه، وهل الصلاة من الله على نبيه معناها المغفرة، قاله ابن العباس أو الرحمة قاله المبّرد، أو الرضوان قاله الثوري، أو الثناء أو الإقبال وهو أجمعها أقوالا، وقال ابن عباس في معنى قوله تعالى:[إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا]][الأحزاب/56] إن الله يغفر للنبي والملائكة يستغفرون له، ثم قال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] [الأحزاب/56] يعني المؤمنين صلّوا عليه، يقول: استغفروا لنبيكم محمد وسلموا لأمره تسليما، أي ارضوا بما أمركم به رضا تاما. ذكره في «الملاذ والاعتصام».

وهذا مطابق لقوله تعالى: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ [حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا]][النساء/65]، وأخرج صاحب «الملاذ» أيضا عن معاذ عن رسول الله ρ أنه قال: "إن الله

[1] التكميل ساقط في (ب) و(ج).

أعطاني ما لم يعط غيري من الأنبياء وفضلني عليهم وجعل لأمتي في الصلاة عليّ أفضل الدرجات، ووكّل بغيري ملكا يقال له "منطروس" رأسه تحت العرش ورأسه في نجوم الأرض السابعة السفلى، وله ثمانون ألف جناح في كل جناح ثمانون ألف ريشة تحت كل ريشة ثمانون ألف زغبة تحت كل زغبة لسان يسبّح الله عزّ وجلّ وبحمده ويستغفر لمن يصلّي عليّ من أمّتي، ومن لدن رأسه إلى بطون قدميه أفواه وألسن وريش وزغب ليس فيه موضع شبر إلا وفيه لسان يسبّح لله عزّ وجلّ ويصلّي ويستغفر لمن يصلّي عليَّ حتى يموت، وأنشدوا:

مَن يُعَامِلِ الله لم تَخسَر تِجَارَتُه | وَكُلُّ قَلْبٍ خَرَابٌ بالتُّقَى عَمَّرَهُ
ومَا تُصَلِّي عَلَى المختَار وَاحِدَةً | إِلَّا عَلَيْـكَ يُصَلِّى رَبُّـهُ عَشْــرَة

فاغنم صلاتك يا هذا عليه، تفز بالربح عند إله فاز من ذَكَرَه، وأخرج أيضا عن علي كرم الله وجهه أنه قال: "لولا أن أنسى ذكر الله ما تقربت إلى الله عزّ وجلّ إلا بالصلاة على النبيρ ".

وللفظ هذا المعنى وشرف هذا النبي المجتبى قال في حقه مادحه بالحق سيدي موسى بن علي الحسني المحقق في بعض قصائده:

الاوَّلْ انْ تْكُونْ النَّــــــاسْ | في ذِي وذِيكْ يَا مَسْكِيــــــنْ
عْلَى الصَّلَاة دُونْ انْفَـــــاسْ | عْلَى عْمُودْ هَذَا الدِّيــــــــنْ
أَحْمَد أَخُو بَنِي العَبَّـــــــاسْ | يَتْنُوا عْلِيهْ كُـلَّ حِيـــــــــنْ
يُرْضُــوا عَظِيمْ الامْتِنَـــــانْ | إذَا صَحَّا والمحبُوبْ خَدْمَــــانْ
وانْسَــاوْ ذَكْـرَه نِسْيَـــــانْ | شَايَنْ يْصَادَفْهُم مَنُّه في اضْمَانْ
إذ انْسَـــــاوْ تَذْكَـــــــــار | جْمَلْـــتْ عْـــــــــــوَالَمْ رَبِّي
بالاذْنْ مَنُّـه قَدْ صَـــــــارُوا | في قَبْـضـــتُو عْلَى كَسْـــبْ
مَــاذَا نَشَــاوْ نْخْتَــــــــارْ | سِــوَا مَسَالَـــة حَسْــــبْ
دُونَ الصْلَاة عَلَى العَدْنَـــان | شُغْلًا يجَمَعْهُم طُولْ أَمَدْ الازْمَانْ
هْنَــا وهِيهْ يَــا فَـطـَّـــانْ | جِدْ وكِدْ دُونْ تْرَاخِي واعْفَـانْ
شَغَـــفْ فُـؤادَكْ حَيْــــرَانْ | بْحُبْ مُجتَبَاكْ مُحَمَّد يَا عَــــانْ

وإنما قال الناظم ما قال، لأن الرب لا ينسى ونسيانه هو عين ذكره لمن تبيَّنَ واضحَ أمره، فمن ألقى على الناس النسيان بعد ذكره للرحمان، والإقرار بالربوبية يوم: "ألست" في شهود العيان[1]، وبعد نشأته على الفطرة الإسلامية إلَّا مصرّف الأكوان ومقلب الجنان من الغفلة إلى الذكر، ومن الذكر إلى النسيان، وقد لوّح الناظم أيضا لهذا المعنى بقوله في قصيدته البائية: أَمْ الغَافَل عَنَّكْ حَقَّكْ مَا يَتْراكْ واذَا غَابْ القَلْبْ يَدْرُوك اعْصَابُ

شاهده قوله تعالى: [وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا]][الإسراء/44] كل قَدَّر علم صلاته وتسبيحه، ولهذا ورد في كيفيته بعض الصلوات المروية عن الثقات: "اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون"، فما عمّ في الذكر

[1] في (ب) و(ج): الحق.

وحص في الغفلة (إلَّا أن الله لا يمكن أن يغفل عنه بخلاف رسوله، فلذلك حرضوا على ملازمة الصلاة على حبيب الله ρ)[1] ، وقد كشف الغطاء ومهَّد الوطا أبو الحسن الشاذلي بقوله: "الهي جَلَّت عظمتك أن يعصيك عاصي أو ينساك ناس كُلٌّ مقهورون بقدرتك، لكن منحت روح أمرك في أسرار الكائنات، فالعاصي أطاعك بعصيانه، والناسي ذكرك بنسيانه، فمن خالف داعي إيمانك، فقد أجاب داعي سلطانك".

وأيضا فالله غني عن العالمين وعن أعمالهم، ولهذا قال الناظم إثر ما تقدم:

وَالثَّــانِي فِي ذَكْـــرُ لاَ شْ ... لَيَــاشْ يَذَكْـــرُواخَلْقُـــوا
فَتَّشْــتْ فِيـه كُــلّ افْتَـــاشْ ... دَقَّــقْتَــه أَيضًـــا دَقْ
وانْبَشْـتْ غَايَـــة التَّنْبَـــاشْ ... حَتَّى وْقَـــفْــتْ عَن حَـــقْ
صُبْتْ غَــنِي عَظِيــمْ الشَّــانْ ... لَيْسَانْ يْزِيدَه عْظِيمْ ذَكْر الفَــانْ
وَلَا يْصَـــادَفْ نُقصَـــــانْ ... اذَا نْسَا الخَلْــق ذَكْـرُوا رَضَـــانْ

ثم أظهر مراده في مراده وقال:

صَلِّ عْلِيهْ يَـــــــــارَؤُوفْ ... قَدْرْ الصَّلَاة مَنَّكْ لِيـــــــــهْ
مَنْ قَبلْ خَلْقَهْ المعْــــرُوفْ ... بَشْرَهْ ورُوحْ جُوزْ الْهِيـــــــهْ
مَنْ حَيثْ كَانْ نُورْ يْطُـــوفْ ... في احْجُوبْ عِزْتَكْ تَجْبِيــــــهْ
حَــتَّى لْيُـــومْ الامْتِنَـــــانْ ... يُومْ انْ يْكُونْ فِيهْ شْفِيعْ العَصْيَـانْ
ذَا الدَّهْر كِيفْ طَالْ أَوْ بَــانْ ... وهِي تْزَفْ عَنُّه شَتَّى الكْفَــــانْ
وهِيَ تْزَفْ كُلْ اوْقَـــــاتْ ... مُدَّةْ سْوَايَعْ أيَّـــــــــــــامْ
عَنُّه مُبْهَجْ الصِّفَـــــــاتْ ... رْحَمْتْ جْمِيعْ الأنَـــــــــامْ
قَصْدِي جْمِيعْ ذِي الصَّـــلاةْ ... كِيفْ مَا نَشَاتْ واسَّـــــــلاَمْ
في يُومْ تَنْحَصَرْ حُصْـــرَانْ ... ومَا بْقَى مِن ايَامَاتْ ثَــــانْ
تَحْتَاجْ تَتْعَمَّرْ عُمْــــــرَانْ ... كَمِثْلْ ذَلَكْ اليُـــومْ اللُّـــورَانْ

وإذا كان الله ρ وأقبل وأمرنا بالصلاة عليه في الأول وجب علينا أن نصلي عليه،ρ ، وإذا ورد في فضل الصلاة عليه، ما يشقى من صلى الله عليه، فينبغي لنا أن نكثرها لديه ونهديها إليه بقدر التمكن والإمكان باللسان والجنان وبكتب اليدين والبنان، فإن القلم أحد اللسانين، ونقول تنبيها للخلق وتعظيما لحبيب الحق: "اللهم اجعل أفضل صلواتك أبدا، وأنمى بركاتك سرمدا، وأزكى تحياتك فضلا وعددا، على أشرف الخلائق الإنسانية، ومجمع الحقائق الإيمانية، وطور التجليات الإحسانية، ومهبط الأسرار الرحمانية، وعروس المملكة الربانية، وإمام الحضرة الإلهية، واسطة عقد النبيين ومقدم جيش الأنبياء والمرسلين، وقائد ركب الأنبياء والمكرمين، وأفضل الخلائق أجمعين، حامل لواء العز الأعلى، ومالك أزمَّة المجد الأسنى، شاهد أسرار الأزل ومشاهد أنوار السوابق الأول، وترجمان لسان القِدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، مظهر سر الجود الكلي والجزئي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، النبي الأمّي الرسول

[1] ساقط في (ب) و(ج).

العربي القمر المكي الهاشمي القرشي (التهامي الزمزمي، روح جسد الكونين روح جسد الكونين، روح جسد الكونين، ثلاثا وعين حياة الدّارين)[1] المتحقق بأعلى رتب العبودية، والمتخلق بأخلاق مقامات الاصطفائية، الخليل الأعظم والحبيب الأكرم، سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد ا لمطلب، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين عدد معلوماتك ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون"، هذه الصلاة الكاملة التامة كتبها الشيخ البركة سيدي الحسن بن عبد العزيز بن رحّال [الكوشي][2] في المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والتحية وبعث بها لمحبه في الله[3] الأديب الفقيه الأجل سيدي الجيلاني بن الولي الصالح البركة سيدي يحي بن صفية[4]، وأمره أن يداوم عليها بعد صلاة الصبح والمغرب مرة واحدة أو مع جماعة، ويقرءونها جهرا وقال له هذه الصلاة المباركة هدية لك ولأخوانك في الله تعالى، وقد آخى هذا الشيخ المرسل بيني وبين هذا الآخر المرسل إليه قبل بعثه بهذه الصلاة في رسائل أثبتها لنا، وندبنا لتقوى الله وذِكرِ أسماء عيَّنَها في الكتب لنا، وحين انعقدت الأخوة وصحت الرابطة تساررنا سرّ الشيخ فوجدناه أرضعنا من ثدي واحد والحمد لله على كل حال، نسأله سبحانه أن يمتعنا بقربه وينعمنا بذكره، ويجعلنا في ستره ولا يشغلنا بغيره إنه قريب مجيب.

حدثني السيد الجيلالي المذكور أنه رأى البركة العظيمة لأوراده التي تلقاها عن هذا الشيخ الحسن المذكور، منها رؤيته للنبي ρ في غالب (ليالي الجمعة)[5] ومنها صفاوة القلب ورقته، ومنها تهييج المحبة والشوق والعشق، ومنها الاشتغال بذكر الله والصلاة على رسول اللهρ ، وقد شاهدنا منه من التواضع للخلق والخضوع للحق والحياء والسخاء والفقر والصبر والإيثار، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة ما يشهد لصحة حديثه، وأما كثرة المدائح وهيمان دمعه السائح، فهما الشاهدان العدلان اللذان نما عليه وأظهر ما استتر لديه، كما قال البوصيري في كواكبه الذرية التي نظمها في مدح خير البرية هو قوله:

أيحسَبُ الصبُّ أنَّ الحُبَّ مِنكتِمٌ مَا بَينَ مُنْسَجِمٌ منهُ ومُضْطَــرِمِ

لَولَا الهوَى لم تُرِق دمعًا عَلَى طُلَلٍ ولَا أَرَقت لِذِكرِ البَانِ والعَنَـــمِ[6]

فسبحان من خص من شاء بما شاء، رفع أقواما على أمثالهم مع مساواتهم لهم بمحض الاصطفاء كما قال في كتابه المكنون [وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [الرعد/5]، (اللهم يا منقذ الغرقى أنقذنا من بحر الجهلات، ويا ميسر اليسرى يسرنا لأكمل الحالات، وألحقنا اللهم بالرفيق الأعلى منة منك وتوفيقا، واحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فإنك لا ترد من سألك ولا تخيب رجاء من أملك يا كريم يا رحيم)[7].

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] إضافة في (ب) و(ج).

[3] في (ب) و(ج): لتلميذه.

[4] تقدمت ترجمتهما في قسم الدراسة.

[5] في (ب) و(ج): أوقاته.

[6] البيت الثاني ساقط في (ب) و(ج).

[7] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[في التربية والتهذيب:][1]

وسبب تفضيل بعض الثمار على بعض طيب الأرض لقوله تعالى: [وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ][الأعراف/58] ، وارتفاعها لقوله تعالى: [كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ][البقرة/265]وتوسطها لقوله تعالى: [لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ][النور/35]وتغيب أصولها في أصلها لقوله تعالى:[كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ][إبراهيم/24]، ثم تعهد سقيها لقوله تعالى: [أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ][البقرة/266]، ثم تنقية الأرض من الشوك وتقليم الأشجار وتقليمها وتذكريها على العرف المعروف لقوله تعالى: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ][الأعراف/199]، فهذا كله سبب في طيب الثمار على أكمل ما ينبغي وبلوغها إلى حد غايتها على وفق إرادة خالقها، وعلى مقتضي حكمة صنعه فيها، وإن استنشقت رائحة ورد جنّان الأوراد وأرادت أن تذوق طعم غرس إيمان الزهاد فارض بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبمحمد نبينا وطيب طينتك واستودعها نطفتك لقولهυ: «الناس معادن، خيارکم في الجاهلية خيارکم في الإسلام إذا فقهوا»[2]«اظفر بذات الدين تربت يمينك»[3]، فإن استوى نبات هذا المولود بسبب تغيب أصله في أصله الطيب[كذا][4] المرتفع المقدار وأينع بتعهد سقيه وإيصال ماء زيته إلى وسط حوض زيتونه، مع الملاطفة للأشجار، فحينئذ تبرز منها الثمار وتنفتح عن أكمامها على موافقة الأقدار، فإذا طابت لطيب أصلها ومذاق حلاوة عقلها فافصمها عن أصلها وافطمها عن رضاع حلاوة غوائلها وسلمها لمعلِّم عارف يُبشرها وينشرها في المكتب مع كتائب الصبيان حتى تجف من رُعونات شهوات بحر شمس تَحمُّل المشاق، والصبر حتى تألف ما عودت لطول ما استعملت ورددت، فتصلح حينئذ للادخار وتصير قوت الأبرار، قال ابن أبي زيد رحمه الله: "وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة –إلى قوله– جوارحهم فإذا خرج المولود من المكتب وتولى بتربية نفسه بإصلاح أرض قلبه التي هي مغرس أشجار أعماله وتطهيرها من جميع العوارض والمؤذيات من معاصي القلوب المعلومة، وأشرّها شوك شجرة حب الدينا فيميطه برفع همته إلى الله وللدار الآخرة، فإذا ارتفعت ربوة همته العليّة على الأقدار ورتب أرض قلبه عن ملاحظة الأغيار فليتوسط وسطها، وليغرس في سويداء قلبه شجرة التوحيد، وليغيب أصل وجودها في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه، وليتعهد سقيها بماء الكتاب والسنة حتى تظهر فروعها الفرعية وافنانها الفقهية وتثمر ثمارهاالعملية بإذن ربها رب البرية، فإن ييس فرع ألو لم يثمر فرع من أفنان الأعمال الصالحة فليقطعه بالتقليم وليخلفه بطاعة أخرى تنتج بالتعليم، وإن ضعفت الشجرة وقلّ ثمارها فليذكرها بذُكَّار الأذكار، وليعلقه فيها بسعة التذكار وليسمعها قوله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ][هود/112].

وإنما غرس هذه الشجرة بربوة في وسط الأرض لتَرِدَ عليها الألطاف من كل جانب، فالمطر يحييها، والشمس تنميها، والرياح تلقحها، والهواء يغذيها، وتهب عليها الأرواح الأربعة، والشمس لا تزايلها، فكذلك شجرة التوحيد في

[1] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج3 (م سابق) ص: 1235.

[3] الحديث أخرجه الشيخان برواية مختلفة قليلا: "تربت يداك"، ينظر:- مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص: 1086./ - البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 1958.

[4] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

وسط لب القلب لا تغيب عنها شمس المعرفة، فإن حجبت منها طلع قمر العقل ونجوم العلم عليها حتى تعود شمسها، وكذلك لواقح رياح الخوف للأمن والرجاء للآيس، والصَّبا للهارب والشِّمَال للمدبر، ومطر المواعظ والزواجر للقلب القاسي، ونسيم رطوبة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين في الباقية لمن جعل إلهه هواه، فهذه الأسباب هي سبب تقويم هذه الشجرة واعتدالها حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، جعلنا الله وإياكم من أهل لا إله إلا الله، المتبعين لرسول الله المستمسكين بحبل الله وبجاه صاحب الجاه سيدنا ومولانا محمد ابن عبد الله.

[كلام في اسمه ρ، ومطابقة حروف الاسم لصورة المسمّى، وبعض أسراره:]

قوله: "هذا محمد"، هذا الاسم الشريف هو من أفضل أسمائه عليه الصلاة والسلام، وعدد أسمائه الكريمة مائتان اثنتان وواحد زائد، ذكرها كلها سيدي محمد بن سليمان الجزولِي في كتابه «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار» وكذا تتبع معانيها وأسرارها الشيخ العالم أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي الفضل قاسم الرصاع على أكمل ما ينبغي، فينبغي لكل محب في هذا النبي ومشتاق إلى معرفته أن يطالع هذا الكتاب ليزداد فيه محبة ورغبة، وإنما أورد الناظم هذا الاسم هنا دون سائر الأسماء لفوائد اختص بها:

الأولى: أن هذا الاسم أشهر أسمائه عند أهل الأرض والمخاطبة معهم لما ورد أن اسمه في الأرض محمد وفي السماء أحمد، وفي البحار الماحي، وفي القيامة الحاشر، و في النار العاقب، وفي الجنة القاسم.

(الثانية: أن هذا الاسم مشتق من اسم الله كما قال حسان بن ثابت:

فَشَقَّ لهُ من اسمِهِ ليُجِلَّــــــــهُ فَذُو العَرْشِ محمُودٌ وهذَا مُحَمَّدٌ

فمحمد مفعّل منقول من الصفة سمي به نبينا محمد ρ ليكون محمودا في السماء والأرض، فكان كذلك والحمد لله على ذلك، فهو الحامد داعي الجميع من الكثرة إلى الواحد، وهو أحمد من حمد ربه، وأحمد من حمده الحامدون وحمده ربه ρ، وشرف وكرم ومجد وعظم ونافس بها الكل في مقام الحمد في قوله: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر»[1]، ولذا كان بيده لواء الحمد في القيامة يدخل الأمم تحته ممن دونه".

فائدة: أخرج في «شرح الشفاء» عن ابن مسعود قال: "سأل عبد الله بن سلام رسول اللهρ عن لواء الحمد ما صفته فقال: طوله ألف سنة وستمائة، سِنُّهُ من ياقوتة حمراء، وقبضته من فضّة بيضاء، و[كذا][2] من وبرجدّة خضرا، له ثلاث ذوائب ذؤابة بالمشرق وذؤابة بالمغرب وذؤابة وسط الدنيا، مكتوب فيها ثلاثة أسطر الأول: بسم الله الرحمن الرحيم، والثاني: الحمد لله رب العالمين، والثالث: لا إله إلا الله محمّد رسول الله ρ ، كل سطر مسيرة ألف عام، قال: صدقت يا محمد".

[1] الحديث أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج3، (م سابق) ص: 143.

[2] ساقط في (ب) و(ج).

وفي رواية ذكرها الدلجي في شرحه الآخر، أنه قال: فيه ثلاث شقق كل شقة ما بين السماء والأرض، على الأولى مكتوب البسملة، وعلى الثانية الشهادتان، وعلى الثالثة أبو بكر الصديق عمر الفاروق وعثمان ذو النورين، علي الرضى.)[1]

الثالثة: أن شكل حروف هذا الاسم علو وِفقِ صورة مسمّاه، قال صاحب «الشّعَب»: "اعلم أن الله خلق آدم وأولاده على صورة حروف محمد عليه الصلاة والسلام كي لا يُرى إلا اسمه في كل معظم غير الله لقوله تعالى: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ][الإسراء/70]، وقال تعالى:[لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][التين/4] ، وكذلك صورة أهل الجنة لأنها معظّمة عن الله معظّم أهلها، فجعل الميم هو الرأس والحاء اليدين والميم الثانية هي البطن والدّال هي الفخذان والساقان والقدمان، وهكذا صورتُه في الخط القديم.

وإنما خرجت البهائم والنبات والمعادن والآلات والأثاث عن هذه الصورة المحمدية، وكذا سائر الأشخاص الخارجة عن هذا الأسلوب بكونها مستخدمة مملوكة لبني آدم مخلوقة من أجلهم ،كي لا يستخدم اسم الحبيب ولا يستدل فاسمه في الأزل موافق لخلقة ذاته فيما لا يزال، وهو مشدد مضعف في التركيب، ومعناه زمّه وأدخل في ذاته من المحامد ما لا يحيط به إلا الله، كما يشد المتاع ويزم، فهو سبحانه أبدا يظهر ذلك التضعيف المدمج فيه بالكتاب الإلهي بخط يده القوي ما لا يحيط به سواه.

ثم اسمه خمسة أحرف، لأن الميم المضعفة من حرفين عجنت فيه المحامد على عدها وركبت ذاته على عدتها، لأن الدّال نقطه أربعة على عدد أبجد، فركب ذاته من أربع طبائع وأخذ جوهر كل طبع ونوره، فضمّ بعضه إلى بعض وطَبَعَه على كل شرف وطيّب طبعا، لا يشبهه طبع ولهذا ورد أن طينة محمد ρ عجنت بماء التسنيم، وصنع بها من الإكرام ما لم يصنع لأحد قبله ولا بعده، ثم الميمات الثلاث لما جَمَعَت الأربع طبائع، عجنت أربعين يوما ثم أربعين ثم أربعين، لأن كل ميم نقطها أربعون، ففي الصحيح نطفة أربعين ثم علقة أربعون ثم مضغة أربعون، والحاء ثمانية وبها يتم العدد ا لذي تكمل به الخلقة، ثم ينفخ فيه الروح في الشهر الخامس الذي تكون عدة المتوفى عنها لهذه الحكمة، فبكمالها يتحرك الولد، قال الله تعالى: [وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا][البقرة/234]، فإن قلت قد نقص من العشرة المذكورة في الآية يوما على حسابك، فارجع البصر واستعمل النظر تجد العدة المذكورة بالأشهر العربية، وهي شهران كاملان وشهران ناقصان لقوله υ: «الشهر تسعة وعشرون»[2]، لأنه يكمل وينقص برؤية الهلال، وجرت عادة الله فيه أنه تارة بتارة، ثم بعد نفخ الروح في الجسد ينشأ نشأ آخر، قال الله تعالى: [ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ][المؤمنون/14]، فالتام الروح مع الجسد،وارتبط بالقدر الذي قدر، فروح محمد ρ لما نفخ في الجسد أدرجت في ذاته جميع النبوءات وطبع عليها لأنه رأس الرسل وغايتهم، وعددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والأنبياء في ضمنهم وعددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، وعدد الرسل من جملتهم، يفهم ذلك من فهم انفصال النبوّة من الرسالة والولاية من النبوءة.

---

[1] الكلام من (الثانية: أن هذا الاسم مشتق -إلى- علي الرضى) ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه: البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 1996./ – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج8، ص:233./ – الدارمي، سنن الدارمي، ج2، (م سابق) ص: 8.

وهذا العدد من الرّسل على عدد حروف اسمه الكريم، عجنت فيه بالنشاط المطبوع جميع شرائع الرسل وأخلاقهم وطباعهم مع طبعه، فكان يعسوبهم، وبيان ذلك أن الميم ثلاثة أحرف ميم وياء وميم، والميمان المضعّفان ستة أحرف والدّال ثلاثة أحرف والحاء حرفان فقط، لأن الهمزة هي عين الألف، فإذا جمعت عدد حروف اسمه الكريم حصل لك ثلاثمائة وأربعة عشر، الثلاثمائة والثلاثة عشر للرسل الجامعين للنبوّة، ويبقى واحد من العدد هو لمقام الولاية على جميع الأولياء التابعين للأنبياء [اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا][البقرة/257].

والأولياء صغارا أو كبارا، والولاية انفصلت من النبوّة، والنبوّة من الرسالة، والرسالة منه ρ ، فهوالجامع للكل، قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار كرشي وعيبتي»[1]، فسماهم عيبة وهو الوعاء الذي يجمع فيه المتاع، ولذا قال آدم في حديث الشفاعة: "أرأيت لو أن أحدكم جمع متاعه في عيبته ثم ختم عليها، هل كان يؤتى للمتاع إلا من قبل الختم، فاتوا محمد فهو خاتم النبيين" قال الشيح أبو زكرياء بن محمد الأنصاري: "وتطلق العيبة مجازا على من هو محل سرّك من رجل أو امرأة، ومنه حديث الأنصار" من (شرحه على المنفرجة).

ثم قال صاحب «الشَّعب» إثر كلامه السابق: "فلما نفخ فيه الروح [الكريم][2] المخلَّق بالخلق العظيم من اتصافه بأوصاف الربوبية، فأوصاف محمّد هي معاني أسماء الله وصفاته المبثوثة عن معاني أوصافه القديمة، فنشأ الرّوح في البطن مع الجسد مدّة باقي الحمل، وهو مقدار نصف المدة المتقدمة للجسد، فاصطحب الرّوح مع الجسد على هذه الأخلاق، واتحد فحصل لهما في المدّتين بخط الكَتْب الإلهي كل محمود بثّه الله في الوجود عن معاني أسمائه وصفاته، وكان فضل الله عليه عظيما، ولذا كلّف بالحمد على ذلك، فقيل له محمد أي ملقن للمحامد، فألهمه الله للحمد والشكر والثناء على مولاه ما لم يلهمه أحد غيره، ولذا سمّاه أحمد وهو قريب من صورة محمد، أي أحمد من غيره، بل هو ينوب عن الكل في مقام الحمد، ولذا كان بيده لواء الحمد، وقد وزن الكل ورجح بهم ρ وشرف وكرم ومجد وعظم.

قوله: "واقبل عنه ثم واجتباه" (البيت)، زيادة بيان وفائدة: تقدم شرح موافقة الصورة المحمدية لاسمها ومطابقة حروف الاسم لصورة المسمّى، وبقي سر التخصيص بهذه الصورة دون غيرها من الصور حتى تدرك أفضلية قوله تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][التين/4]، ونفهم عاقبة الإقبال والاجتباء، فنقول: إن في ذلك لسرّ عظيم ونبأ جسيم لمن عرّفه الله نفسه، قال أبو العباس بن البنا رحمه الله في «مباحثه الأصلية»:

يا سَابقًا في موكِـبِ الإسـراعِ ... ولاحِقًّـا في جَيـشِ الاختِـرَاعِ

اعْقِل فأنتَ نُسخَـةُ الوجُـودِ ... للهِ مَـا أَعـلَاكَ مِن مَوجُـودِ

أليسَ فِيـكَ العـرشُ والكُرسـيُّ ... والعَـالَمُ العُلـوِيُّ والسُّفْلِـيُّ

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان:- مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:1949./ - البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1383.

[2] إضافة في (ب) و(ج).

مَا الكَـونُ إلَّا رَجُــل كَبِيـــــر   وأنتَ كَـــونٌ مِثلُـــه صَغِيـــرُ

قال الشطيبي في شرحه (موكب الإبداع): "يوم خلق الله الأرواح مثل وخاطبها:[أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ][الأعراف/172]وقسمها إلى قسمين، وقبض قبضته، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وقبض أخرى وقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي وموكب الاختراع: يوم ظهورهم من عالم الأمر إلى عالم الخلق، ومن الغيب إلى الشهادة ومن الأنوار للإنجبار، ودليل خلق الأرواح قبل أجسامها قول الله تعالى:[وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ [ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ]][الأعراف/11]، وما في الخبر: إن الله يخلق الأرواح قبل الأجساد بألف ألف عام، والروح باقية أبدية لقوله تعالى:[[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ] فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ [ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ]][الزمر/68] وهم والله أعلم سبعة: العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار والأرواح، وهم سكّان الدارين، قال بن عباس τ: "الأرواح خلق على صورة بني آدم وعلى صورة الملائكة وغيره هم، فما من روح إلا وهي على صورة من الصور.

وقوله:"نسخة الوجود"، قال الله تعالى: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ][الإسراء/70]، جعله نسخة للوجود، ويحاكي بصورته كل موجود، وقال الله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ][الأنعام/165]، لأن الإنسان خلق من لطيف وكثيف، نصفه روحاني ونصفه جسماني، عقله سماوي وجسمه أرضي، جمعت فيه العوالم كلّها، عالم الملك والشهادة، ما يدركه بحسّه، وعالم الملكوت والغيب هو أول عالم العقل، وعالم الجبروت وهو نهاية عالم العقل، وعلم العزة وهو عالم الإحاطة الخارج عن إدراك العقل، ولا بدّ من إدراكه.

والإنسان برزخ جامع لجميع العوالم والمعلومات، من يوم أن علّم الله آدم الأسماء كلّها فهو بالصورة آدمي، وبالعقل ملكي، وبالحيل جنيّ، وبالروح ربّاني، وهو سرّ قوله عليه الصلاة والسلام: «أن الله خلق آدم على صورته»[1]، فافهم ولا تتوهم، وهو بالذات فقير بنفسه، وبالقلب غني بربه، فهو من حيث حسّه نقطة من الطّين، ومن حيث معناه خليفة رب العالمين، قال ابن عطاء الله: "وسعك الكون من حيث جسمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك"، وهذا سر قول الله تعالى: [قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي][الإسراء/85]، فافهم واغتنم.

وقالت الأطبّاء أن في الإنسان ألف نفع بالخاصّية، وألف ضر بالخاصية، وجسمه كعالم الشهادة، وقلبه كعالم الغيب، وفيه العناصر الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار، وفيه جميع النباتات والجمادات والجبال والبحار والأنهار، وغير ذلك، وقال الورّاق:"الإنسان ركب من جسم كثيف وروح لطيف، ونفس ممتزجة وقلب متقلّب، فمتى غلبت ظلمة الجسم فهو من البهائم وغايته التراب والعذاب، ومتى غلب نور الرّوح فهو من جملة الملائكة وغايته العروج للسدرة"، قال مريد لشيخه: "أريد السياحة، فقال له جرّد قلبك عن السّهو ونفسك عن اللهو ولسانك عن اللغو واسلك حيث شئت".

[1] الحديث أخرجه الشيخان:– مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:2017./ – البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص:2299.

فإن قلت: قد فهمنا (بعض فوائد)[1] شبه الصورة الأدبية للحروف المحمدية، وأدركنا معنى كون الخلقة الأنسية نسخة للعوالم الكلية، أردنا أن نعرف معنى قوله تعالى للملائكة: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً][البقرة/30]، ومعنى قوله ρ: «أن الله خلق آدم على صورته»[2]، وأردنا أيضا بيانالأمر المومئ إليه[3] بقوله عزّ وجلّ: [قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي][الإسراء/85] ، فإن معرفة الخليفة توصل إلى معرفة المستخلق لقوله υ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[4]، قلنا إن هذه الآية والأحاديث المتشابهة اختلف الناس[5] في أمرها، فمذهب مالك والأقدمين أنها يؤمن بها كذلك، وتترك على ظواهرها، ونَكِل علم تفصيلها إلى الله عزّ وجلّ، بعد نفي ما يستحيل من ظواهرها، وإيجاب ما يجب وجواز ما لا يجوز، ولا نتعرض لتأويلها بعد هذا القدر عملا على قوله تعالى: [وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا [وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ]] [آل عمران/7].

ولذلك قال مالك للسائل: "الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عن هذا بدعة"، وأراد صاحب بدعة، أخرجوه عنّي فوجدوه بدعيا، وهذا لما سئل عن معنى قول الله تعالى: [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى][طه/5]، وقال الشافعي:"في كل مشكل آمنا بما جاء عن الله على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله"، وقال الأشعري: "فيجب علينا أن نؤمن بالمتشابه كاليد، والوجه والعين والاستواء، ونعتقد أنها صفات للمولى مخالفة لصفاتنا، ورد بها السمع، ولا مجال للعقل فيها إذ لم نكلّف بمعرفتها، ومذهب المتأخرين أنها تتناول على ما يطابق القواعد العقلية والعرفية واللغوية، ولا تترك على ظواهرها الموهمة، بل نتحرّى الصواب فيما يطابق الحق على حسب ما يليق بالحال والمقام وأنواع التفنّن في الكلام عملا على قوله تعالى: [وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ]][آل عمران/7]، فإنه عندهم معطوف على اسم الجلالة ويصح الوقف عليه، والأقدمون وقفوا على اسم الله، وقالوا: الراسخون مبتدأ خبره في جملة يقولون، ولهذا تعرض صاحب «الشعب» لمعنى الاستواء، ولم يقتد بإمامه مالك، وتعرض أيضا لمعنى الخلافة والرّوح، وكذا الغزالي وابن عبد السلام تعرضا لروح المعنى ولم يكفّا كإمامهما الشافعي.

قاعدة: قال سيدي أحمد زروق: "الكلام في المحتمل بما يقتضيه من الوجوه السائغة فيه لا ينكر[6] عل أصل التفويض بالنقص، إذا لم يعتقد أنه عين المراد به، فأما مع إيهام احتماله فلا يضرّ، لأنه الأصل الذي نبني عليه بعد نفي المحال، فليس بناقض له وإن كان مناقضا، فمن ثمَّ تكلم القوم في التأويل بعد عقد التفويض، وإلا فلا يصح بعد إجماعهم عليه. نعم؛ التحقيق أن لا تفويض في الأصل، وإنما هو في تعيين المحمل للزوم طرح المحال".

قال بعضهم: "العرش سقف الجنان لا مستقر الرحمان، والكرسي داية القدم لا موضع الأقدام، والسّماء معدن الملائكة لا مسكن الملك، في أستاره سلطانه، ونزول امتنانه، ومحبته رضوانه، وضحكه غفرانه، ووجهه وجوده،

---

[1] في (ب) : سرّ.

[2] تقدم تخريج الحديث في الإحالة الأولى من هذه الصفحة.

[3] في (ب) و(ج): ما يرمز.

[4] الحديث أورده: أبو نعيم، الحلية، ج10، (م سابق) ص: 208./ - اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، (م سابق) ج2، ص: 343.

[5] في (ب) و(ج): الناس.

[6] في المصدر: لا يكن، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق، محمود بيروتي، ص: 74.

ويده ودوده وعينه شهوده، ومن لم يعتقد هذا فالصنم معبوده، وإذا كان في اختلاف هذه الأمة رحمة ومندوحة ساغ، لذلك تذكر بعض ما ذكروا في تأويلات هذه الألفاظ الموهِم ظاهرها نقصا"، فنقول قوله ρ: «إن الله خلق آدم على صورته»[1] قال بعض العلماء: "الضمير يعود على آدم نفسه، أي خلق الله آدم على وفق صورته التي قدّرها في علمه قبل أن يخلقه، فأوجده في (عالم الخلق)[2] وأظهره في (تصوير جسده الترابي)[3] على حسب ما قدر في عالم الأمر كما سبق في سابق علمه من غير زيادة ولا نقصان، فإن علم الله سبق الإيجاد، بل هو سببه والأصل فيه، وليس هو كعلمنا التابع لما وجد ومثاله في الشاهد، ولله المثل الأعلى إن واضع الشطرنج الذي اخترعه سبق علمه بكيفيته قبل وضعه،(وسبق تقديره في تفصيله قبل تحصيله)[4]، ثم بعد هذا أنشأه ووضعه كما علم ودبّر، وصوّره على وفق ما قدّر، وأما من يتعلم كيفية اللعب فيه حتى يسمى عالما به فإن علم هذا تأخر عن وضعه، وتابع لبعض معارف مبدعه، وهذا تأويل حسن ولكنه قاصر عن إحاطة التأويل الأحسن، وهو أن الضمير يعود على الله، وهذا الثاني يحتاج صاحبه إلى حدّة البصر وتحقيق النظر، وإلا ارتكب مرتكبه في سهوات الضرر، لما في ذلك من الخطر.

قال صاحب «الشعب»: "قوله ρ: إن الله خلق آدم على صورته»،وفي رواية أخرى "على صورة الرحمان"[5]، قال وكذلك بنون ليس معناه الصورة الجسمان، تعالى الله من الشبه، وإنما معناه أن الله خلق الأشياء من أجل بني آدم لقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا [ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]][البقرة/29]، [وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا [مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]][الجاثية/13]، وفي الخبر: "ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي وهم الملوك فيها في الدنيا والآخرة"، قال الله تعالى:[وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا [وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ]][المائدة/20].

فمثال ذلك في الدنيا أن البارئ تعالى هو ربّ الأرباب، وهو رب العالمين، يتصرف في ملكه بالتدبير ووضع الأشياء مواضعها، واستخلف بني آدم في الأرض بما فيها، وسخر لهم العلويات والسفليات لينظر أيشكر أم يكفر، كأن يشتغلوا بما خلق من أجلهم عما خلقوا من أجله أم لا، وجعل عالم الحيوان غيره على أربع قوائم منحنيا ليركب عليه بالخلافة وليكون مالكا له، وكذا النبات والمعادن والأرض والبحر وغيرها، وأمر بالاستواء على الجميع، قال الله تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ [وَإِلَيْهِ النُّشُور]][الملك/15]، وقال تعالى:[أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا]][النبأ/6]، وقال عزّ وجلّ: [[وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا] وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ]][الزخرف/12،13]، أي ما كنّا له سبحانه مقرنين على أحد التأويلين، أي نقرنوا نفوسنا معه إذ جعَلَنا على صورته، ووصفنا بوصفه حين ملّكنا الأشياء وسخّرها لنا، كما ملكها هو وسخّرها له، وخلق ابن آدم منتصب القامة

---

[1] تقدّم الحديث في الصفحة 291.

[2] ساقط في (ب) .

[3] ساقط في (ب).

[4] ساقط في (ب).

[5] تقدم الحديث في ص:291. ورواية " على صورة الرحمن" أوردها:- القرطبي، تفسير القرطبي، ج20، (م سابق) ص: 114./- الطبراني، المعجم الكبير، ج12 (م سابق) ص:430.

لئلا يذلّ لغيره بالركوع كما ذلل الله له غيره، بذلك فقد استوى على غيره بالخلافة والقهر، كما أن البارئ مستو على عرشه وملكه بالرتبة والقهر.

وخُصَّ أيضا بالعقل المدبّر لأمور المصالح والمهالك، وأُمر بالتفكر في العالم علوّه وسفله، وخلق روحه على صورة من البسط لا يقبل على مكان دون مكان، كما أن بارئه لا يُقبل على مكان دون مكان لقوله تعالى: [[وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ] فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ]][البقرة/115]،ولايشغله شأن عن شأن فيدبر ويتصرف بذاته الباطنة في كل مكان من العالم، لتظهر سياسته في الملك حسبما أمره به المستخلف له سبحانه، إذ أمره أن يكون على صورته عزّ وجلّ في التدبير والملك للأشياء،لا أن يقلب الحكمة فيفسد الأشياء أو يكون عبدا لها، فقد استبان لك معنى الحديث ولم يبقى فيه إشكال، وكنت من الذين قال فيهم [وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ][آل عمران/7].

والتأويل الذي أضرب عنه في الآية ذكره الغزالي، وهو أن ضمير (له مقرنين) يعود على المسخَّر على المسخِّر تعالى، أي فضلنا عليه وجعنا راكبين لا مركوبين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون في الآخرة بركوبنا على النعش كما ركبنا الحيوان في الدنيا، من «الإحياء»، ثم قال في «الشعب»: "ولهذا نطق النعش وقال بلسان الحال: أنظر إليَّ بعقلك أنا المعَدُّ لحملك، أنا سرير المنايا، كم جرى مثلي بمثلك.

وأما رواية على "صورة الرحمان" فقد قال تعالى: [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى][طه/5]، فلم تر الخليقة منه إلا اللطف لسعة رحمته التي اقتضاها اسمه الرحمن، فمن عصاه واستكبر على عبادته، وتاب من الاستواء عليه بالرحمة وانحاز لغيره في زعمه وجب طرده وعذابه مع من انتمى إليه، وانحاز معه من المخلوقات ونسب إليه ما ليس من الإلهية، فتسلطت عليه الأشياء حين نسب إليها ما لا يليق بها، وغضبت عليه أزلا وأبدا، فهذا سبب العذاب في الوجود كله، ولو بقي على ما أريد منه من ارتكاب المحاب وإبلاغ الحكمة إلى غايتها لكان غريقا في الرحمة، لكنه قلب الحكمة فيصير العبد ربّا والفاصل مفصولا، فاستحق العذاب لذلك.

وكذلك أمر ابن آدم أن يستوي في خلافته بالرحمة لما استخلف فيه لما حدّه له الشرع المستخلف له، ولا يكون جبّارا ولا شيطانا،(فإن عصى شيء مما استخلف فيه أو نفروأذى كسائر المؤذيات للخلفاء في هذا العالم مثل الشياطين)[1] والحيّاة والسباع، فقد سلط الخلفاء عليه بالفقر والقتل والطرد، إلى غير ذلك من الحكم، فيكون حينئذ خليفة حاكما فيها على صورة المستخلق له، ولم يستعبد الأشياء، وارتفعت همّته لمستخلفه ولا يخضع إلا لمالكه، إلا أن يريد أن ينحني لغيره حنو رحمة وعطف ساغ له ذلك كما يتنزل مستخلفه إليه من صفات العظمة والكبرياء وإلى صفات اللطف والرحمة فافهم.

قلت وعلى هذا المعنى يتنزّل ما ورد في الحديث الصحيح من النزول الإلهي في قولهυ: «يتنزّل ربّنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فينادي: هل من داع فأستجيب له، هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فاغفر له»[2]، ومن هذا التنزيل تزلزلت أوصال النووي حين سمع ما فهمه النووي من قال[1]:

---

[1] ساقط في (ب).

[2] الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 522./ – الدارمي، سنن الدارمي، ج1 (م سابق) ص: 413.

لا زلتُ أَنزِلُ من وِدَادِكَ مَنْـزِلٌ   تَتَحَيَّرُ الألبَابُ عنــدَ نُزُولِـــهِ

فلا زال يعدوا في أجمة قصب هائمًا وَالهًا حتى مزقت لحمه ومات رحمة الله عليه: فكن فطنا وفَيهَمٌ ولا تَتَوهَّم فَتُتَّهَم، وكن في الفهوم[2] نَهَمُ، إذا ما ظفرت[3]اتصلت بهم، فهذا القدر كاف في بيان تأويل قوله تعالى: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً][البقرة/30] وقوله υ: «إن الله خلق آدم على صورته»[4] لمن فهمه الله ذلك.

[بيان في معرفة الروح:]

وبقي لنا بيان قوله تعالى: [قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي][الإسراء/85]، وقوله υ: «من عرف نفسه عرف ربّه»، اعلم وفقنا الله وإيّاك أن الأمور الربّانية لا تطيق العقول إدراكها على ما هي عليه، لكن يرمز إليها بإشارة تومئ إلى أوّل مبادئها، ولذلك قال سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري[5] في لاميته:

حَقِيقَةُ الرُّوحِ ثُمَّ النَّفْسِ نَجْهَلُهَا   كَذَلِكَ العَقْلُ فِينَا غَيْرَ مُنْعَقِـلِ

وها أنا أذكر لك من أمرها بعض ما أوردوا في أمرها، فقد قال الإمام أبو حامد في قوله تعالى:[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ [أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]][ق/37]، "فجعل الله من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب، وليس لكل إنسان قلب، ولست أعني بالقلب هذا اللحم الصنوبري الذي تكتنفه عظام الصدر، بل أعني به السرّ الذي من عالم الأمر، وهذا اللحم الذي وهو من الخلق عرشه، والصدر كرسيه، والأعضاء عالمه ومملكته، ولله الخلق والأمر جميعا.

ولكن هذا هو السرّ الذي قال الله فيه:[قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي][الإسراء/85]، وهو الملك والأمير، لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهي اللطيفة إذ صلحت صلح لها سائر الجسد، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه، وعند ذلك يشمّ العبد مسك روائح المعنى المطوي تحت قوله ρ: «إن الله خلق آدم على صورته».

وقال في موضع آخر من «الأحياء»: أيضا الروح تطلق ويراد بها الجسم اللطيف والبخار الذي يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق والضّوارب، فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوّة وحسّ وإدراك، وقوّة حركة وغيرها كالسراج الذي يُدار به في أطراف البيت، فلا يصل الأجزاء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله واختراعه، ولكنه جعل السِراج سببا له بحكمته، وهذا البخار اللطيف هو الذي تسمّيه الأطباء الرّوح، ومحلّه القلب ومثاله جرم

---

[1] في (ب) و(ج): ما فهمه النووي من قول القائل.

[2] في (ب) و(ج): العلوم.

[3] في (ب) و(ج): ما اتّصَلت.

[4] تقدّم الحديث في الصفحات القليلة السابقة.

[5] أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي(800هـ/1398م-884هـ/1479م) متكلم، فقيه مالكي، من كبار العلماء في وقته، قال السخاوي: "من المشهورين بالصلاح والعلم والورع والتحقيق"، وقال الشيخ زروق: " شيخنا من أعظم العلماء اتّباعا للسنّة و أكبرهم حالا في الورع" من آثاره "كفاية المريد" في علم التوحيد، ومنظومة لامية تنيف على 400 بيت، وتسمى أيضا " الجزائرية في العقائد الإيمانية" شرحها الإمام محمد بن يوسف السنوسي وأثنى عليه. ينظر"عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، (مرجع سابق) ،ص: 96، 97.

نار السراج والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود الذي في داخل القلب له كالفتيلة، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن نسبته إليها كالضوء للسراج في جملة البيت، وكما أن الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا، بحيث لا تقبل الزيت فتنطفئ السراج مع كثرة الزيت، فكذلك الدّم الذي يتشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء، فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقي به الروح، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به، كما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه، وتارة من سبب خارج كريح عاصف، فكذلك الرّوح قد تنطفئ من سبب داخل، وتارة بسب خارج كالقتل، وكما أن انطفاء المصباح بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بتطفية إنسان، لا تكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله مرتبة، ويكون كل ذلك بقدر، فكذلك انطفاء الروح، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده، فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح، وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله، فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله، وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح، وهي أنوار الاحساسات والقدرة والإرادة وسائر ما يجمعها لفظ الحياة، فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله، وعجائب صنعه وحكمته، ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكلماته لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلماته، فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا.

وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت في الجسد فسد لهسائر الجسد، فذلك سر من أسرار الله لم نصفه، ولا رخصة في وصفه، إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى، والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة، قصور البصر عن إدراك الأصوات وتزلزل في ذكر مبادئ وصفها مقاعد[1] العقول المقيدة بالجوهر والمرض المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه، بل نور آخر أعلى وأشرف من العقل، يشرف ذلك النور في عالم الولاية والنبوة، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال، وقد خلق الله الخلق أطوارا، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها، لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق والإيمان واليقين، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليها إلا واحد بعد واحد.

وكتاب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، و على أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني، فمن لم يكن له على العتبة جواز ولا يحافظ العتبة مشاهدة، استحال أن يصل إلى الميدان ، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: "من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه" فأنى يصادف هذا في خزانة الأطباء، ومن أين للطبيب أن يلاحظه" انتهى. من (ربع المنجيات) وغالب ما أنقله عن «الإحياء» فمن هذا الربع، كما أن جميع ما أنقله في الأصل عن صاحب «الشعب» إنما هو النصف الثاني لوجود الكتابين بيدي.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: « من عرف نفسه عرف ربه»[2] فلك في معرفته نظران[3]:

[1] في (ب) و(ج): معاقد.

[2] تقدم تخريج الحديث في ص: 292.

[3] في (ب) و(ج): معنيان.

الأول: (من عرف نفسه بالحدوث بعد العدم، عرف ربه بوجود الوجود والقدم، ومن عرف نفسه بالمماثلة والتعدد عرف ربه بالمخالفة والتوحيد)[1]، ومن عرف نفسه بالعجز (والافتقار)[2] عرف ربه (بالغنى)[3]والاقتدار[4] ومن عرف نفسه بالضعف (والذلّة)[5] عرف ربه بالقوة والعزة، وهكذا في سائر الأوصاف، فمن عرف نفسه بالنقائص والزلات[6] عرف ربه بالفواضل والكمالات، فإن الأشياء تعرف بأضدادها، وكما أن كمالات الله تسعة وتسعون مشهورة [7]، فنقائص[8] النفوس تسعة وتسعون مستورة[9] لا يعرفها إلا أرباب البصائر[بالمقابلة][10].

فائدة: في المعنى قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي τ : " من أراد أن تكون الإجابة طوع يديه فليقل: " ياعزيز مَنْ للذليل غيرك، يا غني مَن للفقير غيرك، يا قوي مَن للضعيف غيرك، يا قادر مَن للعاجز غيرك"،(فإن الله يعزه ويغنيه ويقدره ويقويه)[11] ويمد أوصافه بأوصافه، حيث استنزل بصدق الاضطرار خفي ألطافة، اللهم استر عورات أوصافنا اللئام بجميل ستر أوصافك الكرام،(وقابل الوصف بالموصف، فإن منا ما يليق بلومنا، ومنك ما يليق بكرمك".)[12]

النظرالثاني: مناسبة المعاني[13]، قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام τ: "وقد ظهر لي من سر قوله ρ: «من عرف نفسه عرف ربه» [14] ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو أن الله سبحانه وتعالى وضع هذا الروح الروحانية في هذه الجثة الجثمانية لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته وربانيته، ووجه الاستدلال بذلك من عشرة أوجه:

الأول: أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقرا إلى مدبر ومحرك، وهذا الروح يدبره ويحركه، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر.

الثاني: لما كان مدبر الجسد واحدا، وهو الروح علمنا أن مدبر هذا العالم واحدا لا شريك له في تدبيره وتقديره، ول كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [[مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ] وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ [وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ]][المؤمنون/91].

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] ساقط في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): القدرة.
[5] ساقط في (ب) و(ج).
[6] في (ب) و(ج): الهفوات.
[7] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).
[8] في (ب) و(ج): أوصاف.
[9] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).
[10] إضافة في (ب) و(ج).
[11] ساقط في (ب) و(ج).
[12] ساقط في (ب) و(ج).
[13] في (ب) و(ج): المناسبة والمشاكلة في المعاني.
[14] تقدم تخريج الحديث في ص: 292.

الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وبتحريكها له، علمنا أن له مدبرا لما هو كائن في كونه، لا يتحرك متحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها به، لا يكفي على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء، علمنا أنها لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب (إلى الروح من شيء؛ بل هو قريب إلى كل شيء في الجسد، علمنا أنه قريب إلى كل شيء، ليس شيء أقرب)[1] إليه من شيء، ولا شيء أبعد عنه من شيء، لا بمعنى قرب المسافة، لأنه منزه عن ذلك.

السادس: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية، علمنا أنه متقدس عن الكيفية.

[السابع: لما كان الروح موجودا قبل وجود الجسد، ويكون موجودا قبل وجود الجسد، ويكوم موجودا بعد عدم الجسد، علمنا أنه سبحانه موجود قبل كون خلقه ويكون موجودا بعد فَقْدِ خلقه، ما زال ولا يزال/ وتقدس عن الزوال.][2]

الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له أينية، علمنا أنه تقدس عن الكيفية والأينية، ولا يوصف بأين ولا كيف، بل الروح موجود في سائر الجسد ما خلا منه شيء من الجسد، كذلك الحق سبحانه موجود في كل مكان ماخلا منه مكان، وتنزه عن المكان والزمان.

التاسع: لما كان الروح في الجسد لا تحس ولا تجس ولا تلمس، علمنا أنه منزه عن الحس والجس والمس واللمس.

العاشر: إنه لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ولا يمثل بالصور، علمنا أنه لا تدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يُشَبَّه بالشموس والأقمار، [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ][الشورى/11] ، من «حل الرموز» له.

زيادة بيان[3]: قال صاحب «سلم الصعود إلى دار الخلود»: "عالم الخلق هو الواقع تحت التقدير والمساحة وهي الأجسام وعوارضها، ومفهوم الخلق ها هنا التقدير لا إلا يجاد، يقال خلق الشيء، أي قدره ومالا كمية فيه ولا تقدير، يقال له أمر رباني فأرواح الملائكة والآدميين من عالم الأمر هو عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال والجهة والمكان والحيز، ولا تدخل تحت المساحة والتقدير والكمية، ومعنى حديث خلق آدم على الصورة اسم مشترك للشخص المعنوي، فالشخصية هي المحسوسة، وينزه عنها القدوس والمعنوية لها ترتيب وتناسب، فنقول صورة الحكاية وصورة العلم وصورة الأمر، فالمضاهات إذن في الذات والصفات والأفعال.

فالجوهر الناطق حقيقته أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا جسم ولا جوهر متحيز، ولا يحل في مكان ولا جهة ولا هو متصل بالبدن ولا منفصل عنه ولا دائم في البدن ولا خارج عنه، وهذه الأمور تطلق على الذات العلية، وأما الصفات فقد خلق الله الإنسان حيا عالما سميعا بصيرا متكلما والله تعالى كذلك، وأما الأفعال فمبدأ أفعال الآدمي إرادة يظهر أثرها أولا في النفس فيرى منها أثرا بواسطة الروح الحيواني، وهو بخار لطيف في تجويف القلب يتصاعد إلى

[1] ساقط في (ب).

[2] إضافة في (ب) وساقط في الأصل.

[3] نص البيان ساقط في (ب) و(ج).

الدماغ، ثم يسري منه أثر إلى الأعصاب الخارجة من الدماغ ومن الأعصاب إلى الأوتار، والرطيبات المتعلقة بالعضد فتتحد بالأوتار وتتحرك بها الأنامل، ويتحرك بالأنامل القلم وبالقلم المداد مثلا، فيحدث منه ما يريد تسطيره على صفحة القرطاس على الوجه المصور في خزانة التخيل، فإنه لم يتصور في الخيال صورة المكتوب أو لا يتصور أحداثه على البياض ثانيا.

ومن استقر أفعال الله تعالى وكيفية احداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السماوات، وذلك بطاعة الملائكة في تحريك السماوات والملائكة بطاعة الله وعلم مضاهية أفعال الله بالآدمي في عالمه الأصغر، أعني بدنه فجدير أن يعرف الخالق في العالم الأكبر، وهو مثل العالم الأصغر وأن ينكشف له أن نسبة شكل القلب إلى الآدمي نسبة العرش ونسبة الدماغ نسبة الكرسي والحواس الخمس كالملائكة الذين يطيعون طبعا ولا يستطيعون خلافا، والأعصاب والأعضاء كالسموات، والقدرة في الأصابع كالطبيعة المركبة في الأجسام، والمداد كالعناصر التي هي انتهاءات المركبات في قبول الجمع والتركيب والتفرقة، وخزانة التخيل كاللوح المحفوظ، فإذا اطلع الإنسان بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله ρ: «من عرف نفسه عرف ربه»[1].

(قلت: وصاحب هذا الكلام لم أقف على اسمه فمن وجده فليكتبه عليه، إلا أن الناظم كان يحضني على مطالعته، فلم أزل أطلبه حتى ظفرت به بعد وفاته، ثم بعد هذا أخبرني من جزم بعلمه أن «سلم الصعود» ألفه الإمام أبو حامد الغزالي، فتتبعت كلامه فوجدته كما في «الإحياء».

وقال الإمام الرباني صدر الدين محمد بن اسحاق القونوي في تفسيره على أم الكتاب: "وليس شيء يراد من كل رتبة بالقصد الأول غير الإنسان الكامل في ذروة عصره، وقال: وجعل الله الإنسان الكامل بمجموعه من حيث صورته وروحه ومعناه ومرتبته علامة تامة ودليلا دالا عليه سبحانه وتعالى، دلالة كاملة لا يصل إليها غيره كصور دلالة على جزء ووجه، مما دل عليه فيعلم بالإنسان الكامل الحق وكل شيء لكمال دلالة الإنسان على الحق، وعلى كل شيء منه لإحاطته بما علم من الأسماء كلها، ولا كذلك غيره". باختصار من «شرح عقيدة النسبي» للإمام المنشاشي المدني رضي الله عنهما.

وليحذر كل الحذر من طالع مثل هذا الكلام في كتابنا هذا أن تزلّ قدمه لجمود فهمه أو قصور علمه، فينكر الحق أو يعتقد الباطل، وليكن سني الاعتقاد متوسط المراد على طريق الثعالبي والسنوسي وأشباههما فإنها لائقة بالعوام والخواص، وكلام هؤلاء الخواص السادات لا يعثر على مكنون سره إلا أهل المكاشفة والاختصاص، جعلنا الله وإياكم من الناجين الفائزين، وسلك بنا وبكم سبل أهدى الفريقين بجاه إمام الثقلين ρ وعلى آله أجمعين.)[2]

فلنرجع إلى تتبع كلام الناظم، فقد جرنا الكلام حتى خرجنا لعلوم واسعة، قوله: " واقبل عنه ثم واجتباه"، أي اقبل عليه ربه حين خلق روحه ووضعها وصلى عليه في أزله، ومعنى الصلاة في اللغة الإقبال، وقد قال الله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ] [الأحزاب/ 56]، فإذا كان الله مقبلا على مجتباه في الحال والماضي

[1] تقدم تخريج الحديث في ص: 292.

[2] الكلام من (قلت: وصاحب هذا الكلام –إلى– بجاه إمام الثقلين ρ وعلى آله أجمعين.) ساقط في (ب) و(ج).

والاستقبال، وأخبرنا أن ملائكته كذلك وأمرنا بمثل ذلك، فما لنا عن الصلاة عليه والتسليم غافلون، وعن محبته وتعظيمه وإكرام من انتهى إليه متثاقلون، فإن لله من هذه الغفلة هاربون، وإنا إليه بالتقرب بمحبة حبيبه راجعون.

يحكى عن أبي العباس السبتي أنه لقيه رجل فسأله عن اسمه، فقال محمد فأكرمه وخلع عليه غفارته ثم سأله أيضا عن اسمه فقال محمد فأعطاه الرداء، ثم أعاد السؤال فأعاد الجواب، فخلع قميصه ثم أعاد فأعاد، فدخل بركة ماء ورمى له السراويل، فذهب الرجل وأتاه الله برجل على بغل ومعه من الحلل أضعاف ما أعطى فأنزلها له وولَّى ببغله قائلا: لو وهبت النعل لأعطيناك البغل.

و"عن" في كلام الناظم بمعنى "على" لأن حروف الجر يبدل بعضها من بعض، وكثيرا ما يرتكبه[1]، وضرورة الوزن تحمله على مثل هذا، والظاهر أن ثم بفتح المثلثة ظرفية لا عاطفة لئلا يجتمع حرفا عطف، ولقول "على" في الأثر السابق، حيث قال له ربه: "أنت المنتخب، وعندك مستودع نوري، والنور الأقرب إنه القرآن لقوله تعالى: [وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [الأعراف/157].

قال جلال الدين السيوطي: "وتأمل الآيات الواردة في هذا المعنى تجده أرسل لجميع العالمين ملائكة وأنبياء، وعمت دعوته الخلائق كلهم، ولذا نسخ شرعه الكريم جميع الشرائع، حين ظهر ويبقى مؤبدا لا ينسخ بغيره، لأن شرعه الإمام المبين الجامع لكل شيء المستغني عن غيره، فهو الخليفة الأعظم وغيره نائب عنه فقط، فإذا حضر السلطان لا يؤتم بغيره[2]، إذ لا يؤم أحد في سلطانه"، قال السبكي رحمه الله: أرسل υ للخلق كافة من لدن آدم، والأنبياء نواب له، بعثوا بشرائع له معينات، فهو نبي الأنبياء ورسول الملائكة، -زاد البارزي-: والحيوانات والجمادات، وبعث رحمة[حتى][3] للكفار بتأخير العذاب، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة"، من «أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب».

قوله: "واجعل روحه روحا للحياة" هذا نحو قول ابن الفارض في نظم الذر:

وروحي لأرواحِ رُوحٌ وكلَّمَا ... تَـرَى حُسنًـا في الكَـونِ من فَيْـضِ طِينَـتِي

قال شارحه: "يقول أن حقيقة روحي بموجب مفهوم، والذي نفس محمد بيده عين القلم الأعلى الذي كتب الحق بيده في اللوح المحفوظ، وفصل ما هو كائن كتابين، كتاب قولي هو القرآن، وكل كتاب منزل، وكتاب فعلي هو روحانية كل كائن يكون عين اللوح المحفوظ، يحمل المكتوب الأول، وهاذان الكتابان تفصيل عينه المجمل والإشارة إلى ما قلناه، قوله تعالى: [يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً] [النبأ/38]، يعني والله أعلم اللوح المحفوظ من حيث إجماله وتفصيله يقوم صفا واحدا، فكأن اللوح المحفوظ الذي هو الروح المضاف إلى الحضرة الإلهية المنفوخ منه كل روح مضافة إلى آدم وعيسى عليهما السلام بالنص الصريح في قول تعالى: [وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي] [الحجر/ 29]، وفي قوله تعالى: [فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا] [التحريم/12]، وأرواح غيرهما بطريق المفهوم بإجماله، وتفصيله معا كصورة لحقيقة العلم المجملة التي هي الروح الأحمدية، وتفصيل هذه الحقيقة المجملة، بل قابلية تفصيلها المعنية بقوله تعالى: «أكتب ما هو

---

[1] في (ب) و(ج): وكثيرا ما يرتكب مثله.

[2] في (ب) و(ج): به.

[3] إضافة في (ب) و(ج).

كائن»[1]، إنما هو نفسه المشار إليه في قوله: «والذي نفس محمد بيده» وهما باطنا اللوح المشتمل على جميع الأرواح الإنسانية والملائكية والجنية وروحانية كل شيء وروحه، فكأن روحه ρ روحا لجميع الأرواح ممدة لها بهذا الاعتبار، بحيث يمد روحه كل ذي روح في إظهار كل علم فطري شريف، ومعنى لطيف وخاصية بديعة منه، فجميع ذلك من آثار روحه الشريفة ρ الواصلة منها إلى كل روح وروحانية.

وقوله: "وكل ما ترى حسنا في الكون من فيض طينتي"، يعني أن حقيقته ρ كانت حقيقته البرزخية والجمعية والسوائية بين الواحدية والأحدية الثابتة في المرتبة الأولى، وصورة هذه الحقيقة الاعتدالية الجمعية السوائية، بحيث لا يظهر أثر من وصف شيء من الأطراف فيه، إنما هو المزاج الأعدل الصور المحمدي والقلب الأعدل الأحمدي، فيكون اعتدال مزاجه الأشرف أصلا لجميع الاعتدالات، وممدا لها من حكم سوائية، بل معين لكل اعتدال وتناسب جميعه[2] فيقبل كل شيء حكم الاعتدال منه بحسب قابليته ومرتبته من العلويات والسفليات والعناصر والمولدات على تنوعات أحكام قبولها، كما أن تلك الحقيقة البرزخية الجمعية الأولى كانت أصلا لجميع الحقائق الجامعة بين حكمي الوجوب والاستحالة، وممدة لها بل معينة لها ولجمعيتها، وكل حسن مضاف إلى كل صورة ليس إلا تناسب وملائمة وعدالة بين أجزاء تلك الصورة، فلا جرم كل ما قام به الحسن من الأمزجة كان ما كان، فأصل ذلك المزاج القائم بالاعتدال ظاهرا وموجودا أولا وباق ثانيا: يمدد فيض من الاعتدال الحقيقي المختص بالمزاج المحمدي[3]ρ (وامداده إياه بذلك الفيض)[4]، فصح قوله: مفاض عليه والحسن القائم بذلك المزاج الحسن أيضا، ففاض من فيض طينتي، أي مزاجي واعتدالي الحقيقي الذي هو أصل الاعتدالات كلها وممدها ومميزها.

قوله: "تحي الموجودا في دنياه وفي الأخرى باعث الأموات"(يعني أن هذه الروح المحمدية الأولية التي هي بيدي رب البرية بعد أن صورها وطهرها وعمّرها وثمّرها، ثم لما عمرها أمرها فأجابت ونابت وعمرت السوى وزانت، فهي روح كل الأرواح، ونور حياة كل الأشباح، وعين حياة الدارين بأمر الفتاح، قال أبو الحسن الشطيبي في كتابه «الجمان»: "قال بعض العلماء اختلف في حقيقة الروح في نحو السبعمائة قول، ولم يوقف له على حقيقة، والذي علموا من ذلك أن الروح روحان، روح أعلى وروح أسفل، كما أن النفس نفسان، نفس عليا ونفس سفلى، وأن الروح الأسفل مرتبط بالنفس العليا لا يفارقها إلا بفساد الجسم، وأما الروح الأعلى فهو يخرج عند النوم، ويسرح ويجول ويعلم الروح الأسفل فتدركه النفس العليا، وهو ما يتعلمه النائم ويرا،.ثم يجد ذلك في يقضته.

وليس للروح الأسفل والنفس العليا مثال إلا الزوج والزوجة والجسم منزلهما الساكنين فيه، قال الله تعالى: [ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ] [المؤمنون/14] قيل إنها الخلقة الروحانية، وبها تتولى القوى النفسية والمرئية والباعثة بعد الموت، وقيل إنها صفة الشخص يوم القيامة لأن منهم من يبعث ووجهه كالشمس أو القمر،

[1] الحديث أورده: – القرطبي، تفسير القرطبي، ج18، ص: 223./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4 (م سابق) ص: 457.

[2] في (ب) و(ج): جمعيته.

[3] في (ب) و(ج): بمزاجه الأكمل الأعدل.

[4] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

ومنهم من يعيش على صفة كلب أو خنزير أو سبع كل ذلك بحسب ما كان عليه في دار الدنيا من الطبع، والله تعالى يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، أي مقادير الأشياء وكيفيتها وتدبير الكليات والجزئيات على حقيقتها.)[1]

[في الحياة الدنيوية ومعانيها:]

واعلم أن الحياة دنيوية وأخروية، وكل واحدة لها معنيان حسي ومعنوي، فالحياة الدنيوية الحسية بالإيجاد والإمداد للأجساد،والمعنوية بالعلوم والمعارف لتثبيت[2] الفؤاد، فحياة الأرواح بذواق معاني الكلام[3]، كما أن حياة الأشباح باستعمال الطعام، ولهذا يقول الأبهري رحمه الله[في قصيدته التائية][4]: "فقوت الأرواح أرواح المعاني // وليس بأن أكلت أو شربت،(وكذلك الحياة الأخروية، فالحسية بالأكل والشرب والمعنوية بالنظر إلى رب الأرباب".)[5]

[في ذكر ما ظهر للنبيρ من معجزات تكلم الحيوانات والجمادات:]

قوله: "تحي الموجودات في دنياه" تقدم في «الإحياء» ما تقدم. (ونذكر الآن بعض ما ظهر على يد الفاتح الخاتم، ضمن ذلك إحياء الأموات وخطابهم له بالأصوات، ومن ذلك تكلم الحيوانات والجمادات. قال الشاطبي: " وقد رمى بعض المشركين بُنَيَّة في واد، ثم آمن وآمنت زوجته فأعلما رسول الله ρ بذلك، فانطلقا معه حتى وصلوا للموضع فناداها فقالت: لبيك يا رسول الله وسعديك، فقال لها: "إن أبويك قد أسلما فإن شئت الرجوع إليهما، فقالت: لا حاجة لي بهما، إني وجدت الله خيرا لي منهما.

ولما استشهد زيد بن حارثة في حياته υ سجي بين العشائين بثوب والنساء يصرخن عليه فإذا به يقول: انصتوا انصتوا، ثم حسر عن وجهه، وقال: محمد رسول الله ρ النبي الأمي وخاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الأول، صدقوا صدقوا، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ثم خر ميتا كما كان. ولما دفن ثابت بن قيس حين قتل باليمامة، تكلم في قبره والناس يسمعونه ويعرفون صوته: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان البر الرحيم، وتكلم له أيضا الصبي الأخرس، وأما كلام الضبي والجمل والناقة والذيب والحمار وخطابهم له، فمعلوم عند العلماء بالسير، وكذلك نطق الشاة المسمومة وحنين الجذع لفراقه حتى دعا له، وإجابة الشجرة لدعائه فانقلعت بعروقها وأتته ووقفت بين يديه وصلت وسلمت عليه حتى آمن الأعرابي الذي اقترح عليه، وكذا سجود النخل والغنم وتسبيح الحصى في كفيه ρ " بمعناه، من «الجمان» له.

وفي المعنى يقول البوصيري τ:

---

[1] الكلام من (يعني أن هذه الروح المحمدية –إلى– والجزئيات على حقيقتها.) ساقط في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): ضمير.

[3] في (ب) و(ج): معاني أسرار الكلام.

[4] إضافة في (ب) و(ج).

[5] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

فإنَّ فَضلَ رسُولِ اللهِ ليسَ لهُ حَـــدٌّ فَيَعـــرُب عنـــهُ نَـاطِـــقُ بفـم
لو نَاسَبتَ قَدرُهُ آياتهُ عِظَمًا أحيَا اسمُهُ حينَ يـــدعَى دَارِسُ الرمـــــــــم[1]

[حديث عن دار الدنيا الفانية:]

وإنما سميت الدار الأولى الدنيا إما لأنها أدنى، أي أقرب إلينا من الدار الأخرى، أو من الدناءة والخسة، لأنها (جيفة قذرة)[2]، ولا تزن عند خالقها جناح بعوضة، ولذلك قال الله تعالى: [وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] [العنكبوت/64]، فالناس فيها نيام "فإذا ماتوا انتبهوا"[3]،(لخسة قدرها، وعظم الآخرة)[4]، والنوم أخو الموت، وأنشدوا:

تروحُ لنَا الدُّنيَـــــا بغيرِ الذي غَـــــــدَت وتَحـــدُثُ مـــن بعـــدِ الأمُـــورِ أُمُـــورٌ
وتَجرِي اللَّيَـــــــــالي باجتِمَاعٍ وفُـــــــرقَة وتَـطلُـــعُ فيـهَـــا أَنْجُـــمٌ وتَـغُـــورُ
فَمَن ظَنَّ أنَّ الدَّهـــــــرَ يُبقِي سُـــــــرُوره فَـــذَاكَ مُحَـــالٌ لَا يَـــــدُومُ سُـــــرُورُ

وقال: تَنَحَّ عَنِ الدُّنيَـــــا وصُحْبَةِ أهلها وَبَـاينهُـــم مَـا دُمـــتَ في الدَّهْـــرِ بَاقِيَـــا

ويرحم الله الإمام الناصح سيد اسماعيل المغربي حيث يقول:

كُلفتُ بِهَا دُنيَا كَثِيرٌ غُرورُهَـــا تَـعْمَـــل مَـن في نُصْحِـهَـــا بالخَـــدِيـعَـــة
إذَا أَقْبَلَت وَلَّتْ إنْ هِيَ أَحْسَنَـتْ أَسَــــاءَت وإنْ صَفَـــتْ فِتَنٌ بالكُـــدُورَة

وسنذكر قصيدته بعد هذا –إن شاء الله–، وقد قال ρ: «ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كما يجعل أحدكم إصبعه[في اليم][5] فلينظر بما يرجع وأشار بالسبابة»[6].

[في بركة اسم النبي "محمد"ρ:]

قوله: "تحي الموجودات في دنياه" ومن الحياة الحسية الآن ما أخرجه صاحب الشرف عن ابن جريح أن النبيρ قال: «من كان له ذو بطن[7]فأجمع أن يسميه محمدا، رزقنا الله إياه، وما كان اسمه محمد في بيت إلا جعل في

[1] الكلام من (ونذكر الآن بعض ما ظهر –إلى– أحيَا اسمُهُ حينَ يـــدعَى دَارِسُ الرمـم) ساقط في (ب) و(ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] هذا هو معنى حديث " الناس نيام فإذا ماتوا.." أخرجه: علي بن سلطان محمد الهروي، المصنوع، ج1 (م سابق) ص: 199./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2 (م سابق) ص: 414.
[4] ساقط في (ب) و(ج).
[5] ينظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، (م سابق) ص: 397. في الأصل بياض، وساقط في (ب) و(ج).
[6] الحديث أورده: – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، (م سابق) ص: 397./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج6 (م سابق) ص: 359.
[7] أي كانت امرأته حاملا.

ذلك البيت البركة»[1]، وقالت حليمة بنت عبد الجليل: "سألت رسول الله ρ ، فقلت يا رسول الله إني امرأة لا يعيش لي ولدا فتأمرني، فقال: "اجعلي الله عليه أن تسميه محمدا فإنه يعيش، ففعلت فعاش فما بالحرتين أهل بيت أكثر منه"[2]، وأخرج جعفر بن محمد الصادق عن النبي ρ أنه قال: «من وضع يده على بطن امرأة وقال باسم الله الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، اللهم أنت سميت ما في بطنها محمدا فصار غلاما بإذن الله تعالى»[3] من كتاب «كنز الأخبار» له.

قال لي بعض المحبين المصدقين أنه جربها فصحت، تكميل قال الشيخ السنوسي τ: "ومن الفوائد المجربة أنَّ من أراد أن تلد امرأته الذكور، فليضع يده اليمنى على سُرَّتها وهي نائمة ويمسح على السُّرة وهي في أول حملها، ولو في مبدأ الثالث من الشهور، وليقل ثلاث مرات: "اللهم إن كنت خلقت خلقا في بطن هذه المرأة فكَوِّنْهُ ذكَرًا وأسميه أحمد بحق محمد ρ ، [رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين] من (مجرباته)، فاغتبط بها.

فائدة:وادع لمن استحضرها لك هنا مؤيدة بالمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، ولك مثل ذلك، اللهم إنا نتشفع إليك بموافقة اسمنا لاسمه الكريم، ونتوسل إليك بجاه محمد الرؤوف الرحيم أن تحي قلوبنا بنور معرفتك وأن تمتعنا بعد لقائك برؤيتك ومشاهدتك، في الخبر النبوي: «أن الميت إذا وضع في قبره، فأول ما يسأل عن اسمه، فإذا قال محمد قيل له: لا يسمى بهذا الاسم إلا من كان مؤمنا من أمة محمد، فيعافى من عذاب القبر»[4]، وقال ρ: «إن الله تعالى ليوقف العبد بين يديه اسمه محمد أو أحمد ثم يقول عبدي ما استحييتني تعصني واسمك على اسم حبيبي، فينكس العبد رأسه حياء من الله تعالى، ويقول: يارب جرى قضاؤك عليَّ، فيقول تعالى: خَلُّوا بينه وبين جنتي، فإني أستحي أن أعذب بناري من اسمه على اسم حبيبي محمد»

وقال ρ: «ما من أهل بيت يولد لهم مولود فيسموه محمدا إلا نودوا بورك عليكم أهل البيت»[5]، وقال ρ: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فلم يسمي أحدهم محمدا فقد أخطأ ما ضر أحدكم أن يكون له في بيته محمدا ومحمدان وثلاثة»[6]، ذكر هذه الأحاديث الكريمة الشطيبي في «جمانه».

يجزي الله عنا والدنا خيرا وأعظم له، حيث وسم ذوات بَنِيه بمعالم أسماء نبيهم، ليكون هو وهم إن شاء الله في كفاية نبيهم ووليهم، وقد قال في قصيدة له:

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.
[2] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.
[3] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.
[4] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.
[5] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.
[6] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا: – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج4، ص: 514./ – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج3، ص5.

أنَـــــــا بِاللّهْ وبالشْرِيعَـــــــــــــــــــــــــــا
يَا مُحمَّـــــــــــــــــــد انْزَلتْ جَـــــــــــــــارَكْ

وانْـــــــــــــتَ للهَارِبْيِنْ مَنْعَـــــــــــــــــــا
واوْلَادِي كُـــــــــــــلْهُمْ عْلَى اسْمَـــــــــــــــكْ

مَـــــــــــا لِي عَنْدْ الإلَهْ طَمْعَـــــــــــــــــــا
إلّا فِي رَحْمتَـــــــــــــــــــــه وجَاهَـــــــــــــــــكْ

لَكِـــــــــــنِّي شَاكْرَه وحَامَـــــــــــــــــــــدْ
مَا لِلإسْـــــــــــــــــلَام شُكْر فيمَـــــــــــــــا

واكْتَـــــــــــابْ الله بِه سَاعَـــــــــــــــــــــــــد
يَا سَيَّد المرسَلِين الامجَـد صَلَّى الله عْلِيـكْ دِيمــا

وأنا أقول ما قا له أبو عبد الله البوصيري رحمه الله:

إن آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بمنتقِـضٍ
مِن النَّبِي ولَا حَبْلي بمُنْصَـــرِمِ

فَإِن لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيـــتي
مُحَمَّدًا وهُوَ أوفى الخَلْقِ بالذِّمَـــمِ

وقد أخرج صاحب «الملاذ والاعتصام» عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « لا يدخل النار كل من تسمى باسمي، سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي»[1]، وقال ρ: «إذ سميتم الولد محمد فأكرموه وأوسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجها ولا تلعنوه، وما اجتمع قوم قط في مشورة مع رجل اسمه محمد ولم يدخلوه في مشورتهم إلاّ لم يبارك لهم»[2]، منه قوله: "تحي الموجودات في دنياه"، الضمير يصح عوده على الله إضافة ملكية أو على نيته إضافة أولية، فتنبه لقدر هذا الشخص الكريم فإن روحه الكريمة وطينته المباركة واسمه المبارك جعلها الله أصلا للوجود، وسبب كل موجود، وأحيا بها كل حي دنيا وأخرى حسا ومعنى، فمن احيائه المعنوي الدنيوي والأخروي ما تضمنه اسمه المجيب من المعنى القريب زيادة على ما تقدم، قال في "الملاذ والاعتصام": "قال بعض العلماء: الميم الأول والحاء مشتقان من محايمحو إذا أهلك، والميم الثاني والدال مشتقان من مدَّ يمدُّ إذا بسط، وقال بعض العلماء أيضا: أن الميم من اسمه المبارك تدل على المعرفة، أعطاه الله معرفة بعلم الأولين والآخرين، وأما الحاء، فإن الله أحيا المسلمين على يديه من الكفر بالإسلام حيث قال تعالى: [كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ] [البقرة/28]، والميم الثاني أعطاه الله بركة مملكة، ثم لم يعط أحد مثل ذلك إن شهر اسمه مع اسمه في المشرق والمغرب، وأما الدال فهو دليل الخلائق إلى الفردوس".

[في حياة الأرواح بالقلوب المؤمنة العامرة بنور الإيمان والعلم:]

ومن ذلك ما ذكره سيدي عبد الجليل في «شعبه» حيث قال: "ومن البعث الروحاني حياة الأرواح والقلوب بالإيمان والعلم وأشباهما من الغفلات، قال الله جل جلاله في ذلك: [أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ] [الأنعام/ 122]، فلا موت أشد من الجهل والكفر، كذلك لا حياة أكمل من الإيمان والعلم، وورد عن ابن عباس في قوله تعالى: [اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا]

[1] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.
[2] لم نعثر عليه في كتب الصحاح والسنن.

[الحديد/17]، قال: يلين قلوبا بعد قسوتها، فيجعلها مجيبة منيبة، وفي الخبر: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكَلَأَ الحديث.

فالعلم كالمطر إذا نزل على القلوب حييب الأرواح به؛ من موت الجهل، واهتزت الجوارح بالنبات العملي، وانبعثت الجِبِلَّة على فعل الخيرات، ومثّل العبد نفسه في يوم البعث قبل يوم البعث، وكان كمن قيل فيه: "رأى الأمر يفضي إلى آخر فصير آخره أولاه"، أحيا الله قلوبنا يوم تموت القلوب.

ومن حقائق الإيمان بهذا الباب أن يعد الإنسان نفسه من أهل القبور، ويجعل الجسد للروح كالقبر، ويغيب فيه بالخلوة والإخلاص عن الخلق، ويعلق الروح بالعالم الأخروي العلوي، فيسري ويصير مع النفس في الملكوت بالفكر، ويتنعم بأنواع الذكر فيكون في روضة من رياض الجنة، يأوي إلى ربه في كل حال، كما ورد في أرواح السعداء من أهل البرزخ أنها تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، ومثلهم من المقربين في الدينا والآخرة، الذي قال: "طلبت لنفسي موضعا في الملك، فلم أجد، فضربت خيمتي بإزاء العرش"، جعلنا الله وإياكم من السعداء آمين في الدنيا والآخرة آمين بجاه سيد المرسلين، ومن الحياة الحقيقية ما ذكر الشيخ أبو زكرياء يحي بن حسن الجيلاني في شرحه «حل المعضلات من رموز المشكلات» عند قول الإمام بن الفارض τ:

لَونَضَحُوا منهَا ثَرَى قَبْرَ مَيِّتٍ لَعَـادَتْ إليـهِ الروُّحُ وانتَعَـشَ الجِسْـمُ

اعلم أن الحياة على نوعين أحدهما الحياة الحسية الحيوانية التي يشترك فيها الإنسان وغيره من الحيوان، والثاني الحياة الحقيقية الروحانية المختصة بخواص الأفراد الإنسانية، وهذه على ثلاث درجات، الدرجة الأولى هي الحياة بالعلم والمعرفة عن موت الجهل، قال الله تعالى: **[أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ]** [الأنعام/122]، أي كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم، وذلك لأن القلب بواسطة العلم والشعور يعرف الحق تعالى ويدرك به الأشياء والأمور ويتحرك في طلبه كما هو ظاهر مشهور، وهو أي العلم من خواص الحياة، كما أن الجهل والسكون من صفات الممات، الدرجة الثانية: هي حياة القلب بجمعية الهمَّة في التوجه إلى جناب الحق تعالى، وقصد سلوك سبيله من موت التشويش والتفرقة، وهذه الهمة والجمعية تفضي إلى الحياة الحقيقية الأبدية، بل هي عينها، كما أن توزع البال والتفرقة التي تحصل للنفس بسبب تعلقها بالمحبوبات المختلفة والمشتهيات المتنوعة تؤدي إلى الموت، بل التعلق بأهداب هذه الأمور عين الموت، وأما الدرجة الثالثة: فهي الحياة بالوجود وإدراك حضرة الموجود من موت البعد والمفقود، وذلك بأن يفنى العبد به في الحق ويفنى ببقائه، ويعلم أن كل حياة ليست على هذه الصفة فهي موت، وكحل ما يجِدُّ من الأمور غيره فهو فوت، وكل عمل لم يكن لوجهه الكريم فهو من تضابع العبث، وكل شغل سوى تحصيله فهو من مضابع شعب الرفث، شعر:

سَهَرُ العُيُونِ لغَيرِ وَجْهِكَ ضَائِـــعٌ وَبُكَـاؤُهن لِغَيـرِ فَقْـدِكَ بـاطِـــــــــلُ

وفي المعنى أنشدوا:

بالعِلْـــمِ تُحْيَ نُفُــوسٌ قَــطُّ مَا عَرَفَت مِن قَبْــلُ مَــا الفَــرقُ بَينَ الصِّــدْقِ والمينِ
العِلْــمُ للعَقْـــلِ نُورٌ يُسْتَـــــدَلُّ بِهِ عَلَى الحَقَــائِـــقِ مِثْـــلُ النُّـــورِ للعَيْـــــنِ

وفي ضده قيل:

وفي الجَهْــــلِ قَبْــلَ المــوْتِ مَـوْتٌ لأهْلِـــــهِ فَـأَجْسَـــامُهُـــم قَبْــــلَ القُبُـــورِ قُبُـــورُ
وَأَيُّ أَمْـــــر لم يحَيَـــى بالعِلــمِ مَيِّــــــتٌ وَلَيـــــسَ لَـــهُ حَــتَّى النُّشُـــورِ نُـشُـــورُ

فبالله عليك بما قامت حياة من في الأرض والسموات إلا بروحانية روح سيد الكائنات، فما أصدق قول من قال: "وجعل روحه روحا للحياة"، فلولا علومه الطاهرة وأعماله الظاهرة بما تتوصل إلى الحياة الأبدية وإلى العيشة السرمدية.

[في سرّ اسمه تعالى " الحيُّ القيّوم" وفوائده:]

قوله: "تحيي الموجودات"، إنما أحيا الله به الموجودات ونور به الأراضين والسموات لتجليه له باسمه الحي القيوم، حتى تخلق بهما على أكمل ما ينبغي له، وكذا كل اسم من أسماء الله تعالى، فإنه ρ أخذ منه بحظ وافر، لا يستوي فيه غيره، فمن أراد أن يتخلق بخلق حسن جميل وصعب عليه مدركه، فليستعن على ذلك بكثرة الصلاة على الوسيلة العظمى بدءا وتوسطا وختما، ويتقرب إلى الله أيضا بما يناسب ذلك المعنى من أسماء الله الحسنى، ويلازمه ذكرا وفكرا وشربا وتعليقا، حتى يفتح الله عليها فيما أراد، ويجري في ذلك على نهج المراد، كما نص عليها علماء هذا الفن رضي الله عنهم.

فإن كل اسم من أسماء الله تعالى وكل كلمة من كتاب الله يعطيان ذاكرهما مافي قوتهما، لأن كل كلام خاصيته في معناه وسره في عدده وسرعته في وقته وإجابته في شرطه، ومن هذا الاستقراء نفع الله المريدين المربين بالشيوخ المربين، قال سهل: "حياة القلب الذي يموت، بذكر الحي الذي لا يموت"، وقال محمد بن أحمد بن جعفر النيسابوري: "العارفون بقاؤهم بمعروفهم، والخلق بقاؤهم بالأكل والشرب"، وقال أبو بكر الدقي: "أهل المعرفة أحياء بحياة معروفهم، وغيرهم لا حياة له إلا مجازا إشارة".

شكى بعض المعاصرين الراغبين ضعف حالة وقلة نهوضات همة وكماله إلى الشيخ الكامل سيدي الحسن بن رحال وكتب إليه بذلك من تلمسان، فأجابه τ ، وهو قاطن بالمدينة المشرفة بقوله: "وفي ذكرك يا حي يا قيوم ألف مرة سر غريب" ثم إني لما ورد علينا كتابه تاقت نفسي لمعرفة هذا العدد، فعرضته على بعض القواعد، فلم أهتد لسره فذكرته لبعض الفقهاء، فقال: "إني أحفظ بيتين للغزالي ذكره كذلك، وهما يعني، وهما الأخيرين من قوله:

إِذَا شِئْــتَ أَنْ تَكُــونَ عَظِيــمَ قَــالٍ ... ويُـسْـمَــــعَ قَـــولُكَ لَـــدَى المـعَـــالِي
وتُكْفَــــى عَلَــى نَـائِبَــةٍ وَضُــرٍّ ... مِنَ الـطَّــاعُــونِ أوضَـــرْبَ النِّـصـــالِ
فَقُـــل يَا حَــــيُّ يَا قَيُّــومُ أَلْفًــا ... مُــكَـــمَّـــلَـــةً عَلَى مَـــــرِّ اللَّيَــــــالِي
بِلَيْـــــلٍ أَو نَهَـــارٍ، إِنَّ فِيــمَــا ... ذَكَــــرْتُ إِلَيْــــكَ يُـرَخِّـصُ كُـلُّ غَــالِ[1]

(والقطعة لم نحفظها يومئذ فنسيتها وقلت في عزوهما بنسبة الأبيات المنطوي للإمام عالمنا محمد الغزالي، فانظر يا أخي إلى هذا الترياق من هذا الراق فإن الدواء بحسب الداء، ثم بعد هذا فتح الله علي بمعرفة بعض أسرار هذا الاسم العظيم ومناسبة هذا العدد للسر المذكور بصادق وعد قول نبيه υ: «من طلب شيئا ناله أو نال بعضه»[2]، وألفت فيه تأليفا)[3]، وها أنا أستدركه عند قول الناظم فيما يأتي: "يا عبد ومعبود هو القيوم" فراجعه إن أردت.

ومن هذا الفن ما رواه الشيخ السنوسي الحسني في «مجرباته» عن ا لإمام أبي عبد الله الترمذي الحكيم أحد مشايخ «رسالة القشيري»τ: "أنه رأى رب العزة جل جلاله في النوم نحو ألف مرة ،كل ذلك يقول له أسألك بخاتمة[4]، فقال له: قل أربعين مرة، وفي رواية إحدى وأربعين مرة بعد طلوع الفجر، وقبل صلاة الصبح:يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا الله يا الله يا الله لا إله إلا أنت، أسألك أن تحي قلبي بنور معرفتك أبدا سرمدا يا الله يا الله يا الله"، فاغتبط بهاتين الفائدتين علما وعملا، وتأمل في أسرار الله تعالى، فإن الترمذي τ سأل من بيده مقاليد الأمور في حسن الخاتمة ليحيا الحياة الأبدية الهنية، فرده إلى التعلق به بدعائه، ودله على التوسل إليه بذكر ما يناسب رغبته من أسمائه، ولعظائم مِنَّتِه نبَّهَهُ على سر عددها بعدد كلماتها الغر، فإنها أربعون كلمة، تعد آل المعرفة الزائدة سوى ما في اسم الجلالة فإنه لا تبديل لكلمات الله، فإن فيه غير معرّفة لأنه أعرف المعارف، وغير زائدة لأنه علم قديم على ذاتي واجب الوجود القديم، وجمع سر عدد جميع الكلمات المذكورة الختم بالحسنى في خاتمة اسمه القيوم، فهو سر السر وروح الأمر، من مات قامت به قيامته، ودامت حياته ولله الأمر من قبل ومن بعد، وأربعين فرد ياء ضمير المتكلم، وتفهم عساك تلهم.

وإنما لم نعد واو العطف لأنها مفردة كحروف الهجاء، وكذا الضمائر الثلاث ضميري المخاطب وضمير المتكلم، ولم نعد من كلمات هذا الكلام المركب المفيد بالوضع إلا ما كان على حرفين فأكثر، وأما على رواية إحدى

---

[1] وجدنا هذه الأبيات منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني مع اختلاف طفيف:
أَتَطلب أن تكونَ كثيرَ مـال ... ويُسمع منكَ دومًا في كلِّ قالِ
ومن كـل النّسـاء تَـرَى وِدادًا ... تُسـرُّ بـهِ ومن كـل الرجــالِ
ويَأتيكَ الغِنى وتُــرَى سعيـدًا ... مُهـابـا مكرّمـا من كـلِّ والِ
وتُكفَى كـلّ حادثـةٍ وضُـرٍّ ... وتَبـقَى آمنًـا في كـلِّ حَـالِ
فَقُل يا حـيُّ يا قيُّـومُ أَلفًـا ... مُكَمّـلـةً على عَـدَدِ اللَّيَـالي
بِلَيْلٍ أو نَهَـارٍ فـإنَّ فيمَـا ... ذَكَرتُـهُ يُرخّصُ كـلَّ غَـالِ
- ينظر: عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادهُ، القاهرة، دط، 1973 ، ص:178.
[2] لم نعثر عليه.
[3] الكلام ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): خاتمة خير.

وأربعين فتعد ضمير المتكلم لأنه اسم مضمر ناب عن كلمة أنا المعرفة الدالة على فلان الظاهر، فإن قلت فهمنا عدَّك للضمير كلمة واستعدادك به دون واو العطف فلم خصصته من بين أخويه؟ فاعلم أن هذا الضمير هنا موصول بنية الفصل والأخران بنية الوصل، فإن الفصل شديد الاتصال بفاعله، لا يستغني عنه طرفة، فصاراكالكلمة الواحدة والشيء الواحد، فهما موصولان المعنى وإن كانا مفصولي المبنى، بخلاف الفعل مع الفعل، فكل واحد مفصول، وإن كان ظاهره موصول لاستغناء كل منهما عن صاحبه بربِّه، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فافهم، وتحقق قوله تعالى لبعض عباده حين سأله أن يرفع عنه ما نزل به من البلاء، فسمع هذا الفضولي الذي يريد أن يحول بيني وبين نفسي من حَمْلِ تَعْلَمْ مَا فِي نفسي، ولا أعلم ما في نفسك على هذا المراد.

ولملاحظة هذا المعنى قال أبو بكر الكتاني: "رأيت المصطفى ρ فقلت: "أدع الله لي أن لا يميت قلبي، فقال: قل كل يوم أربعين يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، وقال: كان في رأسي وجع فرأيت المصطفى ρ ، فقال: أكتب هذا الدعاء: "اللهم بثبوت الربوبية وتعظيم الصمدية وسطوات الإلهية، وبقدم الجبروتية وبقدرة الوحدانية، قال فكتبته وجعلته على رأسي فسكن حاله". من «الكواكب»، قال أبو بكر:" اللهم أنت أعلم من نفسي وأنا أعلم بنفسي من غيري"، وأنشدوا:

كِلَانَا غَـــنِّيٌ عَن صَاحِـــــبٍ فِي حَيَاتِــــه
وَنَحْـــنُ إِذَا مِتْـــنَـــــا أَشَـــــدُّ تَــفَــــانِيَـــــا

أحيا الله قلوبنا بمعرفته دائما، وإنما استفتحها باسمه الحي لأنه القاضي على ما بعده إذ لا تتصور قيومية ولا إبداع ولا اتصاف بالجلال والجمال، ولا بصفات الألوهية والكمال، إلا ممن كان حيا بخلاف العكس، لأن الحياة شرط في الاتصاف وليس هو شرط فيها، والشرط ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم، فافهم ولهذا قدَّمه الحق سبحانه في هذا الذكر، ولما كان قاضيا في القضية ظهر حكمه وسلطانه في أمر النشأة الإنسية، وعدل فيما حكم فيه بعد سرد شهادة شهوده ونشر ألوية طبوله وبنوده، فالشهود القيوم البديع إذ لا يقوم بغيره ولا يبدع ويخترع الأشياء إلا من كان حيا، فنعم الشاهدان المرضيان، والطبول إرهاب صفات القهر والجلال والبنود ملاطفة صفات الإكرام والجمال، ونشر هذه الألوية يشهد له بالملك والألوهية، وأنه منفرد بالربوبية وعلى هذا رتب أسماءه سبحانه، وأمير النشأة الآدمية إنما هو القلب، والقلب بيت الرب، والأمير إذا استقام استقامت له الرعية، ولا قوام له أنفع من عمارته بأنوار معرفة الربوبية.

فلهذا أمره ربه أن يقول في نيل ما طلب : يا حي أحيي قلبي بنور معرفتك، فإن حياة القلوب هي أصل حياة الأبدان، وحياة القلب في هذه الدار سبب لحياة الكل في دار القرار، يموت المرء على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه، فسبحان مسبب الأسباب ومرتبها ومرشدنا للآداب وميسرها، اللهم كما أنعمت علينا فزدنا من نعمائك، اللهم كما مننت علينا فلا تسلبنا من عطائك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

فوائد وزوائد تغري مستفيدها على التعلق باسمه "الحي القيوم": قال أبو العباس البوني: "في تصريف الأسماء مفردة، اسمه تعالى "الحي" من داوم على ذكره حتى توافقه الأرواح زيد في بقائه في الدنيا، وتحي به جميع الأشياء، واسمه تعالى "القيوم" من جعله ذكرا أقام به أمر الدنيا والآخرة"[1].

[1] النص ساقط في (ب) و(ج).

وقال τ أيضا في «لمعته النورية»: "فالحي القيوم اسمان جليلان ذكر لأهل الحصر، وهما من أذكار إسرافيل وملائكة الصور أجمعين، يصلح أن يذكر من مبادئ الفجر إلى طلوع الشمس، ذاكره في هذا الوقت يجد من الزيادة والخشية والتطلع إلى طلب الفضائل ما لا يعهده قبل، ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس من يوم الجمعة مستقبل القبلة (على حديد كير)[1] وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَهُ وإن كان خاملا، وأحيا رزقه وإن كان قليلا، ومن ركب وِفْقَهُ[2] وهو مائة وأربعة وسبعون، وحمله معه رأى العجائب، ومن حاول التكسير من هذين الاسمين جاءت الكلمات المنظومة من تكسيره اثنين وأربعين حرفا، بعد تداخل التكسير، فإن نظمت جاءت توازي كلمات معجمة، فإن أضيف إلى الوقف العدد ظهر الفعل على الأثر، ولا يحتمل هذا المختصر أكثر من التلويح الشريف، فقس عليه ما تريده من الأسماء ببعض من التداخل، ومن خواص الأعداد في طبائعها التي أودعها الله تعالى، وهو فعلها الخاص فيها، ثم من الذكر العربي الدال على معنى الحياة في كل شيء والعزيمة في كل شيء، ولنقبض العنان فللحيطان آذان [وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ][الحاقة/12].

قال أيضا: في «شمس المعارف»: "وإن أردت نقش الأوقاف المستخرجة من هذه الأسماء الشريفة، فخذ أي اسم شئت من الأسماء الحسنى أو اسمين في المعنى الذي تريده والحاجة التي تقصدها فتبسطه وتكسره وتضعه في أعداده التي يكمل فيها التكسير، وهو أن يظهر أوله آخره فتمتزج الحروف وتتألف فتجد سر ذلك لا ينخرم أبدا، وكن بحسن الظن محقق الاعتقاد بمجموع الهمةفيما تفعل فإنك تصب ولا تخطأ أبدا.

وصفة البسط والتكسير على هذه الصورة مثاله: "حي قيوم" بسطه هكذا: ح ي ق ي و م، وتكسيره تكرّر الاسمين حتى يظهر بسط السطر الأول في سابع سطر، أسقط السطر السابع المتكرر تبقى ستة أسطر، تكتبها على مسدس[3] وتذكرها عليه مائة وأربعة وسبعون مرة، تنال بركته ويحي رزقك، ويقوّم سوقك، ويحي قلبك، وتقوم همتك، ويحي علمك، ويقوم عزمك، فإن أضفته إلى الوِفْق العددي ظهر الفعل على إثره، وهو أن تضع مكان كل حرف عدده هكذا، والله الموفق للصواب لا رب غيره لا إله إلا الله هو الحي القيوم:[4]

[1] في المصدر: على كاغد أبيض. ينظر: أبو العباس أحمد بن علي البوني، منبع أصول الحكمة " مصدر سابق" ص: 41.

[2] علم الأوفاق يتوصل به إلى توفيق الأعداد واستوائها في الأقطار والأضلاع وعدم التكرار، والوفق هو سطح قائم الزوايا يحيط به أربعة أضلاع متساوية منقسمة بأقسام متساوية، يوصل بين أقسام كل ضلع ومقابله بخطوط مستقيمة، فينقسم بها مربعات صغار، ..ثم ينزل فيه أعداد إن كان عدديا أكبرها بعدة بيوته متفاضلة بحيث يصير جميع صفوف مربعاته الصغار الطولية والعرضية، وصفي قطريه متساوية الأعداد من غير أن يوجد فيها عدد متكرر، أو ينزل فيه حروف إن كان حرفيا، أو كلمات إن كلميا، أو أسماء إن كان اسميا، بحيث يكون ما في أعلى صفوفه العرضية موجودا في كل صفوفه الطولية. ثم اعلم أن لكل وفق مفتاحا ومغلاقا وعدلا ووفقا ومساحة وضابطا وغاية وأصلا، ثم إن كل وفق من المثلث إلى المتسع منسوب إلى كوكب من الكواكب السبعة، فالمثلث منسوب إلى زحل، والمربع إلى المشتري، والمخمس إلى المريخ، والمسدس إلى الشمس،.. للتوسّع ينظر: علي أبو حي الله المرزوقي، الجواهر اللَّمَّاعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة، مطبعة مصطفى البابلي وأولاده، القاهرة، دط، 1941، ض: 16 ، 17.

[3] أي وفق ("جدول" كما هو معروف أكثر في الثقافة الشعبة الجزائرية) يتألف من ست خانات.

[4] ذكر هذه الأسرار أيضا الشيخ أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمني، ولكنه جعل الوفق مربعا وليس مسدّسا، ينظر كتابه "الدر النظيم في خواص القرآن العظيم"، طبعة حجرية، القاهرة، دتا، ص: 46، 47.

حرفي صحيح					
ح	ي	ق	ي	و	م
ي	ح	م	ق	ي	ق
ق	و	ي	ح	ي	م
و	ق	ي	م	ح	ي
ي	و	ح	ق	م	ي
ي	ي	م	و	ق	ح
ح	ي	ق	ي	و	م

عددي صحيح					
8	15	155	15	6	45
45	8	4	15	15	105
105	45	15	8	15	04
4	100	15	45	8	10
15	4	8	100	40	10
10	15	40	4	100	8

فقس على هذه الأسماء [ما][1]تجد من الأسماء فيجتمع لك فيه خواص الحروف وتداخلها بعضها في بعض، وخواص الأعداد في طبائعها التي (أودعها الله تعالى فيها)[2]، ثم من الذكر العربي الدال على معنى الحياة في كل شيء، وذلك أن الأوفاق العددية لها خواص ومنافع اتفق أكثر العلماء على وجودها، وهي امتزاج المنفعة الوفقية بالمنفعة الحرفية بالمنفعة الاسمية، فمن ركب وفقهما وهي خمسة وثلاثون في مثلها، لأن الحي خمسة في اللفظ، وإن كان أربعة في الخط، واسم القيوم سبعة في اللفظ وإن كان ستة في الخط، لأن الحروف المشددة بحرفين والياء المشددة من الاسمين معا، فإذا ضربت خمسة في سبعة كان الخارج خمسة وثلاثون، وهذا الوفق من المركبات، وله تأثير قوي فيما يراد تحصيله وجمعه من الأشياء، كما ذكره أهل الأعداد من هذا الفن[3]، فمن حصل التكسير وهو اثنان وأربعون حرفا، لأن إذا قلنا (ألف لام حايا) وهو اسم الحي المبسوط هكذا: (ا ل ف ل ا م ح ا ي ا) كانت عشرة أحرف،منها ستة أحرف غير مكررة بعد التداخل وهي: ا ل م ح ي.

وكذلك"القيوم" إذا بسطته خرج سبعة عشر حرفا هكذا: (ا ل ف ل ا م ق ا ف ي ا واو م ي م)، منها سبعة أحرف غير مكررة وهي: (ا ل ف ق ي و م)، فاضرب الستة في السبعة كان الخارج اثنان وأربعون حرفا، وهي جملة الاسمين المكسرين إلى سبعة أسطر، وبعد تداخل التكسيرين تبقى تسعة عشر حرفا، وهي هذه: (ا ت ج خ د س ش ص ض ط ظ ع غ د ذ ف ق ك ن....) وينتظم من هذه الحروف أسماء يستعان بها على ما أردت، وهي: (يا حي يا حليم يا حق يا خالق يا خلاق يا خفي يا رؤوف يا رحيم يا سلام يا حافظ يا شافي يا شكور يا مصور (يا مضل)[4] يا ضار يا غافر يا غفور يا فتاح يا قوي يا قيوم يا كافي يا مولى [يا مليك][5] يا مالك يا واقي يا كفيل يا

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): فيها وهو فعلها الخاص بها.

[3] يراد به علن الأوفاق والجداول والزيارج وأسرار الحروف، وهو علم يرتبط بالتصوف، وأيضا بعلم التنجيم والفلك، خاض فيه علماء كثر، منهم ابن عربي، والحلاج، والبوني،..

[4] كذا في (ج)، وساقط في (ب).

[5] إضافة في (ب) و(ج).

وكيل يا ولي يا والي) وهي بعدد الحروف فإذا أضفت هذه الأسماء أو اسما منها إلى الوفق العددي على ما يضعه أهل الأوفاق بِنِيَّة أمر من الأمور الموافقة لاسم "الحي القيوم"، وللاسم الذي أضفته إلى الوفق ظهر على إثر ما يراد به من الأفعال، وقس على هذا.

واعلم أن من ذكر اسمه تعالى "الحي" والأسماء التي أوائلها الحاء، وهي:(الحي، الحكيم، الحليم، الحميد، الحنان، الحفيظ، الحق، الحسيب) عند طلوع الشمس في زمان القيظ[1]، لم يحس بألم الحر ذلك اليوم، ومن نقش أول حرف من هذه الثمانية الأسماء هكذا (ح ح ح ح ح ح ح ح) في فص خاتم في ثامن شهر في الساعة الثامنة من يوم الأربعاء، لأن صاحبها عطارد مع اسمه (الحي الحلييم الحنان الحليم) وحمله معه أَمِنَ من الحيَّات، ويقطع ألم العطش وينمي خير البساتين والزرع إذا علق على شجرة وكذلك يعطل حركة النكاح لمن حمله.[2]

وقال الشيخ العارف سيدي أبو محمد المرجاني: "اللؤلؤة الثامنة في حرف الحاء": "الحاء منبع الكمال وحياة الصور والأشكال ثم قال بعد كلام: وللحاء سبعة أسماء، وهي: حليم، حفيظ، حكم، حي، حميد، حكيم، حنان. فالحليم لإبراهيم، والحفيظ لهارون، والحكم لموسى، والحي لإدريس، والحميد ليوسف، والحكيم لعيسى، والحنان لآدم، عليهم السلام. وإذا أضيف إليها "الحسيب" وهو من الأسماء الداخلة تحت حيطة اسمه "الحكيم" كانت ثمانية بعد حرف الحاء، ولها مربع جليل على هذه الصورة، وهو هذا:

حكيم	حليم	حفيظ	حميد	حسيب	حكم	حي	حق
حليم	حفيظ	حميد	حق	حكيم	حسيب	حكم	حي
حفيظ	حميد	حق	حي	حليم	حكيم	حسيب	حكم
حسيب	حكيم	حليم	حكم	حفيظ	حي	حق	حميد
حكم	حسيب	حكيم	حليم	حي	حق	حميد	حفيظ
حي	حكم	حسيب	حكيم	حق	حميد	حفيظ	حليم
حق	حي	حكم	حسيب	حميد	حفيظ	حليم	حكيم
حميد	حق	حي	حفيظ	حكم	حليم	حكيم	حسيب

فمن حمله حسن الله خلقه واعتدل مزاجه وحفظ في أهله، وماله ونفسه، وكان مهيب المنظر محبوبا في القلوب، مؤيدا بالحجة في نطقه، ومن كتب ثمان حاءات أحيا الله قلبه بلطائف الحكمة ووقاه شر الغضب وقساوة القلب، ومن ذكر يا حي يا حليم يا حنان يا حكيم، وما أتى من الأسماء القدسية التي أوّلُها الحاء عند طلوع الشمس في زمان ا لقيظ لم يخشى في يومه من ذلك تظلم الحر يذكر ذلك حتى ترجع الشمس في رأي عينه خضرا وهو ناظر إليها، وفي ذلك سر لأرباب الأسرار الذين يجلسون على النار ولا تعدوا عليهم، ومن نقش في لوح مستدير من فضة

---

[1] الحرّ الشديد.

[2] بعض خواص هذه الأسماء ذكرها البوني أيضا في كتابه" منبع أصول الحكمة" ص: 117.

ثمان حاءات في ساعة القمر والأسماء الأربعة المتقدمة، وعلقه بإزاء قلبه، ويعتقد أن يبرد الله قلبه عن حب الدنيا وطلبها، وما أضمر في نيته في ساعة القمر في السعود أو في ساعة الزهرة والقمر مسعود، ويعلقه عليه وهو صائم على طهارة ولا يقربه وهو جنب، ومن نظر إلى شكل الحاء في كل يوم ثمانية عشر مرة، وهو يقرأ **[**الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**]**[آل عمران/1،2]، أحيا الله قلبه بلطائف المعارف ووسَّع رزقه وحسن خلقه.

وقال الشيخ العالم سيدي أحمد بن الحاج عند قول سيدي الدمياطي:

ويَا حَـيُّ أَذْهِـب مَـوتَ قَلـبِي فَلَم أَزَل بِذِكْرِكَ يَا قَيوم مَا دُمتُ مُوصَـلا[1]

من كتب الجدول ودَوَّر به البيت وعلَّقه عليه أحيا الله قلبه بنوره ويقوم مصباح نور في قلبه، وسخر الله له جميع الأشخاص من الإنس والجن والوحوش، وكل ما يدب على وجه الأرض، ولا يضره شيء، ومن سلك طريقا وجنَّ عليه الليل فليكتب الجدول ويدور به البيت فإنه يأمن من جميع الخلائق من الإنس والجن، ومن أراد أن يتقوى قلبه على طاعة الله ومحبته ويرجع ماله كله إليه يكتب الجدول يوم الخميس ويُدَور به البيت ويعلقه عليه ويذكر الاسمين المستخرجين من البيت وهما: "يا حي يا قيوم" أربعة آلاف، فإن قلبه لا يموت أبدا، وقال سيدي أحمد زروق: "الحي القيوم من ذكرهما من عند الفجر إلى صلاة الصبح يحي قلبه وقالبه"، قاله وذكره من «الكُنَّاش في العلم غير الفاش» له وهذا هو الجدول المبارك:

ح	ي	ق	ي	و	م
ي	ي	م	ح	ق	و
ي	م	و	ي	ح	ق
م	و	ي	ق	ي	ح
ق	ح	ي	و	م	ي
و	ق	ح	م	ي	ي

وقال الشيخ أبو محمد السهرودي في شرح «الأربعين الإدريسية»: الاسم الخامس "يا حي" حيث لاحي في ديموميه ملكه وبقائه، خاصيته: من أصابه ضعف شديد وعجز عن تشخيصه الأطباء ومداواته فليكتب هذا الاسم على قدح صيني بمسك وزعفران ويغسله بماء سكر نبات ويشربه، فإنه إذا فعل ذلك تزول علته بإذن الله، ومن شربه في حال صحته تكون صحته محفوظة لا يعرض له خلافها، ويضع الله البركة في عمره.

[1] في المصدر اختلاف: ويَا حيُّ أَحيِ مَيْتَ قَلبِي فَلَم أَزَل // بِذِكرِكَ يَا قَيُّوم مَا دُمتُ مُوَصَلاً. ينظر: أبو عبد الله محمد بن الحاج المغربي، خواص الدُّمياطية، طبعة حجرية، د تا، ص:46.

وقال الشيخ العارف بالله سيدي أحمد زروق في «كناشه»: "من قرأ هذا الاسم الخامس ثلاثة آلاف مرة لم يمرض أبدا، ومن كتبه في إناء صيني بمسك وماء ورد وحَلَّ فيه السكر المصري، وشربه المريض ثلاثة أيام برأ إن شا الله".

[الدنيا دار ممر والآخرة دار مستقر:]

قوله: "تحي الموجودات في دنياه وفي الأخرى"، الأخرى ضد الأولى والضدان لا يجتمعان، فحب الدنيا والآخرة لا يجتمعان في قلب (واحد)[1]؛ بل مَثَلُه كإناء مملوء زيتا بقدر ما أصببت فيه من الماء خرج من زيته، ومثل الدينا والآخرة كمثل المشرق والمغرب بقدر ما أقبلت على أحدهما وقرّبت منه أدبرت عن الآخر وبعدت عنه، ومثلهما أيضا كالضرّتين بقدر ما أرضيت واحدة أسخطت الأخرى، وفيهما أنشدوا:

رِضَـى هَـذِي يُهِيـجُ سَخْـطَ هَـذِي ... ولَا أَنْجُـــو مِـــن إِحْـــدَى السَّخْـطَتَيـــــنِ

ولهذا قالρ: «من أحب آخرته أضر بدنياه، ومن أحب دنياه أضر بآخرته، ولا يقدر على الجمع بينهما، وعلى العدل في أحكامهما بإعطاء كل ذي حق حقه إلا الرجل الفحل الكامل الفاضل»[2]، ولذلك قال الحارث بن أسد المحاسبي τ: "العلم يورث المخافة، والزهد يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة، وخيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم".

ومع هذا فالدنيا الدنية أَمَةٌ وخادم للآخرة الحرة الفاخرة،(والأَمَةُ)[3] لا تأنف من خدمة سيدها بخلاف العكس، قال سيدي ووالدي في بعض قصائده رحمه الله:

الآخِـرَة و الدُّنْيَـــا اضَّـــادُو عْلِينَـــا ... ومَـــنْ تْبَـــــعْ هَـــذِي تَـغْـوِيــــهْ بِالطْمَـــعْ
قَالَـــتْ الآخِرة مَـــنْ كَـــانْ يَبْتَغِينَـــا ... ايْـــطَـلَّـــــقْ الـدُّنْيَـــا وايْـــلَازَم الـــــوَرَعْ
هَالَـــكْ مْهَلَّكْ مَـــا تَجْـــي عْلِينَـــا ... الخَـــادَم والحُـــــرَّة لَـــيْـــسَ تَجْـتَـمَـــعْ
زِينَـــةْ الدُّنْيَا فِي الآخْـــرَة تْهُـونْ ... انْـعِيـــمْــــهَا فَـــانْ واعْـقَـــابْــهَـــا غْـــرُورْ
بَعْـــدْ مَا تَزْهَـــى لاتْبَاعْـــهَا تْخُــونْ ... بالـنِّـــيَّـــــة تَـسْـقِـــي كَـــاسْ مَـــزْهُـــورَا
يَا الوَاحَـــد يَا مَـــنْ قَـــالْ كُنْ يَكُـونْ ... بَــلَّـــغْ الـــرَّاجِـــي مَـعْـطَـــاكْ يَـنْـتَـظَــــر

وأنشدوا:

[1] في (ب) و(ج): مؤمن.
[2] الحديث أخرجه لرواية مختلفة قليلا: - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج2، ص: 486./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص:343.
[3] ساقط في (ب) و(ج).

أَرَى الدُّنْــيَـــا لِـمَــنْ هِــيَ فِي يَــدَيْــهِ وَبَـــالًا كُلَّـــــمَا كَثُـــــرَتْ عَلَيْــــــهِ
تُهِيـــنُ المُــكْــرَمِيــنَ لهَـــا بِـصــغــــر وتُكْـــرِمُ كُـــــــلّ مَن هَانَتْ عَلَيــــــهِ
فَـــدَعْ عَـــنْـكَ الفُـــضُـــولَ تَعِـشْ حَمِيــدًا وَخُـــــذْ مَا أَنْــــــــتَ مُحْتَاجٌ إِلَيـــــــــهِ

غيــــــــره:

خُـــذْ القَنَـــاعَـــةَ مِن دُنْيَـــاكَ وارْضَ بهَـــا واجْعَلْ نَصِيبَكَ مِنْهَـــــا رَاحَةَ البَـــــــدَنِ
وانْــظُـــرْ إلى مَـــالِـــكِ الدُّنْيَـــا بأَجْمَعِـــهَـــا هَلْ فَازَ مِنْهَا سِــــوَى باللَّحْدِ والكَفَــــــــنِ[1]

في الخبر: " أوحى الله إلى الدنيا: يا دنيا من خدمك استخدميه، ومن استخدمك أُخدُميه، يا دنيا من أتعبك أتعبيه، ومن اتّبعك أتبعيه، فالدنيا الخادمة للآخرة المعينة عليها محمودة، وإنما المذمومة هي المضادة لها الضارة بها التي تَصدُّ العبد وتقطعه عن الآخرة، وبها سمي يوم القيامة اليوم الآخر، لأنه آخر أيام الدنيا، وفيه يكون يوم بعث الأموات[2] كما ذكره الناظم، وفيه من الصور الأخروية العظام (ما ذكره ذو الجلال والإكرام)[3]، ولذلك كثرت أسماؤه بكثرة (عظائمه)[4] حتى سموه بمائة اسم جُلُّها مستخرجة من القرآن العظيم، وكيف لا وقد عظمه العظيم بقوله تعالى: [أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ] [المطففين/4]، ومن عظمه أن قال الله فيه [فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ] [المعارج/4]، والدنيا عمرها (سبعة آلاف)[5]، مقدار عُشره، فلو نظر العاقل لنفسه وقدر أن يعيش عمر الدنيا لكان الأولى أن يعمل فيه، ويعب في عشر المدة ليستريح، ويتنعم في تسعة أعشارها من اليوم الآخر، (فكيف والعبد لا يبلغ عمره عشر سبع هذا العشر)[6]، وأيام الآخرة لا انتهاء لها ولا حصر، وإنما الدنيا كلها سبعة أيام من أيام الآخرة، قال الله تعالى: [وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ] [الحج/47]، فواجب على كل مؤمن موقن أن يعبد ربه في عمر الستين والسبعين وينوي دوام عبادته، ولو عاش سنين لينال ثوابها المتزايد أبدا الآبدين، ودهر الداهرين، أي نية المؤمن خير من عمله، وهذا اليوم العظيم الشديد يظهر في كل نفس منه من الأمور العظيمة ما لا يقدِّر قدره إلا الله تعالى، وأوله النفخة الثانية في الصور، وآخره الاستقرار في دار (القرار)[7] الجنة أو النار، أجارنا الله منها.

[ما يتعلق بيوم البعث:]

قوله: "وفي الأخرى باعث الأموات" أي من دار البرزخ إلى دار الخلود، قال تعالى: [وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ]] المؤمنون/100]، وقال تعالى: [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ] [الزمر/68]، ورد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله حين يقبض أرواح الخلائق كلهم، آخرهم حملة العرش، ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم جبريل، ثم يقول لعزرائيل: من بقي؟ وهو

[1] البيتين الأخيرين ساقطين في (ب) و(ج).
[2] في (ب) و(ج): الأجساد.
[3] ساقط في (ب) و (ج).
[4] في (ب) و(ج): أهاويله.
[5] ساقط في (ب) و(ج).
[6] ساقط في (ب) و(ج).
[7] ساقط في (ب) و(ج).

أعلم، فيقول: عبدك الضعيف الذليل عزرائيل، فيقول جل جلاله: أما سمعت في كتابي: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ][العنكبوت/57]، يا عزرائيل مت بإذني، فيخرج ميتا متكفنا في أجنحته، قال ρ: « والذي نفس محمد بيده، ولو كانوا أهل السموات والأرض أحياء لماتوا من صيحته» ثم يتجلى الله إلى سماء الدنيا ويقول: أين الملوك وأبناء الملوك يا دنيا أين الجبابرة وأبناء الجبابرة، أين أنهارك وأشجارك، أين الذين أكلوا رزقي وعبدوا غيري:[لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ] [غافر/16]، فلم يجبه أحد، فيرد على نفسه [الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ] [غافر/16]، فعند ذلك ينزل من السماء ماء كسنى الرجال يحي به الموتى، فأول من يحي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل، ثم يقول لهم انطلقوا إلى رضوان يخرج لكم البراق ولواء الحمد وتاج الكرامة وحليتين من الجنة، وانطلقوا بها إلى قبر محمد فيمضون إلى خازن الجنان فيقرع جبريل الباب وفيه حلقتان من الذهب والأخرى من الفضة، وتقول في طنينها الحمد لله رب العالمين، فإذا سمع رضوان الطنين خرج مسرعا ويقول: ما تطلبون يا ملائكة ربي؟، فيقولون: جئناك من عند رب العالمين، وقد أمرك بكذا وكذا، فيقول: "إن ذلك لا يخرج لمحمد حتى يوم القيامة، فيقولون له: هذا يوم القيامة، فيخرج لهم البراق، ويأخذه جبريل واللواء، ويأخذه ميكائيل والتاج يأخذه إسرافيل والحليتين يأخذها عزرائيل، ثم ينطلقون إلى قبر محمد فيجلس جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وإسرافيل عند رأسه، وعزرائيل عند رجليه، فيناديه إسرافيل ويقول له: قم يا محمد، انتبه من نومك ومن رقادك بقدرة من يقول للشيء كن فيكون، فينشق القبر ويقوم ويجلس وينفض التراب عن رأسه، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني محمد عبده ورسوله، فيلتفت يمينا وشمالا، فإذا هو بالملائكة المقربين حافين به، فيقول جبريل: بشرني؟، فيقول: اركب البراق ولواء الحمد وتاج الكرامة والحلتين من رب العالمين، فيقول: ليس عن هذا أسألك، بشرني؟ إلى أن يقول: ولعلك تسأل عن أمتك، فيقول: وكيف لا أسألك عن أمتي، فيقول والذي فضلك بالنبوة وأعطاك الشفاعة، ما انشقت الأرض على أحد قبلك، وإن الجنة محرمة على سائر الأمم حتى تدخلها أنت وأمتك، فاسئل الله أن يجعلنا من أمتك، فيقول النبي ρ: الآن طابت نفسي، فيلبس حلته ويرتدي بأخرى، ويجعل التاج على رأسه واللواء بيده، ويركب في البراق، ويطير بين الأرض إلى السماء حتى يخترق السبع الطباق، حتى يقف بين يدي الله وهو في كل مكان، فعند ذلك يأمر الله إسرافيل فينفخ في الصور وهي نفخة البعث فيلتقم الصور وهو قرن من نور أسفله تحت الأرض السابعة السفلى، وأعلاه تحت العرش واستدارته كاستدارة السماوات والأرض، وفيه ثقب على عدد الخلائق كلهم حتى الطير والوحش والهوام وجميع ما هب ودب، فإذا نفخ فيه بادرت أرواح المشركين إلى أجسادها، وتبقى أرواح المؤمنين حتى تسمع: [يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ] [الفجر/27]، فتبادر وتدخل أجسادها أسرع من طرفة، فيقوم الخلائق حفاة عراة كما خلقوا أول مرة، وتأتي السماء بدخان مبين، ويبعث الله نارا تسوق الخلائق إلى المحشر ببيت المقدس وتصفُّ مائة وعشرون صفا، كل صف يحكم ما بين المشرق والمغرب.[1](مختصرا)، واقتصرنا على ما يناسب المحل.

قوله: "وفي الأخرى باعث الأموات:"البعث: هو إشارة لشيء وتحريكه وإخراجه من موضع إلى موضع آخر، قال عز من قائل: [مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى] [طه/ 55]، وقال عز وجل: [وَاسْتَمِعْ

[1] لم نعثر عليه.

يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ] [ق /41]، [يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ] [ق/42]، فالمنادي إسرافيل، والمكان القريب من السماء هو صخرة بيت المقدس، أقرب موضع من الأرض إلى السماء، يقول في ندائه: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجمعن لفصل القضاء.

والصيحة بالحق أي البعث، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، قال الشيخ الجليل سيدي عبد الجليل القصري في «شعبه»: "أعلم أن الله جل جلاله لما خلق العالم وأكمله ورفع العلوي منه في محله، ووضع السفلي مواضعه، ورتب الموجودات في (حسن)[1] الترتيب والاستواء والعدل باستوائه على العرش مجرى العالم كله على سننه، وعرّفه الذي خلقه الله لها وعليها في الملك والملكوت، ولم يظهر ولا تجلّى للعالم كله من صفات موجده إلا بقدر ما يحتمل ويصح جريه على العرف والعادة التي أريدت منه.

وكان تدبيره سبحانه ذلك في أصله تدبير لجميع المخلوقات أن يجري هذا الحكم والعرف إلى وقت معلوم، فإذا أتى الوقت وانقضى الأمد أجراه على سنة أخرى، فإذا جاء الأجل المسمى وأراد الجليل جل جلاله التنزل بصفات الحكمة والعدل والرحمة إلى كرسي الحكم وفصل القضاء والجزاء تجلى لهذا العالم بأسره من معاني أسمائه وصفاته ما لم يعمده العالم قبل ذلك، فلم يجعل ذلك، فظهر في العالم كله من الحوادث والتبديلات ما نطقت به الأخبار والآيات.

فأول ما ظهر فعل ذلك التجلي في العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات مثله، فلم يحمل العرش ذلك على عظمته فكاد أن ينهدَّ ويتلاشى، فلولا ما زاده بإعانة من القوة والعظمة لذهب وجوده، لكن قواه وزاده اتساعا، وأمده بالجملة أضعافا، فصار حملته ثمانية بعد أن كان يحمله أربعة كما قال تعالى، ثم ظهر فعل ذلك التجلي في سائر العالم من عظيم الفضل وعظيم العدل، فعادت العلويات جنات وتشقت السماوات وتنزلت الأملاك إلى غيرها، مما يظهر ذلك اليوم في يمين العرش وكذا ظهر في شماله بما تجلى لجهنم من صفات الغضب، فضاقت الصدور وصعبت الأمور، كما ورد جميع ذلك في الآثار.

[فيما يتعلق بحياة البرزخ والبعث :]

قوله: "تحي الموجودات "البيت"، يعني أن روح سيدنا محمد ρ جعلها الله روحا لجميع الأرواح، وحياة لسائر الأشباح، وجعل وجوده أصلا لجميع الموجودات، وصفة خلقه برزت لسائر المخلوقات، والدنيا والآخرة حالتان للعبد وبينهما الحالة المتوسطة ليست له بدنيا ولا بآخرة، وتسمى البرزخ، والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين، ولذلك قال تعالى: [حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ] [المؤمنون/ 99]، أي الكفار ورأى مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن، قال تعالى: [لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً] [المؤمنون/100]، أي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله – فِيمَا تَرَكْتُ – أي فيما صنعت من عمر يكون هذا العمل في مقابلته، قال الله تعالى: "كلا"، أي لا رجوع إنها كلمة هو قائلها

---

[1] في (ب) و(ج): أكمل.

ولا فائدة له فيها، "ومن ورائهم" أي أمامهم برزخ حاجر يصدهم عن الرجوع إلى يوم يبعثون، ولا رجوع بعده. من «المـُحَلَّى»[1].

فإذا فهمت هذا علمت أن لكل واحد منا ثلاث ديار، دار الدنيا للعبادة والاكتساب، ودار البرزخ للتمزين والتراب، ودار الآخرة للجزاء والحساب، تنبيه: وتذكير بما إليه العبد الغافل يصير ليعلم أنه خلق لأمر عظيم، ولا محيص لكل منا عن هذا الخطب الجسيم، قال سيدي عبد الجليل بن موسىτ: "(اعلم أن للبرزخ زمان ومكان وحال)[2]، ولما كانت الدنيا دار عبادة وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء، كان البرزخ دار نزول لأهل الدنيا حتى يلتحق أجمعهم، فهذا زمانه، أما مكانه، فمن القبر إلى عليين، وتعمره أرواح السعداء، ومن القبر إلى سجين وتعمره أرواح الأشقياء، وأما حاله فإما منعم وإما معذب أو محبوس حتى يتخلص من سؤال الملكين، ولما كانت دار البرزخ دار رحلة وانتقال ولم تكن دار دوام، وكانت الآخرة دار البقاء الدائم، فلذلك وجب انحلال الأجساد الدنيوية في دار البرزخ كي تنشأ نشئًا آخر أكبر وأفخم مما هي عليه، فيعمر دار البقاء العظمى بأجساد عظيمة باقية، فتأكل الأرض الأجساد في البرزخ، والقدرة تصرفها في العفن وتطحن أجزاءها حتى تعود كما كانت أول مرة، فينزل الله الماء من تحت العرش كمني الرجال، فتنبت الأجساد به بغير واسطة آدمي، بل كما خلق آدم، فلذلك لا تفنى كما لا يفنى جسد آدم، كل ما خلق بواسطة الذكر والأنثى لا بد أن يفنى أو تطرأ عليه زيادة في البعث، كأجساد الأنبياء التي لا تأكلها الأرض، لا بد أن يزاد فيها حتى يكون الكل على صورة آدم، وهي ستون ذراعا، خلقه الله بيده.

وفي الخبر: "ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنس شيء لا يفنى إلا عظم واحد هو "عجب الذنب"، منه يركب الخلق يوم القيامة"، وفي الحديث: «فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»[3]، وفيه أيضا: "«كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنَب، منه خلق وفيه يركب»[4]، وروى أبو رزين: "قلت يا رسول الله: كيف يعيد الله الخلق؟، وما آية ذلك في خلقه؟، فقال: "أما مررت بوادي قومك جذبا، ثم مررت به يهتز خضرا؟، قلت: نعم، قال: فتلك آية الله في خلقك كذلك يحي الله الموتى، وقال عز وجل: [وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ] [ق/9،11،10]، أي خروج الأجساد من الأرض بالبعث إذا نزل عليها الماء الذي هو من جنسها كمني الرجال، فعجب الذنب كالحب إذا نزل عليها الماء جذبت غذاءها من الأرض والماء ونشأت، فكان منها النبات وكذلك عجب الذنب حبة نسل بني آدم إذا فنوا ونزل عليهم الماء فينبتون للبعث والحياة الباقية.

وقد ضرب الله عز وجل لإبراهيم خليله مثلا عجيبا في بعث الأجساد أراه فيه صورة اليقين حين سأله ذلك، وقال: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم]

---

[1] كتاب "المـُحَلَّى بالآثار شرح المجلّى بالاختصار" لـ بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري(ت450هـ).

[2] ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 165./ – البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 2400.

[4] الحديث أخرجه الشيخان برواية مختلفة قليلا: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:2271./ – البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص:1881.

[البقرة/260]، (صُرهُنَّ) بضم الصاد، أي ضمّهن إليك، أي أملهن إليك بضم التعليم [وكذا]والنداء كما تعلم جوارح الصيد فيتزجر إذا زجرت وتأتي إذا دعيت، فهذا مثل ضربه الله والمراد به الممثل به، وهي الأصول الأربعة التي هي الأرض والماء والهواء والنار، المتركب والمخلوق عنهما جميع ما في هذه الدار الدنيوية من الأجساد الحيوانية والنباتية والمعدنية، فيقول سبحانه لنبيه: كما أنك إذا دعوت الطير الأربع فأجابتك، وأتت حياة أو مقطعة على قراءة كسر الصاد من قصرهن أي قطعهن، فكذلك إذا دعوتُ أنا هذه الأصول الأربعة التي هي أسرع إجابة إلي من الطير إليك إذا دعوتها من الجبال، فأتاك كل واحد وكل جزء من الجبل الذي جعلته عليه سعيا أو جريا، وكذلك الجبلات الأربع التي خلقت منها الأجسام كلها، إذا دعوت كل واحد وكل جزء من مكانه أجابني وأسرع فركبت منها جميع الأجساد، كذلك فعلت من أول الدنيا إلى آخرها.

وكذلك أفعل في النشأة الآخرة إذا رجع كل جزء وجوهر إلى أصله مما انحل من الجسد في العالم في حال الحياة والموت، فإن ذلك كله محفوظ وجواهره مصونة في خزائن العالم، لأنا قد علمنا ما تنقص الأرض منهم، وعندنا كتاب حفيظ، فادعوا جميع ذلك مرة ثانية فيجيئني كما أجاني أول مرة، بل الإجابة آخرا أهون على المخلوق من هذه الأربعة من الإجابة أوّلا، لأنه قد تعود الإجابة وعرف طريق الدعوة بالإجابة إلى بارئه وداعيه، قال تعالى: [وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ][الروم/27]، الهاء في قوله عليه، عائدة على المخلوق، أي العود أهون عليه من البدء، ولأن الكل على الله هين، ولو كان شيء أهون عليه من شيء للحقه في الصعب مشقة ووجد في أسهل راحة وذلك في حقه تعالى مستحيل، وقد قال تعالى: [وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ] [ق/38]، ولذلك قال جل جلاله في آخر المثل: "واعلم أن الله عزيز لا يمتنع عليه ولا يعجز قدرته شيء، حكيم في صنعه يحكم الأشياء ويزمها ويتقنها، فيحل الأجسام إذا شاء ويركبها بحكمته إذا شاء للبقاء كما خلقها أولا للفناء، فلذلك انحلت أولا، ولا تنحل بعد هذا التركيب الثاني لأنه خلقها للبقاء الأبدي. من «الشعب».

ورد في تفسير الآية: أن إبراهيم υ أخذ طاووسا وديكا وحماما وغرابا فقطعهن وخلط لحمهن وريشهن، وجعل على كل جبل من جبال أرضه جزء، وأمسك رؤوسهن عنده، ثم دعاهن فتطايرت الأجناح إلى بعضها حتى تكاملت وأقبلت رؤوسها، وفي تخصيص هؤلاء الطيور إشارة للحياة المعنوية أيضا، فالطاووس بمثابة القلب، والديك بمثابة البطن، والحمام بمثابة اللسان، والغراب بمنزلة العينين.

فسواد الغراب وحذره دل على سهر العين السوداء في الليلة الظلماء حذرا من ظلمة القبر وخوفا من الاستدراج والمكر [أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ] [الأعراف/99]، بعد قوله تعالى: [سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ] [الأعراف/182].

وصمت الحمام في وكره ثم ترنمه في قفصه عند هيجان ذكره ثم سرعته في استجلاب خيره دليل على صمت اللسان بين مقابض الأسنان، وتنطبق عليه الشفتان إلا عن ذكر الله أو كلام ليس به بأس لقوله تعالى: [لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ] [النساء/114].

وقناعة الديك وإيثاره ومراعاته للأوقات الفاضلة وابتداره دليل على الاقتصار على ما يسد الخلة وإيثار أهل الصحبة والخلة مع المحافظة على الأوقات المعدة للعبادات كالصلوات والصيام والزكوات والقيام والإعلام بما بهد

يدبرون، [فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ] [الروم/ 17-18].

واجتماع الألوان في الطاووس وجماله وبهاؤه وكماله دل على جمعية القلب وأنه محل نظر الرب فأمنه في خوفه وخوفه في أمنه، وسهوه في يقظته ونومه في غفلته وجمعه في عزلته وتفرده في جمعيته وصمته في محادثته، ومكالمته في صمته، وذكره في فكره، وتركه السوء في خلطته، وتوجهه لمساويه في رحلته ورفضه المألوفات والوساوس من فطرته، وتغريده في الملاء والخلا من خصيصيته، وشغفه في قناعته وفضائله في مراقبته، قال من منّ علينا بعطاء غير ممنون: [يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ] إلى قوله [يَذَّكَّرُونَ] [الأعراف/26].

فمن استمال واستألف طيور هؤلاء الخصال، وعلم جوارحها صورة الأشلاء والإقبال وعود العين السهر تجوع بطنه، واللسان الصمت يعز له بدنه وتطبع بذلك أربعين يوما صار له طبعا وعاد له نفعا وسهل عليه بحول الله كل عسير، وأتاه بجميع ما يشتهيه البشر وتيسر له الأخذ والنوال والكف والإرسال، وعلم أن الله عزيز حكيم وأنه بكل شيء عليم، اقتباس الفقير من قوله تعالى: [فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ] [البقرة/260].

قال في «الشعب»: "وأول أحوال البرزخ، تلقي الملائكة حين خروج الروح من الجسد بالبشرى أو بالهوان، فمن بين فارح محب للرحلة من دار الفناء، ومن بين كاره على قدر ما شاهد كل أحد من الإكرام والهوان، وهذا تفسير قوله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1]، ومعنى ذلك أن الرسل لما جاءت بالشرائع من عند مرسليها انقسم الخلق إلى قابل ومكرم لأمر الله وإلى راد ومؤذ لأنبياء الله وأمر الله، فلما كان الرحيل من هذه الدار إلى الآخرة جوزي الفريقان وفاقا على أعمالهم، لأن الآخرة جزاء وفاقا على ما تقدم في دار الدنيا، فأفهم.

ثم بعد ذلك سؤال الملكين الفتانين في القبر، ومعنى ذلك أنه حين التزام الخلق الشرائع وقبولهم للإيمان لا بد من الاختيار لأمر الله، ومن النظرية في أمر الرسل وما جاءت به، وهو المعبر عنه بأول الواجبات عند عرض الشرائع على العقول فيعتقد كل أحد في قلبه وسره على حسب ما قدر له حتى تعترضهم أفكار النظر والفكر فيما جاءت به الرسل من أمور الغيب.

فمن بين منكر وجاحد أو شاك مرتاب، ومن بين مؤمن مصدق موقن مطمئن ثابت، هذه الكل مدة الدنيا من أول ما وجبت عليهم الواجبات إلى حين الموت، فلما حصل الخلق في الآخرة فتنوا بالجزاء عن عقائدهم وأحوالهم جزاء وفاقا، ولذلك يقول الملكان للمسؤول: "قد علمنا إن كنت مؤمنا ولا دريت ولا تليت، وعلى الله حييت وعليه مت، على حسب اختلاف الخلق في الدنيا بعد ذلك، ففتح لكل عبد باب إلى الجنة وباب إلى النار ينظر إلى مقعده منهما، ومعنى ذلك أن الرسل لما جاءت من عند الله، وفتحت للعقول أبواب دين الإسلام، حين عرضت على العقول وحين وجوب الواجبات، وأمرت بالدخول فيه، وفتحت بالذكر للجزاء على ذلك أن التزم أبواب الجنة للعقول، وأمرت بالإعراض عن الكفر وفتحت أبوابه للعقول بالذكر لقبحه وجزاء عاقبته،وأمرت بالتزام الطاعات وترك المعاصي وذكرت للعقول أن من التزم بالطاعات ودخلها جوزي بالجنة، ومن أعرض وأبى وقع في الكفر ودخل النار.

[1] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2067-2068./ – البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 2387.

فكان ذلك الذكر كله فتحا وإظهارا لأبواب الجنة والنار ولهما أنفسهما، فمن بين داخل مفتوح له بدخوله في الإسلام والشرائع ومن بين خارج نافر، فيقال للعبد ذلك الوقت هذا مقعدك من الجنة أو النار أبدلك الله مقعدا من الجنة والنار، كما صنع هو بنفسه في دار الدنيا فأفهم.

ثم بعد ذلك يوسع له قبره ويشرح له، وذلك جزاء انشراح صدره بالإسلام واتساعه لقبوله أو يضيق عليه كالزج وجزاء لحرج صدره وضيقه عن قبول الإيمان[1] والشرائع، فيفسح لكل أحد مد بصر، فالكافر لم يمتد بصر إيمانه في أمور الربوبية والآخرة فترى واحدا، فلذلك كان قبره أضيق الضيق، وأما المؤمن فيفسح له على قدر بصيرته واتساع إيمانه وتجافي روحه عن دار الغرور وإقباله على ربه والدار الآخرة فأفهم.

ثم يقترن بكل أحد جزاء عمله إن خيرا فهو خير وإن شرا فشرا كما ورد في الحديث: «إنما نسمة المؤمن طير يعلق من ثمار الجنة»[2] وكذلك كانت نسمة المؤمن الذاكر هنا تطير بالأذكار وتسرح بالنظر والاعتبار، وتقطف بالذكر من أغصان الحكمة والأذكار في جولانها في الملك والملكوت، ورد في الحديث: «إن غراس الجنة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[3]، وكذلك سائر الأذكار، فافهم، وورد: «أن من دخل على مؤمن سرورا خلق من ذلك السرور ملكا يدخل عليه في قبره ويؤنسه إلى يوم القيامة»[4]، فاستدل بهذا على سائر الأعمال حسنها وقبيحها، فإنه تعالى يقول: [سَيُجْزِيهِم] وصفهم أنه حكيم عليم، ورد أنه يقول للمؤمن: «نم نومة العروس الذي لا يوقضه إلا أحب أهله إليه»[5] وقد سمى الله النوم وفاتا في قوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ] [الأنعام/ 60]، كما قال الله تعالى: [اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا] [الزمر/42]، فالنوم أخو الموت، فكما أن النائم يرى في منامه الله أي الحسنة المنعمة المفرحة، فكذلك الميت المؤمن السعيد بما يرى ويشاهده من دار الخلود، وكما أن النائم يرى المرائي المفزعات، ويتردى من الجبال العاليات، ويجزع من الحياة والأهوال الفاضعات، فكذلك من يشاهد من الأموات دار الخلود النار الكبرى مع ما يتصل بالفريقين ويباشر كل واحد منهم في ذاته من النعيم والعذاب.

ثم قال: "فإن قلت أن أجساد الأموات منحلة لا نشاهد لها حسا، فاعلم يا أخي أن الأرواح لما كانت حين الحياة الدنيا في أجسادها متطلعة على الحواس إلى عالم الدنيا، فكانت آثار الروح ودلائله تظهر في الجسد ظهورا واضحا لإقباله على الجسد وعالم الدنيا، فلما توجه بالموت إلى عالم الآخرة أدبر عن الدنيا عن الكلية وتبعه الجسد وأقبل الكل على عالم الآخرة بالتوجه إليها بالكلية أيضا عن الدنيا، فخفيت حركاتها بالكلية عن أهل هذه الدار الدنيا كما صح في الحديث عن العلا أنه ʋ قال: «ألم تروا الإنسان إذا مات شَخُصَ ببصره، قالوا بلى يا رسول الله، قال فذلك حين يتبع بصره نفسه فهو ناظر مستغرق مجذوب بالكلية إلى الآخرة، محدد النظر مجتمع التوجه إليها في الباطن كل الجذب»[6].

[1] في (ب) و(ج): الإسلام.

[2] الحديث أخرجه مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر، دط، د تا، ص: 240.

[3] الحديث أخرجه: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، ص: 91./ – محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج2 (م سابق) ص: 1251.

[4] الحديث أورده عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، الترغيب و الترهيب، ج3، (م سابق) ص: 266.

[5] الحديث أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، ج3، (م سابق) ص: 383.

[6] لم نعثر عليه.

فحركات الكل وآثارهم وأجسامهم أخراوية، فلا يدرك أهل الدنيا ما تحس الأرواح والأجساد من نعيم وعذاب، لأن الآخرة لا تدرك بالحواس بل بالعلم، فالجسد في القبر والروح متصل به اتصالا حقيقيا كاتصال روح النائم بجسده إلى يوم يبعثون، لأن الموافقة التي كانت بينهم في الدنيا توجب الاتصال بينهما في البرزخ وتمنع من افتراقهما بالكلية فافهم.

وقد ورد في صفة العلماء الأموات مع الخلق الأحياء أن أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، فكيف بالجسد مع روحه الذي انطبعت صورته في ذات الروح انطباع الصور في المرآة الصافية المشفة التي هي وجه من جميع وجوهها، فلذا ألزم كل روح جسده في قبره، ويسرح وهو متصل به كروح النائم تتصرف في عالم المنام، وربما جامع النائم في بلد بعيد من بلده، ويمني في موضعه ولا يراه غيره"، من «الشعب».

[فيما يتعلق بالأصول الأربعة التي تَرَكَّبَ منه كل موجود" التراب والماء والهواء والنار"][1]

قوله: "عمت الأرضين بالترب وانباتات وريح وأبحورا"، هذا نحو قوله في قصيدته النونية:

مِيــــمْ الجَــمــــعْ هُـــوَ السَّـــاسْ	يَا مَن نْشَـــــاهْ زَاخَـــر نُــــــــــورْ
مَـــالُـــو اعْـــقَـــابْ مَـــا لُـــو رَاسْ	مَـــا لُو سْوَاحَــــــل واقْعُــــــــــورْ
ثُمَّ حْـيــيـــتْ مَـــنُّـــه نْـــفَـــاسْ	فِي الأَزَلْ عَـــــــــمّ ذَا المعمُـــــــــورْ
جْـمِــيـــــــع ذَا العُــــمْـــرَانْ	ذَاكْ الــذِي نَفْسَـــــتْ يَاهْ الدَّيَّـــــــانْ
جَـــلَّ ثَـــنَـــاكْ مِــنْ رَحْـــمَـــانْ	بِكُـــنْ ولَيْسَ كَـــافْ ولَا تَنْـــــــوَانْ

وقد تقدم شرح ابن الفارض:

وَرُوحِـي لِلْأَرْوَاحْ رُوحٌ وَكُلّ مَا تَرَى حُسْنًا فِي الكَونِ مِن فَيْضِ طِينَتِي. (فراجعه).

والنور والروح واحد والأرضيين (مفعول بعمّت منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم على الشذوذ، وقياسه أن يجمع على أراض فيكون على هذا جمع تكسير، وهو ما يغير فيه بناء الواحد بزيادة أو نقص أو تغيير حركة ، لأن مفرده أرض، وإنما جمعها لقوله تعالى: [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ] [الطلاق/ 12]، وهل هي متفرقات كالسموات أو ملتصقات كالبصلة، ولذا أفردت في غير ما آية.

أخرج البزّار عن أبي ذر عن النبيρ قال: «ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء إلى التي تليها مسيرة خمسمائة عام، كذلك إلى السماء السابعة والأرضون مثل ذلك، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك»[2]، وفي حديث آخر: «وكثيف كل سماء خمسمائة عام، وكثيف كل أرض مثل ذلك»[3].

---

[1] يشير المؤلف إلى بعض هذه الأصول بتسميات مختلفة كالآتي: الأرض في مقابل "التراب"، والريح في مقابل "الهواء"، والبحر في مقابل "الماء". وهو يريد أن يقول من خلال هذا الفصل أن النبي ρ هو روح الأرواح، وحقيقة ذاته البرزخية أصل للأصول الأربعة التي تركّب منها كل موجود.

[2] الحديث أخرجه:– عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج3، (م سابق) ص: 361./ – أبي شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج4، ص: 79.

[3] لم نعثر عليه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب، قال: «إن الله خلق سبع سموات، ومن الأرض مثلهن وجعل ما بين كل سمائين كما بين السماء والأرض، وجعل كثيفها مثل ذلك، وجعل ما بين كل أرضين كما بين السماء الدنيا والأرض وكثيف كل أرض مثل ذلك الأثر»[1]، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: «أفضل السموات التي فيها العرش، وأفضل الأرضيين التي أنتم عليها، وإن أفضل الشجر العوسج ومنه عصى موسى»[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية العربي في قوله تعالى: [فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ] [لقمان/16]، قال: "هي صخرة خضراء مربعة تحت الأرضيين، قيل فما عليها؟، قال: الماء، قيل فما الماء؟، قال: الحوت، قيل: فما الحوت؟، قال: الأرضون، قيل: الصخرة على أي شيء؟، قال: على قرن الثور، قيل: الثور على أي شيء هو؟، قال: على الثرى"[3]، وعن وهب: «أنها سبعة أبحر وسبع أراضين، والأرض على ظهر الحوت، واسم الحوت: بهموت»[4]، وعن ابن عمر قال: «تحت بحركم هذا بحر من نار، وتحت ذلك البحر بحر من ماء، وتحت ذلك البحر بحر من نار حتى عدّ سبعة أبحر من نار، وسبعة أبحر من ماء»[5]، وعنه قال: "ماء البحر لا يجزي من وضوء ولا جنابة، إن تحت البحر نارا ثم ماء ثم نار". وعن كعب قال: "هو النيل نهر العسل في الجنة ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة"[6].سئل ابن عمر: "ومم خلق الخلق؟ قال: من ماء وريح ونور وظلمة، فأتيت ابن عباس فسألته عن ذلك فقال فيها كما قال عبد الله بن عمر".)[7]

(ومم في كتاب السيوطي في [كذا][8]وقال صاحب «الشعب»، قال سيدي عبد الجليل: "فالنظر في المخلوقات على وجه الحكمة وإتقان الصنعة يدلنا على صفات الفاعل الحكيم، أما جسم العالم الأكبر فلو قدرت جميع العقول غير ما هو عليه الوضع والتركيب لا نخرم نظامه، مثال ذلك، أن الأرض خلقت كثيفة ولم تخلق سيالة مثل الماء لتستقر عليها الخليقة، لأن الله جعلها قرارا للمخلوقات ولم تخلق صلبة مثل الحجارة، لأنها لو كانت شديدة لم تصح فيها الحراثة والغراسة فيبطل العيش وتخرَّب الدار، ولم تخلق صورتها قائمة مستطيلة، لأنها لو كانت كذلك لا يثبت على ظهرها أحد ولا يتهنى بوعورتها عيش، بل جعلت وطية ممهدة، فطاب عيش الخلق وجعل فيها بعض التسنيد والتكوير لتجري المياه على وجهها، لأنها لو كانت وطية جدا لغرقت الأرض وعادت مستنقعات كلها، ولم يصح فيها نبات ولا عيش، ثم نصبت الجبال عليها، وفيها تنضم أجزاء تراب الأرض كله بعضه إلى بعض كي لا تتحرك وتميد فتنشق، لأن فيها بعض التخلخل، ولو تحركت لانفصل أجزاؤها لأن للأرض في الماء كالسفينة في البحر والماء محيط بها من جميع الجهات، وجعلت الجبال أيضا مرتفعة أسنَّتُها [كذا][9] والرواسي كذلك، لأن ترد البحار عن

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] الحديث أورده الطبري برواية مختلفة قليلا: تفسير الطبري، ج20، ص: 71.

[3] الحديث أخرجه: محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي أبو عبد الله، المنار المنيف، ج1، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1403، ص: 78.

[4] الحديث أورده برواية مختلفة ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، ص: 163.

[5] الحديث أورده: محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابوري أبوبكر، الأوسط، ج1. تحقيق: صغير أحمد محمد حنيف، دار طيبة، الرياض، ط1، 1405، ص: 249.

[6] الحديث أخرجه: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، (م سابق) ص: 216.

[7] الكلام من (مفعول بعمّت منصوب -إلى- كما قال عبد الله بن عمر) ساقط في (ب) و(ج).

[8] بياض في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

[9] ساقط في (ب) و(ج).

وجه الأرض كي لا تحيط بها من جميع الجهات، وجعل بين الجبال أوطية وطرقا واسعة ليسهل فيها خلجان البحار والأنهار ليصل الناس لحوائجهم فيها بالسفن، وتصل الحيتان إلى نواحي الأقطار، ولإخراج الجواهر منها، ولولا ذلك لكان منحازا ولم تصل منافعه إلى الخليقة.

وجعلت الجبال أيضا مخازن المياه العذبة يتفجر منها العيون والأنهار إلى البلدان، وجعل البحر ملاصقا للأرض، العذب والمالح لتمتزج رطوبة الماء بيبوسة الأرض فيصلح من ذلك الخلق والتصوير من النبات والحيوان وسائر المخلوقات، لأن اليابس لا يتصور منه الصور والسائل، كذلك وخلق البحر متحركا على الدوام لئلا يجمد فيصير أرضا بالسكون فتبطل الحكمة، لأن البرد طبع الماء، والبرد يجمد وييبس فكسرت كثرة حركته برودته وسلطت عليه رياح الهوى من كل جهة لئلا يسكن، ألا ترى الماء كيف ينعقد حجاره وتلجأ إذا اشتد عليه البرد، وخلق البحر مالحا لئلا ينتن بطول المكث فيهلك حيوانه برائحته، وكأن الهوى يحمل بتحرك الرياح عفونة روائحه فيلقيها على وجه الأرض فيهلك ما عليها بعفونته، فخلق مالحا لهذه الحكمة وليكون دفاعا لا هوية العالم العفنة المضرة في نواحي الأرض وخلق البحر الآخر حلوا فيصح بعذوبته العيش، ولو كان مالحا أو مرا لأهلك الخليفة ألا ترى المالح كيف لا ينبت بساحله نبات ولا شجر.

ثم خلق الهواء محيطا بالبحر والأرض وجعله ألطف منهما لتصح الحرثة فيه والتنفس، وذلك كله أسباب البقاء، ولو كان كثيفا مثل الأرض أو سيالا مثل الماء لم تصح به الحكمة، ثم خلق متخلخلا جدا متحركا في جميع الجهات ليسوق السحاب إلى البلاد، فينزل بها المطر وينتفع الناس بإخراج الحبوب من الزروعات، ويُروِّح عنهم شدة الحرارة المفرطة ويبرد حرارة الأجسام في الباطن بالتنفس، ثم خلق لونه على هذه الزرقة المحكمة لتنفذ فيه الأبصار إلى منافعها، فيقبل الصور والألوان ثم جعل يتحرك في وقت دون وقت لأنه لو كان متحركا أبدا لا انتثرت منه الحبوب وتكسرت الأشجار وتهدمت المباني ولا ثار الغبار الدائم وطمست به العيون ولم يصح معه عيش، فجعل ساكنا ومتحركا لتصح الحكمة لأن الهوى أرياح ساكنة والريح أهويه متحركة.

ثم خلقت النار ألطف من الكل كي لا تظهر، ولو ظهرت صورتها مثل الأرض والماء والهوى لأضرت بأبصار الخلائق كمثل البرق الذي لو دام لهلك الناس به، ثم جعلها تظهر في الأجسام للمنافع من التسخين ولأن يستضاء بها وقت الحاجة إليها، وجعلت في غاية الحرارة للنضج ولأن تسيل الجامدات وتختلط بغليانها الماء والأرض والهواء فتلتئم الخلقة من الجميع، ولولاها ما صح شيء من ذلك.)[1]

(ثم انظر إلى السماء فكأنها في غاية الاعتدال لا كثيف فتقع إلى أسفل مثل الأرض، ولا سيال مثل الماء فتسيل أجزاؤه، ولا متخلخل مثل الهواء فتنحل أركانه، ولا خفي مثل النار فتحتاج إلى مادة لتظهر وجودها، لأن النار ملتهبة أكل بعضها بعضا، ولو كانت السماء مثل النار أكلت بعضها بعضا وانخرم نظامها مع كل لحظة، لكنها خلقت في غاية الاعتدال، فرفعت في مكانها بلا عمد يرى بل بتعديل خالقها المتقن وهكذا كل سماء"، من «الشعب».)[2]

---

[1] الكلام من (ومم في كتاب السيوطي –إلى– ما صح شيء من ذلك) ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

و"انبتات"، جمع نبات، وهو كل ما ينبت بنفسه أو يستنبت لمنافع الحيوان العاقل وغيره، قال تعالى: [أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ] [عبس/25 -32]، أخرج السيوطي عن كعب قال: "المطر زوج الأرض، عن عكرمة قال: " ما أنزل الله قطرة من السماء إلا نبتت بها عشبة في الأرض أو في البحر لؤلؤة"[1]،عن ابن عباس: "يخلق الله اللؤلؤة العظيمة من القطرة العظيمة، والصغيرة من الصغيرة".

و(الريح): جمعه أرواح ورياح، أخرج ابن العربي في «سراج المريدين» عن النبي ρ أنه قال: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب»[2]، وذكر في «الحصن»: "أنه ينبغي للعبد إذا هبت الرياح وهاجت أن يستقبلها بوجهه ويجثي على ركبته ويدعو ويقول: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا، اللهم رحمة لا عذابا، اللهم لقحا لا عقيما"[3].

(وكان υ يقول أيضا عند هيجان الريح: "اللهم لا تهلكنا بسخطك وعقابك، وعافنا قبل ذلك" وفي حديث ابن العربي السابق دليل على أن الأسباب العادية لا تأثير لها ولا عبرة بها وأنه لا ملجأ منه إلا إليه، لأنه تعالى قد يرحم بما به يعذب [مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ][الذاريات/42]، وسخرها لسليمان بن داوود، فكانت تحمله حمل الكرامة، [وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ][سبأ/12]، فهي من أكبر النعم عليه، وكذا سائر الأسباب الجارية يعذب بها قوم ويرحم بها آخرين، فلا يفيد إلا اللجوء إلى الله والتضرع إليه في كل وقت وحين، ولذلك قال الإمام العارف بالله أبو الحسن الشاذليّ τ: "وهب لنا ريحا طيبة كما هي في علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك (الخ)".

لكن كل ما ورد في القرآن من الريح مفردا إنما جاء في الإهلاك غير ما قيد في قوله: [وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ] [يونس/22] في مقابلة قوله: [جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ][يونس/22]، وما جاءت بصيغة الجمع فهو للرحمة كقوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ][الأعراف/57]، [وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ][الحجر/22]، لأنها تلقح السحاب)[4]، والسحاب يلقح الشجر.

وقيل اللواقح الحوامل لأنها تحمل الماء، والعرب تسمي الريح الجنوب اللاقح وريح الشمال بالعقيم التي أرسلها الله عذابا، (لأن الرياح أربع: صبا ودبور وجنوب وشمال، فالصبا الشرقية، والدبور الغربية، والجنوب القبلية، والشمال مقابلتها، وتسمى بالجرفية ولا أصل للجرفية في اللغة، قاله شارح «ألفاظ الشفا» لعياض قوله" وبركة وريح وأبحر".

أخرج السيوطي في «الهيئة السنية» عن المستدرك وصححه عن ابن عباس: "أنه سئل حين كان العرش على الماء على أي شيء كان الماء، قال على متن الريح"[5]، وعن وهب: "ثم خلق الله الريح فيبسطها على الماء فضربت الماء

---

[1] الحديث أورده ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، ص: 322. و نص الحديث ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه: - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج3، ص: 287./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص: 318.

[3] ينظر المصدران السابقان، نفس الجزء ونفس الصفحة.

[4] الكلام من (وكان υ يقول أيضا عند هيجان الريح -إلى- لأنها تلقح السحاب) ساقط في (ب) و(ج).

[5] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 367.

حتى صار أمواجا وزبدا"[1]، وعن ابن عباس قال: "الماء والريح جندان من جنود الله، والريح جند الله الأعظم"[2]، وعن مجاهد قال: "الريح لها جناحان وذنب"[3]، وعن ابن عمر قال، قال ρ: «الريح مسجونة في الأرض الثانية، فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا، قال: يا رب أرسل من الريح قدر منخر الثور، قال له الجبار لا أذن تكفي الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم»[4] وعن ابن عمر قال: «الرياح ثمان أربع منها رحمة وأربع عذاب، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات، وأما العذاب، فالعقيم والصرصر وهما في البر والعاصف والقاصف وهما في البحر»[5].

وعن عيسى الخياط قال: "بلغنا أن الرياح سبع: الصبا والدبور والجنوب والشمال والنكب والحزوف والقائم، فالصبا يجيء من المشرق، وأما الدبور فيجيء من المغرب، وأما الجنوب فيجيء عن يسار القبلة، وأما الشمال فيجيء عن يمين القبلة، وأما النكب فبين الصبا والجنوب، وأما الحزف فبين الشمال والدبور، وأما ريح القائم فأنفاس الخلق".)[6]

(وعن أبي هريرة سمعت رسول الله ρ يقول: «ريح الجنوب من الجنة فهي من اللواقح، وفيها منافع للناس، والشمال من النار تخرج فتمر[كذا][7] فتصفيها نفخة من الجنة فيردها من ذلك»[8]، وعن ابن عباس:"ما راحت جنوب قط إلا سال واد من ماء رأيتموه أو لم تروه"[9]، وعن ابن عباس: "الجنوب سيد الأرواح واسمها عند الله [كذا][10]ومن دونها سبعة أبواب وإنما يأتيكم منها ما يأتيكم من خلفها، ولو فتح الله منها باب واحد لأضرت ما بين السماء والأرض"[11]، وعن قيس بن عبادة قال: "الشمال ملح الأرض ولولا الشمال لأفنيت الأرض"، وعن كعب لو احتبست الريح عن الناس ثلاثة أيام لا نتن ما بين السماء والأرض".

وسئل إسرائيل بن يونس: "عن أي شيء سميت الريح؟ قال: على القبلة، فشماله الشمال وجنوبه الجنوب، والصبا ما جاء من قبل وجهها، والدبور ما جاء من خلفها" وعن الحسن قال: "جعلت الريح على الكعبة فإذا أردت أن تعلم ذلك فاسند ظهرك إلى باب الكعبة، فإن الشمال عن شمالك، وهو مما يلي الحجر والجنوب عن يمنيك وهو مما يلي الحجر الأسود، والصبا مقابلك وهي مستقبل باب الكعبة، والدبور من دبر باب الكعبة"، وعن ابن عباس قال: "الشمال فيما بين الجدي ومطلع الشمس والجنوب فيما بين مطلع الشمس، وسهيل والصبا ما بين مغرب

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] الحديث أخرجه عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، العظمة، ج4، تحقيق: رضاء الله بن محمد ادريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1408، ص: 1337.

[3] الحديث أورده: – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج4، ص: 413./ – أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي، ضعفاء العقيلي، ج4، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، ط1، 1984، ص: 16.

[4] الحديث أخرجه: – أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج2، ص: 281./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج5، ص: 417.

[5] الحديث أورده عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، العظمة، ج4، (م سابق) ص: 1305.

[6] الكلام من (لأن الرياح أربع –إلى– فأنفاس الخلق) ساقط في (ب) و(ج).

[7] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

[8] الحديث أخرجه أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج2، ص: 271.

[9] الحديث أورده عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، العظمة، ج4، ص: 1341.

[10] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

[11] لم نعثر عليه.

الشمس إلى الجدي والدبور ما بين مغرب الشمس إلى سهيل، وعن ضرة الدبور الريح الغربية والقبول الشرقية، والشمال الجنوبية واليمان القبلية، والنكب تأتي من الجوانب الأربع". من «الهيئة السنية».

وعن عثمان الأعرج قال: "إن مساكن الرياح تحت أجنحة الكروبين حملة العرش فتهيج فتقع بعجلة الشمس فتعين الملائكة على جريها، ثم تهيج من عجلة الشمس فتقع في البحر ثم تهيج في البحر فتقع برؤوس الجبال ثم تهيج من رؤوس الجبال فتقع في البر، فأما الشمال فإنها تمر بجنة عدن فتأخذ من عرف طيبها، ثم يأتي الشمال حدها من كرسي نبات نعش إلى مغرب الشمس، ويأتي الدبور حدها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل ويأتي الجنوب حدها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس، ويأتي الصبا حدها من مطلع الشمس إلى كرسي نبات نعش، فلا تدخل هذه في حد هذه، ولا هذه في حد هذه".

وعن عمير بن عبيد قال: "يبعث الله المبشرة فتغم الأرض غما، ثم يبعث المبشرة فتثير السحاب ثم يبعث المواعبة فتؤلف ثم يبعث اللواقح فتلقحه، ثم قرأ: [وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ][الحجر/22]، فتلقح الشيء"، وعن عطاء قال: " السحاب يخرج من الأرض ثم تلى: [اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً][الروم/48]، وعن ابن عباس: "أن الله يبعث الريح تحمل الماء من السماء ترمي به السحاب تذر كما تذر اللقحة"، وعن مجاهد في قوله تعالى: [فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً][الذاريات/2] ، قال: "السحاب تحمل المطر"، وعن كعب قال: "السحاب غربا: المطر، ولولا السحاب حين ينزل الماء لا فسد ما يقع عليه من الأرض والبذر نزل من السماء"، وعن علي قال: "أشد خلق ربك عشرة: الجبال والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفئ النار، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء، والريح تثير السحاب، والإنسان يتقي الريح بيده، فيذهب فيها لحاجته، والسكر يغيب الإنسان والنوم يغيب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم"، منه[كتاب «الهيئة السنية» للسيوطي].

قلت ولذلك استعاذ υ من الهم في قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»[1] الحديث، وقال فيه: «الهم نصف الهرم»، وهو تدبير بالباطن وتقدير أمر في المستقبل إن وجد كان الرضى وإلَّا لم يكن، وهو مذموم لما فيه من السخط على الله في المال وإشغال الفكر بغير الله في الحال، ولذلك قال سهل بن عبد الله: "ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم".)[2]

(قوله: "والبُحُرَا"، والأبحر جمع بحر، وهو مخلوق عظيم، ذلَّلَهُ الله بعظمته لخلقه حتى ركبوه، وسخره لهم حتى أكلوا منه لحما طريا واستخرجوا منه حلية يلبسونها،[وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ][النحل/14]، فهو كله رحمة وبركة ونجاة فظهرُه مجاز للفلك، وقعره مفاتح للملك، وموجه للنجاة والهلاك وماؤه طهور، أخرج الدارقطني: "أنه طهور الملائكة إذا عرجوا وإذا نزلوا"، وقال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص رضي الله عنهما: "صف لي البحر؟ فقال: يا أمير المؤمنين مخلوق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود، فقال لاجرم لولا الحج والجهاد لضربت من يركب بالذرة"، ثم رجع إلى جوازه وانعقد الإجماع على جوازه، ليس هذا محلها ولبعضهم:

[1] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1059.

[2] الكلام من (وعن أبي هريرة سمعت رسول الله ρ –إلى– يكدران على الناس عيشهم) ساقط في (ب) و(ج).

أُتـرُكِ البَـحْـرَ جُملـةً واسْتَعِـذْ مِن بَـلَائــــهِ   إنَّمَــا البَـحْـرُ نِقْمَــة فَـرِزْقُـــهُ كَـمَــائِــــهِ

ولهذا قالوا فيه: "أن ركوبه صَفَقَة، ثُلثاها عَطَب، إمَّا غرق أو أسر أو سلامة" وأخرج في «الحصن الحصين» حديث: أن من ركب البحر فأمانه من الغرق أن يقول تعالى: [وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ][هود/41]، [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ][الزمر/67]، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "من قال هؤلاء الكلمات عند ركوب البحر وأصابه عطب فعلى ديّته وهي: "اللهم يا من له السماوات السبع خاشعة والأرضون السبع خاضعة، والجبال الراسيات طائعة أنت خير حفظا وأنت أرحم الراحمين، [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ][الزمر/67]، صلى الله على محمد النبي الأمي وعلى أهل بيته وأزواجه وذريته وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين.

وقال: [وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ][هود/41]، قال الشطيبي قال بعضهم: "خرجنا من ساحل شرشال نريد الأندلس باثنين وعشرين سفينة فهاج البحر فكنت أرددها فلم تنجو غير سفينتنا".

حكاية في المغنى: "رأيت في كتاب «الفرج» في نسخة عتيقة عنه لها نحو الأربعمائة سنة: "أن تاجرا ركب البحر ومعه أربعون ألفا، فلما توسط البحر سمع أهل المركب هاتفا يقول: "يا من يشتري منّي الحكمة، فقالوا بِكَم؟ فقال: بأربعين ألفا، فقال التاجر: أن أشتريها بهذا العدد، فقال ألقه في البحر، فرمى الأربعين ألفا في البحر، فسخر به أهل المركب، وقالوا ضيعت مالك بغير فائدة، فقال له الهاتف عليك بهذه الآية [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا][الطلاق/ 2،3] ، فقال أهل السفينة هذه آية محفوظة نعرفها، وصاروا يندمونه، فلم يلتفت إليهم فساروا، فإذا بالبحر قد طفا وهال، فرموا سلعهم وخففوا فلم ينفعهم ذلك في مآل الأمر إلى أن غرقوا كلهم، وتَلَا هو تلك الآية فنجاه الله على لوح من السفينة إلى أن رماه البحر إلى جزيرة في وسط البحر أضاءها جان في شكل ثعبان.

فدار في الجزيرة فإذا هو بامرأة فسألها عن حالها فقالت، إن عفريت اختطفني من بلادي ورماني إلى هنا فهو يروح من العشى إلى العشى، وأشفقت على الرجل، وقالت: إنه يهلكنا مهما وجدك هنا، فقال لها: إن حان وقت مجيئه فأخبريني، فلما آن وقته تلون وجهها وبكت فقال: ما الخبر، فقالت: تلك الظلماء السوداء من السماء هي هو، ولا أقدر على مصيبتك، فرفع رأسه إلى السماء وتلا الآية، فاحترق في الهواء، ووقع صفرة من رماد فحمد الله، ورفعا من الجواهر واليواقيت من تلك الجزيرة ما قدرا على رفعه حتى مر بهما مركب فركباه وذهبا إلى بلد المرأة وبشرا أبويها، فقالوا: أتهزأ بنا وبنتنا منذ سنين فقدناها، فجمع بينهم، وعقدا له على البنت واشتروا بذلك المال أوطانا وبنوا مدينة وتناسلوا فيها".

وقال ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا البحر أو قال السفن أن يقولوا: "بسم الله الملك الحق"، [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ][الزمر/67]، [بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ][هود/41][1].

---

[1] الحديث أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، ج6، (م سابق) ص: 184.

والبحار المشهورة سبعة وقد جاء: "أن في السماء بحرا وتحت الأرض بحرا وفيما بين السماء والأرض بحرا، وأن بحرنا هذا بزقة حوت وأنه في نقرة إبهام ملكٍ، حكى هذا زروق عن ابن الطلاع في «غرائب الحديث»، وموضع النار تحت البحار فهي تصب على صخرتها كنقطة في غيرها، ولذلك قال ‏υ: «متى يا بحر تعود نارا»[1]، أعادنا الله وإياكم من جميع الشرور وأسكننا وإياكم في دار السرور، إنه رحيم غفور. .)[2]

وقد استوعب الناظم ذكر الأصول بعد تقديم أصلها وفصل الفصول بتبيين فصلها، فأخبر أن أول صنع الله روح محمد بن عبد الله، فهي روح الأرواح وحقيقة ذاته البرزخية أصل لأصول الأشباح فالجبلات الأربع هي التي تركب منها كل موجود، وهي تراب والماء والريح والنار، وقد ذكرها وذكر ما تفرع منها ليعلمك أن الكل من مزاج المصطفى بحر الوجود والوفاء، ففي كلامه تفصيل بعد إجمالي جميع السوى.

[في ذكر ما يتعلق بالسماء والسحاب والرعد:]

قوله: "وسماوات أجوافها سحب"، جمع سماء وسحاب وهو الغيم، قال تعالى:[هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ][الرعد/12]، أي المطر، وكان ‏υ إذا رأى سحابا مقبلا يقول: «اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به، اللهم سقيا نافعا»[3] ذكره في «الحصن»، وفيه أيضا: "إذا سمع الرعد والصواعق يقول: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك، سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»[4].

وروى: "أن الرعد ملك في السماء الثانية في قدر النخلة، وله أعوان يتصرفون حيث يأمرهم، والبرق مخاريق من نور بأيدي الملائكة يسوقون بها السحاب سوق الإبل"، وعن ابن حوشب: "الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه كما يسوق الحادي الإبل، فإذا خالفت سحابة صاح بها، فإذا اشتد غضبه تناثرت من فيه النيران وهي الصواعق التي رأيتم"، وفي الحديث: «اسم السحاب عند الله العنان، والرعد ملك يزجر السحاب، والبرق طرف ملك يقال له روبيل ،وسئل عن منشأ السحاب، فقال أن ملكا موكل بالسحاب يلم القاصية ويلجم الرابية، في يده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت»[5].

وعن ابن عباس: "الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه، فإذا اشتد زجره أجابتك السحاب واصطدم من خوفه، فيخرج الصواعق من فيه"، وعن ابن مسلمة: "بلغنا أن البرق ملك له أربعة أوجه، وجه إنسان ووجه نور ووجه نسر ووجه أسد، فإذ مصغ بذنبه فذلك البرق"، وعن ابن عمر قال: "بلغنا أن دون العرش بحورا من نار تقع منها الصواعق"، وعن كعب: "يوشك بالرعد والبرق أن يهاجرا إلى الشام حتى لا تكون رعدة ولا برقة إلا ما بين العرش والفرات"، صح منه: "وجود الشيء وسطه ففيه دليل على أن السموات بحورية"، أخرج ابن أبي حاتم عن جبير

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] الكلام من (قوله: "وأبحرا" –إلى– إنه رحيم غفور) ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج3، ص: 362.

[4] ينظر الحديث في المصدر نفسه، الجزء نفسه والصفحة نفسها.

[5] الحديث أورد بعضه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج 3، ص: 363.

بن مطعم أن النبي ρ قال: «أن الله على عرشه، وعرشه على سمواته، وسمواته على أرضه هكذا، وقال بأصبعه: مثل[كذا][1]والسماء بنيناها [كذا][2] السماء على الأرض[كذا][3].

واختلف في صفتها، فالصحيح أنه لا يحقها إلا من خلقها لقوله تعالى: [مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ][الكهف/51] ، لكن ما ورد من الأخبار النبوية القيمية نؤمن بها ولا مجال للعقول فيما لم يأت به الرسول، فقد ورد في الأحاديث التي عثرت عليها وتتبعتها، أن سماء الدنيا من ريح وفي بعضها من غيم أو ماء أو نور، والسماء الثانية (لم أطلع فيها على خبر إلا ما ذكر لي بعض الحفاظ أنها من صخر)[4]، وروى أن الثالثة من حديد، والرابعة من فضة أو نحاس والخامسة ذهب وفضة أو ياقوت أحمر، والسادسة لؤلؤا أو ذهب أحمر، والسابعة ياقوت، فهذا جملة ما وجدته مرويا في الحديث والله أعلم بأصحها.

ونقل في بعض القصص عن بعض الأشياخ أنه قيد له معادن السموات السبع بقوله: "مصحن فذّي[5]" (سماء الدنيا)[6] ماء ثم الثانية صخر ثم حديد ثم نحاس ثم فضة ثم ذهب ثم ياقوت أحمر، ثم عثرت على ما يشهد لصحته، (أخرج الطبراني عن الربيع بن أنس قال: «السماء الدنيا موج مكفوف ثم صرصر بيضا ثم حديد ثم نحاس ثم ذهب والسابعة ياقوتة حمراء»[7] زاد ابن أبي حاتم: "وما فوق ذلك صخار من نور لا يعلم ما فوق ذلك إلا الله، والله أعلم بغيبه"، فكل ما يلي رأس الإنسان يسمى سماء وفوقا وعلوا، وما يلي رجليه يسمى أرضا وتحتا وسفلا، وما يلي وجهه فيسمى أماما وقداما، وما يلي قفاه يسمى خلفا ووراء، وما يلي يمناه يسمى يمينا، وما يلي يسراه يسمى شمالا فهذه ست جهات لكل آدمي.

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن مسعود وغيره قال: «إن الله كان على عرشه على الماء، لم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق السماء، فسمى عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضيين في يومين الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره في قوله [والقلم]، والحوت في الماء والماء على ظهر صفات والصفات على ظهر ملك، والملك على صخرة والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرّت، وخلق الجبال فيها وأقرت أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين الثلاثاء والأربعاء، ثم استوى إلى السماء وهي دخان وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سماوات في يومين الخميس والجمعة، لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض، وأوحي في كل سماء أمرها، قال خلق في كل سماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد، وما لا يعلم، ثم زين السماء الدنيا

[1] بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، وساقط في (ب) و(ج).
[2] بياض في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).
[3] بياض في الأصل بمقدار سطر، وساقط في (ب) و(ج).
[4] في (ب) و(ج): لم أقف عليها.
[5] بمعنى صحن فضّي.
[6] ساقط في (ب) و(ج).
[7] الحديث أورده الطبري برواية قريبة من معناه، تفسير الطبري، ج28، ص: 154.

بالكواكب فجعلها زينة، وحفظها من الشيطان»[1]، من «الهيئة السنية» للسيوطي. وأخرج عن علي كرم الله وجهه، قال: "اسم السماء الدنيا رقيع واسم السابعة الصراح"، وعن سلمان: "أن السماء الدنيا اسمها رقيعا ثم أرقلون ثم قيدوم ثم ماعونا ثم ديعا ثم دمنا ثم السابعة واسمها عربب".

قوله "سحب"، أخرج السيوطي عن القفاري قال: "سمعت رسول اللهρ يقول: "ينشئ الله السحاب فينطق أحسن المنطوق، ويضحك أحسن الضحك"[2]، قالإبراهيم بن سعد: "المنطق الرعد والضحك البرق"، وعن خالد بن معدان قال: "في الجنة شجرة تثمر السحاب، فالسوداء منها الثمرة التي قد نضجت التي تحمل المطر، والبيضاء الثمرة التي لم تنضج، لا تحمل المطر".

وعن ابن عباس: "السحاب الأسود في المطر والأبيض في الندى، وهو الذي ينضج الثمار"، وعن عائشة، سمعت رسول الله ρ يقول: «إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك غيث أُم غمام غديقة»[3] يعني مطرا كثيرا، وعن خالد بن معدان قال: "المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في السماء الدنيا في موضع يقال له الأندم، فتجيء السحاب السود فتدخله فتشربه مثل شرب الاسفنجة فيسوقها الله حيث يشاء".

وعن عكرمة: "ينزل الماء من السماء السابعة فتقع القطرة منه على السحابة مثل البعير"، وعن الشعبي في قوله: [فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ] [الزمر/21]، قال: "كل ماء في الأرض من السماء نزل"، وعن رسول اللهρ فيما رواه ابن عباس قال: «ما أنزل الله من السماء كفا من ماء إلا بميكائيل، ولا كفا من ريح إلا بميكائيل إلا يوم نوح، فإن الماء طغى على الخزان، قال الله تعالى: [إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ][الحاقة/11]، ويوم عاد فإن الريح عتت على الخزان، قال الله تعالى: [وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ][الحاقة/6]»[4].

وعن سعيد بن جبير قال: "لم ينزل الله قطرة من السماء إلا بعلم الخزان إلا حيث طغا الماء فإنه غضب لغضب الله فطغى على الخزان فخرج ما لا يعلمون ما هو"، وعن أبي إمامة قال رسول الله ρ: «ما مطر قوم إلا برحمة ولا قحطوا إلا بسخط، -وفيه- ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء يمطر فيها فيصرفه الله حيث يشاء»[5]، وعن أنس: «ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، وأنزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر، ومن يرزقه وما يخرج منه مع كل قطرة».

وعن خالد بن زيد: "المطر منه من السماء ومنه ما يستقيه الغيم من البحر فيغذيه الرعد والبرق، فأما ما كان من البحر فلا يكون له نبات وأما النبات فمما كان من السماء"، وعن ابن عباس: "المطر ميزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج عظمت البركة، وإن قل المطر واثاقل المزاج قلّت البركة وإن عظم المطر"، وعن كعب: "لولا أن الجليد ينزل من السماء الرابعة لم يمر بشيء إلا أهلكه"، وعن سلمان قال: "تحت هذه السماء بحر ماء تطفو منه الدواب مثل ما

---

[1] الحديث أورده الطبري، تفسير الطبري، ج1، ص: 194./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 371.

[2] الحديث أخرجه: ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج2، ص: 506./ - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج5، ص: 435.

[3] الحديث أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج2، ص: 217.

[4] الحديث أورد بعضه: - القرطبي، تفسير القرطبي، ج18، ص: 259./ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص: 665.

[5] الحديث أورده عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصفهاني، العظمة، ج4، ص: 1260.

في بحركم هذا ومنه توضع الضفادع، ومن ذلك البحر أغرق الله قوم نوح"، وعن قتادة: "كان آدم υ يشرب من السحاب" من «الهيئة».[1]

[في ذكر ما يتعلق بالعرش والكرسي:]

قوله: "والعرش والكرسي وما يسرا"، قال الله تعالى: [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ][النمل/26]، قال سيدي عبد الجليل: "وعرش الرحمان هو سقف الجنان الذي هو مرآة التجلي، أنوار نور الأنوار، فيفيض على من دونه في كل الجهات والأقطار وأنوار البصائروالأبصار وجمال الحجب والأستار وضياء الشمس والأقمار، وكل حسن وجمال وصفاء يوصف في دار القرار ومحل الصالحين والأبرار"، من «شعبه». وهذا مفسر لقول الناظم فيما يأتي: "نور نور نور كل نور النور"، أشار به الأول للرب القدير، والثاني للرسول البشير، والثالث للعرش المنير، والرابع لنيرات المسير. وقد أفصح الناظم بهذا الترتيب في فصيح خطابه، بقوله في قصيدة ميمية:

تَــــعَــــــالَى وتَجَــــــلَّى ذُو الجَــــــلَالْ	مِن نُورْ نَشْـــــأَةَ المَــاحِي نْشَاهَـــــــا
وزيـــــــــاهَــــــا بـقَــــدْ واعْتِـــــدَالْ	تْكَـــــلْ النَّاظْـــــرِينْ اذَا تْرَاهَـــــــــا
وحَـــلَّاهَــــا مجـلـيَــاتْ الجَــمَــــــالْ	لْذَا تُـوا خَطْهَـــــــا ثُمَّ اصْطْفَاهَــــــا
وجَــــلَّاهَـــــا لتَـــكْويــــنْ الإيجَـــادْ	يْجْمَــــعْ الجَمْــــــعْ هِيَ يَاكْـــــرَام
وقَال حْبِيـــبِي مَن بْهَــاهْ العَــرْشْ يَسْطَـعْ	وفُسْحَـــاتْ السَّمَـــوَاتْ والأَرْضِيــــــنْ
ودَارْ الخُــلْــدْ بجْـمَـالُــه تَتْشَعْشَــعْ	وحْــــوَارْ العِينْ يجْلِــــي بالمحَاسِيـــــنْ
مجْمَــعْ الحُسْــــنْ في جْمَاهُــمْ مجَمَّــــــعْ	بَالحَــاظْ سُـــودْ يسطَــاوْ كالفْــرَاعيــنْ

وقال أيضا:

مُحَـمَّـــدْ مَن مُحَـمَّــدْ قُـــلْ مُحَـمَّــد	مَنْ نُـــورُه كَانَـــتْ جْمِيعْ العَــــــوا لَمْ
لُـــولَاهْ مَـــا تَــرَى جُـنــدْ مُجَـنَّــد	كَكُتُبَـــــــانْ المِلَايَــــــكْ وابْـــنْ آدَمْ
ومَـــا فِي البَـحْــرْ والبَــرْ المُــمَــرَّد	فتَحْتْ التَّحْت للعَــــــرْشْ المُعَظَّــــــمْ
مِن نُـورُه نَـقْـتَـبَـسْ جْمِيـعْ الإيـقَــادْ	كَضَوءْ الشَّمْـــــــسْ وبَدْرْ التَّمَــــــامْ
وضْيَـــاءْ النَّجْـــمْ وامْصَــابِيـــحْ العِبَـــادْ	ولَمحْ البَــــــرقْ إنْ لَاحْ فِي الظْـــــــلَامْ

والكرسي مخلوق أعظم (من السماوات)[1] والعرش أعظم منه، ولا يصح تفسيره هنا بعلم الله ،فاعلم ذلك[2].

قوله: "وما يَسَّرْ السْمَا" والله أعلم بمراده به، (إلا أنه يحتمل أن يريد أن روح سيدنا ومولانا محمد، كما عمت بركتها

[1] الكلام من (أخرج الطبراني عن الربيع بن أنس –إلى– كان آدم υ يشرب من السحاب" من «الهيئة») ساقط في (ب) و(ج).

الأرضيين بما فيها من تراب ونبات وريح، وما درعت السماوات وما فوقها من عرش وكرسي، كذلك عمت بركتها جميع ما يسري فيه وإليه ومنه ومعه.)[3]

قال أبو الفرج بن الجوزي: "السير عام، والسري خاص بالليل، ومنه قوله جل جلاله: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً][الإسراء/1]، قال أبو العباس المرسي: "وإنما قال تعالى بعبده ولم يقل بنبيه لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع، فأعلمنا أن الإسراء بأرواحهم لا بأشباحهم، كالنبي فإنه أسري بجميعه".

ثم إنني أوصي كل من طالع هذا التقييد[4] أن ينظر فيه بعين التوحيد[5] ويتأمله بنية وإخلاص، لعل الله أن ينفعنا وإياه بما فيه من حكم وأسرار وخواص، حتى نبلغ به إن شاء الله لمحل الإنس والاختصاص، ولا يحملنَّه تشعب الكلام وكثرته على السآمة والملل، فإن العلوم النافعة لأربابها، كالعسل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره وزاد في معرفته ومعرفة ما يتعلق به، وما ثم إلا الله وصفاته وآياته، فمن جدّ وجد [ومن أدمنَ قرعَ الباب يوشك أن يفتح له][6](وعلى كثرة غرس الأشجار تتنوع الثمار، وليس من عرف الله بشيء قليل كمن عرفه بألف دليل.

ومع هذا فالمطلوب التفهم والتدبر والحصول لا مجرد السرد للختم والوصول، فترتيل آية بتفكر أنفع من هدر مائة ختمة بلا تدبر، ولذا ورد: «ركعتان في تفكر خير من قيام ليلة»[7]، «وتفكر ساعة خير من عبادة سنة»[8] أي بلا تذكر، فتفهم واغتنم الغنيمة الباردة فإنها أتتك عفوا وصفحا، وإن كدر عليك أحد شرفها فاتل قوله تعالى: [قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ][القصص/85]، واسلك سبيل ما رواه الناس منه وإن ضعفه القياس، ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة. [إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ][يس/12].)[9]،إلّا تحسبوا خطاكم، وأنشدو:

زُرْ مَنْ هَوَيــــتَ وإِنْ شَطَـــتْ بِـــكَ الــدَّار   وحَـــــــالِ مَن دُونَـــهُ حُجُــــبٌ وأَسْتَـــــارُ
وَلَا يمــنَـــعُـــــكَ بُـــعْـــدُ الـــدَّارِ زَورَتَــــــهُ   إنَّ المُـــحِــــــبَّ لمَــــــنْ يَــهْــــــــــــوَاهُ زَوَّارُ

ويرحم الله صاحب «الشعب» بعد أن ذكر بعض حكم الحكيم في بعض مصنوعاته، قال: "بدل هذا التدبير المحكم والصنعة المتقنة التي هي في غاية الحكمة على صانع حكيم، عالم قدير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير،

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): وقيل إنه علم الله القديم، وليس بمراد هنا، والله أعلم.

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] أي هذا الكتاب الموسوم"كعبة الطائفين".

[5] في (ب) و(ج): بعين الرضى والإخلاص.

[6] إضافة في (ب) و(ج).

[7] الحديث أخرجه ابن كثير برواية " ركعتان مقتصدتان في تفكر.."، تفسير ابن كثير، ج1، ص: 439.

[8] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 370.

[9] الكلام من (وعلى كثرة غرس الأشجار -إلى- أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) ساقط في (ب) و(ج).

واعلم أن انتباه قلبك لتعظيم الصانع عند فهم الحكمة الدالة على الصانع هو تجلي صفات الصانع لقلبك، فافهم ذلك وتفطن له واستزد منه جهدك.

ثم قال رحمه الله:

والحَـــشْـــــرْ والمِيـــزَانْ والصِّـــــرَاطْ	واللَّـــــــوحْ المحفُـــــوظْ واسْطَـــارْ
والقَـــلَـــمْ المَـعْــلُـــومْ بالتَّـخْـطَـــاطْ	واضْمِيـــــــرْ وامْقَاصَـــــــدْ اشْــــــوَارْ
والجَــنَّـــــة والـنَّــــارْ بالتَّـــخْــوَاطْ	وامْلَايَــــكْ اصْنَـــــــــافْ واطْـــــوَارْ
وأرضْ السَّـــاهَـــــرْ لَهـــا شُـــهُــــبْ	بَيْضَـــا كَـــان اقْـــــلَاعْ مَنْ كَثْـــــرَا
مَـــوقِــفْ جَمْـــعْ اصْـوَاحَـبْ الجـــــذْبْ	يَـــــزْدَادُوا فِيــــهَـــا تَـكْـبّـــــــــــــرَا

[فيما يتعلق بالحشر والميزان والصراط:]

قال عز من قائل: [يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً][مريم/85]، قال بان عباس: "من شك في أن المحشر في بالشام، فليقرأ قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ][الحشر/2]، فإن اليهود قالوا للنبي ρ يومئذ إلى أين؟ قال: "إلى أرض المحشر" فهذه السورة نزلت في بني النظير[1]كما نزلت سورة الأنفال في بدر"، قالت عائشة رضي الله عنها: "كانت غزوة بني النظير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصرهم رسول اللهρ حتى نزلوا على الجلاء"، من «كتاب السيوطي».

(وورد أن الله جل جلاله يحشر الخلائق ويجمعهم في صعيد واحد على أرض بيضاء بالمشرق ينفذهم البصير ويسمعهم الراعي)[2].

قوله: "وميزان"، قال تعالى: [وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ][الأنبياء/47]، وقدر ورد في مسند خيثمة بن سليمان عن جابر، قال قال رسول اللهρ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال مؤابة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال مؤابة دخل النار، قيل يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته، قال أولئك أصحاب الأعراف[لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ][الأعراف/46]»[3]، من «الجواهر» للثعالبي.

وورد: أن كفتي الميزان طباق السماوات والأرض، إحدى كفتيه نور والأخرى ظلام، فتوضع الحسنات في كفة النور والسيئات في كفة الظلام"، وروى البخاري في "صحيحه": «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان

---

[1] قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير؛ وهم رهط من اليهود من ذرية هارون υ، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارا لمحمدρ ، وكان من أمرهم ما نص الله عليه. قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء؛ فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام. قال ابن عباس وعكرمة: من شك أن الحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ρ قال لهم: "اخرجوا" قالوا إلى أين؟ قال: "إلى أرض المحشر". قال قتادة: هذا أول المحشر. ينظر: أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج2)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتاب، الرياض، دط، 2003، ص: 18.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص: 539. ونص الحديث ساقط في (ب) و(ج).

حبيبتان إلى الرحمان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[1]، وبهذا الحديث ختم «جامعه الصحيح»، كما أنه بدأه بحديث: «الأعمال بالنيات»[2]، (الحديث)، وفعل ذلك حضا لنفسه وزجرا لها عن أن تريد بأعمالها غير وجه ربها، فإن الأعمال المشتملة على الأقوال والأفعال لا تعتبر عند الشارع إلا بوجود الإخلاص فيها، ولا يقبل الله إلا ما كان [خالصا][3] لوجهه، قال تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشركة، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته ونصيبه لشريكه»[4].

ثم بعد هذا تعرض تلك الأعمال على من لا تخفى عليه خافية، وتوزن في ميزان القسط (حتى يتعرف كل أحد ماهيته)[5]: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ][الزلزلة/7]، وأخرج أيضا صاحب «الشعب» عن رسول الله ρ أنه قال: «إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ ظلمك كتبتي الحافظون؟، فيقول له: ألك عذر؟، فيقول: لا يا رب، فيقول بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، يقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»[6]، قال سيدي عبد الجليل: ذكر في هذا الحديث كفتي الميزان، وورد:"أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونصف من مثقال ومثقال حبة من خردل، وأدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان"[7].

فإذا ثبت هذا فاعلم أن الله عز وجل أظهر لنا في هذه الدار الميزان والمكيال المحسوس والمعقول، ليظهر لنا مقادير الأشياء، وأمرنا بالعدل فيه، فقال تعالى: [وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ][الشعراء/182]، بعد قوله: [أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ][الشعراء/181]، فقد عم الوزن والميزان الوجود كله، والبواطن والظواهر، والباري تعالى يعلم مقادير الأشياء كلها ويزنها، ويعلم وزنها من الذرة فما دونها وما فوقها، ويتعالى عن الجزاف فليس عنده شيء جزاف، وقد قال: [وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ][الحجر/21].

وقد عم الوزن روح الإنسان في مقام الإحسان في العلو، وجسمه في مقام الإسلام في السفل، ونفسه واسطة في مقام الإيمان، ويميل الإنسان بجملته فيخف ويثقل علوا وسفلا بأعماله وعقائده وعلومه، فإذا جمع الله الخلائق يوم القيامة وطار الحسن كله من إيمان وعمل، وخلق في كفة النور من أعمال جميع الخلائق، وصار السوء كله من جهل وكفر وعمل قبيح وخلق سوء في كفة الظلام، فمن لم يكن عنده إلا الشر الخالص خلت كفة النور من خيره، ولم يكن له فيها أثر، فثقلت كفة الظلام إلى أسفل سافلين، ولم يظهر له إقامة الوزن، فكان من الذين قال فيهم الله تعالى:

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2072./ - البخاري، صحيح البخاري، ج6، ص: 2459.

[2] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 3.

[3] إضافة في (ب) و(ج).

[4] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا: - اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 132./ - القرطبي، تفسير القرطبي، ج5، ص: 180.

[5] ساقط في (ب) و(ج).

[6] لم نعثر عليه.

[7] الحديث أورده الشيخان برواية مختلفة: - مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 93./ - البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 16.

[أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً][الكهف/105]، ولمثل هذا قال فيهم ربهم: [وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ][القصص/78].

وإقامة الوزن إنما هو لمن له في الكفتين نصيب وهو المراد بقوله: [وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ][القارعة/8]، يعني كفة النور: [فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ][القارعة/9]، ولم يكن عنده إلا الخير الصرف كالأنبياء، ومن يدخل الجنة بغير حساب من المقربين الذين وزنوا أنفسهم وحاسبوها في الدنيا خلت كفة الظلام من شرهم، وثقلت كفة النور، ورجحت بثقل اليقين ورزانة الخلق وأعمالهم الحسنة، فرفعتهم كفة النور إلى عليين، ومن جاء بالحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته بفضل الله سلم من العذاب وكان من المفلحين والتحق بالفائزين الأولين، ومن رجحت سيئاته وأراد الله تنفيذ الوعد فيه دخل النار ويبقى فيها بمقدار ثقل سيئاته حتى يقتص منه، فكلما اقتص منه من عمل عمله سقط منه شيئا فشيئا وكفة النور التي فيها حسناته ولو مثقال خردلة تمنعه أن يميل كل الميل، فكلما اقتص منه من عمل خفت السيئات عنه ويسقط قصاصه من الأنفاس والساعات، وثقلت كفة الحسنات إلى أن تخف إلى الغاية التي ترجح بها كفة النور فيرقى إلى الجنة ويلتحق بأهلها: [كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ][المطففين/18]، وقال: [كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ][المطففين/7]، وفي الخبر: "وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم".

فانظر إلى نفسك في هذا العالم ما علا فوقك نورٌ كُلُّهُ وارتفع إلى الله والآخرة، وما سفل غفلة وظلام إلى سجين ونار جهنم، والعبد قائم بينهما موزون في حركاته وسكناته في الخير والشر، فمن تبع الهوى أهوت به أمه الهاوية إلى أسفل وكتبت أوزاره في سجين، لأنها ليس لها إلى العلو سبيل، قال تعالى: [وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ][الحج/31]، ومن ارتفعت همته وعلت ارتسمت حسناته في عليين فصار عمله كصورة في مرآتين كل تجذبه إلى محله، فافهم.

تتميم: قال أبو الفضل بلقاسم بن عيسى بن ناجي: "(أجمع أهل الحق على وجود ميزان حسي له كفتان ولسان فتوزن به صحف أعمال العباد ليظهر الرابح والخاسر")[1]، واختلفوا هل هو ميزان واحد لكل أمة أو لكل أمة ميزان، أو لكل واحد ميزان، والصحيح على أنه واحد، وإنما جمع في الآية باعتبار الموزونات، أو باعتبار أجزائه ويجوز في كلام العرب إيقاع الجمع موقع المفرد كقوله تعالى: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ][آل عمران/173] وهو واحد أريد به نعيم بن مسعود الأشجع، وإنما أتى بلفظ الجمع تعظيما لشأن الميزان، وتفخيما لأمره، وتحذيرا من اكتساب السيئات، وتحريضا على الطاعات، ولو لم يسمع من القراءات إلا هذه الآية لكان فيها كفاية لاشتمالها على الوعيد التام لأهل السيئات، والوعد الجميل لأهل الحسنات.

ولذا قالت عائشة: "أيسأل الحميم عن حميمه يوم القيامة يا رسول الله؟، قال: نعم، إلا في ثلاثة مواضع، أحدها عند تطاير الصحف وعند الوزن وعند الصراط فعلى أنه واحد فتجمع حسنات العباد كلها في كفة النور وسيئاتهم في كفة الظلام، ويخلق الله لكل واحد علما ضأريا يفهم به خفة أعمالها وثقلها"، وقيل أنه إذا رجحت

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

سيئاته يقوم عمود من كفة الظلمة حتى يكسي كفة النور والعكس بالعكس، وعلى تعدده، فذهب الحسن إلى أن: "لكل إنسان ميزان"، وهو ظاهر، وقيل الموازين ثلاثة: "ميزان الإيمان والكفر والآخر للطاعة والمعصية، والآخر للعدل والجور، وقيل واحد للسعادة والشقاوة والآخر للحلال والحرام، والآخر للهداية والتوفيق والضلالة والخذلان، واختلف في صفة الثقل[والخفة][1]، فالجمهور على أنه على المعهود من أن الحسنات، إذا كثرت تهبط بكفتها، وإذا قلت ارتفعت.

وقال عبد الجليل القصري: "الثقل الارتفاع"، حكى هذه الأقوال سيدي يوسف بن عمر، وأشار لما تقدم آنفا عن سيدي عبد الجليل في «شعبه»، وله وجه ظاهر والآخرة تظهر فيها الخوارق، فلولا الميزان لم يقابل بين الليل والنهار والكواكب والطوالع والقوارب والطرقات والحدود وسائر المتضادات، وما انتظم العالم إلا بالموازين، فلولا ذلك لفسد وبطل وجوده ومن ذلك قوله ρ: «مكيال من أوفى استوفى من طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين»[2]، قال في «الإحياء»: "كل من يعامل الناس بأنقص مما يعاملونه به فهو مطفف يأخذ حظه من الآية"، وقال ρ: «لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»[3]، وقد من الله علينا بوجود الميزان في قوله: [وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ][الرحمن/7]، أي أثبت العدل لأجل ألا تجور، فمن جار في الميزان الدنيا أقيم عليه الوزن في العقبى، لأن مظالم العباد لا يتركها الله، فمن كانت له حسنات أعطيت للمظلوم، ومن نفذت حسناته طرح عليه سيئات المظلوم على قدر مظلمته، هذا إذا كان قادرا على القضاء فلم يقض حتى مات، وأما إن كان عاجزا فلا يطرح عليه شيء قاله عز الدين بن عبد السلام: فإن لم تكن للمظلوم سيئة كالأنبياء، ولا للظالم حسنة كالكافرين، فإنه يقضى للمظلوم من الثواب مقدار ما يستحق على الظالم، ويزاد في عقوبة الظالم بقدر ما كان يأخذه من المظلوم، واختلف إذا كان الظالم مسلما والمظلوم ذميا، فقيل يسقط حقه كالحرير، وقيل يصير حقا للنبي لقولهυ: «من آذى ذميا كنت خصيمه يوم القيامة»[4].

قال ابن ناجي (استدراك): "تأمل ظواهر الأحاديث وكلام صاحب «الشعب» مع جواب الشيخ محمد بن يوسف السنوسي حيث سئل عن معنى وزن الأعمال، فأجاب بقوله: "ليس معنى وزن الأعمال مقابلة السيئة بالحسنة لتذهب إحداهما بالأخرى، وما فضل انتفع به إن حسنة أو تضر ربه إن كان سيئة، فإن هذا مذهب الجبائي من المعتزلة، ولا قائل به من أهل السنة، ومع الاتفاق بين أهل الحق على فساد هذا المذهب، فهو الذي يعتقده العامة، ومن يتعاطى العلم بلا تحقيق والذي نص عليه أهل السنة: "أن من عمل في عمره كبيرة واحدة، ثم عمل مليء الأرض حسنات هو مرتهن في الآخرة بتلك الكبيرة، لا ينجيه من العذاب عليها إلا بمحض فضله وعفوه تعالى".

(ولهذا قال ابن دهاق في "شرح الإرشادات" فائدة: "وزن الأعمال عند أهل السنة إنما هي معرفة مقادير ثواب الحسنات وعقاب السيئات، ولذا جعل الحساب وأخذ الصحف، ووزن الأعمال هذه الثلاثة مرتبة، فالحساب هو الأول وحقيقته تعريف العبد بكل ما عمل في عمره منذ خلق إلى أن مات، فخلق علم ضروري له بجميع ذلك،

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا القرطبي، تفسير القرطبي، ج19، ص: 251.

[3] الحديث أورده: – عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب، ج2، ص: 362./ – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص: 57.

[4] أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء، ج1، ص: 161. وأورده أيضا بلفظ آخر:" من ظلم ذميا " في ج2، ص: 342.

فلما علم بالحساب جمع أعمال وقع له الجهل بما هو منها حسنة مقبولة، وبما هو منها سيئة من أخذ بها فيسبق له هذا في صحيفة عمله التي يقرأها، ولما عرف من الصحيفة المقبول والمردود من الحسنات والمغفور من السيئات والمؤاخذ بها، جهل مقدار ثواب المقبول من الحسنات، ومقدار المؤاخذ به من السيئات فيمن له في وزن الأعمال".

ثم قال سيدي محمد: "قلت ثم مع هذا ليس من البعيد أن يجعل سبحانه علامة عفوه عن العبد تثقيل كفة حسناته على كفة سيئاته، وعلامة مقدار العقاب إنفاذ الوعيد الذي عرف من الميزان هو تثقيل كفة السيئات على كفة الحسنات، وتكون الحسنة المغلوبة ومقادير ثوابها موقوفة لهذا العبد حتى يخرج من النار، ولا تسقط بما غلبها وقابلها من السيئات كما يقوله المعتزلة في الخفة والثقل، على هذا هما مجرد علامة على العفو والمؤاخذة دالان على محض عفو الله تعالى وعدله".

ولهذا نقول قد يثقل الله الحسنة الواحدة على ملئ الأرض كبائر إذا أراد الله العفو بمحض فضله، وقد يخفف الله ملئ الأرض حسنات ويرجح سيئة واحدة وقعت في العمر إذا أراد الله سبحانه تعالى إنفاذ وعيده والعقوبة عليها بمحض عدله، ولهذا أمر المؤمن أن لا يحتقر شيئا من الحسنات، إذ لعل رضى مولانا الكريم يكون فيها، ولا شيئا من السيئات إذ لعل غضبه جلي، وقد يكون فيه فالحاصل على هذا ألا تنحصر فائدة الوزن في معرفة مقادير الثواب العقاب كما قاله ابن دهاق، بل من فوائده ما يتفضل عليه مولانا بالعفو أو يعدل فيه بالمؤاخذة ونفوذ الوعيد، وهو تعالى أعلم بكيفيتها يكون على أي وجه يكون، فيجب على المؤمن أن لا يعتقد في وزن الأعمال ما قاله المعتزلة على ما سبق، ولا يجب التعرض لما وراد ذلك بل له ترك الخوض فيه ويكل علمه إلى الله تعالى. من شرحه القصير على قصيدة سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري رضي الله عنهما.

وانظر أيضا هذا الجواب مع قول ابن العربي: "إنما تكفّر الكبائر الموازنة أو التوبة، حكاه عنه إلا في إكمال الأكمال في باب فضل العمرة ونحوه لابن عرفة حكاه عه البسيلي عند قوله تعالى: [لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ][آل عمران/195]، فطالع تطلع وسترى وتعلم والله أعلم.)[1]

قوله: "الصراط"، الصراط جسر مضروب على متن جهنم، أحدّ من السيف وأرق من الشعر مسيرته ثلاثة آلاف سنة، ألفا صعودا وألفا استواء وألفا هبوطا، وقيل طوله سبعة آلاف سنة ثلاثة صعودا ومثلها هبوطا وألفا استواءا، نقله سيدي الأكحل بن خلوف. وفي الحديث عن رسول الله ρ أنه قال: « من قال خلف كل فريضة أربع مرات أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلها واحدا وربا شاهدا ونحن له مسلمون، جعل الله له الصراط طوله أربعة أذرع وعرضه أربعة أذرع»[2] صح بالمعنى.

ما وجدته مكتوبا: بأوله سبع قناطير، يسأل العبد في الأولى عن الإيمان، وفي الثانية عن الصلاة، وفي الثالثة عن الصيام، وفي الرابعة عن الحج، وفي الخامسة عن الجهاد، وفي السابعة عن صلة الرحم، وفي السابعة عن رد المظالم، وورد أيضا: "أن الله جل جلاله يأمر جبريل فيقف في أول الصراط وميكائيل في وسطه فيسألان كل أحد عن أربعة: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه و فيما أنفقه".

---

[1] الكلام من (ولهذا قال ابن دهاق في شرح –إلى– وسترى وتعلم والله أعلم.) ساقط في (ب) و(ج).

[2] لم نعثر عليه.

وقال شهاب الدين القرافي: "الصحيح أن الصراط عريض وفيه طريقان يمنى ويسرى، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين، وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال، وفيه طاقات كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طباق جهنم،وجهنم بين الخلائق وبين الجنة والجسر منصوب على متنها فلا يدخل أحد الجنة حتى يعبر على جهنم، وهو معنى قوله تعالى: [وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا][مريم/71] ، من كتاب «الانتقاد في الاعتقاد».[1]

وقال صاحب «الشعب»: "أخرج الإمام مالك في «موطأه» عن رسول الله ρ قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتوحة، وعلى الأبواب ستور مُرخاة، وعند رأس الصراط داع يقول: استقيموا ولا تعوجوا، وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن لم تفتحه تنجو»[2]، ثم فسره عليه الصلاة والسلام فأخبر أن الصراط الإسلام، يعني صراط الدين والسنة، وقال في الصراط الأخروي، فأكون أول من يجيزه، وكذلك هو أول من شرّع الشرائع في التقدير والبعث الدنيوي، وهو أهدى وأول سالك عليه، وقال فيه: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعواهم اللهم سلم سلم»[3].

وكذلك لم تشرّع الشرائع ولا ضرب الصراط والسبل إلَّا الرسل ليسلم الناس من الضلال والوقوع في النار والجراد التي عن يمينه وشماله هو طرف المعاصي، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ υ: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]][الأنعام/153]، وهذه السبل التي عن يمين الصراط وشماله هي التي زاحت الصراط وضيقت جوانبه حتى صار أحدَّ كالسيف وأرقّ من الشَّعر، فافهم، ولم يثبت أنه من حديد ولا حجر ولا خشب ولا غيرها، وفي حافتيه كلاليب وخطاطيف وهي الشهوات والوساوس تختطفه وتجذبه عن الاستقامة بمخدوش ناج ومكردس في النار، فإن زل بادر بالهروب والتمسك بالتوبة والرجوع إلى الله ليسلم، قال الله تعالى:[وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاًثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا][مريم/71،72] ثبتنا الله وإياكم على صراطه المستقيم، آمين.

وورد: "أنه شعرة من مالك خازن النار"، قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد: "وأن الصراط حق يجوزه العباد على قدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوقفتهم فيها أعمالهم"، انتهى.

فبقدر سرعة العبد لأعمال الطاعات ومسابقته إليها إجابة لقوله تعالى: [فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ][البقرة/148]، يكون جوازه (وخفة مروره)[4] على ظهر الصراط الأخروي، فمن الناس من يكون في جوازه كالبرق الخاطف، ومنهم من هو كالريح العاصف وكالجواد من الخيل، وبقدر تبطّئه[5] عن الطاعات وتكاسله عن فعل الخيرات كما قال تعالى في صفات المنافقين: [وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ][التوبة/54] يكون مشيُه على الصراط أو حَبْوُه عليه، وعلى قدر استقامته على جادة طريق الإسلام، واقتدائه بالمنعم عليهم (الأربعة)[6] كما ذكر في

---

[1] النص ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه: – الطبري، تفسير الطبري، ج1، ص: 75./ – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 144.

[3] أخرجه برواية مختلفة قليلا:– البخاري، صحيح البخاري، ج6، ص: 270./– أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، ج1، ص: 246.

[4] ساقط في (ب) و(ج).

[5] في (ب) و(ج): تثبّطه.

[6] في (ب) و(ج): من النبيئين والصدّقين والشهداء والصالحين.

«اليواقيت» يكون اعتداله[1] على الصراط الأخروي وثبات قدميه عليه، وبقدر انحرافه عن (المنهج القويم)[2] وميله إلى الرخص والشهوات أو البدع والضلالات يكون انحرافه وميله عن الصراط، الذي هو أحد من حد السيف المؤدي إلى تزلزل القدم حتى يكردس ويهوي على وجهه، جزاء بما كانوا يعملون، ثبت الله أقدامنا على الصراطين كما ثبت أقدام أوليائه المصطفين[3]، فكل ما بطن[4] عنا من عالم الآخرة أظهره[5] الله لنا في هذه الحاضرة ليعتبر به العاقل ويعتبر به الواصل[6]، والله الموافق لا رب غيره.

[فيما يتعلق باللوح المحفوظ:]

قوله: "واللوح المحفوظ واسطار"، قال الله عز وجل: [بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)][البروج/21-22](قال جلال الدين المحلي القاهري: "هو في الهواء فوق السماء السابعة طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وهو من ذرة بيضاء، قاله ابن عباس ومحفوظ بالجرّ والرفع، أي من الشياطين، ومن تغيير شيء منه". من "تفسيره".)[7]روى سيدي عبد الجليل بن عظوم في كتابه «تنبيه الأنام عن النبي υ»: "إن اللوح المحفوظ من ذرة بيضاء ودفتاه من ياقوت أحمر"[وقيل أنه جبهة إسرافيل υ][8].

(وقوله: "واسطار" أي المسطرة فيه بالكتب، وأخرج السيوطي عن الطبراني عن ابن عباس قال: "إن الله خلق لوحا من ذرة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء وزبرجد، قلمه نور وكتابته نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق فيها ويرزق ويحي ويميت ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء".

وأخرج البيهقي عن رسول الله ρ ، قال: «إن لله لوحا من زبرجدة خضراء تحت العرش يكتب فيه: إني أنا الله لا إله إلا أنا أرحم وأترحم، جعلت بضعة عشرة وثلاثمائة وخمسة عشر شريعة»[9] الحديث. وسأل بعضهم عن معنى قوله تعالى: [يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ][الرحمن/29]، فقال معنى بيديه لا يبتديه، وهو حسن جدا وبيانه في جواب النبي ρ للخضر υ حين ساد الجوزي فعجز، فقال: "قل له فعلُ الله في الأزل، قدَّر المقادير، وفعلُه الآن إظهار تلك المقادير، وفعله فيما يأتي ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، أو يجزي الذين أحسنوا بالحسنى صلى الله على من علمنا هذا الجواب وغيره، ورضي الله عن العلماء المبلغين لنا ذلك عنه، وهذا يظهر بعض الظهور [سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ][الرحمن/31].

---

[1] في (ب) و(ج): جوازه.

[2] في (ب) و(ج): عن الجادة.

[3] في (ب) و(ج): المتقين.

[4] في (ب) و(ج): يأتي.

[5] في (ب) و(ج): قدّمه.

[6] في (ب) و(ج): الغافل.

[7] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[8] إضافة في (ب) و(ج).

[9] الحديث أورده بلفظ مختلف: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص: 36.

فإن قلت كيف نفهم قوله تعالى: [يمحو الله]، وقوله υ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[1] الحديث، فالجواب: أنه كذلك كتب أمّ الكتاب: [قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ][التوبة/51]، فالمحو والتغير والتبدل يكون في المخلوق وصفاته وعلمه، لا في الخالق وصفاته وعلمه، قال النسبي: "والسعيد قد يشقى، والشقي قد يسعد، والتغير يكون على السعادة والشقاوة لا على الإسعاد والإشقاء، ولا تغير على الله ولا على صفاته".

قال شارحه أحمد بن محمد المدني القشاشي: "هذا بالنظر إلينا وإلى حالنا عندنا لالتباسه علينا، لعدم العلم عندنا لا بالنسبة إلى ما في علم الله بالعبد سعيدا كان أو شقيا، لأنه لا تبديل له عن ذلك أبدا، وإن باشر أحدهما أسباب الأخروي فإنه ينقل بذلك العمل إلى علم الله فيه، وبما سبق فالتغيير في الفعل لا في الصفة الإلهية المكونة الفاعلة، لأنه لا تتغير الصفة كما لا يتغير الموصوف بتغير المتغيرات بالعلم فيها فتتغير به، ولا يتغير هو بها عمل علمه الله فيها، ولا يتجدد للعلم بها ما لم يكن عليه فيه به، [مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى][فاطر/11]، [وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا][الأنعام/59]، فبالعلم تسقط كما توجد، [وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ][الحجر/21]، فتفحص هذا كل الفحص وبفهمه تسعد".)[2]

[فيما يتعلق بذكر القلم:]

قوله: "والقلم المعلوم بالتخطاط واضمير وامقاصد اشوار" (قال عز من قائل: [ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ][القلم/1]، قال الشيخ المحلي الشافعي: "والقلم الذي كتب به الكائنات في اللوح المحفوظ، وما يسطرون، أي الملائكة من الخير والصلاح")[3]، وأخرج صاحب «تنبيه الأنام» عن الرسول υ ": «أن القلم المنير من جوهر، وفيه مسيرة خمسمائة عام»[4]. وقيل هو عين روح سيدنا ومولانا محمد بموجب مفهوم قوله υ: «والذي نفس محمد بيده»[5]، وتقدم بيانه في شرح كلام ابن الفارض عند قول الناظم: "واجعل روحه روحا للحياة" فتفهم إن كنت له أهلا.

فإن قلت: ما مراد الناظم لهذا القلم[6] هل النفس قبل خاصة أو غيره، فالجواب: أن المناسب لذكر اللوح المحفوظ قلمه الملفوظ، فإن لكل لوح قلما، ولكل قلم لوحا، لكن حمل الكلام على العموم أولى وإن كان قوله فيما سبق: "وانبتات"، يتضمن اللوح والقلم الحِسِّيين، لأنهما من جملته، وكذا قوله: "وما يسرى" يتضمن اللوح والقلم الغيبيين لأنهما في قبضته، وإنما أعادهما وأوفدهما لخصوصيته فيها كقولنا: "اللهم صلى على ملائكتك المقربين وعلى أنبيائك المرسلين وعلى أهل طاعتك أجمعين، واجعلنا بالصلاة عليه من المرحومين".

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2036./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1174.

[2] الكلام من (وقوله: "واسطار" أي المسطرة فيه –إلى– وبفهمه تسعد) ساقط في (ب) و(ج).

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] لم نعثر عليه.

[5] ورد الحديث في عدّة مصادر، ينظر على سبيل الذكر: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 186./ – البخاري، صحيح البخاري، ج2، ص: 922.

[6] في (ب) و(ج): كيف خص الناظم اللوح بالأسطر والقلم بالخط.

ومن الخصوصية أن أول ما أنزل الرب الأكرم على رسوله الأعظم من الوحي ذكر القلم حيث امتنّ به وتكرم حتى قال تعالى: [الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ][العلق/4-5]، فإن هذه الآية ذات وجهين تحتمل القلمين، قلم ظاهر من قصب كما فسره به أهل الظاهر، وقلم باطن من عجب كما فسره به أهل الباطن، وكل قلم يجانسه لوحه ويماثله شرحه، أخرج السيوطي عن أبي الشيخ عن مجاهد قال: «خلق اسم يراع أول ما خلق من الأشياء، واليراعُ القصب، ثم خلق القلم من ذلك اليراع، ثم قال: أكتب ما يكون إلى يوم القيامة»[1].

وفي رواية الطبراني عن ابن عباس: «أن الله خلق العرش فاستوى عليه ثم خلق القلم، فأمره أن يجري بإذنه، وعظم القلم ما بين السماء والأرض، فقال القلم: بما أجري يا رب، فقال: بما أنا خالق وكائن في خلق من قطر أو نبات أو نفس أو أثر، يعني به العمل أو رزق أو أجل يجري القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[2].وزاد في حديث فصدقوا كل ما يعظم الله من قدرته.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس أنه سأل كعب عن أمّ الكتاب، فقال: "علم الله ما هو خالق و[كذا] وعاملون، فقال: لعلمه كن كتابا فكان كتابا، وقال تعالى: [قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا][التوبة/51]، فالقضاء والقدر يجريان بعلم الله في خلق الله كما كتبه الله في كتابه عن علمه، وقال فيه: [وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ][الحجر/21]، وعن عبادة بن الصامت، سمعت رسول اللهρ يقول: «أول ما خلق الله القلم، قال له: أكتب لابدّ، قال: وما لابدّ؟ قال القدر، قال: وما القدر؟ قال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك إن مت على غير ذلك دخلت النار»[3]، وأخرج الكسائي عن وهب قال: "أول ما خلق الله اللوح، فكتب فيه ما كان وما يكون، وهو من ذرة بيضاء وحافتاه من ياقوتة خضراء، وقيل حمرا، وخلق القلم من جوهرة مسيرة خمسمائة عام[كذا] ينبع منه النور كما ينبع المداد من أقلام أهل الدنيا له ترجيع بالتسبيح، والتقديس كصوت الرعد القاصف، قال مجرى القلم بما أجراه الله مما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

قوله: "واضميروا مقاصدا شرار"، والضمير: ما يضمره المضمر حتى يظهره إن شاء متى شاء لمن شاء، فإن أظهره ظهر شوره وطريقه، وعرف قصده ومبلغه، وإنّ إلى ربك المنتهى، فإن قلت تخصيص الناظم اللوح بالإسطار والقلم بالتخطاط، ونسبة الضمير والشور والمقصد للقلم كيف فَهْمُهُ وكيف نفهمه نحن بعده؟ قلنا: "إن رب الأولين والآخرين ورب الملكوت والملك واحد، أما لوح الخشب وقلم القصب فمحسوسان لا يخفى حالهما، ولا ما يطرأ عنهما على كل كاتب اعتادهما، وأما لوح الذر وقلم الجوهر فنطقا بالوحي، والوحي وصفهما، وأما لوح القلوب وقلم الغيوب فالعجب فيهما، وفي معرفتهما، فإن قلت هل من مزيد نعم إلى سمعك وأنت شهيد، وكن كما قال أبو الحسن الحلوي الشوذي[4] نزيل باب الزاوية من تلمسان:

---

[1] الحديث أخرجه:- اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 309، 310./- عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، العظمة، ج2، ص:576.

[2] الحديث أخرجه أيضا علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص: 190.

[3] الحديث أخرجه:- الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 540./ - البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج10، ص: 204./ - أبو دود، سنن أبي داود، ج4، ص: 225.

[4] سيدي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، نزيل تلسمان، ينظر ترجمته : ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب (مصدر سابق) ص: 68.

إذا نَطَــقَ الوُجُــودُ أَصَــاخَ قَــوم بِآذَانِ إلى نُطْقِ الوُجُــــــــــــودِ
وذَاكَ النُّطْــقُ لَيــــسَ بِـهِ انعجَــام ولَكِن دقَّ عَن فَهْمِ البَلِيـــــــــــــدِ
فَكُــن فَطِنًـــا تُنَــادَى مِن قَرِيـــب ولَا تَكُن[1] مَن يُنَادَى من بَعِيـــــــــــــدِ

وقال أبو الفرج، قال الشيخ أبو مدين: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الياء مكتوبة عليه يا هذا ذرّاتالوجود تستدعيك إلى الموجد، ورسائل العتاب على انقطاعك متصلة فما هذا التوقف"، قال الإمام أبي حامد في «إحيائه»: "اعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر، لأنها كلمات تستمد من بحر كلام الله الذي لا نهاية له [قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً][الكهف/109]، ثم إنها تناجي بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السر لوم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، ولو جاز إفشاء كل سر لما قالυ: «لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»[2]، بل يذكر ذلك لهم حتى يبكوا ولا يضحكوا، ولما قال:(إذا ذكر القدر فامسكوا، وإذا ذكرت النجوم فامسكوا، وإذا ذكرت أصحابي فأمسكوا، ولما خص حذيفة بالأسرار)، ولكن نذكر لك من مناجاتها قدرا يسيرا.

[حوار بين الحِبر والوَرَقة:][3]

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله "للكاغد" وقد رآه اسودّ وجهه بالحبر: ما بال وجهك وقد كان أبيض مشرقا، والآن قد ظهر عليه السواد، فلم سوَّدْتَ وجهك، وما السبب فيه، فقال الكاغيد" ما أنصفتني في هذه المطالبة، فإني ما سوَّدتُ وجهي بنفسي، ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقرة، فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا، فقال: صدقت، فسأل الحبر عن ذلك، فقال: ما أنصفتني، فإني كنت وادعا في المحبرة ساكنا عازما على أن لا أبرح منها، فاعتَدَى عليَّ القلمُ بطبعه الفاسد، فاختطفني من وطني وأخلاني من بلادي وفرق جمعي وبددني كما ترى على ساحة بيضاء، فالسؤال عليه لا عليَّ، فقال: صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه، فقال: سل اليد والأصابع؟، فإني كنت قصبا نابتا على شاطئ الأنهار متنزها بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بالسكين فنحتني عن مشربي ومزقت علي ثيابي، واقتلعتني من أصلي، وفصلت بين أناسي، ثم برتني وشقت رأسي وغمستني في سواد الحبر ومرارته، وهي ذا تستخدمني وتُمشيني على قناة رأسي فلقد نثرتَ الملح على جرحي بسؤلك وعتابك فتنحَّ عني وسل من قهرني، فقال: صدقت.

ثم سأل اليد عن ظلمها القلم وتعديها عليه واستخدامها له، فقالت اليد: ما أنا إلا لحم وعظم ودم، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه، وإنما أن مركبٌ مُسَخَّر ركبني فارس يقال له القدرة والقوة، فهو الذي يردد في ويجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المَدَر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبها مثل هذا

---

[1] في المصدر: ولا تكُ، ينظر: المصدر نفسه، ص: 69، 70.

[2] الحديث أخرجه: – أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج5، ص: 173./ – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج2، ص: 531.

[3] هذا الفصل ينقلنا فيه المؤلف من الحديث عن الحبر والورقة ليصل بنا إلى موضوع العلاقة بين القدرة والعقل والعلم والقلب، لينتهي بنا أخيرا في العوالم الثلاثة: عالم الملك والشهادة، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت.

الفارس القوي القاهر، أما ترى أيدي الموتى كيف تساويني في صورة اللحم والعظم والدم، ثم لا معاملة بينها وبين القلم، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فاسأل القدرة عن شأني فإني مركب أعجزني من ركبني فقال: صدقت.

ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد واستخدامها وكثرة ترديدها لها، فقالت: دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم مَلُوم، وكم من ملوم لا ذنب له، وكيف خفي عليك أمري، أو كيف ظننت أني ظلمت اليد لما رَكِبْتُهَا، ولقد كنت راكبا إياها قبل التحريك، وما كنت أحركها ولا أستسخرها، بل كنت نائما ساكنا نوما حتى ظن الظانون أني ميت أو معدوم، لأني ما كنت أتحركا ولا أُحرك، حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني، فكانت لي قوة على مساعدته، ولم تكن لي قوة على مخالفته، وهذا الموكل يُسمَّى الإرادة، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصلابته، إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاَّني ورَأْيِ، فقال: صدقت.

ثم سأل الإرادة، فقال: ما الذي أجراك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ومناصا؟ فقالت الإرادة: لا تعجل علي فلعل له عذرا وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكني استنهضت، وما انبعثت ولكن بُعِثتُ بحكم قاهر وأمر جازم، وقد كنت ساكنا قبل مجيئه، ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالأشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار، فإني مسكين مسخر تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته، لكني أدري أني في دَعَةٍ وسُكُون ما لم يزد علي هذا الوارد القاهر، وهذا الحاكم العادل أو الظالم، وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما؛ بل لا تبقى لي معه مهما جَزَمَ حكمه طاقة على المخالفة، لعمري ما دام في التردد مع نفسه والتحير في حكمه، فأنا ساكن لكن مع استشعار وانتظار لحكمه، فإذا انجزم حكمه انزعجتُ بطبع وقهرٍ وتحت طاعةٍ، وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه، فاسأل العلم عن شأني، ودع عني عتابك فإني مهما ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا نفارقهم فالراحلون هم، فقال صدقت.

وأقبل العقل والعلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لأشخاص القدرة، فقال العقل: فأما أنا فسراج ما اشتَعَلت بنفسي ولكني اشْتُعِلتُ، وقال القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بُسِطتُ، وقال العلم: أما أنا فنقشٌ نُقِشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل، وما انخَطَطْتُ بنفسي، فكم كان هذا اللوح قبلُ خاليا عني، فاسأل القلم عني فإن الخط لا يكون إلا بالقلم، فعند هذا يتقنَّع السائل ولم يُقنعه جوابه، وقال: قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحليني من طمعت فيه على غيره، ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال.

فأما قولك إني خط ونقشٌ، وإنما خطني قلم، فلست أفهمه فإني لا أعلم قلما إلا من القصب ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطا إلا بالحبر، ولا سراجا إلا من النار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والقلم والخط ولا أشاهد منه شيئا، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا، فقال له العلم: إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجات وزادك قليل ومَرَكَبُك ضعيف، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليه كثيرة، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعيشك فادرجي وكل ميسر لما خلق له.

وإن كنت راغبا في استتمام هذا الطريق إلى المقصود فألق سمعك وأنت شهيد ،واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أولها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، والثاني وهو عالم الملكوت، وهو ورائي، فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله، وفيها المهامة والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها والثالث عالم الجبروت، وهو بين عالم الملكوت وعالم الملك، ولقد قطعت منه ثلاث منازل، إذ في أوله منزل القدرة والإرادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك والملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، ولا هي في حد اضطراب الماء، و لا هي في حد سكون الأرض وثباتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة، فإن جاوزت قوته إلى حد يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت، فإن انتهى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتُع فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخالفت السفينة، ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي الزلال.

وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم، وحصول اليقين الذي يمشى به على الماء،[أو ما سمعت قول رسول الله ρ في عيسى : "لو ازداد يقينا لمشى على الهوى والماء.."][1] فقال السائل السالك قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أأطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك من علامة؟ فقال: نعم، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فإن ظهر لك القلم الذي به انكتبت في لوح القلب، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع أول باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، (أما ترى أن النبي ρ في أول أمره كوشف بالقلم)[2]، إذ نزل عليه قوله تعالى: [اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ][العلق/1-5]، فقال السالك: لقد فتحت بصري وحدقته، فو الله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما إلا كذلك، فقال العلم: لقد أبعدت النجعة، أما علمت أن متاح البيت يشبه رب البيت، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا تشبه يده الأيدي، ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط، وهذه الأمور الإلهية من عالم الملكوت، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب، ولا كلامه صوت ولا حرف ولا خطه رقم ووشم، ولا حبره زاج وعفص، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا، فما أراك إلا مخنثا بين فحول التنزيه وأنوثة التشبيه، مذبذبا بين هذا وذاك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فإن كنت نزهت ذاته تعالى وصفاته عن الأجسام وصفاتها، ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات، وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه، فإن كنت فَهِمٌ من قوله "أن الله خلق آدم على صورته" الصورة الظاهرة المدركة بالبصر، فكن مشبها مطلقا، كما يقال: كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة.

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

فإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار، فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطوي الطريق [إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى][طه/12]، واسمع قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى [فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى][النازعات/24]، فلما سمع السالك من العلم ذلك، استشعر قصور نفسه، وأنه مخنث في التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه نارا من حر غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور.

فقال له العلم: اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك فلعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، وإذا هو كما وصف له العلم من التنزيه، ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكأن له في كل قلب رأس ولا رأس له فقضى منه العجب، وقال: نعم الرفيق العلم، فجزاه الله عن خيرا.

إذ الآن ظهر لي صدق إنبائه عن أوصاف القلم، فإني أراه قلما لا كالأقلام، فعند هذا ودّع العلم وشكره، وقال قد طال مقامي عندك ومراودتي لك، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم فأسأله عن شأنه، فسافر إليه وقال: ما لك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تنبعث به الإرادات إلى أشخاص القدرة وصرفها إلى المقدورات، فقال لعلك نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة، وسمعته من جواب القلم، إذ سألته فأحالك على اليد، قال لا، قال: فجوابي مثل جوابه، قال: وكيف وأنت لا تشبهه قال القلم: أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته، قال: نعم، قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك، فإن في قبضته وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر، فلا فرق بين القلم الإلهي والقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة، قال السائل: وما يمين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله تعالى: [وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ][الزمر/67]، قال: نعم، قال: فالأقلام أيضا في قبضته بيمينه هو الذي يرددها، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه، والجملة فيها إنها يمين لا كالأيمن، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع، فرأى القلم محركا في قبضتها، فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم، فقال: جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهو الحوالة على القدرة إذ اليد لا حكم لها في نفسها، وإنما محركها القدرة لا محالة، فسافر السالك إلى عالم القدرة، ورأي فيه من العجائب ما استحقر فيها ما قبله، وسألها عن تحريك اليمين، فقالت: إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات حجب الحضرة [لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ][الأنبياء/23]، فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في غشيته، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، ومالي إلا أن أسلم وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك، فأقول: اشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك، فنودي من وراء حجاب: إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، ارجع إليه، فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما

قاله فافعله، فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال:[سبحانك][1] لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فقال: إلهي إن لم تكن للساني جرأة على الثناء عليك، فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: إياك وإن تتخطى رقاب الصديقين فارجع إلى الصدّيق الأكبر واقتدي به، فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، أما سمعته يقول: "العجز عن إدراك الإدراك إدراك" فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا.

فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلة ومعاتباته، وقال اليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: اقبلوا عذري، فإني كنت غريبا جديد العهد بالدخول في هذه البلاد، ولكل داخل دهشته فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن فقد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الله الواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته مردون في قبضته، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد ذلك منه وقيل كيف يكون ذلك والأول ليس بآخر، والظاهر ليس بباطن، إذ هما متناقضان، فقال: هو الأول بالإضافة إلى سير المسافرين إليه، فإنهم لا يزالون مترقين إليه من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر المشاهدة وأول الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت". انتهى كلام الغزالي نوّر الله ضريحه وأسكنه من الجنان فسيحه.

قلت: لو لم يخط هذا القلم الملكي بأمثل هذا الكاغد التركي، إلا هذه المسائل التي وصلت السائل لكان ذلك شافيا كافيا، فكيف وكتابته لا تتناهى وحكمته لا تضاهى،(ولولم يكن في شرحنا لهذه القصيدة إلا هذه المعالم الموصلة لكعبة الأسرار، لكان جديرا لمطابقة الاسم للمسمى وابتهاج العاكفين في ذلك الحمى)[2]، فكيف أوله كآخره، وباطنه كظاهره، فلا ينبغي لعاقل أن يزهد في مطالعة الكتب المشحونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمملوءة بأقوال السلف الصالح وآثارهم بعد أن أتته مهنأة مصفاة، ولم يدري المسكين ما نال مؤلفيها من التعب في جمعها والتقاط دررها المنثورة من معادنها واستخراج كنوزها المطلسم عليها من خزائنها.

وليتهم مع هذا وجدوا زمانا هنيئا أو مُساعدا مرضيا أو خلا زكيا وفيا، بل لم نجد نحن في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلا العقارب واللفاع، وأهل الشقاق والنزاع، وابتلينا بتصدير الهمج الرعاع المؤثرين سبل الشر والابتداع (المؤثرين أهل الزيغ والاقتطاع)[3]، وما لنا على دفع ما نزل بنا قدرة ولا طول، ولا لنا على التحول عن أهل هذه الحال قوة ولا حال، ولا يحمل بالضعيف العاجز المتألم إلا أن يلجأ إلى ربه ويقول: اللهم سلم سلم، ويرحم الله أبا عبد الله محمد بن زيد القيرواني حيث يقول:

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): و لو لم يكن في كتابنا لهذا التقييد على كلام هذا الشيخ، أعني الناظم، إلاّ هذا الكلام الموصل إلى معرفة الواحد الحق لكان كافيا لذوي الهمم.

[3] العبارة ساقطة في —ب) و(ج).

أَمُوتُ ويَبْقَى كُلّ عِلْمٍ جَمَعْتُـــــــه فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ إِذَا مِتُّ وَارِثـــهُ
أَخَافُ عَلَيهِ وَارِثًا لَا يَصُونُـــــــهُ ولَا يَدْرِي مَا التَّعَبُ الذِي نَالَ جَامِعُـــهُ

تأمل رحمك الله في قول هذا الإمام الناظم، وما احتوى عليه كلامه منطوقا ومفهوما من العلوم الدقيقة، فإن قول القلم وفصلت بين أناسى أنه يكتب به جعبة مدورا كما خلقه الله وهو أولى وأمكن إن أمكن؛ وإنما لم يشبه بالسكين، حيث يسألها السالك لأنها لا فرق بينها وبين القلم في الدرجة وفي معنى أتسخر باليد فلذا جاوزها إلى اليد.

وقول الإرادة هذا الحاكم العادل أو الظالم تعني به العقل، وأما العلم فرسول فقط، والعهدة على مرسله، وإنما نسبت له الحكم والعدل أو الظلم في حكمه لأنه أمير البدن ومنه ينشأ الصلاح، ومن أعطيه سئل عن جميع أحكامه، فإن وافق الأمر الإلهي أوجز وإلَّا عوقب، وهو محل نظر المولى كما ورد من هذا المنزل كمفترق أحكام الشريعة مع الحقيقية، فمن نظر إلى المكلف بعين الشريعة عاقبه أوآجره، ومن نظر إليه بعين الحقيقة التي هي كناية عن أحكام القدرة الأزلية تركه وعذره، لأن القادر من بيده ملكوت كل شيء يجير العاجز الذي ليس له من الأمر شيء على مراده وعلى غير مراده، وإن كان فيه حتفه، ولذلك سمى عالم الجبروت، ولا يسأل الجبار الذي يجير ولا يجار عليه عما يفعل لأنه لم يتصرف إلا في ملك، وإلى نحو ما ذكر في العوالم الثلاث يشير قوله عز وجل: [قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ][المؤمنون/84] الآيات، والله أعلم.

وقول العلم أن متاع البيت يشبه رب البيت يعني به في مطلق المخالفة لا في المخالفة المطلقة، إذ يتحاشى من ليس كمثله شيء عن المشابهة الحقيقية في كل شيء، ويعني بالبيت: "القلب لخبر يا داوود ظهّر لي بيتا أسكنه" الحديث، وأضيف إليه المتاع لأن اليد المخالفة لأيدينا تكتب العلم المخالف بالقلم المخالف في لوح القلب المخالف، فهو ظرف لأمتعته، وإضافته إلى الرب إضافة تخصيص؛ وإلا فهو رب كل شيء.

وقوله: "فسافر السالك إلى عالم القدرة"، فانظر كيف تأدب وقال إلى عالمها ولم يقل إليها كالذي قبلها، لأن الصفة لا تفارق الموصوف، وعالم العزة أعز من أن يكشف لناظر ولا عابر والصديق الأكبر هو أبو بكر والأصغر علي رضي الله عنهما، وهذا باعتبار هذه الأمة لقوله تعالى: [وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ][الزمر/33] محمد ρ ، وصدق به أبو بكر وإلا فأكبر منه الصديق يوسف υ، وقول السالك حين رجع لليمين وما تحته، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، يفهم منه أن اليد الإلهي والقلم الإلهي وما بعدهما مخلوقة لله عز وجل، إذ لا يسخر ويقهر إلا من كان مخلوقا مملوكا للقاهر، لأن القدرة لا تتعلق إلا بما كان جائزا لوجود، ولا تتعلق بواجب ولا مستحيل وإضافتها[كذا] إضافة تشريف.

واعلم أن المنازل التي عبر هذا السالك واعتبرها هي تسع، أربع في عالم الملك والشهادة، وثلاث في عالم الجبروت، واثنان في عالم الملكوت على عدد منازل مقامات الإسلام والإيمان والإحسان، فكل منزل يدلك ويوصلك للذي يليه في الترقي بسهولة وتدرج حتى لآخر منزل تحصل لك فيه معرفة القدير إن شاء كما شاء، وفي كل منزل له آية بينة مستقلة تدل عليه كآيات موسى التسع، قال تعالى: [هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ][غافر/13].

قوله: "والجنة والنار بالتحواط"، أي مع إحاطتها على ما اشتملا عليه من نعم الدرجات وعذاب الدركات، قال عز من قائل: [وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ][آل عمران/133]، أي إذا مدت السماء الأولى ومدت السماء الثانية بازائها، ثم كذلك إلى سبع سماوات وسبع أراضيين فيهما مقدار عرضها، وأما طولها فلا يعلمه إلا الله، وقد جاء أن ما بين المصراعين من بابها أربعين سنة، وانعقد إجماع أهل السنة على أنها موجودة الآن وهي التي أهبط الله منها آدم υ، ودليلهم قوله تعالى: [أعدت للمتقين] وقوله: [عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى][النجم/15]، وقولهυ: «عرضت علي الجنة فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[1]، وهي من المستثنيات السبع في قوله تعالى: [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ][الزمر/68]، قال ابن عباس: "الموجودات التي لا تفنى سبعة: اللوح والقلم العرش والكرسي والجنة والنار والأرواح"، وقيل اثنا عشر ملكا حملة العرش والأربعة المقربون، وقد استوعبها الناظم رحمه الله.

والإجماع أيضا على أن النار موجودة إعلان لقوله تعالى:[[وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي] أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ][آل عمران/131]، ولقوله ρ: «اطّلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء لأنهن يكثرن اللعن ويكفرن العشير »[2]، أي الزوج ، وفي الحديث: «إن أول ما يوقد إلى النار إبليس وعليه ذرع من نار وعلى رأسه قلنسوة من نار وفي رجليه نعلا من نار، يغلي دماغه من حرارتها، وبيده عمود من نار ينادي أين أصحابي، وأصحابه كل فاسق وفاسقة وظالم وظالمة وجبار لا يؤمن بيوم الحساب، فيجمعهم الله تعالى مع إبليس»[3]، من ابن ناجي.

فانظر يا أخي إلى هذا الملبس من رحمة الله، فإن كان في الجنة ومن خزنتها حتى وسوس آدم على الأكل من شجرة التين أو البر حسدا منه، فأخرجه الله من جواره ثم أنه لما أن هبط طلب قرآنا فجعل قرآنه الشعر، وطلب كتابا فأعطى الرسم، وطلب مؤذنا فأعطي المزمار، وطلب مسجدا فأعطي الأسواق، وطلب بيتا فأعطي الحمام، وطلب مجلسا فأعطي الطرقات، وطلب مصائد فأعطي النساء، فنعوذ بالله السميع من الشيطان الرجيم، وإنما قرن الناظم بينهما في الذكر لقوله ρ: «اذكروا العظيمتين الجنة والنار»[4]، فإنه υ سوى بينهما في الذكر والعظم.

قال صاحب «الشعب»: فهما داران كل واحدة ضد الأخرى، فما في هذه من أنواع الإكرام والنعيم في هذه ضده الخزي والعذاب الأليم، والجنة نور والنار ظلمة، وهما مخلوقتان قبل خلق الدنيا لقوله تعالى: [أعدت للمتقين]، [أعدت للكافرين]، ولأن الدنيا خلقت منهما جميعا تنزلت الرحمة التي هي من الجنة وأنواع الخير والفتح، وصعدت من دار الغضب أنواع الشر والقبح في نفسيهما، فامتزج المعنيان، فكان منهما الدنيا فلم تكن الدنيا جنة صرفا ولا نار صرفا، دليل ذلك قوله تعالى: [مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

---

[1] الحديث أورده بلفظ مختلف قليلا ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج2، ص: 518.

[2] الحديث أورده بلفظ مختلف: مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1096./ - البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 19.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الحديث أخرجه عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، الترغيب والترهيب، ج4، ص: 248.

الْحَكِيمُ][فاطر/2] وقال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[1]، وقال υ: «إن الله خلق مائة رحمة أنزل منها إلى الأرض واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك، فرحم بها عباده المؤمنين»[2].

وإنما تفيض هذه الرحمة التي قام بها هذا العالم، وكان بها كل حسن وخير إذا ميز الله الخبيث من الطيب من كل شيء من الدنيا، فيزول المزج وتفسد الدنيا الممتزجة من الفتح والفيح، فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم، ويجعل الطيب كله في الجنة، فيعود كل شيء إلى أصله الذي خرج منه، فيفنى وجود الدنيا وتبقى الآخرة، كما كانت أول مرة، وورد أن الله تعالى يقول في الدنيا: «ميزوا ما كان لي منها وألقوا سائرها في النار»[3]، والنور والطيب[4] والجمال[والخير][5] كله من الجنة وأضداد ذلك كله من النار كما ورد: «الحمّى من فيح جهنم»[6]« الحمى حظ كل مؤمن من النار»[7]، وورد أيضا: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم»[8]، وفي الخبر: "إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لي أن أتنفس فأذن لها بنفَسين، نفَس في الشتاء ونفَس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر والبرد الذين بهما قوام هذا العالم مع الماء النازل من محل الرحمة من جهنم والجنة"، وورد في الخبر مرفوعا: "إذا كان يوم حار ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وأهل الأرض، فإذا قال العبد لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم، اللهم أجرني من حر جهنم، قال الله لجهنم: إن عبد من عبادي استجارني منك، وإني أشهدك أني قد أجرته، وإذا كان اليوم شديد البرد ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء والأرض، ، فإذا قال العبد لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم، اللهم أجرني من زمهرير جهنم، قال الله لجهنم: إن عبد من عبادي استجارني من زمهريك، وإني أشهدك أني قد أجرته، قالوا وما زمهرير جهنم، قال: جب يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده بعض من بعض"، أخرجه الثعالبي في «العلوم الفاخرة» عن القرطبي عن أبي هريرة مرفوعا منه.

وورد أيضا: أن الجنة لما تزخرفت وفجرت أنهارها وطابت ثمارها، وغردت أطيارها وتزينت حورها استأذنت ربها فأذن لها بنَفَسين، نفس في الربيع ونفس في الخريف"، ثم قال في «الشعب»: "فإذا فهمت هذا علمت أن دلائل الجنة والنار في الوجود عامة، فلا يقع بصر الإنسان على حسن مسموع أو مركوب أو ملموس أو مأكول أو مشروب أو منكوح أو مسكون، إلا اعتبر بذلك الجنة التي انتزع منهما، وكذا كل قبيح ومؤذ تذكر به جهنم، وما أعد الله فيها، فحصل له بذلك اليقين وكان من العلماء الراسخين".

فصل منه: فإذا فهمت هذا فاعلم أن الجنة خرجت من معانيها وتطلعت إلى هذا العالم الدنياوي على بابين، وكذلك خرجت معاني جهنم إلى الدنيا أيضا على بابين، فأما البابان من الجنة فأحدهما محسوس، وهو ما يخرج من الغيب وينزل من السماء من الماء والنور والريح المطيبة والأهوية الملذة، وكل خير وحسن ظاهر، والثاني ما ينزل من

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2186./ – البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص: 1836.

[2] الحديث أخرجه مسلم برواية مختلفة، صحيح مسلم، ج4، ص: 2108.

[3] الحديث أخرجه أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج7، ص: 140.

[4] في (ب) و(ج): فالماء والنور.

[5] إضافة في (ب) و(ج).

[6] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:1731./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص:1191.

[7] الحديث أخرجه: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج2، ص: 306./ – محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج1، ص: 71.

[8] الحديث أخرجه: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:2184./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص:1191./ – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج16، ص: 503.

معاني الدين كلها كالذكر والتلاوة والعلوم والفهوم والنعيم بالصلوات وأنواع العبادات والمكاشفة اليقينية، ووجود طعم الإيمان والأحوال الشريفة كلها لقوله ρ: «إذا وجدتم رياض الجنة فارتعوا فيها يعني حلق الذكر»[1]، وروى عن رب الجنة[2] جل جلاله أنه قال: «معشر الصديقين تنعموا بذكري، فإنه في الدنيا لكم نعيم وفي الآخرة جزاء»[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»[4]، فالحسنات كلها أي نوع كانت من قبيل الجنة، وعليها تقسم لأهلها والنعيم بها من نعيم الجنة.

وأما البابان من النار، فالحسي ما ظهر في هذا العالم الدنيوي من نَفَسَي جهنم من الحر والبرد وجميع المؤذيات من العقارب والحيات وأنواع الشر والظلمات، والمعنوي أنواع الكفر: الكفر والجهل والمعاصي كلها، وروينا عن بعض علماء الآخرة المكاشفين، أنه كان جالسا مع أناس حوله فرأى شرارة من نار جهنم طارت فنزلت على قلب واحد منهم، فظهر منه في الحال من الحقد والغضب والتغيير ما أبهمت الحاضرين، ويشهد لهذا قوله υ: «الغضب جمرة تتوقد في جوف ابن آدم»[5]الحديث.

فهذه أربعة أبواب منها طلعت الآخرة إلى الدنيا وبها تمدها في كل نفس، فهما ظاهرتان باليقين للمؤمنين ومثل بطونهما في عالم الدنيا مثل بطون نفس الإنسان في جسده، وكما لا يطرأ على الجسد حركة ولا سكون إلا من النفس وهي المحركة المسكنة، كذلك لا يطرأ في الدنيا شيء إلا من الآخرة، وهي المحركة المسكنة في الدنيا، قال υ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك»[6]، وأما أوصافهما فما ورد به القرآن والحديث ولا يحيط بهما إلا من خلقهما، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[7]، وكذا النار بضد ذلك.

فصل منه[8]: "فنعيم الجنة على ضربين: روحاني وجسماني، الأول نعيم الفرح والسرور والحبور التلذذ برؤية الله عز وجل ورضاه، والثاني الحور والقصور والمآكل والملابس، وكذا عذاب جهنم: روحاني وجسماني، الروحاني عذاب الحجاب عن الرب واليأس من لقائه ورضاه، والجسماني في أنواع عذابها المحسوسة، وهذا على تفصيل الطاعات والمعاصي، فمن كانت طاعته بالجسد فقط والقلب ساه عن مولاه جوزي بالأكل ومثله، ومن كانت طاعته بالقلب جوزي بالنظر ومثله، وكذا في جهنم المثل بالمثل جزاء وفاقا"، انتهى كلام سيدي عبد الجليل أجل الله قدر وجزاه خيره،(اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب منها من قول وعمل واعتقاد، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل واعتقاد.)[9]

[1] الحديث أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 532.

[2] في (ب) و(ج): رب العزة.

[3] الحديث أورده أبو نعيم، الحلية، ج2، ص: 358.

[4] الحديث أخرجه الشيخان: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:2077./ - البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص:1541.

[5] الحديث أخرجه أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج6، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410، ص: 310.

[6] لم نعثر عليه.

[7] الحديث أخرجه الشيخان: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:2174./ - البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص:1185.

[8] أي من كتاب سيدي عبد الجليل القصري" الشُّعَب".

[9] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

ومن جملة ما اشتمل عليه اسم الجنة، الجنات الثمانية وأبوابها، وكذا من جملة ما انطبق على اسم النار النيران الأربع والسبع وهي: نار المعدة، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار الحجر، ونار تأكل ولا تشرب وهي جهنم، وعكسها نار البحر"، وستأتي إن شاء الله أسماء الجنات والنيران الأخراويين.

[فيما يتعلق بالملائكة وأصنافهم:]

قوله: "واملايك أصناف وأطوار"، (الصنف ما تحت الجنس وفوق النوع)[1]، والأطوار الحالات، قال تعالى:[وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً][نوح/14]،جمع طور وهو الحال، قال عز من قائل: [وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ][الأنبياء/19] ، فهذا جنس الملائكة، ومن الأصناف حملة العرش الثمانية وحملة الكرسي الأربعة والكروبيين وأهل الصفح وأهل سرادقات البحر، أخرج شهاب الدين سيدي أحمد بن حجر من حديث ابن عباس: «أن لله ملائكة خلقهم على صورة الوعل لهم قرون كقرون الوعل مشتبكة بأقطار العرش، وهم ثمانية أصناف من الملائكة الكروبيون والصادقون والصافون وحسبئيل وماذ، استقلوا العرش بما عليه وتمسكوا بالقوائم فقالوا: ربنا من يطيق حمل عظمتك خمسون ألف سنة بين كل صفين خمسون ألف سنة، فأوحى الله إليهم أن انتشرت مناكبهم ورعدت فرائسهم وكاد يحطم بعضهم بعضا، فزاد عددهم مثلهم ففعلوا كذلك فما زال يزيد في عددهم وكثرتهم إلى أن بلغ ثمانية أضعافهم، فقال لهم المولى سبحانه: "وعزتي وجلالي لو زدت فيكم أبد الآبدين ودهر الداهرين أزيد في عددكم وكثرتكم وقوتكم أن تستقلوا بما عليكم إلا أن تأتيكم القوة من عندي، فقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي".

فاستقلوا بالعرش بما عليه وتمسكوا بالقوائم مثقلين من حمل العرش وأقدامهم مدلات في الهواء لا تثبت على شيء فتستقر ولا يدرون أين هم لا يفتر أحدهم من قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"، من مخافة إن هو فتر أن يرمى به فيهوي كل مهوى، إلا أن الله يفعل ما يشاء، ولولا أن الله أطاقهم عليه ما قدروا أن يحملوا منه مثقال ذرة فسبحان المنفرد بالقدرة».[2]

وفي كل سماء نوع وكذا عمّار الأرض والبحر وشبه ذلك، ومن الآحاد قوله ρ: «أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع راحة»[3]، وفي رواية موضع قدم إلا وفيه ملك راكع ساجد"، وكذا قول الغزالي، وبالجملة ليس في العالم مقر زائدة إلا وهو معمور بهم، كل يمتثل أمره ولا يتعدى طوره، ومصداقة قول جبريل للنبي عليهما السلام: «وما منا إلا له مقام معلوم»[4]، ومن الآحاد المعينة ما أخرجه جبر بن محمد بن هشام القرطبي عن علي بن أبي طالب عن عثمان بن عفان τ أنه سأل النبيρ، فقال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك، فقال ρ: ملك عن يمينك على حسناتك، وهو أمين على الذي على شمالك، فإن عملت حسنة كتبت عشرا، وإن عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب، فيقول له: لا، لعله يستغفر الله أو يتوب، فإن لم يتب منها قال: نعم

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] لم نعثر عليه.

[3] الحديث أخرجه: – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 554./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص: 556.

[4] الحديث أورده القرطبي، تفسير القرطبي، ج5، ص: 243.

أكتب أراحنا الله منه"، فبئس القرين ما أقلّ مراقبته لله عز وجل وأقل استحيائه، يقول الله تعالى: [مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ][ق/18]، ملك من بين يديك ومن خلفك يقول الله عز وجل: [لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ][الرعد/11]، وملك قابض على ناصيتك، وإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ρ، وملك قائم على فمك وملكان على يمينك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي، ينزل ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل.

تنبيه واستيقاظ: إياك يا أخي أن تغفل عما لا يغفل عنك، أو تنسى من لا ينساك، فتقوم الحجة عليك لشهودك، وتهلك نفسك إن لم تنظر لنفسك بمن ينظر لها، إن ظلمتها، وإياك ثم إياك أن تؤذي شهودك الكرام ملائكة العلام[1]، بل أُمِرتَ بإكرامهم في قول رسولك ρ: «أكرموا الشهود، فإن بهم تستخرج الحقوق إما لك أو عليك»[2]، ولا تتعب في الكلام بما لا يعنيك أو ترهقهم في مواضع الأقذار كحالة الجماع وقضاء الأوطار، فإنهم مضطرون للمبادرة بكتب ما يصدر منك من خير أو غير، وأعظم من هذا إخراجك للريح في المسجد، فإن الملك الموكل بذلك يبادر فيلتقم تلك الرائحة الكريهة ويخرجها عن بيت الله تعظيما لأمر الله ويموت بسبب ذلك من وقته، وبذلك ورد في الأثر، (وانتبه فإنك لا تجد أثرا إن خرجت بالمسجد)[3].

ومن الأوطار[4]، قوله عز من قائل: [وَالصَّافَّاتِ صَفّاً][الصافات/1]، أي الملائكة تصف نفوسها في العبادة وأجنحتها في الهواء تنظر ما تزجر به، فالزاجرات زجرا الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه، وقوله جل جلاله: [والنَّازِعَاتِ] [النازعات/1] هي الملائكة تنزع أرواح الكفار، غرقا نزعا بشدة، [والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا][النازعات/2]الملائكة تنشط أرواح المؤمنين إلى الجنة،[فالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا]، الملائكة تدبر أمر الدنيا أي تنزل بتدبيره، فجواب الإقسام الأول مذكور والثانية محذوف تقديره لتبعثن يا كفار مكة، قاله المحلي أحلّه الله دار القرار.

ومن الأوطار أيضا ما ذكره حجة الإسلام أبو حامد من أنهم عليهم السلام خدام الملك والملكوت، وهم في العالم بمنزلة القوي في جسد ابن آدم، لو زالت عنه القوى لهلك من ساعته بإذن الله، فمنهم المصورون لنا في الأرحام، ومنهم النافخون فينا الأرواح، ومنهم الحافظون لنا من جميع الجهات، ومنه كتبة كرام يسترون علينا المساوئ ويذكرون المحاسن، ومنهم الموكلون بمسك الأرض لنستقر عليها، وكذلك الجبال والبحار والرياح، وآخرون موكلون بالنبات والأمطار والكواكب والأفلاك يديرونها، وبالسماوات والأرضيين والجنة والنار، وعلى الجملة ليس في العالم مقر زائدة إلا وهو معمور بهم، كل يمتثل أمره ولا يتعدى طوره، لأنهم غير مركبين كتركيبنا نحن، ولذلك قال تعالى في حقهم: [وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ][الصافات/164] وأما صفة خلقهم فلا يحيط بها إلا من خلقهم كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: "لو كان ملكا منهم أهبط إلى الدنيا، ما وسعته لعظم خلقته وكثرة أجنحته، ومنهم من لو كلف الجن والإنس أن يصفوه ما وصفوه لبعد ما بين منكبيه ولحسن تركيب صورته، ومنهم من لو ألقي في نقرة إبهامه جميع مياه

---

[1] في (ب) و(ج): ملائكة ربك.

[2] حديث " أكرموا الشهود.." أخرجه برواية مختلفة قليلا: – محمد بن سلامة القضاعي، مسند الشهاب، ج1، ص: 426./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج2، ص: 94.

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] في (ب) و(ج): ومن الأطوار.

الدنيا لوسعتها، ولو ألقيت السفن في دموع عينيه لجرت دهر الداهرين، فهذا بحر لا يدرك غوره إلا أنه قد لاح وتبين للعقول، وإن لم يشاهدوا بالأبصار"، من «الإحياء».

(وها أنا أذكر بعض أوصافهم، وإن كان المناسب تأخيره لقول الناظم: "وما فيهم من عظات" لكن خوف الموت أو الفوت أوجب تقديمه قال ρ: «إن الله خلق ملك الجنة في إحدى فخذيه وخلق ملكا يرفع الخلق على زغبة من ريشة من جناحه»[1])[2]، وروى في «تنبيه الأنام» عن النبي υ: «أن كل ملك من حملة العرش الثمانية بين كعبيه إلى قدميه مسيرة سبعمائة عام»[3]، وروى أيضا: «أن الروح لو شاء لا ابتلع السماوات والأرض من أحد شدقيه، وموضع قدميه مسيرة سبعة آلاف عام، ويقوم يوم القيامة صفا وجميع الملائكة صفا، وإسرافيل له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، ورجلاه تحت الأرض السابعة»[4].

وروي: "أن السماوات والأرض في جوف الكرسي كحلقة في أرض فلاة، والكرسي يحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه نورهم يتلألأ وأقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى، وملك منهم على صورة آدم، وهو يطلب الرزق والمطر من السنة إلى السنة للأنام، والثاني على صورة ثور وهو يطلب الرزق من السنة إلى السنة للأنعام، والثالث على صورة السبع وهو يطلب الرزق من السنة إلى السنة للوحوش[والهوام][5] والرابع على صورة النسر وهو يطلب الرزق من السنة إلى السنة للطير على طول الدوام"، "منه".

وبالجملة فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لا يستبقونه بالقول، وهم بأمره يعلمون ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون،[خلقهم الله من نوره فهم عقلا نورانيون ليسوا بذكور ولا إناثا قوتهم ذكرهم] فمنهم من هو قائم أبدا ومنهم من هو راكع أبدا ومنهم من هو ساجد أبدا، ومنهم من هو جالس أبدا، ولقد كرم الله بني آدم فجمع لهم في صلاتهم عبادة صفوف الملائكة المذكورين.

بل قال في «الإحياء»، ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف، ويباهي الله به مائة ألف ملك، ودليل هذا ما أخرجه الترمذي عن أبي ذر مرفوعا أن رسول الله ρ قال: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطمت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعداء تجئرون إلى الله»[6]، قال أبو ذر لوددت أني شجرة تعضد عياض. أطت: صوتت تصويت الرجل الجرير من الثقل"، وسأل عمر النبي ρ عن صلاة أهل السماء، فلم يرد عليه، فجاء جبريلυ فقال: "أقرأ عمر السلام

[1] لم نعثر عليه.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أورده ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، ص: 317.

[4] الحديث أورده القرطبي، تفسير القرطبي، ج14، ص: 320.

[5] إضافة في (ب) و(ج).

[6] تقدم الحديث في ص 352.

وأخبره أن أهل سماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذي الملك والملكوت، وأهل السماء الثانية ركع إلى يوم القيامة يقولون سبحان الحي الذي لا يموت".

قوله: "والأرض الساهرة لها شهب"، قال تعالى:[فَإِنَّمَا هِيَ [زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ]][النازعات/13] أي الرادفة التي يعقبها البعث، زجرة: نفخة، فإذا هم بالساهرة بوجه الأرض أحياء بعد ما كانوا ببطنها أمواتا، ذكره المحلي ويؤخذ من دلالة الاسم أن أعين أهل ذلك الموقف الهائل ساهرة لا يطرقها نوم (بدليل قوله تعالى: [قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ]][النازعات/8] أي خائفة قلقة أبصارها خاشعة أي ذليلة لهول ما ترى)[1]، والمراد بهذه الأرض، أرض المحشر وهل هي أرض الشام أو بيت المقدس أو سفح بين جبلي أريحا وحسبان؟، أقوال حكاها السيوطي، وقال: "وقيل إنها جهنم أعاذنا الله منها، قال تعالى: [يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ[وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ]][إبراهيم/48]، روى البيهقي عن عكرمة: "تبدل الأرض مثل الجرة يأكل منها أهل الإسلام حتى يفرغوا من الحساب وإن المؤمنين لا يحسون بالجوع في طول زمان الوقف"، وروى الطبراني عن سعيد بن جبير، قال: "تكون الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه"، قال شيخ الإسلام الذي عليه آية اللغة، أن الياء تدخل على المأخوذ في الإبدال كالتبديل وعلى المتروك في الاستدلال والمتبدل إن لم يذكر مع المتروك والمأخوذ غيرهما في الأربعة، قاله الأجهوري.

والأشهب ضد الأسود، يعني أن أرض المحشر لها شهوبة وبياضها ناصع كبياض قلاع السفن الكائن من الكمرة، وهي نوع من أثواب الكتان صفيف شديد البياض، وإنما شبه أرض الموقف بقلاع السفن الكائن من الكتان الذي يستر به الفلك بلا مجاديف كناية عن شدة الأمر وظهوره، وإن الأمر يجري بغير اختيار ولا كسب، قال عز من قائل: [وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ]][الكهف/47]، أي يذهب بها عن وجه الأرض فتسير هباء منبتا، [وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً]][الكهف/47]أي ظاهرة ليس عليها جبل ولا بناء يحجبها، [وَحَشَرْنَاهُمْ]][الكهف/47]، وقال تعالى: [إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) [الزلزلة/1]، أي حركت لقيام الساعة تحريكها الشديد المناسب لعظمها، وأخرجت الآيات وسبك كلام الناظم من قوله بل معناه إلى هنا تقريره أن روح سيدي ومولانا محمد التي هي أول من خلق الله عمّر بها جميع ما في العالم من السوى وجعلها أصلا لحياة الأرواح (في الدنيا وفي الآخرة، لأن الدوام كالابتداء هي التي عمت بركتها الأرض بما فيها من تراب، وما فوقها من نبات تام وريح مرسل وبحر بما فيه)[2]، وعمت بركتها أيضا السماوات[والأراضين][3] وما في جوفها من سحاب مسخر، وما فوقها من عرش وكرسي وجميع ما يسري إليه ومعه بالأشباح أو بالأرواح، كاللوح والقلم وأصناف الملائكة، وهي التي فاض بحرها أيضا على أرض المحشر وأهله، وعلى ما بعد ذلك من ميزان وصراط ونار وجنة وما فيهما وما بينهما وما قبلهما، فجميع ما في الكون تكون من تكوينه بقدرة من السموات مطوية بيمينه، ولهذا قال مترجمه رحمه الله:

وَرُوحِـي لِـلأَرْوَاحِ رُوحٌ وَكُـلّمـا   تَرَى حُسْنًا فِي الكَوْنِ مِن فَيْضِ طِينَتِي

وسيأتي إن شاء الله في كلام الناظم ما هو أعظم من هذا كله.

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] إضافة في (ب) و(ج).

قوله: "موقف جمع لصواحب الجذب"، يعني أن أرض المحشر هو موقف جميع أصحاب الجذب، ويكونون فيها على منابر وكراسي من نور، ويستظلون تحت ظل عرش الرحمان يوم لا ظل إلا ظله، ومعظم الخلائق حفاتا عراتا في شدة الحر، يخوضون في عرقهم على قدر أعمالهم، إلا من قدم عملا صالحا كأصحاب الصدقات السبع المذكورين في الحديث، فإنهم يستظلون بظل أعمالهم، قال سيدي عبد الله بن أبي حمزة نفعنا الله ببركاته: "وظلال الآخرة ما فيها مباح بل كلها تملكت بالأعمال التي عملها العاملون الذين هداهم الله تعالى، فليس هناك لصعلوك الأعمال ظل".

قلت وكذا الحور والقصور، قال صاحب «الجواهر»: "وهو كما قال قشم عن ساق الجد إن أردت الفوز أيها الأخ والسلام"، والمجذوب: هو المراد المحبوب، قال صاحب «الشعب»: "وأما المحبوب المأخوذ عن نفسه المنعَم بروح أنسه، فهو أعلى وأفخم من المحب"، فالمحب هو السالك المريد، تعريف: حين وقعت بيدي قصيدة "نظم الدار وخطابة الحر" بشرحها طالعتها فصعب علي فهمها حتى تخليت واستخليت وتضرعت لمن يجيب المضطر، فانكشف لي شيء من مكنون علمها، وأولعت بالنظر في كلامها، فنمت ذات ليلة وإذا بي أقول: "المجذوب من اختطف عن حسه وألقي في حضرة أنسه، وحيل بينه وبين نفسه"، فانتهيت وحفظت ما علمت، ورأيت قبلها بقليل كأني مع شقيقي أحمد في مجلس فمازحته بقولي: من حِكَمِ مالك التي لم يُسبق إليها قوله: "لكل شيء وجه"، ومن حكم الشافعي: "لكل مقام مقال"، ومن حكم ابن حنيفة: "إذا ضاق الأمر اتسع"، ومن حكم ابن عينة: "الحديث مضلة إلا للفقهاء"، ومما لم أسبق إليه أنا من الحكم، قولي: "لم يدرك أو لم يبلغ غاية الأمنية من عليه لنفسه بقية"، فاستيقظت وفهمت قولهρ: «يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه»[1] لأن النوم أخو الموت.

فإن قلت طريق الحق والهوى واحدة متحدة ومتعلقها معرفة الله ورسوله والعمل بالكتاب والسنة، ومن أخل بشيء من شروطها فقد أظلها، فما بال بعض المجذوبين تصدر منه أفعال منكرة في ظاهر الشرع، والخوارق وهي تجري على أيديهم، وهو علامة على صدقهم، فاعلم أن حدود الله فوق أطوار العقول ولا سبيل لتعدي الحدود لعاقل، وأما من سقط تمييزه فالأولى التسليم له، ولكن الحد في التسليم أنه إن كان يغيب على الناس الطاعة ونحوها مع سلامة الناس منه في دينهم ودنياهم، وأما أن يخرق الشرائع بفاحشة أو بدعة فلا.

قال الشطيبي: "ولقد كان قضيب البان أمام الموصل، فغلبت عليه الأحوال الجذبية حتى صار لا يألف الخلق ولا يأوي إلى منزله، وإنما يتمعَّك في المزابل ولا يتوقى النجس، وربما بال على ساقيه، فمر به محمد بن مقاتل راكبا على بغلته فرآه على مزبلة قائما وقد بال على ساقيه، فقال في نفسه: تبا لمن قال عنك صدّيقا، فما استتم خاطره حتى رفع إليه رأسه وقال: يا قاضي أحطتَ بعلم الله، قال: لا، قال: وأنا من ذلك العلم الذي لم تحط به أنت، فقال محمد: وأنا أستغفر الله،(وزاد غيره أنه تمثل له في صفة جندي ثم تبول في صفة أعرابي إلى أن قال له: أين هو قضيب البان في هؤلاء الرجال يا قاضي، فتاب ورجع)[2]، قال الشطيبي: وأكثر البدلاء هم الملامتية[3] الذين طويت لهم الأرض وسخر لهم الهواء، فربما ظن أحدهم أنه لا يصلي وهو يصلي بمكة".«شرح المباحث».

---

[1] حديث " يبعث كل عبد.." أخرجه: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2206./ - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج16، ص: 304.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] في بلاد فارس في خراسان على التحديد، ظهر قوم من أهل الطريق الصوفي، كان جل همهم، إصلاح حال نفوسهم بلومها الشديد فسُمُّوا ب "الملامتية"، وتدفّق تيار الملامتية من أحوال صوفية خراسان، خاصة حمدون القصّار، الذي عدّه السلّمي (شيخ أهل الملامتية)، فمنه انتشر مذهب الملامتية في سائر البلدان، وبشكل عام فإن الملامتي هو الذي لا يرى في طاعته لربه

قال الشطنوفي[1]" ذكر قضيب البان عند الشيخ عبد القادر الجيلاني فقال: هو ولي مقرب ذو حال مع الله وقدم صدق عنده، فقيل له إنا ما نراه يصلي، فقال له: إنه يصلي من حيث لا ترونه، ولا يخرج يوم وليلة، وعليه منها فرض أبدا، وإني أراه إذا صلى بالموصل وغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة".

وقال محي الدين بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي: "ومن شرط المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شريعة من ربه وبينة منه، ولا يزن أحواله بميزانه فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن والحقيقة، فيجب التسليم، وكم من رجل أخذ كأس خمر وهو ما شرب إلا عسلا، ومثل هذا كثير، وقد رأينا من يأخذ من روحانيته على صورته ويقيمها في فعل من الأفعال، ويراها الحاضرون على ذلك الفعل فيقولون رأينا فلانا يفعل كذا، وهو عن ذلك الفعل بمعزل، وهذه كانت حال أبي عبد الله الموصلي المعروف بقضيب البان"، وقد عاينا هذا مرارا أشخاص، فأسرار الله في العالم عظيمة لا يدرك غورها، ولكن المتظاهر بهذه الحالة إن عاقبه الحاكم على مقتضى الشريعة، فليس على الحاكم إثم ولا حرج في ذلك من الله تعالى، إلا أن الغالب على من هذه حالته أن يكون له سلطان على الخلق فلا تصل له إذايته فهذا هو الغالب فيهم، ومع هذا فلا تصدر مثل هذه الأحوال إلا من ضعيف، وأما الرجل الكامل فهو الذي يجري مع الخلق بحكم العادة، ولا يظهر عليه شيء مما يذمه الشرع ولا تستنفره العادة".

(وقال سيد الطائفة الجنيد τ: "كنت في بدء أمري أرى في منامي بالليل ما يجري في يقظتي ونهاري فأتصفح ذلك كله حالا بعد حال فأكون مرتقبا لما قد رأيته في منامي، وكنت أحب أن أرى الأبدال وسألت الله تعالى ذلك، فرأيت ليلة كأني جالس على بابنا إذ مر ثلاثة نفر عليهم ثياب خلقان وزي رث دنس وعليهم ظاهر بلوى، فوقع في قلبي أنهم الأبدال، فقمت واتبعتهم حتى جاءوا إلى مسجد فدخلوه، ودخلت معهم فلما رأوني انتفضوا فإذا زيهم أحسن زي، وأبدانهم كأحسن الإحسان وخلقهم كأحسن الخلق، فقلت: ما هذا، فقالوا هذا خلقنا وزيّنا وحالنا، فقلت لهم: فما بال الحال الأول، فقالوا: ذلك شيء يسترنا الله تعالى به عن الخلق، ثم قالوا لي: يجزيك، فقلت: نعم ثم انتفضوا فعادوا إلى صورهم التي كانت أولا، ثم خرجوا من المسجد يمشون حتى جاؤوا إلى دكان، بقال فيها قصب وحطب، فتناول أحدهم من القصب قصبة فصارت في يده حطب، وتناول من الحطب فصار في يديه قصبا ثم قالوا يجزيك، فقلت: أجزاني، ثم مضوا فانتهيت فلما أصبحت جلست على بابنا أنتظر ما رأيت في ليلتي فإذا الثلاثة بأعيانهم دخلوا المسجد، فدخلت خلفهم، فكان منهم مثل ما رأيت ثم خرجوا من المسجد واتبعتهم حتى جاؤوا إلى دكان البقال، فكان مثل ما رأيت أيضا فلما أرادوا أن يفارقوني، قلت لهم: من ببغداد من الأبدال، فقالوا: فلان وفلان لقوم أعرفهم فكأني أرزيت على واحد منهم بقلبي، فقلت لهم: فلان من الأبدال، قالوا: نعم من أهل الأنس بالله تعالى، قال الراوي: فما زال الجنيد يقول هم ثلاثة فيسأل عنهم فلا يخبر، ولكن يقول قد مات منهم وبقي منهم وما

مدخلا للعجب بالنفس، ولا يرى لنفسه أي فضل، بل نراهم يبالغون في تحقير نفوسهم أشد المبالغة، فكان منهم من يفعل الأفعال المنكرة كي يستهجنه معاصروه فيزداد إذلالا لنفسه. ينظر: يوسف زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص: 47، 48.

– ونسبوا (الملامتية) إلى الملامة لأنهم يظهرون ما يلامون عليه تستّرا لأنفسهم وطلبا للإخلاص. ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي "مرجع سابق" ص: 131.

[1] هو الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن جرير اللخمي الشطنوفي(نسبة إلى قرية شطنوفة بمصر) شيخ القرّاء بالديار المصرية، توفي سنة713هـ، ألّف أشهر موسوعة في كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو كتاب" بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني سيدي محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني" ينظر: يوسف زيدان، المتواليات، دراسات في التصوف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1998، ص: 66.

زال يقول قد بقي واحد إلى أن مات وكنا نرى الذي أزرى عليه نفسه والله أعلم". من «مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار».)[1]

(قلت: ورأيت أنا هذا الشيخ أعني الناظم[2] بعد وفاته في النوم كأنه في زي قاضي وجلسَتُه كأحسن ما ترى، ومرة أخرى بعد وفاته أيضا رأيت روحانيته في الهواء على صورته الدنياوية حسا وأنا في مجلس البخاري[3]، فنهاني عن بث فهم أردت أن أبوح به في ذلك المجلس، فامتثلت أمره رضي الله عنه ونفعنا به وبأمثاله، فهذا دليل على صدقه في جوفه وقوة حاله مع ربه، إذ من خصاله يتصرف بعد وفاته كما كان في حياته وما ذلك على الله بعزيز، وستأتي مستوفاة.)[4]

وإنما خص الناظم أهل الجذب وعرف أرض الساحرة بوقوفهم عليها مع اشتراكهم مع الغير في الوقوف لقوله تعالى: [وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً][الكهف/47]، تفخيما لأمرهم وتعظيما لقدرهم، ولذلك كان حبيب العجمي يقول: " لا قرت عين من لم تقر عينه بك، ولافرح من لم يفرح بك، وعزتك أنك تعلم أني أحبك، فرآه بعد موته فقيل له: ما حالك، فقال: هيهات، ذهبت العجمة وبقيت في النعمة"، ولذلك قال: "يزدادوا فيها تكبرا" أي فخرا بسيدهم ومولاهم الذي جذبهم وأولاهم وأنشدهم: تاهواوبالحق تاهوا ما تاهوا والعبد يزهو على مقدار مولاه، عبد الأمير سيد الأحرار، من ذلك قول إمام العاشقين وزين المجذوبين سيد عمر بن الفارض في "نظم الدر" مخاطبا لأمثاله:

فَطِبْ بِالهَوَى نَفْسًا فَقَدْ سُدَّت أَنْفُــسُ ... العِبَادِ مِن العُبَّادِ في كُلِّ(مِلَّــــةِ)[7]

وفُزْ بِالعُلَى وافْخُرْ عَلَى نَاسِكٍ عَـــــلَا ... بِظَاهِرِ أَعْمَالٍ ونَفْسٍ تزَكَّــــــتِ

وجُزْ مُثْقَلًا أَوْ خَفّ طَفّ مُوكَّـــــلًا ... بِمَنْقُولِ أَحْكَامٍ ومَعْقُولِ حِكْمَــــــةِ

وَحُزْ بالوَلَا مِيرَاثَ أَرْفَع عَــــارِفٍ ... غَدَا هَمُّهُ إيثَارَ تَأْثِير هِمَّـــــــةِ

وتِهْ سَاحِبًا بالسُّحُب أَذْيَالَ عَاشِــــقٍ ... بِحُبٍّ[8] عَلَى أَعْلَى المَجَرَّة جُـــــرَّتِ

وَأَوْصَافُ مَا تُعْزَى إِلَيهِ كَم اصْطَفَـــت ... مِن النَّاسِ مَنْسِيًّا وَأَسْمَاهُ أَسْمَــــتِ

فَغَايَةُ مَجْذُوبِي إِلَيهَا وَمُنْتَـــــــهَى ... مُرَادِيه مَا أَسْلَفَتْهُ قَبْلَ تَوْبَــــتِي

ولَا غَرْوَ إِنْ سُدَّتِ الأُولَى[5] سَبَقُوا وقَــــدْ ... تَمَسَّكتُ مِن طَهَ بِأَوْثَقِ عُــــــرْوَةِ

عَلَيْهَا مجَازِي سَلَامِي لأنَّ مَـــــا[6] ... حَقِيقَتُهُ مِنِّي إليَّ تَحِيَّــــــتِي

---

[1] الكلام من (وقال سيد الطائفة الجنيد τ –إلى– من «مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار»)ساقط في (ب) و(ج).

[2] أي أن المؤلف محمد بن سليمان رأى شيخه الناظم موسى بن علي اللَّالتي.

[3] أي في مجلس إقراء صحيح البخاري.

[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[5] في المصدر: الأُلَى، ينظر المصدر نفسه، ص: 55.

[6] في المصدر: فإنَّمَا، ينظر المصدر نفسه، ص: 55.

[7] في المصدر: أمَّةٍ، ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان ابن الفارض، ص: 52.

[8] في المصدر: بِوَصْلٍ، ينظر المصدر نفسه، ص: 53.

قوله: "يزدادوا فيها تكبرا"، أي يصيرهم الله كبراء عظماء على من سواهم[1] بما يتحفهم به جزاء على تواضعهم وخضوعهم في دار الدنيا (لقوله ρ: «من تواضع رفعه الله ومن تكبّر وضعه الله»[2]، ولا يفهم من كلامه الكبر المذموم)[3]، بل هذا مثل قولهυ: «المؤذنون أطول أعناقا يوم القيامة»[4]، فيحتمل الطول الحسي، ويكون معناه أنه حين يغضب الرب جل جلاله غضبا لم يغضب قبله ولا بعده مثله، ويتجلى (لعصاة)[5] عباده بصفات القهر فيخرون جثاة على ركبهم من شدة الغرق، ويبقى المؤذنون رافعون رؤوسهم دلالة على من كانوا يعلنون له بالكبرياء والوحدانية[6]، وانتظار الوعد الصادق ورغبة بما عنده، ويحتمل الطول المعنوي أي لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، لأنهم لا خيانة عليهم ولا دين في ذمتهم، ولا مظلمة لأحد قبلهم، ولا ظلم ذلك اليوم، فهم يقفون آمنين غير مختفين، كقولهم: "فالكريم يمشي ورقبته طويلة ويتكلم ورأسه عريان"، لأنه يطول رقبة من ينتمي إليه ولا عليه من أحد، وحق لساداتنا أهل الجذب الافتخار، وتطمح لهم الأبصار.

وأيضا فإن أهل الموقف فريقان، إنسان وجان حفت بهم ملائكة الرحمان من كل سماء صفا حتى تكمل سبع حلق، فيقال: [يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالْإِنسِ][الرحمن/33]، وفي المطيعين سالك فقط ومجذوب فقط، وسالك مجذوب، ومجذوب، سالك، فالأولان لا جزاء لهما لأن نفعهما قاصر عليهما، والأخيران نفعهما عام في الهداية وخيار الخلق هداتهم، والرابع خلاصة الثالث لأنه في سلوكه على بينة من ربه، الله يجتبي إليه من يشاء وهو مقام خلاصته الوجود ذو المقام المحمود في قوله عز من قائل: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ][الشرح/1]، كناية عن الجذبة التي توازي عمل الثقلين [وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ][الشرح/2]، عبارة عن خلع الأوصاف البشرية، حال السلوك بعد الجذب، فالكمال لازم لتلازمهما، وهذا من أحسن الكلام في مناسبته الموازنة بين البدء والاختتام لمن تعرف أسرار ذلك والسلام، لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها، ثم قال رحمه الله:

---

[1] في (ب) و(ج): فخرا بسيدهم و مولاهم الذي جذبهم إليه.

[2] الحديث أخرجه:- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، ص: 325./- أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج7، ص: 237.

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] الحديث أخرجه: - مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 290./ - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج4، ص: 555.

[5] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[6] في (ب) و(ج): دلالة على ربهم.

الوَاحَدْ مِن ذَلِكْ العُشَّـــاقْ يَعْدَلْ مَا سِوَاهْ مِن جِنْـــسْ
كُلْ رَجُل لُو نُور وإِشْــــرَاق مِنْ نُورْ أَحْمَدْ ذَاكْ القَبَـــسْ
يَكْشَفْ لُو عَنْ ذَاتْ لَمْ تُطَـــاقْ أَنْ تَكْشَفْهَا آلَافْ شَمَــــسْ
نُورْ لَيْسَ مُوقَدْ لَهَـــــبْ لَا شَمْسْ الضْيَا لَاقَمْــــرَا
بَلْ هُوَ شَيْ رَائَقْ عَـــــذْبَ يَعْقَلْ بِهْ العَقْلْ مَاسْـــــرَا
سِرّ سِرّ سَرَّهْ المِسْـــــرُورْ مَنْ سَرْنِي سِرْ ســـــرّه
نُورْ نُورْ نُورْ كُل نُـــــورْ لَوَلَاه لَا نُورْ لَـــــوْلَاهْ
شُورِي شُورِى كُلْ شُـــــورْ حَقَّقْ يَا مَغْرُورْ مَعْنَـــــاهْ
تِلْكَ المعَانِي مَا لهَا حْسَـــــبْ دُونْ أَثَرْ أَتَتْ فَاطْمَه الزَّهْــــرَا
ولَا وَيْسْ ومَنْ لهَــــا أَبْ سِتْ عَيْشَ الطَّاهْر المِطهــــرا

يعني أن واحد من أهل الجذب والعشق المذكورين، وهم أهل التوحيد ومقامات الاتحاد، يعدل بل يغلب جماعة كثيرة متظاهرة عليه، ممن يزعم أنه في الجنسية والعلوم سواه، وإنما هو في أخصها سواه،قال ρ:«لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، وإنما فظلكم بشيء وقر في صدره»[1]، وقال ρ: «ما صبّ الله تعالى في صدري شيئا إلا وصببته في صدر أبي بكر»[2]، ولذلك قال: «لو وزن إيمان أبي بكر مع إيمان هذه الأمة لرجح بها»[3]، فهو إذا إمام المجذوبين ونخبة العاشقين، لأنه اقتبس نور مصباحه من السراج الأحمدي بلا واسطة في الظاهر والباطن، ويليه من يليه في الرتبة والمحبة كعمر إلى هلم جرا. قال تعالى: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ[إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]][الأنعام/165]، لا لكمال زائد في الفاضل، ولا النقص في الفضول، وإنما ذلك بمحض الاجتباء، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل، وقد ورد: "أن أبا بكر يوزن بجسده فيرجح بجميع الأمة، ثم عمر كذلك فيرجح بمن سواه ثم يرفع الميزان". أخرجه في «أنس الجليس».

عن[كذا] يرفعه، قال υ: «رأيت في المنام كأني في الجنة»[4]، وذكر الحديث ρ: «لو لبثت فيكم ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما أذكر لكم مناقب عمر ما وفيتها»[5]، وإنها لحسنة من حسنات أبي بكر، فناهيك بهذا شرفا وفخرا، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا.

---

[1] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 144.

[2] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي،كشف الخفاء، ج2، ص: 565.

[3] الحديث أورده أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج3، ص: 377.

[4] الحديث أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 620.

[5] لم نعثر عليه.

ولا يقال أن الناظم لم يقصد بأهل الجذب خيار الصحب، وإنما قصده أهل المكن من الأولياء، لأنا نقول هم أول سلسلة الأولياء وأولهم بالمنزلة العليا، ولدفع هذا التوهم صرح بمراده في قوله تلك المعنى: "ما لها حسب — إلى قوله — وأين هم تباعهم أثر"، فتدبر وتذكر، فإن "تفكر ساعة خير من عبادة شهر"[1]، وقد صرح زبدة العارفين وسلوة العاشقين سيدي عمر بن الفارض في "خطابة الحر" بما صرح به هذا الغريب في زمانه المهجورين أقرانه، حيث يقول فيها:

وجُلْ في فُنُونْ الاتِّحَادْ ولَا تَحِـــدْ ... إلَى فِئَة في غَيْرِه العُمْرَ أفْنَـــتِ

فَوَاحَدُهُ الجَمُّ الغَفِيرُ ومَنْ غَـــدَاهُ ... شِرْذِمَة حُجَّتْ بأبْلَغِ حُجَّـــةِ

فَمُتْ بمَعْنَاهُ وعِشْ فِيهْ أو فَمُـــتْ ... مُعَنَّاهُ، واتْبَعْ أَمّةً فِيهِ أَمَّـــتِ

فأنْتَ بهذا المجدِ أَجْدَرُ مِن أخـــي ... اجتَهَادٍ، مُجِدٍّ عَن رَجَاءٍ وخِيفَـــة

وغَيـــرُ عَجِيـــبٍ هَـــزُّ عِطْفَيـــكَ دُونَـــــــهُ ... بِـــأَهْـــنَى وأَنْـــهَى لَـــــذَّة ومســــــــرَّةِ[2]

قال شارحها: "لأن واحدا من أهل الاتحاد كالحلاج وأكبر منه، بمنزلة جماعة كثيرة متظاهرين سائرين باجتماعهم، وتظاهرهم أحكام من يخالفهم، لأن قوله وخبره موجب للعلم اليقيني، لأن مبنى أمره على الصدق، وخبره لا يكون إلا عن شهود محقق لا يتطرق إليه الغلط والشبهة، كما يتطرق ذلك على إدراك الحواس الظاهرة والنظر العقلي، وغير أهل العشق والاتحاد، وإن كانوا في العدد في غاية الكثرة، لكن مداركهم ومدركاتهم مشوبة بالشبهات والسهو والغلط، فإذا خالفوا أهل الاتحاد بالإخبار بالأمور الحسية والعقلية غلبوا بالكشف والنص الصريح.

ورأيت أن نورد إتمام بعض الدرر مُرتَّبًا، كما أمرنا ناظمه بالجولان فيه والتقرب بمعناه، فإن الأرواح تنزع لمعادنها، فنقول:

[1] الحديث أخرجه: – أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، ج7، ص: 190./– أبو بكر أحمد بن الحسين البهقي، شعي الإيمان، ج1، ص:136.

[2] في (ب) و(ج) ذكر البيت الثاني فقط من هذا النص الشعري.

وأَطْيَبُ مَا فِيهَا وَجَدْتُ بمُبْتَدَا   غَرَامِي وقَد أَبْدَى بِهَا كُلَّ نَذْرَةِ
ظُهُورِي، وقَدْ أَخْفَيْتُ حَالِي مُنْشِدًا   بِهَا طَرَبًا والحَالُ غَيْرُ خَفِيَّةِ
بَدَتْ، فَرَأَيْتُ الحَزْمَ فِي نَقْضِ تَوْبَتِي   وقَامَ بِهَا عِنْدَ النُّهَى عُذْرُ مِحْنَتِي
فَمِنْهَا أَمَانِي مِن ضَنَى جَسَدِي بِهَا   أَمَانِيُّ آمَالٍ سَخَتْ ثُمَّ شَحَّتِ
وفِيهَا تَلَافِي الجِسْمِ، بالسُّقْمِ صِحَّةٌ   نعَم[1] وتَلَاف النَّفْسِ نَفْسُ الفُتُوَّةِ
ومَوتِي بِهَا، وَجْدًا، حَيَاةٌ هَنِيئَةٌ   وإنْ لم أَمُتْ بالحُبِّ عِشْتُ بِغُصَّةٍ
فَيَا مُهْجَتِي ذُوبِي جَوًى وصَبَابَةً   ويَا لَوعَتِي كوني، كَذَاكَ مُذِيبَتِي
ويَا نَارَ أحشَائي أَقِيمي منَ الجَوَى   حَنَايا ضُلُوعي، فَهْيَ غَيرُ قَوِيمَةِ
ويَا حُسنَ صَبْرِي، فِي رِضَى مَن أُحِبُّهَا   تجَمّل، وكُن للدَّهرِ بي غيرَ مُشمِتِ
ويَا جَلَدِي، فِي جَنبِ طَاعَةِ حُبِّهَا   تحَمّلْ عَدَاكَ الكَلُّ كُلَّ عَظِيمةِ
ويَا جَسدي المضني تَسَلّ عَن الشّفا   ويَا كَبِدي مَن لي بأن تَتَفَتّتي
ويَا سَقَمي لا تُبقِ لي رَمَقًا، فَقَدْ   أبَيْتُ لِبُقيا العِزّ ذُلّ البَقِيَّةِ
ويا صِحَّتــي، مَــا كَــانَ مِــن صُحْبَتِــي انقضَــى   ووصلُكِ في الأحشَاء مَيتًا كهِجْرَةِ
ويَا كلّ مَا أبقى الضّنى مِنّيَ ارْتحِلْ   فمالكَ مأوًى في عِظامٍ رَميمَةِ
ويا ما عسَى منّي أنادِي[1] تَوَهّمًا   بيَاء النِّدا، أُو نِستُ منكَ بوَحشَةِ
فكلُّ الذي تَرضَاهُ، والموتُ دونَهُ   أنَا بِه راضٍ والصبابةُ أرضَتِ[1]
ونَفسِي لم تجزَع بإتلافِها أسًى   لَوْ جَزِعَت كانتْ بغيرِيي تأسَّتِ
وفي كُلّ حَيٍّ كل حَيٍّ كَمَيِّتٍ   بِهَا، عنده قَتلُ الهوَى خيرُ ميتَةِ[1]
تجمعت الأهواء فيها فما ترى   بها غَيرَ صَبٍّ لا يرَى غير صَبوَةِ
إذا سَفَرَتْ في يَومِ عِيدٍ تزاحمَتْ   على حُسنِها أبصارُ كلّ قبيلَةِ
فَأَرواحُهُم تَصْبُوا لمعْنَى جَمالهَا   وأحداقُهُم من حُسنِها في حَديقةِ
وعِندِيَ عِيدِي كُلَّ يوم أرى به   جَمَالَ مُحَيَّاهَا بِعينٍ قريرَةِ
وكُلَّ اللّيَالِي ليلةُ القَدْرِ، إنْ دَنَتْ   كَمَا كلّ أيّامِ اللّقا يومُ جُمعةِ
وسَعيي لها حَجٌّ، بِهِ كُلّ وَقفَةٍ   على بابها قد عادَلَتْ كلّ وَقْفَةِ
وأيّ بِلَادِ الله حَلّتْ بها، فَمَا   أراهَا، وفي عيني حَلَتْ غيرَ مَكّةِ
وأيّ مكانٍ ضَمَّها حَرَمٌ، كذا   أرى كلّ دارٍ أوْطَنَتْ دَارَ هِجْرَةِ

---

[1] في المصدر: أُناجِي، ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان ابن الفارض، ص: 56 .
[1] في المصدر: لهُ، ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان ابن الفارض، ص: 55.
[1] في المصدر: وكُلُّ الذي ترضاه...دونهُ // به أنا راض..، ينظر: المصدر نفسه، ص:56.
[1] في المصدر: موتةِ، ينظر: المصدر نفسه، ص: 56.

وَمَا سَكَنَتْهُ فهُوَ بَيتٌ مُقَدَّسٌ … بِقُرَّةِ عَيني فيهِ أَحْشَايَ قَرَّتِ

ومَسجِدِي الأقصَى مسَاجِبُ بُردِهَا … وطيبي ثَرى أرضٍ، عليها تمشَّتِ

مَواطِنُ أفراحي، ومَرْبَى مآربي … وأطوارُ أوطاري ومأمنُ خِيفتي

مَغَانٍ، بها لم يَدخُلِ الدّهرُ بيننا … ولا كَادَنا صرْفُ الزَّمانِ بفُرْقَةِ

ولَا سَعَتِ الأيَّامُ في شَتِّ شَملِنا … ولا حَكَمَتْ فينَا اللَّيَالي بجَفْوَةِ

ولا صَبَّحَتْ[1] النَّائبَاتُ بِنَبْوَةِ … ولا حَدَّثَتْنَا الحَادثَاتُ بنكبَةِ

ولا شَنّعَ الواشِي بِصَدٍّ وجفوة[2] … ولا أرجَفَ اللاحي ببَينٍ وسلْوَةِ

ولا استَيقَظَتْ عَينُ الرَّقيبِ ولا تزَل … عليّ لها، في الحُبِّ عيني رقيبتي

ولا اختُصّ وقتٌ دونَ وقتٍ بطَيبةٍ … بهَا كلّ أوقَاتي مواسِمُ لَذَّةِ

نَهَارِي أصيلٌ كُلّهُ إن تَنَسَّمَتْ … أوَائِلُهُ مِنها برَدّ تحيَّتي

كمل بحمد الله ما وقفت عليه مشروحا.

[1] في المصدر: ولا صَبَّحَتْنَا، ينظر: عمر فاروق الطباع، ديوان ابن الفارض، ص: 57.

[2] في المصدر: وهجرَةٍ، ينظر المصدر نفسه، ص: 57.

قوله: "كل رجل له نور وإشراق"، يعني أن كل واحد من أهل الجذب العاشقين نور، وإشراقه على قدر اليقين، قال في «الحكم»: "مطالع الأنوار القلوب والأسرار"[1]، قال ابن عباد رحمه الله: "الأنوار نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد ومطالعها وموضوع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم، ولابن عطاء الله:

طَلَعَت شمسُ مَن أُحِبُّ بليــــلٍ فاستضَاءَت فَلَم يَشِنْهَا غُـــرُوبُ
إنَّ شمسَ النهَار تَغْرُبُ باللَّيـــــلِ وشمسُ القُلُوبِ ليسَت تَغِيــــبُ

قال تعالى: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[2]، قال أبو العباس المرسي τ: "لو كشف عن حقيقة الولي لَعُبِدَ، لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته"، قال في "الحكم": "نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به عن أوصافه، وأنشد أيضا:

هـــذه الشَّمسُ قَابَلَتـــنَا بِنُـــورٍ وشمسُ اليَقِيـــنِ أبْهَر نُـــورَا
فرأينَـــا بهذِهِ النُّـــور ولَكِـــن بِهَا تَيك قَـــد رأينَا المنِيـــرَا

قال صاحب «الشعب»: ويقال أن الأرواح الزكية حياتها في التجلي والاستتار لأنها حدثت عن معاني أوصاف الربوبية، فهي ألطف الموجودات وأشرفها، فهي تشتاق وتنزع إلى معادنها التي عنها صدرت، لأنها في أجسادها في الدنيا كالغريب عن وطنه، قلبه معلق بالموطن حتى يرجع إليه، وكذا ورد في الحديث: «لا راحة لمؤمن دون لقاء ربه»[3]، في الدنيا بالمعرفة، وفي الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم، ومن أجل هذا ترى المحب يتقلب في مقامات التوحيد، من الغيبة والحضور والفناء والبقاء وغيرها، وحاله القلق والحزن والحنين والأنين والتأوه ولزوم الباب، وفي معناه قيل:

وما في الأرض أشقَـــى مِن مُحِـــبٍّ وإنَّ وَجْـدَ الهَوَى حُلـــو المَـــذَاقِ
تَراه باكيًـــا في كـــــلِّ حَـــالٍ مخافَةَ فُرقَـــــــةٍ أو لاشتِيَـــاقِ

فإذا تجلى لهم عاشوا وإذا استترهم عنه طاشوا، لأن محبوبهم شيء عظيم لا يصبر عنه، وأما المحبوب المأخوذ عن نفسه، المنعم بروح نسيم أُنسه المغيب وراء الحجب والأستار المكشوف له عن الغيب والأسرار، فهو أعلى وأفخم من المحب ولذلك أطلع الله خليله إبراهيم على الأسرار في قوله تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ][الأنعام/75]، وبعد هذا الحبيب وهو مقام محمد υ، ويعطي كل من أهَّل له على مقدار ما قسم له منه كان نبيا أو وليا، والكل من الثلاث لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، فطوبى لهم وهنيئا.

ومقام الحب متولد عن رؤية العقل والعلم لأن الله لا يُرى بالبصر في الدنيا، ولا حبه من نوع حب المشتهيات الحسية؛ وإنما حبه روحاني عقلي وإيماني يقيني، فجماله لا يشبه الجمال، وكماله ليس مثله كمال، فكل من سمع به أحبه، فكيف بمن رآه وعرفه، فلا يزال المحب ينقاد بذل المحب ويعرج بترفيع الرب، من تواضع لله بذل الحب رفعه الله بعز

[1] في المصدر: "الأنوَار مطايا القلوب والأسرار" ينظر: ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عبّاد النفري الرندي،دراسة: محمد عبد المقصود هيكل (م سابق) ص: 55.
[2] الحديث أخرجه: – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج2، ص: 496./ – علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1، ص: 164.
[3] اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 225.

القرب، ويزداد بكشف الحجب، ويشرب في حياض الحب، فيجد طعم الفرات العذب فسكران وصاح ومثبت وماح وفان عن نفسه وفان عن غيبه بأنسه، وأحوالهم كثيرة لا تحصى، وأسرارهم خفية لا تستقصى، إلا أن كلهم ملك محبور فرح مسرور، نعيمهم بمحبوبهم أعلى من نعيم الجنة وعطاؤهم من بحر صفاء المنة والمحب متقرب طائر يرفرف الشوق، والمحبوب مقرب ساكن متمكن مستأنس بالحق والحبيب محبب متسع ظهراني الخلق لا يوحشه كونهم ولا يؤنسه فقدهم، وكلهم حبيب ومحبوب ومحب إلا أنهم درجات متفاضلة، والكل لم تبق لهم حاجة من الحاجات إلا المزيد من تجلي الصفات الغائبات.

والرب لا يتجلى بنوع واحد من التجلي بل مرة يتجلى بصفة الجمال، ومرة بشرف الكمال، و مرة برفعة التعالي، ومرة بسعة الرحمة، [ومرة بالعطف والمنّة ومرة بالعفو والحنان ومرة بالجود والإحسان ومرة بجمال العدل][1] ومرة بصفة الفضل، ومرة بصفة الغيرة، ومرة بصفة الكبرياء والعزة، وهكذا يتجلى بمعاني أسماء لا تحصى، وهم يتلونون في معاني أسمائه الحسنى، فلكل معنى منها حب وذوق كريم عذب، وكل معنى في نفسه لا يتناهى، والمعاني في سعة الكثرة لا تتناهى، فحبهم يتزايد أبدا والتجلي لا ينقطع سرمدا".

[فيما يتعلق بقبس الأولياء من نور خاتم الأنبياء:]

قوله: "من نور أحمد ذلك القبس"، يعنى أنه هذا الرجل العاشق المجذوب إنما اقتبس نور جذبه وعشقه من نور أحمد نبيه، كما أنه خلق من نوره، والديلي على أنه ρ نور منّور قوله υ: «إن الله خلقني من نوره وخلق المؤمنين من نوري»[2]، وقوله تعالى: [قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ][المائدة/15]، وقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً][الأحزاب/45،46].

أخرج أبو بكر بن الخطيب عن ابن عباس، أن النبي ρ قال: "أنزلت الآية عليّ [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً]، قال: شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة ونذير من النار، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجا منير بالقرآن"، من «الجوهر الحسان». وقال سيدي عبد الرحمن بن مخلوف: "هذه الآية فيها تأنيس للنبي ρ والمؤمنين وتكريما لجميعيهم"، وقال ابن عطية: "قال لنا أبي رحمه الله هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله عز وجل.

وقال الشيخ السنوسي: "ومن نتائج ثمرة منزلة الطمأنينة من مقام الإيمان الفرق، وهو باكورة طرق أهل التحقيق يلمع فيؤذن بالعثور على مبادئ حضرة التخصيص، ويجري دواعي الطرب ويبشر السر بالسرور وكيف وقد لاح من جانب طور اللطف نار الوصل، وفتحت باب درك الآمال، وذلك ينفي عن النفس خبث العادة، ويطهرها من قذر الهوى ويولجها في أرض الإسعاد"، من«روض المحاسن» له.[3]

فإن قلت: ما وجه تعميم الناظم في الرجال المقتبسين وتخصيصه في المقتبس منه ويقصر الأمر عليه، وهل كان كل رجل يقتبس من شيخه وشيخه من أستاذه، وهكذا إلى التابعي والتابعي من الصحابي والصحابي من النبي ρ ،

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).

[2] الحديث أورده أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج1، ص:171.

[3] إضافة في (ب) و(ج).

فالجواب: لتعلم أن بحر النبيρ العلم النوري سال منه واديان [من العلم] أحدهما منقول والآخر معقول، فالأول مكسوب بالأسباب والثاني عطية من الوهاب، الأول يفتقر إلى الوسائط، وذلك سنته، والثاني لا يحتاج إلى الوسائط وهو حقيقته، فعلماء الصحابة رضوان الله عليهم ورثوا كلا العلمين من نبيهم بلا واسطة، ومن بعدهم ورثوا العلوم الظاهرة الشرعية من الوسائط بمقتضى قوله ρ: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»، وقوله: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1]،وقوله:«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي فعضوا عليها بالنواجد»[2]، وورثوا العلوم الباطنة (الحقيقية)[3] منه عليه الصلاة والسلام بلا واسطة، وإنما ذلك بمدد إلاهي يُفيضه (من غيبه)[4] على من اختصه بقربه على يد رسوله نوما أو يقظة بالإلهام والفراسة والمكاشفة، ولذلك وصف الناظم هذا النور المقتبس بكونه يكشف للمفاض عليه عن ذات مفيضه وصفاته التي لا تطيق أن تكشفها شموس الصحابة ولا أقمار التابعين ولا نجوم العارفين، ولا يكشفها إلا نور السراج المبين، فغير النبي في هذا العلم اللدني الاختصاصي الجذبي عقيم لا نتيجة له فيه[5]، ويقتبس من قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ][الجمعة/ 2-3] تحقيق الجواب، لأن تلاوة الآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة كان للصحابة مباشرة؛ وأما التابعون المعنيون بقوله تعالى: [وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْوَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ][الجمعة/3]، فلم تصل التلاوة وتعليم الكتاب المتلو إلا بواسطة الصحابة، وأما التزكية والحكمة فمن نبيهم المبعوث فيهم بالحكمة أيضا، ويبقى الأخير للأخير مباشرة إلى يوم القيامة.

(ويشهد لهذا الاقتباس قول علي بن أبي طالب لما أن قيل له: "هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟، فقال: لا والذي فلق الحبة وبر النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة"، فافهم معنى الفهم العقلي المندرج باطنه في الوحي النقلي[كذا]النخلة في النواة والحبة في النبات، فلهذا أقسم الإمام علي لهذا المعنى، والله أعلم".)[6]

زيادة بيان: قال الإمام فخر الدين في قوله تعالى: [وَسِرَاجاً مُّنِيراً]، إنما شبهه υ بالسراج ولم يشبهه بالشمس مع كونها أشد إضاءة منه لفوائد منها: أن الشمس لا يؤخذ من نورها شيء، والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة، إذا انطفئ الأول فيبقى الذي أخذ عنه، وكذلك إن غاب النبي ρ كان أصحابه كذلك كل واحد منهم يؤخذ منه نور الهداية، كما قال: "أصحابي كالنجوم"، قال وفي لطيفة وهي: "أن النبي ρ لم يجعل أصحابه كالسراج وجعلهم كالنجوم، لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور، إذا غاب هو لا يبقى نور يستفاد منه، وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي ρ ولا يأخذ منه إلا قول النبيρ وفعله، فأنوار المجتهدين كلهم من نورالنبيρ ، ولو جعلهم في السراج والنبي υ سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم، ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك، فإن من نص النبيρ لا

[1] الحديث أورده محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، ج3، ص: 62.
[2] الحديث أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 174.
[3] ساقط في (ب) و(ج).
[4] ساقط في (ب) و(ج).
[5] في (ب) و(ج): لا نسل له فيه.
[6] النص ساقط في (ب) و(ج).

يعمل بقول الصحابي، فيؤخذ من النبي ρ النور ولا يأخذ من الصحابي، فلذا لم يجعله سراجا"، من «شرح مختصر خليل»، لتقي الدين بن الأزرق الأندلسي.

تنبيه[1]: قال محي الدين محمد بن العربي: "السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين: طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبها معلما بالطريق الموصلة إل جناب الحق، فإذا أعطى العلم بذلك زال الطريق وخلى بينهم وبين الله، فهؤلاء إذا سارعوا لأمر سابقوا إلى الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق، والطائفة الأخرى جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلّا والرسول هو الواجب، فلا يشهدون أمر الأول وأقدم الرسول بين أيديهم، والحالة الأولى هي حالة عبد القادر الجيلي وتلميذه أبي السعود بن شبل ورابعة العدوية، ومن جرى مجراهم"، قال العبد الفقير: "وإذًا في نظري القصير إلى اغتباط المذهب الأخير كما ذكر غير واحد عن البشير النذير".

وقال صاحب كتاب «السلوك» ويسمى «رسالة الأنوار في الدخول في طريق الملك الجبار»: "اعلم أن كل ولي لله فإنه يأخذ بوساطة روحانية نبيه الذي هو على شريعته ومن ذلك المقام يشهد، فمنهم من يعرف ذلك ومنهم لا يعرفه ويقول: قال لي الله وليس غير تلك الروحانية، وهنا أسرار لطيفة تضيق هذه الأوراق لما أردناه من التقرب والاختصار غير أن الأولياء من أمة محمد ρ قد تطلع على مقامات الأنبياء عليهم السلام، وقد يرث الواحد منهم من موسى ولكن من النور المحمدي لا من الموسوي، فيكون حاله من محمد ρ ، حال موسى υ فيتخيل العامي ومن لا معرفة له أنه قد تهود أو تنصر لكونه يذكر هؤلاء الأنبياء عند موته، وإنما ذاك من قوة معرفته بمقامه والاتصاف به إلّا القطب فإنه على قلب محمد ρ ، وقد لقينا رجلا على قلب عيسى ورجالا على قلب موسى وآخرين على قلب إبراهيم، وغيرهم عليهم السلام، ولا يعرف ما نذكره إلا أصحابنا، واعلم أن محمد ρ هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح حتى بعث بجسمه فتبعناه والتحق نبيًّا من الأنبياء في الحكم من مشاهدة أو ينزل بعده، والأنبياء والأولياء الذين سلفوا يأخذون من أنبيائهم، وهم يأخذون من محمد ρ ، فشاركَت الأولياء المحمّديون الأنبياء في الأخذ عنه ولهذا ورد: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[2]، وقال الله تعالى: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ][البقرة/143]، وقال في حق الرسل: [وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ][النحل/89]، فاصرف الهمة في الخلوة للوراثة الكلية المحمدية.

وقال قبله: "واعلم أن النبوة والولاية تشتركان في ثلاثة أشياء، الواحد في العلم من غير تعلم، الثاني في الفعل بالهمة فيما جرت العادة ألا يفعل إلا بالجسم أو بما لا قدرة للجسم، والثالثة في رؤية عالم الخيال في عالم الحس، ويفترقان بمجرد الخطاب، فإن مخاطبة الولي غير مخاطبة النبي ولا تتوهم أن معارج الأولياء على معارج الأنبياء، ليس الأمر كذلك، لأن المعارج تقتضي أمورا لو اشتركا فيها بحكم المعراج عليها لكان للولي ما للنبي، وليس الأمر على هذا عندنا وإن اجتمعا في الأصول وهي المقامات، لكن معارج الأنبياء بالنور الأصلي، ومعارج الأولياء بما يقتضي النور الأصلي وإن جمعهما مقام التوكل فليست الوجوه متحدة، والفضل ليس في المقام وإنما هو في الوجوه والوجوه راجعة إلى

[1] التنبيه ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه: – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 384./ – علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1، ص: 123.

المتوكلين، وهذا في كل حال ومقام من فناء وبقاء و جمع وفرق واصطلاح وانزعاج وغير ذلك"، (ولم أقف على اسم مؤلفه)[1].قال رسول الله ρ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[2]، وقال زين العابدين الخوارزمي τ: "وليعلم المريد أن استمداده من شيخه هو استمداده من النبي ρ ، لأنه نائبه وهو من الحق تعالى" [سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً][الفتح/23].

[في أنواع الكرامات و الخوارق:]

تكميل: قال الشيخ الكامل سيدي محمد بن يوسف السنوسي رضي الله عنهما: "اعلم أن الخوارق سبعة: معجزة، وهو ما يظهر على أيدي الأنبياء، وكرامة وهو ما يظهر على أيدي الأولياء العارفين بالله، ومعونة وهو ما يظهر على أيدي المؤمنين الصالحين، وإهانة وهي التي تؤكد تكذيب الكاذبين، وإرهاص وهو ما يظهر قبل دعوى النبوة تأسيسا لها واستدراج، وهو الخارق الذي يظهر على يد من لم يستقيم دينه وليس له أتباع، وابتلاء وهو ما يظهر من الخارق على يد من لا استقامة معه ويستتبع به الأتباع كالدجال ونحوه" من شرحه لقصيدة محمد بن عبد الرحمن الحوضي.

وقال أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المغربي: "الفرق بين المعجزة والكرامة: أن النبي يدعي المعجزة ويقطع بوقوعها، والولي لا يدعي الكرامة ولا يقطع بوقوعها على وفق دعوته، وإن ادعاها لا يقطع بوقوعها لجواز أن يكون ذلك مكرا، وأما الفرق بين الكرامة والاستدراج، فهو أن صاحب الكرامة لا يتأنس بها، بل عند ظهورها يكون خوفه من الله أشد لأنه يخاف أن يكون ذلك استدراجا، وأما صاحب الاستدراج فإنه يتأنس بذلك الذي يظهر على يديه ويظن أنه كرامة، ويستحقر غيره ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه، ولا يخافمن سوء العاقبة".من شرحه «على العقيدة السنية»

وقوله: "يكشف له عن ذات لم تطاق أن تكشفها آلاف شمس"، يعني أن هذ النور المقتبس من نور أحمد عليه صلوات الله يكشف لمقتبسه عن ذات لا تطيق أن تكشفها شموس ولا أقمار، ولا تقدر على تبيانها النجوم ذات الأنوار لصون جمالها في جلالها وعزتها في كمالها، قال ابن عطاء الله: "إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك"، قال زروق: "وذلك ما أظهره لك من عظمته وجلاله المقتضي لتنزيهه عن التنزيه ورفعته عن المعرفة، حجابه النوري، إنما استنير شدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظم نوره ظهرت صفاته في الكون، فظهور الشمس في الأفق فلم تطق أبصار البصائر تحقيقها إلا بوصف التنزيه فخفيت لما ظهرت بنفس ظهور جلالتها وهو ظهورهما على كل شيء، ونوره ما أبدى في خلقه من آثار وأوصافه المقتضى والإذعان الكل تحت قهره"، وفي المعنى لبعضهم:

بالنُّور يظهَــــرُ مَا تَرى مِن صُــــورة	وبِهِ وجُودُ الكائنَاتِ بِلَا امتِـــــــرَا
لكنَّه يخْفَــــى لِفرطِ ظُهُــــوره	شيئًا سِواه عَلَى الذَّواتِ مُصـــــوَّرَا
وإذا طلبــــتَ حقيقةً من غَيـــرِه	يـزيــــدُ جَهْلــــكَ لا تَـــزال مُغَثَّــــــــرَا

[1] يعني أن المؤلف محمد بن سليمان لم يقف على اسم صاحب كتاب " رسالة الأنوار في الدخول في طريق الملك الجبار" الذي يسمّى أيضا "كتاب السلوك".

[2] الحديث أورده: عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 185./ – علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1، ص: 111.

حقيقة: قال سيدي أحمد بن الحاج: "الكشف لغة الإظهار التبيين ،وعند الصوفية عبارة عن رفع[1] الحجاب عن قلب العبد حتى يصير في معرفة الله إلى حد يستغني فيه عن الدليل والبرهان، وليس الخبر كالعيان كما قالوا: "إذا طلع الصباح استغني عن المصباح"، وفي معناه أنشدوا:

فلمَّـــا استبَانَ الصُّبـــحُ أدرَجَ ضَـــوءَهُ فأنـــوارُه أنـــوارُ ضَوءِ الكواكِـــبِ

وهذه الأمور لا يعبر عنها اللسان، وإنما تدرك بالمنازلة والوجدان، وحظنا من ذلك الإيمان بأحوالهم، والتصديق لأقوالهم"، من «أنس الجليس».

وأكبر المنازلين المواجدين أبو الحسن النوري[2] الذي مات من سماع: "لا زلت أنزل من ودادك منزلا"، البيتين كما تقدم، وكان إذا دخل مسجدا انقطع ضوء السراج، وكان يقول: "إذا امتزجت نار التعظيم مع نور إلهيته في السر هاجت ريح المحبة من حجب العطف على النار والنور، فيظهر فيه الاشتياق وتتلاشى البشرية، فتتولى من ذلك المشاهدة، وأنشد لنفسه:

أشَارَ قَلـــبِي إليكَ كَيْمَـــا يَرَى الذي قَـــدْ تَرَاهُ عَيـــنِي
وأنتَ تُلقِـــي عَلَى ضَمِيـــرِي حَلَاوَة السُّـــؤْلِ والتَّمَـــنِّي
تُرِيدُ مِـــنِّي اختبَارَ شُكـــرِي وقَدْ عَلِمـــتَ المرَادَ مِـــنِّي
ولَيـــسَ لي في سِـــوَاكَ حَـــظِّي فَكَيفَ مَـــا شِئْتَ فاختَبِـــرنِي

من انتهاء السفر الأول من «مناقب الأبرار».

رقيقة: يقتبس من ذكر الناظم أنه أراد نور السراج الذي من شأنه أن يقتبس منه كما في قوله تعالى حكاية عن قول موسى: [إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ][النمل/7]، فتحسن الاستعارة ويتم التشبيه كما في الآية المتقدمة في كلام فخر الدين، وينكشف أيضا من ذكره للكشف أنه أراد بالنور المقتبس لهؤلاء الرجال إنما هو علم المكاشفة لا علم المعاملة، وذلك كما قدمناه ويتضمن أيضا ذكر الشموس ظاهر اللفظ وهو ظاهر الامتناع وباطنه، وهو تشبيه الصحابة ومن بعدهم بالشموس كما شبهوا بالنجوم، فإنهم إن تظاهروا وتعاونوا على أن يكشفوا بأنفسهم لأنفسهم أو لغيرهم شيئا من جمال مُحَيَّا هذه الذات المقدّسة ما قدروا على ذلك ولم يقدروا عليه إلا إذا اقتبسوا بشعلة من أنوار المصباح المحمدي، لأن زجاجته رقيقة شفافة تطرح على كل من يقابلها أشعتها، فيكتسب منها نورا لأن زيتها صاف يكاد يضيء بنفسه ولو لم تمسسه نار، لكونه صدر عن شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية لا فوقية ولا تحتية، ولنفي التشبيه قال:

نُـــورْ لَيـــسَ مُوقَـــد لهَـــبْ لا شَـــمْسْ الـضْـيَـا لا قَـــمْـــرَا

---

[1] في (ب) و(ج): كشف.

[2] اسمه أحمد بن محمد ، ويعرف بابن البغوي، بغدادي المولد والمنشأ، خراساني الأصل،كان من أجل مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن في زمانه أحسن طريقة منه، توفي سنة 295هـ. ينظر: عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، ص: 51.

يقول إن هذا النور الأحمدي مخالف للأنوار المتوهمة المحسوسة، ليس بنور حطب أو سراج ولا بضوء كوكب وهاج، وإنما طريقه ما قلته في قصيدتي الدالية، حيث قلت:

هُوَ النُّور وأَيُّ نُــــورْ مِثْلُ يا نُـــــورْ في الدُّنيَا بالغُـــــور مَا لْسِيدِي شْرِيـــــكْ
في الجَنَّاتْ الحُــــورْ مِن جَمَال تحُـــور لَوْلاه لا حُــــور و النْعِيمْ الهَمِيـــــكْ
عَرْش وكُرسِي طُـــورْ وَالسْمَوَاتْ طُـــــورْ ثُمَّ الأرضُون طُـــــور صُنْعْ المِلِيــــكْ
ثمَّ بَاقِي في الأجْـــــرَام مَا سِـــوَاه المِلِـــــــــــكْ العظِيـــــــم الـــــوَدُودْ
شِي مِن نُـــــورْ التُّهَامِـــــي وهُوَ شِي مِن نُـــــور ذَاتْ رَب الوُجُـــــودْ
وهُوَ شِي مِن نُـــــور ذَاتْ مُحْي العِظَـــــامْ جَلَّ الله الحَــــــيُّ مِن تنزُّه الإلَـــــه
عَنْ تَكيِيــــــــف أَو يَدَّرْكَهْ وَهَّـــــامْ وَهْمْ الجَــــارِحْ أَو شْعَاعْ ينبَعْ ضِيَـــــاهْ
هَذَا النُّـــــور اللِّي نَصْفَهْ يَا كِـــــــرَامْ مَا لِي شْعَـــــاعْ يَتَّصَل بِذَاتْ الإلَـــــهْ
بَلْ مَصْنُــــــــــوع عَـــــــــلَّامْ غَيْبْ الغَائِبَـــــاتِ فِي بْدُودْ البْــــدُودْ
وفِي الأصْـــــــلَاب والأرحَـــــــامْ وفي عَالَم السْفُــــــــولْ وفي الصْعُـــــودْ
أَلْقَطْ يَا أَخِـــــــي باسْـــــــلَامْ والصَّلَاه عْلِيــــــهْ هَاشَمْ الجْـــــــدُودْ

[فيما يتعلق بالسالك و المجذوب ومنازل السير إلى الله:]

واعلم أن المصنفτ و أعْلَى مقامه لم يتكلم في هذه القصيدة في الأغلب إلاّ على المقام الأعلى من مقام الإحسان، لأنه مقامه وحاله إذ لا يلهج بذركر الشيء إلَّا من عرفه ورآه وذاقه، فالجذب والغشي منتهى التوجهات والاقتباس من النور الأحمدي أضواء الإشراقات والكشف الذاتي هو نتيجة نتائج المكاشفات، فالمجذوب مسافر متولى والسالك مسافر مترقي، وربما التقيا في الطريق، هذا في ترقية وهذا في تدليه، فهذان سفران لا بد لكل مريد ومراد[1] منهما من جميع الأمم فمن أراد الله إبلاغه لمنتهى سفره أمدَّ له في عمره وبارك له فيه، ومن لا فنى زاده وانقطعت راحلته، وأما رسل هؤلاء الأمم فزادوا عليهم، فسفرة ثالثه تجمع لهم بين السفرين، وأما سيد ولد آدم فقد اختص بأحدية الجمع وزاد على الجميع بسفرة رابعة وهي المشار لها بقول واصفه:

تَحَـــــيَّـــــــــرَكَ اللهُ مِـــــن آدَمِ فَـمَــا زِلْــتَ مُـنْـحَـدِرًا تَـرْتَــقِــي

وكل منزل من هؤلاء الأسفار ينكشف لنازله شيء لم ينكشف له في المنزل الذي قبله، وبيان ذلك من سور الشرح الممزوجة في شرح شارح "ناظم الدر وخطابة الحر" حيث يقول: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ][الشرح/1] هذا إشارة إلى سيره الأول الباطني المحبوبي، وهو الجذب، [وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ][الشرح/2]، [وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ][الشرح/4]إشارة إلى سفره الثاني الظاهري المجلّى وهو السلوك إشارة إلى سفره الثالث الجمعي، أعني الجمع بين التجليين الظاهري والباطني، وهو جمع [فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً][الشرح/5] إشارة إلى عناء الفناء وراحة

[1] يقصد بالسالك المريد، ويقصد بالمراد المجذوب، بمعنى أن المريد هو السالك في طريق الله، أي من أراد الله ، والمراد من أراده الله وجذبه.

البقاء الحاصل له في سفرته الأولى، يعني محو أثر الخليقة عن روحه وعن خلقه المتضمن تيسير ذلك العسر يسرا إثبات وصف الحقيقة فيه حتى صار على خلق عظيم.

[إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا] إشارة إلى عناء الفناء وروح البقاء في سفرته الثانية، أعني وضع وزر الطبع والجبِلّةِ البشرية عن نفسه المستلزم تيسير ذلك العسير يسر، إضافة أحكام القدم إليه نحو [إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ][الفتح/10]، وما كان في سفرته الثالثة إلا يسر بلا عسر وروح وراحة بلا تعب، لقوة قابليته واستعداده لسرعة الترقي ولما ألقى عصا يسره عند ارتفاع ذكره من هذه الأسفار الثلاثة، وكانت السفرة الرابعة تتضمن سيره مرة أخرى في ظاهره وباطنه، مبدأ هذا السير من مقام جمع الجمع وقاب قوسين ومقام الكمال إلى مقام أحدية الجمع ومقام (أو أدنى) متوجها إلى السفر والسير إلى ربه الذي هو منتهى الكل ومرجع الجميع، وإلى حضرته ومرتبته التي لا أعلى منها، ولا أكمل حيث لا غيريه فيها ولا ضديه، أصلا كما هي ثابتة في نظر صاحب مقام "قاب قوسين"، وكان في إزالة أثر الغيرية والخصوصية ورفع قيودها عن كل اسم وصفة وقوة ظاهرة وباطنة، وعن كل ذرة من صورته ليظهر كل واحد بصورة الجمع ووصفه وحكمه، ليتخذ حكم الأدنى مع حكم الأعلى بلا مباينة وخصوصيته وتمييز بينهما.

وفي إزالة تلك الآثار معانات عناء ومقاسات عسر فناء، يتحمل النصب لا جرم، قال تعالى: [فإذا فرغت] يعني من أسفارك الثلاثة وإعطاء ما عليك من الأمانات والحقوق فيها، وأخذ مالك من الكمالات منها، [فَانْصَبْ] يعني تحمل النصب بالشروع في سفرتك الرابعة، [وإلى ربك فارغب]، يعني إلى التجلي الأول الذي هو نورك وربك ومنشأ جميع الأسماء والصفات والأعيان والآثار الحقية والخلقية، وممدها ومرجعها ومنتهاها بموجب:[وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى][النجم/42].

فإن قلت هل من مثل يقرب معنى هذا السفر والتدلي والترقي للأفهام، فإنا لا ندرك إلا المحسوسات وبها نتوسل إن شاء الله إلى المدسوسات، قلت سألت قبل هذا عن حالتي المجذوب والسالك، ففتح الله علي في الجواب وأنا جالس على سطح برج له ثلاث طبقات، فقلت للسائل: "جوابك ساقه الله في مثال هذا البرج الذي جمعنا الله فيه، فهذا الحصن له باب سفلي للتطلع ومطبق علوي للمهبط، وله ثلاث طبقات بينهما، بمثابة حصين لا إله إلا الله محمد رسول الله الحصين لمن دخله، فباب مدخله الإقرار بهذه الكلمة المشرفة والدرج التي توصل إلى الطبقة الإسلامية هي إقام الصلاة وايقاع الصيام وإيتاء الزكاة وحج البيت لمن استطاعهما، ثم إن استقر في مقام الإسلام مع أهله وأخذ ماله وأدى ما عليه فيه، ناداه رب الحصن: اصعد للطبقة الثانية لتأخذ ما أعد لك فيها مع أهلها وتعطي ما عليك من حقوقها، فنظر فإذا لها منفذ في جنب تلك الطبقة السفلى فعرج فإذا لها درج خفية قلبية توازن الدرج الأولى وهي الإيمان والتصديق بالله المقر له بالوحدانية أولا والإيمان برسوله المقر له بالرسالة، وتصديقه في جميع ما جاء به من عند ربه.

ثم إن قطع هذه الدرج استقر في طبقة الإيمان الوسطى، حتى تملأ وتنزه في عجائبها ناداه صاحب الحسن: العجب بين يديك ترقى لِتَرى، فرفع رأس همته، فإذا بمنفذ على صوب المنفذين الأوليين وله درجتان أيضا، الأولى: مراقبة الرقيب، والثانية مشاهدة القريب المجيب ويعبر عنهما، بإن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك،

على حسب التدلي فحين قطع الدرجتين تمكن من الاستقرار في طبقة الإحسان العليا، ثم انقسم الداخلون لهذا الحصن إلى فريقين، فريق ناداهم رب الحصن إليه وأدخلهم من بابه الأسفل وهو السالكون، وفريق جذبهم رب الحصن بحبله المتين من أعلى سطحه فلم يحسوا بشيء حتى وجدوا أنفسهم في الطبقة العليا منه مع أهل الإحسان الذين سبقوهم بالإسلام والإيمان، فقالوا: يا ليت شعرنا من أين دخلنا؟ وكيف وصلنا؟ فقال لهم المتكلمون قبلهم: أما ترون هذا المطبق على هذه الطبقة لا يفتح إلا لمن أذن له رب الحصن في الدخول منه ولا يدخل منه إلا من اختطفته يد القدرة الربانية من فوق الفوق حتى ألقته في حضرة الأنس بعد أن غيبته عن الحس وحالت بينه وبين القبس، فهذا الفريق الثاني هم المجذوبون.

ثم تولى المجذوبون من حيث ترقى السالكون حتى رأوا طبقة الإيمان بما فيها، ثم نزلوا حتى رأوا طبقة الإسلام بما فيها، ورأوا باب الدخول إليها وباب الصعود منها، ولا زال السالكون والمجذوبون يترددون في الترقي من أسفل الدرجات إلى أعلى الطبقات، ويتدلون من أعلى الطبقات إلى أسفل الدرجات بإذن وجه الأرض والسموات حتى صار كل واحد منهم يصلح أن يكون دليلا للداخل الداهس سواء دخل من أسفل الحصن أو من أعلاه كما قدمنا، ومن لم يجد للتردد سبيلا لا يكون للغير دليلا، وصاحب الدرجة الرفيعة جامع الحقيقة والشريعة هو بوّاب البابين ودليل الفريقين فمن خرج عن الحصن من بابه الأسفل وقع في حفير الإشراك وآسَرَته الأشراك، ومن تخطى رقاب الصديقين وأراد الخروج عن الحصن من باب المجذوبين زلَّت به قدمه وخرَّ من سماء الغيب على أم رأسه، اللهم إنا نسألك العفو والعافية المعافات الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

وإن طلبت التكميل فعلى الله قصد السبيل واعلم أن من أرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده، فالفقيه لا بد له من إلهام، والملهم لا بد له من تفقه، وإن المرادين بهذا الخير القائلين في جواب ربهم لا ضير ينقسمون في متابعة الدليل الأكبر إلى قسمين، ويعترفون في الاقتباس من أنواره إلى فريقين، منهم من فاجأه الحق بنوره بلا سبب من الأسباب وهم المجذوبون المحبوبون، فلا سبيل لنا إلى أنوارهم إلا بمحبتهم والتسليم لهم في أحوالهم، وقسم وهبهم الله الإقبال عليه فتسببوا وجاءوا البيوت من أبوابها، فدقوا الباب حتى رفع لهم الحجاب، فقالوا: ربنا أدخلنا مدخل صدق، وترقّوا بسم الله في درجات حتى وصلوا إلى القربات، فألقى محيُّوهم عليهم خلع الأمن، واجتمعوا مع المجذوبين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فهؤلاء هم السالكون على منهاج الطريقة الأحمدية على صاحبها الصلاة والتحية.

[في الإشادة بطريقة الساحلي في التربية الصوفية:]

وللشيوخ العارفين فيها طرق في التربية،(فمنهم من يربي بأسماء الله، ومنهم بالصلاة على رسول الله، ومنهم بالرياضة، ومنهم بالخلوة، ومنهم بالصحبة، ومنهم بالمحبة، ومنهم بالخرقة، ومنهم بالتقصيص، وكل تربية فيها

طرق)[1]؛ لكن لم أرى فيما علمت طريقا أيسر وأسلم وأوسط وأنفذ (من طريقة الإمام أبي عبد الله محمد الساحلي[2] التي اختصرها الإمام الجامع سيدي محمد بن يوسف السنوسي الحسني، واختصرها أيضا أبو العباس أحمد بن علي الطرابلسي الخروبي)[3]، فإني والله لم أعثر على أحسن من هذه الطريقة في جميع ما طالعته من كتب أهل الحقيقة، فإنه جمع فيها بين مقام الإسلام والإيمان والإحسان، وجعل لكل مقام بداية ووسط ونهاية، ولكل منزل من هذه التسع شروط وآداب وحقائق وعوارض وعلاجات وكرامات وثمرات، بيَّنَ جميعها على أكمل ما ينبغي، واعلم أن كل ثمرة لها أحد عشر نتيجة يتصف السالك بها، تنفي عنه أحد عشر صفة ذميمة تضادها، من ضرب تسعة في أحد عشر على عدد أسماء الله ودرج الجنة، وذكر علامة قطع كل منزل ووصية صاحبه التي تليق بحاله ودعائه الخاص به، وذكر شروط الشيخ والتلميذ وآداب الذكر وشروطه، وذكر أذكار الأزمنة على اختلافها، وأذكار الأحوال على تعاقبها، ورتب جميع ذلك على شروطه، وأتى بمناسبة تؤذن بربطه وأفصح عن جميع ما يحتاج إليه السالك من أول مقام الإسلام إلى مقام آخر الإحسان بعبارة سمحة سهلة فَيَا أيُّها الأخ الناظر في كتابنا هذا أَنَا والله نَصحتُك فإن أرادت انشراح صدرك ووضع وزرك، فاجهد في تحصيل هذه الكتب واعمل بما فيها تفز بحظ وافر، والله الموفق لا رب غيره.[4]

قوله: من "نور أحمد"، ذلك القبس يكشف له عن ذات، يعني أن هذا النور الأحمدي يكشف لمقتبسه عن أشياء كانت مستورة عنه قبل اقتباسه من هذا النور، لكن الناظم صرح بأعلاها، وسكت عن أولاها، إما باعتبار حال الجذب كما تقدم أو تحريضا على تحصيل الوسائل، إذ لا يتلخص للمقصد إلّا بعد التخلص من الوسائل، وستأتي إن شاء الله شروحه، ومن فتح الله عليه في هذا النور وكشف له هذه الأمور وتمكن في هذا المقام المشكور، فينبغي له أن يتحصن بحصن الله الحصين، ويثبت على آثار مسير رسول الله الأمين ولا يغش من غشيانها حتى في طرفة عين.

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الأنصاري الساحلي المكنّى بأبي عبد الله والمعروف في مالقة بالمعمم (678هـ - 754هـ)، تلقى التصوف على أبيه، تنبئنا قائمة شيوخه بتعدد مناحي ثقافته، له مؤلفات كثيرة، منها: " التَّجْرُ الربيح في شرح الجامع الصحيح"، " بغية السالك في أشرف المسالك"، "أشعة الأنوار في الكشف عن ثمرات الأذكار"، " النفحة القدسية في الأخبار الساحلية"، "نظم سلوك الجواهر في جيد معارف الصدور والأكابر" عرفت طريقته باسم: الطريقة الساحلية.

- ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي -مقاربة وظيفية- ،ص: 210، 211.

[3] في (ب) و(ج): من طريقة الإمام الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي محمد بن يوسف السنوسي الحسني التي رتبها في كتابه المختصر من كلام الساحلي الذي سماه بعض الإخوان بـ "روض المحاسن"

[4] ويمكننا ترجمة طريقة الساحلي هذه من خلال هذا المخطط:

<u>مقامات الدين ومنازلها</u>

إسـلام (بداية)	إيمـان(وسط)	إحسان (نهاية)
بداية / وسط / نهاية	بداية / وسط / نهاية	بداية / وسط / نهاية
(التوبة) / (استقامة)/ (التقوى)	(الإخلاص) / (الصدق) / (الطمأنينة)	(المراقبة) / (المشاهدة) / (المعرفة)

قال صاحب رسالة «الأنوار»: "اعلم أن الحكيم الكامل المحقق المتمكن هو الذي يعامل كل حال ووقت بما يليق به ولا يختلط، وهذه حالة محمد ρ ، فإنه كان من ربه بقاب قوسين أو أدنى، ولما أصبح وذكر ذلك للحاضرين لم يصدقه المشركون لكون الأثر ما ظهر عليه، بخلاف غيره حين ظهر عليه الأثر، فكان يتبرقع، ولكن لا بد للسالك من تأُثير الأحوال فيه، وخلطة العوالم بعضها ببعض، ولكن ينبغي له الترقي من هذا المقام إلى مقام الحكمة الإلهية الجارية على القانون المعتاد، ويصرف خرق العوائد إلى سره حتى يرجع خرق العوائد عادة لاستصحابه، ولا يزال يقول في كل نفس: [وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً][طه/114]، ما دام الفلك تجري بنفسه، وليجهد أن يكون وقته نفسه، وإذا أورد عليه وارد الوقت يقبله وليحذر من التعشق به، ويحفظه فإنه يحتاج إليه إذا رُبِّيأكثر الشيوخ، إنما أوتي عليه في التربية لما فرطوا في حفظ ما ذكرناه وزهدوا فيه زهدا كليا، ويطول الوقت ويقصر بحسب حضور صاحبه، فمنهم من وقته ساعة ويوم وجمعة وشهر وسنة ومرة واحدة في عمره، ومن الناس لا وقت له، وإنما حرم من تحكم، فإن باب الملكوت والمعارف من المحال أن ينفتح وفي القلب ذرة من شهوة للملكوت[1]، وأما باب العلم بالله من حيث المشاهدة فلا ينفتح وفي القلب لمحة للعالم بأسره الملكُ والملكوت".

[في الكشف و أنواعه:]

وقوله: "يكشف له عن ذات لم تطاق" البيتين، اعلم أن أنواع الكشف[2] المرتبة خمسة، أولها: الكشف العقلي ثم القلبي، ثم السري، ثم الروحي، وأعلاها الخفي، وهو كشف الذات بصفات الجلال والجمال، فيفنى ويبقى، والخفي نور روحاني خالص مجرد المقول فيه [رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ][غافر/15]، وفي شرح الوسائل المسرورة، يقول قوام الملة الشيخ البسطامي قدس الله سره: "أما الكشف العقلي فهو أن السالك إذا اشتغل بالرياضة ترتفع عنه بحسب المجاهدة حجب، ففي كل حجاب يرتفع ينكشف له معاني المعقولات، ويظهر أسرار الممكنات[3]، ويسمى كشفها نظريا، وأما القلبي: فهو أن ينكشف فيه أنوار مختلفة مشروحة في المشاهدات ويسمى شهوديا، وأما السري فهو كشف أسرار المخلوقات وحكمة خلق الموجودات، ويسمى كشفا إلهاميا، وأما الروحي: فهو عرض الجنات والجحيم والمعاريج ورؤية الملائكة، وإذا صفا بالكلية وطهر عن كدرات النفسانية يرتفع حجاب الزمان والمكان الأخروية، وحجاب الجهات، وتظهر الكرامات من الإشراق على الخواطر والاطلاع على المخفيات، والعبور على الماء والنار وطي الأرض وغيرها ويسمى كشفا روحيا، وأما الكشف الخفي: فهو أن يتكشف الله تعالى بالصفات إما بالجلال أو بالجمال على حسب المقامات والحالات والخفي موهبة من الله تعالى على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: [أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ][المجادلة/22]، وهو الروح الخفي، ويسمى كشفا صفاتيا، فإن انكشف بصفة العالمية تظهر العلوم اللدنية أو بصفة السمعية يظهر استماع الكلام والخطاب أو بصفة البصرية تظهر الرؤية والمشاهدة، وإن تكشف بصفة الجلال يظهر فناء العباد، وإن انكشف بصفة

---

[1] في (ب) و(ج): للملك.

[2] المكاشفة: شهود الأعيان وما فيها من الأحوال في عين الحق، فهو التحقيق الصحيح بمطالعة تجليات الأسماء الإلهية. وله صور في البدايات وفي الأبواب وفي المعاملات وفي الأخلاق وفي الأصول وفي الأحوال وفي الولايات، ودرجتها في النهايات: شهود أحدية الذات في صور الصفات، في مقام البقاء بعد الفناء. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 201

[3] كذا في (ج) وفي (ب) : المكونات.

القيومية يظهر فناء البقاء، وإن انكشف بصفة الوحدانية تظهر الوحدة بلا علم، فافهم هذه الإشارات والرموز، إن كنت من أهلها".

قوله: "لا شمس الضو لا قمرا"، اعلم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، قال تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ][فصلت/37]، ، وقال أيضا: [وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ][إبراهيم/33][وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً][نوح/16]، [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ][الأنعام/97]، [إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ][الصافات/6]، [وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ][الصافات/7].

أخرج الطبراني وغيره عن أنس قال حدثني رسول اللهρ: «أن الشمس والقمر والنجوم خلقن من نور العرش»[1]، وعن معاوية بن صالح: "أن النيران أربع فنار تأكل وتشرب وهي نار جهنم، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا، ونار تأكل ولا تشرب وهي النار التي خلقت منها الملائكة، ونار تشرب ولا تأكل وهي التي خلقت منها الشمس والشياطين"، وأخرج الديلمي عن ابن عمر أن النبي ρ ، قال: «الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفاؤهما إلى الناس»[2]، وعن سلمان قال: «خلق الله الشمس من نور عرشه وكتب في وجهها: إني أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الشمس بقدرتي وأجريتها بأمري، وكتب في بطنها أنا الله لا إله إلا أنا رضائي في كلام وغضبي كلام ورحمتي كلام وعذابي كلام، وخلق القمر من نور حجابه الذي يليه وكتب في وجهه: إني أنا الله لا إله إلا أنا خلقت القمر وخلقت الظلمات والنور، فالظلمات ضلاله والنور هداه، أظل من شئت وأهدي من شئت وكتب في بطنه: إني أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخير والشر بقدرتي وعزتي أبتلي بهما من شئت من خلقي»[3].

وعن ابن عباس أن رجالا قال له: "كم طول الشمس وكم عرضها، قال: تسعمائة فرسخ في تسعمائة فرسخ وطول الكواكب اثنا عشر فرسخا" وعن عكرمة: "الشمس على قدر الدنيا وزيادة ثلث، والقمر على قدر الدنيا"، وعن ابن عباس: "الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر، وقال في قوله تعالى : [وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ][يس/40] تدور في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل".

وعن كعب قال: "إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالغضب فجعل مشرقها في مغربها، ومغربها في مشرقها"، وعن ابن عمر قال: "إن الشمس تطلع فيردها ذنوب ابن آدم، فإذا غربت سلمت وسجدت فلا يؤذن لها فتحبس ما شاء الله، ثم يقال لها اطلعي من حيث غربت"، وعن ابن المسيب: "لا تطلع الشمس حتى ينخسها ثلاثمائة وستين ملكا كراهية أن تعبد من دون الله"، وعن عكرمة: "أن الشمس إذا غربت دخلت بحرا تحت العرش فتسبح الله إذا هي أصبحت استعفت ربها من الخروج، قال ولما قالت: إني إذا خرجت عبدت من دونك، قال لها: أخرجي فليس عليك من ذلك شيء حسبهم جهنم".

[1] الحديث أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، ج6، ص: 153.

[2] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، العظمة، ج4 (م سابق) ص: 1141.

[3] الحديث ينظر المصدر نفسه، ج4، ص: 1184.

وعن ابن عباس: "والذي نفسي بيده ما طلعت الشمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك فيقولون لها اطلعي فتقول لا أطلع على قوم يعبدوني من دون الله، فيأتيها ملك فتستقبل ضياء بني آدم فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع، فتطلع بين قرنيه فيجرفه الله تحتها، وذلك قول رسول اللهρ: «ما طلعت إلا بين قرني شيطان، وما غربت الشمس قط إلا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يبعدها عن السجود، فتغرب بين قرنيه فيحرقها الله تحتها»[1]، وقد قال رسول الله ρ: «ولا غربت إلا بين قرني شيطان»[2].

وعن الطبراني قال رسول الله ρ: «وكِّل بالشمس سبعة أملاك يرمونها بالثلج، كل يوم ولولا ذلك ما أصابت شيئا إلا أحرقته»، وعن عكرمة: «ما طلعت شمس حتى يناديها سبعون ألف ملك اطلعي، فتقول كيف أطلع وأنا أعبد من دون الله فيدفعها ملكان حتى تستقبل، ولولا برد ماء السماء لاحترق أهل الأرض ولولا أصوات الروم[كذا] أو رومية لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب»، من السيوطي في «الهيئة السنية».

أخرج السيوطي أيضا في «الهيئة السنية» عن سعيد بن عبد الرحمان في قوله تعالى: [قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ] [الشعراء/28]، قال: "الشمس ثلاثمائة وستون برجا في المشرق، وثلاثمائة وستون برجا في المغرب لا تطلع يومين من برج واحد. وعن يحي بن آدم: أن الشمس تمكث في كل برج شهرا، والبرج ثلاثون دقيقة أي مطلعا بين كل مطلعين شعيرة حتى تستكمل ثلاثين يوما، ثم تتحول إلى البرج الآخر"، وعن ابن عباس قال: "الشمس ثلاثمائة وستون كوة، تطلع كل يوم من كوة فلا ترجع إلى تلك الكوة إلى ذلك اليوم من العام المقبل، ولا تطلع إلا وهي كارهة تقول: رب لا تطلعني على عبادك فإنني أراهم يعصونك"، وعن النبي ρ فيما رواه أنس: «أن الشمس والقمر إذا أراد أحدهما من عظمة الله شيئا حاد عن مجراه فانكسف»، وعن ابن عباس قال: خلق الله بحرا دون السماء مقدار ثلاثة فراسيخ، فهو موج مكفوف قائم في الهواء بأمر الله لا تقطر منه قطرة جار في سرعة السهم يجري فيه الشمس والقمر والنجوم، فذلك قوله: [كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ] [الأنبياء/3]، والفلك دوراه العجلة في لجة غمر ذلك البحر، فإذا أحب الله أن يحدث الكسوف خرجت الشمس عن العجلة فتقع في غر ذلك، فإذا أراد الله أن يعظم الآية وقعت كلها فلا يبقى على العجلة منها شيء، وإذا أراد الله دون ذلك وقع النصف منها أو الثلث أوالثلثان في الماء.

ويبقى سائر ذلك على العجلة وصارت الملائكة الموكلون بها فريقين، فرقة يقبلون على الشمس فيرونها نحو العجلة، وفرقة يقبلون على العجلة فيجرونها إلى الشمس، فإذا انحرفت رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة وتنتبس تحت العرش فتستاء من أين تؤمر بالطلوع، ثم ينطلق بها ما بين السماء السابعة وبين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة فتنحدر حيال المشرق من السماء إلى السماء، فإذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الصبح، فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين تطلع الشمس، قال: "وخلق عند المشرق حجاب من الظلمة فوضعها على البحر السابع مقدار وحدة الليالي في الدنيا منذ خلقها الله إلى يوم القيامة، فإذا كان عقد غروب الشمس أقبل ملكا قد وكل بالليل فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب، ثم يستقبل المغرب فلا يزال يرسل تلك

[1] الحديث أورده القرطبي، تفسير القرطبي، ج15، ص: 63.

[2] الحديث ينظر المصدر نفسه، الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

الظلمة من خلال أصابعه قليلا قليلا، هو يراعي الشفق، فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة كلها ثم ينشر جناحيه فيبلغان قطري الأرض وكنفي السماء فتشرق ظلمة الليل بجناحيه، فإذا كان الشفق أرسل الظلمة كلها الصبح ضم جناحيه، ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض بكفيه من المشرق ويضعها على البحر السابع بالمغرب".

وعن السَّري[1] قال: "الجبل الذي تطلع الشمس من ورائه ثمانون فرسخا طوله في السماء"، وعن الحسن: قالالقمر لربه: اللهم إنك فظلت الشمس علي ونقصتني وأشنتني فلا تطلعها على ما نقَصَت مني، فلا ترى القمر أبدا إلا والتمام معا يلي الشمس"، وعن قتادة في قوله:[وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ [مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ]][يس/39]، قال: قدره الله منازل فجعل ينقص حتى كان مثل عرف النخلة، وعن ابن عباس في قوله: [فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ][التكوير/15]، قال: "الخنس يقطعن الفجوة كما يجري الفرس"، وعنه [كذا]قال: "أن سهيلا كان عشارا باليمن ينخنس الناس بالظلم فنسخه الله شهابا"، وعن الحكم قال: " لم يطلع سهيل إلا في الإسلام وأنه لممسوخ"، وعن زيد بن أسلم في قوله: [وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ][الفلق/3]، قال: "كانت العرب تقول الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها"، وعن أبي هريرة: "ما طلعت الفجر ذات غداة قط إلا رفعت كل دابة.

وعلى هذا وقفت، عن ابن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس فقال: ما نمت البارحة، قلت: لما؟، قال: قالوا طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكن الدخان قد طرق. وعن سلمان، قال: الليل وكل به ملك يقال له شراهيل، فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلها من قبل المغرب، فإذا نظرَت إليها الشمس وجبت في أسرع من طرفة عين، وقد أمرت الشمس ألّا تغرب حتى ترى الخرزة، فإذا غربت جاء الليل، فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجيء ملك آخر يقال له هراميل بخرزة بيضاء فيعلقها من قبل المطلع فإذا رآها شراهيل مد إليه خرزته وترى الشمس الخرزة البيضاء فتطلع، وقد أمرت ألا تطلع حتى تراها، فإذا طلعت جاء النهار.

وعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ρ ، «فقال: يا محمدا رأيت جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟، قال أرأيت الليل الذي قد التبس كل شيء فأين جعل النهار، قال: الله أعلم، قال: كذلك يفعل ما يشاء»[2]. وعن ابن عباس:«أن الله خلق يوما فسماه الأحد، وخلق ثانيا فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعا فسماه الأربعاء، ثم خلق خامسا فسماه الخميس، فخلق الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، ولذلك يقول الناس: إنه يوم ثقيل، وخلق الأنهار والأشجار يوم الأربعاء، وخلق الطير والوحش والهوام والسباع يوم الخميس، وخلق الإنسان يوم الجمعة، وفرغ من الخلق يوم السبت»[3]، وفي البخاري: «لا يقول أحدكم يا خيبة الدهر، قال الله: "أنا الدهر أرسل الليل والنهار وإذا شئت قبضتهما»[4].منه ملخصا.

قوله: "بل هو شيء رائق عذب يعقل به العقل ما سْرَى"، يعني أن هذا النور المقتبس المنكشفة به الأسرار، الذي من نعته أنه ليس بنار حطب ولا بضوء كوكب، وإنما هو شيء رائق عذب يروي الأحداق ويروي العشاق فكن روحا خفيا وكشفا ذاتيا، وفيه يقول سيدي عمر بن الفارض رحمه الله ونفعنا به:

---

[1] سري السقطي إمام البغداديين وشيخهم في وقته (ت سنة 251هـ)، تقدّمت ترجمته.

[2] لم نعثر عليه.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الحديث أخرجه أيضا أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج2، ص: 275.

أَبَرْقٌ بَدَا، مِن جَانِبِ الغَوْرِ، لَامِــــــعُ   أَم ارْتَفَعَتْ، عَن وَجْهِ لَيْلَى، البَرَاقِــــعُ[1]
نَعَمْ أَسْفَرَت لَيلًا، فَصَارَ بِوَجْهِهَــــا   نَهَارًا، بِهِ نُورُ المحَاسِنِ سَاطِــــعُ
ولما تَجَلَّتْ للقُلُوبِ، تَزَاحَمَـــــتْ   عَلَى حُسْنِهَا للعَاشِقِينَ مَطَامِــــعُ
لِطَلْعَتِهَا تَعْنُو البُــدُور، وَوَجْهُهَــــا   لَهُ تَسْجُدُ الأقمَارُ، وَهْيَ طَوَالِــــعُ

ثم قال:

وفي حَضْرَةِ المحبُوبِ سِرِّي وَسِرُّهَــــا   مَعًا ومَعَانِيهَا عَلَينَا لَوَامِــــعُ
إِذَا مَا بَدَت لَيلَى، فَكُلِّي أَعْيُــــنٌ   وإِنْ هِيَ نَاجَتْنِي، فَكُلِّي مَسَامِــــعُ
وَمِسْكُ حَدِيثِي في هَوَاهَا، لِأَهْلِــــهِ   يَضُــوعُ، وفي سَمْــعِ الخليّيــنَ ضَائِــــع[2]

ثم قال:

فَيَا قَلْبُ شَاهِد حُسْنَهَا وجَمَالَهَــــا   فَفِيهَا، لأسرارِ الجَمَالِ، وَدَائِــــعُ
فإِحْيَاءُ أَهْلِ الحُبّ مَوتُ نُفُوسِهِـــم   وقُوتُ قُلُوبِ العَاشِقِينَ مَصَــــارِعُ

وهي قصيدة عينية عجيبة، وستأتي إن شاء الله مكملة، والغور: تهامة، وقيل موضع بالحجاز[3]، وهذه الإشارات كلها كنايات، وقال في تائيته أيضا:

تَجَمَّعَت الأَهْوَاءُ فِيهَا، فَمَا تَـــرَى   [بِهَا][4]غَيرَ صَبٍّ، لَا يَرَى غَيرَ صَبْــوَةِ
إذا سَفَرت في يَومِ عِيدٍ تَزَاحَمَـــتْ   عَلَى حُسنِهَا أَبصَارُ كُلِّ قَبِيلَـــةِ
فَأَرْوَاحُهُم تَصْبُوا لمِعْنَى جَمَالِهَـــــا   وأَحْدَاقُهُم مِن حُسْنِهَا في حَدِيقَـــةِ

قال الشارح: الصب: المائل بالحب، والصبوة: الاشتياق الشديد[5]، يقول: لما كانت حضرة المحبوب الحقيقي، فجمع كل حسن وجمال ومنشأهما وأصلهما، وهما المهيجات للحب والشوق، والصبابة والصبوة تجمعت جميع الأهواء في حضرتها، فما ترى بالرؤية الحقيقية والحسية شيئا إلا عاشقا لها، وذا صبابة إليها، لا يعتقد ولا يروى إلا الصبوة والشوق والاشتياق، أولها تلك الحضرة العاشقة لذاتها بحكم: "فأحببت أن أعرف"، وآخرها: أنا وما بيننا جميع التعينات الوجودية، ووجه آخر لا ترى شيئا إلا مائلا إلى نفسه وحياتها وبقائها، ونفسه ما هو إلا وجود متعين، ولا

---

[1] ذكر الشيخ علي سبط ابن الفارض أن البيت الأول من هذه القصيدة هو للشيخ ابن الفارض، وأما ما تلاه فهو من نظمه، لأن القصيدة كانت مفقودة، ولم يجدها إلّا بعد استكماله هذه المنظومة بتذييلها. ينظر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ديوان ابن الفارض، شرح وضبط: عمر فاروق الطبّاع، ص: 113.

[2] في (ب) إضافة البيت التالي: وفي حَضرَةِ المحبوبِ سرّي وسرّها // معاً ومعانيها علينا لوامِعُ . ينظر: المصدر نفسه، ص: 114.

[3] الغَوْر: تهامة وما يلي اليمن، سمّيت بذلك لأنها خلاف النَّجْد، والنّجد مرتَفِعٌ من الأرض، يقال غَارَ الرجل إذا أَتَى الغَور، وأغار: نبيٌّ يرَى ما لا ترَوْنَ وذكرُه // أَغَارَ لَعَمري في البلادِ وأَنْجَدَ. ينظر: أحمد اب فارس، مقاييس اللغة (ج2)، ص: 306.

[4] إضافة في المصدر. ينظر: ديوان ابن الفارض، ص: 56.

[5] في المصدر : الصبّ: العاشق ذو الولع، والصبوة: جهلة الفتوّة. ينظر: ديوان ابن الفارض، ص: 56.

يضاف الحياة[1] والبقاء إلّا إلى الوجود، ولا وجود الأصالة إلا لتلك الحضرة، وكل موجود متعين فرع لذلك الأصل وشعاع منه وتفصيل له، فلا تتعلق كل محبة لكل نفس إلا إلى تلك الحضرة بالأصالة، وإلى فرعه بالتبعية.

قوله: "يعقل به العقل ما سْرى"، يعني أن هذا النور الإلهي المخلوق للأنوار المحسوسة الرائق للأبصار والبصائر العذب للأذواق (والضمائر)[2]، هو الذي نوّر الله به العقول السليمة حتى أدركت به الأسرار الكريمة على نحو ما ورد في الخبر والأثر، أخرج جمال الدين المعافى عن النبي المصطفى صلى الله عليهوعلى أهله الشرفاء، أنه قال: «خلق العقل مظلما ثم علمه من نوره فأبصر، ثم قال له من أنا؟ قال: أنت الله الذي لا إله إلا أنت، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقا أحب إلي منك، بك أوحّد وبك أُعبد»[3]، وحكى أيضا جمال الدين عن المأمون أنه قال: "العقل معنى هو حياة كل شيء، فما خلا منه فهو ميّت، وهو فيه كل شيء، به تعرف الأسرار، وبقوته يحصل الاستبصار، فهو ميزان الوجود ومعياره، ومحل كل شيء وعليه مداره، محل الخطاب والتكليف وآلة الألباب في التصريف والتعريف، من خلا عنه نزل من ربوة الأنعام".

وقال صاحب: «سلم الصعود إلى دار الخلود»، في قوله ρ: «أول ما خلق الله العقل فقال له: "أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر»[4]، أي أقبل عليه بالاستفادة فوحّده وأدبر، ثم أظهر النفس بالإفادة فازدوج الترتيب وتثنى، فأنتج الهيولي[5] من مباشرة العقل والنفس، فاشتقت الكثرة بالتثليث، إذ أقلّ الجمع ثلاثة، فالعقل أوّل المبدعات والنفس أول المنفعلات، والهيولي أول المولدات، كترتيب العدد في بروزه عن الواحد، فالواحد: الأمر، وهو الكلفة، والثاني: العقل، والثالث: النفس، والرابع الهيولي، والخامس: الطبيعة، والسادس الجسم، والسابع الأفلاك، والثامن: الأركان البسيطة والمركبة، والتاسع: المولدات، والعاشر: فهو الشخص الكامل، وهو النبي υ في زمانه[6]، والإمام من بعده ووارث علمه القائم في أوانه، ولما لم يصدر من نور الأنوار غير النور الأقرب، وهو العقل الأول، وليس في الممكنات أشرف منه، أبدعه الله جوهرا روحانيا بسيطا ثم صفّاه وجلاّه كالمرآة، ثم قابله بنور جلاله وجماله، فتصورت هيئة الباري جلّ شأنه في ذات جوهريته وعقل ربوبية مبدعه، فعرف أنه عبد من عبيد مبدعه فهو عقل لصفاء نور ذاته، عاقل لإدراكه ربوبية بارئه، معقول لأنه يدرك نفسهُ ، ويتعقل ذاته، لأنه نور لذاته، وظاهر لذاته، فعرف ربه وأطاع أمره، واستولى على خفيات القضاء ومصونات القدر، بأمر الباري تعالى، وأقبل على نور الأنوار، فنال منه الفوائد الإلهية والأنوار الربوبية، وأدبر عنه، فأفاد الأنوار المجردة الإلهية تلك الفوائد القيومية".

تنبيه: إنما خص العقل هنا بالذكر لأنه هو أول درجات الكشف وعليه مبناها، ولم يتبين ما ينكشف بالعقل في درجة العقل، بل أجمله بقوله: "ما سرا" ليطلب كل عاقل قوة عقله الذي خلق من أجله، فهنا ذكر درجة الكشف ولم يعرب عن المنكشف فيها، وفيما تقدم ذكر المنكشف الأعلى بقوله: "عن ذات"، ولم يبين درجته وهو الخفي، ليس

---

[1] كذا في (ج)، وفي (ب): الوجود.

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 275.

[4] الحديث أخرجه: – الطبراني، المعجم الكبير، ج8، ص: 283./ – أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج4، ص: 154.

[5] الهيولي: عندهم اسم الشيء بنسبته إلى ما يظهر فيه صورة، فكل باطن يظهر فيه صورة يسمونه هيولي. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 108.

[6] خصص الجيلي كتابا كاملا للحديث عن الإنسان الكامل وأنّه محمد ρ وأنه مقابل للحق والخلق. ينظر: عبد الكريم بن ابراهيم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويصة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص: 207.

ليسعى من أراد الكمالات في التجليات لنيل الوسائل والدرجات، فذكر أول الدرجات وآخر المنكشفات ليتضمن بعضها بعضا، وقد أشار إلى الوسائط بقوله: "ما سر سره المسرور من سر في سر سره"، فما ومن والضمير المستتر المرفوع المنفصل كلها عائدة على أعرف للمعارف، والضمير المتصل المخفوض عائد على عقال العقل، لأن حميل حميل الحميل حميل.

فصل في معرفة شرف العقل والعلم:

قال الشاطبي: "قال الله تبارك وتعالى: [وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ][العنكبوت/43]، فأثنى الله تعالى على العقل والعلم وقرن بينهما، ولا غاية للعلم لقوله تعالى: [وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ][يوسف/76]، [وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً][طه/114]، والعلم الظاهر باب للعلم الباطن، وقد قال تعالى: [وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا] [البقرة/189]، فالعلم العقلي نتيجة العلم النقلي لأنه استنباط منه موافق للحق، لقوله تعالى: [وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ] [النساء/83][1] فأول العلم العقلي الاستنباط، ووسطه الإلهام، وآخره الأخذ عن الله، قال الهروي: العلم على ثلاث، علم جلي: يقع بعيان أو استفاضة صحيحة، الثاني علم خفي: ينبت بالأسرار الظاهرة والأنفاس الصادقة والأسماع الواعية، وهو علم يظهر الغائب ويُغَيِّب الشاهد، ويشير إلى الجمع، الثالث علم لدني: إسناده ووجوده وإدراكه عيانه، ونعته حكمته وليس بينه وبين الغيب حجاب، قال تعالى: [وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً][الكهف/65]، وقالυ: «إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العالمون بالله»[2]، وفي قصة أبي العباس الحضرمي ما يكفي"، من «شرح المباحث».

وقال سيدي عبد الرحمن اللجائي: "المعرفة نتيجة من نتائج العقل، والبصيرة نتيجة من نتائج المعرفة، ومنبع العلم من العقل، فإن نسبة العلم إليه كنسبة نور الشمس إلى ذاتها، ومستقر العقل في الرأس، أعني بالرأس القلب، وهو قول أبي جعفر الفرجي، لأن القلب رأس الجوارح وأميرهم، وهو معنى قول عبد الله ابن مسعود: "العقول معادن الرأس والعلم دلالة على أعمال الطاعة، والمعرفة دلالة على آفات الأعمال، والبصائر دلالة على اختيار عواقب الأمور ومواردها ومصادرها"، من «قطب العارفين»، وفي المعنى قيل:

العِلْـــــمُ نُـــــورٌ لِلْفَـــــتَى ... والعَقَـــــلُ تَـــــاجُ مِن ذَهَـــــب
والحِلْـــــمُ نُـــــورٌ يُرْتَـــــقَى ... والجَهـــــلُ نَـــــارٌ تَلْتَهِـــــب[3]

وقيل: "العاقل يعيش بعقله، والجاهل يموت بجهلهولو كان في وسط أهله". قال في «الإحياء»: "فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي ρ ، ويفهمك موارد إشارية، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف والزم

[1] الآية ساقطة في (ب).
[2] الحديث أخرجه: - أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج1، ص: 210./ - عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب، ج1، ص:58.
[3] البيتان الشعريان ساقطان في (ب) و(ج).

الإتباع[كذا][1]، وقال أبو حامد: "العقل بيته القلب، قال تعالى:[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ [أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]] [ق/37]،ولا سبيل لأحد عليه، ما دام في بيت مملكته، بل هو الملك المطاع الحاكم على الجوارح،(ولا يتعدى عليه إلا إذا خرج من بيته وصعد للدماغ، لأنه تكسوه البخارات الظامة)[2] فتتصرف الجوارح كيف شاءت كما يكون أولا في دماغ المولود، ثم ينزل لمقام الخلافة، ولذا سأل داوود ابنه سليمان عليهما السلام، فقال له: "أين محل العقل منك؟ فقال: القلب، أشار لغايته".

ثم قال الشاطبي رحمه الله: "وتأمل كيف خص الله العقل بالعلم، كما خص الصدر بالإسلام لقوله تعالى: [أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ][الزمر/22]، وخص القلب بالإيمان لقوله تعالى: [وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ][الحجرات/7]، وخص الفؤاد بالشهود لقوله تعالى: [مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى][النجم/11]، وخص اللبّ به الذكر لقوله: [إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ][الرعد/19] وهي كلها إشارة للقلب، كما ورد في حديث سمَّى الله القلب بأربعة أسماء وعدّ هذه الأربعة.

وقال بعضهم: "العقل عقلان، مكسوب بالأدب وموهوب دون نصب، فالمكسوب مرتب بالشرائع، والموهوب هبة من الصانع، ولما خلق الله العقل على صورة إنسان من النور، وجعل في رأسه الزهد، وفي أذنه الحكمة، وفي وجهه الحياء، وبأيديه السخاء، وفي قلبه الرأفة، وفي معدته القناعة، وفي فرجه العفة، وفي رجليه الاستقامة، وفي طبعه الصبر، ثم أقامه بين يديه، وهو أول مخلوق، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: تحرك، فتحرك، ثم قال له: أسكن، فسكن، ثم قال له: اسمع، فسمع، ثم قال له: أبصر، فأبصر، فقال الحق: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقا أشرف منك، بك أعرف وبك أنزه وبك أعبد، فخر ساجدا فقال الحق: ارفع رأسك، فوعزتي وجلالي، لاوضعتك إلا في أحب خلقي إليَّ، فقال: بعظمتك يا رب إلا ما شفعتني فيمن وضعتني فيه، فقال: قد أعطيتك ذلك قبل أن أخلقك، فلما خلق الله آدم وذريته يوم[أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ] عند الخلق الأول قسَّمه عليهم من أخذ قدر السمسمة ومنهم من أخذ ما لا حد له، وبقدر تلك القسمة وقع التفاوت في الخلق، ثم إن النفوس زاحمت العقول في قفص الجسم، فمن أيده الله بالتوفيق استولى عليه العقل واطمأنت نفسه، ومن خذله الله جعل عقله في قبضة نفسه لا حكم له عليها ولا اختيار له معها، فبالعقل علم من علم وبالإدراك انجمع من الجمع، وبعلو الهمة وصل من وصل، كل ذلك من غير حول ولا قوة للعبد بل هي أعمال شرعية وأحوال قلبية يعتقدها العبد[3] في البداية والله قصده في النهاية، فهذه الأسباب التي سنها الله لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا وتحويلا، [لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً][المائدة/48]، من «شرحه للمباحث».

وقال السملالي صاحب «منظوم الأخبار»: "إن الله تبارك وتعالى قسم العقل على ألف جزء، أعطى لسيدنا ومولانا محمد جميعها، إلا جزءا واحدا قسمة على جميع الخلائق، ثم إنه ρ بكمال عقله اختار الفقر على الغنى"، ولذلك قالυ لأمته الأولى: «من علامة العقل التجلي عن الدنيا التي هي دار الغرور»[4] "الحديث"، قوله: "يعقل

---

[1] النص ساقط في (ب) و(ج).

[2] ساقط في (ب).

[3] كذا في (ج) وفي (ب): القلب.

[4] لم نعثر عليه.

بالعقل ما سرا"، إنما نص الناظم هنا للعقل بالذكر دون القلب، والروح والنفس مع أنها مشتركة معه في باطن كل إنسان، لأن العقل له معني واحد فسر به اسمه ولا كذلك الثلاثة المذكورة، فإن لكل واحد منها معنيين فأكثر، والعقل يجمع معاني حقائقها لا أجسامها، وسيأتي ذلك مشروحا في كلام الغزالي.[1]

فصل في معرفة معاني أسرار النفس المشاركة للعقل:

قال الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف القرشي البوني رحمه الله: "اعلم أن النفس هي ألطف المخلوقات وأشرف المصنوعات، لأنها عالمة بالله تعالى علما لم تبلغه الأجسام لكثافتها، وإليها انتهت المعرفة العلمية، ومنها يكون الارتقاء إلى معرفة الباري جلت قدرته، فهي الطريق القويم والصراط المستقيم، ولذلك قال تعالى: [وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ][الذاريات/21]، وقال رسول الله ρ: «من عرف نفسه عرف ربه»[2]، والنفس أنموذج لطيف أودعها الله في هذا القالب وجعلها محل الشهوات والأخلاق الرديئة، والروح عظيمة أودعها الله تعالى الأجسام وقرّ بها حياة الأبدان، وجعلها محل الأخلاق الحميدة والفضائل الجمة وكلاهما أودع فيه سر[كذا][3] بعضها لبعض، والجسم تابع لهما، والمجموع من ذلك يعبر عنه بالإنسان، مثال ذلك حاسة السمع، وحاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، ومجموع ذلك يعبر عنه بالوجه والأرواح، هي التي ترقى إلى حضرتها التي أبرزها الله منها في حالة النوم بصفاء صدقه أو صحته، ثم ترجع إلى الأجسام ما لم يقبض أجلها في عالم الغيب الذي انفرد به تعالى، قال جل ذكره: [اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا][الزمر/42]، وقال ρ: «أرواح المؤمنين تبيت ساجدة تحت العرش»[4].

وأما كون الأنفس والأرواح لطائف الأجسام في الصور، فالملائكة والشياطين كلاهما لطيفان، إلا أن الشياطين محل الهوى والإغراء، والملائكة محل الأخلاق الحميدة والفضائل الراقية، فهي نسبة الروح وتلك نسبة الشياطين، والروح والجسم والنفس مجموع قولك: الإنسان والحساب يكون على الكل، لأن الله تعالى يقول: [يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ][المطففين/6]، وأما معنى قوله ρ: «من عرف نفسه عرف ربه»[5]، قال بعضهم، من عرف أنها محل الآفات والرذائل والشهوات، فيتجنب ذلك بأنواع المجاهدات وأطوار المخالفات وتحقيق الرياضات، كل ذلك سبب لكشف الملكوت والقرب من الله تعالى، ومن قرب من الحضرة قرب من الملك، فيعرّفه به بهذا الاعتبار، فهذا ما ذهب إليه أهل الحقائق من الصوفية، رضي الله عنهم.

وأما السر فإنها لطيفة أودعها الله هذا الإنس، وهو أشرف من الروح، كما أن الروح أشرف من القلب لأن السر عندهم مرآة التجلي، كما أن الروح مرآة المحبة والنفس مرآة العشق، والقلب مرآة المعارف، ولذلك قال قائلهم: "أسرارنا بكر لم يقتضّها وهمُ واهمٍ"، أشار إلى التمكين في الأسرار والثبوت لمشاهدة الأنوار، وأما النفس فاسترواح

---

[1] النصساقط في (ب) و(ج).

[2] تقدم الحديث في الصفحات السابقة.

[3] مطموس بالمداد في الأصل بمقدار كلمة واحدة، وساقط في (ب) و(ج).

[4] لم نعثر عليه.

[5] تقدم الحديث في الصفحات السابقة.

القلب للطائف الغيوب، وهي روح الحال وروح التمكين، وهذا النفس هو الذي يلقي الله تعالى على أرواح عباده المخلصين، فيوحدهم به ريح الجنة وعرف نسيم الرضوان على[كذا][1] الأنفاس، وهم المتمكنون".

وقال أبو حامد في «سلم الصعود إلى دار الخلود»: "اعلم أن النفس الناطقة هي السر الإلهي والروح والكلمة والقلب، وهي جوهر قائم لا في محل ولها نسبة إلى القدس وأخرى إلى البدن، فإذا تلاقت بنور القدس وفاض الشعاع الإلهي على ذاتها وانعكس، وكثر اطّلاعها على الأسرار الإلهية والأنوار الربوبية والذات البرية هي المادة، شاهدت أنوار مشرقة ولوامع مفرقة وخطفات مدهشة ولمحات منعشة وصورا فلكية وذوات ملكية وأنوار قدسية، تحرك جواهر برزخية تحريكات دورية تابعة لإرادات شوقية وإقادات عشقية، تفيض من أنوار قاهرة ذوات إشراقية باهرة وإضاءات زاهرة، فعادت الكلمة بالمهابة متجللة، وبالإضافة متهللة، وبإكليل المجد مكللة، وكلما كثر ترددها وتكرر امدادها وإيرادها تضاعف من اللطائف الإلهية ازديادها، لأن النفس الناطقة مجلى الأنوار الشريفة، ومظهر الصور الروحانية اللطيفة، إذ تخلصت عن الأمور الهوائية وخلعت الملابس الجسدانية، وعرفت مبدعها وأوطانها وسلطت على النمر والضبع[2] سلطانها، وتجلت المفارقات لذاتها وظهرت صور الروحانية في مرآتها، فهي متلذذة عن الخلاص من حبائل الأقفاص فتلك أمراض تتبع النفوس عن الالتذاذ بمعلوماتها وتتألم بجهالاتها.

فإذا زال العائق بخراب الأبدان الحائلة، تنعمت النفوس الفاضلة وتألمت الجاهلة لشعور النفوس النفسية بوجود فضلها وكمالها، وإدراك النفوس الخسيسة لما فقدت بسبب نقصها وإهمالها، فيا لذة الواجد و يا ألم الفاقد، وحصول السعادة، فانتعاش النفس بالفاضل، وانقطاعها عن الرذائل، ومطالعة جلال الحق الأول، وملاحظة جماله الأجمل، في ذروة اللاهوت وبحبوحة العظموت مطالعة عقليته بالاطلاع على الكل من مبدي الكل، فتحصل في الجوهر الناطق صورة الكل بملاحظة ذات الحق من غير فتور ولا انقطاع، بل مشاهدة عليه ظاهرة الإنجلا أبدية الاطلاع، فسبحان من كشف المحجوب لأعين القلوب بشمس الغيوب فخرجت من القوة إلى الفعال.

والحق الأول يعطي لكل مستعد ما يليق باستعداده من الكمالات، فالواهب واحد والعوامل مختلفات، فتتصل النفس بالعالم الذي لا تتطرق إليه العاهات، وترجع إلى أبيها النائم بالسطوة القاهرة على رؤوس ثعابين الظلمات، وتنجذب إليه كانجذاب فرادات الحديد إلى مغناطيس أعظم من الأرض والسموات، وسينكشف للذوات المجرادات إذا برزت من البرازخ، وقطعت المسافات، وأشرقت على شرفات المعارج الساميات بأنوار المفارقات ما لا يناسبه انكشاف الأجسام للأعين الناظرات بواسطة أنوار الشموس الساطعات.

ونحن إذا انقطعنا عن الشواغل وتغذينا بأغذية الفضائل، وضَعُف سلطان قولنا، بتقليل الطعام وكثرة السهر والصلوات في جنح الظلام، تتخلص نفوسنا أحيان إلى العالم الروحاني والسمت النوراني، وتتصل بأبيها وأخواتها وأهليها، وهي النفوس الفلكية والجواهر الملكية، فتتلقى منها المعارف الربانية واللطائف الروحانية، وتتناول من النفوس السمائية الإمدادات الغيبية والإفاضات الروحية في نومها ويقضتها كمرآة تظهر فيها الصور، ويلوح في صفائها الأثر،

---

[1] مطموس بالمداد في الأصل بمقدار كلمة واحدة، وساقط في (ب) و(ج).

[2] الحيوانات هي رموز اتخذها الصوفية لتعيين بعض الصفات النفسية، –كما اتخذوا الألوان كرموز إلى بعض المقامات الروحية–، فالذئب لوصف آفة الغدر، و الأرنب للغفلة، و الجمل للحقد، وإيذاء الناس للعقرب، والحرص للنمل، والبخل للفأرة،.. ينظر: عبد القادر الجيلاني، رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، دار السنابل، دمشق، ط2، 1994، ص: 59، 60.

فإذا شاهدت النفس أمرا عقليا وطالعت نقشا أهليا، أخذت المتخيلة في محاكاته، وتوغلت في تشبيهاته، فينعكس إلى عالم الحس الظاهرة في طرف الانبعاث المتواتر بعد غيبة وارد ويقضة صادر، فيشاهد المطلع على ذلك صورا عجيبة تواجهه، ويسمع كلمات منظومة تشافهه، وينجلي الأمر الغيبي والمنامات أيضا، منها محاكات خيالية وتشبيهات مثالية لما شاهدت النفس الصادقة التشكيل لا الأضغاث التي تحدث من دعابة شيطان التخيل، ولكنه يحدث في نفوس المتلاهين طربا قدسيا ويثير في أرواح المكاشفين سرورا روحانيا ويشرق عليهم نور الحق فتخضع لهم العنصريات خضوعا انفعاليا.

وكما أن الجواهر المعدنية إذا وضعت في النار استفادت منها خاصية الإحراق، فكذلك تكتسب النفوس من عالم النور مهابة الإشراق، فالنفس إذا حصل لها هذا الوصول انفعل لها الفروع لاتحادها بالأصول ودارت عليها الأنوار اللامعة والأشعة الساطعة، لقد برقت بروق اللاهوت في سر عبد انفرد عن أبناء جنسه وغلق أبواب حسه وقطع الشاغلات عن نفسه، وقهر بذكر الله ما دبّ في رحمه، وكان ذكر الله أكبر همه، ويفرض نفسه أنها منفصلة عن الجهات فيتخلص من برزخ الأقدار، ويرسخ في بحار الأنوار، يتعلق بحبل الشعاع، ليصعد إلى سوق السماع، ويسرح في فضاء ليس له أطراف متسع الأرجاء بالأكناف، فلم يرجع إلّا وصحيفة نفسه منقوشة بأساطين النور مملوءة من البهجة والسرور.

وقال الشاطبي τ: "قلوب الأحرار قبور الأسرار"، وإفشاء السر لوم، لكن يومئ إليه بالتلويح لا بالتصريح، ويرمز نحوه بالمثل والإشارة لا بصريح العبارة كما قيل: "يا أهل الإشارة في فهم الأمثال بشارة، وفي المعاني المستعارة ما يغني عن صريح العبارة، وإياك أعني واسمعي يا جاره"، وقد قيل في المعنى تنسم النسيم، وقال:

أُشْفِي العَلِيلَ بِأَنْفَاسِي وأُنْعِشُـــــهُ	وأَكْتُمُ السِّرَّ خَوفًا مِن ذَمِّ الغَيْـــــرِ
أُغَازِلُ الزَّهْرَ في رَوْضَاتِهِ طَرَبًـــــا	وأَسْتَمِيلُ بِلُطْفِي مِعْطَفَ الشَّجَـــرِ
فانْظُر بِعَقلِكَ في لَونِي ثَوْبِ مُعْتَبِـــــرًا	فَفِي الشَّواهِدِ مَا يُغْنِي عَنِ الأَثَـــــرِ

وقال:

كَسَى الحُبُّ جِسمي ثَوْبَ الضَّنَا … فَرُوحِي[1] مِن شَوْقِهَا فِي عِنَا
كَانَ الهَوَى إِذْ رَمَى سَهْمَهُ … لِقَلْبِي دُونَ الوَرَى قَدْ عَنَا
تَدَانَا فَأَدْنَى إلى أَضْلُعِي … هَوَى كُلَّمَا قَدْ دَنَى قدنَا
بَقِيتُ بِهِ فِي ثَنَائِي لَهُ … وأَبْقَى إلى الوَجْدِ ذَاكَ العَنَا
يَقُولُ الراكِبُ لَا تَأْلَفَن … سِوَانَا إِنْ كُنْتَ مِن أَهْلِ الفَنَا
حَمَينَا الوِصَالَ بِحَدِّ النِّصَالِ … فَإِن تَلق سُمَّ الفَنَا تَلْقَنَا
فَلَا تَجُز عَنْ لَحَدِ النِّبَالِ … ومُرِّ النِّكَالِ فَفِيهِ الهَنَا
ومُتْ مِثْلَ مَا مَاتَ أَهْلُ الهَوَى … وذَابُوا اشْتِيَاقًا فَنَالُوا المُنَا
ومَا ضَرَّهُم حِينَ نَادَيْتُهُم … عَلَى طُورِ قُرْبَى قَلبِهِم أَنِّي أَنَا

وقد قيل: "من لم يفهم صرير الباب، وطنين الذباب، ونباح الكلاب وحشرات التراب، وجريان السحاب، ولمع السراب، فليس من ذوي الألباب ولا يفهم إشارة الأحباب"، من «شرح المباحث»، قلت، وأصل هذا الشعر وإشارة الكلام للإمام عز الدين بن عبد السلام.

وحدثني بعض إخواننا أنه سمع في صغره منه كلبين يتحدثان بالزناتية، قال: فبقيت متعجبا إلى أن بلغت فدخل كلب لخيمتي ليلا، فقال له كلبي: بالك بالك، فقال له الكلب الداخل: مالك حاجة، مالك حاجة، فخرج الكلب الداخل. وهكذا حدثني سيد علي بن سباع بن محمد بن عيسى أنه سمع ديكا ودجاجة يتفاوضان أمر الوقت، فقال الديك إن الوقت حل، فقالت الدجاجة لم يزل، فقال الديك، قد دخل وصرخ.

[في ذكر ما هية "السرّ"[2] عند الصوفية:]

قوله: "سر سر سره المسرور من سر في سر سرّه"[3]، يعني أن هذا السر الذي أدركه العقل بالنور المحمدي على سبيل الترقي كما أسلفناه، إنما هو سرُّ سرِّ سرِّه الأول والأقرب إليه وهو السرور، ثم نعت هذ السر الأعلى المقدم بقوله: من أي الذي سره في سرِّ سرّه، أي العقل على سبيل التدلي فكأنه يقول: ينكشف بهذا النور سر الخفاء الذي هو سر الروح، وهذا الكشف الروحي هو سر الكشف السري، والسري هو سر القلبي، والقلبي وهو سر العقلي على

---

[1] في (ب): فنفسي.

[2] السرّ هو ما يخص كل شيء من الحق عند التوجه الإيجادي إليه ، ولهذا قيل: لا يعرف الحق إلاّ بالحق، ولا يطلب الحق إلاّ بالحق؛ لأن ذلك السر هو الطالب للحق، والمحب له و العارف به كما قال ρ: " عرفتُ ربي بربي". ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 41.

[3] هذا المقطع يقترب من معنى أحد الأبيات الشعرية للشيخ عبد القادر الجيلاني، هذا نصّه: وُجُودي سَرَى فِي سِرِّ سِرِّ الحقيقةِ // ومرتبتِي فَاقتْ على كُلِّ رُتْبَةِ. ينظر: يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، ص: 110.

ما تقدم. قال بعض العارفين: "السر ما خفي عن الخلق، فلم يعلم به إلا الحق، وقيل ما غيَّبه الحق عن الخلق، فلم يطلعهم عليه".

وسر السر ما لا يحسن به السر، والسر ثلاثة أشياء: سر العلم وسر الحقيقة، وسر الحال، فسر العلم حقيقته العالمين بالله، وسر الحال معرفة مراد الله عز وجل في الحال من مَنِّ الله، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة، فآفة سر العلم الإفشاء إلى غير أهله، وآفة سر الحال ترك حرمة الحال بإظهار الحركة برؤية النفس إلى غير أهله، وآفة سر الحقيقة السكون مع النفس في مشاهدتها الحقيقة وترك الفتوة، وفي هذا المعنى أنشد النوري رحمه الله:

كَادَت سَرَائِرُ سِرِّي أَنْ تُسْتَرَ بِمَـــا ... أَوْلَيْتَنِي مِن جَمَال سُرُورٍ لَا أُسَمِّيـــه

فَفَاحَ[1] بالسِّرِّ سِـــرٌّ مِنْكَ يَرْقُبُـــهُ ... كَيْفَ السُّرُورُ يُسَرُّ دُونَ مُبْدِيـــهِ

فَظَلَّ يَلحَظُنِي سِـــرِّي لِأَلْحَظـــهُ[2] ... والحَقُّ يَلْحَظُـــنِي إن لَا أُرَاعِيـــهِ

فَأَقْبَلَ الوَجْدُ يَعْنِي الكُلُّ عَن صِفَـــتِي ... وأَقْبَلَ الحَـــقُّ يُخْفِينِي وأُبْدِيـــهِ

فقوله: "تُسر" أي تفرح بالأسرار دون سر الأسرار، لأن الحق إذا ظهر تلاشا كلما سر وحُجب، وكان الشيخ أبو محمد القاسم بن عبيد البصري المالكي τ كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات، وهو القائل: "الوجود جحود، ما لم يكن عن شهود"، وشاهد الحق يعني شهود الوجود، وينفي عن العين الوسن، سكره يزيد على سكر الشراب، وأرواح الوجد[3] من عطرةٍ لطيفةٍ، كلامهم يحي موات القلوب ويزيد في العقول، والوجد يسقط التمييز، ويجعل الأماكن مكانا واحدا، والأعيان عينا واحدا، وأوله رفع الحجاب، ومشاهدة الاقتراب وحضور الفهم وملاحظة الغيب، ومحادثة السر وإياس المفقود، وصحة الوجود وانقطاع أوصاف البشرية على التعلق، فمعنى الوجد حال وجوده، ومن لا فقد له لأوجد له، وأهله على مقامين ناظر ومنظور إليه، فالناظر مخاطب بشاهد وجده، والمنظور إليه مغيب، قد اختطفه الحق بأول ما ورد إليه، والوجود نهاية الوجد، لأن التواجد استيعاب العبد، والوجد يوجد استغراق، والوجود يوجب إلى العبد، وترتيب هذا الأمر حضور ثم ورود ثم وجود ثم خمود، فبمقدار الوجود يحصل الخمود، وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوه بقاؤه، وحال محوه فناؤه بالحق، وهاتان الحالتان متعاقبتان عليه أبدا.

والوجد اسم لثلاثة معان، الأول: وجود العلم الذي يقطع علم الشواهد في صحة مكاشفات الحق إياك، والثاني: وجود الحق وجودا غير منقطع عن مسامع الإشارة، والثالث: وجود مقام اضمحلال اسم الوجود بالاستغراق في الأولية، فإذا كوشف العبد بوصف الجمال سكن العبد فاضطرب وهام السر، فصحوك من لفظي هو الوصل كله، وسكرك عن لحظي يبيح لك الشرب، فما ملّ ساقِيها، وما ملّ شارب لحاظه، جمال كأسه يسكر اللّبا.

وقد سئل عن الخضر أهو حي أم ميت، فقال: اجتمعت بأبي العباس الخضر υ ، وقلت له: أطربني بأعجوبة مرت بك من الأولياء، فقال: اجتزت يوما بساحل البحر المحيط بحيث لا يرى آدمي ولا غيره، فرأيت رجلا نائما ملتفا

[1] في (ب): فصاح.

[2] في (ب): وألحظه.

[3] الوجد: شعلة متأججة من نار العشق يستفيق لها الروح بلمع نور أزلي، وشهود دفعي. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 186.- خصص الطوسي بابا للحديث عن الوجد من حيث تعريفه وماهيته وأنواعه. ينظر: أبو نصر عبد الله بن علي السّراج الطوسي، اللُّمع، (مصدر سابق)، ص: 263- 272.

بعباءة، فوقع لي أنه ولي فركلته برجلي فرفع رأسه، وقال: ما تريد؟، فقلت: قم للخدمة، فقال لي: اذهب واشتغل بنفسك، فقلت له: لئن لم تقم لأنادين عليك في الناس هذا ولي الله، فقال لي: لئن لم تذهب لأنادين عليك، هذا الخضر، فقلت: وكيف عرفتني؟، فقال لي: أما أنت فأبي العباس الخضر، فقل لي أنت من أنا، فرفعت همتي إلى الله عز وجل، وقلت في سري: أنا نقيب الأولياء، فنوديت ثلاثا: يا أبا العباس، أنت نقيب من يحببنا، وهذا نقيب من نحبيه، فأقبل علي وقال لي: يا أبا العباس حديثي معك، فقلت: نعم فزودني بدعوة، فقال: منك الدعاء يا أبا العباس، قلت: لا بد، قال: من وجد الله نصيبك منه قلت: زدني، فغاب عني ولم يكن الأولياء يقدروه على الغيبة.

ثم رأيت في نفسي بقية من المشي، فمشيت حتى انتهيت إلى كثيب عظيم من الرمل، فدعتني نفسي إلى الصعود، فلما استويت على أعلاه ظننت أني ساميت السماء، إذا رأيت على ظهره نورا يخطف الأبصار فقصدته فإذا امرأة نائمة ملتفة في عباءة تشبه عباءة الرجل صاحبي، فأردت أن أركلها برجلي، فنوديت: تأدب مع من نحبه، فجلست أنتظر انتباهها، فاستيقظت وقت العصر، وقالت: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، والحمد لله الذي آنسني به وأوحشني من خلقه، ثم التفتُّ فرأتني، فقالت: مرحبا بأبي العباس، ولو كنت تأدبتَ معي من غير نهي كان أحسن، قلت: بالله عليك، أنت زوجة الرجل، قالت: نعم، وقد مات في هذه البرية بدنه، فساقني الله إليه، فغسلته وكفنته، فلما فرغت من تجهيزه، رفع بين يدي إلى السماء، غاب عني، فقلت: زوديني بدعوة، فقالت: منك الدعاء يا أبا العباس، قلت: لا بد، فقالت: من وفر الله نصيبك منه، قلت: زدني، قالت: لا تلمنا إن غبنا عنك، والتفتُ فلم أراها، قال الشيخ أبو محمد، فقلت للخضر: فهل لهؤلاء الأحباب رجل يجتمعون عليه في كل وقت؟ ويرجعون إلى أمره؟ فقال: نعم، قلت: ومن هو في وقتنا، قال: هو الشيخ عبد القادر، قلت: أخبرني عن حاله، قال: هو فرد الأحباب، وقطب الأولياء في هذا الوقت، وما وصل وليٌّ لله تعالى إلى مقام إلّا وكان الشيخ عبد القادر، ولا سقى حبيبا كأسا من حبه، إلا وكان الشيخ عبد القادر هناك، ولا وهب الله لمقرَّبٍ حالا إلا وكان الشيخ عبد القادر أحلّهُ وقد أودعه الله سرا من أسراره، سبق به جمهور الأولياء، وما اتخذ الله وليا كان أو يكون إلا وهو متأدب مع الله [كذا][1] السر إلى يوم القيامة.[2]

توفي أبو محمد بالبصرة سنة ثمانين وخمسمائة، ولما صلى عليه سمع من الجو أصوات طبول، وأسلم يومئذ مائة من اليهود والنصارى، وكان يوما مشهودا. قال أبو الحسن النوريτ: حيل بيني وبين قلبي منذ أربعين سنة، وما اشتهيت شيئا ولا استحسنت شيئا منذ عرفت ربي عز وجل، وأنشد أيضا:

---

[1] بياض في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

[2] هذه من أبرز صفات الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي وصل إلى القطبية، وهي مرتبة من أعلى المراتب التي يمكن أن يصل إليها السالكون إلى الله، وفيها تكون الرياسة للقطب على سائر الأولياء، قيل أن الشيخ الجيلاني وقف ذات مرة على منبره برباطه ببغداد، فقال: " قدمي هذه على رقبة كلّ ولي لله" فطأطأ كل الحاضرين – وقيل غير الحاضرين– رؤوسهم تصديقا واعترافا بهذه العبارة التي تفوّه بها الشيخ، وقد كانت هذه العبارة باعثا للشطنوفي إلى تأليف أشهر ترجمات الشيخ الإمام (كتاب بهجة الأسرار).

وقد تردّدت هذه معاني الولاية والقطبية في بعض أشعار الشيخ، نجتزأ منها ما يلي:

أنَا البَازِيُّ أَشهَبُ كُلِّ شيخٍ ومن ذا في الملاَ أُعطَى مِثَـالِي
وَوَلاّنِي على الأَقطَابِ جَمعًا فَحُكمِي نَافِذٌ في كُلِّ عَـالِي
أنَا الحَسَنِيُّ وَ المِخدَعُ مَقامِي وَ أَقدَامِي عَلَى عُنُقِ الرِّجَـالِ.

ينظر: – يوسف زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الاشهب، ص: 73، 74./ – يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، ص: 148 – 151.

ذَكَرتُ ولم أذكُر حَقِيقَةَ ذِكْـــرِهِ ولَكِن بَدَاوِي الحَقِّ تُبْدِي فَانْطِـــــق
إذَا مَا بَدَا ذِكْرٌ لِذِكْرِي ذَكَـــرْتُهُ يُعَاتِبُنِي عَن ذِكْرٍ غَيرِي فَأغتَـــــرِق
وأَغْرِقُ بالذِّكْرِ الذِي قَد ذَكَـــرْتُهُ عَن الذِّكْرِ بالذِّكْرِ الذِي هُوَ سَــــابِقُ

عبدي إذا آتيتك بقُولة مُسَوَّسَة، فاعلم أني ذكرتك بها، [فاذكروني أذكركم].

وقال غيره:

بَيْنَ المحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيـــــهِ خَطٌّ ولَا قَلَمٌ للنَّاسِ يَحْكِيـــــهِ
سِرٌّ يُقَابِلُهُ أُنْسٌ يُمَازِجُـــــــهُ نُورٌ يُخْبِرُهُ عَن بَعْضِ مَا فِيــــــهِ

قال الإمام القشيري: "السر مالك عليه إشراف، وسر السر ما اطلاع عليه لغير الحق سبحانه، ومقتضى أصولهم ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب، ويطلق لفظ السر على ما يكون مكنونا بين العبد والحق تعالى في الأحوال".

[في ذكر "النور"[1] وما المقصود به:]

قوله: "نور نور كل نور لولاه لا نورا"، قال: نور الأنوار جلّ جلا له: [اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ][النور/35]، قال جلال الدين المحلي: "أي منورهما بالشمس والقمر"، وقال الولي الصالح سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي: "المعنى منور السموات والأرض، أي به وبقدرته نارت أضواءها واستقامت أمورها، كما تقول الملك نور الأمة، أي به قوام أمرها وصلاح جملتها، و الضمير في نوره يعود على الله تعالى، وهو إضافة خلق إلى خالق كما تقول بيت الله.

ثم اختلف في المراد بهذا النور، فقيل هو محمدρ ، وقيل المؤمن، وقيل القرآن والإيمان، والمشكاة هي الكوة غير النافذة فيها القنديل، فعلى القول الأول فمحمد ρ هو المشكاة أو صدره، والمصباح النبوءة وما يتصل بها من علمه وهديه، والزجاجة قلبه والشجرة المباركة هي الوحي، والزيت الحجج والبراهين، وعلى الثاني فالمشكاة صدر المؤمن، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها الحجج والحكمة التي تضمنها، والمصباح الفتيل فناره، والزجاجة جرم شفاف المصباح فيه أنور منه في غيره، والكوكب الزهرة لا شرقية ولا غربية، أي هذه الشجرة ليست من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربة الله لنوره، قال الحسن"، مختصر من «الجواهر».

والحامل لهؤلاء العلماء رضي الله عنهم على هذه التأويلات قصور لفهم أكثر الخلق عن درك الحقائق، وبلادة العوام ومخافة أن يعتقدوا التشبيه والتجسيم فيمن ليس كمثله شيء وهو السميع العليم، وأما علماء الطريقة فإنهم نفذوا إلى الحقيقة وصرحوا ولا عليهم من الخليقة،[فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ] [الكهف/29]،

[1] النور: اسم من أسماء الله تعالى وهو تجلّيه باسمه الظاهر، أعني: الوجود الظاهر في صور الأكوان كلها، وقد يطلق على كل ما يكشف المستور من العلوم الذاتية، والواردات الإلهية التي تطرد الكون عن القلب. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 106.

وكشف الغطاء عن ذلك في كلام أهل الحقيقة، قال الإمام أبو حامد في شرحه "لأسماء الله الحسنى"[1]: "(النور من أسماء الله العظيمة)[2]، وهو الظاهر الذي به ظهور، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا، مهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود، ولا ظلام أظلم من العدم، فالبري عن ظلمه العدم، بل عن إمكان العدم المخرج كل الأشياء عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، جدير بأن يسمى نورا، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته، فهو نور السموات والأرض، وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة، كذلك بلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب موجدها.

فإن قلت حيث تحقق عندنا أن الله هو نور النور، والنور أظهر الظهور، والظاهر لا يتمارى فيه، ولا يختلف في إدراكه، وهذا وقع فيه الريب الكثير للخلق، فكيف يكون ظاهرا، فاعلم أنه إنما خفي مع شدة ظهروه لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه ونوره هو حجاب نوره، ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستبعده ولا تفهمه إلا بمثال، لو وجدت كلمة مكتوبة لحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها عالم مريد قادر سميع بصير حي ،ولم يدل عليها إلا صورة واحدة، وكما شهدت هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب، فما من ذرة في السموات والأرض وما بينهما من صفة وموصوف إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبرها وخالق خلقها وقدرها وخصصها بخصوص صفاتها، ولو كانت الأشياء مختلفة في الشهادة يشهد بعضها ولا يشهد بعضها لكان اليقين حاصلا للجميع، ولكن لما كثرت الشهادات، واتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور.

وانظر إلى نور الشمس إنما عرف قيامه بالمتلونات بالتفرقة التي تدرك بين الظل وموضع النور، والليل والنهار حين غيوبتها أدركت التفرقة بين النائر المستضيء، وبين المظلم المحجوب عنها مع بقاء لونه في الحالتين، فعرف وجود النور بعدم النور، ولو طفق نور الشهر كل الأجسام الظاهرة لشخص ولم تغب عنه فيدرك التفرقة لتعذر عليه معرفة كون النور شيئا زائدا على الألوان مع أنه أظهر الأشياء، بل به ظهرت، ومن هذا المعنى كان اسمه تبارك وتعالى الباطن، لأنه باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال، فهذان الوصفان من المضافات، فإن الظاهر يكون ظاهر الشيء من وجه وباطنا لشيء من وجه آخر، ولا يكون من وجه واحد ظاهرا وباطنا لأنهما متناقضان، فإن الظهور والبطون إنما يكونان بالإضافة إلى الإدراكات، وأنشدوا:

أَيَا عَجَبًا كَيْــــفَ يَخْفَى الإِلَــــهُ   أَم كَيْفَ يَجْحَــــدُهُ الجَاحِــــدُ
وَلله فِي كُـــــــلّ تَحْرِيكَـــةٍ   وَتَسْكِينَةٍ لِلْـــــــوَرَى شَاهِــــدُ
وَفِي كُلِّ شَــــــيءٍ لَهُ آيَـــــةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّــــــهُ وَاحِـــــدُ

وقال الغزالي في «سلم الصعود»: "اعلم أن النور ينقسم إلى ما هو هيئة لغيره، وهو النور العارض وإلى ما ليس بهيئة لغيره، وهو النور المجرد والنور المحض وما ليس بنور في حقيقة نفسه، منه ما يستغني عن الكل وهو الجوهر الغاسق المظلم، ومنه ما هو هيئة لغيره وهي الهيئة الظلمانية، والبرزخ هوالجسم ويرسم بأنه هو الجوهر الذي يقصد

[1] في (ب) و(ج): في " المطلب الأسنى".
[2] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

بالإشارة، وقد شوهد من البرازخ ما إذا زال عنه النور بقي مظلما، فليست للظلمة عبارة إلا عن عدم النور، فالنور لهذه البرازخ الكوكبية زائدة على برازخها، وقائم بها، فهي أنوار عارضة تحملها جواهر غاسق.

فالنور العارض مفتقر إلى الجواهر الغاسق وهو غير في نفسه، ولما كان قيامه به فهو مفتقر ممكن ووجوده ليس من الجوهر الغاسق، لأن الشيء لا يوجب ما هو أشرف من ذاته فثبت أن واهب الجواهر الغاسقة أنوارها غير ماهيتها المظلمة، لأنها خفية لا توجب ما هو أظهر منها، فصح أن معطي الأنوار للبرازخ غير مبرزخ ولا جوهر غاسق، وإلا كان حكمه كحكمها، فهو أمر خارج عن البرازخ والغواسق.

والحقيقة البرزخية أيضا غير غنية في ذاتها، وإلا ما افتقرت إلى التخصيصات من الهيئات الظلمانية، فالجميع مفتقر إلى نور مجرد، وكل نور مجرد محض فلا يشار إليه وكل نور يشار إليه فهو نور عارض، والنور العارض ليس نورا لنفسه إذ وجوده لغيره فلا يكون إلا نورا لغيره، والنور المحض المجرد لنفسه ومدرك لذاته، ولا يدرك ذاته بمثال لذاته في ذاته، فإن علمه إن كان بمثال، فإنه لم يعلم نفسه، وإن علم أنه مثال نفسه فقد علم نفسه لا بالمثال، بل يتصور أن يعلم الشيء نفسه، بأمر زائد على نفسه فإنه يكون صفة له، فإذ حكم أن كل صفة زائدة على ذاته كانت علما أو غيره، فهي لذاته وأنت لا تغيب عن ذاتك فلا تحتاج لإدراكك لذاتك إلى غير ذاتك الظاهرة لنفسها أو الغير الغائبة عن نفسها، فيجب أن يكون إدراكها لنفسها كما هي، فشعورك بذاتك لم يزد على ذاتك بالمدرك، هو الظاهر لنفسه بنفسه ولا خصوص معه حتى يكون الظهور حالا له، بل هو نفس الظاهر لا غير، فهو نور لنفسه، فيكون نورا محضا ظاهر في حقيقة نفسه، وهو مظهر لغيره بذاته، وهو في نفسه من كل ما يكون ظهوره زائدا على حقيقة.

والنور العارض ينقسم إلى ما يكون في البرازخ، وما يكون من الأنوار الممتدة، وهو النور المعالج والشعاعي، والأنوار المجردة لا تختلف في الحقيقة وقد تبين أن أنانية الإنسان نور مجرد مالك لنفسه، فيجب أن يكون الكل مدركا لذاته إذ ما يجب على شيء يجب لمشاركه في الحقيقة، وواجب البرازخ نورها ووجودها نور مجرد، والنور المجرد حي مدرك لأنه نور لنفسه، وإذا افتقر النور المجرد ماهيته فاحتياجه لا يكون إلى الجوهر الغاسقة المرات، بل افتقاره يكون إلى نور قائم.

ولا تذهب سلسلة الأنوار القائمة المترتبة إلى غير نهاية، فإن المرتبات المجتمعة لا بد لها من النهاية، فيجب أن تنتهي الأنوار القائمة والعارضة والبرازخ وهيأتها إلى نور ليس وراءه نور وهو نور الأنوار، والنور المحيط والنور القيوم، والنور القدوس والنور الأعظم الأعلى، وهو النور المهاب سبحانه وتعالى.

فإن قلت: ما فائدة تكرار الناظم لفظ النور، مع أن أ نوار الأنوار كلها واحد لا شريك له في إنارتها؟، قلنا: نعم، الأمر كذلك، إلا أن هذا تكرير لا تكرار، جيء به لحكمة مغزيتها، وإن كان ذلك النور المسبب المكتسب عندها لا بها، فهو أمر عادي لا عقلي، ويصح فيه التخلف، ولا تأثير لأحد المتلازمين المترتبين من الآخر البتّة، بل النور الهادي هو نور كل نور بلا واسطة أصلا، فإذا عرفت هذا فاعجب بحكمة مسبب الأسباب، واعلم أن السموات والأرض تنوّرت بنور القمر والشمس والكواكب، وهذه الذراري والنجوم استنارت من نور العرش، والعرش أضاء وتلألأ من نور محمد ρ ، و هو تكوّن من نور الأنوار العزيز الجبار.

فأنزل تكرير الناظم على ما ذكرناه تجده مطابقا كما قررناه، فالنور الأول خبر أووصفا (للأزلي)[1] القديم، والنور الثاني خص به المصطفى الكريم، والثالث للعرش، والرابع لنيرات العرش، ولذا جمعها وحصرها بكلٍّ لتعدُّدها بخلاف الثلاث الأولى، ويشهد لهذا ما أخرجه أبو الشيخ وغيره عن عكرمة، قال: "الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، وهو جزء من سبعين جزء من نور السر"، ذكره السيوطي في «الهيئة السنية».

قال سيدي أبي مدين: "الحق تعالى مستتر والوجود مستتر والمادة عين الوجود، لو انقطعت المادة لانهدم الوجود"، وأصرح من هذا قول الناظم في قصيدته "الدالية في مدح خير البرية"، بل هو تفسير لما [كذا][2]مولى الوجه الذي بهما جمال،فيشير في ضوء الشمس :"وضي نيرات الجميع –إلى قوله–: بل مصنوع علام)، ويشهد لهذا القول العقول والنقول، قال سيدي عبد الجليل: "وقالت طائفة: الأرواح نور من الله وحياة من حياته"، وهذا قول صواب حسن وأراد به قائله أنه نور من أنواره المحدثة عن معنى اسمه النور القديم وحياة يحدثه على معنى حياته القديمة، وهو مثل قول ذي النون: "الروح شعاع الحقيقة على إضافة الملك".

وقالت طائفة: "الروح أمر من الله غير مخلوق وإنما أراد بهذا القول روح الوحي والقرآن، وهو أولى باسم الروح لأنه به حييت الأرواح والوجود كله، قال تعالى: [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا][الشورى/52]، فالأمر هو الروح، والروح هو الأمر، وهو على ضربين قديم ومحدث، فالقديم كلام الله، والمحدث أرواح الموجودات التي حدثت عن معنى أمره، وروح الوحي القديم كمال وجد عن معنى اسمه العليم العلوم كلها، وعن معنى اسمه المؤمن إيمان العالمين أجمعين، وكذلك في جميع الأسماء والصفات، وهذا أصل عظيم يزيل الاشكال كله، قال تعالى: [إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ] [النساء/171]، قال فيه: [قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً] [مريم/21]، فهو أمر من الله وروح منه كما قال تعالى: [قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي] [الإسراء/85]، [إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ [خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ]][آل عمران/59].

فصفات الجليل جل جلا له لا تحل أبدا في شيء ومن أجل جهل النصارى وأهل الحلول بهذه المعاني وقفوا فيما وقفوا فيه من الكفر والضلال، فالأرواح مخلوقة أمر من أمر الله، فإن الله تعالى منها وبانت منه، فهي لا مسلسلة ولا متناسخة ولا تخرج من جسم، وتبعث في غيره تذوق الموت وتتنعم بتنعم البدن، وتتعذب بعذابه، هذا هو الشرع فالروح أمر من الله، والأمر هو كن الصادر عن الإرادة [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ][النحل/40]، أي كن على صورة ما أردت منك أن يكون بلا تأخير، وإذا فهمت سر الروح وماهية خلقه أشرفت على ستر القدر العام لجميع الخلائق، وكيف ينفخ الروح في المخلوقات عند استعدادها لقبول الأرواح بالسعادة والشقاوة وأجله رزقه وجميع ما يكون من كل مكون، كل قدر قبل من وجود الله ما يليق به، ولا يجوز أن

[1] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[2] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

يقبل أكثرولا أقل، لأن ذلك القبول في حقه هو الكمال [كذا][1] رسول الله، والله أحسن كل شيء خلقه [كذا][2]، وإذا فهمت [كذا][3] هذا يجاب عن تكريره للأسرار وترتيبه للأشوار، فاعرف حكمة هذا الترتيب العجيب وادع لصاحب هذا النظم الغريب.

قوله: "لولا هذا النور لولاه"، يعني أن سر الأسرار وشور الأشوار لولاه ما وجدت أنوار، لكنها موجودة محققة في الأبصار، فدلت على بارئها خالق الأنوار لاستحالة وجود الدليل بدون المدلول، فبثبوت الدليل يستلزم ثبوت المدلول عليه، ولا يلزم من نفي الدليل نفي المدلول، كان الله ولا شيء معه، فالله جل جلا له هو نور أصلا، وترتيب لإقامة البخت والفرج في الأمور وتزويج[كذا][4] وبلوغ الدولة وتنوير القلب.

فائدة نورية: قال أبو محمد السهروردي رحمه الله في «خواص الأسماء الإدريسية»: "الاسم الحادي والثلاثون: يا نور كل شيء وهديه، أنت الذي فلقت الظلمات بنورك، خاصيته: من كان أمره معقودا وبخته مفقودا أو صار لا يتوجه إلى صالح إلا يفسد، ولا إلى رابح إلّا يخسر، فليأخذ قلب ضأن رأسه أسود وليقرأ عليه هذا الاسم سبعمائة مرة، ثم ليكتب الاسم وليجعله فيه، ثم ليدفنه تحت عتبته، فإذا فعل ذلك يفتح الله له فتحا مبينا، ويظهر في أمره فرجا قريبا مستبينا، ومن كانت له بنت لا تخطب، ولو خطبت لا يبلغ أمرها إلى التمام وبارت غاية البوار، فليعمل هذا العمل بعينه يحصل المقصد إن شاء الله تعالى"، من «الأربعينية».

وقال سيدي أحمد زروق: "ومن خواص هذا الاسم المذكور أيضا أن من أراد العزة وللدولة فليواضبه كل شهر ألفا وثلاثمائة في كل شيء، فإنه يبلغ أمله"، وقال أيضا: من قرأ سورة النور ليلة الجمعة سبع مرات، ويكثر من ذكر اسمه النور النور تنور قلبه حتى يعلم نفسه"، من «كناشه».

قوله: "شورى شورى شور كل شور"، الشور هو قبلة المتوجه إلى شيء مقصود[5]، وكل شيء في الوجود بقصده و يومه[شاء أم أبا][6][إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ][الفجر/14]، [وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ][الإسراء/44]، [وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً][الرعد/15]، [كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ][النور/41]، ومن أفصح وأوضح قال:

---

[1] بياض في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

[2] بياض في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[3] بياض في الأصل بمقدار أربع كلمات، وساقط في (ب) و(ج).

[4] بياض في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[5] في العامية الجزائرية نقول: فُلان شَوَّرْ، بمعنى سافَرَ أو غادر.

[6] إضافة في (ب) و(ج).

أَنتُم فُرُوضِـــي ونَفْـــلِي   أَنْتُم حَدِيثِـــي وَشُغْـــلِي
يَا كُلّ كُلِّـــي فَكُـــنْ لِي   إنْ لَم تَكُـــنْ لِي فَمَـــنْ لِي
يَا قِبْلَـــتِي فِي صَـــلَاتِي   إِذَا وَقَفْـــتُ أُصَـــلِّي
جَمَالُكُـــم نُصْبَ عَيْـــنِي   إِلَيهِ وَجَّهْـــتُ عَقْـــلِي
وَسِرُّكُـــمْ فِي ضَمِيـــرِي   والقَلْبُ طُـــور التَّجَـــلِّي

فكل موجود هذا تسبيحه وهذا شورَهُ، ولكن لا يعقله إلا العالمون، يقول رحمه الله: "إن سر الأسرار، ونور الأنوار هو أيضا الأشوار، فالعوائد تقفوا الشريعة، والشريعة تتبع الحقيقة، والحقيقة متوجهه للحق، لأنها صدرت منه، وأيضا ملائكة الأرض متوجهون لملائكة السماء، وملائكة السماء متوجهون لملائكة العرش، وملائكة العرش منتظرون لما ينزل إليهم من أمر ربهم: [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا]][الطلاق/12]، وأيضا العلماء مقتدون بأنبيائهم، وأنبياؤهم بجبريل وجبريل بإسرافيل، وهو عن اللوح عن القلم عن ربي القلم، وأيضا الجوارح تطلب القلب، والقلب يطلب الروح، وهي تطلب السر، والسر يطلب سر الأسرار"، قال أبو محمد سهل بن عبد الله يونس بن عيسى بن عبد الله بن ربيع التستري τ: "[الله تعالى][1] قبلة النية، والنية قبلة القلب، والقلب قبلة البدن والبدن قبلة الجوارح، والجوارح قبلة الدنيا"، من «مناقب الأبرار».

قوله: "حقق يا مغرور"، معناه اللهم إنا لا نقدر على تحقيق معنى كلام أهل الحقيقة، فضلا عن تحقيق حقيقة الحق، فاجعلنا من المسلمين المستمسكين بالعروة الوثقى، لئلا نضلُّ فنشقى ولا تجعلنا من المتدلين بحبل الغرور، يا من قال وقوله الحق: [اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ] البقرة/257]، والاغترار هو كما فسره الشيخ زروق: "بأنه رؤية الشيء على غير وجهه حسنا، وهي من عمى البصيرة ومكر الإلهية، نسأل الله العافية".

[في ذكر فاطمة الزهراء رضي الله عنها:]

قوله: "تلك المعنى ما لها حبيب دون ثْرَاية[2]فاطمة الزهراء"، يريد أن تلك المعاني الإلهية والأنوار الربانية لا يؤهل لمعرفتها إلا من كان من أكفاءها من آل بيت رسولها (وأصحابه)[3] وأحبابه كالحسن والحسين[وذرّيتهما ومن كان على منهجهم من أولاد فاطمة الزهراء][4](والصديق وذي النورين وأويس والزاهدين، ومن تناسل من هؤلاء واقتفى مناهج الآباء)[5].

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).
[2] الثّراية: تعنيي في العامية الجزائرية الأبناء، أو كل ما كان من الأصلاب.
[3] ساقط في (ب) و(ج).
[4] إضافة في (ب) و(ج).
[5] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

وسميت فاطمة بذلك لأنه تفطم محبيها عن النار، والزهراء واحدة الزهر بالفتح، ولقبت بذلك لأنها حوراء آدمية طاهرة مطهرة، لا تحيض ولا يرى لها دم في طمث ولا في ولادة، "هكذا ورد في الخبر"، ذكره في «الأنموذج»، وقال فيه جلا الدين السيوطي τ: "فاطمة أفضل من الخلفاء باتفاق" وقال الإمام مالك: "لا أفضل على بضعة من النبي ρ أحدا"، إنما قال ذلك لقوله υ: «فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها»[1]، منه.

وقال الحافظ بن حجر: "المختار عند العلماء أفضلية فاطمة، ثم خديجة، ثم عائشة رضي الله عنهن، لأن جبريل قرأ السلام على عائشة على لسان نبينا محمد ρ ، والرب جل جلا جلاله أقرأ السلام على خديجة على لسان جبريل υ ، (وفَرقٌ بينَ مَن سَلَّمَ عليها الله، وبين من سلَّم عليها عباده)[2]، ولا يعترض بقوله ρ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران أم عيسى روح الله، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[3]، «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[4]، لأنا نقول أن خديجة بنت خويلد لم تدخل في المفضولات لأنها سبقت عائشة للأفضلية، وتوفيت قبل مجيئها، أو نقول: فضلت عائشة النساء في صفات مخصوصة، والأفضلية من وجه لا تقتضي الأفضلية من جميع الوجوه" بالمعنى، من «فتح الباري على البخاري».

(قلت ويتعين تقييد الإطلاق في جنس النساء المفضولات بهذا الحديث بمن سوى فاطمة ومريم وخصوصا على القول بنبوتها، فتكونإلا ألف واللام [كذا] في النساء للعهد والغلبة لا للاستغراق والشمول)[5]، وفي "الخبر": «ينادي مناد يوم القيامة، يا أهل الموقف غضوا أبصاركم لتجوز بنت نبيكم على الصراط إلى الجنة»[6]، ولعزتها وشرفها اشتدت غيرة بعلها عليها في حياتها وموتها، رآها أبو الحسن تستاك يوما بعود الأراك، فقال:

تَمَتّعْتَ يَا عُودَ الأَرَاكِ بِثَغْرِهَـــا ... ولَمْ تَخْـشَ مِـــــنِّي يَا أَرَاكُ أَرَاكَ
فَلَوْ أَنَّ سِوَاكَ يَا سِوَاكُ قَتَلْتُـــهُ ... وَلَمْ يَنْجُ مِـــنِّي يَا سِوَاكُ سِـــوَاكَ

وحين توفيت دفنها ليلا، ثم قال أيضا:

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِـــنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَـــةٌ ... وَإِنَّ اجْـتِـمَــاعَ الـرَّاحِلِيـــنَ قَــلِيـــلُ
يُرِيدُ الفَتَى أَن لَا يُفَـــارِقَ أَهْلَـــهُ ... وَلَــيْـسَ إِلَى مَـــا يبتَـغِيـــه سَـبِـيـــلُ
أَرَى مِحَنَ الدُّنيَـــا عَلَيَّ كَثِيــــــرَةٌ ... وَصَــاحِبُــهَـــا حَـــتَّى المِمَـــاتِ عَـلِيـــلُ
وإِنْ رَكِبُوا صَحْـــــبِي طَرِيقًا رَكِبْتُـــهُ ... وَإِنَّ مُـقَــامِـــي بَــعْــدَهُـــم لَقَلِـيـــلُ
[وإِنَّ افتِقَادِي وَاحِــدٌ بَعْدَ وَاحِـــدٍ ... دَلِــيـــلٌ عَلَى أَن لَا يَـــدُومُ خَـلِــيـــلُ] [7]

[1] الحديث أخرجه: – الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 698./ – البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج7، ص:307./ – الطبراني، المعجم الكبير، ج22، ص: 404.
[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[3] الحديث أخرجه: ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، ص: 470./ – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 650.
[4] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1886./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1252.
[5] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).
[6] الحديث أخرجه برواية " يا أهل الجمع غضوا أبصاركم..": – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 175./– الطبراني، المعجم الأوسط، ج3، ص: 35.
[7] إضافة في (ب) و(ج).

أورده المعافى بن اسماعيل في كتاب مَعْزُو لعلي τ ، وكنت ذيلتُها وقلت:

تَنَبَّهتُ واستَيقَظْتُ مِن نَومِ غَفْلَـــــتِي وَأَيقَنْتُ أَنَّ البَاقِي حَيٌّ جَلِيـــــلُ
فَوَجَّهتُ وَجْهِي والقُلَيْبُ لِصَاحِـــــبِ مُصَاحِبٍ لَا يُفَارِقُنِي جَمِيـــــلُ
وَمَن كَانَ وَجْهُهُ اللهِ شَوْرَ مُـــــرَادِهِ كَفَاهُ لِكُلِّ مَا يَهُمُّ كَفِيـــــلُ

قال الشاطبي: "تزوج علي فاطمة رضي الله عنها عام الهجرة، وفي تلك السنة آخا النبي ρ بين أصحابه واتخذ هو عليا أخا"، وأخرج الجوزي في «المورد العذب»، عن عطاء بن السائب عن أبيه عن علي: "أنه لما زوّجه رسول الله ρ فاطمة رضي الله عنه، فبعث معها بخصيلة ووسادة من أَدَم حشوُها ليف ورحاءين وسقاء وجرتين، فقال لها علي ذات يوم: "والله لقد استقيت حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسقي فاذهبي واستخدميه، فقالت: والله وأنا لقد طحنت حتى فحلت يداي، فأتت أباها، فقال: أي بنيتي، ما جاء بك؟، قالت: استحييت إن أسأله فأتياه جميعا، فقال علي: يا رسول الله لقد استقيت حتى شكوت صدري، وقالت فاطمة: لقد طحنت حتى فحلت يداي، وقد جاء بخير وسعة، فأخذ منا فقال: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تنطوي بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا فأتاهما رسول الله ρ ، وقد دخله في قطيعتهما إذا غطّيا رؤوسهما بدت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما بدت تنكشف رؤوسهما، فثارا فقال: مكانكما ألا أخبركما بخير ما سألتماني، قالا: بلا، قال: "كلمات علمنيهن جبريل، تسبحان في دبر كل صلاة عشرة، وتحمدان عشرا أو تكبران عشرا، فإذا أَوَيتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين، وحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبرا أربعا وثلاثين، قال علي: والله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ρ ، فقال له ابن الدرا ولا ليلة صفين، فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفين".

قال أحمد بن الخطيب القسنطيني: "توفيت فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة أبيها ρ بستة أشهر وقيل بثمانية"، من "شرحه شرف الطالب في أسنى المطالب" على قصيدة ألقاب الحديث التي مبداها:

غَرَامِي صَحِيحٌ وَالرَّجَا فِيكَ مُفَصَّلٌ وَحُـزْنِي وَدَمْعِي مُرْسَـلٌ وَمُسَلْسَـلٌ

[في ذكر الخليفة الأول أبي بكر الصدّيقτ:]

قوله: "وأويس ومن لها أب سِتِّي عيشه الطاهْرَه والمطهر"، أي لا يؤهل المعرفة ذلك المعنى المسرور إلا من هو أيضا مثل أويس المحقور، أو مثل أبي بكر المشهور وهو أبو السيدة عائشة الطاهرة، فسيأتي الله بذكره والتنويه بقدره عند تعرض الناظم لأمره، ونكفيك شهادة رسول اللهρ أنه من ملوك الجنة وأنه خير التابعين، وكان τ يلتقط النوى والفتات من المزابل لقوته، والخرق للباسه ويمكث السنين لا يرى له وجها، ويلزم بيته من العري، وإنما كان يصلي في رثة، وربما لم يجد ما يستتر به فيدخل في قطعة حصير بالية، وكان يقول: "اللهم من مات جوعا أو عريا فلا تؤاخذني به"، وإذا ضره الجوع يقول: "اللهم إني أجود بك من كل كبد جائع".

وأما سيدتنا عائشة المطهرة من الظنون، والغيت، فمنزلتها أشهر من أن تعرّف ويكفيك قول الرسول ρ لابنته الطاهرة المطهرة: «يا عائشة إن الله لم يختر من أهل الأرض أجلّ من أبيك وبعلك، وإن الله تعالى قد جعل لي

أصحابا وأنصارا و أصهارا، ولا طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين على أفضل من أبي بكر، لما قلت: "أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا، قال أبو بكر: صَدَقتَ، فأنزل الله تعالى: [وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ][الزمر/33]، فقلت يا أبا بكر من أين علمت أني رسول الله، قال الذي خصك بالمطالعة خصني بالمبايعة»[1]، وقوله ρ: «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة، ولو كشف عنه الغطا ما ازداد يقينا»[2].

فكنيته أبو بكر، لأنه أول من بكّر بالإسلام، وكان النبي υ ، لم يتزوج بكرا غير ابنته المذكورة، ولقبه الصديق لتصديقه له في كل شيء، وهو من أوزان المبالغة، أي الكثير الصدق، كشريب وهو الكثير الشرب، وسكير، والعتيق لعتاقه وجهه، ولقوله له: «أنت عتيق من النار»[3]، قال ρ: «من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر»[4]، وقال υ: «لا تؤذوني في صاحبي، قال الناس كذبت، وقال أبو بكر صدقت»[5]، ولمنزلته عنده قال في مرضه لأصحابه: «سدوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد، إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم أمرء أفضل عندي في الصحابة من أبي بكر»، ذكره في «الإحياء».

وروى: سد الخوقات (إلا خوقة أبي بكر)، يعني خوقات: ديار الصحابة التي في حائط المسجد المفتوحة للخروج والدخول، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فلما أسلم سماه ρ عبد الله، وهو ابن قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعيد بن تميم بن مرة القرشي التميمي، يلتقي مع النبي ρ في مرة، وهما في عدد الآباء سواء بينهما، حضر مع النبي ρ مشاهده كلها وهي تسعة وعشرون غزوة، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام، غزا فيها ثلاثة وخمسين غزوة، وتوفي سنة ثلاثة عشرة من الهجرة وسنُّه ثلاث وستون سنة يومئذ كسن النبيρ.

[في ذكر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:]

وأشار الناظم بوصفه لأم المؤمنين بالطهارة العامة الشاملة، لطهارة القلب والقالب من الأقذار الحسية والمعنوية، أما الحسية فلما روى البخاري عنها أنها قالت: "كنت أغتسل أنا والنبي ρ من إناء واحد من قدح يقال له[كذا]، فانظر إلى هذا التخصيص العظيم والحرص على الطهارة حيث شاركت النبي الطاهر في طهوره من إناء واحد في وقت واحد، ومع ذلك قالت: "لم ير مني ولم أر منه قط"، وكان ينزل عليه الوحي في فراشها، ويصلي عند رجليها وهي نائمة عليه، ويغمزها إذا سجد فتضم رجليها، قال سيدي علي بن ميمون الحسني: "هذا الحديث الكريم أصل في جواز اغتسال الزوجين معا من إناء واحد، في وقت واحد، ويؤخذ منه أن زوجة العالم يجوز لها أن تخبر بما يجوز الإخبار به من أمر الدين، مما تراه من زوجها أو تفعله معه على وجه التعليم والإرشاد كعائشة لأنها مشهود لها بذلك لقوله υ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»[6]، يعني عائشة، وحميراء تصغير حمراء، وهو تصغير تعظيم وهو مأخوذ من هذا الحديث أيضا لأن لغة النبي ρ أصل لغة العرب واشرفها وأكملها، لأنه أصل الكمال كلّه، وكل

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] حديث" إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة" أخرجه:- عبد الرؤوف المناوي، ج2، ص: 69./- اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 285.

[3] الحديث أخرجه: ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، ص: 279./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 450.

[4] الحديث أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، ج9، ص: 149.

[5] حديث " لا تِذوني في صاحبي" أخرجه: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، 9 ص: 44./ - الطبراني، المعجم الكبير، ج12، ص: 372.

[6] الحديث أخرجه: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص: 92./ - اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 449.

الكمال مُمَدٌّ منه، ولغة العرب أفضل اللغات كلها، ونسبهم أشرف الأنساب، كل ذلك بفضل رسول الله ρ لبرائتها من حديث الإفك في قوله تعالى: [وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ][النور/26] العشر الآيات قبلها.

وقد افتخرت عائشة بنزول القرآن ببراءتها على لسان نبي الله وتسميتها طيبة ووعدها بالمغفرة والرزق الكريم، روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كنت مع النبي ρ في غزوة بعد أن نَزَلَ الحجاب ففرغ منها ورجع ودنى من المدينة وأذن بالرحيل ليلة فمشيت وقضيت شأني وأقبلت إلى الرَّحْل، فإذا عقدي انقطع فرجعت ألتمسُه، وحملوا هودجي يحسبونني فيه، وكانت النساء خفافا، إنما يأكلن العلقة من الطعام، ووجدت عقدي وجئت بعدما ساروا، فجلست في المنزل[1] الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي، فغلبتني عيناي فنمت.

وكان صفوان قد عرَّس من وراء الجيش، فأدلج فسار منه فأصبح في منزله فرأى سواد إنسان نائم، شخَّصَه فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته ووطئ على يدها فركبتُها، فانطلق يقود لي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في حر الظهيرة، فهلك من هلك[كذا] وكان الذي تولى كفره منهم عبد الله بن سالول.

قال المحلي في «تفسيره»: "العِقد بكسر المهملة: القلادة، والهودج: هو ما يركب فيه على بعير، والعلقة: بضم المهملة وسكون اللام القليل من الطعام، وأدلج هما بتشديد الجيم والدال نزل من آخر الليل للاستراحة واسترجاعه هو قوله: [إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ]، وغرين من أوغروا في مكان وغر في شدة الحر.

وسلول أُمُّ عبد الله المنافق، وممن ذكر من المؤمنين في أهل الإفك حسان بن ثابت ومسطح ابن خالة أبي بكر الذي حلف ألا ينفق عليه، لما أن خاض في حديث الإفك، وكذا أناس من الصحابة أقسموا ألا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الإفك، فنزل قوله تعالى: [وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ][النور/22]، فقال أبو بكر: "أنا أحب أن يغفر الله لي"، فرَجَّعَ إلى مسطح ما كان ينفقه عليه، ولأجل براءتها بنص القرآن الكريم فيمن قذفها كفرا لأنه كذَّبَ القرآن وحين تاب الله على المؤمنين قال حسان بن ثابت في مدحها:

حِصَــانُ رَزَان لا تَــزِن بِرِيبَــة وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحُــومِ القَــوَافِــلِ

رَزُنَ: الرجل بالضم، فهو رزين أي وقور، وامرأة رزان إذا كانت رزينة في مجلسها والغَرَث الجوع، رجل غرثان إمرأة غرثا جماعه رغاث، لا تزن: لا تقاسمن بتهمة، وتوفيت عائشة رضي الله عنها أيام معاوية سنة ثمان وخمسين من الهجرة وهي بنت سبع وستين سنة، وإنما اقتصر الناظم على فاطمة ونسلها وأويس وأشباهه، وأبي بكر وأتباعه لنبيه.

[و إنما ذكر ثلاثة نفر لينبّهك][2] أن هذه الأمة ثلاثة أصناف: قرشيون وعلويون وسائر المؤمنين غيرهم، فالقرشيون إمامهم أبو بكر، والعلويون سيداهم الحسن والحسين، ومن عداهم رئيسهم أويس بن عامر القرني اليمني

---

[1] الموضع أو المحَل.

[2] إضافة في (ب) و(ج).

اليمامي صاحب القبلة الجنوبية الحنبلية، وأيضا إنما خص فاطمة بالذكر لأنها سيدة نساء هذه الأمة على الإطلاق[1]، وولداها سيدا شباب أهل الجنة[2] بالاتفاق، وثنى بأويس لأنه أفضل التابعين وقدوة الزاهدين، وثلث بالصديق لأنه خليفة رسول الله، وأفضل خلق الله بعد أنبياء الله، ما عدى خواص ملائكة الله.

فأبو بكر أسبق الصحابة العالمين، وأويس أسبق التابعين العارفين، والحسن والحسين أسبق الذرية من الأشراف الموحدين، وإنما بدأ الناظم بالأشراف وعبر "بالثراية" لشرفهم ولقوله ρ ، فيما رواه ابن عباس: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»[3]، ولا يفهم من اقتصار الناظم على "الثراية" الهاشمية، وعلى أويس وأبي بكر، إن هذا الأمر مقصور على من ذكر فقط وأنه لا يؤهل لتحقيق المعاني الإلهية إلا هؤلاء المذكورين، بل يؤهل لها كل من تبعهم في طريقتهم من سائر الخلق، وأن لا يختص برحمته من يشاء ولا حجر عليه.

قال ابن عطاء المرزوباري τ: "لكل علم بيان، ولكل بيان لسان، ولكل لسان عبارة، ولكل عبارة طريقة، ولكل طريقة أهل، ومن لا أهلية له لا شيء له"، وقال ابن عطية في قوله تعالى: [لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ[عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ]][المائدة/63]، قال: ابن عباس وغيره: ما في القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها والربانيون بفتح الراء وتقرأ بكسرها، واحدهم رِبي إما منسوب إلى عالم الرب، وإما من تربية الناس بصغار العلم قبل كباره، وزيدت النون في نسبته مبالغة كخبر: "إني والأحبار" واحدهم حبر بفتح الحاء وكسرها، وهم العلماء الذين لا يعملون لإصلاح الناس ولا يكفلون ذلك، والرباني هو المربي المصلح.

[في ذكر الخليفة عمر الفاروق τ:]

استطراد في ذكر خصائص الصحابة الأفراد وذكر نسب الخلفاء الأسياد، فأولى الناس بالخلافة بعد أبي بكر أبو حفص عمر، وكانت خلافته عشر سنين وأربعة أيام وستة أشهر، غزى فيها ثلاثمائة وإحدى وخمسين غزوة، وحضر مع النبي ρ المشاهد كلها، ونسبه "الفاروق عمر" بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رباح بن عدي ابن كعب القرشي العدوي يلتقي مع النبي ρ في كعب، توفي τ مطعونا في محرابه سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وسنه حينئذ ثلاث وستون سنة كصاحبيه، وقيل إحدى وخمسين عاما.

[في ذكر ذي النورين الخليفة عثمان بن عفان τ:]

ثم يليه أبو عبد الله وأبو عمر وأبو ليلى ذو النورين عثمان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي يلتقي مع النبي ρ في عبد مناف، ومدة خلافته اثنا عشر سنة غير عشرة أيام، وقتل في داره وهو صائم بذي الحجة يوم الجمعة سنة خمس أو ست وثلاثين من الهجرة، وعمره اثنان أو ثمان وثمانون سنة، (الأولى

---

[1] الحديث النبيρ: " فاطمة سيدة نساء المؤمنين". ينظر:- مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:1904./ - البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص:2317.

[2] قال النبيρ: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة"، أخرجه:- ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، ص: 412./ -الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 429.

[3] الحديث أخرجه:- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج4، ص: 272./- البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج7، ص: 63./- الطبراني، المعجم الأوسط، ج6، ص: 357.

للواقدى والأخرى لقتادة، وله مائة وعشرون غزوة، حضر المشاهدة النبوية ما عدى بدر وبيعة الرضوان لعذرين أو جبا التخلف، وأخبر النبي ρ بمصيبته وشهادة عمر قبل وقوعهما، روى أنهما كانا حاضرين مع النبي ρ)[1] ، ومع أبي بكر ذات يوم وهما على جبل أحد فتحرك الجبل، فقال ρ: «أُسْكُن أُحُد إنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان»[2].

[في ذكر الخليفة الرابع الإمام علي كرّم الله وجهه:]

ويليه في الخلافة ويساويه في الرتبة أبو تراب وهو أبو الحسن علي بن أبي طالب، واسمه عبد مناف بن عبد المطلب جد النبي المصطفى الهاشمي القرشي الذي قال له ابن عمه المهدي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[3]، لأن قمر النبوة انشق عن نور ولايته، فهو إمام الأولياء[المحمّديين، فهو منشأ انتساب للحضرة المحمّدية][4]، ومدة خلافته أربع سنين وأربعة أشهر وثمانية أيام، وقتل في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة، وسنه حينئذ يزيد على الستين.

ثم بويع لولده الحسن بالخلافة فأقام بها ستة أشهر وأياما تكملة الثلاثين سنة تتمّة النبوءة كما ورد[5]، وهو آخر الخلفاء بنص المصطفى ρ ، فهؤلاء الخلفاء هم المستخلفون في وراثة العلم اللدني والحسب الأحمدي، ثم يليهم باقي العشرة، ثم أهل بيعة الرضوان والشجرة، ثم المهاجرون لقوله تعالى: [لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ][الحشر/8]، ثم سائر الصحابة المرضيين ثم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

[في ذكر بعض فضائل الصحابة رضوان الله عليهم]:

قال عز من قائل: [مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً][الفتح/29]،وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ][المائدة/54]، فمن أحبَّه الله وجبت علينا محبته وحُرِّم علينا بغضه.

قال رسول اللهρ: «لكل شيء أساس وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله ρ ، وحب أهل بيته»[6]، وقال ρ: «لا تؤذونني في أصحابي والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[7]، وقال ρ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي، ومن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه: - الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 624./ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص: 38.

[3] الحديث أخرجه: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1870./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 367.

[4] إضافة في (ب) و(ج).

[5] ورد عن النبي ρ قوله: " الخلافة من بعدي ثلاثون سنة.."، ينظر: القرطبي، تفسير القرطبي، ج12، ص: 297./ - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، ص: 35.

[6] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي،كشف الخفاء، ج2، ص: 191.

[7] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1343.

فبغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد أذى الله، ومن أذى الله يوشك أن يأخذه»[1]، وقال υ: «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[2]، الحديث.

وقد وجدت حديثا نبويا جامعا لمناقب نقباء الأصحاب مبينا لمراتب الأحباب، وهو قوله ρ: «من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر بن الخطاب فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان بن عفان فقد استضاء بنور الله، ومن أحب علي بن أبي طالب فقد استمسك بالعروة الوثقى، ألا وإن أرفئ أمتي بأمتي أبو بكر، وإن أقواهم صلابة في دين الله عمر بن الخطاب، وإن أشدهم حياء عثمان بن عفان، وإن أقضاهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ولكل نبي حواري، وحواري الزبير بن العوام، ومن أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد من أحباب الرحمن، وسعد بن أبي وقاص يدور معه الحق حيث دار، وعبد الرحمن بن عوف تاجر الله، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله، وما أقلت الغبرا ولا أضلت الخضرا أصدق لهجة من أبي ذر، من أراد أن ينظر إلى زهد عيسى فلينظر إلى زهد أبي ذر، وإن الله ليرضى لرضى سلمان ويسخط لسخط سلمان، وأن الجنة لتشتاق لسلمان أشد من اشتياق سلمان إلى الجنة، ولكل أمة حليم، وحليم هذه الأمة أبو هريرة، وحذيفة بن اليمان من أصفياء الرحمن، وإن أعلم الناس بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وإن أعلم الناس بالفرائض زيد بن ثابت، وإن أقرأ أمتي أُبي بن كعب وحمزة أسد الله وأسد رسوله، وخالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله، وجعفر بن أبي طالب ذوالجناحين في الجنة، يطير فيها حيث شاء، والحسن والحسين سيد شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما، والعباس عمي وصِنوُ أبي، ورضيت لأمتي ما رضي لها عبد الله بن مسعود، وسخطت لها ما سخطت لها عبد الله بن مسعود، وصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة أو خير من مائة، ولكل نبي خادم وخادمي أنس بن مالك، ولكل نبي خليل وخليلي سعد بن معاذ، ولكل شيء فارس وفارس القرآن عبد الله بن عباس، وإن أول من يقرع باب الجنة بلال بن حمامة، وإن أول من يأكل ثمارها أبو الدحداح، وإن أول من تصافحه الملائكة أبو الدرداء، وإن أول من يَرِدَ من حوضي صهيب بن سنان، والمقداد بن الأسود من المجتهدين، وعمار بن ياسر من الصديقين، وعبد الله بن عمر من وفود الرحمن، وإن أفضل النساء آسية ومريم وخديجة وفاطمة بنت محمد ρ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، ونسائي خير نساء الأمة، وأحبهن إليَّ عائشة، وأصحابي كلهم كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم، ومن أحب أصحابي فقد أحبني، ومن أبغض أصحابي فقد أبغضني ألا وإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا»[3]،وفي حديث آخر: «أصحابي كالملح للطعام، فإذا ذهب الملح فسد الطعام»[4].

ثم قال الناظم جمع الله شمله وشملنا بهم:

---

[1] الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج16، ص: 244.

[2] الحديث أخرجه: - مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص:996./ - البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص:1160./ -ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج9، ص: 30.

[3] حديث " لا يقبل منه عدلا وصرفا" أخرجه الشيخان: - مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص: 998./ - البخاري، صحيح البخاري، ج6، ص: 2662.

[4] الحديث أخرجه: - علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، ص: 18./- أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج6، ص: 404.

لَاحَظْهُــــم يَا صَاحِـــــبِي الَاحْـــظَى	فِي مَـفْـنَـاهُـم فِي الـعَــلِي الـقَـــدِيـــرْ
وأَهْلْ الصَّفَـــا مُصَـــدَّقْ الوَعْـــظَا	أَيْـــنَ هُـــم صَـــفْــــوَة البَــشِـيـــرْ
وعَبْد الله بَنْ عُمَــــــر وَأَيْـــــضًا	عُــــرْوَة بْــــنَ السَّـــيَّــــد الــزُّبَـــيــــرْ
والبَصْــرِي الرَّاغـــــبْ الرَّاهَـــــبْ	المَـــغـــمُــــور بُخَـــمْــرَة الخَـــمْــــرَا
وَايْــــنْ التَّابْعِيـــــــنْ بِالقُـــــربْ	وَايْــــنَ هُـــم تُـــبَّـــاعْـــهُـــم أَثْــــرَا

يقول رحمه الله إلحظ الصحابة الملحوظين بعين الرضى يا صاحبي الأَوَدّ الأحظى، وانظر إلى تابعيهم المستمسكين بسلسلتهم، وأبصر جميع من تأسا من الذكور والنسب في حال فنائهم الخطير في عظمة العلي القدير تجدهم نشاوى سكارى من خمرة محبوبهم وَالِعِينَ حيارى في ذات معروفهم، لا يحيدون عن جنابهم ولا يبرحون عن بابه، وتوسم سريرتهم في سيرتهم وسرايتهم في ظهيرتهم، وأمعن التفرس في آدابهم واقتدائهم، [[الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ] أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ][الزمر/18]، وإنما أمرك أن تلحظ أخبارهم لتقتفي آثارهم، قال الجنيد: "حكايات الصالحين من جنود الله، يُقَوِّم بها أحوال المريدين، ويُحي بها أسرار العارفين، وحجة ذلك من الكتاب: [وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ][هود/120].

قوله في: "مفناهم العلي القدير"، قال ρ: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر»[1]، وقالυ: «طلحة ممن قضى نحبهومن أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»[2]، وقال لابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من الموتى»[3].

وبلغ الصفاء بعائشة إلى أن غابت عن الوسائط في حال اصطلاحها، وقالت: "والله لا أشكر إلا الله"، حين قال لها أبوها أشكري رسول الله الذي برأك الله على لسانه"، ودلها على مقام الاعتدال، وكذا فناء فاطمة حتى فرحت بلقاء الله، وضحكت حين سارها والدها في مرضه، بأنها أول أهله لحاقا به، وكذا فناء ولدها الحسن حتى خرج عن حاله مرتين، بل خرج عن مملكته اختيارا، وأمَّا فَنَاء أُوَيسْ فهو فناء الفناء المفنى، ومن تتبع أحوالهم اعتقد إجلالهم واستقبل إطلالهم:

مَرَرْتُ عَلَى الدِّيَــــارِ، دِيَارُ لَيْلَـــى	أُقَـــبِّـــلْ ذَا الجِـــدَارِ وذَا الجِــــدَارَ
ومَا حُبّ الدِّيَـــارِ شَغَفن قَلْبِـــي	ولَـــكِـن حُـــبُّ مَنْ سَـكَــنَ الدِّيَـــارَ

قال ρ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[4]، وقال ρ: «بغض بني هاشم والأنصار كفر، وبغض العرب نفاق»[5]، قال صاحب «الشعب»: "ومناقب الصحابة رضوان الله عليهم كثيرة، وكل ذلك مبني

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] الحديث أخرجه: – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 424./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 644.

[3] الحديث أخرجه: البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص: 2358./ – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج2، ص: 471.

[4] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص:85./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص:1379.

[5] الحديث أخرجه: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9، ص: 172./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج3، ص: 205.

عن فضل ذواتهم وكريم طبائعهم، وما به خصوا والذي يجمع لك ذلك على الاختصار أنهم اختارهم الله لصحبة حبيبه المختار، فلو علم الله خلقا أحسن وأجمل وأفضل وأكرم منهم لاختصهم لصحبة حبيبه الذي لا يعدله شيء عنده، فكذلك الصحابة لا يعدلهم شيء عنده.

فذلك أن الصحابة لا يعدلهم شيء، وذلك أن الفضل في المنازل إنما هو بالعلم والعمل به الموافي لرضى الله، والتخلق بما وصف العلم، فأعلم الناس بعد الرسول ρ الصحابة، لأنهم كانوا في الوقت الذي تجلى الله ونزل بكلامه لهذا العالم حين مبعث النبي، فمقامهم من المعرفة والعلم مقام من تعرَّف الله إليه وتجلى له وعلَّمه، ومن نظر الله إليه وأقبل عليه وتجلى له لا يقدر أحد قدر ما جعل في باطنه وظاهره من البركات وفضائل العلم والصفات وأنواع الخيرات، فافهم.

وهذا مؤيد لما قررنا به كلام الناظم والحمد لله على الموافقة، ويكفي الملاحظ لخصائصهم في اختصاصهم قول الله عز وجل فيهم: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً][المائدة/3]، قال جلال الدين السيوطي: "أكمل الله الدين أي أحكامه بفرائضه، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، وأتم نعمته بإكماله ودخوله مكة آمنين".

والنعمة ضد النقمة، وهي جلب منفعة يمكن إحصاؤها، ودفع مفسدة لا يمكن استقصاؤها قال تعالى: [وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا [إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]][النحل/18]، فضلا عن أن تشكروها، وهي دنيوية ودينية، فمتى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه أسبغ عليك نعمه ظاهرة باتباع الشريعة وباطنة بالعمل أي على الحقيقة، قاله زروق، قال عز وجل: [أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً][لقمان/20]، أي كحسن الصورة ونحوه، وباطنة كالمعرفة ونحوها، قاله المحلى، ولذا قال القشيري: "النعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق، النعمة ما أسلاك عن دنياك وأدناك من مولاك، النعمة ما لا يوجب ندما، ولا يعقب ألما، النعمة مالا يشغلك عن قلبك ولا يقطعك عن ربك، النعمة ما لا يقسي القلب ولا ينسي الرب".

[في ذكر موت النبي ρ:]

ولما نزلت هذه الآية الكريمة التي كمل الله لهم فيها دينهم بالإحسان، وأتم عليهم نعمته بالإيمان، ورضي لهم بالإسلام خير الأديان، فرح المؤمنون بهما فرحا شديدا حتى قال ذمي لهم: "لو نزلت علينا معشر اليهود هذه الآية لا تخذنا يوم نزولها عيدا، فقال له عمرτ: نحن نزلت علينا هذه الآية عام حجة الوداع في عرفات بعد عصر يوم الجمعة، فهما عيدان لنا والحمد لله على ذلك"، وأما أبو بكر فبكى عند نزولها وحزن فقيل له: "ما هذا الحزن والناس مسرورون بكمال التبليغ وإتمام النعمة؟ فقال: ولم لا أبكي وتطول بي الأحزان، فما بعد الكمال إلا النقصان إذا تم الأمر بدأ نقصه، توقع زوالا، إذ قيل فما لبثوا خلفها أن بكى العرش والفرش لبكائه وعويله، فمفارقتهم لصاحبه وخليله ووقع التغابن بعد وفاته ρ.

فانظر رحمك الله لسبقية نظر السابقين، وتحقق أن النظر في العاقبة للمتقين، فإن هذه الآية آخر ما نزل من آي القرآن، ومن السور سورة النصر، فكان ρ يقول بعد نزولها: «نُعِيَت إليَّ نفسي»[1]، ويكثر من قول: "سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه" امتثالا لما أمره ربه جل جلاله، وفي مثل الصدّيق قال أهل التحقيق:

يمثلُ ذُو العَقْـلِ فِي لُبِّـــهِ مَصَائِبُـهُ قَبْـلَ أَن تَنْـــزِلَا

فَإِن نَزَلَـتْ بَغْتَـةً لَم تَرْعَـهُ لما كَـانَ فِي نَفْسْـهِ مَثَـلًا

دَعِي الأَمرَ يُفْضِي إلى آخره فَصَـيِّــر آخِـــرَهُ أَوَّلَاه

ولرجحان إيمانه وكمال إيقانه لما نعي بموت النبي ρ كذب بعض الصحابة بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد التفرق، وخلطه آخرون فأتوا الكلام بغير بيان وأقعد آخرون، فكان علي فيمن أقعد فلم يبرح من البيت، وعثمان فيمن أخرس ولم يكلم أحدا، يؤخذ بيده فيذهب به ويجاء، وعمر فيمن كذب بموته، وقال بعد خروجه إلى الناس إن النبي ρ لم يمت، وليرجعنه الله فليقطعن أيدنا وأرجلنا، من المنافقين يتمنون له الموت، إنما واعده ربه كما واعد موسى، وهو آتيكم الساعة، والله لا أسمع إلى أحد يذكر أنه مات، إلا علوته بسيفي هذا.

وأما الصديق لما بلغه الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج، جاء فدخل على النبي ρ ، فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله، ثم قال: "بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي ρ "، ثم خرج إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال: "أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ][آل عمران/144]، فلا تدعون جزعا، فإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ][النساء/135]، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتننكم عن دينكم، وعاجلوا الشيطان بالحق تعجزوه، ولا تستبطنوه يلحق بكم ويفتنكم، ثم قال: يا عمر أنت الذي بلغني عنك ما قلت: ما مات نبي الله، أما ترى أن نبي الله قال كذا وكذا كذا وكذا، وقال الله في كتابه: [إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ][الزمر/30]، فقال عمر: والله كأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا، ثم قال: أشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله حي لا يموت، إنا لله وإنا إليه راجعون. وصلواته على رسوله، وعند الله نحتسب رسوله"، ثم جلس إلى أبي بكر رضي الله عنهما. من «الإحياء».

استنباط: قال جل وعلا: [مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ][الأنعام/38]، فمدة عمر النبي ρ مأخوذة من عدد سور القرآن، فإن قوله تعالى: [وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا [وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ]][المنافقون/11]، شامل لنفس النبي المنزل عليه [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»،[المائدة/3] وآية الأجل [إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا]، عند تمام ثلاث وستين من أول القرآن، فعلم أبو بكر أن عُمْر المنزل عليه هذا القرآن يقضي ويتم بتمام ثلاث وستين سنة، ولذلك بكى، فكان ذلك كذلك.

[1] الحديث أخرجه: – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 459./ – الدارمي، سنن الدارمي، ج1، ص: 51.

وإنما اشتد حزنه لتوقع الغبن بين المسلمين بعد موته لما رأى أن سورة التغابن وقعت إثر سورة إشارات بمجيء أجله، قال عز من قائل: [يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ][التغابن/9]، فإن هذه الآية وقعت في آخر النصف الأول من السورة، فعلم منها أن الفتن والغبن لا يكونا إلا في آخر النصف الأول من خلافة الراشدين المهتدين، وذلك بموت عمر لأنه كان باب سدها، فلما كسر دخل الغبن على دار الخلافة، واجتمع جمع الخوارج على غبن عثمان وقتله، كما أخبر بذلك نبيه، وبشره بالجنة على بلوى تصيبه.

ثم اجتمع الصحابة رضي الله عنهم جميعهم بعد تفرق جماعة الخوارج الباغين، فقالت جماعة من الصحابة منهم علي كرم الله وجهه، نجتمع على إمام لتقوم كلمتنا به، وتجتمع آراؤنا فيه، ثم نقيم الحدود على من تعدى الحدود، وقالت جماعة منهم معاوية τ ، نقيم الحد قبل كل شيء ثم ننصب الإمام، فاجتمعوا جماعتين وتناصفوا على شطرين وصارت الكلمة كلمتين، وكلهم يطلب إصابة الحق لكن من اجتهد وأصاب له أجران، ومن اجتهد وأخطأ له أجر واحد، فوقع الغبن والفتن من يوم ذلك الجمع إلى الآن، ويوم تبلى السرائر يحشر الناس على نياتهم، فيظهر الغابن من المغبون، فيغفر الله لمن يشاء ويعذب من يشاء، ينتصف المغبون من غابنه، جعلنا الله ممن جدّ فوجد، ولم تبق عليه تباعة لأحد، إنه ولي ذلك آ مين.

[في ذكر اسمي الله تعالى " العلي القدير":]

قوله: "العلي القدير" أي إلحظهم في حال فنائهم في ذات العلي القدير، وتقدم الكلام على الفناء الذاتي والصفاتي والفعلي بما فيه كفاية، والعلي القدير اسمان من الأسماء التسعة والتسعين، قال الإمام أبو حامد: "العلي هو الذي لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه، وذلك لأن العلي مشتق من العلو، والعلو مأخوذ من العلو المقابل للسفل، وذلك إما يكون في درجات محسوسات كالدرج وسائر الأجسام الموضوع بعضها فوق بعض، وإما في الرتب المعقولة المرتبة نوعا من الترتيب العقلي، فكل ما له الفوقية في المكان فله العلو المكاني، وكل ما له الفوقية فله العلو في الرتبة والتدريجات العقلية مفهومة كالتدريجات الحسية.

ومثال الدرجات العقلية هو التفاوت بين السبب والمسبب، والفاعل والمفعول، والكامل والناقص، فإذا قدرنا شيئا وهو سبب لشيء ثان وذلك الثاني سبب لثالث، والثالث لرابع إلى عشر درجات، مثلا، فالعاشر واقع في الرتبة الأخيرة، فهو الأسفل الأدنى، والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى، ويكون الأول فوق الثاني، (والثاني)[1] فوقية بالمعنى لا بالمكان والعلو عبارة عن الفوقية، فإذا فهمت معنى التدريج العقلي، فا علم أن الموجودات لا يمكن قسمتها إلى درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق تعالى في الدرجة العليا من درجات أقسامها، حتى لا يتصور أن يكون فوقه درجة، وذلك هو العلى[2] المطلق وكل ما سواه، فيكون عاليا بالإضافة إلى ما دونه، ويكون دنيا وسافلا بالإضافة إلى ما فوقه.

فالموجودات تنقسم إلى سبب ومسبب، فالسبب فوق المسبب بالرتبة، والفوقية المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب، وكذا الموجودات تنقسم أيضا إلى ميت وحي، والحي إلى ما ليس له إلا الإدراك الحسي، وهو البهيمة وإلى

---

[1] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): هو الغني.

ما زاد بالإدراك العقلي، وهذا ينقسم إلى ما يعارضه في معلوماته الشهوة والغضب وهو الإنسان، وإلى ما يسلم إدراكه عنها، وهذا ينقسم إلى ما يمكن أن يبتلى بها، وإن رزق السلامة كالملائكة، وإلى ما يستحيل ذلك في حقه، وهو الله تعالى وليس يخفى عليك في هذا التدريج أن الملك فوق الإنسان، والإنسان فوق البهيمة والله فوق الكل، فهو العلي المطلق، بل هو خالق الكل، فقد وقع الميت في الدرجة السفلى من الكمال، ولم يقع في الطرف الآخر إلّا الله تعالى، فإذا فهمت هذا فهمت معنى قوله: "فوق العرش"، لأنه أعظم الموجودات، فهو فوق جميعها، والموجود المنزه عن التحديد والتقدير فوق الأجسام كلها في الرتبة، فهو كقول القائل: الخليفة فوق السلطان تنبيها على أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان.

تنبيه: "العبد لا يتصور أن يكون عليا مطلقا، نعم يتصور أن ينال درجة لا يكون في جنس الإنسان من يفوقه فيها، وهي درجة نبينا محمد υ ، لكنه قاصر بالإضافة إلى العلو المطلق من وجهين، أحدهما أنه علو بالإضافة إلى بعض الموجودات والآخران علو بالإضافة إلى الوجود لا بطريق الوجوب بليقارنه إمكان وجود إنسان فوقه، فالعلي المطلق هو الذي له الفوقية لا بالإضافة، وبحسب الوجوب لا بحسب الوجود الذي يقارنه إمكان نقيضه"، من «المقصد الأسنى».

(قلت وتصريح أبي حامد هنا بإمكان النقيض وبإمكان وجود إنسان فوق أعلى هذا العالم، وهو نبينا ρ مؤذن بفساد ما دُسَّ عليه في «الإحياء» من الملزومات الكاذبة، وهو قول من تقوّل عليه، ولم يبق في العالم إلى آخره، كما تقدم عند قول الناظم، وغاية القدرة فاعلم ذلك.)[1]

وقال في «المقصد» أيضا: "القدير والقادر والمقتدر معناهما ذو القدرة، لكن القادر والمقتدر أبلغ من القادر، والقدرة عبارة عن المعنى الذي يوجد به الشيء مُقَدَّرًا بتقدير الإرادة، والعلم واقعا على وفقهما، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك، وليس من شرطه أن يشاء لا محالة، فإن الله قادر على إقامة القيامة الآن، لأنه لو شاء لأقامها وإن كان لا يقيمها فهو لم يشأها ولا يشاؤها لما سبق في علمه من تقدير أجلها ووقتها، وذلك لا يقدح في القدرة والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود اختراعا ينفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره، وهو الله تعالى، وأما العبد فله قدرة على الجملة، ولكنها ناقصة إذ لا تتناول إلا بعض الممكنات ولا تصلح للاختراع بل المخترع لمقدورات العبد بواسطة قدرته بهما هيأ جميع أسباب الوجود لمقدوره، وتحت هذا غور لا يسعه هذا المحل".

(وقوله هنا أيضا، والقادر هو الذي إن شاء فعل إلى قوله: وذلك لا يقدح في القدرة مبطل للإلزامات الباطلة المتقدمة في كلام «الإحياء»)[2]، فإن قلت: ولم خص الناظم هذين الاسمين؟ وقرن فناء الصحابة بها؟، قلنا: إنما فعل ذلك لوجه، وهو أن صحابة النبي ρعلت همتهم وارتفعت إلى العلي ولم يصرفها عن التعلق به صارف، ولذلك قال ابن الفارض في جنب علي كرم الله وجهه:

وَحُزْ بالـوَلَا مِيرَاثَ أَرْفَعِ عَارِفٍ　　　　غـَدَا هَمُّـهُ إِيثَـارُ تَأْثِيـرِ هِمَّـةِ

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

حتى أنه قال: "ما تركت التسبيح الذي علمنيه رسول الله ρولا ليلة صفين" وكذا قول عمر للدنيا: "احمري واصفري لغيري تغيري"، وكذا قول أبي بكر للنبي ρ حين خرج له عن ماله كله، فقال له: "ما تركت لأهلك فقال: تركت لهم الله ورسوله"، وإنما قالوا ما قالوا لعلو همتهم عن الخسيس الدني إلى الباقي العلي، وأحوال الصحابة في هذا الأمر[1] مشهور لأنهم يرون الأشياء كلها لله وبالله ففنوا عما سواه، وقد قال أبو الحسين أحمد بن محمد النوري: "من عقل الأشياء بالله تعالى، فرجوعه في كل شيء إلى الله عز وجل".

وأيضا لما أن تخلقوا بمقتضى هذا الاسم قاتلوا لإعلاء كلمة الله العليا، فانقطعوا بنور من نور الله لإنفاذ قدرته في أعدائه فتخلقوا بأخلاقه وغضبوا لغضبه، حتى قال أبو بكر: "إليك عني يا عمر، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها على عهد رسول الله ρ لقاتلتهم عليه"، وقال عمر في صلح الحديبية للنبي ρ: "ألست رسول الله قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل، قال: بلى، قال على ما نعطي الدنيئة في ديننا"، والدنيئة بالهمزة والتسهيل الخصلة المذمومة الحقيرة، وفعل أبي الحسن مع الكفرة أشهر من أن يذكر، وكذا جميع الأصحاب رضي الله عنهم، لما أن فنوا في معنى هذين الاسمين، تخلقوا بهما على ما ينبغي، وقد مدحهم الله بذلك في قوله: [أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ][الفتح/29]، فجميع حركاتهم في جميع العبادات إنما هي لمحض إعلاء كلمة العلي لا لحظ ولا لغرض، ولما أن سمعوا قوله تعالى: [فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ[وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ]][محمد/35]، أي بنصره علوا بأسيافهم هامة كل معاند، حتى مهدوا البلاد وأضحوا سبل الرشاد، (لأن مطلبهم من ربهم الصدق في العبودية، وذلك لا يستغرقهم أفعالهم في أفعاله، لأن الفنا هو السابق لقلوب العارفين، إذ المعرفة فناء، وإلا فهم ناقصة،وصدق العبودية هو موافقة الشريعة لغير علة، ومطلبهم أيضا القيام بحقوق الربوبية، وهو التسليم لله في جميع أحكامها الشرعية والقهرية، فهم راضون بما توجه لهم منها من التعريف ومن التكليف وهذا شأن العارفين، قال عبد الواحد بن زيد: "الرضى باب الله الأعظم ومستراح العابدين، وجنة الدنيا بجزاء الرضى" قال تعالى في حقهم: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ][البينة/7]، وحق لهم رضوان الله عليهم ورضي عنا بمحبتهم، فجزاهم الله عنا خيرا، وضاعف لهم ثوابا وأجرا.)[2]

فائدة:[3]قال صاحب «خواص الأربعينية»: "الاسم الثاني والثلاثون:(يا علي)، الشامخ فوق كل شيء علوا ارتفاعه، وفي نسخة علوا وارتفاعا.

خاصيته: من كان في خدمة غيره وأراد أن يُعَظَّمَ أمرَه، ويُرفع قدره، ويصير مخدومه في خدمته، ويتعجب الناس من عزه وحشمته، يصوم يوم الأحد ويغتسل ويخرج إلى صحراء خالية، ويقرأ هذا الاسم على تلك النية سبعمائة مرة فإنه يحصل مقصوده وينال مرغوبه، ولو داوم على هذا العمل سبعة أيام فصاعدا تنقاد إليه الخلائق قاطبة ولا يخرجون عن طاعته، وينبغي أن لا يضمر في قلبه حقدا لأحد، ويتطهر عن الأخلاق الذميمة، ولا يأكل إلا القليل من الحلال غير الحيواني، ويلبس النظيف، ويكون على الوضوء دائما، ولو كان خلاف هذا فإنه سفيه لا بارك الله فيه".

---

[1] في (ب) و(ج): في هذا المقام.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] النص ساقط في (ب) و(ج).

وقال زروق: "ومن خواصه أيضا أنه يأخذ حروف أسود الرأس، فيقرأ عليه سبع مرات عند ذبحه، ثم يخرج قلبه فيقرأ عليه سبعا، ثم يكتب على كاغد سبعا أيضا، ويجعله في القلب، ثم يدفن القلب في عتبة مقابلة المسجد، فإن من فعل برسمه من غلام أو جارية يتزوج بإذن الله.

قوله: "لَاحظهُم يا صاحبي الَاحْظَى" هذا الركاب قافيته ضادان وطاء، وفيه تسامح، والأَولى أن يكون الروي على حرف واحد لكنهم رضي الله عنهم صرفوا هممهم للمعاني بما تيسر من الألفاظ، وفي معرفة الظاء المشالة من المسقوطة والعمل بهما علم غريب، لأن المعاني تختلف باختلافهما، كظهر الشخص وظهر الأكمة، وظنين للمتهم، وضنين للبخيل، وظالع للتي تسير بسير غيرها، وبالمسقوطة التي تنقطع عنها، إلى غير ذلك كما ذكرها الحفاظ، ورأيت أبياتا للحافظ أبي عمرو الداني في الظاء المشالة:

ظَفَرَت شُوَاظُ[1] بِحَظِّهَا مِن ظُلْمِنَا	فَعَظَّت غَيْظَ عَظِيمِ مَا ظَنَّتْ بِنَا
وَظَعَنَت[2] لِنَظَرٍ في الظَّهْرَةِ ظِلَّةٌ	وظَلَلْتُ أَنْتَظِرُ الظِّلَالَ لحفظِنَا
وظَمَأت في الظُّلما فَفِي عَظْمِي لَظَا	ظَهَر الظِّهَارُ لأَجْلِ غِلظَةِ وعظنَا
انظرت لفظي كي تيقظ فظَّةً	وحَظَرْت ظهرَ مظاهرها من ظفرنا

وقد نظم الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن مسيح المديحر الأندلسي رحمه الله قصيدة سماها: "المرصاد في ضابط الظاء والضاد"[3]، فنوردها تماما للفائدة، وهي:

[1] شُوَاظُ: اللهب من النار لا دخان معه، قال تعالى:[شُوَاظٌ مِن نَارٍ][الرحمن/35]. ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (ج1)، ص: 632.

[2] ظَعَنَ يَظعَنُ ظعناً وظَعَنًا، إذا شَخَص، قال تعالى:[وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ][النحل/80]. ينظر: المصدر نفسه (ج2)، ص: 98.

[3] القصيدة ساقطة في (ب) و(ج).

الحَمْدُ للهِ العَظِيمِ الوَاحِدِ   ذِي الفَضْلِ والإِحْسَانِ والمَحَامِدِ

أَرْسَلَ فِينَا أَعْظَمَ الخَلَائِقِ   مُحَمَّدٌ الأَكْرَمُ بِهِ مِن صَادِقِ

صَلَّى عَلَينَا رَبُّنَا ومَجَّدَا   فِي كُلِّ عَصْرٍ دَائِمٍ وجَدَّدَا

وقَد نَظَمْتُ عُدَّة مِن الكَلِم   فِي الظَّاء والضَّادِ جَمِيعًا تَلْتَئِم

وكُلُّ مَا يُنْظم لِلإِفَادَة   فَذَاكَ مَحْسُوبٌ مِنَ العِبَادَةِ

فَافْهَمْ أُخَيَّ مِن أَخِيكِ سَرْدَهَا   وافْهَمْ هُدِيتَ حَصْرَهَا وَعَدَّهَا

واشْكُر لمن وَسَمْتَهَا لخِدمَتِه   حَتَّى أَتَمَّت عَالِيَةً لِهِمَّتِه

وأَبدَا إني قَرَأْتُهَا بالظَّاءِ   و[كذا] بالضَّادِ عَلَى اسْتِوَاءِ

تَقُولُ هَذَا الظَّهْرُ ظَهْرَ الرَّجُل   والضُّهْر أيضًا قِطْعَةُ مِن حَبْل

والغَيْظُ حَرٌّ فِي الزَّمَانِ ثَائِرٌ   والغَيْضُ للبَيْضَةِ قِشْرٌ ظَاهِرٌ

والظَّنُّ للإنْسَانِ إِحْدَى التُّهَم   والضَّنُّ نَعْتٌ للبَخِيلِ فَاعْلَم

والحَنْظَلُ النَّبْتُ إِذًا مَعْرُوفُ   والحَنْضَلُ الظِّلُّ بِهِ مَأْلُوفُ

والظَّبُّ وَصْفُ الرَّجُلِ الهُدَاءِ   والضَّبُّ مَعْرُوفٌ لَدَى البَيْدَاءِ

والمرَظُ الجُوعُ الشَّدِيدُ، فَاعْلَم   والمَرَضُ الدَّاءُ الشَّدِيدُ الأَلَم

وهَكَذَا الحِجَارَة الظَّرِيرُ   والرَّجُلُ الأَعْمَى هُوَ الضَّرِيرُ

وفِي النَّبَاتِ مَا يُسَمَّى ظَرْبًا   وَقَدْ ضَرَبتَنَا بالحُسَامِ ضَرْبًا

وكُلُّ ذِي وَجْهٍ قَبِيح ظِدُّ   والخَصْمُ فِي كُلِّ الأُمُورِ ضِدُّ

ومَجْمَعُ الحِجَارَةِ الظِّرَابُ   والنَّزَقُ فِي البَهَائِمِ الضِّرَابُ

والظَّعْنَةُ البُخْلَا تُسَمَّى ظَجَّة   وكَثْرَةُ الأَصْوَاتِ تُسَمَّى ضَجَّة

وزَوْجَةُ المرْءِ هِيَ الظَّغِينَةُ   والحِقْدُ فِي القَومِ هُوَ الضَّغِينَةُ

وهَل يَئُوبُ القَارِظُ المفقُودُ   وقَارِضٌ بالسِّرِّ قَد يُفِيدُ

وللرِّجَالِ والسِّبَاعِ ظُفْرٌ   والرَّجُلُ القَصِيرُ أيضًا ضُفْرُ

وَكُلُّ مَا يَفْسُدُ فَهُوَ ظُعْفٌ … ونَقْضُ أَحْوَالِ الرِّجَالِ ضُعْفٌ
والفَيظُ فَيظُ النَّفْسِ وهُوَ التَّلَفُ … والفَيضُ فَيضُ المَاءِ لَا يَختَلِف
ثُمَّ سَوَادُ اللَّيلِ يُدْعَى ظُلْمَة … والسَّهْرُ المفرِطُ فَهُوَ ضُلمَةٌ
ورَسمُ الأَحشَاءِ يُسَمَّى فِظَّة … وورَقُ اللُّجَينِ يُسَمَّى فِضَّةٌ
والجِسمُ فِيهِ جَادَة والعَظْمُ … ومِقْبَضُ القَوسِ النَّقِيِّ عَضْمُ
واعْلَم بِأَنَّ البَيْظَ مَاءُ العِجلِ … والبَيْضُ لَايَجهَلُهُ ذُو عَقْلِ
وهَكَذَا يُكتُبُ بَيْظُ النَّمْلِ … ومَا عَدَاهُ فَبِضَادِ أمـلِ
وَعَظَّتْ الحَرْبُ إذَا مَا اشْتَدَّتْ … ثُمَّ الذُّبَابُ والسِّبَاعُ عَضَّت
والزَّرْبُ حَولَ الغَنَمِ الحَظِيرَةُ … والقَومُ في مُجْمَعِهِم حَضِيرَة
والصُّحْفَةُ الصَّغِيرَةُ الظِّبَارَة … والكُتُبُ قَد يجمعُهَا ضِبَارة
وقِيلَ أَهلُ الحِقْدِ الوَظِيف … وَكُلُّ وَقْتٍ فاسمُهُ الوَضِيف
والنَّمِرُ فَهُوَ ظُفّر وطفر … والجَدَلُ في الشُّعُورِ أيضًا ضفر
والغَيْظُ مَا يَعْرِضُ للإنسَان … والغَيْضُ فَيضُ المَاءِ في النِّسْيَانِ
والمنطِقُ العَذبُ الشَّهْرُ ظَرف … ونَاعِمُ العَيشِ المرضِي ضَرْف
وحَرَّمَ اللهُ الزِّنَى وحَظَرَا … وَغَابَ زَيدٌ بُرهَةً وحَضَرَا
وجُودُ مَولَانَا الوَزِيرِ ظَلّ … يُنْكِرُه مَن قَد عَرَاهُ ضِلّ
مَنْ مَاتَ في جَنَابِهِ وظَلَّا … فَعَن سَبِيلِ رُشْدِهْ مَا ضَلَّا
فَأَعيُنُ الوَعِيدِ إِلَيْهِ نَاظِرة … وأَوْجُهُ القَومِ لَدَيهِ نَاضِرَة
لَا يَظْمَحِلُّ جردُه ولَا ظَجَر … ولَا أَذَى يُفْسِدُه وَلَاضَجَر
قَد بَاتَ في الدَّهْرِ بِلَا نَظِير … والصُّغْرُ لَا يَعْدِلُ بالنَّضِيرِ
وفَاظَتْ النُّفُوسُ مِن أَعْدَائِهِ … وفَاضَ بَحْرُ الجُودِ مِن عَطَائِهِ
وأَلْحَظُ حَظِّي عِندَ فَوْرِ قَدَحِي … يَحُضُّهُ عَلَى اسْتِمَاعِ مَدْحِي
لَا بَرِحَت تَخْدُمُه الأيَّامُ … ويَرتَقِي في ظِلِّهِ الأَنَامُ
وأَشْجَتْ بالأنجُمِ الأفلَاكُ … وسَبَّحَت في الظُّلَمِ الأَمْلَاكُ
وأَشْرَفَت في فُلْكِ نُجُوم … وانسَئَت في مَسْلَكٍ تحُومٌ

فأحفظها فإنها عجيبة، وكما اختلف في الخط والمعنى، اختلفوا أيضا في النطق بهما حالة القراءة، فإن الضاد مخرجة من حافة اللسان، مما يلي أول الأضراس، وكان عمر يخرجه من الشدقين، وأفصح من نطق بالضاد محمد العربي ρ وعلى آله، ومن لم يفرق بينهما في اللفظ فهو لاحن مختلف في بطلان صلاته، قال الشيخ خليل في «مختصره»: "وهل يلاحن مطلقا أو في الفاتحة وبغير مميز بين ضاد وظاء قولان، أي هل تبطل صلاة من اقتدى به لأنه غَيَّر المعنى أو لا خلاف".

وأمرك الناظم أن تلحظ بالظاء المشالة، لأنه من النظر في أخبار الصحابة وفي أحوالهم، وقد تمنى هو τ رؤيتهم ولقائهم في حال حياته، إما في نومه أو يقظته من شدة حبه فيهم وفي نبيهم ρ ورضي عن جميعهم، حيث يقول:

صَدْرِي مْثَلَّثْ مِن الحَمَّى فَرَّانْ   فَرْنَا لَا يَرْمِي شْرَارْ وصَهْدْ اهْوَاه
اقْوَى مِن نِيرَانْ صْيَاب الصَّوَّانْ   صَوَّانْ يَضْحَى عْلَى البَنْيَان ارْفَاه
نَارِي مَاتَطْفَا مِن امْيَاه الوِيدَانْ   ولَا يُطْفُوهَا شِي اجْلَاجَلْ غَيْث اسْمَاه
الَا كَان نْشُوفْ طَهَ بُوزَيَّانْ   سِيدِي سِيدِي العَالَمْ الأَعْلَم واذْنَاه
تَاجْ الرُّسُل المجتَبَى قُرَّةْ الَاعْيَانْ   لَا وَغْلِى في عَالَمْ الدُّنيَا مَن رَآه
في حَرْبَا حَرْشَا مِن اصْحَابُ الاعْيَان   بَابَكْرْ وعُمَرْ وعُثْمَانْ الأَوَّاه
واعَلِي سَيْفْ الله هَشَّامْ العُصْيَان   طَلْحَة والزُّبَير ذَا السَّادَاتْ مْعَاه
وابْن عَوفْ المرتَضَى عَبْد الرَّحْمَن   بَعْد مَا نَذْكُر سَعِيد أو سَعْدَاه
ثُمَّ ابْنَ الجَرَّاحْ عَاشَرْ ذَا الفُرْسَان   حَمزَة والعَبَّاسْ وَالزَّهْرَا بَاحْيَاه
وَالسَّبْطَيْنْ الأَكْرَمِينْ اعْيَانْ ايمَان   نَشْفَا مَنْهُم دُونْ حُكمْ عْلَى الأنبَاه
دُونْ مُعَارِض يَعْتَرَضْ لي حَسْدَان   حَاسَد عِشْقِي في مُحَمَّدْ واصَحْبَاه

وَانَا وَالَهْ بالغْرَامْ كِمَا الضَّمْآن   نَرْوَا رَي يَجْمَعْ جِسْمِي وفِكْرَاه
قَبْل الموتْ انْمُوتْ في حَيْرَا كَسْدَان   عَائِق مِن احْبَبْتْ بَانْ اخْفَاه
عَجَّلْ يَا رَبْ عْلِيَّ بمُلْقَاه   مَا كَانْ الفَاعَل في الحَقِيقَة جَلَّ الله

وقد وفر الله له طلبته، وبلغ رغبته حتى أذاع وشاع بقوله:

تَأَوَّهْتُ مِن شَجْوَى ولا عَج مُهْجَتِي   وَمَا قَد جَمعَانِي مِن عظِيمِ صِفَاتِي
بِمَا حَلَّ بي مِن صَوَارِمِ لَحْظِه   غَزَالًا تَجَافِي بالنَّهَارِ والجَلَالَةِ
جَلِيلٌ جَمِيلٌ يَخْجَلُ الحُسْن حُسْنَهُ   شَرِيفٌ يَلُوحُ عَنهُ شَكْلَ المَلَاحَةِ
يَرُشُّ فُتَاتَ المسْكِ عَن صَحْنِ خَدِّهِ   ويُثْنِي عَلَيهِ بَانَ كُلّ طمَاحَةِ[كذا]
فَبِرضْوَان قَدْ حَلَّاه فِي زَيّ خُلدِهِ   وجِبْرِيل مُفْرِغ عَنْهُ تَاج الكَرَامَةِ
يُنَادِ مُنِي فِي كُلِّ يَومٍ عِقَارَه   رَحِيقٌ مُختَّم بِكُلِّ المدَامَةِ
آرَاه بِفِكْرِي كُلَّ حِينٍ وَسَاعَةٍ   فَلَو غَابَ عَنِّي حَانَ حِينَ قِيَامَتِي

وقد حمد الله بما هو أهله حين أعطاه ما طلب: الحمد لله الإله عني يجب:

اللاَّ يَمْنِي لنُورَه رَايْتْ ضْيَاه   بْذَهْنِي سَاطَع ولَيْسَ يْغِيبْ
نَافِي عَنِّي حْلُوكْ جَهْلِي يَا مَبْهَاه   مَن شَخْصْ المِصْطَفَى مُحَمَّد ثَاقَبْ
جْمَعْ اعْضَايْ وكُلْ عُضو يَرَى مَعْنَاه   حَمْدا لَا يَنْقطَعْ دْوَامْ حِسِّي ومَعْنَاوي وْسِرِّي
واعْلَان نَخْتَم بمَواقِيتْ السَّلَام   عْلَى المخْتَار مِن لُؤَي وعَدْنَان

فإن قلت هذا كلام عجيب ومقام غريب، قلنا: "وأي آية ربك ليست بعجيبة، وأي ولي لم يخصه بغريبة"، قال الشيخ السنوسي رحمه الله: "فإذ تمكن حب النبي ρ من النفس لم تغب صورته الكريمة عن عين البصيرة لمحة، وهي الرؤية الحقيقية لأن رؤية البصر إنما هي لتأدية حقيقة المبصر إلى عين البصيرة، ولا شك أن الصلاة على النبيρ ، إذا خلص مشربها سطعت أنوارها في الباطن، فصارت النفس مرآة لصورته الكريمة لا تغيب عنها، وهو العلم اليقيني الذي لا شك فيه، وما قرب السند بعد عن العلم وتطرف بظنون، وفرق بين من يروي عن بصيرة وبين من يروي عن بصيرته، ومع ذلك فرؤية البصر ربما داخلتها الأوهام، ثم الناس في انطباع الصورة المشرفة على طبقات، فمنهم من لا تثبت الصورة الكريمة في نفسه إلا بعد تأمل وإعمال فكر، وهكذا أضعف القوم، وهو قليل الرؤية إياه في النوم، وإن رآه فإنما يراه على غير كمال الرؤيا.

ومنهم من ثبتت الصورة الكريمة في نفسه أحيان ذكره سيما في الخلوات فإذا فَتَر غابت عنه، وهذا النقص من الأول، وهذا يراه في نومه على صورته الكاملة، ومنهم إذا سد عينه بالنوم وغاب قليلا عن الحس رآه، وهذا على اختلاف مشاربهم في الصدق والحضور، وافهم بهذا سر قولهυ: «الأرواح أجناد مجندة»[1]، الحديث، ووراء هذا ما هو أعلى درجة منه، وهو أن يراه بعيني رأسه عيانا في عالم الحس، الساحلي حدثني، قال حدثني شيخي أبو القاسم المريد قال: كان من جملة أصحابي الذين أخذوا عني، رجل يقال له أبو عبد الله بن الخطيب، بلغ بكثرة الصلاة على النبي

[1] أخرجه الشيخان برواية " الأرواح جنود مجندة": - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2031./ - البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1213.

ρ درجة القرب منه حتى أن الفقيهين المحدثين كانا إذا اختلفا في الحديث من أحاديث النبي ρ فقال أحدهما هو صحيح، وقال الآخر هو ضعيف، آتيا أبا عبد الله بن الخطيب فيرغبان منه أن يسأل النبي ρ عن الحديث المختلف فيه، ثم إنه إذا نام رأى النبيρ ، فيسأله عن ذلك الحديث، فيقول له إما نعم أنا قلته وإما لم أقله، فيعرفهما بذلك فيفيدهما قوة ظن لما علم من صدق أبي عبد الله بن الخطيب، وكان τ بحيث لا يتصرف في أمر إلا عن إذن النبي ρ وشدة محافظته على اتباع سنته"، من "اختصار كتاب الساحلي رضي الله عنهما".

قلت وقد وقع مثل هذا في زماننا لولد عمنا عبد المؤمن بن زروق بن مؤمن الحجازي، فإنه بلغ بكثرة صلاته على النبي ρ وشدة محافظته على اتباع سنته إلى محبته، ومن محبته رؤيته في عالم المنام، ومن النوم إلى السِّنَة ومن السِّنَة إلى اليقظة حتى أنه ليشاور على الأمور، فيتوجه بوجهة قلبه إلى نبيه فيراه في منزلته الرفيعة ويكلمه بما أراد فيجيبه بالسداد والرشاد، فيخبر السائل على نحو ما سمع، ولا يشك مؤمن أن ذلك من كلام خير البرية، لأنا نعرضه على ظاهر شريعته فنجده موافقا، والحالة أن هذا الرجل أمي لا يقرأ من القرآن إلا خمسة أحزاب، أقرأتها له أنا في أول بلوغي، وكتبت له ابن رشد المنتور[كذا]و«صغرى العقائد» لمعرفة ما كلفه الله به، ومن قبوله للغير مهما سمع مني أو منغيري حديثا أو أثرا بادر للعمل بمقتضاه، حتى بلغه الله لما يرضاه، فهو الآن يسمع من نبي الله، ويلقى من استهداه من عباد الله، فالحمد لله والشكر لله على ما أولاه، ونسأل مولانا الكريم البر الرحيم أن يمنّ علينا بما مَنَّ به على أولياءه المتقين، وإياك أخي والمبادرة إلى الإنكار، وإياك ثم إياك والاغترار حتى تجرب الرجال وتحك الأحوال على المعيار إن تكن ناسكا فكن كأويس، وإن تكن فاتكا فكن كابن هانئ، فمن تخلى بحلية ليست فيه فضحته شواهد الامتحان، حدثنيτ وأرضاه وزاده من العشق أقواه أنه كان يطلب في قصائد مدائحه على رؤية حبيبه، حتى كشف الله بينه وبينه الحجاب، فصار يراه، قال: "فأتاني مرة مع محي الدين الجيلاني قبل الأضحى بنصف شهر سنة أربع وخمسين، فقال: نحن في هذه الأيام نشتغلوا بالحجاج رَاُهم يَتْلَاغْطُوا عْلِينَا كِيفْ الغْطَا، قال: ثم غاب عني حتى مضت أيام التشريق فقدما عليّ وقالا: الآن تهنينا من الحجيج، وتعهدناك، ففرحت بذلك فرحا شديدا،

وقلت هذه الكلمة، وهي:

قَالْ اسْمَعْ مَا نْقُولَكْ   مَاحِي اوْزَارِي يَافَرْحِي
الِّي حُبَّك دْوَام ديما حَبِّيتَه لَا يْخَافْشِي   خُذْ اخْبَارِي يَا فَرْحِي
البَارَح زَارْنِي الحْبِيبْ احْبِيبْ الله   سَعْد اسَعْدِي ولَا لْعَدالأحْبَابْ والأصْحَابْ
واجْمِيعْ لِي يْحَبْنِي والِّي نَرْضَاهْ   الِّي حُضَّار الِّي هْنَا والِّي غِيَّابْ
اضْمَنْهُم سَيَّد فَاطَم الوَالَع باسْقَاه   واعْمَلهُم في كْفَالْتَه عَن كُلّ عْذَابْ
صَاحَبْ التَّاجْ والغْمَام   فِي شُورَه عْلَى العَلِي دَلْ اشْوَرا يَا فَرْحِي
واجْبَدْنِي مِن غْمِيقْ ظَلْمَاه وارْضَى بِي   وقَالْ مُومَنْ شَكَّارِي يَا فَرْحِي
امَسْعَدْنِي بْذِي الكِرَامْ مَخْمُورْ بِي   ونُشْكُر الحَيّ البَارِي يَا فَرْحِي
يَا فَرْحِي بالنْبِي المزَمْزَم فَرْحَا لَا يَنْقَطِعْ دْوَام   مُحَمَّد سَيَّد العْوَالَم عْلِيه الصَّلَاة والسَّلَام

بِـــهِ المَـولَى العَظِيـم الأعْــظَـم   كَافَاني عَالِي المَقَام واعْمَل لِي فِي الحْبِيبْ قَسْمَا

وازْرَعْ فِي مْحَبْتَه ظَهْرَ اخْيَار يَـا فَرْحـي   مَـا زِلْـت اتْقَـرَّبْ بِـالاسْمَـا

وانْكَثَّرْ فِي الصَّلَاة لَيْلِي وانْهَارِي يَا فَرْحِي   حَـتَّى جَـانِي احْـيَـا ولَـزْمَـا

وامْحَبْ بِه فِي العَقْل زَادْ انْوَارِي يَا فَرْحِي   مَا بْقِيتْ نْحْزَن واكْثَّرْ سِيدِي ارْضَا عْلِيَّ

رَابَحْ مِن هَمْتَه مْعَيَّنْ رَبْحِي ظَاهَرْ بْلَا خْفَى   واعْمَرْ سُوقِي وبِهْ دَنْدَنْ سُوقْ لَا تَدُّخْلَه امْطَايْ

مَا جَلْبُوا لِي ابْقَر وخَيْمَا مَاهُو شِـي   سُوقْ نَاسْ بَيَّاعْ وشَارِي يَا فَرْحِـي

رَبَّانِي ضَامَنْ السَّـــلَام   مَن دَاخْلَه ما يْرُوعْ قَامَـــح

مِن هَمَّتْ سَيَّد فَاطِمَة رْبَح وامـري   يا فرح يا شْفِيع الخَلْق سَيَّدْ الأُمَمْ

البَارَح زَارْنِي الحَبِيبْ اغْدَى ابْصَار   وانْصَحَا عَلَى القَلْب اغْيَار يَا فَرْحِي

كملت بحمد الله، اللهم اجعلنا من المؤمنين الآمنين المصدقين، ولا تجعلنا من المنافقين المكذبين برحمتك يا

يا سَعْدِ طُحتْ فِي غْنِيـمَا   بِهَا وَحْدِي غْنَمتْ عَن جَمْـع انْظَـارْ يَا فَـرْحِ

كَنْزَا صُبْت بْغِير حِكْـمَا   مَنُّه عَمَّـرتْ مَافْـطَـن بِي جَـار يَـا فَـرْحِ

وانْكَسْرَت وَقْفْتِي وجَـالمَـا   واهْدَّت بالمزُون صَـبّ امْـطَـار يَـا فَـرْحِ

وارْوَاتْ أَرْضِي بْغِيرْ وَهْمَـا   مَن بَعدْ اليَبس زَخْرفَتْ قَـاعْ اشْجَـارْ يَا فَـرْحِ

يَا شَفِيعْ الخَلقْ سِيدْ الأُمَّـة   البَـارَحْ زَارْنِي الحَـبِـيـبْ اغـدى ابْصَـار

وانصحَا عَلَى القَلبْ اغْيَار يَا فَـرْحْ   يَـا شَـفـيـع الخـلـق سِيـد الأمَـم

يَا فَرحِي بالحَبِيبْ جَـانِي   يَا سَعْدِي جَانِي ابْشِير هَذَا لُه دَهْرْ مَا دْرَكْـنِي

طَهَ السِّرَاج المنِير بَشَّرْنِي قَال لِي مْهَـنِّي   واحْبَـابَـكْ يْـبَـشْـرُوا بْخِـيـر

والَا شَافُوكْ فِي ضْمَانِي مَا يَتَّقُوا مِن السْعِير   وانْـطَـقْ لِي ثْـنَـانيـا بكـلـم

أرحم الراحمين.

[فقراء الصحابة:]

قوله: "وأهل الصفة مصدق الوعظا"، أي هم صفوة البشر،(يقول: والحَظْ أيضا ساداتنا الصوفية من الأصحاب المصحوبين بالرضى، وتأمل حالهم بن ملحان من أخوال النبي ρ ". من شرح سيدي عيسى بن موسى لقصيدته الغوثية).[1]، أولئك الذين كفرّ الله عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، "والصُّفَّة اسم للسقائف التي بمؤخر مسجد النبيρ ، وأهلها وعمارها فقراء المهاجرين، ومن ليس له بيت في المدينة يسكنه، ويقال لهم القرّاء، يخطبون بالنهار ويصلون بالليل، بلغوا أربعمائة، قتل منهم يوم أحد سبعون رجلا غدرا، وكان أمير السبعيني ضرام

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

فمن الصوفية المشهورين **بلال بن حمامة الحبشي** مؤذن رسول الله ρ ، وعتيق العتيق، ولقد كان عمر يقول: "سيدنا أعتق سيدنا"، يعني أبا بكر وبلال رضوان الله على جميعهم، قال ρ: «يبعث الله بلالا على ناقة من نوق الجنة، وهو ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فإذا وافى المحشر اكتسى بحلة من حلل الجنة، ويظهر الله نور قلبه على وجهه ويؤخذ سواده فيزدحم عليه الحور العين فيقتسمونه خالات في خدودهم»[1]، وقال υ: «ما دخلت موضعا في الجنة إلَّا وسمعت فيه خشف نعلك فبم نالك ذلك، قال: كنت إذا أحدثت توضأت، وإذا توضأت صليت ركعتين»[2]، أو كما ورد.

ومنهم **صهيب بن سنان الرومي**، قال ρ: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»[3]، ومعناه أنه مجبول على الخير مبني على الجود والكرم، فعبادته محبة لا خوفا، وعلى تقدير أن لو خلا قلبه من الخوف لم يقدر أن يعصي ربه، وقال بعضهم معناه: "لو لم يخف الله لم يعص نفسه وشيطانه".

ومنهم **سلمان الفارسي**، قال ρ: «لو كان الإيمان بالثريا للحقه قوم هذا»[4] يعني سلمان، وقالυ: «سلمان منا أهل البيت»[5]، وأنشدوا:

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي كُلِّ حَالَـــــةٍ ... وَلَا تَتْـرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى النَّـسَــبِ[6]
لَقَدْ رَفَعَ الإِسْلَام سَلْمَانَ فَــــــارِسٍ ... وقَـد وَضَـعَ الكُفْـرُ الشَّرِيـفَ أَبَا لَهَــب

ومنهم **أبو ذر** الذي شبهه النبي ρ(في زهده)[7] بعيسى بن مريم، ومنهم **أبو هريرة** الذي وصفه النبي بالحلم ودعا له بالعلم، وقال: «اللهم حبب أبا هريرة للمؤمنين وبَغِّضه للمنافقين»[8]، ومنهم عمار بن ياسر وخباب بن حارث وأشباههم من فقراء الصحابة، كانوا في ابتداء أمرهم أربعين رجلا، وبلغوا مائة ثم انتهوا إلى أربعمائة، نفعنا الله ببركاتهم.

[في ذكر معاني التصوف:]

قال الشيخ جلال الدين يوسف الكوراني الشهير بالعجمي: "سئل أبو القاسم الجنيد عن الصوفية من هم، فقال: أثرة الله من خلقه، يخفيها إذا أحب ويظهرها إذا أحب"، وسأله رؤيد عن التصوف في ذاته، فقال: إياك وإياك يا أبا محمد، خذ الظاهر ولا تسأل عن ذاتيته، قال فألح عليه، فقال مجيبا له: هم القائمون مع الله تعالى من حيث لا

---

[1] لم نعثر عليه.
[2] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج4، 1910.
[3] الحديث أخرجه: - علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1، ص: 202./ - اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 428.
[4] الحديث أخرجه برواية " لو كان الإيمان معلقا بالثريا..": - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج16، ص: 298./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص: 437. والحديث ساقط في (ب) و(ج).
[5] الحديث أخرجه، الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 691.
[6] البيت ساقط في (ب) و(ج).
[7] ساقط في (ب) و(ج).
[8] الحديث أخرجه بلفظ مختلف قليلا: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1938./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 677.

يعلم إلا الله تعالى، وسئل ابن عطاء عن التصوف، فقال: اتفقت أنا والجنيد على أن التصوف نزاهة طبع كامنة في باطن الإنسان، وحسن خلق يشتمل على ظاهره" من «الرسالة المكية».

(وقال أحمد بن عطاء: "أقبح من كل قبيح، صوفي شحيح، ومن تبع طريق القوم انتهى عنه الشح، ومن كتب الفقه انتفى عنه الجهل ومن خدم الأولياء بلا أدب هلك"، وقال صاحب «مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار»: "سئل الجنيد τ عن الصوفية، فقال: هم أهل بيت لا يدخل فيهم غيرهم، وقال أيضا: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح، يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل شيء، وقال: إذا رأيت الصوفي يعبأ بظاهره، فاعلم أن باطنه خراب، وسئل أيضا عن التصوف، فقال: أن تكون مع الله بلا علاقة، وقال مرة: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به، وقال: التصوف عنده لا صلح فيه، وقال أيضا: التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع، وقال: التصوف مبنى على ثمان خصال: السخاء والرضى والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر، فالسخاء لإبراهيم، والرضى لإسحاق، والصبر لأيوب، والإشارة لزكرياء، والغربة ليحي، ولبس الصوف لموسى، والسياحة لعيسى، والفقر لمحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وقال الحسن النوري رحمه الله: "ليس التصوف رسوما ولا علوما لكنها أخلاق، والتصوف ترك كل حظ للنفس. من "الكتاب".)[1]

وقال الشاطبي في "شرحه للمباحث": "قال سهل بن عبد الله الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ قلبه من الفكر، وانقطع إلى الله دون البشر، واستوى عنده المال والمدر"، وقال السيوطي: "معنى التصوف في قوله عز وجل: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ][المائدة/8]، قال أبو الفتح السبتي رحمه الله: "تنازع الناس في الصوفي واختلفوا، وكلهم قال قولا غير معروف، وليس يدرك هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سمي الصوفي"، وأنشد غيره:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ حِلْيَةً وتَكَلُّفًا ... وتَقَشُّفًا وتَوَاجُدًا بِصِيَاحِ
بَلْ عِفَّة ومُرُوءَة وفُتُوَّة ... وقَنَاعَة وطَهَارَة بِصَلَاحِ
وتُقَى وعِلْمٌ واقْتِدَاءٌ وَالصَّفَا ... ورِضَى وصِدْقٌ مَعَ وَفَا بِسَمَاحِ
مُتَيِّقِنًا مُتَصَبِّرًا مُتَشَمِّرًا ... مُتَبَدِّلَ الأَشْبَاحِ والأَرْوَاحِ[2]
تَاءُ التُّقَى صَادُ الصَّفَا وَاوُ الوَفَا ... فَاءُ الفُتُوَّةِ فَاغْتَنِم يَا صَاحِ

(والفتوة عند الجنيد هي كف الأذى وبذل الندى)[3]، وفسرها الشيخ السنوسي بأنها: "التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه، ولو أحسنت إليهم لعلمه، فإن إحسانه وإسائتهم إليه، كل ذلك مخلوق لله تعالى: [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ] [الصافات/96]، فلم ير لنفسه إحسانا حتى يطلب عليه جزاء، ولم ير لهم إساءة حتى يذمهم عليها، اللهم إلا أن يكون الشرع هو الذي أمر بذمهم أو معاقبتهم، فيفعل حينئذ ما أمر به الشرع ليقوم بوظيفة

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] كذا في (ج)، وفي (ب): الأَروَاح والأَشبَاح.

[3] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

التعبد فقط، وهذه الفتوة هي فوق المسالمة"، قال العالم العلامة البحر الفهامة سيدي أحمد الزروق رزقنا الله مما رزقه، ووفقنا كما وفقه:

"قاعدة: الاصطلاح على شيء مما يدل على معناه، ويشعر بحقيقته، ويناسب موضوعه، ويعين مدلوله من غير لبس، ولا إخلال بقاعدة شرعية ولا عرفية، ولا رفع موضوع أصلي ولا عرفي ولا معارضة فرع حكمي، ولا مناقضة وجه حكمي، مع إعراب لفظه وتحقيق ضبطه لاوجه لإنكاره.

واسم التصوف من ذلك لأنه عربي مفهوم، تام التركيب غير موهم ولا ملتبس ولا مبهم، بل اشتقاقه مُشْعِر بمعناه، كالفقه لأحكام الإسلام والأعمال الظاهرة، والأصول لأحكام الإيمان، وتحقيق المعتقد[1]، فاللازم فيهما لازم فيه لاستوائهما في الأصل والنقل فافهم.

قاعدة: الاشتقاق قاض ملاحظة معنى المشتقّ والمشتقّ منه، فمدلول المشتق مُستشعر من لفظه، فإن تعدَّدَ تَعَدَّدَ الشعور. ثم إن أمكن الجمع فمن الجميع، وإلا فكل يلاحظ معنى ما فهم إن سلم عن معارض في الأصل. وقد كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف وأحسن[2] ذلك بالحقيقة خمس:

أولها: قول من قال من (الصوفة) لأنه مع الله كالصوفية المطروحة، لا تدبير له،

الثاني: أنه من (صوفة القفا)[3] للينه، فالصوفي هيّن ليّن،

الثالث: أنه من (الصِّفة)، إذ جُملته اتِّصاف بالمحامد[4] وترك الأوصاف المذمومة،

والرابع: أنه من (الصَّفَا)، وصحح هذا القول[حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

تَنَازعَ النَّاسُ في الصوفيّ واختَلَفُوا   وظنَّهُ البَعضُ مُشتَقًّا من الصُّوف

وَلَستُ أَمنَحُ هذا الاسم غَيرَ فَتًى   صَافَى فَصُوفي حتّى سُمِّي الصوفي][5]

الخامس: أنه منقول من (الصُّفَّةِ) لأن صاحبها تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى: [يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ][الأنعام/52]، وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه والله أعلم".

قال سيدي عبد القادر الجيلاني τ: "هذه الطائفة إنما خصتها الآية لأنها تطلب التحقيق من باب التشريع، ومتى فارقوا الباب وقع الحجاب"، قال الشاطبي: "فالباب هي الشريعة، والقصد هي الحقيقة"، ونقل المريني في «خلاصته» عن الإمام أبي حامد أنه قال في كتا به «المنقذ من الضلال»: "ثم أني لما فرغت من العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، والقدر الذي أذكره لينتفع به، أنني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أحسن الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم المواظبين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلون بما هو خير منه لم يجدوا إليه

---

[1] في المصدر: المعنى، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، ص: 18.

[2] في المصدر: وأَمَسُّ، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] صوفة القفا: الشعرات النابتة في مؤخرة العنق.

[4] في المصدر: بالمحاسن، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] إضافة في المصدر، ينظر: المصدر نفسه، ص: 19، 20.

سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة ماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها، تطهير القلب بالكلية عن كل ما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم في الصلاة استغراق القلب بذكر الله تعالى، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى، ثم قال: وبالجملة من لم يذق منها شيئا فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء هي بداية الأنبياء وكل ذلك أول حال رسول الله ρ ، حيث كان بجبل حراء يخلو بربه ويعبده، حتى قالت العرب أن محمدا يعشق ربه، وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها، ومن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والسماع إن أكثر معهم الصحبة، فهم القوم الذي لا يشقى بهم جليسهم، ومن لم يرزق صحبتهم فيعلم إمكان ذلك كما ذكرنا في عجائب القلب، من «الإحياء».

والتحقيق بالبرهان علم وملابسة تلك الأحوال ذوق، والقبول من السامع والتجربة بحسن الظن إيمان، وهذه درجات وراء المذكورون المسخرون الذي قال الله فيهم: [وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ][محمد/16]، ومما بان لي بالضرورة وممارسة طريقهم حقيقة النبوة وخاصتها.

فصل فيما حفظ من كلام أهل التصوف في حدوده وتفاسيره:

على ما نقله الإمام عبد الرؤوف المناوي في تراجم كتابه المسمى «الكواكب الذرية في مدح السادة الصوفية»: وقد قالρ: «من أحب شيئا أكثر من ذكره»[1]، وقال: «من أحب قوما حشر معهم»[2]، وقال: «اتخذوا عند الفقراء أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة وهم المبتلون»[3]، لقوله ρ:«كونوا في الدنيا أضيافا، واتخذوا المساجد بيوتا وعوّدوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكر والبكاء»[4].

وهم المتخلقون بأخلاقه القرآنية، ومن جملتها قوله تعالى: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ][الأعراف/199]، وهم المتأدبون بآدابه النبوية، فإنه ρ لما نزلت عليه هذه الآية قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي، فجعل الشريعة مقالي والطريقة فعالي وهو مجامعها»[5]، وقوله عز وجل: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ][العلق/1]، فيه إشارة لمجمع البحار وعنصر الأنهار، فإنه ρ لما أن فر من الخلق لغار حراء، وجد الحق بلا امتراء، ثم رجع إلى ما عنه فرّ لما أن تمكن في المقام، واستقر بإشارة [فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ [وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ]][الحجر/94]، فالوارث الكامل من ورث نبيه علما وحالا وعملا.

ولهذا قال أبو مدين: "علامة صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، ومن علامة صدق فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق"، فانظر أيدك الله إلى أحوال هذا الصوفي الصادق الوارث

---

[1] الحديث أخرجه: - أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج1، ص: 388./ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج6، ص: 326.

[2] الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص: 19.

[3] الحديث أورده بلفظ مختلف قليلا: أبي شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج1، ص: 83./- اسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء، ج1، ص:37.

[4] الحديث أخرجه: - القرطبي، تفسير القرطبي، ج12، ص: 277./ - محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج1، ص: 426./ - اسماعيل بت محمد العجلوني، كشف الخفاء، ج2، ص:176.

[5] أخرجه بروايه " أدبني ربي فأحسن تأديبي": - عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج1، ص: 224،225./ - اسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء، ج1، ص:72.

الناطق، فإنه في ابتداء أمره مكث في بيته سنة لا يخرج لأحد، فاجتمع الناس ببابه وسألوه أن يتكلم عليهم وألزموه فخرج ففرت منه العصافير، فرجع وقال: "لو صلحت للحديث عليكم ما فرّ مني الطير ولا الوحش"، فقعد عاما فأتوه فلم تفر منه فتكلم عليهم، فأثّر كلامه حتى مات منه الإنس والطير، وكان يقول: من خرج للخلق قبل وجود حقيقة دعته لذلك فهو مفتون وكل من ادعا مع الله حالة ليس على ظاهره منها شاهد فاحذروه، الدنيا جرادة ورأسها حبها، فإذا قطع الرأس الجرادة حلت.

ولما أن وجد الحق في خلوته وعزلته، قال ما رأيت شيئا إلا ورأيت الباء مكتوبة عليه، وهذا لما أن تأدب بآداب نبيه حين تحنّث واختلى، حتى فاجأه الحق فسمع وحيا يتلى أوله ألف التألف وثانيه باء التعرف، [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ]، ففاض فكره في أسرار معنى الباء فإذا هي مكتوبة على القارئ المقروء والتالي والمتلو والرائي والمرئي والمظهر والمخفي، فإذ الأشياء كلها لا قيام لها إلا بالقيوم، فعم اسمها جميع الأشباح كما عمت وجوبيتها جميع الأرواح يوم [أَلَسْتُ بِرَبِّكُم]، [قالوا بلى]، شهدنا بربوبيته، الباء واسمها مظهر لألف ذات الرب المسمى بالإله، شاهد قوله: «كنت كنزا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فتعرفت لهم فبي عرفوني»[1]، ولهذا يشير قوله ρ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»[2]، أي لا حول عن كل شيء ولا قوة على كل شرع إلا بالله.

فهذه الباء هي التي شاهدها أبو مدين مكتوبة على كل شيء قائم في الله فعرف الله بها، وعلم أن أسرار الكتب المنزلة كلها مودعة فيها، حتى صارت معرفته ذوقية، ولذلك كان يقول: "من قال التمر ولم يجد حلاوته في فمه فما قال التمر"، وذلك أن حالة الشهود يتحد الوجود، ففي الشهود المشاهد بكل موجود، فيرى كل شيء في كل شيء، ولما أن رسخ في وراثة مقام: [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ][المدثر/1،2، 3]، صار يقول لأصحابه أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله، وأظهروا للناس ما عندكم من الموافقة، كما يظهر الناس بالمخالفة، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة، يعني خرق العوائد الباطنة، يعني المعارف، فإنه تعالى يقول: [وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ][الضحى/11].

قال الإمام ابن عربي: "كان شيخنا أبو مدين من الثمانية عشر نفسا الظاهرين بأمر الله عن أمر الله لا يرون سوى الله في الأكوان، وهم أهل علانية وجهر مثبتون للأسباب، وخرق العوائد عندهم عادة [قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ][الأنعام/91]، وكان شيخنا الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء فكل حال عنده أعمال، فيعلن بالصدقة كما نذكره في الملأ، فصدقة الإعلان تؤذى بالاقتدار الإلهي"، منه.[3]

[الصحابة والتابعون والصوفية المحققون مقامات بارزة وشواهد لامعة في ميدان التصوف:]

قال المناوي في أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: "توحّد في الأحوال بالتحقيق مختار الاختيار ممن دعاه إلى الطريق، تفرد بالحق عند الالتفات إلى الخلق حتى جمع بين الجمع والفرق"، وقد قيل: "التصوف الاعتصام بالحقائق عند تباين الطرائق"، وقيل: "أحوال قاهرة وأخلاق طاهرة وحقائق ظاهرة"، وقيل: "تطليق الدنيا بتاتا والإعراض عما

[1] الحديث أخرجه: – علي بن سلطان محمد الهروي القاري، المصنوع، ج1، ص:141./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص:173.
[2] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 2077./ – البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص: 1541.
[3] أي من كتاب: " الكواكب الذرية في مدح السادة الصوفية" لـ الإمام عبد الرؤوف المناوي.

لها ثباتا"، وقيل: "الجِدُّ في السلوك إلى ملك الملوك"، وقيل: "السكون إلى اللهيب في الحنين إلى الحبيب"، وقيل: "وقف الهمم على مولى النعم"، وقيل: " [كذا]الطوق في معاناة الشوق، وترجيه الأمور على تصفية الصدور".

وعمر الفاروق: ذو المقام الثابت المألوف، وكان للدين معلنا، ولأعمال البدن مبطنا، وقد قيل: التصوف الوصول بما علن إلى ظهور ما بطن"، وقيل: "ركوب الصعب جفي في جلاء الركب"، وقيل: "الموافقة للحق في الموافقة للخلق"، وقيل: "استقامة المناهج والتطرق إلى المباهج"، وقيل: "رفع ذراعي الردا مما يرقب من نفع الصدا"، وقيل: "النبو عن رتب الدنيا والسمو إلى رتب العليا"، وقيل: "حمل النفس على الشدائد للري من أشرف الموارد".

عثمان ذو النورين المدعو ذو الهجرتين: كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حظه من النهار الصيام والجود، ومن الليل الركوع والسجود، وقد قيل: "التصوف الإكباب على العمل تطرق إلى بلوغ الأمل"، وقيل: "الصبر على مرارة البلوى ليدرك حلاوة النجوى"، وقيل: "ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضيلة".

علي بن أبي طالب: باب مدينة العلوم والمواهب، المنبئ عن حقائق التوحيد، المشير إلى لؤامة بوارق علوم التفريد، الأنيس في دين الله، الممسوس في ذات الله، وقد قيل: "التصوف مرافقة المودود، ومصارمة المعهود"، وقيل: "إسلام الغيوب إل مقلب القلوب"، وقيل: "الرغبة إلى المحبوب في درك المطلوب"، وقيل: "الارتقاء في الأسباب إلى المقدورات من الأبواب"، وقيل: "البروز من الاحتجاب إلى رفع الحجاب".

أبو الدرداء: دوام على العلم استباقا، وأحب العمل اشتياقا، وقد قيل: "التصوف مكابدة الشوق إلى من جذب الرفوق". وأبو ذر: أول من تكلم في علم البقا والفنا، وثبت على المشاة والعنا، وقد قيل: "التصوف التأله من غلبات التوله".أبو موسى الأشعري: كان في أودية المحبة والمشاهدة هائما، وبقراءة القرآن في الخنادق قائما، وقد قيل: "التصوف رتوع القلب الهائم في مرتع العز الدائم". بلال بن رباح: عتيق الصدّيق ذي الفضل والسماح، السيد المتعبد الفقير المتجرد، وقد قيل: "التصوف قطع العلائق والأخذ بالوثائق".

وجعفر بن أبي طالب الطيار: فارق الخلق ورافق الحق، وقد قيل: "التصوف الانفراد بالحق عن ملابسة الخلق"، حذيفة سكن عن التافه والعدم، وكب إلى الإنابة والندم، وقد قيل"التصوف موافقة صنيع الرحمن مع المنع والحرمان"، الحسن بن علي له في التصوف الكلام المرتب المهذب، وقد قيل: "التصوف تنوير البيان وتطهير الأركان".

سعيد بن عامر القرشي: رغب عن الدنيا مع تقلده الولايات، وقيامه برعاية العهود والأمانات، السيد الغريب الحبيب المحبب، وقد قيل: "التصوف مصابرة الممنون دون تحقيق المظنون". سلمان الفارسي: ثبت على القلة والشدائد لما نال من الصلة والزوائد وقد قيل: "التصوف مقامات البلى في مراعاة العلي". صهيب بن سنان: أسرع الإجابة لله وللرسول، وصار بربه يجول ويصول، وقد قيل: "التصوف الأخذ بالأصول والترك للفضول، والتشمر للوصول". عامر بن فهيرة: خدم المصطفى وصحبه في الهجرة مع الصدّيق وقيل: "التصوف استطالة الهلك فيما يخطب من الملك".

عبد الله بن عمر: الزاهد في الإمرة والمراتب الراغب في القربة والمناقب، وقد قيل: "التصوف الرهب من العفو والرغب في العلو". عبد الله بن مسعود: المكلف بالمعبود الشاهد للمشهود، وقد قيل: "التصوف مشاهدة المشهود، ومراعاة العهود، ومحامات الصدود"، وقيل: "حث النفس على النجا للاعتلاء على الخوف والرجا". عبد الله بن عباس: مكرم الوافدين والجلاس مفسر التنزيل ومبين التأويل، وقد قيل: "التصوف المنافسة في نفائس الأخلاق وقهر

النفس عن الأعلاق". عبد الله بن الزبير: الأمير الصائل بالحق القائل بالصدق، وقد قيل: "التصوف التظاهر بالحق على التكاثر بالخلق". عبد الله بن رواحة: استشهد بأرض البلقان زاهدا في البقا راغبا في اللقا، قيل: "التصوف الوطئ على جمر القضا إلى منازل الأنس والرضى".

عثمان بن مضعون: المتقشف المحزون، "التصوف تشوق الصادق الراغب عن القدر إلى صفاء الورود من غير صدر". عمّار بن ياسر: كان لايضار الدين رافعا ولإمام الهدى تابعا، "التصوف تشور الشور إلى التحلل بالغور". مصعب بن عمير: سبق الركب وقضى النحب، "التصوف طلب التأنيس في رياضة التقديس". معاذ بن جبل: المحكم للعمل، الذي اهتز العرش لموته شهيدا "التصوف مزايلة الأنفاس في رياض التقديس".

أحمد بن محمد بن حنبل: عرضت عليه الدنيا فأباها والبدع نفاها، ودان للعلم والحلم داعيا وللفهم والفكر راعيا، "التصوف التحلي بالإثار والتخلي عن الأكدار". أحمد بن محمد النوري أبو الحسن:كان على الهمم عظيم الكرم، "التصوف كف فارغ وقلب طيب"، وقال النووي: "التصوف ما ترك حظ للنفس". أحمد بن أبي الورد: جاهد نفسه حتى صفت بعد القدر، وعالج طبعه حتى انقاد وانتصر، التصوف صفوة العرسعد كذروة المبعد"، وقال أحمد بن محمد بن مسرف: "التصوف خلو الأسرار مما منه بد، وتعلقها بما ليس منه بد". أحمد حضرويه: آيس من الفضول فأنس بالوصول "التصوف تطهير من الأدناس وتشمير للإيناس" ، التصوف اسم لثلاث معان، أولا يطفئ نور عرفانه نور ورعه، وأن لا يتكلم بباطن ينقضه ظاهر من كتاب أو سنة، وأن لا تحمله الكرامة على هتك الأستار".

الجنيد:"طريق التصوف عنوة لا صلح فيها"، المحاسبي كان في علم الأصول راجحا وعن الخوض في الفضول جانحا وللزائغين ناطحا، وللمريدين ناصحا، التصوف الأخذ بالأصول وترك الفضول واختيار ما اختاره الرسول". حاتم الأصم: المؤثر للأدوم والأعم، تحقق فسكن وأيكن فركن: "التصوف التنقي من الشكوك والترقي في السلوك". خير النساج: كان عظيم المراقبة كثير الأدب والمجاهدة: "التصوف موافقة الأحوال ولزوم الأدب في كل حال. سعيد البناجي: يفح من نفسه إلى ربه عجيبا، ويشتاق إليه شاكيا أنينا وصحيحا: "التصوف عرفان الحدود والخمر في وجدان السكون، والوثوق"، وقال علي بن سهل الأصبهاني: "التصوف التبري ممن دونه والتخلي عمن سواه".

معروف الكرخي: "عن الفاني مصروف وبالباني محفوف وبالتحقق مشغوف"، "التصوف التوقي من الأكدار والتنقي من الأقذار"، وكان يقول: التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"، وقال الروذباري: "التصوف الإفاضة على باب الحق وإن طردوه". الجريري: "أمرنا هذا مجموع كله على فصل واحد، وهو أن تلزم نفسك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائما". وقال إسماعيل السلمي: "التصوف الصبر تحت الأمر والنهي"، وسئل الحسن بن عبد الله الصبحي عن التصوف فقال: "إثبات صدق الافتقار إلى الله تعالى والاقتداء برسله، وفروعه أربعة: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود، يسر السر مع الله".

التصوف عدم الوقوف مع الخلق ظاهرا وباطنا"، "التصوف الإعراض عن الإعتراض". التصوف كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح". محمد بن خفيف الشيرازي كان ذاكرا باجتماع ووجد وسماع، "التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع، و عمل على اتباع"، وقال: "التصوف تصفية القلب عن موافقة البشرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وتجنب الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقائق الربانية"،

وقال فضل الله بن أحمد: "التصوف طرح النفوس في العبودية وتعلق القلب بالربوبية، والنظر إلى الله بالكلية"، "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"، "التصوف الإنابة على باب الحبيب وإن طرد".

قال الشيخ زروق τ: (قاعدة): فائدة الشيء ما قصد له وجوده، وإفادته: حقيقته في ابتدائه وانتهائه أو فيهما، كالتصوف؛ فإنه علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عمّا سواه. وكالفقه؛ لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام. وكالأصول[1]؛ لتحقيق المعتقدات[2] بالبرهان، وتحلية الإيمان بالإيقان. وكالطب؛ لحفظ الأبدان. وكالنحو؛ لإصلاح اللسان، إلى غير ذلك، فافهم.

(قاعدة): العلم بفائدة الشيء ونتيجته باعث على التهمُّم به، والأخذ في طلبه، لتعلق النفس بما يفيده إن وافقها، وإلا فعلى العكس. وقد صح إنَّ شرف الشيء بشرف متعلَّقه، ولا أشرف من متعلّق علم التصوف، لأن مبدأه خشية الله التي هي نتيجة معرفته، ومقدمة اتّباع أمره، وغايته إفراد القلب له تعالى، ولذلك قال الجنيد: "لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه".

زاد الشطيبي ولو "حبوا"، قال: "وكان τ يتكلم على رؤوس الأشهاد، فقيل له: لم تبذل الحكمة لغير أهلها؟، فقال: العلم أحمى جانبا من أن يصل إلى غير أهله". ثم قال الشاطبي: "هذا العلم الشريف يدل في أوله على خشية الله، وفي وسطه على معاملة الله، وفي غايته على معرفة الله"، وتصوف كل شخص على قدر همته، ويكفي الضعيف المسكين الذي لم يجد سبيلا للتمكين قول رسول الله ρ: «من كثر سواد قوم فهو منهم»[3].

واتفقوا على أن نسبة التصوف من الدين كنسبة الروح من الجسد، وعلى أن التصوف كله خلق، فالصوفي الكامل[4] من جمع بين العلم والعمل، وزاد بالأخلاق، قالρ: «السمت الحسن والتودد إلى الناس، والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزءا من النبوة»[5]. وقال υ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[6]، وقال υ: «خالق الناس بخلق حسن»[7]، وكما قام التصوف بثلاث: العلم والعمل والخلق، فكذلك الخلق لا يقوم إلا بثلاث أيضا: الحلم والجود والصبر، كما قال الهروي، ولا يتم الخلق إلا لمن كان من الناس قريبا، وبينهم غريبا، وما تطبع أحد [بشيء][8] أربعين يوما إلا تخلق به.

وقال الشيخ زروق: "قد حد التصوف [ورسم][9] وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى وبما يرضى، ومن له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وإن تصوف كل أحد صدق توجهه.

---

[1] المراد بالأصول: علم أصول الدين، وهو علم التوحيد.

[2] في المصدر: المقدمات، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، ص: 26 .

[3] لم نعثر عليه.

[4] في (ب): الصادق.

[5] الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا: – أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج6، ص: 240./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 145.

[6] الحديث أخرجه: – البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج10، ص: 191./ – محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج2، ص: 192.

[7] الحديث أخرجه: – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 121./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص: 355.

[8] إضافة في (ب).

[9] إضافة في المصدر، ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، ص: 13.

قاعدة: صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصبح مشروط بدون شرطه، [وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ][الزمر/7]، فلزم تحقيق الإيمان[وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ][الزمر/7] ، فلزم العمل بالإسلام. فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذا لا عمل إلا بصدق توجه، ولا هما إلا بالإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح والأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها، كما لا كمال لها إلا بها.

قاعدة: إسناد الشيء لأصله والقيام فيه بدليله الخاص به يرفع قول المنكر بحقيقته، لأن ظهور الحق في الحقيقة، وأصل التصوف مقام الإحسان الذي فسره رسول اللهρ: "بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1]، لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة وعليه دائرة، إذ لفظه دل على طلب المراقبة الملزومة به كما دل الفقه على مقام الإسلام، والأصول على مقام الإيمان ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم فافهم.

قال أبو الحسن الشاطبي: "واعلم أن طريق التصوف لا يخرج عن الكتاب والسنة، على ثلاث مراتب، مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان ومرتبة الإحسان، ولكل من الثلاثة بداية ووسط ونهاية".[2]

قال أبو عبد الله محمد الساحلي في «كتاب السلوك»[3]: "بداية الإسلام التوبة ووسطه الاستقامة وغايته التقوى، ثم الإيمان وبدايته الإخلاص ووسطه الصدق وغايته الطمأنينة، ثم الإحسان وبدايته المراقبة ووسطه المشاهدة وغايته المعرفة، فهذه بعض مراتب السلوك وأما أحوال الواصلين، فلا سبيل لضبطها ولا نهاية لغايتها، ويكفي منها الكرامات التي وهب الله أولياءه تصديقا لأحوالهم وبشارة بقربهم".

قلت: ومن أراد استيفاء الغرض من هذه المراتب التي بسطها الساحلي فعليه "باختصار الخروبي" أو "وجيز السنوسي"[4]، فإنهما اختصرا كتاب الساحلي المذكور[5]، فمن وفقه الله بالوقوف على أحدهما أو على أصلهما، وأعين على القيام بمضنه فقد فاز فوزا عظيما، قال عز من قائل: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ][الصف/10]، فإني والله لم أرى أقرب ولا أنسب ولا أنفع ولا أنجع من هؤلاء الكتب، ومن ذاق وعرف: على مثل ليلى يقتل المرء نفسه // ويخلو له الثرى لزعاف ويُعذّب، اللهم أنزلنا في غرف تلك المقامات، وسلكنا بقطع تلك الدرجات يا من بيده مقاليد الأرض والسماوات.

فصل في حسن الخلق:

قالρ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وألطفه بأهله»[6]، وروى الحسن عن الحسن عن أبي الحسن عن جد الحسن: "«أن أحسن الحسن الخلق الحسن»[7]، وقالυ: «حسن الملكة نماء وسوء الملكة شؤم»[8]، وقالυ:

---

[1] أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة τ، وأخرجه مسلم عن عمر بن الخطابτ. ينظر:- مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص:37/ البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص:27.

[2] تقدمت الإشارة إليه.

[3] يسمى بـ "بغية السالك في أشرف المسالك".

[4] في (ب) و(ج): "روض المحاسن" للسنوسي.

[5] أشار إلى هذا الاختصار أيضا التنبُكتي، ينظر: أبو العباس أحمد بابا التنبكتي، اللآلأ السندسية في الفضائل السنوسية، تحقيق: محمود إبراهيم، موفم للنشر، الجزائر، دط، ص:116.

[6] الحديث أخرجه: - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 119./ - الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص:9.

[7] الحديث أخرجه محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج2، ص:108.

[8] الحديث أخرجه محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج2، ص:108. وأوردته مصادر أخرى برواية" وسوء الخلق شؤم".

«الشؤم سوء الخلق»[1]، وقال υ: «اتقوا صفر الوجوه»[2]، (أي من غير عاهة)[3]، وقال υ: «أطلبوا الخير عند حسان الوجوه»[4]، وقال υ: «إنك لن تسع الناس بحالك فليسع حسن الخلق منك»[5].

وقال جعفر بن محمد الصادق، ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من قوله تعالى: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ][الأعراف/199]، وحين نزلت هذه الآية قال جبريل: "يا محمد إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وأن تعطي من حرمك، وأن تصل من قطعك"، فقال υ: «أدبني ربي فأحسن أدبي»[6]، ثم أنه υ تأدب بما أدبه به ربه حتى مدحه بقوله: [وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ][القلم/4]، قال مجاهد: "معناه على دين عظيم"، وقالت عائشة: "إنما يأتمر بأوامر القرآن وينتهي بنهيه ويتعظ بمواعظه، ويقف عند حدوده لا يتقدم عنه ولا يتأخر"، وقال الهروي: "هو كف الأذى واحتماله، وهو قطب التصوف".

كان أبو ذر ذات يوم يسقي إبله فكسر رجل حوضه، فجلس أبو ذر، ثم اضطجع، فقيل له في ذلك، فقال سمعت رسول الله ρ يقول: «إذا غضب أحدكم فليجلس، فإن زال غضبه، وإلا فليضطجع»[7]، يقول الله تعالى: "عبدي اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت»[8]، وقال الإمام الغزالي: "للطريق أربعة أبواب على أصول أربعة: ترك المنهيات خوفا من العقوبة، ثم عمل الأوامر تبعا للسنة، ثم كف الأذى واحتماله، ثم ترك الدنيا وأسبابها، فمن بنى أمره على هذه الأربع كان كمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن أخل بواحدة منها فزمامه بيد الشيطان".

قال الشاطبي: "وعلوم القوم أربعة: علم الذات والصفات وعلم الفقه، والحالان الأولان متعلقهما بالله وأسمائه والأخيران بالعبد ونعوته، الأولان: أولها الإقرار والإيمان وغايتهما التنزيه والإذعان، والأخيران: أولهما الطلب وآخرهما السبب، ولا غاية للطلب ولا نفاذ للسبب: [قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا][الكهف/109]، والصوفي الكامل من أربع عناصر، وهو للكائنات حاصر: فهو كالهواء في العلو، وكالأرض في الدنو، وكالنار في ضيائه، وكالماء في إروائه، وأحكام هذه الطائفة خاصة بأصلها، فبدايتها: من فارق المنهاج الشرعي قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وهو الأخذ بالقوة لقوله تعالى: [خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ][البقرة/63]، ووسطها من ضيع نفسا من أنفاسه في غير ما يقربه إلى الله فقد سلب الإرادة، لقوله تعالى: [يُرِيدُونَ وَجْهَهُ][الأنعام/52]، أما نهايتها فمن رأى نفسه مع رؤية خالقها فقد وقع في الثنوية، وهو الشرك الخفي، وليس في هذه البداية والنهاية والتوسط لغير هذه الطائفة مدخل، من «المباحث».

فهذه الطرق الأربعة والعلوم الأربعة والأحوال الأربعة تضمنها قول الله عز من قائل: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ][يوسف/108]، قال سيدي عبد الجليل في الآية: "وأعظم العلماء رتبة الأبدال لأنهم العلماء

---

[1] الحديث أخرجه: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج8، ص: 25./ – الطبراني، المعجم الأوسط، ج4، ص: 334.

[2] لم نعثر عليه.

[3] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[4] الحديث أخرجه: – علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج8، ص: 195./ – الطبراني، المعجم الأوسط، ج4، ص: 129.

[5] لم نعثر عليه، والحديث ساقط في (ب) و(ج).

[6] الحديث أخرجه: – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج1، ص: 225./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 72.

[7] الحديث أخرجه: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج12، ص: 501/ – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج8، ص: 70./– أبو داود، سنن أبي داود، ج4، ص: 249.

[8] لم نعثر عليه.

بالله والدار الآخرة، وإنما سموا أبدالا لأنهم أبدال النبيين وقلوبهم على قلوب الأنبياء، ولذلك شبه النبي ρ أبا بكر بإبراهيم υ وعمر بنوح، وعليًّا بهارون، وكذا سائر نجباء أصحابه، ومنهم من هو القطب الذي يضاهي أبا العباس الخضر υ وتجاريه في العلم والأحوال، وهو رحمة الله وغياث الأمة، وهو في زمانه في الاعتبار بدل من النبي υ ، ووارث بعض مقاماته في الأحوال، وبعد القطب الأوتاد الأربعة، وهم في جهات نواحي الأرض الأربع كالجبال الرواسي تمسك الأرض أن تميد بكثرة الفساد والمعاصي، فتمحوا حسناتهم ظلم الظالم وعصيان العاصي عن وجه الأرض، وهم في الاعتبار بمنزلة الخلفاء الأربع بعد النبيυ وبعدهم في الرتبة الأبدال الستة، وهم بمنزلة في الاعتبار الستة الباقين من العشرة، وبعدهم في الرتبة النقباء، وهم في الاعتبار بمنزلة الأربعين أهل الدار،(يعني إسلام عمر)[1]، وبعدهم في الرتبة النجباء وعددهم ثلاثمائة بمنزلة أهل بدر في الاعتبار وبعد ذلك الصالحون المتفرقون في البلاد، فإذا مات القطب ورث خير الأربعة مقامه وورث خير الستة مقام الرابع، وورث خير الأربعين مقام السادس، وورث خير الثلاثمائة مقام المنتقي من الأربعين، وورث خير الصالحين مقام المنتقى من الثلاثمائة، فهكذا عددهم من أول الإسلام إلى آخره فبهم ترحم الأرض، وهم الشافعون في دفع الشدائد ونزول الأمطار وغير ذلك، فإذا أراد الله خراب الدنيا لم يبق أحد منهم جعلنا الله وإياكم من الصالحين، ونفعنا بهم، آمين"، من «الشعب».

فصل في الفقر [عند الصوفية]:

ومن أوصافهم أيضا بعد حسن الخلق الفقر، قال عز من قائل: [لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ] [البقرة/273]، أي حسبوا أنفسهم على الجهاد، نزلت هذه الآية في أهل الصّفة، وهم أربعمائة من المهاجرين أرصدوا لتعليم القرآن والخروج مع السرايا، لا يستطيعون ضربا في الأرض للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد، يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف، أي لتعففهم عن السؤال وتركه، تعرفهم بسيماهم، علامتهم من التواضع وأثر الجهاد لا يسألون الناس شيئا، فيحلفون إلحافا، أي لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم إلحاف، وهو الإلحاح". من "السيوطي".

قال ρ: «من سأل وله أوقية أو عَدْلها فقد سأل إلحافا»[2]، وقال أبو القاسم القشيري: "الفقر شعار الأولياء، وحلية الأصفياء واختيار الله للأنبياء، ومن صح افتقاره إلى الله صح غناه بالله". ومن لازم هذا، أي من كان افتقاره إلى المال صار غناه بالمال، وكلا الحالتان مذمومتان مستعاد منهما في قوله ρ: «اللهم إني أعود بك من غنى مطغي، ومن فقر منسي»[3]، ولذا قرنه بالكفر في قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[4]، بل جعله قريبا منه في قوله: «كاد الفقر أن يكون كفرا»[5].

قال بعض العلماء: "الفقر لا يليق إلاّ لمن كانت له أربعة أشياء، علم يسوسه، وورع يحجزه ويقين يحمله، وذكر يؤنسه"، قيل بعضهم" "من أين تأكل؟" فقال: لو كان من أين لفنى، سلوا من يعطيني"، وقيل لآخر: "من أين

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج7، ص: 24.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الحديث أخرجه: - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج3، ص: 302./ - الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج1، ص: 383.

[5] الحديث أخرجه: - محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ج1، ص: 342./- أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج5، ص: 267.

تنفق؟" فقال: [وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ][المنافقون/7]، وسئل النوري عن الفقير الصادق، فقال: " هو الذي لا يتهم الله في الأسباب ويسكن إليه في كل حال، وقيل له من أين تأكلون؟، فقال لسنا نعرف الأسباب التي تستجلب بها الأرزاق، نحن قوم مدبرون"، وقال يحي بن معاذ: "ما وجبت علي زكاة الفطر أربعين سنة، وقال بعض العلماء في قوله تعالى: [وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً][لقمان/20]، الظاهرة الغنى والنعمة الباطنة الفقر والبلية"، قال ρ يوما لأصحابه: «من يتكفل بواحدة أتكفل له بالجنة، فقال ثوبان: أنا يا رسول الله، فقال: لا تسأل من مخلوق شيئا، فكان ثوبان بعد ذلك يسقط سوط فرسه من يده، فلا يسأل من يناوله إياه، بل ينزل ويأخذه»[1]، وقال سهل بن عبد الله: "الفقير الصادق من لا يسأل ولا يرد ولا يحبس".

وقال بشر الحافي: "في الفقراء ثلاثة، فقير لا يسأل وإن أعطي لم يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين، وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ، فهذا من المقربين في جنة الفردوس، وفقير يسأل عند فاقته فهذا مع الصديقين من أصحاب اليمين، وما عدى هؤلاء همج [إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً][الفرقان/44]، وفيه قال الشافعي:"من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه جهرا فقد نصحه وشانه"، وقال علي بن إبراهيم الحصري: "عرّضوا للإخوان بالأمور لا تصرحوا فإنه أستر [كذا][2] ".

وقال سيدي أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري رحمه الله: "لم يخرج أحد من الدنيا كما دخل فيها مثل بشرا كافي، فإنه كان عليه ثوب في مرض موته، فاستوهبه إنسان شيئا فأعطاه ثوبه ومات في ثوب استعاره، وقيل له لم تمشي حافيا؟ فقال: الأرض بساطه وأن أكره أن أباشر بساطه بواسطة بينه وبين قدمي، فلما آثر الله على الكل آثره على الجميع". من «شرحه الأسماء».

قوله: " مصدق الوعظا"، [أي ولاحظ أيضا أهل الصفة لتقتدي بهم [أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ][الأنعام/90]فإن الخطاب للنبي خطاب لأمته][3] ثم وصفهم بأنهم مصدق الوعظ وهل المصدق مضاف للفاعل فيكون وعظهم لغيرهم صادق، لأنه صدر من أناس صادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وبذلك وصفهم ربهم في قوله: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ][التوبة/119]، والوعظ إذا خرج من قلب حي صادق نفع القلوب الميتة وأحياها بالصدق، وقد قال أبو الحسن الشاذلي τ: "لا تنشر علمك ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدقك الله عز وجل، وإن كان الأمر فعلته لموجود تكون فعلته بينك وبين الله من حيث نهاك، وعلة تردك إلى الله خير لك من علة تقطعك عن الله، فمن أجل ذلك علقك الثواب والعقاب، إذ لا يرجى ولا يخاف إلا من قبل الله عز وجل وكفى بالله صادقا ومصدقا، وكفى بالله عالما ومعلما، وكفى بالله هاديا ونصيرا، أي هاديا يهديك ويهد إليك ويهدي بك، ونصيرا ينصرك وينصر بك ولا ينصر عليك، ووليا يواليك ويوالي بك، ولا يوالي عليك".

وقيل لحاتم الأصم: "عظني، قال: إن كنت تريد عصيان مولاك فاعصه في موضع لا يراك، وقال: تعهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فانظر سمع الله إليك، وإذا سكت فانظر علم الله

[1] لم نعثر عليه.

[2] بياض في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

[3] إضافة في (ب) و(ج).

فيك"، وقال ذو النون لعارف: عِظْني، قال: حسبك من الموعظة علمك بأنه يراك، قلت: فيما تأمرني قال، اطلاعه عليك في جميع أحوالك لا تنسه، وقالت له مُحبة عليك بالسلوك ولزوم البيوت وارضى بالقوت حتى تموت، وقالت له خائفة: شمر عن ساق الجد، ودع ما يتعلق به البقالون من الرجاء الكاذب الذي لا تحقيق لهم فيه ولا يدرون كيف العواقب، فو الله لا يرد غدا إلا المضمرون، وقال الأخرى: من أين أقبلت؟، قالت: من عند قوم [تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ][السجدة/16]، قلت: وإلى أين؟ قالت: إلى قوم [رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ] [النور/37].

وقال أبو سهل الصعلوكي: "أنام على سهري وتبكي الجرائر وليس لهم جرم وضع الجرائر"، وقال أبو الحسن أحمد بن محمد النوري: "أعز الأشياء في زماننا شيئان، عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقته"، وقيل للجنيد: "يا أستاذ ما بال القلوب اليوم لا تتأثر بالمواعظ (وكان من قبلنا ربما يموت أحدهم)[1]، فقال: كان الناس نيام والعلماء قيام، والقائم يوقظ النائم، وأما اليوم، فالناس موتى والعلماء نيام، وكيف يوقظ النائم الميت".

(وقال عثمان بن سعيد بن إسماعيل النيسابوري رحمه الله تعالى: "المريد إذا سمع شيئا من علوم القوم فعمل به صار حكمة في قلبه إلى آخره ينتفع به، ولو تكلم به انتفع من سمعه، ومن سمع شيئا من علومهم، ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياما ثم ينساها، وقال بعضهم: إذا قرأت كلامهم فاقرأه على نفسك لا على غيرك، وإذا سمعت خطابهم فاسمعه لتعمل به لا لتحكيه، واعتقد أنك أنت المخاطب بما تقرأ وتسمع بين يدي ربك".

قال الشيخ أبو الفرج سيدي عبد الرحمن الجوزي في بعض مواعظه، قال محمد بن المبارك:" إذا لم تنتفع بكلامك فكيف ينتفع به غيرك، يا من إذا أصبح طلب بالمعاش الشهوات، وإذ أمسى انقلب إلى فراش الغفلات، أين أنت من قوم نصبوا الآخرة بين أعينهم، فوفر النصب نصيبهم، [إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ] [ص/46]، قال بعض السلف: "لقيت رجلا في برية، فقلت: من أين؟ فقال: من عند قوم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، قلت: وإلى أين؟ قال: إلى قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يا سوق الأكل إلى أين أرباب الصيام؟، يا فراش النوم، أين حراس الظلام؟ درست والله المعالم، ووقعت الخيام، قف بنا على الأطلال نخصها بالسلام، يا معشر التائبين اصبروا وصابروا مكابدة البادية تهون عند ذكر منى المضحى في بوادي الجوع والمعشى بوادي السهر، إلى أن تلوح بوادي القبول إن رنت في السير كافيكم فأقيموا حراث العزم بدلج، يا مطرودا من صحبة الصالحين امش في أعراض الركب وناشد سائق القوم لعله يتوقف لك، إخواني انتبهوا من رقدات الأغمار، وانتبهوا لحظات الأعمار، قاطعوا الكسل، فقد قطع الأعذار واسمعوا زواجر الزمن، فما داجى الدجا، ولقد نهر النهار، وخذوا بالحزم فقد شف كلف من رضي شفا جرف هار العمر يسير وهو يسير، فاقصر عن التقصير في القصير، دارك دارك قبل امتناع الفكاك، حذار حذار قبل قدوم الفرار، أما يحرك سوق الذهب سوق الهرب.

أما بحيث التعليم على الدأب في الأدب، أليس الزمان يعير ثم يغير، وهب وهب أما ضرب الذهب فاستحال الضرب، مر العمر، والعمر مشغول عما ذهب بالذهب، ثم فارق من رافق فسلا من سلا بالسلب، أين الفهم فقد المعشى المعنى وعج العجب. أيها الشيوخ آن الحصاد أيها الكهول قرب الجداد، أيها الشباب كم جرد الزرع

---

[1] في (ب): والناس قبل اليوم يثوبون به ويموتون.

جداد، يا ابن آدم لا تغررك عافية عليك شاملة، فالعمر معدود، ما أنت إلا كزرع عند خضرته فكل نوع من الآفات مقصود، فإن سلمت من الآفات أجمعها فأنت عند كمال الأمر محصود"، لأبي مدينτ قصيدة يقول في آخرها:

فَبَادِر يَا أَخِي بالتَّوْبِ إن كُنتَ غَافِـلًا   وَعَجِّل بهَـا إنَّ السِّـمَـات عَـجُـول

إذا ابْيَضَّ لَونُ الزَّرْعِ حَانَ حَصَادُهُ   وَقَد يُحصَدُ المزرُوع وهُـوَ قَسِيلُ)[1]

ويحتمل أن يكون (مصدق) مضاف إلى المفعول فيكون الوعظ نزل فيهم وفي شأنهم قال عز وجل لنبيه: [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ][الكهف/28]، وذلك أن أغنياء العرب وأشرافهما قدموا على النبيρ ، فوجدوه قاعدا مع صهيب وبلال وعمار وخباب وناس من الضعفاء، فلما رأوهم حول النبي ρ حقروهم، فأتوه فخلوا به، فقالو: "إنا نريد أن يحصل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، ونستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذ نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم فنزلت: [وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم][الأنعام/52]، أخرجه السيوطي في «لباب النقول في أسباب النزول».

قال: "وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، وغيرهما عن خباب أيضا، وأخرج عن الطبراني وغيره أن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ρ وعنده الأربعة المذكورون، فقالوا: "يا محمد أرضيت بهؤلاء، هؤلاء منّ الله عليهم من بيننا، لو طردت هؤلاء لاتبعناك، فنزل قوله تعالى: [وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ][الأنعام/51]، أخرج عن ابن جرير عن عكرمة، قال: "جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم ابن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف، من أهل الكفر، إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء الأعبد كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا، وأدنى لإتباعنا إياه، فكلم أبو طالب النبي ρ ، فقال: [كذا] لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون، فأنزل الله: [وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ]،[الأنعام/51،52،53] كانوا بلالا وعمارا وسالما مولى أبي حذيفة وصهيبا وابن مسعود والمقدام وواقد، فأقبل عمر واعتذار عن مقالته، فنزل: [وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ][الأنعام/54].

وأخرج الشطيبي: "أن الله لما أنزل الشجرة الملعونة في القرآن، جاء ابن أم مكتوم يستفتي رسول الله ρ عن معناها، فوجده مع الوليد بن المغيرة يطمع في إسلامه فلما كلم رسول الله ρ ابن مكتوم انصرف الوليد عابسا وتركه، فأنزل الله تعالى أول سورة: [عَبَسَ وَتَوَلَّى][عبس/1]، يعني الوليد. من «جمانه».

وأخرج السيوطي والثعالبي عن الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنهم، قالت: [عَبَسَ وَتَوَلَّى] في ابن مكتوم، أتى رسول الله ρ ، فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعنده رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول اللهρ يعرض عنه ويقبل على الآخر، فيقول له: أترى بما أقول بأسا فيقولا: لا، فنزلت"، قال سيدي عبد الرحمن، قال سفيان

[1] الكلام من (وقال عثمان بن سعيد بن إسماعيل النيسابوري – إلى – وَقَد يَحصُدُ المزرُوع وهُوَ قَسِيلُ) ساقط في (ب) و(ج).

الثوري τ: "فكان بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم، قال: "مرحبا بمن عاتبني فيه ربي وبسط له رداءه، واستخلفه على المدينة مرتين"، والكافر المشار إليه في الآية هو الوليد ابن المغيرة، ثم أكد تعالى عتاب نبيه بقوله: [أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى][عبس/5]، أي بماله [فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى][عبس/6]، أي تتعرض، [وَهُوَ يَخْشَى][عبس/9]، أي يخشى الله، [فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى][عبس/10]،أي تشتغل وليس من اللهو، وهذه الآية السبب فيها هذا.

ثم هي بعد تناول من شركهم في هذه الأوصاف فحملة الشرع والعلم مخاطبون بتقريب الضعيف من أهل الجنة، وتقديمه على الشريف العاري من الخير، بمثل ما خوطب به النبي ρ ، قال عياض: "وليس في الآية إثبات ذنب، وإنما فيها الإعلام بحال الرجلين، وتوهين أمر الكافر والإشارة إلى الإعراض عنه"، قال السهيلي: "وانظر كيف نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب، فقال: [عَبَسَ وَتَوَلَّى]، ولم يقل عبست وتوليت، وهذا يشبه حال المعاتب المعرض، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب، فقال: [وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى][عبس/3]، علما منه سبحانه أنه لم يقصد بالإعراض عن ابن مكتوم إلا الرغبة في الخبر ودخول ذلك المشرك في الإسلام، إذ كان مثله يُسلم بإسلامه بشر كثير". من «الجواهر».

(وقال المحلي: "عبس: كلح وجهه، تولى: أعرض، إن جاءه عبد الله الأعمى فقطعه عما هو مشغول به ممن يرجو إسلامه من أشراف قريش الذي هو حريص على إسلامهم، ولم يدر الأعمى أنه مشغول بذلك فناداه: علمني مما علمك الله، فانصرف النبي ρ إلى بيته فعوتب في ذلك بما نزل في هذه السورة وذكر الأثر".)[1]

وقيل كان لباس الفقراء الصدق، وكانوا يأكلون من كسبهم، فإذا اشتد الحر وعرقوا فاحت روائح ثيابهم فأنف الملأ[2] من مجالستهم ، وذكر منهم الأقرع بن حابس التميمي وعتبة بن بدر الفزاري، وعباس بن مرداس السلوي نكسهم الله، فدعوا النبي ρ لأن يخصهم بمجلس فنزل: [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ][الكهف/28]، من «الإحياء». قال الغزالي: "حكي عن سفيان أنه جاء فقير إلى مجلسه، فقال له: تخط، لو كنت غنيا ما قربتك، حتى قال الموصلي: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري". منه.

قوله: "أين هم صفوة البشير"، هذا تلهف منه وتشوق إلى وجود أمثالهم في زمانه ورؤيتهم والحضوة بمحبتهم وصحبتهم"، روى الشاطبي عن الإمام علي أنه لما رأى كميل بن زياد، قال: "اللهم لا تخلي الأرض من قائم لك بمحبتك، أولئك هم الأقلون عددا الأكثرون مددا، قلوبهم متعلقة بالله أبدا، ثم بكى وأشواقه إلى رؤيتهم"، من «شرحه»، هذا علي في زمانهم (مشتاق إلى لقائهم)[3]، فكيف بمثلنا في زماننا، وإذا ظفرك الله بأشباههم فَشُدَّ يدك على اجتلاب موادهم، وكن معهم على قدم الإنصاف والإسعاف، وتأدب معهم في الظاهر والباطن، وكن كما قال سيدي أبي مدينτ:

---

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[2] في (ب) و(ج): الكفار.

[3] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

مَا لَذَّة العَيش إلَّا صُحْبَةَ الفُقَـــــــــــرَا   هُم السَّلَاطِيـن والسَّـــادَاتُ وَالأُمَـــــرَا

فَاصْحَبهُم وَتَــأَدَّب فِي مَجَالِسِهِـــــــــم   وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَـــا قَـــدَّمُــــوكَ وَرَا

ولَازِمْ الصَّمْتَ إِلَّا إِنْ سُئِلْتَ وَقُـــــــــلْ[1]   لَا عِلْمَ عِندِي وَكُنْ بِالصَّمْتِ مُسْـتَـتِـــرَا

وَرَاقِب الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَـــــــــــى   يَرَى عَلَيْكَ مِن اسْتِـحْـسَـانِـــهِ أَثَـــرَا

[1] في (ب) و(ج): فقل.

فَفِي رِضَاه رِضَى البَارِي وَطَاعَتـــهُ فَـرضٌ عَلَيْكَ، وَكُـن مِن تَـرْكِـهَا حَـذِرَا
وَاعْلَم بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْم دارِسَـــة وَحَالُ مَن يَـدَّعِيهَـا اليَـومَ كَيْـفَ تـرَى
فَاسْتَغْنِم الوَقْتَ وَاحْضَرْ دَائِمًا مَعَهُـم وَاعْلَم بِأَنَّ الـرِّضَـى يَخْـتَـصُّ مَن حَـضَـرَا
وَإِنْ أَتَى مِنْكَ ذَنْبٌ فَاعْتَرِفْ وَأَقِـم وَجْهَ اعْـتِـذَارِكَ عَمَّـا فِيـكَ مِنْـكَ جَـرَى
وَقُلْ عَبِيدُكُم أَوْلَى بِصَفْحِكُـم فَسَـامِحُـوا وَخُـذُوا بِالعَـفْـوِ يافُـقَـرَا
هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهُوَ شِيمَتُهُـم فَلَا تَخَـفْ مِـنْـهُـم دَرْكًـا وَلَا ضَـرَرَا
وبالتَّفَتي عَلَى الإخْوَانِ جُداأَبَـدًا حِسًّا وَمَعْـنَى، وَغُضَّ الطَّـرَف إنْ عَـثَـرَا
وَلَا تَرَ العَيْبَ إلَّا فِيكَ مُعْتَقِـدًا بِـأَنَّـهُ بَيِّنٌ لَـو لم يَـكُـن ظَـهَـرَا
وَقُل بِذَنْبِكَ وَاسْتَغْفِر بِلَا سَبَـبٍ وَقُـم عَلَى قَـدَمِ الإنـصَـافِ مُـعْـتَـذِرَا
مَتَى أَرَاهُم وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِـم أَوْ تَسْـمَـع الأُذُن مِـنِّي عَـنْـهُـم خَـبَـرَا
مَنْ لِي وَأَنَّى لمثلِي أَنْ يُزَاحِمَهُـم عَلَى مُـورادَ لم يَـلْـقَ بِهَـا كَـدَرَا
قَومٌ كِرَامُ السَّجَايَا، أينما نَزَلُـوا يَبْـقَى المكَـانُ عَلَى آثَـارِهِـم عَـطِـرَا
يَهْدِي التَّصَوُّف مِن أَخْلَاقِهِم طَرَفًـا حُسْنُ التَّـصَـرُّفِ فِيـهِـم رَاقَـني نَـظَـرَا
فَكَم تَنَفَّستُ مِن أَنفَاسِهِم (نَفَسًـا)[1] أَزْكَى مِن المِسْـكِ تنْفِيسًـا إِذَا انْـتَـشَـرَا
أُحِبُّهُـم وَأُدَارِيهِـم وَأُوْثِرُهُـم بِمُهْجَـتِي وَخُصُـوصًـا مِنْـهُـم نَـفَـرَا
هُم أَهْلُ وِدّي وَأَحْبَابي الذِينَ هُـم عَـمَّن يجُـرُّ ذُيُـولَ العِـزِّ مُفْـتَـخِـرَا
لَا زَالَ شَمْلِي بِهِم فِي الله مُجْتَمِعًا وَحُـبُّـنَـا فِيـهِ مَـوْفُـورًا وَمُـغْـتَـفَـرَا
بِجَاه سَيِّدِنَا المختَار صَلّى عَلَيـهِ الله مِـن صَـادِقٍ أَوْفَى بِمَـا نَـذَرَا

قال حمدون القصار: "اصحب الصوفية فإن للقبيح عندهم وجوها من الأعذار وليس للمحسن عندهم مقدار"، وقال: أوصيكم بصحبة العلماء واحتمال الجهال، ومن رأيتهم فيه خصلة من الخير فلا تفارقوه، وقال الله

[1] كذا في (ج)، وفي (ب): طربا.

تعالى لداوود: "إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما"، قال بعضهم: "صحبت الصوفية خمسين سنة، فما رأيت منهم مكروها قط، فقيل: وكيف ذلك؟ وللإنسان هفوات، وللقلب تقلبات، قال: إنما كنت معهم على نفسي"، "الشطيبي" وهذا غاية الإنصاف.

وقال الصدّيق τ: "أنصف الناس من نفسك، وأقبل النصيحة ممن دونك تبلغ بذلك أشرف المنازل"، والإنصاف على قسمين: إنصاف من نفسك لنفسك، بالرجوع إلى الحق على كل حال، وإنصاف من نفسك للخلق بأن تكون معهم على نفسك، ولو كان الحق معك، قال ρ: «من ترك المراء وهو مبطل، بنى الله له بيتا في رياض الجنة، ومن تركه وهو محق بنى الله له بيتا في وسط الجنة ربض المدينة ما حولها»[1].

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِم حِبَالَـهُ ... وَإن لم تَجِد عَنْهُ مَحِيصا فَـدَارِهِ
وَاحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاتْرُك مِـرَاءَهُ ... تَنَل مِنهُ صَفْوَ الوِدِّ مَا لم تُمَـارِهِ
وَفِي الشَّيْبِ مَا يُنْهِي الحَكِيمَ عَن الصِّبَـا ... إِذَا اشْتَعَلَت نِيرَانُه في عِـذَارِهِ
وَمَن يَطلُب المعرُوفَ مِن غَيرِ أَهْلِـهِ ... يَجِدْهُ وَرَاءَ البَحْر أَوْ في قَـرَارِهِ
ولله في عَرْضِ السَّمَوَاتِ جَنَّـة ... وَلَكِنَّهَا مَحفُوفَـةٌ بِالمكَـارِهِ[2]

[1] الحديث أخرجه: - محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج1، ص: 19./ - الطبراني، المعجم الأوسط، ج1، ص: 269.
[2] النص الشعري ساقط في (ب) و(ج).

قوله: "أين هم صفوة البشير"، إنما تلهف الناظم على رؤيتهم لما خصصهم الله به من الأوصاف الحميدة والأخلاق الزكية، ولعله أن يحظى بشيء من كمالاتهم، وأيضا فالأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وقد وصفهم الله بالدعاء والتضرع وإرادة وجهه الكريم في جميع أحوالهم، وكونهم من الشاكرين في قوله:[وَلَا تَطْرُدِ [الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ]] [الأنعام/52] ، قال بعض الأئمة: "إنما هما اثنان: ولي وصفي، فالولي من يسير له جميع ما يريد، والصفي من يسلط على قلبه الرضى بما يجري"، قال زروق: "اختلفت أحوالهما لاختلاف تجلي الحق عليهما هذا [كذا][1]الجمالي الموجب الشكر بما فوقه، وذلك بقهره الجلالي المقتضي العبودية المحضة".

قال الشاطبي: "ومعنى الإرادة هي إرادة الخلاص من إشراك النفس والهوى والشيطان وطبع عوائد مع أبنائها، يفهم هذا من قوله تعالى: [مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ][آل عمران/152]، فالكل مريد والاصطلاح خصها بالآخرة لحقيتها وبإرادة ربها فيهما، يفهم هذا من قوله تعالى: [يُرِيدُونَ وَجْهَهُ]، كما قالت رابعة العدوية: "الجار قبل الدار"، قال ῦ: «إلتمسوا الجار قبل الدار»[2]، فهو أعم،[يصح في الحس الدنيوي وفي النظر لرب دار الآخرة][3] والوجه الذات والمنزلة ومقدمة الشيء وأوله والإرادة طريق لله وسنن التصوف ومذهب القوم، ولها بداية ووسط ونهاية، فبدايتها تصحيح مقام الإسلام، ثم مقام الإيمان، ثم مقام الإحسان، وللإسلام بداية بترك الذنوب وأسبابها، ووسط بتعلم الطاعة وأركانها، ونهاية بتصحيح التوبة ولزوم أصحابها، فنهاية الإسلام مرتبطة ببداية الإيمان، كما أن نهاية الإيمان مرتبطة ببداية الإحسان، فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إحسان لمن لا إيمان له وهو قولهم: "إنما حرموا الوصول لتضيعهم الأصول، وتركهم الاقتداء بالدليل وسلوكهم بالهوى". وهو قول ابن مدين شعيب τ ، وإنما سميت الإرادة إرادة، لأن الإرادة متقدمة على الجل"، (قال بعض المشايخ: "كنت في البداية وحدي فضاق صدري، فقلت: يا ناس كلموني ويا جن كلموني، فهتف بن هاتف: ايش تريد؟ فقلت: الله تعالى، فقال الهاتف: حتى تريد الله تعالى، يعني، من قال للجن والإنس كلموني متى يريد الله".

حكاية في المعنى: قال الشيخ أبو بكر بن العربي: "لقيت الإمام أبي حامد τ ، وهو يطوف وعليه مرقعة، فقلت: يا شيخ العلم والتدريس أولى لك من هذا، إذ بك يقتدى وبحكمك إلى معالي العلم يهتدى، فقال: هيهات لما طلع قمر السعادة في فلك الإرادة أشرقت شموس الأصول على مصابيح الأفول، فتبين الخالق لأرباب الألباب وذوي البصائر، إذ كل مما طبع عليه راجع صائر، وأنشد في أصول الدين:

---

[1] بياض في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج)، وأظن الكلمة الساقطة هي بمعنى: هذا اللطف.

[2] أورده: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج8، ص: ص: 164./ – الطبراني، المعجم الكبير، ج4، ص: 268.

[3] إضافة في (ب) و(ج).

تَرَكْتُ هَوَى لَيْلَى وَلَيْلَى بمعــزَلِ وَسرْتُ إلى مَصْحُوبِ أَول مَنْــزِلِ
وَنَادَتْــــنِي الأَكْــــوَانُ حَـــتَّى أُحيبها أَلَا أَيُّهَا السَّارِي رَوَيْدَكَ فَانْــزِلِ
فَعَرَّسْتُ فِي دَارِ النَّدَا بِعَزِيمَــةِ قُلُوبِ ذَوِي التَّشْرِيفِ عَنْهَا بمَعْــزَلِ
غَزَلتُ لَهُم غَزْلًا رَقِيقًا فَلَم أَجِــد لِغَزْلِي نَسَّاجًا فَكَسَّرْتُ مَغْــــزَلِ)[1]

[1] الكلام من (قال بعض المشايخ: "كنت في البداية -إلى- نَسَّاجًا فَكَسَّرْتُ مَغْزَلِ) ساقط في (ب) و(ج).

فصل في الإرادة من مقام الإحسان:[1]

قال الإمام أبي حامد مترجما عن كلام الحق: "عبدي ليس في الوجود إلا أنا، فلا تشتغل إلا بي ولا تقبل إلا عليّ، فإن حصلتُ لك فقد حصل لك كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، إن رفعت إلى ذروة الأكوان وترقيت إلى أرفع مكان، وأعطيت مفاتيح كنوز الكونين، وسبقت بصائر الدارين، واغتررت بشيء طرفة عين فأنت مشتغل عنا لا بنا، ومقبل على غيرنا لا علينا، إن قنعت بنعيم العاجلة، فأنت هالك أولئك الذين لهم في الآخرة إلا النار، وإن قنعت بنعيم الجنة، فأكثر أهل الجنة البله، من اشتغل بالدار عن الجار فهو أبله، ومن اشتغل بالرزق عن الرازق فهو أبله، ومن اشتغل بالخلق عن الخالق فهو أبله، وإن قنعت بنعيم الدنيا فاتك نعيم الآخرة، وإن قنعت بنعيم الآخرة فاتك نعيم الدنيا وإن قصدتنا حصل لك كل نعيم الدنيا والآخرة، [يُرِيدُونَ وَجْهَهُ][الأنعام/52].

وما لم تردنا تخسر الدنيا والآخرة، لا تصلح لطلبنا ولا تدخل في دائرة إرادتنا ولا تكون بنا ولا لنا على هذا العقد إن رضيت به، وإلا فعليك بدين العجائز تعجز بمعاجز النساء واقعد في بيتك تخلفك، واجلس في زاوية إدبارك،[إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ] [التوبة/83]، مريد الدنيا كثير ومريد الآخرة كثير، ومريد الحق عزيز خطير، المريد على قدر خطر الإرادة، وخطر الإرادة على قدر خطر المراد، وخطر الخلق يسير بخطر إرادته يسير، وخطر مريده يسير خطر الحق خطير، وخطر إرادته خطير بخطر مريده خطير، من أراد من الملك الدخول إلى عرصة داره والجلوس على مائدة كرامته لا يكون كمن يريد من الملك جيفة ملقاة في اصطبل دوابه.

ومن أراد من الملك الجلوس معه على بساط قربه في حجرة خلوته، لا يكون كمن أراد منه الدخول إلى دار ضيافته والخلاص من سجن مهانته، للمجاور أثر مجاوره، فمجاورة الشريف تكسب شرفا، ومجاورة الدني تكسب دناءة، ومن جاور الملك في دار كرامته اكتسب شرفا، ومن جالس الملك على بساط قربه في حجرة خلوته ازداد شرفا، لكلٍّ درجة ولكلٍّ مقام، [لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ][الأنفال/4]، وما منا إلا له مقام معلوم، أقوام قاموا في عالم الطبيعة عليهم ظلمات البشرية فعمت بصائرهم عن إرادة الأعلى، وتعلقت إرادتهم بالأدنى، وتشبثت هممهم بحظوظ الدنيا وهي الجيفة الملقاة في اصصبل الدواب، أي حبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وعذبوا بعذابين عذاب الفرقة في الحال، وعذاب الحرقة في المآل، [أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ][هود/16].

وأقوام اجتهدوا في مفارقة عالم الطبيعة، والخلاص من ظلمات عالم البشرية، واشتغلوا بالرياضة وتزكية النفوس والطهارة، فارتفعوا عن تلك الدرجة، وعلوا عن تلك المرتبة، غير أنهم بقيت عليهم بقية من عالم الطبيعة والبشرية، فلم تكمل لديهم إرادة الحق، فتعلقت إرادتهم بالنجاة من النار، وهي سجن المهانة، وقوم غلب عليهم حب الدرجات، فتعلقت إرادتهم بالجنة، وهي دار الكرامات، وهؤلاء قوم اشتغلوا بالعالي عن الأعلى، وبالكامل عن الأكمل، وبالشريف عن الأشرف، وهذه الفرقة وإن لم يعذبوا بنار الحرقة، فقد عذبوا بنار الفرقة، ونار الفرقة عند الأحبة أشد

[1] هذا الفصل ساقط في (ب) و(ج).

منها من نار الحرقة، ولو سلطت نار التفرق والهوى على سقر يوما لذابَ لهيبُهَا، أشد جحيم النار أبرد موقعا على كبدي من نار بين أصيبها.

وأقوام فارقوا عالم الطبيعة وطاروا عن عش عالم البشرية ولم يبق عليهم من رسومهم بقية، فجازوا الأكوان وعبروا عن الموجودات وغابوا عن الخلق، فتعلقت إرادتهم بالحق فهو مرادهم ومقصودهم، ولسان الحق ينطق عنهم: ما لنا وللاشتغال بالدنيا والعقبى ما لنا وللاشتغال بالجنة والنار، لا نشتغل بدنيا ولا بعقبى ولا جنة ولا نار، وإن رضي عنا فهو قادر على أن ينجينا في النار، وإن غضب علينا فنعوذ به منها، فهو قادر على أن يعذبنا في الجنة، ولو عبدناه رغبة في جنته أو رهبة من ناره، لكن أفمن يعبد الله على حرف[1]، فاعبده له لا لسواه، واجعل نفسك مع الذين يريدون وجهه، فحصل لهم الملك، ملك الدنيا وملك الآخرة العقبى، وهم الملوك في زي المساكين، من ادعى محبته كذبه اشتغاله عنه بلذيذ الطعام والشراب، ومن اشتغل بنعيم الجنة فهو كاذب إن قاموا فيه، وإن قعدوا فمعه، وإن نطقوا ففيه، وإن أخذوا فمنه، وإن نظروا فإليه، وإن غضبوا فعليه، به يستمعون وبه يبصرون وبن ينطقون وبه يبطشون، وإليه الإشارة بقوله: "كنت له سمعا"[2]، الخبر، ما جعل لغيرهم وعدا عجل لهم نقدا، ما جعل لغيرهم غيبا شاهدوه حينا وهم في زواياهم وعلى سجاداتهم، فهم في الشرف وهم في القرب وهم في الفرش وهم في العرش، وإن لم يعرجوا بأشباحهم فقد عرجوا بأرواحهم، وإن لم يشاهدوا الحق بأبصارهم، فقد شاهدوه بأسرارهم، فهم صفوة الحق ومقصود الكون من الخلق بهم يرزقون، أخلصوا لله في العبودية والتوحيد، وصَدَقُوا في الإرادة والتجريد فطوبى لهم، بل طوبى لمن آمن بهم، ولقد عاتب الحق سيد الأحباب في مثل حالهم بأشد العقاب، فقال: [وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ][الأنعام/52]، من كتاب «التجريد في علم التوحيد» للإمام الغزالي. وهو عجيب في معنى كلمة التقوى.

[من شروط الطريقة اتخاذ شيخ كامل:]

قال الشاطبي: "ومن شروط الطريقة شيخ كامل[3] لقوله تعالى: [إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ][الرعد/7]، قال بعض العلماء: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه"، (الغزالي)، لأن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، ومن لم يكنله شيخ يهديه قاده الشيطان لا محالة إلى طرقه، قال القشيري: "سمعت شيخنا أبا علي الدقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر"، قال السهرودي: "ويجوز أن تثمر ولا يكون لفاكهتها طعم لذيذ، كالمغروسة التي دخلها التصرف، وسمعت المشايخ يقولون: "من لم ير مفلحا لا يفلح"، وقد اعتبر الشرع التعليم في الكلب فأحلَّ صيده".

قاعدة:قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله: "ضبط النفس بأصل يرجع إليه في العلم لازم لمنع التشعب والتشغب، فلزم الاقتداء بشيخ قد تحقق اتباعه للسنة، وتمكن في المعرفة، ليرجع إليه فيمايرد ويراد التقاط الفوائد

[1] وهو معنى الآية: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ] [الحج/11].

[2] هذا مقطع من حديث قدسي أخرجه البخاري، عن أبي هريرة τ قال رسول الله ρ: إن الله عز وجل قال: « من عاد لي وليا، فقد آذنته بالحرب،..» ينظر: دار الكتاب العربي، الأحاديث القدسية (ج1)، بيروت، ط1، 1999، ص: 66.

[3] جرى نقاش حاد بين المتصوفة في الغرب الإسلامي في مسألة اتخاذ الشيخ من عدمه وبخاصة في الأندلس، فتشاجروا في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ أو لا إلى أن وصل الأمر إلى التضارب بالنعال، ثم كتبوا إلى البلاد واشتهرت مسألتهم، وتشعبت مناظراتهم وذهبت كل مذهب. ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي (مرجع سابق)، ص: 119.

الراجحة لأصله من خارج، إذ الحكمة ضالة المؤمن، وهو كالنحلة ترعى كل طيب ثم لا تبيت في غير صيحها، وإلا لم ينتفع بعسلها". من «قواعده»، وإنما أمروا بالاقتداء بالشيوخ لتخرج النفس عن اختيارها ونظرها بدخولها تحت نظر قدرتها[1]، وتنسلخ من متابعة الهوى بإذعانها لربقة الاقتداء، حتى تخرج من سجن قطيعة الهوى المقصور وجميع الأهواء، إلى فسحة النداء الممدود بنسيم الأهوية، لأن المؤمن مرآة المؤمن، والمرء لا يبصر عيبه فلذلك قال بعضهم: "رحم الله رجلا أهدى إلي عيوبي".[2]

فالشيخ له الولادة المعنوية لأنه تسبب في الحياة الأبدية، كما أن الوالد له الحسية لتسببه في الحياة الفانية، وشتان ما بينهما فالمريد كالجزء من الشيخ، كما أن الولد جزء من والده، فطاعتهما واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، وفي الخبر عن عيسى (روح الله) أنه قال: "لن يلج ملكوت السماوات والأرض من لم يولد مرتين"، (أراد الطبيعية والمعنوية، والله أعلم)[3].

قال الشاطبي: "فأما فيمن خبثت نفسه ونكرت واستعوصت عليه فالشيخ في حقه شرط صحة، واقتبسوا ذلك من قوله تعالى: [وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى][الطلاق/6]، أي من تعاسرت عليه نفسه فليسلمها [لنفس أخرى][4] مطمئنة تربيها وترضعها من ثدي لطائف ألبان المعارف، يخرج من بين فرث ودم علم وعمل لبنا خالصا، (وهو المفهوم والادراكات والأحوال)[5] سائغا للشاربين، وأما من زكت نفسه وتهذبت وكانت مطاوعة فالشيخ في حقه شرط كمال، من تكون فيه ثلاث خصال سياسة الملوك، وتدبير الأطباء ودين الأنبياء، السياسة للخلق والتدبير للنفس والدين لربه".

وقال الأستاذ إبراهيم بن محمود الأقصراني الشاذلي: "لما كانت النفوس ثلاثة: أمّارة، لوّامة ومطمئنة، كان من الشيخ للأمارة لسان الشافعة، واللوّامة لسان تدبير الأطباء، والمطمئنة لسان دين الأنبياء"، وقال في قوله تعالى: [اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ][الشورى/13]، أي بلا واسطة ويهدي إليه من ينيب بالواسطة"، فتهيئوا أهل الهداية هي بإبقائهم في حضرة الأئمة المهديين الذين قضوا بالحق، وقد كانوا يعدلون فينظرون إليهم نظرة جامعة إحاطية محيطة بجميع المقاصد، أو ثلاث نظرات كلية تحتها نظرات جزئية لا تنحصر لعدم حصر الحوادث النفسانية، ودسائس النفوس الخفية، والنظرة الأولى من الثلاث يحررون بها ما بهم من الأمراض الخفية والجلية لتزول، والثانية يحررون بها قوالبهم الزكية لأجل ما يحملونها من الأنوار الغربية لتسمعها وتتبع بها لما وراء ذلك، والمشاهد العيانية، والثالثة تحقق الاستحقاق لقبول الفواضل الإلهية والتجليات الربانية، فمن أسعد مسعود من ثبت، ومن أبعد مبعود من تزلزل والتفت، وليت شعري إذا التفت عن الله من في الدارين يتولاه أو يكرم مثواه، فإن لله وإن إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

[1] في (ب) و(ج): تحت اختيار غيرها.

[2] حول ضرورة اتخاذ الشيخ القدوة في الطريق الصوفي، ينظر:- عبد القادر الجيلاني، الغنية (ج2) (مصدر سابق) ص: 280.

- أبو حامد الغزالي، أيها الولد المحب، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، دار الشروق، بيروت، ط3، 1980، ص: 63 – 65.

[3] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[4] إضافة في (ب) و(ج).

[5] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

ولما هيّأ من أراده لقبول فيوض تجلياته المرادة، استغرق في ذلك أرواحهم التي هي معدن الإدراك الساري في جميع مداركهم الظاهرة والباطنة استغراقا فيما أفاضه على قلوبهم المستعدة له من الفيوض الشاملة حتى للمدارك، فخرقت لهم من الله كل عادة حتى من نفوسهم بانقلابها عبادة في مشاهدة، ومشاهدة في عبادة، عادات السادات سادات العادات، فأوجد سبحانه فيهم اعتناء ومحافظة على أحكام تعرفاته المرادة التي ليست النفوس لها معتادة.

والتعرفات على قسمين: مرادات مرضية ومرادات غير مرضية، فالمرضية للامتثال، وغير المرضية للامتحان، والكل لم يخرج عن إيجاده وفيض أسمائه، فلا يشهدون سواه، ولا يأتون إلا ما يرضاه،[قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ] [النساء/78] ، فبدت بعد ذلك[كذا][1] فسبحانه نحمده ونشكره على ما منّ مما أجهر.

جاء مريد للغزالي ليعلمه الطريق فقال: "اذهب إلى السهروردي، فذهب إليه، ثم رجع وقال: يا سيدي: إنه قد بَعَّدَ علي الطريق، وعدّ علي عيوب النفس فاستبعدت ذلك منها، فكتب له أبو حامد يعنفه، ويقول له: كيف يأتيك رجل لتكحله فأعميته، والنبي ρ يقول: «سكنوا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وأنزلوا الناس منازلهم، وخاطبوهم على قدر عقولهم»[2]، ثم بصّره الغزالي حتى فتح الله عليه".

وروى السهروردي بسنده عن النبي ρ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن عليكم إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله ويمشون في الأرض بالنصيحة، قال: وهم الأشياخ»[3]، وقال محمد بن أحمد المريني: "وصفة الشيخ أن يكون عارفا بالخواطر الربانية والملكية والقلبية والنفسانية والشيطانية"، قال القشيري: "ولا يجوز له التجاوز عن زلات المريدين، فإن الشيخ إذا لم يكن عارفا بالسلوك وما يطرأ على المريد وأخذ الطريق من الكتب، وقعد يربي طلبا للرياسة فإنه مُهلِك لمن تبعه".

ويجب أن لا يقبل مريدا حتى يختبره، ولا يقعد في مقام المشيخة حتى يقعده أستاذه أو ربه، بما يلقي إليه في سرّه، وإذا تكلم في شيء ونوزع فيه قطع الكلام لقوله υ: «عندي لا ينبغي التنازع»[4]، وإذا علم أن حرمته سقطت من قلب مريده طرده عنهبسياسة، كان الجنيد يقول لمن تخيل فيه عدم التصديق: [وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ][الدخان/21]، وله ثلاث مجالس، للعامة مجلس يذكرهم المعاملات والأحوال والكرامات، وما كان عليه السلف من المحافظة على آداب الشريعة، ومجلس للخاصة [من أصحابه][5] يذكرهم بنتائج الأذكار والخلوات والرياضة، وقوله تعالى: [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا][العنكبوت/69]، ومجلس للآحاد يزجره ويوبخه ويريه نقص همته.

ولا بد للشيخ من وقت تام مع ربه، ولا يتكل على ما حصل له من الحضور بل يجدده كل يوم، لا راحة لمؤمن من دون لقاء ربه، قال عليه الصلاة والسلام: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[6]، وتكون له خلوة تختص به،

---

[1] العبارة مطموسة في الأصل، وهي بمقدار ثلاث كلمات، وهي ساقطة في (ب) و(ج).

[2] حديث " يسروا ولا تعسروا" أخرجه الشيخان: - مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص:301./ - البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 38. وحديث "أنزلوا الناس منازلهم" أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، ج4، ص: 261.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الحديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 54.

[5] إضافة في (ب) و(ج).

[6] الحديث أخرجه برواية "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك.." عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج4، ص: 6.

وكذا يخص كل مريد بخلوة[1]، ويدخلها الشيخ أولا يصلي فيها ركعتين بجمع يليق بحال المريد، فيفتح الله عليه ببركته، ولا يتركه يخالط ولا يزور إخوته من شيخه، ولا يزور شيخا آخر لئلا يرى منه غير حال شيخه ومقامه فيشوش عليه، وربما سقطت عليه حرمة شيخه فلا ينتفع به، ولذا ينبغي للشيخ ألا يخرج لأصحابه إلا في أكمل الحالات ولا يطلعهم على نومه وأكله وسره، ولا يجالسهم إلا مرة في اليوم، اللهم إلا أن يرى شيخا فوقه فليزم خدمته هو وتلامذته، فإنه صلاح في حقهم، وإن لم يفعل فهو طالب رياسة، قال النبي ρ: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»[2]، وينبغي أن يحفظ على المريد أوقاته ويعدّ عليه أنفاسه، ويسأله عن حركاته لماذا، وما نيته في ذلك، قال الشيخ أبو مدينτ: "الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه، وشهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالاحترام والتعظيم، وهذبك بأخلاق رسول الله ρ[وأنار باطنك بإشراقه، وأخلاق المشايخ مهذبة بأخلاق رسول اللهρ][3]"، من «الخلاصة المرضية».

قال الشطيبي: "ولا يجوز التقليد والاتباع إلا لمن شهد له شاهدان عدلان، وهما كتاب لله وسنة رسوله لقوله تعالى: [ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ][الطلاق/2]، ومن تبع كل مدع أو متبوع فإثمه عليه"، وقد شهد الحال أن الصادق لا يخلو من أن يقيض الله له صادقا كما وقع للغزالي مع شيخه، وسيأتي ذكرها، وقدم بعض المشايخ على أبي يزيد فقال: "قوموا بنا لنزوره، فلعلنا نستفيد منه أو يستفيد منا، فلما قربوا منه نظر إليه البسطامي، وقد تفل لناحية القبلة، فرجع وقال: هذا لم يؤمن على القليل، فكيف يؤمن على الكثير"، وقد قيل: "لا يجلس للبيعة والتربية إلا من اتصف باثني عشر وصفا؛ من آدم بالحزن، ومن نوح بالبكاء، ومن إدريس بالذكر، (ومن إبراهيم بالحلم والتفويض)[4]، ومن يعقوب بالشوق، ومن يوسف بالعفة، ومن داوود بالتوبة، ومن موسى بالإخلاص والمناجاة، ومن عيسى بالزهد والسياحة، ومن أيوب بالصبر، ومن يحي بالشكر، ومن محمد ρ وعلى إخوانه بالخُلُق والإيثار والعلم، ومن عجز الشيخ عن هذه فبيعته حرام لقوله تعالى: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ] [النساء/65]، من «شرح المباحث».

قال الشيخ السنوسي: "للشيخ الوارث شروط وترتبت له حقوق، أما شروطه أربعة:[5]

الأول: أن يكون مخلصا من هواه، قد ملك زمام نفسه بالطهارة حتى صارت نورا يهتدى بها، وتتجلى الحقائق فيها، حتى إذا تكلم تكلم بالله، وإذا صمت صمت بالله، وإذا نظر نظر بالله، وإذا تحرك تحرك بالله، وإذا سكن سكن بالله، كما ورد: إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت همه ولذته في ذكري، وإذا جعلت همه ولذته في ذكري أحبني وأحببته ورفعت الحجاب بين وبينه، فلا يسهى هو إذا سهى الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقا، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاب ذكرتهم فصرفته عنهم، فإذ لم

---

[1] الخلوة كانت دأب الصوفية منذ القدم لأجل تصفية الباطن وتوطين النفس على الرياضة، وترك الشهوات بآداب ذكر الله والمراقبة والحضور، وقد وضع الصوفية لها شروطا وآدابا تحصل بعدها نتائج خمسة: الواقعات، والمشاهدات، والمكاشفات، والتجليات، والوصول.ينظر:– عبد القادر الجيلاني، رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله (مصدر سابق)، ص: 45- 67.

- أفرد القشيري بابا في رسالته سمّاه: " باب الخلوة والعزلة"، ينظر: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، (مصدر سابق)، ص: 50.

[2] الحديث أخرجه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج1، ص: 200.

[3] إضافة في (ب) و(ج).

[4] ساقط في (ب) و(ج).

[5] كلام الشيخ السنوسي هذا ساقط في (ب) و(ج).

يكن القدوة بهذه الكثافة من المعرفة بالله تعالى حتى صار على بينة من ربه، فهو ناقص، ربما ضل فأضل، واشتغاله بنفسه أولى، نعم قد يكون أخا في الله تعالى من غير[كذا] أن يسلم إليه زمام الإحكام.

الثاني: أن يكون خلافه من نفسه على يدي غيره لا بنفسه، ومعنى ذلك أن يقطع المقامات على يدي وارث حتى يزكى من علله، والإنسان عاجز عن سياسة نفسه بنفسه لما جبل من حبها وحسن الظن بها والسير مع هديها، فربما غاب عنه من علله ما لا يغيب عن غيره.

الثالث: أن يكون عنده من الكتاب والسنة ما يقيم ما لا بد منه من الرسوم الشرعية، وما ينبني عليه وظائف السلوك.

الرابع: أن يصون[كذا][1] في مطالعة أسرار السنة التشديد والتصميم على المحافظة على أحكام الظاهر والباطن، حتى لا يظهر عليه إلا ما يوافق السنة، ويخاطب كل إنسان على قدر عقله وفهمه وإدراكه، وقد بوّب البخاري لذلك باب (من خص بالعلم قوم دون قوم)، وبهذا يظهر أن العلم على قسمين: علم العامة، وهو العلم العام، وعلم ا لخاصة وهو العلم الخاص.

وأما الحقوق المترتبة للضرورة فأربعة:

الأول: المحافظة على توقيره وتعظيمه بالتزام الأدب معه في كل شيء، قال أبو الدرداء τ: كنت أمشي يوما أمام أبي بكر τ فرآني رسول الله ρ ، فقال لي: «أتمشي أمام من هو خير في الدنيا والآخرة»[2]، ومن علم فضل القدوة هداه علمه إلى المحافظة على حسن الأدب معه فيما قل وجل.

الثاني: حسن الظن بالقدوة في القليل والكثير والخطير والحقير، فيما علم أو جهل، لأن التلميذ من نقص نظره على يقين، ومن كمال نظر قدوته على علم، وقد قالوا: "من قال لشيخه لم؟ فإنه لا يفلح"، أي لا يحصل على طائل من صحبته، ولما وقف موسى υ على مجرد الظاهر فيما صدر عن الخضر، انقطع حبل مواصلتها حتى قال النبي ρ: «يرحم الله أخي موسى، وددت أن لو صبر حتى يقص علينا من خبرهما»[3]، ومن ذلك ألا يؤثر عليه غيره.

الثالث: التزام طاعته في كل مكروه ومحبوب بقوة عزم وطيب نفس، قال بعضهم: "من استعصى شيخه في شيء لم ينتفع به".

الرابع: ألا يؤثر نفسه على قدوته بشيء من الحظوظ الدنيوية والأخراوية، بل يؤثره على نفسه في جميع ذلك، أما الأخراوية: فمن عند[كذا][4] أصلها، وأما الدنياوية: فهي في جنب ما ناله على يده من أمر الآخرة[كذا][5]، ومن آثر نفسه على قدوته بشيء ولو محيرة ساعة بعده، فقد بخسه حقه ولم يوف له واجبه، ومن ذلك ألَّا يكتم عنه شيئا من أحواله فقد خانه". (مختصر من اختصاره لكتاب «السلوك» للساحلي رضي الله عنهما).

---

[1] طمس في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج)

[2] الحديث أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج5، ص: 351.

[3] لم نعثر عليه.

[4] طمس بالمداد في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[5] طمس بالمداد في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

قلت: رأيت في بعض كتب القوم: أن التلميذ لا يكتم عن شيخه إلا إذا رأى النبي ρ وأوصاه بكتمان سر من الأسرار، فلا يبيح به حتى لشيخه، لأن نبي الله أولى بالطاعة، وقال الشيخ أبو العباس المرسي τ: "من لم يكن له أستاذ يَصِله بسلسلة الأتباع، ويكشف عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دَعِيٌّ لا نسب له، فإن لم يكن له نور، فالغالب غلبة الحال عليه والغالب عليه وقوفه مع ما يَرِدُ عليه لم ترضه بسياسة التأديب ولم يقُده زمام التربية والتدريب.

وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذي سَرَت فيك إشارته وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله[إنما شيخك الذي نهض بك حاله، وليس شيخك الذي خرج بك من سجن الهوى ودخل بك على المولى][1]، إنما شيخك الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيك أسرار ربك، ونهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلك إليه، وما زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه، فزجّك في نور الحضرة، وقال: ها أنت وربك، هنالك محل الولاية من الله، ومواطن الإمداد من الله، وبساط التلقي من الله، ثم إن شاء الله أبقاه في بحر الفناء غريقا وإن شاء الله أرجعه إلى ساحل البقاء تحققا وتحقيقا، فصاحب الفناء له التلقي من الله، وصاحب البقاء له الإلقاء عن الله، وصاحب البقاء ينوب عن الله، وصاحب الفناء ينوب الله عليه، وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسه وانفتحت حضرة قدسه، (وصاحب البقاء باق بربه في حضرة قدسه وحسه، و صاحب الفناء مدعو إلى الله)[2]، وصاحب البقاء داع إلى الله، وهو محل الخلافة والنيابة مع الإذن والتمكين والرسوخ في اليقين.

قال الشاطبي، قال الغزالي: "اعلم أن منازل السلوك لا نهاية لها، ولا يعرف للسالك منها إلا ما رضي عنه، ولا يعرف ما بين يديه إلا بطريق الإيمان بالغيب كما أخبر الله به، كما أن الأجنّة لا تعرف أحوال الطفولة، والطفولية لا تعرف أحوال الرجولية، والعقلاء لا يعرفون أحوال القضايا الربانية، [مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا] [فاطر/2]، وقد أردت في بداية أمري سلوك الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة، فلما علم الله صدق نيتي، قيض لي وليا من أوليائه فقال لي: يا بني اقطع من قلبك كل علاقة إلا بالله وحده، وادخل بنفسك واجمع همتك، وقل: الله الله حتى تصل، ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئا إلا الرواتب، وقل هذا الاسم بلسانك وسرك وقلبك، واحضر قلبك واجمع خاطرك، ومهما قالت نفسك ما معناه، قل لها: لست مطلوبا بمعناه، وإنما قال تعالى: [وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً] [المزّمّل/8]، يعني بانقطاع عما سواه ظاهرا وباطنا، وقال تعالى:[فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ][القيامة/18-19]، وقد كانت همة رسول الله ρ تطير لمثل هذا، فقيل له: [وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ][طه/114]، ومتى استغرق باطنك في ذكر هذا الاسم، تفنى صفاتك عن الذكر بالمذكور، حتى لا ترى في الموجود إلا الموجود وحده، فلو كنت حينئذ في لظى لصارت لك جنة المأوى، وتناديك النار: أخرج عني يا ولي الله، فقد أطفأ نورك ناري، قال الغزالي: فعملت ما قال لي فوجدته حقا".

---

[1] إضافة في (ب) و(ج).
[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

واعلم أن التلميذ متى آثر الدنيا على الآخرة، والشبع على الجوع، والراحة على التعب، والجهل على العلم، فناصيته بيد شيطان، وقد كان تلميذا يعبد في جزيرة بحر، فإذا أراد شيخه استغاث به ومشى على الماء فتمثل له إبليس، وقال إن شيخك ليس له حول ولا قوة، فاستغث بالذي له الحول والقوة، ففعل ذلك، فلم يثبت قدمه على الماء، فلما جاء الشيخ قال له: يا بني إن ذلك الشيطان، وأنت ما عرفت مخلوق مثلك فكيف تعرف من ليس كمثله شيء، فتاب المريد من جميع الهواجس والخواطر، فرجع إلى حاله الأول.

وكان أبو مهدي عيسى يدّرس تلميذا له كل ليلة القرآن، فجاءه مرة في الهوى، فقال له التلميذ: يا سيدي رأيتك في الهوى، وأردت أن تحملني معك، فقال: ورأيتني؟، قال نعم، قال: الحمد لله ذلك علامة صدقك، لأن الله لا يطلع على ذلك إلا الصديقين، وأنت يا بني لا تستطيع ذلك اليوم لأن الفرخ إذا أراد النهوض قبل أن يكمل نبات ريشه وقع بالأرض، ويلعب به الصبيان، وقال إبراهيم بن أدهم: "لا تصح الطاعة إلا لمن جار تسع أودية، يغلق باب الشبع ويفتح باب الجوع ويغلق باب العز ويفتح باب الذل، ويغلق باب الراحة ويفتح باب التعب، ويغلق باب الكلام ويفتح باب الصمت، ويغلق باب الراحة ويفتح باب السهر، ويغلق باب الغنا ويفتح باب الفقر، ويغلب باب الأمل ويفتح باب الاستعداد، ويغلق باب الجهل ويفتح باب العلم، ويغلق باب الحرام ويفتح باب الحلال"، من «شرح المباحث».

[في شروط المريد وحقوقه:][1]

قال الشيخ السنوسي: "وأما التلميذ فله شروط وحقوق، أما شروطه فأربعة:

الأول: التزام عهد القدوة في ربط النفس للوفاء بوظائف السلوك، وإن زلَّ يوما فتذكر رجع إلى مقتضى عهده، والمراد بالعهد أنه يخل مع القدوة على بيع نفسه من الله تعالى في طلب رضاه، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأن يكون مع قدوته في خلاصه من نفسه كالميت بين يدي غاسله.

الثاني: أن يجعل دنياه تبعا لآخرته، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يترك.

الثالث: أن يحصل عنده العلم اليقين، يفرق ما بين قدره وقدر قوته، وذلك أن التلميذ المتورط في ظُلَمِ الهوى غريق في بحار الشهوات، محتاج إلى منقذ ينقذه، وأما الشيخ فقد تخلص من ذلك حتى طالع من أسرار الغيب ما أشعره أنه على بينة من ربه، وفرق بين من هو منتظم بالأحباب وبين من هو طريح من وراء الحجاب.

الرابع: الاختصار على قدوة واحد، وهل الانقياد للقدوة إلا كالانقياد للطبيب، ولاشك أن العلاج إذا اختلف والمعانات إذا تباينت أن الخلاص من العلل متعذر مع أن القدوة الكامل ربما تعذر وجوده اليوم فضلا عن أن يكون منهم عدد، فإذ عثر التلميذ على واحد فليعلم أنه قد ظفر بمراده، فلا يبغ به بدلا، فإن التلميذ كلما أيقن بتفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته، وعلى قدر محبته تكون سراية حال الشيخ عنده.

وأما الحقوق المرتبة فأربعة:

[1] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

الأول: أن لا يتعرض له القدوة أولا باستجلاب واستيلاف وحسن كلام، حتى إذا رأى أن الله عز وجل بعث إليه التلميذ مسترشدا بحسن ظن وصدق إرادة ضم عليه جناح التعليم والإشفاق والنصيحة لكل شيء ينفعه في رضى ربه، وكل تلميذ مسترشد ساقه الله إلى قدوة، فليراجع القدوة النظر في معناه وليكثر اللجوء إلى الله تعالى مستعين به على الهداية به لصواب القول والعمل.

الثاني: محسن الخلق والصبر على وظائف التعليم وجفاء التلميذ وحمل أخلاقه، فالكامل يسع عنده الناقص لاسيما أهل البداية الذين لم يتمكنوا، وما يبدر منهم من البوادر التي تؤذن بسوء الحظ فلا يقطع بذلك حبل وصله إلا بعد الإعذار له والنصيحة له في ذلك ثلاثا، فإن عاد بعد الثالثة إلى بادرته التي نهى عنها، فليتجاف عنه ظاهرا وليرع له عهده بالدعاء له والشفقة عليه، ثم على القدوة أن يتفقد حال التلميذ فيوفي له حقه من الرفق به وبسطه بما يرفع عنه ظلم الوحشة ويجله بسماحة الأنس على حسب حاله وشربه.

الثالث: معاملة كل تلميذ بما يناسب حاله ويقتضيه مقامه، فليس أهل البدايات مطالبين بوظائف أهل التمكينات، كما أن أهل التمكينات لا يطالبون بوظائف أهل النهايات،[قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ] [البقرة/60].

الرابع: الإعراض عن دنياهم رأسا، والتنزه عما بأيديهم جملة، بل يحسن إليهم جهد إمكانه، ولا يكلفهم من الخدمة فوق طاقتهم، قال الساحلي: "رأيت ناسا من أصحاب والدي جاءوه يوما بعقود أملاكهم وجميع أموالهم، فقالوا: يا سيدنا هذه أموالنا قد خرجنا عنها لك لتتصرف فيها بما يظهر لك تعويلا على ما قصدناه من ابتغاء رضوان الله، وخروجا عما يشغلنا عنه، فقال لهم والدي: بارك الله فيكم، قد قبلتها منكم ثم صرفتها عليكم لتعلموا فيها بما أقوله لكم لتؤدوا حق الله فيها من غير كلفة بنشاط وطيبة نفس، ولتناصفوا مع الناس في معاملتهم، ولتنفقوا من ذلك على عيالكم بحسب وجدكم، ولتصلوا منه أرحامكم ولتتفقدوا فقرائكم، فاحفظوا وصيتي وقوموا بها في أموالكم قيام الوكيل الناصح، ومن ذلك التاريخ لم يعرج عليهم ولا عزل عليهم ثقة بما عند الله، وتسليما لأصحابه في دنياهم ومهما لم تغلب حال اليقين الحقيقي على باطن التلميذ فإن باطنه متعلق بدنياه في الإبقاء بها عليه أولي له وأنفع"، من (اختصار الساحلي).

قال الشاطبي: "واعلم أن المريد الصادق يكون ابن وقته لا ماضي له ولا مستقبل، فالمريد لا يهمه ماضي وقته وآتيه بل وقته الذي هو فيه، وذلك كما قال بشر بن الحارث الحافي[1]:

أَمس قَد مَاتَ وَاليَوم فِي النَّـــــزَعِ   وَغَدًا لم يُولَد، فَبَادِرُوا بِالعَمَل الصَّالِـــحِ
وَقْتُكُم مَا مَضَى فَاتَ والمؤَمَّلُ غَيْـــبٌ   وَلَكَ السَّاعَة التي أَنْتَ فِيــهَا
فَالماضِـي لَا يعُـــودُ   والآتي لَا تَقْطَـع لَهُ بِـــوُرُودِ

[1] أبو نصر بشر بن الحارث، سكن بغداد ومات بها، صحب الفضيل بن عياض، كان عالما ورعا، توفي: 227هـ.ينظر: السلمي، الطبقات الصوفية، (م سابق)، ص:17.

وقيل: الوقت ما أنت به وعليه في زمن الحال، وهو أمر وجودي بين عدمين حاكم على جميع الخلق بما هو فوق أكدار عقولهم، وفيه تظهر الصفات القهرية، وعنده تقف نهايات العقول البشرية، وقد اتفق أئمة هذا الشأن، أن الخلق أربعة أقسام، ثلاث لأهل البدايات، والرابع لأهل النهايات، الأول أهل السوابق القائلون: "من أبعده الأزل لا يقربه العمل"، فعملهم امتثالا للربوبية وقياما بحق العبودية، وأنشدوا:

مِن أَيْنَ أُرْضِيكَ إن لم تُوَفِّقَـــــــــني ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا التَّوْفِيقُ مِن قِبَلِـــــي

إنْ لم تَكُن مِنْـكَ لي في الفَضْـلِ سَابِقَـــةً ... فَلَيسَ يَنْفَعُنِي عِلْمِي وَلَا عَمَلِـــــــي

الثاني: أهل اللواحق، القائلون الأعمال بخواتمها، [حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ[زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]] [يونس/24]، قلت وأنشدوا:

حَسَّنتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذَا حَسُنَـت ... ولم تُخَفِ سوء ما يَأْتِي بِهِ القَــدَر

وَسَاعدتكَ[1] اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَــا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الكَـدَر

الحَذَرُ يَنْفَعُ مَا لم يَغْلُبِ القَــدَرُ ... فإن أَتَى قَدَر لم يَنْفَعِ الحَــذَرُ

وَلَيسَ مِن قَدَرٍ إِلَّا لَهُ سَبَــبٌ ... وَلَيْسَ مِن سَبَبٍ إِلَّا لَهُ قَــدَر

لَا بُدَّ مِن فَرَحٍ يَوْمًا وَمِن قَــرَحٍ ... وَهَكَذَا الدَّهْرُ في تَصْرِيفِهِ عِــبَر

إنْ رُمْتَ فِيهَا البَقَا فَلَا بَقَاءَ لهَــا ... وَالموتُ حَقٌّ فَلَا يُبْقِي وَلَا يَـذَر[2]

الثالث: أصحاب الوقت، القائلون الصادق لا ماضي له ولا مستقبل، وإنما هو ابن وقته إذ ما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه، وأنشدوا:

مَتِّعُونَا بِنَظْـرَةٍ مِن سَكْنَاكُــم ... أَرَى فِيهَا تَمَامَ كُلِّ نَعِيــمِ

مَا شِئْتُـــم بِنَا حَمِّلُــونَا ... بِكُم تُحْمَلُوا لِكُلِّ عَظِيــمِ

فهؤلاء ثلاثة أبواب للدخول، وهم الذين غابوا عن الوقت وطرفيه، ووصلوا منه إليه فهم لهم، ولا هم غيرهم، وأنشدوا:

فَنَى كُلُّ شَيءٍ كُنتُ أَحْسَبُ أَنَّـــهُ ... لِدِينِي مَعَ دُنْيَايَ أَجْعَلهُ ذُخْــرَا

ولم يَبْقَ إِلَّا اللهُ جَلَّ جَلَا لُـــهُ ... فَحَسْبِي بِهِ شَرَفًا وَحَسْبِي بِهِ فَخْــرَا

وَمَن كَانَ وَجْهُ الله أَعْيِي مُـــرَادَهُ ... فَلَيسَ لَهُ فِي الكَون دُنْيَا وَلَا أُخْــرَى

---

[1] في (ب) و(ج): وسَالَمَتكَ.

[2] الأبيات الأربعة الأخيرة ساقطة في (ب) و(ج).

من «شرح الشاطبي».

قال في «الحكم»: "ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه"[1]، قال زروق: "يحتمل أن يريد به الزمان الحاضر و هو الوقت، ويحتمل أن يريد به الوقت الاصطلاحي، وهو ما يصرف العبد عن أنواع التصرفات القهرية، وكذلك الأمرين يجب الوقوف مع حكمه باستعمال أحكامه عقلا ونقلا، فمخالفته بحسب ذلك غاية الجهل إذ هو مضاد بجملة العلم لأن القدر لا يتبدل وأحكام الأوقات من عين الأقدار، وقد قيل: "الوقت سيف والسيف لين مسه قاطع حدّه، فمن لَايَنَهُ سلم ومن خاشنه اصطلم"، وقيل:"من ساعده الوقت فهو له وقت، ومن ناكره الوقت فالوقت عليه مقت".

ثم قال في «الحكم»: "ما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه"، قال زروق: "إذا كان الأمر كذلك فكيف يغيب حتى يطلب، وكيف يدبر منه أو ينازع، وكيف يؤمن من مكره أو ييأس"، فافهم إنك في كل نَفَس في طريق إليه، ومع كل نفس يجب عليك حكم خاص، ومن ثم قيل: "الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق"، وهذا هو بساط المعرفة ومنه توجهه لمن توجه له، وسئل الجنيد عن العارف، فقال: "لون الماء فوق إنائه"، أي هو بحكم وقته، وقال ابن عطاء الله: "حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق في الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلاَّ ولله عليك فيه جديد وأمر أكيد، فكيف تقضي حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه".

قال ابن عباد فيه: "الحقوق الكائنة في الأوقات هي وظائف العبادات الظاهرة، من صلاة وصوم وغيرهما، فمن فاته شيء منها في وقته المعين له، أمكنه قضاؤه في وقت آخر، والحقوق المضافة إلى الأوقات هي المعاملات الباطنة التي تقتضيها أحوال العبد، وواردات قلبه المتلونة عليه، ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك، فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنه قضاؤها إن فاتت"، قال سيدي أبو العباس المرسي: "أوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة والبلية والطاعة والمعصية، والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه، إن هداه لها ووفقة للقيام بها، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضى بالقضاء والصبر، فالرضى رضى النفس من الله، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر، والصبر ثبات القلب بين يدي الرب"، وفي الحديث: "من أعطي فشكر وابتلى فصبر، وظلم فغفر وظلم فاستغفر، ثم سكت ρ فقالوا: ماذا له يا رسول الله، فقال: [الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ][الأنعام/82][2].

[1] في (ب) و(ج): قال بن عطاء الله: " حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها ،.." ستذكرها النسخة (أ) في الصفحة الموالية.
[2] لم أعثر عليه.

[في الجمع بين الشريعة والحقيقة:][1]

ومن شروط هذه الطريقة الجمع بين الشريعة والحقيقة، قال الشيخ أبو الحسن أحمد بن محمد النوري τ: "من رأيته يدعي الجمع مع الله حالة تخرجه من علم الشريعة فلا تقربن منه"، وقال القشيري رحمه الله: "إنما الشرع أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة تأمرك أن تعبده والحقيقة تأمرك أن تشهده، فالشريعة قيام في أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر، قوله تعالى [إِيَّاكَ نَعْبُدُ] حفظ الشريعة [وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إقرار بالشريعة، والحقيقة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة شريعة من حيث إنها شهدت بقهره"[2].

قال الشاطبي: "ومن بركة الحقائق أنه لم يوجد شيخ فقط محقق في عصر كان إلا واستسلمت له أئمة الشريعة وتواضعوا له وتبرّكوا به، وقد كان أحمد بن حنبل جالسا مع الشافعي رضي الله عنهما، وإذا بشيبان الراعي قد اجتاز وكان أميا، فقال أحمد: يا أبا عبد الله أريد أن أنبه هذا على نقصان علمه، ليأخذ في تحصيل بعض العلوم، فقال له الشافعي: لا تفعل، فقال لا بد من ذلك، ثم قال: يا شيبان وما تقول فيمن نسي صلاة من الخمس في اليوم والليلة، لا يدري أي صلاة هي المنسية، ما الواجب عليه، فقال شيبان: هذا قلب غفل عن الله، فالواجب عليه أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه، فصاح أحمد وغشي عليه، فلما أفاق قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وهو أمي، فما بالك بعلماء هذه الطائفة، ثم قال له أحمد: في كم تجب الزكاة؟، فقال: على مذهبنا أو على مذهبكم؟ فقال: على المذهبين، فقال: أما على مذهبكم ففي كل أربعين شاة، وأما على مذهبنا، فالعبد لا يملك شيئا مع سيده"، وإلى معنى الجمع المذكور أشار الشيخ أبو العباس بن البنا في «مباحثه الأصلية في المذاهب السنية»، حيث يقول:

هَل ظَاهِرُ الشَّرْعِ مَعَ الحَقِيقَـــــةِ   إلاَّ كَأَصلِ الفَـرعِ في الحَدِيقَـــــــةِ
فَالشَّرعُ جَارٍ وَ صَحِيحُ العَقـــــل   كَحَذْوِكَ النَّعْـلَ أخي بالنَّعْــــــــلِ

وقال أيضا في التعريف بعلم الظاهر والباطن ما نصُّه:

[1] اعتبر أقطاب التصوف منذ القديم أن التصوف الحقيقي لا يمكن تحقيقه إلاَّ بطريقين: التزام الشرع (الشريعة) والبحث عن المعنى الباطني (الحقيقة)، ولهم أقوال كثيرة في مسالة الجمع بين الحقيقة والشريعة في الخطاب الصوفي:

- يقول الشيخ الجيلاني في هذا السياق: "كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة". ينظر: عبد القادر الجيلاني، رسالة في الأسماء العظيمة إلى الله، ص: 21.
- ينظر أيضا: عبد السلام نور الدين، الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي، دار سومر، نيقوسيا، دط، 1992.

[2] في المصدر: من حيث أن المعارف به سبحانه أيضا وجبت بأمره. ينظر: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 42.

مَا مِثْل المعقُولِ والمنقُــولِ إلّا كَدُرٍّ زَاخِرٍ مجهُــول
حَتَّى إِذَا أَخْرَجَهُ الغَــوَّاصُ لم يَكُن للدَّار إذن خَــلَاص
وإنمَا خَلَاصُه في الكَشْــفِ عَن الغِطَاءِ حَيْثُ لَا يَسْتَخْـفِي
فَالصَّدَفُ الظَّاهِــرُ ثم الــدُّرُّ مَعقُوله وَالجَهْلُ ذَاكَ البَحْــر
وإنمَا المعقُولُ في جَوفِ الحُــرُوفِ كَمَا الذِي يَكُونُ في جَوفِ الصُّـدُوفِ
هَلْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ وعِلمُ البَاطِــنِ إلّا كَجِسْمٍ فِيهِ رُوحٌ سَاكِــنُ
لَوْ عَمِلَ النَّاسُ عَلَى الإنْصَــافِ لم تَرَينَ النَّاسَ مِن خِــلَافِ

قال شارحها أبو الحسن الشاطبي حسّن الله عواقبه ووقاه معاطبه: "قال رسول اللهρ: « للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع»[1]، قال جعفر الصادق: "وما من آية ولا كلمة ولا حرف إلا وله من هذه الأقسام الأربعة حظ ونصيب، فظاهره للعوام استقلادا[2]، وباطنه للخواص فراسة وكشفا، وحده لخواص الخواص إلهاما ووحيا، ومطلعه هو تجلي الحق بكلامه في قلوب الأولياء، وهو إشارة لمقام الشهود، وقال تعالى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ] [ق/ 37]، وهي حالة القلب المتقلب لله في سجوده من غير تعريج على شيء سواه، وبها وصف الله حبيبه بقوله: [الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ][الشعراء/218-219]، وقال ابن عطاء الله: "واعلم أن تفسير القرآن على مذهب الاقتباس ليس هو إحالة الشيء على غير معناه، بل هو فهم يهبه الله لمن يشاء بباطن الحكم المتدرج في باطن المعنى اندراج النبات في الحبة والنخلة في النواة، فإذ سيق ظاهر المعنى اتصل المدد بقدر الفتح، ولا يسمع في ذلك كلام المنكرين، فإن الحقائق ربما تفهم للعارف ضد ظاهرتها كقول أبي العباس المرسي في قوله تعالى: [إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً][البقرة/67]، فقال بقرة كل إنسان نفسه وذبحها مخالفتها من عادتها، وقطع حظوظها وتأديبها ومجاهدتها، حتى تنسى العادة بالاستقرار في العبادة عملا على قوله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ][الذاريات/56].

فلما أظلمت النفوس بالطبوع والعادات ذبحت بالمخالفة، ويضرب ببعضها القلب القتيل فيحي"، قال أهل التفسير: "إن الضرب إذا كان باللسان فيه إشارة لذكر الله: "ألا أنبئكم"، قلت وكذا قال في قوله تعالى: [يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ [وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ]][فاطر/13]، قال: يولج الطاعة والمعصية، ويستصغر من لم يفعلها، ويطلب العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئتان، ويذنب العبد فيلجأ إلى الله ويعتذر منها، ويستصغر نفسه، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فآيتها الطاعة وآيتها المعصية، وهذا حقيقة الفهم عن الله في المنع والعطاء وإليه الإشارة بحديث: «إنَّ الله لا ينظر»[3]، وقوله: هل ظاهر الشرع هو علم المنقول، وعلم الباطن هو عمل المعقول، وهذا مثل

---

[1] أخرجه عبد الرؤوف المناوي برواية " للقرآن ظاهر وباطن وحد ومقطع"، ينظر: فيض القدير، ج2، ص:395.

[2] بمعنى أن التقليد يكون للعوام.

[3] لم نعثر عليه.

عجيب ضربه الناظم لمعاني الحقيقة المودعة في الأقوال الشرعية، وهي الكتاب والحديث، فمن فهمها بمقتضى معانيهما الظاهرة والباطنة فقد جمع بين الشريعة والحقيقة، ومن جمد على ظاهر اللفظ فاتته الحقائق اللطيفة كما تقدم.

قاعدة: قال سيدنا أحمد زروق رزقنا الله رضاه: "أصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة مأخوذ من الكتاب والسنة، مدحا للممدوح، وذما للمذموم، ووصفا للمأمون به، ثم للناس في أخذهما ثلاثة مسالك، أولها: قوم تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملة، وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية لا عبرة بهم. الثاني: قوم نظروا لنفس المعنى جميعا بين الحقائق فتأولوا ما يتأول، وعولوا على ما يعول، وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعاني والفقهاء. الثالث: قوم أثبتوا المعاني وحققوا المباني، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى، وهم الصوفية المحققون والأئمة المدققون، لا الباطنية الذين حملوا الكل على الإشادة بهم لم يثبتوا معنى ولا عبارة، فخرجوا عن الملة ورفضوا الدين كله، نسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة بمنّه"، من«قواعده».

قوله: "أين صفوة البشير"، صفوة الشيء خلاصته المختارة، وهو مثلث الصاد، وكل ما كان على وزن فعلة فهو كذلك، روى أبو نعيم في «حليته» عن علي قال، قال رسول الله ρ: «أنه لم يكن نبيا إلا وقد أعطى رفقا نجبا وزاد، وإني قد أعطيت أربعة عشر، وهم حمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين وأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وأبو ذر والمقداد وحذيفة وعمار وسلمان وبلال»[1].

وحكى أبو بكر المطوعي عمن رأى الخضر υ وتكلم معه وقال له: "اعلم أن رسول الله ρ لما قبض بكت الأرض فقالت: إله وسيدي بقيت لا يمشي علي نبي إلى يوم القيامة، فأوحى الله تبارك وتعالى إليها: على ظهرك من هذه الأمة من قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، لا أخليك منهم إلى يوم القيامة، قلت له: وكم هم؟، قال: ثلاثمائة وهم الأولياء، وسبعون وهم النجباء، وأربعون وهم الأوتاد، وعشرة وهم النقباء، وسبعة وهم العرفاء، وثلاثة وهم المختارون، وواحد وهو الغوث، فإذا مات الغوث نقل" (الحديث).

والبشير هو (المبشر بما يفرح القلوب) ضد النذير[2]، وهما وصفان لمن قال الله فيه: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً][الأحزاب/45]، أي شاهدا على من أرسلت إليهم ومبشرا من صدقك بالجنة، ونذيرا لمن كذبك بالنار، وداعيا إلى الله إلى طاعته بإذنه بأمره، وسراجا منيرا أي مثله في الاهتداء به، وبشر المؤمنين، فإذا كانت البشارة للمؤمنين الأبرار، فأحرى أن تنال منهم المصطفين الأخيار، فجل الصحابة مبشرون وخصوصا منهم صفوة صفوة الخلائق المكرمون المنزل في عجيب وصفهم:[لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ][الحشر/8]، وقوله تعالى: [وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ][الحشر/9]، (فأعجب من أناس وصف الله مهاجريهم بالفقر وتركهم أموالهم وديارهم في مرضات الله، ونصرتهم لله ورسوله حتى استحقوا اسم الصدق، ثم وصف أنصارهم بصحبتهم لمن هاجر إليهم، وعدم حسدهم لهم فيما خصهم به نبي من أموال بني النظير، بل يؤثروهم على أنفسهم فيما بأيديهم

[1] ينظر: أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، (م سابق) ص: 128.

[2] العبارة ساقطة في (ب) و(ج)

مع حاجتهم إليه حتى وقاهم الله شح أنفسهم، واستحقوا أن يسموا المفلحون، اللهم اجعلنا من ذريتهم المؤمنين: [وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ][الحشر/10]، فحق للمصنف ومثله أن يتلهف على صفوة البشير، وحق لنا أن نبكي على فقد أمثالهم في هذا الزمن الصعب العسير)[1].

فمن أوصافهم الكاملة وشيمهم الشاملة ما ردّ الله به قول الكافرين وأرغم أنوف الحاسدين في قوله تعالى: [لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ]، أي الصلاة [وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ][البقرة/177].

استبصار: اعلم وفقنا الله وإياك أن هذه الآية، أعني آية البرّ جمعت بين بر الشريعة وبحر الحقيقة وشملت شعبة الإيمان وشرائعه، وفيها مجامع الخيرات في العبادات والعادات، ففيها الإيمان بالله بتفاصيل التوحيد واليوم الآخر وما فيه وما بعده من داري الخلود والتأبيد، وبالملائكة وما خصوا به من التقديس والتأييد، (وبالكتب المنزلة وما فيها من بيان التشريف، وبالنبيئين وما اصطفاهم الله به)[2] من العصمة والوصف الحميد، ومن يؤمن بالله يهدي قلبه، هذه صلاة إيمانية قلبية خماسية توازي الصلوات الإسلامية البدنية، خمس صلوات كتبهن الله على ابن آدم في اليوم والليلة: «أخبرني عن الإيمان، قال أن تؤمن بالله»[3]، (الحديث)، ثم الإسلامية المالية، قوله تعالى: [وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي][البقرة/177]، أي حب المال، [لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ [وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ]][آل عمران/92]، أي في تحب الله.

أوحى الله إلى داوودυ: "إن كنت تحبني فاخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبي وحبها لا يجتمعان"، فإذا كان حبان لا يجتمعان والضدان لا يلتئمان فابق الباقي وانف الفاني، وبقدر ما أصببت من الماء فالإناء المملوء خرج من زيتة، يا ابن آدم أنا برّك اللازم، فالزم برّك مع أن "حب الدنيا الغارة رأس كل خطيئة ضارة"، فإذا كان الأمر هكذا: [يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ][البقرة/215] [وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ [كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ]][البقرة/219].

والمال كل ما يتمول من مال وعلم وجاه وقوة وهمة وخلق وتأديب، والوالدين والأقربين الولادة الحسية ومعنوية، والقرابة نسبية وسببية، من وصلهما وصل ومن قطعهما قطع، واليُتم حسي ومعنوي: [أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى][الضحى/6]، والمسكين من لا يسأل اكتفاء بعلم الله، وأين السبيل حسا ومعنى، "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، والسائل بالمقال أو بالحال، إما للمحسوسات وإما للمدسوسات[4]، وفي الرقاب عتق رق الدنيا والدين

[1] الكلام من (فأعجب من أناس – إلى – هذا الزمن الصعب العسير) ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 37.

[4] في (ب) و(ج): للمعقولات.

المفضي إلى العذاب المهين هذه طهارة مالية: [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْوَتُزَكِّيهِم بِهَا [وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]][التوبة/103]، ثم بعدها إيتاء الزكاة وقوله: [وَتُزَكِّيهِم بِهَا]، يشمل الفرض والتطوع[1] ظاهرا وباطنا: [قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى][الأعلى/14]، [قد أفلح من زكّاها] [الشمس/9]، فهذه قربة صلاة سبعية، [وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ [وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]] [التوبة/99]، [ثم البدنية][2]وهي الوسطى: [حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ][البقرة/238]، وهنا هي الخمس كلها، لأنها توسطت وأفردت بين الجمعين الأصناف المضطرين والموفون والصابرين، وأيضا تعلقت بالبرزخ الحاجز بين القلب الداخل والمال الخارج، وأورثه صبرا ناشئا عن قوة الإيمان ومنشئا حسن معاملات المنان، [إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ][العنكبوت/45]، والموفون بعهدهم يشمل "بَلَى"[أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى][الأعراف/172]، والآداب مع الخالق والخلق[3] على أقدارهم، (والعقود كالبيع)[4] والنكاح [والإجارة][5] ونحوهما، فهذه صلة صلاة وترية، لكن تصلى جماعة، [وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ][البقرة/177]، البلايا والمحن وحين البأس: فيشمل الجهاد الأصغر والأكبر والأوسط، [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا][العنكبوت/69]، "إن كان لك والدان ففيهما فجاهد"، فضل الله المجاهدين.

فهذه خمس صلوات محتوية على سبعة عشر خصلة كركعات الخمس المعلومة، وأولية صلاة من آمن بالله القلبية توازي سبعية صلاة الصبح الفجرية، لأن من استيقظ من كفره أو غفلته، أو من صباه وجنته أول من يخاطب بصلاة الإيمان، فكذلك من آفاق من نوم وليلة أول ما يخاطب بصلاة الفجر، ولما أن كانت الإيمانية غيبية لا يظهر تحقيقها إلا بالإسلامية الحسية، وهي بذل محبوب الطبع لمحبوب الشرع، ناسبت صلاة الظهر لأنها أول صلاة ظهرت في الإسلام في وقت الظهيرة ليتظاهر الناس على إظهار الدين، ولما كانت القربات الخمس قلبية وقالبية ومالية وَسَط الوسطى، فكذلك صلاة العصر لأنها توسطت نهاريتين وليلتين، وفيه دليل على أن الصلاة أفضل العبادات وأوسطهما عصرها، «ألهونا عن الصلاة الوسطى»[6]، (الحديث)، وكما أن قوله تعالى: [وَآتَى الزَّكَاةَ]، قرنه مع قوله: [وَأَقَامَ الصَّلاةَ][البقرة/177]، علمنا أن الظهر اشتركت مع العصر في الوقت وسميا ظهران، كاشتراط الصلاة والزكاة في الحكم والقبول، فمن منع آداء واحدة قوتل حتى يفعل أو يموت، وقد قال ρ: «من لم يزك فلا صلاة له ولا دين له ولا صوم له ولا حج له ولا جهاد له»[7]، (وكذاتقول فيمن لم يصل من باب لا فارق)[8]، ووترية العهد تؤذن بوترية صلاة المغرب، لأنها وتر صلوات النهار، الله وتر يحب الوتر، فأوتروا.

[1] في (ب) و(ج): النفل.
[2] إضافة في (ب) و(ج).
[3] في (ب) و(ج): الشيخ.
[4] ساقط في (ب) و(ج).
[5] إضافة في (ب) و(ج).
[6] الحديث أخرجه الشيخان برواية مختلفة قليلا: - مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص: 437./ - البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 107.
[7] لم نعثر عليه.
[8] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

ولما أن كانت الأعمال بخواتمها، وكان ممن خواتم أسماء الله "الصبور"، والصبر يحتاج إليه في أول الأمور ومعها، وبعدها حسن ختم هذه الصلوات بصلاة الصبر لقوله تعالى: [وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ][البقرة/155]، ولأن الأجير إذا وفى عمله يعطى أجره ،ولا يستحق الأجر إلا إذا تمم عمله وصبر في آخره لا جرم، قال تعالى: [إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ][الزمر/10]، فكذلك صلاة العشاء تأتي في وقت نوم وظلمة وعشاء فيصبر مؤديها على بأساء ترك العشاء وضرّاء الظلمة، والفرق وبأس النفس في مخالفة هواها عن النوم والاجتماع بالأهل في وقت العتمة، ولذلك قال البشير ρ: «بشر المشائين في الظلام بالنور التام»[1]، وقال: «لو علم الناس ما في العشاء والصبح لأتوهما ولو حبوا»[2]، وقال: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح»[3]، فالذين هم على هذه الصلاة دائمون، [وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ][المؤمنون/9]، [أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ][البقرة/177]، جعلنا الله وإياكم من الصادقين المتقين الفائزين آمين، آمين.

[فصــل في ذكـــر أصفيـــاء العرب الحجــازيين:]

[في ذكر فضائل عبد الله بن عمر τ و مآثره:]

قوله: "وعبد الله بن عمر وأيضا عروة بن الزبير"، لما أن فرغ رحمه الله من ذكر فقراء الصحابة[4]، وهم ساداتنا أهل الصفة الملازمون بيتهم للاستفادة منه في الحس والمعنى، عقب ذلك يذكر هذا الصحابي العظيم القدر والمكانة عند الله وعند رسوله، (وإنما خصه بالذكر لأمور:

الأول: أنها شهادة النبي ρ له، فإنه نعم الرجل ولأنه رجل صالح.

الثاني: شهادة جابر بن عبد الله فيه بقوله: "ما منا من أحد إلا مالت به الدنيا أو مال لها إلا عبد الله بن عمر".

الثالث: قول أبي مهدان أيضا: "ما رأيت أورع من عبد الله بن عمر، هو أفقه من عبد الله بن عباس، وزاد سيدي أحمد زروق: "أنه أسلم مع أبيه عمر وهو ابن عشر سنين، و هاجر قبله وبايع بيعة الرضوان قبله، وقد حج ستين حجة واعتمر ألف عمرة، وحمل على ألف فرس في سبيل الله"، قال مالك: "بقي ابن عمر ستين سنة يفتي الناس، وهو أحد الأربعة الذي سلموا من الفتنة، هو ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وسعد بن أبي وقاص"، من «الكناش في العلم غير الفاش»، زاد بن بطال على الأربعة الذين قعدوا في الفتنة حذيفة وأبو ذر وعمران بن حصين وأبو موسى الأشعري وأبو بكرة ذكره عند سيدي محمد بن غازي في تعليقه على البخاري عند قوله ρ: «تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم»[5]، (الحديث)، روى ابن معاوية قال بحضرته: "من أحق بهذا الأمر، قال: فأردت أن أقول له أحقّ منك من ضربك عليه وإياك، فخفت الفتنة".

وطلب للخلافة بعد وفاة أبيه، فقال بشرط أن لا يجري فيها محجر دم، واجتمع جمع عند ابن عامر وهو في مرضه فأشفق من ولايته على نفسه، فقالوا إنا لنرجو لك خيرا حفرت الآبار وسقيت الحاج، وصنعت وصنعت، وابن

---

[1] الحديث أخرجه: - الحاكم، المستدرك، ج1، ص: 331./ - الترمذي، سنن الترمذي، ج1، ص: 435.

[2] الحديث أخرجه الشيخان برواية مختلفة قليلا: - مسلم، صحيح مسلم، ج1، ص:325./ - البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص:222.

[3] الحديث أخرجه: - مالك بن أنس، موطأ مالك، ج1، ص: 130./ - أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج3، ص: 56.

[4] في (ب): صفوة البشر.

[5] الحديث أخرجه الشيخان: - مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص:2212./ - البخاري، صحيح البخاري، ج6، ص:2594.

عمر ساكت فقال: ما تقول؟، فقال: أقول الخبيث لا يكفر الخبيث، وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا وقد أصبت منها شرا، وقيل له: مات زيد بن حارثة وترك مائة مائة ألف، فقال: هي لم تتركه، وقيل له: هل كان الصحب يضحكون؟، قال: نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال، وكان يفطر على الجماع، وربما جامع قبل أن يصلي المغرب، ثم يغتسل، وذلك لتفريغ قلبه للعبادة وإخراج عدة الشيطان منه، وقال: لقد أعطيت منه شيئا ما أعلم أحدا أعطيه إلا أن يكون رسول الله ρ ، ولما نزل قوله تعالى: [لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ][آل عمران/92]، دعا بجارية، فقال إني أحبك، أنت حرة، فاذهبي، وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف، فقال: هو حر واعتق ألف إنسان أو أكثر، وكان إذا رأى من عبيده من يحسن الصلاة أعتقه، وكانوا يحسنونها مراءاة له فيعتقهم، فقيل له فيه، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

وكان إذا قرأ: [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ][الحديد/16] ، بكى حتى يرحمه من حضره، وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلتها وكان كثيرا ما يقول: "ما لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتاد ما يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز"، وقال: "ما ملأت بطني منذ أربعين سنة"، وكان لا يأكل مع المساكين حتى المجذوم حتى أضر ذلك بدنه، ولا يلبس إلى الخشين، وما وضع لبنة على لبنة وما غرس نخلة منذ قبض رسول الله ρ ، وقال: "ألبس ما لا يزدريك به السفهاء ولا يعيبك عليه العلماء"، وقال: "لا يكون الرجل عالما حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحقر من دونه، ولا يبتغي بالعلم ثناء"، وقال: "البر شيء هين، وجه طلق وكلام لين"، ومن كرامته أنه خرج في سفر فبينما هو يسير إذا أسد على الطريق قد حبس الناس فاستخف راحلته ونزل إليه فعرك بإذنه، وقال سمعت رسول الله ρ يقول: «لو لم يخف ابن آدم إلا الله لم يسلط عليه غيره»[1]، توفي رحمه الله سنة ثلاث وسبعين من الهجرة.)[2]

وروي أنه كان ذات يوم جالسا مع النبي ρ في جماعة من أصحاب رسول الله ρ ، وفيهم أبو بكر وعمر، فألقى عليهم ρ مسألة ليختبر فهمهم: إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ فوقع الصحابة في شجر البوادي، قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت أن أذكر ذلك لمكان أبي ولصغري[3]، فقالρ هي النخلة، فقلت لعمر بعد ذلك ما وقع في نفسي، فقال: لو قلتها لكان أحب إلي[من حمر النعمأ أو كما ورد الخبر][4] قال أهل الإشارة إنما مثلها ρ بالمسلم، وذلك إن النخلة لا تثمر البتة ما لم تُوبَّر، فكذلك المريد الصادق ما لم يتلقن الذكر من شيخ كامل لا تثمر شجرة وجوده من الثمار المودعة فيها بوجود موجدها. من «الرسالة المكية»، وعليه فإذا أثمرت فينتفع بجميعها أصلا وفرعا وثمرا.

وقد قال ρ: «أكرموا عمتكم النخلة ولو بضم نواها»[5]، (وإنما سماها عمة لأن العم أب فتستحق من البرور مثل ما للأب، و إنما عدل عن العم لأن الأنثى أحق من الذكر، ولأن الحمل والولادة من شأن الأنثى بعد تعليق

---

[1] الحديث أخرجه أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، لسان الميزان، ج6، تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط3، 1986، ص:229.

[2] الكلام من (وإنما خصه بالذكر لأمور –إلى– توفي رحمه الله سنة ثلاث وسبعين من الهجرة) ساقط في (ب) و(ج).

[3] في (ب) و(ج): والأكابر.

[4] إضافة في (ب) و(ج)، و بياض في الأصل.

[5] الحديث أخرجه: – أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج1، ص: 68./ – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج2، ص: 94.

الذكر عليها، فتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ولذلك قال ρ: «بيت ليس فيه تمر أهله جياع»[1]، وقال ρ: «من أعطي التمر واللبن، وقال: لم أكرم لا أكرمه الله»[2]، والشبه العام أن الإنسان خلق من سبعة أطوار في قوله تعالى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ][المؤمنون/12]، والتمر خلق في سبع درجات، أولها طلع وهو نوى التمر قبل أن يفتح، فإذا فتح يقال له: اغريض ثم[كذا][3] ثم زهر ثم بلح ثم رطب ثم تمر، يجمع الدرجات قولك طاب زبرت، وأيضا للإنسان إذا قطع رأسه مات، فكذلك النخلة إذا قطع رأسها لم تخلق أبدا، بخلاف سائر الأشجار، وأيضا الإنسان إذا غرق في الماء مات، فكذلك النخلة، والله أعلم.)[4]

[في ذكر فضائل عروة بن الزبيرτ ومآثره:]

وأما عروة بن الزبير فهو من أكابر التابعين، وأحد فقهاء المدينة السبعة وعلمائها الذين كانت تدور عليهم الفتيا، قال أبو العباس بن الخطيب: "وهم سعيد بن المسيب بكسر الياء، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، وسليمان بن يسار، وهم كلهم من التابعين ψ أجمعين، وجمع أسماءهم بعض الناس في قوله:

أَلَا كُلُّ مَن لَا يَقْتَدِي بِأَئِمَّـةٍ فَقِسْمَتَهُ ضَيَزَى عَنِ الحَقِّ خَارِجَـة
فَخُذهُم عُبيدَ الله عُرْوَةَ قَاسِـمٍ سَعِيد أَبُو بَكْرٍ سُلَيمَان خَارِجَـة

عروة لم يدرك النبيρ وتوفي سنة أربع وتسعين.

فائدة:[5] قال الشيخ السنوسي: "ومما يُكتب للسُّوس في القمح وغيره في شقف[6] سورة الفيل، ثم الخلفاء الأربعة، ثم الفقهاء السبعة رضي الله عن الجميع، ثم قوله تعالى: [فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً][الكهف/97]، ويرمي الشقف في الزرع فيحفظه بإذن الله". من «مجرباته».

ومن مناقبه τأنه أصابته أُكلة في رجله، فلم يجدوا بدّا من قطعها، ولم يمكِّن منها، فقال بعضهم نسقوه مسكرا حتى لا يمنعنا، وقال بعض أهله لا تفعلوا شيئا، واصبر حتى يقف في صلاته فافعلوا به ما تشاءون، فتركوه حتى أحرم في الصلاة فقطعوا رجله وزفتوها في النار والقطران وجعلوا له رجلا من عود، ولم يحس بشيء من ذلك حتى سلم من صلاته استنشق، وقال لأهله أجد في بيتكم رائحة القطران، فأعلموه الخبر". بمعناه من«الإحياء».

وذكر المناوي أن " سببه دخول دار الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد، فدخل محمد دار الدواب فضربته دابة فمات، ووقع في رجل عروة أكلة فقال لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، وكان ينهى عن الدخول للولات، ثم قال: لئن ابتليت لطالما عفيت، واتخذ قصرا بالقصيف، فقيل له جفوت مسجد المصطفى ρ ، فقال: رأيت مساجدهم لاهية وأسواقهم لاغية والفاحشة فيهم فاشية، فكانت فيما هنالك عمّاهم فيه عافية"، وقال: "إذا رأيت الرجل يعمل

---

[1] الحديث أخرجه: - أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج5، ص: 137./- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج6، ص: 179.

[2] لم نعثر عليه.

[3] مطموس في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[5] النص ساقط في (ب) و(ج).

[6] الشقف: في لسان العرب (شقف): الخزف المكسّر.

الحسنة، فاعلم أن عنده لها أخوات، وكذا السيئة، فإن الحسنة تدل على أختها والسيئة على أختها"، وقال: "مكتوب في الحكمة لتكن كلمتك طيبة ووجهك بسطا، تكن أحب إلى الناس ممن يعطينهم العطا"[1]

[في فضائل الزبير بن العوامτ ومآثره:][2]

وأما والده السيد الزبير بن العوام فهو من أكابر الصحابة وابن صفية عمة المصطفى ρ ، وهو الذي قال فيه نبي الله ρ: «لكل نبي حواري وحواري الزبير بن العوام»[3]، حواري الرجل صفيه الذي يصطفيه لنفسه، وهو من الفرسان الأربعة الذين كل واحد منهم يقاتل ألف فارس في القتال، علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، والمقداد بن الأسود، والزبير، وزوجته أسماء بنت أبي بكر، توفي سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة، وسنه أربع وستون سنة، ولم يبق أحد من الصحابة حيا بعد المائة الأولى تصديقا لقوله ρ.

[في فضائل عبد الله بن الزبيرτ ومآثره:][4]

وأما أخوه عبد الله بن الزبير فهو صحابي جليلτ ، قال الشيخ المناوي: ولد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بالمدينة بعد عشرين شهرا من الهجرة، وهو أول مولود في الإسلام للمهاجرين في المدينة، ولدته أسماء بنت الصديق نقيا، وأتت به المصطفى ρ فوضعته في حجره، ودعا بتمرة فمضغها ووضعها في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ρ ، قال نوق البكالي: "إني لأجد في كتاب الله ابن الزبير فارس الخلفاء".

وكان أول ما أفصح به وهو رضيع السيف، وكان لا يضعه من فيه، فيقول أبوه ليكونن لك منه يوم لك ويوم منه عليك، ولما مات معاوية تناقل في بيعة يزيد فكتب إليه: "بعثت بسلسلة وجامعه من فضة وقيدين من ذهب، وحلفت لتأتيني فيها، فمزق كتابه، وقال: "ولا ألين لغير الحق أسأله حين يلين لضرس الماضغ الحجر، لضربة سيف في عز أحب إليّ من ضربة بسوط في ذل"، ثم فر إلى مكة وأظهر الخلاف، فلما مات يزيد بويع بالخلافة وأطاعه أهل الحجاز والعراق وخراسان، ولم يخرج عنه إلا الشام ومصر غلبه عليهما مروان وابنه.

وغزى إفريقية وفتحها واستمر بمكة خليفة وعمّر الكعبة حتى تغلب عبد الملك جهز لقتاله الحجاج في سبعين ألفا فقتله سنة ثلاث وسبعين في المسجد الحرام بعد ما رمى الكعبة بالمنجنيق، وصلبه على بابها وعلق بجانبه كلب ميت، فمر عليه ابن عمر منكّسا، فقال: "يرحمك الله، فإنك ما علمتك إلاّ صواما قواما، وإني لأرجوا ألا يعذبك الله"، كان يطيل السجود حتى يسقط الطير على ظهره يظنه جدرا، ويصلي في الحجر والمنجنيق يصب ثوبه فلا يلتفت إليه، ومن كلامه: "أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من نفوسهم، من صبر على البلاء ورضى بالبقاء وشكر النعماء وذل لحكم القرآن". من "ترجمته".

وروى القسنطيني: "أن النبي ρ احتجم وأعطى لعبد الله بن الزبير دمه، وقال له أدفنه بحيث لا يراه أحد فشربه، فلما سأله النبي ρ: أين ألقيته؟ فقال شربته، فقال ρ: ويل لك من الناس وويل للناس منك، فأشار به إلى ما وقع بينه وبين اليزيد والحجاج، وهو الذي أسس البيت على قواعد إبراهيم لما سمع من عائشة رضي الله عنها قوله ρ

---

[1] النص ساقط في (ب) و(ج).

[2] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه: - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج15، ص: 444./ - الطبراني، المعجم الكبير، ج1، ص: 119.

[4] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

لها: «لولا حداثة قومك في الشرك لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم وإسماعيل، وأدخلت الحجر فيها»[1]، وإنما تركه قريش لما قصرت بهم النفقة، فلما حاصره الحجاج أربعة أشهر ونصب المنجنقات على أبي قبيس حتى هدم الكعبة، وقتل عبد الله بن الزبير وصلبه على باب المعلى، فرد الكعبة على ما فعله قريش، فكتب إليه عبد الملك بن مروان: "وددت لو تركت ابن الزبير وما تحمّل ليت الحجاج لو ترك ما فعل ابن الزبير"، فلما تولى هارون الرشيد كتب إلى مالك بن أنس τ: "إني أريد أن أهدم الكعبة وأردها على بناء ابن الزبير، فقال له: ناشدتك الله لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك فتسقط حرمته من قلوب الخلق وتذهب هيبته". من "الكتاب".

[في ذكر فضائل الحسن البصري وورعه وعلمه وأسراره:]

قوله: "والبصري الراغب الذهب المعمور بخمرة الخمرا"، هذا هو التابعي الثاني واسمه الحسن بن أبي الحسن البصري، أستاذه أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، حكى الغزالي: "أن الإمام عليا τ دخل مسجد البصرة فوجد القصاص يقصون فيه وأقامهم حتى أتى على مجلس الحسن البصري، فقال له: يا شاب إن لم تخبرني عن مسألة أقمتك: فما ملاك الدين؟، فقال له: ملاك الدين الورع، وفساد الدين الطمع، فقال له: بارك الله فيك، اجلس ومثلك من يعظ".

البصري بالفتح والكسر قال في «حاشية الشفاء»: "البصرة يجوز فيها تثليث الماء الموحدة، وفي النسبة لا يجوز منها إلا جهوري، وذكره غيره أيضا، أبوه من نسيان فسبي وصار مولى للأنصار، فصار ولده من رؤوس العباد الأخيار".

قال الغزالي: "كان الحسن أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة اتفق العلماء في حقه على ذلك"، و قال ابن عربي: "الحسن من أئمة أهل طريق الله، ومن أهل الأسرار والإشارات"، وقال الجاحظ "كان يسمى من كل غاية، فيقال: فلان أزهد من الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن، وأفصحهم إلا الحسن، توفي سنة عشر ومائة، ورأى بعض الأولياء ليلة موته أبواب السماء مفتحة، وكأن مناديا ينادي ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض"، من "ترجمته".

وقال أبو عمران التمار: "غدوت يوما قبل الفجر إلى مسجد الحسن البصري، فإذا باب المسجد مغلق والحسن جالس يدعو وضجة التأمين على دعائه، وأنا أسمع ثم قام وأذن وفتح الباب فدخلت فما وجدت في المسجد أحدا إلا هو فسألته فقال: "إنهم جن من جن نصيبين يجيئون ليلة كل جمعة ليشهدوا معي ختم القرآن ثم ينصرفون".

توفي رحمه الله سنة عشر ومائة، ووصفه الناظم بالرغبة والرهبة لأنه من صفة الصفوة، وقد قيل التصوف الرهب من العفو والرغب في العلو، وهما من أوصاف الكُمّل كما وصف الله بهما أنبياءه في سورتهم عليهم السلام بالرغبة في رحمة الله، ثمرة الرجاء وينشأ عنها البسط والأنس والإذلال والرهبة من عذاب الله، ثمرة الخوف وينشأ عنهما القبض والهيبة والحياء، وهما متلازمان لأنهما من جملة المنجيات العشر الذي لا يكمل إيمان العبد إلا بهما، وينبغي للمؤمن المعتدل أن يعتدل خوفه ورجاءه حتى يصير بينهما كالطائر بين جناحين.

[1] الحديث أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 215.

قال في «الإحياء»،: "أما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاءه، ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاءه لاعتدلا، ولهذا قال عمر τ: "لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجل، لرجوت أن أكون أنا، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجل لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، فمثل عمر ينبغي أن يعتدل خوفه ورجاءه، فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليل على الاغترار، فالأصلح لسائر الناس غلبة الخوف في حال الصحة ليسوقهم بسوطه إلى العمل، وفي حال المرض الأصلح تغليب الرجاء ليورثهم حسن الظن بالله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»[1]، وأوحى الله إلى داوود أن حببني إلى عبادي فقال: بماذا؟، فقال بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي، فإذا غاية السعادة أن يموت العبد محبا لله، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير كالسجن".

وأخرج جمال الدين عن يحي ابن معاذ أنه قال: "رجاء المؤمن أكثر من خوفه"، ولولا ذلك كان قلقا، وذلك أن منشأ الخوف من بحر الغضب ومستبقى الرجاء من بحر الرحمة، وقد سبق في قضائه أن رحمته سبقت غضبه.

قوله: "المغمور بخمرة الخمرا"، هذا نعت بعد نعت يعني أن هذا الحِبر الذي هو أعلم مصره بل عصره، بعد أن كان مترددا بين الرغبة والرهبة غمرته خمرة الشربة[2]، فمخاوف المحبين أعظم من مخاوف المؤمنين، لكن الخوف على قدر المعرفة، والعارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، (وتقدم قول الناظم:

مَا فِي المَلاَئِك كَافَّة أَجْمَعِيـــن   مَن يحُوطَ بمَا أَحَاطَ بِهِ الشَّفِيـــعْ
مِن المعرِفَة وخَوف جَدّ الحُسَيــــن   قَدْر اغْرَامْ فِيهْ خَوفُه يَا السَّمِيـــعْ

وكذلك تقدم الكلام على مخاوف المحبين، فراجعه، وقد حكى المناوي عن هذا التابعي البصري أنه عوتب على تخويفه الناس بوعظه، فقال: "إن من خوَّفك حتى تلقى الأمن خير ممن أمنك حتى تلقى الأمن"، ومن كلامه τ: "يحق لمن علم أن الموت مورده والساعة موعده والقيامة مشهده أن يطول حزنه"، وقال وهو مفترش لذقنه ظاهر كفه: "يا عجب لقوم أمروا بالزاد، وأذنوا بالرحيل، ما الذي ينتظرون، ولقد حبس أولادهم عن أخراهم، وهم قعود يلعبون بالتجارات ابن آدم السكين تحد، والتنور يسجد والكبش يعلف، كفى التجارب وبتقلب الأيام عظة، وبذكر الموت زاجر عن المعصية، ذهبت الأيام وبقيت الآثام قلائد في الأعناق"، وقال: لا يؤمن أحد بهذا القرآن إلا حزن وذل"، وقال: "جمع الله الخير والشر في آية واحدة: [إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ][النحل/90]، وقال: "التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والنوم على الشر يدعو إلى تركه، وليس يفنى وإن كثر يعدل ما يبقى، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة"، وقال: "عقوبة العلماء موت القلوب، وموتها طلب الدنيا بعمل الآخرة"، وقال: "أدركت سبعين بدريا

[1] الحديث أخرجه: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج2، ص: 401./ – الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص: 268.

[2] استعمل الخمر منذ القديم رمزا في عبادة الإله ديونيسوس (باخوس)، وفي الديانة المسيحية، وعند فيلون السكندري، قبل أن يصبح رمزا في التصوف الإسلامي. بدأت بوادر وظيفة الرمز الخمري منذ منتصف (ق2هـ)، وقد ظهر بشكل واضح عند كل من الحلاج والشبلي وابن الفارض،...

ينظر: محمد يعيش، شعرية الخطاب الصوفي – الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجا – سيباما، فاس، دط، 2002 ، ص: 150- 199.

وقد تغنّى بها الششتري، فقال: طابَ شرَابُ المدام في الخلوَاتِ   اسقِنِي يـا نَـديـم بالآنِيَـاتِ
خمـرة تَرْكُـها علينـا حـــرامُ   ليسَ فيـــهَا إثـمٌ ولاَ شُبُهَـاتِ
عتقت في الدنان من قبل آدم   أصلـها طيــبٌ من الطيبـــاتِ

ينظر: عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18- 19 (أحمد بن عجيبة و محمد الحراق) دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط2، 1994، ص: 19.

لباسهم الصوف، لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا أخياركم قالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب".

وسئل: "أينام إبليس؟، فتبسم وقال: لو نام لوجدنا راحة"، وقال: "جربنا وجرب المجربون ما وجدنا أنفع وجدا ولا أضر فقدا من الصبر يداوي الأمور ولا يداوي هو غيره"، و سئل عن حديث الإيمان، الصبر والسماحة، فقال: "الصبر عن معصية الله، والسماحة بأداء فرائضه"، وقال: "بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود"، وقال: "يستعان على دفع وسوسة إبليس بالذكر والقراءة، والنفس بالصوم والصلاة والمجاهدة والرياضة"، وقال: "من انقطع إلى الله في مسجد للذكر والصلاة أقام الله له الدنيا خادمة"،)[1] وقال: "لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة لماتوا.

وروى أنه قد قال: "يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ويا ليتني ذلك الرجل، قال الغزالي: "وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود بسوء الخاتمة"، وروى أنه ما ضحك أربعين سنة، ورأى شابا يضحك فقال له: "أعبرت الصراط؟، قال: لا، أعرفت بما يختم لك؟ قال: لا، أعرفت إلى أي الدارين تصير؟ قال: لا، قال: فما أضحكك إذن، فما رأى الشاب يضحك إلى أن مات"، وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قوم لتضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، وإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه.

وعوتب τ في شدة خوفه وحزنه، فقال: "ما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع عليّ في بعض ما يكره فمقتني، فقال: اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل في غير معمل"، فهذه مخاوف الأولياء وكن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، بل نحن قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا، فنسأل الله أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، وإن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد لا ينفعنا.

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا وأتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن طلبنا رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد في طلب أقواتنا ولا نثق بضمان الله عنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمحت أنفسنا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا وبه اغترنا، ينادينا ويقول: [يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ][الانفطار/6]، [وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ][فاطر/5]، [وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى][النجم/39]، من «الإحياء». فمن أراد سعادة الممات والمحيا فعليه بكتاب «الإحياء»، ويرحم الله أبا مدين حين أثنى عليه بما هو أهله.

وقوله: "المغمور بخمرة الخمر" أي المستغرق في بحار المعرفة والمحبة والشفقة والقلق والقبض والبسط، بل في سائر المقامات، وهذه الخمرة ليست بعصر عنب وتين تغطي العقل وتذهب بالدين حتى يفعل شاربها فعل المجانين، بل هي شراب الفحول من أهل الحضرة والوصول [يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا

[1] الكلام من (وتقدم قول الناظم: -إلى- أقام الله له الدنيا خادمة"،) ساقط في (ب) و(ج).

هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ][الصافات/45-47][وَلِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ][الصافات/61]، [وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ][الرحمن/46-47]، ولخمرة جنة العرفان، أشار محي الدين الجيلي بقوله في قصيدته: " سقاني في الحب كيسان الوصال، الله، الله فقلت لخمرتي تعالي الله الله"، وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

قال الهروي τ: "أهل البداية إذا انبسطوا لا ينقبضون[1]، وإذا انقبضوا لا ينبسطون، وأما العارفون فقبضهم بسط، وبسطهم قبض، لأنهم في عين الجمع أبدا فهم مقبضون في بسطهم ومبسطون في قبضهم، فمن ادعى البسط من غير جمع على الله فهو كاذب وعلامته أن يسمع كل شيء، ولا يسمعه شيء، وحقيقة البسط منازلة في درج العلم بلزوم الأدب وإلا فلا، فالقبض والبسط في الحال، كما أن الخوف والرجاء في المستقبل".

وقال الجنيد رحمه الله: "الخوف يقبضني والرجاء يبسطني والحقيقة تجمعني والحق يغرقني، إذا قبضني بالخوف أفناني عني، أي في عين بقاء نفسه، وإذا بسطني الرجاء ردّني عليّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، أي فكنت لا أنا، وإذا فرقني بالحق أشهدني غير عيني كاءا، وهو في ذلك كله محركي غير مسكني وموحشي غير مؤنسي، أي بحضور لذوق طعم وجودي، فليته أفناني عني فمتعني أي به، أو غيبني فروحني، أي بشهوده".[2]

وقوله: "واين التابعين بالقربى واين هم تُبَّاعهم أثرا"، لما أن تأسف على فقد صفوة البشير، وهم الصحابة رضوان الله عليهم وسائر التابعين، وتابعي التابعين، ثم ذكر أفرادا ممن تبعهم في نحو الأربعين تبركا بذكرهم في تعينيهم واقتفاء لآثارهم في تبيينهم، وإلا فالأولياء المحمديون لا يحصون كثرة إلى الآن -بحمد الله- لاتصال أنوار محمدهم بهم، إن غابوا عنا وعز وجودهم لدينا، فهم موجودون في كل زمان ولا يخلو منهم مكان، قال سهل بن عبد الله: "طوبى لمن عرف الحق وعرف أهله، فإنه إن عرفهم استدرك ما فاته، وإن ضعف عن ذلك كانوا له شفعاء"، وقال أيضا: "أدبوا أنفسكم بثلاثة أشياء: تجالس الغافلين الذين يخوضون في حديث الدنيا ولا تتركوها تأخذ من النوم مناها، وأمتعوها من الإسراف في الأعمال والشرب"، من «مناقب الأبرار».

فصل في تعريف التابعين:[3]

قال الإمام ابن الخطيب τ: "فمن صحب الصحابي وأخذ عنه، فهو التابعي والتابعون طبقات، وأكبر التابعين من أسلم في حياة رسول اللهρ ولم يره، وهم المخضرمون (بفتح الراء)، أي المنقطعون عن نظرائهم الذين أسلموا ورأوا كأبي مسلم الخولاني، والأحنف بن قيس، وربيعة بن زواوة وغيره، وعدّ بعضهم عشرين رجلا، وقال هؤلاء المخضرمون.

والطبقة الثمانية من وُلد في حياة رسول الله ρ ولحق بعض العشرة مثل أبي وائل والرابعة من ولد في أيام الخلفاء ولحق بعض العشرة كسعيد بن المسيب الذي ولد في أيام عمر، ولقى العشرة سوى أبي بكر، قيل هو أفضل التابعين لمكانته في العلم والورع وتوفي سنة إحدى وتسعين"، قلت: وذكر سيدي يوسف بن عمر أن الليلة التي توفي

[1] القبض: قبض الحق عبده عند الخلق، في لباس التلبيس بظاهر الشريعة، وصورة العوام صيانة عن الناس.البسط: بسط الحق عبده، لقوة معناه وكمال عرفانه، بحيث يشهد الحق في الخلق، فلا يخالج الشواهد مشهوده ولا يضرب رياح الرسوم موجوده، فهو منبسط في قبضة القبض. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 204، 205.

[2] حول هذا المعنى ينظر: سعاد الحكيم، تاج العارفين الجنيد البغدادي –الأعمال الكاملة- (مرجع سابق) ص: 190.

[3] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

فيها سعيد بن المسيب ولد فيها مالك بن أنس رضي الله عنهما فكان يقال أنه يخلفه فكان ذلك، وجلس للإقراء وهو ابن سبعة عشر سنة، وما جلس حتى رأى سبعون عالما أهلا لذلك، وتوفي وهو ابن أربع وثمانين سنة، وكان مكتوب على فخذه اليمنى[كذا][1] إلاهي مالكُ حجة الله في أرضه.

ثم قال ابن الخطيب: "وقيل أفضل التابعين أويس القرني الذي أخبر به النبيρ ، وقيل الحسن البصري مفتي البصرة، وقيل عطاء بن أبي رباح مفتي مكة، وكان من الراسخين في العلم ولازم الإفادة والفتيا مدة ثمانين سنة، وكان أسود أعور أفطس آشل أعرج، فالعلم ليس بالجمال ولا بالمال وإنما هو نور يضعه الله في صدر من يشاء من عباده، توفي سنة خمسة عشر ومائة، وقيل مسروق الهمداني، لأن علي بن أبي طالب كان يعظمه، توفي سنة ثلاثة وستين، وقيل علقمة لأن عائشة رضي الله عنها كانت تعظمه، وكان الصحابة يسألونه وهو عم الأسود بن يزيد وخال إبراهيم النخعي وتوفي سنة اثنين وستين.

وقال الشاطبي: "ومن سادات التابعين بعد أويس أربعة نفر، عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس، وشريح بن حارث الكندي استقضاه عمر على الكوفة، فأقام بها قاضيا خمسا وسبعين سنة، لأنه كان أعلم الناس إلى أن ولي الحجاج وخالف عليه عبد الله بن الزبير، وكان شريح ممن وافق على ذلك، فامتنع شريح من الحكم ثلاث سنين ومات رحمة الله على الجميع". من «الجمان»، وانظر نسبة الشاطبي عبد الله بن الزبير للتابعين، مع ما تقدم لابن الخطيب أنه من الصحابة هل هو خلاف في شهادة على مائلة في تعريف الصحابي ما هو أو هو غيره، ويكون ابن الزبير (بفتح الزاي وكسر بلا تصغير)، أو هو غلط في أخيه عروة، الله أعلم بذلك.

قوله: "واين التابعين بالقربى"، أراد التابعين للأصحاب المتبعين لنبيهم، فهم أقرب من تابعي التابعين، كما أن تابع التابعين أقرب من الأخيرين، ومتى قرب السند بعد عن العلم، وفرق بين من يروي عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بلا واسطة، وبين من يروي عنه بواسطة وواسطتين ووسائط، إنما عين الناظم الفريقين واقتصر على جمع الطائفتين لأفضلية علماء القرنين، قال سيدي أحمد زروق رحمه الله:

قاعدة: "لا متبع إلا المعصوم لانتفاء الخطأ عنه، أو من شهد له بالفضل لأن مزكي العدل عدل، وقد شهد υ بأن خير القرون قرنه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، فصح فضلهم على الترتيب والاقتداء بهم كذلك". لكن الصحابة تفرقوا في البلاد، ومع كل واحد علم، كما قال مالك رحمه الله: "فلعل مع أحدهم ما هو ناسخ، ومع الآخر ما هو منسوخ، ومع واحد مطلق، ومع الآخر مقيد، ومع بعضهم عام، وعند الآخر مخصص، كما وجد كثيرا فلزم الانتقال لمن بعدهم، إذ جمع المتفرق من ذلك، وضبط الرواية فيما هنالك، لكنهم لم يستوعبوه فقها، وإن وقع لهم بعض ذلك، فلزم الانتقال للثالث إذا جمع ذلك وضبطه وتفقه فيه، فتم حفظا وضبطا وتفقها، فلم يبق لأحد غير العمل بما استنبطوه وقبول ما أصلوه واعتمدوه، ولكل في هذه القرون أئمة مشهور فضلهم علما وورعا، كمالك والشافعي ووالنعمان للفقه، وكالجنيد ومَعْرُوف وبِشْر للتصوف، وكالمحَاسَبي لذلك وللاعتقادات، إذ هو أول من تكلم في إثبات الصفات، كما ذكر ابن الأثير والله أعلم.

[1] مداد في الأصل بمقدار كلمة، وساقط في (ب) و(ج).

قاعدة: "أخذ العلم والعمل من المشايخ أتم من أخذه من دونهم،[بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ [وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ]][العنكبوت/49]،[وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ [ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]][لقمان/15] فلزمت المشيخة، سيما والصحابة أخذوا عنه υ ، وقد أخذ هو عن جبريل واتبع إشارته في أن يكون (نبيا عبدا)[1](لا نبيا ملكا)[2]، وأخذ التابعون عن الصحابة، فكان لكل أتباع يختصون به كابن سيرين وابن المسيب والأعرج وطاووس ومجاهد ووهب لابن عباس إلى غير ذلك. فأما العلم والعمل فأخذه جليّ فيما ذَكَرُوا وكما ذَكَروا. وأما الإفادة بالهمّة والحال فقد أشار إليها أنس بقوله: "ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه υ، حتى أنكرنا قلوبنا". فأَبَان أنَّ رؤية شخصه الكريم كان نافعا لهم في قلوبهم، والعلماء ورثة الأنبياء حالا ومآلا، وإن لم يدانوا المنزلة وهو الأصل في طلب القرب من أهل الله في الجملة إلَّا من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، فلذلك أمر بصحبة التابعين، ونهى عن صحبة الفاسقين فافهم".من "قواعده".

وقد أبان الإمام الغزالي سر الأمر والنهي وثمرتهما كما أشار إليه زروق، فقال: "المجالس ثمانية، مجالس العلماء والأولياء والفقراء ومجالس الحكام والأغنياء والفساق والصبيان والنساء، فأما مجالس العلماء ففيه فائدتان: حسن الخلق والتواضع، وأما مجالس الفقراء ففيه فائدتان: الصبر والقناعة، وأما مجالس الحكام ففيه علّتان: العجب والرياء، وأما مجالس الفسّاق ففيه علتان: قساوة القلب والتمادي على العصيان، وأما في مجالس الصبيان ففيه علتان: اللعب والمزاح، وأما مجالس النساء ففيه علتان: كثرة الشهوة والكبائر من الذنوب، وأيضا النظر ذريعة كل شر". فتأمل وامتثل.

ثم قال رحمه الله: "واين هم تبّاعهم أثرا"؛ الضمير عائد على التابعين: يقول أين هم تبّاع التابعين الذين هم على آثارهم مهتدون ويحتمل أن يكون أراد جميع من تبعهم بإحسان في أي ما زمان، وهم حزب العارفين الذين وضع قصيدته برسمهم.

تعريف يعرب عمن يستحق اسم الصحبة النبوية: قال سيدي يوسف بن عمر: "اختلف في الصحابة، فقيل هم الذين أسلموا في زمان النبي ρ ، وغزوا معه في غزوة أو غزوتين، وبقوا معه سنة أو سنتين، وقيل كل من ولد في زمانه وبلغ في زمانه، وقيل من أسلم في زمانه ورآه، وقيل كل من ولد في حياته فهو صحابي". وقال ابن الخطيب: فالصحابي من أسلم ورأى النبي ρ وروى عنه، ويعرف بالنقل عن الأئمة أنه صحابي، وفي قبول قوله هو إن قال : أنا صحابي خلاف".

[فصل في ذكر مشاهير أولياء "العجم"بالمشرق العربي ومآثرهم وكراماتهم:]

ثم قال رحمه الله وτ:

---

[1] في المصدر: في أن يكون عبدا نبيا. ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروت، ص: 94.

[2] العبارة ساقطة في المصدر، ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وَاينْ هُوَ هَـــوَارَى وَالْهِيـــــــــــــــــتِي	وَايْنَ الشَّنْبُـــكِي مَعَ عُـــــــــــدَي
وَايْنْ هُوَ عَـــزَّار تَنْصِيبْـــــــــــــــــتِي	مَهْمَى كُنـــتْ انْصُول لَفْـــــــظ وذِي
وَايْنْ الكَـــرْخِي تَقْوِيـــــــــــــــــتِي	وَايْنْ هُوَ طَيْفُـــورْ والجِيلِـــــــــــــي
(نَعْنِي)[1] هُوَ(سِيدِي)[2] عَبدْ القَادَر الصَّبْ	المِحْمِي فِي حَضْـــرَة الحَضْــــــــرَا
وَالجُنَيْدْ والسَّــرِي خطِيـــــــــــــبِي	والحَلاَّج مَعَـــــهْ شَمسْ تَـــــــــــرَا[3]

[في ذكر الإمام أبي بكر البطالحي المعروف بابن هوارى:]

لما أن عمم المصنف رحمه الله فيما تقدم آنفا في تابعي التابعين أراد أن يخصص هؤلاء المذكورين من بينهم، فعين أسمائهم وبدأ الشيخ أبي بكر البطالحي، (وسماه الناظم بابن هوارة لأنه علم شخصي له)[4]، وأما الكنية: فهي ما صُدِّرت بأب أو أم، (واللقب: ما أشعرَ بمدح أو ذم)[5]، واستقر هذا الشيخ بالعراق، وهو من رجال سينية ابن باديس المسمات (بالنفحات القدسية)[6] التي يقول في أولها:

أَلَاصِلْ إلى بَغدَادَ فَهِيَ مُنَى النَّفْسِ وَحَدِّثْ بِهَا عَمَّن ثَوَى بَاطِنَ الرَّمْسِ[7]

وشرحها الشيخ سيدي أحمد بن أحمد المانوي أصلا ونجارا، الورنيدي مولدا ودارا، عرف بابن الحاج البيدري رحمه الله[8]، قال ح: بغداد فيه لغات، إعجام الدّالين وإهمالهما، وإعجام الأولى دون الثانية وعكسه وهي أشهرها، وإبدال الثانية نونا وإبدال الباء ميما وقلب الألف ياء"، وفي هذا الشيخ يقول الإمام ابن باديس رحمه الله:

---

[1] الكلمة ساقطة في (ب) و (ج).

[2] الكلمة ساقطة في (ب) و (ج).

[3] في (ب) و(ج): شُشْتَرَى، وهو الأصح من حيث الضبط، يقصد به أبو الحسن الشُّشْتَرَى المتصوف والشاعر الأندلسي (ت 668هـ). سنورد تعريفه لاحقا.

[4] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[5] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[6] لقد شغلت القصيدة " السينية" المعروفة أيضا بـ "سينية ابن باديس" أو " النفحات القدسية" لأبي الحين علي بن باديس كثيرا من الشرّاح والمعلّقين، وقد وضع صاحبها نفسه شرحا عليه سمّاه " اللمحات الأنسية"، وموضوعها هو الإشادة بالشيخ عبد القادر الجيلاني.

ينظر: – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج1) ، ص: 80.

– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج2) ، ص: 128.

– أشاد الفكون كثيرا في كتابه "منشور الهداية" بأبي الحسن علي بن باديس وبعائلته ومما قاله في حقهما: " وناهيك بهم من دار إصلاح وعلم وعمل، وكيف لا وصاحب السينية وشرح مختصر ابن هشام ينبيك عمّا لها من كمال المعرفة والفطنة،.." . ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص: 132.

[7] أورد أبو القاسم سعد الله بيتا واحدا من سينية ابن باديس، مطلعه فيه اختلاف جزئي عن النسخ التي بين أيدينا، وهو: (أَلَا صِلْ إلى بغداد،..)، لذلك تعتقد أن " سينية ابن باديس" الوارد في "كعبة الطائفين" يبقى نصًّا مهمًّا لأجل مقارنتها مع مثيلاتها من النصوص الواردة في عدّة مكتبات مختلفة، لإخراج النص الصحيح وضبطه ضبطا سليما، أقرب ما يكون إلى النص الأصلي الذي أراده مؤلفه، من أجل الحفاظ على تراثنا نقيا سليما والعناية به، خاصة وأن أبا القاسم سعد الله يقول أنه اطّلع على نسختين مغربيتين بالرباط (رقم: د 583) و(رقم: د1641)، ووجد فيها أخطاء كثيرة.

ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج1)، هامش ص: 80.

[8] – أحمد بن محمد الحاج البيدري البجائي ثم التلمساني، كان من العلماء الأعلام والأئمة الذين يقتدي بهم في الإسلام، واسع الدراية، كبير العناية، غزير الرواية، شرح القصيدة الشَّرقطسيّة شرحا عجيبا. – عاش في القرن 10هـ-. ينظر: محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ص: 114.

– ذكر أبو القاسم سعد الله أن البيدري شرح "السينية " في عمل سمّاه: " أنس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس". ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (ج2)، ص: 128.

ولابْن هَوَارَى في المقَامَاتِ رُتْبَـــةً تَقَاعَسَ عَنهَا ذُو التَّكَاسُلِ والغِـس
رَأَى المصطَفَى في نَومِهِ قَائِــلاً له أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيق شَيخُكَ في الإنْـسِ
فَأَصْبَحَ مَكْسُوًّا مِن الصُّوفِ جُبَّـــةً وَطَاقِيَةً تَمحُو ثَآلِيلَ عَن بَـأْسِ
وَقَالَ سَتُحْيِ سُنَّةَ القَوْمِ بَعْدَمَـــا أُمِيتَتْ وتفشوا بِالعِرَاقِ إلى الرَّمْـسِ
فَنَالَ اشْتِهَار في الآفَاقِ كَأَنَّمَـــا لهَا الخلق حَثُّوا بِالدُّعَاءِ إلى النّفـسِ

قال الشارح المذكور: " تقاعس: تأخر عن نيلها، القسّ: اللئيم الضعيف من الرجال، روي أنه كان شاطرا يتقدم على رفقة يقطعون الطريق، فسمع ليلة امرأة تقول لزوجها: أنزل بنا هاهنا لئلا يأخذنا ابن هوارة وأصحابه، فاتعظ وبكى وصدق الله في توبته، ولما أن تاب لم يعرف شيخا يسلم نفسه إليه، فرأى في منامه النبي ρ وأبا بكر، فقال: يا رسول الله ألبسني خرقة فقال له: أنا نبيك وهذا شيخك وأشار لأبي بكر، وقال له: ألبس سميُّك، فألبسه ثوبا وطاقية، وأمرّ يده على رأسه ومسح ناصيته، وقال له: بارك الله فيك وقالρ: بك تحيا سنن أهل الطريق من أمتي بالعراق بعد موتها، ويقوم منار أرباب الحقائق من أحباب الله بعد دروسها، وفيك تكون المشيخة بالعراق إلى يوم القيامة، وقد هبت نسمات الله بظهورك، وأرسلت نفحات الله بقيامك، فلما أصبح وجد الثوب والطاقية عليه بأعيانهما على مارآه، ووجد الثآليل التي كانت برأسه ذهبت ومحتها عنه الطاقية وأبرأتها، وحثوا: استعجلوا، النس: السرعة في الوِرْد.

فَرُوِي أن هذا الشيخ لما رأى هذه الرؤيا كأنه نودي في الآفاق، ابن هواره وصل إلى الله، فاهرعوا إليه وترادف الخلق عليه لاقتباس علمه واستفادة حكمه، كسرعة العطاش إلى ورود الماء، والشيخ المعلم وأصله الكبير السن، وسمي المعلم شيخا كما سمي المتعلم غلاما لأن الغالب أن الكبير يعلم الصغير، واتخاذ الشيخ من أركان الطريقة لأن الإنسان ما لم تجر أفعاله على مراد غيره لا يسلم من اتباع الهوى، والمقامات جمع مقام وهو لغة موضع القيام، وعند الصوفية قال القشيري: "والمقام ما يتحقق العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرفه، ويتحقق به بضر تطلب ومقاسات تكلف، فمقام كل أحد موضع إقامته"، وتفصيل ذلك كالتوكل والزهد والخوف والرجاء والصبر والشكر، قال أبو سعيد الخراز: "من ظن أنه يبذل الجهد يصل فَمُتَعَنِّ، ومن ظن أنه بغير بذل الجهد يصل فمتمنِّ، ولولا مثل هذه الرؤية لما كان في النوم خير"، كما قال الشبلي: "نعسة في ألف سنة فضيحة" وأنشدوا:

عَجَبًا للمُحِـــبِّ كَيفَ يَنَـــامُ كُلُّ نَـــوْمٍ عَلَى المحِبِّ حَـــرَامُ

لكن لما كان في النوم معان ليست في اليقظة رُخِّص فيه، بل بعضهم يستجلبه، حكي أن شاه الكراني تعوّد السهر فغلبه النعاس مرة فرأى الحق في النوم، فكان يتكلف النوم بعد ذلك فقيل له في ذلك، فقال:

رَأَيتُ سُرُورَ قَلْـبِي في مَنَامِـي فَأَحْبَبْتُ التَّنَعُّـسَ والمنَـامَـا

ومثل هذا قول من قال:

وَأَنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَـا بِي غَشْـوَة   لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَـا
وَأَخْرُجُ من بَين الجُلُـوسِ لَعَلّـنِي   أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيًـا

[في ذكر الشيخ علي بن الهيتي:]

قوله: "والهيتي"، اسم هذا الشيخ علي بن الهيتي منسوب إلى هيت، وهو موضع على شاطئ الفرات، أو قرية من قرى العراق، وهو من أكابر المشايخ صاحب كرامات شهيرة، قال ابن باديس:

وَأَمَّا عَلِي وابْـنُ هَيتْ اشْتِهَـارُه   فَذَاكَ لَهُ المقتُولُ أَعْلَن بِالنَّبْـسِ
وَفَتَق رَتْق القَلْـبِ عَن سَبْعِ عُمـرِهِ   وَأَرْخَت جَنَاهَا نَخْلَةَ البُسْرِ، والجَمْـسِ

قال السَّري: النبس: النطق، فتق فتح، رتق ضد الفتح، سبع: العدد المعروف، وعمره مدة الحياة، أرخت: أسدلت، جناها: ثمرها، البسر: أحد درجات الثمر السبع، الجمس: الرطب الصلب أو التمر اليابس، روى أن هذا الشيخ مرّ بأهل قريتين قد شهدوا القتال بالسلاح، وبينهما قتيل تدّعي كل فرقة على الأخرى أنهم قتلوه، فوقف الشيخ على رأس القتيل، وقال: من قتلك يا عبد الله؟ فاستوى جالسا وفتح عينيه، وقال بلسان طليق فصيح سمعه كل من حضره: قتلني فلان، ثم عاد كما كان.

وهو الذي قال فيه الشيخ سيدي عبد القادر: انْفَتَقَ رَتقُ قَلبِ علي وعُمرُه سبع سنين"، وروى أنه ربئ تحت نخلة، وقد تدلت عليه بأغصانها وهو يأكل منها، ثمرا طيبا وليس بوقته.

وقال المناوي: "قيل أنه تقطَّبَ"[1] وكان الجيلاني يعظمه ويقول: "ما من الأولياء إلا وهو في ضيافتنا، إلا أبي الهيتي فإننا في ضيافته، وقد انفتق ورتق قلبه وهو ابن سبع سنين، ومكث ثمانين سنة لا خلوة له ولا معزل ليلا ولا نهارا، بل ينام بين الفقراء.

ومن كلامه: علامة صحة الحال كون صاحبه محفوظا حال غيبته كحال صحوه، [كذا][2]ورأى جميع ما أدركه الخلق بعقولهم وعلومهم ومعارفهم" توفي سنة أربع وستين وخمسمائة عن نيف وعشرين ومائة.

[في ذكر أبي محمد الشَّنبكي:]

قوله: "واين الشّنبكي مع عدي" ،أما أبو محمد الشنبكي فمنسوب إلى الشَّنابكة، قبيلة من الكرد، طائفة من العجم، وهو تلميذ ابن هوّارة المتقدم، قال ابن باديس:

[1] بمعنى صار قطبًا، القطب: هو الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى، من العالم في كل زمان وهو على قلب إسرافيل υ.ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص: 80.
[2] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

وللشَّنْبَكِي تِلمِيذُهُ مِنْهُ عِقَّــةَ عَن الطِّسَةِ اسْتَغْنَى بِهَا وَعَن العِــسِّ
تَوَارَى ثَلَاثًا، ثُمَّ خَيَّمَ نَــازِلًا بِخيفِ مُنَى الأَحْبَابِ يَطْفَحُ بِالعِلْــسِ
وَذَاكَ الذِي خَمْرُ الأَوَانِي تَحَوَّلَــتْ بإِيمَانِهِ مَاءً زُلَالًا لَدَى الأَوْسِ

قال[كذا][1] روى: "أن أبا محمد كان يقطع الطريق مع أصحابه في البطائح، فأخذوا قافلة في قرية ابن هوارة وقتلوا واقتسموا ما نهبوا، ثم حاذا زاوية وقت السّحر فقال لأصحابه: "اذهبوا فقد أخذ الشيخ بمجامع قلبي ولا أستطيع العدول عنه، فقالوا: ونحن معك، فتلقاهم الشيخ، فقالوا له: الحرام في بطوننا، والدماء في سيوفنا، فقال: ذروها فقد قُبِلتم على ما فيكم، فتابوا وحسنت توبتهم".

وروى أن الشنبكي لما أن تاب على يد أبي بكر بن هوارى تولى بنفسه مصالحه ثلاثة أيام، ثم قال له في اليوم الرابع: سر إلى موضع كذا، وادع الله فيه، فقد صرت شيخا مكملا، فقيل له: بم وصلت في ثلاثة أيام؟ قال تركت الدنيا في اليوم الأول، وتركت الآخرة في اليوم الثاني، وطلبت الله في الثالث طلبا مجردا عما سواه فوجدته.

وروي أن هذا الشيخ مر بجماعة بأيديهم أواني الخمر، فقال: اللهم طيب عيشهم في الآخرة، فصار الخمر ماء، وألقى الله عليهم الخشية فتصارخوا وكسروا الآلة وحسنت توبتهم". وهذا شأن العلماء العارفين الذين هم ورثة الأنبياء، الذين بعثهم الله رحمة للخلق، إنما همتهم في هداية الخلق لا في إهلاكهم، خلاف ما عليه عامة المتمسكين والمتفقهين.

عبة: شربة بلا مصَ، في الحديث: «اشربوا مصّا ولا تعبوا عبّا فإن الكباد من العبّ»[2]،الطسة: إناء معروف، العس: القدح، ويقال للصغير المغْمَر، ثم القعبُ يروي الرجل، ثم القدح يروي الرجلين، ثم العس يروي الثلاثة، ثم الصحن، ثم التبريكا ويروي العشرين، المعنى؛ شرب من بحار علوم شيخه شربة واحدة أغنته عن الشرب بالأقداح الصغار، كأنه أراد أنه مجذوب وصل بمرة فاستغنى عن التربية والسلوك، كما أن العِبَة بمرَّةٍ تُغني عن مص الماء شيئا بعد شيء، وأنه شرب حب الله فسكر به واستغنى به عن الأكل في العس والشرب في الطست، وأنشدوا:

شَرِبتُ الحُبَّ كَأْسًــا بَعْــدَ كَـــأْسٍ فَمَا نَفِــذَ الشَّــرَابُ وَلَا رَوَيــــتُ

وتوارى: استتر ثلاثا أي ليال، خيّم: أقام، نازلا: حلّ، بخيف منى: والخيف ومنى موضعان بمكة، ولم يقصدا، يطفح: يمتلئ،، بالعلس: الشرب، والمعنى أن الشنبكي استتر في خلوته لسلوكه وتربية شيخيه له، ثلاث أيام ثم في الرابع وصل إلى مقصوده وألقى عصى التسيار واستعار (خيف ومنى) لمحل الوصال والمعرفة، والعلاقة أن مكة لما كانت محط رحال القاصدين، وملقى عصا السائرين، ومناخ رواحل الزائرين، شبه به مقام المعرفة والوصول إلى الله، وخص الخيف ومنى دون المشاعر لأن الشعراء كثيرا ما يذكرونها، كما قال بعضهم:

---

[1] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

[2] الحديث أخرجه الطبراني، سنن البيهقي الكبرى، ج7، ص: 284.

لَئِن كُنْتَ تَرجُو فِي مِنًى الفَوْزَ بِالمـنَى		فَبِالخَيـفِ مِـن أَغْرَاضِنَـا تَتَخـوَّف

ولأن منىً محل تقريب القربان والإقامة والمبيت، هذا مع احتمال أن يكون وصوله حصل فيه حقيقة، لأن الدنيا قدم واحد للأولياء، واللّوس: الذوق، قلت: ومن هذه الاستعارة قول من قال:

ربِّ جُودَك[1] عَرَفتُ فِي عَرَفَـات		سَلَبَتْنِي بِحُسْنِهَا حَسَنَـاتِ
حُرِمْتُ لمَّا أَحْرَمْتُ نَومَ عَيْـنِي		وَاسْتَبَاحَتْ دِمَائِي بِاللَّحَظَـاتِ
وَرَمَتْ بِالجِمَارِ جَمْرَةَ قَلْـبِي		أَيُّ قَلْبٍ يَقْوَى عَلَى الجَمَـرَاتِ
أَفَاضَتْ مَعَ الحَجِيجِ فَفَاضَـتْ		مِن جُفُونِي سَوَابِقُ العَبَـرَاتِ
لم أَنَل بِمِنًى مُنَى النَّفسِ لَكِـن		خِفْتُ بالخَيفِ تَكُونُ وَفَـاتِي

[في ذكر فضائل الإمام عدي ومجاهداته:]

وأما أبو الفضائل عُدَي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان (بن الحسن بن مروان بن الحكم)[2] الأموي أحد الأئمة المشهورين، فهو الذي قال فيه ابن باديس رحمه الله:

وَأَمَّا عُدَي فَالعِبَـادَاتُ أَوْهَنَـت		قِوَاُه وَصَارَت كَالحَصَا مُخَّةُ الرَّأْسِ
فَكَم خَارِقٍ أَبَدًا كَتَفْجِيـر مَائِهَـا		مَعِينًـا قَد اسْتَغْـنَى بركـضٍ عَـن الحَبْـسِ

الحبس: ماء يحتبس فيه الماء للشرب، والسقي: يبنى بحجارة أو خشب، أشار به إلى أن صاحبه استغنى بركضه برجله للحجر عن أن يتخذ مصنعا للماء يحتبس فيه، وروى أنه كان لكثرة مجاهداته ضعيف، حتى أنه صار إذا سجد يسمع لمخ رأسه صوت كوقع الحصاة في القرعة اليابسة، وهو الذي قيل فيه: "لو كانت المجاهدة تنال بها النبوة لنالها عدي"، وروي أن رجلا شكى إليه أنه لا يحفظ سوى الفاتحة والإخلاص، وكان هذا الرجل يصب الماء على يد هذا الشيخ، فضرب بيده صدره فخرج الرجل من عنده وهو يتلو القرآن كله.

وروى أن إسرائيل بن عبد المقتدر كان في سياحته فتراكم الوسخ على جلده، حتى يرى كأنه جلد آخر، فجاء ذئب فلحسه حتى بقي كالجمارة، فداخله بعض العجب، فعاد الذئب وبال عليه، فاغتسل وهو في حجرة بينه وبين العمارة عشرة أيام من كل جهة، قال: فقلت لو يَسِر لي بعض الأولياء، فإذا الشيخ عُدَي إلى جانبي ولم يسلّم فقلت في نفسي، لم؟ فقال: إنَّا لا نلتقي بالسلام والرحاب من تبوّل عليه الذئاب، ثم ذكر لي جميع أحوالي وما جرى لي في سياحتي وخواطري، فقلت: اشتهيت الإقامة لو وجدت ماء، فقام إلى صخرتين كانتا في تلك الحجرة التي أردتُ الإقامة بها وكز إحداهما فتفجرت ماء من النيل عذبا، ووكز الأخرى فنبتت فيها شجرة رمان للوقت، وقال لها: أنا

---

[1] في (ب) و(ج): جُود.
[2] ساقط في (ب).

عُدَي أُنبتي بإذن الله يوما حلوا ويوما حامضا، وقال لي: إذا أردتني فاذكر اسمي آتيك، قال: فأقمت في تلك الحجرة سنين آكل وأشرب من ذلك طيّبا، وما ذكرته قط إلا وجدته عنده، ويخبرني بجميع ما يختلج لي في غيبتي، ثم أتيت إليه وبتّ عنده فأحرقتني أنفاسه فمكثت أربعين يوما أصب الماء البارد عليّ، وإني لأجد النار الشديدة في باطني من هيبة أنفاسه، ثم سافرت فقال لي: إذا رأيت سبعا تخافه، فقل له: قال لك عدي اذهب ودعني، والبحر تقول: أيها الموج يقول لك عدي أسكن، فكنت أقوله للأسد فينصرف، وركبت البحر فأشرفنا على الغرق فقلته للموج فصار كأنه عين ديك.

وقال المناوي: "أتى عليه العارف الكيلاني ونوّه بذكره وشهرته بالسلطنة على أهل مصره، وقال: "لو كانت النبوءة تنال بالمجاهدة لنالها عدي"، وكانت السباع والهوام تألفه وتحوم حوله، وتُظهر أنها تعرفه، وكانت أكثر إقامته بالجزيرة السادسة من البحر المحيط، وكان يأمر الريح أن تسكن فتسكن فورا.

ومن كلامه: "أول ما على سالك طريقا ترك الدعاوي الكاذبة، وإخفاء المعاني الصادقة، وقال: إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات والخوارق فلا تعبئوا به حتى تنظروه عند الأمر والنهي، فإن جمعا من الكفار أظهروا خوارق وعجائب وهم كفار، وقال: من اكتفى بالكلام من غير عمل انقطع عن الله، ومن اكتفى بالتعبد من غير فقه، فقد خرج من الدين، ومن اكتفى بالفقه بدون ورع اغتر بالله، ومن قام بما عليه من الأحكام نجا، وقال: من لم يأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد كل من تبعه"، مات سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. من «كواكبه».

[في التعريف بالشيخ عزاز بن مستودع البطالحي الملقب بـ"الباز":]

قوله: "واين هو عزاز تنصيبتي مهما كنت انصولي لفظِ وذي"، يقول: أذكر الشيخ عزاز بن مستودع البطالحي، ويلقب البازي، وقد قال فيه الإمام بن باديس:

وَعَزَّازْ بِالبَازِي يُلَقَّـــبُ فَاذْكُـرَن ... كَسِير هُزْبُرَ عَادَ لِلْمَـرءِ بِاللَّمْـسِ

قال شارحه: الباز ما يتسبّع من الطيور ذوات المخالب، وهو هنا لقب على جهة المدح، لأن اللقب ما أشعر بمدح أو ذم، وهو أحد أقسام العلم، هزبر: من أسماء الأسد.

روي أن هذا الإمام مرّ يوما بأسد أعْيَ الناس وتضروا به، وقد افترس شابا وقسم ساقه نصفين، فصاح عليه فولّى منهزما، وجعل يمرغ خديه، فتناول حصاة قدر الفولة وقذفه بها وقسم ساقه نصفين فخرّ الأسد ميتا، ثم جبر ساق الشاب وأمرّ يده عليه فقام يعدو، ولا بأس به، وأخبر أهله ولم يبق الغلام بعدها إلا قليلا فمات.

قلت: فاسم هذا الشيخ ولقبه وكرامته تدل على توقيره وتعظيمه[1]، فلذلك أخبر الناظم بحاله معه كأنه يقول: واين هو (سبع طيور الأولياء)[2] البازي الأشهب (القاتل الأسد بحصى مقذوفه من مخالبه)[1] الذي إذا حال على حالي

[1] في (ب) و(ج): احتشامه.
[2] ساقط في (ب) و(ج).

وكثر ذوبي ومقالي ذكرت حاله ومقاله، وتذكرت خوارقه وأفعاله، فسكنتُ لذلك ونصتُّ وهبتُه وصفحتُ، لأنه معظم في زمانه معزز بين أقرانه أو ما سمعت قول الحكماء: " إذا صرصر البازي فلا ديك يصرخ".

وهذا هو شأن أهل هذه الطريقة لزوم الأدب مع من هو أكبر منهم سنا أو قدرا، كما روى عن أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي τ أنه قال: "كنت أستحي أن أتصفح ورقات الكتاب بين يدي الإمام مالك بن أنس رحمه الله"، وقال أشهب: "كنت أستحي أن أشرب الماء في مجلس الإمام الشافعي"، قال الفاكهاني: "ولعل تلك بتلك لما أن وقر شيخه وقر". من شرحه على «رسالة [ابن أبي زيد][2]».

(وفي الخبر:" أن فتنة العالم أن يكون كلامه أعجب إليه من الصمت"، وقال بعض العارفين: "هذا العلم على قسمين نصفه السكوت ونصفه أن تدري أين تضعه"، وعن السلف: "أن تسعة أعشار السلامة في الصمت"، قال بعضهم: "تعلم الصمت كما تتعلم الكلام، فإن كان الكلام يهديك، فإن الصمت يقيك"، و "في الصمت خصلتان تدفع: بها جهل من هو أجهل منك، وتعلم بهما علم من هو أعلم منك"، وقيل: "تعلم لا أدري ولا تتعلم أدري فإن قلت أدري علموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوك حتى لا تدري"، وقال الواسطي، تلميذ الجنيد: "من عرف انقطع، بل خرس وانقمع".)[3]

سئل عن ابن دينار والطاوي وابن واسع ونحوهم من العبّاد، فقال القوم: "ما خرجوا من نفوسهم إلا إلى نفوسهم، تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي، فأين خالق الفناء والبقاء!؟"، ودخل نيسابور فسأل أصحاب أبي عثمان: "بما يأمركم؟ قال بالعزام والطاعة، ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هَلاَّ آمُرُمكم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجراها".

[التعريف بالشيخ الكرخي:]

قوله: "واين الكرخي تقويتي"، يعني أن أبا محفوظ سيدي معروف ابن فيروز الكرخي[4] هو غذاء روحي وتقويتُها، متى ذكرته وتذكرت أحواله وأفعاله أو سمعت خوارقه وأقواله أغناني ذلك عن طلب الطعام المحسوس (لأني وجدت ما يحي النفوس)[5]كما قال [كذا][6]:

فَقُوتُ الـــرُّوحِ أَرْوَاحُ المعَـــانِي وَليسَ بِـــأَن أَكَلتَ أَوشَرِبـــتَ

قال سيدي أحمد بن الحاج البيدري: "وهذا الشيخ من أكابر شيوخ الصوفية يستشفى بقبره، ويقول البغداديون: قبر معرُوف تِرياق مجرّب، وكان مجاب الدعوة وهو شيخ السّري[7]، وقال له: "إذا كانت لك حاجة إلى الله

---

[1] ساقط في (ب) و(ج).
[2] إضافة في (ب) و (ج).
[3] الكلام ساقط في (ب) و(ج).
[4] ينظر ترجمته : – أبو عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، ص: 29.
–أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 9، 10.
[5] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).
[6] مطموس في الأصل، وفي (ب) و(ج): أَوَلَمَ تسمع قول الحكيم.
[7] الشيخ سري السقطي.

فاقسم عليه به"، وليس هو من طبقة هؤلاء الشيوخ المذكورين في السينية، لأنهم في المائة السادسة والخامسة، وأما هو ففي المائة الثانية، ومات في آخرها أو بعدها بسنة، وهو أحد الأربعة الذين يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء، والثاني سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما، وحياة بن قيس الحرّاني، وعقيل المبخي شيخ الشام رضي الله عنهما.

قال لبعضهم يعني إبراهيم الأطروش: كنا ببغداد على الدجلة مع معروف إذ مرّ بنا أحداث في زورق يضربون بالدف بالنساء ويشربون ويلعبون، فقلنا لمعروف: أما تراهم يعصون الله مجاهرين، أدع الله عز وجل عليهم، فرفع يديه وقال: إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة، فقالوا: إنا سألناك أن تدعو عليهم، فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم، فروى أنهم عادوا بأجمعهم وتابوا. من «شرحه».

ولذا قال النبي ρ للزواوي في المنام: "إن معروفا هو الحادي والعشرون من الأولياء الذين تأوّل النظر ألم تسمح قضيته مع العصاة وساقها بتمامها"، ولتخلقه بالرحمة الإلهية سمع بعض الأولياء هاتف الحق فيجذبون، يقول في هذا: ما فعله معروف هو عين المعروف.

(قال الغزالي: "كان ابن حنبل وابن معين يختلفان إليه ويسألانه، ولم يكن في علم الظاهر مثلهما فيقال لهما: مثلكما يفعل ذلك، فيقولان كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب الله وسنة رسوله؟ وقد قال المصطفى ρ: «إسألوا الصالحين»[1]. قال أبو محفوظ: ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين منهم، وقال كيف يكون تقيا من لا يدري مما يتّقى، وقال: إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل بما علم وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد به شرا فعكسه، وقال: توكل على الله حتى يكون هو معلمك وأنسك وموضع شكواك، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقك، وقال: طول الأمل يمنع خير العمل، وقال: طلب الجنة بلا عمل ذنب من ذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، ورجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق، وقال: شفاء كل بلاء نزل بالعبد كتمانه، فإن الناس لا ينفعونه ولا يضرونه ولا يعطونه ولا يمنعونه، وقال: إحفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

(ومن دعائه: اللهم لا تجعلنا بثناء الناس مغرورين، ولا بالشر مفتونين، وقال: من قال كل يوم عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، كتب من الأبدال. ونزل الدجلة ليتوضأ ووضع مصحفا وملحفته، فأخذته امرأة، فتبعها فقال: يا أختي لا بأس عليك، ألك ابن يقرأ أو زوج؟ قالت: لا، قال: هاتي المصحف وخذ الثوب. وكان يهدي إليه الطيّب من الطعام، فيأكل، فيقال له: إن أخاك بشرا لا يأكل، فيقول: أخي قبضه الورع، وأنا بسطتني المعرفة، إنما أنا ضيف دار مولاي، مهما أطعمني أكلت، وحيث أنزلني نزلت. من «الكواكب».)[2]

وحكى صاحب «مناقب الأبرار» أن السَّرِي رآه في نومه كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته، من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا ربنا، فقال: هذا معروف الكرخي، سكر من حبي، فلا يفيق إلا بلقائي. وقال خليل الصيّاد فقدت ابني محمدا زمانا طويلا فوجدنا عليه وجدا شديدا، فأتيت معروفا فقلت له: يا أبا محفوظ غاب ابني وأمه عليه

[1] الحديث أخرجه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج4، ص: 197.

[2] الكلام من (قال الغزالي: "كان ابن حنبل –إلى– وحيث أنزلني نزلت. من «الكواكب») ساقط في (ب) و(ج).

واجدة، فقال: ما تشاء، فقلت أدعو الله أن يرده، فقال: اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك ائتِ بمحمد، قال خليل: ثم خرجت إلى باب الشام، فإذا ابني محمد واقف فقلت: محمد، فقال: يا أبت كنت بالأنبار، ولا أعلم ما صار.

وحكى جمال الدين المعافا أنّ معروفا كان يديم الصوم، فاتفق أنه اجتاز بسقاء وهو يقول: رحم الله من دنا وشرب، فدنى معروف وأخذ شربة فشربها وكان بعد صلاة العصر، فقال له من حضر من أصحابه: صمت إلى هذا الوقت ثم أفطرت، فلأي شيء، فقلت ذلك، فقال معروف: اغتنمت دعوة السقاء ورجوت أن يرحمني الله بها، فلما كان بعد وفاة معروف رآه بعض المشايخ في النوم فقال: ما فعل الله بك؟، قال: رحمني بدعوة السقاء.)[1]

[التعريف بـ "طيفور" المعروف بأبي زيد البسطامي و ذكر مآثره وكراماته:][2]

هو المكنى أبو يزيد البسطامي[3] τ ومكانته مشهورة. قال ابن العربي: "وكان حاله التجريد وعدم الادخار، وكان هو القطب الغوث في زمانه، وكان على قلب إسرافيل، له الأمر ونقيضه، جامع للطرفين، وهذا المنصب لا يكون إلا لواحد فقط، وكان يشير عن نفسه أنه قطب الوقت فقيل له: أن فلانا، يقال أنه قطب الوقت، فقال: الولاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد، وإن رجلا شق العصا وقام ثائرا في تلك القلعة وادعى أنه خليفة، قتل وبقي أمير المؤمنين أميرا للمؤمنين، فما مرت أيام حتى ثار في تلك الليلة ثائر فقتل، وما تم له ذلك، فوقع ما ضرب به ابن باديس المثل عن نفسه، وأنا جربت المتخمرين عن الله إذا ضربوا الأمثال لأمر ما فإنه لا بد من وقوع ذلك المضروب به المثل.

يحكى أنه صلى الجمعة فسمع الخطيب يقول: [يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً][مريم/ 85]، وقد افطار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر، فقال: يا عجبا كيف يحضر الله من هو جليسه، فإن الله يقول: «أنا جليس من ذكرني»[4] فكان دمع أبي يزيد دمع فرح لا قرح، كيف حشر منه إليه حتى سكن غيره إلى الحجاب"، قال المناوي: "ومن فوائده التي لا تحصى: "ليس العالم من يحفظ كتاب الله، فإذا نسي ما حفظ صار جاهلا، بل يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا تحفظ ولا درس، وهذا هو العالم الرباني".

وقال: "قلت يوما سبحان الله، فناداني الخالق في سري: هل فيَّ عيب تُنزهني عنه؟ قلت: لا يا رب، قال: فنفسك نزّه عن ارتكاب الرذائل، فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل وتحليت بالفضائل فصرت أقول: سبحاني ما أعظم شأني[5]، من باب التحدث بالنعم". وقال: ما وجدت المعرفة إلا ببطن جائع وبدن عارق"، فقيل حدثنا عن رياضة نفسك؟ فقال: دعوتها إلى الله، فتكلت، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء ولا أذوق النوم سنة فأذعنت"، وقال إنما نالوا ما نالوا بتضييع مالهم وشهود ماله تعالى.

---

[1] الكلام من (ومن دعائه: اللهم لا تجعلنا –إلى– رحمني بدعوة السقاء.) ساقط في (ب) و(ج).

[2] معظم ما جاء في هذا الفصل ساقط في (ب) و(ج).

[3] ينظر ترجمته: – أبو عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، ص: 25./ –أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 14.

[4] الحديث أخرجه: –أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ج1، ص: 108./– أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج1، ص: 451.

[5] قال البسطامي: "سبحاني ما أعظم شأني، حسبي من نفسي حسبي". ينظر: قاسم محمد عباس، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، ويليها كتاب تأويل الشطح، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 2004، ص: 50.

وقال له رجل: "بلغني أنك تشرب الهواء، فقال: أي عجب فيه طير يأكل الميتة يفرُّ في الهوى، المؤمن أشرف من طير"، وقال: "الأولياء لا يفرحن بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات، فإن أدعية الكفار تجاب، والأرض تطوى للشياطين، والرجال والهواء والماء مسخران للطير والحوت، فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن من المكر". وقال: في "الطاعات من الآفات ما لا يحتاج أن تطلبوا المعاصي"، وقال: "أشد المحبوبين ثلاثة: الزاهد بزهده والعابد بعبادته، والعالم بعلمه، مسكين الزاهد لو علم أن الدنيا كلها سماها الله[كذا] قليلا ما زهد فيها، مسكين العالم لو علم أن جميع ما أوتيه من العلم بعض سطر من اللوح المحفوظ ما نظر لعلمه".

وقال: "طوبى لمن كان همه هما واحدا، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه ولا سمعت أذناه، وقال: أقرب الناس من الله أكثرهم شفقة على خلقه". وقال له رجل: "دلني على عمل أتقرب به إلى الله، قال: أحبب أولياءه ليحبوك، فإنه ينظر في قلوبهم، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليّه فيغفر لك"، وقيل له: "شهادة أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة، لكن لا يفتح المفتاح إلا مغلاقا، ومغلاق "لا إله إلا الله" أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا جناية، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة"، وقال: "هلاك الخلق في شيئين، ترك الحرمة ونسيان المنة". وقال: "حسب المؤمن أن يعلم أن الله غني عن علمه".

وقال: "الناس بحر عميق والبعد عنهم سفينة، وقد نصحتك فاختر لنفسك المسكينة"، وقال: الدنيا لأهلها غرور في غرور، والآخرة لأهلها سرور في سرور، ومحبة الله لأهل محبته نور على نور"، وقال: "إنما جعلت الدنيا مرآة للآخرة، فمن نظر فيها للآخرة نجا ومن شغل بها عن الآخرة أظلمت مرآته وهلك"، وقال: "خلق الله الخلق لإظهار قدرته، ورزقهم لإظهار جوده، وأماتهم لإظهار وجوده، ويحييهم لإظهار عظمته"، وقال: "التوحيد اليقين، واليقين معرفتك أن حركات الخلق وسكناتهم فعل الله"، وسئل ما علامة العارف؟ فقال: [قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ][النمل/34] وقال: "حسبك من التوكل ألا ترى ناصرا غيره، ولا يرزقك رازقا غيره، ولا يعلمك شاهدا غيره"، وقال: "النفس تنظر إلى الدنيا والروح إلى الآخرة والمعرفة تنظر إلى الله، فمن غلبت نفسه عليه فهو من الهالكين، ومن غلبت روحه عليه فهو من المجتهدين، ومن غلبت معرفته فهو من المتقين".

وكان يعظ نفسه ويقول: "يا أمارة بالسوء، المرأة إذا حاضت طهرت بعد ثلاث أو سبع، وأنت منذ ثلاثين سنة ما طهرت فمتى تطهرين، إن وقوفك بين يدي الله لا بد منه فاجتهدي أن تكوني طاهرة"، وقال لي الحق تقرب إليّ بما ليس لي، الذلة والافتقار"، وقال: مددت رجلي ليلة في الظلام في محرابي، فهتف بي هاتف من يجالس الملوك، ما يجالسهم إلا بالأدب، وقال: "رأيت الحق، فقلت: يا رب كيف أجدك، قال: أُترك نفسك وتعال"، وقال: "لو شفعني الله في أهل عصري كلهم لم يكن عندي تكبر لأنه شفعني في قطعة طين".

ودخل مدينة فهرع إليه جميع أهلها، فقال: "من هؤلاء؟ فقال: قوم رغبوا فيك، فقال: اللهم إني أسألك ألا تحجب الخلق بك عنك، فكيف تحجبهم عنك بي، ثم صلى بهم الفجر، والتفت فقال: إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون، فتركوه، وقالوا مجنون مسكين"، وقيل له: لم وصلت إلى ما وصلت؟ قال: جمعت الأسباب الدنيوية فربطتها

بحبل القناعة ووضعتها في منجنيق الصدق ورميتها في الناس فاسترحت"، قال ابن حضرويه: "رأيت الحق، فقال: يا أحمد كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني" من «الذرر».

روى أنه قال منذ ثلاثين سنة ما أطعت نفسي في شيء تريده، وروى أنه سئل عن ابتدائه وزهده، فقال: ليس للزهد منزلة، فقيل لماذا؟ فقال: لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليوم الرابع خرجت منه، اليوم الأول زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لي سوى الله، فهمت وسمعت هاتفا يقول: يا أبا زيد لا تقوى معنا فقلت هذا الذي أريد، فسمعت قائلا يقول: وجدت وجدت. فمواجيده لا تنحصر.

فائدة: وجدت مقيدا أن أبا زيد اسمه طيفور بن عيسى بن حامد بن شر، وأن من عرف اسمه لم تتقد عليه نار جهنم. فعليك يا أخي بمعرفة أهل الله ومحبتهم لعل الله أن يحشرك في زمرتهم.[1]

[التعريف بالشيخ الإمام القطب عبد القادر الجيلاني وذكر فضائله ومآثره وكراماته:]

وقوله: "والجيلي": هو يعني سيدي عبد القادر الصب الممحى في حضرة الحضرا، الجيلي: منسوب إلى جبل، وهو موضع في أرض العجم من وراء طبرستان، ويقال فيه أيضا جيلان[2] وبنسبته إلى هذا رويناه عن الناظم، ولما رأينا ذلك يؤدي إلى إخلال الوزن واختلاف حرف الروي أصلحناه ونسبناه إلى اللغة الأولى، وزدنا كلمة نعني أو شبهها، والله أعلم بالصواب.

وهذا الشيخ هو الذي فضله الله على الأولياء كما فضل جده محمد على سائر الأنبياء، وهو الشيخ الإمام العارف القطب محي الدين أبو محمد سيدي عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون[3] بن عبد الله المحض[4] بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب τ .

صاحب الكرامات الظاهرة والمناقب الباهرة، طلع النخلة النبوية وفرع الأثيلة العلوية، نشأ بين مدينة العلم وبابها[5]، وربي في بحر العناية وخِبَابها، ورضع ألبان الكرامة واغتذى بها، حتى بلغ أشد إرادته واستوى في سعادته،

---

[1] للإطلاع على حياة أبي يزيد البسطامي الروحية و أقواله وشطحاته، وتأويلات بعض العلماء لكلامه، ينظر أيضا: - أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، اللُّمع، ص: 325 – 337. – عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص: 28 – 40 / ص: 51 -226.

[2] الجيلاني أو (الكيلاني) وهي نسبة لموطن مولده(جيلان)، عرف الإمام عبد القادر بهذا اللقب بعد نزوله بغداد، وقد انتسب إلى جيلان ما لا يحصى من أهل المعرفة والفن، ففي التصوف انتسب إليها اثنان من أشهر أعلامه: الإمام عبد القادر الجيلاني، والشيخ عبد الكريم الجيلي.

وجيلان: مجموعة من القرى الفارسية المتناثرة في مروج الجبال الواقعة وراء طبرستان.ينظر: يوسف زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، ص: 26

وتكاد تجمع كتب السير والتراجم(ابن الأثير في الكامل/ أبن كثير في البداية والنهاية/ الذهبي في ير أعلام النبلاء/ الزركلي في الأعلام) على أن كنيته أبو محمد ونسبته الجيلاني أو الجيلي. ينظر: سعيد بن مسفربن مفرح القحطاني، الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، ردمك، الرياض، ط1، 1997، ص: 28.

[3] الجون في اللغة من أسماء الأضداد، فلذلك يقال الجون الأسود والأبيض -. ينظر: أحمد بن فارس، مقاييس اللغة (ج1)، ص: 254.

– وهو هنا بمعنى الأسود، فقد كان موسى بن عبد الله آدم اللون، واشتهر أن أمه كانت تُدلّله بقولها: إنّكَ إن تكن جونًا أنزعَا // تُوشكُ أن تَسودهم وتَبَرَعَا. ينظر: يوسف زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، هامش ص: 25.

[4] المحض في اللغة هو الخالص من كل شيء، وقد لقب الإمام بهذا اللقب لأن نسبه من جهة الأب والأم خالص من الموالي، فأبوه هو الحسن بن الحسن بن علي، وأمه هي فاطمة بنت الحسين بن علي. ينظر: المصدر نفسه، 26.

[5] تناص مع الحديث الذي رواه ابن عباس، قال، قال رسول اللهρ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأتها من قبل بابها»، وقد ورد الحديث بعدّة ألفاظ ومن عدّة طرق. بحثه وحقّقه سامي أنور شاهين. ينظر: سامي أنور جاهين، فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من خلال حديثي العترة وباب المدينة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006، ص: 83 -94.

وأظهره الله رحمة للمسلمين، والله ذو فضل على المؤمنين، واعلم أن كرامات هذا الشيخ أكثر من أن يتسعها كتاب وتأليف، وحسبك أنه قد صنعت فيها تصانيف[1]، ولولا خشية التطويل لذكرت منها ما يشفي الغليل، لأن النظر في كرامات الأولياء يزيد في قوة الإسلام، إذا هي من بقايا معجزات نبينا υ لأنهم ببركة اتباع سنته نالوها، ومن فيض أبحره أسالوها. من «أنس الجليس في جلو الحناديس عن قصيدة ابن باديس».

(فمن مناقب هذا الشيخ ما حكاه الشنطوفي[2] في كتابه[3] ، قال: سمعت أبا القاسم يقول سمعت الشيخ عبد القادر يقول: "من استغاث بي في كربة كشفتها عنه، ومن ناداني باسمي في شدة فرجتها عنه، ومن توسل بي إلى الله عز وجل في حاجة قضيتها له". ومن صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص إحدى عشرة، ثم يصلي على رسول الله ρ بعد السلام، ويسلم عليه، ثم يخطو إلى جهة العراق إحدى عشرة خطوة، ويذكر اسمي ويذكر حاجته، فإنها تقضى بإذن الله وروى أيضا أن من خطا عشر خطوات، وقال في كل خطوة بعد البسملة والصلاة على النبي ρ: من العبد الذليل إلى المولى الجليل، سلام على آل ياسين، إياك نعبد وإياك نستعين، مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، بجاه سيدنا محمد ثلاثا، يا لطيف ثلاثا، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ثلاثا، فإنه يأمن مما يخاف بإذن الله تعالى.

قلت: وتصرفاته اليوم وإغاثته لمن استغاث به عجيبة ظاهرة، فمن ذلك ما حدثني به السيد طلحة بن أحمد عن جده لأمة الولي الصالح سيدي عبد الله بن عزه المفاغي، قال: كنت سائحا في أول توبتي على يد سيدي علي بن يحي الجاديري الدار السلوكسني النجار، فلقيت رجلا في واد القصب الذي بأسفل زا[4]فقلت: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عبد القادر الجيلاني، قال فشكوت له جبابرة أعراب أَنْقَاد[5]، فقال: إذا ضاق بك الحال استخلا[6] واستغث بي بصوت عالي، فإني أُغيثك إن شاء الله، وقال له: قل في استغاثك:

أَنْقَــادْ وَالظْـلَام شَطْنُوا بَــالِي ... فِيهُم يا مولاي[كذا][7]بيــــك

أنتَ سِيد الكُل واسمَك عَــالِي ... وارْجَال الله قَـاع بِينْ ايْدِيـــكْ

أنَا نَبْــغِي هِمتَــك تَبْــقَ لِي ... وابْيَان البُرْهَـان تَمْــشِي بِيـــكْ

سيدي عبد القـادر الجيــلاني ... انْهَـــــل[كـــذا][1]عْلِيـــــكْ

---

[1] تكاثرت كرامات الإمام الجيلاني وانتقلت روايتها بعدة طرق، منها الإسناد المعنعن – وحتى المؤرّخ- وتواترت حتى قيل (ما نقلت الكرامات عن أحد بالتواتر، إلاّ عن الشيخ عبد القادر)، وقد امتلأت كتب التراجم بأخبار كرامات الجيلاني، ووضعت في ذلك مؤلفات مستقلّة. ينظر: - يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، هامش ص: 66.

-عبد القادر الجيلاني، السفينة القادرية، علق عليها وضبط حواشيها: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص: 29 – 45.

-عبد القادر القادري، الشيخ عبد القادر الجيلاني، حياته، عصره، صفته، آثاره، ذريته، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، العدد 4، السنة 21، 1980، ص: 75 – 78.

[2] هو الشيخ نور الدين أبو الحسين علي بن يوسف بن جرير اللخمي الشطنوفي (نسبة إلى قرية شطنوف بمصر) شيخ القرّاء بالديار المصرية، توفي سنة 713هـ -تقدّمت ترجمته- ينظر: يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، هامش ص: 66.

[3] عنوانه هو " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الربّاني سيدي محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني" وقد بدأ الشطنوفي كتابه بسرد الظروف المحيطة بكرامة واحدة للإمام الجيلاني، وهي قوله (قدمي هذه على عنق كل ولي لله). ينظر: المصدر نفسه، هامش الصفحة نفسها.

[4] وادي (زَا) يقع بنواحي وجدة بالمغرب الأقصى.

[5] قبيلة عربية كانت تتمركز بين تلمسان و وجدة ونواحيها بشرق المغرب الأقصى في ق14م، أخذوا اسمهم هذا من السهل الذي استوطنوه –سهل **أنقا د**، وإثر خصومات داخلية هاجر جزءا منهم إلى سهول القور جنوب تلمسان بالجزائر، ينحدرون من ذوي عبيد الله .

[6] أي اذْهَب إلى مكان خالي.

[7] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

قال، وقال له شيخه أين يحي المذكور؟ وكان بصيرا: أين أهلُكَ يا عبد الله؟ فقلت: في البطيم، ثم سكت مليا، فسألني أيضا فأعدت الجواب، ثم سكت فأعاد فأعدت، ثم قال لي: يا عبد الله: "ابْلَادْ المخَالي تَخْلَا عْلِيكْ بْرُوسْ الجِبَالْ"، فاستوطن جبل بني يزناسن[2] حتى دفن به، وترك ذريته حوله وفي حرمه، والمخَالي ما تَعْلِفُ فيه الدواب، وكان الأمر كما قال.

ولد ببغداد سنة سبعين وأربعمائة، وتوفي بها سنة نيف وستين وخمسمائة[3]، وكان في الفقه إماما وفي التصوف لا يساما[4]، أقام في خرائب العراق خمسا وعشرين سنة لا يعرف الناس ولا يعرفونه، ومكث سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وأتاه الخضِر مرة وهو لا يعرفه، فقال: أقعد هنا حتى آتيك"، فأقام في ذلك الموضع ثلاث سنين، وأقام أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان على زي العلماء يتطيلس ويركب بغلة وتُحمل الغاشية بين يديه، ويجلس للوعظ على كرسي عال، وربما مشى في الهواء على رؤوس الأشهاد، ثم عاد وكان مع ذلك يقعد مع الفقراء ويفلي لهم ثيابهم، وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد، فيتعجب علماء العراق من حسن أجوبته.

قال ابن العربي: "من رجال الله رجل واحد وقد يكون إمرة في كل زمن الله، وهو القاهر فوق عباده، له الاستطالة على كل شيء سوى الله، شهم شجاع مقدام كثير الدعوى بحق، يقول حقا ويحكم عدلا، وكان صاحب هذا المقام عبد القادر الجيلاني ببغداد، وكانت له الصولة والاستطالة بحق على الخلق، كثير الشأن مشهور الذّكر، لم ألقه وقد درج، وقد رأينا من رجال الروائح جماعة، وكان عبد القادر منهم، يعرف الشخص بالشم جاءه محمد بن قائد، وكان يرى لنفسه حظا في الطريق فشمه نحو ثلاث مرات، ثم قال له: لا أعرفك، فكانت تربية في حقه، فعلت همة بن قائد حتى التحق بالأفراد الخارجين عن دائرة القطب، كالخضر والكروبيين المهيمنين في جلال الله المعتكفين في حضرته، ولا يعرفون سواه، ليس لهم بذواتهم علم عند نفوسهم، مقامهم بين الصوفية والنبوءة، وهو مقام جليل جهله أكثر الناس من طريقنا كأبي حامد وأمثاله فإن ذوقه عزيز، ولما دخل لهذه الحضرة وقال: تركت الكل ورائي وجئت إليه فرأيت أمامي قدحا، فغرت وقلت: لمن هذا؟ اعتمادا مني على أنه ما سبقني إليه أحد وإني من أهل الرعيل الأول،

---

[1] مطموس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

[2] تطل سلسلة بني يزناسن على سهل أنقا د الخصيب من الجهة الجنوبية والذي يعطي إنتاجا لا بأس به من الحبوب، كما يحتوي على نجود رعوية غربية، وجافة نسبيا لا تنتج سوى الشعير وبعض أشجار اللوز، وهي تمتدّ إلى مدينة "عيون سيدي ملوك"، كما أن جبال بني يزناسن تظهر شامخة منيعة بهامتها العتيدة تأبى الخضوع للتدخل الأجنبي، لذلك كانت ملاذا للمجاهدين الثائرين على التدخل الأجنبي بجميع أنواعه وأشكاله، كما كانت مأوى لكثير من الصلحاء المتعبدين. ينظر: أحمد الغزالي، مساهمة في البحث عن زوايا بني يزناسن – القادرية والبوتشيشية نموذجا- دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط،ط1، 2005، ص: 24، 25.

وتتوزع جبال بني يزناسن بين تلمسان ووجدة، كما أن كثير من العشائر في تلمسان تعرف بهذا الاسم، خاصة بنواحي مغنية.

[3] ولد الشيخ الجيلاني سنة 470هـ وكانت وفاته سنة 561هـ، وأما عمره فواحد وتسعون، وقد جمع بعضهم ذلك كله، يعني تاريخ الولادة والوفاة والعمر في بيت مفرد، فقالوا:

إنَّ بَازَ الله سُلطَان الرّجال // جَاءَ في عِشق ومَاتَ في كَمَالٍ

وعلى هذا فكلمة (عشق) عددها بحساب الجمل هو: 470، وهو تاريخ الولادة، وكلمة (كمال) عددها: 91، وهو قدر العمر، وإذا أضفنا كلمة (عشق) مع كلمة (كمال) يكون الحاصل من العدد هو: 591، وهو تاريخ الوفاة. ينظر: عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص: 141.

[4] كان الجيلاني شيخا صوفيا وفقيها حنبليا، وكانت تعرض في مجلسه الفتاوى الغامضة، والمسائل الفقهية المستعصية، فيجيب عليها بسرعة البرق، وقد تصدى الشيخ بمدرسته في بغداد للتدريس والفتوى والوعظ، مع الاجتهاد في العلم والمجاهدات الروحية، فذاع صيته وجمع الله قلوب عباده على حبه، وإليه انتهت رئاسة العلم والتربية والتصوف والدعوة إلى الله بالعراق بل تعداها إلى العالم الإسلامي برمته، يقول محمد غسان النصوح عزقول:"كان يتكلم في ثلاثة عشر علما، وكان يقرأ عليه بمدرسته في طرفي النهار دروس في التفسير، وعلوم الحديث، والمذهب، والخلاف، والأصول والنحو، وكان يقرأ بالقراءات بعد الظهر، وأفتى على مذهب الإمام الشافعي، ثم أفتى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وكانت فتاواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم اشدّ الإعجاب، فيقولون سبحان من انعم عليه". ينظر: عبد القادر الجيلاني، رسالة في الأسماء العظيمة إلى الله، ص: 15.

فقيل لي هذا قدم نبيك، فسكن روعي، فسئل عن عبد القادر، فقال: ما رأيته في الحضرة، فقيل ذلك لعبد القادر، فقال: كنت في المخدع ومن عندي خرجت له النوالة يعني الخلعة".

قال ابن عربي: "وكان كما قال، وإنما قال في المخدع ولم يسم المكان عينه بهذا الاسم ليعلم بخداع الله محمد بن قائد أنه ما رأى عبد القادر في الحضرة في معرض التباسه عليه، فإن حضرة ابن قائد في هذه الواقعة حضرته الخاصة به من حيث معرفته بربه، لا حضرة الحق من حيث ما يعرفه عبد القادر أو غيره من الأكابر، فستر عنه مقام عبد القادر خداعا وقول عبد القادر: "من عندي خرجت له النوالة": يدل على أنه كان شيخه في تلك الحضرة وعلى يده استفادها، وجهل ذلك ابن القائد، فإن الرجال في ذلك كانوا تحت عبد القادر فيما حكي لنا من أحواله وأحوالهم، وكان يقول عن نفسه فيسلم له حاله فإن شاهده يشهد له بصدق دعواه، فإنه كان ذا حال بوثبة ربانية مدة حياته، وما انتقل إلى حال أبي السعود وإن كان تلميذه إلا عند موته، و هي الحالة الكبرى وكانت هذه الحال مستصحبة لأبي السعود طول حياته، فكان عبدا محضا لم تشب عبوديته ربوبيته، فإنه عرض عليه التصرف فأباه، والجيلاني تصرف وكان الأولى تركه".

وكان يتوضأ يوما فذرف عليه عصفور، فرفع رأسه إليه فخر ميتا فتصدق بثوبه وقال: إن كان علينا إثم فهذه كفارته، وقال رجل لفلان عندك طعامٌ وَذَهَبٌ جِئني بكذا منه، قال: كيف أتصرف في وديعة؟ قال: لا بد فأحسن الظن به وأتاه بما طلب، فبعد مدة جاء مكتوب من مالك الوديعة أن أحمل للشيخ كذا وعين القدر الذي أخذه الشيخ.

ورأى مرة نورا ملأ الأفق ونودي منه: "أنا ربك وقد أبحت لك المحرمات"، فقال: اخسأ يالعين، فانقلب النور دخانا وظلاما فقال: نجوتَ مني بفقهك في أحكام منازلاتك، وقد أضللتُ بهذا سبعين صدِّيقا.

وسقطت عليه حية وهو يدرس ففر من حضر، فدخلت من ذيله وخرجت من طوقه والتفّت على عنقه، فلم يقطع كلامه ولا تغير، ثم قامت بين يديه تكلمه بكلام لا يفهم وانصرفت، فسئل عنه فقال: "قالت اختبرت عدة أولياء فلم أجد كَثُبَّاتِك، فقلت: "ما أنتِ إلا دويدة يحركك القضاء والقدر".

وقال: أعطاني الله ثلاثين عهد وميثاقا ألّا يُمكَر بي"، فقيل له: هل آمنت بعد ذلك؟ قال: لا، بل حالي بعد العهد كقبله، وقال: احذروا ولا تأمنوا وخافوا ولا تركنوا، وفتشوا ولا تغفلوا، ولا تضيفوا إلى أنفسكم حالا ولا مقاما ولا تدَّعُوهما، ولا تخبروا بما أطلعكم الله عليه من الأحوال فإنه كل يوم هو في شأن". من «الكواكب الذرية»

قال سيدي أحمد زروق: "والجيلي حنبلي المذهب مُلُوكي الفتح، صرح بالقطبانية وظهر برهانها عليه حتى قال عز الدين بن عبد السلام: "بلغت كراماته مبلغ القطع"، ألف كتاب «فتوح الغيب»[1] وغيره. من« الكناش في العلم الفاش»

واسم أمه أم الخير أَمَةُ الجبار فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي الزاهد، وكانت من الصالحات المؤمنات[1])[2]، ثم أن المصنف وصفه بالصبابة[3] وهي الميل إلى الشيء حُبًّا له ونزوعا وعشقا واشتياقا، ونعته بكونه ممحوا في حضرة

---

[1] كتاب مصنف على شكل مقالات في وعظ وإرشاد السالكين في طريق الحق، بلغت ثمانية وسبعون مقالة. ينظر: عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، دط، 1973.

الحضرة الربانية، وهذا مما لا مريّة فيه لأنهτ من أعظم أهل الفناء في التوحيد، ومن يتتبع مواهبه وقصائده وجد غرائبه وفوائده، منها قصيدته التي أولها: نظرت بعين الفكر في حان حضرني، ومنها قصيدته التي أولها: سقاني الحب كيسان الوصال، وسنذكرها إن شاء الله فيما يأتي، وتقدم قوله: "رأيت ربي بعين قلبي"، وغير ذلك كثير، وإلى هذا الشيخ الكامل الرباني القطب الواصل أشار ابن باديس بقوله:

وَبالجِيلِي فَابْدَأْ فَذَلِكَ قُطْبُهُــمْ	وَمِنْهُ اسْتَمَدُّوا فِي الإِضَاءَةِ وَالقَبْــسِ
فَفِي المهْدِ أَنْوَارُ العِنَايَةِ أَشْرَقَــتْ	إِذِ الثَّدْيُ يَقْضِي يَومَ شَكٍّ عَن المسِّ
وَوَفَا بِعَهْدِ الأُمِّ في الصِّدقِ فَارْتَقَــا	إلى حَالَةِ عَزَّت عَن الخَلْقِ والإلسِ
تَضَلَّعَ مِن عِلْمِ الحَقِيقَةِ بَعدَمَــا	تَدَرَّعَ مِن عِلمِ الشَّرِيعَةِ بِالتِّــرْسِ
وأضحى أميرُ الأولياءِ بعَصْــرِهِ	لَـهُ الحُكْمُ والتَّصْرِيفُ في المنْـحِ و الحَبْـــسِ

قال الشارح: الإلس: الخيانة والخداع والغدر والكذب والسرقة وكلها هنا محتملة، وباقي الأبيات ظاهر مما يذكر، والله أعلم، روى أن أمه المذكورة أخبرت أن الشيخ في صغره كان لا يرضع من ثديها في نهار رمضان، وأن الهلال غمر أوّله، فجاء الناس يسألونها فقالت: "لم يلتقم الثدي اليوم"، ثم اتضح أنه من رمضان، فاشتهر في البلدان أن أبناء الأشراف لا يرضعون في نهار رمضان، وكان الذباب لا يصيبه وراثة من جده المصطفى.

روى أنه قيل له: "على ماذا بنيت أمرك؟ فقال: على الصدق، وما كذبت قط ولا في المكتب"، وقال: "خرجت وأنا صغير يوم عرفة أشيع البقر، فقالت لي بقرة: يا عبد القادر ألهذا خلقت ألا والله ما لهذا خلقت، فرجعت فزعا، وصعدت السطح، فرأيت الناس بعرفة، فقلت لأمي هبيني لله تعالى أقرأ ببغداد، وأخبرتها بما رأيت، فدفعت لي أربعين دينارا من إرث أبي وأذنت لي وعاهدتني على الصدق في أحوالي، وقالت: خرجت عنك لله تعالى، فهذا وجه لا أراه إلى يوم القيامة، فسافرت فاعترض القافلة ستون فارسا ونهبوها، فقال لي فارس: يا فقير ما معك؟ فقلت: أربعين دينار مخيطة في دَلَقي، فانصرف، ثم مرّ بي آخر فسألني فأجبته، فأخبر المقدم، فأتاني فسألني فأجبته، وفتق الدلو، وقال: ما حملك على الإقرار؟ فقلت: عهد أمي ولا أخونه، فبكى وقال: أنت لا تخون عهد أمك وأنا أخون عهد ربي منذ كذا وكذا سنة، فتابوا وردوا عليّ القافلة، وكانوا أول من تاب على يده τ ".

وروى أنه لما اشتهر أمره اجتمع مائة من كبار علماء بغداد وأذكيائهم ورتبوا مائة مسألة ليسأله كل واحد عن مسألة غير مسألة الآخر في سائر الفنون ليقطعوه، فلما حضروا المجلس أطرق الشيخ وخرجت من صدره بارقة نور فمرت على صدور أولئك المائة، لا تمر بواحدة منهم إلا بهت واضطرب ثم صاحوا ومزقوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم وصعدوا فوق الكرسي ووضعوا رؤوسهم على رجليه، وضج المجلس وضجت بغداد، فجعل يضم كل واحد ويقول:

[1] كانت والدته أم الخير سيّدة ورعة تقية ورثت عن والدها الورع وأورثته لوالدها، وقد عملت الوالدة على أن يشب الولد على ما يؤهله للجلوس على بساط الصلاح، ويبدو أن الشيخ الجيلاني نشأ يتيما من جهة الأب. ينظر: يوسف زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، ص: 36.

[2] الكلام من (فمن مناقب هذا الشيخ ما حكاه الشنطوفي – إلى– وكانت من الصالحات المؤمنات) ساقط في (ب) و(ج).

[3] للشيخ الجيلاني قصيدة "ما في الصبابة" نسوق منها هذين البيتين: مَا فِي الصَّبَابَةِ مَنهَلٌ مُستَعذَبُ إِلاَّ وَ لِي فِيهِ الأَلَذُّ الأطْيـبُ
أَوْفي الوِصَالِ مَكَانَةٌ مَخْصُوصَةٌ إِلَّا وَ مَنزِلَتِي أَعَــزُّ وَ أَقْــرَبُ

- ينظر: يوسف زيدان، ديوان الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 77.

مسألتك كذا وجوابها كذا، حتى أتى على آخرهم، وقالوا: فقدنا جميع ما نعرفه من العلم حتى كأنه نسخ منا، فلما ضمنا إلى صدره رجع إلى كل منّا ما نزع منه، وذكر لنا أجوبة لا نعرفها.

وحضر يوما مجلسه أبو الفرج بن الجوزي ففسر الشيخ آية وذكر فيها وجوها، وإلى جنب أبي الفرج من يسأله: أتعرف هذا القول؟، فيقول: نعم، إلى أن بلغ أحد عشر وجها يعرفها أبو الفرج، ثم زاد الشيخ حتى انتهت إلى أربعين وجها، وعزى كل وجه لقائله فاشتد تعجب الشيخ أبي الفرج من شدة علم الشيخ، ثم قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، نترك القال ونرجع إلى الحال، فاضطرب الناس اضطرابا كثيرا، وخرق أبو الفرج ثوبه.

وقد روى عنه الثِّقات من جهة أنه قال و هو جالس على منبر وعظه يوما: "قدمي هذه على رأس كل ولي لله"[1]، قالوا: فلم يبق ولي لله تعالى في المشرق ولا في المغرب، ولا من وراء السد وفي جزائر البحر المحيط ولا في جبل قاف إلا مد عنقه في تلك الساعة، إلا رجلا واحدا في أصبهان، لم يتأدب مع الشيخ فسلب حاله، (وسمعه الرفاعي من بلدة أم عبيدة فطأطأ رأسه وقال: وعلى رقبتي وذلك في القرن السادس، وقال أنا مُتّهم اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك أني سمعت وأطعت)[2]، وقد روى أبو محمد صالح أن الشيخ أبا مدينτ مد عنقه في بلاد المغرب فسأله أصحابه عن ذلك فقال: أن الشيخ عبد القادر قال في هذه الساعة: "قدمي على رقبة كل ولي"، فأرّخ أصحابه ذلك اليوم حتى قدم المسافرون من أرض العراق، فأخبروا بقوله ذلك في اليوم بعينه، (وكذا أبو محمد عبد الرحمن الطفسونجي حكى بها، وكذا أبو محمد بن عبيد ببلده، وكذا حياة بن قيس الحرّاني بها، وكذا الشيخ سويد السنجاري بها، وكذا رسلان الدمشقي بدمشق)[3]، وكذلك حكى عن سائر الأولياء في سائر البلدان رضي الله عنهم أجمعين وأنالنا شيئا من بركاتهم. كلام [كذا]τ.

قال الشيخ سيدي أحمد زروق في «قواعده»: قال أبو محمد عبد القادر ما قال لأنه جمع من علو النسب وشرف العبادة والعلم ما لم يكن لغيره من أهل وقته.(وكذا قال أبو يعزى أن علمه ونسبه ميزاه على الأولياء تمييزا واضحا، وأن المشرق ليفضل المغرب به، فسلم عليه منّي واسأله الدعاء وقل له لا تنسى أبا يعزى من قلبك)[4]، ألا ترى ما روى من احتلامه في ليلة واحدة سبعين مرة في الشتاء واغتساله لكلها، وفتياه لملك حلف ليعبدنّ الله بعبادة لا يشاركه فيها غيره، بإخلاف المطاف بعد وقوف الكل دونه في ذلك.

ولكونه جمع بين الشرف الطيني والديني لا تلحق رتبته بحال، وأخرج نفسه من البين، ومن كلامه المؤذن بعلو مقامه[5]: "ما دمت تراعي الخلق لا تهتدي لعين نفسك، وما دمت تراعي نفسك فأنت محجوب عن ربك". وقال: "من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتلمذا له خرج عن رعونات نفسه، وذلك من أعلى رياضة النفس، بل أعلى من الجوع والسهر والعزلة"، وقال: "لا يصلح لمجالسة الحق إلا المتطهرون من نفس الزلات، ولا تفتح أبوابه تعالى إلا لمن خلا عن الدِّعَا والرعونات"، وقال: "الهمّة أن يتعرّى العبد بنفسه من حب الدنيا وبروحه عن

---

[1] من أشهرعبارات الشيخ الجيلاني –تقدّمت الإشارة إليها – ، ينظر أيضا: الشيخ عبد القادر الجيلاني، السفينة القادرية، ص: 29 .

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[5] معظم ما ذكر من كلامه ساقط في (ب) و(ج).

التعلق بالآخرة، وبقلبه عن إرادته غير مراد ربه، وبسره عن لمح الكون أو متطوره بباله"، وقال: "لا يكمل الفقير إلا بتجريد التوحيد مع الوقوف على قدم العبودية لا بشيء ولا لشيء"، وقال: "من عرف من أين جاء عرف إلى أين يصير، وهنا أسرار لا تفشى، وقال: "لا تشكون ضرا نزل بك لغير الله، [وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ [وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]][الأنعام/17]، واحذر أن تشكو ضيق رزقك وعندك قوت يوم، فربما عسر عليك أسباب الرزق عقوبة لك على كفرانك".

وقال: "النعم واصلة إليك بالقسمة اجتلبتها أم لا، والبلوى حالة بك وإن كرهتها، فسلم لله في الكل يفعل ما يشاء، فإن أتتك نعمة فاشتغل بالذكر والشكر، أو بلوى فبالموافقة والصبر، وأعلى منها الرضى والتلذذ بالقضاء"، وقال: "علامة ابتلاء العبد على وجه العقوبة، عدم الصبر عند البلاء، والشكوى للخلق، وعلى جهة التكفير والصبر وعدم الضجر، وعلى وجه رفع الدرجات الرضى والموافقة والسكون تحت جريان الأقدار".

وقال: "دوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى، ليكونوا عاكفين على مناجاته، وإذا رأى الحق ميل إلى أهل أو مال أراحه منها غيرة عليه"، وقال: "قد يلطف الحق عبده ويفتح قبالة قلبه باب الرحمة والمنة، فيرى بعين قلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من مطالعة الغيوب والقرب والخطاب اللطيف، والوعد الجميل، ونحوها، ثم في لمح البصر يغير ذلك عليه ويفتح عليه باب البلاء والمحن والهم والحزن، فيصير متحيرا منكسرا إن تأمل ظاهره وجد ما يسوئه، أو باطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل كشف ما به من الضرّ لم يجب، وإن طلب الرجوع إلى الخلق لم يمكّن، وإن عمل بالرخص تسارعت به العقوبة وسلط عليه الأذى وإن طلب الإقالة لم يقل، وإن زاد التنعم بما به من البلاء لم يعط ذلك، فيشتد البلاء، وتأخذ النفس في الذبول والذوبان، حتى يفني أوصاف بشريته ويصير روحا فقط، فهناك يسمع النداء من قلبه: [ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ][ص/42]، فيرد الله عليه أزيد من تلك الخلع ويتولى تربيته بنفسه ، فلا تعلم ما أخفى لهم من قرة أعين".

وقال: "إذا سألت ربك حاجة فتعامى عن الجهات كلها حال طلبك، ولا تنظر إلى جهة معينة فإن ربك غيور، فلا يفتح عليك باب فضله وأنت محجوب عنه ناظر إلى جهة أحد من عبيده"، وقال: "إنما يحب الحق عبده في كل ما طلب منه رحمة منه وشفقة عليه أن يغتر بذلك فيتعرض للمكر به ويغفل عن آداب الخدمة وكما أنه تعالى دعى عبده إلى فعل كل مأمور، فلم يفعل إلا بعصا دعائه فلم يجبهإلا عطاء من ربك جزاء وفاقا.

وقال: "الإغترار بصفاء الأوقات في طيّه آفات"، وقال: "إنما كلامه على رجل وراء جبل قاف أقدامهم في الهوى وقلوبهم في حضرة القدس تكاد تحترق في شوقهم إلى ربهم"، ولما احتضر قال: "ليت أمي لم تلدني، وكان تحت رأسه مخدة، فقال: أنزلوا حذي عنها وضعوه على التراب لعل الله يرحمني، ثم قال: هذا هو الحق الذي كنا عنه في حجاب"، من «الكواكب».

وقال الشيخ أبو سعيد القيلوبي: لما قال الشيخ سيدي عبد القادر: "قدمي على رقبة كل ولي لله"، تجلى الحق سبحانه على قلبه وجاءته خلعة من رسول الله ρ على يد طائفة من الملائكة المقربين ألبسها بمحضر من جميع الأولياء، من تقدم منهم ومن تأخر، الأحياء بأجسادهم والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافين

مجلسه واقفين في الهواء صفوفا صفوفا، حتى انسدّ الأفق بهم، ولم يبق ولي في الأرض حتى حنا عنقه وقال الشيخ سيدي بقا بن بطّو، لما قال الشيخ τ: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"، قالت الملائكة: "صدقت يا عبد القادر".

وقصد الولي الصالح أبو محمد بن يوسف بن المظفر العاقولي البغدادي الشيخ عدي بن مسافر فقال له: من أين أنت؟ فقال له: يا سيدي من بغداد من أصحاب الشيخ سيدي عبد القادر، فقال: بخ، بخ، ذلك قطب الأرض الذي وضعت ثلاثمائة ولي وسبعمائة غيبي ما بين جالس في الأرض وما في الهواء أعناقهم له في وقت واحد، حين قال: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"، قال العقولي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدة أتيت أم عبيدة لأزور الشيخ أحمد الرفاعي، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، فقال: صدق.

وقال الشيخ عوض: قصدت أنا وأبو محمد الشنبكي وأبو محمد عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي البغدادي الصوفي، وأبو عبد الله مبارك بن محمد الجيلاني من بغداد إلى زيارة الشيخ أبي محمد ماجد الكومي بجبل حمدين فلما أتيناه أكرمنا وأقمنا عنده أياما، فلما استأذناه في الانصراف قال: أزودكم بما تقولون عني: لما قال الشيخ سيدي عبد القادر "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله في الأرض" في ذلك الوقت إلا حنا عنقه تواضعا، واعترفوا بمكانته، ولم يبق ناد من أندية صالحي الجن في ذلك الوقت إلا حنا عنقه، وقصده وفد الصالحين من جميع الآفاق مسلّمين عليه وتائبين على يديه وازدحموا في بابه، قال: فودعناه وأتينا إذن لزيارة الشيخ مطرق في أنفسنا لإعظام ما سمعناه من الشيخ ماجد، فلما دخلنا عليه رحب بنا وقال: صدق أخي ماجد فيما أخبركم به عن الشيخ عبد القادر τ.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن عمر البغدادي الواعظ المعروف بابن الغزال بجامع المنصور ببغداد في رجب سنة أربع عشرة وستمائة قال: زرنا الشيخ أبا عبد الرحمن بن الشيخ محي الدين أبي محمد سيدي عبد القادر رضي الله عنهما بمدرسة والده بباب الأزج سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وسألته: هل حضرت المجلس الذي قال فيه والدك: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"؟ قال: نعم، وكان فيه زهاء عن خمسين شيخا من الأعيان، ورأيتهم كلهم واضعين أعناقهم، فلما دخل الشيخ داره وانصرف من كان حاضرا، لم يبق إلا الشيخ مكارم والشيخ محمد الخاص والشيخ محمد الغربي وتلميذه داوود، فجلست أنا وإخوتي عبد العزيز وعبد الجبار إليهم، فقال الشيخ مكارم: أشهدني الله عز وجل في هذا اليوم أنه لم يبق أحد ممن عقد له ولاء الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولا بين يدي الشيخ τ ، وتاجُ الغَوْثِيَة على رأسه، ورأى حلة التصريف العام النافذ في الوجود وأصله ولاية وعزلا مُعَلَّمَةً بطراز الشريعة والحقيقة، وسمعه يقول: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"، ووضع رأسه لذلك، قلت له في وقت واحد [كذا][1] حتى الأبدال العشر خواص المملكة سلاطين الوقت، قلت: من هم؟ قال: الشيخ بقا بن بطّو، والشيخ أبو سعيد القليوني، والشيخ علي الهيتي، والشيخ عدي مسافر، والشيخ موسى الزولي، والشيخ أحمد بن الرفاعي والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ أبو محمد عبد الله الصبري، والشيخ حياة بن قيس الحرّاني، والشيخ أبو مدين المغربي رضي الله عنهم أجمعين، وقال الشيخ محمد الخاص والشيخ المغربي له صدقت، قال: فحفظت أنا وإخوتي ذلك وقيدناه عندنا. قال ابن الغزال: فانصرفت من عنده، وأتيت أخويه عبد الجبار وعبد العزيز وسألتهما عن ذلك فأخبرني بمثل ما قال، ولم يخلا منه شيء.

---

[1] بياض في الأصل بمقدار كلمتين، وساقط في (ب) و(ج).

وقال الشيخ خليفة الأكبر أخبرنا أبو محمد الحسن بن أبي القاسم بالقاهرة سنة وستين وستمائة، قال أخبرنا جدي محمد بن أبي القاسم ببغداد وكان كثيرا الرؤيا لرسول اللهρ يقول: رأيت رسول ρ ، فقلت يا رسول الله قال الشيخ سيدي عبد القادر: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"، قال: فقد صدق الشيخ عبد القادر وكيف لا وهو القطب وأنا أرعاه.

ودخل رجل على الشيخ لولو الأرميني فوجده يتكلم على الخواطر قال: فقلت في نفسي ترى لمن ينتسب من المشائخ؟ فقال مسابقا لخاطري: "ياعطاء شيخي الشيخ عبد القادر أترى قال قدمي؟ وذكره ووضع ثلاثمائة وثلاثة عشر وليا لله عز وجل رؤوسهم في جميع آفاق الأرض، منهم في ذلك الوقت بالحرمين الشريفين سبعة عشر رجلا، وبالعراق ستون، وبالعجم أربعون، وبالشام ثلاثون، وبمصر عشرون، وبالمغرب سبعة وعشرون، وباليمن ثلاثة وعشرون، وبالحبشة أحد عشر، وبسد يأجوج ومأجوج سبعة، وبواد سرنديب سبعة، وبجبل قاف سبعة وأربعون، وبجزائر البحر المحيط أربعة وعشرون رجلا رضي الله عنهم، وأعاد علينا من بركاتهم آمين.

ذكر في الآثار: أن الشيخ لم يقل ما قال إلا بأمر الجبّار، قال أبو البركات قلت لعمي عدي بن مسافر: أعلمت أحدا من المشائخ المتقدمين، قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله غير الشيخ سيدي عبد القادر τ ؟ قال: لا، قلت: فما معناها، قال: هي مفصحة عن مقام الفردية في وقته، قلت: فلكل وقت فرد، قال: لم يأمر أحد منهم أن يقول هذا القول سوى الشيخ، قلت أوأُوجِزَ بقولها، قال: بلى، بل أُمِرَ، وإنما وضعت الأولياء رؤوسهم لمكان الأمر التي [كذا][1] الملائكة لم يسجدوا لآدم υ إلا لورود الأمر عليهم بذلك"، وقال محمد بن عُبادة: "قيل لشيخنا أبي سعيد القيلوبي وأنا أسمع هل قال الشيخ: قدمي وذكره بأمره؟، قال: بلى، قالها بالأمر لا شك فيه، وهي لسان القطبية، ومن الأقطاب في كل زمان من يؤمر بالسكوت، فلا يسعه إلا السكوت، ومنهم من يؤمر بالقول فلا يسعه إلا القول، فهو الأكمل في حال القطبية لأنه لسان الشفعة".

وقال علي بن أبي بكر: "لما قال الشيخ:"قدمي..الخ" صعد سيدي علي الهيتي على الكرسي وأخذ قدمه فوضعها على عنقه ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: لم فعلت ذلك؟ قال: لأنه أمر أن يقولها، وأذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردت أن أكون أول من يسارع إلى الانقياد له". وقال أبو محمد القاسم أبي عبيد الله: "لما أمر الشيخ أن يقول:"قدمي. الخ"، رأيت الأولياء في المشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعا، إلا رجلا بأرض العجم، فإنه لم يفعل فتورى عنه حاله".

وقال أبو عبد الملك بن أبي المعالي حضرت عند القدوة حياة ابن قيس الحرّاني يوم الجمعة من رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بجامع حرّان، وسأله أن يأخذ عليه عهد القدوة لنفسه، قال: أنت على رسم غيري، قال: قد تسمَّيت للشيخ عبد القادر لكن لم آخذ له خرقة من أحد، قال: قد عشنا زمانا مديدا في ظل جاه الشيخ، وشربنا كؤوسا هنيئة من منى عيان عرفانه، ولقد كان النَّفَسُ الصادق يصدر عنه فيسطيع شعاع نوره في الآفاق استطارة النار فتُقتبس منه أسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر بقول: "قدمي...الخ"، زاد الله تعالى جميع الأولياء نورا في قلوبهم، وبركة في علومهم، وعلول في أحوالهم، ببركة وضعهم رؤوسهم، وقد مضى إلى الله تعالى في

[1] بياض في الأصل بمقدار كلمة واحدة، وساقط في (ب) و(ج).

جملة السابقين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين". وقال ابن عربي، في «الفتوحات»: "إنما قال الجيلي هذه المقالة من باب التحدث بالنعم".

وقال أبو العباس البوني: وذكر من عاين الشيخ عبد القادر الجيلانيτ يذكر في الثُّلث الأوسط، وهو النصف من الليل عشرة أسماء، وهي: المحيط، العالم، الربّ، الشهيد، الحسيب، الفعال، الخلاق، الخالق، البارئ، المصوّر، وكيف أسرارها شاهد ورأى آثارها، حتى كان يتضاءل مرة ويعظم أخرى، ويرتفع في الهوى مرة حتى يغيب عن الأبصار، ويدور في الهوى مرة نحو ما شاهد من نسيم الأسرار، وأعانه على ذلك رحمه الله تعالى خالص صدقه وقوة يقينه وشدة همته وصلاح حاله".

ثم قال: "وكذلك عبد القادر إذا ذكر الأسماء وبطش قلبه معانيها ومغانيها يتضاءل تارة لعظمتها، ويرتفع تارة لعلوها وشرف شأنها، وهو في كلا الوجهين عارجا وصاعدا ومرتقيا"، وذكر أبو العباس المذكور خواص الأسماء المذكورة، وقال: "هذه الأسماء اللطيفة التي فيها اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ولأهل المكاشفة بها إلهام، وهي أعظم الأذكار لشرفها، وما استدام أحد ذكرها إلا كشف بها ويسر له المطلوب، ورزق المرغوب في الأمور العاجلة، ومن ذكرها في نصف الليل شاهد العجائب، ومداومتها تفتح الأسرار المكنونة، ولا يستديم أحد ذكرها إلا ويرى من أمور العالم العلوي، ونسيم الأسرار من الكون، ويسخر له كل عالم، وأهل التصوير، وهي الكلمات التامات". من «شمس المعارف».

(قلت، وذكر لي الشيخ البركة سيدي محمد بن أبي مدين بن عمر بن منصور بن سيدي عمر بن عيسى التراري الراشدي الدار الصنهاجي النجار، أن الشيخ العالم أبا زيد بن عبد الرحمن الهواري بن الكيحل ذكر له هذه الأسماء وأمره بذكرها، كما أمرني هو به، وقال: تصلي العشاء وقبل الشفع تستغفر 60 مرة وتصلي على النبي ρ 400 وإن اقتصرت 160 ثم تذكر الأسماء العشرة 100 مرة فإن لها خيرا كثير والتيسير.

قال: وكنت أزور ضريح الولي الصالح سيدي علي بن موسى الزواوي واستشيخته لما كان يقضي سبع حوائج لمن يزروه، فوقع في قلبي وسوسة في عزم الذكر وثمرته، فرأيت الولي سيدي علي المذكور في النوم τ فقال: صدقك عبد الرحمن فيما قال لك فأزال ما في قلبي، قال: ثم رأيت الجيلي τ فزادني تصديقا وقوّى يقيني في الذكر المذكور كما ذكر لي الشيخان، ثم قال لي سيدي محمد: يلعن من كذب في شيء مما ذكرت لك، ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، قيل للشيخ عبد القادر τ: إنا نصوم كما تصوم، ونصلي كما تصلي، ونجتهد مثل ما تجتهد، ولا نرى من أحوالك شيئا، فقال: زاحمتمونا في الأحوال لا تزاحمونا في المواهب، والله ما أكلت حتى قيل لي بحقي عليك كل، وما شربت حتى قيل لي بحقي عليك أشرب، وما فعلت شيئا حتى أمرت.

فجميع ما نقلته عن الشيخ في الطرز هو مسلسل مسند عن الثقات، إلا أني اقتصرت على معاصره اختصارا، والله يوفقنا لإتباعهم ويجعلنا من أتباعهم ويحشرنا معهم تحت لواء متبوعهم بجاهه ρ وشرف وكرم ومجد وعظم.)[1]

[1] الكلام من (قلت، وذكر لي الشيخ البركة -إلى- وشرف وكرم ومجد وعظم) ساقط في (ب) و(ج).

[في ذكر الجنيد "تاج العارفين" ومناقبه وحكمه وأقواله:]

قوله: "والجنيد والسَّرِي خطب"، لما أن ذكر رحمه الله بعض صدور التابعين، وبدور سينية الصالحين، ومراده أن يعدّ بعض من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، كرر بذكر هذين الإمامين المعتبرين، فأما الجنيد فكنيته أبو القاسم بن محمد بن الجنيد، مولده ومنشأه بالعراق[1]، وتوفي سنة سبع وستين ومائتين[2]، وقبره ظاهر ببغداد في الشُّونيزيَّة يزوره الخاص والعام، روى أنه قال: " رأيت في المنام كأني واقف بين يدي الله تعالى، فقال لي: يا أبا القاسم من أين لك هذا الكلام الذي تقوله؟ فقلت: لا أقول إلا حقا، فقال صدقت". من «مناقب الأبرار».

فهو إمام المشايخ وسيد الطائفة، كان ورده في يوم أربعمائة ركعة[3]، وثلاثون ألف تسبيحة وما نزع ثوبه للفراش أربعين سنة، ومنذ عشرين سنة ما أكل إلا على سبع ليال.

وقال صاحب كتاب «مناقب الأبرار»[4]: روى أن الجنيد قال: "ما أخذنا التصوف على القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وترك المألوفات والمستحسنات"، وقال: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"، وقال: "الطريق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى سنة رسول اللهρ"، وقال: "الغفلة عن الله أشد من دخول النار".

وقال: "بني الطريق على أربع: لا تتكلم إلا عن وجود، ولا تأكل إلا عن فاقة، ولا تسكت إلا عن خشية، وقال: لا يسمى عبد عاقلا حتى لا يظهر على جوارحه شيء ذمه ربه"، وقال: "من زعم أنه يعرف الله وهو كاذب ابتلاه بالمحن، وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن تنبه وانقطع إليه وحده كشف عنه المحن، وإن داوم السكون إلى الخلق نزعت من قلوبهم الرحمة عليه وألبس لبس الطمع فيهم، فتصير حياته عجزا وموته كمدا وآخرته أسفا"، نعوذ بالله من الركون لغيره".

وقال: "أقل ما في الكلام سقوط هيبة الربّ جل جلاله من القلب، والقلب إذا عرّي من الهيبة عرّي من الإيمان"، وقال: "ما دام الشاكر يطلب من الله المزيد بشكره فهو غريق في حظ نفسه، إن الشكر أن يرى العبد أنه ليس بأهل أن تناله الرحمة لشهود كثرة معاصيه"، وقيل له: "من أين استفدت هذه العلوم التي لم تسمع من مشايخك؟ قال: من قعودي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة، وقال: إذا صدق المريد أغناه الله عن حفظ النقول بنور يجعله في قلبه، يفرق به بين الحق والباطل"، وقال: "لو كان العلم الذي أتكلم به من عندي لفنى، لكن من حق بدا وإلى حق يعود".

وقال: "على العاقل ألا يفقد نفسه من ثلاث مواطن، موطن يعرف فيه حاله؛ أفي زيادة أو نقص، وموطن يستحضر فيه عقله لرؤية بحار التدبير عليه، وكيف تغلب عليه الأحكام، وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه وإلزامها".

---

[1] لا تذكر المصادر الصوفية التي أرّخت للجنيد وحفظت أقواله، السنة التي ولد فيها، وقد اعتمدت د/سعاد الحكيم على بعض القرائن التاريخية لتحديد الوقت المحتمل لولادته، حيث اعتمدت سنة (215هـ/830هـ) تاريخا لولادته، وهو التاريخ الذي سبق واعتمده غيرها من الباحثين. ينظر: سعاد الحكيم، تاج العارفين الجنيد البغدادي، ص: 12.

[2] كذا في (ب) و(ج)، و الصحيح أنّ وفاته كانت في شوّال، آخر ساعة من يوم الجمعة سنة 297هـ ببغداد، ودفن بالشُّونيزيَّة عند خاله سريّ السقطي. ينظر: المرجع نفسه، ص: 29. و نفس التاريخ ذكرته مصادر أخرى منها، هي: – عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، ص:49. / –أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص: 18.

[3] يقول أحد تلامذته: كان الجنيد يصلّي يوميا حوالي الثلاثمائة ركعة أثناء النهار في دكّانه. ينظر: سعاد الحكيم، تاج العارفين الجنيد البغدادي، ص: 25.

[4] النص ساقط من أوله إلى آخره في (ب) و(ج).

وقال: " احفظوا ساعتكم فإنها زائلة غير راجعة والحسرة والغفلة من فوتها واقعة، وَصِلُوا أورادكم تجدوا نفعها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدنيا، فإن قليلها يشغل عن كثير الآخرة، وقال: "لا يرتقي في الدرجات من لم يحكّم فيما بينه وبين الله أول البدايات وهي الفروض الواجبة ثم الأوراد الزاكية، ومطايا الفضل وعزائم الأمر، فمن أحكمها منّ الله عليها بما بعدها"، وقال: "لا تقوم بما عليك حتى تترك مالك، وليس شيء أعز من الدنيا، ولا يقوى على ذلك إلا نبي أوصديق".

وقال له رجل: من أصحب؟ فقال: من تَقْدِر أن تُطلعه على ما لا يعلمه إلا الله، ومن تقدر أن ينسى ماله ويقضي ما عليه"، وقال: "نُجْحُ قَضَاءِ كُلِّ حاجة في الدنيا تركها"، وقيل له: "متى يصير داء النفس دواءها؟، فقال: إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواؤها" وسئل عن الخشوع، فقال: مالك القلوب لعلام الغيوب"، وسئل عن التواضع، فقال: "خفض الجناح ولين الجانب"، وقال τ: "مكابدة العزلة أيسر من مداواة الخلطة، ومن أرد أن يسلم له دينه ويستريح قلبه وبدنه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة، فإن ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا"، قال الله تعالى: [وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ [حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ]][التوبة/118]، (منه).

[في ذكر مناقب السَّرِي السَّقْطِي وتصوفه ومآثره:]

(وأما السَّرِي بن مغلس السقطي، فهو خال الجنيد وشيخه وكان τ أوجد أهل زمانه في الورع والأحوال السَّنِيَّة وعلوم التوحيد، قال في «مناقب الأبرار»: "وهو أول من تكلم فيها ببغداد ومات فيها سنة سبع أو ثلاث وخمسين ومائتين[1]، وسبب زهده أنه كان في السوق يتردد إلى معروف الكرخي رضي الله عنهما، فجاءه يوما وهو في حانوته ومعه صبي يتيم، فقال اكسي هذا اليتيم فكساه، ففرح، ففرح بذلك معروف، ومر أيضا بجارية سقط منها شيء فانكسر فارتاب فأعطاها بدله، والكرخي مارا ، فأعجبه صنعه فدعى له وقال: بَغَّضَ الله تعالى إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه، قال السّري: فقمت من الحانوت وليس شيئا أبغض إليّ من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركة معروف"، قال السري: "عجب لضعيف كيف يعصي قويا".

وقال: "من ذكرني بسوء فهو في حال إلا رجل تعمدني بشيء يعلم مني خلافه"، وقال: "من أحب أن يسم له دينه، ويقل همه وغمه، فليعتزل الناس"، وقال: "لولا الجمعة والجماعات سددت على نفسي الباب". وقال: "صحبت شيخا فأقمت سنة لا أسأله عن شيء"، ثم قلت: "ما المعرفة التي ما فوقها معرفة؟، قال: أن تجد الله أقرب إليك من كل شيء، وأن ينمحي من سرك كل شيء، قلت: وما يوصل إلى هذا؟، قال: زهدك فيك ورغبتك فيه، فكان كلامه سبب نفعي".

وقال الجنيد: "دخلت على السري يوما وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: جاءتني البارحة الصبية فقالت: يا أبتي هذه ليلة حارة، فأغلق هذا الكوز[2] لعله يبرد فتفطر عليه، ثم حملتني عيناي فنمت فرأيت في منامي

[1] يذكر عبد الرحمن السلمي في "الطبقات الصوفية" ص: 19. أنه توفي سنة: 251هـ.

[2] الكوز: إناء من فخار له عروة وبلبل وهوأصغر من الإبريق. ينظر: المعلم بطرس البستاني، قطر المحيط، ص:1896.

جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، وتناولت الكوز وضربت به الأرض، قال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يسمه ولم يرفعه حتى عفا عليه التراب".

وقال τ: "أقوى القوة عليك نفسك، ومن عجز عن آداب نفسه كان على أدب غيره أعجز، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه، ومن خاف الله تعالى خافه كل شيء"، وثلاثة من أخلاق المؤمنين: القيام بالفرائض، واجتناب المحارم، وترك الغفلة، وقال: "ثلاثة من أخلاق الأبرار يبلغن العبد رضوان الله تعالى: كثرة الاستغفار، وخفض الجناح، ومداومة الصدقات، وثلاثة من أبواب سخط الله تعالى: اللعب والاستهزاء والغيبة، وأما عمود الدين وذروته وسنامه فحسن الظن بالله تعالى".

وقال τ: "ما رأيت شيئا أحفظ للعمل ولا أفهم للقلب ولا أقرب للسالك ولا أسرع لهلاك العبد ولا ألزم لطريق الرياء والعجب من قلة معرفته بذنوبه، إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجد فيه الزهد والورع وإلا ارتحلا". وقرأ بين يديه قول الله تعالى: [وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً][الإسراء/45]، فقال لأصحابه: أتدرون ما الحجاب؟ هو الغيرة ولا أحد أغير من الله تعالى، ومعنى حجاب الغيرة أنه قد يجعل للكافرين أهلا لمعرفته، صدق النبيρ ، وقال الجنيد τ: "دفع إلى السري رقعة وقال: هذه خير لك من سبعمائة حديث أوقصة، وإذا فيها:

وَلما ادَّعَيتَ الحُبَّ، قَالَتْ كَذَبْتَنِي	فَمَالِي أَرَى الأَعْضَاءَ مِنكَ كَوَاسِيَـا
فَمَا الحُبُّ حَتَّى يَلْصِقُ القَلبُ بالحَشَـا	وَتَذْبُلُ حَـتَّى لَا تُجِيـبَ المنَادِيَـا
وَتَنْحَلُ حَـتَّى لَا يُـــرَى لَـكَ فِي الهَــــوَى	سِوَى مُقْلَـةٍ تَبْكِي بهَا وَتُنَاجِيَـا

ثم قال: " لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر يا أنا"، وقال علاّل الخيّاط: "كنت يوما جالسا مع السري فوافته امرأة، فقالت: يا أبا الحسن الله الله في إبني، وإني لأخشى أن يؤذيه السلطان، أنا في جيرانك وقد أخذا ابني الطائف البارحة، وأنا أخاف أن يؤذوه فإن رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه، قال: الآن فتوقعت أن يبعث إليه، فقام وكبّر وطوّل في صلاته، فسلم وقال: أنا في حاجتك، قال الآن، فما برحت حتى جاءت امرأة إليها فقالت لها: ألحقي فقد خلوا عن إبنك".

وقال ابن أبي الورد: "كان السريτ ورحمه يأمر بالوحدة والعزلة، وترك مجالسة الناس فاعتّل فعدتُه عيادة السنة، يعني بين كل ثلاثة أيام، فنظرت في وجهه فرأيت على لسانه شيئا، فهملت عيناي وسقط من دموعي على وجهه، ونظر إلي فقلت: يرحمك الله، أوصني بشيء أحفظه عنك، فقال: احذر أن تعرف الأسرار، لا تشتغل عن الله تعالى بمجالسة الأخيار، وكان ذلك آخر كلامه رحمة الله عليه"، من «مناقب الأبرار».)[1]

وروى أنه كان لا ينام ليلا اشتغالا بالذكر حتى أَلِفَتْهُ الجنّ ويحدثهم ويحدثونه. قال الغزالي: "كان السري أجود الناس، وكان بشر الحافي لا يأخذ من أحد أصلا إلا منه، ويقول: لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده، فأنا أعينه على ما يحب".

[1] الكلام من (وأما السَّرِي بن مغلس السقطي –إلى– وكان ذلك آخر كلامه رحمة الله عليه"، من «مناقب الأبرار».) ساقط في (ب) و (ج).

قوله: "خطب" كسر على حذف مضاف تقديره ذو، فيحتمل أن يعود على السّري الأقرب، أو عليه وعلى الجنيد وهو الأصوب بتقدير كلامه، والجنيد والسّري ذوا خطب جلي عند من يريد الاقتداء بهما في أهدى سبيل، لأن كلاهما يشفي الغليل وطريقهما تبري العليل، والله الموفق.

[الحلاّج شهيد الصوفية، قصة صلبه وقتله:]

قوله: "والحلاّج معه شُشترا" اسم هذا الشيخ الحسين بن منصور الحلاّج، أصله من فارس ونشأ بواسِط، كانτ من أهل الفناء في التوحيد، (وسبب تسميته بالحلاّج أنه قعد على دكان حلاّج مخزن قطن غير محلوج، فذهب صاحب الدكان لحاجة ثم رجع فوجد القطن كله محلوجا فاشتهر به، وهو صوفي من أهل الشطح[1]، أضاء في أفق المشرق بدره واشتهر في أقطار المغرب ذكره، ذو خوارق يبهر بها مجردة وعجائب استنّها محددة، ومع هذا اختلف فيه بين مكفر له، ومعتقد ولايته وهم الجمهور، منهم القشيري، وابن الحاج في «المدخل» وابن عبد السلام وغيرهم.

وكان شأنه التطوّر[2]، فلما طلب للقتل تطوّر للبيت فَعَلَاه، فأتاه الجنيد، وقال: فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك، فاخرُج وسلّم وانفُش واستسلم، ولما أخرج للقتل خرج يتبختر في قيده ويقول: "حسب الواجد إفراد الواحد"، ويترنم وينشد:

أُقتلُــوني يا ثِقَــاتي   إنَّ في قَتــلِي حَيَــاتِي
وَحَيَــاتي في مَمَــاتي   ومَمَــاتي في حَيَــاتي[3]

أشار به إلى معاد النفس. قال السهروردي: "وإياها عنا بقوله:

هَيكَلِيُّ الجِسمِ نُورِيُّ الصَّمِيمْ   صَمَــدِيُّ الرُّوح دَيَّــانٌ عَلِيــمْ
عَــادَ بالــرُّوحِ إلى أَربَــابــهَا   فَبَقَى الهَيكلُ في التُّــرْبِ رَمِيــمْ

ومن نظمه وهو مصلوب رحمه الله:

(مَنْ أَطْلَعُوهُ عَلَى سِرٍّ فَاحَ بِــهِ)   لم يَأْمَنُوهُ عَلَى الأَسْرَارِ مَا عَاشَــا[4]
وَعَاقَبُوهُ عَلَى مَا كَــانَ مِن زَلَــلٍ   وأَبْدَلُوهُ مَكَـــانَ الأُنْــسِ إيحَاشَــا

---

[1] الشطح: معناه عبارة مستغربة في وصف وَجْدٍ فاضَ بقوّته، وهاشَ بشدّة غليانه وغلبته. ينظر: السراج الطوسي، اللُّمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ص: 321.

والشطح أيضا: تعبير عما تشعر به النفس حينما تصبح لأول مرة في حضرة الألوهية، فتدرك أن الله هي وهي هو، ويقوم إذن على عتبة الاتحاد، ويأتي نتيجة وجد عنيف لا يستطيع صاحبه كِتمانه، فينطق بالإفصاح عنه لسانه، وفيه يتبين هذه الهوية الجوهرية فيما بين العبد الواصل والمعبود الموصول إليه، فيتحدّث على لسان الحق، لأنه صار والحقَّ شيئا واحدا.

والعناصر الضرورية لوجود ظاهرة الشطح هي: أولا: شدّة الوجد؛ ثانيا: أن تكون التجربة تجربة اتحاد؛ ثالثا: أن يكون الصوفي في حال سُكر؛ رابعا: أن يسمع في داخل نفسه هاتفا إلهيًّا يدعوه إلى الاتحاد، فيستبدل دوره بدوره؛ وخامسا: أن يتم هذا كلُّه والصوفي في حال من عدم الشعور، فينطق مترجما عما طاف به متخذا صيغة المتكلم و كأن الحق هو الذي ينطق بلسانه. ينظر: عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص: 10، 11.

[2] التطور: هو قدرة الولي على الانتقال من مكان إلى آخر، والوجود في مكانين في زمن واحد، وقد عالج هذا النوع من "الكريزمات" النابلسي في رسالة مخطوطة له، عنوانها: "المسلك الجلي في حُكْمِ تطور الولي". ينظر: يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، ص: 53.

ملاحظة: يطلق على هذا النوع من الكريزمات في الكتابات الصوفية التراثية المغاربية ب" أهل الطّيرة".

[3] في المصدر: ومَمَــاتي في حَيَــاتي وَحَيَــاتي في مَمَــاتي. ينظر: قاسم محمد عباس، الحلاّج، الأعمال الكاملة، رياض الرايس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2002، ص: 294.

[4] في المصدر: مَن لَم يَصُن سِرَّ مَولاهُ وسَيِّدِهِ   لم يَأْمَنُوهُ عَلَى الأَسْرَارِ مَا عَاشَا. ينظر: منشورات الجمل، الحلاج، الديوان –يليه كتاب الطواسين– ص: 48.

وسئل عن التصوف وهو مصلوب، فقال: "أهونُه ما تَرَى"، وكان يقول: "إذا دام البلاء بالعبد ألفه"، وذلك من رحمة الله بأهل النار من حيث لا يشعرون"، قال الحلواني: قُدِّم الحلاّج للقتل وهو يضحك، فقلت: "يا سيدي ما هذا الحال؟، قال: دليل الجفاء مع أهل الوصال".

ومن كلامه: "حجبهم بالاسم فعاشوا ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا"، قال بعضهم: "خرجت في ليلة مقمرة إلى زيارة قبر ابن حنبل، فرأيت ثَمَّ رجلا نائما فدنوت منه بغير علمه فإذا هو يبكي ويقول: "يا من أسكرني بحبه، وحيّرني في ميادين قربه، أنت المنفرد بالقدم، قيامك بالعدل لا بالاعتدال، وبُعدك بالعزّ لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتحال، فلا شيء فوقك فيظلك، ولا شيء تحتك فيقلّك، ولا أمامك شيء فيحددك، ولا وراءك شيء فيدركك، أسألك برحمة هذه الغربة المقبولة، والمراتب المسبولة، ألا تردّني إلى بُعد مااختطفتني عنّي، ولا تريني نفسي بعدما أحجبتها عنّي، فأكثر أعدائي في بلادك، والقائمين لقتلي من عبادك"، فلما أحسّ بي التفت، فإذا هو الحلاّج، فصعق وسقط وسال الدم على وجهه، فأشار إليّ أن أذهب، فذهبت وتركته. من «الكواكب».)[1]

قال الشاطبي τ: "كان الحلاّج من أكابر الأولياء وأصحاب المكاشفة والكرامة والحال والعلم، روى أنه لما غلبت عليه أحوال الشهود تعصّب عليه الفقهاء وسعوا به إلى المقتدر بالله وعملوا فيه عقدا شهدوا فيه كلهم وكتبوا فيه: شهد أربع وثمانون صدّيقا أن الحسين الحلاّج زنديقا، فلما رفعوه للملك أغلط الله كتبهم ووجدوه مكتوبا: شهد أربع وثمانون زنديقا أن الحلاّج صدّيقا، ولم يردّهم ذلك عنه، بل زادهم اغضابا حتى قتلوه وصلبوه بعدما قطّعوا يديه ورجليه وهو يضحك ويتمسح بدمه على وجهه لئلا يظهر فيه أثر الجزع". وزاد غيره أنه لما وقع دمه بالأرض صار يخط فيها ويكتب لا إله إلا الله الحلاّج ولي الله، وهذا لما امتلأ وعاءه بحبه وامتزج توحيده بلحمه ودمه لم يبق فيه محل فارغ لكتمه، فخلع العذار وباح بالأسرار وتقرب بنفسه للقريب واستعجل لقاء الحبيب، فتلقاه مولاه بالقبول وبلوغ المأمول".

(قال ابن بشار: "إن سبب قتل الحلاج أنهم وجدوا بالدينور كتابا بخطه: "إنه من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان"، فوجه إلى بغداد فأحضر وعرض عليه، فقال: خطّي، فقالوا: أتدَّعي الربوبية؟ قال: لا ولكن هذا عين الجمع، ما الفاعل إلا الله وأنا واليد آلة".

وقال ابن خلكان: لم يثبت عنه ما يوجب القتل أبدا، وإنما هو لما وقع في المحنة قام معه غالب العامة فخاف الخليفة المعتضد فجعل الأمر للوزير، فعقدوا له مجلسا واتفقوا على قتله بغير ثبوت، فقطعوا يديه ورجليه، ثم حزّوا رأسه، ثم أحرقوه، ولما سقط رأسه بقي جسده ساعتين من النهار قائما ورأسه بين رجليه يتكلم بكلام لا يفهم لكن آخر كلام فهم منه "أحد أحد".[2]

قال ابن العربي: "رأيت الحلاّج في بعض التجليات، فقلت له: لم تركت بيته يخرّب فتبسم وقال: لما استطالت عليه أيدي الأكوان خليته فأفنيت، وأخلفت هارون في قومي فاستضعفوه لغيبتي فأجمعوا على تخريبه، فلما

[1] الكلام من (وسبب تسميته بالحلاّج – إلى– فذهبت وتركته. من «الكواكب») ساقط في (ب) و(ج).

[2] هنا من يعتبر أن الدافع الحقيقي لإعدام الحلاّج وتصفيته بتلك الطريقة التراجيدية هو سياسي بامتياز وليس لدافع ديني أو فكري. ينظر: محي الدين اللاّذقاني، آباء الحداثة العربية – مدخل إلى عوالم الجاحظ والحلاّج والتوحيدي – مؤسسة الانتشار العربي، لندن، بيروت، ط2، 1998، ص: 61 – 92.

هدّوا من قواعده ما هدّوا رددت إليه بعد البناء فأشرفت عليه، وقد خَلَت به التمثلات فأَنِفَت نفسي أن أعمر بيتا تحكمت فيه أيدي الأكوان، فقبضت عنه، فقيل: مات الحلاّج والحلاّج ما مات، لكن البيت خرّب والساكن ارتحل والسلام".)[1]

قال صاحب «المواهب»: "الملكوت عالم الأرواح، والملك عالم الأشباح، فكل يحن إلى وطنه ويميل إلى فنّه، الروحانيون سموا بأرواحهم إلى عالم الملكوت فكان حظهم الفناء، والمجاهدون سعوا بأجسادهم في عالم الملك، (فكان حظهم البقاء، والعارفون سموا بأرواحهم إلى عالم الملكوت وسعوا بأجسادهم في عالم الملك)[2]، فكان التردد بين المنزلتين، فنالوا فضل المقامين إمداد العابدين من عالم الأشباح، وإمداد الروحانيين من عالم الأرواح، وإمداد العارفين من حضرة الملك الفتّاح، [كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً][الإسراء/20].

وقال الشيخ عز الدين عبد السلام: "فأما أهل التمكين فإنهم علموا وكتموا ما علموا، لما يعلمون من ضعف احتمال عقول أطفال العقول، ولهذا إن الحلاّج لما علم شيئا من هذا العلم وتفوه به فمه أبيح دمه، وكان خطأه من حيث إظهار ما يكتم وإعلانه ما يسرّ، فكان حكم من باح أن دمه يباح".

روى أنه دخل يوما إلى جامع المنصور ببغداد، وقال: يا أيها الناس اجتمعوا واسمعوا مني حديثا، فاجتمع عليه خلق عظيم، فمنهم محب ومنهم منكر، فقال: اعلموا أن الله أباح لكم دمي فاقتلوني، فبكى القوم فتقدم إليه عبد الودود الزاهد، وقال: يا شيخ كيف نقتل رجلا يصلي ويصوم ويقرأ القرآن، فقال: يا شيخ المعنى الذي يحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا وأستريح، فتكونوا أنتم مجاهدين وأنا شهيد، ثم ذهب فتبعته إلى داره وقلت: يا شيخ ما معنى هذا؟ فقال: يا فتى ليس للمسلمين شغل أهم من قتلي، فاعلم أن قتلهم لي قيام بالحدود ووقوف مع الشريعة وإن من تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود".

وقال عبد الكريم بن عبد الواحد: قلت: دخلت على الحسين بن منصور في مسجد وحوله جماعة، وكان أول ما قال في كلامه: "لو يلقى مما في قلبي ذرة على جبال الأرض لذابت، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأخربتُ النار، ولو كنت في الجنة لهدمتُ الجنة"، وقد روى عنه: أنه لما أوتي به ليصلب، فرأى الخشبة والمسامير فضحك ضحكا كثيرا، ثم نظر في الجماعة، فرأى الشبلي: فقال: يا أبا بكر أما معك سجادة؟، فقال: بلى، قال: أفرشها لي، ففرشها وتقدم وصلى، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب، ومن بعدها: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ][البقرة/155]، وقرأ في الثانية بفاتحة الكتاب ومن بعدها [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ][العنكبوت/57]، ثم ذكر أشياء فكان ما حفظ منها: "اللهم بحق قيامك بحقي، وبحقي قيامي بحقك، وقيامي بحقك يخالف قيامك بحقي، لأن قيامي بحقك ناسوتيته، وقيامك بحق لاهوتيته، ما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها، ولاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماسة لها، أسألك أن توافقني لشكر هذه النعمة التي أنعمت بها علي حيث كشفت لي مطالع وجهك، وحرمت على غيري ما أبحت لي من النظر في مكونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك وتقربا إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت

---

[1] الكلام من (قال ابن بشار: "إن سبب قتل الحلاج – إلى– والساكن ارتحل والسلام".) ساقط في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

لهم ما كشفت لي، ما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم، (لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد)[1]، ثم تقدم أبو الحارث السيّاف ولطم وجهه وأنفه فهشمهما، وصاح الشبلي ومزق جبّته، وغشي عليه وعلى أبي الحسن الواسطي وعلى جماعة من الشيوخ المشهورين" من «حل الرموز».

ثم ذكر [كذا] في أسطره قبل هذا بخط كاتبه أنه أنشد هذه الأبيات الثلاثة بعد الدعاء المذكور، فقال:

فَنَفسُ المحبِّ على الآلاَمِ صَابِرةٌ ... لعَـلَّ مُتلِفُـهَا[2] يَـومًـا يُدَاوِيـهَا
ونَظرَةٌ منكَ يَا سُؤْلِي ويَـا أَمَـلِـي ... أَشهَـى إِلَيَّ منَ الدُّنيَـا ومَا فيـهَا
لَمْ أُسلِمِ النَّفسَ للإسلاَمِ يُتْلِفُـهَا ... إلاَّ لِعِلـمِي بـأنَّ المـوتَ يُحيِيـهَا[3]

قال الشيخ عز الدين[4]: وفي معنى ذلك قلت:

وَأَبَاحَت دَمِي إذ بَاحَ قَلْبِي بحُبِّهَـا ... وَحَلَّ لهَا في حُكمِهَا مَا اسْتَحَلَّـت
وَمَا كُنتُ مِمَّن يُظْهِرُ السِّرَّ إنَّمَـا ... عَرُوسُ هَوَاهَا في ضَمِيرِي تَجَلَّـتِ
فَشَاهَدتُهَا فَاسْتَغْرَقَتْنِي بِفِكْـرَةٍ ... تَغِيبُ[5] بِهَا عَن كُلِّ كُلِّي وَجُمْلَـتي
وَحَلَّت مَحَلَّ الكُلِّ مِنِّي بِكُلِّهَـا ... فَإِيَّايَ إِيَّاهَا إذَا مَا تَبَـدَّتِ
وَنَمَّت عَلَى سِرِّي فَكَانَت هِيَ الـتِي ... عَلَيهَا بِهَا بَيْنَ البَرِيَّةِ نَمَّـت
إِذَا سَأَلَتْ: مَن أَنْتَ؟ قلتُ: أَنَا الـذِي ... بَقَائِي إِذَا فَنَيتُ[6] قَبْلَ هُوِيَّـتِي
أَنَا الحَقُّ في عِشقِي كمَا أَن سَيِّـدِي ... هُوَ الحَقُّفي حُسنٍ بِغَيرِ مَعِيَّـتِي
فَإِنْ أَكُ في سُكْرِي شَطَحتُ فَإِنَّـنِي ... حَكَمتُ بِتَمزِيقِ الفُؤَادِ المفَتَّـتِ
وَلَا غَرْوَ أَن أصْلَيتُ نَارَ تَحَرُّقِـي ... وَنَارُ[1] الهَوَى للعَاشِقِينَ أُعِـدَّتِ
وَمِن عَجَبِي أَنَّ الذِينَ أُحِبُّهُـم ... وَقد أَغْلَقُوا أَيْدِي الهَوَى بِأَعِنَّـتِي
سَقَونِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّي وَلَوْ سَقَـوْا ... جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّـتِ[2]

---

[1] في رواية أخرى: (لما لقيتُ ما لقيتُ، فلك التَّقديرُ فيما تفعلُ ولكَ التَّقديرُ فيما تريدُ). ينظر: يوسف زيدان، المتواليات، دراسات في التصوف، ص: 20.

[2] في المصدر: لعلّ مُسْقِمُهَا... ينظر: منشورات الجمل، الحلاج، الديوان –يليه كتاب الطواسين– ص: 114.

[3] في المصدر: لَمْ أُسلِمِ النَّفسَ للأَسقَامِ تُتْلِفُهَا إلاَّ لِعِلـمِي بـأَنَّ الـوَصْلَ يُحيِيـهَا، ويبدو أنه هذا هو الصحيح. ينظر: المصدر نفسه، ص: 113.

[4] هو الشيخ عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن ابراهيم بن عساكر بن حسين، عز الدين أحمد الأنصاري المقدسي الواعظ المطبق، الشاعر المفلق، توفي بالقاهرة في شوال سنة 678هـ/1279م، ترك مؤلفات عدّة، منها: شرح حال الأولياء ومناقب الأتقياء، واصطلاحات الصوفية، وتفليس إبليس.

ولا بدّ من التنبيه على أن الشيخ العز بن عبد السلام المقدسي هو غير الشيخ العز بن عبد السلام السلمي المعاصر له والملقب بسلطان العلماء، والمشهور بعز الدين، وهو فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ينظر: عاصم ابراهيم الكيّالي، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 2007، هامش ص: 87.

[5] في رواية: فَغِبتُ. ينظر: عاصم إبراهيم الكيّالي، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، ص: 95.

[6] في رواية: إذا أُفنِيتُ. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قلت وسيدي موسى رحمه الله تعالى له من هذا الشراب أوفر نصيب، وله في حال سكره من خمرة محبوبة أمر عجيب، يقول في قصيدة له:

[1] في رواية: فَنَارُ. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] هناك بيت ساقط في (أ)، بعد البيت الرابع، وهو: وَ أَلْقَتْ عَلَى سِرِّي أَشعَّةَ نُورِها // فَلاَحَ لِجُلاَّسِي خَفَايَا طَوِيَّتِي. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مُوسَى الحَزِين ضَـالْ   نُـور الهُـدَى يَاءال   مِــــن سِـــرَّه بَــــدَّالْ
مَا تَسَّمْعُـوا مَقَـالْ   مَالُـــه في ضَـــلاَلْ   ظَلْ اضْحَى في حَالْ كَأَنُّه محَـلاَلْ
هَنُّـوهْ يَا رْجَـالْ   هَنُّـوهْ يَا سَـادَاتْ   في مَبْلَغْ مِيقَاتْ، مِن قَدُّوا افْتَـدَاتْ
قَبْـل اتَّضَاحِيَـاتْ   وَأيضًـا لَـه صَـلَاةْ   قَبْل انْقِطَاعْ حَالْ، فَالكُـل وَارِدَاتْ
هَجْـرَانْ ووِصَـالْ   اكَانْ ابْلَـغ محْـلَالْ   هَنُّـــوهْ يَـــا رِجَـــالْ، الخ...

ويقول في الأخرى:

حَيَّرْتَــــنِي في أَمْــــرِي   مُذْ غِبْتْ فِيكْ حَــــتَّى
نَادِيتْـــــنِي في سِـــرِّي   مَن أنْتَ قُلتْ أنْــــتَ، الخ..

ولما أن لم يُهَنِّهِ أَحد في مقامه ، ولم يعذره أحد في غرامه، قال لكل منكر لكلامه:

قُومُوا اقْتُلُــوا مُوسَى الاَحْمَـــقْ[1]   يَا كُـلْ مَنْ هُــــوَ بِي مْحَـدَّقْ
لَا يَنْطَـــقْ بْـشِي يَحْــرَقْ   مَا تَرْبحُـوا شِـــي مِــــن رَبّ
إِذَا قَضَـــى رَبي نَحْــــبِي   هِيَ حْيَــــاتِي يَا قَلْــــبِي

إلى آخر ما قال، ومثل هذا كثير في كلامه، مما هو أدل على شدة غرامه فيمن أصيبت مقاتله بسهامه.

وقوله: "مْعَه ششترا"، يحتمل أن يكون مراده شُشْ كما شَاشَ الحلاّج ترى ما رأى من الأحوال والابتهاج[2]، فهو كقوله: "مُتْ تَرَى"، فهو أمر لك بالجولان في مقامات الاتحاد، كجولان مَن قبلك من أهل العشق والوداد، حتى تعثر على ما عثروا وتخبر بما أخبروا، ولا تستبعدون وجود ذلك لأمثالك مهما اتبعت السنة في أقوالك وأفعالك، فإن النور المحمدي كفيل بما هنالك، قال الإمام ابن الفارض:

وَلَا غَرْوَ أَن سُدْتُ الأولَى[3] سَبَقُوا وَقَد   تَمَسَّكــتُ مِن طَـهَ بِأَوْثَـــقِ عُـــرْوَتِي

قال الحسين بن منصور: "إذا استولى الحق على سرّ عبده[كذا] الأسرار فيعانيها ويخيّر منها، وقال: أسرارنا بكر لا يعتصمها وهم واهم ولا فهم فاهم"، وقال: "إذا تخلص العبد لمقام المعرفة أوحى إليه بخواطره وحس سرّة أن

---

[1] كان يطلق على الناظم موس اللالتي في تلمسان في بعض الأحيان اسم " موسى الأحمق"، فقد أخبرنا تلميذه المؤلف محمد بن سليمان أنك كثيرا ما يكون في زمن الجذبات الروحية (السُّكر) هائما وغائبا عن الكون، مما جعل الناس يطلقون عليه هذا الاسم: "موسى الأحمق"، ونفس الأمر حدث للشيخ عبد القادر الجيلاني، يقول يوسف زيدان: .. حتى الجيلاني عرف باسم: عبد القادر المجنون..، يقول الإمام: طرقني ذات ليلة حال، فصرختُ صرخة عظيمة فسمعها الناس فجاؤوا حتى وقفوا عليّ وأنا مطروح على الأرض، فعرفوني فقالوا: هذا عبد القادر المجنون،. ينظر: يوسف زيدان، عبد القادرالجيلاني، باز الله الأشهب، ص: 53.

ويبدو أن هذا المقطع الشعري يتناص مع مقطع من نص الحلاّج الذي مرّ بنا قبل قليل، وهو: أُقتلُـوني يا ثِقَــاتي إنَّ في قَتْــلِي حَيَــاتِي.

[2] يبدو لنا هذا الاحتمال الذي طرحه المؤلف في شرحه لهذه العبارة بعيد عن موطن الحقيقة إلى حدٍّ بعيد، لأن كلمة (شُشْتَرَ) قد تعني الصوفي والشاعر الأندلسي أبو الحسن الششتري. وهو ما سيسيقه المؤلف أيضا في الصفحة الموالية كاحتمال ثان.

[3] في المصدر: الألَى. ينظر: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ديوان ابن الفارض، ص: 55.

يسبح فيه غير خاطر الحق". وقال: "إذا نحل القفل عن القلب صار بائنا فأشرف على الغيوب"، وقال: "من لاحظ الأعمال حجب عن الجمال"، وقال: "لا يجوز لمن يرى غير الله أن يدعي أنه يعرفه"، وقال: "من طلب الحق بنور الإيمان، كان كمن طلب الشمس بنور الكواكب".

وقال: "ما انفصل الحق وما اتصلوا به من أشار إليه فهو متصوف ومن أشار عنه فهو صوفي"، وقال: "الصوفي وحداني الذات لا يقبل أحدا، ولا يقبله أحد أو يذكر أحدا إن يقول عرفت الأحد الذي منه ظهرت الآحاد"، وقال: "من عرف الحق وعرف الحقيقة والتوحيد سقط عنه لِمَ وكيفَ"، وقال: "معنى الخلق العظيم ألا يؤثر فيه جفاء الخلق بعد مطالعة الحق"، وقال: "المريد الصادق هو الرامي بأول قصده إلى الله، فلا يعرج حتى يصل"، وقال: "من خاف من شيء سوى الله أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء، وسلط الله عليه المخافة وحجب بسبعين حجابا أيسرها الشك"، وقال: "من أسكرته أنوار التوحيد حجبته عن عبادة التجريد"، وقيل له: "أين الله؟ قال: في الجبة التي عليه لنفسه تصرّف، وإنما التصرف كله بالله ولله، قال: وهذا الذي ذكره هو حقيقة قوله υ: "تخلقوا بأخلاق الله". من «الكواكب الذرية».

وقال الشيخ الرباني سيدي أحمد بن يوسف الملياني: "اعلم أن من القلوب قلوب أحرقها حب الله ومزقها الشوق في الله، فهي بذلك الاحتراق كالاحتراق، فإذا سمعت صوتا حسنا بمعنى يشير إلى المحبوب ويدل عليه، فأول قادح يقدح تعلو في ذلك القلب نار المحبة، ثم ترمي بشررها في طوايا القلب وزوايا البدن فيتعلق بكل جارحة منها شراب، فما وصل إلى الأذن أورث الطرب فرحا بذكر المحبوب، وإذا وصل إلى اللسان أورث الصياح، اشتشهارا لكتمان العشق وإذا وصل إلى الصدر أورث الشؤب تنفسا بزفرات الشوق، وإذا وصل إلى اليدين أورث التصفيق مشيرا إلى حصول الجمع، وما وصل إلى القلب أورث الحركات بالوزن المستقيم أو ماله وزن أعماله، وأما القلب فيدهش بهجوم الواردات عليه نار تأجج، وأما السر فإنه مسرور ما يهديه الله، فإذا رأيت واحدا قد اسطلمت سطوات وجوده، وغلبت عليه غلبات سكره، قام يصيح من قلقه ويمزق، من خلفه قد علا بكاؤه وخرّق رداءه، فليس العجب من بكاءه ولا من تمزيق ردائه، إنما العُجب من وجوده داويه وشهود دائه وثبوت شفائه في حصول ثنائه في محل ثنائه والسلام".

ويحتمل أن يكون الناظم لم يرد الأمر بالجولان مع الحلاّج في مقامه، وإنما قصد بكلامه عروس المتجردين صاحب الوجد الطاقة أبا الحسن الششتري τ[1]، لأن له قدم صدق في هذا الشأن المذكور، ولذا قرنه مع الحسين بن منصور الحلاّج، وفي اسمه تلويح لمكانتهما وترسيخ بمشاركتهما، أخذ عن ابن سبعين ولأبي الحسن قصائد حسان تستحسنها الأذهان، تؤذن بعظم شأنه وعلوانيه منها:

[1] ولد الشيخ علي بن عبد الله النميري اللوشي المعروف بأبي الحسن الشُّشْتَرَى بقرية (لوشة) الأندلسية سنة 610هـ ، في أسرة عظيمة الشأن، وتتلمذ للصوفي الأندلسي ابن سبعين، حين التقاه بمدينة بجاية، حيث قال له ابن سبعين: "إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبي مدين، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إليَّ"، وقد ترك الششترى ديوانا يضم قدرا كبيرا من القصائد والموشحات، إلى جانب بعض الرسائل الصوفية، توفي سنة 668هـ. وقد شرح الشيخ زروق مقطعات الششتري ونونيته، وكذلك الشيخ أحمد بن عجيبة،.. وقد تقدمت ترجمته، ينظر: – يوسف زيدان، شعراء الصوفية المجهولون، ص: 65، 66./ – ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 71.

كَشَفَ المحبُوبُ عَن قَلْبِ الغَطَـا   وَتَجَلَّى جَهْــرَة مِـنِّي إِلَــيَّ
وَجَلَا عَنِّي حِجَــابا كتنـــه   وَتَلَاشَى الكَون يَا صَاحِبِي لَــدَيَّ
إِنَّ سِرِّي مَا بَـدَا إِلَّا لِمَــن   قَدْ طَوَى العَقـل مَعَ الكَونَينِ طَــيَّ
وَرَأَى الأَشْيَاءَ شَيْئًــتا وَاحِــدًا   وَرَأَى الوَاحِد فَـردٌ دُونَ مُثَــنى

ومنها قصيدته النونية التي شرحها زروق، التي يقول فيها:

أَرَى طَالِبًا مِنَّا الزِّيَادَة لَا الحُسْـنَى   بِفِكْرٍ رَمَى سَهْمًا فَعَدَّا بِهِ عُدْنَـا
(تَقَيَّدتُ بِالأَوْهَامِ)[1] لما تَدَاخَلَـت   عَلَيْكَ وَنُورُ العَقْلِ أَوْرَثَكَ السِّجْنَـا
وَهِمْتُ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولهـا   وَمَنبَعُهَا مِن أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَـا
وَقَد تُحجب[2] الأَنْوَار لِلْعَبْدِ مِثْلَمَـا   تَبْعُد[3] مِن أَظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ظعْنَـا
فَلَا تَلْتَفِت فِي السَّيْرِ غَيرًا وَكُل مَـا   سِوَى الله غَير فَاتَّخِذ ذِكْرُهُ حِصْنَـا
وَكُلُّ مَقَامٍ لَا تَقُم فِيهِ إِنَّــهُ   حِجَاب فَجدّ السَّيرَ وَاسْتَنْجِدِ العَوْنَـا
وَمَهْمَى تَرى كُلّ المراتب تُجْتَلَـى   عَلَيكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَن مِثْلِهَا حُلْنَـا
وَقُل لَيْسَ فِي غَيْرِ ذَاتِك مَطْلَـبٌ   فَلَا صُورة تُجْلَى وَلَاطُرْفَة تُجْنَـى

[فصل في ذكر أقطاب البربر المغربيين:]

ولما أن ذكر الناظم مشاهير أولياء العجم، بعد فراغه من خلاصة أصفياء العرب الحجازيين كرّ راجعا إلى ذكر أقطاب البربر المغربيين، فنعم العدلان والعلاوة، وبدأ بالشيخ أبي يعزى لشهرته ومرتبته فقال:

وَايْنْ بُوعَــزَّى وبَلْعَبَّــاسْ   وَايْنَ اللَّجَّــائِي مَــعَ غَــزْوَانْ
وَايْنْ ابَنْ عَبَّادْ صَاحَـبْ فَــاسْ   وَايْنْ ابن حِرْزِهِــمْ الأَيْمَــنْ
وَاينْ ابنْ مَشِّيشْ يَا جُـــلاَّسْ   وَاينْ الشَّــاذْلِي أَبُــو الحَسَــنْ
وَالزَّرُّوقْ غَامَــقْ الكُتُــبْ   عَنْ القَومْ حَسْرتِي حَسْــرَا
امْحَمَّــد بَنْ عُثْمَــان وَالقُطْــبْ   بَنْ عَبْدْ اللهْ غَابَرْ الحَمْــرَا

[1] تَقَيَّدتَ بالأَوهَام. ينظر: مجدي كامل، أحلى قصائد الصوفية، ص: 67.
[2] تَتَحجّبُ. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3] تُقَيَّـد، ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وإنما اقتصر الناظم على ذكر رجال المشرق والمغرب دون القبلة والجوف، وإن كان صرح في منظومته أنه دار على حزب العارفين في الجهات الست، فلم ينل مراده من ذلك اقتداء بنبيه لأنه ρ قال: "زويت لي الأرض فأُريت مشارق الأرض ومغاربها"، وبقدر ما رأى منها أسلم من أهلها فآمنوا به واتبعوه، وحين لم يره قبلتَها وجوفَها لم يُسلم أهلها ولم يتبعوه، ولذا لم يعثر الناظم إلا على من آمن بنبيه من أهل المشرق والمغرب والوسط، فلذلك ذكر من ذكر فتنبه رحمك الله لمقاصد كلام الأولياء، فإنه منظور على حكم وأشياء،وإنما أكثر من ذكرهم وتعدد أحوالهم لفوائد:

– الأولى لقوله عز من قائل: [وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ][هود/120]، فما عناه يعنينا وما خصه يخصنا، إلا ما ثبت اختصاصه به، فأبناء الأولياء كأبناء الأنبياء؛

– الثانية: لقولهم عند ذكر الصالحين تنزل الرحمات، إما حسا في النزول كنزول الغيث والسكينة والوقار والخشية والمحبة، ودفع البلاء النازل من السماء، وإما معنى كما قال الغزالي: "وهو أنك إذا سمعت ذكرهم تعرفت أحوالهم وسيرهم وأخلاقهم فتتشبه بهم وتقتدي بهم، فيرحمك الله بسبب ذلك تنزيلا للسبب منزلة المسبب، وعلى كل حال فلا يخلو ذاكرهم من الرحمة؛

– الثالثة: ما أفادني به أخونا وصفينا سيدي الجيلاني من الشيخ البركة سيدي يحي بن صفية[النْهَاري][1]، قال لي حفظه الله: "من أراد أن يرى في منامه ما أمل في نفسه، فليبيت طاهرا نقي الفراش والثياب معتزلا مستقبلا، ويصلى على النبي ρ بالصلاة الكاملة[2] ألف مرة، ثم يتوسل إلى الله عز وجل بأربعين وليا من السلف الصالح وينوي حاجته التي أرادها فإن الله بفضله يريه وجه المخرج فيما نواه، قال لي مقيدها المذكور جربتها في أربع مسائل في ليلة واحدة فصحت وقضى الله الحاجة بحمده وشكره".

وقد ذكر الناظم هنا أربعين رجلا من الأخيار العارفين بالله، فالجيش من الأربعين والنصر من الله المعين، فمن كان في هموم وكروب أوصالت عليه المظالم والخطوب، أو أراد أن يظفر بالمطلوب المرغوب فليجأ إلى الله ويتوسل بهؤلاء المذكورين، كما ذكر، بعد تصحيح النية وإخلاص الطوية والأدب في الطلب، ويقدم الأقدم فالأقدم، ابدؤوا بما بدأ الله به، «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[3]، ولا يغفل عن صاحب القصيدة، ويبدأ ويختم بالصلاة والسلام على الفاتح الخاتم، لأنها كالجناحين لرفع طير دعا به، فإن الله بجوده وكرمه يقضي له ما يريد فيما يريد.

– الرابعة: ما أشار إليه ابن باديس في قوله:

---

[1] إضافة في (ج)، والنْهاري نسبة إلى قبيلة أولاد نْهَار الواقعة جنوب تلمسان. ينظر:

– الجيلاني بن عبد الحكم، المرآة الجلية في ذكر ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، (دط)، 1364هـ.

– قويدر قيداري، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار، دراسة تاريخية وأنثروبولوجية، دار الغرب، وهران، د ط، 2009.

[2] الصلاة الكاملة صيغة في الصلاة على النبيρ يتداولها كثير من الصوفية ، ويعتقدون في بركتها وفضلها وفوائدها، هذا مطلعها: "اللهم صل صلاة كاملة وسلّم سلاما تاما على سيدنا محمد الذي تنحلُّ به العقد وتنفرج به الكرب وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب،.."، يسمّيها المؤلف هنا باسم " الصلاة النارية"، ينظر: محمد بن محمد بن محمد الميموني، روضة للظريف في خواص اسم الله تعالى اللطيف، وفوائد أخرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2005، ص: 46.

ملاحظة : نحب أن نلفت النظر أن البعض يطلق عليها اسم " الصلاة المحرّقة، والبعض الآخر يسميها الصلاة المنجية. وذالك كما أفادنا بها أ/ أحمد بن صفية رحمه الله.

[3] الحديث أخرجه ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، ص: 320.

إِلَى ذِكْرِهِم يَرْتَاحُ قَلْبِي وَتَنْجَلِـي هُمُومِي وَمَا يَغْشَى الفُؤَادُ مِن الحَـدسِ
فَكَم كُربَةً أَجْلَا الإِلَهُ بِجَاهِهِـم وَكَم رُتْبَةً أَعْلَا وَأَوْلَى مِـنَ الأَوْسِ
وَلَا تَسْمَعَنَّ مِن قَاصِرِ النَّفْعِ فِيهِـم عَلَى مَن يَكُن حَيًّا فَذَاكَ مِن الطَّـلْسِ
فَإِنَّ شُهُودَ النَّفْعِ يَنْفِي مَقَالَـهُ وَلَاسِيَمَا والقَومُ نَصُّوا عَلَى العَكْـسِ
فَكُن صَادِقًا فِي حُبِّهِم وَمُصَدِّقًـا بِأَحْوَالِهِم وَاحْذَر مُخَالَفَةَ الشَّمْـسِ

قال سيدي أحمد: الأوس: العطاء، والمعنى أن بركة هؤلاء تجلب المنافع وتدفع المضار، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، الحدس: الظن والتخمين، والمعنى أن المحب يتلذذ بذكر محبوبه، كما يتلذذ برؤيته والاتصال به، كما قيل:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُل لِي هِيَ الخَمْـرُ وَلَا تَسْقِنِي سِـرًّا إِذَا أَمْكَنَ الجَهْـرُ
وَبُـحْ بِاسْـمِ مَن تَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الكُنَـى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَّاتِ مِن دُونِهَا سِتْـرُ

الطلس: اللصوص المخادعون والذئاب المفسدون، العكس في اللغة ردَّ أول الشيء على آخره، وتبديل أحد طرفيه بالآخر، والمراد هنا عكس مراد المقتصر بتعميم النفع ،كما قال التازي: "ولا فرق في أحكامها بين سالك مربّ ومجذوب وحي وذي قبر". لأن الانتفاع بالأحياء لا ينكره عاقل، إذ غاية الانتفاع بالأموات نيل بركتهم، والأحياء يشاركون الأموات في البركة ويزيدون بالرواية عنهم والتعلم منهم والتأدب بأخلاقهم والاقتداء بسيرهم".

قلت: حضرت يوما مع الشيخ سيدي العبدلي[1] في داره من حارة باب الجياد، وقد اجتمع عنده خلق كثيرون مسلمون وذميّون هاربون من جور الولاة، يطعمهم ويسقيهم، ويشفع كل سبت[2] فيهم حتى يقضي الله حوائجهم على يديه، لأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، فاتفق أن قال له رجل من أولئك الخائفين[3]: "يا سيدي لم يبق في هذا الزمان حَرَمٌ للمساكين إلا في دارك أو في مقام الشيخ أبي مدين، فقال له: نعم يا ولدي لكن الشيخ أبا مدين حرم فقط، ونحن إن شاء الله الحرم والطعام والإصلاح بين الناس"، وصدق τ فإن "الحي فائدة ومائدة وأخلاق زائدة"، ولولا ذلك فمن لي بفوائد هذه القصيدة، فإن مؤلفها أفادنيها، ومن لي بالأكل من موائدها، فإن صاحبها أعطانيها، فنسأل البرّ الرحيم أن يتم نعمته علينا بالقبول وبلوغ المأمول.

ثم قال الشيخ رحمه الله: "الأعلام: الجبال العاليات، الرّمس: القبر"، والمعنى أن هؤلاء الأئمة المحبين صاروا في العلوم أئمة يُقصَدون لحل المشكلات، أما من اشتغل في بدايته بتحصيل علم الظاهر فالإشكال فيه، وأما من لم تعرف له مخالطة العلماء ولا الرواية عنهم فالاحتمال أن يكون لقي شيخا فتلقى منه في لحظة ما يتلقاه من لم تصاحبه العناية الإلهية في جميع عمره، لأن الزمان يطوى لهم كما يطوى لهم المكان، فإذا تلقى منه القواعد الشرعية وكلياتها

[1] أحد شيوخ المؤلف محمد بن سليمان، تقدّمت ترجمته في قسم الدراسة.
[2] في (ب) و(ج): كل وقت.
[3] في (ب) و(ج): المهجَّجِين.

وأمهات المسائل، وفهم حكمة الله في الأحكام، نوّر الله بصيرته ووفقه لإدخال الجزئيات تحت كلياتها، لأن «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[1] مع كونه مشتغلا بما يعنيه، ومن قرأ العلم لنفسه فقليل منه يكفيه، ومن خالط أخيار الأولياء ظهر له مبلغهم في العلم، وعلم أن علماء الظاهر نقطة من بحارهم، وحكاية شيبان الراعي مع أحمد بن حنبل وغيرها تدل على ذلك.

وأما عدم موتهم، فقال أبو سعيد الخرّاز: كنت بمكة فخرجت من باب بني شيبة، فرأيت شابا ميتا حسن الوجه فنظرت في وجهه فتبسم في وجهي، وقال: يا أبا سعيد أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلون من دار إلى دار، وعن أبي علي الروذباريτ قال: "قدم علينا فقير ومات، فلما دفنته كشفت عن وجهه لأضعه في التراب ليرحم الله غربته ففتح عينيه، وقال: يا أبا علي أتدللني بين يدي من يدللني، فقلت: يا سيدي أحياة بعد موت؟، فقال: بلى، أنا حي وكل محب لله تعالى حي لأنصرنّك بجاهي غدا يا روذباري".

والمخالفة المنازعة، أمرك بالصدق في محبتهم وإخلاص الودّ وحسن الاعتقاد والتصديق وحسن الظن بهم في جميع أحوالهم، وألا تبادر إلى الإنكار عليهم ونسبتهم إلى الجهالة والبدعة والزندقة والضلالة حتى لا تجد عن ذلك محيدا"، قال عمر بن الخطابτ: "لا تظن بكلمة خرجت من فم أخيك سوء وأنت تجد لها في الخير محملا"، هذا في العامة فكيف بالخاصة الذين لهم مرام قصية وأغراض صالحة خفية، ولا تك ممن قيل:

إن يَسْمَعُوا الخَيرَ يُخْفُوهُ وَإن يَسْمَعُوا ... شَرًّا أُذِيعَ وَإن لم يَسْمَعُوا كَذَبُوا

مع أن هؤلاء المنكرين يسلّمون أحوال من قبلهم ، وهل الموجب لذلك إلا ما قاله ابن شرف رحمه الله:

أُولِعَ النَّاسُ بِامْتِدَاحِ القَدِيمِ ... وَبِذَمِّ الجَدِيدِ غَيْرَ الذَّمِيمِ

لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّهُم حَسَدُوا الحَيَّ ... وَرَقُّوا عَلَى العِظَامِ الرَّمِيمِ

وقال أيضا:

قُل لِمَن لَا يَرَى المعَاصِرَ شَيْئًا ... وَيَرَى لِلأَوَائِلِ التَّقْدِيمَا

إِنَّ ذَاكَ القَدِيمَ كَانَ جَدِيدًا ... وَسَيَعُودُ هَذَا الجَدِيدُ قَدِيمَا

وكما أن شمس الضحى إذا طلعت لا تخفى إلا على أعمى البصر، كذلك أحوال الأولياء لا ينازع فيها إلا أعمى البصيرة، ولا يشك فيها إلا فاسد السريرة، وأيضا احذر أن تنازعهم أحوالهم وتجاذبهم مقاماتهم، فتظن أنك مثلهم لاستوائكم في البشرية وغيرها، فتكون كما حكى عن بعض السكارى أنه يمد يده للشمس أو للقمر ليتناوله ظنا منه أنه قريب منه لغيبته عن عقله، وهيهات فما وصلوا إلى ذلك المحل حتى قطعوا عقبات النفس، وخرجوا عن الأوصاف البشرية بقوة الرياضة وترك الشهوات، والمعيار في حالك وحالهم الاستقامة على السنة والمحافظة على الشريعة. من «أنس الجليس»

[1] الحديث أورده: – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج4، ص: 529. / – أبو نعيم، حلية الأولياء، ج10، ص: 15.

(قلت: وقد اتفق لي أني حضرت مجلس فقهاء وقتنا بتلمسان بمقصورة الجامع الأعظم منها وهم يقرؤون في التفسير؛ ويعتنون بكتاب الإمام البيضاوي، وكلامه مختصر معقد ويُشكل عليهم كثير من الرموز لنيل المكنوز التي أودعها الله في مكنون وحيه، وكنت أُحْضِرُ كتابي هذا[1] فيفتح لي الفتاح في الجواب من هذا الكتاب لأن مسائله مشروحة موضحة عندي، فيقولون لمن هذا التأليف العجيب؟ فأستحي وأروي وأقول هو لعبد الجليل القصري بِنِيّة أنّا كلنا عبيد للجليل، وأن هذا العلم مقصور على أربابه، ولأني ضمنت كتابي هذا كثيرا من كلام هذا الشيخ وعوّلت على علومه كالإمام أبي حامد، حتى إذا لم آت به في بعض الأيام يقولون لا تخل مجلسنا من ذلك الكتاب لأن فيه ما يشرح الألباب، فقلت في نفسي ذات يوم بعد أن طابت نفوس أشياخنا وإخواننا وعلماء بلدتنا بسماع كتابنا أَترُكُ التَّورية بما سبق وأفصح بالحق الأحق خروجا عن العهدة لنتمتع بالكتاب مع الأحباب في اجتماعنا هذه المرّة، فقلت لمفتي الوقت وكان المقدِّمُ ذلك الكتاب الذي أحضره في مجلس قراءتكم لتفسير الكتاب العزيز، هو مما فتح الله له عليّ فتعال نجتمع في خلوة وأفتحه بين يديك وانظر فيه طبقة طبقة وورقة ورقة، فإن وجدته موافقا للكتاب والسنة فنشكر الله تعالى على هذه النعمة المنة، وخذوا في قراءته والانتفاع بما فيه، وإن وجدتم فيه خللا فأصلحوه أو زللا فامحوه بنية [وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى [وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ]][المائدة/2]، ففكر وقال: إش نقول لك، إن المعاصرة حرمان وهكذا حرمان، وهكذا في الغالب أن من عاصر شخصا لا يحفل به حتى يغيب فيظهر سره فيندم عليه من فرّط فيه، ورؤية الشاب الأتقى عاشور الآتية في آخر الكتاب تفسر بما جرى في مثل هذه القضية يقضة، والله الموافق.)[2]

[التعريف بمناقب الشيخ أبي يعزى وكراماته:]

قوله "واين بوعزى" اسم هذا الشيخ على ما قاله اليبدري يلنور وقيل يلبخت ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الآيلاني المغربي، فقيل إنه من هزميرة أبروجان، وقيل من بني صبيح من هسكورة، وقيل من أغمات أول من عمل مِكناسة الزيتون، وكان قطب وقته وعصره وأعجوبة دهره.[3] من «الأنس».

وقال سيدي أحمد زروق: "اسم هذا الشيخ يلنور بن عبد الرحمن بن ميمون الدكّالي، كان أميا لا يعرف من القرآن إلا الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، وإذا قرأ عليه القرآن يردّ الغلط على القارئ، فسئل عن ذلك، فقال أنظر النور يخرج من فيه فإذا انقطع ذلك النور عرفت أنه غلط فرددت عليه".

وحكى الشطيبي أن أبا يعزى مكث اثني عشر سنة يُعرف بأبي حصير لأنه يستر بقطعة حصير بالية، وقال ابن الخطيب: "توفي أبو يعزى يلنور ابن عبد الله صاحب الكرامات الظاهرة سنة إحدى خمسين وخمسمائة"، وقال في السينية:

وَأَمَّا أَبُو يَعْزَى فَشَيخُ شُعَيبِهِم   وبِالغَـرْبِ حَـلَا لِلإِفَـادَةِ وَالحـرْسِ

---

[1] أي كتاب "كعبة الطائفين".

[2] الكلام من (قلت: وقد اتفق لي – إلى – في مثل هذه القضية يقضة، والله الموافق.) ساقط في (ب) و(ج).

[3] هو الشيخ أبو يعزى بن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري (من هزميرة أبرجان) ت 572هـ/1177م، قيل توفي وعمره 130 أو 171 سنة، ويقال أنه بربري لم يكن يعرف العربية، وأبو يعزى هو المعروف بـ (مولاي بوعزّة) الذي زاره في جبل عروجان أبو مدين الغوث، قال فيه الشعراني: "أبو يعزى انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب"، ألفت فيه عدة تراجم، نذكر منها: "المعزى في مناقب أبي يعزى"، " شرح الصدور في مناقب أبي يعزى يلنور". ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 42.

قال في «حلو الخناديس»: شعيب: علم شخصي، إما مرتجلا أو منقولا من تصغير شعب بفتح الشين وهي القبيلة، أو بكسرها وهو الطريق بين الجبلين، أو مشغب وهو الشغب الغرب ما يلي مغرب الشمس وحدّه من إفريقية، وبذلك سميت الحرس، الحفظ والمنع للثغور بالرباط والجهاد، أو لنوائب الدهر ودفع صروفه".

قال سيدي أبو مدين: نظرت في أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا هذا، فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى، ونظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل «الإحياء» للغزالي، والشيخ أبو يعزى أخذ عن ابن العربي، وابن العربي عن الغزالي، روى أنه أقام في بدايته خمسة عشر سنة لا يأكل إلا حبّ الخبّيز والأُسْدُ تأوي إليه والطير، فإذا كثر ضررها أمسك بأُذُن الأسد وقال: يا كلاب الأرض ارتحلوا من هنا، ولا تعودوا، فلا يُرَى أحد منهم البتة.

وروى أنه اجتمع بالخليفة المؤمن بن علي وأنه كاشفه بأشياء وتعجب منها وانقاد إليه وعَظَّمه بعد أن كان أغرى به لما وشى به إليه لكثرة الجموع التي تقصده، على عادة أهل الدنيا في الخوف ممن يزاحمهم على دنياهم، فلما اجتمع به توقف في أمره، فقال لبعض خاصته: "قولوا له يعرفنا بشيء من هذه الغيوب التي تؤثر عنه من المكاشفات، فمضوا إليه وقالوا له ذلك، فقال: حماري يأكله السبع الليلة، فوجد الخليفة من أتاه بالحمار وجعله في مربط خيله وبات العبيد هنالك، فلما أصبح تفقد الحمار فوجد العبيد هنالك قد تفرقوا فارين ووجدوا الحمار عقيرا والسبع رابض هنالك، وعرف بذلك الخليفة فأمر أن يعرّف به الشيخ، فعرف فقال: أقف عليه، فسار حتى وقف عليه والسبع رابض فتقدم إليه فضربه ضربة بعصاه فخر ميتا، فنقل ذلك للخليفة فقال لجلسائه: اعتبروا بهذه القصة عجبا فقد ضربها لكم مثالا وجعلها أدب، فكأنه يقول: أنا رب الحمار فقتله لي الأسد، فسلطت عليه فقتلته وأنا عبد وربي الله، وإن قتلتموني غضب لي سيدي ففعل ذلك وأشد لمن قتلني، فروى أن الشيخ دعى الخليفة بعد ذلك لمنزله فأثنى إليه في أكابر رجاله ورؤساء دولته متبركين بما عرفوا من إجابة دعوته متمسكين.

[التعريف بمناقب الشيخ أبي العباس السبتي وكراماته ومآثره:]

قوله: "بلعباس" اسم هذا الشيخ أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي دفين مراكش[1] بأقصى بلد المغرب، فأخذ عن أبي محمد صالح وأبو محمد عن أبي مدين، توفي سنة إحدى وستمائة، وكان τ من أجود الأولياء لما أن تخلق باسمه الجواد حتى كان يقول: "عن الجود ينفعل الوجود (ولولا الجو ما ظهر موجود)[2]".

روي أنه أتاه سائل فقال له: ما اسمك؟ فقال: محمد، فأعطاه برنوسه، ثم أعاد عليه فأعطاه ردائه، ثم قال أيضا: ما اسمك فأجابه بمثل الأول، فأعطاه قميصه، ودخل في الماء ورمى له السراويل، ولم يبق إلا نعله، فلما أن بقي عريانا لا ستر له إلا الماء، نظر الله إليه بعين الجود فحرك قلب أمير وقته، فأرسل إليه بكساوي عديدة على بغل، فأتاه الرسول وطرحها له حول الماء ورجع على بغله، فخرج من الماء ولبس الثياب فوجدها أحسن من ثيابه وسمع مناديا يقول: لو وهبت النعل لأعطيت البغل.

---

[1] أكبر أولياء مراكش و أشهر رجالاتها السبعة، عربي الأصل، ولد بمدينة سبتة عام 524هـ/1209م، وتوفي بمراكش في اليوم الثالث من جمادى الأخيرة عام 601هـ/1204م. ألفت فيه عديد المصنفات، منها "بدائع الاقتباس في مناقب أبي العباس"، وله عدّة كتب منها: "الدر المنظم" "زايرجة –في معرفة الأسرار حسب مطالع البروج–" " منظومة في الكيمياء". ينظر: – حسن غلاّب، سبعة رجال مراكش، ردمك، مراكش، ط5، 2007، ص: 31. / – عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 51.

[2] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

ومن كراماته أن من اشتهى مولودا ذكرا يذكره فإنه يكون إن شاء الله، قال الشيخ السنوسي: "وهو عجيب مجرب بالعيان"، وفضائله τ كثيرة، رأيت فيها كتابا مستقلا إلا أنه لم يحضرني الآن.

[التعريف بقطب العارفين بالشيخ اللجائي:]

قوله: "وابن اللجائي مع غزوان"، أما اللجائي، فهو الشيخ العارف بالله جمال الدين أبو القاسم سيدي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن اللجائي،[1] هكذا ذكر نسبه في طوالع كتبه كتاب «قطب العارفين» وكتاب «شمس القلوب»، وكتاب «الشمائل»[2].

وقال ابن الخطيب القسنطيني: "توفي شيخنا ومفيدنا المتفنن الصالح أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه أبي الربيع سليمان اللجائي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمدينة فاس[3]، شيخه أبو العباس بن البناء وحاز علومه عنه بتحقيق".

[التعريف بالشيخ الغزواني:]

وأما الشيخ الغزواني فقبره مشهور بمراكش حرصها الله، واسمه سيدي عبد الله[4]، وشيخه سيدي عبد العزيز التباع[5]، وشيخ التباع سيدي محمد بن سليمان الجزولي مؤلف «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار»، وهو أول من تقطّب من أولياء المغرب.

(لما أن قدم من المشرق أضافته أَمَةٌ بفاس فسلبته منها ثم رجع حتى رفع لمقامه، فقدم فسلب أيضا، ثم رجع حتى رد الله عليه مقامه، قدم المغرب فمر بالأمة الأولى وهي تحمل السقاء والحطب فعرضت عليه فأجابها بشرط أن يحمل عنها سقاءها فقبلت وأضافته ثم شيّعته، قيل إنه تحت الأرض خوفا عليه من الغيرة، فبلغ في أمان الله لبلده، هكذا سمعت من غير واحد من المغرب.

---

[1] عاصر أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي الفترة الأولى من قيام الدولة الموحدية، وتوفي في حياة الخليفة الموحدي يعقوب المنصور سنة 599هـ، ويكنّى أيضا بأبي يزيد كما ورد في الورقة الأولى من كتابه " شمس القلوب". وقد ذكر أيضا محقق كتابه " قطب العارفين" أنه لم يعثر على ترجمته في كتب التراجم الكثيرة التي عاد إليها، فاعتمد على وضع ترجمة له انطلاقا من المعلومات التي حفلت بها بعض كتبه، كما فعل المؤلف محمد بن سليمان في كتابه هذا. ينظر: أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي، قطب العارفين في القائد والتصوف، تحقيق: محمد الديباجي، ص: 13.

[2] عنوانه" شمائل الخصوص" يقصد المؤلف بـ "الشمائل" الفضائل التي ينبغي للسالكين أن يتحلّوا بها، والمكارم التي يسعون إليها، أما "الخصوص" فهم صفة الصفوة من السالكين، أو هم شيوخ العارفين، كما يسمّيهم في كتابه الآخر "قطب العارفين".

وكتابه" شمس القلوب" عالج فيه موضوعات تدور كلها في محور التصوف. أمّا كتابه "قطب العارفين" الذي نهل منه محمد بن سليمان كثيرا من النصوص في كتابه "كعبة الطائفين" فيتضمن ثلاثة أقسام: القطب الأول: في معرفة الله سبحانه. القطب الثاني: في التهذيب والرياضة. والقطب الثالث: في البواطن والأسرار. ينظر: المصدر نفسه، ص: 17 – 24.

[3] يبدو أن المؤلف هنا أورد تاريخا لوفاة شخص آخر وليس تاريخ وفاة اللجائي صاحب " قطب العارفين" يقول في هذا السياق محمد الديباجي: توفي أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي سنة 599هـ، أما عبد الرحمن بن سليمان اللجائي ابن الفقيه أبي الربيع سليمان اللجائي فتوفي بفاس سنة 773هـ، وليس هو عبد الرحمن اللجائي مؤلف "قطب العارفين" و "شمائل الخصوص"،. ينظر: ينظر: المصدر نفسه، ص: 13.

[4] شيخ المشايخ العرف بجلال الله وجماله، سيدي أبو محمد عبد الله بن عجَالْ الغَزْوانِي، أصله من غزوان قبيلة من عرب تامسنا بالمغرب، ومن الناس من يجعله علويا، رحل إلى مراكش ولازم الشيخ أبي فارس عبد العزيز التباع المعروف بالحرّار، فحصل له الفتح على يديه، توفي في أواسط العشرة الرابعة، أعني سنة خمسة وثلاثين، ودفن بزاويته داخل مدينة مراكش بحومة القصور. ينظر: –محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، مطبعة الكرامة، الرباط، ط3، 2003، ص: 88 – 91. / – حسن غلاب، سبعة رجال مراكش، ص: 44.

[5] الغزواني وارث سر عبد العزيزالتباع، و عن طريقه يتصل بالجزولي صاحب دلائل الخيرات . ينظر: : – محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر، ص: 122.

- محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتبّاع وما لهما من الأتباع، ص: 52.

وله في علوم القوم كلام نفيس، يذكر أنه شيخ سيدي عبد الله بن حساين وسيدي عبد الله الهبطي وسيدي بوشتا الخمّار وسيدي بوعمر شيخ سيدي محمدبن مبارك الذي أخذ عنه سيدي أحمد بن عبد الله السجلماسي، ولم أقف له على تآليف وغيرها.)[1]

[التعريف بالشيخ ابن عبّاد النّفزي الرّندي:]

قوله: "وابن عباد صاحب فاس" اسم هذا الشيخ أبو عبد الله بن إبراهيم بن عبّاد النفزي الرّندي، وعرفه الناظم بمدينة فاس لأنه بقي في جامع القرويين منها عدة سنين إماما وخطيبا ومفتيا ومدّرسا، ودفن بباب الحمرا[2]، وله تآليف عديدة منها شرحه لـ «حكم ابن عطاء الله»، وأدعية عجيبة لأسماء الله الحسنى، وخطب على سائر شهور السنة، ورسائل وغير ذلك[3]، وكان كلامه τ مبسوط نافع مقبول في الصدور، حتى كان يدعى بأمير المؤمنين.

حكى لنا الشيخ سيدي العبدلي عنه، أنه كان يلبس الفاخر من الثياب ويجدد لكل جمعة حلة غير الحلة الأولى، فسمعه أمير وقته فصار يلبس كلباسه ويقول لجلسائه: من هو خير ابن عبّاد أم أنا، فيقال له: ابن عباد، فيسأل عن ابن عباد ما لبس في هذه الجمعة للأخرى؟، فيقال: حلة نعتُها كَيْتَ وَكَيْتَ، فيختار مثلها ويلبسه، ويسأل أصحابه، فيقولون: يا مولانا ابن عباد أحسن وأجمل، فلا زال متحيرا حتى قال له بعض أهل البصيرة: إن ابن عباد لبس حُلَّةً لم تلبسها أنت بعد، قال: صفها لي حتى ألبسها؟ قال: إنها ليست في خزائنك، قال: وما هي؟ قال: إنّ ابن عباد تدرّع بثوبي العمل والعلم، وارتدى برداء الحلم، وأنت لم تلبس هذه الحلة في هذا الوقت، قال لي: صدقت، فرجع الأمير عن مناقشته، وسلم الأمر لأهله، وتحقق أن خير اللباس التقوى: قال عز من قائل: [أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ][الزمر/9]، وصلى الجمعة بسورتي الإخلاص توسعا في الجواز.

واعترضه ذِمّي في ذهابه إلى الجامع، وقال له: يا إمام ألم يقل نبيكم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فقال: بلى، فقال الذمّي وكان فقيرا سألتك بالله أيّ سجن أنت فيه مع هذه الهيئة، وأيّ جنة أنا فيها مع هذه الحالة، فقال الشيخ: صدق نبينا ρ ، يا هذا لو عاينت ما أعد الله للكافر من الخزي والعذاب الأليم لقلت إن الدنيا لك جنة النعيم، ولو رأيت ما أعد الله للمؤمن في الجنان من الروح والريحان لقلت إن الدنيا له سجن وأحزان، فسلّم الذمّي وأسلم علي يديه.

وحكى جمال الدين المعافا ابن إسماعيل أنه وقع للقاضي أبي بكر بن فورك شبه ما وقع لابن عباد، وقيل في ذلك:

---

[1] الكلام من (لما أن قدم من المشرق – إلى – ولم أقف له على تآليف وغيرها) اقط في (ب) و(ج).

[2] ابن عباد النفزي محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن مالك (بن عباد)، وأنه يكنّى بأبي بكر عبد الله النفزي، ولد برندة -randa- وهي مدينة تقع جنوب الأندلس في الطريق بين إشبيلية ومالقة سنة 733هـ، أقام بتلمسان وفاس ليأخذ من علمائها، انتسب إلى الطريقة الشاذلية، توفي في شهر رجب، 792هـ. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 80. – ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، دراسة: محمد عبد المقصود هيكل، ص: 25 – 35.

[3] من مصنفاته نذكر: ــ "غيث المواهب العية بشرح الحكم العطائية" ، وهو شرح ألفه الرندي على حكم بن عطاء الله السكندري، وكان الرندي أول من قام بشرحها، وعليه اعتمد غالبية الشراح المتأخرين.

–" الرسائل الكبرى"، ذكرها مترجموه كالمقري في نفح الطيب، والشيخ أحمد زروق في شرحه للحكم، وهي وصايا يتوجه بها الرندي إلى مريديه مبينا لهم آداب السلوك إلى الله.

–" الرسائل الصغرى" وهي في جملتها وصايا يتوجه بها ابن عبّاد إلى مريديه السالكين مجيبا لهم على بعض أسئلتهم في التصوف.

–"كيفية الدعاء بأسماء الله الحسنى" ذكرها الشيخ زروق في شرحه الحادي عشر على الحكم،.. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 80-81. – ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، دراسة: محمد عبد المقصود هيكل، ص: 33 – 35.

جَنَّةُ الكَافِرِ دُنْيَاهُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ   وَهِـيَ لِلْمُؤْمِـنِ سِجْنُـهُ فِيـهَا لَا يَطُـولُ

[التعريف بالشيخ سيدي علي بن حرزهم:]

قوله: "واين ابن حرزهم الأيمن" أراد به الشيخ أبا الحسن سيدي علي بن حرازم، من أئمة فاس، ومكان من أهل الزهد بها، وهو من شيوخ سيدي أبي مدين توفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة، ودفن بباب الفتوح من فاس[1]، ووصفه بالأيمن إما تعريفا بقبره وبلده لأنه بفاس، والناظم بتلمسان، وقلوب العارفين مستقبلة أبدا والأجساد تابعة، فيستدعي لها استقبال القبلة الحسية، فيأتي المغرب عن يمين المستقبل والمشرق عن يساره، والفارق بدن الإنسان كما أن إفريقية فارقة بين البلدان، وقبره أيضا يأتي على يمين الخارج من الباب المذكور المستقبل، لأن باب الفتوح في صدر القبلة مفتوح، وهذا توجيه اتفاقي إن لم يقصد ويحتمل أن يكون وصف معنوي من اليُمنِ والبركة [وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ][الواقعة/27]، والضمير في حرزهم عائدا على الأولياء، وفيه تلميح في كونه حرزا للأسرار لا تستخرج منه إلا بمفاتيح الأقدار، [فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ][القصص/30] .

[تعريف بالشيخ القطب عبد السلام بن مشيش:]

قوله: "واين ابن مشيش يا جلاس" هذا الشيخ اسمه سيدي عبد السلام ومستقرّه جبل العلم، من أعلام غمارة، وسمي بذلك لأن الشيخ كان يرى من هذا الجبل علام منار مكة، وهو شريف النسب، قطبٌ في زمانه.

روى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي ذهب إلى المشرق ليدوّر على القطب رجاء أن يلقاه، فلما وصل إلى العراق قيل له أنك تطلب القطب بالعراق وأنت خلفته في بلادك المغرب، فدلّ على مكانه واسمه فرجع إليه، فلما قرب من موضع الشيخ أتى إلى عين هنالك واغتسل منها، وقال: "اللهم إني اغتسل من علمي ومن عملي وأُقدم على هذا الشيخ فقيرا مجردا"، فلما دنى من الخلوة هبط عليه الشيخ من مغارته من الجبل وعليه مرقعة وقلنسوة خُوص، فقال: "مرحبا بعلي بن عبد الله بن فلان" ورفع نسبه إلى النبي ρ.

وقال أبو الحسن: "ثم قال لي: يا علي طَلَعْتَ إلينا فقيرا من عملك وعلمك، فأخذت منا غنا الدنيا والآخرة"، قال: "فبقيت عنده أياما إلى أن فتح الله عليّ"، وفي بعض ما يحكى أنه وقف على باب خلوته، فوجده ساجدا وهو يقول: "اللهم إن قوما طلبوك إقبال الخلق عليهم فأعطيتهم ذلك، وأنا أعوذ بك من ذلك، وإن قوما طلبوك الدنيا فأعطيتها لهم، فرضوا منك بذلك وأنا أعوذ بك من ذلك، وإن قوما طلبوك كذا وكذا"، حتى عد أشياء فخطر ببال أبي الحسن أنه حين ظفر بالقطب ما الذي يطلبه منه، هل العلم أو العمل أو الولاية أو غير ذلك من المقامات.

[1] هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن حرزهم الفاسي، من ولد عثمان بن عفان، الشيخ الفقيه المحدّث العالم العامل، عنه أخذ أبو مدين الغوث وأبو يعزى، توفي سنة 559هـ. ينظر: – محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتبّاع وما لهما من الأتباع، ص:73. – عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 38.

فلما أن فرغ من صلاته وسلم عليه قال له: " يا سيدي كيف حالك؟ فقال: يا ولدي إني أشتكي إلى الله من برودة التسليم كما اشتكيت إليه أنت من حرارة الاختيار" فعلم أن الشيخ كشف عن حاله ثم أعطاه ما قسم الله له على يديه، فوصل به إليه ودله عليه، وكان من أمر أبي الحسن ماكان.

قال أبو الحسن: "وسألت الشيخ عن قوله υ: «يسروا ولا تعسروا»[1] فقال: يعني دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلّك على الدنيا فقد غشك، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك، قال أبو الحسن: فالشيخ من دلّك على راحتك لا على تعسك" قال في «التاج»: لا تأخذ من الأذكار إلا ما تعينك القوى النفسانية عليه بحبه"، ولهذا قال سيدي أحمد زروق (قاعدة): "مدار الأصولي على تحلية الإيمان بالإيقان وتحقيق اليقين حتى يكون في مهد العيان بأن ينشأ عن تحقيقه تمكُّن الحقيقة من نفسه، حتى يقدم ويحجم لما قام به من الحقيقة من غير توقف لا عن تكلف، ويكون سلوكه فيما يحقق بما تحقق، وبذلك ينشرح صدره أولا وآخرا، فيصل في أقرب مدة، إذ من سار إلى الله من حيث طبعه كان الوصول أقرب إليه من طبعه، ومن سار إلى الله بالبعد من طبعه كان وصوله على قدر بعده من طبعه، وتفصيل هذا الطريق في كتب ابن عطاء الله ومن نحا نحوه". من «القواعد»

(وحكى أن الشيخ عبد السلام مات مقتولا[2]، فبعد أن مات أحد قاتليه ريئ في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بسبب سيدي عبد السلام، فقال له: كيف ذلك؟ وأنت من قتلته، فقال: ألم تعلموا أنه من القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم بهم، رحمة لمن خالطهم على أي وجه دان، قلت ووجه رحمته به في هذا الوجه أن قاتله هو السبب في راحته العظمى بلقاء محبوبه ورحمته له على يديه، فعفى عنه الشيخ وشفع فيه مكافأة له، وأيضا فالإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن [فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ][الأنفال/17]، فيستعن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وهو صادر عن إرادة المقدر الذي قال: [إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً][الشرح/6]، فعاين اليسر الذي لا عسر معه حقيقة، فأداه إيمانه الأول ويقينه ومعاينته إلى رحمة قاتله، وسرت إشارته اليقينية في تلامذته الصادقين حيث قال لهم في تفسير قوله υ: «يسروا ولا تعسروا»[3] أي دلوهم على الله لا على غيره، فافهم رحمنا الله وإياك برحمته الواسعة.

وبعد أن كتبتُ الحكاية سماعا ووجهتها ذكر لي أن الثعالبي ذكر الحكاية على وجهها، قال: قال ابن عطاء الله قال أبو العباس في «لطائف المنن»: "طالعت كتاب «الرحمة» فإذا بقائل يقول: كل الناس يطمعون في رحمة الله إلا أبو الطواجين لأنه قد قتل القطب محمد بن عبد السلام شيخ أبي الحسن الشاذلي، وكان أبو الطواجين أميرا بسبتة وكانت لهه جنية تخبره الأخطار فمرت بجبل السلام فأحرقها نور الشيخ وكان كقوس قزح، فأخبرت سيدها ومرضت وماتت، فقدم إليه بمحلته فوجده يغلي الشعير بيده ففتك به فأبى أن يقطع الحديث وهو يصلي فسمع: يا عبد

[1] الحديث أخرجه الشيخان، مسلم، صحيح مسلم، ج3، ص: 1359. / – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 38. تقدّم الحديث في الصفحات السابقة.

[2] توفي مقتولا قبل صلاة الفجر من يوم السبت سنة 622هـ عن عمر يناهز 63 سنة، ودفن بجبل علم، وقاتله هو ابن أبي الطواجن الكتامي المتنبئ الساحر، ووردت روايات كثيرة في الباعث الداعي إلى قتله. ينظر: الطاهر بن عبد السلام اللهيوي الوهابي العلمي الحسني، حصن السلام بين يدي أولاد مولاي عبد السلام، دار الثقافة، الدار البضاء، المغرب، ط2، 2007، ص: 423.

[3] ينظر الإحالة الأولى من هذه الصفحة.

السلام المولى أحبَّ لقائك وأنت تفر فسلم وانقلب وأعطاهم مدية عنده فطعنوه بها في كتفه وذبحوه بها فمسخه الله مع محلته حجارة".

قلت ولا مناجاة بين الحكايتين إن ثبت فإن أبا الطواجين بارز وعارض أحكام الله وأراد أن يطفئ نور الله، ومن حارب الله هلك، فلذا سمع ما سمع، وأما من باشر قتل الشيخ خوفا من الأمير أو طاعة للشيخ في طاعة محبوبه، فلا مانع له من الرحمة، وهو داخل في عموم كل الناس يطمعون، فافهم رحمك الله.)[1]

والجلاّس هم الحاضرون فخطابه معهم لا مع الغائبين أو النائمين، ولهذا يقول في قصيدة له:

هَلُمُّوا ساعدُوا عَاشِقٍ كَئِيبٍ   وَصِفُـوا أَحْوَالَـهُ يَا خَيْـرَ أُمَّـــة

[التعريف بمناقب الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحكمه وأقواله:]

قوله: "واين ابن الشاذلي أبو الحسن[2]"، هو تلميذ هذا القطب المذكور[3] ، ونسبه إلى شاذلة وهي بلدة بإفريقية[4]، وفيه إشارة تخصيص بإضافة إلى الحق، أي أنه شاذ ومنفرد ومنقطع لمولاه، وقد سمع ذلك من الغيب، وله عبارات فائقة وإشارات رائقة وأحزاب نبوية وحكم إلهية، نال ذلك من أستاذه المذكور، ووضع سره في الشيخ أبي العباس المرسي[5] هو في الشيخ ابن عطاء الله[6]، وهل يلد الضرغام إلا غضنفرا، وهو الذي قال: "حبّ الأولياء ولاية"، وهو حسني ولد بـ غمارة في بلد شيخه.

(وقد قال τ: "سألت الأستاذ عن قول النبي ρ: «المؤمن لا يذل نفسه»[7]، فقال لهؤلاء τ: "دخل علي بعض كبراء الدولة، فقال: مالي أرى لك كبير كمل، فبم فقت الناس وعظموك؟ فقال: بحسنة واحدة افترضها الله على نبيهρ تمسكت بها، فقال لي: وما هي؟ فقلت: الإعراض عنكم وعن دنياكم قال الله تعالى: [فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا][النجم/29] وقال τ: "استوصيت الأستاذ فقال لي: لا تتهم الله في شيء وعليك بحسن الظن به في كل شيء"، وقال له أيضا: "الله الله والناس الناس، نزه لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عليك ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك، وقد تم

---

[1] الكلام من (وحكى أن الشيخ عبد السلام مات مقتولا – إلى– فافهم رحمك الله) ساقط في (ب) و(ج).

[2] هو أبو الحسن الشاذلي نور الدين علي بن عبد الرحمن بن عبد الجبار الغماري الزرويلي الإدريسي، فهو إدريسي من طريق عمر بن إدريس، خلافا لما في (لطائف المنن لابن عطاء والدّالية للبوصيري وشرح الزرقاني على المواهب)، ولد بغمارة قرب مدينة سبتة بالمغرب سنة 593هـ/1196م، اشتغل بالعلوم الشرعية مذ كان صغيرا وأتقنها مع كونه ضريرا، وقد تتلمذ لشيخه عبد السلام بن مشيش، توفي بصحراء عيذاب ببلاد صعيد مصر عام 656هـ/ 1258م. ينظر: – عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 62 –70.

–عبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حياته و مدرسته في التصوف، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2003، ص: 43 – 64.

[3] يعني الشيخ عبد السلام بن مشيش.

[4] تقع شاذلة في جبل زغوان جنوبي تونس، حيث اعتكف الشاذلي في مغارة مع بعض مريديه. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 66.

[5] هو الشيخ العارف بالله أبو العباس المرسي، الركن الثاني في المدرسة الشاذلية، ولد بمرسيه سنة 616هـ، وإليها نسب، في تونس اجتمع بأبي الحسن الشاذلي وسلك على يديه الطريق، وسافر معه إلى الإسكندرية عام 642هـ، وانتفع بصحبته كثيرا، توفي سنة 686هـ بالإسكندرية، عرّف به تلميذه ابن عطاء الله في كتاب أفرده له و لشيخه أبي الحسن الشاذلي، وهو المسمى" لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي أبي الحسن".ينظر:–عبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حياته و مدرسته في التصوف، ص: 237 – 240.

[6] كان الخليفة الثاني في التربية و السلوك للشيخ أبي العباس المرسي، وهو الذي استطاع أن ينشر الطريقة الشاذلية على النطاق العالمي الواسع، ولد بالإسكندرية سنة 658هـ انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في الأزهر الشريف، كما كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه، ترك مؤلفات كثيرة، منها كتابه " الحكم" توفي سنة 709هـ. ينظر: المرجع نفسه، ص: 250 – 252.

[7] الحديث أورده: – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج7، ص: 275./ – اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج2، ص: 506.

ورعك، ثم قال: اللهم أرحني من ذكرهم، ومن العوارض التي تعرض من قبلهم ونجني من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم ونزلني بالخصوصية من بينهم إنك على كل شيء قدير".

قلت: وحيث قابل وصايا شيخه بالقبول، قبله الله وقبل منه حتى قيل له: لمن تنسب يا أبا الحسن؟ فقال: قيل هذه الساعة كنت أنتسب للشيخ عبد السلام بن مشيش، والآن لا أنتسب إلا لله". وقال τ: "خدمة الشيخ بالآداب أنفع للمريد من بدايته للخدمة". وقال: "كل شيء لم تصلك الفوائد منه من وراء حجاب فليس بشيخ"، وقال: "سوء ظنك بربك ألقاك في أخذ ما حرم عليك، وسوء ظنك بشيخك ألقاك في الغيبة عقوبة لخلافك له عند الحضرة، ومن يؤثر ناصحه بالمحبة ويبذل جهده في رضى من ينفعه، فليس بكامل العقل والدين"، وقال: "من أحسن إليك كيف لا تميل إليه"، فانظر رحمك الله إلى هذا الشيخ كيف أفاد ما استفاد.)[1]

واسمه عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن نصر بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب τ[2] .

[التعريف بمناقب الشيخ أحمد زروق ومآثره:]

قوله: "والزرُّوقي[3] غامق الكتب"، هذا الشيخ اسمه سيدي أحمد بن عيسى، برنوسي النسب[4]، فاسي الدار، شيخه محمد الزيتوني وأبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، وأخذ عنه سيدي أبو أحمد بن يوسف الراشدي الملياني الدار رضي الله عن جميعهم، ونحن متعلقون بسلسلتهم المباركة[5] ومستندون لسندهم المكين.

(وكان معاصرا لمصباح التوحيد سيدي محمد بن يوسف السنوسي الحسني، قال τ في مقالته التي سماها «نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير»: "فلما لقيتُ الشاب الفقيه العالم الحافظ الأديب الرباني أبا العباس أحمد البرنوسي الذي يعرف بالزروق، وسألته عنه لما قدم سنة ست وأربعين وثمانمائة قاصدا لحج بيت الله، ولعل أن يلقى الكبريت الأحمر أبا العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، فأخذ عنا علما جما، وأخذنا منه سرا وأدبا، فقلت له يوما: ما بال أبي الحسن الصغير السوسي الذي يقولون؟ فقال: نعم أبو الحسن ليس له إلا حفظ الظاهر خاصة، وليس معه من الباطن شيء وقال بعبارته: "هو فقيه قح محجوب عن الدقائق والرقائق". من لفظه.

فانظر رحمك الله إلى حال هؤلاء السادات وكيف ينسبون الحق لأهله ويحذرون مما خالف الحق، لأن حبهم في الله وبغضهم في الله، ومع هذا يكتبون وقائعهم ولا يعيب ذلك عليهم، ونحن اليوم من قال مثل قولهم وفعل مثل فعلهم عيب عليه وسخر به، فإن احتج بهم يقال: وأين ذلك الزمان وأين رجاله؟ ولم يعلموا أن رب الجميع واحد

---

[1] الكلام من (وقد قال τ: "سألت الأستاذ – إلى – هذا الشيخ كيف أفاد ما استفاد) ساقط في (ب) و(ج).

[2] لاحظا اختلافا في سلسلة نسب أبي الحسن الشاذلي بين (ن أ) و ما أورده عبد الوهاب فرحات على مستوى هذه الأسماء: بن حاتم بن قصّي / محمد بن الحسن. ينظر:-عبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حياته و مدرسته في التصوف، ص: 44.

يقال أن محمد بن الحسن بن علي الذي رفع إليه الشاذلي لم يُعقّب، بل لم يُعقِّب من أولاد سيدنا الحسن الاثني عشر إلاَّ الحسن المثنى، وزِيدَ كما أنه لم يعقب من أبناء أخيه سيدنا الحسين السبط إلاَّ علي الأصغر الملقب بزين العابدين، كما في "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 63.

[3] زرّوق لقبُ جدّه، كان بعينه زرقة فقالوا: زرّوق، فَسَرَت في عَقِبِه. ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، ص: 08.

[4] يقال البنوسي أو البرنسي، نسبة إلى قبيلة من البربر بين فاس وتازا. ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] أي أن المؤلف محمد بن سليمان صاحب "كعبة الطائفين" ينتسب إلى السلسلة الشاذلية من طريق سيدي أحمد بن يوسف الملياني.

ونبيهم واحد ودينهم واحد، حتى يموت المعاصر تراهم يتحسرون عليه ويقولون: يا ويلنا على ما فرّطنا في فلان، فهلّ اغتنمتموه حين كان بين أظهركم ولكن المعاصرة حرمان، "والولي كالنار لا تحمر حتى تفقد".

وإنما وصف الناظم هذا الشيخ بكون كتبه وتآليفه غميقة لأنه ممن خصه الله بذلك، فكلامه مختصر مفيد لا يفهمه إلا من كان ذكي العقل، ولا يستخرج حِكَمه إلا من كان غواصا درّاكا)[1]، وله تآليف جمة منها: «النصيحة الكافية[2]»، ومنظومة في عيوب النفس، وخواص أسماء الله الحسنى في كل وجه، والوظيفة المشهورة وغيرها، وقيد سبعة عشر شرحا على حكم ابن عطاء الله[3] وشرحا على الرسالة القرطبية، وأعمقها تأليفه الذي جمع فيه "قواعد الطريقة"[4].

قدم علينا الفقيه العالم سيدي عبد القادر بن سعيد البرسي[5] سنة خمس وخمسين فأضفناه ووجدني أقيد هذا الشرح فنظر فيه وتصفحه، ثم قال: من أين لك هذا العلم؟ فتأدبت معه حتى قال لي: منذ زمان قرأنا كتاب «الإحياء» على شيخنا سيدي الحاج بوعلي بن علي أبهلول بمجاجة[6] وختمناه في أربع سنين، فقلت له: وأنا والحمد لله هو كتابي مارسته وختمته واعتمادي عليه، فقال: إذن كيف تقول من أين دخلت هذا البحر!، فقال لي: فاشرح «قواعد الزروق»" حين خضت في هذا العلم وشرحتَ هذه المنظومة[7]، فقلت له: إني لا أقدر على ذلك، وإنما تجرأت على هذه القصيدة لكون ناظمها سألناه عن بعض مسائلها وعرفنا بعض طريقته وأَذِن لنا في كلامه، وربما كان يسألني عن بعض ما فاه به فأُجيبه بكلام من قبله فيفرح بذلك ويدعو لي، فحينئذ سلم وأدخلني تحت برنوسه، وقال لي: هكذا أدخلني سيدي محمد بن أبهلول وضمَّنِي بقدر ما يقرأ القارئ سورة من الطوال، وأخبرني بما أعطاه شيخاه المذكوران وأوصياه به فوادعته وأعرته كتاب «الإستنباط». وبعد فراغه من نسخه توفي رحمة الله علينا وعليه.

وها أنا أذكر لك بعضا من «قواعد الزروق» وفوائده لتستفيد وتفيد وتخلص الدعاء للمفيد، فمن ذلك قوله في الكتاب المذكور (قاعدة): "تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد وجوه الاستحسان، وحصول الحسن لكل مستحسن فمن ثم كان لكل فريق طريق، فللعاصي تصوف حَوتهُ كتب المحاسبي ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في «مدخله»، وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربي في «سراجه» وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في «منهاجه» وللمتريّض[8] تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه، وللطبائعي[9] تصوف جاء به البوني في أسراره، وللأصولي تصوف قام به الشاذلي في تحقيقه، فليعتبر كل بأصله من محله.

قاعدة: "في اختلاف المسالك راحة للسالك وإعانة له على ما أراد من بلوغ المراد، فلذلك اختلفت طرق القوم ووجه سلوكهم"، قاعدة: "اتساع الكلام وتشعبه في الأصل والفرع مفيد لمن له أصل يرجع إليه، وإن كان مشوشا

---

[1] الكلام من (وكان معاصرا لمصباح التوحيد – إلى – من كان غواصا درّاكا) اقط في (ب) و(ج).

[2] " النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية" شرحها محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن زكري. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، (ج2)، ص: 89.

[3] يقال أنه كتب على " الحكم" نيفا وثلاثين شرحا، منها: "الأنفاس الزكية في شرح الحكم العطائية" و " تنبيه ذوي الهمم على معاني ألفاظ الحكم"،. المرجع نفسه، ص: 92.

[4] كتابه المعروف " قواعد التصوف".

[5] سيدي عبد القادر بن يسعد تخرج من زاوية سيدي محمد بن علي المجاجي رفقة ثلة من العلماء، منهم: سيدي المحمّد بن عودة، وسعيد قدّورة، الذي رثى شيخه المجاجي بقصيدة، قال فيها: مصابٌ جسيمٌ كادَ يَصُمُّ مَقاتِلي ورزءٌ عظيمٌ قاطعٌ للمَفاصـــلِ

فلم أرى خطبًا كافتِقَاد أَحبَّـــةٍ ثووا ما بين صمّ الجنَــــادِلِينظر: محمد مفلاح، أعلام من منطقة غليزان، دار المعرفة، الجزائر، دط، 2008، ص:145.

[6] مجاجة قرية بنواحي غليزان، بها زاوية سيدي علي بن محمد المجاجي– تقدمت ترجمته– أخبرنا المؤلف محمد بن سليمان أنه انتسب إليها، ومكث بها طلبا للعلم والمعرفة.

[7] أي قصيدة شيخه موسى اللالتي الموسومة بـ " حزب العارفين" .

[8] في المصدر: وللحكيم. ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمد بيروتي، ص: 86.

[9] أي ما يخص طبائع الناس وأمزجتهم وأبراجهم.

لغيره بنظر المتسعات كـ «القوت»[1]،و«الإحياء» نافع لمن له طريق يقتفيها بعلم أو عمل أو حال فيما هو به فهما مليئان بتعريف النفوس والنافع والأنفع، ويفيدان التحقق والتحقيق، الأول في كتاب «قوت القلوب» والثاني في «الإحياء»، ولذلك قال الشاذلي: "كتاب «القوت» يورثك النور، وكتاب «الإحياء» يورثك العلم"، فالحمد لله الذي هدانا لهذا الكتاب، ونفعنا بما فيه، إنه كريم وهاب.

ثم قال الشيخ زروق يمدح طريق القوم (قاعدة): "تشعب الأصل قاض بالتشعب في الفرع، وكل طريق للقوم لم يرجعوا بها لأصل واحد بل لأصول غير الشاذلية، فإنهم بنوها على أصل واحد هو إسقاط التدبير مع الحق فيما دبره من القهريات والأمريات، ففروعهم راجعة لاتباع الكتاب والسنة وشهود المنّة والتسليم للحكم بملاحظة الحكمة، وهذه مذاهب القوم وحولها يحومون، لكنهم لم يصرحوا بوجوبها كهذه الطائفة، ومن ثم قال ابن عباد τ[2] في «التنوير»: ما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ، قال: والمسلك الذي سلك فيه مسلك توحيدي لا يسع أحد إنكاره ولا الطعن فيه، ولا يدع المتصف به صفة حميدة إلا أكسبه إياها ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه وطهره منها". قال سيدي أحمد زروق ولذلكما قال τ ورحمه الله.

وإنما أوردت هذه القواعد هنا تصديقا لمدح الناظم لمؤلفها بقوله: "والزروق غامق الكتب"، ولتعلم أن النظر في المطولات كـ" الإحياء "يحي القلوب ولا يملها إلا محروم أو مسلوب، وأرجو إن شاء الله أن يكون كتابنا هذا من أعظمها نفعا وأوسعها جمعا، لأنه حوى جل ما في تلك الأمهات ولم يترك من جواهرها إلا ما ينتظم في سلك هذه المنظومة بشيء من المناسبات لأن الشارح لا غرض في نفسه، وإنما زمامه بيد مشروحهيدور كيفما دار ويصير حيث صار.

[فيما كتبه الشيخ الحضرمي من فوائد وحكم وأسرار إلى الشيخ أحمد زرّوق:]

ومن فوائد هذا الشيخ ما ذكره في خواص أسماء الله الحسنى، قالτ (فائدة): مما كتب به إلينا شيخنا الحضرميτ: [هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ][الحديد/3]، يقرأ بعد صلاة ركعتين خمسا وأربعين مرة فإنه يصلح لجميع المطالب، زاد في غير الخواص أن الركعتين يقرأها بفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص، ويقرأ دعاء الاستخارة ثلاثا، ثم يتلو الآية العدد المذكور فإن الله ييسر عليه كل عسير، ويدله على ما فيه صلاحه.

قلت: وهو مجرب الفائدة لمن أخلص فيه النية، ولقد دللت عليه فقيرا ذا عيال لا حرفة له إلا السؤال وكانت مسغبة، فصار يقولها في بيته ثم يخرج طالبا لرزقه، وآخر كسب المرء السؤال فيفتح الله له على أيدي المسلمين ما يكفيه في ذلك اليوم هو وعياله وفرسه، واستمر على ذلك إلى الآن وجعله حرفته فوجد بركته، (ومما ظهر لي في سر هذا العدد المذكور أنه على عدد حروف هذه الآية المذكورة بنوني التنوينين والهمزة والمضعف من حرفين، فاعرف ذلك.)[3]

[1] كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكي.

[2] في المصدر ابن عطاء اللهτ ، وهو الصحيح، لأنه هو مؤلف كتاب " التنوير في إسقاط التدبير".

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

فائدة: ومن خواصه أيضا، وإن أردت تدمير الظالم وقطع الجبابرة والفسّاق أكتب جدول البسملة بمِديَةٍ في قطعة من الآنك[1] وتجعل اسم المذكور في جدول الخاتم، وتبخره بالحنتيت والثوم الأحمر، ويجعل الخاتم حول النار، وإياك أن تلحقه النار فإنه يهلك ويحاسبك الله، واتق الله، وهو هذا: "اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا إله إلا هو، الذي أذعنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت له القلوب من خشيته أن تصلي على محمد وأن تقضي حاجتي في هلاك فلان، بن فلانة، يا قهار يا قادر يا مقتدر يا إله، يا إله، سبع مرات، تدعو به سبعمائة مرة، فإن الظالم يموت، وهي دعوة مستجابة، وهذا هو الخاتم المبارك:

بسم	الله	الرحمن	الرحيم	فلان
الرحيم	فلان	بسم	الله	الرحمن
الله	الرحمن	الرحيم	فلان	بسم
فلان	بسم	الله	الرحمن	الرحيم
الرحمن	الرحيم	فلان	بسم	الله

قلت، وهذه أيضا مجربة عندي غير ما مرة، والسرُّ في الإتّباع واليقين والإتقان والتحيُّن. من كتابه « الكناش في العلم غير الفاش».

فائدة[2]: إذا كتبت اسم الضالة[3] أوالمسروق على الموضع الذي سرقت منه رجع إليه، ومن كتب اسم الضائع على باب المنزل فإنه يرجع بإذن الله، ويكتب على بيضة دجاجة من أول سورة الملك إلى حسير، ثم يدهن عليها قطران وتعطيها صبيا غير مميز وتغطيه عليه بشيء، ثم تقرأ عليه سورة (يس) والصبي ينظر إليها فإنه يرى السارق فيها، وإذا حلف المُنْكِرُ للحقِّ يوم الجمعة بين الصلاتين في (سورة المجادلة) ويده عليها من المصحف قائلا بمن أنزلها وأنه أنزل الكتاب المبين، عوقب وعمي في يومه إلّا أن يتوب.

ويقرأ بين يدي الظالم: يا عزيز يا جبار يا متكبر [وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ] [غافر/27]، إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره، بك أحاول وبك أقاتل وبك أصول، فإنه يذل ولم يقدر على شيء بفضل الله. وللعدو:[قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا][الإسراء/51،50][فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى][طه/67]، [وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ] [يس/9]، يقرأ على تراب من بين رجليك وترميه في وجوههم.

وللمصروع يقرأ على ماء ويُرَشْ على وجهه فيفيق: المص طسم حم عسق يس والقرآن الحكيم، ص والقرآن ذي الذكر، والقرآن المجيد، ن والقلم وما يسطرون، ويعلق الختم مع الكبيريت ويطرح للطير فإنه إذا أكله سكر، وإن أردت استيقاظه فاسْقِهِ[كذا][4]. ولشرب ماء الحمص يقوي على النساء، ومرارة الكبش السمين تخلط بعسل ويدهن بهما القضيب فيشتد، وكذا مرارة دجاجة سوداء بعسل يلطخ بها أيضا، ويؤخذ ماء ورد يقول عليه (بدوح) تسع مرات وهو في فمه ويرده في الكوز، ثم يسقى منه من أراد أن يحبه مجرب. وللمعقود يكتب على عين فأس ويحمى ويبول عليه وهو تحته ويغمر نفسه، فإنه ينطلق. وهذا ما يكتب: ففلجم ففلجم هاروت وماروت سيحح ميح مرة.

[1] الآنك: هو الرصاص.ينظر: محمد بن الحاج الكبير، تاج الملوك المسمّى بدرّة الأنوار، مراجعة: عبد الفتاح السيد عبده الطوخي، المكتبة العلمية الفلكية، بيروت، دط، دتا، ص: 104.

[2] الفائدة ساقطة في (ب) و(ج).

[3] أي اسم الشيء المفقود.

[4] طمس في الأصل، وساقط في (ب) و(ج).

وللمحصور،[وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ][البقرة/74]، [وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً][القمر/12]، واسقه له أو في سَعَفٍ[1]واحزمه به. ولدر اللبن يكتب [وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ][النحل/66]، اللهم كما خلصت موسى بن عمران من فرعون خلّص لبن هذه من كل عائن وساحر ومن الشيطان الرجيم، والكمون ينقع يوم وليلة ويضاف له مثله ومثل عسل نحل منزوع الرغوة ويخلط الجميع ويفطر عليه من يقطر البول أياما فإنه يبرأ، وكذا لو طبخ كِلية الثور بالكمون في زيتها وأفطر عليها أيام برئ.

وللضرس يكتب في خبز فيأكله صاحبه، وفي مسمار يسمر حيث لا يقلع: أيتها الضرس الله خلقك وفي اللحم أنبتك وإلى الموت مصيرك، أسكن كما سكن عرش الرحمن: [وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] [الأنعام/13]، وللعين: [وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً][الإسراء/45] [وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً] [الإسراء/46]، [وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ][القلم/51]، وللبياض ويزيله الاكتحال بدم الهدهد وهو حار[2]، وكذا ماء الرمان الحلو البالغ وقلب الهدهد يبتلعه حار فإنه يذكي العقل، ومن علق لسانه على ذراعه الأيمن غلب خصمه.

وللحفظ: ثلاثة أواق قمحا ومثلها زبيب أكحل ومثله عرق سوس ومثلها سكر ومثلها عسل، يطبخ الجميع ويفطر عليه سبعة أيام، وقلب الخفاش إذا وضع على صدر النائم أخبر بما فعل، وكذا كليتي الأرنب ويكتب بزعفران: [فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً][النساء/41]، وتجعل على صدر النائم، فإنه ينطق بما فعل.

و للمْجرَّب[3] يقرأ على الكبريت: سليط وكف كفت شفت، ويدهن به ثلاثة أيام فإنه يبرأ، ويقرأ أيضا: [وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ][الأعراف/163]، ثم يقول كذلك الجَرَبْ لا يأتي، وللفار تقرأ إلى القبلة ثم إلى الجوف ثم إلى المغرب ثم إلى المشرق: [انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً][التوبة/41]، وأيضا يكتب في أربعة أشقاف ويدفنها واحدة في كل وجهة: [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ] [المائدة/78] ، ويكتب على أظفار رِجل اليمنى (بدوح) على كل ظفر فإنه لا يعيا ولا يتعب.

---

[1] حزام من الحلفاء.

[2] لاحظنا وجود كثير من الكتابات التراثية التي تتحدث عن هذه الجوانب المرتبطة بالطب الشعبي أو التقليدي منها إشارة ابن الحاج الكبير إلى خواص بعض الطيور وأصنافها ومنافعها وأسمائها، ومن ذلك منافعها في إبراء العين من العمش والدمعة، ومن ضمن ما ذكره، قوله:

يا سَائلا عن جملة الطيور   هاك المنافع على المشهور
ورأسه للدمع والأعماش   مخلطا مع رأس الخفــاش
ومرارته على الإطـلاق   لعلل العين بلا شقـاق
وقلبه للحفظ والصبيان   ومن أراد قــراءة القـرآن

- ينظر: محمد بن الحاج الكبير، تاج الملوك المسمّى بدرة الأنوار، مراجعة: عبد الفتاح السيد عبده الطوخي، ص: 35.

[3] أي المريض بالجَرَبْ، لعله الجذري.

صناعة حبر طيب يصلح للسفر عفص و صمغ مساويان، ومثل نصف أحدهما زاج يسحق الجميع ناعما، ويلف ببياض البيض، ثم يجفف للظل، فإذا أردت استعماله سحقته وحللته بالماء عمل لِيقةً ذهبية يؤخذ رطل سندروس ويسحق[كذا] أوقية نَشَا ذرّ ويخلط جميعا بالسحق ويدفن في زَبَل الخيل أسبوعين فإنه ينحل، ويكتب به مثل الذهب الابريز.

فائدة[1]:في سر الله في انقلاب الأعيان، يؤخذ عبد ومشترى وأكل من كل واحد خمسة دراهم يسحقان غاية ويلحق بأوقية. وذكر في برط ويشدّ وَصْله ويُسْبَك بسبك الزهرة أو القمر واحدة على عشرة دراهم، صح وجرب. وأيضا يؤخذ رطل من ملح أنوراني ويسحق بأصفر بيضتين ويُلَك بطيرين كاملين، أي بياض البيض بعد انعامه فإذا صار قُرصَةً فرّش له أفراخ مطبوخة في فصوص بيضات وغطه بمثلها في بيت مزجج أي قدر جديد مطلي ثلثها مستريح أي فارغ ثم أحبسها في النار إلى الغد، ثم بردها ثم اسحقها ولتّها أيضا بطيرين كاملين وفرش لها وغطها كأول مرة، ثم برد وافهر وعد عملك كل يوم فاكسه في العشر الأول يسود، وفي الثانية يصفر، وفي الثالثة يتزعفر، ثم يتعقرب وبعده تدخله الحمرة، وبعد ثلاث تشتد فيه ويزول ملحه فخد العبد وادخل عليه مثله شمسا بعد تطريقة واجعل قلامة وفرش له وغطه مما بيدك وحظنه ليلة في ليلة فإنه يتكلس يصير عجيبا فرش له مما بيدك وعطه به وألقمه بعشرة أمثاله أيضا وحضنه في ذلك الملح أيضا يصبح ثابتا قاطعا مثقاله الواحد يكلس ويقيم عشرة من الأسرب بل يصيره ترابا أحمر واحد من ذلك الأسرب، يقيم ثمانين من القمر شمسا وإن حللته وعقدته أقام واحدة ألفا، أي جسد شيلت، والله أعلم. من «الكناش». فمن وجده فليقابل الفوائد علما وعملا ويصححها.

[في ذكر الشيخ أحمد بن عثمان من صلحاء القرن 17م:]

قوله: "عن القومي حسرتي حسرا أحمد بن عثمان" (هكذا رويته عن الناظم، فيحتمل أن يكون قصد به وليا من بني جومي غير مشهور لا نعرفه، ويحتمل أن يكون قصد به والد سيدي إبراهيم بونقاب، وهو معروف من صلاحاء بني قومي، إلا أن اسمه محمد بن عثمان، أخبرني بذلك من يعرفه حق المعرفة)[2]، ويحتمل أن يكون قصد شيخين الأول محمد القومي الأصل وهو كوش توطّن فاسا ودفن بها وهو مشهور عند أهلها، والثاني سيدي أحمد أو محمد بن عثمان.

حدثني تلميذ سيدي محمد القومي الفقير الأبر الناسك الحاج بن عبد الرحمن بن المرابط الخراساني التلمساني، وكان شديد المحبة، قال: "إن هذا الشيخ إذا مات أحد من الأولياء يقول لي إن فلانا توفي في البلد الفلاني، فيكون كما قال، وقال لي أيضا كنت أبيت معه في مشربته فأسمعه يتحدث مع الصالحين، ويتحدثون معه ويسلمون عليه فيردّ عليهم، قال: وكان يدلني على الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي[3] فتأبّيت عنه، فقال: يا ولدي فو الله لم يبق لك عندي لا قليل ولا كثير، اذهب إلى الشيخ عبد القادر يكمل لك ما بقي، قال فغاضني برأفة

---

[1] الفائدة ساقطة في (ب) و(ج).

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] سيدي عبد القادر بن محمد بن سيدي سليمان بن أبي سماحة، المدعو سيدي الشيخ، شيخ متصوف ولد حوالي سنة 1533ه، أسس زاوية مشهورة، ذاع صيتها في منطقة الجنوب الغربي لبلادنا، عرفت طريقته باسم "الطريقة الشيخية"، وهو صاحب القصيدة في التصوف المسماة " الياقوتة"، وهو أيضا ابن خال الولي سيدي يحي بن صفية (دفين جبل بوغدّو بتلمسان) ورفيقه في الطريق وطلب العلم، (تقدّمت الإشارة إليه في قسم الدراسة).

وذهبت لمسجد وبت فيه باكيا، فلما غلبتني عيناي وقف علي سيدي محمد القومي وأخذني من رصغي ومكنني من يدي سيدي عبد القادر، وقال له: ها هي أمانتك بلغناها لك، فلما أن أصبح قال لقيت سيدي محمد، فقال لي: رأيت بعينك ليس الخبر كالعيان، فقلت له: يا سيدي لم أكذبك، ولكن صعب علي فراقك ولا أقدر عليه، قال: فذهبت حتى بلغت للشيخ سيدي عبد القادر، فقال لي: لاش يبغي يشيعك لنا وأنت تأبى، فقلت يا سيدي أَلِفتُهُ فلذلك عَزَّ عليّ فراقه، فقال: يا ولدي نحن معه سواء.

وبنو جومي مداشر بالصحراء بلد الجريد غربي فجيج[1]، وفقيق وبنو قومي ومثلهما، هل تكتب بقاف أو جيم أو كاف ويعجم من أسفله لغات.

[في التعريف بالشيخ سيدي أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي مَحَلِّي[2]:]

قوله: "والقطب بن عبد الله غابر الحمرا"، (القطب بضم الطاء وإسكانها مأخوذ من قطب الرحى التي تدور عليه وهو ثابت ساكن كما تدور بنات نعش على قطب الفلك وهو ساكن مستكن، فكذلك قطب دائرة الأولياء مكين متمكن، قال رسول الله ρ:« جعل الله لكل شيء قطبا، وقطب القرآن: [وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ][النساء/131]»[3]

تذكير: ألفيت بخط شيخنا وبركتنا قطب عصره سيدي محمد بن علي المدعو العبدلي ما نصه: "الحمد لله وجدت بخط شيخنا العلامة سيدي سعيد بن أحمد المقري τ ما نصه: سأل الشيخ البركة عبد الرحمن اليعقوبي الولي الزاهد سيدي الحاج الشطيبي رحمهما الله أن يوصيه بوصية أو يعظه بموعظة فأجابه بهذه الأبيات والحديث المذكور، وقال له: هذا ما عندنا وانقطع الحبل والسلام، وكتبها بيده الكريمة، وهذه الأبيات:

فَنَى كُلُّ شَيءٍ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّـــهُ ... لِدِينِي مَعَ دُنْيَايَ أَجْعَلُهُ ذُخْــــرًا
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُـــهُ ... فَحَسْبِي بِهِ شَرَفًا وَحَسْبِي بِهِ فَخْــــرًا
وَمَنْ كَانَ وَجْه اللهِ أَعْيَا مُـــرَادَهُ ... فَلَيْسَ فِي الكَوْنِ دُنْيَا وَلَا أُخْــــرَى

قال الشيخ بن علي الرفاعي رحمه الله القطب الغوث يطلعه الله على غيبه، فلا تنبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بعلمه)[4]، واسم هذا القطب الذي ذكره الناظم: سيدي أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلِّي، أبوه عباسي وأمه حسنية، له تآليف عجيبة وقصائد غريبة كـ «القِسطاس» و«الإصْلِيت»[5] وغيره، وشيخه في الطريقة سيدي محمد بن مبارك الزعيري المدفون بقرب أبي يعزى.

---

[1] تتربع منطقة فجيج في أقصى الجنوب الشرقي من المغرب، على حلبة تشكلها جبال الأطلس الكبير الشرقي التي تمتد نحو الجزائر.

[2] أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي، طلب العلم بفاس، ألف كتابا في موضوع البدع والمنكر، سلك طريق التصوف مقيما بالزاوية اللائية، ولما سلّم المأمون السعدي العرائش للإسبان سنة 1019هـ أظهر الغضب ودعا للجهاد، ثم قاد الحملة واستولى على درعة ومراكش، غير أن السلطان حاربه وانتصر عليه وقتله سنة 1022هـ. ينظر: محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتُّباع وما لهما من الأتباع، تحقيق: عبد الحي العمري وعبد الكريم مراد، دار المغرب، ط1، 1994، ص: 36.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الكلام من (القطب بضم الطاء وإسكانها – إلى- ولا تخضر ورقة إلا بعلمه) ساقط في (ب) و(ج).

[5] يسمّى: " الإصليت الخِرِّيت في قطع بلعوم العفريت النفريت". ينظر: بن علي محمد بوزيان، واحة فجيج تاريخ وأعلام، (د دار النشر)، المغرب، دط، 1987، ص: 219.

حدثني الشيخ البركة سيدي عبد الرحمن[1] بن يحي بن صفية رحمه الله، قال: حدثني سيدي أحمد المذكور عن بعض شأنه، فقال: نشأت بتافيلالت وقرأت فيها أول أمري، ثم خرجت لفاس نريد الزيادة من العلوم، فلما قدمت ودخلتها قرأت من «مختصر خليل» لباب الزكاة، ومن«ألفية ابن مالك» للصفة المشبهة، وختمت فيها «رسالة ابن أبي زيد»، و«الجرومية»، قال، وأظنه قال: و«صغرى السنوسي» فقط.

ثم خرج فالتقى مع شيخه المذكور فأخذ عنه وصار يخدمه إلى أن نال منه، وشيّعه للحج راجلا، قال: فتهت ولم أملك عقلي حتى صليت الركعتين في مقام إبراهيم، ففقهت حينئذ ما حصل لي من العلوم وفتح الله علي بلا تعلم، قال: فلما رجعت لسجلماسة المذكورة امتحنني أهلها، وقالوا: أردناك تقرئنا في الكتاب الفلاني من المحل الفلاني، فنظرت لذلك المحل المسمى، فلما حضروا بدّلوا وقالوا: نقرأ من غير ذلك المحل، فقلت: على بركة الله، فلما استعنت بالله سمعوا ما أفهمتهم والحمد لله، ثم عاود الحج فوقع بينه وبين البكري عالم مصر مخاطبات، ثم تأهل.

ومن تمام شأنه أنه تزوج ابنة الشيخ البركة سيدي عبد القادر بن محمد السماحي، وبقي عنده مدة يقرأ عليه، ثم افترقا بعد أن شهد له بالعلم، لم يتابعه على الطريقة الأخرى، فوقع بينهما ما يغفره الله ويصفح عنه[2]، إذ لا يكون الصدّيق صدّيقا حتى يقول فيه ألف صدّيق أنه زنديق، فلما ذهب إلى المغرب اجتمع عليه من يحبه من المشارقة والمغاربة وبايعوه، وقصد جهاد الروم ببلد العرائش، فلم يجد إلى ذلك سبيلا فقاتل من عارضه، ووقعت بين المسلمين فتن كثيرة واستولى على دار الإمارة مراكش، ثم انكسر وغُلب عنها فاضطرب الناس في أمره، فمن قائل توفي، حينئذ أخذ بظاهر الشريعة في مفقود صفين، ومن قائل لم يمت هنالك اعتمادا على ما قال لهم قبل ذلك، أنه يغيب عنهم حتى يظن جل الناس أنه مات، وأخبرهم بمغيبات فظهرت كما قال، ثم اختلفوا بعد هذا في حاله فمن قائل إمام مهدي ومن قائل وال ولي، ومن قائل أمير مسلط فقط، والله أعلم، بمن فرط وأفرط، ونحن إنشاء الله نختار الأمر الوسط والله يحفظنا من الغلط.

حدثني سيدي بوزيان بن الفضل الحيحي، قال: سألت أمير الروحانيين أبا الحسن علي عن أمر حياته بالله العظيم ونبيه الكريم، فلم يجبني فورا حتى قال: [فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ [فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ]][ق/22]وقال له تسبيح القطب فيا خالق الكل اغفر للكل، واستخرت الله أنا في صاحب غار كسى المزار بعد الغيبة المتردد له وفيه هل هو هو؟، فقيل لي في النوم بعد الإذن [فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً][المعارج/5-7]، وقد قال هو في بعض قصائده:

هَبْ أَنِّ لَسْتُ بمَهدِي الذَّاتِ   أَلَسْـتُ بمَهْــدِي الصِّفَـــاتِ

---

[1] الولي سيدي عبد الرحمن ، أطلق عليه والده سيدي يحي بن صفية اسم " القطب"، دفين جبل بوكثوم، نواحي وجدة بالمغرب، -وهوجدّنا، إليه يرفع نسبنا-، وكانت له صحبة مع ابن أبي محلّي. ينظر: - الجيلاني بن عبد الحكم، المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، مطبعة بن خلدون، تلمسان، (دط)، 1364، ص: 45./ - قويدر قيداري، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار، دراسة تاريخية وأنثروبولوجية، ص: 89.

[2] وقعت بينهما خصومات ومساجلات علمية حول الممارسة الصوفية الصحيحة، ممّا حدا بابن محلّي أن يؤلف بعض الكتب لمهاجمة الشيخ عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ) والتشهير ببعض ممارساته المنافية للشريعة كما زعم: منها " الإصليت"، و"منجنيق الصخور لهدم بناء الشيخ المغرور، ورأس الفجور" و " مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة، ومدارس نفوس السفلة المنخدعة" ، ينظر: بن علي محمد بوزيان، واحة فجيج تاريخ وأعلام، ض: 66، 77، 78، 79،..

ورأيت كتابا له بخط يده المباركة، خطا حسنا بارعا، ولفظا رائعا جامعا، يقول في وسط: "إلى الرائع البارع الفم والقلم بالبيان والبنان مقام أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد السجلماسي اللمطي، أماط الله عنا وعنه في سبيل القصد كل عائق يصدّ الصادق في إيمانه مع الجادة البيضاء، إلى حضرة الملك المعظم، وألهمنا بفضله لما يقربنا من رحمته الواسعة في القول والعمل والعقد، وجنبنا وإياه كل ما يتعرض به لسخط الرب جل وعز في هزل منا أو جدّ، كتبه البائس الفقير أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلّي جوابا عن مرسومكم الخطير ومرقومكم الأثير تفقها بمجاورتكم الشهيدة، أو تذكرا لإنسيتكم البهية، وكيف لا وفي علمكم أيها الأخ النبيه أن من أبر البر أن يكرم الرجل أهل ودّ أبيه، وأيضا فإنه ما ترك من اللوم شيئا عند الكرام من لم تمح عنده الحسنة السيئة في الأنام، نعم من استغضب ولم يغضب فهو الحمار، ومقابله بالنص شيطان عند الأحبار، وذكر الذنب عند الخاصة في مقام عين الصفا وبعد الأوبة الصادقة من قبيل الجفاء، إذ الإحساس بالمؤلم في غمرة الفناء، وبالمشهود جرحة في الدعوى عند أئمة الوجود، لكن هذه في النهاية وإلا فلابد من التألم من التقصير في الحقوق للمريد عند البداية، وإلا فهو مغرور أو مبتور، وأجمل شيء في الحلى عفو قادر ماجد على مذنب لم يقترف زلة الجحد، فللّه در الطاوي في قوله، وقد أجاد وقاس الجود بالصرع والمد: وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا // وما في إلا تلك من شيم العبد، والحمد لله على منة اليقظة ونعمة إلهامه بتخصيصه، ونعود به تعالى من بلية امهاله المستدرج، وليس بغافل إلى اليوم تمحيصه.

هذا وإن من حسن التدبير إعطاء التدبر والتثبت حقه، والنظر في معاني الأمور بعين الاستبصار، من التأييد من رزقه كفى خرفه، وعابد غير خالصه لا بد أن يتورط يوما في بعض مزلته والعلم الحقيقي صوان صاحبه من الرزايا، والعقل المؤيد بالتوفيق في مداركه هو الذي ينهى عن الدنايا، والكمال المطلق إنما له واجب الوجود، ولكن لكل مهدي بسعادته أسوة بها دين، وقدوته عليه الصلاة والسلام في صدوره كوروده، فمن تقيد بهديه يوشك أن يتأيد بوحيه".[1] ما وجدته كما ألفيته.

فإن قلت كيف نسبه المصنف للقطبانية مع ما ذكر، قلت: سألت الناظم عن ذلك فقال: "أَوَ في شَكٍّ أنت منه"؟، قلت: "وما وقع له (من نهب الأموال وسفك الدماء)[2]"، قال: "لا يقدح له ذلك في رتبته لأنه على بينة من ربه[3]، (ولا يقدم على أمر حتى يعلم وجه المخرج فيه، إما اعتمادا على قوله ﷺ في حديث العصمة إلا بحقها أو بوجه ظهر له، ويعضد هذا الجواب ما رواه الإمام السنوسي عن جمال الدين الغرناطي رضي الله عنهما أنه كان يوصي أصحابه ويقول لهم: "من ثبتت إشارته ودلت عبارته ولاحت ولايته لا ينبغي الإنكار عليه في كل أفعاله كيف ما كانت". من «نصرة الفقير».

وحدثنا غيروا واحد ممن يستحيل تواطؤهم على الكذب أنه ما سئل عن شيء في إمرته ولا قبلها إلا ويجيب بالكتاب والسنة، وبأقوال العلماء حتى يبصر السائل ويسلم الجواب لتحققه بالصواب.)[4] وما يسمع من الطعن فيه

---

[1] النص ساقط في (ب) و(ج).

[2] ساقط في (ب) و(ج).

[3] في (ب) و(ج): على بينة وبصيرة.

[4] الكلام من (ولا يقدم على أمر حتى يعلم – إلى– ويسلم الجواب لتحققه بالصواب) ساقط في (ب) و(ج).

من بعض الناس فتلك سنة الله في أوليائه أن يقال فيهم من الزندقة إلى القطبانية كما وقع للغزالي وابن العربي والحلاّج وابن الفارض.

وقد صرح هو في كتابه «القسطاس» أنه حج مع صاحبه سيدي محمد بوبكر صاحب دلا، فرجع سيدي أحمد وجاور سيدي محمد فسأله وأوصاه أنه إذا رأى النبي ρ يسأله عن حاله ومقامه، قال سيدي محمد المذكور فرأيت النبي ρ بعد ذلك في حلقة من الأخيار وفيها فرجة، فأردت أن أجلس فيها فقال ليυ: "ليس ذلك موضعك، فقلت: "ولمن هو يا رسول الله؟ قال: "لقطب المغرب أحمد بن عبد الله"، فقلت: "دعني أجلس على وجه النيابة حتى يقدم صاحب المقام" فأذن لي فجلست.

وكنت أتردد فيما وقع له وفيما شجر بينه وبين سيدي عبد القادر المذكور، وفيما أسمعه من تابعيهما، كل يركن إلى متبوعه ويزهد في الآخر؛ بل يرد عليه، وأنا محسن الظن بالجميع، لأن المؤمن يلتمس المعاذير، لكني لا أعلم الفاضل من المفضول، حتى أطلعني الله على ما يقر العين ويبرئ الإمامين.

قال الشيخ سيدي محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد المسعودي الڤوراري المنشأ والمكسب، الوطاسي ثم المريني الأصل والنسب: كنت نهار الخميس الرابع من المحرم تمام ثلاثة عشر وألف نائما على فراش غير طاهر وعلى غير طهارة حُكمية، فرأيت كأني أخاطب رسول الله ρ وأسأله ويجيبني من وراء حجاب، ولا أدري ما ذاك الحجاب، غير أني مستغيثا بأن المخاطب رسول اللهρ ، فأول ما طلبته الشفاعة، فقلت: أتشفعُ فيّ يا رسول الله؟ فقال: نعم، وتشفع أنت في غيرك، ثم سألته عن والدي، فقلت: أوالدي في الجنة يا رسول الله؟ فقال: نعم، ولكل واحد منهما فيها بقدر عمله، وسألته عن شيخنا سيدي عبد القادر بن سيدي محمد السماحي أَعَلَى الحق والصواب يا رسول الله؟، فقال: على النهاية في الحق والصواب، لا يشقى جليسه، وسألته عن سيدي أحمد بن عبد الله السجلماسي، فقال: من القرابة ومن أئمته المتقين، وسألته عن حال أهل بلادنا وعما كانوا عليه يومئذ من الفتنة العميقة، فقال لي: أمة مذنبة والرب غفور، هكذا بالتعريف، وقلت له: هل تشفع في مصابهم يا رسول الله؟ أعني القتلى بينهم، فقال: نعم هم أمتي لا يرون من الهلاك إلا ما يرونه قبل أن تدركهم الشفاعة أو كلام نحو هذا، وقلت له: ما هذا الحجاب الذي بيني وبينك يا رسول الله؟ فقال: أغيار وأنوار، فعند ذلك طلبت رؤية وجهه منه ρ فقلت له: أريد أن أرى وجهك يا رسول الله؟ فما تم كلامي حتى ظهر لي وجهه الشريف ρ فعاينته فإذا هو على النعت الذي هو عليه ρ أزهر اللون كث اللحية، ما رأيت فيها شيبة، مستدير الوجه في غاية الجمال، ثم عاودت النظر فيه ثانيا فغلب على عيني نوره". المراد منها ومن خط الرائي نقلته.

فإذا ثبت أن هذا القطب (من القرابة المتقين)[1]، فيجب علينا التودد إليه والتحبب بما أمكن، ولو بحسن الظن لقول الله تعالى لنبيه: [قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] [الشورى/23] وتقدم ما في حرمتهم من الأحاديث، هذا مع ما خصه الله به من غزارة العلوم وكثرة المجاهدات، ولا نعلم في زماننا هذا من يساميه في العلوم ولا من يدانيه في الفهوم، ومن شرط المحتسب أن يكون أعلم وأعرف وأتقى من المحتسب عليه، فإن قلت: قد أنكر الله عليه من شهد فيه بالصلاح وبالعلم، قلنا: جرت عادة الله في ذلك والعاقل يسلم لمن هو فوقه، ويعرض أموره على

[1] في (ب) و(ج): من أهل البيت.

الكتاب والسنة، فما فهمه من أموره الموافقة تبعه واقتدى به فيها، وما لم يفهمه ولم يعرف وجه إدخاله تحت النص، تركه واتبع ما ظهر له نفعه، وإن سمع نزاعا قال: [تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ][البقرة/134]، واعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال، فإن العلم يفرض عليه كل شيء ولا يفرض هو على شيء، وفوق كل من ذوي العلم عليم، فدرجة العلماء فوق درجة الأولياء، قال ابن الحاج عند قول ابن باديس رحمه الله تعالى:

مِن أَبْدَالِهَـــا أَقْطَابُــهَا عُلَمَائُــهَا   أُولِي الكَشْفِ والعِرْفَانِ والبَسْطِ وَالأُنْسِ

هذا من باب اللف والنشر المرتب على وجه الترقي، فالأبدال قبل الأقطاب، كما أن الكشف قبل المعرفة، والعلماء أيضا فوق الأقطاب، كما أن البسط والأنس فوق المعرفة إذا كالمحال أن يعرف أحد من لم تنكشف له حقيقة أمره، ولا ينبسط أحد ولا يأنس إلا بمن عرفه، وليس مرادي بالعلماء أقل ما ينطق عليه اسم العلم وهو ما يخرج من الجهل والتقليد؛ بل مرادنا المرتبة العليا التي ليس فوقها إلا درجة الأنبياء، ومراتب العلماء متفاوتة جدا، منها ما هو فوق درجة القطب ومنها ما هو دونها كما قال الله تعالى: [وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ][يوسف/76]، بخلاف درجة القطب فإنها واحدة، وهي التقدم على أهل عصره ولا تقبل التفاوت بذاتها، وإنما يتفاوت بزيادة العلم والعناية الإلهية، وإذا أمر الله رسوله بالازدياد من العلم ولم يأمره بالازدياد من النبوة لأن حقيقتها واحدة.

ويرحم الله الشيخ البركة الولي الصالح أبا مهدي سيدي عيسى بن محمد الدنيدني فإنه مع مكانته في المعرفة والولاية، وما ظهر على يده من الكرامات والخوارق، لما قُرِأت بين يديه حِكَمٌ أَحْكَمَ وصفها معاصره سيدي أحمد المذكور غشي عليه، فلما أفاق قال: اشهدوا يا ملائكة السموات والأرض ويا من حضر عندي أني سلَّمتُ لصاحب هذا الكلام ثم أنشأ يقول[1]:

(عقرب وسرطان وحوت انتهى لبعض النواحي فضل أمرها برجل يناجي ويخفى ألدها و نج اسمه من لب وكشف الرباب وأبو الحسن ينوب بقرن الرخام بوفد العساكر ونصب العلام وكح لقـــاه بـقوم هضام من أهـل الرواحل وأهل اللثام. فأشار بعقرب وما بعده إلى ثلاثة نفر من أولي الأمر، أمرهم كالقمر مائيون ليليون أسماءهم مقتطفة من طبائع بروج السماء الثلاثة المائية بشاهد قوله: [وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ] [الأنبياء/30]، فالنفر المشار إليهم أسماؤهم يحي بن يحي وابن عمه يحي القدالي وصاحبهما يحي بن أحمد)[2]

أمر المذكورين لناحية معرب سوس فضل أمرها وغاب قمرها بطلوع شمس رجل يزيد في ضيائه على القمر بل يضاهيه، وفي سلطانه على أولي الأمر لكنه يخفي دهاء عقله بتنزله لمن هو ليس بمثله، واسم هذا الرجل العظيم (نج)[3] أي نقط حروفه ثلاثة وخمسون، فهو أحمد بن عبد الله، ونائبه بعد أفول محاسنه في معادنه أبو الحسن علي بن موسى الملقب بودميعة قرن بين العساكر والعلام في قرن الرخام، وأفول الضياء بسبب لقى يحي المشار إليه بنقط حروف

---

[1] في (ب) و(ج): ثم ذكر كلاما لا يفهم رمزه.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] أي على حساب عدد الجمل الكبير، حيث أن: ن = 50، و ج = 03، الحاصل: 53.

و هي القيمة الرقمية لاسم "أحمد" بحساب الجمل، حيث أن: أ=1، ح=8، م=40، د=4، والحاصل هو 53، وهو القيمة الرقمية أيضا للرمز الحرفي"نج".

(كح)[1] لأن نقط يحي ثمانية وعشرون على عدد منازل البروج المشار إلى ربعها بالثلاثة المذكورة القمرية الليلية [يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ][الأعراف/54]، [يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ][الزمر/5]، فلما أن حي يحي من نطفة الماء واستولى في أدراجه واستولى على أبراجه، كثرت أتباعه وتتابعت أشياعه، غربت أنوار شمس النهار وطلعت نجوم الليل والفلك ودَارَ، كل يجري لأجل مسمى، وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو الشرج، فإن رأى كأنه الليل ظاهر فيه على الشمس المنيرة، قد يكثر الظلام وأهل الباطل، وثار في البلاد كل جاهل، لأنه القمر وإلى الليل تتبعه شهب كعد الرمل، فليس للشمس عليه سلطان، فالليل إن خاض جميع الأوطان، وإن يكن ذلك بالنهار فالشمس تنبهر بالأنوار تغلبه، ويظهر الحق ومن يتبع الحق بذاك الزمان. وإلى هذا أشار الشيخ بقوله [حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ [وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ]][يوسف/110]إلى آخر ما ذكر، فافهم إشارة الأحباب لتكون من ذوي الألباب، وقد لوح الإمام قبل غيبته لأسبابها بقوله:

عَجِبتُ لِيَحْيَ الجِدَالِي العُقَاب وَإِبْطَالــهُ في أَهِيــلِ النِّقَــابِ

وَمِـن عَـرَبِ سُــوسٍ وبَـرْبَــــرٍ كِرَامُ النُّفُـوسِ حِسَـانُ الثِّيَـابِ

[حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا][يوسف/110]، مع اشتداد الحبل المنقطع [يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ][إبراهيم/17]، [وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ] [النساء/157]. كما وجدته.

ومن وصايا أبي مهدي المذكور لبعض فقهاء وقته: "كن هيكليا، ولا تكن قصطليا، كن بربك ولا تكن بنفسك، كن بواجد ولا تكن بوجود، كن به تكن له، ولا تكن بك فتكون لغيره، واشتغل بسرك يفتح لك أبواب المعالي، واترك من قلبك العلائق تأتيك من ربك الحقائق، توجه بمولاك إليه ولا تتوجه بغير، واسكن الأرض بجسمك والعلى بروحك، وأنزل منازل الحضرة الإلهية، وارحل من الأكوان إلى المكون، [وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى][النجم/42]، كن روحيا ولا تكن جسمانيا، كن جوهريا نفيسا، ولا تكن عرضيا خسيسا".

وها أنا أذكر لك الحكم المذكورة، قال سيدي أحمد بن عبد اللهτ: "الحياة بساط الحضرة والشوق دليل اللقاء، والعزّ أزلي والمجد أبدي، سنة الله التي قد خلت في عباده، نور تدرك به الأشياء ونور تختبئ به الأشياء، صيانة السر من غير أهله صيانة؛ وعن أهله خيانة، ديباج المؤمن التقى، ومن تاه في تيه العدم أصبح في شام الوجود، من نزع الستر ألقى عليه، ومن جرد نفسه كساها، من دار على غير ضلّ عنه، ومن سمت همته اتصل به، اجلس على الكون بهمتك ترى الحق منك غير بعيد: [إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً][المعارج/7]، من ملك مع الله شيئا لم يظفر منه بشيء، إنما النداء يكون به وعليه وأما معه فلا، من افتقر استغنى ومن استغنى لا يستغني: [كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى][العلق/6-7]، إذا أدخلك قبر الوحش فقد أرادك لمحض الأنس: [[إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ] وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً][الكهف/24]، من رضي من حبيبه بالشر لم يحزن معه أبدا إلا يأس ممن تهوى، آية الهوى الصدود يدعوك والإقبال يمحوك، [أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ][الحديد/19]، وإذا صح عقد المحبة لا يحله الهجران: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ

---

[1] الرمز الحرفي (كح) قيمته الرقمية هي: 28 (ك=20، ح=08)، وهي نفسها القيمة الرقمية المقابلة لاسم "يحي" بحساب الجمل، حيث أن: ي= 10، ح=08، ي= 10، المجموع هو: 28. لمعرفة هذا الفن ينظر: عبد الفتاح السيد الطوخي، هداية العباد في أسرار الحروف والأعداد، المكتبة الثقافية، بيروت، ط1، 1992.

وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ][محمد/31]، إذا رغب عنك فارغب فيه وإذا قلاك فتشبث به، وإذا نسيك فلا تنساه، الظن به محبوب ولائمه مسلوب، من رضى عنه بالعطاء كشف عنه الغطا، ومن لم يرض بما وجد فسيفقد ما وجد، من اقتات بغير حبه أكل حراما، ومن دار على غيره لقي جماما: [إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ][ص/44]، لا تجعل له في قلبك ثانيا، فتموت كافرا، إنما الله إله واحد، إذا رأيت العاشق ألف الصبر فقد ارتد [وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] [البقرة/217]، منسيان: من لا ينساك ظلم، وذِكرُ من لا يذكرك جرمٌ، من لم تكن روح سيدنا محمد ρروحه فليس بصدّيق، ومن لم يقيد حقائقه للشريعة فهو زنديق تعلقت الوحوش بأذياله، فما لنا ألا نهتدي بأنواره، [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً][النساء/65]، أرواح الصديقين في أجواف طيور المرسلين، تغذوا خماصا وتروح بطانا، [وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ][الأنعام/13]، من صح استغناؤه بالله وجب افتقاره إليه، [يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ][فاطر/15]، لا يسوغ للعبد أن يكون سماء حتى يكون أرضا، ومن كان أرضا نزلت عليه أمطار السماء، ومن نزلت عليه أمطار السماء أثمر لحينه [وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ][الأنبياء/30]، من شاور العلم دله على الذل والافتقار، ومن قلد الجهل أنساه ذكر الجبار، [قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً] [طه/125]، [قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى][طه/126]، لا يكون المريد مريدا حتى تكون فيه معاني حروفه، الميم مائل إلى الحق بكليته، والراء راض بقضاء الله، والدال دائم الفكرة[1]، [وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً][الأحزاب/52]، والشيخ لا يكون شيخا حتى تكون فيه معاني حروفه، الشين شرح الله صدره بالتقوى، والياء يرى بنور الله، والخاء خرج عن الأكوان، [وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ][الكهف/18]، قدمه في التراب ورأسه في الثريا يرى ولا يرى، تحصن بجلال الجبار [لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] [الأنعام/103]، لا تشغلك العبادة عن المعبود، فيفوتك الشهود، [قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ][الزمر/64]، نسيان الرحة راحة [إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ][الرعد/19][الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ][الرعد/ 20]، نورك سرهوسرك أمره: [إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً][النساء/1]، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما".

قوله: "غابر الحمرا"، وصف هذا القطب بهذا الكلام، فيحتمل أن يريد بالحمرا دار الملك مراكش، لأن أرضها حمراء، (والغابر الباقي بعد من مضى على حد قوله في النمل: [إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ][الشعراء/171])[2] أي بقي هناك خبره، ولم نعلم ما فعل الله به، هذا ظاهر اللفظ، ويحتمل أن يكون أشار للكبريت الأحمر، وغابر اسم فاعل من غبر، بمعنى خبأ كما هو في لغتنا اليوم، أي أن هذا القطب خفَا سِرُّ الله عنده، قال لي الشاب الأديب

[1] كذا في (ب) و(ج)، ويبدو أن المؤلف أو الناسخ لم يذكر ما يقابل حرف الياء، الذي يدخل في تركيب كلمة مريد.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

سيدي محمد بن افغول: حَمْلُهُ على هذا الثاني أولى لأن سر الله في صدور الأحرار مغبور[1] حتى يظهر على أيديهم من بيده الأمور، وخصوصا إن كان هو إمام وقته، كما قال في الأئمة سيدي إبراهيم التازي:

وَغَنَمُ مُرِيدٍ فِي انْقِيَادٍ لِكَامِـلٍ لَهُ خِبْرَةٌ بِالوَقْتِ وَالعِلْمُ بِالحَـالِ
هُوَ السِّرُّ وَالإِكْسِيرُ وَالكِيمْيَا لِمَـن أَرَادَ وُصُولًا أَو بَغَى نَيلَ آمَـالِ

ولا تستبعد وجود أمثال أولئك الأئمة والأقطاب في زماننا هذا، وإن كان ظهر فيه الفساد في البر والبحر [ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ] [الروم/41]، فإن دار الملك لا يدخلها الخلل ولا تسعها النقائص، وإن كان ظهر فيه الفساد [فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ][المائدة/54]، وعدد الديوان الكريم لا ينقطع إلى يوم (النفخ والصور)[2]، وإن حجبتنا عنهم ذنوبنا، وقد قال الإمام ابن عطاء الله روى عن مولانا رسول اللهρ أنه قال: «إن لله عبادا يغديهم برحمته ويحييهم في عافيته، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرهم»[3]، وروى الترمذي بسنده عن رسول اللهρ أنه قال: «تكون في أمتي فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم»[4]، قال أبو عيسى: "يعني بالعلم النافع".

وقال بعض العارفين: "إن لله رجالا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فمثلهم كمثل الكواكب كلما قويت ظلمة الليل قوي إشراقها"، وقد قال صوفي في حضرة فقيه: "إن لله عبادا هم في أوقات المحن، والمحن لا تضرهم فقال الفقيه: هذا شيء لم أفهمه، فقال الصوفي: أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم في النار والنار لا تضرهم"، وسمعت شيخنا أبا العباس المرسي يقول: "الدنيا كالنار وهي قائلة للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نور قناعتك لهبي" وروى هو أيضا والشاطبي في «شرحه للمباحث» عن رسول الله ρ أنه قال: «أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»[5]، ثم تلى: [وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ][الجمعة/3] وقد روى عبد الرحمن بن مسيرة عنهρ أنه قال: «أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها فاحتلب رواكدها وهيأ مسالكها وحلى صعبها فأطعمت عاما فوجًا ثم عاما فوجا، فلعل آخرها طعما يكون أجود قِنوانا وأطول شمراخا، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم خلقا من حواريه»[6]، الشمراخ: غصن دقيق في أعلى الغصن من الشجر.

وروى أبو الدرداء أن رسول الله ρ قال: «خير أمتي خيار أولها وآخرها وفي أوسطها الكدر»[7][وقال ρ: «والذي بعثني بيده إن في كل قرن من أمتي سابقون وغادون أو قال سابقون مهتدون»][8]، قال صاحب «اللطائف»[9]: أخرج هذه الأحاديث الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي"، وقال الشاطبي" "إنما أعلمتَ بهذه

[1] حتى في لهجتنا بتلمسان اليوم تعني كلمة "مغبور" المعنى نفسه، أي الشيء المخفي بعناية وحرص.

[2] في (ب) و(ج): القيامة وإن حجبتنا عنهم ذنوبنا.

[3] لم نعثر عليه بهذه الصيغة.

[4] لم نعثر عليه.

[5] الحديث أخرجه: – الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 152./ – علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج10، ص: 68.

[6] لم نعثر عليه.

[7] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، ج2، ص: 92.

[8] لم نعثر عليه، و نص الحديث هو إضافة في (ب) و(ج).

[9] كتاب " لطائف المنن" لابن عطاء الله السكندري.

الأحاديث لتعلم أن المدبر الحكيم هو الفعال، وأن تصوف كل زمان على قدر أهله، وأن الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأن الحكم بحسب اللائق من الحال بالمحل".

ثم قال رحمه الله:

وَاينْ الزَّيْتُــونِي وَابنْ يُونَـــسْ	مُولَى وَجْـــدَه سِيـــدِي يَحْـــيَ
وَاينْ اليَعْقُـــوبِي وْمَـــا دْرَسْ	فِي نَدْرُومَـــه مَرْسَـــةْ الوَلْيَـــا
وَاينْ الغَوثِي وَاينْ هُـوَ المُخْلِـصْ	حَلْوِي شُـودِي صَاحَـــبْ العَلْيَـــا
وَايـــنْ الثَّعَالِـــــبِي وخَـــرُّوبِي	آيْنْ هُــو ابْنَ يُوسَـــفْ يَا فُقْـــرَا
وَاينْ الشَّلْفِي صَاحَـــبْ الحُـــوفِي	وَايـــنْ هُـــمْ صُـــلَّاحْ هَـــوَّارا

[في التعريف بالشيخ الزيتوني أحد مشايخ أحمد زروق:]

الزيتوني، هذا اسمه سيدي أحمد بن عبد الله، وهو أحد شيوخ زروق كما تقدم، وذكر في «الكناش» أن هذا الشيخ أَسَرَّ له سرا واستوصاه بكتمه، فأذاعه الله للناس من غير أن يفشيه الزروق، ولم يقصد إلى إذاعته فعاتبه شيخه المذكور على الإذاعة ظنا منه أنه هو الذي أفشاه، فاعتذر إليه وتبرأ فلم يقبل عذره، فاهتمّ الشيخ لذلك وتغير عليه ودعى؛ فألقى الله على زروق شَبَه يهودي حتى ضاق عليه وطنه بفاس، فقصد إلى زيارة الغوث أبي مدين لعل الله يفرج ما نزل به، فارتحل من المغرب والناس يدعونه بأسماء اليهود، وكل بلدة دخلها في طريقه تلقاه يهودها بالسلام والإكرام ظنا منهم أنه من أحبارهم وأخيارهم، فإذا ارتحل شَيَّعُوه، قال الشيخ زروق: "فلا زلت كذلك إلى أن بلغت لحضرة الشيخ أبي مدين فزرته، وسألت الله عند ضريحه، وتوسلت إليه بجاه رسوله أن يكشف كربتي وينقذ وحلتي، فرجعت إلى بلدي فلما وصلت إلى الشيخ المذكور لأطلب منه العفو، قال لي سجنّاك أربعين يوما والآن سرّحناك بإذن الله، قال سيدي أحمد: فرجع إليَّ حالي الأول، وزال عني الشَّبَه المذموم. من «الكناش في العلم غير الفاش»، ونقلته بالمعنى، وذكر أشياء رآها في رحلته فمن أرادها فليطالع الكتاب المذكور.

[التعريف بالشيخ سيدي يحي بن يونس دفين وجدة بالمغرب:]

وقوله: "وابن يونس مولى وجدة" سيدي يحي، هذا الولي مدفون ببلدة وجدة[1] على رأس مائها الذي تسقى فيه أرضها وأجنتها، ومن بركة هذا الولي أنه لا يقدر أحد من ظلمة أعرابها[2](أولاد طلحة)[3] أن يقطع ماء هذه القرية، (وإن كانوا معهم في العداوة)[4]، فهو رحمة لأهلها (بل ولسائر قطر المغرب)[5]، قال الإمام أبو حامد الغزالي: "يحي بن

---

1 في (ب) و(ج): الولي مدفون شرقي قرية وجدة.

2 في (ب) و(ج): من الأعراب.

3 ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

4 العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

5 العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

يونس عَبَدَ الله ثمانين سنة بصيام نهارها وقيام ليلها، لم يأكل فيها شيئا، وآمن بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه بخمسمائة عام، وكان من أصحاب عيسى υ[1]، وبه يسقي الله أهل المغرب المطر، قال: وهو مدفون بمدينة وجدة، ولها ثلاثمائة وبضع وستون بابا من كِبَرِهَا، وسميت بهذا الاسم لأنها مسكن أهل الوجْد، لوجود الصالحين فيها[2].

(قلت والأمر كما قال، لأني زرت هذا الشيخ فوجدت عنده رجلا ساعيا قدم من بلد سوس بأقصى المغرب، ثم بعد ذلك أضافنا فشيَّعته للمشرق مسيرة يوم، عرضت عليه شيئا من الزاد، فردّه عليّ، وقال لي: سبحان الله! مثلك من يحرضني على الزاد والله تعالى يقول: [وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ][الطلاق/3]، والله إني لحججت لبيت الله الحرام وما معي إلا ربع دينار ورددته إلى بلدي، ولم يحوجني الله إليه، فاختبرته فوجدته يصوم الدهر ويواظب على قراءة «دلائل الخيرات» للجزولي ويُحكِم «علم الجدول وأسرار الحروف» للمرجاني، وهو أستاذ في القرآن، يلبس أحوال على الناس، لا يتقيد باسم و لا مكان ولا أدري ما قصده في ذلك.

ودخلت إلى وجدة المذكورة فوجدت بها رجلا من أكابر الأولياء اسمه محمد بن عبد الرحمن الرباني، بصير كبير السن، فزرته وبتُّ عنده، فوجدته لا يفتر لا على الذكر والتلاوة لا ليلا ولا نهارا، قليل الأكل، قليل النوم، شاهدته يقوم الليل كله لا ينام منه شيئا في كل فصل يحيه[كذا] يقرأ في كل ركعة بثمن الحزب ويسلم على ربعه، كاد أن يتخلق بأخلاق الملائكةτ ونفعنا بصحبته ومحبته، وهذه المدينة هدم جلها ولم يبق منها إلا نزر قليل، وأبوابها بقيت أسماء بعضها إلى الآن في مهاد أنقاد[3] حول المدينة الباقية، والأمر ما قيل:

لَهُ مَلَكٌ يُنَادِي كُلَّ يَومٍ   لدّوا لِلْمَوتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ)[4]

[في التعريف بمقام سيدي عبد الرحمن اليعقوبي دفين نواحي ندرومة:]

قوله: "واين اليعقوبي؟"(البيت)، اسم هذا الشيخ سيدي عبد الرحمن، ونسبه إلى قبيلة أولاد يعقوب بن طلحة من أعراب أنقاد، وهو مدفون في زاويته حَذْوَ ندرومة بساحل تلمسان، حكي أن هذا الشيخ زار أبا مدين وترك خديمه عند باب الروضة، ودخل عند الغوث سيدي أبي مدين، فتكلم معه وسأله إبدال دولة الأتراك من آل يافث[5] لكثرة جورهم[6]، فكلمه من قبره وقال له: إن قبلتها يا عبد الرحمن نعطها لك، فأبى، فقال له: اصبر، في هذا الوقت لم نجد من يصلح لها ويتكفل بها، وسيأتي الله بالفرج[7]، ووجدة وندرومة[1] من عمالة تلمسان[2].

---

[1] إن أصح الروايات التي يصدّقها العارفون بالعلوم الباطنية تفيد بأنه من أتباع المسيح عيسى بن مريم υ، وقد هاجر إلى هذه الناحية في (ق1م) لنشر ديانة التوحيد التي هي من صميم الديانة الإسلامية، ولعلّه كان من سلالة النبي يحي بن زكريا υ الذي لم يجعل الله من قبل سميا. ينظر: اسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنقاد في دوحة الأمجاد، (ج2)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989، ص: 177.

[2] هناك من يرى أنها سميت وجدة، لأنها كانت بالنسبة للقبائل العربية بمثابة موقع تأخذ فيه الحيطة وتنصب فيه الكمائن (الوَجْدَاتْ) للأعداء المتربّصين، ويشاع بأن سليمان بن جرير الشماخ الذي اغتال المولى ادريس الأول في 792م حاصره مطاردوه في شرق المغرب على مقربة من نهر ملوية فَوُجِدَ هناك، أو بعبارة أخرى نصبوا له وَجْدَة أي كمينا، ولعل اسم وجدة أطلق على عدّة قرى متناثرة هنا وهناك من طرف الطلائع الأولى للمسلمين المجاهدين الذين بهرتهم مظاهر العيش الرغيد للسكان الأصليين الذين عرفوا كيف يستغلون الخصائص الطبيعية وخاصة المياه التي كانت تنهمر من ينابيع واحة سيدي يحي لتسقي الحقول الكثيرة والمزارع المترامية الأطراف عبر فروع من السواقي المتشابكة. ينظر: المرجع نفسه، ص: 11 – 15.

[3] نسبة إلى سهل أنقاد الفسيح بوجدة.

[4] الكلام من (قلت والأمر كما قال – إلى – لِدُوا لِلْمَوتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ) ساقط في (ب) و(ج).

[5] يقول النسّابين أن الترك من أولاد يافث بن نوح υ.

[6] في عهد الأتراك العثمانيين كانت بندرومة حامية لهم وأقام بها جيش انكشاري أساء معاملة السكان المدنيين فثاروا عليه. –وقد تكلم محمد بن سليمان في كتابه هذا عن كثير من مظاهر هذا الظلم التركي الذي طال ساكنة تلمسان بشكل عام– ينظر: جمعية الموحّدية، ندرومة عبر التاريخ، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، دط، دتا، ص: 5.

[7] الحكاية ذاتها ذكرها ابن مريم في بستانه، وذكر له كرامات أخرى، ينظر: ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، ص: 133.

وأثنى الناظم على هذا الشيخ بتدريس العلم لأن تعليم العلم وتعلمه من أكبر خصال الخير، قال تعالى: [وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ][التوبة/122]، وقال:[وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [التوبة/88] ولا يكون ذلك إلا بعد معرفة أهل الخير والمعروف من ضدهما، وبعد تعلم كيفية الدعوة والنهي، وإن جهل شيئا منها فلم يفز بالفلاح الموعود على العمل بالعمل، وقال عز من قال في الخصال المخرجة صاحبها من الهلع المورثة له الخلود في جنة الإكرام: [وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ] [المعارج24-25]

[في بيان شرف العلم ومكانة العلماء:]

(فالظاهر ظاهر والباطن)[3]، مال العالم علمه وقوة القوي ماله، فالسائل من يطلب العلوم والمحروم من لا يطلبه، وقد قال رسول الله ρ: «ما تصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في صدور الناس»[4]، وقال ρ: «من كان له مال فليتصدق من ماله، ومن كان له علم فليتصدق من علمه، ومن كان له قوت فليتصدق من قوته»[5]، وقالρ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له أو علم يبثه في صدور الرجال، أو صدقة جارية»[6]، (وفي رواية: «إلا من سبع» وجمعها بعضهم في قوله: "علم وغرس ونهر بير أو ولد ومصحف وبناء المسجد الجاري"، قال الرسولρ: « أجور السبع باقية بعد الممات بلا حد ومقدار»[7])[8]، وقال أبو الدرداء τ: "تعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة". وإن المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء مات، وكذا القلب إن منع العلم والحكمة ثلاثة أيام فإنه يموت، وأنشدوا:

بِالعِلْمِ تَحْيَا نُفُوسٌ قَطُّ مَا عَرَفَـتْ ... مِن قَبْلُ مَا الفَرقُ بَيْنَ الصِّدْقِ والمَيْـنِ
العِلْمُ لِلْعَقْلِ نُورٌ يُسْتَدَلُّ بِـــهِ ... عَلَى الحَقَائِقِ مِثـلُ النُّورِ لِلْعَيـنِ
يَا طَالِبَ العِلْمِ بَاشِرِ الوَرَعَـــا ... وَبَايِنِ النَّـــوْمَ وَاهْجُـرْ الشَّبَعَـا
وَاحْرِص عَلَى الدَّرْسِ لَا تُفَارِقُـــهُ ... فَالعِلْمُ بِالدَّرْسِ قبل قَامَ وَارْتَفَعَـا[9]

---

[1] يحدها من جهة الشمال مرسى الغزوات وشطّ سيدي يوشع بن نون، ومن جهة الجنوب جبل فلاّوسن، ومن جهة الشرق مدينة تلمسان وتبعد عنها بمسافة 60 كلم، ومن جهة الغرب مدينة وجدة المغربية. ينظر المرجع نفسه، ص: 3.

[2] وجدة الآن إحدى عمالات المغرب الشرقية.

[3] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).

[4] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج5، ص: 437.

[5] الحديث أخرجه برواية مختصرة " من كان له مال فليتصدق من ماله" أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ج1، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1408، ص: 234.

[6] الحديث أخرجه: مسلم، صحيح مسلم، ج3، ص: 1255. / - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج7، ص: 286.

[7] لم نعثر عليه.

[8] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[9] الأبيات ساقطة في (ج).

قال علي كرم الله وجهه: "العلم خير من المال على كل حال، العلم يحرسك والمال تحرسه، والعلم يزيد بالإنفاق منه، والمال ينقص بذلك، المال يخاف عليه اللصوص، والعلم لا يخاف عليه، المال يفارقك بالموت والعلم يصاحبك بعدها"، إلى غير هذا مما ذكره رحمه الله، قال عز من قائل: [وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً][الكهف46][وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ][الزخرف/32] أي من الأموال، وأنشد τ:

النَّاسُ مِن جِهَةِ التَّمْثِيلِ[1] أَكِفَّـــاءُ ... أَبُوهُم آدَمُ والأُمُّ حَـــوَّاءُ
نَفْسٌ كَنَفْسٍ وأَرْوَاحٌ مُشَاكِلَـــةٌ ... وَأَعْظُم خُلِقَتْ فِيهَا وَأَعْضَـــاءُ
فَإِن يَكُنْ لهُمْ مِن أَصلِهم حَسَـــبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّيْنُ والمَـــاءُ
مَالفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُـــمُ ... عَلَى الهُدَى لمِنْ اسْتَهْـــدَى أَدِلَّاءُ
وَقَـــدْرُ[2] كُـلِّ امْــرِئٍ مَــا كَــانَ يُحسِنُـــهُ ... ولِلرِّجَالِ عَلَى الأَفْعَالِ أَسْمَـــاءُ[4]
وَضِدُّ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يجهَلُـهُ ... وَالجَاهِلُونَ لِأَهْلِ العِلْمِ أَعْـــدَاءُ
فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ عِلْمًا وَاكْتَسِبْ أَدَبًـا[3] ... النَّاسُ مَوتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَـــاءُ
قُل لِلَّذِي يَدَّعِي عِلْمًا وَمَعْرِفَـــةً ... عَرَفْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَـــاءُ

وقال غيره:

العِلمُ زَيـــنُ الفَـــتَى وَكَرَامَـــةٌ ... وَالعِلمُ أَفْضَـــلُ مِن كُنُوزٍ وَجَوَاهِـــرٌ
تفني الكُنُوزُ يَد الزَّمَـــان وَصرفُـــهُ ... وَالعِلمُ يَنبُعُ مِثـــلُ مَاءِ العناصِـــر[5]

أخرج جمال الدين المعافى بن إسماعيل عن رسول الله ρ ، أنه قال: «إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين: أدخلوا الجنة، فيقول العلماء: إلهُنَا إن هؤلاء عبدوك بفضل علمنا وجاهدوا، فيقول الله تعالى: "أنتم عندي كملائكتي، اشفعوا ثم ادخلوا الجنة»[6]، وقال ρ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[7]،وعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، وقال ρ: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر والخير»[1].

---

[1] في الديوان: من جهة الآبَاءِ. ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، ديوان الإمام علي كرم الله وجهه، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دتا، ص: 5.
[2] في الديوان: وقيمةُ. ينظر المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
[3] في الديوان: فَقُم بعلم ولا تطلب به بدلًا . ينظر المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
[4] في الديوان: وَالجَاهِلُونَ لِأَهْلِ العِلْمِ أَعْدَاءُ. ينظر المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[5] البيتان ساقطان في (ب) و(ج).
[6] لم نعثر عليه.
[7] الحديث أخرجه أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج2، ص: 262. والحديث ساقط في (ب) و(ج).

وأخرج سيدي عبد الرحمن الثعالبي عن أبي عمر بن عبد البر يرفعه بسنده إلى معاذ بن جبل، قال، قال رسول اللهρ: «تعلموا العلم فإن تعلّمه لله خشية وطلبه لله عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله للأهل قربة لأنه معالم الحلال والحرام ومار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السير والمعين على الخير، والدليل على السرّاء والضرّاء والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاّء، يرفع الله به أقواما، فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتص أثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وتصلي عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البرّ وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم، (وقوة الأبدان من الضعف)[2]، يبلغ العبد منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، الفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، و هو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[3]، قال أبو عمر: هكذا حدثنيه عبيد بن محمد مرفوعا بالإسناد الذي رويناه عنه وهو حسن جدا، قال الثعالبي: "وهو من الأحاديث العجيبة الجامعة لفضائل العلم". من «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، له.

قلت: فإذا كان العلم وحامله بهذه المثابة، فينبغي له أن يعرف قدر ما منّ الله عليه به، ويزيد في الشكر ويحفظ وديعته ويرعى أمانته ويقف عند ما حدّ له، وأن يخلص في تعلمه وتعليمه ولا يطلب الثواب إلا من ربه، قال الله تعالى في حق رسله: [قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى][الشورى/23] وما ناله بسببه فينوي الإعانة على تحصيله لا الثواب والجزاء، لأن أجره على الذي فطره، كان سفيان الثوري رحمه الله لا يُسأل عن شيء في شهر رمضان إلا أجاب، وكان يعُدّه من النفقة الحديث السابق، وإنما كثر ذلك منه في شهر رمضان امتثالا لقول υ: «تخلقوا بأخلاق الله»[4].

وورد أن لله تبارك وتعالى ثلاثمائة خلُق من لقيه بخلق منها دخل الجنة، وأحبها إليه السخاء، وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ρ: «أن لله عز وجل في كل يوم من شهر رمضان ألف ألف عتيق من النار، كلهم قد استوجبوا العذاب، فإذا كان في آخر يوم من شهر رمضان اعتق بقدر ما أعتق من أول الشهر إلى آخره»[5] فكما أن الله جاد على عباده في الشهر أكثر من غيره، فكذلك ينبغي لعبده أن يجود بما أمكنه من العلم والمال والعمل في هذا الشهر أكثر من غيره من سائر الشهور،وتعليم العلم عتق من ضرر الجهل المؤدي إلى الدخول إلى النار، ولهذا كان ρ أجود ما يكون في رمضان وإنه لأجود بالخير من الريح المرسلة، لما كان جبريل يدارسه القرآن في كل ليلة، وقال ρ: «الأنبياء قادة، والفقهاء سادة ومجالسهم زيادة»[6].

---

[1] الحديث أخرجه:- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص: 122./- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، ج1، ص: 81. والحديث ساقط في (ب) و(ج).
[2] العبارة ساقطة في (ب) و(ج).
[3] الحديث أخرجه برواية مختلفة قليلا: - عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، الترغيب والترهيب، ج1، ص: 52./ - أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص: 239.
[4] لم نعثر عليه.
[5] الحديث أورده: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، الترغيب والترهيب، ج1، ص: 52./- أبو شجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج3، ص:320.
[6] لم نعثر عليه.

ثم أنظر رحمك الله إلى فوائد هذا الكلام ممن أوتي جوامع الكلم، فإن خاتمته مشتملة على حروفها وزيادة، الأولى: زيادة في علم المتعلم وعمله[1] وآدابه، وزيادة في عقله (وحبه)[2] وثوابه، والثانية: زيادة في علم المعلم[3] وورعه وخيره، وزيادة في عمله وقربه وأجره، الثالثة: زيادة في رياضة النفوس[4](وتزكيتها وتهذيب أخلاقها وترتيبها)[5]، الرابعة: زيادة على من اشتغل بجمع الأموال (عن اكتساب شرف الأحوال)[6]، (الخامسة: زيادة في صفوف أهل الجنة، ومن بوهي به من هذه الأمة، السادسة: زيادة في اليقين وتقوية لدعائم الدين، قال υ: «لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه»[7]، إلى غير ذلك من الفوائد، وقد قال زروق: "اختلف العلماء فيمن أتى بالعبادة على وجهها دون أن يميز فرضا من سنّة، فقيل هي باطلة وهو آثم، وقيل صحيحة وهو مأجور لأنه وافق الحق، وقيل يبرأ من الإثم وهي صحيحة ولا يؤجر، وأما إن لم يوافق فقد أخلّ ببعض الشروط أو الأركان فهي باطلة، وهو آثم بلا خلاف، بل قال العلماء لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر من الأمور حتى يعلم حكم الله فيه".وهذه الزوائد يستفيد ها من زاده الله بسطة في العلم والجسم.)[8]

[في ضرورة بذل العلم لأهله ولغير أهله:]

واعلم أن بذل العلم لغير أهله من إضاعة المال المنهي عنه في مضمن قوله تعالى: [وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ][النساء/5]، ومن تعمد ذلك كان كبائع سيفه لقاطع طريق أو كمن ألقى درة نفيسة على مزبلة خسيسة، جاء رجل لإمام المفسرين محمد بن سيرين فقال له: "رأيت فيما يرى النائم، أني أعلق الذرّ في أعناق الخنازير، فقال له: إنك رجل تمنح الحكمة لغير أهلها، فأقر بذلك وتاب منه"، وذلك كقوله ρ:«لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تؤتوها غير أهلها فتظلموها»[9]، وأنشد الإمام أبو حنيفة في المعنى:

سَأَكتُمُ عِلمًا عَن ذو الجَهْلِ ظَنَّـــةً ... وَلَا أَنْشُرُ العِلمَ النَّفِيــسَ إلى البُهْـــمِ
فَإن قَدّر الله الكَرِيم بِفَضْلِـهِ ... وَلَاقَيتُ أَهــــلًا للعُلُــومِ ولِلْحِكَـمِ
بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدتُ عُلُومَهُــم ... وَإلَّا فَمَخْـــزُونٌ لَـــدَيَّ وَمُكْتَتَــمِ
فَمَن مَنَحَ الجُهَّالَ عِلمًا أَضَاعَــهُ ... وَمَن مَنَــعَ المُسْتَوجَبِينَ فَقَد ظَلَـــم

[1] في (ب): وعلمه.
[2] الكلمة ساقطة في (ب).
[3] في (ب): المتعلم.
[4] في (ب): في دين الله.
[5] العبارة ساقطة في (ب).
[6] في (ب): [وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ] [آل عمران/157].
[7] الحديث أخرجه: - محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ج1، ص: 150./ - الطبراني، المعجم الأوسط، ج6، ص: 194.
[8] الكلام من (الخامسة: زيادة في صفوف أهل الجنة – إلى – زاده الله بسطة في العلم والجسم) ساقط في (ب) و(ج).
[9] أورده القرطبي، تفسير القرطبي، ج2، ص: 185.

فإن قلت: كيف نعرف المستحق من غيره؟ وما هي العلوم المبذولة للعوام والخاصّة بالخواص؟ فاعلم أن قرائن الأحوال والاختبار والتجربة والفراسة تفرق بين المحق المستحق والمبطل (المهرطل بإشارة قوله:[وَابْتَلُوا الْيَتَامَى][النساء/6])[1]، والعلوم التي يجب بذلها إن تعينت ويندب إن لم تتعين إنما هي علوم التوحيد والشرائع العينية (ومعاملة العبد مع مولاه التي لا يُستغني عنها امتثالا لقوله: [وَارْزُقُوهُمْ][النساء/5])[2]، فمن كتمها عن سائلها ناله وعيد قوله ρ: «من سئل عن علم نافع فكتمه ألجمه بلجام من نار»[3]، ومن لم يبينها لطالبها دخل في زمرة من قال الله فيهم: [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ][البقرة/159].

وأما العلوم الكفائية كالأحكام والقضاء والصنائع والحرف (التي لم يكلف الله بها إلا من قام بها من الآحاد، وكذا حكم الله وأسراره في آياته وأسمائه، وكذلك الجدول وأسرار الحروف إلى غير هذا من الدعوات)[4]، فتنظر لطالبها فإن توسمت فيه خيرا أو صلاحا وورعا تحجزه عن أن يتوصل بذلك إلى الأغراض الفاسدة كخدمة السلاطين وأخذ مالا يحل له أخذه، فهو كالأول، وإلا فيحرم بذله له، وأسرار الله[في أسمائه وآياته والعلوم اللدنية التي اختصّ بها من شاء][5] لا تبث إلا للخواص أهل القلوب الصافية والفطر السلمية الذين لا يستعينون بنعمه على معصية.

استبصار[6]: يستشهى لصحة هذا الجواب من الآية والحديث الواردين في هذا الأمر، فإن قوله تعالى: [مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ] [البقرة/159]، يقتضي أن العلوم المبينة المشروحة فيه لجميع الناس كعلوم الاستنباط والأسرار، لا يأثم من لم يبينها لجميع الناس، بل يحرم إفشاء بعض الأسرار لبعض الناس كالسفهاء، ولعمري أنه اقتدى بالقرآن في هذا السر ويؤخذ بسبب كتمان العلم النافع لسائله عن سائله، وأما إذا لم يكن نافعا لسائله، وإن كان نافعا لغيره فلا وعيد في كتمه عنه، وإذا انتفى الوعيد في حق هذا السائل باعتبار حال، ننظر أيضا فإن كان هذا السائل يتضرر بتعلم هذا العلم المسؤول عنه، فتعليمه إياه وإفشاؤه له حرام، وإن كان لا يتضرر هذا السائل بتعلمه ولا ينتفع به فتعليمه له مباح، ويقال فيه: "علم لا ينفع وجهالة لا تضر"، لكن تدلُّهُ أولا لأنه اشتغال بما لا يعني عما يعني، والعمر قصير والزاد قليل والسفر طويل، ولذلك استعاذ النبي ρ من علم لا ينفع.

ثم بعد كتابي لهذا الجواب الحاضر والاستبصار لصحته على قدر عقلي و علمي القاصر، اطلعت على "قواعد" الإمام زروق فسررت بموافقه ما وقع عليه الناظم، قال τ(قاعدة): أهلية الشيء تقضي بلزوم بذله لمن تأهل له، إذ يقدِرُهُ حق قدره، ويضعه في محله، ومن ليس بأهله فقد يضيعه وهو الغالب، أو يكون حاملا له على طلب نوعه، وهو النادر. فمن ثمَّ اختلف الصوفية في بذل علمهم لغير أهله؛ فمن قائل لا يبذل إلا لأهله كالثوري، ومن قائل ولغير أهله، فالعلم أحمى جانبا من أن يصل إلى غير أهله كالجنيد[إذ قيل له: كم تنادي على الله بين يدي

[1] ساقط في (ب) و(ج).
[2] ساقط في (ب) و(ج).
[3] الحديث أخرجه برواية مختلفة أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق الأصبهاني، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، ج1، (م سابق) ص: 42.
[4] ساقط في (ب) و(ج).
[5] إضافة في (ب) و(ج).
[6] النص ساقط في (ب) و(ج).

العامة؟ فقال: لكني أنادي على العامة بين يدي الله، يعني أنه يذكر لهم ما يردّهم إليه، فتتّضح الحجة لقوم وتقوم على آخرين][1]، والحق اختلاف الحكم باختلاف النسب والأنواع".

قاعدة: "في كل علم ما يخص ويعم، فليس التصوف بأولى من غيره بعمومه وخصوصه، بل يلزم بذل أحكام الله تعالى المتعلقة بالمعاملات من كلٍّ عمومًا، وما وراء ذلك على حسب قائله لا على قدر قائله لحديث: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله»[2]. وقيل للجنيد: "يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا، فقال: الجواب على قدر السائل"، قال υ: «أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم»[3].

(وقد قال أيضا في خطبة شرحه «لأرجوزة القرطبي»: "الحمد لله الذي أوجب على عباده لوازم العبودية وألزم العلماء بهدايتهم لكل واجب عقدا وعملا ونية، -إلى أن قال-: وبعد، فإن الله سبحانه قد فرض على عباده فرائض الدين، وأوجب على العلماء أن يبينوا لهم ما يحتاجونه من ذلك أتم تبيين، -إلى أن قال-: وإنما عرّف الناظم بنفسه لأن الانسان لا يجوز أن يقتدي في دينه بمن لا يعرف علمه وديانته".

ونحو هذا قول الشيخ السنوسي: "يجب في حق الرسل تبليغ ما أمروا بتبليغه للخلق ولا شك أنهم عليهم الصلاة والسلام لو وقع منهم خلاف ذلك لكنا مأمورون أن نقتدي بهم في ذلك فنتكلم نحن أيضا بعض ما أوجب الله علينا بتبليغه من العلم النافع لمن أحطر إليه، كيف وهو محرم ملعون فاعله، قال الله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ][البقرة/159] وكيف يتصور وقوع ذلك منهم ومولانا يقول لسيدنا محمد: [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ [مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ]][المائدة/67]، أي إن لم تبلغ بعض ما أمرتك بتبليغه من الرسالة فحكمك حكم من لم يبلغ شيئا منها، فانظر هذا التخويف العظيم لأشرف خلقه، فكان خوفه على قدر معرفته، ولهذا كان يسمع لصدره أزيزا كأزيز المرجال، أي غليان من خوف الله، وقد شهد الله بكمال التبليغ بقوله تعالى: [فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ] [الذاريات/54]، [لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ][البقرة/256]، [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ][المائدة/3]، الأزيز هو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء، وهو المراد هنا، وهو البكاء مع غنة واشتياق، والأزيز والهزيز الصوت.)[4]

[في ذكر ندرومة مرسى الأولياء:][5]

قوله: (مرسة الوليا) يعني أن هذه القرية المسمّاة ندرومة هي مرسى الأولياء، لكونها ذات حطب وماء قريبة من سواحل البحر، والأولياء جمع ولي، قال القشيري: "الولي له معنيان، أحدهما: فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه أمره، قال تعالى: [وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ][الأعراف/196]، فلا يكله إلى نفسه، بل يتولى الحق سبحانه رعايته، والثاني: فعيل من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته؛ فعبادته تجري على التّوالي من غير أن يتخللها عصيان، وكأن الوصفين واجب حتى يكون الولي وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ودوام

---

[1] إضافة في المصدر. ينظر: أحمد زروق، قواعد التصوف، ص: 28.

[2] أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 59.

[3] أخرجه اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء، ج1، ص: 226. والنص ساقط في (ب) و(ج).

[4] الكلام من (وقد قال أيضا في خطبة شرحه «لأرجوزة القرطبي - إلى- والأزيز والهزيز الصوت) ساقط في (ب) و(ج).

[5] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

حفظ الله إياه في السراء والضراء، ومن شرط الولي أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع".

[في ذكر مناقب أبي مدين الغوث وحكمه وكراماته ومرائيه:]

قوله: "واين الغوثي؟" يعني به الشيخ أبا مدين بن شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي القطنياني، وقطنياني حصن من عمل إشبيلية (أعادها الله للإسلام)، ولج بجاية ونشأ بها، ودار في الأقطار حتى رجع لدار القرار، وشهرة قبره عندنا بالعبّاد من تلمسان أغنت عن تعريف محله، توفي τ عن نحو ثمانين سنة، لسنة أربع وتسعين (أو نيف وثمانين)[1] وخمسمائة، وكان آخر كلامه: "الله الحي".

ذكر بعض العلماء أنه لم يمت حتى خلّف بالمغرب ألف شيخ للهداية منهم أربعة أقطاب، قال سيدي أحمد بن الحاج: وكذا ذكر بعضهم أنه رأى النبيρ في النوم، فقال: "يا رسول الله ما تقول في أبي مدين؟ فقال: هو شيخ الشيوخ[2]. قال ابن العربي الحاتمي الطائي: كان شيخنا أبو مدين سلطان الوارثين لنبيه في العلم والحال والعمل، فكان أميا وإذا خطر له خاطر أو سئل وجد الجواب مكتوبا في ثوب ونحوه، وكان حاله التجريد والجلوس مع الله على ما يفتح عليه لأنه ضيفه وجائزة ضيف الكريم ثلاثة أيام على قدر ربّ الدّار، وإن يوما عند ربك كألف سنة، فافهم هذا الفهم، ولذلك لا يرد ما يعطيه، وما تمنى طعاما يصلح في الوقت إلّا حضر، ومكث في بيته سنة لا يخرج فاجتمع الناس ببابه وسألوه أن يتكلم عليهم، فخرج ففرت منه العصافير، فرجع وقال: لو صلحت ما فرّت مني، فتعبد سنة أخرى ثم أتوه فخرج فلم تفر منه فتكلم عليهم، وكان يقول: "من خرج للخلق قبل وجود حقيقة دعته لذلك، فهو مبتور، وكل من ادعى مع الله حالة ليس على ظاهره منها شاهد فاحذروه"، وروى أنه تكلم يوما وجاءت طيور ودارت حوله عاكفة عليه، فتواجد وأنشد:

تَوَجّع مراض وَخَوفُ مَطَالِبِ ... وَإِشْفَاقُ مَهْمُومٍ وَحُزْنُ كَئِيبِ
وَلَوْعَة مُشْتَاقٍ وَزَفْرَة وَالِهٍ ... وَسَقْطَة مِسْقَامٍ بِغَيرِ طَبِيبِ
وَفِكْرَة جَوَّالٍ وَفِطْنَة غَائِصٍ ... لِيَأْخُذَ مِن طَيِّبِ الصَّفَا بِنَصِيبِ
أَلَمَّتْ بِقَلْبٍ حَيَّرَتهُ طَوَارِقٌ ... مِن الشَّوقِ حَتَّى ذَلَّ ذُلّ غَرِيبِ
يُكَابِدُ أَشْجَانًا ويُخفِي مَحَبَّةً ... ثَوَت واسْتَكْنَت فِي فُؤَادِ حَبِيبِ

فماج المجلس وضجّوا وما زال طائر منها يصفق جناحيه حتى سقط ميتا، ومات رجل من الحاضرين، وروى عن أبي محمد صالح، قال: "قامت الحرب بالمغرب وظهر الروم على المسلمين، (وقد دخل عليه رجل فقال: إلافرنج نصروا على المسلمين، فقال: صدق الله، ولم يتأثر فعجبوا فمدّ أصبعيه، وقال: هذا الهادي وهذا المضل، ثم وضع أصبعيه على موضع اجتماعها من ظاهر كفه، وقال: قلبي هنا، معناه أي من كان قلبه مع الله لم تختلف عليه معاني الأشياء". من "المناوي"

[1] العبارة اقطة في (ب) و(ج).

[2] قال ابن قنفذ: "و أعظم بركاته ظهور ألف شيخ على يده، ولذلك يقال له (شيخ المشايخ)". ينظر: عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، دط، دتا، ص: 58.

قلت: ولعله مقدمة قوله الله نحمده)[1]، فأخذ الشيخ سيفه وخرج إلى الصحراء في نفر يسير وأنا معهم وجلس على كثيب رمل، وإذا بين يديه خنازير ملأت البرية كثرة، فوثب الشيخ وسار بينهم واستل سيفه وعلا برؤوسها حتى صرع كثيرا وولت بين يديه هاربة ورجع فسألناه، فقال: هؤلاء الإفرنج أخزاهم الله فأرّختُ الوقت فإذا هو وقت النصر، وجاء المجاهدون وأكبّوا على قدميه وأقسموا أنه لو لم يكن معهم بين الصفين لهلكوا، وأنه كان يعلوا رأس الفارس بسيفه فيصرعه وفرسه، وإنه قتل منهم مقتلة عظيمة فولوا مدبرين، وأنهم بعد انقضاء الحرب لم يرو الشيخ وكان بينه وبين الموضع أكثر من مسيرة شهر.

قال محمد أبو صالح: "وقدم ناس من المشرق فاشتهوا عنبا في غير أوانه: فقال لي: يا صالح أدخل البستان وآت بعنب، فقلت: الآن فارقته ولا شيء فيه، قال: بل فيه، فدخلت فإذا الدوالي مملوءة فاحتملت فأكلوا وأكلت معهم، وليس فيه عجم. وروي أن الشيخ مر ببعض قرى المغرب فرأى أسدا يأكل من حمار افترسه وصاحبه بعيد يبكي من الفاقة، فأمسك الشيخ بناصية الأسد وقاده ذليلا، وقال لرب الحمار: أمسك هذا واستعمله موضعه، قال: أخافه، قال: لا يستطيع أن يؤذيك، فمر يقوده والناس يتعجبون، ثم أتى آخر النهار، وقال: أينما سرت يتبعني وأنا أخاف، قال: لا بأس عليك، قال: هو ذلك بين يديك، فقال الشيخ للأسد: اذهب ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم.

وروي أن الشيخ مر يوما بالساحل فأسرته طائفة من النصارى، وأتوا به السفينة وفيها جماعة من أسارى المسلمين، فمدوا قلوعها فلم تتحرك مع قوة الريح، فخافوا أن يدركهم المسلمون، وقالوا لعل هذا الشيخ من أصحاب السرائر، فأمروه بالنزول، فقال: لا، إلا إذا أطلقتم كل من في أسركم، فلم يجدوا بدا من ذلك فأطلقوهم فتحركت السفينة". "من «أنس الجليس».

(ولقب الناظم هذا الشيخ بالغوث لأن الله يغيث من استغاث به، ومازاره مخلص إلا قضى الله حاجته، وقد قال النبي للزواوي أن الشيخ أبا مدين منفذ لما تعطى الشيوخ، وكذا قال له في نفيسته الظاهرة، وإذا كانت لك حاجة فانذر لها ولو فلسا فإنها تقضى، مجرب، كما وقع لسيدي أحمد زروق بعد زيارته، قال الغبريني: رأى بعض الصلحاء النبي ρ في نومه معه الشيخان أبو محمد الغزالي وأبو مدين، فقال أبو حامد لأبي مدين بين يديهυ: "ما روح الروح؟، قال: المعرفة، فقال: ما روح المعرفة؟، قال: اللذة، قال: فما روح اللذة؟، قال: نظرة إليك، فغشيهم نور عظيم بين يديه υ، وصعدت بهم الملائكة حتى غابوا في الهواء".

وقال محمد ابن إبراهيم الأنصاري: "سمعت الشيخ أبا مدين يقول: جاءني رجل من الصالحين، فقال لي: رأيت البارحة في النوم حلقة عظيمة بجماعة من الصوفية وفيهم أبو زيد وذو النون وغيرهما من المشايخ، وهم على منابر من نور وأبو طالب المكي على منبر عالي وأبو حامد على منبر يقابله، وأبو طالب يسأل أولئك الصوفية فيجيب كل أحد منهم بمبلغ علمه، فقال أبو طالب لأبي حامد: أين غابت هذه العلوم التي يصرفها أبو مدين في دار الدنيا؟ فقال له أبو حامد: هو ذا عن يمينك فاسأله، فقال أبو طالب: يا أبا مدين أخبرني عن سر حياتك؟ فقال بسر حياته ظهرت حياتي، وبنور صفاته استنارت صفاتي، وبديمومته دامت مملكتي، وفي توحيده أفنيت همتي بسر

[1] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

التوحيد في قوله لا إله إلا الله، والوجود باسره حرف جلي، ففي المعنى ظهرت الحروف، وبصفاته اتصف كل موصوف وباسمه ائتلف كل مألوف، مصنوعاته محكمة ومخلوقاته له مسلمة، لأنه خالقها ومظهرها ومنه مبدأها وإليه مرجعها كما أظهرها ذر [أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى][الأعراف/172]، يا أبا طالب هو لوجودك محرك وهو الناطق والممسك، إن نظرت بالحقيقة تلاشت الخليقة، فالوجود به قائم وأمره في مملكته دائم، وحكمه في خلقه عام كحكم الأرواح في الأجساد، الحواس به بانت على اختلاف أنواعها منها اللسان للبيان، وهو مع ذلك لا يشغله شأن عن شأن فقال أبو طالب: من أين لك هذا العلم يا أبا مدين؟ قال: لما أمدني بسره غرق وادي من بحره فامتلا وجودي نورا فأثمر غيبة وحضورا وسقاني شرابا ظهورا وأذهب مني ضللا وزورا فغشيت أنواره أخلاق، فنظرت الفاني في الباقي". من «بستان الأزهار» للصبّاغ[1].)[2]

(ثم قال: "رأيت الشيخ أبا مدين وأبا حامد، فقال أبو حامد لأبي مدين: ما الذي تخلقت من آيات القرآن؟، فقال نفيسه جعلته في سرّي وعقدته بخيط الحكمة، ولويت عليه لواء المعرفة وغربلته بغربال الفكر، فأمطرت عليه أمطار ا لحياء، واستحييت من ربي جل جلاله هو يرى ولا يُرى، ثم قال الشيخ أبو حامد لأبي مدين: كيف هي صلاتك؟ قال: "صلاتي الصبر أرضها، والخوف ركوعها والرجاء سجودها، والحياء ظاهرها، والقيومية باطنها، ولا حول ولا قوة إلا بالله كلامها، وحسبي الله موطنها، والتقوى لباسها، والزهد فيما دون الله مرتعها، والتوكل بيتها، واليقين طريقها، والصدق رأسها، والتوحيد تاجها، والمعرفة همتها، وفي النظر لذّتها، ومن الله صدر وإليه رجعت".

وقال بعض الصالحين: "رأيت الحق سبحانه في النوم فقال للشيخ أبي مدين: هذا قربك مني حتى كأنك إني، وناديت سرك، فقلت: إياي نعني تمعّن معناك، فكنت مني، فجاوبه الشيخ فقال: سبحانك أدنيتني منك فأمتّني عني بحق حقك بحق وجودك صلني، فأنت مناي يا غاية المتمني، ثم ناداه سبحانه بي قُل وعليّ دل فأنا الكل.

ثم قال: رأيت الحق سبحانه متجليا للشيخ أبي مدين فقال له: مادة سترك سنائي ونوري وغدا روحك بهجتي وسروري، وقلبك موضع عظمتي وجبوري، هي أحوال مني اقتبستها ولي رددتها، فأنت لي صفيا وبالعهود وفيا، يا أبا مدين جاوز نظر الناظرين نظرك، تعلقت في فكرتك فلما قدرتني قدرتك كنت سمعك وبصرك، وعرفتك بي فعرفتني، ونزهت سرك عما سواي، ونزهتني فأنت ظاهر لي وباطن لي، فقال الشيخ: سبحانك سبحانك، اللهم أدم علينا فضلك، وعجزت الأوهام عن وصف وصفك، وامتلأت الأسرار أنسا بذكرك، فثنائي ثناؤك وأمري أمرك، فواصل اللهم نوري بنورك فلا يقتبس الفضل منك إلا بك".

وقال بعض المريدين: "رأيت جبريل υ وهو يقول: يا أبا مدين ما أريد منك الجبال أنهارا، أريد منك ثبت علم ذي الجلال أنت أنت رحمة لخلقه وفخر الأولياء بك، فقال الشيخ: الله المنزه الله المقدس، تقدس الله بكلامه وتنزه عن أفعال خلقه. وكان سبب هذه الرؤية أن الشيخ τ قال ذات يوم: لقد سئمت من هذه المجالس لا أحبها ولا أجلس للخلق، ولا أريد إلا الفرار من الخلق والجلوس في الجبال مع الحق، ثم قال هذا الراوي: رأيت الخضر υوالشيخ

---

[1] عنوانه: " بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدّار" تأليف: محمد بن محمد بن علي الصباغ القلعي، وهو ابن تلميذ مخلص لسيدي أحمد بن يوسف، وكان قاضيا بقلعة هوّارة التي تدعى اليوم قلعة بني راشد، وقد عاصر سيدي أحمد بن يوسف وعرفه شخصيا، وألف فيه هذا الكتاب بعد وفاته.

ينظر: – محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص: 73. / – عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي (ج2)، ص: 101.

[2] الكلام (ولقب الناظم هذا الشيخ بالغوث – إلى– من «بستان الأزهار» للصبّاغ) ساقط في (ب) و(ج).

وجملة من المريدين معه فقال الخضر: أَوْصِيهِم، فقال لهم الشيخ: عليكم بالاستقامة والامتثال للأوامر واجتناب النواهي والاعراض عن الأكوان تشاهدوا الواحد الرحمان، قال: ثم رأيت الشيخ مع جماعة من الصوفية فقال لهم: من كان الله جليسه لم يدرك قميصه، ومن كانت لله همته لم تدرك غايته، ثم قال: الذكر تمامه الفكر والبقاء للمعرفة والفضل للمشاهدة".

قال ابن العربي: كان شيخنا أبو مدين من الثمانية عشر نفسا الظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان وهم أهل علانية وجهر ومثبتون للأسباب وخرق العوائد عندهم عادة: [قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ][الأنعام/91]، وكان يقول لأصحابه أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس المخالفة، وأظهروا مما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة، يعني خرق العوائد، والباطنة يعني المعارف، فإنه تعالى يقول: [وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ] [الضحى/11]، وأعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله".

وفي «الحقائق المغربية» عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: "يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيب لا تدرك له نهاية، قال وهو أبو مدين وكان استوطن بجاية، ويقول أنها معينة على طلب الحلال، ولم يزل بها يزداد حاله رفعة وترد عليه الوفود ويخبر بالغيب إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقال له: إنا نخاف على دولتكم منه فإن له شبها بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد، فأهمه شأنه فبعث إليه في القدوم إليه، وكتب لصاحب بجاية بالوصية والاعتناء به وأن يحمل خير محمل، فلما أخذ في السفر شق على أصحابه وتكلموا معه فسكنهم وقال: إن ختيمتي قربت وبغير هذا المكان قدّرت ولا بد لي منه، وأنا شيخ كبير ضعيف لا قدرة لي على الحركة، فبعث الله لي من يحملني إليه برفق، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني، فطابت نفوسهم وعلموا أنها من كراماته، فارتحلوا به على حسن حال حتى وصلوا أحواز تلمسان، فبدت لهم رابطة العبّاد، فقال لأصحابه: "ما أصلحه للرقاد"، فمرض مرض موته، فلما وصل واد يسّر اشتد به المرض ونزلوا به هناك، فكان آخر كلامه: "الله الحق" وتوفي رحمه الله، فحمل إلى العبّاد مدفن الأولياء والأوتاد، وسمع أهل تلمسان بجنازته فكانت من المشاهد العظيمة، وفي ذلك اليوم تاب أبو علي عمر الحبّاك وعاقب الله السلطان فمات بعده بنحو سنة. والدعاء عند قبره مستجاب وجرّبه جماعة، وممن حققه سيدي الهواري في كتابه «التنبيه».

وقال التادلي:"كان أبو مدين مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة كثير الالتفات بقلبه إلى الله حتى ختم له بذلك، و كان من أعلام العلماء وحفّاظ الحديث خصوصا «الجامع» للترمذي، وكان يلازم كتاب «الإحياء» ويعكف عليه، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه ويخصه بين أصحابه بالتعظيم، وقرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ أبي الحسن بن حرزهم، وعلى الحافظ أبي الحسن بن غالب.

قال الشيخ: كنت في أول أمري وقراءتي على الشيخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس اتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به عليّ، فإذا خلوت تأتيني غزالة تؤنسني، وكنت أمر بكلاب القرى فيصيحوا بي، فبينما أنا بفاس إذا برجل من معارفي من الأندلس سلّم عليّ، فقلت وجبت ضيافته، فبعت ثوبا بعشرة دراهم، فطلبت الرجل لأدفعها له فلم أجده، فحملتها معي وخرجت لخلوتي على عادتي، فتعرض

إليّ الكلاب ومنعوني الجواز على القرية، حتى خرج منها مَن حال بيني وبينهم، ولما وصلت لخلوتي جاءتني الغزالة على عادتها فلما شمّتني نفرت عني وأنكرتني، فقلت ما أوتي عليّ إلا من أجل هذه الدراهم التي معي فرميتها، فسكنت الغزالة وعادت لحالها معي، ولما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي ولقيت الأندلسي فدفعتها له، ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة فدارت بي كلابها وبصبصت بي على عادتها.

فبقيت كذلك مدة وأخبار أبي يعزى ترد عليّ وكرامته تنتقل إليّ، فملأ قلبي حبه فقصدته مع جماعة الفقراء، فلما وصلت إليه أقبل على الجماعة دوني، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فأجهدني الجوع وتحيرت من خواطر ترد علي، ثم قلت في نفسي إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان، فقام ومرغت وجهي، فقمت وأنا لا أبصر شيئا وبقيت طول الليلة باكيا، فلما أصبح دعاني وقربني فقلت له: يا سيدي قد عميت ولا أبصر شيئا فمسح بيده على عيني فعاد بصري، ثم مسح بيده على صدري فزالت تلك الخواطر عني، وفقدت ألم الجوع وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء الفريضة فأذن لي وقال: تلقى في طريقك الأسد فلا يُرعك، فإن غلب خوفه عليك فقل له بحرمة (يطنوز) إلا انصرفت عني، فكان الأمر كما قال.

فتوجه أبو مدين للمشرق وأنوار الولاية عليه ظاهرة، فأخذ عن أعلام علمائها واستفاد من زهادها وأوليائها، وتعرّف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث، وألبسه خرقة الصوفية وأودعه كثيرا من أسراره وحلاّه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعدّه أفضل مشايخ الأكابر".

وعن أبي العباس المرسي قال: "جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقا بساق العرش، وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: وما علومك؟ وما معك؟ فقال: علومي أحد وسبعون علما، وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال". من «البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان». للشيخ سيدي محمد بن أحمد المليتي الشريف التلمساني المكنى بابن مريم رحمه الله.

ومن أراد الإجابة فليقل في الدرجة الرابعة للصاعد من ضريحه مستقبل القبلة: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بسيدنا ونبينا ومولانا محمد ρ ، وبأويس القرني وحبيب العجمي وذي النون المصري ومعروف الكرخي وسفيان الثوري وأبي الحسن الشاذلي والحسن البصري وأبي العباس المرسي وأبي حامد الغزالي وسيدي عبد القادر الجيلاني وسيدي أبي مدين شعيب وسيدنا ونبينا ومولانا محمد ρ ".

فإن قلت الغوث هو القطب أو هو غيره، وعلى الغيرية فهي أعلى درجته، فالجواب أن نقول: الغوث أعلى كمال العالم المطلق، ونقل سيدي عيسى بن موسى عن أبي الفوارس عبد العزيز المتوفى الحسني أنه قال: "الأقطاب سبعة وكذا الأبدال والأعيان، وهم النجباء، والأوتاد أربعة عشر وأقاليم الإسلام سبعة بر العجم والعراق والشام والمغرب ومصر واليمن والحجاز، ولكل إقليم قطب وبدل وعين ووتدان، والخضر والغوث فرادن لا سبيل أن يكون في الأرض غوث ولا خضر إلا واحد، والغوث مقيم بمكة لا يخرج منها، والخضر يجول في المشرق والمغرب بروحانيته، يغيث الملهوف ويرشد الضّال، والغوث حكمه على القطب، والقطب حكمه على البدل، والبدل حكمه على العين والعين حكمه على الوتد والوتد حكمه والله أعلم على صالحي العامة، فإذا مات الغوث وليّ الخضر قطب مكة إلى

أن يكون غوثا، ووليّ الغوث بدل مكة أن يكون قطبا، وولي القطب عين مكة أن يكون بدلا، وولي البدل والله أعلم واحد من العامة أن يكون وتدا، وإذا مات الخضر والغوث حي صلى الغوث في حجر إسماعيل تحت الميزاب، فإذا سقطت من الميزاب ورقة باسمه أعطى مراتب الخضر وأحكامه، وإذا صار الغوث خضرا ولي قطب مكة أن يكون غوثا، وهذا دولاب دائر إلى يوم القيامة لا يخلو الزمان منهم لقوله تعالى: [مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا] [البقرة/106].)[1]

[في التعريف بالشيخ سيدي الحلوي دفين تلمسان:]

وقوله: (واين هو المخلص حلوي شوذي صاحب العليا)، اسم هذا الشيخ هو أبو الحسن الشوذي الحلوي، وشوذي اسم بلدة في برّ الأندلس تقرب من إشبيلية بلد أبي مدين، فالشيخان أندلسيان الأصل تلمسنيان الدار، أكرم الله بهما أهل هذه القرية وجعلهما رحمة لهم، من جاورهما يجار من ظلم الفجّار، ومن زارهما يعطى ما نوى إن صح له الاضطرار، ولهما جامعان للجمعة ومدرستان للطلبة وزاويتان للرهبة، وعليهما أحباس كثيرة ولهما مياه غزيرة، فرحم الله من تسبب في عمارة المدارس والمساجد، وأخذ من سعى في تخريبهما بتغيير الأحباس والمقاصد، قال الله تعالى: [إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ][التوبة/18]، وقال تعالى: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ][البقرة/114].

وقد أثنى على هذا الشيخ محمد السنوسي حيث يقول في «نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير» لقيت بها، أي الأوراق التي رد فيها على الفقراء أبا الحسن الحلوي نزيل تلمسان وأفضلها علما وأدبا، فهاله ما رأى من أوراق أبي الحسن، فقال: اللهم أبل ناشره في البلاد بدل العباد.

حكى أن هذا الشيخ كان صاحب حال مع الله فإذا رآه الصبيان اتبعوه وسألوه، فيقشر لهم الجير من الحيطان ويُصيّره الله في يده حلوا طيبا فيعطيه لهم فيأكلونه، فلقب لذلك بالحلوي، فسعى به إلى أمير وقته فأمر بقتله وصلبه على سور المدينة، فروى أن البوّاب إذا نادى بين العشائين على غلق باب المدينة، هل بقي أحد خارج البلد، يجاوبه الشيخ المصلوب لم يبق أحد إلّا الحلوي المظلوم، فسمع السلطان فواراه وبنا له المسجد والزاوية وحبس عليه خيرا كثيرا وفتح لزاويته بابا في سور المدينة يسمى الآن بها، وإنما وصفه الناظم بالإخلاص فيها، وفي الأثر: "الناس كلهم هلكا إلا العالمون، والعالمون هلكا إلا العاملون، والعاملون هلكا إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم".

قال تعالى حاكيا عن إبليس لعنه الله وأبعده الله عنا كما أبعده عن رحمته، قال تعالى: [قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ] [ص/82،83]، وهم الذين قال الله له في حقهم: [إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ][الحجر/42]، وكفى أهل الإخلاص شرفا أن الله لم يجعل عليهم لعدوهم سبيلا، (وهم أهل النفوس المطمئنة التي قال الله لها: [يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي][الفجر/27،28،29،30]، وقد قال رسول الله ρ: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة،

[1] الكلام من (ثم قال: "رأيت الشيخ أبا مدين وأبا حامد – إلى– لا يخلو الزمان منهم لقوله تعالى: [مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا] [البقرة/106]) ساقط في (ب) و(ج).

قال أبو ذر: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله، فقال υ: وإن زنى وإن سرق، فقال: وإن زنى فقال: وإن زنى وإن سرق رغما على أنف أبي ذر»[1].)[2]

قال في «الإحياء»: "ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا تبقى فيه شركة لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له عن مشاهدة محبوبه، وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب".

والإخلاص من توجهات قلوب أهل الإخلاص لأنه سر بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، (وكنت أنشأت قصيدة ثلاثية على ثلاثة أشياخ أقول في أولهم:

بَـدَأْتُ بِعَبْـدٍ لِلإِلَهِ أَضَافَـــهُ	إِلَيهِ وَفِيـهِ لِلشَّـدَائِدِ مَدْفَـــع
بَـرُورٌ تَـوَدُّد وَرَأْيٌ مُسَـــدَّدُ	وَنَقْلٌ وَعَقْلٌ في المَعَـارِفِ يَرْتَـــع
بِإِخْلَاصِهِ فَـاقَ المعَاصِرِ قُطْبُهُـــم	إِمَامُ الهُدَى يحي الحسـن المتَـورِّع

وأعني به الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي المدعو العبدلي، لأنه لما أن خصه الله بالإخلاص أضافه لحضرة الاختصاص، جعلنا الله من المخلصين الفائزين آمين.

قوله: "صاحب العليا"، يحتمل أن يكون قصد منزلته الدنيوية لأن قبره في أعلى الزاوية المذكورة أو قصد منزلته الدينية والإخلاص من أعلامها.)[3]

[في التعريف بالشيخين عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي والشيخ أحمد بن علي الطرابلسي" خروبي":]

قوله: "واين الثعالبي وخروبي"، أراد بالأول والله أعلم سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المفسر المتأخر[4] لا الثعالبي المفسر الأول الذي عدّ حروف القرآن، بدليل ذكره لمن حادى الأول من الصالحين في المكان والزمان، ولهذا الشيخ تآليف كثيرة أعظمها تفسيره «الجواهر الحسان»[5]، والمصنف بقرب الوفاة، و«العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة»[6]، و «رياض الصالحين»، (و«شرحه لابن الحاجب الفرعي»، و«الدرر اللوامع»[7] لأبي الحسن بن علي بن بري")[8] إلى غيرها، ورؤيته للنبي ρ التي خُطَبُهُ فيها مشهورة بل مرائيه كثيرة مذكورة في تفسيره τ ونفعنا به.

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان: – مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص: 687./ – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص: 417.

[2] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، أبو زيد، صوفي، من كبار المفسّرين وأعيان الجزائر وعلمائها، ولد ونشأ بناحية وادي يسر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر سنة 786هـ/1384م، أخذ عنه جماعة كالشيخ العالم محمد بن محمد بن زروق الكفيف، والإمام السنوسي، وأخيه لأمه علي التالوتي، والإمام عبد الكريم المغيلي، له أكثر من تسعين كتابا، توفي في رمضان سنة 875هـ/1470م. ينظر: – أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف (ج1)، ص: 73 – 78.
– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 90، 91.

[5] كتاب " الجواهر الحسان في تفسير القرآن" في أربعة أجزاء مذيّلا بمعجم لغوي لشرح غريبه.ينظر:– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 90. والعنوان ساقط في (ب) و(ج).

[6] ويسمى أيضا:"العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة" في جزأين. ينظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[7] "الدرر اللوامع في قراءة نافع". ينظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[8] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

قال الشيخ السنوسي: كان سيدي عبد الرحمن الثعالبي τ يقول بعد صلاة كل جمعة وهو مستقبل القبلة لا يتكلم مع أحد: "اللهم يا غني يا كريم اغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك"، يقول هذا الذكر سبعين مرة، قال: "وقد وجدت بركته"، قال السنوسي: "وهو مجرب لسعة الرزق الحلال"، أيضا لمن قال هذا العدد في كل جمعة عند الشروع لأذان الجمعة، واحرص على أن تكمل هذا العدد بين أول الأذان وختمه، فداوم على هذا تجد بركته في القليل من التجارة، وهو عجيب جدا رزقنا الله وإياكم رزقا حلالا لا إثم فيه ولاتباعه بمنّه وكرمه.

قلت: وزاد البلقيني: يقدم سورة الإخلاص مائة مرة ويصلي على النبي ρ مائة مرة، ثم يذكر الذكر المذكور سبعين مرة بعد السلام، ولا يتكلم حتى يفرغ من الجميع، فلا تمر عليه جمعتان إلا أغناه الله.

وأما الشيخ (الخروبي)[1] فهو تلميذ للشيخ زروق واسمه أحمد أو محمد بن علي الطرابلسي (وله تأليف عجيب سماه «كفاية المريد وحلية العبيد»، اختصره من كتاب «السلوك» للإمام الساحلي، يجاري اختصار الشيخ السنوسي، لكنه زاد عليه وختم بوصية عجيبة، رأيت أن نذكر منها ما لا بد منه لكي لا يخلو كتابنا هذا عن مهمات الفوائد، ونصه: "قد وعدنا أن نختم هذا بوصية تليق بالزمان وأهله، إذ لا يليق بزمان ما يليق في غيره، وهذا العكس لاختلاف طبائع الناس وأعرافهم، فلذلك كان من الحكمة والسياسة أن يعامل أهل كل زمان بما يليق بهم، وهذا الذي قلناه إنما هو في الأمور العادية، وأما الشرعية فمطردة في كل زمان وفي كل مكان ومع كل إنسان، فإذا أراد الإنسان أن يصيب في جميع أموره في كل زمان وفي كل مكان مع الله ومع عبده، فليحكّم العلم بينه وبين ربه وبين الخلق، فإذا فعل ذلك فلا يترتب عليه لوم لا من الله ولا من الخلق، فاعلم ذلك.

ثم ذكر كيفية أداء حقوق الله وحقوق رسوله وحقوق النفس وحقوق الخلق على ما ذكره عامة العلماء لجمله الخلق، وهي مبينة في الكتاب والسنة وكلام الحكماء، -إلى أن قال-: وأما الأمور التي أوصيكم باستعمالها في زماننا هذا في كل مكان، العزلة الدائمة والوحدة والصمت اللازم والخمول، وترك الكلام حتى فيما يعني إلا في أمر واجب ولا يقوم به غيركم، لأن الكلام وإن كان فيما يعني قلّما ينجو صاحبه من غلطة أو عثرة، فإن أهل زماننا هذا لا يعرفون زلّة ولا يقبلون عثرة، فإن أصبت معهم ستروا صوابك، وإن أخطأت نشروا خطأك، ويا ليتهم ينقلون خطأك كما كان بل يزيدون عليه أمثاله، وإياكم رحمكم الله وخلطة أهل الرياسة، فضلا عن طلبها فإنها معدن الرياء والشماتة والبراء، ومما أخصه من عموم أنواع الرياسات وأنهاكم عنه، الإمامة في زماننا هذا، والشهادة والقضاء فإنها معادن الرياء والحسد والعداوة والبغضاء، وهي مقللة الأصدقاء مكثرة الأعداء، وإنما خصصتها من عموم الرياسات لكون أصلها رتبا زكية تسرع النفس من سياستها إليها، فالحذر ثم الحذر منها.

وإياكم ومخالطة الولاة في هذا الزمان، فإن مخالطتهم غدير الدم وهو نقمة كانوا لكم أو عليكم، ومن بلي منكم بذلك فلا ألتمس له أمرا تعفيه على مخالطتهم يجلب له نفعهم ويرفع عنه مضرتهم كنصحه في غيبته وشهادته وكتمان سره، وغير ذلك من الأمور التي تعين على صحبة الملوك الذين خلوا، فإن تلك أمة قد خلت، وإنما أَدُلُّ من بُلِي في زماننا هذا بخلطة ملوكنا على الفرار إلى موضع لا يعرف فيه.

---

[1] محمد بن علي الخروبي الطرابلسي (أو السفاقسي) الجزائري، أبو عبد الله، فقيه الجزائر في عصره، مفسر، محدّث، من كبار العلماء، ولد في طرابلس الغرب ونشأ بالجزائر وولي الخطابة بها، في سنة 959هـ دخل المغرب الأقصى سفيرا بين سلطان آل عثمان وبين أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني، فزار فاس ومراكش، مات بالجزائر العاصمة سنة 963هـ/1556م، خلف خزانة من كتب العلم. ينظر: - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 132.

وإياكم ومخالطة بعضكم بعضا بدنياكم، فكم من صديق حميم إذا دخلت الدنيا بينك وبينه عاداك عدوا مبينا، وعليكم بالقناعة، وارضوا بالقليل الخشن من القوت، والدون من اللباس تعففا عن الدخول في الأسباب مع أهل هذا الزمان، فإنكم متى شاركتموهم في أسبابهم أذاقوكم من عذابهم وبارزوكم بجرابهم، وإن احتجتم إلى ما لا بد لكم منه فعليكم بالرفق والإجمال والتستر في ذلكم ما قدرتم، وعاملوا الخلق بالأخلاق الزكية والهمة العلّية، وتنزهوا عما في أيديهم تكونوا بينهم أحرارا، وأحسنوا عليهم ببعض ما في أيديكم تكونوا في قلوبهم كبارا.

وأوصيكم أن تحسنوا آداب أبنائكم ونسائكم وما ملكت أيمانكم، وتعلموا مكارم الأخلاق وانهوهم ألا يتبعوا أهل هذا الزمان في طبائعهم الردية وعوائدهم الذميمة، لأنكم إذا باينتوهم بأنفسكم ووافقتموهم بمن والاكم دخلتم بينهم بأحد السببين، ومن تقرب إلى شيء بأحد السببين يوشك أن تَقْرَبَ إليه بالآخر، وكونوا رحمكم الله في الدنيا غرباء بين أهلها حتى تلقوا ربكم راض عنكم فيرضيكم بما تحملتم من أجله.

وكونوا في جميع أموركم في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وإياكم والجلوس في الأسواق، فإن أهل الفضل في هذا الزمان لازموا ديارهم، وتولّى الأسواق أراذلهم كاد ألا يسمع فيها ما يسركم، فاعتزالها أولى وأسلم للقلب، ومن احتاج منكم إلى علم في دينه فليقصد عالما نفعه علمه وليحفظ حرمته، فهذه أصول تحتوي على فروع فلنكتف بها.

ثم ذكر آداب المخالطة كما ذكرها الغزالي، ثم ختم الخاتمة بقوله ρ: «من جلس مجلس فكثر فيه لغطه فيقول قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك»[1].)[2]

[في التعريف بمقام سيدي أحمد بن يوسف الملياني وكراماته:][3]

وقوله: "واين هو بن يوسف آفقرا"، عنى به الشيخ الرباني سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وهو أيضا من تلامذة سيدي أحمد زروق، وله عناية مع الله عظيمة وعوائده معه كريمة، ظهرت على يده الخوارق وشهدت له الحقائق، كل من عاصره أذعن له وكل من لقيه أخذ عنه ما عدى المحرومين، ومن أراد أن يتعرّف بعض أحواله فعليه بكتاب «بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدّار»[4]، الذي ألفه قاضي الجماعة بمداشر هوارة محمد الصباغ بن القاضي القلعي، فإنه رحمه الله أجاد في مصنفه فجزاه الله خيرا.[5]

[1] الحديث: – ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج2، ص: 353./ – الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 494.

[2] الكلام من الطرابلسي (وله تأليف عجيب سماه «كفاية المريد..» – إلى– إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك») ساقط في (ب) و(ج).

[3] الفصل ساقط في (ب) و(ج)، ما عدا السطور الثلاثة الأولى منه.

[4] تقدمت الإشارة إليه، وحول هذا الكتاب ومضمونه ولغته ونسخه المخطوطة، ينظر: محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص: 73،74.

[5] هناك كتابات أخرى ترجمت للشيخ أحمد بن يوسف الملياني، أو تعرّضت لبعض جوانب حياته، منها:

- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر، ص: 112.
- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف (ج1)، ص: 355.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج1)، ص: 502.

وها أنا أذكر منقبة استفتح بها كتابه ونصه: "حدثنا بن الهواري المصراتي، قال: حدثني الشيخ مشافهة، فقال لي: كنت في بجاية عند شيخي سيدي أحمد زروق نفعنا الله به، فدخلت خلوة بقيت فيها أياما، فغلبني الجوع، وأقسمت بالله لا أكلت إلا من يد العدو، فخرجت من الخلوة ذات يوم وذهبت إلى ترج البحر ورقدت كأني ميت إلى الليل، قدمت سفينة للروم فرسوا بالقرب مني، وذهب بعضهم لاستقاء الماء فوجدوني مطروحا بالأرض، فقالوا: هذا غلبه الجوع فأعطوني الطعام فلم آخذه بيدي ثم أطعموني بأيديهم، فأكلت وشربت ورفعوني لسفينتهم وأرادوا الذهاب بي فلم تتحرك السفينة فقال رئيسهم: هذا قسّيس، ثم طلبوني في الدعاء وقلت اذهبوا سالمين غير غانمين، ثم أمر الرئيس النصارى فأخرجوني إلى طرف البحر.

ثم رجعت إلى بجاية فرأيت حلقة عظيمة والناس مجتمعون فقصدتهم، فإذا بشيخ لابس عباءة عاري الرأس وهو في وسط الحلقة يرقص ويذكر الله، يقال له سيدي بلقاسم البسكري نفعنا الله ببركاته آمين، فقال لي: أدخل الخلوة ولا ترد ما يُعطى لك، ثم اذهب لأهلك في (راس الماء)[1] ولم يعلم أحد من تلك الحلقة لمن يقول ذلك لأني كنت لا يعرفني أحد، ثم ذهبت كما أمرني سيدي بلقاسم فدخلت الخلوة إلى الليل فأتاني رجل بجعبة دراهم وناولنيها من بين الحائط والباب وذهب.

ثم بعد ذلك اشتريت فرسي البقعة[2] ودروية تقلّدت بها وكسوة، فأتيت (راس الماء) وجعلت نوالة وجلست فيها في (راس الماء) لا يعرفني أحد، ثم بعد ذلك صرت أمشي أصلّي في سوق العساكر بالناس فتسامع الناس بي وصاروا يأتوني، فسمع بذلك سيدي عمر التراري، فقال: أنا أذهب أقتل هذا البدعي، فقدم راكبا فرسه إلى أن قرُب مني، وقَّفْتُ فرسه فضربها بقضيب والمهاميز فَامتَنَعَتْ، ثم ردّها إلى جهة أهله فرجعت، ثم في الغد فعلت مثل اليوم الأول، ثم في اليوم الثالث قال لفرسه: اذهب بنا لنختبره ليس إلا فأطاعته وانقادت بقدرة الله عز وجل، فلما قدم على الشيخ سيدي أحمد قال له: فرسك خير منك، هذا معنى كلامه الزناتي[3] فقبّل يدي سيدي أحمد وتاب عمّا عزم عليه وجلس عنده، ثم قدم سيدي عثمان بن عمر راكبا حمارة، ثم بعده سيدي عبد الرحمن الفيلالي واجتمعوا عند الشيخ سيدي أحمد نفعنا الله بأجمعهم، واختبروه في العلوم فوجدوه بحرا لا ساحل له، ثم قالوا: "نزوجك امرأة"، فقال لهم: "حبا وكرامة"، فخطبوا له ستي، وقالوا له: "شرطوا أهلها مائتين وخمسين وخادمين، وبغلتين في صداقها"، فقال: "قبلت"، قالوا: "هذا شيء كثير، وأنت لا شيء عندك"، فقال لهم: "خزائنه كثيرة ورحمته واسعة"، فعقد عليها، ثم أراد أن يبني بها فأتاه ابن ماخوخ الركري بحوائج أهله قدر العين دينارا، ثم أتته الهدايا والفتوح من كل مكان، شهد له بالولاية فحل الفحول جامع شتات الفروع والأصول سيدي محمد بن يوسف السنوسي.

حكى أن سيدي مواسى الزندامي كان يقرأ على السنوسي المذكور، إلى ذات يوم وقع يغتب في سيدي أحمد ابن يوسف مع بعض الجهلة، فلما أن أتى إلى مجلس الشيخ بادره بالإنكار، وقال له: "تتقول في سلسلة الذهب

[1] بلدية تقع بنواحي ولاية سيدي بلعباس.

[2] علامة تكون في رأس الفرس في شكل لون مخالف للّون الغالب عليه.

[3] كان يتكلّم في الغالب بالزناتية، وهي لغته الحقيقية، ومما جاء في كتاب "البستان" للصباغ القلعي: أن سيدي أحمد بن يوسف كان إذا أراد أن يقول: "ذاك أنا" قال: " دَادّاك ذاك"، وقال في شأن تلميذه الفيلالي الذي ارتقى إلى درجة الولاية: " اقشيش ان أيوازن يوا غير الله أطّاس" ومعناها بالعربية: "رجل قليل أعطاه الله مقاما عظيما". ينظر: محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص: 85.

سيدي أحمد بن يوسف، اذهب إليه الساعة واطلبه في الاستغفار، وأن يجعلك في حلٍّ من الغيبة التي اغتبته بها، وخذ عليه من الأسرار التي منحه الله"، فذهب وفعل ما أمره شيخه، وكذا سيدي أحمد بن سيدي محمد الحاج البيدري وزراه وكذا سيدي محمد بن عبد الجبار الفجيجي وزاره وكذا سيدي محمد الزيتوني حين أتى من المغرب ذاهب للحج ونزل بموضع بعدوة قلعتنا فأتى إليه سيدي أحمد وسلم عليه، فقال له الزيتوني: "أنت ابن زروق وهو ابني، وأنت تلميذ الزروق وهو تلميذي"، ثم طلب الزيتوني سيدي أحمد أن يدعوا له فدعا له، ثم قال له: "أعطني رجلك أقبلها"، فامتنع سيدي أحمد حياء منه، فأقسم عليه أن يفعل فأعطاه رجله اليمنى فقبلها، ثم قال له الزيتوني: هات اليسرى لئلا تغضب اليسرى عن اليمنى"، فأعطى له اليسرى فقبّلها، ثم قال له: "يا أحمد بن يوسف قد أعطاني الله من قاف إلى قاف"، فقال له سيدي أحمد: "هذا قليل، أعطاني أكثر من هذا".

ومن كلامه τ: "العوالم ثلاثة: عالم الملك، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت، فعالم الملك من سماء الدنيا إلى ما تحت الثرى، وعالم الملكوت من سماء الدنيا إلى العرش، وعالم الجبروت من العرش إلى ما لا نهاية له، وهو بحر العظمة نخوض فيه أنا وأولادي، لا يكون الشيخ شيخا حتى يكون مع تلميذه في ثلاثة مواطن، عند النزع حتى يلقنه الشهادتين وفي القبر حتى يثبته الله بالجواب للملكين، وعند العقبة، وأنا فارس العقبة".

ومن كلامه τ: "العقل يطلب إدراك الأشياء من عالمك والوهم يطلب الأشياء من صورها، والحس يطلب إدراك الأشياء من حيث إحاطة الأماكن بها، فالله تعالى ليس له علة فيدركه الوهم ولا تحيط به الأماكن فيدركه الحسن، وإنما يقال تقريب لأذهان المخلوقين: العجز عن الإدراك إدراك [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ][الشورى/11]. وقال τ: والله ثم والله، لولا خفت أن أُعبد من دون الله لأظهرت لهم الحق عيانا"، وكان سيدي عثمان القصيري يصيح عند رؤية هذا الشيخ ويقول: "ها هي الكعبة تطوف بالشيخ. وقال τ: شتان ما بين همتنا أن نطلب الحور والقصور، وبين همتنا أن تطلب رفع الستور ومُدام الحضور. قال τ ، قال لي الشيخ الزروق: يا أحمد بن يوسف أوّلك قنديل ووسطك منديل وآخرك فتيل. وقالτ: عرفني الله بطبيعة الإنسان كلها، وهي مركبة من أنواع شتى، وهي: أرضي وسماوي وهوائي وحار وبارد وجملي وبقري وغنمي، ولا يخفى عليّ من طبائع الخلق بإسرهم طبيعة. وقال: أن لله رجالا إذا غاب عليهم ما تصنع نملة تحيروا. وقال τ: كان رسول الله ρ زق مسك ورشح ذلك الزق فأخذنا نحن من رشحه. وقالτ: رأى بعض أصحابنا فيما يرى النائم أن قيل له أنّ أصحاب الشيخ سيدي أحمد بن يوسف ثمانون ألفا، فقال الشيخ: هذا من الإنس، والجن لا يحصيه إلا الله عز وجل. وقال: رأى واحد من أصحابنا رجلا من الجن المؤمنين، فنظر إليه وقال: نحن ألف رجل من الجن المؤمنين كل يوم نزور الشيخ سيدي أحمد بن يوسف ونتعلم منه".

ومن مشاهير تلامذته سيدي أحمد أبو العباس بن مغرا الراشدي، وسيدي بن محمد بن شعاعة العربي، وسيدي مسعود العروي وغيرهم نفعنا الله بجميعهم. من «الكتاب المذكور».

ومن تلامذة هذا الشيخ سيدي محمد بن القاضي الحجازي العربي، شهد له بالمعرفة شيخه بقوله: "اعراب يستر[كذا] ربي"، ويقول في مدح شيخه كلاما حفظته:

تَابْعَـــــكْ لِي سـَـدًا فِي صُــحْـــبـــتَـــكْ الفَـــــــارَسْ
ومَن لَحْظْتَه لَحْظَا يَبْلَغ يَصِلْ مُنَـاهْ آه يَا سِيدِي يَا مْنَـــوَّرْ المجَالَـسْ
مَا تْنَوَّرْ قَلْبِي اصَدَّى كِمَا تَـــرَاهْ افْنَاكْ وَافْنَى عَنْ فْنَى فْنَا فْنَـــاكْ
وَافْنَـــاكْ عَن كُــل مَا سِـــوَاهْ وَامْتحِيتْ وَاسْقَاكْ مِن بَحْرْ الحُبْ مْحَبّة سْقَــاك
صِرتْ مَحْبُـوبْ الفِعـلْ فِي المُـلكْ مَـــا بْغِيـتْ صِرتْ قَادَرْ بِكْ المَاشِي وبِكْ الجَالَــسْ
وبِكْ فِعلْ العَلَّامْ فِي مُرتَضَى رِضَـاهْ وارْتَقِيتْ عَنْ الكُلْ انْتَ بْقَلبْ خَالَـصْ

صِرتْ انْتَ وهُوَ فِي مُلْكُه سِـــوَاهْ آه يَا سِيدِي يَا مْنَـوَّرْ المجَالَـسْ
مَا تْنَوَّرْ قَلْبِي اصَدَّى كِمَا تَــرَاهْ يَا الحَاضَرْ يَا الغَايَبْ يَا مْنَوَّرْ الدِّيـنْ
يَا غْرِيبْ لَا لُه بَيَنْ الوَرَى قْبِيلَــة يَا مُغِيثْ السَّتْ فِي لَحْظَة طَرفَةْ العَيــنْ
يَا الصَّبَّاغْ فْقِيرْ الثَّوبْ دُونْ نَيْلَـــه الأَنْبِيَا يُوحِي لِيهُمْ بِالأَمرْ جِبْرِيـــلْ
وَانْتَ مِن الرَّبْ إلى القَلبْ لَا وَسِيلَـــة[1] يَا الكَامَلْ يَالمنــزَّهْ عَنِ النَّقَائِـصْ
يَا الفَانِ فَارَغْ عَنْ كُل مَا سِـــوَاهْ كَفْرُونَا أَهْلْ اللْسَانْ رْطَـبْ وَقَلبْ يَابَــسْ
لَوْ فْضَحتْ سِرَّكْ تْقُولْ يَــاه آه يَا سِيــــدِي يَا مْنَـوَّرْ المجَالَسْ
مَا تْنَوَّرْ قَلْبِي اصَدَّى كِمَا تَــرَاهْ

[الفقراء إلى الله:][2]

وقوله:" آفقرا " لأن الفقراء كان يتبعون هذا الشيخ[3]، التماس معروفه كي يدلهم على معروفه، والفقر إلى الله من أشرف الخصال، قال رسول الله ρ: «ألا أخبركم بملوك الدنيا، أو قال الأرض، قالوا ومن هم يا رسول الله؟ قال: الفقراء المحزونون المكظومون المكروبون المظلومون، الذين لا يتزوجون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السادات يموت

[1] عبارة صوفية تتردّد كثيرا في الخطاب الصوفي، كقولهم: قال لي ربي أو خاطبني ربي، فلا يجب أن ينصرف الذهن إلى دعوة نبوّة، وإنما هي لغة الصوفية تعبيرا عمّا يلقى في قلوبهم من الحقائق في لحظات الصفاء الكامل، فبدلا من أن يقول الواحد منهم أُلقِيَت في قلبي هذه الحقيقة أو انقدح في ذهني هذا الخاطر، يقول قال لي ربي، إيمانا منه بأن نبع الحقيقة وملهمها هو الله وحده. ينظر حول هذا المعنى: مصطفى محمود، رأيت الله، دار المعارف، القاهرة، دط، دتا، ص: 18.

[2] الفصل ساقط في (ب) و(ج).

[3] قيل أن سيدي أحمد بن يوسف هو من سمّى أتباعه بـ " الفقرا ". ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ ا لجزائر الثقافي (ج1)، ص: 503.

أحدهم كموت بعوضة»[1]. وفي رواية: «وحاجته تختلج في صدره، ولو أقسم على الله لأبره»[2]، وقال رسول الله ρ: «الفقير المتجرد من الدنيا لا يطالبه السلطان بالخراج، وكذلك الجبار لا يطالبه بالحساب»[3].

وأما الفقراء إلى غير الله فهم الذين قال فيهم رسول الله ρ: «سيكون آخر الزمان أقوام يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، يكون أحدهم في زيه وخِرقِه أعظم نفسا وأشد شرا، ينظر أحدكم شزرا أو يكلمك شرا أو يأكل أموال الناس قهرا، فإذ رأيتم هؤلاء فاستحسّوا بخروج الدجّال»[4] قال الجنيد بعد استشهاده بالأحاديث المذكورة: "وإذا رأيتم الفقير يفتخر بزيه وخرقه فاعلموا أنه قد زلّ عن طريق الاستقامة، وإذا رأيتموه استغنى عن الاستماع للعلماء فاعلموا أنه قد ضلّ، وإذا رأيتم الفقير يكثر الإشارة والغمز فاعلموا أنه بعيد من الله قريب من الشيطان، وإذا رأيتموه يخالط الأضداد فاعلموا أنه قد رضي بهتك الأستار، وإذا رأيتموه يظهر اللهو وسوء الأدب فاعلموا أن قلبه خراب، وإذا رأيتموه يتكلم بما يخالف الكتاب والسنة فاعلموا أنه ركب طريق الزندقة وحلّ العقيدة، وإذا رأيتم الفقير يجمع من الدنيا ويدخر فاعلموا أن قلبه قد مات، أحسن الله عزاءه فيه، ثم قال: وإنما صفة الفقير أن يكون أكله أكل المرضى، وكلامه كلام الجرحى، وجلوسه جلوس الدعاء، ونومه نوم المرضى، وليله ليل المظلومين، ونهاره نهار المحزونين، ظاهره خلقي وباطنه حقي وقلبه رحواني، وعقله عرشي وهمته علوية وسريرته سرمدية، ثم أنشأ يقول:

لِلَّهِ فِي الخَلْقِ أَسْـــرَارٌ وَأَنْـــوَارٌ وَيَصْطَفِـــي اللهُ مَـــن يَرْضَى وَيَخْتَـــارُ
لَا تَحْقِرَنَّ فَقِيـرًا إِنْ مَـرَرتَ بِـــهِ فَقَد يَكُـــونُ لَهُ حَـظٌّ وَمِقْـدَارُ
المرءُ بِالقَلْبِ لَا بِاللُّبْـــسِ تَعرِفُـــهُ قَد يَخْلُــفُ القَمَـر والهِنْدِي بَتَّـــارُ
والتِّبْرُ فِي التُّرَبِ قَد تُخْفَى مَكَانَتُـــه حَتَّى يُخَلِّصُـهُ بِالسَّبْــــكِ مِسْبَـارُ

قال سيدي محمد بن إبراهيم شيخ ابراهيم الخواص رضي الله عنهما: "الفقير لا يرجع إلى مستند في الكون غير الالتجاء إلى من إليه فقره ليعينه بالاستغناء به، وقال: الراضون بالفقر أمناء الله في أرضه وحجته على عباده، به يدفع البلاء عن الخلق. وقال: من ادعى العبودية وله مراد باق فيه فهو كذاب، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته وقام بمراد سيده، وقال: لا ينال العبد مراده حتى ينفرد فرد الفرد"، وقال أبو سعيد بن الأعرابي: "من أخلاق الفقراء السكون عند الفقد والاضطراب عند الوجود، والأنس بالهموم والوحشة عند فرح الناس بالدنيا".

وسئل أحمد بن يحي الجلا عن الفقر، فسكت حتى خلا، ثم ذهب ورجع عن قريب فقال: "أربعة دوانق، فاستحييت من الله أن أتكلم في الفقر وهي عندي فأخرجتها، ثم تكلم فقال: إنما يستحق الفقير اسم الفقراء إذا لم يبق عليه بقية منه، فقيل له: كيف ذلك؟ فقال: إذا كان له فَلَيْسَ له، وإذا لم يكن فهو له، وسئل عن الفقير فقال:

---

[1] لم نعثر عليه.

[2] لم نعثر عليه.

[3] لم نعثر عليه.

[4] الحديث أورده برواية مختلفة قليلا: – الدارمي، سنن الدارمي، ج2، ص: 531./ – الطبراني، المعجم الأوسط، ج5، ص: 126.

إرسال النفس في أحكام الله، والفقر له حرمة وحرمته ستره وإخفاؤه والغيرة عليه والظنيكشفه، وقال: التصوف يبنى على ثلاث خصال، التمليك بالفقر والافتقار، والتحقق بالذل والإيثار وترك التعرض والاختيار".

وقال علي بن بندار: "لا يكمل حال فقير حتى يكتم فقره عن أحواله، ويكتم رضاه وفرحه به". وقال أحمد بن علي بن رفاعة: "الفقر لباس الأبرار والغناء بالله لباس الأخيار، وقال: من استغنى بالله أحوج الخلق إليه، ومن افتقر إلى الله أغناه به عمن سواه. وقال: شرط الفقير أن يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر فلا يضع كل نفس إلا في أعز ما يصلح له. وقال: رأس مالك قلبك ووقتك، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون وضيعت وقتك بما لا يغنيك، فمتى يربح من خسر رأس ماله. وقال: كل من ادعى ولم يقم الفقير غنيا من عنده والغني فقير فليس على شيء. وقال: كل أخ لا ينفع في الدنيا لا ينفع في الآخرة".

وطريقة الشيخ سيدي أحمد طريقة الأسماء العظام[1] لا الخِرقة[2] والوظيفة[3] والتقصيص[4]، وإنما اختارها لقوله تعالى: [وَلِلَّهِ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا][الأعراف/180] ولقوله ρ: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: ذكر الله»[5]، ولهذا قال الشيخ المذكور: "من كثرت أذكاره ذهبت أكداره، ومن ذهبت أكداره جلت أقداره، ومن جلت أقداره صفيت أضماره، ومن صفيت أضماره مزجت أسراره، ومن مزجت أسراره شرفت في الملكوت الأعلى أبصاره، وكان قاب قوسين من داره، ومن كان قاب قوسين من داره كان الكون أمصاره، وهذا العلم حرام على الجاحدين المنكرين المتكبرين، وإنما هو مخصوص محبس على الصادقين المصدقين المقربين المفتقرين، وهذا العلم الشريف الخفيف العجيب المخصوص بالخصوص إنما هو بعد المحو والصحو".

وقال الصبّاغ المذكور عما حدثه به محمد بن الهواري المصراتي أن الشيخ سيدي أحمد قال له: "دعوت الله في ثلاثة فأعطانيها في ليلة واحدة، طلبته أن يرزقني العلم بغير مشقة فأعطاني علم الظاهر والباطن، وطلبته أن يبلغني مبلغ الرجال فبلغني فوقهم، وطلبته أن يريني المصطفى ρ في النوم فرأيته في اليقظة وفتح الله علي في علوم ببركته ρ لم يطّلع عليها غيري". قال الصباغ: "ويعضد هذا ما روى عن علي بن أبي طالبτ أنه قال في خطبته المعروفة بـ (القطقطانية) أسرّ إلي رسول الله ρ مائة ألف سريرة، في كل سريرة ألف جنس، في كل جنس ألف نوع، في كل نوع ألف فصل من العلم المكنون المخزون المصون، فو الله لو فهّمت لكم واحدة منها لقلتم اقتلوا عليا، وأنشد:

---

[1] أي السلوك والتزكية عن طريق الذكر بأسماء الله الحسنى، يقول سعد الله في هذا السياق: كان سيدي أحمد بن يوسف يلقن الأسماء للعامة، بما في ذلك النساء، وقيل أنه دعا الناس إلى الله فأبوا فاكتفى منهم بشغل جارحة من جوارحهم بذكر الله. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج1)، ص: 504.

[2] كثير من الناس، رجالا ونساء، يوصفون بأنهم لبسوا الخرقة وألبسوها، وهي عبارة عن طاقية أو قلنسوة أو ثوب أو عمامة –أو عباءة– سواء كان الثوب للملبس أو للابس، حيث يقول الشيخ عند إلباسه الخرقة للمريد: "باسم الله كسوتك، وألبستك خرقة التصوف" وقد عللوا لباسها بالاقتداء بالسلف وبمنعها الحر والقر، وبخفة التكليف، وبقلة الطمع فيها، وذلة النفس، وتطويل العمر والخشوع والتواضع. ينظر: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي، مقاربة وظيفية، ص: 152، 153.

[3] يقال الوظيفة أو الورد، وهي جملة الأذكار التي يلقنها الشيخ للمريد كي يذكرها بشكل دوري بأعداد معلومة في أوقات مخصوصة. ويمكننا أن نذكر كتابا يحمل في صدر عنوانه هذا المصطلح، يتضمّن المصنَّف شرحا للصلاة المشيشية –نسبة للشيخ عبد السلام بن مشيش– هذه الصيغة التي جعلتها الطريقة الشاذلية التي ينتسب إليها سيدي أحمد بن يوسف وردا رئيسا من أورادها، حيث سمّاها أبو الحسن الشاذلي خليفة ابن مشيش بـ "صلاة الفتح والقرب". ينظر: دار الكتب العلمية، الإلهامات السَّنِيّة في شرح الوظيفة الشاذلية، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيّالي، بيروت، ط1، 2003، ص: 3.

[4] يعني به القَصَص الصوفي خصوصا، وهي مسلك آخر من مسالك ترشيد الناس وتهذيب أخلاقهم وتبسيط معارفهم، ولهذا قال ابن الملقّن في " طبقات الأولياء": "الحكايات جندٌ من جنود الله، تَقْوى بها أبدان المريدين" ، وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى:[وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ] [هود/120]. ينظر: عبد الرحمن الملحوني، الحكايات الشعبية الصوفية، إشراقات من أدب السلوك، ص: 3.

[5] الحديث أخرجه: – محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ج2، ص: 198./ – أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج2، ص: 353.

يَا رُبَّ جَوهَرُ عِلْمٍ لَوْ أَبُـوحُ بِـــهِ   لَقِيلَ لِي أَنْـتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوَثَنَــا
وَلَاسْتَحَلَّ أُنَاسٌ[1] مُسْلِمُـونَ دَمِــي   يَرَونَ أَقْبَـــحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنَــا
إِنِّي لَأَكْتُـــمُ مِن عِلْمِــي جَوَاهِـــرَهُ   كَي لَا يَرَى ذَاكَ ذُو عَقْلٍ فَيَفْتَتِنَـــا[2]

فالحمد لله الذي خَرَطَنَا في سلك سلسلتهم الذهبية التي مبدأ تسلسلها من الإمام علي ومنبع تفجرها من شيخ شيوخ أشياخ شيوخنا سيدي أحمد بن يوسف الرَكي، نفعنا الله بنسبتهم، ولا حرمنا الله في الدارين من بركتهم.)

[في التعريف بالشيخ سيدي بوعبدل المغوفل:]

قوله: "واين الشلفي صاحب الحرب"، أراد به الشيخ البركة سيدي بوعبدل المغوفل، نسبه إلى وطنه الذي نشأ فيه ودفن فيه، وهو وادي الشلف الذي يفرغ في بحر مستغانم، (وله τ ذرية صالحون ولهم زوايا عديدة في وطنه، وتعريف الناظم له بصحبة الحربي لا أدري ما هو!؟.)[3]

[في التعريف بصلحاء هوارة:]

قوله: "واين هم صلاح هوارة"، قال النووي: قبيلة تقرب من القلعة[4] وفيها صلاّح كثيرون إلّا أن الناظم لم يعيّن أحدا منهم، فمنهم سيدي حمادوش السجراري، ومنهم سيدي أبو عمران المدفون في تليوانت، و منهم سيدي محمد الهواري وسيأتي ذكره ولهم قبائل ومداشر، ثم قال رحمه الله ورضي عنه:

---

[1] في رواية: رجالٌ. ينظر : – عاصم ابراهيم الكيّالي، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، ص: 4. – محي الدين بن عربي، التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003، ص: 13.

[2] هذه الأبيات تنسب أيضا إلى علي زين العابدين بن الحسين بن علي كرم الله وجهه، و تبدأ بالبيتين الآتيين:

إنّي لأكتُمُ من عِلمِي جَوَاهِرَهُ   كَي لا يَرَى العِلمَ ذو جَهلٍ فَيَفتَتِنَا
وَقَد تَقَدَّمَ في هذَا أبو حَسَنٍ   إلى الحُسَين ووَصّى قَبْلَهُ الحَســنَ .

ينظر: عاصم ابراهيم الكيّالي، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، ص: 4.

*وهناك من ينسبها أيضا إلى الشريف الرضي حفيذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ينظر: محي الدين بن عربي، التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، ص: 13.

[3] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[4] إليها ينتسب الصبّاغ القلعي الذي ترجم للشيخ سيدي أحمد بن يوسف في كتابه " بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار" والذي تقدّمت الإشارة إليه، ومدينة القلعة تقع بنواحي معسكر والشلف.

وَاينْ سِـــــي مَعْـــزُوزْ وَاسْعَــادْ	أينْ هُـــمْ صَالْحِيــــنْ اغْرِيـــسْ
وَاينْ بَحْـــرْ العِلـــمْ وَازْهَــادْ	جَدِّي مُوسَـــى اللَّاْلَـــتِي الرَّيِيـــسْ
وَاينْ مَن وْهَـــمْ أنْ بِهِ سَـــادْ	لُـــولَا أن بَاعْهُـــمْ ارْخِيـــصْ
لما أن قَـــدْ مَسُّوهْ بِالعْطَـــبْ	عَطْبُوا مَنُّـــه الأَهْـــلْ وَ الجُـــورَا
قَالْ لهُمْ يَا نَـــاسْ خَلُّـــوا بِي	رَاكُمْ مِـــنِّي بَيـــعْ دُونْ شْـــــرَا

هذا الشيخ نزيل محروسة مستغانم[1]، ويشتهر بالبحري، لأنه مدفون على شاطئ بحرها ومقامه مزارة هنالك.

وقوله (واسعاد): هذا الولي مدفون ببلد بقرب قلعة بني راشد، ويلقبونه بلغتهم (حمّاد اسعاده) لكبر سنه وعظيم قدره، ويكنونه (بُويْرَادْ) بلغة زناتة، ومعناه: صاحب السبع، وسبب ذلك على ما أخبرت به أن أمير وقته قاربه بمحلته فطلبه إعطاء مؤونة المحلّة، وكان هذا الشيخ نازلا مع ضعفاء زاويته، ليس بأيدهم زرع ولا ضرع ولا ظهر، فاعتذر الشيخ للسلطان فلم يقبل، فأعذر إليه ثم أمر أهل زاويته بنفض حب الزنبوج فردّه الله شعيرا، وأمر أسود الغابة فاجتمعت فحمل عليها تلك المؤونة، فلما أقبل بها على المحلّة قال للأسود: أذكروا الله فزأرت وزهرت حتى جفلت خيول المحلة ودوابها وتشتت أهلها، فرجعوا وتابوا، وحبس الأمير على الشيخ أوطانا بسواقيها في هوارة[2] المدفون بها، وأفضل الله فضله على يد هذا الشيخ، لأن الله إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك.

قال الصباغ: " ومن مناقب سيدي سعاده المذكور أنه أتى مع رفيقه إلى واد حامل بالأمطار حملة عظيمة، فقال لصاحبه: التّيس يتقدم أمام الضأن، فتقدم للوادي وضربه بعكّاز فصار الماء كالجبلين عن يمينه وعن شماله بقدرة الله وببركة رسول الله فاجتازوا ثلاثتهم وسمّاه غوثا".

ومثل هذا ما وقع لشيخنا وصهرنا سيدي بلقاسم بن موسى بن صابر من تسخير النهر حين قدم بعياله من مزغران مستغانم بولهاصة تلمسان، فمر بوادي هبرة فوجده حاملا كثيرا، فنزل وصلى وقرأ حزب البحر الصغير للشاذلي مستحضرا، ثم ركب وقال للنهر: "ما أنت إلا مخلوق ليست لك القدرة ولا قوة، بالذي خلقك فيم تقف وتخضع حتى نجتاز ونقطع"، قال: "فوقف الوادي بإذن ربه حتى قطع الشيخ والعيال، وبعد أن استعان باسم ذي الجلال، ثم حمل الوادي كما كان".

وذكر لنا حفيده سيدي الحاج سليمان بن عبد الملك بن سليمان بن عمرو بن أحمد بن محمد بن عبدل بن أحمد ابن سعاده المذكور أن جده هذا كان يتعبد بقرب قرية بني خالد شرقي بني يزناسن المسمى جبل الكواكب، فأبطأ عنه ذات يوم بإتيان وضوءه وحان الوقت، فصار يضرب بعكازه الأرض ويقول: "الله الله، حتى كمّل سبع ضربات بأذكارها، وفي كل مرة ينبع عنصر ماء، فقدم الخديم فرأى فوران الماء، فنادى على الشيخ فقال له: لو سكتّ

[1] يعني الشيخ معزوز، الملقّب بالبحري، دفين مستغانم.

[2] بلاد هوّارة تشمل مدينتي القلعة ويَلّل بقرب مُعَسكر من جهة وإيغيل ايزان من جهة أخرى. ينظر: محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف، ص: 77.

لصارت هذه الأرض كلها عناصر فكف عن الضرب، والتقى الماء؛ فهو الآن يفيض فيضانا قويا وعليه صهريج أطول من قامة الإنسان، والماء ينهمر من أعلاه في النهر، وبنيت عليه قرى كثيرة أكبرها قرية (تبرانير) وغرست عليه أجنة.

ومن خوارقه إذا نهد الصهريج أو القنطرة أو الساقية أنه لا يقدر أحد على حمل ثقيل أو إصلاح مسيل حتى يحضر أحد من ذرية الشيخ المذكور القاطنين هناك، ولو كان رضيعا، وإن لم يحضر أحد منهم لا يقدر غيرهم على رفعٍ ولا نفعٍ ولو مائة رجلٍ، و هذا ظاهر الآن بالتواتر، فلما أن اشتهر الشيخ بالكرامات فرّ من اغبال ورجع لوطنه وتربته التي فر منها أولا حين أطاعته الأسود وغيرها، وترك ولدا صغيرا عند أمه في اغبال فتناسل منه، ذَكَرَ الرجُل.

[في ذكر صلحاء غريس:]

قوله: "واين هم صالحين غريس[1]"، هو وطن أولاد عمران من بني راشد، ورجاله أهل علم وتقوى وورع منهم سيدي علي بن عومر، وسيدي محمد بن يحي، وسيدي عبد القادر بن خده، وسيدي دحو بن زرفة، وسيدي عبد الرحمن الدرعي وأناس صالحون يطول تتبعهم، ومن استغاث بهم فلينادي: "يا رجال غريس".

[في التعريف بجد الناظم الشيخ موس اللَّالتي دفين حمام الراشدية:]

قوله: "واين بحر العلم وزُهَّاد جدِّي موسى اللالتي الرئيس"، هذا الشيخ من أجداد الناظم وهو جدّ جدّه، وهو مدفون في حمام الراشدية، وروضته وزاويته هناك مشهورتان، وله أحباس وأوطان يحرثها المجاهدون في وهران أعادها الله للإيمان[2]، ولا يتعدى أحد على حرم هذا الشيخ إلى الآن، قال لي الشيخ البركة المحسن السيد يوسف الشريف الكرطي أن هذا الشيخ قديم المدة، وله قدم الولاية، وكان يقول لهم في حياته: "خليفة موسى موسى"، فصار أولاده يسمون على اسمه، فلم نر من خلفه في مقامه حتى أظهر الله سره في ولده يعني به الناظم.

ونذكر نسبه الشريف كما رأيته فذكر شرفهم مشهود فيه، وأنهم من فروع الشجرة النبوية على صاحبها الصلاة والتحية، فلنبدأ بحفيد الناظم المسمى عليه وهو: موسى بن علي بن موسى بن علي بن موسى بن علي بن محمد [كذا]بن عبد الوهاب بن مسعود بن عبد الله بن حراث بن عون بن خصلات بن عنان بن علي الناصر بن حم[كذا] بن بوعلي بن الناصر بن محمد بن عبد القوي بن العباد بن عطية بن مناد بن ذا فلتين بن غالب بن أبي

---

[1] غْرِيس: هو سهل من سهول الوطن الراشدي، سمّي غريسا لأنه كان مغروسا بأنواع الأشجار ذوات الأثمار، وسكّانه هم بنو زروال، وبنو توجين، ومغراوة، والوطن الراشدي، عاصمته معسكر، غرب الجزائر، يحدّه شرقا جبل المناور، وغربا جبل كرسوط، وجنوبا جبل البنيان، وشمالا القلعة.

– و نحب أن نشير إلى أن رسالة التوجيني(ق17م) الموسومة " عقد الجمان"كانت مرجعا لكثير من كتب التراجم والأنساب المهتمّة بصلحاء وأعيان منطقة غريس، منها على سبيل الذكر لا الحصر: – عبد الله حشلاف " سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول" – الشيخ بلهاشمي بكّار " مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب" – أبو القاسم الحفناوي " تعريف الخلف برجال السلف" – أبو القاسم سعد الله " تاريخ الجزائر الثقافي". ينظر: أبو زيد بن عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقدُ الجُمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، المسيلة، الجزائر، ط1، 2005، ص: 8.

[2] احتلّ الإسبان وهران سنة 1014هـ/1508م في حملة أولى، ثم تأكّد الاحتلال في الحملة الثانية سنة 1043هـ/ 1633م، فاضطر أهلها إلى مغادرتها وانتقل الحاكم التركي منها إلى مستغانم، فاستنهض الشعراء والعلماء داي الجزائر لغزو وهران واسترجاعها من المغتصبين، من ذلك الشيخ محمد بن عبد المؤمن في قوله:

نادتكَ وهران فلبّ النداء وانزل بها لا تقصدن سواها. ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر الثقافي (ج3)، ص: 208، 209.

بكر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله (بن هاشم بن أحمد بن محمد)[1]بن الحسن بن علي τ وفاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولنا محمد ρ.[2]

ووصف جده هذا بكثرة العلم والزهد وكنّى عنهما بالبحر، كما قال υ في الفرَس الذي ركب عليه وأعجبه: «إن وجدناه لبحرا»[3]، أي في السير والجري. وهكذا قال ابن العربي حين زار شيخه الغزالي وركب البحر فاضطرب به البحر وكثر أمواجه فقال: "أسكن يا بحير عليك بحران، بحر من علم وبحر من تقوى". وحين تعجب من قوة علمه أخرج الله له دابة من البحر فكلمته وقالت له: "يا فقيه ما عدة الممسوخ زوجها"، فعجز عن جوابها، وعلم أن الله ابتلاه بها، فرجع إلى شيخه فوجده هائما مع الوحوش، فسأله عن المسألة، فقال: "إن الله رفع المسخ الكلي عن هذه الأمة ببركة نبيها، وعلى تقدير أنه لو وقع فإن مُسِخَ حيوانًا تعتبر عُدّة المطلقة، وإن مُسِخَ جمادا تعتبر عُدّة الوفاة".

(وإنما افتخر ابن العربي بالعلم لأنه عظم فأعظمه الله لقوله عز من قائل: [شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ][آل عمران/18]، ولقولهρ: «أتاني جبريل وقال: يا محمد لا تحقرن عبدا آتاه الله علما فإن الله سبحانه قد أجله حين علّمه العلم، ولَعَالم واحد أحب إلى الله من سبعين عابدا»[4]. وإنما أعجزه الله بالدابة حين أضافه إلى نفسه ولم يَكِل العلم إلى من علمه ذلك العلم، كما وقع لنبي الله موسى فاطلعه الله على من هو أعلم منه في نوع من الأنواع، لكن الأفضلية من وجه لا تقتضي الأفضلية من جميع الوجوه.)[5]

وإنما قرن المصنِّفُ بين العلم والزهد في الثناء على جده؛ لأن العلم النافع هو ما أورث الخشية والزهد في الفاني، حشية أن يصده عن الباقي، لأن العلم بالعمل لا يراه لذاته وإنما يراه للعمل به، وإلا فليس بنافع قال عز من قائل: [قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا][الشمس/9]، ولم يقل من علم تزكيتها أو عَلَّمَهَا للناس. (قال أبو قلابة عبد الله بن يزيد التابعي الحرمي τ: "إذا أحدث الله لك علما فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن يحدث به الناس"، قال عامر بن عبد الله أحد الزهاد الثمانية: "عليك بما يرغبك في الآخرة، ويزهدك في الدنيا ويقربك إلى الله عزوجل" وقال: "مثل العاصي كرجل وقع في بحر فما عسى إن سبح حتى غرق"، وقال ابن المبارك: "لا تسمى عالما حتى لا يخطر حب الدنيا بقلبك"، وقال ابن النحوي في «منفرجته»[6]: "وخيار الخلق هداتهم // وسواهم من همج الهمج"، قال شارحه: "يدخل في الهمج العالم الذي لم ينتفع بعلمه".)[7]

---

[1] هناك الكثير من الأخطاء التي يقع فيها النسابون مثل السّقط والإقحام، يراد بالأول سقوط اسم أو أكثر من سلسلة النسب، وأما الثاني فيقصد به إدخال اسم أو أسماء غير حقيقية فيها، ويبدو أننا في هذا المقطع من عمود النسب أمام إقحام غير صحيح البتّة، ففي عرف النسابة الموثوق بهم أن عبد الله الكامل الملقب بالمحض لمحض شبهه بالنبي ρ والكامل لكمال نسبه من جهتي أبيه وأمه، لأن أمه فاطمة بنت الحسين بن علي كرم الله وجهه، هو ابن الحسن المثنّى بن علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت سيدنا محمدρ. ينظر: علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، دط، 1929، ص: 26. – أحمد الشباني الإدريسي، مصابيح البشرية في أبناء خير البرية، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص: 57، 59،58.- الطاهر بن عبد السلام، حصن السلام بين يدي أولاد عبد السلام، ص: 230.

[2] شجرة النسب هذه ساقطة في (ب) و(ج).

[3] الحديث أخرجه: – مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص: 1803./ – البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص: 1051.

[4] لم نعثر عليه.

[5] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

[6] القصيدة المشهورة بـ "المنفرجة" هي التي قالها يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي التوزري الحمادي، وقد سميت كذلك لوقوع الانفراج بها كما قيل، أو لاحتوائها على كلمة (تنفرج) في مطلعها وهو: اشتدّي أزمة تنفرجي // قد آذن صبحك بالبلج. شارح القصيدة الذي عناه المؤلف هو أحمد النقاوسي البجائي في كتابه: «الأنوار المنبلجة من أسرار المنفرجة». ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج1)، ص: 80.

[7] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

وقد سئل الحسن عن مسألة فأفتى فيها، فقيل له: "لم يقل ذلك الفقهاء، فقال: وهل رأيتم فقيها قط، إنما الفقيه الصائم نهاره، القائم ليله، الزاهد في الدنيا يداري ولا يدارى، ينشر الحكمة لله، فإن قبلت منه حمد الله وإلا شكر الله، الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه، وتبرأ من الغير والحسد والرياء وطلب الشهرة والرياسة، وجلب القلوب إليه، فإن الرياء شرك خفي، والشرك الخفي هو النفاق والمنافق في الدرك الأسفل من النار".

فانظر رحمك الله إلى هذه الشروط، هل تجدها اليوم في فقهاء هذا الزمان، إلا في النادر ممن وفقهم الرحمن، وقد وصف الغزالي في «إحيائه»: "أقسام الزهد وهو أنه يقتصر على حد الضرورة في المأكل والملبس والمسكن والمنكح، ومهما خرج عما يسد به حاجته إلى الترفه والسرف، فليس هو من الزاهدين"، فانظر تفصيله فيه.

ومعنى اللَّألْتِي[كذا][1] والرئيس: هو الإمام والقدوة في العلم والعمل، فإن كانت رياسته وجاهه من عند الله فلا بأس عليه وإلا خيف عليه، قال سيدي محمد بن عبد الله الجزائري في لاميته:

دَعِ الرِّئَاسَةَ لَا تَسْلُكْ مَسَالِكَـهَا   أَمَّا الوِلَايَةَ فَالبَلْوَى الذِي وَصَـلَ

وقد قيل: "آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حب الرئاسة، ومسيار اكتساب الرياسة المحمودة قول سهل بن عبد الله: "لا يستحق الإنسان الرئاسة حتى يصرف جهله عن الناس، ويحمل جهلهم، ويترك ما في أيدهم ويبذل مساعي يديه مصداق ما ذكره السيد يوسف المذكور".

وإن الناظم خليفة جدّه المشهور ما أبرزه الله على لسان هذا الولي من المدائح والفوائد، وما أظهره على يده من المكاشفات وخرق العوائد، حدثني الموذن الدين حيان، قال: "سافر ولدي مع قافلة للراشدية وخفت عليه كثيرا، فأتيت سيدي موسى واشتكيت له فقال لي: اشتري ولدك منّي إن أردت سلامته، فقلت له: بكم؟ فقال بقدر جريد، فقلت له: رخصت عليّ، فقال: يكفيك ذلك، فاشتريت قِدْرَة بثمين [كذا]، فلما قدم خبر الرفقة سألت فقيل لي إن أهل القافلة كلهم سلبت أموالهم حتى كساويهم إلا ولدك سلّمه الله بجميع متاعه حتى دابته، فحمدت الله وعرفت عناية الشيخ مع الله"، ومثل ذلك كثير.

وقد منّ المولى الكريم علينا بصحبة هذا الشيخ ونفعنا به في الحياة وبعدها يقظة ونوما، وَوَاصَلَنَا بِغَرْفَةٍ من بحر الحقيقة على يديه بعد أن كنا تعلمنا من علوم الشريعة على والدنا وأشياخنا، وهي سفينة لبحر الحقيقة، ولا بد من رائس ورئيس، فلما أن تجاوز فتح الفتاح العالم بمعرفة العارف بالله سيدي بلقاسم ببركات من قال الله المعطي وأنا القاسم فحرك السفينة وأجراها وقال لأصحابه: اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها، فصارت تجري بهم في موج كالجبال، وجميع من ركب في سفينة نوح نجا من الغرق والضلال لأنها مصنوعة بوحي من الله، فهي أبدا محفوظة بعين الله.

[في ذكر الشيخ سيدي بلقاسم المكنّى "بن صابر":]

سألت سيدي موسى[1] عن أحوال سيدي بلقاسم بن صابر المذكور فأطرق مليا، ثم رفع رأسه إلي وقال: "سيدي بلقاسم مليح مليح"، فشكرت الله على ما حبانا به من محبتهما، وسألت أيضا عنه سيدي عيسى العيسوم،

---

[1] بياض في الأصل بمقدار ثمان كلمات، وساقط في (ب) و(ج).

وكان مداحا عشيقا يرى النبي ρ فقلت له: "أنت رجل هرم قد خصّك الله بما خصك به، وأنت تتبع هذا الرجل من مستغانم لتلمسان، وأراك راجعا معه أيضا، فما ظهر لك فيه؟ فقال: إنما اتّبعته ولازمته لأنه عروس الصالحين اليوم"، وقد ذكر السيوطي أن من خصائص هذه الأمة أن من شهد له اثنان منها وجبت له الجنة.

رأيت سيدي بلقاسم المذكور ليلة عرفة مختتم ثلاث وخمسين بعد الألف[2] في حالة مُرضية عليه بيدران وثوب أبيض تحته، وعلى رأسه عمامة نقية، فقلت له: خبرني بحالك؟ فقال: أو في شك أنتم؟ فقلت لا، ولكن نريد ما يظهر ويتحدث به، فقال: إني لم أعص الله قط ولا قاربت متشابها قط، والثالثة حرك شفتيه بها فرأيت ورقة في حجري مكتوبة بخطي فيها: والفقراء يزبلون تحتهم كالحمار، فأزيل ذلك عنهم ولا آنف من خدمتهم، فقفلت ركبته وفقت، ثم بعد هذا سنة سبع وخمسين[3] عاشرته، بل جاورته عدة أشهر فتحققت تزكية الشاهدين وتصديق الرؤيا برؤية العين، وليس الخبر كالعيان، ولا اليقظة كالمنام، قال الإمام علي: "من أثنى عليه رفقاؤه في السفر ومجاوروه في الحضر ومعاملوه في الأسواق، فلا تشكّوا في صلاحه" وهو المراد بقوله ρ: «أنتم شهداء الله في أرضه، فمن أثنيتم عليه بخير فقد وجبت له الجنة»[4].

و لما رأيت من تصرفاته ما راقبته من أحواله [كذا]وعرضت سيرته على الكتاب والسنة، فوجدته قد عظمت عليه في إتباعه لهما، وتحققت قول الشيخ أبي مدين:

مَا لَذَّةُ العَيشِ إِلَّا صُحْبَةَ الفُقَرَاء   هُم السَّلَاطِيـنُ والسَّادَاتُ والأُمَـرَاءُ

فوجدته منهم وعرفت صدق سيدي محمد بن إسماعيل في قوله: "الناس يقولون: من طلب صاحب بلا عيب بقي بلا صاحب"، وأنا فتح الله علي فوجدتك صاحب بلا عيب، لأن صورتك اسمها: [وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ][الحشر/9]، فلما رأيت ذلك كذلك، قلت مادحا في قصيدة ثلاثية على حروف الهجاء:

نَظَرتُ رِجَالَ الوَقْتِ لِلصُّحْبَةِ الـــتِي   تَوَاصَا بِهَا لِلأُولَى وَمَنْ لَهُ يُرْجَــع
فَوَالِي وَلِيًّا لَا يَضِيعُ عَهْــدُهُ   وَيَجْلُبُ لِي الخَيْرَاتُ وَالشَّرُّ يَدْفَـــع
نِعْمَا عَرُوسٍ[5] رَامَ قَلْـــبِي وَلَاءَهُ   [كذا] اسْتِخَارَة ولِلْقَصْــدِ مُهَيَّــــع
صَبِرْتُ إلى أن تَأَدَّى مِن غَيْرِ مُخْبِــرٍ   يُتَرجِمُ عَنْ سِــــرِّي لَهُ وَهُوَ يَرَكَـــع
صَرَفتُ إلى الشَّيخِ الذِي بَانَ فَضْلُـــهُ   وَعَنْبَرُ سِـــرِّهِ مِن المِسْـــكِ أَطْـــوَع
صَلَاتِي تَوَاصَلَتْ بِسِلْسِلَـــةِ الهُــدَى   عَلَى يَـدِ مُقْتَـــدى إِمَـــام سُمَيْـــدَع

---

[1] شيخه موسى اللّالتي صاحب قصيدة " حزب العارفين".
[2] سنة 1053 الموافق لـ سنة 1043م.
[3] أي سنة 1057هـ الموافق لـ 1647م.
[4] الحديث أخرجه عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ج6، ص: 28.
[5] يقصد به شيخه سيدي بلقاسم بن صابر" عروس الصالحين" مثلما أطلق عليه رفيقه عيسى العيسوم، كما تقدّم.

ضَرَبْتُ بُيُوتَ الوَتْرِ حَولَ فِنَائِـهِ	لَعَلِّي [كذا] الشِّعْرِ والشِّعْرُ أَنْفَـــع
ضُرُوبُ خِصَالِ الخَيْرِ والحُبِّ وَالنَّـوَى	وَآيَاتهَـا في الحَشْـرِ بِالشَّيْخِ تُجْمَـــع
ضِيَاءُ لُبِّهِ يَكْسُــوهُ ثَــوب جَمَالِـهِ	تَرَى وَجْهَهُ يَزْهُــو وَنُورَهُ يَلْمَـــع
عَنَيْتُ بمَا قُلْنَا أَبَا القَاسِـمِ المكَـنَّى	بِطَيرٍ إِذَا غَنَّى لَـهُ الرُّوحُ تَسْمَــع

ورأيت أن نذكر في هذا الشرح المبارك سلسلة أشياخنا المباركة على الترتيب، حسبما ذكر الناظم في قصيدته، هؤلاء الأشياخ غير مرتبين كما أبرَزَتهم قريحته اشتياقا إلى رؤية مثلهم، ولهذا قال: "واين تباعهم أثرا"، وفعلنا ذلك تبركا بذكرهم وتعريفا بنسبنا الكريم[1]، فإنّ من لا أب له لقيط تسرع إليه الألسنة، ولذلك تكره إمامة مجهول النسب، فأول من أخذت عنه الأسماء الكرام وصَحِبتُهُ وتأدّبت معه سيّدي ووالدي أبو الربيع سليمان المدعو الصائم، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته، قال τ وأرضاه:" إن هذه الأسماء التي قلتها لك هي التي أعطاه لي الشيخ البركة أعجوبة دهره أبو مهدي سيدي عيسى بن محمد الدنيدني نفعنا الله به، وهو أخد عن الشيخ سيدي عبد العزيز الحاج وهو أخذ عن الشيخ الكامل القطب الواصل سيدي أحمد بن يوسف الراشدي نسبا الملياني نفعنا الله ببركاته آمين".

ثم بعد وفاة الأب رحمة الله عليه أضافنا الشيخ العالم الصوفي الفاضل ذو المكارم والمآثر سيدي بلقاسم المكنّى بن صابر فتاقت نفسي إليه، فقلت إني لا أطلبه بنفسي وإنما أطلب صحبته بربي طلبا للتوفيق والإعانة، فإن عَلِمَ الله نفعنا على يديه دعانا هو إليه، وإلا فلا ندخل هذا الأمر بأنفسنا واختيارنا، ففزعت إلى استخارة من بيده مقاليد الأمور، ولم يعلم ما في ضميري إلا العليم بذات الصدور، فوا لله ما استتمت استخارتي على نيتي، وأنا في غرفة منعزل فوق سجادتي، إلا والنداء علي من قبل الشيخ لقوله: "أين هو فلان؟ أدعوه إليّ"، فأتيته، ودخلت عليه وسلمت وجلست بين يديه، فقلت له: "وما تريد يا سيدي؟ فقال: نحن أخوة في الله، ونريد أن يدخلك الله في سلسلة أشياخنا الكرام، لعل الله أن يلحقك بهم، فقلت: حبا وكرامة، وعليّ السمع والطاعة، وإني سائلك عن كذا وكذا، فأجابني وأزال ما في خاطري، ثم لقّنني أسماء الله على سنة أولياء الله، فأخذت عنه ما قسم الله لي على يديه.

وهو أخذ عن صاحب الحق والصواب، من لا يشقى به جليسه من الأصحاب المثبت الماحي سيدي عبد القادر بن محمد السماحي، وهو أخذ عن الشيخ الرباني أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي، وهو أخذ عن البحر الزاخر المذكور الذاكر سيدي أحمد بن يوسف المذكور وأخذ الشيخ سيدي أحمد بن يوسف عن الشيخ سيدي أحمد زروق، وهو أخذ عن الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي، وهو عن الشيخ القرافي، وهو أخذ عن تاج الدين سيدي أحمد بن عطاء الله، وهو أخذ عن الشيخ أبي العباس أحمد المرسي، وهو عن أبي الحسن سيدي علي الشاذلي وهو أخذ عن سيدي عبد السلام بن مشيش، وهو أخذ عن أبي يزيد المدني، وهو أخذ عن

[1] يقصد هنا النسب الروحي لا النسب الطيني، أي سلسلة شيوخ الطريقة الشاذلية التي ينتسب إليها المؤلف محمد بن سليمان.

الغوث أبي مدين شعيب بن الحسين، وهو أخذ عن أبي يعزى سيدي يلنور بن عبد الرحمن، وهو أخذ عن سيدي أبي الحسن سيدي علي بن حرزهم، عن أبي بكر يحي بن العربي الحاتمي عن الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، عن أبي طالب المكي، عن أبي محمد بن محمد الحسين الجريري، عن أبي القاسم الجنيد، عن سري بن مقلس السقطي، عن أبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، عن أبي سليمان داوود الطائي بن نصر، عن حبيب العجمي عن الحسن بن أبي الحسن البصري، عن مولانا علي بن أبي طالبτ وكرم وجهه، عن إمام الثقلين سيدنا ونبينا محمد ρ عن جبريل الأمين، عن إسرافيل، عن اللوح المحفوظ، عن القلم المأمون الذي كتب ما كان وما يكون، عن أمر رب العالمين جلّ وعلا.

اللهم يارب محمد وآل محمد صلي على محمد وعلى آل محمد واجزي محمدا عنّا ما هو أهله اللهم إنّا نتوسّل إليك بجاه محمد وآله وبجاه من ذكره من الأولياء المحمدين أن تمدّنا يا مولانا منك بنفحات قدسية توصلنا على سنن محمدية، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

وفي نسخة محي الدين علي بن العربي لما أن ذكر سنده في لبس الخرقة والصحبة والأدب أنهاه إلى جبريل، فقال: "ورسول الله ρ أخذ عن جبريل υ ، وجبريل أ خد عن الله تعالى، فقلت للشيخ يوسف، فقال: سألت عبد القادر بن صبخ ما أخذ عنه فقال: أخذ عنه العلم والأدب.

[في التعريف بسيدي محمد الهواري دفين وهران:]

قوله:"واين من وهران به ساد"، أشار به الإمام سيدي محمد الهواري نزيل وهران (أعادها الله لدار الإيمان)، وهو شيخ سيدي إبراهيم التازي[1] الذي يقول فيه:

وَقَد عَدِمَ النَّاسُ الشُّيُوخَ بِقُطْرِنَا	وَآخِرُهُم شَيخِي وَمَوضِعَ إِجْلَالِي
وَقَد قَالَ لِي: لم يَبقَى شَيخٌ بِقُرْبِنَا	وذَا مُنْذُ أَعْوَامٍ خَلَونَ وَأَحْوَالِ
يُشِيرُ إِلَى أَهْلِ الكَمَالِ كَمِثْلِهِ	عَلَيهِ مِنَ اللهِ الرِّضَى مَا تَلَى تَالِي[2]

وأشار المصنف إلى هذا الشيخ هو سبب تدمير وهران (أقالها الله العثرة والهوان)، قال عز من قائل: [وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً][الإسراء/16]، ومن أعظم الفسوق نبذ الشريعة وإيذاء أهل الحقيقة، حكى لنا الشيخ سيدي محمد العبدلي أنهم ما أهلكهم الله حتى تركوا حكم الشريعة، وصاروا يتحاكمون إلى العامة، فآثروا العوائد المضلة.

---

[1] إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران، وخليفة محمد الهواري في وقته، العالم الناظم البليغ الولي الصالح صاحب الكرامات والأحوال البديعة والقصائد الرائقة الأنيقة، توفي رحمه الله تاسع شعبان سنة 866هـ. ينظر: – ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 58 – 63. – أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف (ج1)، ص: 249- 255.

[2] ذكر قبلها البيتان التاليان: وَغُنْمُ مُرِيــدٍ فِي انقِيَــادٍ لِكَامِــلٍ   لَـهَ خِبرةٌ بالوقتِ والعِلـمِ والحَـالِ
هو السرُّ و الإكسِير والكِيميا لِمَن   أرَادَ وُصُولاً أو بغى نَيــلَ آمَــالِ.
- ينظر: أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف (ج1)، ص: 253.

والناظم صرح بأنهم آذوا هذا الولي الذي كان بين ظهرهم، عطبوه في أهله وجيرانه، فروى أنهم قتلوا ولده، فدعى عليهم، وباع وهران للطغيان بيعا بتا بلا استثناء ولا إقالة[1]، وقال: "إلا من اشترى نفسه من الأبرار الحضّار سلّمه الله من الكفّار"، (وحكى أن سيدي علي الأصفر المدفون بباب العقبة قبالة سيدي أحمد الداودي بن نصر كان حاضرا لهذا البيع، فقال الشيخ: "إلى وقت كذا" واستثنى عليه، وعمره ثلاثمائة سنة.

وينعش الحكاية ما حكاه لي الأخ في الله الحاج أحمد الصغير بن الحسين الدرعي السنوسي حيث قدم من المشرق، وكان حكيما عارفا لبيبا، قال: "قدمت لمحروسة الجزائر فقصدت مولاها سيدي عبد الرحمن الثعالبي وبت عند ضريحه ثلاثا وأنا مهتم بأمر كفار وهران، فرأيت الشيخ المذكور، وقال لي: قد يفتح وهران إن شاء الله، وأنت تبلغ لبلدك وترجع فتجدها بين يديك، أو تحضر لأخذها، قال، فقلت: يا سيدي فكيف وسيدي محمد الهواري قد باعها؟ فقال: باعها والناس اشتروها بعده من الله عز وجل، قلت: وكذا ذكر لنا سيدي يوسف الشريف يوم الجمعة بجامع أبي مدين في ملأ من الناس، وزاد أنها لا تؤخذ بطبول ولا بفساد[2]، وإنما يفتحها فرسان قلائل بكلمة التوحيد، وبشّرني بحضوري معهم، فقمت للملأ اشهدوا.

ثم بعد غيبة، غزوتها مرارا، وأجلى الله عنها من والاها من الأعراب طوعا وكرها حتى تفردت وغلبت، وصرنا بين أبراجها وعلى أسوارها مشرفين معلنين بالتهليل والتكبير ونصيح عليهم ونغير فيرموننا بالأنقاض والمكامل من وراء الأسوار، حتى إذا رأوا منا قلة خرجنا للقتال بالرمي فضايقناهم صبيحة يوم جمعة من أول ذي القعدة سنة ستين ونحن نحو ثلاثمائة رأس، فخرجوا فتزحزح المسلمون عن الرصاص بين أيديهم فغُرت في فرسان من ورائهم والله يعلم ما في من الغيرة، فندهت المسلمين على الاقتحام في الحرب والانطباق على الكفرة فجنبوا وبعدوا، فتحاملت على دائرة سلطانهم وبيدي مدفع[3] [كذا] وحملت فرسي من ورائهم حتى توسطتهم فرميت فيهم فلم يقدّر لي، ونية المؤمن خير من عمله، فلما رجعت بالبندق رموني فأصابتني جراحات، فركضت حذو الأُسر حتى انفصلت عنهم، ثقل عليّ الجراح فسقطت عن فرسي وفكّت رجلي، فأقبل إلي المجاهدون فأركبوني وردفني سيدي محمد بن محمد بن ملوك الشهيد مع أخي القاضي حتى وصّلوني.

ثم من الجمعة المقبلة جهزت ابن أخي بفرسي وسلاحي فأُسر مع ابن عمه ومات ثلاثة، وكنت قبلها رأيت إمام المجاهدين علي بن أبي طالب فلبيته للجهاد بين يديه، فقلت: "الآن هذا طابع الإمام في الفتح الأصغر لأن أكون في كفالته إن شاء الله، وبقي الفتح الأكبر منتظر في الوعود، حقق الله رجاءنا وأهلك أعدائنا وعجل شفاءنا"، وكذا ذكر لي العلامة سيدي عاشور بن موسى القسنطيني عن الولي الزاهد سيدي عبد الواحد الراشدي، حين قال له في حكاية طويلة ظهر له صدقه في الغيب، وقال لي الصالحون: "علامة أخذ وهران مرورك بها، فمرّ بها معا ولقيتهما أنا في قربها، وانتظار الفرج عبادة، حقق الله وعدنا ولا خيب رجاءنا وسعينا بمنّه، ولما أن أصبت في سبيل الله عيرني

---

[1] هذه الفكرة آمن بها كثير من الناس آنذاك- من العامة وحتى من الخاصة-، و ذكرتها مصادر كثيرة، يقول الشيخ أحمد بن عبد الرحمن في هذا السياق: وسبب دخول النصارى- الإسبان- لوهران أن الشيخ محمد الهواري دعا عليها بذلك لبغي أهلها على ولده، حيث قتلوه فأسلمها للنصارى لأنه سلطان مصرها، ومتولّي أمرها، تنبيه لم يدخلها النصارى بفور دعوته؛ بل دخلوها بعد وفاته باثنين وسبعين عاما، لأنه توفي سنة 843هـ، ودخلوها سنة 914هـ. ينظر: أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991، ص: 61.

[2] أي لا تردّ إلى حاضرة الإسلام والوطن إلاّ بالجهاد.

[3] أي بندقية.

وعيرني شقيقي المشاقق،وكذا قد أرهقني قبلها مرارا وبعدها، فخصم فجور المنافق وأعانه على وطنه، بل وُلّات المناصب وجفاني بسببه جل الأصدقاء والأقارب وضاق الأمر من كل الجوانب، وتكدرت الدنيا وتَمَرَّرَ منها ما ظن أنهم من اللطائف، فرفعت أموري لمن بيده مقاليد الأمور، وبثثت شكواي لمصرف الأقدار والدهور، أن قَوِّي على المصائب يقيني، أو نفِّس عني أو فهمني حتى تسليني.

فبعث لي عبده العابد الحاج محمد بن جرار الغوث وأنفذ لي على أيديهما قضية عبده ونبيه أيّوب، وقال أنظر فيها فإنها تنفس من المبتلي المكروب، فتأملتها فإذا الحال كالحال، ففهمت كم مر به المتجلي بالجلال، وتسليت عن الدنيا بالتأسي بالأنبياء والاقتداء بالأصفياء، فلما أن قمت على قدمي من منامي مضطجعا بعد الحول وأخلف ما نفق من بيده الطول، وخرجت للمساجد ولقبوني (المجاهد)، فأدركني خوف المقت ممن لا يقبل إلا الخالص من الأعمال، وشفقت أن يكون اسمي عنده بخلاف المقال، فسكن روعي أيضا بذكر المبشرات، وهي رؤيتي قبل هذا لإمام المجاهدين في القسالين في جميع من أصحابه، فأثنيت عليه بما هو أهله فقام وسارربي بقوله: أنا ابتغيت أن نقوم، فقلت له: لبيك وأنا بين يديك، فبشرت أصحابي، أولهم أحمد البيطار بأن تأهبوا للجهاد مع الإمام عليّ، فانتبهت، ومن صفته أنه أَقْنَى إلا أنه جدا مصفرّ اللون في سن الكهولية، وعليه عباءة خضراء قد سد على بطنه منطقة جلد حتى دخلت بطنه واستوت مع ظهره، كأنه لا جوف له τ وأرضاه عنّا وحشرنا في كفالته تحت لواء الحمد.

فشهدت [كذا]مع أصحابي المكتوبين في أول جريدة المنتدبين، ثم قتل بعد ذلك من البشر ابن البيطار ونجل عيشونة دون أموالهم مستشهدين وبمعنى الأحياء[كذا][1] ثم بعد خروجي زرت صلحاء البوادي فالتقيت مع الولية المؤمنة الصادقة المتصدقة فاطمة بنت أبريخوا الوعزانية، و كانت مُجِبة في أهل المحبة تبيت باكية ذاكرة، فأخبرتني بصفة أولادي ولم تراهم قبل بقولها: لاش يا أخي تنتف ريش الكبير واصبر[كذا] والأوسط مصباح فتاش يضيء في يدك، بارك الله فيك، وأما الأصغر عزيز النفس لا يضر به أحد وسيكون له شأن إن شاء الله، وصدقت فيما قالت، ثم قالت: رأيت لك خيرا كثيرا ولا تبوح به لإخوتك لئلا تضرهم الغيرة، فمن ذلك إذ رأيتك مع النبي ρ وأنت بعمامتك وعباءتك الخضرا متطهرا مستبشرا، فصار يقول للحاضرين: لاش تقول له الجزولي؟ قولوا له محمد المجاهد، فحمدت الله وذهب ما بي (الخوف المذكور)، وقلت منشدا:

مَا أَنْتَ إِلَّا فَخِذ رُمِيـــــــــتَ   بِبُنْدُقٍ فِي عَصَبٍ أَدْمَيـــــــــتَ
فَانْبَطَلَتْ رِجْلُكَ قَد وُقِيـــــــتَ   إِنَّ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيَـــــــــتَ
فَعَلِيٌّ الرِّضَى لَهُ أَدْنَـــــــــاكَ   وَالمصْطَفَى مُجَاهِدٌ أَسْمَـــــــــاكَ)[2]
بِعِظَمي مَـــــــــولاك إنْ أولَاك   مِن نِعَم حَفَاكَ مَا خَـــــــــلاَّكَ

[1] بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، وساقط في (ب) و(ج).

[2] الكلام من(وحكى أن سيدي علي الأصفر المدفون بباب العقبة – إلى– وَالمصْطَفَى مُجَاهِدٌ أَسْمَاكَ) ساقط في (ب) و(ج).

فيؤخذ من هذا جواز الدعاء على الظالم (ولو بالأسر)[1]، قال تعالى: [وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ][الأنفال/25]، ولكنهم رقصوا حتى رخصوا واستهانوا فهانوا، وأذلوا فذلوا، وإلا فالإسلام لا يعادله شيء حتى يباع به، سئل الإمام مالك عن ديّة اليد فقال: "خمسمائة دينار، فقيل له: ما بالها تقطع بربع دينار، فقال τ: لما أن خانت هانت" وفي الحكم السالفة: "من خان هان"، ولهذا قال الناظم: "لولا أن باعهم رخيص"، فقالت العرب في مثلها: "من باع أخاه بألف سيئة باعه باطلا"، والصبر أجمل، فهذه دعوة عامة وبلية طامة أصيب جميعنا بها، بل جميع من حوليها من المسلمين وأعرابها بني عامر[2]، وهم وأموالها وشمل المؤمنين فسادها، وأمراء الجور زادوها وأشادوها، وحملوا الرعية أن عاهدوها[3]، (وقد قال υ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر الكفار»[4] أخرجه في «السراج»، وزاد الترمذي، «فقالوا: ولم يا رسول الله؟ قال لا تتراء نارهما وراعي الشاة يحمي الذئب عنها، فكيف إذا الذئاب لها رعاة»[5]، فنسأل الله القادر القهار أن يهدم ركن الكفار ويذهب صولة الفجار بجاه النبي المختار)[6]، وقد تفرّس الشيخ العالم سيدي محمد التواتي أمرها وأنذر أهلها، قبل أن يحل بهم ما أضلّها، "لا يغني حذر عن قدر"، "وليلة القضاء ما ينبح كلب"، فقال رحمه الله ورضي عنه:

أَيَا أَهْلَ وهران انْظُرُو نَظَرَ شَفقَـةٍ   لِبَلْدَتِكُم مِن قَبل أَن تَتـرَدَّتِ
وقَبلَ مَجِيءِ المنشَآت بِبَحرِهَـا   وَأَيُّ قُلُوبٍ عِندَهَا مُسْتَقَـرَّتِ
وَلَا تَكِلُوهَا غَيرُكُم وَلَئِن يَكُـنْ   فَمَا غَائِبٌ مِثلُ المقِيمِ بِبَلــدَةِ
وَمَا ينفَعُ التِّرْيَاقُ إِنْ بَعُدَ المَـدَا   وَقَد نَالَ مِنهُ السُّمّ شَاكٍ بِعِلَّـةِ

[1] الكلمة ساقطة في (ب) و(ج).

[2] قبيلة عربية ممتزجة مع قبيلة حميان، نزحت في الحملة الهلالية، -جدّهم الأعلى شافع بن عامر-، وينحدرون من زغبة أحد بطون بني هلال. ينظر: -اسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة و أن**قاد في دوحة الأمجاد (ج1)، ص**: 69، 70. —محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1978، ص:147،146.

[3] يشير المؤلف هنا إلى إحدى القبائل المتعاونة مع الإسبان الغزاة في احتلال وهران، وهي قبيلة بني عامر، لكن حسب بعض المصادر التاريخية لم تكن هذه القبيلة لوحدها بل كانت هناك قبائل أخرى، رغم إشارة بعض الدارسين أن هناك أسبابا سياسية وراء الموقف، يقول أحمد بن عبد الرحمن: حيث إنحاز إلى الإسبان كل رقيق وجاني مثل قيزة وشافع وحميان وغمرة وبني ونزار وأولاد علي، وكل من هو ضعيف الإيمان، فصاروا شيعتهم وقويت بهم شوكتهم، فكانوا عيونه الذين يتطلع بهم على عورات المسلمين وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الأبعدين، ويقتحم حلل المسلمين ودورهم. ينظر: أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حلّ بالمغرب الأوسط، ص: 65.

-وقد ذكر محمد بن يوسف الزياني أيضا -في نفس هذا السياق- أن أحدمشياخ حميان وقبيلته تعاونوا مع الإسبان في بناء حصن قلعة "مرجاجو" بوهران، وكانوا يأتونهم بِقِرَبِ الماء. وقد خصهم عبد القادر بن عبد الله المشرفي (ت1192هـ) بتأليف ضمن المتعاونين مع الإسبان سمّاه: "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، وقد ذكر نظما في هجائهم للتشنيع بفعلتهم كثير من الشعر، ذكر بعضه في كتاب " دليل الحيران". ينظر: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ص:146 .

[4] الحديث أخرجه: - أبوداود/ سنن أبي داود، ج3، ص: 45. / - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج6، ص: 39.

[5] لم نعثر عليه.

[6] ما بين قوسين ساقط في (ب) و(ج).

فَجُودُوا بِفَضلِ المَالِ فِي حِفظِ كُلِّــــهِ وَأَهل وَجِيرَان وَشَيخ وَصِبْيَــــــــة

فَمَا المَــالُ إِلَّا لِلشَّدَائِدِ يُقْتَــــــــنَى وَهَذَاكَ وَأَيمِ اللهِ أَكْبَرُ شِـــــــدَّةِ

فَإِن لَم يَكُن إِنفَاقُهُ فِي سَبِيلِـــــــهِ فَإِمسَاكُهُ لَا شَكَّ عُنْوَانُ شَقْـــوَةِ

لِكَيِّ جِبَاهٍ مَعَ جُنُوبٍ وَأَظْهُـــــــرٍ بِذَا وَرَدَ التَّنزِيلُ فِي حُكْمِ آيَــــةِ

وَمَا يُغنِي عَنكُم مَالُكُمْ إِن أَتَاكُـــم عَـدُوٌّ بِلَيلٍ أَو بِسِرفَة سَحَــــــرَةِ

فَإِن كَانَ لُطْفٌ تَخرُجُوا مِن دِيَارِكُـــم حُفَـاةً عُرَاةً بَينَ خَوفٍ وَحَسْــــرَةِ

وَقَد صَارَ ذَاكَ المَالُ عَنكُم بِمَعْــزَلِ ولَم تَجِـدُوا مِنهُ اقْتِيَاتًـا لِعِيلَـــــــةِ

وَقَد عَظَّمَ اللهُ الدِّيَـارَ خُرُوجَهَــــا فَحَذَّرتُكُم وَاللهُ يَعلَـمُ نِيَّــــــــتِي

فَإِنَّ لَكُم بِالغَـربِ أَكبَرَ عَبِيـــــرَةٍ وَفِي الأَنْدَلُس فَجْعَةً بَعْـدَ فَجْعَــتِي

بِلَادٌ لِدِينِ اللهِ أَمْسَت فَأَصْبَحَـــت وَلِلكُفْرِ مِنهَا شِرْعَـةٌ ثُمَّ شِرْعَــــةِ

ثم صار رحمه الله يعدد البلدان التي أخذت بالسواحل وما جرى بأهلها، إلى أن قال:

فَيَا مُقْلَتِي فَابْكِي لِمَا نَالهُم دَمًـا ... وَ يَاكَبِدِي الحَرَّا عَلَيهِم تَفَتَّـتِ
فَهَذَا نَذِيرٌ إِن تَكُونُوا ذَوِي حُجًّـى ... وَهَلْ تُقْبَلُ الأَعْذَارُ بَعدَ النّـذَارَةِ
فَمَا البرتُغال إِلَّا أَن يُطْلَبَ غَيرَكـم ... وَمَرْسَاكُم لَا نَالَ مِنهَا بمِنْيَـةِ
وَقَد هَالَ أَمرُ البُرتُغَالي وَحْـدَهُ ... فَكَيفَ وَهُو القَنْشِي لَهُ فِي الحِميَـةِ
فَلَا تُهمِلُوا أَمْرَ الأَعَادِي فَإِنَّهُـم ... بِحَالِ اجْتِمَاعٍ وَاتِّفَاقٍ وَشِـدَّةِ
وَقَد قَطَعُوا قَطْعًا مَتَى ظَفَرُوا بِكُـمْ ... فَقَد ظَفَرُوا وَطْرًا بِأَهْلِ الجَزِيـرَةِ
وَكَانَت بِلَادُ المغْرِبِ تَحْمِي دِيَارُهُـم ... وَتُنْجِدُهُمْ بِالعَونِ فِي كُلِّ وِجْهَـةِ

إلى أن قال:

وَإِنْ ضَاعَ مَرسَاكُـم فَإِنَّ ضَيَاعَـهُ ... ضَيَـاعُ بِلَادِ الله شَرقًـا وَقِبْلَـة

ثم قال:

فَيَا قَادِرًا عَن دَفْعِ ذَاكَ مُقصـرًا ... فَمَا العُذرُ يَاذَا الطَّولِ يَومَ القِيَامَـةِ
وَلَا يَحْمِي مَرسَاكُم ضِعَاف رِجَالِكُمْ ... وَلَا البَدوُ بَل تَحْمِيهِ أَهلُ الجَزِيـرَةِ
فَإِنَّ لهُم بِالطَّعْنِ وَالضَّربِ خِبْـرَةً ... وَكَم فَتَكُوا بِالكُفْرِ أَكْبَرُ فِتْكَـةِ
فَلَم يَقْبَلُوا[1] مَهْمَا رَأَوهُم بِكَثْـرَةِ ... وَلَم يَشْتَكُوا مَهْمَا لَقُوهُم بِقِلَّـةِ
فَلَا أَنْكَى لِلكُفَّارِ مِنهُم وَإِنَّهُـم ... لنُصْرَةِ دِينِ الله أَعْظَـم نُصْـرَةِ
عَلَيكُم بِهِم، فَاسْتَعْمِلُوا فِي وُصُولِهِم ... إِلَيكُم دَهَاءَ عَقْلٍ وَأَلْطَفِ حِيلَـةِ

ثم قال:

[1] في (ب) و(ج): يعبئوا، وأظنّه الصّواب.

رَعَى اللهُ مَنْ يَخْطُو لِمَا قُلتُ خُطْوَةً ... مُعِينًا بِتَحْصِينِ وُلُوجًا بِكَلْمَةِ

إِخْوَانُنَا في اللهِ أَلْقُوا مَسَامِعًا ... وَلَا تُهْمِلُوا مَا أَبْرَزَتْهُ قَرِيحَتِي

عَلَيكُم بِأَخْذِ النُّصْحِ مِن نَاصِحٍ لَكُم ... فَتَنْجُونَ إِنْ أَنْتُم قَبِلتُم نَصِيحَتِي

لَكُم سَبَبٌ واللهُ يَنصُرُ دِينَهُ ... وَهُو تَعَالَى خَيرُ حِفْظٍ وَمِنْعَةِ

عَلَيكُم سَلَامٌ مَا تَأَلَّقَ بَارِقٌ ... وَغَنَّى حَمَامٌ أَو رَقَى بِدَوحَةِ

(وبنو عامر المذكرون هم اليوم حطب نارها وهم لها واردون، وقد قال فيهم الشيخ سيدي محمد القاضي حين تخيّل ميلهم لدار الكفر قبل ظهور مفاسدهم العظيمة اليوم:

هَذَا وْطَن الحَجْزْ وَوْطَنْ اوْلَادْ سْقِيرْ ... يَالِّي بَاعُوا سْيُوفْهُم وَ اشْرَاوْ اعْمُودْ

بَاعُوا دِينْ الرْسُولْ واشْرَاوْ دِينْ الغَيرْ ... حَارَتْ لِي كِيفْ وَالْفُوا دِينْ امْرَمَّدْ

ابْتَاعُوا ثْيَابْ مِن مَسَدْ بِاثْيَابْ حْرِيرْ ... وَالفَاهَم يَا النَّاسْ يَفْهَم ذَا المقْصَدْ

نَسْأَلْ الله رَبْنَا أَنْ يَحْفَظْنَا ... يَسْعَدْنَا بْذَا المْدَاسْ

هَذَا وَالاعْرَاب غَالِيين عْلَى المنَالِي ... بَاعُوا الخُفْ بِالمْدَاسْ

أي نعود لوطننا بعد[كذا] من هذا الوطن، وعنا بالمسد الليف والمداس بمنتل، وبوطنه دار الآخرة، وهذا تفرّس من الشيوخ وكرامة للأولياء، قال ρ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»[1]، فنور الله لا يستر دونه شيء؛ بل الغيب عند كله شهادة، فمن أراد الله به الخير والإكرام كشف له عن ذلك النور فتستمر فراسته، فيجب اعتقاد صدق ذلك وأنه واقع في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكل كرامة لولي فهي معجزة لنبيه وتدل على صدق ذلك النبي وصدق مُتَّبِعِهِ في اتّباعه، قال ρ: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدثكم، فإذا أنا مت فكانت مماتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم فإذا رأيت خيرا حمدت الله، وإن رأيت شرا استغفرت لكم»[2]، فنرجوا بركة استغفاره لسيئاتنا أجمعين. من "القشاشي".

---

[1] الحديث أخرجه: – الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص: 298./ – الطبراني، المعجم الأوسط،ج3، ص:312./ – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج12، ص: 388.

[2] الحديث أخرجه: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9، ص: 24./ – أبوشجاع شيرويه الديلمي الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج1، ص: 183.

وقال لي سيدي ووالدي رحمه الله: لي اثنا عشر غزوة مع سيدي عبد الجبار وأخيه سيدي عبد الغفار وَلَدَي القاضي المذكور، وكل غزوة يخرج لنا الكافرون ونتبارز معهم، حتى إلى الآن لم نجد أعوانا على الجهاد، وغزوت أنا مع الوالد والمرابط المجاهد وصهره سيدي العبدلي رحمهما الله غزوات شتى ولم نجد عونا من الفجرة، فمصيبتهم أعظمهم من الكفرة، فلذلك عظم الخطب عليّ، وقال سيدي[1] في ذلك:

لَا سُلْطَـانْ يْكُونْ حُكْمَـه	يَـا رَبْ لِيَـصْلَـحْ المْـدَايِـنْ
لَا شَيخْ اعَدَلْ يْكُونْ هَمَّـــهْ	يَصْلَح الأعْـرَابْ وَالسْفَايَـــنْ
إِلَّا مَن يَتْرَبَّصْ يْعُودْ نَقْمَـــا	يَـا رَبْ وَاشْ ذَا المحَـايَـــنْ
يَا حَسْـرَاه كَانَتْ الجْوَايَـــدْ	مَدْيُونَة وَالحَجْز غماضة[كذا][2]
دَلُّـوكْ مَا كَـانْ مَن يْجَاهَـــد	وَابْـقَـاوْ المسـلِمِيـن دِيمَـــا
يَا سَيَّد المرسَلِين الأَمْجَـــــدْ	الصْـــلَاةْ عْلِيـــكْ دِيمَــــا
آحَسْـــرَاهْ البْـــلَادْ مَــــاذَا	يَـا رَبْ نَرْقَـبْ الشْوَايَـــبْ
نَحْكَم دِيـنْ الحْقُـوقْ وَخْـذَا	لَا مُسْلِـمْ يَتْنَقَّـسْ وْيَانَـفْ
وَاسْـدَادْ شَـارْ قَبـلْ هَـذَا	يَـا رَبْ وَارْتَحَلـتْ خَـايَـفْ
فَارَقتْ الأَهـلْ وَ الكْبَايَـدْ	وَلْـوِيـتْ سُنْتَـكْ اعْمَـامَـة
وَلْقِيتْ اهْـوَالْ وَالشْـدَايَـدْ	فِي دِيـنِي طَالَـبْ السْـلَامَـة

وقلت أنا اليوم:

تْيَقْـظُوا فَكَيـفْ يَـا بَرِيَّــه	تْوَفْقُـوا تَعْطُـوهُـمْ رَمْيَـه
تْبَلْغُونْـهَا لْهُم قَـهْـرِيَّـــه	وَإِن قَصَّـرتُمْ كَانَـتْ بْلِيَّـــه
لَتَسْتَعَـنْ قْبِيـلَـة حَرْبِيَـــه	بْزَرْعْكُـمْ عْلِيكُـمْ خْفِيَـــه
وْيَأْسْرُوكُـم فِي دُجَا ظُلْمِيَه	فَتَصَّبْحُوا فِي ايْدِيهِمْ رَعِيَّـه
تْنَبْهُوا فِي امْرُوكُم وَهْمِيَـــه	أَمَانْهُـمْ لَدَيْكُـم أُمْنِيَــــه
وَاسْتَعْمْلُوا خِيَارْكُمْ سْرِيَّـــه	وَاغْزُونْهُم بِالخَيلْ وَالرَّجْلِيَـــه
لَتَامْنُـوا وَتَغَّنْمُـوا حِسِّيَـــه	أَوْ تَسَّكْنُوا فِي جَنَّة عَالِيَـــه
فَنَسْأَلُ الله فِي حُسنْ النِّيَّه	وَالخَتمْ بِالشَّهَادَة الحَسْنِيَـــه

وقلت قبلها:

---

[1] يبدو أنه والد المؤلف سليمان الملقب بـ الصّائم، لأنه ذكره في مفتتح حديثه عنه بقوله: " قال سيدي ووالدي".

[2] الكلمة مطموسة في الأصل وساقطة في (ب) و(ج).

الحَمْدُ لله العَظِيمْ الشَّانْ ثُمَّ صَلَاتُه عَلَى العَدْنَانْ
تْعَاوْنُوا مَعَاشِرَ الإِخْوَانْ وَاسْتَعْمْلُوا كَلَامًا فِي البُنْيَانْ
فَكَيفْ يَا قَبَائِلْ العُرْبَانْ عَافَاكُم الله مِنَ الشَّيْطَانْ
أَتَخدُمُوا هَارُون فِي وَهْرَان يَهُودِيًّا مَلْعُونًا فِي القُرْآنْ

مَعَ دُكَيكْ كَافَرْ نَصْرَانِي يَعْبَدْ يَا وَيْلَاهْ عُودْ افَانْ
يَزْعَمْ أَنَّ الإِلَهْ ثَانِي تَعَالَى رَبٌّ وَاحَدْ فَرْدَانِي
وَتَرْتَضُوا مَوَاعِدْ الفُرْسَانْ يْهِينُوكُم مُخْتَلِفُوا الأَدْيَانْ
تْبَايْعُونْهُم عَلَى الإِثْمَانْ نْسِيتُمْ الله لَدَى الإِحْسَانْ
خَالَفْتُمْ مَنْ جَاءَ بِالفُرْقَانْ مَعَ صَحْبِه أَصْحَاب هَذَا الشَّانْ
سَادَاتْنَا هُمْ وَاوْلُو العِرْفَانْ تَرَاهُم غِلَاظًا لِلْخِزْيَانْ
يْقَاتْلُونْهُم عَلَى الإِيمَانْ وَيَسْأَلُونَ الله فِي الغُفْرَانْ)[1]

تيقظوا إلخ، فهذا ما يسّر الله علينا من الكَتْبِ على هذا الثلث الأول من قصيدة هذا الشيخ الأفضل، وبتمامه كمل السفر الأول[2]، ويتلوه إن شاء الله وبحول الله وقوته كلامنا على الثلث الثاني منها، وإنما قسمتها أثلاثا لخروج هذا الثلث الثاني الذي نشرع إن شاء الله فيه عن مقصود القصيدة، وكتوبيخ الناظم فيه حزب الشيطان، أوصاني رحمه الله في حياته أن لا أقرأه بحضرة أبناء الدنيا سدّا للذريعة، وأما اليوم فالعلة مأمونة بعد وفاته والله أعلم[3].

ولنختتم الثلث بذكر ثلاث أبيات تتبعها ثلاثة، تتبعها ثلاثة، مُفتَتَحَة بثلاث حروف محركة بثلاث حركات طَالِعَتُهَا ثاء مثلثة، كنت نظمت قصيدتها في أشياخي الثلاثة سيدي محمد العبدلي وسيدي موسى بن علي وسيدي بلقاسم بن موسى المكنّى (بن صابر)، فقلت:

---

[1] الكلام من (وبنو عامر المذكرون هم اليوم حطب نارها -إلى- وَيَسْأَلُونَ الله في الغُفْرَانْ) ساقط في (ب) و (ج).

[2] قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أجزاء (أسفار)، استمدادا من نص الحديث النبوي الشريف كما قال: « والباعث على تثليثه قوله ﷺ: "خير أمّتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر"» (كعبة الطائفين (ج2)، ص: 226)

وعليه جاءت أجزاء الكتاب على هذا النحو:

1- الجزء الأول: في ذكر أهل الصلاح،
2- الجزء الثاني: في ذكر أهل الطلاح،
3- الجزء الثالث: في ذكر أهل الصلاح المتحققين، "حزب العارفين".

يقول المؤلف متحدثا عن مضمون هذا التثليث(الأجزاء الثلاثة للكتاب) :« لما أن فرغ الناظم رحمه الله تعالى أولا من ذكر الصحابة والتابعين، ومن التفتيش على الأولياء المتقين، وفرغ أيضا في ثاني حاله من ذكر حزب الجاهلين، كرَّ راجعا في آخره الى طلب حزب العارفين، لأن ذلك مطلوبه ومقصوده، ولذلك وضع هذه القصيدة» (كعبة الطائفين (ج2)، ص: 01).

[3] وربما جاء نهيه هنا لكون الناظم قد عرّض ببعض أهل الطلاح في زمانه من علماء متفيهقين منافقين متملّقين، اشتروا الدنيا بالآخرة، وصوفية أدعياء مغفّلين، وحكام ظلمة، وولاّة اقطاعيين مستبدّين. وهو ما وقفنا عليه عند معاينتنا للجزء الثاني من الكتاب، وإن كان ذلك بشكل عَرَضي.

ثَنَّيتُ إِلَى ثَانِي الشُّيُوخِ شَرِيفُهُم   سَمِيُّ الكَلِيمِ بِالمدَائِحِ مُولَعُ
ثُغُورُ المجَاذِيبِ الأُولَى سَدَّ ثُلثُهَا   وَعَمَّرَهَا وَالسَّيفُ مَا زَالَ أَقْطَعُ
ثِيَابُ الحَرِيرِي الذِي عَزَّ وَجْدُهَا   فَتَحْرِيرُهُ عُرسُ الوُجُودِ مُصَنَّعُ
جَرَى جَرْيِ جُوزِي لِتَطْرِيزِ نَسْجِهِ   بِغَزلٍ رَقِيقٍ لِلغَزَالي مُصَنَّعُ
جِوَارَ ابْن فَارِضٍ يَجُرُّ ذُيُولَهُ   بِتَيْهٍ وَعِشْقٍ فِي المَحَبَّةِ يُصْرَعُ

جِيَادُ غَوَانِي الجِدِّ تُطْرِب عَقْلَهُ   وَتُذْهِلُهُ عَمَّا بِهِ يَتَمَنَّعُ
حَمَاهُ رَسُولُ يَنْتَمِي لجِنَابِهِ   وَيمْدَحُهُ وَقَلْبُهُ يَتَشَعْشَعُ
حَضِيتُ بِبَعْضٍ مِن قَصَائِدِ مَدْحِهِ   بِتَوحِيدِ رَبِّي شُكرُهَا يَتَنَوَّعُ
حِمَى جَدِّهِ إجْعَلْ كُلّ[كذا] وَصَاحِبٍ   لِعَبْدٍ مُحِبٍّ فِيهِ رُحْمَاكَ أَوْسَعُ

اللهم إنا نتوسل إليك بك فإنه لا أَحبَّ إليك منه، ونتشفع إليك بجاه حبيبك محمد المعظم عندك، ونرغب إليك يا مولانا ببركة هؤلاء السادات المذكورين في الكتاب أن تعاملنا في الدارين بفضلك وإحسانك وتقابلنا بطولك وامتنانك، وأن تجعل هذا الكتاب في كفة النور مرفوعا، ونتحصن بوجهك الكريم أن يكون في الأخرى موضوعا، فإنك أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، وصلّ يا مولانا وبارك على سيدنا ودليلنا محمد الصادق الأمين وعلى آله وأصحابه التابعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كمل السفر الأول من الكتاب ويتلوه الثاني في 14 رجب الفرد الحرام عام 1271هـ.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الخاتمة

يمكننا أن نسجل أهم النتائج المتوصل إليها في البحث من خلال المحاور الآتية: المؤلف، المخطوط، تحقيق المتن:

* بالنسبة للمؤلف، قدّم البحث صورة واضحة عن هذه الشخصية التي كانت غفلا من أي ترجمة تذكر في كتب التراجم الكثيرة التي عدنا إليها، إذا ما استثنينا العمل المقتضب الذي قدّمه أبو القاسم سعد الله عن هذه الشخصية، حيث تمكنّا من تحديد اسمه ونسبه وكنيته وتاريخ ولادته ومذهبه الصوفي وملامح من حياته الاجتماعية والعلمية والصوفية بتلمسان في القرن 17م، انطلاقا مما أورده المؤلف محمد بن سليمان عن نفسه من معلومات متناثرة في صفحات كتابه بأجزائه الثلاثة.

أورد المؤلف في كتابه "كعبة الطائفين" معلومات مفصلة عن تكوينه العلمي والثقافي ومن ثمة يمكننا أن نؤشر مساره الثقافي في هذه النقاط:

من حيث المستوى الثقافي والمعارف العلمية، يبدو لنا المؤلف من خلال تكوينه المعرفي أولا، وما حفل به كتابه من مادة ضخمة ومتنوعة ثانيا، ذا ثروة أدبية واسعة وثقافة دينية (فقهية وصوفية) وافرة ومتجذرة، فالمؤلف كان إماما في مسجد باب الجياد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان صوفيا متفاعلا مع الحركة الصوفية والثقافية في وقته (ق11هـ/17م)، متأثرا بها ومؤثرا، وعلى اتصال مستمر بعلمائها وأوليائها ودراويشها، وكان له حُظوة لدى أغلبهم.

ثقافته هي ثقافة معاصريه، يغلب عليها الطابع الصوفي ويقل فيها الابداع، شأن الجو الثقافي العام السائد في بلادنا بعامة، وتلمسان بخاصة في ق17م، حيث اكتفى العلماء آنذاك بدراسة أعمال السابقين، بنظرة يغلب عليها التقديس المفرط، فكثرت الشروحات والمختصرات في أعمالهم، كما هو حال كتاب «كعبة الطائفين» موضوع بحثنا، الذي انبرى فيه المؤلف لشرح قصيدة شعبية صوفية لشيخه موسى بن علي اللالتي، مصبغا عليها كثيرا من الهالة والقدسية.

اتسمت ثقافته بالمحلية (تلقيا وقراءة) إلى حد بعيد، فقد التهم المؤلف كتب الشيخ السنوسي لاسيما "العقائد" حفظا ودراية، وأتقن القراءة بورش رسما ورواية، وتمكن من مختصر خليل والآجرومية والقرطبية ورسالة أبي يزيد، وتفسير الثعالبي، وحكم ابن عطاء بشرح ابن عباد النفزي، وكتب عبد الرحمن الأخضري... لهذا نقول إن ثقافة المؤلف في عمومها يرتبط النصيب الأكبر منها بالثقافة المحلية.

ينبئنا كتاب «كعبة الطائفين» بغزارة ثقافة صاحبه، حيث تبدو ظاهرة الجمع بين عدة علوم ومعارف بادية للعيان، - وإن كان منطلقه صوفيا كما أسلفنا — ففيه الأخبار والأنساب والتراجم والمناقب، والتفسير والفقه

والحديث، وعلم الحروف والجداول، والأمثال والحكم والشعر الفصيح والشعبي، والحكايات والنوادر والطرائف، والكرامات والرؤى.

يبدو المؤلف في كتابه ممن يَمُجُّون التصوف المنحرف، فهو يدعو صراحة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، في عصر غلب عليه الفكر السطحي والدروشة والدجل، وادّعاء الولاية صدقا أو كذبا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينقل لنا المؤلف كثيرا من المرائي الصوفية والكرامات والحكايات الممزوجة بالأساطير، بكثير من السذاجة أحيانا.

في الجانبين الديني والثقافي، حاول المؤلف أن ينأى بنفسه عن التصوف البدعي المبني على الدجل والخرافات، والدعوة إلى التصوف الحقيقي القائم على العلم والعمل والوعي الاجتماعي.

في الجانب الاجتماعي رأيناه من خلال كتابه محتكا بأطياف مجتمعه علماء وصلحاء ومع عامة الناس، يسعى بمعية شيوخه لاسيما ابن صابر والعبدلي في رفع الغبن عن الناس، متحسسا لشواغلهم وهمومهم- المادية والاجتماعية والسياسية- متصديا لشرارهم من الجهلة والانتهازيين وشيوخ الدجل والدروشة.

في الجانب السياسي، تتجلى مواقف المؤلف بوضوح في الفتنتين (أو الثورتين) اللتين وقعتا بين أهالي تلمسان والأتراك، وكيف أنه لم يقف موقف المتفرج، بل ساهم رفقة شيخه العبدلي في تهدئة الأوضاع العامة، وطمأنة النفوس المروّعة من جهة، وزجر القائد التركي محمد بن سوري في مقره بالمشور من جهة أخرى.

يطلعنا محمد بن سليمان على أشعار غزيرة، بالفصيح والشعبي، أكثرها في مجال التصوف وما يرتبط به من رقائق وعظ ونصح ومديح ومناقب، وبعضه الآخر فيما يمكن أن نسميه بالشعر السياسي الوطني، يستنهض من خلاله همم الناس لأجل تغيير وضعهم السياسي المتأزم في ذلك الوقت، خاصة من أجل تحرير وهران التي كانت تحت الاحتلال الإسباني.

* من خلال دراستنا لهذا المخطوط ذي القيم الأدبية والفنية والتاريخية استخلصنا زمرة من النتائج نذكرها فيما يلي:

بعد قراءتنا لنسخ المخطوط واستيعابنا ما فيها، اتضح لنا أن (نسخة باريس) أوفى النسخ وأكملها وأفضلها.

إثباتنا لصحة نسبة كتاب « كعبة الطائفين» إلى مؤلفه محمد بن سليمان الصائم التلمساني، وكذلك بالنسبة للعنوان، وقد برهنا على ذلك بما توفر لدينا من أدلة علمية.

افتتح المؤلف كتابه بمقدمة نقلها حرفيا عن أبي حامد الغزالي، تيمنا بها كما زعم.

فيما يتصل باللغة والأسلوب، فالمخطوط يتميز بشكل خاص بطريقة السرد التقليدية التي يغلب عليها الاستطرادات الكثيرة، أما لغته فتبدو واضحة لكنها بسيطة لا تخلو في بعض الأحيان من ضعف وركاكة في التعبير

ومخالفة قواعد اللغة العربية، فضلا عن استعماله للكلمات العامية، وليس الأمر غريبا، فمنطلق المخطوط وموضوعه قصيدة شعبية، أشار المؤلف أيضا إلى لغة زناتة.

تطغى المصطلحات الصوفية على المخطوط بشكل واضح، وهذا شيء طبيعي، فالمخطوط يصنف ضمن كتب التصوف والمناقب.

يذكر المؤلف أن شيخه موسى اللالتي أوصاه بعدم الحديث عن الجزء الثاني في حضرة أبناء الدنيا، سدّا للذريعة، ربما جاء نهيه هنا لكون الناظم قد عرّض ببعض أهل الطلاح في زمانه من علماء جهلة منافقين متملّقين، اشتروا الدنيا بالآخرة، وصوفية أدعياء مغفّلين، وحكام ظلمة، وولاة إقطاعيين مستبدّين.

اعتمد المؤلف الاستطراد والإسهاب بشكل واضح في كتابه، فجاء متعدد الموضوع متشعب الكلم.

تظهر شخصية المؤلف العلمية في بعض جوانبها في صورة المحقق والمدقق الذي يتماهى مع أدوات علم التحقيق واجراءاته وطرائقه، فقد اتّبع المؤلف أعلى طرق التحميل –بِلُغَة المحققين– في تحصيل قصيدة "حزب العارفين" موضوع هذا الكتاب: السماع والنسخ والتصحيح ثم الحفظ، كل ذلك على يد صاحب المادة شيخه اللالتي شخصيا.

كان المؤلف يشير دائما إلى أن شيخه موسى اللالتي صاحب القصائد المدائحية كان موافقا لكلام العلماء والأولياء، ومتماهيا مع الذوق العام لأعلام التصوف الاسلامي، لذلك نراه يكثر في كل مرة من الأقوال والنقولات من مصادر مختلفة لتعزيز قول شيخه.

يبدو المؤلف من خلال شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي في كتابه هذا متأثرا بمن سبقه في هذا اللون من التأليف، ومحاكيا لهم، إن جمعا أو شرحا، وإن اختلفت الميادين نسبيا، والمؤلف عاش في عصر التصوف وعناية العلماء بالشروح والإشادة بالكرامات وسير الأولياء، وقد أشار المؤلف في صدد هذا إلى عملين، نعتقد أنهما كانا الملهمان له للقيام بهذا التأليف، وإن لم يصرح بذلك:

العمل الأول: يتمثل في كتاب «تحفة الناظر ونزهة المناظر» لمحمد الفراوسني، المعروف بالزواوي

العمل الثاني: وهو الذي قام به تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» عبد العزيز الحرار المعروف بـ (التَّبـَّاع)، حيث أمره شيخه المذكور بشرح كتابه «المقامات السبع» المعروفة بـ (رحبة الأمان)، ، وقد ساق المؤلف هذه القصة، وأشار في عدة مناسبات أنه امتثل هو أيضا أمر شيخه موسى اللالتي الذى رشحه للقيام بشرح قصيدته "حزب العارفين"، موضوع هذا الكتاب، ورغّبه في ذلك.

فيما يخص تعامل المؤلف مع النصوص المقتبسة، فقد كان حريصا على إثبات المصدر واسم مؤلفه في الغالب الأعم، وكان يثبت ذلك إما في بداية النص، أو في نهايته، وكان يشير أيضا حين ينقل النص حرفا أو معنى.

عند ذكره للأعلام سواء التي نقل عنها أو ترجم لها، كان يميز بينها من خلال الألقاب التي يصبغها عليها، فإذا ذكر شخصية غلب عليها العلم والفقه، يمنحها مثل هذه الألقاب: الفقيه، النبيه، الأديب، الأستاذ، وإن ذكر شخصية غلب عليها التصوف والاشتغال بأحوال النفس، يمنحها ألقاب مثل: الشيخ، المجذوب، صاحب الأحوال.

كان المؤلف يشير إلى بعض الرسائل الخطية والتقاييد العائلية التي اطلع عليها، وإلى بعض النسخ الخطية التي نقل عنها (إمّا بخط مؤلفها المباشر أو بخطٍّ نقل عن النسخة الأصلية)، وهذا توثيق له أهميته في ميدان "تحقيق النصوص"، حيث يصبح كتاب «كعبة الطائفين» مصدرا مهما في إثبات النصوص القديمة وتحقيقها، وإعادة بعثها من جديد، خاصة إذا كانت هذه النصوص التراثية اليوم من بين مصادرنا الأساسية النادرة، أو التي ضاع أغلبها وانْدَرَسَ.

يبدو لنا المؤلف من خلال كتابه بشخصيتين، شخصية الصوفي المعتدل المتحرر، المتصدّي للتصوف الخرافي الساذج، المنتقد لسلوكيات مجتمعه (من جهل وطمع وخصومات واستغلال)، وشخصية أخرى تسهب في الحكايات الأسطورية وتخلطها بالكرامات المعقولة، وتكثر من المرائي (يحتفظ الكتاب بحظ وافر منها)، ولو أن هذه الظواهر لها ما يبررها في عصر كثرت فيه الطرق الصوفية، وعمّ فيه التصوف الحقيقي والمزيف، وكان يشهد ترديا على أكثر من صعيد.

اتسمت شروحات المؤلف في بعض جوانبها بالبساطة، ولتعزيز شرحه وتدعيمه في سياق إبراز المعنى المراد من كلام الناظم، كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي، والأمثال الفصيحة والشعبية، والحكايات والمرائي.

يسير المؤلف في شرح قصائد شيخه بيتا بيتا أو مقطعا مقطعا أو كلمة كلمة، ويطيل شرحه، فهو ينهج نهج طريقة شرح المتون، ويمكننا تقسيم شرحه من الناحية الفنية إلى ثلاثة أقسام:

- قسم التفسير اللفظي،
- قسم التفسير الأدبي،
- قسم التأويل الصوفي لتلك النصوص الشعرية الشعبية، وهو قطب الرحى الذي يدور حوله الكتاب.

المؤلف كان أحيانا لا يكتفي بنقل الأقوال واقتباس النصوص، بل يحاول الترجيح والمفاضلة بينها، وقد أظهر اطلاعا واسعا على أمهات الكتب الصوفية والفقهية.

من حيث قيمة المخطوط وأهميته، يتضح لنا مما سبق أن هذا المخطوط ينقسم إلى قسمين:

– قسم يبدو أن المؤلف لم يأت فيه بجديد، فهو عبارة عن حشد هائل لنصوص وأقوال واقتباسات لمن سبقه من العلماء والصوفية والفقهاء.

– قسم سجل فيه المؤلف مشاهداته واحتكاكه بالأولياء والصلحاء بتلمسان وغيرها من المناطق، ورصد فيه بعض آرائه فيما يخص القضايا التي عاصرها، والأحداث التي عايشها، وهذا القسم في نظرنا هو الذي يعطي للمخطوط أهميته.

* الكتاب مصدر من المصادر المهمة في تاريخ الجزائر بعامة والمجتمع التلمساني بخاصة في العهد العثماني (ق17م)، إشارة الكتاب إلى فتنتين (ثورتين) بين أهالي تلمسان والسلطة التركية، وقعت الأولى سنة 1035هـ، والثانية كانت بعدها بسنتين1037هـ.

* «كعبة الطائفين»كتاب تراجم ومناقب بامتياز، فقد أرّخ لعدد لا يستهان به من علماء تلمسان وصلحائها، ومناطق أخرى من الجزائر و خارجها في ق17م، من محاسن الكتاب في الجانب المتعلق بالتراجم، الدقة والضبط في تحديد تواريخ بعض هؤلاء الأعلام.

– لقد حفظ لنا الكتاب صورة المجتمع التلمساني بإيجابياته وسلبياته، وبعض عوائده، وأسلوب حياة الناس وتقاليدهم، وشيئا من لهجتهم في تلك الحقبة (ق17م)، وسجل لنا مدى ارتباطهم بأوليائهم وعلمائهم.

– يقدم كتاب «كعبة الطائفين» مادة مهمة وغنية للباحثين في مجال الحركة الثقافية والصوفية، في هذه المرحلة التي عاش فيها المؤلف محمد بن سليمان (ق17م)

– يزوّدنا الكتاب بمعلومات عن طبيعة النشاط العلمي والديني بمدينة تلمسان، ودور المؤسسات الدينية والتعليمية بها، كإشارته الكثيرة إلى بعض المساجد والزوايا كفضاء للعلم والذكر والعبادة، يلتقي فيه الفقهاء والفقراء على حد سواء، في مجالس إقراء يتدارسون المصنفات الفقهية والصوفية، ويترنّمون بالرقائق الصوفية في حلقات الحضرة (السماع الصوفي) التي كانوا يمارسونها بشكل دوري كإحدى أبرز الطقوس الصوفية.

– يقدم لنا كتاب «كعبة الطائفين» صورة واضحة عن تلمسان من حيث جوانبها العمرانية في(ق17م)، فالمؤلف جاب مختلف زقاق المدينة ودروبها، ومختلف المساجد والمقامات والزوايا والأضرحة والمقابر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يفيدنا بمعلومات ووصف للجهات التي زارها خارج تلمسان.

- يحتفظ لنا المخطوط بسجل حي وضخم لتراثنا الشفوي (الأدب الشعبي) في ق17م، وإن لم يكن من بين مزاياه إلاّ هذه المزية (حفظ ذاكرتنا الشعبية) لكفاه ذلك أهمية وقيمة.

يمكن للباحث أن يستخرج من الكتاب قصائد، بل دواوين في الشعر الشعبي الصوفي، وفي شعر المناقب:

ــ شعر الشيخ موسى اللالتي، صاحب قصيدة "حزب العارفين" موضوع الكتاب.

ــ شعر المؤلف محمد بن سليمان (الفصيح منه والشعبي).

ــ شعر كثير من العلماء والصلحاء بتلمسان، الذين احتك بهم المؤلف مباشرة أو عن واسطة.

يشير المؤلف محمد بن سليمان إلى الشعر الكثير الذي أنتجه الشيخ اللاّلتي، وهو في أغلبه شعر شعبي، وقد أخبر المؤلف أن شيخه آثر الشعر على النثر لسهولة حفظه واستيعابه، وقد أمره بالحفظ وحضه عليه.

قصائد الشيخ موسى اللالتي تدور حول الموضوعات الآتية:

– نصوص مدحية تدور حول الرسولρ تتحدث عن مولده ومعجزاته، وصفاته الخُلقية والخَلقية، كما ذكر ورثته ρ أولياء الله المحمديين مشرقا ومغربا ومحليا.

- يتضح لنا من خلال مضامين هذا النوع من القصائد أن موضوع الشاعر الأساس هو المديح النبوي، وكان فيما يبدو يحاول مجارات البوصيري في النسج على منوال "بردته"، بل كثيرا ما كان يستشهد بنماذج حية من منظومها، يبدو لنا أن الموضوع في جوهره وأغراضه ليس جديدا، فهو ليس غريبا على ثقافتنا الإسلامية، وقد شهدت الفترة التركية انتشارا كبيرا للمدائح النبوية، سواء تلك التي نظمت بالعامية أو الفصحى.
- والنموذج الثاني تمثله قصائد "الحب الإلهي" التي كان الشاعر يطمح من خلالها إلى الارتشاف من هذا النبع السرمدي.
- وهناك نوع من قصائد شاعرنا موسى اللالتي تمثل ما نسمّيه "الإتجاه الرمزي" لأنه لم يقصد من معانيها دلالتها المباشرة، وإنما كان يصبو إلى دلالات أكثر خفاء، فهو يقوم على الإيحاء بدلا من التصريح، ويحتاج الكشف عن شفرة معانيه إلى شيئ من التبصر بالخطاب الصوفي وطرائقه، وقد تصدّى لهذه المهمة المؤلف محمد بن سليمان في تعليقاته وشروحاته في مستواها الثالث (الكشف عن المعنى الصوفي).
- لقد طغت الصناعة الإيقاعية على نصوص الشيخ اللالتي حتى لكأنك تسمع أنغاما وموسيقى تستثير القلوب، فالشعر الصوفي عامة إيقاعي في جوهره، خاصة إذا علمنا أن عددا من تلك النصوص الشعرية كان يتغنى بها في حلقات الحضرة "مجالس السماع والإنشاد" التي دأب عليها الشيخ اللالتي بمعية تلميذه محمد بن سليمان والمريدين.

ويمثل كتاب « كعبة الطائفين» في هذا الباب سجلاً حيًّا لمدوّنة كبرى في الشعر الشعبي الجزائري، فرغم أنّ باعثه قصيدة شعبية صوفية، إلاّ أن الباحث يمكن أن يستخرج منه عددا من الأغراض، منها ما يتعلّق بهجومات الأجانب على الجزائر والانتصار عليهم، وحالة السكان الاقتصادية، والنكبات الطبيعية، وأحوال التصوف والمتصوفين.

في الكتاب جانبا مهما من الأمثال الشعبية، وفي جنباته أيضا كثير من الحكايات الشعبية الصوفية(كرامات، مرائي، أساطير،.)، وهي من ميراث الذاكرة الصوفية الجزائرية، وهي أيضا ذات مقاصد تصب كلها في "أدب السلوك" كما رسمه شيوخ التصوف.

اعتمد المؤلف في تدوين مادة كتابه (في جزئه الأول) على حشد هائل من المصادر، بعضها كان معاصرا لها أو قريبا منها زمنيا، ناهيك عن مصادره الشفوية.

أورد كذلك مادة لا بأس بها من الأوراد الشاذلية بصفة خاصة، والأذكار والأحزاب الصوفية بصفة عامة، وقد نالت كتب التصوف عموما حصة الأسد في مصادر المؤلف.

وفي الختام، سنفرغ بعد مناقشة هذه الرسالة –إن شاء الله– إلى تحقيق الجزأين الثاني والثالث من الكتاب إحياء لتراثنا وحفظا له من الاندثار. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم في البدء والختام.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

أ- المصادر:

1- الأسفرائيني أبو عوانة يعقوب بن اسحاق ، مسند أبي عوانة، ج4، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1998.

2- الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق ، المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، ج1، ج2 ج4، تحقيق: محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996.

3- الأصبهاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، العظمة، ج2، ج4، تحقيق: رضاء الله بن محمد ادريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1408.

4- البخاري محمد بن اسماعيل أبو عبد الله:

- صحيح البخاري، ج1،ج2، ج3،ج6، ج5، ج12، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987.
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 2002.

5- البزار أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق "مسند البزار" ج4، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، ط1، 1409.

6- البستاني كرم، ديوان الخنساء، تحقيق وشرح، دار صادر، بيروت، دط، 1996

7- البوني أبو العباس أحمد بن علي، منبع أصول الحكمة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، دط، دتا.

8- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين:

- سنن البيهقي الكبرى، ج2، ج9، ج6، ج7 تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، دط، 1994.
- شعب الإيمان، ج4 ج5، ج6، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410.

9- الترمذي السلمي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، ج3،ج4،ج5، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دتا.

10- الترمذي محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، ج3، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.

11- التنبكتي أبو العباس أحمد بابا، اللآلي السنوسية في الفضائل السنوسية، تحقيق: محمود براهم، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2011.

12- التوجيني أبو زيد بن عبد الرحمن بن عبد الله، عقدُ الجُمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، المسيلة، الجزائر، ط1، 2005.

13- الجرجاني عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد أبو أحمد، الكامل في ضعفاء الرجال، ج2، ج7، تحقيق: يحي مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ط3، 1988.

14- الجيلاني عبد الحكم، المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، مطبعة بن خلدون، تلمسان، دط،1364هـ.

15- الجيلاني عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، (ج2) وضع حواشيه: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997.

- سرّ الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تحقيق: خالد محمد عدنان الزرعي، محمد غسان نصوح عزقول، دار السنابل للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط3، 1994.
- فتوح الغيب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادهُ، القاهرة، دط، 1973.
- رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، دار السنابل، دمشق، ط2، 1994.
- السفينة القادرية، علق عليها وضبط حواشيها: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.

16- الجيلي عبد الكريم بن ابراهيم، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويصة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997.

17- ابن الحاج الكبير محمد، تاج الملوك المسمّى بدرّة الأنوار، مراجعة: عبد الفتاح السيد عبده الطوخي، المكتبة العلمية الفلكية، بيروت، دط، دتا.

18- الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله أبو عبد الله ، المستدرك على الصحيحين، ج1، ج2، ج3،ج4، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990.

19- ابن حبان محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان، ج1،ج2،ج3،ج4، ج7،ج8،ج9،ج14،ج15،ج16، تحقيق:شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993.

20- حشلاف علي، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، د ط، 1929.

21- أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان، " ناسخ الحديث ومنسوخه" ج1، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة المنار، الزرقاء، ط1، 1988.

22- الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1 ،ج2 ، موفم للنشر ، الجزائر ،دط، 1991.

23- الحكيم سعاد، تاج العارفين، الجنيد البغدادي، الأعمال الكاملة، دراسة وجمع وتحقيق، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2007.

24- ابن حنبل عبد الله أحمد الشيباني:

- السنة، ج2، تحقيق: محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم ، الدمام، ط1، 1406.
- مسند الإمام أحمد، ج1، ج2، ج3، ج5، ج6، مؤسسة قرطبة، مصر، دط، دتا.

25- الحنبلي الدمشقي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، المنار المنيف، ج1، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1403.

26- الحنبلي أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، جامع العلوم والحكم، ج1، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1408.

27- الخطيب البغدادي أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، دط، 1403.

28- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، ط1، 1984.

29- الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد ، سنن الدارمي، ج1، ج2، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ.

30- دار الكتاب العربي، الأحاديث القدسية، (ج1) ، بيروت، ط1، 1999.

31- الديلمي الهمذاني أبو شجاع شيرويه بن شهرزاد بن شيرويه، الفردوس بمأثور الخطاب، ج4، ج5، ج1، ج2، ج3، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986.

32- زرّوق أحمد البرنسي المغربي، قواعد التصوف، ضبط وتعليق: محمود بيروتي، دار البيروتي، دمشق، ط1، 2004.

33- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط،1978.

34- سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، داعية الإسلام، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1986.

35- ابن سعد، «الطبقات الكبرى» ج1، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت دط، 1980.

36- السكندري ابن عطاء الله، الحكم العطائية، (شرح ابن عباد النفزي الرُّندي) إعداد ودراسة: محمد عبد المقصود، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1988.

37- السلمي عبد الرحمن، طبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، دار كتاب الشعب، القاهرة، ط2، 1998.

38- سليطين وفيق، الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحّد، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1995.

39- السمعاني أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور " التحبير في المعجم الكبير"(ج1) تحقيق: منيرة ناجي سالم (د د النشر).

40- السملالي المراكشي ابن ابراهيم العباس بن محمد (ت1959م) «الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأَعْلاَم»، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط د ط، 1983.

41- سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد، الياقوتة في التصوف، المطبعة المركزية، وجدة المغرب، دط، دتا.

42- السيوطي، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، ج4، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، ط1، 1996.

43- الشفشاوني محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2003.

44- الشقراني الراشدي أحمد بن عبد الرحمن، القول الأوسط في أخبار من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991.

45- الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنِّحل، تصحيح وتعلق :أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992.

46- أبو شيبة الكوفي أبو بكر عبد الله بن محمد، مصنف ابن أبي شيبة، ج5، ج6، ج7 تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409.

47- الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد:

- المعجم الأوسط، ج3، ج4، ج6 ج7، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد/ عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، دط، 1401هـ.
- المعجم الكبير، ج3، ج4،ج10، ج11، ج12 ج18، ج19، ج20، ج22 ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط2، 1983.

48- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، تفسير الطبري، ج9، 17، ج20، ج27، ج28، دار الفكر، بيروت، دط، 1405.

49- الطوخي عبد الفتاح السيد، هداية العباد في أسرار الحروف والأعداد، المكتبة الثقافية، بيروت، ط1، 1992.

50- الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف الاسلامي، ضبط وتصحيح: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001.

51- عاصم إبراهيم الكيّالي، الإلهامات السَّنِيّة في شرح الوظيفة الشاذلية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.

52- عباس قاسم محمد، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق و تقديم ، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 2004.
53- عباس قاسم محمد، الحلاّج، الأعمال الكاملة، رياض الرايس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2002.
54- العجلوني الجراحي إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء، ج1،ج2، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1405هـ.
55- العراقي زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار – ضمن كتاب الإحياء (ج4)- المكتبة التوفيقية، القاهرة، دط، دتا.
56- ابن عربي محي الدين:
- الإسرا إلى المقام الأسرى، تحقيق: سعاد الحكيم (مع دراسة عن المعراج النبوي والمعراج الصوفي)، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988.
- التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003.
57- العسقلاني بن علي بن حجر أبو الفضل:
- " فتح الباري" ج2، ج11، ج10، ج13، ج6،ج8، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، دط، 1379.
- لسان الميزان، ج6، تحقيق: دائرة المعارف النظامية الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط3، 1986.
58- العقيلي أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى ، ضعفاء العقيلي، ج4، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، ط1، 1984.
59- الغزالي أبو حامد:
- إحياء علوم الدين، ج1، ج4، ج5، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، دط، د تا.
- أيها الولد المحب، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، دار الشروق، بيروت، ط3، 1980.
60- الغزالي أحمد، مساهمة في البحث عن زوايا بني يزناسن – القادرية والبوتشيشية نموذجا- دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط،ط1، 2005.
61- الفاسي محمد المهدي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع، تحقيق وتعليق: عبد الحي العمري وعبد الكريم مراد، (د دار النشر) المغرب، فاس ط1، 1994.
62- القرطبي أبو عبد الله محمد شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن (ج2)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتاب، الرياض، دط، 2003.

63- القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، تفسير القرطبي، ج2، ج5، ج6، ج7، ج11،ج14، ج18،ج19، ج20 تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط2، 1372هـ.

64- القزويني محمد بن يزيد أبو عبد الله، سنن ابن ماجة، ج1، ج2، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، دط، دتا.

65- القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، د تا.

66- القضاعي محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله ، "مسند الشهاب"ج1، ج2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1986.

67- الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني، (د دن) المغرب.

68- ابن كثير الدمشقي أبو الفدا إسماعيل بن عمر:

- تفسير ابن كثير، ج1، ج2، ج3، ج4، دار الفكر، بيروت، دط، 1401هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ج1، ج3، ج4، (ج8) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999.

69- اللالكائي أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور، اعتقاد أهل السنة، ج3، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، دط، 1402.

70- اللجائي أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف، قطب العارفين في العقائد والتصوف، تحقيق: محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ط1، 2001.

71- مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر، دط، د تا.

72- محمد الشافعي الخلوتي الحنفي، السر المظروف في علم بسط الحروف، دار الفكر، بيروت، دط، 2000.

73- المرزوقي علي أبو حي الله، الجواهر اللَّمَّاعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة، مطبعة مصطفى البابلي وأولاده، القاهرة، دط، 1941.

74- ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد، الجزائر،ط1، 2011،

75- مسلم بن الحجاج:

- صحيح مسلم، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1998.
- صحيح مسلم، ج1، ج3،ج4، ج تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دتا.

76- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009.
77- المقرّي أحمد، روضة الآس العاطرة الأنفاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983، ص: ط، ي.
78- المناوي عبد الرؤوف، "فيض القدير" ج1،(ج6) (ج2)، ج3،ج4، ج5، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ، ص: 246.
79- المنذري أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب، ج1، ج2، ج3 ج4، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ.
80- النسائي أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، سنن النسائي المجتبى، ج1، ج3،ج5، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1986.
81- أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ج2، ج3،ج7،ج9، ج10، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1405هـ.
82- النيسابوري أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، الأوسط، ج1. تحقيق: صغير أحمد محمد حنيف، دار طيبة، الرياض، ط1، 1405.
83- الهروي القاري علي بن سلطان محمد ، المصنوع، ج1، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة الرشد، الرياض، ط4، 1404هـ.
84- الهيثمي علي بن أبي بكر "مجمع الزوائد " (ج3) ج1، ج4، ج5 ج6، ج7 ج8، ج9، ج10، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، بيروت، القاهرة، دط، 1407هـ .
85- اليمني اليافعي الشافعي أبو محمد عبد الله بن أسعد ، الدرّ النظيم في خواص القرآن العظيم، طبعة حجرية، القاهرة، د تا.

ب- المـــراجـــع:

1- إبراهيم مجدي محمد، التصوف السني، حال الفناء بين الجنيد والغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002.
2- بدوي عبد الرحمن، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1978.
3- بنعبد الله عبد العزيز، معلمة التصوف، ج2، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001.
4- بوزيان بن علي محمد، واحة فجيج تاريخ وأعلام، (د د ن) المغرب، ط1، 1987.
5- البوعبدلي المهدي، التعريف بمدينة تلمسان وولايتها عبر التاريخ، ضمن كتاب: "مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا"- نخبة من الأساتذة والمؤرخين- جمع وتعليق: محمد بوزواوي، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2011.

6- بوعزيز يحي، ماضي مدينة تلمسان وأمجادها الحضارية، ضمن كتاب: مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا- نخبة من الأساتذة والمؤرخين- جمع وتعليق: محمد بوزواوي، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2011.
7- جاهين سامي أنور، فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من خلال حديثي العترة وباب المدينة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006.
8- جلاد حسن، سبعة رجال مراكش وأدوارهم السياسية والتربوية والاجتماعية، ردمك، مراكش، ط5، 2007.
9- جمعية الموحّدية، ندرومة عبر التاريخ، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، دط، دتا.
10- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، (ج3) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دار الثقافة، بيروت، د ط، 1982.
11- حاج صادق محمد، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، د ت.
12- حبار مختار، الشعر الصوفي القديم في الجزائر، إيقاعه الداخلي ووظيفته، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، دط، 1997.
13- حرز الله محمد العربي، تلمسان مهد حضارة وواحة ثقافة، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011.
14- ركيبي عبد الله، الشعر الديني الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981.
15- زيدان يوسف:
- شعراء الصوفية المجهولون، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2009.
- عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.
- المتواليات، دراسات في التصوف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1998.
16- سعد الله أبو القاسم:
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1981.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.
17- سعيدان عمر، علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان، في الثلثين الأول والثاني من ق 14م، منشورات ثالة الجزائر، ط2، 2011.

18- الشباني الإدريسي أحمد، مصابيح البشرية في أبناء خير البرية، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.

19- صاري جيلالي، تلمسان الزيانية، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ط، 2011.

20- الصغير عبد المجيد، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18- 19(أحمد بن عجيبة و محمد الحراق) دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط2، 1994.

21- العلوي إسماعيل مولاي عبد الحميد، تاريخ وجدة وأنقاد في دوحة الأمجاد، (ج2)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989.

22- العلمي الحسني الطاهر بن عبد السلام اللهيوي الوهابي، حصن السلام بين يدي أولاد مولاي عبد السلام، دار الثقافة، الدار البضاء، المغرب، ط2، 2007.

23- بن عمارة خليفة، سيرة البوبكرية (1) أجداد أولاد سيدي الشيخ، ترجمة: محمد قندوسي، مكتبة جودي مسعود، وهران، دط، 2002.

24- غلاّب حسن، سبعة رجال مراكش، ردمك، مراكش، ط5، 2007.

25- فرحات عبد الوهاب، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حياته ومدرسته في التصوف، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2003.

26- القحطاني سعيد بن مسفر بن مفرح، الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، ردمك، الرياض، ط1، 1997.

27- قيداري قويدر، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار، دراسة تاريخية وأنثروبولوجية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، دط، 2009.

28- الكربي فوزية، فهرسة المخطوطات العربية، المكتبة الوطنية أنموذجا، ضمن: "تحقيق النصوص التراثية- التصور والواقع-" تنسيق: نجاة المريني، مطبعة النجاة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.

29- الكيالي عاصم إبراهيم، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007.

30- اللاّذقاني محي الدين، آباء الحداثة العربية – مدخل إلى عوالم الجاحظ والحلاّج والتوحيدي – مؤسسة الانتشار العربي، لندن، بيروت، ط2، 1998.

31- مبارك زكي، الأخلاق عند الغزالي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1988.

32- محمود عبد الحليم، تاج الصوفية أبوبكر الشبلي، حياته وآثاره، (دون دار النشر)القاهرة، ط2، دتا.

33- محمود مصطفى، رأيت الله، دار المعارف، القاهرة، ط3، دتا.

34- مسكين حسن، الكرامات الصوفية المغربية، جذور للنشر، الرباط، ط1، 2006.

35- مفتاح محمد، الخطاب الصوفي "مقاربة وظيفية" مكتبة الرشاد، المغرب، ط1، 1997.

36- مفلاح محمد، أعلام من منطقة غليزان، أعلام التصوف- شعراء الملحون، دار المعرفة، الجزائر، د ط، 2008.

37- الملحوني عبد الرحمن، الحكايات الشعبية الصوفية، ج2، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2000.

38- منصور عبد القادر، خصائص أهل البيت، دار القلم، حلب، سورية، ط1، 2002.

39- الموسوي موسى، من الكِندي إلى ابن رشد، منشورات عويددات، بيروت، باريس، ط3، 1982.

40- الميموني محمد بن محمد بن محمد، روضة للظريف في خواص اسم الله تعالى اللطيف، وفوائد أخرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2005.

41- نور الدين عبد السلام، الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي، قراءة في نصوص الحلاج والغزالي، دار سومر للنشر، نيقوسيا، قبرص، دط، 1992.

42- نويهض عادل، أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط3، 1989.

43- يعيش محمد، شعرية الخطاب الصوفي –الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجا- سيباما، فاس، دط، 2002.

ج – الدواويـــن:

1- خفاجى محمد عبد المنعم، ديوان الإمام علي كرم الله وجهه، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دتا.

2- الزوي القادري أحمد شهاب بن أحمد نور الدين، المرشدة اللطيفة لزائر الأضرحة الشريفة" مطابع الجماهيرية، سبها، ط1، 1997.

3- زيدان يوسف، ديوان عبد القادر الجيلاني، القصائد الصوفية، والمقالات الرمزية، دراسة وتحقيق، دار أخبار اليوم، القاهرة، (د ط)، (د تا).

4- الشيبي كامل مصطفى، ديوان الحلاج، يليه كتاب الطواسين، (تحقيق) منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، د ط، 1997.

5- الطبّاع عمر فاروق، ديوان ابن الفارض، شرح وضبط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، د تا.

6- كامل مجدي، أحلى قصائد الصوفية، دار الكتاب العربي، دمشق، سورية، ط1، 1997.

7- كرم البستاني، ديوان الخنساء، تحقيق وشرح، دار صادر بيروت، دط، 1996.

د – المعاجـــم:

1- إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، دار إحياء التراث، بيروت، دط، دت.
2- البستاني المعلم بطرس، قطر المحيط، طبع في بيروت، دط، 1869.
3- الدمشقي محمد منير، المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، مراجعة: الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت، دط، دتا.
4- بنبين أحمد شوقي ومصطفى طوبي، معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي)، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط 3، 2005.
5- الشريف الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، دط، ص: 1985.
6- ابن فارس أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج1،(ج2)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.
7- القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق: موفق فوزي الجبر، دار الحكمة، دمشق، ط1، 1995.
8- ونسنك أ.ى. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي،(ج1) مكتبة بريل، ليدن، دط، 1936.

- **الدوريات:**

1- سعد الله أبو القاسم، كعبة الطائفين، مخطوط جزائري من القرن السابع عشر، المجلة التاريخية المغربية، عدد7-8، جانفي 1977، تونس.
2- القادري عبد القادر، الشيخ عبد القادر الجيلاني، حياته، عصره، صفته، آثاره، ذريته، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، العدد 4، السنة 21، 1980.

- **المراجع باللغة الفرنسية:**

1- H.boubakeur .un soufi algerien.Sidi Cheikh. Maison Neuvre et la Rose, Paris.
2- Louis Rinn- Marabouts et khouan- Etude sur l’islam en Algérie, Adolf Jourdan, Librairie éditeurs-Algérie- 1884.
3- Millad Aissa – Alyaquouta, Poème mystique de sidi Chikh- Essai d’édition critique et étude du texte selon la tradition Soufi, entreprise nationale du livre- Alger, 1986.

قســــــم الفـــــهــــــارس

- فهرس الأعلام والطوائف والقبائل والأمم
- فهرس الأماكن والمواضع والبلدان
- فهرس الكـــــــتــــــــب الواردة في المتن
- فهرس الأمثال والحكم (الشعبية والفصيحة)

فهرس الأعلام والطوائف والقبائل والأمم:

فهرس الأماكن والمواضع والبلدان:

فهرس الكــــــــــتـــــــــــب الواردة في المتن

فهرس الأمثال والحكم (الشعبية والفصيحة)

ملحق/

قصائد موسى اللالتي

(مرتبة بحسب ورودها في المتن)

1- آمَاذَا حوَّسْتْ يَا رَبْ   كَمْ (منَ رَحْلَة) رِيتْهَا وَقْرَا
نْفَتَّشْ مَنْ هُو خَالَصْ الحُبْ   وادْرايَه تَغْرِيهْ لِيكْ اغْرَا
لَيسْ وْجَدْتْ سِوَى الذِي يَهَبْ   قْوايَ باجْفَاهْ (واقفُورَا)

2- كُنت طْفَل نَرْجى وارْجيْتُ اشَبَابْ   غَايَةْ رْجَال حِينْ اكْهُلاَتْ
بَعدْ ذَاكْ نَرْجَى ثَمَّ رَاسِي شَابْ   شُفْتْ فِيكْ شَرْعَا مْطوَّر وَجْوَابْ
لأَش يَا ربِّ منْ صَابْ لي مْعَاك خَلْوَ   واحْضُور يَاتي منَّكْ لي مْدَاوَمْ مادَامْ احْيَاتي

3- لَوْ كُنتْ عَنْدْ امْرَكْ مَوقُوفْ   أَشَد بِهْ الخُوفْ   أوَّابْ فِي حَرْكَ واسْكُونْ
وَانَا بْحَيْرَاتي مَشغُوفْ   أشْجَى مَرْجُوفْ   مجذُوبْ جَذْبْ افْتَنْ مجْنُونْ
ضَاق[كذا] حُبّي يَا رَؤُوف   اذْكُر مَوصُوفْ   بالصِّدقْ يا مْكَوَّن مَا في الكونْ
لَوْ كُنتْ صَادَقْ في حُبِّي يَا رَبْ   مَاكُنْتْ فِي الخَطَا سَفَّاكْ
مَنْ دْرَا تَغْفَر ذَنْبي يَا رَبْ   يَوْم انْ يْكُونْ الجَمِيع مْعَاكْ

4- غَايَبْ سَاكَرْتِي وسَكْتَاه نَجْوَاك   يُرَى سَاكَتْ وهُو فِي حَالْ اجْذَابْ
وامَرْ مَتْحَيَّرْ وْحِيرَة في اطْنَاب   لَولَا مَا حْلاَه صَبرُه جَلْبَابْ
ومِمَّا نَابُوا كَادْ تنْشَق اجْنَابُ

5- آفُؤَادِي كِيرْ فِي انْفَاسِي تَزْفِيرْ   مَن حُمَّانْ اسْعِيرْ وَصْلُوا واقرُابُ
لَولَا ما حْلاَهْ صَبْرُه جَلْبَابُ   مِمَّا نَابُوا كاد تنْشَق اجْنَابُ

6- آمَالِكِي وَايَنْ هُم حِزْبِي حِزْبْ العَارِفِينْ مَا يُرَى

7-

مَنْ حَامْ لَغْمَاتْ واحْوَازْ   وَاوْطَن فَاسْ بْلاَمَّةْ لاَمْ
وتْلَمْسَانْ وثَمَّ نْهَازْ   وَازْوَاوَه فِي الدِّينْ عُلَمَا
نْفَتَّشْ مَثْل اوَيْسْ   وَنْعَازْ وشبَه رَابْعَة أُمْ
ارْحَلْ الطْرَابُلسِي وْعَنَّابْ   ولِّي مَنْهَا لتُونَسْ الخَضْرَا
ولِيِّ صَحْرَاوِي مْعَ الجنْبْ   حَتَّى لْأَرْضْ اتْوَاتْ وارْضْ ادْرَا
واسطَنْبُولْ ومِصْرَ والعِراقْ   والكَعْبَة والشَّامْ وارْضَ الصِّينْ
وارضْ الهَنْد وسُودْها الرقَاقْ   واهْلْ العُدْوَا خَارِجين الدِّينْ
دُرْتْ بعَقْلِي والعْقَل رَقْرَاق   من هُو منْهُم عَارَف اثْنِينْ

بالرَّبْ ومَرْبُوب هُو الأوَّاب   مَنْ لَبْـدَا في أَوْبـتِ مَـسْـــرَا
مَنْ لُو قُوَّة فِي لحْجَـا تَسْبِي   عن الـذَّات اسْتَارْها الكُثْـــرَا

طُفْت الوُجـُود حَيْثُ كَــــانْ   بالعْقَل قَد حَوَيت لاَ مَنْ يَخْفَـــانْ
وسْأَلتْهُـم بكُـل لسَـــــــانْ   مَنْ السَّبَب فِيكُم قالُوا سُلطَـــانْ
سُلـطَان كُلْ ذِي سُلطَـــانْ   لَـولاَه لَمْ تكُونُوا قـرَّة الأعيَـــانْ
شعَّـف فُــؤَادَك حَيْـــــرَانْ   بْحُبْ مُجْتبَاك مُحمَّـــد يَا عَـــــانْ

8- أنـــا يـــا رؤُوف   بْحُبَّــك شَغُـــوف
قَصْدِي فيك انْشُـوف   شُوفَـــة شَافيَـــــا
بمُقْلاَة الجفُـــــوف   وسَمعُهم عْطُـــــوف
كالأراضي والسْقُـوف   خَلّــي الفَانْيَـــــا
بين عْظَـامي جُـــوف   قد احْوى كُل جُـوفـة
يْجُـــول لْعَـــــرش   معَ اتْحُوفَـك العَالْيَـــا
ضَخْم الذَاتْ وافْهَـــام   حتى كأني نكُون أنا الوجُــود
كي ابْصَاري واقـــــدَام   تَثْبَت عندَمَا نْرِيكْ بْلَا حُدُود
بِلَا حَد تَرَاك عَين يتشخَصْ   فيك كُلْ حِين [كذا] ياكْبِيـــر
وانتَ كُلْ حِين تَزْدَادْ زِيـن   بين النضرة وبين الأخرى كثير
ذاك الزِّينْ الحْزِين فِيَّ الحْنِين   حَن انتَ يا مُعِينْ عَن النَّظِيـر
اجعلي طاقة فِي ايَّـــــامِ   عِنْدمَا تَبْرَز تْبَان مَنَّك الشْهُود
تْجَــلَّى لي في اعْظَــــــامِ   وفِي لْحَم والشْعَر بْنُور الوْجُود
الفَــظ يا أحي بسْــــلَامِ   والصْلاة عْلِيه هَاشمي الجْدُود

9- المُخْتَـار البَـــارقْ لِيـــطْ   مِن عِبْرانِي اسمُـــه مَـــاذْ
لَهُ مِن تَسْلِيطِي عَنْه تَسْلِيطْ   كَالسُّوسَـة لسنَـاه نْفَـــاذْ
نَكْشَـفْ عَن زَخَـارْ مُحِيـطْ   بِالعَـالَمْ مجْمُـوعْ وافْـــذَاذْ
من هُـو كُل الكُل واعَجْبِي   مَمَّـنْ فِيـــه الخَلْـق مَحْصُـــورَا
عَيْن الرَّحْمَة سَابَـق الغَضَبْ   عَيْن العِلـم وغَايَـة القُـــدْرَا

10- ارجَـع تْكَـر يا مُـــوسَى   للمُصْطفى اتْعِيـد اثْنَـــــــاه
كُنْ في ثْنَـاه فَاعُـــوص   اكْشَـف غْطَاه ومَعْنَـــــــاه
وانبْش عْلِيه كالسُّـوسَـــا   صفَـــه بْكَلْمتِـــــــين إزاه
ذُوك البْعَـاد للكُفـــرَان   وهُم يشابهوه(الفقها) حيـلان
وهـُم مْـعَ ذَوي الغَيبَـــان   (كَمِثل مَا تْغِيب في الغَيبَان)
شَغَـف فُـؤَادك حَيْـــرَان   بْحُب مُجْتَبَاك مُحَمَّد يَا عَـــان

11- الحَمْـدُ للإلَـه عَنِّي يَجِـــــــــب   اللي الْهَمْـنِي لنُورَه رَايْــتْ ضْيَـــــاه
بذَهْنِي سَاطَع ولَيْسَ يْغِيـــــــب   نَافِي عَنِّي حْلُوكْ جَهْلِي يَا مَبْهَـــاه
مِن شْخَص المصْطَفَى مُحَمَّد ثَاقَب   جْمَع اعْضَاي وكُل عُضْو ايْرَى مَعْنَاه

حَمْدًا لا يَنقَطَع دْوَام   حِسِّي ومَعْنَوِي وسَرِّي واعْلاَن

نَخْتَم بيوَاقِيتْ السَّلام   على المبْعُوث من لُؤَي وعَدنَان

يا سّيد سيّد الأنَام مَتَى   عَيْنِي اتَرَاك فِي شُوري دَان

14- مِيم الجَمِيع هُو السَّاسْ   يا مَن نَشْأه زَاخَر تُوره

مالُوا اعْقَابْ مَالُو رَاس   مالُوا سْوَاحَل واقْعُور

ثَمَّ حْيِيت منُّه انْفَاس   في الأزَل عَمّ ذَا المعمُور

عَمّ جَمِيع ذا العُمْرَان   ذَاك الذي نفست ياه الديان

جَلَّ ثَنَاك من رَحْمَان   بِكُن وليس كَاف ولا تَنوَان

15- فَسُبْحَان العَظِيم مِن نُورَه انْشَاك   واجْمِيع النُّور نَار منَّك يَامُخْتَار

واجْمَع فِيك الجَمِيع حَتّى كَأنَّك   أنتَ الوُجُود والوُجُود بْلاَ حُضَّار

إذْ لَوْ حَضرُوا مْعَك بِك ابْدَا مُولاَك   وابْدَاهُم مِن بَدْوَك حَتَّى صَار وصَار

وصَيْرَك مِن نُورَك العْظَام   عَرشْ وكُرسي ولُوح [واقلم] واكْوَان

وامْلاَيَكْ شَاين لا يُرام   سَبْع اسْمَوَات ثُمّ سَبْع ارْضَان

16- نُخْبَة مَا سِوَى الإلَه قَد اجتبَاه   رَبِّ وحْبَاه بَارَق لِيطْ مَاذ

اقْتَم العَالَمِين جَاه مَن يُستَجَاه   عَنِّي يا مَبْطَاه يا اخِي فاسْتعَاذ

مِمَّا ذا نَلقَاه مِن عَظِيم هْوَاه   نَقْسَم بدِيمَاه مَا لْفَظت بْشَاذ

مَانِي صَابَرْشِ ايَّام طَاقت   مَا نَهْوَى خْلاَفْ حَمْر الخدوذْ

زَجْ الحْوَاجَبْ اقيَام الّاحُور   بَاهِي الُّلون عَنْد صَبْرِي مَذُوذ

الْفَظْ يَا أَخِي بالسَّلاَم   والصّلاَة عْلِيه(هَاشْمِي) الجُدُود

الاحْوَر قَانِي الانْف سيد النَّاس   وَصْفكُم (لفُؤَادِي بِه شْغَف) تَاج الملاَح

مُول الجيد النيف مُبدِع حَرْف حَرْف   مَضْحَك فَاه ابْيَان وَصَف عَن ثَلْج طَاح

ثَيث عَامَل جُرف بين كْتَف و كْتَف   واللَّحْيَا تْغَطِّي عْلَى صَدْرَه المشَاح

ضَخْم اكْرَادَس رجَام اغْلَظ   زْنَاد يَشَبْهُوه بَعْض الأُسُود

جُوف المَاحِي ضَام   لاجَسْدَا تَشْبَه لِجَسْدتُه فِي الجُسُود

تَع ذَاك الجَسَد نعَى يا مَحْوَاه   من لَوْعَات الحُبْ والغْرَام الكَزِيز

حتَى كَانُوا يصَاعَق في حْشَاه   مَنْهَا يَقرَا حجَاه تَسّمعُولُوا أَزِيز

مِن عْظِيم اهْوَاه وأْلِيم بْلاَه   لَبْدَا فِي غَيبَاه عَنْد رَبْ مْحيز

بَحْر اغْرَام لَطَّام   مَا لُو سَاحَل ابْدَا وَ لَا لُو حْدُود

لَيْس ايْخُوضُوا آدَمِي   وَلاَ فِي الملاَيَك كَافَّة مَن يْلُوذ

مَا فِي الملاَيَك كَافَّة أَجْمَعِين   مَن يْحُوط بِمَا احَاط بِه الشَّفِيع

من المعْرِفَة وخَوفْ جَدّ الحُسِين   قَدْر اغْرَامُه فِيه خَوْفُه يَا سَمِيع

مُول الوَجْه اللِّي بْهَى جَمَال يْشِيع   ضَوْ الشَّمْس وضَوْ نِيرَاتْ الجَمِيع

نُورُه البَارَقْ سَام لَيْس ايْرَاه   غَيْر ذِي بْصِيرَه جَلُود

فِي الْهَام الْهَام لَيْسَ ايُرى   (فِي الخَلْق) دُونُه نُور وقُود

17-

انتَ بْـلاَ اسَامِـــــي	أسماؤك الحُسْــــــنى
في كُلْ اسْـم دَمِّـــــي	جَلّ أن تَرَى لُو مَعْنَى
او نْذَكـرَكْ بْفُمِّــــــي	يَخْرَصْ يْصَم لَسْنَـــا
او في الفُـؤَاد ذَكْــرَكْ	كَذَا العْظَامْ سَكْنَـــا
السَّرْ سَرْ سَـــــــرِّي	كَدْتْ ان نْكون انْـــتَ
قَدْ غِبتْ في حْبِيـــبي	حَتَّى اضْمَحَل رَسْمـي
وابْطِيتْ في مْغِيــــبِي	أَنْ صِرتْ ذَاتًا بِاسْمِي
في حَالَة انْجِـــــذَابي	بْلَغتْ لمهَمِّــــــــــي
بْلَغتْ اقْصَى وَطْــــرِي	لَيـــــتَ انْجِــــــــــــذَابي لَيــــــــــــتَلَكَ
فِيــهْ عُمْـــــرِي	يَـسْلَك مَعَـه فَـلْتَـا

18-

واحَدكَان الله كِيــف آن هـــو	في ذِي السَّاعَة مَن سِوَاه افْنِيت
الاسْمَاء والصِّفَات يَنْكـــــــرُه	لمن تبْدو ثَمَّ يا عَنْتِيــــــــــت
لَوَلا احمَد ذا العَالَمَ (آشِي هُو)	في جَنْب هُو كَذَلك انبَـــــت
فَا الله الله يَـــــا ذَوِي الأدَب	مَن حَاشَاه أن (تَبْصرُوا) نظروا
نَظْرَا مْكَون لَو يكُـــــون انَب	أم البَاقي عَادْ في آحْــــــــرَا

19-بأيْ حَمْد نَحَّمْدُوكْ عَلَى نَعمَاكْ   لَولاَ حَمْدَك لِيك جَالَكْ مِن بَابُ
بِه احْمدتْ علَى انْفِكَاكِي مِن الإِشْرَاك   شَرَكَا بِه انْصَدَّت قَومًا لاَ تَابُ
ثم اهْدِيتْ العْقَل بالإِسلاَم ابْدَاك   يَسْتَسْلَم شِي بَعْدْ شِي حَتَّى جَابُ
جَابُ صَنْعَكْ لِيكْ وانْقَادْ بصَنعَاك   لُولاَ صَنْعَك يَاحْبِيبِي مَا نَابُ
لما نَاب اليك جَا لامْرَك وانْهَاك   واذَا جَازْ الأَمْر هَذَاك اعْقَابُ
لَمَّا انْ شَافْ لذَ المقَام مَقَام اعْزَاك   طَلْبَك يَا قَيُّومْ تَضْحَى جَلاَّبُ
وارفَعتْ لمقَامْ الإِيمَان اسْتَوْفَاك   بِكْ اعْلِيك يْدلْ جُمْهُور اصْحَابُ
عَادْ ايخَافْ ويَرْجَا خَايَف يَلْقَاك   عْلَى غِير حَالْ يَطْوَال اعْتَابُ
ثم زَاد لْدَار الإِحْسَان استَقْصَاك   بْصَرْت الغَايَ فِي صْمِيم واكْتَابُ
دُون امْرَاقَبْتَك فِي ذِهنُ مَا يَنْسَاكْ   علَكُل حَال لُو حَق اعذَابُ
مَقْشَعَّرْ الجلْد مَشْغَاف بحُبَّك   واعْضَاه مما يْقَايْسُوه ذَابُ
ثمَّ افْنِيت فِيك فْنَى وعَاد يْرَاك   انْتَ الكُل ومَا بْقَى دُون اسْرَابُ
ثمَّ اضْمَحَل فِيك واصْفَا لصَفْوَاك   صِرت انْتَ هُوَ وهُوَ انْتَ باحْسَابُ
ثُمَّ افْنَى ثَالَث افْنَا وابْقَى لَبْقَاكْ   بَعْد ابْقَاه غَاب مِن حُسن أدَابُ
لُولاَ أن غَاب امْعَه غَيَّب مَا عْدَاك   ذَاك الحِين ارْتَاحْ مِمَّا يَنْتَابُ
تَنْتَاب غِير اعْلِيكْ ايخَاف اسْوَاك   يَدْرَك شِي مِن حُسْن ذَاتَك بالبَابُ
هَذَا العْقَل عْلِيكْ كَرَّاز ومَلْكَاك   مِن شُحُّه عَنَّك وشَح مَا عَابُ
لَولُه يَا قَيُّوم قْوَى مِن يُمنَاك   تَدْرَك بِهَا تَيمَات واكتَابُ
فِي يَدَّه سِيفْ اعْظِيمْ مَاضِي للتَّسْفَاك   يَسْفَك دَمْ الخَلْق طُرًّا لَويَأْبُ
يصبح الموجُودَات عُلْوَاك وسُفْلاَك   مِثْل العَرْش ودُون حَتَّى لَذْبَابُ
مَا يترَكْ مَن يَذّكرَك حَتَّى باسْمَاك   أو العَارَف لِيكْ يُذكُر احْرَابُ
وَلِّي يَزْعَم ايْقُول أنَا نَهْوَاك   يا غَلَّه عَنُّه ودَعْوَاه اسْبَابُ
ثم دَاعِي القُرب لَيْتَاكْ بقُرْبَاك   ذَاك الِّي عَرَّضْ ادْيَارُ لَخْرَابُ
لَوْ لِي بْعِلْم بْصِفَة مِن وَصْفَاك   وَيْحْ مَا يَفْقَهْ بْتَدْقِيق اعْرَابُ
أَمْ الغَافَل عَنَّك حَقَّك مَا يُتْرَاك   واذَا غَاب القَلْب يَدْوُوكْ اعْصَابُ
كُن عْلَى وِفْقِي انْخِيل عْلَى عَظْمَاك   لَا تحرمَه سْفَكهُم لُو يَغضَابُ
بعدْ السَّفْك يحرقْهُم بَاحْرَاك   بعْد الدَّقْ والسَّحْقْ حَتَّى يَرْطَابُ

لَنْ يَضْحُوا كَالمُهلْ فِي فَسْحَات افْضَاك
يَطْلَق عَنهُم رِيح صَرْصَار وهَتَّاك
ثمّ تْثَمَّن لُو ابْذَلَك الاسْتِهْلاَك
لُو تَبْقَى وَحْدَك اوْحِيدْ كَمَا انَّك
يَا مَن لاَ يَلهِيكْ عَنَّك ذَاك وذَاك
بْحَر فِين يَبْرَز الأَشْيَا سُلطَانَك
بسِيدي لا تَكْشَف اغْطَاك عْلَى مَعْنَاك
مَنَّك مَا حَقَّقْ اسوَاكْ ولاَ يَدْرَاك
هَل لِمَا بِين كُنْ اوجَدْتْ عَاد ادْرَاك
[قل] تَاذَن لُو يَقْوَى واستَبرَاك
يَا فَرْدَانِي الذَّات يَا نَاهِي عَظمَاك
فِي مُرَادِي لاَ تْجَلَّ اعْلَى مَحْلاَك
أَم البَاقِي عَاد مِن بَابْ احْرَاك
خَص اجمَالَك بِك واكْذَ لَك بْهَاك
خَص أوصَافَك بِك و كَذَلك اسْمَاك
خَصْ اسْرَارَك بِك وكَذَلك غْيَابَك
لاَ فِي يَا خْفَى اعْلِيكْ اخْوَا واهْمَاك
حَمْقِي مَا حَمْقُو عْلِيك أقْرَا ولا هْفَاك
ضِيق امْرَاحِي حَازْنِي واغْرَام اهْوَاك
فاعتِرَاضِي وانهِتَاكِي لحِرْمَاني
كَفْ عْلَى لُومِي فَسَرِّي مَا يَخْفَاك
لَبَاحْ فُؤَادِي بكَتْمَانَك وافْشَاك
من رَحْمَاتَك وانعطَافَكْ ثمَّ اعْطَاك
أمْ سَخْطَك ذَاك هُو عَين أرْضَاك
لُولاَ مَا فِيَّ احْيَا مَنَّك لجْدَاكْ
نَسْقُط مَا عَن البُرَاق مِن كُلْفَاك
بِاعْتِمَادِي عَن سْوابَقْ حُكْمْ اقْضَـــــاك

أو الجُرحْ الِّي يَكْتْوِهِ اضْبَابُ
يَرمِيهِم رَمْي الهَبْاَ فِي تَهْبَابُ
أو تْضَاعَف لُو بتَصْحِيحْ اعْذَابُ
فِي الحَضْرَا والحِين دُون ارتِيَابُ
كُوْن العَالَمَ اوحْفَظ واذهَابُ
حَرْفَان يَنْقصُوا غْلَظ احْجَابُ
لِمَنْ لاَ يَدرِي لْمَعنَاك اصْوَابُ
جَلَّ اجْلاَلَكْ يَا مْهَيمِن رْقَابُ
آشْ ايرَى مَسْكِين يَحيَوْ اطْلاَّبُ
يعْجَزْ بَانْ فِيه رَدُّ و تَجْوَابُ
نَقْسَم بِك اعْلِيك واحْمَدْ الأَوَّابُ
مُلْكًا دَار أو مُرْسَل مُجتَابُ
نَزَّه ذَاتَك بِك بنى الأَسْلاَبُ
أحَقْ أن تبَّصْرُوا دُون اقْرَابُ
خَص اذْكَارَك بْك مَن دُون احْبَابُ
يا مَن غَيَّب غَيْبَه فِي غَيْبْ اغْيَابُ
غِل وقِل وشُومْ واغِثْ وانْدَابُ
زِدْت يَا رَب مْعَ الحمْق اشْغَابُ
حَتَّى كَادْ الجْمَل يَرحَل فِي اشْعَابُ
لَمَّا انْ نَازَعْتَك فِي مُلْكَك نَغْتَابُ
يَا مَن لَولاَ الشَّرْع صَرَّح باخْطَابُ
واكشَفْ مَا انْتَ عْلِيه بَصْوَابُ
بَعْد احْسَان فِيه يَعْيَوْا كُتَّابُ
ذاك الّي جَهْلُوه مَنُّه هُرّابُ
انْقُولْ اكْلاَمْ عْلِيهْ تَسْيَافْ رْقَابُ
يَا مَن لَا يَكْفِيه غِيرْ فِي دَابُ
هَذَا الحُكْم الكُلِ الِيهْ اسْتْجَابُ

يَا مَن لاَ فِي الخَلَقْضُرًّا مِن نَفْعَاك   ولاَ اسَاءَة مِن أَسَا لِيه [كذا]
انْتَ انْتَ قَد اكْفَاك اكْفَاك اكْفَاك   يَا مَن لاَ يَكْفِيه غِير فِي دَأْبُ
تَرَكَك مَعرِفَه، وعَرفَانَك تَرَكَاك   اللِّي زَال اعْلِيه مَستُورْ احْجَابُ
غَايَب سَاكُوتِي وسَكْتَاه نَجْوَاك   يُرَى سَاكَت وهُو فِي حَال اجْذَابُ
وَالَهْ مَتْحيَّر وحِيرَه فِي اطْنَابُ   لُولاَ مَا حْلاَه صَبْرُوا وجَلْبَابُ
مِمّا نَابَه كَادْ تَنْشَقْ اجْنَابُ

-20

أَمَّا انتَ انتَ بْلاَ انـــــتَ   وبْلاَ بْشِي مِـــــــن ذَلَـــــكْ
فالبَحْثْ فِيكْ كُل مَقْـــــت   اللِّي بْلَغ بْلاَ السَّالَـــــكْ
مَا لُوا اصْوَاب غِير السَّكْـــــت   والصَّمْت والأدَاب لِيـــــكْ
يَفْنِي فْنَاه لَيْس يْبَـــــان   لُو شِي مِن فْنَاه فِي الفْنَى الفَـــانِي
ثُمَّ تْعُود لُوا وَحْـــــدَان   تَمْتَازْ وَحْدَة بالوَحْدَة وَحْـــدَانِي
[شَغَفْ فُؤَادَك حَيْـــــــرَان   بْحُب مُجْتَبَاك مُحَمَّد يَا عَـــان]

-21

قَد غِبْت فِي حْبِيـــــــبِي   حَتَّى اضْمَحَلّ رَسْمِـــــي
وابْطِيتْ فِي مْغِيـــــــبِي   أنْ صِرْتْ ذَاتًا باسْمِـــــي
فِي حَالَة انْجِـــــــذَابِي   بْلَغْتْ لَمْهَمِّـــــــــي
بْلَغْت أَقْصَى وَطْـــــــرِي   لَيْتْ انْجِذَابِي فِيَّ لَيْـــــت
لَكَان فِيه عُمْـــــــرِي   يَسْلَك مْعَه فَلْتَــــــا

-22

انْتَ ومَن ذُو غِيـــــــرَك   حَتَّى يْحَبَّك عَـــــــنِّي
مَنَّك الِيك سُؤْلَـــــــك   مَنَّك الجَواب يَثْـــــــنِي
الفِعْل كُل فِعْلَـــــــك   والقَوْل لَسَّه مَـــــــنِّي
انْتَ لاَنْتَ تَـــــــدْرِي   انْتَ فَانْتَ انْـــــــتَ
إنْ فِي صْمِيم صَـــــــدْرِي   سِوَاك قُل لِي انْـــــــتَ

-23

انْتَ بغِير صنْفَــــــــا   تَثْبَت لَك الكَمَـــــــال
لاَ النَّقْص عَنَّك يَنْفَــــا   بِهَايَا مُتَعَــــــــال
لم يَنْصفُوك نَصْفَــــا   قَوَّال ذَا المقَــــــال
شَطْرِي يْقُول شَطْـــــرِي   أَنَا وانْتَ كِلْتَـــــــا
مَنْ قَال هَذَا فَـــــادْرِي   بأَنَّهْ خَسِيسْ بَتَّـــــا

مَبْهُوتْ فِيــــــكْ مُن ذُو   كْشَفْـت عَن غِطَــــــائي
وابْقِيتْ فَرْدْ قَــــذْ وَلَا حَد يَنْبَا   فيك الوجُود نَفْذُوا يَا هَاء هَاء هَــائي
هُو انْتَ فَـــــــرْد وَتْرِي   والوَتْر   فِيكْ كُل انْتَ بلاَ صِفَات تَجْرِي
فِي ذَهْنِي ثَابَــــــت انْتَ

-25

نَابْ حَيْرَ اكْبِير حَيْر ايرَادَف حَيْرا   بَعْد الحيرْ الحيرْ مَن رَفْع احْجَـابُ
لَمَّا ضَالـه نَيَّر نَيْر   يَا قَدِيــــر   قْدَر انْسَان ايْسِير مَن ذَا اتَكْـرَابُ
ذْهَبْ قَاع الغِير خَـلاَّهَا لاَ غِيـــر   قَلُّـوا وكْثِيـر لاَ مَن يَنْتَــــابُ
لا تهزا [كذا] قُولِي يا نَحرِيـــــر   بَانِي ذَات اصْغير واجــزاوا عْيَــابُ
صُغْرِي ذَاك صْغِير عَقْلِي لاَشْ تْغِيرَه   قِف واصْغِ قَــــــولْ الأَوَّابُ
كُلَّمَا نْشِير للعَراف نْشِيــــــر   دَبَا جْنِين احْرِير غَزْلِي فِي اكْبَــابُ
اهْل ادْعَا لاَ صِير لاَ صْحَابُه التَّعتِير   واقبَال وتَقْرِير وارَث وارْحَـــابُ
هم الِّي يدُوم اغْزِير الغَاز يغِيــر   غير ابْنَاي بْغِـير ذُوك الزُّهَـــادُ
سِير مْعَايَ سِير سِيدي ياشَنْتِيــر   يَا مَن جَاز امْرِير مَنْهَاج اسْبَابُ
قَص الثَّار وثَير خَلْفِـي غَايــــت   تَبَرْكِي تَرى تَبهِير مُوسَى المصَابُ
فِي قَهَّار اقْبِير مَثْـوَاه تَقْهِيــــر   هيبَه للاباز حِين سْطَوْا وعذَابُ
لِي وَلَّى اكْسِير من نَــــــار   التَّنْوِير من غِير اعْجَـــــابُ
لاَ بَاسْ واسْرِير عَرشْ ولاَ باكْثِير   خَلقَه عَاد اكْفِير يَا جَمِيع الحْسَابُ
هُوَ هُو بيرشَاه سَان ابْلِيـــــر   غِير قاور ويد فِي غَضَب اغضَابُ
دُون ذَاك الجِير جِير امنــــار   الديره دِير الماحِي اليرطه المحتَابُ
هُو بَاب الخِير دُونَك يا بَلخِيـر   وادخل جَاك الخِيرمن بين ابْوابُ
بعد ذاك اتْطِير مَعْنَى لا تْطِيــر   طيران كان لطير طَيْرَك تَثْـوابُ
وانزَل لاَ باَكسِير جنح ولا باضَير   عن عُمَّار اعْمِير مَعْمُور ايجَابُ
منّه افُؤَادِي كِير في انْفَاس تَزْفِير   من حُمَّان [سْعِير] وَصْلُه واقرَابُ
لَولاَ مَا جَلدُه صَبْرُوا جَلْبَـــاب   مِمَّا نَاب كَاد تَنْشَق اجْنَـــابُ
-26

انْتَ بْغِيرْ وَصْفْ تَثْبَت لَكَ الكَمَــالْ　　لاَ النَّقْص عَنَّك يَنْفِي بِهَا يَا مُتَعَــالْ
لم يُنْصفُوكْ نَصْفًا قَوَّالْ ذَا المقَــالْ　　شَطرِي يقُولْ لْشَطْرِي أَنَا وَانْتَ كِلْتَــا
مَن قَـــــالْ هَـــــذَا فَـــادْرِي　　بِأَنُّو خَسِيسْ بَتًّا، انْتَ بِلاَ أَسَامِــي
أَسمَاؤُكَ الحُسْنَى فِي كُل اسْم دَمِّــي　　[مُحَال] أن نَرَى لُو مَعْنَى أوْ نَذْكُرَك بْفَمِّــي
(يَخْرَص يَعْمَـــى لَسْنَا) أو فِي الفُــــؤَاد ذَكْـــرِي　　كَذَا العِظَام سَكْتَا واسَّر سَرّ سَرِّي

كِـــــدتْ أن نْـــــكُـــون أنْـــــــتَ

27-
كَدْت أن نْكُـون المتقَــدَّم　　قَـــدْ غَبْــتْ فِي حْبِيبِــــي
حَــتَّى اضْمَـحَـل رَسْمِــي　　وابْـقِيــتْ فِي مْـغِيـــــبِي
أَن صِــرتْ ذَاتا باسْمِــي　　فِي حَــالة انْجِــــــــذَابِي
بـْلَغــــتْ لَمْـهَـمِّـي　　بـْلَغتْ اقْصَــا وَطْـــــرِي
لَيـــتَ انْجِــذَابِي لَيْتَــا　　لَـكَــان فِيـــه عُمْـــــرِي
يَسْلَكْ مْعَـــه فَلْتَــــا　　حَقَّقْــت فِيـــه سَلَّــــــم
يـَا مُــدَّعِــي بْفِقْــــه　　سَلَّـم عَسَــاك تَسْـلَــــم
لِمـَا جْهَلْــت عَنُّــه　　وإن فْـهَـمـتْ فَاعْـلَــــــم
مَا ذا نَحْــدُه مَنُّــــــه　　أعْــذَر (بِـكُل) عُـــــذره
مَن ذَاق مَـالاَ ذُقْـــت　　يَعظَــم لَدَيــكْ أَجْـــــرِي
إذا لموسَى دَعَــــــت

28-
فالله الله دُونَكْ وذَا الاسْـــــمْ　　لاَ يَضْحَى لَكْ حَظْ يَا مَتْبُــــولْ
او الذَّاتْ تْكُون حَدْ العِلْـــــمْ　　مْعَ الوَصْفْ وفِعْلْ يَا مَجْهُــولْ
أو المعْنَى ثمَّ حَدْ الرَّسْــــمْ　　كِيفْ رْوَاوْ سَادَتْنَا ذَا القَــــولْ
لَكِن مُوسَى زَاد للغَيْـــبْ　　أم الغِير الكُلْ هُوَ خَسْـــــرَا
كِيفْمَا ذكْرَه قَابَلْ التَّـــــوبْ　　فِي مَبْدَاهَا سُورَة البَقـــــرَا

29-
فالله الله دُونَكْ وذَا الاسْـــــمْ　　لاَ يَضْحَى لَكْ حَظْ يَا مَتْبُــــولْ
او الذَّاتْ تْكُون حَدْ العِلْـــــمْ　　مْعَ الوَصْفْ وفِعْلْ يَا مَجْهُــولْ
أو المعْنَى ثمَّ حَدْ الرَّسْــــمْ　　كِيفْ رْوَاوْ سَادَتْنَا ذَا القَــــولْ
لَكِن مُوسَى زَاد للغَيْـــبْ　　أم الغِير الكُلْ هُوَ خَسْـــــرَا
كِيفْمَا ذكْرَه قَابَلْ التَّـــــوبْ　　فِي مَبْدَاهَا سُورَة البَقـــــرَا

30- حَيَّــرْتَنِي فِي أَمْـــــرِي　　مُـذْ غِبْـتُ فِيـكَ حَتَّى
حَتَّى نَادَيْتَنِي فِي سِـرِّي　　مَن أَنْــتَ قُلْـتُ أَنْـتَ

31- هَلْمُّوا سَاعْدُو عَاشِقْ كَفِيفْ　　وَصُفُّـوا حَوْلَهْ يا خَيْـرَ أُمَّـــه

وضَجْرًا بالصَّلاَةْ عَلى الحَبِيبْ   صَلاَةً تَزْدَرِي سِواكُـم [كذا]
وهُزُّوا جَمْعُكُم واسْلُوا وَطِيبُوا   إذَا هَبَّت رِيَاحْ الشَّوقْ عمَــــا
تْعَالُوا كَي تَعُوا جوهَرْ نِشَاك   فِي مَدْحِي ازِينْ تَتْوِيج العْمَامَه
نْظِير زَبْحَر مَـدَى اجْتِهَـادِي   لَعَلِّي ازِيدْكُم فِيـه غَـرامًـا
يا أَهْل المصْطَفَى غَايَة مُرَادِي   افِيضُوا بالصَّلاَة عَلَيه سَـلاَمِي

-32 سِوَى بَحْر الـذَّات لرَمْسِي كَأَنِّي فِي مَـاهْ نَعْتْ ابْـرَا
ابْرَ مَلْحْ سْرِيعَـة الـذَّوْبْمَن أَنَا يا عَاقَل [كذا] تْرَا
رَئِيسِي الأَسْنَى ابنْ الذَّبِيح   طَـهَ نَسْـل أَرْحَـامْ آمْـنَـا

-33 مَــــا يَعْلَــــم الله غَيْــــرْ الله   تَعَالَى عَمّا تشَـا يَدْرِيــــــــه
مَنْشَــاه مَـا صَافَـشِي مَنْـشَــاه   كِيـفْ يَصِف حَقِيقَـة النَّاشِئَــه
كِيــفْ تَــرَاه بَصِيــــرَة لِي رَاه   هَــلْ هِي جَــــهْ وهُوَ جَــــهْ
فِي الِجهَــة والفَـرْقْ يَـاشَـغَـبْ   والجَمْعْ المجْمُوعْ هُـوَ الحَيْــــــرَا
يَـا كَيَّــتْ مَنْ لاَ مَــعَ سَلْــــب   يَسْلَـبْ جَمْـعْ الخَيـر لاَ غَيْــرَا

-34

انْتَ انْتَ قَدْ اكْفَاكْ اكْفَاكْ اكْفَـاكْ   يَـا مَـنْ لاَ يَكْفِيـه غَيْـرُ فِي دَابُ
تركَكْ مَعْرِفَــة وَعَرْفَانَـكْ تَرْكَــاكْ   لِّلي زَالْ عْلِيـه مَسْتُـورْ احْجَــابُ
غَايَبْ سْكُوتِي وسَكْتَـاهْ نَجْـوَاكْ   يُرَى سَاكَتْ وهُوَ فِي حَالْ اجْذَابُ
وَالَــهْ مَتْحَيَّرْ وحَيْرُوا فِي اطْنَـابُ   لَـوْلاَ مَا حْـلاَه صَبْـرُوا جَلْبَــابُ
مِمَّنْ نَابْ كَادْ تَنْشَقْ اجْنَابُ

-35 انْتَ لاَنْتَ شَاهَــــدْ   بأَنْ لاَ سِــــــــوَاكْ
فِي مُهْجَتِي يَا وَاحَــــدْ   وكُل أنْــــــــتَ ذَاكْ
امُوجَد الموَاجِيــــــدْ   فِي كُلّ شَــــيء أَرَاكْ
فِي الكَائِنَات طُــــرّا   وكُلْ مَا خْلَقْــــــتَ
إن خَاض فِيهَا فِكْــرِي   ليسَ أن نَرَى فِيهَا أنــتَ
أنتَ الذِي أرَاكَ بكُل كُلِّي   فِي كُل مَن سِــــــوَاكْ
ألسْتَ بمُجَلِّــــــــي   وكُل أنْــــــــتَ ذَاكْ
بَخ لما ظْهَــــــرْ لِي   اسِيدِي لعُمْــــــرِي
لُولاَ الشَّرع قَدْفُــــت   لَفَاض بِكْ بَحْــــــرِي
وقُلْت هَذَا أنْــــــتَ   مَوجُود أنت موجُـــودْ
عَنْدِي بِلَا بَرَاهِيــــنْ   كَمَا الدَّلِيلْ مَفْقُـــــودْ
فِي ذِهْنِي لَا مْعَايَــــنْ   اشَاهَدْ وَمَشْهُـــــــودْ
إنِّي نَرَاك بأَيْـــــــنْ   بِالاتِّبَاعْ أَثْـــــــرِي
تَنْتَجْ وتَـــــــأْتِي   بَلْ أنْتَ عَيـْن جُـزْئِـــي
مَبْهُوتْ فِيـكْ بَهْـتَـــا

-36 عْقِيــبْ حَيْرتَــهْ   انْتَ ومَنْ ذُو غَيْرَكْ

حَتَّى يجبــك عَـــنِّي　　مَنَّـك اليـكْ سُؤْلَكْ
مَنَّـكْ الجَوابْ يَثْـنِي　　الفَعْلْ كُلُّـه فَعْـلَكْ
والقَـوْلْ لَسَّـه مَنـِّي　　انْتَ لاَنْتَ تَـــدْرِي
انْتَ فانْــتَ انْــتَ　　إنْ فِي صَمْيمْ صَدْرِي
سِوَاكْ قُل لِي أنْتَ

37- جُـدّ الطَّلَــب وقُـــــل الله　　عَـلَّ يْكُـونُ لَــكْ فِي العَــــوْنْ
اذَا شَــاهَـدْتَــه تَعْيَـــــانْ　　احْذَرْ تَـرَاه بأَنْتَ تَضْحُـو شَيْئَـانْ
مُـتْ يـا حْلِيفْ ذِي الأَحْـزَان　　وآيَسْ عْلَى حْيَاتَك فِي ذِي المِوْتَانْ

38- لَسْتُ مُعَطِّلْ مُلْحِد جَاحَدْ　　ولاَ صَاحَبْ زِيْغ الاعْتِـزَالْ
وَلَا فِيَّ ضَـرْب مِن وَاحَـدْ　　نَيْفْ وسَبْعِينْ مِن رِجَـالْ
كُلّ رَجُل لُو مَذْهَبْ فَاسَدْ　　يْقَدَّمْ طَائِفْتَه قُدُوم اضْلَالْ
سِوَى بَحْر الذَّات لُو مُسْبِي　　كَان فِي مَـاه نَعْتْ إِبْـــرَا
إِبْرَا مَلْحْ سْرِيعَـةْ الــذَّوْبْ　　مَنْ أنَا يَا عَاقَـل؟ مُتْ تَـرَا

39- مُذَكِّرِي ذِكْـرَ الحَبِيـبِ　　لَسْـتُ كَمَـا أنتَ تَغِيـبُ
ارْجَـع تَكِرّ مِن رَقِيــبِ　　بِهِ أذن وَقْـــتِي يَطِيــبُ

40- قَدْ غِبْتْ فِي حْبِيـــــبِي　　حَتَّى اضْمَحَــلّ رَسْمِـي
وابْطَــأْت فِي مْغِيـــــبِي　　اِلَنْ صِرْتْ ذَأَتا باسْمِـي
فِي حَالَــــة انْجِـــذَابِي　　بْــلَغْـــتْ لَمْهَمِّـــــي
بْلَغْتْ اقْصَى وَطْــرِي　　لَيْتْ انْجِــذَابِي لَيْـــت
لَكَـانْ فِيه عُمْـــرِي　　يَسْلَــكْ مَعَــه فَلْتَــا
حَقَّقْت فِيــه سَلَّـــم　　يَــا مُـــدَّعِي بْفِقْـــه
سَلَّمْ عَسَاك تَسْلَــــمْ　　لِمَــا جْهَلْــت عَنُّــه
وإنْ فْهَمْـت فَاعْلَـــمْ　　مَــاذا نَجـــدُه مَنُّـــه
اعْـذَرْ بكُلْ عُــــذْر　　مَنْ ذَاقْ مَـا لَا ذُقْـت
يَعْظَم لَدَيْك أَجْـــرِي　　إذْالمُوسَى دَعَـــــت

41-

إذَا رَايْتَــــهْ باعْيَـــانْ احْـــذَرْ　　تَـــرَاه فَأَنْــتَ تَضْـحُوا شَيْئَـــانْ
مُـــتْ يَا حْلِيــفْ ذِي الاحْـزَانْ　　وَايَسْ عْلَى حْيَاتَكْ فِي ذِي المِوْتَـانْ
اكَـــانْ يَـا مُـــتْ يَا مَجْهُـــولْ　　مُـــتْ مْـعَـكْ لْبَـــارِيـــكْ
يَرْجَــعْ يْكُـونْ لَـكْ مَأْمُـــولْ　　بــالطْــمَـــعْ فِيـــهْ ليُحْيِيـــكْ
وَاكَانْ مَــاتْ مَــاتَتْ القَـــوْلْ　　ثَمَّ تَـــــرَاه دُونْ شْــــرِيـــكْ
تْـصَــفِّى عِبَـــادَة الأَوْثَـــــانْ　　بــالله لَاشْ تَـلْعَـنْ ذُو الأَوْثَـــانْ
واللَّعَــنْ فِيـــكْ لَقَـــدْ حَـــانْ　　مِمَّا دَامْ فِيهْ حَظَّكْ مَنُّه يَا شَهْـوَانْ

مَنْ رَا الَّا لَـــذَّة بِالشَّـهْــوَانْ   قَــدْ صَـــارْ عَبْـدْهَـــا لَادُونْ
ضْيَـــاهْ صَـــادَتْ دَعْـــــوَا   وَاخْمَـاجْ فِي العَقْـلْ وَاسْكُـــونْ
شُـوفُـوا القِيَامَـة يَسـوَى لُـو   خَالـقُـوا لِـــــذَا الغْبُـــونْ

42- رَئِيسِي الأَسْنَى ابنْ الذَّبِيــــحِ   طَهَ نَسْل ارْحَام آمْـــــــنَة
مِنْهَا حس ولَيْسَ مَعْنَى لصريح   بلْ مَعْنَاه كَان فِي حِيــــــن
حين كان الله فرْدًا صْرِيــــح   أَوَّل صْنَع رُوح نَبِيِّنَـــــــا
بَيْنْ كَاف وَنُون مُنْتَخَـــــب   أَو أَسْرَعُ ممَّا ذكرا طُـــــــرًّا
لابطُول كْلَام مَعَ غْضَـــــب   عَمَّرَ عِمْرَان السِّوَى طُـــــرًّا

-43
مِيمْ الجَمعْ هُوَ السَّـــــاسْ   يَا مَنْ نْشَاهْ زَاخَرْ نُـــــور
مَا لُو اعْقَابْ مَا لُـــو رَاسْ   مَا لُوا سْوَاحَـــلْ وَقْعُــــور
ثَمَّ حْيِيتْ مَنُّه انْفَـــــاسْ   فِي الأَزَلْ عَمْ ذَا المِعْمُــــور
عَمَّرْ جَمِيع ذَا العُمْــــرَان   ذَاكْ الذِي نْفَسْتْ يَاه الدَّيَّان
جَلَّ اثْنَاكْ مِن رَحْمَـــــانْ   بِكُن ولَيْسَ كَافْ ولَا تَنْـوَان
شَغَفْ فُؤَادَكْ حَيْـــــرَانْ بحُبْ مُجْتَبَاكْ مُحَمَّد يَا عَـــان

44- هَـذَا مُحمَّـــد عْلِيــــه الله   صَلَّى ذَاكْ الحِينْ ذَا الصَّلَاةْ
وَاقْبَـــل عَنُّـه ثُمَّ اجْتبَـــاه   واجْعَل رُوحُه رُوحِي للحَيَاةْ
تُحِيِي الموجُودَات فِي دُنْيَاه   وَفِي الأُخْرَى بَاعَثْ الأَمْوَاتْ
عَمَّـتْ الأَرْضِـين بالتُّـرَب   وانْبَتَــاتْ ورِيــحْ وَابْحُــورَا
واسْمَوَات اجْوَانَبْهَا سْحَابْ   والعَرْشْ وكُرْسِي ومَـا يَسْــرَا

-45
الاوَّلْ انْ تْكُونْ النَّــــــاسْ   فِي ذِي وذِيكْ يَا مَسْكِيــــنْ
عْلَى الصَّلَاة دُونْ انْفَـــــاسْ   عْلَى عْمُودْ هَذَا الدِّيـــــنْ
أَحْمَد أَخُو بَنِي العَبَّــــــاسْ   يَثْنُوا عْلِيهْ كُـلَّ حِيــــــنْ
يُرْضُـوا عَظِيمْ الامْتِنَـــــانْ   إذَا صَحَّا والمحبُوبْ خَدْمَـــانْ
وانْسَــاوْ ذَكْــرَه نِسْيَـــانْ   شَايَنْ يْصَادَفْهُم مَنُّه فِي اضْمَانْ
إذ انْسَــــاوْ تَذْكَــــــار   جْمَلْــتْ عْـــــــوَا لَمْ رَبِّي
بالاذْنْ مَنُّـه قَدْ صَــــــارُوا   فِي قَبْـضــتُو عْلَى كَسْـــبْ
مَـاذَا نَشَــاوْ نَخْتَــــــارْ   سِــوَا مَسَالَـــة حَسْـــــبْ
دُونَ الصْلَاة عَلَى العَدْنَـــان   شُغْلًا يَجمَعْهُم طُولْ أَمَدْ الازْمَانْ
هْنَـــا وهِيهْ يَــا فَـطـَّــــانْ   جِدْ وكِدْ دُونْ تْرَاخِي واعْفَـانْ
شَغَـــفْ فُـؤادَكْ حَيْــــرَانْ   بْحُبْ مُجتَبَاكْ مُحَمَّد يَا عَـــانْ

وَالثَّـــانِي فِي ذكْـــــرُ لاَ شْ   لَيَـــاشْ يَذكْـــرُواخَلْقُـــــوا
فَتَّشْــتْ فِيـه كُـلّ افْتَــــاشْ   دَقَّـــقْتَــــه أَيضًـــــــا دَقْ
وانْبَشْـتْ غَايَـــة التَّنْبَـــاشْ   حَتَّى وْقَـــفْـــتْ عَن حَــــقْ
صُبْتْ غَـــنِي عَظِيـــمْ الشَّـــانْ   لَيْسَانْ يْزِيدَه عْظِيمْ ذَكْر الفَـــانْ

وَلَا يْصَادَفْ نُقصَانْ   اذَا نْسَا الخَلْق ذَكْرُوا رَضَانْ

46-

صَلِّ عْلِيهْ يَارَوُوفْ   قَدْرْ الصَّلَاة مَنَّكْ لِيهْ
مَنْ قَبلْ خَلْقَهْ المعْرُوفْ   بَشْرَهْ ورُوحْ جُوزْ الْهِيهْ
مَنْ حَيثْ كَانْ نُورْ يْطُوفْ   فِي احْجُوبْ عِزْتَكْ تَجْبِيهْ
حَتَّى لْيُومْ الامْتِنَانْ   يُومْ انْ يْكُونْ فِيهْ شْفِيعْ العَصْيَانْ
ذَا الدَّهْر كِيفْ طَالْ أَوْ بَانْ   وهِي تْزَفْ عَنُّه شَتَّى الكْفَانْ
وهِيَ تْزَفْ كُلْ اوْقَاتْ   مُدَّةْ سْوَايَعْ أيَّامْ
عَنُّه مُبْهَجْ الصِّفَاتْ   رْحَمْتْ جْمِيعْ الأنَامْ
قَصْدِي جْمِيعْ ذِي الصَّلاةْ   كِيفْ مَا نَشَاتْ واسَّلاَمْ
فِي يُومْ تَنْحَصَرْ حُصْرَانْ   ومَا بْقَى مِن ايَامَاتْ ثَانْ
تَحْتَاجْ تَتْعَمَّرْ عُمْرَانْ   كَمِثْلْ ذَلَكْ اليُومْ اللُّورَانْ

47-

مِيمْ الجَمعْ هُوَ السَّاسْ   يَا مَن نْشَاهْ زَاخَر نُورْ
مَالُو اعْقَابْ مَا لُو رَاسْ   مَا لُو سْوَاحَل واقْعُورْ
ثَمَّ حْيِيتْ مَنُّه نْفَاسْ   فِي الأزَلْ عَمّ ذَا المعمُورْ
جْمِيع ذَا العُمْرَانْ   ذَاكْ الذي نَفْسَتْ يَاهْ الدَّيَّانْ
جَلَّ ثَنَاكْ مِنْ رَحْمَانْ   بِكُنْ ولَيْسَ كَافْ ولَا تَنْوَانْ

48-

تَعَالَى وتَجَلَّى ذُو الجَلَالْ   مِن نُورْ نَشْأَة المَاحِي نْشَاهَا
وزِيَاهَا بقَدْ واعْتِدَالْ   تْكَلّْ النَّاظْرِينْ اذَا تَرَاهَا
وحَلَّاهَا مجليَاتْ الجَمَالْ   لْذَا تُوا خَطْهَا ثُمَّ اصْطَفَاهَا
وجَلَّاهَا لتَكْوِينْ الإيجَادْ   بْجْمَعْ الجَمْعْ هِيَ يَااكْرَام
وقَال حْبِيبِي مَن بْهَاهْ العَرْشْ يَسْطَعْ   وفُسْحَاتْ السَّمَوَاتْ والأَرْضِينْ
ودَارْ الخُلْدْ بَجْمَالُه تَتْشَعْشَعْ   وحْوَارْ العِينْ يَجلِي بالمحَاسِينْ
مجْمَعْ الحُسْنْ فِي جْمَاهُمْ مجْمَّعْ   بَالحْاظْ سُودْ يسطَاوْ كالفْرَاعِينْ

49-

تَـــعَـــالَى وتَجَـــلَّى ذُو الجَـــلَالْ ... مِن نُورْ نَشْـــأَة المَـــاحِي نْشَاهَـــا
وزيـــاهَـــا بـقَـــدْ واعْتِـــدَالْ ... تْكَـــلْ النَّاظْـــرِينْ اذَا تَرَاهَـــا
وحَـــلَّاهَـــا مجـليَـــاتْ الجَـــمَـــالْ ... لْذَا تُـوا خَطْهَـــا ثُمَّ اصْطَفَاهَـــا
وجَـــلَّاهَـــا لتَـــكْوِيـــنْ الإيجَـــادْ ... بْجْمَـــعْ الجَمْـــعْ هِيَ يَااكْـــرَام
وقَال حْبِيـــبِي مَن بْهَـــاهْ العَـــرْش يَسْطَـــعْ ... وفُسْحَـــاتْ السَّمَـــوَاتْ والأَرْضِيـــنْ
ودَارْ الخُـــلْـــدْ بَجْـمَـــالُـــه تَتْشَعْشَـــعْ ... وحْـــوَارْ العِينْ يَجْلِـــي بالمَحَاسِيـــنْ
مجْمَـــعْ الحُسْـــنْ في جْمَاهُـــمْ مجْمَّـــعْ ... بَالْحَـــاظْ سُـــودْ يسطَـــاوْ كالفْـــرَاعيـــنْ

-50
تَـــعَـــالَى وتَجَـــلَّى ذُو الجَـــلَالْ ... مِن نُورْ نَشْـــأَة المَـــاحِي نْشَاهَـــا
وزيـــاهَـــا بـقَـــدْ واعْتِـــدَالْ ... تْكَـــلْ النَّاظْـــرِينْ اذَا تَرَاهَـــا
وحَـــلَّاهَـــا مجـليَـــاتْ الجَـــمَـــالْ ... لْذَا تُـوا خَطْهَـــا ثُمَّ اصْطَفَاهَـــا
وجَـــلَّاهَـــا لتَـــكْوِيـــنْ الإيجَـــادْ ... بْجْمَـــعْ الجَمْـــعْ هِيَ يَااكْـــرَام
وقَال حْبِيـــبِي مَن بْهَـــاهْ العَـــرْش يَسْطَـــعْ ... وفُسْحَـــاتْ السَّمَـــوَاتْ والأَرْضِيـــنْ
ودَارْ الخُـــلْـــدْ بَجْـمَـــالُـــه تَتْشَعْشَـــعْ ... وحْـــوَارْ العِينْ يَجْلِـــي بالمَحَاسِيـــنْ
مجْمَـــعْ الحُسْـــنْ في جْمَاهُـــمْ مجْمَّـــعْ ... بَالْحَـــاظْ سُـــودْ يسطَـــاوْ كالفْـــرَاعيـــنْ

-51
مُحَـــمَّـــد مَن مُحَـــمَّـــدْ قُـــلْ مُحَـــمَّـــد ... مَنْ نُـــورُه كَانَـــتْ جْمِيعْ العَـــوالَمْ
لُـــولَاهْ مَـــا تَـــرَى جُـــنـــدْ مْجَـــنَّـــد ... كَكُتُبَـــانْ المِلَايَـــكَ وابْـــنْ آدَمْ
ومَـــا فِي البَـــحْـــرْ والبَـــرْ المُـــمَـــرَّد ... فتَحْتْ التَّحْت للعَـــرْش المُعَظَّـــمْ
مِن نُـــورُه نَـقْـتَـبَـــسْ جْمِيـــعْ الإيـقَـــادْ ... كَضَوءْ الشَّمْـــسْ وبَدْرْ التَّمَـــامْ
وضْيَـــاءْ النَّجْـــمْ وامْصَـــابِيـــحْ العِبَـــادْ ... ولَمحْ البَـــرقْ إنْ لَاحْ فِي الظْـــلَامْ

-52

والحَشْرْ والمِيزَانْ والصِّرَاطْ   واللَّوحْ المحفُوظْ واسْطَارْ
والقَلَمْ المَعْلُومْ بالتَّخْطَاطْ   واضْمِيرْ وامْقَاصَدْ اشْوَارْ
والجَنَّة والنَّارْ بالتَّحْوَاطْ   وامْلَايَكْ اصْنَافْ واطْوَارْ
وأرضْ السَّاهَرْ لَهَا شُهُبْ   بَيْضَا كَان اقْلَاعْ مَنْ كَثْرَا
مَوقِفْ جَمْعْ اصْوَاحَبْ الجذْبْ   يَزْدَادُوا فِيهَا تَكْبّرَا

-53

الوَاحَدْ مِن ذَلِكْ العُشَّاقْ   يَعْدَلْ مَا سِوَاهْ مِن جِنْسْ
كُلْ رَجُل لُو نُور وإشْرَاق   مِنْ نُورْ أَحْمَدْ ذَاكْ القَبَسْ
يَكْشَفْ لُو عَنْ ذَاتْ لَمْ تُطَاقْ   أَنْ تَكْشَفْهَا آلَافْ شَمْسْ
نُورْ لَيْسَ مُوقَدْ لَهَبْ   لَا شَمْسْ الضْيَا لَاقَمْرَا
بَلْ هُوَ شَيْ رَائَقْ عَذْبَ   يَعْقَلْ بِهْ العَقْلْ مَاسْرَا
سِرّ سِرّ سَرَّهْ المِسْرُورْ   مَنْ سَرْنِي سِرْ سرّه
نُورْ نُورْ نُورْ كُل نُورْ   لَولَاه لَا نُورْ لَوْلَاهْ
شُورِي شُورِى كُلْ شُورْ   حَقَّقْ يَا مَغْرُورْ مَعْنَاهْ
تِلْكَ المعَانِي مَا لهَا حْسَبْ   دُونْ أَثَرْ أَتَتْ فَاطْمَه الزَّهْرَا
ولَا وَيْسْ ومَنْ لهَا أَبْ   سِتْ عَيْشَ الطَّاهْر المِطهرا

لَاحَظْهُم يَا صَاحْبِي الَاحْظَى   في مَفْنَاهُم في العَلِي القَدِيرْ
وأَهْلْ الصَّفَا مْصَدَّقْ الوَعْظَا   أَيْنَ هُم صَفْوَة البَشِيرْ
وعَبْد الله بَنْ عُمَر وَأَيْضًا   عُرْوَة بْنَ السَّيَّد الزُّبَيرْ
والبَصْرِي الرَّاغَبْ الرَّاهَبْ   المَغْمُور بْخَمْرَة الخَمْرَا
وَايْنْ التَّابْعِينْ بِالقُرْبْ   وَايْنَ هُم تُبَّاعْهُم أَثْرَا

54- صَدْرِي مْثَلَّثْ مِن الحَمَّى فَـرَّانْ   فَـرْنَا لَا يَـرْمِي شْـرَارْ وصَـهْـدْاهْـوَاه
اقْوَى مِن نِيرَانْ صْيَاب الصَّـوَّانْ   صَوَّانْ يَضْـحَى عْلَى البَـنْـيَـان ارْفَـاه
نَارِي مَاتَطْفَا مِن امْيَاه الوِيـدَانْ   ولَا يُطْفُوهَا شِـي اجْـلَاجَـلْ غَيْـث اسْمَـاه
الَا كَان نْشُوفْ طَهَ بُوزَيَّـانْ   سِيدِي سِيدِي العَـالَمْ الأَعْـلَـم واذْنَـاه
تَاجْ الرُّسُل المجتَبَى قُرَّةْ الَاعْيَـانْ   لَا وَغْلِى فِي عَـالَمَ الدُّنـيَـا مَـن رَآه
فِي حَرْبَا حَرْشَا مِن اصْحَابُ الاعْيَـان   بَابَـكْرْ وعُـمَـرْ وعُـثْـمَـانْ الأَوَّاه
واعَلِي سَيْفْ الله هَشَّامْ العُصْيَـان   طَلْحَة والـزُّبَـيـر ذَا السَّـادَاتْ مْـعَـاه
وابْن عَوفْ المرتَضَى عَبْد الرَّحْمَـن   بَعْـد مَا نَـذْكُـر سَـعِيـد أو سَعْـدَاه
ثُمَّ ابْنَ الجَرَّاحْ عَاشَرْ ذَا الفُرْسَـان   حَـمزَة والـعَـبَّـاسْ وَالـزَّهْـرَا بـاحْيَـاه
وَالسَّبْطَينْ الأَكْرَمِينْ اعْيَانْ ايمَـان   نَـشْفَـا مَـنْـهُـم دُونْ حُـكـمْ عْلَى الأنبَـاه
دُونْ مُعَارِض يَعْتَرَضْ لِي حَسْـدَان   حَاسَـد عِـشْـقِـي فِي مُحَـمَّـدْ واصَـحْـبَـاه

وَانَا وَالَهْ بالغْرَامْ كِمَا الضَّمْـآن   نَـرْوَا رَي يَجْـمَـعْ جِسْـمِـي وفِـكْـرَاه
قَبْل المِوتْ انْمُوتْ فِي حَيْرَا كَسْـدَان   عَـائِـق مِـن احْـبَـبْـتْ بَـانْ اخْـفَـاه
عَجَّلْ يَا رَبْ عْلِيَّ بمُلْقَـاه   مَا كَـانْ الـفَـاعَـل فِي الحَقِيـقَـة جَـلَّ الله

-55

تَأَوَّهْتُ مِن شَجْوَى ولا عَج مُهْجَـتِي   وَمَـا قَـد جَمـعَـانِي مِـن عـظِيـمِ صِـفَـاتِي
بِمَا حَلَّ بِي مِن صَوَارِمِ لَحْظِـه   غَـزَالًا تَجَـافِي بالـنَّـهَـارِ والجَـلَالَـةِ
جَلِيلٌ جَمِيلٌ يَخْجَلُ الحُسْن حُسْنَـهُ   شَـرِيـفٌ يَـلُـوحُ عَـنـهُ شَكْـلَ الملَاحَـةِ
يَرُشُّ فُتَاتَ المسْكِ عَن صَحْنِ خَـدِّهِ   ويُثْـنِي عَلَيـهِ بَـانَ كُـلّ طمَـاحَـةِ[كذا]
فَبِرضْوَان قَدْ حَلَّاه فِي زَيّ خُلْـدِهِ   وجِبْـرِيـل مُفْرِغ عَـنْـهُ تَـاج الكَـرَامَـةِ
يُنَادِ مُنِي فِي كُلِّ يومٍ عِقَـارَه   رَحِـيـقٌ مُخـتَّـم بِـكُـلِّ المـدَامَـةِ
آرَاه بِفِكْرِي كُلَّ حِينٍ وَسَاعَـةٍ   فَلَو غَـابَ عَـنِّي حَـانَ حِيـنَ قِيَـامَـتِي

-56

اللاَّ يَمْنِي لنُورَه رَايْتْ ضْيَاه   بْذَهْنِي سَاطَع ولَيْسَ يْغِيبْ
نَافِي عَنِّي حْلُوكْ جَهْلِي يَا مَبْهَاه   مَن شَخْصْ المِصْطَفَى مُحَمَّد ثَاقَبْ
جْمَعْ اعْضَايْ وكُلْ عُضو يَرَى مَعْنَاه   حَمْدا لَا يَنْقطَعْ دْوَامْ حِسِّي ومَعْنَاوِي وْسِرِّي
واعْلَان نَخْتَم بمْوَاقِيتْ السَّلَام   عْلَى المخْتَار مِن لُؤَي وعَدْنَان

-57

وَاينْ هُوَ هَوَارَى وَالْهِيتِي   وَايْنْ الشَّنْبُكِي مَعَ عُدَي
وَايْنْ هُوَ عَزَّار تَنْصِيبْتِي   مَهْمَى كُنتْ انْصُول لَفْظ وذِي
وَايْنْ الكَرْخِي تَقْوِيتِي   وَايْنْ هُوَ طَيْفُورْ والجِيلِي
(نَعْنِي) هُوَ(سِيدِي) عَبدْ القَادَر الصَّبْ   المِحْمِي في حَضْرَة الحَضْرَا
وَالجُنَيدْ والسَّرِي خْطِيبِي   والحَلاَّج مَعَهْ شَمسْ تَرَا

-58

مُوسَى الحَزِين ضَالْ   نُور الهُدَى يَاءال   مِن سِرَّه بَدَّالْ
مَا تَسَّمْعُوا مَقَالْ   مَالُه في ضَلاَلْ   ظَلْ اضْحَى في حَالْ كَأَنُّه مَحلاَلْ
هَنُّوهْ يَا رْجَالْ   هَنُّوهْ يَا سَادَاتْ   في مَبْلَغْ مِيقَاتْ، مِن قَدُّوا افْتَدَاتْ
قَبْل اتَّضَاحِيَاتْ   وَأيضًا لَه صَلاَةْ   قَبْل انْقِطَاعْ حَالْ، فَالكُل وَارِدَاتْ
هَجْرَانْ ووِصَالْ   اكَانْ ابْلَغ مَحْلاَلْ   هَنُّوهْ يَا رِجَالْ

-59

حَيَّرْتْنِي في أَمْرِي   مُذْ غِبْتْ   فِيكْ حَتَّى
نَادِيتْنِي في سِرِّي   مَن أنْتَ   قُلتْ أنْتَ

-60

قُومُوا اقْتْلُوا مُوسَى الاَحْمَقْ   يَا كُلْ مَنْ هُوَ بي مْحَدَّقْ
لَا يَنْطَقْ بْشِي يَحْرَقْ   مَا تَرْبحُوا شِي مِن رَبّ
إِذَا قَضَى رَبي نَحْبِي   هِيَ حْيَاتِي يَا قَلْبِي

-61

وَايْنْ بُوعَــــزَّى وبَلْعَبَّــــاسْ   وَايْنَ اللَّجَّـــائِي مَــعَ غَـــزْوَانْ
وَايْنْ ابَنْ عَبَّادْ صَاحَــبْ فَـــاسْ   وَايْنْ ابنْ حِرْزِهِــمْ الأَيْمَـــنْ
وَاينْ ابنْ مَشِّيــشْ يَا جُـــلاَّسْ   وَاينْ الشَّـــاذْلِي أَبُـــو الحَسَـــنْ
وَالزَّرُّوقْ غَامَـــقْ الكُتُـــبْ   عَنْ القَومْ حَسْـرِتِي حَسْـــرَا
امْحَمَّـــد بَنْ عُثْمَـــان وَالقُطْـــبْ   بَنْ عَبْدْ الله غَابَرْ الحَمْـــرَا

-62

وَاينْ الزَّيْتُــونِي وَابنْ يُونَـــسْ   مُولَى وَجْـــدَه سِيـــدِي يَحْـــيَ
وَاينْ اليَعْقُــوبِي وْمَـــا دْرَسْ   فِي نَدْرُومَــــه مَرْسَـــةْ الوَلْيَـــا
وَاينْ الغَوثِي وَاينْ هُــوَ المُخْلِــصْ   حَلْوِي شُــودِي صَاحَـــبْ العَلْيَـــا
وَايـــنْ الثَّعَالِــــبِي وخَـــرُّوبِي   آيْنْ هُـــو ابْنَ يُوسَـــفْ يَا فُقْـــرَا
وَاينْ الشَّلْفِي صَاحَـــبْ الحُـــوفِي   وَايـــنْ هُـــمْ صُـــلَّاحْ هَـــوَّارا

وَاينْ سِــــي مَعْــــزُوزْ وَاسْعَــادْ   أينْ هُـــمْ صَالْحِيــــنْ اغْرِيــــسْ
وَاينْ بَحْـــرْ العِلــــمْ وَازْهَــادْ   جَدِّي مُوسَــــى اللَّالْـــتِي الرَّيِيــسْ
وَاينْ مَن وْهَـــمْ أنْ بِهِ سَـــادْ   لُـــولَا أن بَاعْهُـــمْ ارْخِيــــصْ
لما أن قَـــدْ مَسُّوهْ بِالعْطَــبْ   عَطْبُوا مَنُّـــه الأَهْـــلْ وَ الجُـــورَا
قَالْ لهُمْ يَا نَـــاسْ خَلُّـــو نِي   رَاكُمْ مِـــنِّي بَيـــعْ دُونْ شْــــرَا

فهرس الموضوعات

قســـــم الدراســـة

ملخص:

تهدف الرسالة إلى إحياء نص تراثي جزائري تلمساني من القرن 11ه /17 يتمثل في مخطوط " كعبة الطائفين "(ج1)لمحمد بن سليمان التلمساني ،والمخطوط معدود ضمن كتب التصوف والمناقب ،منطلقه قصيدة شعبية صوفية نظمها شيخ المؤلف تدور حول الحب الإلهي والمديح النبوي ومناقب شيوخ التصوف ،وفي سياقه شرحه للقصيدة المذكورة تعرض المؤلف لجوانب مهمة من الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والتاريخية لتلمسان إبان الفترة التركية ،وتحديدا في القرن 17م .

ضمنا في القسم الأول دراسة مستفيضة عن المؤلف ومخطوطه، وفي قسمها الثاني قمنا بإخراج نص المخطوط مضبوطا ميسرا مقروءا، وأغنيناه بهوامش متنوعة توضح معناه وتقرب مراميه، وذيلناها في قسمها الثالث بفهارس لأبرز المواد الواردة فيها.

الكلمات المفتاحية :

التحقيق - التصوف - الأدب الشعبي - التراجم - تلمسان (ق 17م)

Résumé :

Cette recherche vise à authentifier un texte (manuscrit) du patrimoine algérien de Tlemcen. Il s'agit d'un manuscrit de Mohammed Ibn Soleimane Altilimsani écrit au XI^{ème} siècle de l'hégire, XVII^{ème} siècle de l'ère chrétienne). Ce texte est classé parmi des ouvrages du soufisme et la littérature des manakib. Il articulé autour d'un poème populaire soufi portant sur l'amour divin, l'éloge du prophète (SBSL) ainsi que la morale et les qualités des Maîtres ou « Cheikhs » Soufis. Dans son explication du poème, l'auteur révèle d'importants aspects de la vie culturelle, politique et historique de la région de Tlemcen pendant la période ottomane XVII^{ème} siècle.

Le premier chapitre porte, de façon détaillée, sur l'auteur et son manuscrit. Dans le deuxième chapitre, nous avons tenté d'authentifier le texte afin de rendre lisible et intelligible. Nous l'avons également commenté et enrichi par des notes explicatives et des index facilitant la consultation de son contenu

Mots clés : Authentification – Soufisme – Littérature populaire – Biographies – Tlemcen (XVII^{ème} siècle).

Abstract :

This thesis aims to revive an Algerian heritage manuscript that belongs to the XIth century (Hegira or XVIIth century).It deals with the first part of "KAABAT AL TAIFINE" manuscript written by Mohammed Ibn Soleiman Altilimsani. This manuscript is regarded as one of the mystical ethical books based on a mystical popular poem that speaks about love of God and eulogy of the prophet. The poem also reflects other important cultural, social, historical and political aspects of life in Tlemcen during the Turkish period (XVIIth century).

The first chapter includes a detailed study of the author as well as the manuscript. The manuscript is being printed, simplified and explained clearly in the second chapter through footnotes. The third chapter of the thesis contains a glossary of the main important articles of the manuscript.

Keywords : Authentication – Sufism – popular Literature – Biographies – Tlemcen (XVIIth century).

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ وعلم الآثار

تخصص أدب شعبي شعبة الثقافة الشعبية

ملخص رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

في الأدب الشعبي بعنوان:

(ج1) كعبة الطائفين

لمحمد بن سليمان الصائم التلمساني

- تقديم وتحقيق-

إشراف الأستاذ الدكتور:

- شايف عكاشة

إعداد الطالب:

قيداري قويدر

السنة الجامعية 2013/2012

الملخص

تحتل مدينة تلمسان مكانا متميزا في قلب كل جزائري، فهي دار علم وفقه وتصوف وسياسة، وهي لذلك إحدى الحواضر الإسلامية الشهيرة، وقد أسهم أبناؤها بقسط وافر في نشر الثقافة العربية الإسلامية في مناطق مختلفة من المعمورة، منهم من تبوأ أعلى المراتب العلمية.

وقد أهّلها موقعها الإستراتيجي -باعتبارها ملتقى الصحراء بالتل- وواجهتها البحرية، لتكون دوما مرسى السفن الأندلسية، وممر التجار والملوك والأمراء، ومحط الرحال والترحال ومقصد العلماء والرجال، فكانت منذ القديم غاية العلماء وقبلة الصالحين، يكاد العلم ينبع من أضرحة علمائها ومقامات أوليائها ومزارات صلحائها الذين تستضيء مدينة تلمسان بأنوارهم ومآثرهم وعبق عرفانهم وعبير حكمهم.

ومن معدن هؤلاء الصالحين الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بـ " الجزولي" مؤلف كتاب «كعبة الطائفين» الذي نتشرف كثيرا بتقديمه ودراسته وتحقيقه، وإحياء نصه التراثي ووضعه بين يدي القراء والباحثين من خلال هذا العمل الأكاديمي.

وجدير بالذكر أن منطلق كتاب «كعبة الطائفين» قصيدة شعرية شعبية صوفية، نظمها شيخ المؤلف موسى بن علي اللالتي، أحد صوفية تلمسان وشعرائها في القرن (11هـ/ 17م)، سماها ناظمها قصيدة " حزب العارفين"، عهد بها إلى تلميذه محمد بن سليمان وأكد عليه بكتابتها وحفظها وتدبيجها بشرح يقرب معانيها ويكشف غوامضها ويبرز جواهرها.

يمثل كتاب «كعبة الطائفين» اهتمام أهل تلمسان بكتابة تاريخهم ومآثر أعلامهم وتدوين ثقافتهم الصوفية وأدبهم الشعبي في فترة من فترات تاريخ الجزائر العثمانية، وتحديدا في بحر القرن (11هـ/17م) الذي اتّسم عموما بالاضطراب السياسي والاجتماعي، والركود العلمي وقلة الإنتاج والكتابة، والكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء ضخام، سنعكف من خلال هذا الجهد على تقديم الجزء الأول منه وتحقيقه، وهو يقع في ستمائة وثلاث عشرة صفحة (613ص)، خصصه مؤلفه للحديث عن أهل الصلاح، والجزء الثاني أفرده لذكر أهل الطلاح، أما الجزء الثالث فانبرى فيه لذكر أهل الصلاح المتحققين أو كما سماهم " حزب العارفين"، ويشار هاهنا أنه أمضى في تصنيف كتابه قرابة عشرين سنة.

- أما من حيث مضمون الكتاب، فقد تعرض المؤلف محمد بن سليمان في سياق شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي " حزب العارفين " إلى موضوعات مختلفة، فبالإضافة إلى المقصد الأول للكتاب وهو التصوف والمناقب

والتراجم ، يمثل خزانة علمية في مجالات عديدة، منها: الأدب الشعبي، التاريخ، الفقه، التفسير، العقيدة، علم الكلام، الأنثروبولوجيا، السياسة، العمران..

*لم نعثر على ترجمة محمد بن سليمان الصائم التلمساني، صاحب كتاب "كعبة الطائفين"، في كتب التراجم الكثيرة التي عُدنا إليها، وعليه ترجمنا له اعتمادا على ما أورده المؤلف نفسه من معلومات متناثرة في صفحات كتابه بأجزائه الثلاثة، فقد ذكر اسمه ونسبه ولقبه وتاريخ ولادته ومساره العلمي وشيوخه.

يفيدنا المؤلف محمد بن سليمان في آخر الجزء الثالث من كتابه "كعبة الطائفين" أنه من مواليد سنة 1014هـ/1605م، ولا ندري متى توفي على وجه التحقيق، ولكن من خلال ما ورد في كتابه من إشارات وتواريخ، نستنتج أن المؤلف كان حيا إلى سنة 1066هـ/1656م فهذه السنة هي آخر تاريخ يذكره المؤلف في كتابه، وربما يكون المؤلف قد عاش إلى أواخر القرن 11هـ/17م.

عُرف المؤلف بـ "الجزولي" تيمنا وتبرّكا بالشيخ الصوفي المعروف صاحب كتاب «دلائل الخيرات» أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، وصرح المؤلف كذا من مرة في كتابه بهذه النسبة.

* أما عن أسرته، فهناك أخبارا كثيرة متناثرة في صفحات كتابه، تتعلق بوالده، وله فيها حظ وافر، وأمه، وإخوته، ولشقيقه محمد القاضي منهم النصيب الأكبر، وأبناء عمومته..،عاشت أسرة المؤلف بحاضرة تلمسان في القرن11هـ/17م، ويبدو أن والده كان يسكن البادية، واستقر بتلمسان، وكان ميسورا، بل كان من الأغنياء الذين يتخذون لهم الخدم والحشم، يخبرنا المؤلف أن والده سليمان يلقب بـ (الصائم)، وقد زهد في ثروته وجاهه بعد توبته، وخالط أهل العلم والتصوف، وكرس حياته للقرآن والعلوم الدينية، وحج وجاهد وسهر على تربية ابنه (المؤلف)، تربية دينية صوفية.

في هذه البيئة العائلية الصالحة التي تحترم أهل الولاية والصلاح والعلم، نشأ المؤلف محمد بن سليمان، فكانت نظرته للحياة والرجال تتجه في المقام الأول إلى الجانب الروحي.

* يمدنا كتاب "كعبة الطائفين" بقائمة طويلة من أسماء الشيوخ والعلماء والصلحاء الذين أخذ عنهم المؤلف كثيرا أو قليلا، أو لازمهم زمنا طال أم قصر، أو التقاهم عرضا، أو أخذ عنهم بواسطة، وقد ذكرنا بعضهم، مع ما هو متاح لدينا من معلومات عن كل واحد منهم، وركزنا على أشياخه الثلاثة الذين كان المؤلف يلازمهم ويصحبهم، وهم: سيدي موسى اللالّتي، صاحب قصيدة (حزب العارفين) موضوع الكتاب، وسيدي العبدلي، وسيدي بن صابر.

* من حيث المستوى الثقافي والمعارف العلمية، يبدو لنا المؤلف من خلال تكوينه المعرفي أولا، وما حفل به كتابه من مادة ضخمة ومتنوعة ثانيا، ذو ثروة أدبية واسعة، وثقافة دينية(فقهية وصوفية) وافرة ومتجذرة، فالمؤلف كان إماما في مسجد باب الجياد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان صوفيا متفاعلا مع الحركة الصوفية والثقافية في وقته (ق11هـ/17م)، متأثرا بها ومؤثرا، وعلى اتصال مستمر بعلمائها وأوليائها ودراويشها، وكان له حُظوة لدى أغلبهم.

- كان للمؤلف اطلاعا متميزا على كتب التاريخ والمصادر الفقهية والصوفية وغيرها، هذا ما تؤكده اقتباساته الكثيرة، وللمؤلف أيضا اقتباسات كثيرة ومتكررة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات مخطوطه من هذين المصدرين.
- لكن رغم هذا الثراء والتنوع الذي نلمحه في نشأته العلمية، إلاّ أننا لا نستطيع الجزم بأن المؤلف محمد بن سليمان كان عالما بأتم معنى الكلمة، بل كانت تربيته صوفية، له تكوين متين في هذا الجانب، ومطّلعا على مصادر كثيرة في التصوف والفقه والتاريخ...
- ثقافته هي ثقافة معاصريه، يغلب عليها الطابع الصوفي ويقل فيها الإبداع، شأن الجو الثقافي العام السائد في بلادنا بعامة، وتلمسان بخاصة في ق17م، حيث اكتفى العلماء آنذاك بدراسة أعمال السابقين، بنظرة يغلب عليها التقديس المفرط، فكثرت الشروحات والمختصرات في أعمالهم، كما هو حال كتاب «كعبة الطائفين» موضوع بحثنا، الذي انبرى فيه المؤلف لشرح قصيدة شعبية صوفية لشيخه موسى بن علي اللالتي، مصبغا عليها كثيرا من الهالة والقدسية.
- اتسمت ثقافته بالمحلية (تلقيا وقراءة) إلى حد بعيد، فقد التهم المؤلف كتب الشيخ السنوسي لاسيما "العقائد" حفظا ودراية، وأتقن القراءة بورش رسما ورواية، وتمكن من مختصر خليل والأجرومية والقرطبية ورسالة أبي يزيد، وتفسير الثعالبي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي، ومختصر بن الحاجب، والتلمسانية، وكتب عبد الرحمن الأخضري... لهذا نقول أن ثقافة المؤلف في عمومها يرتبط النصيب الأكبر منها بالثقافة المحلية.
- ينبئنا كتاب «كعبة الطائفين» بغزارة ثقافة صاحبه، حيث تبدو ظاهرة الجمع بين عدة علوم ومعارف بادية للعيان، - وإن كان منطلقه صوفيا كما أسلفنا — ففيه الأخبار والأنساب والتراجم والمناقب، والتفسير والفقه والحديث، وعلم الحروف والجداول، والأمثال والحكم والشعر الفصيح والشعبي، والحكايات والنوادر والطرائف، والكرامات والرؤى، والاستطرادات المتنوعة، وما ضخامة الكتاب بأجزائه الثلاثة إلا دليلا على هذا المسار الذي سلكه.
- تتجلى في المؤلف ظاهرة الحفظ، فيبدو أنه كان يمتلك ذاكرة قوية، استوعبت الأعلام بأسمائها وألقابها وكنياتها وتواريخها، واستوعبت كثيرا من معارف عصرها، وهذا ليس غريبا على المؤلف فقد عرفناه كما سلف يحفظ القرآن بروايتين، فظلا عن الاجرومية والقرطبية وعقائد السنوسية، فقد كان رحمه الله حافظا من الطراز الأول.

* المؤلف كان شيخا متصوفا، محبا للأولياء والصالحين، مشتغلا بالممارسات الصوفية، منكبًّا على تهذيب النفس بالمجاهدة والرياضات الروحية، فقد صافح أو شبّك يده مع كثير من الأولياء والصالحين من شيوخ التصوف وناولوه السبحة والأوراد والأذكار، وأخبرنا أيضا أنه كان يعتكف مع شيخه اللالتي في الكثير من المساجد والمقامات.

انتسب المؤلف إلى الطريقة الشاذلية (نسبة لأبي الحسن الشاذلي) على يد شيخه سيدي بلقاسم بن موسى المدعو بن صابر، وهو أخذ عن الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ)، عن سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي، عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني الشيخ الكامل والقطب الواصل.

يبدو المؤلف في كتابه ممن يَمُجُّون التصوف المنحرف، فهو يدعو صراحة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، في عصر غلب عليه الفكر السطحي والدروشة والدجل، وادّعاء الولاية صدقا أو كذبا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينقل لنا المؤلف كثيرا من المرائي الصوفية والكرامات والحكايات الممزوجة بالأساطير، بكثير من السذاجة أحيانا.

في كتاب « كعبة الطائفين» مواقف كثيرة للمؤلف محمد بن سليمان حول بعض القضايا السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية التي طبعت المجتمع التلمساني في القرن 11هـ/17م.

* فيما يخص الشعر يطلعنا محمد بن سليمان على أشعار غزيرة، بالفصيح والشعبي، أكثرها في مجال التصوف وما يرتبط به من رقائق وعظ ونصح ومديح ومناقب، وبعضه الآخر فيما يمكن أن نسميه بالشعر السياسي الوطني، يستنهض من خلاله همم الناس لأجل تغيير وضعها السياسي المتأزم في ذلك الوقت، خاصة من أجل تحرير وهران التي كانت تحت الاحتلال الإسباني.

* أما فيما يخص التأليف، فقد أشار محمد بن سليمان إلى مؤلفات أخرى إضافة إلى كتابه « كعبة الطائفين»، لكننا لم نستطيع الحصول عليها في الوقت الحالي:

- التأليف الأول أشار إليه في معرض حديثه عن فوائد الذكر بأسماء الله الحسنى، حيث ذكر أن له تأليف حول اسمي الله تعالى: «الحي القيوم».
- وأشار إلى تأليف ثان، وأظنه شرحا لإحدى قصائده الشعرية سمّاه: « مفتاح كنز الأسرار ومصباح زجاجة الأنوار المفاضان من ميزابي كوثر بركة الاعتكاف والأذكار»، وقال أنه مكث في تصنيفه عشرون سنة، ويبدو أن موضوعه في التصوف.

وذكر له تأليف ثالث، قال أنه بقي في تأليفه عشر سنوات، حيث أتمه سنة 1066هـ، وسمّاه: « حياة القلوب وقوت الأرواح في عمارة الدارين وأوراد المساء والصباح».

* من المعروف أن المؤلف محمد بن سليمان صاحب «كعبة الطائفين» عاش في القرن 11هـ/17م، وكان قد مضى على الحكم العثماني في تلمسان آنذاك حوالي نصف قرن، واختفت الدولة الزيانية بصفة نهائية على يد الأتراك عام 1556م، الذين ألحقوا تلمسان وإقليمها بحكومة الجزائر المركزية، وهو العام الذي اكتمل فيه الاستيلاء التركي العام على الوطن الجزائري.

* هناك ثلاثة عوامل خارجية أثّرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال العهد العثماني، الأول هجرة الأندلسيين التي بدأت خلال القرن التاسع وتقوّت خلال العاشر، والثاني الوجود العثماني نفسه، والثالث هو الوجود المسيحي واليهودي.

تكاد المؤسسات الثقافية في العهد العثماني لا تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية، و تذكر المصادر أنه كان بتلمسان في آخر العهد العثماني خمسون مسجدا، منها جامع سيدي بومدين والجامع الكبير وجامع محمد السنوسي وجامع بن زكري وجامع أولاد الإمام وجامع المشور.

كان التعليم منتشرا تبعا لذلك في المساجد والزوايا وبعض المدارس، حيث تقام فيها حلق الدروس أو مجالس الإقراء، فكان كل شيخ مشهور سواء في المدرسة أو الجامع أو الزاوية، هو المرجع أو المنبع الذي يلتف حوله طلبة العلم يتغذّون منه روحيا وعقليا.

كما كانت بتلمسان عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس، أو بالزهد والتصوف، أخبرنا المؤلف محمد بن سليمان عن عدد منهم، كعائلة المقرّي، والسنوسي، وابن مريم المديوني، فكانوا أيضا مراجع علمية وثقافية للتلمسانيين، بما حوته بيوتهم من مصنفات نفيسة، وبما وعته صدورهم من معارف وعلوم رواية ودراية.

الملاحظ على علماء القرن 11هـ/17م بتلمسان قلة العناية بالتأليف مقارنة بالقرن التاسع والعاشر، ربما ذلك يعكس بساطة المعرفة والثقافة عند هذا الجيل من المشايخ والعلماء، فأغلب طلبة العلم كانوا يكتفون بقليل من العلم لأجل تولّي بعض المناصب الشرعية، وكأني بهذا الجيل كان يعيش فقط على تراث القرن التاسع، جيل الشيخ السنوسي وغيره، يتغذّى من معينه، ويتبرّك به وبأعلامه، ومعروف أنه كان لتلمسان رصيد ضخم من الثقافة في مختلف المستويات ورثته عن العهد الزياني، وعرفه القرن التاسع(15م)، وكثير من هذا الإنتاج ظل موضع عناية علماء القرون اللاحقة شرحا وتعليقا ودراسة.

* العصر التركي في الجزائر هو عصر التصوف بامتياز وتبعا لذلك كثرت كتب "المناقب" ويمكننا إدراج كتاب «كعبة الطائفين» في سياق كتب المناقب، لما احتوى عليه من ذكرٍ لمناقب الصالحين والعلماء وخصالهم وسيرهم، فقد تحدث المؤلف محمد بن سليمان عن عدد كبير من رجال التصوف والعلماء التلمسانيين والجزائريين والمسلمين عموما

في القرن 17م بشكل خاص – وهو قرن يعتبر فقيرا من حيث التراجم الجزائرية–، والكتاب من هذا الجانب يدخل ضمن أعمال المناقب بكل تأكيد.

* وهناك ظاهرة ثقافية أخرى شغلت العلماء والمشايخ في العصر التركي، هي "الشروح الصوفية" –على غرار الشروح الفقهية والنحوية، وهنا أيضا يتقاطع عمل محمد بن سليمان مع هذا النوع من الأعمال الصوفية التي اهتمّت بالشروح، لأن منطلق كتابه –كما نعلم – قصيدة شعبية صوفية نظمها شيخه موسى اللالتي تسمّى " حزب العارفين"، والتي انبرى لها المؤلف بالشرح والتعليق.

* صرح المؤلف محمد بن سليمان في مقدمة كتابه بالعنوان الذي ارتضاه لمصَنَّفِه، فقال: « سمّيته: "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين"»، وبهذه التسمية نفسها ورد هذا المخطوط في كتاب: «إيضاح المكنون» الذي سلف ذكره، غير أننا نجد المؤلف في آخر الجزء الثالث يذكر عنوانا آخر لعمله، وهو:«الديوان الجامع لشرحي تحليل التعقيد وتكميل التقييد »،والمؤلف يصف عمله في صفحات كثيرة من كتابه بأجزائه بـ (الشرح الرشيد)، أو (الشرح المبارك).

تتفق كل النسخ التي جمعناها من مكتبات مختلفة على صحة نسبة كتاب « كعبة الطائفين» إلى مؤلفه محمد بن سليمان الصائم التلمساني، الملقب بـ (الجزولي)، أشار كتاب« إيضاح المكنون» أيضا إلى صحة هذه النسبة، كما تحقق من ذلك أيضا د/ أبو القاسم سعد الله في دراسته التي قدمها عن المخطوط.

صرح المؤلف نفسه في أواخر الجزء الثالث من كتابه بتاريخ فراغه من تأليفه –وهو سنة: 1054ه ،وجدير بالذكر أن المؤلف يذكر أيضا تاريخين متأخرين عن ذلك الذي صرح به في كتابه، الأول عند حديثه عن الوباء والجراد الذي حلّ بهم، وهو سنة 1058هـ، وأما التاريخ الثاني فقد ذكره في معرض حديثه عن تأليف آخر له سنة 1066هـ.

* إذا نظرنا فيما يتصل باللغة والأسلوب، فالمخطوط يتميز بشكل خاص بطريقة السرد التقليدية التي يغلب عليها الاستطرادات الكثيرة، أما لغته فتبدو واضحة؛ لكنها بسيطة لا تخلو في بعض الأحيان من ضعف وركاكة في التعبير ومخالفة قواعد اللغة العربية، فضلا عن استعماله للكلمات العامية، وليس الأمر غريبا، فمنطلق المخطوط وموضوعه قصيدة شعبية، كما أسلفنا.

وصاحب المخطوط يعكس لغة عصره وثقافة بيئته، من استعمال مفرط للمحسنات البديعية، ولو كان في ذلك تكلف، حيث تكثر ظاهرة السجع كأداة تعبير (ينظر مثلا عنوان المخطوط)، ولو أدى ذلك إلى الإفراط في المترادفات دون غاية بلاغية واضحة.

* أما فيما يخص لغة تلك القصائد الشعرية التي نظمها شيخ المؤلف موسى اللالتي فإننا نجد تفاوتا في مستواها اللغوي بين قصيدة وأخرى، لكن يبقى المعجم الصوفي هو الأساس الذي اتكأ الشاعر عليه في سياق عرض أفكاره، ونقل تجربته الشعرية.

وفي هذا الإطار يمكننا تسجيل ملاحظتين:

- تظهر لغة الشاعر في بعض مستوياتها على شكل لغة تقريرية مباشرة، تنسجم مع ثقافة العصر ومستوى أهله.

وأحيانا أخرى تتصاعد لغة الشاعر لتتعانق مع الرمزية الصوفية البعيدة الغور، بل تصبح في أحايين كثيرة عبارة عن طلاسم تحتاج من يفك رموزها، وإن كان عدد نصوص هذا النوع قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

* افتتح المؤلف كتابه بمقدمة نقلها حرفيا عن أبي حامد الغزالي، وردت في أحد أبواب كتابه «الإحياء»(باب المحبة والشوق والأنس والرضا) ، وما فعل ذلك إلاّ تبركا وتيمنا بكلام الغزالي، كما زعم، ثم صرح بالتسمية التي ارتضاها لكتابه، وأشار بعد ذلك إلى الغرض من هذا التأليف.

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء (أسفار):

1 -الجزء الأول: في ذكر أهل الصلاح؛

2-الجزء الثاني: في ذكر أهل الطلاح؛

3-الجزء الثالث: في ذكر أهل الصلاح المتحققين، "حزب العارفين

* يبدو المؤلف من خلال شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي في كتابه هذا متأثرا بمن سبقه في هذا اللون من التأليف، ومحاكيا لهم، إن جمعا أو شرحا، وإن اختلفت الميادين نسبيا، والمؤلف عاش في عصر التصوف وعناية العلماء بالشروح والإشادة بالكرامات وسير الأولياء، وقد أشار المؤلف في صدد هذا إلى عملين، نعتقد أنهما كانا الملهمان له للقيام بهذا التأليف، وإن لم يصرح بذلك:

العمل الأول: يتمثل في كتاب «تحفة الناظر ونزهة المناظر» لمحمد الفراوسني، المعروف بالزواوي، وهو نوع من الانتاج الصوفي يسمونه (المرائي)، يروي فيها الشخص رؤيته للنبي ρ أو للصالحين، حيث تكثر فيها التوجيهات والوصايا، وتجمع بعد ذلك في كتاب أو رسالة.

أشار المؤلف محمد بن سليمان أن كتاب (تحفة الناظر) هذا، جمعه تلميذ الزواوي المذكور سماعا –ولم يسمّه–، ثم نسخ على يديه، امتثالا لرغبة شيخه، واعتبر عمله —كعبة الطائفين– محاكاة لعمل تلميذ الشيخ الزواوي، فقد جمع محمد بن سليمان أيضا قصيدة شيخه، وشرحها في كتابه «كعبة الطائفين» نزولا عند رغبة شيخه وامتثالا لتوجيهات شيخه أيضا.

العمل الثاني: وهو الذي قام به تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» عبد العزيز الحرار المعروف بـ (التَّبَّاع)، حيث أمره شيخه المذكور بشرح كتابه «المقامات السبع» المعروفة بـ (رحبة الأمان)،«لإظهار سر الله لأهله»، وقد ساق المؤلف هذه القصة، وأشار في عدة مناسبات أنه امتثل هو أيضا أمر شيخه موسى اللالتي الذى رشحه للقيام بشرح قصيدته "حزب العارفين"، موضوع هذا الكتاب، ورغّبه في ذلك.

* يسير المؤلف في شرح قصائد شيخه بيتا بيتا أو مقطعا مقطعا أو كلمة كلمة، ويطيل شرحه، فهو ينهج نهج طريقة شرح المتون، ويمكننا تقسيم شرحه من الناحية الفنية إلى ثلاثة أقسام:

- قسم التفسير اللفظي،
- قسم التفسير الأدبي،
- قسم التأويل الصوفي لتلك النصوص الشعرية الشعبية، وهو قطب الرحى الذي يدور حوله الكتاب.

* من حيث قيمة المخطوط وأهميته، يتضح لنا مما سبق أن هذا المخطوط ينقسم إلى قسمين:

- قسم يبدو أن المؤلف لم يأتي فيه بجديد، فهو عبارة عن حشد هائل لنصوص وأقوال واقتباسات لمن سبقه من العلماء والصوفية والفقهاء، إلى حد الاستطراد الثقيل، أورد كلامهم في سياق شرحه لقصيدة شيخه موسى اللالتي الموسومة «حزب العارفين»، وتعزيزا لما تتضمّنه من رقائق وحقائق، وآراء آمن بها ناظمها.

- وقسم سجل فيه المؤلف مشاهداته واحتكاكه بالأولياء والصلحاء بتلمسان وغيرها من المناطق، ورصد فيه بعض آرائه فيما يخص القضايا التي عاصرها، والأحداث التي عايشها، وهذا القسم في نظرنا هو الذي يعطي للمخطوط أهميته.

* من حيث المادة التاريخية، يتناول الكتاب فترة طويلة من تاريخ الجزائر في ظل الحكم العثماني (ق17م) لاسيما في تلمسان والنواحي الغربية لبلادنا بعامة، هذه الفترة التي تتميز في نظر كثير من المؤرخين بنقص الكتابات حولها وحول أعلامها، في هذا الصدد أشار الكتاب إلى ثورتي أهالي تلمسان ضد السلطة التركية (1035هـ و1037هـ)، وذكر الكوارث (الوباء) التي فتكت بكثير من أعلام تلمسان وساكنتها، كما يقدم الكتاب صورة واضحة عن أعلام تلمسان (صوفية وفقهاء) في (ق17م).

* فإذا تجاوزنا المادة التاريخية التي يتضمنها الكتاب إلى النظر فيما يتصل بالأدب الشعبي الجزائري، فهو يمثل سجلا حيا وضخما لتراثنا الشفوي في هذا القرن (الشعر الشعبي ذو النزعة الصوفية، الأمثال الشعبية، الحكايات الشعبية الصوفية "الكرامات، المرائي" ...)

* أما من حيث المادة الصوفية، فكتاب «كعبة الطائفين» معدود أصلا في طليعة كتب التصوف والمناقب، فهو معرض للمصادر الصوفية المحلية منها والإسلامية بعضها لا يزال مفقودا أو غير محقق، وللممارسات الصوفية (حلقات الحضرة "مجالس السماع الصوفي"، الأوراد والأحزاب والمناجاة الصوفية، والأسانيد العلمية والصوفية...)

* من حيث المادة الثقافية، يقدم الكتاب مادة مهمة للباحثين في مجال الحركة الثقافية والعلمية في (ق17م)، إذ يشير إلى طبيعة النشاط العلمي والديني بتلمسان، وإلى دور المؤسسات الدينية والتعليمية، والمصنفات الصوفية والدينية المتداولة بين أهل العلم، والكتب المقررة التي كان يتداولها طلبة العلم.

* على مستوى الجوانب الاجتماعية والأنثروبولوجية، يتضمن الكتاب معلومات عن تركيبة المجتمع التلمساني بإيجابياتها وسلبياتها، وبعض عوائدهم وأسلوب حياتهم، وشيئا من لهجتهم ولباسهم وأطعمتهم وحرفهم وقبائلهم، ويسجل لنا أيضا مدى ارتباط المجتمع التلمساني بأوليائه وعلمائه، كما يطلعنا بدور هؤلاء الشيوخ في مجال التكافل الاجتماعي.

اعتمد المؤلف في تدوين مادة كتابه (في جزئه الأول) على قائمة متنوعة من المصادر، بعضها كان معاصرا لها أوقريبا منها زمنيا، ناهيك عن مصادره الشفوية، أورد كذلك مادة لا بأس بها من الأوراد الشاذلية بصفة خاصة، والأذكار والأحزاب الصوفية بصفة عامة، وقد نالت كتب التصوف عموما حصة الأسد في مصادر المؤلف.

إذا تأملنا قصائد الشيخ موسى اللالتي التي كانت منطلق كتاب "كعبة الطائفين" وفحصناها نجدها تدور حول الموضوعات الآتية:

نصوص مدحية تدور حول الرسولρ تتحدث عن مولده ومعجزاته، كما تعرض لصفاته الخُلقية والخَلقية، فأشار إلى الجبين والوجه والقامة والكراديس، ودعاجة العينين، وقنب الأنف، ورحابة الصدر،.. ونوه بجميل صفاته وحميد خصاله، وكان كثير التوسل بجاهه، وتطرق الشاعر أيضا من خلال بعض المقاطع الشعرية إلى فكرة أسبقيته ρ في الكون (النور المحمدي)، أو ما يسمى بـ " نظرية الحقيقة المحمدية".

ثم يمضي في سياق ذلك للحديث عن صحابته ρ وبالأخص المقربين منه، ومنهم العشرة المبشرين بالجنة، كما أشار إلى أهل بيته الأطهار وزوجاته أمهات المؤمنين الأخيار، لينتهي به المقام إلى ذكر ورثته ρ أولياء الله المحمديين مشرقا ومغربا ومحليا.

يتضح لنا من خلال مضامين هذا النوع من القصائد أن موضوع الشاعر الأساس هو المديح النبوي كما أسلفنا، وكان فيما يبدو يحاول مجارات البوصيري في النسج على منوال "بردته"، بل كثيرا ما كان يستشهد بنماذج حية من منظومتها، ويبدو لنا أن الموضوع في جوهره وأغراضه ليس جديدا، فهو ليس غريبا على ثقافتنا الإسلامية، وقد شهدت الفترة التركية انتشارا كبيرا للمدائح النبوية، سواء تلك التي نظمت بالعامية أو الفصحى.

والنموذج الثاني تمثله قصائد "الحب الإلهي" التي كان الشاعر يطمح من خلالها إلى الارتشاف من هذا النبع السرمدي، ونعني بهذا النموذج قصائده التي تتحدّث عن "الله" في ذاته أوصفاته أو أسمائه أو في عظمة آثاره ودقة خلقه وعجائب قدرته ووفرة نعمائه على خلقه ورحمته بهم وإحسانه إليهم.

وجدير بالذكر أن موسى اللالتي كان ينأى بنفسه عن موضوعات التصوف الفلسفي التي حفل بها شعر أمثال: ابن عربي، وابن سبعين، وعفيف الدين التلمساني،..فلم يظهر لنا بوضوح مذهب "وحدة الوجود" أو " الاتحاد والحلول" في جملة النصوص الشعرية التي بين أيدينا، فالمغزى الذي تنشده تلك النصوص قائم على أساس الإقرار بعالمين متباعدين، عالم الحق وعالم الخلق (اللاهوت والناسوت)، وربما كان للمدرسة التي ينتمي إليها الشاعر تأثير في ذلك، ونعني بها مدرسة الشاذلي وتلميذه ابن عطاء الله السكندري، التي تستند إلى الشريعة الإسلامية نظرا وسلوكا.

وهناك نوع من قصائد شاعرنا موسى اللالتي تمثل ما نسمّيه "الاتجاه الرمزي" لأنه لم يقصد من معانيها دلالتها المباشرة، وإنما كان يصبو إلى دلالات أكثر خفاء، فهو يقوم على الإيحاء بدلا من التصريح، ويحتاج الكشف عن شفرة معانيه إلى شيئ من التبصر بالخطاب الصوفي وطرائقه، وقد تصدّى لهذه المهمة المؤلف محمد بن سليمان في تعليقاته وشروحاته في مستواها الثالث (الكشف عن المعنى الصوفي).

لقد طغت الصناعة الإيقاعية على نصوص الشيخ اللّالتي حتى لكأنك تسمع أنغاما وموسيقى تستثير القلوب، فالشعر الصوفي عامة إيقاعي في جوهره، خاصة إذا علمنا أن عددا من تلك النصوص الشعرية كان يتغنى بها في حلقات الحضرة "مجالس السماع والإنشاد" التي دأب عليها الشيخ اللالتي بمعية تلميذه محمد بن سليمان والمريدين، في حرم سيدي أبي مدين وفي بعض الفضاءات الأخرى.

* عندما عزمت على تحقيق الكتاب كان أول عمل قمت به هو البحث عن نسخه في فهارس المكتبات العربية والأجنبية، فتحصلت على أول نسخة مصورة، وهي نسخة المكتبة الوطنية بباريس، وهي النسخة الكاملة (النسخة الأم).

وقد تمكنت لاحقا من الحصول على ثلاثة نسخ أخرى، حيث سافرت في المرة الأولى إلى المغرب فتحصلت على نسخة مصورة (توجد ضمن مجموع) من المكتبة الوطنية بالرباط (الخزانة العامة سابقا)، ثم دخلت مصر فعثرت على نسخة للمخطوط بدار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة (نسخة مصورة ضمن مجموع)، والنسختان الأخيرتان متشابهتان ومتطابقتان إلى حدّ بعيد، وكأنهما نقلا عن مصدر واحد، أما النسخة الرابعة والأخيرة، فتحصلت عليها عبر الإنترنيت من مكتبة جامعة الملك سعود (قسم المخطوطات)، وهي نسخة رديئة ومهترئة، خطها دقيق وغير واضح، وتصعب قراءته بالمرة، ولم نعتمد عليها إلا في حدود ضيقة جدّا.

* وقد انتهجنا في التحقيق بعد حصولنا على النسخ المذكورة على مقابلة بعضها ببعض، فاتضح لنا أن نسخة باريس أوفى النسخ وأكملها وأفضلها، وأقل تصحيفا وتحريفا وسقطا، كما أن تاريخ نسخها متقدم على نسختي الرباط (ب) والرياض (د)، وليست بعيدة زمنيا عن نسخة القاهرة(ج)، لأنهما نسخا في قرن واحد (ق19م).

لاحظنا سقوط كثير من العبارات والنصوص والروايات في النسخ الثلاثة الأخرى، كما يتم التصرف فيها بصياغة كثير من العبارات والكلمات، بعبارات أخرى أو كلمات مرادفة لتلك الموجودة في نسخة (أ)، وأحيانا لا تكون ذات فائدة تذكر، إذ لا تزيد المعنى شيئا.

وعليه اتخذنا نسخة باريس (أ) أصلا لتحقيق الكتاب، فنقلنا منها المتن، واستعنا بالنسختين الأخريين نسختي (ب) و(ج) لتجلية النص، وتقويم ما اعترى الأصل من أخطاء مختلفة، وإكمال بعض السقط فيه على قلّته، وقمنا بضبط ما وجدناه من اختلاف بين النسخ وبين الأصل في الهوامش، وكنا نشير إلى السقط في الهوامش أيضا، أما نسخة الرياض فكنا لا نعود إليها إلاّ نادرا، كمحاولتنا إقامة بعض السقط، أو استبيان بعض الكلمات أو العبارات غير الواضحة أو المطموسة في النسخ الأخرى، نتيجة خروم أو مداد..

قمنا بعد ذلك بتقسيم المخطوط إلى فصول وعناوين للإيضاح وزيادة الفائدة، وأبرزنا الفقرات حسب المعنى، وقد كان قبل ذلك نصا واحدا متصلا في الغالب الأعم، ووضعنا علامات الترقيم المناسبة في مكانها لتسهيل القراءة، وميزنا أبيات القصائد (الفصيحة منها والشعبية) حيث كان كثيرا ما يكتبها الناسخ على شكل نص منثور، دون تمييز

الشطر الأول من الثاني، ثم قمنا بضبطها تيسيرا للقراءة، وقد تصرفنا في الرسم الإملائي طبقا للقواعد المتبعة في الكتابة العصرية في حدود لا تمس مضمون الكتاب، دون أن نشير لذلك في الهامش.

حذفنا بعض الكلمات أو العبارات المكررة التي تسرّبت إلى الكتاب سهوا من المؤلف أو الناسخ، وكنا نجتهد في إتمام البياض في الصفحات، ولم نكن نفعل ذلك إلاّ بعد تدقيق وتوثيق، مع الإشارة إلى ذلك في الهامش.

في الكتاب جملة من الألفاظ العامية الجزائرية، قد يستغلق فهمها على البعض، قمنا بشرحها في الهوامش شرحا مقتضبا، وشرحنا أيضا بعض الكلمات المستعصية من الفصيح، بالاعتماد على بعض معاجمنا العربية.

كما وردت في الكتاب طائفة لا بأس بها من المصطلحات الصوفية، فشرحنا في الهوامش ما كان يتطلب الشرح توضيحا للمعنى الصوفي، واعتمدنا في شرحها على المعاجم المتخصصة حينا، وعلى كتب القوم (التصوف) حينا آخر.

فيما يخص التراجم، يمكننا أن نميز بين نوعين، أعلام مشهورة كنا أحيانا نشير إلى المصادر والمراجع التي ترجمت لها بشكل مختصر وسريع، وهناك زمرة من الأعلام (خاصة المحليين منهم، الذين عاشوا زمن القرن 11هـ/17م)، اجتهدنا في التعريف بهم، في حدود ما وجدناه متاحا من كتب ومراجع، وإن كان كتاب " كعبة الطائفين" نفسه مصدرا مهما سيعوّل عليه الباحثون مستقبلا لتجلية هذا الجانب من تاريخنا، وتراجم مشايخنا وعلمائنا في تلك الفترة.

وعرّفنا ببعض الأماكن الجغرافية، وقد ذكر المؤلف طائفة من أسماء الأماكن (الطوبونيمات) المتعلقة بأحياء مدينة تلمسان، وقد وجدنا أن معظم تلك الأماكن مازالت تحمل الأسماء نفسها التي ذكرت بها في الكتاب (باب الجياد، المشور، سيدي السنوسي، العبّاد، أوزيدان، أجادير، بوهناق).

ثم قمنا بتخريج النصوص، فبدأنا بالنصوص الدينية (الآيات والأحاديث) حيث بيّنا مواضع آي الذكر الحكيم من السور في المتن وذلك لكثرة ورودها أولا، ولربح الحيز في الهامش ثانيا لضخامة المخطوط، وأتممنا ما لم يكن تاما منها، وخرّجنا الأحاديث الشريفة، إلّا ما لم نعثر عليه في كتب السنن المعروفة، رغم كثرتها وتنوعها بين الصحيح والموضوع والضعيف، فربما كانت تلك الأحاديث موضوعة أوهي من كلام السلف المأثور؛ خاصة أن الصوفية عرف عنهم التساهل في الاستشهاد بالضعيف من الأحاديث في فضائل الأعمال، ثم وثّقنا مااستطعنا الوصول إليه من النصوص (الشعرية والنثرية) برجوعنا إلى مظانها (الدواوين والمصادر الصوفية) تحديدا، كما عدنا إلى كتب التراجم الجزائرية والإسلامية، فالكتاب كما أشرنا متعدد الموضوعات والنقول، لذلك حاولنا جهدنا أن نعود إلى عدد من تلك المصادر للتأكد من سلامة النص وأمانة المؤلف ولتصويب ما كان خاطئا منها.

من بين مصادر المؤلف التي عدنا إليها نورد منها على سبيل الذكر:

- "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي
- "قواعد التصوف" لزرّوق
- " قطب العارفين في العقائد والتصوف" اللجائي أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف
- " ديوان ابن الفارض"
- "الحكم العطائية"، لابن عطاء الله السكندري، (شرح ابن عباد النفزي الرُّندي)..

وقمنا بوضع مجموعة من الرموز لتسهيل الاطلاع على الكتاب وتيسير عملنا، مثل:

- (أ) نسخة باريس. - (ب) نسخة الرباط.
- (ج) نسخة القاهرة. - (د) نسخة الرياض.
- القوسين المزهرين [] للدلالة على الآيات القرآنية
- المزدوجتين «» للدلالة على الأحاديث الشريفة، و أسماء الكتب الواردة في المتن
- المعكوفتين [ ] للدلالة على ما زيد في الأصل، ولتحديد الخروم والبياض في الأصل أيضا.

القوسين ( ) للدلالة على السقط في النسخ الأخرى، وتحديد مواضعه في الأصل.

قسمنا عملنا إلى ثلاثة أقسام:

- قسم الدراسة: تعرضنا فيه للحديث عن المؤلف وكتابه –من حيث الشكل والمضمون–، ولعلنا نكون قد أسهبنا في هذا الجانب، وذلك لإعطاء لمحة واسعة ومعمقة عن المؤلف ومصنّفه؛ خصوصا أنه لم ينشر شيء –تقريبا– عن حياته إذا استثنينا العمل الذي قدمه أبو القاسم سعد الله حول هذه الشخصية.
- قسم التحقيق: خصصناه لإخراج نص الكتاب مضبوطا محققا، وذيّلناه بخاتمة وثبت للمصادر والمراجع التي كانت معتمدنا في هذا العمل.
- قسم الفهارس: حيث قمنا بإثراء الكتاب بمجموعة من الفهارس التي تضبط الكتاب، وتيسر الاستفادة منه، ليسهل إيصال المعلومة المبتغاة إلى القارئ، وفي هذا الصدد قمنا بترتيب المواد المفهرسة ترتيبا ألفبائيا ثم رتبناها بحسب ورودها في المتن، وعليه صنفنا الفهارس إلى ما يلي:
- فهرس الأعلام والقبائل والأمم؛
- فهرس الأماكن والمواضع والبلدان؛
- فهرس أسماء الكتب الواردة في الكتاب؛
- فهرس الأمثال العربية (الفصيح منها والشعبي)؛
- ثم ختمت ذلك بفهرس عام للموضوعات.

يعتبر كتاب« كعبة الطائفين» مدونة تلمسانية جزائرية كبرى ذات قيمة تاريخية وصوفية وأدبية، تستحق عناية الباحثين والدارسين، وقد بذلت في سبيل إحياء هذا النص التراثي أقصى الجهود ، وسنعكف بعد انتهائنا من هذا العمل(إن شاء الله) على تحقيق الجزأين الثاني والثالث من الكتاب إحياء لتراثنا وحفظا له من الاندثار.

وفي الختام أسأل الله القبول والسداد، فهو على ذلك قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم في البدء والختام. تلمسان بتاريخ: 2013/04/17

ملخص:

تهدف الرسالة إلى إحياء نص تراثي جزائري تلمساني من القرن 11ه /17 يتمثل في مخطوط " كعبة الطائفين "(ج1)لمحمد بن سليمان التلمساني ،والمخطوط معدود ضمن كتب التصوف والمناقب ،منطلقه قصيدة شعبية صوفية نظمها شيخ المؤلف تدور حول الحب الإلهي والمديح النبوي ومناقب شيوخ التصوف ،وفي سياقه شرحه للقصيدة المذكورة تعرض المؤلف لجوانب مهمة من الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والتاريخية لتلمسان إبان الفترة التركية ،وتحديدا في القرن 17م .

ضمنا في القسم الأول دراسة مستفيضة عن المؤلف ومخطوطه، وفي قسمها الثاني قمنا بإخراج نص المخطوط مضبوطا ميسرا مقروءا، وأغنيناه بهوامش متنوعة توضح معناه وتقرب مراميه، وذيلناها في قسمها الثالث بفهارس لأبرز المواد الواردة فيها.

الكلمات المفتاحية :

التحقيق - التصوف - الأدب الشعبي - التراجم - تلمسان (ق 17م)

Résumé :

Cette recherche vise à authentifier un texte (manuscrit) du patrimoine algérien de Tlemcen. Il s'agit d'un manuscrit de Mohammed Ibn Soleimane Altilimsani écrit au XI^ème^ siècle de l'hégire, XVII^ème^ siècle de l'ère chrétienne). Ce texte est classé parmi des ouvrages du soufisme et la littérature des manakib. Il articulé autour d'un poème populaire soufi portant sur l'amour divin, l'éloge du prophète (SBSL) ainsi que la morale et les qualités des Maîtres ou « Cheikhs » Soufis. Dans son explication du poème, l'auteur révèle d'importants aspects de la vie culturelle, politique et historique de la région de Tlemcen pendant la période ottomane XVII^ème^ siècle.

Le premier chapitre porte, de façon détaillée, sur l'auteur et son manuscrit. Dans le deuxième chapitre, nous avons tenté d'authentifier le texte afin de rendre lisible et intelligible. Nous l'avons également commenté et enrichi par des notes explicatives et des index facilitant la consultation de son contenu

Mots clés : Authentification – Soufisme – Littérature populaire – Biographies – Tlemcen (XVII^ème^ siècle).

Abstract :

This thesis aims to revive an Algerian heritage manuscript that belongs to the XI^th^ century (Hegira or XVII^th^ century).It deals with the first part of "KAABAT AL TAIFINE" manuscript written by Mohammed Ibn Soleiman Altilimsani. This manuscript is regarded as one of the mystical ethical books based on a mystical popular poem that speaks about love of God and eulogy of the prophet. The poem also reflects other important cultural, social, historical and political aspects of life in Tlemcen during the Turkish period (XVII^th^ century).

The first chapter includes a detailed study of the author as well as the manuscript. The manuscript is being printed, simplified and explained clearly in the second chapter through footnotes. The third chapter of the thesis contains a glossary of the main important articles of the manuscript.

Keywords : Authentication – Sufism – popular Literature – Biographies – Tlemcen (XVII^th^ century).